التاريخ الشامل للمدينة المنورة

د/ عبد الباسط بدر

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

المدينة المنورة - ص.ب ٣٦٦٢
الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

فهرس الجزء الأول

المدينة المنورة قبل الإسلام (يثرب) ١١ ـ ١٢٥

المدينة المنورة في العهد النبوي ١٢٦ - ٣٢١

المدينة المنورة في العهد الراشدي ٢٥٢ ـ ٣٢١

المدينة المنورة في العهد الأموي ٣٢٢ - ٤٦٧

فهرس الجزء الثاني

المدينة المنورة في عهد العباسيين

المدينة في القرن الثالث الهجري

المدينة والدولة الفاطمية

المدينة في القرن السادس

المدينة في القرن السابع الهجري

المدينة في القرن الثامن

المدينة في القرن التاسع

المدينة المنورة في العهد العثماني

المدينة في القرن الحادي عشر :

المدينة في القرن الثاني عشر :

المدينة في القرن الثالث عشر الهجري

بداية العهد السعودي في المدينة المنورة

المدينة في عهد محمد علي باشا

المدينة تعود إلى السلطة العثمانية

فهرس الجزء الثالث

المدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري

الحياة العلمية في المدينة المنورة في العهد العثماني

المدينة المنورة في العهد الهاشمي

المدينة المنورة في العهد السعودي

التاريخ ... والعبرة

معالي أمين المدينة المنـــــــــــــــــورة
المهندس/ عبد العزيز عبد الرحمن الحصيّــن

كنت في يوم من الأيام أقرأ تاريخ إحدى المدن العربية، أهدانيه رئيس بلديتها، وأعجبني فيه تسلسل الوقائع التاريخية وشموليته. وبعد عودتي من رحلتي بحثت عن كتاب عن المدينة المنورة يشمل تاريخها منذ نشأتها الأولى حتى اليوم، لأهديه لكبار زوار الأمانة، للإطلاع على تاريخ هذا البلد الطاهر العريق، وهو أحق أن يهتم به، ولكن للأسف لم أجد في الكتب مايشفي الغليل، رغم أنها كثيرة ومتنوعة، وكل منها يهتم بجانب معين أو حقبة محددة.

ويوم قابلت الدكتور الفاضل / عبد الباسط بدر لإعداد كتاب مختصر عن المدينة المنورة وتاريخها لم يكن يدور في خلدي هذا التوسع الذي حدث في الكتاب، إلا أننى كنت مسروراً به، وكنت أتابع كتابته فصلاً فصلاً، ولا أنفك عن القراءة حتى أتِم الفصل.

لقد هالتني الأحداث الدموية المتتابعة في فصول تاريخ المدينة المنورة والتناحر على السلطة والنهب والسلب، حتى المسجد النبوي الشريف لم يسلم منها.

لقد استطاعت المدينة المنورة أن تحمل مشعل العلم والنور وأن تعم بإشعاعها العالم كله، فما الذي جعلها تتخلف كل هذا التخلف؟.

ولم يكن هذا الحال في المدينة المنورة فقط، فهي جزء مما يحيط بها وتتأثر بما يحدث بالجوار، وتاريخها يعتبر نموذجاً لما كان يحدث في الجزيرة العربية بعد الصدر الأول من الإسلام وطوال قرون متتالية لم تنعم فيها هذه البلاد بنعمة الأمن والاستقرار.

كان ذلك بسبب الجهل الذي خيم عليها وبعد أن استحكمت الاهواء وطغت الجاهلية القبلية فكانت رؤيتهم لاتتعدى أطراف أنوفهم.

والإسلام حينما وضع قانون الجماعة وأكد على عدم الخروج عنها، وعلى طاعة ولي الأمر، كان بالدرجة الأولى يحفظ مصالح المجتمع.

إننا لاندرك قيمة النعم إلا عندما نفقدها أو نرى من يفقدها، وفقد الهواء يسبب الموت، ولكن هل فكر أحد بهذه النعمة؟.

إن من يقرأ هذا السفر يدرك النعمة البالغة للأمن والاستقرار في بلادنا الغالية منذ توحيدها على يد الملك عبد العزيز طيب الله ثراه. إن السعيد من يعتبر بمن حوله ممن فقدوا هذه النعمة لامن يعتبر بفقدانها..

فهل من معتبر؟!.

عبد العزيز بن عبد الرحمن الحصين

أمين المدينة المنورة

تقديـــم

بقلم الأستاذ الدكتور محمد السيد الوكيل

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

يظن كثير من الناس أن التاريخ عبارة عن الأحداث التي تقع في فترة زمانية قريبة كانت أو بعيدة، ويرون أن سرد هذه الأحداث وتناولها بالأسلوب السهل، الذي يكشف طبيعتها، وينسبها إلى عصرها الحقيقي، وإلى من جرت على يديه، أو حدثت في عهده، هو الأسلوب الأمثل لكتابة التاريخ.

والحق أن دراسة التاريخ لا تأتي بسرد الأحداث، ولا يتذوقها الباحث بكتابتها بإسلوب سهل ميسر لكل قارئ، ولكنها تحتاج إلى عوامل ومؤثرات، تجعل أحداث التاريخ صورة حية للعصر الذي وقعت فيه، وتجعل الدارس يتقمص الشخصيات التاريخية، ويعيش مندمجا في طبيعتها بعيداً عن الخيال، قريباً من الحقيقة، ذلك لأن التاريخ هو المرآة الصادقة لكل أمة من الأمم، فهو لايعرف المجاملة، ولا يعترف بالمداهنة، ولا يقر النفاق، ولا يتعامل على أساسه، شأن الكتابات المزورة التي تكتب عادة في ظل الإرهاب الحاكم، وتحت مظلة الديكتاتورية المتسلطة.

إن التاريخ لايعبر عن عصره حقيقة إلا في رحاب الحرية التي تنطلق فيها الكلمة بغير قيود، ويعيش فيها المؤرخ بغير حدود، هنالك تجد الحدث الصادق، وترى الشخصيات في ميزان العدالة المطلقة، وحينئذ تلمس الصورة الحقيقية للفترة التاريخية التي تقرأ عنها، وبالتالي تستطيع أن تصدر الحكم الصحيح على هذه الفترة، بما لها وما عليها، لاتخاف من ذكر عيب، ولا تتورط في ذكر محاسن، لأن التاريخ الذي يكتب في ظل الإرهاب، ويفرض على المؤلف فرضاً تحت مظلة الديكتاتورية، ليس إلا قصيدة ثناء مزور،

وحديث مديح كاذب، ومن هنا لاتجد فيه حيوية التاريخ، ولا تحس فيه نبضه الدافق بالصدق ، فكلماته ميتة، وأحداثه نافقة، وتلمس في عباراته صورة النفاق مخزية هابطة.

ولعل اشتراط المؤرخين ألا يُبحث في الوثائق التاريخية إلا بعد مرور فترة كافية تمكن المؤلف من تسجيل الأحداث وهو آمن، كان من أجل منح المؤرخ حرية الكتابة بغير قيود، حتى يخرج التاريخ في صورته الصادقة، خالياً من التزوير والمجاملة.

وكتابة التاريخ على هذا النحو تخرج جيلا واعياً، تتكون شخصيته من خلال دراسته لتلك الأحداث ، فيقتدي بالمصلحين ، ويتقمص شخصية الأبطال المغاوير، ويعرف كيف يعالج ما يواجهه من الأخطاء، ثم يستطيع أن يحكم الحكم الصادق على الأحداث والأشخاص، ومن هنا نلمس بصدق تأثير دراسة التاريخ على شخصية الدارسين، لإنهم من خلال دراستهم يستخلصون العبر، ويستنبطون الدروس النافعة، ويستفيدون بها في حياتهم، وهذا هو الذي نفهمه من قوله تعالى(وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين)(١)

على أننا ينبغي أن نعلم أن أحداث التاريخ لن تتكلم إلا على لسان مؤرخ صادق الحس، يقظ الضمير ، ثاقب الفكر ، حريص على نقل الحقائق كما هي من غير تزوير ولا تشويه، ولهذا كانت مهمة المؤرخ شاقة وعسيرة، فهو يستقرئ الأحداث، ويصفها كما حدثت، ثم يحللها ليستنبط منها العبر والعظات.

والدراسة الوصفية للتاريخ هي إحدى الطرق التي استعملها جل المؤرخين، حتى لا يكلفوا أنفسهم عناء البحث عما وراء هذه الأحداث، فهم يكتفون بظواهر الأمور ويعرضون عما خفي منها، وعلى كل حال فهم يقدمون

---

١) سورة هود الآية ١٢٠

لنا الأحداث كما أدركوها، أو كما رويت لهم من الثقاة، ويدعون البحث والتحليل لمن يقدرون عليه ممن يأتون بعدهم.

وقليل من المؤرخين القدامى هم الذين أخذوا أنفسهم بإسلوب التحليل والإستنباط، فاستفاد المحدثون من طريقتهم، ونسجوا على منوالهم، فعللوا الأحداث، واستنبطوا من خلالها ما ينبغي أن يقفوا عنده، ونحن لانستطيع أن نقول: إن كل الاستنباطات صحيحة ويجب أن نقف عندها، بل هي جهد عقل بشري، قد يخطئ وقد يصيب، ولكنها على كل حال جهد قد يوصلنا إلى الحقيقة، وقد يفتح لنا الباب للوصول إلى تلك الحقيقة.

وتلك هي الطريقة المثلى في دراسة التاريخ، ولكنها مع الأسف استُغلت من بعض المؤرخين أحياناً استغلالا سيئاً، حيث كانوا يفسرون الأحداث التاريخية تبعاً لأهوائهم، ويربطونها بمفهومات تخدم مآربهم، وتبرر تصرفاتهم، ومن أمثلة ذلك، ما فسر به الماركسيون أحداث التاريخ بما سموه (التفسير المادي للتاريخ) فهم يربطون التطور البشري نحو الاشتراكية التي يدعون إليها، بالتطور الحضاري، فالإنسان سيمر بالطور الزراعي، ثم يتخطاه إلى الطور الصناعي، ثم يعبر منه إلى الإشتراكية، وقد فشلت هذه النظرية المبنية أساساً على التفسير المادي، وقبل أن تصل البشرية إلى المرحلة الأخيرة - بعد أن قطعت المرحلتين الأوليين - انهارت الدولة صاحبة التفسير المادي، وتفرقت أيدي سبا، ولم يعد لها ولا لتفسيرها المادي ما يبرر وجودهما.

وعلى كل حال فإن مهمة المؤرخ بعد التحليل والإستنباط، أن يبذل جهده لربط الأحداث بعضها ببعض، ويبرزها في سلسلة متناسقة، حتى تتم الصورة، وتتضح المعالم، ولا شك أن تسلسل الوقائع والربط بينها بإسلوب التحليل والتنسيق، مما يسهل مهمة الدارس ويضع الأمور في مواضعها التي تساعد على الاستفادة، واستخلاص العبر، وهما من أهم غايات دراسة

التاريخ.

والتاريخ بنوعيه: السياسي والحضاري يسير في اتجاه واحد، ويخدم غاية واحدة، وأقصد هنا بالتاريخ الحضاري ؛ التاريخ الذي يتناول الأوضاع الإجتماعية والأخلاقية والاقتصادية، ويوضح أثرها في تقدم البلاد ورقيها، وهما بدون شك مرتبطان برباط وثيق ومن الصعب جداً الفصل بينهما، بحيث يصبح كل نوع منهما يتجه في طريق مخالف لطريق الآخر، لأننا عندما نتناول فترة سياسية معينة، نجد أنفسنا نتكلم عما تم في هذه الحقبة من الإصلاحات الاجتماعية وما صاحبها من الأوضاع الأخلاقية، ونلاحظ أن هذا كله له صلة وثيقة بالجانب الإقتصادي.

وفي الجانب الآخر إذا حاولنا أن نتناول التاريخ الحضاري، نجدنا مضطرين لأن نتكلم عن الأوضاع السياسية التي في ظلها نمت هذه الحضارة، وأخذت خصائصها المميزة لها، فنحن لا نتصور أن وضعاً حضارياً ما، ظهر ونما إلا في ظل أوضاع سياسية، وكذلك لا نستطيع أن نفهم أن أوضاعاً سياسية أخذت وضعها التاريخي المميز دون أن تنشأ في ظلها حضارة ما.

وينبغي أن نفهم الحضارة التي تنشأ في أحضان السياسة، تكون متأثرة قليلا أو كثيراً بمفهوم هذه السياسة، فكلما كانت السياسة حرة طليقة تدرك بسهولة مدى التقدم الحضاري الذي أفرزته هذه السياسة، وكلما وجدت حضارة متعثرة، لاتستطيع النهوض، ولا تقوى على المنافسة، تدرك على الفور مدى الجمود السياسي الذي نشأت في أحضانه تلك الحضارة.

والموضوعية في كتابة التاريخ، هي ثالثة المهام التي يضطلع بها المؤرخ، ذلك لأن التاريخ أحداث ووقائع جرت فصولها في وقت ما، وتناولها بموضوعية هو الذي يجدد الإطار الذي يبرزها في صورتها الحقيقية، وهو كذلك الذي يبعدها عن الخيال المجنح الذي يطير بها بعيداً حتى تخرج عن إطار التاريخ.

والموضوعية تقتضي أن يكون المؤرخ متجرداً من كل الميول المؤثرة على الحادثة، حتى تكتب ويقرأها القارئ، وكأنه يشاهدها أمام عينيه ماثلة لتوها، وأؤكد على هذا التجرد خاصة عند التحليل والاستنباط، حتى تكون نتيجة التحليل بعيدة تماماً عن التحيز والميل إلى جانب خاص، وعلى المؤرخ إذا شعر بميل ما إلى ناحية معينة، سواء كان هذا الميل بتأثير العاطفة، أو بالوقوع تحت ضغوط نفسية أو خارجية، عليه أن يتوقف عن الكتابة أو الكلام في الموضوع، حتى يجاهد نفسه لإزالة هذا الميل، ويشعر بالتجرد التام عن هذا الميل الذي طرأ عليه.

إن التحليل يكون عادة لاستنتاج أمور يترتب عليها الحكم على صانعي هذه الفترة التاريخية، ولا يمكن أن يكون الحكم عادلا ونزيهاً إلا إذا تجرد الحاكم من كل الميول المؤثرة التي تبعد حكمه عن العدالة والنزاهة، ومن هنا كان لابد من التجرد التام، وهو ما نسميه الموضوعية في تناول الأحداث التاريخية.

وكتابنا الذي بين أيدينا [تاريخ المدينة المنورة قديماً وحديثاً] كتاب نادر، قلما تجد ما فيه من المعلومات قد جمعت في كتاب واحد غير هذا الكتاب، ولا يحتاج جهد المؤلف الدكتور عبد الباسط بدر بعد الاطلاع على هذا الكتاب إلى تقريظ أو اشادة، فالكتاب يحمل في طياته وبين أسطره أكثر مما يكتبه أي مقرظ أو مشيد لمؤلفه.

فالكتاب يتناول تاريخ المدينة النبوية منذ نشأتها، وحتى عصرنا الحاضر، كيف بدأت يثرب وجودها والتطورات التي طرأت عليها؟ وما منزلتها في الجزيرة العربية قبل الإسلام؟ وماذا كانت بعد هجرة المسلمين إليها؟ ثم يمضي الزمان، ويمضي في ركابه التاريخ يسجل الأحداث صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، نعيمها وبؤسها.

والمدينة برغم هذه الأحداث مهوى قلوب المؤمنين، ومحط أفئدة

الصالحين، والكتاب بين يديك يضعك في مواقع الأحداث، حتى كأنك تراها رأى العين، وتشاهدها فلا يغيب عنك من أطوارها شيء، فإذا مررت بطور من أطوار النعيم تحس قلبك يخفق بين أضلاعك، وكأنه يرقص طرباً لما فيه أهل المدينة من النعيم، وبالعكس تماماً إذا مررت بطور من أطوار البؤس الذي عاشته المدينة المقدسة.

ولم يكن المؤلف ـ وفقه الله ـ مجرد ناقل للأحداث، ولا جامع للوقائع، ولكنه كان مع ذلك ناقداً بصيراً، فنحن نراه مثلا ينتقد خطة فخري باشا قائد الجيش العثماني في المدينة، وذلك حين تراجع عن محاصرة الشريف فيصل ليرد هجوماً لعبد الكريم بن بديوي، واستمر في تراجعه عن الحصار حتى عاد إلى المدينة، يقول المؤلف: (كان انسحاب فخري باشا ناجحاً من الناحية التنفيذية، ولكنه كان خطأ كبيراً من الناحية العسكرية، لأنه كان يملك حسم الموقف نهائياً لصالحه، وكان في إمكانه طلب المدد من عسكره في المدينة ليحمي ظهره، ويبعد عنه عبد الكريم بن بديوي .... ولو اقتحم الخيف الذي لجأ إليه فيصل ورجاله وأسرهم لانتهت هذه الجبهة تماماً، ولاستطاع أن يرد على المدمرات الانجليزية، ويبسط سلطان الدولة على المنطقة كلها، بل ويحاصر الشريف حسين ورجاله الذين لم يكونوا حسموا الأمور لصالحهم بعد).

وكما انتقد المؤلف فخري باشا في هذه الهفوة العسكرية التي وقع فيها كقائد عسكري انتقد كذلك الشريف حيدر باشا الذي عينته الدولة العثمانية حاكماً على الحجاز، وقد أرادوا بذلك مواجهة الشريف حسين بابن عمه، حتى تكون المواجهة بين أنداد لعلها تفيد في التفاف الناس حول الشريف الجديد والانفضاض عن الشريف الثائر.

وقد استُقبل الشريف حيدر باشا في المدينة استقبالا حافلا من قبل فخري باشا وأعيان المدينة، ولما حضر ممثلوا القبائل الموالية للعثمانيين

قابلهم حيدر باشا بفتور، وفي الوقت نفسه عرض عليه سلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود أن يتعاونا معاً للقضاء على ثورة الشريف حسين فلم يقبل.

فكان تصرفه مع ممثلي القبائل، ورفضه للتعاون مع سلطان نجد، محل نقد لاذع من المؤلف، حيث ترتب على عدم حسن استقباله لممثلي القبائل ما أغضبهم وجعلهم ينفرون منه، وينحازون إلى الشريف حسين الثائر ضد العثمانيين.

وأما رفضه التعاون مع السلطان عبد العزيز آل سعود، فقد ضيع على الدولة العثمانية فرصة ذهبية كان يمكنها فيها القضاء على الشريف الثائر، ووضع حد لممارساته ضد الدولة، حيث كان السلطان عبد العزيز لدية قوة كبيرة من الجنود الذين هم من أهل الجزيزة، والمستعدون للموت في سبيل إعادة دولة الإسلام، كما كانت العلاقات بين السلطان عبد العزيز والشريف حسين متوترة للغاية .

ولعل سبب رفض الشريف حيدر، والقائد فخري باشا قبله، التعاون مع السلطان عبد العزيز هو شعورهم بأن عبد العزيز يعمل على إقامة دولة إسلامية تحكم بكتاب الله، وتستهدي بسنة رسوله، وفي الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تحت سيطرة (الاتحاديين) العلمانيين الذين كان هدفهم القضاء على الخلافة الإسلامية، وإقامة دولة علمانية لادينية .

يقول المؤلف: (المهم أن حيدر باشا وفخري باشا لم يكونا واقعيين، ولم يستفيدا من الفرص الكثيرة التي سنحت لهما لإقامة جبهة طويلة عريضة ضد الشريف حسين وأبنائه.

والمؤلف ذكر التعاون بين الإنجليز وبين الشريف الثائر، وكان تعاونهما واضحاً وبخاصة في معركة ينبع بعد أن انسحب فخري باشا، وترك الميدان فارغاً للشريف. ولعل المؤلف لم يعلق على هذا التعاون بين الأشراف ـ مع

الأسف ـ وبين الإنجليز لأن عواره واضح، وخزيه فاضح، وهو أمر يندى له جبين كل مسلم حر.

وهكذا كان المؤلف ناقداً ومؤرخاً في وقت أشد مايكون فيه التاريخ الإسلامي بحاجة إلى مؤرخ ناقد وبصير.

والله أسأل أن يجعل الكتاب ثقلا في ميزان مؤلفه. نافعاً لكل من يقرؤه. إنه سميع مجيب. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبة وسلم .

الدكتور : محمد السيد الوكيل

أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة

الإسلامية بالمدينة المنورة سابقاً

المدينة المنورة قبل الإسلام
يثرب

التأسيس

يقتضي البحث عن تأسيس أية مدينة عريقة أن نتلمس طريقنا بحذر، فالتاريخ الموغل في القدم ليس إلا مجموعة روايات شفهية ، تناقلتها أجيال كثيرة متعاقبة، ولايعلم إلا الله متى بدأت، وكم تغيرت زيادة ونقصانا خلال رحلتها الطويلة إلينا، وبخاصة إذا لم تكن لدينا نقوش قديمة أو مكتشفات أثرية أخرى تساعدنا على الوصول إلى الحقيقة.

غير أن الحديث عن **تَأسيس المدينة المنورة** له ميزة خاصة، ذلك أن مكانتها الكبيرة في نفوس المسلمين، منذ أن هاجر إليها رسول الله ﷺ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. تلك المكانة ، جعلت الباحثين يجتهدون في التنقيب وسط المجاهيل المغلقة، ويلتقطون الروايات، ويمحصونها بعناية، وينقونها من الأساطير والخرافات، ويأخذون أقربها إلى المنطق والمعقول.

فقد اهتم المسلمون بتاريخ المدينة المنورة منذ أن بدؤوا بتدوين تاريخهم وعلومهم اهتماما كبيرا، وبحثوا قضية تأسيسها، وناقشوا الروايات التي وصلتهم، وسوف نستعرض هذه الروايات، ونتلمس أخبارا أخرى من المصادر التي لم تصلهم، لنصل إلى الإجابة الصحيحة، أو الأقرب إلى الصحة، عن الأسئلة المهمة والملحة: من أسس المدينة؟ ومتى أسسها؟ ولماذا؟

إن أفضل بداية ننطلق منها للبحث عن الجواب هي ما صح لدينا صحة مطلقة لايرقى اليها الشك إطلاقا، كلام الله تعالى، ثم حديث رسول الله ﷺ الذي أثبت العلماء صحته.

ففي القرآن الكريم ما يدلنا دلالة قطعية على أن المدينة المنورة كان اسمها **يثرب** ، فقد ورد هذا الاسم في قوله تعالى على لسان بعض

المنافقين: ﴿وإذ قالت طائفة منهم: ياأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا﴾(١).

وورد في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ غير اسمها من يثرب إلى المدينة ونهى عن استخدام اسمها القديم (٢)، ولم يرد في الحديث سبب تغيير الاسم، وذكر لها أسماء أخرى في أحاديث تالية، (٣)، وليس في نص الحديث ما يشير إلى سبب العدول عن اسمها القديم.. غير أن بعض المفسرين وشراح الحديث يرون ان معنى كلمة يثرب (وهو التثريب)(٤) قد يكون السبب الرئيسي لهذا التغيير.

وعلى أي حال فإن النهي عن استخدام الاسم القديم يعني إعطاء هوية جديدة يربطها بالإسلام ربطا نهائيا. وهذا الربط لايمنعنا من البحث عن جذور المدينة بل يشجعنا على التنقيب عن أصولها الأولى وأحوالها في العهود الطويلة قبل الاسلام. لنتبين بشكل أوضح حجم التغيير الذي أحدثه الإسلام في جوانبها كلها... بدءاً بالجانب العقدي ووصولا الى الجانب العمراني...

وسنسير الآن مع (يثرب) ونبحث عن جذورها..... منذ مرحلة التأسيس الأولى.

---

١) الأحزاب ١٣

٢) ورد في مسند الإمام أحمد قوله ﷺ : من قال للمدينة يثرب فليستغفر الله . وفي رواية أخرى : من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله عز وجل ، هي طابة ، هي طابة . انظر : مسند الامام أحمد ٢٨٥/٤ . وورد في صحيح البخاري قوله ﷺ : هذه طابة ٢ /٢٢١

٣) انظر ملحق الأحاديث النبويه الواردة في المدينة في القسم الأخير من هذا الكتاب

٤) جاء في لسان العرب : التثريب : الاستقصاء في اللوم ، والتثريب : الافساد والتخليط . انظر : لسان العرب ، مادة : ثرب ، وانظر : السهيلي ، الروض الأنف ١٥٢

فمن أسسها ؟ ومتـــى؟:

تجمع معظم المصادر العربية على ان (**يثرب**) اسم لرجل من أحفاد نوح عليه السلام، وأن هذا الرجل أســس هذه البلدة فسميت باسمه، ولكنها تختلف في عدد الأجيال التي تفصل (يثرب) عن جده (نوح) عليه السلام، وفي بعض أسماء سلسلة الآباء والأبناء. ويعرض السمهودي - سيد مؤرخي المدينة المنورة - الآراء المختلفة كلها(١). ففي إحدى الروايات نجد يثرب في الجيل الثامن بعد نوح، فهو (يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوض بن ارم بن سام بن نوح). وفي روايه أخرى نجده في الجيل الخامس (يثرب بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح). وفي روايه ثالثه لانعرف من أي جيل هو.. لكنه من بنى (عملاق) بن ارفخشذ بن سام بن نوح.. وكلمة بني هنا لاتعنى الابن المباشر، بل تعنى حفيدا لا ندري عدد الآباء الذين يفصلون بينه وبين الجد الكبير..

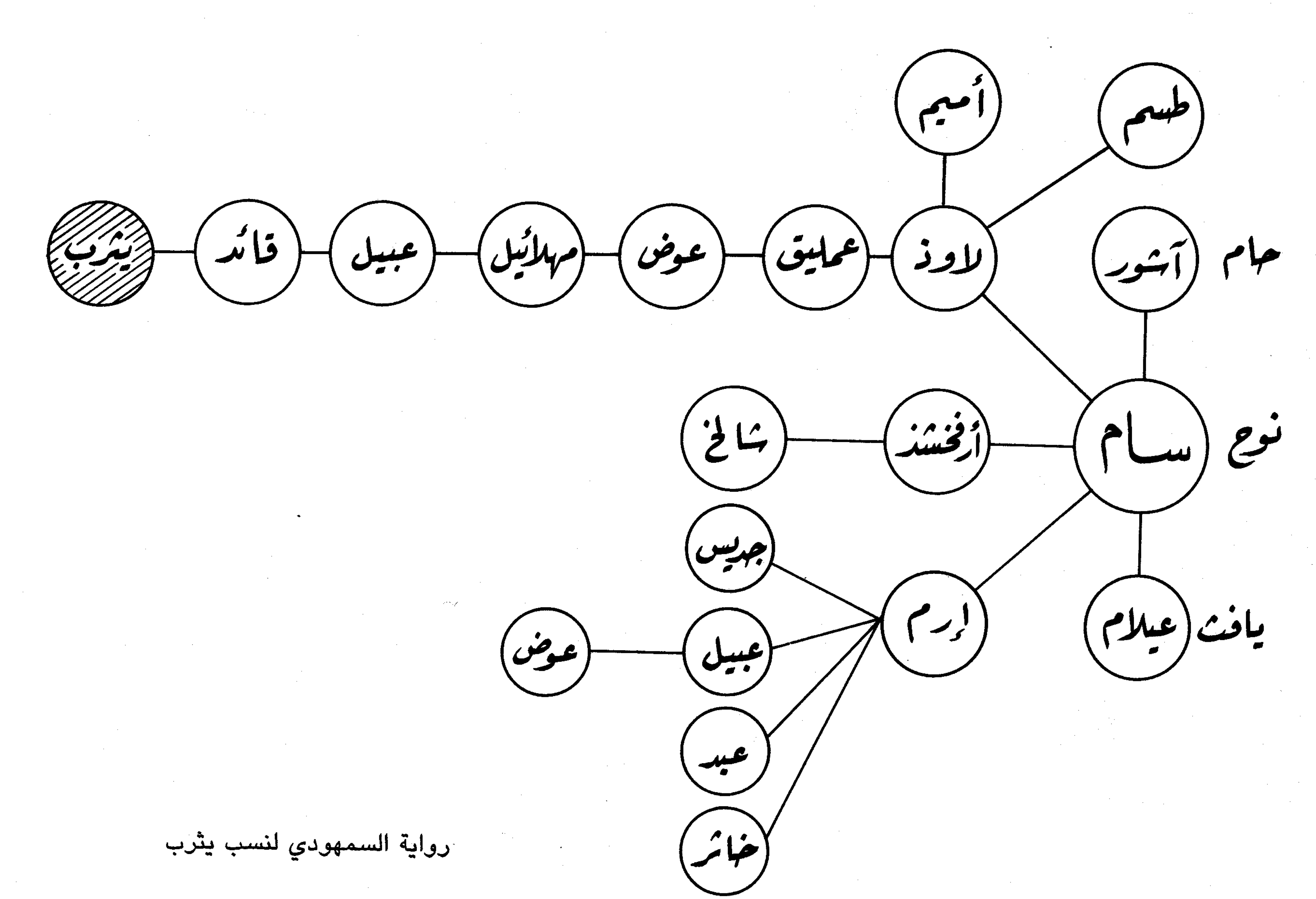
وفضلا عن هذاالخلاف في عدد الأجيال التاليه لنوح هناك خلاف حول أسماء الآباء، فبينما هو عند الطبرى من أحفاد إرم بن سام نجده عند السهيلي من أحفاد لاوذ بن سام بن نوح.. وقد أخذ ابن خلدون برواية السهيلي ورأى انها أصح وأوجه.

ولهذا الخلاف أثر في تقرير أية قبيله سكنت يثرب أول الأمر، فحسب سلسلة الطبري تكون قبيلة عبيل هي أول سكان يثرب، ويكون العماليق أول سكانها حسب رواية السهيلي وابن خلدون، والرواية الثانية تلغي حدثا تاريخيا كبيرا يقره الطبري ، وهو أن العماليق حاربوا أبناء عبيل واستخلصوا يثرب من أيديهم، فخرج العبيليون إلى موقع على طريق مكة فجحفهم السيل وسمي ذلك الموقع الجحفة، وما زال يحمل اسمه هذا حتى اليوم.

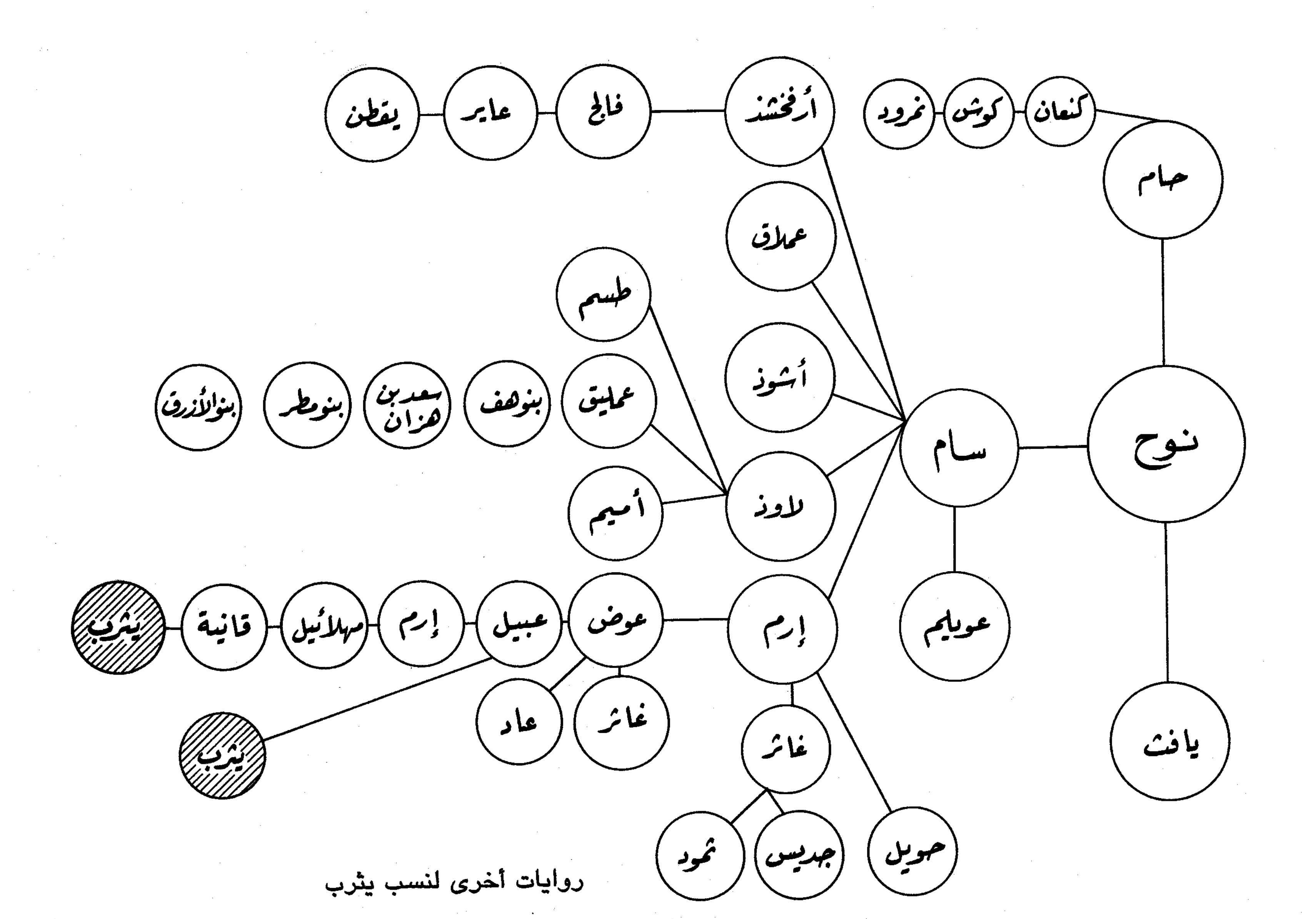
وسواء كانت رواية الطبري هي الصحيحة أو رواية ابن خلدون، فان

---

١) انظر: السمهودي : وفاء الوفاء ١/١٥٦-١٥٧



رواية السمهودي لنسب يثرب



روايات أخرى لنسب يثرب

النتيجة التى تنتهي اليها الروايتان هي: استيطان العماليق في يثرب في وقت لانستطيع أن نحدده تحديدا دقيقا.

وليس بعجيب أن يرتبط اسم البلدة باسم مؤسسها، فقد كان هذا الأمر شائعا في الحضارات القديمة.. وامتد إلى عصور لاحقة، ونجد عددا من المدن العريقة قد سميت باسم مؤسسها أوالحاكم الذي انشئت في عهده، كالاسكندرية نسبة الى الاسكندر.

وقد شاع هذا الاسم (يثرب) قديما، ووجد في نقوش وكتلبات تاريخية غير عربية بهجاء قريب جدا من اللفظ العربي، ففي جغرافية بطليموس عرفت باسم yathripa (يثربا) وعند اسطفان البيزنطي (يثرب). وكان اسطفان يسميها أحيانا بالكلمة الأولى، فيذكرها باسم medinat أو mdinto ووجد اسمها في نقش على عمود في حران يؤرخ للملك البابلي نبونبيد باسم itribo اتريبو...(١). وهذه الألفاظ تتصل جميعها باللفظ العربي الأصلي يثرب، وتؤكد قدم التسمية وانتشارها.

وأما **سبب تأسيسها** فنجد في المصادر العربية أكثر من رواية، تختلف باختلاف المؤسس الذى تعتمده، فالذين نسبوا يثرب إلى أحد أحفاد نوح القريبين أو البعيدين يذهبون إلى أن تكاثر أبناء نوح جعل المنطقة التي نزلوها بعد الطوفان تضيق بهم، الأمر الذي دفع مجموعات منهم إلى الغرب بحثا عن مقام جديد يوفر لهم متطلباتهم (٢) وكان من نصيب فرع عبيل أن يصلوا إلى موضع يثرب ويعجبهم مافيه من ماء وشجر وحرات تحيط به وتشكل حماية طبيعية له، فاستقروا فيه. ويبدو أن يثرب كان زعيم ذلك الفرع، وإلا لما استطاع أن يبني المدينة ويوطن القوم فيها.

وترجع بعض الروايات سبب خروج عبيل إلى الضلال الذى وقع فيه أحد

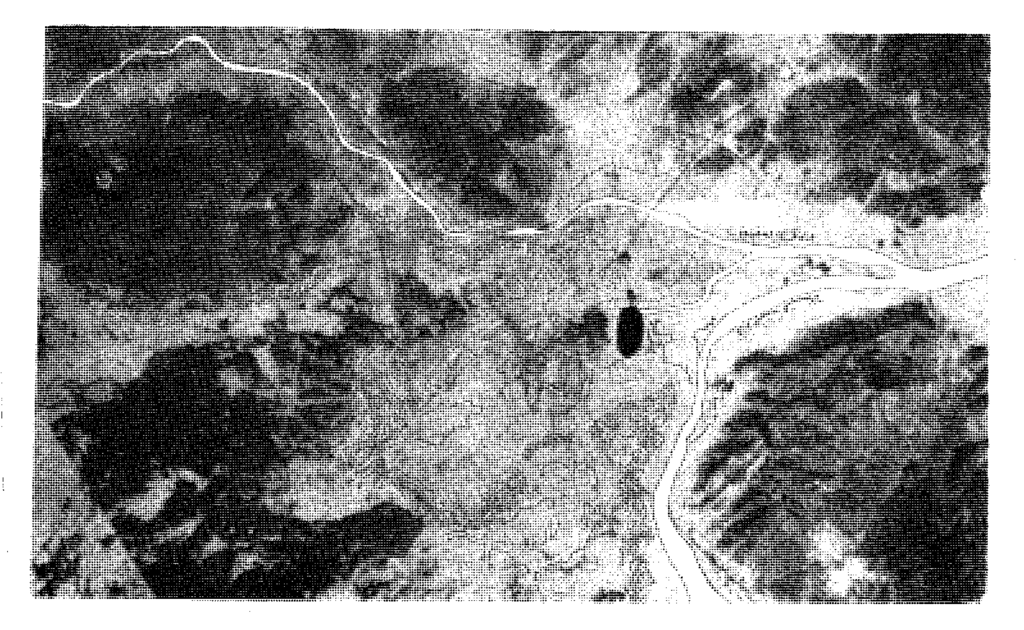
---

١) انظر : جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١/ ٦١٤

٢) الطبري ١/ ٢٠٣



موقع المدينة المنورة ـ يثرب قديماً ـ في قلب العالم الإسلامي



صورة جوية تبين موقع يثرب وسط الجبال والأودية التي كانت تسيل بالماء معظم أيام السنة

يثرب

مقياس الرسم

١ كم

الخندق .

أطلال حصون سابقة للإسلام .

المسجد النبوي .

مساجد .

مستوطنات سابقة للإسلام واندثرت بعد ظهور الإسلام .

مستوطنات سابقة للإسلام واستمرت في فجر الإسلام .

مستوطنات ظهرت في عهد الإسلام .

الحرات الحديثة

أودية

المنطقة المبنية ١٣٩٨ هـ .

يثرب النواة الأولى للاستقرار البشري في المدينة المنورة (يثرب)

مخطط لموقع يثرب وقد وُضعت المعالم التي ظهرت فيما بعد لتساعد على تحديد موقع يثرب الأول

ملوك بابل من أحفاد نوح (نمرود بن كوش بن كنعان بن نوح) فقد دعا قومه إلى عبادة الأوثان، ففعلوا، فعاقبهم الله ببلبلة ألسنتهم، فجعل لايعرف بعضهم كلام بعض(١) وخرجوا من بابل، ولحق كل قبيل بمكان، وكان من نصيب عبيل أن تلحق بموضع يثرب.

أما الذين ينسبون تأسيس يثرب الى العماليق (٢) فيذهبون إلى أن العماليق كانوا يستوطنون تهامة من أرض الحجاز، وذلك بعد نزولهم من بابل، وأنهم بقوا فيها إلى عهد إسماعيل عليه السلام، فآمن به بعضهم، واطرد لهم الملك على منطقة الحرم إلى عهد ملكهم السميدع بن لاوذ بن عميلق، ولا ندري في أي جيل من أجيال أحفاد نوح كان السميدع، حيث اجتاحتهم قبائل جرهم، الذين تزوج منهم إسماعيل عليه السلام فيما بعد، فخرجوا من المنطقة، وتفرقوا في الجزيرة العربية، ونزل نفر منهم في موضع يثرب فأسسوها. ونذكر هنا أن أصحاب هذا الرأي يقررون أن يثرب اسم رجل من (عبيل)، وأن (عبيل) جزء من العماليق.

نخلص من ذلك كله الى أن تأسيس يثرب كان على يد رجل يتزعم مجموعة بشرية، هاجرت من موطنها الأصلي - بابل في الرواية الأولى، وتهامة في الرواية الثانية - تبحث عن موطن جديد يوفر لها حياة كريمة، وأن هذه المجموعة وجدت في هذا الموقع أرضا خصبة، وشجراً كثيفاً، وماءاً وفيراً، ووجدت أن هذا الموقع أيضا يوفر لها قدراً من الحماية الطبيعية، فاستقرت فيه، وحولته إلى مدينة، وسمته باسم زعيمها يثرب.

وهذا مانرتاح إليه من جملة الروايات التاريخية في المصادر العربية، لأنه متوافق مع المنهج الذي كانت تسلكة الأمم القديمة في حركتها، وإقامتها،

---

١) الطبري ٢٠٧/١

٢) ابن خلدون ٣٠/٢

وتأسيس مدنها . (١).

إضافة إلى الروايات السابقة هناك ثلاث روايات مختلفة، تنسب تأسيس يثرب إلى اليهود، وإلى صعل وفالج، وإلى الأوس والخزرج.

وتقرر **الرواية الأولى** أن موسى عليه السلام حج ومعه أناس من بني إسرائيل، وبينما هم في طريق عودتهم أتو على موقع يثرب، فرأوا أن صفات هذا الموقع توافق صفات الموقع الذي ذكرت التوراة أن خاتم النبيين سيبعث فيه، ((فاشتورت طائفة منهم على أن يتخلفوا به، فنزلوا بموقع سوق قنيقاع، ثم تألفت اليهم أناس من العرب فرجعوا على دينهم، فكانو أول من سكن موضع المدينة)) (٢).

وعقب السمهودي على هذه الرواية بعبارة تلغي نسبة تأسيس يثرب إلى اليهود فقال: ((وذكر بعض أهل التواريخ أن قوما من العمالقة سكنوه قبلهم، قلت: وهو الأرجح)) (٣) ويؤيد ترجيح السمهودي أننا لانجد في المصادر العربية الأخرى ما يؤيد تلك الرواية، فالروايات الأخرى جميعها تجعل وصول اليهود إلى يثرب في عهد العماليق... وثمة رواية واحدة فقط تجعله في عهد صعل وفالج.. ولانجد في المصادر اليهودية القديمة والحديثة ما يبيّن أن اليهود قد أسسوا يثرب. ولو أنهم كانوا مؤسسيها فعلاً لما سكتت أسفارهم عنها... وعلى العكس من ذلك، يشير (اسرائيل ولفنستون) إلى أن اليهود عندما هاجروا نزلوا في مدن مأهولة قبلهم، منها مدينة يثرب (٤).

ومما ينقض رواية تأسيس اليهود ليثرب هو اسم يثرب نفسه، فلا يعقل

---

١) أنظر أمثلة لذلك تأسيس مدن السومريين والبابليين والمصريين القدماء في : قصة الحضارة :١٤/٢ ، ٦٥/٢ . ٢٦٥/٣

٢) وفاء الوفاء: ١٥٧/١

٣) السابق نفسه

٤) انظر : اسرائيل ولفنستون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ١٥

أن يؤسس اليهود مدينة يسمونها باسم غير يهودي... فكيف باسم رجل من العماليق، ألد خصومهم آنئذ (١).

وأما **الرواية الثانية** فتنسب تأسيس يثرب إلى صعل وفالج، وقد أوردها السمهودي نقلا عن ابن زبالة (٢) والمدهش أن صعل وفالج اسمان مجهولان في شجرة الأنساب العربية القديمة..لم يذكرهما أي من مؤرخي القبائل العربية البائدة، ولا كتب التاريخ القديمة. وقد جعلهم ابن زبالة في موقع العماليق، حيث يغزوهم النبي داود عليه السلام ويأخذ منهم مئة ألف عذراء. ووجود مثل هذا العدد من العذارى في قبيلة صعل وفالج يعني أن عددهم كان ضخماً جداً، لايمكن أن تكون يثرب القديمة قد وصلت اليه... بل لانجد تجمعا بشريا في مدينة من مدن شبه الجزيرة العربية القديمة كلها قد بلغ هذا المبلغ... والاحتمال الوحيد والضعيف في هذه الرواية: أن تكون صعل وفالج قبيلة من قبائل العماليق، كانت تستوطن بعض مناطق يثرب عندما وصل إليها اليهود، سواء في عهد داود عليه السلام أو في عهد ملك آخر.

والجدير بالذكر أن هذه الرواية ليس لها ما يدعمها في كتب التارخ العربية ولا في المصادر اليهودية التي اطلعنا عليها.

وأما **الرواية الثالثة** - ويرويها ابن كثير - فتجعل الأوس والخزرج هم الذين أسسوا يثرب، وتقرر أنهم بعد أن سكنوها بقليل نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود، هم: بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير، فحالفوهم، وأقاموا بجوارهم (٣).

ولا نجد مؤرخا آخر يأخذ بهذه الرواية. وعلى العكس تماما. فهناك إجماع بين الروايات الأخرى - حتى التي نرفضها - على أن الأوس والخزرج

---

١) سنعرض للخصومة بين اليهود والعماليق في فصل: اليهود في يثرب

٢) انظر وفاء الوفاء ١٦٥/١

٣) انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ١٤٨/٢-١٤٩

جاؤوا إلى يثرب بعد مدة طويلة من تأسيسها.....

ويبقى لنا من تمحيص الروايات السابقة كلها : أن تأسيس يثرب كان على يد مجموعة بشرية مهاجرة، تبحث عن موطن يوفر لها الطعام والأمان.

وهنا ينهض سؤال آخر: متى حدث ذلك ؟؟. هل يمكن تحديد **تاريخ تقريبي لتأسيس يثرب ؟؟**

رأينا أن المؤرخين العرب ينسبون تأسيس يثرب إلى أحد أحفاد نوح القريبين (الرابع أوالثامن) فأين تقع هذه الأجيال؟؟ وفي أي قرن - ولا يمكن أن نقول في أي عام - قبل الهجرة النبوية أنشأ (يثرب) المدينة التى سميت باسمه؟..

من المستحيل أن نجزم بمدة محدده، فنحن لانعرف على وجه اليقين كم من القرون تفصل بين نوح والهجرة النبوية. وما ذكره بعض المؤرخين روايات شفهية لاتستند إلى دليل مرجح.. كل ما يمكن أن نتوقعه هو أن قرونا كثيرة تفصل ما بين تأسيس يثرب وهجرة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم إليها. وإذا أخذنا في الحسبان أن تلك الأجيال كانت تعيش عمراً مديداً، ازداد عدد تلك القرون، فمن الثابت في كتاب الله تعالى أن نوحاً لبث في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما (١) ومعنى ذلك أنه عاش أكثر من تلك المدة ، ويقدر الطبري حياته بألف ومائتين وست وثلاثين سنة.... ويقدر أعمار بعض أحفاده في الأجيال التالية بأقل من ذلك.... ونلاحظ أن خط الأعمار يهبط كلما تقدمنا في الزمن الى البعثة النبوية، فإذا وصلنا إلى إبراهيم عليه السلام وجدنا بعض الرواة يقدرون أنه عاش مائتي سنة.

المهم أن تأسيس يثرب كان في عهود سحيقة، وفي حياة أمم انقرضت... فعبيل التي ينتسب اليها يثرب من الأمم البائدة. وكذلك معظم الأمم التي عاصرتها. ولا توجد لدينا أثار أو حفريات تساعدنا على تقدير مدة

---

١) انظر : سورة العنكبوت الآية ١٤

زمنية تقريبية.. والروايات التي نجدها في بعض كتب التاريخ والتي تحدد المدة ما بين الأنبياء لا نملك دليلا يؤيدها.

وإذا سلّمنا بأن عبيل مع قبائل أخرى من أوائل من كانت تتكلم العربية، فإن بعض مؤرخينا يقدر عمر العربية بـ(١٦٠٠) سنة قبل الهجرة.. وبذلك يكون هذا التاريخ التقريبي حداً احتمالياً ليس أكثر.

ولكن ثمة إشارات إلى مدينة يثرب نجدها في الكتابات التاريخية القديمة وبعض الآثار المكتشفة، تعود بنا الى ما قبل هذا التاريخ، وتقنعنا بأن يثرب كانت موجودة آنئذ، ولكنها لاتبين لنا تاريخ تأسيسها.

وأقدم ذكر لها في تلك الكتابات والآثار - كما تقول دائرة المعارف الإسلامية - يرجع إلى عهد المعينيين، فقد ورد اسمها بين أسماء المدن التي سكنتها جاليات معينية (١) ويستعين الدكتور جواد علي بهذه المقولة لتفسير نسبة عرب يثرب الجاهلية الى اليمن (٢) فإن صحت هذه الرواية فإنها تعني أن يثرب كانت موجودة قبل أكثر من ألف وخمسمئة سنة من هجرة رسول الله ﷺ إليها، لأن الحضارة المعينية من أقدم الحضارات العربية التي وصلنا خبرها، فقد كانت مزدهرة في الفترة مابين ١٣٠٠ و ٦٣٠ ق م، وحكمت الحجاز وفلسطين في أوائل عهد ازدهارها.. (٣) وعندما ضعف سلطانها في أواخر عهدها كونت مجموعة مستوطنات لحماية طريق التجارة الذي كان يمر بيثرب.

ويتفق هذا التاريخ التقريبي مع تاريخ ذكره بعض الباحثين عن العماليق الذين كانوا يسكنون سائر الجزيرة العربية، فقد قدروا تاريخهم بـ(١٦٠٠) سنة قبل الهجرة، كما يتفق مع الدراسات التي حاولت أن تحدد هجرة موسى واليهود، حيث يقدر بعضهم أن موسى عليه السلام دخل في التيه حوالي

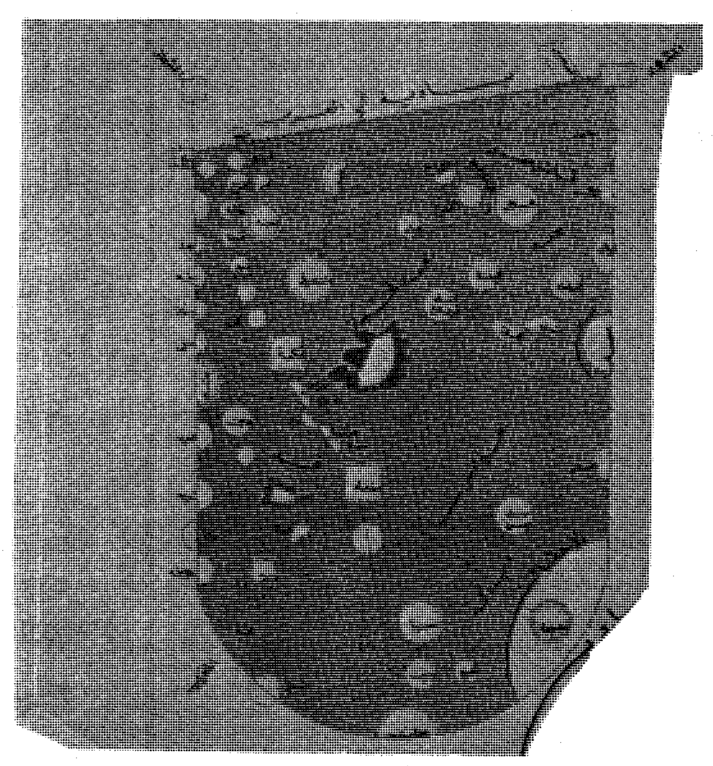
---

١) ٣/ ١٨٣ ، الألمانية

٢) المفصل ٤ / ١٢٨

٣) المفصل ٢ / ١١٩

(١٥٠٠) ق م، بينما يقدر آخرون خروجه من مصر بعام (١٤٤٧) في عهد تحتمس الثالث (١) فإن صح أنه حج قبل وفاته فيمكن أن يكون قد مر بيثرب في نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد.... ومع أننا نشكك في الرواية التي تنسب تأسيس يثرب إلى بعض أتباع موسى عليه السلام الذين تخلفوا عنه عند عودته من الحج، ونميل الى ما ذهب إليه السمهودي من وجود العماليق قبلهم فيها، فاللافت للنظر في تلك الرواية أن الزمن الذي تذكره قريب من ذلك التاريخ.



يثرب... المدينة المنورة... كما تصور موقعها الجغرافي العربي القديم المقدسي (٣٧٥ هـ - ٩٨٥ م)

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي

---

١) انظر: قصة الحضارة : ٣٢٦/٢

يثرب بعد التأسيس

رؤيـــة في الضباب:

على الرغم من صعوبة تحديد الزمن الذي أنشئت فيه يثرب، ومن ثم صعوبة تحديد تاريخها المبكر، فإننا نستطيع أن نقسم تاريخها الجاهلي إلى قسمين كبيرين، الأول: يبدأ بالزمن المجهول الذي أسـسـت فيه - والذي اصطلحنا على تحديده بشكل تقريبي - وينتهي بهجرة اليهود إليها في عهد بختنصر عام ٥٨٦ ق م. والمعلومات عن هذه المرحلة قليلة لاتعدو شذرات متفرقة في الكتب، نجمعها لنكوّن منها صورة تقريبية للحياة في يثرب آنئذ. والثاني يبدأ بوصول اليهود إلى يثرب واستيطانهم فيها، وينتهي بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها. والمعلومات عن هذه المرحلة أوفر من سابقتها، تبدأ قليلة أيضا، وتتزايد مع تقدم السنين حتى تصبح أخباراً مفصلة، يمكن أن نستنتج منها صورة واضحة للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في يثرب آنئذ.

يثرب في المرحلة الأولى (الجاهليه الأولى):

إن صح أن فرع عبيل هو الذي أنشأ يثرب، فإن الأخبار عن عبيل قليلة جداً لاتساعدنا على تكوين صورة واضحة له. ونفهم من روايات النسّابين أن (عبيل) هو الحفيد الرابع لنوح عليه السلام (حسب رواية الطبري) أو الحفيد السادس (حسب رواية السهيلي وابن خلدون) وكان يعيش في بابل مع أقاربه من أبناء نوح الآخرين. وقد ذكر في سفر التكوين أن عموبال (عبيل) هو أحد

أولاد مقعان (قحطان)، (١)وتوحي رواية الطبري بأن بابل قد عرفت تنظيما سياسيا وإداريا بعد وفاة نوح عليه السلام، فقد خلفه بعض أبنائه وأصبحوا ملوكا على المدينة، وأن هؤلاء الملوك والرعية (كانوا على الإسلام) أي على دين نوح عليه السلام، آخذين بدعوته، حتى ملكهم نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح، وهو من الجيل الرابع لأحفاد نوح، فدعاهم إلى عبادة الأوثان ففعلوا، وكانت لغتهم السريانية، فبلبل الله ألسنتهم حتى أصبحوا لايعرف بعضهم كلام بعض، وفهّم اللهُ العربيةَ عبيلاً وعاداً وثمود وطسم وجديس وعمليق، وخرجوا من بابل كما خرجت فروع أخرى، وساروا في الأرض حتى بلغوا موضع يثرب فنزلوا فيها واختطوها، ويبدو لي أن (عبيل) كان اسماً لهذا الفرع من أبناء نوح، وأنه كان في الأصل رجلا واحدا، ثم صار فرعاً يضم عدداً من الرجال والنساء والأطفال، فـ(يثربُ) الذي اختط المدينة هو حفيد عبيل حسب تلك الروايات، ومن المعقول تماما أن تتحول الأسرة الواحدة بعد جيلين إلى فرع فيه عدد غير قليل من الأبناء، وأن يتحرك هذا الفرع بأكمله من منطقة إلى أخرى، على نحو ما نراه في هجرة الفروع وأفخاذ العشائر والعائلات الريفية في تاريخنا القريب، بل والمعاصر، فكثيرا ما تنفصل أسرة عن القرية وتنشىء قرية صغيرة في منطقة أخرى قريبة أو بعيدة.

إذن تحرك فرع عبيل خارج بابل بعد أن تورطوا في عبادة الأوثان، ووصلوا موقع يثرب ، وهو بعيد عن بابل مسيرة عشرين يوماً على الأقل، وحملوا معهم مدنيتهم الزراعية، وقد أورد السمهودي أبياتا في رثائهم نستشف منها أثر تلك المدينة الزراعية والرعوية، تقول الأبيات:

عمروا يثرب وليس بها شفـ ـر ولا صارخ ولا ذو سنام
فحرسوا لينها بحجري معين ثم حفوا النخيل بالأجـام

---

١) انظر: الإصحاح الأول آية (٢٢) والاصحاح العاشر آية ٢٨

ومع أننا لانثق بصحة الأبيات، ونتوقع أن تكون من نحل القصاصين، فان الصورة التي رسمتها للعبيليين متوافقة مع ما يذكره المؤرخون عن أهل بابل ونشاطهم الرعوي والزراعي.

ويبدو أن عمل العبيليين في الموقع الذي نزلوه كان تربية الحيوانات وتكثيرها وزراعة أشجار النخيل قريبا من مجرى العيون في المنطقة، والاستفادة من الأشجار الكثيفة المنتشرة، فالمشهور أن أرض الحجاز كانت ذات أشجار كثيرة وعيون غزيرة.

ويمكن أن نتصور حياة عبيل في يثرب آنئذ إذا تصورنا حياة فئة محدودة العدد تسكن قرية صغيرة كثيرة الأشجار... تربي حيواناتها المدجنة: الابل والخيل والغنم، وتزرع النخيل وبعض الخضروات والفواكه الأخرى وتستمتع بمحصول وافر ونتاج جيد.. وفي شبه عزلة عن العالم الخارجي البعيد والمجهول، وقد التمس الدكتور جواد علي مايثبت وجود عبيل في التاريخ، ورجع إلى الكتابات اليونانية، وأشار إلى وجود اسم عموبال في بعض أسفار التوراة التي تذكر أنه ابن من أبناء (يقطان)، وكذلك وجد عند المؤرخ (بليتوس) اسم موضع يقال له Abalites ويورد رأي المستشرق (فوستر) بأنه يمكن أن يكون لعبيل نفسه .(١)

---

١) المفصل ١-٣٤٣

العماليق

إذا كانت الروايات عن عبيل قليلة لاترسم صورة واضحة لهم، فإنّ الروايات عن العماليق غير قليلة، ولكنها متناقضه أحيانا، وممتزجة بشيء من الأساطير وخيال القصاصين أحيانا أخرى،

فاسمهم يوحي إلى الأذهان بالضخامه، وقد دفع هذا الايحاء بعض الرواة إلى المبالغة والتهويل، فنقل لنا السمهودي رواية تزعم أن ((ضبعا وأولادها وجدت رابضة في حجاج عين رجل من العماليق، وأنه كانت تمضي أربعمائة سنة وما يسمع بجنازة))(١). ولا شك أن هذه الرواية وأمثالها من صنع قصاصين يحرصون على استثارة جمهورهم بالخوارق والعجائب.

وبعيداً عن تلك المبالغات، فان كلمة عملاق في اللغة تعني الطويل، ويبدو أن تلك القبائل كانت تتميز بشيء من الطول والجسامة، ويذهب بعض المؤرخين الحديثين إلى أن سكان الجزيرة العربية كانو حتى عام ١٦٠٠ قبل الهجرة ضخاما، وبقي لهم أحفاد إلى ما بعد ذلك وعرفوا بهذا الاسم، وإن لم يكونوا يحملون ذلك القدر من الطول ولا يعمرون ما يعمر به أسلافهم(٢) والعماليق في كتب التاريخ العربية من أحفاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، كانوا يسكنون مع الأحفاد الأخرين لنوح في منطقة الرافدين، ثم خرجوا مع مجموعات أخرى، وتكاثر أحفاد نوح حتى زاحم بعضهم بعضا(٣).

وأما المعصية التي تردى فيها أولئك الأحفاد، فهي أن أحد أحفاد حام

---

١) وفاء الوفاء ١-١٥٧، والحجاج: العظم الذي ينبت عليه الحاجب.

٢) محمود شاكر:التاريخ الإسلامي ١/ ٨٢

٣) انظر ابن خلدون ٢/ ٢١

بن نوح أقام تمثالا، ودعاهم إلى تعظيمه وتقديسه فأجابوه(١) فبلبل الله ألسنتهم، وجعل لايعرف بعضهم كلام بعض، فتفرقوا..

وتجمع الروايات التاريخية على أنهم كثروا وانتشروا في أنحاء الجزيرة العربية كلها، وسكنت قبائلهم الكثيرة في نجد والبحرين وعمان واليمن وتهامة، وبلغوا أطراف بلاد الشام، وكان منهم فراعنة مصر أيضا(٢). ويحدد المؤرخون أسماء القبائل التي سكنت يثرب، فيذكر الطبري أنهم من جاسم(٣) بينما يسميهم ابن خلدون: بنولف، بنو سعد بن هزال، وبنو مطر، وبنو الأزرق(٤) وربما يكون الفرق بينهما تصحيفا في المخطوطات أو التحقيق!...

ولانعرف متى استوطن العماليق في يثرب على وجه التحديد، فرواية الطبري توحي بأنهم نزلوها بعد خروجهم من أَرض الرافدين، حيث توزعوا في الجزيرة العربية وسكن بعضهم موقع يثرب، بينما تنص رواية ابن خلدون على أنهم كانوا يسكنون تهامة من أرض الحجاز..، ولم يزالوا كذلك إلى أن جاء إسماعيل عليه السلام وآمن به من آمن منهم، واضطرد لهم الملك، إلى أن كان السميدع بن لاوذ بن عمليق، وفي أيامه خرج العماليق من الحرم، أخرجهتم قبيلة جرهم، وهي من قبائل قحطان، فتفرقوا، ونزل بمكان المدينة منهم بنو عبيل(٥).

ونحن لانعرف زمن السميدع بن لاوذ بن عمليق، ولا الزمن الذي يفصله عن إسماعيل، ولكننا نذكر هنا أن ابن خلدون يجعل العماليق مؤسسي يثرب، لأن يثرب حسب روايته من واحد من العماليق..

---

١) الطبري ٢٠٧/١

٢) انظر الطبري ٢٠٣/١

٣) وهي : بنو هـف، وسعد بن هزان، وبنو بطر وبنو الأزرق. الطبري ٢٠٣/١

٤) ابن خلدون ٣٠/٢

٥) السابق نفسه

ولكن جرهم القحطانية التي يذكرها ابن خلدون هي التي أصهر إليها إسماعيل عليه السلام، وبين نوح وإسماعيل أجيال كثيرة(١)، بينما العبيليون من أحفاد نوح القريبين. فيثرب كما رأينا يبعد عن نوح ما بين أربعة إلى ثمانية أجيال،(٢) لذا لانملك إلا الظن بأن وجود قبائل العماليق في يثرب قديم جداً، إن لم يكن خلال تأسيسها، فإنه بعد تأسيسها بمدة غير طويلة.

وليس ثمة شك في وجود العماليق وفي عروبتهم تاريخياً، فالمصادر العربية وغير العربية تذكر أخباراً عدة عنهم، والطبري يعد جدهم عمليق ((أولَ من تكلم بالعربية))(٣)، والأسفار اليهودية تذكرهم في عدة مواضع باسمهم العماليق مرات وباسم الجبابرة مرات أخرى، وتذكر بعض أسمائهم وأسماء مدنهم العربية. ويقدر بعض دارسي الأسفار أن تاريخهم يرجع إلى ماقبل القرن العشرين قبل الميلاد. وأنهم عاصروا خروج بني إسرائيل من مصر، واصطدموا معهم في معارك عدة. (٤).

ومن المهم أن نقف عند ما ورد عنهم في الأسفار اليهودية، لأن معظم مؤرخي المدينة قديما وحديثا يذكرون أن اليهود قضوا على العماليق، وخلصوا يثرب منهم واستوطنوها بعدهم. وقد تبين لي أن في تلك الرواية خطأً كبيراً، وأن اليهود لم يقضوا على العماليق نهائياً، وأنهم سكنوا يثرب بعدهم بمدة غير قليلة، كما سأبيّن في فقرة قادمة. والمدهش أن الأسفار اليهودية نفسها لاتقول ذلك، بل تذكر معارك كثيرة معهم، وتصف في مبالغات خيالية انتصار اليهود عليهم والتنكيل بهم. ويرجع ذكرهم في الأسفار إلى عهد إبراهيم عليه السلام، ففي الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين: أن ملك عيلام، ومعه

---

١) قدرها الطبري بأحد عشر قرنا ٣١٤/١

٢) أنظر ص٢ من هذا البحث

٣) الطبري ٢٠٣/١

٤) انظر د. عزة دروزة. تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم ص ٤٢-٤٣

مجموعة من ملوك المناطق المجاورة، جاؤوا إلى عين شفاط، فضربوا كل أرض العمالقة والأموريين، وأسروا كثيرين، منهم لوط ابن أخي إبراهيم ومواليه ونساءه، وجاء الخبر إلى ابراهيم فجدّ في أثرهم ليلا، فكسرهم واسترجع جميع المال ولوطاً والنساء وسائر القوم. ثم يتكرر ذكرهم في الأسفار الأخرى، ففي سفر الخروج خبرعن مجيء العمالقة لمحاربة اليهود في زمن موسى عليه السلام في منطقة رنيديم، ويذكر الخبر أن العماليق هزموا بمعجزة ربانية(١) وهذا يعني أن بني إسرائيل لم يكونوا يملكون من القدرة ما يمكنهم من الانتصار على العماليق... وتعد هذه الموقعة أول صدام بين العماليق واليهود، تلتها موقعة أخرى انتصر فيها العماليق وقتلوا عدداً كبيراً من اليهود، وذلك بسبب معصية اليهود لرسول الله موسى عليه السلام(٢).

وبعد وفاة موسى عليه السلام تكرر هجوم العماليق على اليهود بسبب معصية هؤلاء - كما تذكر الأسفار - ففي عهد القضاة غزاهم ملك مؤاب بجيش من العماليق، وبني عمون، واستعبدهم ثماني عشرة سنة.(٣) وبعد خلاصهم منهم بمدة وجيزة أعاد العماليق الغارة عليهم - كما فعل أهل مدين - وقويت أيديهم عليهم حتى اضطروهم إلى ترك مدنهم وقراهم والالتجاء إلى المنارات والحصون، فكانوا إذا زرعوا باغتهم خصومهم فأفسدوا غلتهم ولم يبقوا لهم ميرة ولا ماشية، فذلت إسرائيل إذلالا عظيما سبع سنين، إلى أن كان

---

١) الأصحاح السابع عشر من سفر الخروج

٢) أنظر الخبر في الإصحاح الرابع عشر من سفر العدد، وخلاصة الحادثة أنه لما رفض اليهود القتال مع موسى عليه السلام، بلغهم موسى أن الله كتب عليهم التيه أربعين سنة، ولما سمع الشعب كلام الرب بكوا وناحوا واعترفوا بخطئهم، وأرادوا أن يتقدموا في السير نحو أرض كنعان، فنهاهم موسى وقال لهم: لن يكون الرب معكم، فلم ينتهوا، فدهمهم العماليق والكنعانيون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة. أنظر الإصحاح الرابع عشر من سفر العدد

٣) أنظر الأصحاح الثالث من سفر القضاة

خلاصهم على يد جدعون الذي اشتبك مع العمالقة والمدينين في وادي يرزعبل، وضربهم ضربا شديداً على ماذكره الإصحاحان السادس والسابع من سفر القضاة في سياق طويل فيه الكثير من الخيال (١).

ويبدو أن الإسرائيلين ضعفوا ثانية، وكانوا يتعرضون لضربات العماليق وغيرهم من جيرانهم إلى أن ظهر فيهم طالوت،(٢) حيث أبلغه النبي صموئيل أن الله يأمره بالتصدي للعماليق والانتقام منهم، وتظهر العبارة التي وردت في الأسفار مدى حقد اليهود على العماليق ورغبتهم في الانتقام منهم بوحشية لانظير لها، ولا يمكن أن يقبلها دين سماوي فقد جاء في نص العبارة على لسان صموئيل:

(إياي أرسل الرب لمسحك ملكا على شعب إسرائيل، الآن فاسمع صوت كلام الرب، هكذا يقول رب الجنود: إنني افتقدت ماعمل عمليق بإسرائيل حين وقف له عند صعوده من مصر، فالآن اذهب، واضرب عمليق وأحرمه كل ماله، ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلا وامرأة، طفلا ورضيعا، بقرا أو غنما.) ويروي السفر أن شاؤول (طالوت) قاد مائتين وعشرة آلاف رجل من اليهود وزحف بهم على العماليق وضربهم من حويلة إلى شور، وقبض على ملكهم (أجاج) وحرم (قتل) جميع الشعب بحد السيف، وعفا عن أجاج وعن خيار الغنم والبقر والخراف، وعن كل ما هو جيد، وحرم الأملاك المحتقرة والمهزولة))(٣)

ويروي السفر أن الله غضب على شاؤول لأنه لم ينفذ أمره بقتل العماليق جميعهم ودوابهم وماشيتهم، فكلم النبي صموئيل قائلا ((إني ندمت على جعل شاؤول ملكاً لأنه لم يتم كلامه)) وجاء صموئيل إلى شاؤول وأنبه، فأظهر الندم وطلب المغفرة، وأتى بأجاج فقطعه بالسيف. ولكن صموئيل أخبره أن

---

١) انظرالأصحاحين المذكورين

٢) وتسميه الأسفار اليهودية شاؤول

٣) المصدر نفسه

الله رفضه من الملك، وذهب غاضبا، ولم يعد يراه إلى أن مات.

ومن المهم جدا أن نقف عند الرواية السابقة لأنها - فيما يبدو لي - أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر على جميع الذين كتبوا عن تاريخ يثرب، سواء في تأريخهم للعماليق، أو في تأريخهم لسكن اليهود في يثرب. أما ما يتعلق بالعماليق، فثمة إجماع لدى مؤرخي المدينة المنورة على أن اليهود قد قضوا على العماليق وأنهوا وجودهم في يثرب تماما.

وأما ما يتعلق بتاريخ سكن اليهود في يثرب فمعظم الروايات تجعل اليهود يحلون محل العماليق بعد القضاء عليهم مباشرة.

فبعض الروايات تقرر أن موسى عليه السلام بعث جيشا إلى العماليق فقضى عليهم.(١) بينما تقول روايات أخرى: إن الحادثة جرت بعد وفاة موسى عليه السلام بأكثر من مائتي سنة !!... وليس في أسفار التوراة أي خبر عن جيش لموسى ضرب العماليق، وكل ماذكرته تلك الأسفار عن حروب موسى كان مع سيمون الآموري(٢) ومع المدينين (أهل مدين)(٣). كما أن تاريخ اليهود القديم الذي دونه مؤرخهم الأكبر (يوسفوس) لم يشر إلى بعث بعثه موسى عليه السلام إلى الحجاز. ولو أن ذلك البعث قد وجد فعلاً ما سكت عنه مؤرخو اليهود لاقديما ولا حديثا، بل لكانوا عدّوه من مفاخرهم الكبيرة، وبالغوا فيه أيما مبالغة.

وثمة قضية أخرى في هذا الموضوع.. فالرواية رغم ما فيها من حقد على العماليق - وصية صموئيل لشاؤول بقتلهم رجالا ونساء وقتل ماشيتهم - توحي بأن شاؤول لم ينفذ الوصية تماما، وتوحي روايات أخرى سنعرض

---

١) انظر ابن خلدون ٢/٣٠، السهيلي ٢/٥١، وفاء الوفاء ١/١٥٩، الوكيل: يثرب قبل الإسلام ص ٤٣

٢) سفر العدد الإصحاح الحادي والعشرون

٣) الإصحاح الثاني والثلاثون من سفر العدد

لهابعد قليل أن (شاؤول) لم يستأصل العماليق، وأن العماليق مالبثوا أن أغاروا على الإسرائيلين وأوقعوا بهم.. فلا يمكن أن تكون غزوة شاؤول لهم قاضية، أو حتى شديدة بالدرجة التي ذكرها السفر، ثم ينهضون بعد حين ويغيرون على المدن الإسرائيلية ويتغلبون على جيوشها. ثم إن دارسي الأسفار اليهودية لايذكرون يثرب ضمن المدن التي افتتحها شاؤول، ويرون أن المنطقة التي جرت فيها المعارك كانت في صحراء سيناء المتصله بمنطقة العقبة.(١).

وعلى فرض أن يثرب كانت تخضع للعماليق ولم تكن عاصمتهم، وأن سقوط عاصمة العماليق ـ سواء كانت في تيماء أو خيبر أو تبوك ـ وقتل ملكهم - وتسميه المصادر العربية الأرقم بن الأرقم - يعني انتهاء سلطة العماليق على يثرب.. حتى على افتراض قبول هذا الرأى فإنه لايمكن أن ينهي وجود العماليق في يثرب.(٢) وقد تبين لي أن الروايات العربية عن بعث موسى للعماليق والقضاء عليهم مصدرها واحد، وهو رواية لأبي الفرج الأصفهاني في كتابه الكبير ((الأغاني)) وهي رواية غريبة(٣)، ولا يذكر الأصفهاني أنها مسجلة في كتاب... ولا يسوق أي دليل على صحتها... وقد أخذها عنه عدد من مؤرخي المدينة بعد ذلك حتى وصلت إلى ابن خلدون، فذكرها ابن خلدون على أنها حقيقة تاريخية... في حين إن الطبري وسواه من المؤرخين المتقدمين لم يأخذوا بهذه الرواية ولم يذكروها في تاريخهم. وقد شك إبن خلدون بهذه الرواية ورفض أن يأخذ بها في تأريخ أول سكنى

---

١) دروزة: تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم:١٤٠

٢) وقد نص ابن خلدون على ذلك في رواية قرر فيها أن العماليق كانوا في المدينة بعد عهد سليمان وأمرهم راجع إلى ملوك القدس ٣٤٢/٢

٣) انظر: الأغاني ١١٦/٣ دار الكتب

اليهود في يثرب(١).

ومن جهة ثانية لا يمكن أن نحكم بأن حملة شاؤول على العماليق قد قضت عليهم، لأننا نجد في الأسفار التالية لسفر صموئيل عدة أخبار تذكر وقائع أخرى بين الأسرائيلين والعمالقة. ومن هذه الأخبار أن العمالقة في عهد داود عليه السلام - الذي تسلم الملك من شاؤول بعد غضب الله عليه كما تقول الأسفار - غزوا مدينة صقلاح وأحرقوها وسبوا من فيها من النساء، ولم يقتلوا لاصغيرا ولا كبيرا - خلافا لما كان يفعله الإسرائيليون - وكان داود غائبا عن المدينة فلما علم بذلك أسرع ولحقهم بجنده فأدركهم واستخلص الأسرى والسبي والأموال.(٢) ويدل سياق الخبر على أن الحادثة وقعت في حياة شاؤول المعزول عن الملك، أي غير بعيد عن معركته مع العماليق، فكيف نصدق أن حملة شاؤول قد قضت عليهم؟؟ جل مافي الأمر أن رواية سفر صموئيل كانت مشوبة بالمبالغة الشديدة لتستوعب الحقد الذي يحمله اليهود على العماليق. ثم إن الحديث عن معارك الإسرائيلين مع خصومهم في الأسفار كلها تنهج منهج المبالغة، حتى يقع في تناقضات مكشوفة يحس بها كل من يمضي في قراءتها... وعلى سبيل المثال فقد ذكر في سفر العدد أن الإسرائيلين زحفوا بأمر موسى عليه السلام إلى مدين فدمروها(٣) وأهلكوا أهلها جميعا، بينما ذكر في سفر القضاة أن المدينين زحفوا على الإسرائيلين في عهد القضاة، وهو يلي عهد موسى ويوشع مباشرة، وأذلوهم وحكموهم سبع سنين؟ فكيف فني المدينيون ثم نموا بهذه السرعة وأذلوا

---

١) ابن خلدون ٢/٢٥١ ولايعُدّ الأصفهاني في الثقات فلا يُعَوّل على مايرويه إذ هو مجروح غير مأمون وذو عصبية وهوى

٢) أنظر الإصحاح التاسع والعشرين

٣) الاصحاح الحادي والثلاثين

الأسرائيليين؟(١).

لذلك أرى أن الزعم بأن العماليق قد انتهوا على أيدي اليهود غير صحيح على الإطلاق... وأن أصل هذه المقولة رواية أطلقها أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني دون أي دليل، فسرت وشاعت في كتب التاريخ، وبخاصة كتب تاريخ المدينة المنورة.

وهنا يظهر سؤال وجيه: كيف كان وضع العمالقة في يثرب؟ وكيف انتهوا؟ ومتى؟.

رأينا أن العماليق قد تكاثروا وانتشروا في مناطق شاسعة غطت شبه الجزيرة العربية كلها وقسما من بلاد الشام ومصر.(٢). ويذكر المؤرخون أنهم كانوا قبائل عدة، وكل قبيلة أو مجموعة من القبائل تستوطن منطقة معينة، وتعيش مستقلة، أو شبه مسقلة عن القبائل الأخرى، وأغلب الظن أن العمالقة لم يؤسسوا دولة واحدة تضمهم في شبه الجزيرة العربية، وربما نجح بعض سادتهم في تأسيس مملكة تضم معظم منطقة الحجاز أو كلها، ويذكر الطبري أن الأرقم كان ((ملك الحجاز)) وكان يقيم في تيماء(٣) ويبين ابن خلدون أن ملكه كان (مابين تيماء إلى فدك)(٤) وعلى هذا فإن يثرب لاتدخل

---

١) الاصحاحين السادس والسابع

٢) يقول الطبري: فعمليق أبو العماليق كلهم، وهي أمم تفرقت في البلاد، وكان أهل المشرق وأهل عمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر منهم، ومنهم كانت الجبابرة بالشام، الذين يقال لهم الكنعانيون، ومنهم كانت الفراعنة في مصر، وكان أهل البحرين وأهل عمان منهم أمة يسمون جاسم، وكان من ساكني المدينة منهم بنو هف، وسعد بن هزان، وبنو مطر، وبنو الأزرق وكان في نجد منهم: بديل وراحل، وغفار. كما أن أهل تيماء منهم، وقد ملك الحجاز رجل منهم اسمه الأرقم. أنظر الطبري ٢٠٣/١

٣) السابق نفسه.

٤) ابن خلدون ٣٤٣/٢.

في نطاق ملكه إنما هي في سلطة الذين سكنوها والذين كانوا ملوك المدينة وكان لهم بها نخل وزرع.(١). ويقوي هذا الرأي أن العماليق أنشأوا في يثرب مجتمعا زراعيا وثمة رواية تذهب إلى أنهم أول من زرع بالمدينة واتخذ بها النخل وعمر بها الدور والأطام واتخذ بها الضياع.(٢) والمجتمع الزراعي في الغالب - ولا سيما في العصور القديمة - قليل الحركة، خلافا للمجتمع التجاري، فمتطلبات العمل في الأرض تقتضي وجود أصحابها بجانبها مدة طويلة، وكانت المجتمعات الزراعية قديما تحقق الاكتفاء الذاتي غالبا، لذا أتصور أن سكانها من العماليق انهمكوا في زراعتهم وعاشوا حياتهم مستمتعين بوفرة محاصيلهم أول الأمر..... وعندما نمت التجارة أسهموا فيها إلى حد ما، فثمة رواية تذكر أن بعض أهل يثرب كان يصل بتجارتة إلى غزة.(٣). والمعروف أن أهل يثرب قبيل الإسلام لم يكونوا تجارا على شاكلة أهل مكة، وأن إسهامهم في التجارة الخارجية كان محدوداً، مع أن يثرب تقع في الطريق التجارية بين اليمن والشام، ومع أن القوافل كانت تمر بها، فإن أهلها لم يؤثروا التجارة على الزراعة التي تغريهم بها خصب أراضيهم وكثرة ينابيعهم آنئذ، كما أن الطريق التي تمر بها ليست الطريق الوحيدة، فهناك الطريق الساحلي الذي سلكه أبو سفيان عندما علم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس المسلمين لاعتراض قافلتهم.

ونستنتج من قول ياقوت (إنهم اتخذوا الآطام والضياع) أنهم استغرقوا في حياتهم الزراعية وأثروا، وتحصنوا في الآطام تحسبا من غزوات تقوم بها قبائل أخرى أجدبت أرضها أو شحت مواردها، وهذا ما كانت عليه الحياة آنئذ، كما نستنتج أن يثرب قد اتسعت وصارت لها ضواح ((ضياع)) وهذا ما

---

١) السابق نفسه.

٢) وفاء الوفاء ١-١٥٧.

٣) المفصل ١/٥٨٥.

سنجدها عليه في فترات أخرى...

وقد عمر العماليق في يثرب ما شاء الله، ثم وفدت عليهم قبائل أخرى ساكنتهم، وأعتقد أن الوفرة التي وصل إليها العماليق جعلتهم يقبلون مساكنة الوافدين إليهم ليستفيدوا من العمالة الطارئة، فيخفف عنهم القادمون أعباء العمل في الأرض، ويجد أصحاب الأرض فرصة للتمتع بثرواتهم، وما لبث الوافدون أن استثمروا بعض الأراضي التي لم يستثمرها العماليق في المنطقة، وتحولوا إلى ملاك وأثروا وجاروا العماليق في حياتهم، ويؤيد ما أذهب إليه ما ذكره ابن خلدون من أن العماليق في يثرب ((ملكوا أمر أنفسهم، وانضافت إليهم قبائل من العرب نزلوا معهم واتخذوا الأطم والبيوت))(١).

وخلال رحلة السنين الطويلة، حصل تزاوج وتمازج بين العماليق والقبائل الوافدة، وظهرت أجيال جديدة تحمل دماءاً مختلطة، وما لبث العماليق المتميزون بضخامة الأجسام أن قل عددهم، ولكنهم لم ينقرضوا تماما، بل بقيت منهم بقية إلى ما بعد وصول اليهود إلى يثرب. ويذكر ابن زبالة أن بني أنيف - وهم حي أقاموا مع اليهود قبل وصول الأوس والخزرج - كانوا منهم(٢).

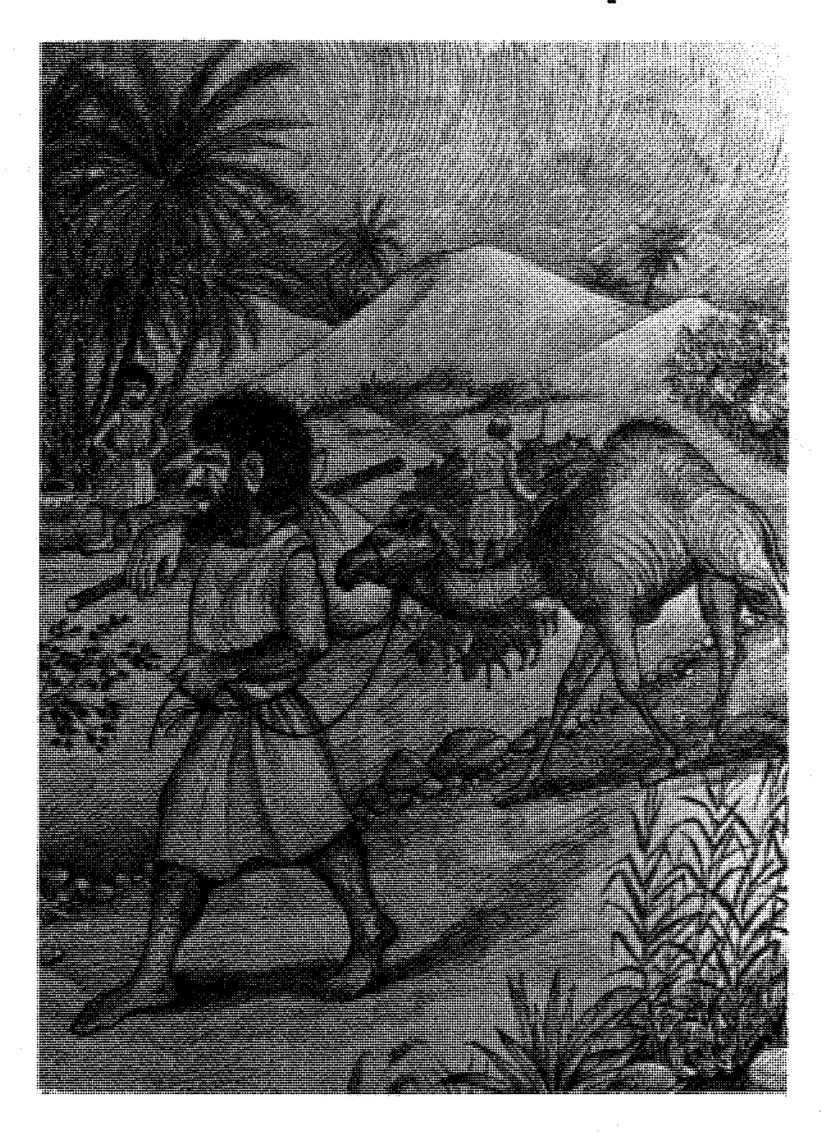
وهكذا نشأ مجتمع يثربي جديد يجمع في ظلاله العماليق وغير العماليق، ينعم بخصوبة الأراضي، ووفرة الغلال، ومنعة المنطقة طبيعياً بما حولها من حرات، وصناعياً بما أقامه اليثربيون من أطام وحصون. وقد استمر هذا المجتمع في حياة هادئة نسبيا، فلا نسمع بموقعة حربية كبيرة، ولا نجد لهم جيشا يجتاح منطقة أخرى، ولا اسم ملك متميز بأعماله. ولعل غيبة التنقيبات الأثرية، وقلة المكتشفات، قد أسهم في جعل هذه الفترة ضبابية، تبنى على الافتراض والتصور وليس على اليقين القاطع. ويستمر هذا الضباب كثيفا إلى

---

١) ابن خلدون ١-٤٢

٢) وفاء الوفاء ١/٦٢١- وتاريخ الإسلام ١/٨٢

أن نقع على أول أثر تاريخي يصل إلينا من عهد الدولة المعينية حيث وجد الباحثون ذكر يثرب في الكتابات المعينية المكتشفة...



العماليق... استفادوا من الطبيعة الزراعية ليثرب

يثــــرب والمعينـــــيون

يرجح بعض الباحثين المحدثين أن يثرب قد خضعت للدولة المعينية وأصبحت واحدة من مناطق نفوذها،

وتعد المملكة المعينية من أقدم الممالك العربية الجنوبية التي وصلتنا بعض أخبارها عن طريق المكتشفات الأثرية. وثمة خلاف شديد حول زمن نشأتها وسيادتها.(١). والقول الأرجح أنها عاشت وازدهرت ما بين القرن العاشر والقرن الخامس قبل الميلاد، وقد ذكرها بعض الجغرافيين الغربيين، مثل (تيودورس) الصقلي (وسترابون) الروماني. أما المؤرخون والجغرافيون العرب فلم تصلهم أخبارها. وقد ذكر ياقوت الحموي أن معين اسم حصن باليمن، ومدينة باليمن تذكر في براقش(٢).

وتدل الآثار المكتشفة أن المملكة المعينية كان لها صلات وثيقة مع جاراتها تحولت إلى نفوذ وسيطرة. وقد امتدت سلطتها من جنوب اليمن إلى الحجاز وحتى فلسطين، فكانت (مدين) في وقت من الأوقات مستعمرة معينية (٣) والسبب الرئيسي الذي جعل الباحثين يعتقدون أن يثرب دخلت تحت نفوذ المملكة المعينية هو الآثار التي اكتشفت في مدينة العلا على أحد القبور القديمة.

فقد وجد المنقبون كتابات معينية وردت فيها أسماء أشخاص ومدن وآلـهـة معينيه معروفة، كما ورد ذكر يثرب ومؤان وعمون وغزة. ويرى بعض

---

١) في الخلاف حول زمن الدولة المعينية انظر ديتيف فلس وفرتز هوبل: التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسين علي، مكتبة النهضة العربية ط١ القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٧١-٢٧٣.

٢) أنظر معجم البلدان ١٦٠/٥ دار الفكر

٣) السابق ص ٥٩.

الباحثين أن تلك المدن كانت جزءاً من المملكة المعينية وأرضاً خاضعة لها، وأن ملوك معين كانوا يعينون حكاما عليها باسمهم، ويلقب الحاكم (كبر) أي كبير، ويتولى الحكم باسم الملك، ويجمع الضرائب ويحافظ على الأمن.(١).

ولئن صحت هذه المقولات فان المعينين قد سيطروا على يثرب في فترة تمدد مملكتهم، أي منذ الألف قبل الميلاد، وعينوا عليها حاكما من أهلها- كما كانوا يفعلون في مناطق نفوذهم الأخرى - لتأمين طريق تجارتهم البرية، ولم تكن سلطتهم على المدينة تتعدى الضريبة السنوية المفروضة عليهم، فضلاً عن حماية قوافلهم، ولانجد في الكتابات القليلة عن معين أي ذكر لحروب خاضوها مع أهل يثرب، ولا أحداثا متميزة.. وجل مانجده إشارات تبيّن أن سيطرتهم كانت على الحجاز بأ كمله.

ونظراً لضعف هذه السيطرة فإننا لانتوقع أن يحدث في المجتمع اليثربي أية تغيرات كبيرة، اللهم إلا المزيد من الاستقرار والانتعاش والفوائد التي تأتي بها تجارة مطمئنة مزدهرة.

---

١) أنظرالمفصل ٢/١١٩-١٢١

يثرب والسبئيون

قامت مملكة سبأ على أنقاض المملكه المعينيه وورثت مستعمراتها، وهذا يعني أن السبئيين بسطوا سلطتهم على يثرب بعد المعينيين(١).

غير أننا لا نجد في كتب التاريخ العربية والغربية مايشير إلى تغيرات في المجتمع اليثربي المطمئن - اللهم إلا الوصف التاريخي العام لنمو المدينة والرفاهية الكبيرة في عهد السبئيين، ولا نجد أحداثا كبيرة تلفت نظر المؤرخين، أو حتى القصاصين الذين يبحثون عن مادة لقصصهم الخيالية.

والثابت لدينا أن مملكة سبأ كانت معاصرة لحكم سليمان بن داود عليه السلام، وأن ملكتها بلقيس قد التقت به وآمنت بما يدعو إليه كما أخبرنا القرآن الكريم (٢).

وقد عمرت دولة السبئيين كما أخبرنا القرآن الكريم أيضا(٣)إلى زمن سيل العرم، حيث ضعفت الدولة وانهارت. وربما تُظهر المكتشفات الأثرية ذات يوم أخباراً جديدة عن تلك الدولة تضيء لنا جزءاً من تاريخ يثرب في عهد السبئيين، وإلى ذلك الحين لانملك إلا أن نبقى في الضباب والافتراض.

---

١) انظر: المفصل ١٠٥/٢

٢) انظر سورة النمل الآيات ٢٢-٤٤

٣) انظر سورة سبأ الآيات ١٥-١٧

يثرب والكلدانـــيون

قلنا إن الباحث في تاريخ يثرب لابد له أن يستعين بمصادر خارجية عسى أن يجد فيها حادثة أو ذكراً لهذه المدينة في العصور التي لم يصلنا منها شيء، خاصة وأن الكتب التاريخية العربية تعرض لتلك الفترة روايات كثيرة متداخلة ومتضاربة أحيانا، لاتعتمد على أثر مكتشف أو كتابة متناقلة، ويتدخل خيال الرواة والقصاصين فيضيف ويحذف مالايعلم به إلا الله، وفي يقيني أن الدراسة الموضوعية المتأنية لتاريخ يثرب تقتضي بحثا وتنقيبا واسعين في التاريخ المدون أو المستنتج من النقوش والحفريات للأمم المجاورة، وبالذات تاريخ بلاد الرافدين، وحضارة الأنباط وفلسطين واليمن ومصر بل واليونان والرومان أيضا. فالتاريخ المدون لهذه الحضارات يكاد يكون صحيحاً في القرون الميلادية الأولى وفي القرون الثلاثة أو الأربعة التي سبقت الميلاد.

أما تاريخنا العربي الموثوق فلا يتعدى قرناً أو قرناً ونصف القرن قبل الهجرة.

وإذا كنا في كتابنا هذا محكومين بظروف معينة لاتتيح لنا التنقيب الواسع في تاريخ تلك الأمم، فعسى أن تكون إشاراتنا القليلة هنا دعوة لمن يرزقهم الله الوقت والفراغ والهمة لخدمة التاريخ والحقيقة والجذور.

ولعل من الأمثلة القريبة على فائدة البحث الذي أشير إليه مانجده في تاريخ الدولة البابلية الكلدانية من إشارات إلى يثرب نقف عندها وقفة قصيرة لتكون نموذجا لوقفات تحتاجها دراساتنا القادمة.

فقد ذكر بعض المؤرخين المعاصرين أن النقش الذي عثر عليه في خرائب مسجد حران الكبير يتحدث عن أعمال الملك ((نبونيد))، ويقرر أن هذا الملك خرج من بابل في أواخر حكمه وجاء إلى تيماء فأخضع أهلها، ثم سيطر على

المدن المجاورة وضمها إليه وهي: دادانو (مدينة قديمة معروفة ذكرتها الأسفارالعبرانية) وباكوا (فدك) وخبرا (خيبر) واتريبوا (يثرب) وظلت خاضعة لحكم هذا الملك عشر سنوات(١).

ونبونيد هو أخر ملوك الدولة البابلية الكلدانية، حكم لمدة ١٦ سنة (من سنة ٥٥٦ - ٥٣٩ ق م) قضى عشر سنوات منها في شمال الجزيرة العربية، تاركاً عاصمته بابل تحت حكم ابنه (بلشازار) ثم عاد إلى بابل ليدهمهم الملك الفارسي قورش سنة ٥٣٩ ق م، وينهي دولتهم ويجعلها ولاية تابعة لإمبراطوريته(٢).

وليس بين أيدينا تفصيلات عن كيفية سيطرة نبونيد على يثرب، ولكنني أتوقع أن المدينة خضعت له دون حوادث فاجعة أو انتصارات ساحقة يحققهاالملك المذكور، فلو كان ذلك قد حدث لسجل النقش تلك الحادثة ضمن مفاخر نبونيد التي عددها، وأتصور أن يثرب قد سلمت للحاكم الجديد بعد أن ضعف سلطان الدولة السبئية، ومن قبلها المعينية، وأن الضرائب التي كان يدفعها اليثربييون إلى السبئيين والمعينيين قد تحولت إلى خزانة نبونيد، وأن حاكما باسم الملك قد عين عليها، أو أبقى الحاكم القديم نفسه إن كان هو الذي أعلن الخضوع، وربما بقيت في يثرب حامية محدودة تضمن استمرار الولاء والجباية مدة السنوات العشر. وأما الحياة الداخلية في يثرب فسارت على منوالها القديم بعد مدة وجيزة من هزة تغير السلطان، وأن الحامية البابلية الكلدانية انسحبت من يثرب بعد رحيل نبونيد وزوال مملكته فلا نجد في الأخبار أو في السكان بقايا بابلية امتزجت مع القبائل التي كانت تسكن يثرب.

واعتقد أيضا أن الحكم البابلي قد حدث قبل هجرة اليهود إلى يثرب.

---

١) انظر: المفصل ١/٦٠٧-٦١٩

٢) السابق ١/٦١٧-٦١٩

فالبابليون أعداء اليهود، وهم الذين أنهوا دولتهم الأخيرة ((يهوذا)) قبل مجيء نبونيد إلى الحكم. ولئن نجحت بعض القبائل في الهجرة أيام بختنصر ٥٨٩ ق م إلى المنطقة فاعتقد أن هذه القبائل لم يكن يسرها أن يدهمها خلفة نبونيد في مهجرها، وأنها ستفر من وجهه إلى أي مكان أخر، ولو وجد نبونيد اليهود في المناطق التي احتلها لكان له معهم شأن، ولذكر ذلك في تاريخه المدون.

وعلى أية حال فهذه افتراضات يمليها ((منطق الوقائع)) وليست حقائق قاطعة، فربما تحمل إلينا الوثائق المكتشفة في قادم الأيام أشياء أخرى ليست في الحسبان، ولكن حتى ذلك الوقت نرجح هذه الصورة..

يثرب والرومان

هل مر الرومان بيثرب؟:

من المعروف أن الرومان لم يحاولوا التوغل في جزيرة العرب في فترة مدهم العسكري الكبير، لأن الصحراء الواسعة تشكل العقبة الكبيرة لجيوشهم النظامية الجرارة.

ولكن التاريخ الروماني يذكر محاولة واحدة قامت فيها حملة رومانية باختراق الجزيرة العربية إلى جنوبها للوصول الى مناطق الذهب في أرض اليمن، وقد جرت هذه المحاولة في عهد الإمبراطور أوغسطس عام ٢٥ ق م، حيث أمر هذا الامبراطور واليه على مصر ((أوليوس غالوس)) بإعداد الحملة وقيادتها، ورافق الحملة جغرافي معروف هو (سترابون) صديق القائد غالوس وكتب عنها، فوصلتنا أخبارها شبه كاملة.

خرجت الحملة بعشرة آلاف محارب روماني وألف نبطي وخمسمائة اسرائيلي، يرشدها أحد قواد ملك الأنباط، وأبحرت من الساحل المصري للبحر الأحمر ووصلت الى ((لويكة كومة))(١)، بعد أن خسرت عددا كبيرا من السفن والرجال، وفتك المرض بعدد أخر لفساد الطعام والماء وسوء الغذاء، فاضطرت إلى قضاء الصيف والشتاء فيه حتى استراح الجيش وتعافى من المرض (٢).

بعدها تحركت الحملة وسلكت طريقا لم يوضحه سترابون حتى وصلت الى نجران، ثم اجتازت عدة مدن وحاربت أهلها حتى بلغت مدينة مرسيبا

---

١) يقدر دكتور جواد علي أنها ينبع. المفصل ٢/٤٥، بينما يرى فؤاد حمزة أنها مويلح. قلب جزيرة العرب ٢٥٧

٢) المفصل ٢/٤٥

الجيش الروماني... هل مرَّ بيثرب؟

(مأرب) ومنها عادت إلى مدائن صالح ثم أبحرت عائدة إلى مصر، ولم تحقق الحملة أهدافها ولم تحصل على الذهب الذي خرجت لأجله، كما أنها لم تلحق المدن التي احتلتها بالدولة الرومانية. وقد تعددت الأراء حول الطريق التي سلكتها الحملة بعد نزولها في ينبع أو مويلح، ومن بين تلك الآراء رأي يقرر أن الحملة سارت في طريق إضم إلى يثرب لكي تتجنب الاصطدام بالقبائل التي تسكن على الطريق التجاري بين ينبع والجنوب، وأنها تابعت طريقها من يثرب إلى نجد، ومنها إلى نجران أو من يثرب إلى القصيم ثم سارت في طريق اليمن إلى نجران (١). وذكر سترابون أن ملك تلك المنطقة، وربما كان شيخ قبيلة، يدعى الحارث قد رحب بالرومانيين وساعدهم في اجتياز الطريق، ولئن صحت هذه الرواية - وهي أرجح الروايات - فان الحملة قد مرت بيثرب أو بظاهرها، وربما استراحت فيها قليلا وتزودت بما يلزمها من الماء والطعام، فسترابون يذكر أن المنطقة كانت كثيرة العيون.

ولا شك أن ذكاء الحارث وحسن تعامله مع قائد الحملة قد أفاد المنطقة التي مرت بها، فلم يتعرض الجيش لأية مدينة، ولم تقع أية مصادمة في المنطقة، وعندما ذكر سترابون أسماء المدن التي خربتها الحملة، أو عاثت فيها فسادا، لم يذكر أية مدينة قبل نجران، وهذا ما يرجح مرور الحملة بطريق يثرب فالقصيم حيث المدن قليلة، ولا تشكل مطمعا للرومانيين، وربما يكون الحارث قد تفاهم مع شيوخ المنطقة ورؤسائها كي يتجنبوا الصدام مع الحملة.

وعلى أية حال، فإن الحملة لم تترك أي أثر في يثرب أو في حياة اليثربيين، حتى إننا لانجد لها ذكرا في كتابات المؤرخين القدماء، بل إن الرومانيين بعامة لم يؤثروا في حياة يثرب وأبنائها على الإطلاق.

---

١) يؤيد هذا الرأي كلاسر وشبرنلكر. أنظر المفصل ٢/٥١

اليهود في يثرب

عندما هاجر المسلمون إلى يثرب وجدوا بين سكانها قبائل يهودية عدة، وكان للمسلمين معهم شأن سنذكره في تاريخ الحقبة الإسلامية.

فمَنْ هؤلاء اليهود؟ وهل هم من سكان يثرب الأصليين الذين وصلتهم الدعوة اليهودية فتهودوا؟ أم أنهم قبائل عربية كانت تسكن خارج يثرب تهودت وجاءت يثرب فسكنتها؟ أم أنهم من يهود بني اسرائيل الذين خرجوا من مصر أو من فلسطين؟؟.

ثمة إجماع بين المؤرخين على أن معظم يهود يثرب هم أحفاد مهاجرين جاؤوا من فلسطين ، وأن قليلا منهم عرب تهودوا وانضموا إلى اليهود الآخرين، ولكن المؤرخين يختلفون اختلافا شديدا في تحديد تاريخ هجرة اليهود إلى يثرب، ولا سيما المؤرخون العرب، الذين اهتموا بتاريخ المدينة المنورة.

ويدهش المرء لكثرة الروايات التي يجدها في هذا الموضوع، ويدهش أيضا لتفاوتها تفاوتا شديدا. وسوف أعرض باختصار مجمل تلك الروايات، والزمن الذي يحدده كل منها.

الرواية الأولى: أقبل موسى وهارون حاجين، فمرا بالمدينة، فخافا من يهود، فخرجا مستخفيين، فنزلا جبل أحد، فغشي هارون الموت، فقام موسى فحفر له ولحده. وهذا يعني أن اليهود كانوا موجودين في يثرب قبل وصول

موسى وهارون حاجين(١).

الرواية الثانية: جاء اليهود إلى يثرب زمن موسى عليه السلام عندما حج مع أخيه هارون ومجموعة من بني إسرائيل، فلما صاروا إلى موقع يثرب اشتورت طائفة من الإسرائيلين فيما بينها، ورأت في الكتاب الذي لديها .أن هذا الموضع سوف يخرج فيه نبي، فقرروا الإقامة فيه، وكان ذلك (٢).

الرواية الثالثة: إن موسى عليه السلام أرسل جيشا لمحاربة العماليق والقضاء عليهم تماما، ففتك الجيش بجميع العماليق سوى رجل واحد أعجبهم، وكان ابن ملك العماليق الأرقم، وعندما رجع الجيش إلى فلسطين، وكان موسى قد مات، غضب الإسرائيليون على الجيش لمخالفة أمر موسى واستبقائه ابن الأرقم ولم يسمحوا له بدخول البلاد، فعاد الجيش إلى موقع يثرب واستوطن فيه(٣).

الرواية الرابعة: هاجرت مجموعة يهودية من بني شمعون بعد وفاة موسى - بزمن لا نعرفه - إلى أرض العماليق وقضت عليهم واستوطنت أرضهم (٤)٠

الرواية الخامسة : كان علماء من بني اسرائيل يجدون صفة النبي المنتظر في كتبهم ، فخرج بعضهم - في زمن لانعرفه - يبحث عن موقعه حتى وقفوا على منطقة يثرب ، ووجدوها مطابقة لما عندهم ، فأقاموا فيها(٥).

الرواية السادسة: لما خلع بنو إسرائيل طاعة داود عليه السلام وتبعوا ابنه اشيوست (واسمه في الأسفار ابشالوم) فر داود مع سبط يهوذا إلى خيبر. وأقام فيها سبع سنين حتى قُتل ابنه فعاد إلى ملكه، وقد أقام

---

١) وفاء الوفاء١/١٦١

٢) وفاء الوفاء ١/١٦٢

٣) وفاء الوفاء ١٥٩/١٦٠

٤) قلب الجزيرة العربية ٢٥٨ . يثرب قبل الاسلام ٣٩

٥) وفاء الوفاء ١٧٩/١٦٠

بالحجاز من أقام، ونزل بعضهم بلاد يثرب، واتخذوا فيها الأطم والبيوت، وملكوا أمر نفسهم(١). وفي الإصحاح العاشر من سفر الملوك الأول أن داود خرج الى حلب وليس الى خيبر٠

الرواية السابعة: اقتحم بختنصر البابلي أورشليم عاصمة اليهود عام ٥٨٩ ق م، ودمر الهيكل وسبى معظم أهلها وساقهم إلى بابل، وهربت جماعة من اليهود قبل الاقتحام، وبعده، وسارت إلى بلاد الحجاز ونزلت يثرب(٢).

الرواية الثامنه: بعد أن عاد قسم من اليهود الذين شردهم بختنصر إلى أورشليم وانضووا تحت حكم الرومان، أثاروا شغبا كبيرا في المدة مابين عام ٦٦-٧٠ م فهاجمهم القائد الروماني تيتوس ودمر أورشليم ثانية، وشتتهم، وأغرق عددا كبيرا منهم في بحيرة لوط، ففر الناجون إلى الحجاز ووصلوا يثرب وأقاموا فيها(٣)٠

الرواية التاسعه: جمع اليهود شتاتهم بعد تشردهم الثاني وعادوا إلى فلسطين، وقاموا بثورة عام ١٣٢ م، فأرسل الإمبراطور الروماني هارديان جيشا أعمل فيهم السيف ودمر مدينتهم ومنعهم من دخولها نهائيا، وفر من نجا منهم إلى جزيرة العرب (٤).

الرواية العاشره: خطب ملك الروم فتاة من بني إسرائيل، وكانوا لايزوجون النصارى، فكادوا له، واستقدموه وقتلوه ومن معه، وخافوا انتقام الروم ففروا الى الحجاز، وتبعهم جيش الروم فهلك عطشا في منطقة اسمها

---

١) ابن خلدون ٣٤٢/٢

٢) الطبري ٥٣٨/١ وقد أشار الى وجود العماليق قبلهم، ابن كثير ٣٦/١ وقد جعل الأوس والخزرج يسبقونهم، الروض الأنف ٢٥١/٢، وفاء الوفاء ١٦٠/١

٣) يثرب قبل الإسلام ص ٣٧ تاريخ فلسطين القديم ٨٩ اليهود في شبه الجزيرة العربية ٥٩. قلب جزيرة العرب ٢٥٩

٤) اليهود في شبه الجزيره ٦٠، قلب جزيرة العرب ٢٥٩

ثمد الروم (١)٠

وكما نرى فان الروايات الست الأولى لاتثبت للنقد والتمحيص، ولاتعدو أن تكون حكايات قصاصين صنعوا من خيالاتهم ماشاؤوا، فالروايتان الأوليان تتحدثان عن حج موسى عليه السلام، والأولى تجعل اليهود موجودين في يثرب قبل وصول موسى، إلى درجة أن موسى وهارون يخافان منهم، ولاتخبرنا الرواية عن سبب خوفهما من اليهود، ولا نجد في سياق الرواية ما يقنع بها، ثم إن المؤرخين الذين تحدثوا عن وفاة هارون ذكروا أنها حدثت في فلسطين وليس في الحجاز، وقد ساق الطبري عدة روايات لاتخلو من مظاهر خارقة، ولكنها تتفق على أن موت هارون وموسى عليهما السلام كان في فلسطين (٢)، وينقل عن أهل التوراة أنهم يقولون: هلك هارون وموسى في التيه (٣)، أما أسفار العبرانيين فتذكر أن هارون مات في العقبة عند جبل اسمه هور، ودفن فيه (٤) ويبدو أن رواية هذا الإصحاح وصلت إلى بعض القصاصين فحور اسم الجبل وجعله جبل أحد، ونقل هارون من فلسطين الى يثرب.

وكذلك الرواية الثانية التي تجعل طائفة من اليهود تتخلف عن موسى انتظارا للنبي المرتقب ﷺ، لايمكن قبولها منطقيا، لأن اليهود آنئذ في عصر نبي يعيش معهم، ولو أرادوا ثواب الله لأطاعوه ولم يشتوروا من دونه ثم يتخلفوا عنه، وأما الرواية الثالثة فقد أشرنا إليها عندما تحدثنا عن العماليق وأسطورة القضاء عليهم على يد جيش بعثة موسى عليه السلام، ونذكر هنا أنه لم يثبت على الإطلاق أن موسى عليه السلام بعث جيشا إلى الحجاز، لا

---

١) عمدة الأخبار ص ٣٧، وفاء الوفاء ١٦٠/١

٢) الطبري ٤٣٢/١ - ٤٣٤

٣) السابق ١-٤٤١

٤) الاصحاح العشرون سفر العدد. أنظر ص (١٧) من هذا الكتاب

في المصادر التاريخية العربية ذات الشأن ، ولافي الأسفار اليهودية •

وقد أشرت إلى أن أصل الرواية خبر أورده صاحب الأغاني دون أي توثيق، وقد رفضها السهيلي من قبل (١)، أما الرواية الرابعة حول هجرة بني شمعون فلم يقل بها أحد من المؤرخين القدماء، وأول ما وردت في كتاب فؤاد حمزة (قلب الجزيرة العربية)، وقد استقاها المؤلف من سفر أخبار الأيام الأول، وأخذها عنه الدكتور الوكيل وقرنها برواية أخرى عند ابن النجار، وجعلها حقيقة مسلمة. والواقع أن سياق الخبر لايدل على أن اليهود وصلوا أرض الحجاز أو يثرب على الإطلاق، فقد ورد في السفر النص التالي: (ساروا ـ اليهود ـ إلى مدخل جدود إلى شرق الأردن ليفتشوا عن مرعى لماشيتهم ، فوجدوا مرعى خصيباً جداً، لأن آل حام سكنوا هناك في القديم، وجاء هؤلاء المكتوبة أسماؤهم في أيام حزقيا ملك يهوذا، وضربوا أخيمتهم، والعمونيون الذين وجدوا هناك ، وسكنوا أماكنهم، لأن هناك مرعى ماشيتهم، ومنهم من بني شمعون ذهب إلى جبل سعير خمسمئة رجل، وضربوا بقية المنتقلين من عماليق، وسكنوا هناك إلى هذا اليوم)(٢).

يدل النص على أن يهوداً من بني شمعون كانوا يبحثون عن مرعى لماشيتهم فاصطدموا مع قبائل في معان، ومع جماعة ((متنقلة)) من العماليق، وانتصر بنو شمعون وأقاموا في أماكنهم.

وقد ناقش هذا النص عدد من الدارسين، وقرروا أنه غامض مبهم، لايحدد زمنا لحركة تلك الجماعة، ولا لموقعها، فقبائل العمونيين لاتعرف على وجه الدقة مواقعهم. والخلاف بين العلماء شديد في ذلك، بعضهم يجعلهم في جنوب الأردن قرب العقبة، وبعضهم يضعهم في جنوب الجزيرة العربية بين

---

١) السهيلي الروض الانف ٢/ ٢٥١

٢) انظر: سفر الأيام الأول

ممالك اليمن القديمة (١). وقد ذكر الجغرافي الروماني (سترابون) اسم العمونيين في تلك المواقع، ويغلب على الظن أن اليهود الذين كانوا يعيشون حياة تنقل بماشيتهم آنئذ لم يتجاوزوا نهاية الأردن، وأنهم وقفوا على مدخل الجزيرة العربية ولم يتوغلوا فيها على الإطلاق.

وأما الرواية الخامسة فهي غامضة مبهمة، ولا تحدد زمنا بعينه، وأغلب الظن أنها إن صحت فستكون بعد زوال دولة اليهود وتفرقهم في الشتات.

وأما الرواية السادسة فغريبة تتناقض مع ما ذهب إليه ابن خلدون من قبل من أن اليهود قضوا على العماليق في وقت سابق. (٢) ولا نجد لهذه الرواية ذكراً في المصادر العربية الأخرى، وأما الأسفار اليهودية فتصرح بأن داود عليه السلام عندما ثار عليه ابنه ابشالوم خرج إلى جلعاد (٣) وجلعاد في شرق الأردن بإجماع الدارسين.

وأماالرواية السابعة فهي الرواية الأشيع في كتب التاريخ، وقد ذكرها الطبري وأخذها عنه السمهودي ورجحها على الروايات الأخرى (٤)، وهي تتفق مع منطق الوقائع، وذلك أن اليهود كانوا بتحريض من فرعون مصر (نخوا) يثورون على الدولة البابلية، وفي عهد بختنصر أعلنوا العصيان ونصبوا ملكا عليهم اسمه يوآحاز، ولكن بختنصر كبح العصيان وعزل يوآحاز وولى أخاه (الياقيم)، ومالبث الياقيم أن حالف فرعون مصر وأعلن العصيان على البابليين، فزحف إليه بختنصر وقهر مملكته وفرض عليها الجزية، فخضع حينا من الوقت، ثم عاد وأعلن العصيان ثانية فزحف بختنصر بالجيش وضرب

---

١) انظر آراء الدارسين المختلفة في: اسرائيل ولفنستون . تاريخ اليهود في بلاد العرب ٣ ـ ٥

٢) ابن خلدون ٢/١٠٠

٣) سفرالملوك الأول الاصحاح العاشر

٤) أنظر : الطبري ١ / ٥٣٨ ، والسمهودي ١ - ١٦٠

مملكة يهوذا وعزل الياقيم ونصب مكانه صدقيا، وبعد مدة حاول صدقيا الاستقلال عن البابليين واستنجد بملك مصر (وج أبرع) وعقد معه حلفاً، فزحف بختنصر وفي ذهنه أن ينهي المسألة اليهودية، فحاصر أورشليم، ودخلها عام ٥٨٦ ق م، وقتل ملكها وأعمل فيها السيف، ثم ساق معظم أهلها أُسارى وسبايا إلى بابل (١).

فخلال هذه الفترة المضطربة لابد أن يفكر بعض اليهود بالهرب من الأتون المحرق، وقد ذكر المؤرخون أن بعض اليهود استطاعوا أن يهربوا من البابليين (٢) وطبيعي أن يتجه الهاربون إلى مكان لايخضع لخصومهم، فاتجه بعضهم إلى مصر والتجأوا الى فرعونها فتبعهم بختنصر واحتل مصر وقتل ملكها وعدداً من اليهود (٣) واتجه بعضهم الآخر إلى الجزيرة العربية التي لم تدخل في سلطان البابليين، بينما كانت المناطق الأخرى المحيطة بفلسطين تحت سيطرة البابليين. ثم إن مفاوز الصحراء ستنجيهم لبعض الوقت. ويذكر الطبري أن بختنصر بعد أن فرغ من خراب بيت المقدس اتجه جنوبا لغزو العرب ووصل إلى ذات عرق، حيث التقى بالقبائل العربية التي تجمعت تحت زعامة عدنان، وهزم العرب، وانصرف بختنصر بغنائم وسبايا كثيرة (٤). والمدهش أن الطبري الذي ذكر من قبل توجه اليهود إلى الجزيرة العربية بعد أن شردهم بختنصر لم يعرض بشيء على الإطلاق لوجود اليهود في الجزيرة العربية، وأغلب الظن أن بختنصر عدوهم الأول لم يكن ليتركهم لو وجدهم في أي من المناطق التي دخلها، والأمر الذي يرجح عندي أن اليهود لم يستوطنوا في تلك المناطق بعد. ويزيدني اقتناعا بهذا الرأي ماكشفت عنه النقوش الأثرية

---

١) أنظر تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ٢٠٣ - ٢٠٥

٢) السابق نفسه.

٣) السابق نفسه.

٤) الطبري ١/٥٥٨ - ٥٦٠

في العلا عن تاريخ الملك البابلي نبونيد، الذي خلف بختنصر، وقد جاء نبونيد كما رأينا الى الحجاز وسيطر عليها، وجعل عاصمته فيها مدينة تيماء، وظل فيها عشر سنوات ومدّ سلطانه إلى خيبر وفدك ويثرب، وكان اليهود آنئذ سبياً في بابل يحظر عليهم الخروج منها، وكان البابليون من ألد أعدائهم، فكيف يمكن أن يسمح لهم نبونيد بالاستقرار في يثرب وتيماء وخيبر وفدك ؟؟.

فإما أن اليهود لم يصلوا على الإطلاق إلى مناطق الحجاز بعامة ويثرب بخاصة في عهد بختنصر ونبونيد، أو أن مجموعات ضئيلة قد وصلت ولاذت بتلك الواحات في سكينة كاملة وعاشت فترة امتداد بختنصر ومن ثم نبونيد إلى المنطقة في خوف شديد، ولم تكن تلك الجماعات قبائل كبيرة يمكن أن تشكل تجمعا سكنيا كبيراً بل كانت على الأكثر عائلات محدودة.

أما الروايات الثلاث الأخيرة، فجميعها تشير إلى هجرات يهودية في زمن الدولة الرومانية، وأغلب الظن أنها قد حدثت بالفعل، لأن اليهود سبق أن تشتتوا وأصبحت عودتهم الى فلسطين موضع خطر شديد عليهم، ومن الطبيعي أن تفكر قبائل كاملة منهم بالهجرة الى مواقع آمنة تبدأ فيها حياة جديدة، لاسيما وأن هارديان ـ بعد أن أعمل فيهم السيف والحرق ـ حرّم على من بقي منهم العودة إلى أورشليم، وقد ظل هذا التحريم ساريا بعد أن تحول الرومانييون إلى النصرانية، واستمر إلى الفتح الإسلامي للقدس، حتى ان كبير رهبان القدس طلب من عمر بن الخطاب أن ينص في معاهدة التسليم على منع اليهود من دخول القدس، فاستجاب له عمر رضوان الله عليه.

ننتهي مما سبق إلى ان اليهود لم يستوطنوا في يثرب في عهد موسى على الإطلاق ولا في عهد يوشع، ولا في عهد داود... وربما بدأت هجرتهم بسيطة محدودة بعد أن نكبهم بختنصر عام ٥٨٦ ق م. ولكن هجرتهم الحقيقية إلى الحجاز بعامة وإلى يثرب بخاصة، حدثت عندما نكل بهم الرومان في عهد تيتوس عام ٧٠م، ثم في عهد هارديان سنة ١٣٢م، وبين هذين

الزمنين خرجت قبائل يهودية كاملة من فلسطين واتجهت جنوبا في شبه الجزيرة العربية وبدأت تستوطن في الواحات، فنزل بعضها في تيماء ، وبعضها في خيبر، ووصل بعضها الآخر إلى يثرب، وكانت يثرب عامرة بمجتمع يضم قبائل عربية عدة، بعضها بقية من العماليق، وبعضها قبائل توافدت من أطراف يثرب القريبة والبعيدة.

ويذكر بعض المؤرخين أن أول من وصل إلى يثرب من اليهود ثلاث قبائل هم، بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع أو بنو يهدل، ثم تبعتهم قبائل أخرى، وكان أول منزلهم في موضع الغابة (قريبا من يثرب) فوجدوه وبيئاً فكرهوا الإقامة فيه، وبعثوا رائدا يتلمّس لهم منزلا أفضل، فاختار لهم منطقة (العالية) حيث الأرض خصبة يرويها واديان هما بطحان ومهزور، فنزل بنو النضير على بطحان ونزلت قريظة ويهدل على مهزور، واختارت قينقاع موضعها في الوسط. (١)، ثم تمددوا، وانتشروا على شكل قوس يشغل أخصب بقاع المنطقة.

اليهود في يثرب قبل الأوس والخزرج:

يجمع المؤرخون على أن اليهود نزلوا في يثرب قبل أن يرحل إليها الأوس والخزرج، باستثناء رواية شاذه ساقها ابن كثير، ويمكن أن نعد بدء الاستيطان الحقيقي لليهود في يثرب في القرن الميلادي الأول وما بعده للأسباب التي ذكرناها في الفقرة السابقة.

ويذكر المؤرخون أن الأوس والخزرج خرجوا قبل سيل العرم وخراب سد مأرب أو بعده مباشرة، ويقدر بعضهم ذلك الزمن بأواخر القرن الرابع الميلادي، وعلى ذلك فقد بقي المجتمع في يثرب مقتصرا على القبائل العربية المقيمة في يثرب منذ القدم، وعلى قبائل اليهود الوافدة ـ وأحسبها قد صارت أكثرية بعد حين - قرابة ثلاثة قرون.

---

١) المفصل ٥١٩/٦.

فكيف كانت يثرب آنئذ؟ ومن هم بقية سكانها؟؟.

يذكر بعض مؤرخي المدينة أسماء بعض القبائل العربية التي سكنت المدينة آنئذ، منهم أهل الهتمة (لعلهم التهاميون) ومنهم بنو مزيد أو مرثد، حي من بلي أيضا، ولعلهم كإخوانهم بني أنيف بقية من العماليق، ومنهم بنو معاوية، وبنو الحارث. ونجد أسماء بعض القبائل اليمنية التي وفدت إلى المدينة قبل الأوس والخزرج، مثل بني الجذمار(١) وبني الشطية(٢) وبني غاضبة(٣) وقد اطلع السمهودي على أسماء كثيرة منهم في كتاب ابن زباله الذي لم يصلنا ولم ير حاجة لنقل تلك الأسماء في كتابه (٤)، ويعد ابن النجار لتلك القبائل العربية ثلاثة عشر أطما، والأطم بناء حصين مرتفع يضم عددا من العائلات. ولا يعني هذا العدد القليل أن القبائل العربية كانت قليلة، ذلك أن معظم تلك القبائل كانت تسكن المنازل (٥)، ولم يكن يبني الأطام إلا القليل خلافا لما صار عليه اليهود عندما نزلوا يثرب ، فقد سارعوا لبناء الأطام لكونهم غرباء عن المنطقة، وما زالت في نفوسهم أثار الغزوات المريعة التي تعرضوا لها في فلسطين، وقد ذكرت بعض الروايات أن أطامهم كانت تسعة وخمسين أطما، مع أنهم كانوا نيفا وعشرين قبيلة!!(٦).

على أي حال فإن هجرات اليهود المتوالية بعد حملة تتيوس على فلسطين عام ٧٠م جعلت عددهم في يثرب يعادل عدد العرب المقيمين فيها أو يزيد عليهم، وقد سالم اليهود العرب المقيمين في يثرب وأحسنوا التعامل معهم أول

---

١) ابن النجار أخبار مدينة الرسول ص ١٤.

٢) المفصل ٥١٩/٦.

٣) وفاء الوفاء ١٦٣/١

٤) السابق ١٦٥/١

٥) أخبار مدينة الرسول ١٤

٦) وفاء الوفاء ١٦٥/١

الأمر، وانهمكوا في زراعتهم وبعض الصناعات التي كانوا يتقنونها -وسنعرض لها في فصل أخر- وأمنوا على أنفسهم بالاتفاق مع رؤساء القبائل الساكنة جوارهم على دفع إتاوة لهم وعلى تقديم الهدايا إليهم لاسترضائهم.(١)، ولكنهم كانوا يعيشون في أحيائهم حياة يهودية (يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤسائهم وسادتهم، ويدفعون لهم ما هو مفروض عليهم أداؤه في كل سنة)(٢) وهؤلاء السادة هم الذين بنوا الأطام والحصون، وكان أحبارهم يقومون بالأمور الدينية، ويقيمون لهم بقية شعائرهم، ويحكمون فيما يقع بينهم من خصومات. وقد اعتنى اليهود عناية خاصة بزراعة النخل، وكانوا يزرعونها قرب آطامهم ويمتدون بها في الأراضي الخصبة الشاسعة، وما يلبثون أن يبنوا آطاما جديدة بقربها، فاتسعت المساحة المشجرة وامتد العمران في يثرب وتميز بتقسيم واضح، قسم لليهود، بل منطقة أو حي لكل قبيلة منهم، فلم يكن اليهود يخالطون العرب في السكن إنما كانوا ينزوون في مناطق منفردة، وأتوقع أن تكون المساكن اليهودية قد امتدت على الأطراف الشمالية والشرقية وبعض الجنوبية من يثرب بدأً من منطقة الجرف وموازاة للحرة الشرقية ثم تلتف على مساحة شاسعة وتتجه غربا فتبلغ وادي بطحان حيث نزل بنو قنيقناع، أما القسم الأخر فهو قسم الأحياء العربية وكان ينتشر في وسط يثرب وفي قباء وفي موازاة بعض الأطام اليهودية، وكان على شكل تجمعات قبلية غالبا، حيث يسكن أبناء كل قبيلة متجاورين إلى حد ما، وربما يختلطون مع القبيلة الأخرى أو تتصل منازلهم في المنطقة الواحدة.

---

١) المفصل ٥١٦/٦

٢) المفصل ٥٣٣/٦

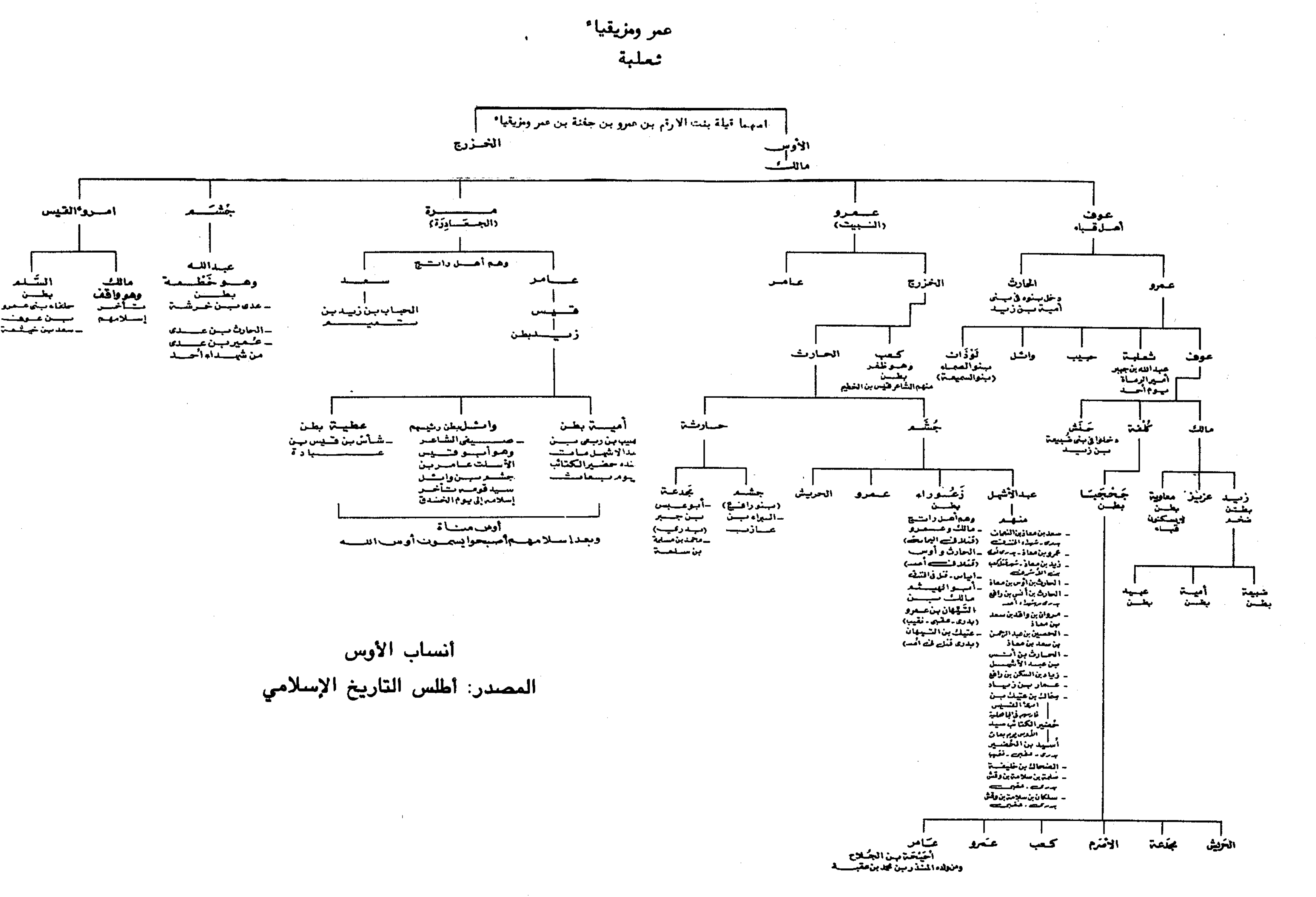
الأوس والخزرج في يثرب

لعل الحدث الأهم في تاريخ يثرب بعد نزول اليهود فيها هو وصول الأوس والخزرج إليها واستيطانهم في أطرافها أول الأمر، ويتفق المؤرخون على أن هاتين القبيلتين قحطانيتان، جاءتا من مملكة سبأ في اليمن قبيل، أو إثر، حادثة سيل العرم وخراب سد مأرب (١)، ولكنهم يختلفون في زمن حدوث ذلك السيل، ومن ثم في زمن هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب.

غير أن المكتشفات الأثرية الحديثة أظهرت أن السد قد تعرض لعدد من الانهيارات الجزئية وأُصلح مرة بعد مرة، وقد أدى التنازع والحروب الكثيرة بين ممالك اليمن إلى اضطراب أحوالها وقلة العناية بالسد وبالأقنية التي تنقل المياه للأراضي الزراعية الشاسعة، فبدأ القحط يضرب بعض مناطق اليمن، واضطربت الأحوال الاقتصادية، وازدادت سوءاً لاستمرار النزاعات السياسية والحروب الداخلية الصغيرة. وقد حركت هذه الأوضاع أطماع جيرانها

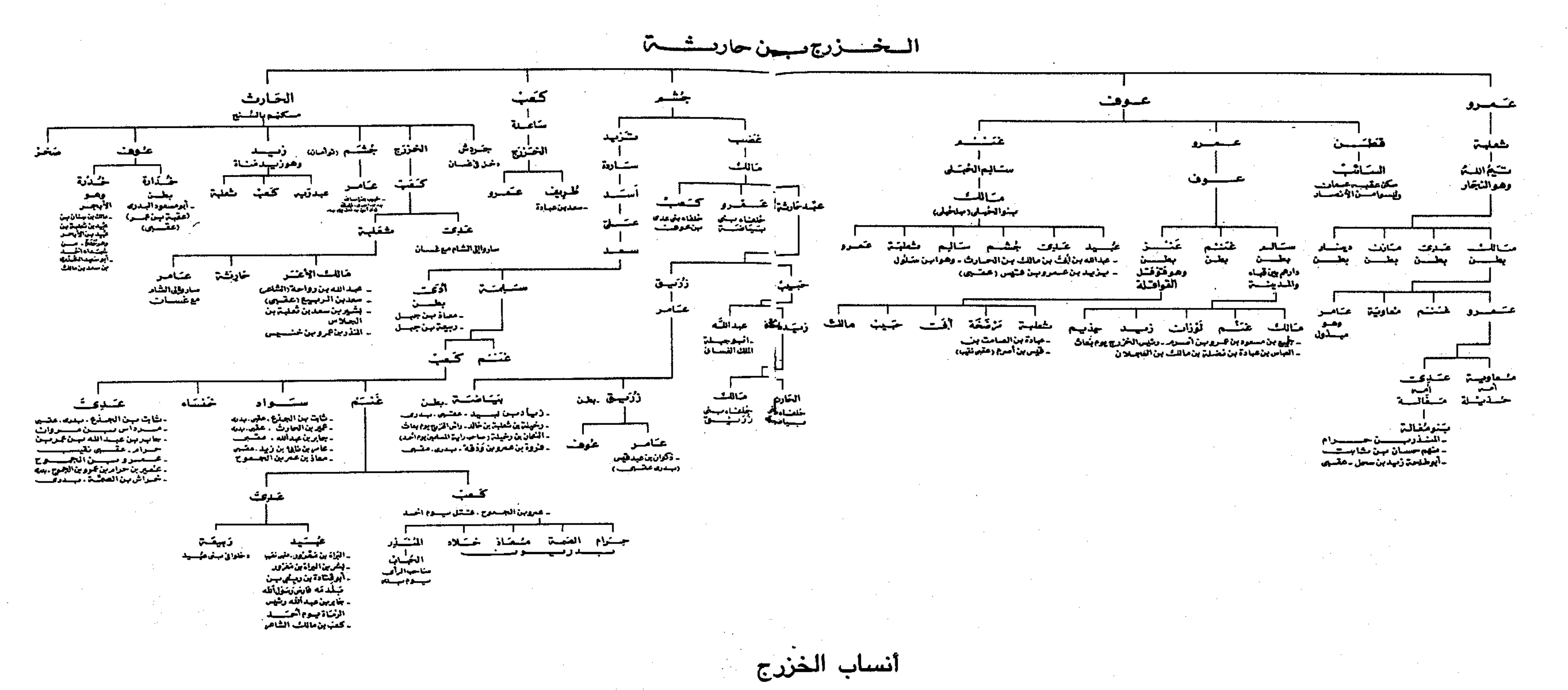
---

١) وهو سد بناه بعض ملوك اليمن، ويرجح بعض المؤرخين اعتمادا على عدد من الآثار القديمة، منها نقوش على بعض صخور السد، أن المكرب علي نيف، وابنه بتع أمرين، هما المؤسسان الحقيقيان للسد حوالي عام ٧٥٠ ق م، وقد زاد فيه خلفاؤهما وعنوا به مدة من الزمن، ثم قلت العناية به، فتعرض لعدة مشكلات وأصيب بأضرار شديدة مرات متوالية، وقد أقيم السد للتحكم في مياه الأمطار في عدد من الأودية التي تنصب من الجبال، وقامت خلفه بحيرة عظيمة، كانت تشكل خطرا شديدا على المدن والقرى والمزارع المجاورة عندما يتعرض السد لخلل أو انهيار جزئي، ويؤكد المؤرخون أن السد تعرض لعدد من الانهيارات الجزئية بدءا من القرن الأول الميلادي، بعدها أصلح عدة مرات، أكبرها عام ٤٥٠ م، وآخرها عام ٥٦٩ م. أما مملكة سبأ فكان أول انهيار بها عام ١٠٩ ق م حيث قامت على أثرها مملكة (سبأ وذي ريدان). أنظر المفصل ٢٨١/٢



أنساب الأوس

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي



أنساب الخزرج

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي

فتحرشت بها وهاجمتها مرة بعد مرة. وطبيعي في هذه الظروف أن تفكر بعض القبائل بالهجرة والبحث عن موطن بديل آمن.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن ماأجمعت عليه الروايات العربية القديمة من أن انهيار سد مأرب هو السبب في هجرة القبائل، ليس سببا وحيدا للهجرة، وأن الهجرة بدأت قبل انهيار السد بسبب الحروب الداخلية. وربما كانت الموجات الأكبر للقبائل المهاجرة قد حدثت إثر التصدع الكبير للسد وخراب بعض المدن والقرى التي اجتاحتها المياه، وقد أوردت بعض الكتب التاريخية العربية أخبارا عن خروج القبائل اليمنية من اليمن تختلط فيها الحقيقة بالخيال القصصي(١) والأرجح عندي أن الأوس والخزرج هاجروا مع القبائل المهاجرة حوالي القرن الثالث الهجري، ونزلوا يثرب، بينما اتجهت قبائل أخرى (غسان وعاملة وبهراء ولخم وجذام وتنوخ وتغلب) شمالا الى الشام(٢).

وصلت القبيلتان اليمنيتان الى موقع يثرب فأعجبهما ما رأتاه من أرض خصبة وينابيع ثرة ونخل وزرع كريم، وكانت المنطقة شاسعة لا تضيق بالقادمين الجدد، ويبدو أن حاجة اليثربيين (عرباً أو يهوداً) آنئذ الى مزيد من الأيدي العاملة لاستثمار الأراضي الأخرى، وصلة الأوس والخزرج السابقة بالزراعة وخبرتهم فيها، وحالتهم الاقتصادية المتردية ، فلم يكونوا أهل نعم

---

١) منها أن كاهنة تدعى طريفة بنت الخير الحميرية تنبأت بهلاك البلاد فخرجت بعض القبائل ، ومنها أن عمرو بن عامر اللخمي ، رأى جرذا يحفر في سد مأرب فعلم ألا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على الهجرة واصطنع الحيلة كي يبيع أملاكه ، فأمر أصغر أولاده اذا أغلظ عليه ولطمه أن يقوم ويلطمه ، ففعل ابنه ذلك أمام القوم ، واصطنع عمرو الغضب الشديد وأقسم أن لايقيم في البلد ، وعرض ممتلكاته للبيع فاشتراها الناس منه ورحل ، ورحلت معه الاوس . انظر البداية والنهاية ١٤٩/٢

٢) البداية والنهاية ١٤٨/٢

وثراء وخيل وأموال... بل كانوا قوة عاملة... كل هذه العوامل ـ وربما عوامل أخرى ترتبط بالأمن والدفاع عن المنطقة أيضا - جعلت اليثربيين يقبلون حلول الأوس والخزرج على أطراف مزارعهم، وجعلت الأوس والخزرج يقبلون العمل عند اليثربيين بالشروط التي تعرض عليهم، وعاشوا ردحاً من الزمن في جهد وضيق من العيش، ليسوا بأصحاب زرع ونخل، وليس للرجل منهم إلا الأجر الذي يأخذه عن عمله في مزارع اليهود أو اليثربيين الآخرين، وغالبا ما يكون شيئاً من الأعذاق والطعام الآخر، ثم بدأوا يقيمون مزارع بسيطة في الأرض الموات، وساعدتهم خبراتهم الزراعية التي نقلوها معهم من بلادهم على إنشاء مزارع محدودة أول الأمر، وما لبثت أن اتسعت قليلا، وصار لهم شيء من النخل، وكانت أعدادهم تتزايد مع الهجرات الخارجة من اليمن، وأخذ القدماء يستضيفون الجدد ويستفيدون منهم في توسعة المزارع، وكانوا يشعرون بقلتهم أمام أعداد اليهود الكبيرة، ويحسون بفاقتهم إزاء ثروات أولئك، ويوادعونهم أيما موادعة.

ولكن مع تزايد أعداد الأوس والخزرج، ومع نمو ثرواتهم وتحول مساكنهم الصغيرة إلى مزارع لابأس فيها، بدأ اليهود يتخوفون منهم، ويشعرون أنهم سينافسونهم في الزرع والضرع وربما يسابقونهم في التجارة والكسب.

ويبدو أن الأوس والخزرج أحسوا بما يحيك في صدور جيرانهم، فتداعى العقلاء من الطرفين الى حلف ومعاهدة، يلتزم فيها الطرفان بالسلام والتعايش، والدفاع عن يثرب إزاء الغزاة، وحماية بعضهم بعضا، فتعاقدوا وتحالفوا

واشتركوا وتعاملوا، فلم يزالوا على ذلك زمناً طويلا(١).

ولا ندري كم عاشت يثرب في ظل هذا الوئام، غيرأن تلك المدة كانت كافية كي يزداد عدد القادمين الجدد وتزداد أموالهم، وينافس بعضهم اليهود في المال والظهر والزرع ((فلما رأت قريظة والنضير حالهم، خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم، فتنمروا لهم حتى قطّعوا الحلف الذي كان بينهم)) (٢). ولم تكن منازل الأوس والخزرج مشتركة أو متساوية، فكان الأوسيون يقطنون بين الحرة الشرقية وقباء وملتقى وادي رانوناء والبطحاء والعوالي، فكانت مناطقهم أكثر خصوبة من مناطق أبناء عمومتهم وأقرب جواراً الى اليهود، وأماالخزرج فقد نزل بعضهم في الجهة الغربية ومنتصف يثرب عند وادي بطحان، وبعضهم في أول العوالي (أنظر المصور المرفق).

ولاشك أن التاريخ الثقيل الذي يحمله اليهود على ظهورهم من فلسطين، بما فيه من حروب طاحنة ومكر، والذي دونوه في أسفارهم وجعلوه تراثا لأجيالهم المتعاقبة، هذا التاريخ جعل اليهود شديدي الحذر، متخوفين من تشرد أخر، لذلك بادروا إلى الغدر خشية أن يُغدر بهم، وكانت الموازين تميل لصالحهم حتى ذلك الوقت رغم ازدياد عدد القادمين الجدد وثرواتهم، لذلك سرى الخوف إلى الأوس والخزرج، وخافوا أن يفقدوا الاستقرار الذي نعموا به والثروة التي بدأت تنمو في أيديهم.

بدأ اليهود، بعد أن قطعوا الحلف، يضايقون الأوس والخزرج ويحاولون إذلالهم، وتروي بعض كتب الأخبار روايات غريبة عن إذلال اليهود للأوس والخزرج، حتى لتزعم أن ملك اليهود (الفطيون) كان يدخل على بناتهم قبل أن يُهْدَيْنَ إلى أزواجهن، وفي اعتقادي أن هذه الرواية من خيالات القصاصين وبعض الإخباريين، أرادوا أن يصوروا بها ظلم اليهود وتجبرهم، وهذا

---

١) وفاء الوفاء ١٧٨/١

٢) السابق نفسه

التصوير مألوف في روايات الإخباريين وحكايات القصاصين، بل إننا نجد الحكاية نفسها في أخبار طسم وجديس، ونجدها أيضا في أخبار اليمامة(١)

وتمضي رواية الفطيون فتقول: إن أهل المدينة استعانوا بتبع للقضاء على الفطيون والتخلص من تلك الوصمة(٢). وثمة رواية أخرى تقرر أن الفطيون حاول أن يفرض تلك المهانة على الأوس والخزرج فقتلوه(٣) والملحوظ أن هذه الروايات متأخرة لانجدها في أي من كتب التاريخ المتقدمة، وهذا ما يزيد الشك فيها، فضلا عن أن الأنفة العربية لاتقبل تلك الحالة على الإطلاق.

ويروي ابن النجار أن الأوس والخزرج اضطربوا بعد إلغاء الحلف، وأنهم أقاموا في منازلهم وهم خائفون إلى أن ظهر فيهم مالك بن العجلان(٤) ولاندري كم هي المدة التي اضطربت فيها العلاقة بين اليهود وجيرانهم اليمنيين، ولا ندري أيضا متى ظهر مالك بن العجلان، ولكن السياق يدل على أن القوم توسّموا فيه القدرة على قيادتهم لمجابهة اليهود وتخليصهم من ذلك القلق، فسلموا له الزعامة، وكان مالك حصيفاً، أدرك أنه لن يتمكن من مواجهة اليهود بقومه وحدهم، فأخذ يبحث عن نصير قوي.

وهنا تختلف الروايات، فبعضها يقول أنه توجه إلى الغساسنة في الشام أو أرسل إليهم رسولاً يستثيرهم لنجدته، والغساسنة - كما هو معروف - أقرباء الأوس والخزرج يجمعهم أصل واحد، فقد خرجوا جميعاً من اليمن، وليس غريبا أن يهبوا لنجدتهم.

وتقول هذه الروايات ان ملك الغساسنة - أو أحد قادته الكبار - ويدعى

---

١) أنظر وفاء الوفاء ١ - ١٨٣ - ١٨٥

٢) السابق نفسه

٣) السابق ١-١٧٩.

٤) أخبار مدينة رسول الله ص ١٧

أبو جبيلة - جاء بجيش كبير إلى يثرب، وأوهم اليهود بأنه متوجه إلى اليمن، ونزل بأطراف يثرب، ودعا أبناء عمومته الأوس والخزرج إلى وليمة ضخمة ووزع عليهم الأعطيات، ورجع هؤلاء إلى يثرب تحت سمع اليهود وبصرهم، فلما دعاهم أبو جبيلة إلى وليمة مماثلة خرج إليه أشرافهم ومعهم خدمهم وعبيدهم، فأمر لهم بالطعام، ثم قتلهم عن أخرهم . وقد فعل ذلك (خيفة أن يتحصنوا في الحصون فلا يقدر عليهم)(١)وتقول روايات أخرى إن مالك بن العجلان استنصر ملك اليمن تبع بن حسان، فجاء إلى يثرب بجيشه وقتل أشراف اليهود بالحيلة نفسها، وحاول السمهودي أن يوفق بين الروايتين فقال: ولعل مالك بن العجلان قد كان توجه إلى ملك الغساسنة وبها تبع المذكور، فوقع من كل منهما نصرة، فأضافه قوم إلى تبع وقوم إلى أبي جبيلة الغساني(٢).

والأرجح أن أبا جبيلة الغساني هو الذي حضر لنصرة الأوس والخزرج لقرب الديار والقرابة.

وقد نتج عن هذه الضربة التأديبية لليهود تغير موازين القوى في يثرب، وعودة الوفاق بين الأوس والخزرج من جهة، واليهود الذين سعوا لكسب مودتهم من جهة أخرى. ومن الملحوظ أن الأوس والخزرج لم يستغلوا هذه الحادثة في اذلال اليهود أو طردهم أو اغتصاب أراضيهم ، واكتفوا بالآثار النفسية التي خلفتها الضربة بالباقين والعودة إلى الوفاق والمعايشة، وقد ثبت هذا الوفاق مدة من الزمن وأفاد الطرفين، وأثبت الأوس والخزرج وفاءهما لعهودهما. وتروي الأخبار أن تبع بن حسان غضب على اليثربيين وقصد

---

١) وفاء الوفاء ١ -١٨٠.

٢) السابق ١-١٨٢

تخريب المدينة، فوقف الجميع في وجهه، (١) مع أن الأوس والخزرج أبناء عمومته، وكان من الممكن أن يهادنوه ويحولوا غضبه إلى اليهود فيستأصلونهم.

وتنسب تلك الروايات إلى تبع بن حسان أنه خرج لمواجهة الفرس، فمر بالمدينة وفتحها، أو أنها سلمت له بالطاعة والولاء، ثم ترك فيها ابنه مع جارية صغيرة وتابع سيره إلى الشرق، فقُتل ابنه غيلة، فأقبل راجعا يريد تخريب البلدة. وحاول أن يمكر بأهلها كما فعل أبو جبيلة باليهود، ولكن اليثربيين فطنوا لمكيدته ولجأوا إلى الحصون، فحاصرهم تبع ورماهم بالنبل، وتماسك اليثربيون ووقفوا جميعا في وجهه، ثم خرج إليه بعض أحبار اليهود وأقنعوه بأن يكف عن يثرب لأنها - فيما عندهم من الكتاب - مهاجر نبي وقراره، ونجحوا باقناعه في كف الأذى عنها وصالح اليثربيين وأحسن إليهم. وتمضي الروايات فتبيّن أنه أعجب بالأحبار وطلب أن يرافقه بعضهم إلى اليمن، فخرج معه اثنان منهم، وتهّود تبع بن حسان وجعل اليهودية الدين الرسمي لمملكته، فانتشرت اليهودية في اليمن. ويرى بعض الدارسين أن اليهودية وصلت إلى اليمن قبل ذلك، منذ أيام سليمان عليه السلام وقيام المبادلات التجارية بين فلسطين واليمن.

ويمكن الجمع بين الروايتين بأن اليهودية وصلت الى اليمن منذ أيام سليمان ولكنها انتشرت انتشاراً محدوداً بين أفراد قلائل، فلما كانت أيام تبع بن حسان وحدثت هذه الحادثة ، تهود تبع ودعا قومه للتهود، ففشت اليهودية في اليمنيين، وفي هذه المرحلة من الوفاق تحرك أبناء الأوس والخزرج خارج الحزام الذي كانوا محتبسين فيه، وبنوا المنازل والآطام في قلب يثرب وتوسعوا في المزارع، وصار لكل بطن من بطونهم موقع أو مواقع كثيرة متجاورة وغير متجاورة، فملؤوا جهات يثرب كلها، وربما تخللت

---

١) السابق

منازلهم وآطامهم منازل اليهود وآطامهم.

وبعد ذلك أعاد اليهود حساباتهم وأخذوا يخططون لتغير جديد في مجتمع يثرب يستعيدون فيه سلطتهم، أو على الأقل يخضدون شوكة مساكنيهم من الأوس والخزرج بالذات، وقد عمدوا الى خطة ماكرة، فأعادوا التحالف معهم ولكن بطريقة جديدة هذه المرة، فقد فرقوا بين الأوس والخزرج في التحالف، وجعلوا كل قبيلة منهم تحالف واحدة من القبيلتين اليمانيتين تمهيداً لتحويل القبيلتين إلى المواجهة فيما بينهما، فتحالف بنو النضير وبنو قريظة مع الأوسيين، وتحالف بنو قنيقناع مع الخزرجيين. وبدأت كل فئة يهودية تسعر النار في حليفها على الطرف الآخر، وتبذر العداوة والشقاق بين القبيلتين العربيتين الشقيقتين، ونجحت الخطة الماكرة، واستطاع اليهود أن يحولوا وحدة القبيلتين وصفاءهما إلى مشاحنات قوية، مالبثت أن تحولت إلى حروب طاحنة استمرت مئة وعشرين عاما (١) ولم تنته تلك الحروب حتى جاء الاسلام وأطفأها.

معارك بين الأوس والخزرج:

بدأت المعارك بين الأوس والخزرج بحرب سمير ، وانتهت بحرب بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات، ومابين هاتين الحربين نشبت أكثر من عشرة حروب، وكان لليهود دور في إذكاء الفتنة في عدد منها، إذ كانوا يتحالفون مع فئة دون فئة، وسنستعرض بإيجاز الحروب التي ذكرها المؤرخون بين الأوس والخزرج، لندرك الحالة النفسية والأمنية وطبيعة العلاقات بين القبيلتين الشقيقتين في يثرب.

حرب سـمير:

أول تلك الحروب حرب سمير، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى رجل من الأوس كان السبب المباشر في إشعالها واسمه سمير بن زيد.

---

١) وفاء الوفاء١/٢١٥

ويروي الاخباريون أن رجلاً من قبيلة ذبيان اسمه كعب الثعلبي نزل ضيفاً على مالك بن العجلان الخزرجي، الذي تسبب في إذلال اليهود في يثرب، وحالفه. وفي أحد الأيام نزل كعب الثعلبي الى سوق بني قينقاع فوجد رجلا يسأل عن أعز شخص في يثرب ليبيعه فرسه الكريمة. فذكر كعب مضيفه مالك بن العجلان الخزرجي، وعارضه سمير بن زيد فذكر رجلا أخر من الأوس ((أحيحة بن الجلاح الأوسي)) وذكر رجل أخر رجلاً من اليهود، ولكن البائع اقتنع بكلام كعب ودفع الفرس إلى مالك بن العجلان، فغضب سمير الأوسي وتربص بكعب الثعلبي حتى تمكن منه وقتله، فثار مالك بن العجلان وطلب سميرا ليقتله ثأرا لضيفه، وجرت مفاوضات بين القبيلتين ليسلموه القاتل أو يدفعوا دية المقتول، وكانت الأعراف تقضي بأن دية الحليف نصف دية الحر، فعرض الأوسيون دفع الدية، فرفض مالك بن العجلان، وتحاشد الحيان، وأسرع بنو قريظة وبنو النضير فناصروا الأوسيين وأمدوهم بعدد من الرجال، واقتتل القوم قتالا شديداً، وانتصر الأوسيون ومن معهم أول الأمر، ثم تكررت المواقع، واستمرت متقطعة عشرين سنة، ومالك مصمم على قهر الأوس وحلفائها، وأدرك الأوسيون نية مالك، فأرسلوا الوسطاء وحكموا ثابت بن المنذر بن حرام، فحكم بأن تدفع دية كعب الثعلبي كاملة، وتعد القتلى الذين أصيبوا من الطرفين، ويقابل بعضهم ببعض، ثم يعطى من له زيادة في القتلى الدية، فرضي الجميع وعاد السلام بينهم.

ولا تخفى أصابع اليهود في هذه المعركة الطويلة، فهم لم يكتفوا بإحجامهم عن الإصلاح بين الحيين، بل ناصروا الأوسيين على الخزرج، ولا شك أن إذلال إحدى القبيلتين العربيتين إضعاف للوجود العربي بعامة، ولا استبعد أن يكون لبعض بني قينقاع أصبع خفة في استثارة سمير بن زيد في السوق، أو في تصعيد الموقف فيما بعد. أما الدور الخفي الذي أكاد أوقن أنهم لعبوه فهو حث الأوسيين على مواجهة مالك بن العجلان. ولا ننسى ما

في نفوس اليهود من حقد شديد عليه، حتى إن بعض الروايات تزعم أنهم لعنوه في بيوت عبادتهم (١).

حرب حاطـــــب:

النموذج الثاني للحروب التي أثارها اليهود، أو كان لهم يد في إثارتها هي حرب حاطب. وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى رجل من وجهاء الأوس يدعى حاطب بن قيس الأوسي، نزل عليه ضيف من بني ذبيان، ثم إن الضيف غدا إلى السوق فرآه رجل خزرجي، فقال لرجل من اليهود: لك ردائي إن كسعت هذا الذبياني (أي ضربته برجلك في دبره)، فأخذ اليهودي الرداء وكسع الذبياني كسعة سمعها من بالسوق ، فنادى الذبياني: ياالحاطب، كُسع ضيفك وفُضح، وبلغ الخبر حاطباً فجاء إلى السوق وسأل من كسع الذبياني؟ فأشاروا إلى اليهودي فضربه بالسيف، وعلم الخزرجي بذلك فأسرع وراء حاطب ليقتله، ولكنه لم يدركه، ووجد رجلاً من الأوس قرب منزل حاطب فقتله، وثارت الحرب بين الأوس والخزرج، وحاول بعض بني فزارة أن يصلحوا بين الحيين ويتحملوا دية القتيل فلم يفلحوا. ووقعت المعركة. فانتصرت الخزرج ودارت الدائرة على الأوس رغم مناصرة اليهود لهم.

ومن الواضح أن الأصابع اليهودية لم تغب عن هذه المعركة اثارة ومشاركة.

وهكذا اضطرب الجو العام في يثرب ثانية وفسدت العلاقات بين بطون الأوس والخزرج، واجتهد اليهود في إذكاء الفتنة ، ولئن صحت الرواية بأن الخصومة استمرت مئة وعشرين سنة، فلقد عاشت يثرب ثلاثة أجيال على الأقل أوقاتا عصيبة جعلتهم يثورون لأتفه الأسباب، ويحملون في نفوسهم استعداداً دائماً للتشاجر والقتال، فاذا وقع اعتداء على أحدهم نادى قومه للأخذ بالثأر، ولو كان الحادث سخيفاً أثاره فرد مغرور، أو صعلوك، أو

---

1) وفاء الوفاء ١٨٢/١ وأنظر تفصيلات حرب سمير في ابن الأثير ٤٠٢/١ ، المفصل ١٣٨/٤

غريب طارىء.

وقد طغت أخبار هذه الحروب على تاريخ يثرب قبيل الإسلام، وأصبحت شخصياتها موضع اهتمام الدارسين، حتى لانكاد نسمع شيئا عن أخبار البطون والقبائل العربية الأخرى التي سكنت يثرب مع اليهود والأوس والخزرج ، وليست هي بقليلة، وقد تحالف كل منها مع إحدى القبيلتين الشقيقتين، فتحالف ناس من جهينة وأشجع مع الخزرج يوم بعاث ، وتحالف ناس من مزينة مع الأوس، ودخلوا جميعا في أتون الخصومة الكبيرة واشتغلوا بها.

وقد بلغ اضطراب الجو العام في يثرب أيام حرب بعاث ذروته، حتى عزم كل فريق أن يفني الفريق الأخر، فلما رأى عقلاءهم كثرة القتل وسوء العاقبة إنِ استمر الأمر على ماهو عليه تداعوا إلى وضع السيف والرأفة بالآخرين، وأدركوا أن المستفيد الوحيد من هذه المذبحة هو اليهود، (فصرخ رجل من الأوس عندما رأى أبناء قبيلته يتعقبون الخزرج عند انكسارهم ليقتلوهم : يا معشر الأوس اسجحوا ولا تهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار الثعالب)(١).

حرب بعـــــــاث:

كان يوم بعاث موجعاً للطرفين، فهو حلقة كبيرة في سلسلة متصلة يخسر كل طرف مرة ويكسب مرة، فتزيد الأحقاد في النفوس، ويبقى فتيل الحرب قابلاً للاشتعال في أية لحظة ويعيش الجميع رهق الإعداد لمعركة قادمة ، وقد ظل الأوس والخزرج يستعدون لمعركة بعاث أكثر من شهرين، وتحالف الأوسيون مع بني قريظة وبني النضير وبني أوس اللات، بينما تحالف الخزرجيون مع مزينة وأشجع، وخالفهم عبد الله بن أبي بن سلول، واعتزلهم بعد مشادة مع أحد سادة الخزرج. والتقى الطرفان في منطقة تسمى بعاث، واقتتلوا قتالاً شديداً، وتضعضع الأوسيون وحلفاؤهم، وقتل عدد كبير منهم

---

١) الكامل ٤١٨/١

وبدأوا بالفرار، ولكن قائدهم حضير الكتائب ثبّتهم، فقاتلوا بشجاعة وهزموا الخزرجيين وحلفاءهم، وهمّوا أن يقضوا عليهم نهائيا، فتدخل أحد عقلاءهم وكفهم عن تتبعهم ، وسلب بنو النضير وبنو قريظة الخزرج المغلوبين (١).
لذلك (سئموا الحرب وكرهوا الفتنة وأجمعوا على أن يتوجوا عبد الله بن أبي بن سلول) (٢)، أي أنهم تعاهدوا على أن يتعايشوا بسلام ويقيموا نظاما سياسيا جديدا يديره عبد الله بن أبي بن سلول ليستتب الأمن وتنتهي الفتن.

وقد حدثت حرب بعاث قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم بخمس سنوات، وكانت آخر حرب بين القبيلتين الشقيقتين، فقد جمعهما الإسلام بعد ذلك، ألف بين قلوبهما.

حروب أخرى بين الأوس والخزرج:

إضافة إلى الحروب الثلاثة التي ظهرت أصابع اليهود فيها بشكل واضح ومباشر، نشبت عدة حروب، نعدها امتداداً للحرب الأولى التي أوغرت الصدور وحفرت فيها خنادق للعداوة لم تردمها المصالحات المتوالية، بل كان كل صلح أشبه بهدنة مؤقتة، تضع فيها الأطراف السلاح، وتلتقي وتتعايش فترة من الزمن، ولكن في أعماقها استعداداً لجولة قادمة، وتوثباً لثأر قديم لم تشفه الدية المدفوعة ولم تستأصل أحقاده العميقة جلسات الصلح ، لذلك سرعان ما تتوتر العلاقات لأتفه سبب وتبدأ موقعة جديدة.

وقعة بني جحجبا :

بعد حرب سمير التي انتصر فيها الخزرج حدثت واقعة تظهر عمق الشرخ الذي حدث بين القبيلتين الشقيقتين رغم ما بينها من قرابة قديمة ومن تزاوج وتصاهر قريب ، فقد بقيت في نفوس بعض الأوسيين الأحقاد ، وسرعان ما انفجرت على يد أحيحة بن الجلاح زعيم فرع من فروع الأوس هم بنو جحجبا.

---

١) أنظر أيام العرب في الجاهلية ص ٧٥

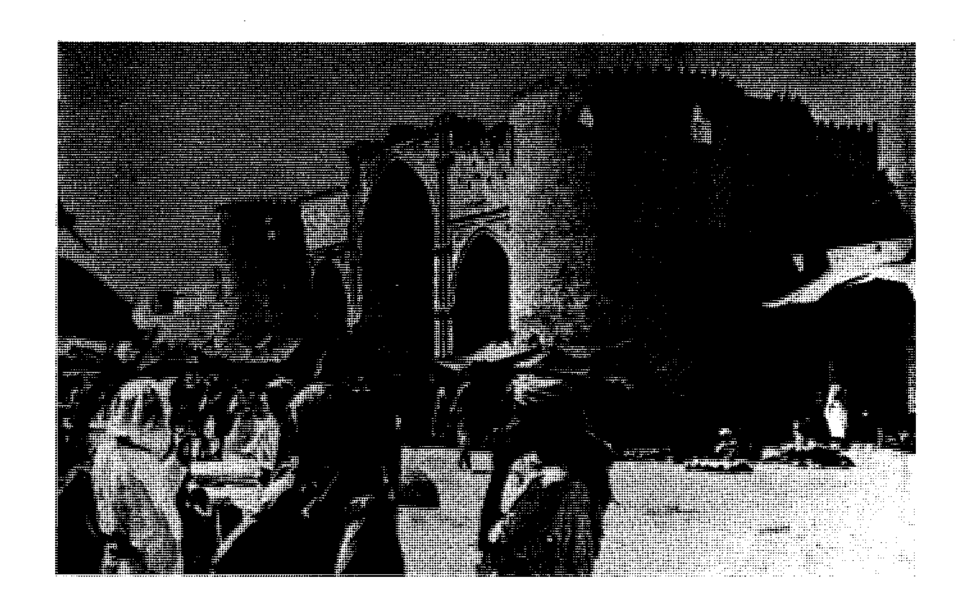
٢) ابن خلدون ٢/٣٤٦ - ٣٤٧

كان أحد الخزرجيين ـ وهو كعب بن عمرو المازني ـ متزوجاً امرأة من بني سالم أحد فروع الأوس، وقد أسكنها بيتاً في حي قومها القريب من حي بني جحجبا، فلم يطق أحيحة رؤية الخزرجي يمر من الحي ، فأمر جماعة من قومه أن يترصدوه، فترصدوه حتى ظفروا به فقتلوه، فلما علم أخوه عاصم بن عمرو المازني بذلك استنفر قومه بني النجار الخزرجيين، فخرج بنو النجار بفروعهم كلها ليثأروا للخزرجي القتيل، وخرج بنو جحجبا لملاقاتهم، وتلاقى الجمعان عند أطم يسمى الرحابة، واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم بنو جحجبا، ونجا رئيسهم أحيحة وقتل أخوه، ورغم هزيمة الأوسيين فان عاصم بن عمرو أخا القتيل لم يشتف، لذلك قرر أن يقتل أحيحة، وعلم أحيحة فاحتاط حيطة شديدة، وكانت له كلاب تحرس أطمه ، ومع ذلك فقد كاد عاصم أن يظفر به عندما فاجأه مرة خارج الأطم، ونجا أحيحة في اللحظة الأخيرة، وقرر أن يكسر شوكة خصومه فيهاجمهم فجراً، وعلمت زوجة أحيحة بما عزم عليه ، وكانت من الخزرج، فاحتالت لتبلغ قومها بحيلة ذكية، ربطت بعض أطراف طفلها بخيط، فأخذ الصغير يبكي بكاء متواصلا وهي تحمله وتحاول إسكاته ولايسكت، وسهر أحيحة معها معظم الليل، ثم فكت طرف الصبي، فهدأ ونام، وادعت أنها تشكو من آلام في رأسها لما عانته مع الصبي، وشدت رأسها، وطلبت من زوجها أن ينام فلما نام، وقد أتعبه السهر وبكاء الصبي، تدلت من الأطم بحبل، وتسللت إلى قومها فأنذرتهم بما عزم عليه أحيحة والأوسيون، وعادت بسرعة الى بيتها دون أن يفطن إليها أحد، وعند الفجر خرج أحيحة وقومه ليفاجئوا عاصم بن عمرو وبني النجار الخزرجيين فإذا بالقوم قد استعدوا لهم، وأخذوا يرشقونهم بالنبال، ثم خرجوا اليهم بالسلاح، وتضعضع الأوسيون وانسحب بهم أحيحة إلى حيّهم وقد أذهله ما حدث، وأدرك أحيحة أنه غدر به، واستطاع أن يكتشف ما فعلته زوجته فضربها ضرباً شديداً كسر يدها، وطلقها، فعادت إلى أهلها لتتزوج بعد ذلك هاشم بن عبد مناف ، وتلد

له عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مـوقـعـة الســرارة:

استمر مسلسل الخصومة والدماء، فقد لقي رجل من بني الحارث (من الخزرج) رجلاً من بني عمرو بن عوف (من الأوس) خارجاً من بئر أريس فرماه بنبل فقتله، وعلم قوم القتيل بذلك فسارعوا للانتقام وترصدوا القاتل وقتلوه غيلة، وكان اليثربيون يستفظعون قتل الغيلة، فلا يقتلون رجلاً في داره أو في نخله، وعندما اكتشف أهل القتيل الأمر تداعوا لحرب بني عمرو بن عوف الأوسيين، وأرسلوا إليهم ينذرونهم بذلك، وخرج الطرفان من حييهما والتقوا بمكان يسمى السرارة، وهي منطقة بين العوالي وقباء، وكان يقود الأوسيين حضير بن سماك، ويقود الخزرجيين عبد الله بن أبي بن سلول فاقتتلوا قتالاً شديداً، واستمرت المعركة أربعة أيام دون أن يحرز أحد الطرفين نصراً ساحقا، فانسحبت الاوسُ إلى حيها، ورأى الخزرجيون في ذلك نصراً لهم فلم يتبعوهم واكتفوا بتسجيل انتصارهم في قصائد شعرية يفخرون بها على خصومهم.



موقعة الحصين بن الأسلت:

انتقلت المواجهة إلى حيين آخرين من أحياء الأوس والخزرج بسبب خلاف بين رجلين من الحيين، من الأوس الحصين بن الأسلت، أخي الشاعر الأوسي المشهور أبي قيس بن الأسلت، ومن الخزرج رجل من فرع مازن الخزرجي لم تذكر المصادر اسمه، ونظراً لما في النفوس من شحناء فقد تحول الخلاف إلى نزاع شديد وقتل الحصينُ بن الأسلت الأوسيُ المازنيُ الرجلَ الخزرجيَ، وما إن بلغ الخبر الخزرجيين حتى بعثوا نفراً منهم فتتبعوا الحصينَ وقتلوه قبل أن يصل إلى داره، وكان من الممكن أن يقف مسلسل الدماء عند هذا الحد، فقد قُتل القاتل، ولكن الحقد الذي زرعته الوقائع السابقة جعل الأوسيين يقررون إعلان الحرب الشاملة على الخزرجيين، وأرسلوا ينذرون المازنيين بالحرب ، فاستنفر المازنيون إخوانهم الخزرجيين، وخرج الجمعان من حييهما لايكاد يتخلف أحد، والتقيا فاقتتلا قتالاً شديداً، وظفر أبو قيس بن الأسلت بقتلة أخيه في المعركة فقتلهم، وسقط القتلى من الطرفين، وصمد الخزرجيون، وما لبثوا أن تغلبوا على الأوسيين، ففر الأوسيون إلى أحيائهم.

موقعة فارع:

استمرت الخصومة بين الأوس والخزرج، فما تكاد تهدأ معركة حتى تنشب معركة أخرى كي لا تندمل الجراح، والمدهش أن الحيين كانا بعد كل موقعة يعودان الى الحياة العادية مكتفين بنتائج تلك الموقعة ومتحفزين إلى موقعة أخرى، ففتيل الحرب ينتظر أية بادرة من أحد الطرفين ليشتعل في معركة جديدة، وعوامل الاشتعال موجودة ومتعددة، تحرش من أحد الطرفين وينتهي بسقوط قتيل وتبدأ المعركة.

وفي هذه الموقعة يذكر المؤرخون أن شابا غريباً جاء من خارج المدينة - من بلي القضاعية - ليزور عمه المقيم في المدينة في جوار رجل من الأوس،

وهو معاذ بن النعمان بن أمرىء القيس الأوسي والد الصحابي الجليل سعد بن معاذ، وكان أيّ غريب يقيم في منطقة ما يستجير بواحد من أهلها الأصليين، فإن أجاره أصبح الغريب محمياً في دمه وماله، يدافع عنه مجيره ويثأر له إن قتل.

ولسبب لم تذكره المصادر تشاحن رجل من بني النجار الخزرجيين مع الشاب القادم لزيارة عمه، وتحولت المشاحنة إلى مقاتلة فقتل الخزرجي الشابَ القضاعي ، وغضب معاذ بن النعمان فأرسل إلى بني النجار يطالبهم بتسليم القاتل أو دفع الدية، فرفض بنو النجار، وأعلن الأوسيون أنهم سيثأرون للقتيل بقتل أحد سادة الخزرج (عمرو بن الأطنابة)، فاستنصر معاذ بن النعمان قومه، وخرجوا لقتال بني النجار، وخرج لهم بنو النجار، فالتقوا عند أطم يسمى فارع يملكه حسان بن ثابت، واقتتل القوم قتالاً شديداً استمر عدة أيام، وسقط القتلى من الطرفين، ولم تهدأ الحرب إلا بعد أن سعى عمرو بن الأطنابة في الصلح بين الطرفين، وتحمل ديات القتلى من ماله الخاص.

يـــوم الربيـــع:

تكررت المواقع في هذه الحرب، وحدثت معركتان كبيرتان كان كل حي فيهما يعد للقاء ويحرز النصر على خصمه بالتناوب، المعركة الأولى حدثت قرب جبل سلع في مكان يسمى الربيع، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً، وانهزمت الأوس وتبعهم الخزرج حتى إذا بلغوا دورهم كفّوا عنهم، وعرض الأوسيون المهزومون الصلحَ فوافقت جميع أفخاذ الخزرج إلا بنو النجار، فلم يأمن الأوسيون، وحصنوا نساءهم وذراريهم في الآطام توقعاً للقاء جديد، ومالبث أن حل هذا اليوم بعد أن استكمل الفريقان استعدادهما، وخرجا فالتقيا في بقيع الغرقد واقتتلا قتالاً شديداً، وانتصر الأوسيون هذه المرة وهزم الخزرجيون، وتنحى أبو قيس بن الأسلت عن القيادة لأنه يتطير منها ويعتقد أن قيادته تنتهي دائما بالهزيمة، وترك لقبيلته اختيار القائد، فاختاروا حضير

الكتائب بن السماك الأشهلي، والد الصحابي الجليل أسيد بن الحضير، فقادهم في معركة أخرى، بمكان يسمى الغرس يقع بين قباء والعوالي، وانتصر الأوسيون، فعرض الخزرجيون الصلح، وتم الاتفاق على حصر الديات، فمن أصاب في خصمه زيادة عما أصيب دفع دية الزيادة، وتبين أن الخزرجيين قتلوا ثلاثة أشخاص زيادة عما قتل منهم، فدفع الخزرجيون ثلاثة من غلمانهم رهائن عند الأوسيين الى أن يدفعوا لهم الديات توثيقا للصلح، وتوقفت الحرب إلى حين.

غير أن بعض الأوسيين لم تشتف نفوسهم بهذه النتيجة، فعمدوا إلى الرهائن الثلاثة فقتلوهم، وعلمت الخزرج بهذا القتل فاستنفرت للحرب ثانية، وبدأت حلقات أخرى من مسلسل الثأر والدماء.

موقعة الفجار الأولى:

سميت هذه الموقعة بفجار تشبيها لها بحرب الفجار التي نشبت بين كنانة وقيس في الأشهر الحرم، ولكن فجار الأوس والخزرج لم تقع في الأشهر الحرم، وإنما سميت بهذا الاسم بسبب غدر بعض الأوسيين بالرهائن الخزرجيين، وقد خرج الخزرجيون بقيادة عبد الله بن أبي بن سلول للانتقام لرهائنهم ولاقاهم الأوسيون بقيادة أبي قيس بن الأسلت في منطقة تسمى الحدائق، واقتتل الطرفان قتالاً شديداً، وأصيب الشاعر الأوسي قيس بن الخطيم بعد أن أبلي بلاءً حسناً، وحُمل جريحاً وانسحب الأوسيون ولم يتبعهم الخزرجيون، وأخذ كل فريق يستعد للقاء آخر.

موقعة معبس ومضرس:

خرج الفريقان بعد مدة، واحتشد الأوسيون في بستان يسمى معبس، واحتشد الخزرجيون قبالتهم في بستان يسمى مضرس، واقتتلوا قتالاً شديداً عدة أيام، وكان النصر فيها بالتناوب أول الأمر، ثم شد الخزرجيون فهزموا الأوسيين هزيمة منكرة لم ينهزموا مثلها من قبل، وتفرقت أثرها كلمة

الأوسيين فدعا بعضهم إلى مصالحة الخزرج وإنهاء الحرب ، وأصر بعضهم على مواصلة الحرب وإثخان الخزرجيين ثأراً للهزيمة المنكرة التي حلت بهم، وأصر كل على رأيه فصالح بعض الأوسيين الخزرج وهم بنو عمرو بن عوف وبنو أوس، وأصر على الحرب كل من بنو عبد الأشهل وبنو ظفر وغيرهم، فشن عليهم الخزرجيون غارات متوالية ليخضدوا شوكتهم ويحملوهم على الصلح، وكانت الغارات شديدة أحرق فيها الخزرجيون بعض نخيل خصومهم.

ولكن هؤلاء الأوسيين لم يذعنوا وقرروا الرحيل من المدينة والبحث عن حليف قوي يساندهم، والعودة بعد ذلك للقتال، وأعلنوا أنهم راحلون إلى مكة للعمرة، وكان من عادات اليثربيين أن من يريد الحج أو العمرة يعلق على باب بيته فروعا من شجرة النخل فلا يعترضه أحد، ولا يتعرض لأمواله وممتلكاته بسوء، فتركهم الخزرجيون يخرجون بسلام، فلما وصلوا مكة فاوضوا قريشا على محالفتها، وقبل القرشيون، وعقد الحلف، وكان أبو جهل غائبا عن مكة فلما قدم وعلم بالحلف أنكره وخشي أن يترتب عليه نتائج وخيمة في المستقبل، فهؤلاء الأوسيون قد ضلعوا في الحروب، وربما يسعون إلى السيطرة على مقاليد الأمور في مكة إن أقاموا فيها، أو يورطوا حلفاءهم فيما لاتحمد عقباه، وهو مالا يريده مجتمع قريش التجاري، لذلك عمد أبو جهل إلى الحيلة لينقض التحالف الذي أبرمه أبناء عشيرته ونجح في ذلك، وعاد الأوسيون إلى المدينة خائبين، ودخلوا في هدنة مؤقتة كادت أن تنهي التطاحن، لولا أن هبّ اليهود ليسعروا الفتنة ويوقدوا الحرب بين الأقارب من جديد.

بدأت الاتصالات بين الطرفين لعقد التحالف ضد الخزرج وأبدى اليهود من بني قريظة وبني النضير استجابة سريعة، فعادت نذر الحرب إلى يثرب وحدثت معركة جديدة سميت موقعة الفجار الثانية.

موقعــة الفجار الثانــية:

علم الخزرج بأمر التحالف بين الأوسيين الرافضين للصلح واليهود، فأرسلوا إلى اليهود يهددونهم وينذروهم بالحرب الطاحنة إن أتموا الحلف مع خصومهم. وأدرك اليهود أن التهديد جدي، ورأوا ضعف موقفهم وموقف حلفائهم إزاء الخزرج والأوسيين الذين صالحوهم، فأنكروا تحالفهم مع الأوسيين المعارضين للصلح، ولم يصدقهم الخزرجيون، فطلبوا منهم رهائن لتوثيق موقفهم، وسلم اليهود بعض غلمانهم للخزرجيين رهائن تضمن عدم محاربتهم للخزرجيين، وسكر أحد الشعراء الخزرجيين يوماً، وتغنى بشعر يفتخر فيه بإذلال الأوسيين واليهود وأخذ الرهائن منهم، فلما بلغ هذا الشعر اليهودَ غضبوا ورجعوا عن تعهدهم، وحالفوا الأوسيين خصوم الخزرج وأذاعوا خبر تحالفهم علانية، ورأى الخزرجيون أن اليهود قد حنثوا بعهدهم، ودعا عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي إلى طرد بني قريظة وبني النضير من المنطقة التي يسكنونها والانتقال اليها لكونها أفضل من المنطقة التي يسكنها الخزرج، ولكن بعض الخزرجيين رفضوا ما دعا إليه عمرو بن النعمان، وكان عبد الله بن أبي بن سلول في مقدمة الرافضين، وأرسل عمرو بن النعمان إلى اليهود يأمرهم بالخروج من ديارهم وإلا قتل الرهائن، فرفض اليهود الخروج، وقتل عمرو بن النعمان بعض الرهائن، وأبى خزرجيون آخرون أن يقابلوا الغدر بغدر مماثل وأطلقوا ما لديهم من رهائن، وكان منهم سليم بن أسد القرظي جد محمد بن كعب بن سليم الذي دخل في الإسلام فيما بعد، وخرج الأوسيون وحلفاؤهم اليهود لقتال الخزرج وخرج الخزرجيون لملاقاتهم، وتخلف عنهم الذين رفضوا قتل الرهائن وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، وحدث قتال شديد بين الطرفين لم يسفر عن نتيجة حاسمة، وعاد الأوسيون وحلفاؤهم اليهود الى أحيائهم يعدون العدة لمعركة قادمة فاصلة، هي معركة بعاث التي كانت خاتمة المسلسل الدموي بين الأشقاء والأقارب،

والدرس القاسي للأوس والخزرج معا، سقط فيه دعاة الحرب ورؤوس القوم العتيدة ، وتنبه الأشقاء لدور اليهود وفتنتهم، واصطلحوا على سلم نهائي، وتهيأت نفوسهم لاستقبال الدعوة الاسلامية.

والآن وقبل أن نودع يثرب في المرحلة الجاهليه، نطل بنظرة عاجلة على الجوانب الدينية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية والعمرانية خلال تلك المرحلة.

الديانات والعقائد في يثرب

عرفت يثرب عدداً من العقائد والديانات قبل الإسلام، تفرد بعضها بالسكان حينا من الدهر، ثم انحسر عن قسم منهم، لتشاركه معتقدات وديانات أخرى في بقية عهد يثرب إلى أن أشرق عليها الإسلام بنوره، وأكرم الله أهلها بهذا الدين الخاتم، فجمعهم عليه، ومحا ما كان قبله من أخلاط.

ولو فتشنا عن أول العقائد والديانات في يثرب فلن نجد إلا روايات متناثرة لاتتيح لنا الجزم بما كان سائداً في العصور السحيقة، وإلى أن تُظهر لنا المكتشفات الأثرية شيئاً من الرسوم أو الكتابات، فسوف نبقى في حيز التصور والافتراض، معتمدين على روايات لايدعمها دليل مادي، تختلط الحقيقة في بعضها بالخيال، ولا بد من تمحيصها قدر الإمكان.

ونحن في الحقيقة لانعرف بالضبط ما الذي كان عليه أهل يثرب الأوائل الذين أسسوها وسكنوها في مرحلة نشأتها الأولى، وسواء كان أهل عبيل مؤسسيها أو كان العماليق، فإننا لانملك معلومات وثيقة عن معتقدات أولئك.

والروايات التي تصل العبيلين والعماليق بنوح عليه السلام، تجعلهم قريبين منه إلى درجة نتوقع أنهم أوبعضهم ربما كانوا على **الدين القويم** الذي دعا إليه نوح، فآمن به من آمن وكفر من كفر، ثم نجّى الله المؤمنين دون الكافرين، ولكن رواية الطبري عن معصية ذرية نوح من بعده تنسف ذلك الاعتقاد فقد روى الطبري أن جميع أحفاد نوح قبل أن يتفرقوا كانوا على الاسلام، إلى أن ملكهم نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح، فدعاهم إلى عبادة الأوثان ففعلوا، وأصبحوا وقد بلبل الله ألسنتهم، فجعل بعضهم

لايعرف كلام بعض، وتفرقوا في الأرض(١).

وعلى هذا فإن يثرب مؤسس المدينة كان قد تحول إلى **الوثنيـة** هو ومن معه من آل عبيل أو العماليق. ولئن صح أنهم جاؤوا من أرض الرافدين - حيث الحضارة السومرية هي الحضارة الأولى بعد الطوفان - فلا بد أنهم قد نقلوا معهم وثنيتها، وهذه الوثنية حفظتها لنا بعض النقوش والتماثيل التي كشفت عنها بعض الحفريات.

كانت وثنية السومريين بسيطة سانجة أول الأمر، تسعى إلى تجسيد الإله في أحد المظاهر الحسية، كالمظاهر الكونية مثل الشمس والقمر، أو الحيوانية كالثور والغزال. وبعد مدة طويلة من الزمن ازداد التجسيد الحسي فصنعت التماثيل لتلك الإلهة، وصارت تعبيراً رمزياً عنها، واتخذت أشكالاً كثيرة، أدناها تشكيل طبيعي، حيث يكون الوثن صخرة أو جذع شجرة، وأعلاها صنم مصنوع بعناية، يصور إنسانا أو حيواناً أو مزيجا مركبا من الإنسان والحيوان، مثل ثور له رأس إنسان أو مثل أبي الهول، وكانت عبادة الشمس أقدم العبادات، لأنها تصور في المعتقد الوثني السانج (نور الآلهة) (الذي كان يقضي الليل في الأعماق الشمالية حتى يفتح له الفجر أبوابه فيصعد في السماء ويضرب بعربته في أعماق القبة الزرقاء، ولم تكن الشمس إلا عجلة في مركبته النارية)(٢)ولم تكن المعابد معروفة في الفترة الأولى، وقد استحدثت بعد مدة طويلة وصار لها كهنتها، وكان الساحر أول كاهن يقيم الطقوس ويؤثر في القبيلة، ولم تكن قضية الجنة والنار والنعيم الدائم والعذاب المخلد قد استقرت بعد في عقولهم، ولم يكونوا يقومون بالصلوات والقربان طمعاً في الحياة الخالدة، بل كانوا يقومون بها طمعا في النعم المادية

---

١) الطبري ٢٠٧/١

٢) قصة الحضارة ٢٩/٢.

الملموسة في الحياة الدنيا(١).

وأما الأصنام التي كانوا يتقربون إليها فلم يصلنا شيء من العرب البائدة، بل إن العرب العاربة لم تعرف الأصنام إلا في عهد متأخر، عندما جاء بها عمرو بن لحي من الشام(٢) غير أن المؤرخين يقفون عند الآية التي ذكرت أصنام قوم نوح، وهي قوله تعالى (وقال نوح ربّ إنّهمْ عَصَوْني واتبعوا مَنْ لم يزده ماله وولده إلا خسارا، ومكروا مكراً كُبّاراً، وقالوا لاتذرن آلهتكم، ولا تذرن وداً ولا سُواعاً ولا يَغوثَ و يعوق ونسراً)(٣) ويشيرون إلى أن هذه الأصنام عبدت ثانية بعد الطوفان، وأن العرب من ولد إسماعيل عادوا إليها وعبدوها (٤) ولا نعرف هل كان ذلك في عهد العرب البائدة وهل وصلت تلك الأصنام إلى يثرب في عهد السومريين والعماليق؟؟.

على أية حال لم يشتهر في يثرب أي من الأصنام، ولم يقترن باسمها وثن أو صنم معين، حتى في الجاهلية الأخيره التى وصلتنا أخبارها.. لذلك فإني أميل إلى أن الديانة الوثنية التي كانت في الجاهلية الأولى على عهدالعبيليين والعماليق لا تعدو أن تكون عبادة الكواكب والتقرب بها للآلهة، يقرب إليها اليثربيون القرابين لتعطيهم محصولاً وفيراً، وتبعد الأرواح الشريرة عنهم وتحميهم، وتحمي ماشيتهم من كل عدوان. ولا بد أن هذه الوثنية الساذجة - التي لم تكن تتخذ معبداً محدداً، ولا أصناما منحوتة - قد تطورت عندما شاعت الأصنام في الجزيرة العربية، فوصل إلى يثرب شيء منها، سواء عن طريق ماوزعه عمرو بن لحي على القبائل - علماً بأن قبائل يثرب لم تُذكر بين من أخذوا الأصنام منه - أو عن طريق الشام مباشرة، أو بتقليد من

---

١) السابق ٢/٣٠

٢) الروض الأنف ١/١٠٢

٣) سورة نوح الأية ٢١ وما بعد

٤) الروض الأنف ٢/١٠٣ والأصنام ٨ وسيرة ابن هشام ١/٩٦

رأوهم في أسفارهم. ولا بد أن البيوت اليثربية قد عرفت في الجاهلية الثانية شيئا من الأوثان أو الأصنام، لاسيما وأن اليثربيين كانوا يحجون إلى مكة، شأنهم في ذلك شأن جميع العرب، ويطوفون بالكعبة المليئة بالأصنام مع غيرهم من الجاهليين.

وتشير الروايات الى أن بيوت يثرب كانت فيها أصنام مختلفة عندما بدأ المسلمون يتوافدون إليها مهاجرين من مكة، وخاصة بيوت السادة والأثرياء وهناك قصة صنم عمرو بن الجموح وما فعله أبناؤه به (١)، وقصة سهل بن حنيف الذي كان يكسر أصنام قومه ليلاً ويعطي خشبها لأمرأة مسلمة لتجعلها حطبا في موقدها (٢) ولا بد أنهم تأثروا بهذا التقديس وابتاعوا شيئا من الأصنام التي كانت تباع في الأسواق وحملوها إلى بلدهم، وربما حمل بعضهم شيئا من حجارة الحرم وهو عائد إلى يثرب كما كان يفعل بعض الظاعنين من مكة قديما (٣).

وعندما وصل الأوس والخزرج إلى يثرب واستقام أمرهم فيها اتخذوا صنماً لهم اسمه مَنَاة. واختلف الرواة في تحديد مكانه، فقالوا مكانه في قديد على طريق مكة، وقالوا إنه بموضع ودان، وقالوا إنه في فدك مما يلي ساحل البحر (٤) ويرجح بعض المؤرخين المحدثين أنه كان بالمشلل على بعد سبعة أميال من المدينة (٥) كما اختلفوا في هيأته، فبعضهم قال إنه كان صخرة تراق عليها دماء القرابين، وبخاصة عند طلب المطر، وبعضهم قال إنه صنم منحوت من حجارة (٦) وكان أهل يثرب يقصدونه بعد عودتهم من الحج،

---

١) ابن هشام ٩٧/٢

٢) انظر : السابق ١٣٥/٢

٣) السابق ٩٥/١

٤) انظر: اليعقوبي ٢٥٥/١

٥) المفصل ٢٤٦/٦

ويحلقون رؤوسهم عنده، ويرون أن حجهم لايتم إلا إذا أقاموا عنده بضعة أيام (١) ومع أن عدداً من القبائل العربية الأخرى كانت تزور مناة وتذبح عندها .. فإن الأوس والخزرج بالذات ارتبط اسمهما به، حتى قال أحد الشعراء:

إني حلفت يمين صدق برة بمناة عند محل آل الخزرج(٢)

وقد بلغ من تعظيمهم لمناة أنهم لا يجعلون ظهورهم اليها، ويتحرفون في سيرهم حتى لاتكون مناة خلفهم، ويروي ابن هشام بيتاً في ذلك للكميت يقول فيه:

وقد آلت قبائل لاتُولّـــي مناة ظهورهـــا متحرفيـــنا (٣)

ويرجح بعض الباحثين أن مناة كانت وسط معبد بُني خصيصا لها. وكان لها سدنة يرتزقون من القرابين والنذور، وقد ظلت مناة مكانها إلى عام الفتح، حيث بعث رسول الله ﷺ أبا سفيان أو علي بن أبي طالب فهدمها (٤).

وأما **اليهوديـــة** فكانت الديانة الثانية بعد الوثنية زمناً وانتشاراً، فقد حمل اليهود إلى يثرب عقيدتهم التي كانوا عليها حينما هربوا من خصومهم الذين نكلوا بهم وقوّضوا مملكتهم، فبنوا الآطام والحصون، وكان معهم أحبارهم الذين يحتفظون بالأسفار وبالتعليمات الدينية، ويقيمون لسائر اليهود الطقوس الدينية ويوجهونهم في أمور دينهم وأحوالهم الشخصية. وكان يطلق على بني قريظة وبني النضير (الكاهنان) لأنهما ينتسبان إلى هارون عليه

---

٦) السابق نفسه
١) الأصنام ١٤
٢) الأصنام ٧
٣) السيرة النبويه ١/ ١٢٠
٤) السابق ١/ ١٠٢

السلام. ويبدو أن عدداً من الأحبار كان منهم، وعندما سكن اليهود يثرب كانت ديانتهم تختلف عن اليثربين الوثنين. فاليهود يدعون إلى إله واحد هو إله إسرائيل، وإنْ كانت تصوراتهم لا تخلو من أثار وثنية، وقد أقاموا معابدهم داخل آطامهم، وكان يطلق عليها اسم المدراس أو المدارش (١) ولم يشتهر لهم معابد عامة كبيرة، ولم تذكر كتب السيرة أسماء معابد مخصوصة، وقد رُوي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ دخل المدراس على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي الحزبين أنت يا محمد، فقال: على ملة ابراهيم فقالا: كان إبراهيم يهوديا، فقال لهم رسول الله ﷺ هلموا إلى التوراة (٢)، وكانوا يقيمون طقوسهم عند أحبارهم، فكل قبيلة منهم تذهب إلى حبرها في أطمه، كما كانوا يتقاضون عندهم ويحلون معظم مشكلاتهم وقضاياهم الشخصية. وقد ذكر القرآن الكريم أن أجيال اليهود كانت كثيرة المخالفات والمعاصي، وعزا كل ماوقع لهم من مصائب ونكبات إلى مخالفاتهم الدينية (.ضُرِبتْ عَلَيهمُ الذلةُ والمسكنةُ، وباؤوا بغضبٍ منَ اللهُ ذلك بأنهمْ كانوا يَكْفُرون بآيات الله، ويَقْتُلُونَ النبيينَ بغير الحق، ذلك بما عَصَوا وكانوا يَعْتَدُون) (٣).

ويبدو أن اليهود لم يهتموا بتغيير عقيدة الوثنية في يثرب أول الأمر، ولم يقوموا بالدعوة إلى دينهم... والمعروف أن الأنانية الحادة عند اليهود تحول دون تحمسهم لنشر عقيدتهم بين الأخرين، غير أنهم مالبثوا أن توجهوا إلى بعض العرب ونجحوا في تهويد بعض الأفراد. وقد ذكر اليعقوبي أن قوماً من

---

١) المفصل ٦/ ٥٥٠

٢) الطبري ٧/ ١٤٥

٣) البقرة ٦١

الأوس والخزرج تهودوا (١) ولكنه لم يذكر أسماء أية بطون أو أفراد، وذكر بعضهم أن بني جشنة، - وهم من بلي، بقايا العماليق - قتلوا نفراً من بني الربعة، فلجأوا إلى اليهود فأبوا أن يجيروهم حتى يدخلوا في دينهم فتهودوا (٢) وزعم المستشرق مرجليوث أن أغلب القبائل اليهودية من أصل عربي، لأن أسماءها - عندما ظهر الإسلام - كانت عربية، وقد رفض الباحثون هذا الزعم - وقرروا أن الأسماء وحدها لاتكفي لإعطاء رأي علمي في تعيين الأصول والأجناس، خاصة وأن اليهود لم يحافظوا على خصائصهم في الجزيرة العربية كما حافظوا عليها في البلاد الأخرى (٣) ولا شك أن بعض القبائل العربية قد تهودت، كقبيلة السموأل بن عادياء، وأن هذا التهوّد زاد اختلاط اليهود بالعرب، فلبسوا لباسهم، وتصاهروا معهم (٤) فتزوج اليهود عربيات، وتزوج العرب يهوديات، ولكننا لا نجد أثراً كبيراً لهذا الاختلاط في يثرب، وفي اعتقادي أن تأثير اليهود في اليثربيين الآخرين كان في الأمور التالية:

أولا : اجتذاب عدد محدود من اليثربيين - لم تصلنا أسماؤهم - إلى اليهودية، ونرجح أن يكون هذا قد حدث بعد استقرار اليهود في يثرب بمدة، وقبل أن تقع بينهم الدماء، فلما تجبر اليهود على اليثربيين وانتقم منهم اليثربيون على يد أبي جبيلة توقفت محاولات التهويد، وصار اليثربيون خصوما.

ثانيا : نشر بعض المفهومات الدينية السماوية بين الوثنين، كالبعث والحساب والقضاء والقدر والصوم، وخاصة صوم يوم عاشوراء، فقد ثبت أن

---

١) اليعقوبي ٢٥٧/١
٢) الأغاني ٩٥/١٩ (دار الكتب)
٣) تاريخ اليهود في شبه الجزيرة العربية ص ٩١
٤) المفصل ٥٣٢/٦

بعض العرب كانوا يصومونه رغم وثنيتهم، ومنهم قبيلة قريش (١).

ثالثا: وهناك أثر ثالث تحقق بوجودهم دون أن يقصدوه، وهو تهيئة اليثربيين بشكل غير مباشر لقَبول دعوة رسول الله ﷺ، ذلك أنهم كانوا اذا تضايقوا من الأوس والخزرج (قالوا لهم: إنّ نبياً مبعوثاً الآن قد أظلّ زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قَتْلَ عاد وإرم، فعلقت هذه الصورة في أذهانهم وعندما لقي رسول الله ﷺ بعض الخزرج القادمين إلى مكة عرض عليهم الإسلام، فقال بعضهم لبعض: ياقوم تَعَلموا -والله- إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه إلى ما دعاهم بأن صدقوه وقبلوا ما عرض عليهم من الإسلام) وكانت بيعة العقبة الأولى (٢).

الحنيفـية:

إضافة إلى الوثنية واليهودية يذكر بعض المؤرخين أفراداً في يثرب كانو على دين الحنيفية، وكانوا في أواخر العصر الجاهلي أدركوا هجرة الرسول ﷺ وقد اشتهر منهم رجلان فقط هما: أبو عامر عمرو بن صيفي (أو عبد عمرو بن صيفي) من الأوس، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس، من الخزرج، وكان الرجلان قد هجرا الأوثان ولبس أبو عامر المسوح فلقب بالراهب وكان كثير الأسفار، فلما ظهر الاسلام حسد النبي ﷺ وعانده وأخذ يُحرّض عليه، ولقبه رسول ﷺ الفاسق (٣) وقد شارك قريشاً في غزوة أحد، وحفر حفرا في ساحة المعركة قبل أن يصلها المسلمون وغطاها ليوقع بهم، وكان في مقدمة المقاتلين، بينما كان ابنه حنظلة في مقدمة المسلمين، واستشهد، ولقب بغسيل الملائكة، وقد استمر ابوعامر في معاداة الإسلام، وأسهم في تحزيب الأحزاب يوم الخندق، وأشار على المنافقين أن يبنوا مسجد الضِرار، وأن

---

١) أنظر غوستاف لويون. حضارة العرب ص ٩٩، وأنظر فتح الباري ٢٤٤/٤

٢) أنظر السيرة النبوية لابن هشام ٢٧٧/٢

٣) السابق ٣٠/٣

يستعدوا بالسلاح والقوة، وذهب إلى الروم ليستنفرهم على المسلمين، فمات هناك، وأما أبو قيس صرمة ابن أنس، وهو من بني النجار، فقد ترهب ولبس المسوح، وهجر الأوثان ودخل بيتاً واتخذه مسجداً لاتدخله طامث ولا جنب، وقال: أعبد رب إبراهيم، فلما قدم الرسول ﷺ إلى المدينة أسلم وهو شيخ كبير وحسن إسلامه (١) ولا تذكر الكتابات التاريخية أية تفصيلات عن الأحناف في يثرب. ولا أستبعد وجود أفراد آخرين من الأوس والخزرج تأثروا بالحنيفية، ففي رواية لابن هشام أن أبا عامر عندما خرج من المدينة كان معه خمسة عشر رجلا من الأوس والخزرج، وفي رواية أخرى خمسون(٢) إذن فمن المحتمل أن يكون بعض الأحناف موجودين ولكن لم تشتهر أسماؤهم ولم ترد أخبارهم.

---

١) الطبري ٢/٩٧، المفصل ٦/٥٠٤

٢) السيرة النبويه ٣/٣٠

الجانب السياسي في تاريخ يثـرب

يرجح المؤرخون أن يثرب كانت في معظم عصورها القديمة مجتمعاً مستقلاً بنفسه أو شبهَ مستقل، وكانت في عهود قليلة تابعة لمملكة في الجنوب أو في الشمال أو (منطقة نفوذ) لسلطة بعيدة عنها، تدفع إليها إتاوة سنوية.

والأخبار التي لدينا تدل على أن العبيليين والعماليق لم يؤسسوا في المرحلة الأولى من نشأة يثرب ملكاً واسعاً، إنما كانت كل مدينة تستقل بحدودها ومزارعها، وكان نظام الحكم أقرب إلى حكم العشائر، تخضع فيه القبيلة لسادتها ووجهائها، وكثيراً ما يكون السادة طبقة حكم تتشاور فيما بينها في الأمور المهمة، وكان نظام التكافل القبلي يقوم بدور كبير في حماية الأفراد من عدوان خارجي، غير أن العماليق في فترة متأخرة كوّنوا دولة عاصمتها تيماء، وحدودها دون يثرب، كانت تناوش العبرانيين في سيناء والنقب وفلسطين، فظلت يثرب محافظة على استقلال ذاتي، ولم تتأثر بالحروب التي خاضها العماليق، وبالخسائر التي أُصيبوا بها، ولم يرد ذكر يثرب في أية من المعارك التي ذكرتها الأسفار أو تناقلتها كتب الأخبار، أما الرواية التي تزعم أن جيش موسى عليه السلام قد استأصل العماليق من يثرب وغير يثرب، فقد تبيّن لنا أنها غير صحيحة على الاطلاق (١).

ولما كان مجتمع يثرب القديم زراعياً فإنه من الطبيعي أن تكون علاقاته السياسية الخارجية محدودة، فطبيعة العمل في الأرض تقتضي أن يكون صاحبها بجنبها معظم أيام السنة. ولايعني هذا أن اليثربيين كانوا منقطعين عن المجتمعات الأخرى المجاورة، أبداً، فمن اليثربيين من عمل بالتجارة وسافر إلى المدن المجاورة كخيبر وفدك وتيماء وتبوك ، ووصلوا إلى غزة، وكانت

---

١) أنظر مبحث العماليق في هذا الكتاب

ميناء هاماً، فباعوا بضائعهم فيها، ولكن الغالبية العظمى من السكان كانوا مزارعين.

كما أن طبيعة المجتمع الزراعي تجعله أقرب إلى الموادعة مع المجتمعات الأخرى المجاورة، وتجعل السكان لايرغبون في شن الحروب والغزوات على جيرانهم ولكنهم يخافون أن يشن الآخرون عليهم الحروب والغزوات، التي كانت جزءا طبيعياً من الحياة العامة، وموردا من الموارد الاقتصادية (الشرعية) لسكان الصحراء، ولكل من شحّت موارده. ولئن ضنت علينا الروايات بأخبار الحروب التي خاضها اليثربيون مع جيرانهم غزاة ومغزوين، فإننا نتوقع أن اليثربيين لم يدخلوا حربا كبيرة ولم يجتاحوا أيا من المدن المجاورة، ولكنهم لم يسلموا من غزو البداة من حولهم، وربما كانوا يكتفون بالتحصن في دورهم ومناوشة الغزاة، ويتعرضون لبعض الخسائر وللسلب والنهب وإحراق المحاصيل وقطع النخل، فكل هذه الأمور هي من سلوكيات الحروب القديمة بل ومن مسلّمات الحياة في تلك العصور، كما أن وصول النفوذ المعيني إلى شمالي الحجاز وحدود فلسطين يعني أنها خضعت للمعينين، وأن الجيوش المعينية اجتاحتها أو دخلتها سلما بعد أن وافق اليثربيون على دفع مبالغ معينة للفاتحين - وهذا ما أرجحه - فاسم يثرب قد ورد في الكتابات المعينية التي تتحدث عن مناطق السلطة والنفوذ المعيني، غير أن هذه السلطة لم تكن تتعدى تعيين مندوب لها في المدينة (وقد يكون من أهلها) بدرجة كَبْر (كبير) ليقوم بجمع الضرائب المفروضة عليها، ويحمي برجاله القوافل التجارية العابرة.

وقد استمر الحال على ذلك في عهد السبئيين الذين ورثوا الدولة المعينية وورثوا مناطق نفوذها، ولكن سلطة السبئيين مالبثت أن تقلصت وانحسرت عن المناطق البعيدة فعاد ليثرب استقلالها الذاتي.

ولم يتغير الأمر كثيرا عندما بسط نبونيد البابلي سلطانه على يثرب، فقد تحولت الضرائب التي كانت ترسل إلى المعينين والسبئيين إلى نبونيد الذي

أقام في تيماء، وازدادت حركة الاتصالات مع تيماء والمدن المجاورة لانضمام يثرب إلى منظومة البابليين في الحجاز.

غير أن وصول اليهود إلى يثرب واستقرارهم فيها قد أحدث شيئا من التغيير في العلاقات السياسية داخل يثرب وخارجها، فاليهود بتقوقعهم على أنفسهم وتكوين تجمعات خاصة بهم جعل نظام الحكم في يثرب يتجه الى مزيد من التعددية. وذلك أن اليهود كانوا يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤسائهم وأحبارهم، يدفعون لهم ما هو مفروض عليهم أوائل كل سنة(١)، وكان الرؤساء يتولون تنفيذ الأحكام التي يصدرها الأحبار على المجرمين والعصاة منهم، وكانوا يضعون الحراس على الممتلكات والمزارع أيام الثمر.

وتوحي الرواية التي تناقلتها الأخبار عن (الفطيون) أنه كان رئيس القبائل اليهودية كلها، وتسميه الرواية ملك اليهود، ومن المحتمل أن تكون كلمة اليهود قد اجتمعت على رجل منهم لمواجهة اليثربيين الأخرين مثلما اجتمعت كلمة الأوس والخزرج على مالك بن العجلان فيما بعد لمواجهة التحدي اليهودي وكسر شوكته، وكما اجتمعت كلمة بني سلمة على رجل يسمى (أمة) ليقاتلوا خصومهم، حتى ليرد لقبه في بعض الروايات ملك، ولكن طبيعة التقسيم العشائري والديني لقبائل اليهود والتنافس الشديد بينها(٢) لاتسمح لأي ملك أن تمتد سيطرتة على القبائل كلها، ولذا نعتقد أن اليهود في يثرب لم يصلوا إلى مرحلة تتويج ملك على القبائل اليهودية المقيمة فيها، فلكل قبيلة منهم زعيم، وإذا صادف أن أحد زعماء العشائر اليهودية كان ذا شخصية قوية استطاع أن يبسط نفوذه على الزعماء الأخرين مدة من الزمن، فسرعان مايقوم التنافس بين تلك العشائر بغياب الشخصية القوية الطاغية أو ضعفها، وقد

---

١) المفصل ٥٣٣/٦

٢) وفاء الوفاء ٢٠٤/١

أشار القرآن الكريم إلى صفة التنافس والتزاحم فيما بينهم إلى درجة الخصومة والقتال، ولا سيما في الفترات التي لا يهددهم فيها عدو خارجي، فقال تعالى (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى)(١)، وقال (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتُخرجون فريقا منكم من ديارهم تُظاهرون عليه بالإثم والعدوان)(٢).

وكان بنو قينقاع في شقاق مع بني النضير وبني قريظة، وقد وقعت بينهم خصومات ومشاجرات كثيرة. وفي يوم بعاث وقفوا مع الخزرج ضد الأوس وحلفائها اليهود الأخرين، وأُصيبوا بخسائر كبيرة اضطرتهم إلى ترك بعض منازلهم والالتجاء إلى داخل يثرب(٣) وذكر القرطبي صوراً من الصراعات التي كانت تقوم بين عشائرهم، والجرائم التي تقع، والتمييز الطبقي في معالجتها، فنقل عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان اذا قتل رجل من بني قريظة رجلاً من بني النضير قُتل به، وإذا قتل رجل من بني النضير رجلاً من قريظة ودُي مئة وسق من تمر، أي لايقتل به(٤).

وكان حيي بن أخطب قد حكم أن للنضري ديتين وللقرظي دية واحدة(٥)، وكان بعض حكامهم وأحبارهم يتحيزون ويحابون ويرتشون ويتساهلون في تطبيق الأحكام على الشريف، ويتشددون على الوضيع والفقير، وكان الشريف إذا زنى بالدنيئة رجموها هي، وحموا وجه الشريف وحملوه على البعير ولم يرجموه، واذا زنى الدنئ بالشريفة رجموه(٦) ولما هاجر الرسول ﷺ ضجّ بعض اليهود من حكامهم وأحبارهم ورفضوا غير مرة أحكامهم المتعسفة،

---

١) الحشر ١٤
٢) البقرة ٨٥
٣) المفصل ٦/ ٥٢٤
٤) القرطبي ٦/ ١٨٧
٥) الطبري ٦/ ١٥٧
٦) السابق نفسه

واحتكموا الى رسول الله ﷺ فحكم بينهم بما في التوراة.

أما علاقاتهم مع جيرانهم اليثربيين فكانت قبل وصول الأوس والخزرج طبيعية وودية في الغالب، واستمرت على هذا الحال بعد وصول الأوس والخزرج مدة من الوقت، ويؤيد ذلك مانراه من اتحادهم معا في مواجهة الجيش اليمني الذي قاده تبع بن حسان، ودفاعهم المشترك عن يثرب، ورغم أن الأوس والخزرج ينتميان إلى الأصول البعيدة ذاتها التي ينتمي اليها تبع.

ويروي ابن كثير أن (أسعد أبو كرب) أحد تبابعة اليمن الأقوياء غزا بلاد المشرق فمر في طريقه بالمدينة فلم يهج أهلها، وخلف بين أظهرهم ابنا له وتابع سيره الى خصومه فَقُتل ابنه غيلة، فعاد إلى المدينة وهو عازم على خرابها واستئصال أهلها وقطع نخلها، فاجتمع الأوس والخزرج بقيادة عمرو بن طلحة من بني النجار، وكان أحد بني النجار قد قتل جنديا من جنود تبع وجده في بستانه، فازداد تبع حنقا على اليثربيين وحاصر يثرب حصاراً شديداً، فخرج إليه بعد مدة حبران من أحبار اليهود وكلّموه وأخبروه أنه لايمكن أن يخرب المدينة لأن الله يحفظها، فهي مهاجَر نبي اقترب وقته، فأصغى لهما تبع وأعجب بكلامهما وترك حصار البلدة وتهوّد واصطحب معه الحبرين إلى اليمن حيث جعل اليهودية دين الدولة وحضّ الناس على التهود(١) غير أن هذه العلاقة مالبثت أن توترت عندما خشي اليهود من ازدياد عدد الأوس والخزرج، ومن قدوم مهاجرين آخرين من اليمن فحاولوا فرض نفوذهم على جيرانهم، ولكن الأوس والخزرج كسروا شوكة اليهود بقيادة مالك بن العجلان كما مر بنا من قبل. وهنا تغيرت سياسية اليهود وعادوا إلى محالفة القبيلتين ولكن كل على حدة، فتحالف بنو النضير وبنو قريطة مع الأوس، وتحالف بنو قينقاع مع الخزرج، وما لبث المكر اليهودي أن أشعل فتيل الحرب بين القبيلتين الشقيقتين، وأذكاها طوال مئة وعشرين سنة على ماتقوله

---

١) أنظر البداية والنهاية ١٥٢/٢

الروايات، وكان اليهود يشاركون حلفاءهم في بعض المعارك - فقد شاركوهم في يوم السمير ويوم حاطب ويوم بعاث - وتحملوا معهم شيئا من الخسائر، وغنموا من الغنائم في المعارك التي انتصر فيها حلفاؤهم.

أما العلاقات الخارجية بين يثرب وجيرانها بعد وصول اليهود فقد جد فيها جديد هو: اتصالات يهود يثرب مع التجمعات اليهودية في المناطق الأخرى، ولاسيما فدك وخيبر وتيماء ووادي القرى والعيص، ولم تتعد هذه الاتصالات المشاورات وتبادل الرأي، فلا نجد مشاركة بين اليثربيين (يهوداً أو غير يهود) وأبناء تلك المدن في مواقع أو مواجهات أو حروب ضد الآخرين، ولكن اليهود كانوا حريصين على عقد المعاهدات مع زعماء القبائل الأخرى وتقديم الهدايا لهم لاسترضائهم، ودفع إتاوة أحيانا(١)، وبالمقابل أقام الأوس والخزرج تحالفات مع بعض العشائر العربية المجاورة كمزينة وسليم وجهينة وفزارة، وكانوا يدفعون لبعض القبائل التي تسكن على طريق السفر مبلغا من المال، فيروي ابن شبة أنه كان لعيينة بن حصن الفزاري - سيد بني فزارة - إتاوة على أهل يثرب بعامة يأخذها كل عام(٢)، وهي في اعتقادي أشبه بضريبة حماية وتعهد بعدم الاعتداء، حماية لقوافلها والمسافرين من أبنائها في أرض الفزاريين، وتألفاً لعيينة بن الحصن المعروف بغاراته على القرى والمدن.

كما أقام الأوسيون والخزرجيون علاقات مع أبناء عمومتهم الغساسنة في الشام، وكانوا يترددون عليهم ويأخذون من أعطياتهم، وقد استنفروهم على اليهود عندما حاول اليهود إذلالهم ، ونجح مالك بن العجلان، كما رأينا ، في استقدام جيش من الغساسنة فتك بزعماء اليهود وأشرافهم، وكسر شوكة اليهود في يثرب.

---

١) المفصل ٦/٥٢٦

٢) تاريخ المدينة المنوره ٢/٥٣٨ -٥٣٩

وفي أواخر العهد الجاهلي كان حسان بن ثابت وقيس بن الخطيم اليثربيان يترددان على بلاط الغساسنة وينالان أعطياتهم، وقد حفظ الغساسنة لحسان المودة وأرسلوا له بعض الهدايا بعد أن طعن في السن وعمي، ولكننا لانجد أثرا لعلاقات رسمية جماعية بين يثرب والغساسنة بعد حادثة مالك بن العجلان، وربما لعدم حاجة اليثربيين لأقربائهم ثانية، ولانشغال الغساسنة بمعاركهم مع المناذرة.

ثم إن عدم وجود حكومة منظمة تدير الأمور في يثرب سبب هذا الفتور في العلاقات الخارجية بينها وبين الممالك الأخرى، فلم تكن يثرب مملكة ولا دولة بل مجتمعا زراعياً محدوداً له نظامه العشائري والبيئي المتعدد، وله همومه ومشاغله الخاصة لاأكثر ولا أقل، لذلك لانجد علاقات تذكر مع الفرس أو الروم (الدولتين العظيمتين آنئذ) ولا مع اليمن، باستثناء ما ذكرناه عن قدوم تبع بن حسان الى يثرب ثم انصرافه عنها.

الجانب الاقتصادي في مجتمع يثرب

أما الجانب الاقتصادي في مجتمع يثرب القديم فكان عماده الأول **الزراعة**، بسبب طبيعة الموقع وملاءمته لمؤسسي المدينة، فيثرب واحة خصبة، فضلا عن أن منطقة الحجاز كانت ـ كما يقول الرواة ـ أشجر أهل الأرض، وكثيرة العيون والينابيع، والمياه الجوفية قريبة لمن يريد أن يحفر الآبار، وهذا يجعل العمل الزراعي أول ما يتبادر لمن يستوطن المنطقة.

ويبدو أن العبيليين، حملوا معهم من بلادهم خبرات زراعية أولية، فبلاد سومر - أول مهد للحضارة بعد الطوفان - هي بلاد ما بين الرافدين، وعمادها الاقتصادي الأول هو الزراعة، ولا بد أن الذين خرجوا منها - لأسباب كثيرة - كانوا على شيء من الخبرة والممارسة في أعمال الحقول.

ولعل هذا التصور هو الذي جعل أحد الشعراء يرثي العبيليين ويذكر مآثرهم في يثرب، ومنها جهودهم الزراعية واهتمامهم بغرس النخل فقال:(١).

عين جودي على عبيل وهل يرجع مافات فيضها بانسجام
عمروا يثرب وليس فيها سفر ولا سارح ولا ذو سنام
غرسوا لينها ببحر معين ثم حفوا الفسيل بالآجام

(اللين : النخل)

ومع امتداد الزمن ومجيئ العماليق، ثم القبائل الأخرى، ثم اليهود، ثم الأوس والخزرج، كانت الزراعة تشد الوافدين وتغريهم بالعمل في الحقول، وليس من قبيل الصدف أن يكون جميع الذين استوطنوا يثرب لديهم ميول زراعية أساسية، ولديهم ممارسة سابقة في البلاد التي جاؤوا منها، فاليهود كانوا يزرعون ويحصدون في فلسطين، والأوس والخزرج خرجوا من بلاد المزارع الخصبة، وطبيعي أن يضع هؤلاء رحالهم في يثرب، لأنهم رأوها

---

١) انظر مروج الذهب ص ١٥٦

موافقة لخبراتهم ولميولهم.

ولا شك أن توافد المستوطنين إلى يثرب بعد العماليق قد أسهم في توسيع الرقعة الزراعية، وتنويع المحاصيل وتبادل الخبرات وازديادها، لذلك نجد تنوعاً واسعا في محاصيل يثرب أخر العصر الجاهلي.

فالتمر هو المحصول الأول والأهم عند اليهود والأوس والخزرج، حتى اننا نجد رسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب يشاور الصحابة في أن يعرض على المشركين إعطاءهم ثلث محصول التمر مقابل أن يرجعوا عن المدينة ، فيشير عليه الصحابة بغير ذلك، وما كان من الممكن أن يكون ثلث المحصول عرضا في مثل هذا الموقف الصعب لو لم تكن كميته وافرة وقيمته عالية مغرية، وللنخيل مكانة متميزة في نفس الحجازي بعامة واليثربيين بخاصة، إذ كانوا يستفيدون من كل أجزائها : من ثمارها في الغذاء والتعامل التجاري، فقد كان التمر يُعطى أجوراً للعمل أحيانا، ويكون معادلاً تجارياً في المبادلات، ويستفيدون من جذوعها وعسفها في صنع العرائش وسقوف البيوت وأعمدة الخيام، ومن لحائها ونوى تمرها لعلف الحيوانات، لذلك كانوا يجزعون أشد الجزع عليها في الحروب، وكان أقسى ما يمكن أن يواجهوه أو يواجهوا به خصومهم هو إحراق النخل.

وقد اشتهرت يثرب بأنواع متميزة من النخل الذي يعطي تموراً فاخرة مازالت حتى الآن: كالعنبرة والصفاوي أو الصفرة والعجوة والبرني... وغيرها.

ومن المزروعات المهمة في يثرب الحبوب، وفي مقدمتها الشعير والذرة ومن ثم القمح، فقد كان القمح قليلا فيها لايسد حاجتهم وكانوا يستوردونه

من الشام أواخر العصر الجاهلي وفي عصر النبوة(١).

ومن مزروعات يثرب الخضار كالكوسا والباذنجان والفاصولياء والدباء (القرع).... أما الفواكه ففي مقدمتها العنب والبطيخ والرمان.

وأما **التجارة** ... فمن المعروف أن التجارة تنشأ طبيعية وفطرية في كل تجمع سكاني. فمنذ أن ينتقل الفرد من مرحلة الانتاج الكامل لحاجاته الأولية البسيطة يصبح في حاجة لإنتاج الأخرين أو جهودهم، آنئذ تبدأ الصورة الأولى من التجارة، صورة المبادلات العينية المحدودة، ثم تتطور مع تقدم الانسان وتنوع إنتاج الأفراد والمجتمعات، وتنشأ الأسواق الصغيرة، وما تلبث هذه الأسواق أن تتحول إلى أسواق كبيرة يقصدها الناس، من داخل المجتمع ومن خارجه، ويبرز أفراد نشيطون يخرجون إلى أسواق أخرى ليبيعوا فيها بضائعهم ويشتروا ماليس عندهم، فتبدأ التجارة الخارجية وتتطور حتى تصبح تجارة دولية واسعة، هذا ناموس كل مجتمع، وهو ماكانت عليه يثرب، بدأت التجارة فيها في مرحلة تأسيسها الأولى، وكانت مبادلات صغيرة محدودة بين المستوطنين أنفسهم، وما لبثت أن اتسعت وشملت أنواع المحصولات الزراعية أولا، ثم الحاجيات الأساسية من أدوات منزلية وثياب وأخشاب، ثم الأسلحة المعروفة آنئذ: الرماح والأقواس والنبال والسيوف والدروع... الخ. وقد ساعد موقع يثرب على الطريق التجارية بين اليمن والشام على تنشيط التجارة، وكان في هاتين حضارة متقدمة وتجارة تحملها القوافل المسافرة فيما بينها، فصارت يثرب محطة استراحة للقوافل من جهة، وسوقا محلية يعرض فيها التجار ما يشتريه أهل يثرب منهم.

الأسواق التجارية

أنشأت الحركة التجارية النشطة في يثرب أسواقا عدة، **أولها** وأقدمها سوق بالجرف، حيث كانت يثرب القديمة، يُرَوِّح فيها الناس ثمانين جملا

---

١) فتح الباري ٤٣٧/٣

جونا، غير الألوان الأخرى، وعندما تحرك المد العمراني جنوبا زحفت معه السوق، ولكنها ظلت خارج المدينة من جهتها الشمالية، وقد عرفت فيما بعد باسم (سوق زبالة) وكانت سوقا موسمية أول أمرها ثم تحولت الى سوق ثابته.

السوق **الثانية** : تقع في قلب يثرب الجديدة على طرف وادي بطحان ، ذكرت باسم سوق جُباشة، ثم صاراسمها سوق بني قينقاع، أو سوق الجسر، وذلك لأن يهود بني قنيقناع نزلوا قربها ثم اتخذوها سوقهم، وبنوا فيها دكاكين للتجارة، وأخرى للصياغة، وأخرى لصناعة الأدوات المنزلية والأسلحة وسكك الحراثة والمناشير والملاقيط، وكان لهذه السوق جلبة تسمع من بعيد، وقد عظم أمرها أواخر العصر الجاهلي، وكانت ميدانا لفتن كثيرة، وعندما جاء المسلمون إلى المدينة تعاملوا فيها، ثم اختط رسول الله ﷺ سوقا خاصة للمسلمين فانصرفوا عنها، وحدث أن تحرَش أحد اليهود بامرأة مسلمة فيها فكانت بداية فتنة أدت إلى جلاء بني قينقاع عن المدينة وزوال تلك السوق، على نحو ما سيمر بنا بعد قليل.

السوق **الثالثة** : ذكر ابن شبه أنها بالصفاصف بالعصبة، والصفاصف كما ذكر السمهودي موضع بين سد عبد الله بن عمرو بن عثمان وبين العصبة، والعصبة موضع بقباء(١)، وعليه يكون هذا السوق جنوبي يثرب في موضع بقباء.

ولهذا السوق أصول قديمة تزعم بعض الأخبار، أنه كان فيه ثلاثمائة صائغ.

السوق **الرابعة** : في غرب المدينة بين قباء وبطحان، عند أطم يسمى مزاحم كان لعبد الله بن أبي بن سلول، ويبدو أن هذا السوق صغير لأن ابن

---

١) انظر ابن شبه تاريخ المدينة ٣٠٦/١، والسمهودي وفاء ١٢٥٢/٤ و ١٢٦٧/٤

جبل سلع

أسواق المدينة المنورة قبل الإسلام



السوق... كان منبسطاً من الأرض ليس فيه بناء. يأتي التاجر ببضاعته صباحاً ويعود بما بقي منها مساءً، والموقع لمن سبق إليه

شبه يذكر أنه في زقاق ابن حبين(١).

وكما نرى فإن هذه الأسواق الأربعة قد توزعت في جهات المدينة لتخدم سكان كل منطقة فيها، ولتكون سوقا عامة أيضا، وكانت أسواق يثرب قبل مجيئ بني قينقاع فضاء من الأرض ليس فيها بناء، يأتي التجار اليها صباح كل يوم ومن يسبق إلى مكان يضع فيه سلعته، إلى أن ينقضي النهار فيحمل كل تاجر مابقي لديه وماشتراه ويعود به إلى بيته الى اليوم الثاني، وهكذا، وعندما جاء بنو قينقاع بنوا الدكاكين في السوق الذي سمي باسمهم، وظلت الأسواق الثلاثة الأخرى ليس فيها بناء، وكانت هذه الأسواق منتجع البدو القادمين من خارج يثرب أيضا، يعرضون فيها ما يحملونه من مواش ومنتجات حيوانية وبعض صناعاتهم اليدوية البسيطة.

وقد نشطت حركة الأسواق عندما كثر سكان يثرب، وكان لليهود أثر واضح فيها، كما كان لهم أثر سلبي يتمثل في التعامل بالربا، سواء بالبيع الآجل ووضع زيادة ربوية تحسب حسب مدة السداد (النسيء)، أو بالإقراض الربوي المباشر، ففي خبر للواقدي أن أبا رافع بن أبي الحقيق أقرض أسيد بن حُضير ثمانين ديناراً يأخذها بعد سنة مائة وعشرين ديناراً، أي أن الفائدة الربوية كانت خمسين بالمئة، وهذا يرينا مدى الاستغلال الربوي الجشع الذي كان يمارسه اليهود(٢). وقد اتخذ المرابون محلات لهم في تلك الأسواق، وكان منهم من يقوم بأعمال الصرافه و بيع الذهب والفضة وتبادل النقود الرومية والفارسية واليمانية.

أما **الأسواق الخارجية** ليثرب فلا نجد ذكرا لغير غزة، ويبدو أن اليثربيين لم يكونوا أصحاب قوافل تضرب إلى الشام واليمن على نحو ما كان عليه أهل مكة، ولكنهم كانوا يشاركون في قوافل التجار الآخرين، وذلك

---

١) أنظر أبن شبه١/٣٠٦

٢) أنظر: المغازي ١/٣٧٤

لانصرافهم إلى الزراعة واغتنائهم بها، ولكون يثرب محطة للقوافل التجارية العابرة (١) فهم يجدون ما يريدونه في تلك القوافل دون الحاجة إلى عناء السفر، وكان نظام القوافل التجارية آنئذ يتيح الفرصة لصاحب المال أن يتاجر دون أن يسافر، إما أن يرسل نائبا عنه، أو أن يكلف أحد المسافرين في القافلة أن يشتري له ما يريد مقابل أجر معين. فقافلة أبي سفيان التي أراد رسول الله ﷺ أن يعترضها لم تكن ملكا لأبي سفيان أومجموعة قليلة من التجار، بل يشارك فيها معظم أهل مكة، وكان أبو رافع سلام بن أبي الحقيق كان يرسل تجارة إلى الشام مع القوافل ويستورد بواسطتها الأقمشة وبعض الخمر وقد ظل هذا الأسلوب متبعا إلى مابعد ظهور الأسلام، فكانت القوافل تحمل تجارة لبعض المسلمين دون أن يسافروا معها كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان.

ولا ندري مدى استفادة يثرب من الموانىء البحرية القريبة منها مثل ينبع والجار، ولكننا نتوقع أن بعض الواردات إلى تلك الموانىء كانت تجد طريقها إلى أسواق يثرب.

وأما أهم ماكانت القوافل تحمله إلى يثرب فهي: الأقمشة والزيت والخمر والعطور والذهب والفضة والأحجار الكريمة والرقيق والأسلحة والدروع. وأهم ماكانوا يبيعونة لتلك القوافل التمور والشعير والحلي التي يصنعها الصاغة اليهود وبعض الصناعات اليدوية للأدوات المنزلية...

وكانت العملة التي يتعاملون بها الذهب والفضة الخالصة... وكانوا يعتمدون على أوزانها، والدنانير الرومية والفارسية... فضلا عن التعامل بالمقايضة أحيانا.

---

١) أنظر ما رواه الطبري عن سعد بن عبادة عندما بايع الرسول صلى الله عليه وسلم ولحقه أهل مكة فأدركوه واعتقلوه ثم تركوه عندما علموا أنه يجير تجارة لجبير بن معطم بن عدي - الطبري - ٢/٣٦٧

الصناعـــة في يثــرب

الصناعة من نشاطات الأنسان الأولى أيا كانت درجته في المدنية... والانسان البدائي يبدأ بصناعة مستلزماته الأساسية.... عصاه التي يصطاد بها وسكينه التي يقطع بها ويدافع بها عن نفسه، وأيضا الأواني المنزلية التي يستخدمها..الخ ومع تقدم الزمن تتحول المهارات الفردية في الصناعة إلى تخصص يستغرق فيه صاحبه ويجعله عمله الأساسي ومورد رزقه.... لذا فمنذ استقر العبيليون والعماليق في يثرب بدأت معهم صناعات أوليه بسيطة تعتمد على معطيات البيئة الطبيعية، وفي مقدمتها الخشب الذي يكثر في اشجار يثرب، والصوف الذي تعطيه أغنامها.... ونحن لانملك معلومات واضحة عن مصنوعات العبيليين و العمالقة، ولم تصلنا بعد مكتشفات أثرية تبين لنا مدى ما وصل إليه أولئك الأقوام من رقي صناعي.

لذلك نتجاوز هذه المرحلة إلى الجاهلية الثانية التي وصلتنا أخبارها، ونجد في تلك الأخبار أن يثرب قد عرفت عدداً من الصناعات هي:

أولا: صناعات معدنية، كالمساحي والفؤوس ورؤس الرماح والسيوف والقدور والصحون، وكان يقوم بها فتيان يجلبهم أهل يثرب أو يشترونهم من القوافل التي تحمل الرقيق.. لأن العرب كانت تأنف العمل في الصناعة، وتسمي من يعمل بها: القَين، ولا سيما صنعة الحدادة. وعندما جاء اليهود كان فيهم من يعمل في هذه الصناعات، وخاصة بعض بني قينقاع، وكانت لهم في سوقهم (دكاكين) للحدادة والنحاسة.

ثانيا : صناعة الحلي والصياغة، وقد تخصص بها اليهود وازدهرت على أيديهم، حتى لتزعم بعض الروايات أنه كان في أحد أسواق يثرب ثلاثمئة

صائغ(١).

ثالثا : صناعة خشبية: لاشك أن توافر الأخشاب بكثرة في يثرب سيساعد على قيام هذه الصناعة وازدهارها... فقد ظهر عدد من النجارين المهرة، وظهرت مصنوعات خشبية كثيرة كالكراسي و(المناضد) وأبواب البيوت والنوافذ وأخشاب المحاريث والقتود و(الهوادج) والأَسِرّة والصناديق، وغير ذلك من الأثاث المنزلي. ويبدو أن بعض النجارين قد تفننوا في زخرفة مصنوعاتهم الخشبية، ولا سيما أبواب بيوت الأثرياء ونوافذهم وسقوفهم وبعض الأثاث.. فعندما جلى بنو النضير عن المدينة حمل بعضهم أبواب بيوتهم المزخرفة وبعض أخشاب سقوفها، مما يدل على قيمتها العالية(٢).

ويلحق بصناعة الأخشاب صناعة أخرى تعتمد على الأشجار، كصناعة الحصر والسلال.

ومن الصناعات التي عرفتها يثرب صناعة الخمر، وكانوا يصنعونها من العنب والتمور، ويخزنونها لاستعمالهم الشخصي وللبيع، وكان يعمل في هذه الصناعة العرب واليهود على حد سواء.

فضلا عن ذلك هناك بعض الصناعات التي في البيوت كغزل الصوف ونسج بعض البسط، وكان يقوم بها النساء أوبعض العبيد.

تربية الماشية:

إضافة إلى الموارد الاقتصادية السابقة، كان في يثرب مورد آخر هو تربية الماشية، وكان أغنياء اليثربيين يملكون قطعانا كبيرة من الماشية تدر عليهم أرباحاً طائلة، وكان معظم أهلها الأخرين يملكون أعداداً بسيطة منها يسرح بها الرعاة في أطراف يثرب الخصبة، وقد عدّ السمهودي اثنتي عشرة منطقة تسرح فيها الماشية حول المدينة، فضلا عن الغابة والرواحة وأطراف

---

١) أخبار مدينة الرسول ص ١٢

٢) السيرة ١٤٣/٣

الأودية والشعاب(١). ولكثرة الماشية ظهر عند اليثربين نظام (المحميات) أي المناطق المخصصة للرعي، لايحق لأحد أن يمتلكها أو يزرع فيها أويبني عليها، وكانت لهم حمى شمالي يثرب عند الغابة وحمى أخرى جنوبها قرب الربذة، وحمى ثالثة شرقها تدعى روضة عرينة مخصصة للخيول، وظلت كذلك في الإسلام(٢).

وأهم المواشي التي عني بها اليثربيون: الغنم والماعز والابل، أما الأبقار فكانت قليلة، وقد عنوا بالخيل عناية شديدة لأهميتها في الحروب والأسفار، تليها البغال والحمير لكونها وسائل نقل مناسبة للفِلاحة.

---

١) انظر وفاء الوفاء: ١١٢٣/٣

٢) انظر السابق ١٢٢٤/٤

الحياة الاجتماعية

لاتختلف الحياة الأجتماعية في يثرب في عصورها الأولى عن الحياة الأجتماعية في أي مجتمع فطري ساذج... فنظام القبيلة يفرز مجموعة من الأعراف تحكم العلاقة بين الأفراد، وتقسم السكان إلى طبقات متفاوتة هي:

الطبقة الأولى: وتضم الأحرار من أبناء القبيلة نفسها.. ولهؤلاء كل حقوق التملك والسيادة والتصرف ضمن أعراف القبيلة، وعليهم التزامات التكافل القبلي بدءاً بمصروفات رئيس القبيلة، ووصولاً إلى نصرة من يُعْتَدى عليه من أبناء القبيلة، والأخذ بثأر من يقتل منهم، والمشاركة في دفع ديات القتلى من خصومهم.

الطبقة الثانية: الموالي، وهم أفراد أو بطون عشائر لاتمت إلى القبيلة بصلة، لكنها هاجرت وجاورت أبناء القبيلة الأصلية ووالتهم... ولهؤلاء حقوق تقارب حقوق أبناء القبيلة في الحماية والدفاع عنهم والأخذ بثأرهم، ولكن ليس لهم أن يتزوجوا من بناتهم.

الطبقة الثالثة: العبيد، وهم الذين يمتلكهم الأحرار بالشراء أو بالأسر في الغزوات أو بالهبات أو بالإرث، لذا كان بعض العبيد يأتي بهم التجار من الآفاق، وبعضهم عرب خُلّص أُستُعبدوا بالغزو والأسَر.. وليس لهؤلاء حقوق تذكر، بل إن درجتهم كانت تنزل عن درجة البهائم... فالسيد يكرم فرسه ويعنى بها أيما عناية، ولكنه يجلد عبده، وقد يقتله لسبب تافه... لذا كان بعض العبيد يأبقون فينجون بأنفسهم أويُقتلون..

وعندما بدأت الهجرات الوافدة تحمل إلى يثرب اليهود ثم الأوس والخزرج لم يتغير الأمر كثيراً في هذا التقسيم الطبقي، فقد صار لكل من اليهود والأوس والخزرج، عندما استقروا وأثروا، موال وعبيد...

ولكن ظهرت ألوان من العلاقات الاجتماعية الجديدة بين الكتلتين

البشريتين الكبيرتين اللتين تتقاسمان يثرب، أعني كتلة الأوس والخزرج من جهة، وكتلة اليهود من جهة أخرى، وكانت العلاقات ودية أول الأمر، أثرت في بعض الأفراد والبطون القبلية فتهودوا، وكان من نتيجة هذا التهود أن تراخت الحواجز الاجتماعية بين الطرفين، فتزوج اليهود الوافدون من عربيات يهوديات وغير يهوديات، وتزوج العرب المتهودون من يهوديات وافدات، ولكن لانعرف في يثرب من تزوج من يهوديات ولم يكن يهودياً، لأن من الصعب على اليهودي أن يزوج فتاته لوثني، وبخاصة إذا أخذنا بالأعتبار نزعة الاستعلاء والتميز عند اليهود.

غير أن هذه العلاقات مالبثت أن فترت عندما حاول اليهود إذلال العرب، وازدادت فتورا عندما أدى سعي مالك بن العجلان إلى البطش بأشراف اليهود وسادتهم. ومع مرور الزمن وانشغال الأوس والخزرج بالفتن التي اشتعلت بينهم نجد أخبارا تحدثنا عن علاقات حميمة بين بعض الأوس وبني النضير، وبعض الخزرج وبني قينقاع.. وقد كان لهذه العلاقات الفضل في إنقاذ بني القينقاع من القتل عندما حاصرهم رسول الله ﷺ وأنزلهم على حكمه، فسارع عبد الله بن أبي ابن سلول حليفهم وصديقهم إلى التشفع بهم، وألح على رسول الله ﷺ أن يطلقهم فأطلقهم الرسول ﷺ وأمر باجلائهم(١). وقد خلفت هزيمة اليهود أمام الأوس والخزرج، أو مناصريهم، في نفوس اليهود مزيداً من المكر، جعلهم يستخدمون وسائل كثيرة للانتقام والتشفي. منها الحديث عن نبي أظل زمانه سيتبعونه وينتقمون من الأوس والخزرج، ومنها الإشاعة التي أطلقوها عن (التعشير)، حيث زعموا أنه لايصح أن يدخل أحد يثرب إلا من ثنية الوداع، ومن دخلها من منفذ أخر أصيب بمرض قاتل.. وعلى من يدخلها من ثنية الوداع أن يعشر، أي ينهق عشر مرات في نفس واحد، وقد بقيت هذه الأسطورة سائدة إلى أن جاء عروة بن الورد ليدخل

---

١) انظر الطبري ٢/ ٤٨٠

يثرب، فقالوا له أن يعشر.. فأبى وقال: يامعشراليهود مالكم والتعشير. قالوا: أنه لايدخلهاأحد من غير أهلها فلم يعشر بها إلا مات.. ولا يدخلها أحد من غير ثنية الوداع إلا أصابه الهزال.. فلم يبال بهم ودخل على أعين الناس وهم يترقبون أن تصيبه مصيبة.. ولكن لم يحدث شيء - بل تحداهم وقال شعراً:

لعمري لئن عشرّت من خشية الردى　　نهاق الحمير إنني لجزوع

فلما رأى الناس أنه لم يصبه شيء تركوا التعشير ولم يتقيدوا بالدخول من ثنية الوداع، ودخلوا من كل ناحية(١).

---

١) انظر تاريخ المدينة المنوره ١/٢٦٩

العمران وتطوره في يثـرب

أسست يثرب أول الأمر في منطقة محدودة تقع في الشمال الغربي من قلب المدينة المنورة الحالية، وظلت هذه المنطقة مدة من الزمن تحمل هذا الأسم، وعرفت في بعض الأوقات على أنها قرية من القرى التي تتشكل منها مدينة (يثرب) الكبيرة، وتقع هذه المنطقة في منبسط من الأرض يبدأ من شمالي جبل سلع ويمتد إلى أطراف أحد، ويسير في الاتجاه الغربي من أحد محاذياً لوادي قناة إلى أن يصل إلى القسم الأخير من مجرى وادي بطحان(١) وسواء كان العبيليون أو العماليق هم المؤسسين الأوائل، فلا بد أنهم استفادوا من طبيعة الأرض ومن أشجارها في صنع بيوتهم الأولى، وكانت أكواخا بسيطة مصنوعة من جذوع الأشجار وأغصانها، ثم تحولت إلى بيوت طينية تسقف بسوق الأشجار الطويلة وأغصانها، وكانت منتشرة وسط ذلك المنبسط، غير متلاصقة، لكل بيت أرض تحيط به وتفصله عن البيت المجاور(٢)ويؤيد هذا التصور روايات تذكر أن يثرب كانت سقيفة من الأرض، أي كانت بيوتا بارزة تشغل جزءاً واسعاً من الأرض. ونجد في التحليل اللغوي أن كلمة سقيفة تعني البيوت المبنية على (صفة)، أي مرتفع من الأرض(٣) وهذا أمر معهود في بناء كثير من البيوت بخاصة في الريف، و في المناطق القريبة من مسيل الماء، حيث يعمد منشيء البيت إلى إنشاء ردم صناعي ليجعل أرضية المنزل عالية، فإذا سالت مياه الأمطار كان البيت في مأمن من أن تتخلله.

---

١) انظر العباسي عمدة الأخبار ص ٥٩ وانظر المصور المرفق

٢) صالح مصطفى لمعي: المدينة وتطورها العمراني ص١٠

٣) اللسان ٣/٢٠٤٠

لذا يمكننا أن نتصور الشكل الأولي ليثرب على النحو التالي: تنتشر مجموعة من البيوت البسيطة في بقعة واسعة، تقدر مساحتها بثلاثة (كيلومترات) مربعة.. هذه المساحة خضراء معشبة، تتخللها أشجار غير كثيفة، ولكل بيت فسحة تحيط به من أطرافه، ويرتفع البيت عن الأرض مسافة بسيطة.

وبعض البيوت على شكل أكواخ من سوق الأشجار، وبعضها من الطين، وقد سقفت بجذوع الأشجار وأغصانها، ويتألف البيت من غرفة واحدة متوسطة الحجم، وربما تطورت بعد ذلك الى إضافة غرفة أخرى مجاورة عندما يزداد عدد أفراد العائلة. وخارج الغرفة سقيفة مصنوعة من أخشاب الأشجار أيضا، تتصل بجدران الكوخ، تقف فيها حيوانات صاحب الكوخ ومواشيه لتحميها من الشمس القائظة والأمطار.

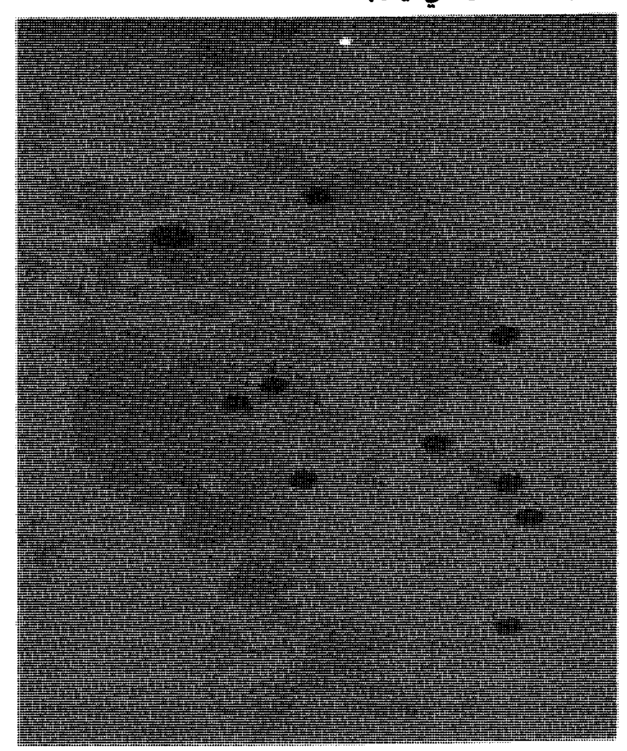
ونستنتج هذه الصورة من المكتشفات الأثرية للقبائل القديمة التي انحدر منها مؤسسو يثرب، فقد أظهرت المكتشفات أن الرجل منهم كان ينشيء كوخه بالطريقة التالية: أن يغرس الأعواد على هيئة مربع أو مستطيل أو دائرة، ويثني أعلاها حتى تجتمع، ثم يربطها حتى يتكون منها قوس أوعقدة أوقبة، فكان ذلك هو البداية البسيطة أو المظهر الأول المعروف لهذه الأشكال الهندسية المعمارية، ولم تكن لهذه البيوت نوافذ(١)•

وعندما امتد الزمن قليلا بهؤلاء الوافدين تحولت الجدران إلى مبان طينية، واتسعت فسحة البيت، وصار له باب من الخشب نفسه، ولكن السقف ظل مجموعة من الأخشاب الممتدة تغطيها سعف النخل وأغصان الأشجار، ويرقد فوقها شيء من الطين يمسكها كي لا تعصف بها الريح. وعندما تكاثر المستوطنون الأوائل امتدوا من المنطقة التي نزلوها إلى الجنوب الشرقي حذاء الحرة، ونجد في بعض الروايات أن حرة واقم (الحرة الشرقية) سميت بهذا

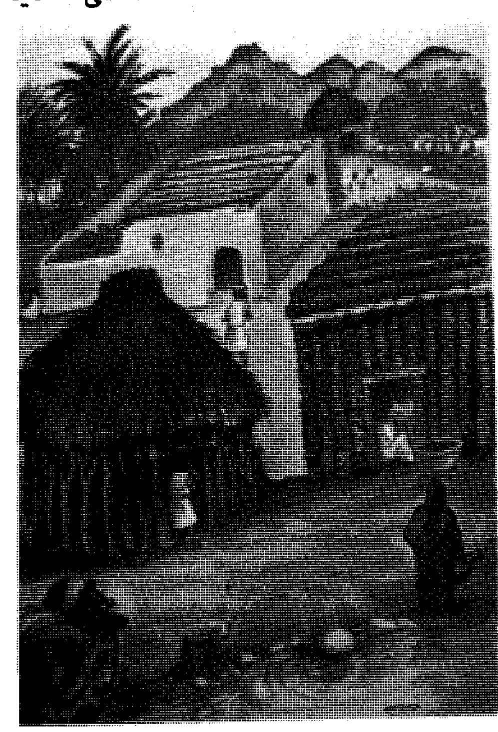
---

١) انظر: قصة الحضارة ٣٦/٢

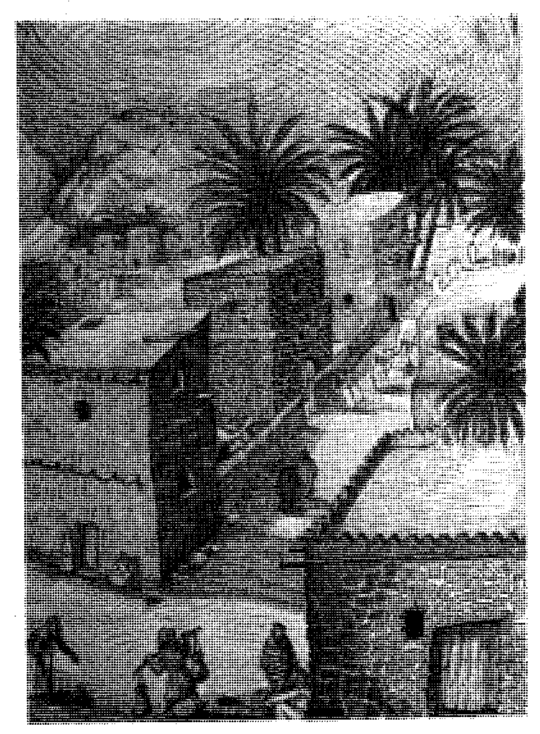
تطور العمران في يثرب



تطور العمران في يثرب وقد ثُبتَ في الخريطة موقع المسجد النبوي ليُعين على تحديد المواقع القديمة



مساكن اليثربيين في المرحلة الأولى



مساكن اليثربيين في نهاية العصر الجاهلي

الاسم نسبة إلى أحد العماليق الذين نزلوا فيها(١)ولعل العماليق قد انتشروا بهذا الخط الجنوبي حتى وصلوا إلى المنطقة المسماة بزهرة، فلدينا روايات تقول إن منطقة زهرة هي من أوائل ماسكن في يثرب، وان صعل وفالح كانتا أول قبيلتين سكنتاها(٢) ويمكن التوفيق بين هذه الرواية والرواية التي تقول ان العماليق نزلوا بموضع بيثرب، وإن تكاثر العماليق جعل بعض أحفادهم ينتقلون إلى منطقة زهرة، وكان من بين هؤلاء الأحفاد فرعان يسميان صعل وفالح، فإن صح هذا التقدير فلا تضارب في الروايات، إذ يكون قانية العبيلي أو العمليقي أول من أسس يثرب، وصعل وفالح أول من سكنوا في زهرة التابعة ليثرب، أو التي هي امتداد لها. وأنا أميل إلى هذا الرأي.

على أية حال فإن امتداد العمران إلى منطقة زهرة أمر حقيقي تؤكده الآثار القديمة التي اكتشفت في تلك المنطقة(٣) ثم إن مرور الزمن واستقرار الأجيال المتوالية قد حمل تقدما في الشكل المعماري للبيوت، وأدخل الحجارة مع الطين، وبخاصة عندما زحف العمران إلى قرب الجبال والحرار، حيث تتوافر الأحجار اللازمة للبناء، وقد أكد الدارسون أن السومريين الذين ينتمي إليهم العمالقة قد بنوا هياكلهم من الحجارة، وأن أثرياءهم كانوا ينتجعون مرتفعات من الأرض فيبنون عليها بيوتهم، وأن هذه البيوت قد أخذت من الذوق والترف بنصيب، وصار لها قناطر ومداخل مزينة، كما صار للبيوت فناء محاط بسور يحمي سكانه من الأعداء والفضوليين والحيوانات، ولا أستبعد أن يحذو أثرياء العماليق أو الذين كثرت أموالهم وأثروا حذو أسلافهم...

إذن تطور العمران مع امتداد الزمن، وتحسنت هيئة البيوت، ويظهر من روايات أهل الأخبار أن بعض البيوت قد صارت فيما بعدُ طبقتين، وهذا تطور

---

١) وفاء الوفاء ١٣٢٧/٤

٢) انظر وفاء الوفاء ١٥٦/١-١٥٨

٣) المدينة المنوره بين الماضي والحاضر ص٢١ ،٢٢

كبير في فن البناء، وكانوا يسكنون في الطبقتين أحيانا، ويودعون ماشيتهم في الطبقة الأرضية أحيانا أخرى، ولاشك أن وجود جذوع أشجار كبيرة وقوية ساعد اليثربيين على تطوير عمرانهم(١)٠

وقد اكتشف أهل المدينة منذ القرن الهجري الأول آثاراً عمرانية تدل على ذلك التقدم العمراني، فقد وجدوا في أصل إحدى الدور - دار إبراهيم بن هشام أمير المدينة - نفقا يمتد من طرف باب السلام إلى الجنوب، ووجدوا فيه صناعات غريبة في البناء وقديمة، كما عثروا على بعض التماثيل، وسميت الدار بدار التماثيل(٢)٠

وعندما نزل اليهود يثرب حصل تطور عمراني جديد ، فقد ظهرت أبنية جديدة شيدها الوافدون الجدد ، فاتسعت المدينة ، ولكنها لم تتسع في امتداد متصل ، بل ظهرت فيها تجمعات سكنية مستقلة ، فصارت أشبه بضواح منتشرة على رقعة واسعة من الأرض ، تمتد من منطقة الجرف شمالا إلى وادي جفاف جنوبا ، وتقدر هذه المسافة بعشرة(كيلومترات) تقريبا.

وشكل بنو قينقاع تجمعاً محدوداً في منتصف المسافة بين الشمال والجنوب، بين الحرتين الشرقية والغربية (قرب منطقة الحرم تقريبا)، وامتد تجمعهم إلى أول قربان وقباء....

أما التجمع الثاني فكان لبني قريظة، حيث نزلوا في الجنوب الشرقي ونزل بعدهم جنوباً بنو النضير، فكانوا في أقصى منطقة في الجنوب الشرقي (انظر المصور السكاني ليثرب)، وخلافا لما كانت عليه أبنية العماليق من انتشار وتناثر، كانت أبنية اليهود في كل تجمع من تجمعاتهم السكنية متقاربة أو متلاصقة، وكانت على نوعين: منازل وآطام.

أما المنازل فكانت كمنازلهم في فلسطين قبل خروجهم منها، مبنية من

---

١) انظر المفصل ١٧/٥

٢) انظر تاريخ المدينة المنوره ٢٦٠/١

اللبن أو الحجر أو منهما معا، وكان للمنزل فناء يحيط به سور، وفي داخله عدد من الغرف يختلف باختلاف ثراء صاحب البيت وإنفاقه، وعندما استقر اليهود في يثرب وأثروا حسنوا منازلهم وأدخلوا إليها كثيرا من الزخارف، وعنوا عناية خاصة بالزخرفة الخشبية، فكانت مداخل البيوت تعلوها قناطر من خشب محفور ومرسوم عليه أشكال تزيينية، وكذلك كانت سقوف بعض البيوت تزينها أخشاب ثمينة حفرت عليها أشكال تزيينية مختلفة...

وللبيوت نوافذ خشبية ضيقة لاتخلو من تزينات أيضا، وأما الجدران فقد طليت بالجص من الداخل لتصبح صقيلة وملساء، وربما علقت عليها بعض البسط والمنسوجات التي تحوكها النساء...

وأما الآطام فهي بيوت مربعة مرتفعة مبنية من الحجارة غالبا ليس لها نوافذ خارجية، وهي حصينة يحتمي بها أهلها من هجمات الأعداء.. ويسمى الأطم حصنا، وقد اشتهرت المدينة بآطامها، وربما يكون السبب في الاهتمام بها توزع التجمعات السكنية على مساحة واسعة من الأرض، لايمكن أن يضمها سور واحد لذا يلجأ كل تجمع إلى بناء أطم واحد يحتمون به عند الحاجة.

وثمة خلاف بين الدارسين حول بداية هذه الآطام في المدينة ومنشئيها، أهم العماليق ؟ أم اليهود، أم الأوس والخزرج؟. ولكل حججه وشواهده. فالبلاذري في كتابه فتوح البلدان ينسب بناء الآطام إلى العماليق، وبعض المؤرخين الغربيين يذهب الى أن اليهود هم الذين أنشأوها، وأن كلمة أطم تعني في العبرية البيت الذي لانوافذ له، ويذهب الدكتور الخطراوي الى أن الأوس والخزرج هم المنشؤون الأوائل، وأنهم نقلوها من اليمن بدليل وجود

أمثالها في الآثار اليمنية القديمة(١).

أما العماليق فليس لدينا أي دليل يثبت بناءهم الآطام، وأقدم الآطام الموجودة في المدينة أحدث منهم بزمن كبير.

وأما اليهود فيمكن أن يكونوا هم الذين أنشأوها في يثرب عندما هاجروا إليها، ونعتقد أنهم قد عرفوها من قبل بسبب صلتهم القديمة باليمن أيام سليمان عليه السلام، وعندما وصلوا إلى يثرب في مجموعات قبلية متوالية سكنت كل مجموعة في منطقة خاصة بها، وأسهم هذا التوزع في تأكيد صفة التوزع السكني ليثرب، هذا التوزع يناسبه بناء الآطام. ويرجح عندنا هذا الرأي عاملان: الأول، أن اليهود سبقوا الأوس والخزرج في الهجرة الى المدينة، والثاني، أن عدد الآطام التي بناها اليهود أضعاف عدد الآطام التي بناها الأوس والخزرج، رغم أنهم لايفوقونهم في عدد السكان.

وعلى أية حال.. وأيا كان المؤسس الأول للآطام، فإن هذه الآطام كانت علامة مميزة ليثرب، ومنها انتقلت فيما بعد الى الطائف ومكة.

كان بناء الآطام مربعا غالبا ومستطيلا أحيانا، ويتألف الأطم من طابقين أو ثلاثة، ويضم في داخله عدداً من الغرف في جهاته الأربع، تتوجه الى ساحة داخلية تطل عليها النوافذ.

وليس في الحصون والآطام نقوش أو زخارف غالبا، فهي أبنية حربية تستخدم للتحصين والدفاع عن النفس. وقد بلغ عدد آطام اليهود أكثر من سبعين أطما، وآطام العرب قبل الأوس والخزرج ثلاثة عشر أطما، وعندما

---

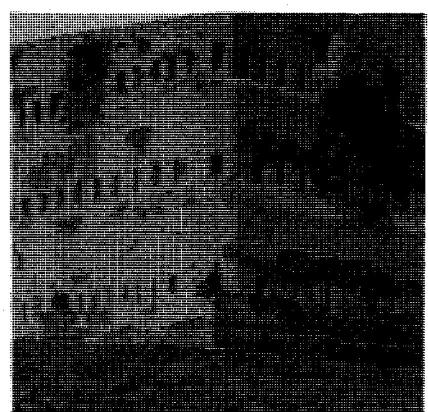
١) أنظر المدينة في العصر الجاهلي ٩٠ وفتوح البلدان ٢٩ ، واليهود في بلاد العرب ١١٦

جاء الأوس والخزرج بنوا عشرين أطما(١)٠

وهكذا تنوعت أبنية يثرب، فكان منها المساكن البسيطة، ومنها المنازل الضخمة المبنية من دورين أو ثلاثة والمليئة بالنقوش والزخارف، ومنها الآطام العالية والحصون المنيعة. وقد انتشرت الآطام والحصون في معظم أنحاء يثرب، ولكنها كثرت في الفترة الأخيرة من العصر الجاهلي في الحرة الشرقية والعوالي وقربان وقباء، وكان أقلها في الجرف والحرة الغربية..

ولما كان أهل يثرب يعتمدون على هذه الأطم والحصون فقد ظلت مدينتهم في منطقة واسعة ممتدة من الجرف شمالا إلى نهاية قربان حنوبا، وكانت على شكل تجمعات، بعضها متقارب البيوت كتجمعات اليهود، وبعضها متناثر كتجمعات القبائل العربية القديمة في يثرب، ثم تجمعات الأوس والخزرج الذين وفدوا إليها..

ومن الملاحظ أن الأوس والخزرج لم يحدثوا أنماطا جديدة من الأبنية، وأنهم بنوا بيوتا على شاكلة المنازل التي وجدوها فيها، كما بنوا الآطام ليتحصنوا فيها، وبخاصة بعد أن بدأت منازعاتهم مع اليهود، ثم مع بعضهم بعضا.



نموذجان من المباني القديمة في المدينة يُعتقد أن الآطام كانت على شاكلتهما

---

١) انظر وفاء الوفاء ١/٦٥

الجانب الثقافي في يثــرب

لانعرف شيئا عن الجانب الثقافي عند العماليق، وإن كانت الكتابات عن أجدادهم السومريين تنسب إليهم ثقافة وفنونا كثيرة. وقد خلّف أولئك رسوما وتماثيل ونقوشا وزخارف وآنية تدل على تقدم علمي وذوق رفيع، وربما يكون للعماليق شيء من هذا التقدم تكشف عنه الحفريات ذات يوم، ولكن الى أن نصل إلى دليل ملموس لانستطيع أن نبني تصوراً صحيحاً عن الوضع الثقافي في عهدهم.

وعندما تقدم الزمن، وخالطتهم قبائل عربية أخرى، بدأت الثقافة المحلية تأخذ طريقها إلى أبناء يثرب، وهي ثقافة شفوية لا تعتمد على الكتابة إلا نادراً، ولا تسجل ماتصل إليه في كتب متداولة. ولعل هذا يفسر لنا بقاء الكتابة قليلة في أهل يثرب حتى مجيء الإسلام، فقد كان في الأوس والخزرج من يكتب، وهناك آثار في المدينة لم تفك رموزها حتى الآن أشار إليها الأنصاري وتوقع أنها ترجع إلى عصور جاهلية قديمة(١).

وعندما وفد الأوس والخزرج لم يتحسن الأمر كثيراً رغم أن هاتين القبيلتين تنتميان إلى أصول حضارية عريقة. ويبدو أن الهجرة حدثت في عصور ضعفت فيها الثقافة، وانتشر الفقر وصار الاهتمام بلقمة العيش الهم الوحيد لمعظم الناس، فلما رحل المهاجرون وقطعوا تلك المسافات الشاسعة ووصلوا يثرب اندمجوا في حياتها اليومية، ولم يهتموا بالأمور الثقافية، وتسربت إليهم الثقافة الشفوية التي سرت فيمن قبلهم ومن معهم، وظهر فيهم الخطباء والحكماء والشعراء، ولكن لم يظهر العلماء والأطباء والمهندسون والرياضيون والفلكيون والفلاسفة. ولما كان أهل المدينة أقل من سواهم مشاركة في الرحلات والأسفار الخارجية، لذا لم تنتقل إليهم آثار الثقافة

---

١) انظر: آثار المدينة ص ١٨٨-١٩٠

الفارسية أو اليونانية أو سواهما، وإن كانت بعض الكلمات الفارسية والرومية قد تسربت إلى اللغة بسبب الرقيق القادم من هناك، وليس بفضل انتقال العلوم والفنون.

وعندما جاء اليهود حملوا معهم ثقافتهم الدينية والفكرية والعلمية، وكانت على مايبدو مقصورة على أشخاص معينين، في مقدمتهم الأحبار الذين يحتكرون العلوم الدينية، ويقضون جزءاً من وقتهم في دراسة الأسفار التي يحملونها، وكانوا يقيمون المدراس -المدراش - ليعلموا فيه القضاياالدينية الأساسية لأبناء طائفتهم، أما التعمق في الأمور الدينية فهذا يعني تحول الدارس الى الكهنوت وتخصصه فيه، وقد وجد فيهم من فعل ذلك على توالي أجيالهم...

ومن ثقافتهم في الأسفار نشأت لديهم ثقافة تاريخية نقلت جزءاً من الاسرائيليات إلى المجتمع اليثربي قبل مجيء الاسلام إليها وبعده، وقد كان في اليهود عدد ممن يحسن الكتابة. وكانوا يستخدمون لغتهم العبرية في أمورهم الثقافية، وكان فيهم من يكتب العربية.. أما لغتهم في الحياة العامة فقد كانت العربية، وكان فيهم من يقول الشعر ويحسنه، مثل كعب بن الأشرف وسارة القرظية، وسعية بن الغريض.

وأما العلوم الأخرى فقد كان فيهم بعض الأطباء، وكان فيهم من يتقن الحساب وشيئا من الفلك... ولكن الظاهرة المثيرة للانتباه هي أنه لم ينبغ من أولئك اليهود عالم أوصاحب نظرية أو رياضي أو فيلسوف ذو مكانة علمية، أو ممن يترك أثرا علميا قيما يذكر به. ومن الممكن أيضا أن ينطبق عليهم ماتوقعناه في الأوس والخزرج، ذلك أن اليهود في الفترة الأخيرة لدولتهم، سواء في أواخر مملكة يهوذا أوفي عهد تيتوس الروماني، كانوا قد دخلوا مرحلة ضعف وتخلف، وكانت الفتن والحروب تستهلك معظم حياتهم، فعندما هاجروا لم يكن فيهم أحد من العلماء البارزين، وربما لم يحملوا معهم من غير

كتبهم الدينية شيئا مهماً من الكتب العلمية والفلسفية، فلما صاروا في مستقرهم الجديد انقطعت صلاتهم بأبناء طائفتهم في العراق والشام ومصر إلا من سفرات نادرة يقوم بها بعض الأحبار، وانقطعوا عن الحركة العلمية خارج المنطقة حتى إن بعض المستشرقين ليشك أن يكون هؤلاء اليهود من نسل يهود فلسطين، ويعتقد أنهم قبائل عربية تهودت وبقيت في مستواها الثقافي السائد في المنطقة(١) ويذهب أحد مؤرخيهم إلى أن انغماسهم في الحياة اليومية في يثرب وانقطاعهم عن العالم الخارجي وعدم اتصالهم بأبناء طائفتهم شل قواهم الروحية، وصاروا مثل غيرهم من السكان المنعزلين عن العالم والمكتفين بأبسط أنواع الحياة(٢).

ولاشك أن تلك الآراء تعتمد في أساسها على رأي خاطيء يَنسب إلى يهود فلسطين تطوراً حضارياً عالياً، فلم يكن هؤلاء أكثر ثقافة أورقياً اجتماعيا من جيرانهم في الجزيرة العربية، كما أنهم لم يكونوا أرقى في مستواهم عن الفلاحين وسكان القرى الآخرين في فلسطين أيام هجرتهم، ثم إن عدد المهاجرين إلى يثرب كان قليلا. ومن الطبيعي أن قلة العدد، وظروف الهجرة، وتغير الحياة، هذه العوامل لاتساعد على إظهار النبوغ والعبقريات، لذا فان ثقافتهم في يثرب كانت أيضا في دائرة الثقافة الشفوية، رغم معرفتهم الكتابة، ورغم وجود المدراس لديهم.

ونقصد بالثقافة الشفوية مجموعة المعارف التي تتكون لدى الفرد من تراث ينتقل إليه -شفاها- من أسلافه، كأخبار الحروب، والتاريخ غير المدون، والعادات والتقاليد، و الخبرات التي يكتسبها بالتأمل والملاحظة والتجربة ويحفظها في ذهنه، وينقلها إلى الآخرين شفاها، وكالحكمة والأمثال ومعرفة الأنواء والنجوم وأوقات الزرع والحصاد والآفات الزراعية، والإبداع اللغوي

---

١) انظر المفصل ٦/٣١ه

٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٠

والأدبي ـالخطابة والشعرـ اللذين يُظهران المواهب الفنية والذوق الأدبي، يُظهران مايكون لدى الإنسان من تراث وخبرات وتجارب في الحياة، وليست هذه الثقافة هينة قليلة الشأن، بل هي جملة معارف عظيمة لم تتح لها فرصة التدوين لأسباب كثيرة، فلما انتقلت من عصر إلى عصر مرت بمراحل تنقية فكرية وعقدية، وتأثرت بالحروب وموت الرجال الذين يحملونها، وعندما وصلت إلى عهد التدوين فقدت الكثير من أجزائها بسبب النسيان، أو تغيير المقاييس ، أو زهد الذين يدونون المعارف بما لم يدونوه...

وقد كان لدى اليثربيين قدر وافر من هذه الثقافة الشفوية نجد إشارات متناثرة إليها في الأخبار التي وصلتنا، منها تاريخ الحروب الطاحنة بين الأوس والخزرج، ومنها الحكم والأمثال التي دونت في كتب الأمثال وكتب الأدب العامة، ومنها أخبار عن الأنواء والفصول والنجوم.. ونصوص كثيرة من الشعر والنثر، ولا مجال لاستعراضها هنا، فهي موجودة في كتب الأدب بكثرة.... لذا نكتفي بالحديث الموجز عن فن أدبي يختزن الكثير من جوانب الثقافة الشفوية هو: **فن الشعر**...

فمنذ القدم، تحدث الدارسون والنقاد عن حركة شعرية متميزة في يثرب. وعندما ألف ابن سلام الجمحي كتابه (طبقات فحول الشعراء) اعتبر يثرب أشعر القرى في الجاهلية والإسلام لكثرة ما ظهر فيها من شعراء ولجودة شعرهم (١) وهؤلاء الشعراء جميعاً ظهروا في الفترة الأخيرة من العصر الجاهلي، وليست هذه مشكلة شعراء يثرب وحدهم، بل هي مشكلة تاريخ الشعر العربي كله، فأقدم مانعرفه من الشعر الجاهلي يرجع إلى مئة وخمسين سنة قبل الهجرة ليس أكثر.. وذلك لأن الشعر الجاهلي كان جزءا من الثقافة الشفوية تتناقله الأجيال بالحفظ والذاكرة وقلما تدونه في قراطيس.

ويتضمن الشعر الذي وصلنا من اليثربيين آخر العصر الجاهلي تسجيلاً

---

١) انظر طبقات فحول الشعراء ١/٦٤

للوقائع بين الأوس والخزرج، والعلاقات مع اليهود، ويتضمن أيضا خلاصة التأمل والحكمة والتجربة الإنسانية في ذلك العصر... ومن الشعراء الذين ظهروا في يثرب: قيس بن الخطيم، وأُحيحة بن الجلاح، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وأبو قيس بن الأسلت، وعصماء بنت مروان. ومن شعراء اليهود الذين وصلنا شيء من شعرهم: كعب بن الأشرف وسارة القرظية وسعية بن الغريض.

وإلى جانب هذه الشاعرية، عُرف اليثربيون بذوقهم الفني الرفيع ونقدهم الجمالي الصائب. ومما يروى في هذا الباب أن الشاعر الكبير النابغة الذبياني كان في شعره عيب هو الإقواء(١)، فأراد اليثربيون أن ينبهوه إلى عيبه دون تجريح، فأمروا جارية أن تغني قصيدته التي فيها إقواء، وتمد صوتها في آخر الأبيات ليظهر الإقواء جلياً، فغنت قوله:

أمن آل مية رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزودِ
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغرابُ الأسودُ

وقوله أيضا في القصيدة نفسها:

بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقدُ

فتنبه النابغة للعيب، وعدل الأبيات ليتخلص من الإقواء فجعل الشطر الأخير من البيت الثاني (وبذاك تنعاب الغراب الأسود) والشطر الأخير من البيت الرابع (عنم على أغصانه لم يعقد).

لقد كان الشعر لليثربين - كما كان لمعظم العرب - سجل أحداثهم ومنبراً لمفاخراتهم وموجزاً لتجاربهم في الحياة وتأملاتهم ومبادئهم وقيمهم.. بل ومعارفهم الإنسانية العامة.... كما كان وسيلة من وسائل إعلامهم ومادة

---

١) الإقواء هو اختلاف حركة آخر حرف في أحد أبيات القصيدة عن حركة آخر حرف في الأبيات الأخرى، ويسمى أخر حرف في البيت الشعري (الروي)

لأسمارهم.. ولكن رغم وجود الكتابة بين عدد من اليثربين وعدد أكبر من اليهود فان هذا الشعر لم يدون إلا بعد نهاية العصر الجاهلي بما لايقل عن قرن من الزمان.

وهكذا يمكن أن نكوّن صورة عامة للجانب الثقافي في يثرب، وهي صورة غائمة غامضة في القسم الأول من تاريخها -أيام العماليق- تتضح قليلا بعد وصول القبائل العربية، حيث تظهر الثقافة العربية الشفوية التي تزدهر فيها التأملات الانسانية والأدب - بشقيه الشعر والنثر - وأطراف من المعرفة الفلكية بالنجوم والمطالع والأنواء، والزرع، وشيء من الصناعة..

وعندما جاء اليهود حملوا معهم ثقافة دينية واسعة، وثقافة علمية قليلة، لأنهم لم يكونوا أحسن حالاً من جيرانهم.

وعندما جاء الأوس والخزرج استمرت الصورة على حالتها السابقة، ولكن بدأت الثقافة العربية تصهر الجميع، فظهر الخطباء والشعراء والإخباريون من العرب واليهود، وزاد اليهود على العرب معرفتهم بالكتابة والأخبار التي يستقونها من الأسفار.. ولم تقم المدارس بين العرب قبل الإسلام ولكنها قامت عند اليهود بدوافع دينية، وكانت مناهجها دينية غالبا تضاف إليها بعض العلوم الأولية في الحساب والكتابة..

لذلك بقي الجانب الثقافي محدوداً، ينتظر إشراقة جديدة تطلقه من عقاله وتبلغ به ذروة عالية... هذه الاشراقة هي الإسلام الذي سيسطع بنوره على يثرب ويغيّر أشياء كثيرة فيها، يغيّر اسمها، وعقيدة أهلها، وسلوكهم، وكيانهم السياسي، وعلاقاتهم الاجتماعية، وبنيتهم الفكرية والثقافية، وليصنع لهم، وللإنسانية كلها من خلفهم، قمماً حضارية هائلة...

المدينة المنورة في العهد النبوي

يثرب والاســـــلام:

لم تكن يثرب سوى واحدة من تلك المدن الكثيرة التي ظهرت في حقبة تاريخية سحيقة، وعاشت فيها أجيال متوالية حياة عادية، لايتألق فيها حدث ضخم ولا يهز أيامها الهادئة أمر ذو شأن، اللهم إلا الغزوات القليلة المتقطعة التي شهدتها أرضها، وجيوش الفاتحين العابرة التي أزهقت بعض الأرواح فيها، ثم حملت من خيراتها وأموال أهلها الكثير أو القليل، والفتن الطاحنة بين أبنائها، تثور حينا وتهدأ حيناً... وهذه سنة عرفتها كل مدينة قديمة... إذن، كانت يثرب تعيش في الظل أو مايشبهه.. لم تكن عاصمة ملك ضخم... كما كانت بابل ونينوى وتدمر ومأرب... ولم تخرج منها الجيوش لتبني مجداً واسعاً ... كما خرجت من أثينا وروما. ولم تتألق فيها حضارة عمرانية كما تألقت في بعلبك و عمان وبصرى ومأرب وأرض مصر.... بل ولم تعرف مجدا فكريا كالذي عرفته أثينا وإسبارطه وبابل وبعلبك والإسكندرية....

كانت يثرب واحة زراعية محدودة، ترتاح فيها القوافل وتمر عليها السنون الطويلة وهي في تيار الحياة اليومية العادية... تتأثر بما يجري حولها بعض التأثر، ولكنها لاتؤثر فيمن حولها. إن ازدهرت فازدهار محدود، وإن كبت فإلى حين ، ثم تعود سيرتها الأولى، مثلما يجري جدول هادىء، يزداد حيناً وينقص حيناً لاتغور ينابيعه ولا يعرف ثورة الفيضان.... وكأنما كانت طاقات الأجيال تختزن، ويجتمع بعضها إلى بعض لتخرج دفعة واحدة في وقت معلوم، وينفجر الجدول الهادىء، وتهتز المدينة الساكنة، وتنطلق الطاقات الكامنة لتصنع مجداً في العقيدة والفكر والرجال والحضارة، ولتكون عاصمة النور الذي سيغمر ـ ليس المنطقة وحدها بل ـ مناطق واسعة من العالم كله، ولتصبح اسماً خالداً تهوي إليه الأفئدة وتتناقلها الأجيال بحب واحترام كبيرين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يثرب على موعد:

كانت يثرب على موعد وعدها الله إياه من الأمد الأول، ليتغير فيها كل شيء، ليصبح سكونها حركة دائبة، وقلتها كثرة وزخما...

وكانت بدايات هذا الوعد بعيداً عنها، هناك في مكة المكرمة، حيث بُعث خاتم المرسلين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، وبدأ ببعثته صراع النور والظلمة، يفتح الرسول ﷺ للناس دروب الخير فتقف دونه السواعد الآثمة، وتحاول جهدها أن تطفيء النور وتغلق أبواب مكة وأبواب الدنيا كلها على وثنيتها السانجة، لأجل منافع هينة قليلة....

لم يكن لمشركي مكة بُعد النظر، ولم يكن للمعاندين قدرة على التأمل والتدبر، ولم يفكروا يوما، ماالذي يمكن أن يكونوا عليه إن آمنوا بالدعوة الجديدة وحملوها إلى الناس.... كانت مصالحهم الصغيرة القريبة تحجب بصيرتهم عن التفرس فيما يمكن أن تحمله الأيام، فتشبثوا بواقعهم المريض، وتعللوا بما وجدوا عليه آبائهم وأصموا آذانهم عن صوت الحق وأصروا وعتوا واستكبروا استكبارا، ومالبثوا أن تحولوا إلى حراب مسمومة تجتهد في وقف امتداد الدعوة الجديدة.. بل وتسعى إلى اقتلاعها ما أمكنها السعي....

لذا شاءت حكمة الله أن تنتقل البذور المؤمنة من صخور مكة الصلبة إلى واحة يثرب الخصيبة، لتروى البذور وتنتعش وتتحول إلى حدائق وظلال......

كان محمد بن عبد الله ﷺ يذيع دعوته بين أهل مكة، فيتقبلها أقلهم وضعفاؤهم، ويرفضها ويحاربها السادة وأولو الشأن.....

وصبر رسول الله ﷺ وصابر، ومرت سنوات عدة والدعوة محاصرة بعناد المشركين، تكسب بين الحين والآخر فرداً أو أفراداً قلائل معظمهم من المستضعفين، الموالى والمحالفين والعبيد وبعض القرشيين... وكلما ازداد عدد المسلمين ازداد إحساس قريش الوثنية بخطرهم، وازدادت من ثم مجابهتهم وتحولت إلى ظلم فادح..، كانت أيدي العتاة الآثمين تسطو على

المسلمين المستضعفين، تطرح بلالاً في الرمضاء وتسيمه صنوف العذاب، تقتل ياسراً وزوجته سمية وتكاد تبطش بعمار، ولا يجد المسلمون إلا المرارة والدعاء إلى الله مفرج الكروب، لذا لم يكن أمام المسلمين من خيار سوى البحث عن أرض أخرى تجد الدعوة فيها متنفسا، ويجد فيها المسلمون حرية الحياة الكريمة بإسلامهم، وكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة، بعيداً عن أرض مكة، وأهلها وطبيعة حياتها، وكان هذا البعد شاهدا على أن المسلمين لم يجدوا حول مكة مساحة صغيرة تضمن لهم الأمن والأمان....

اتجه رسول الله ﷺ إلى القبائل المحيطة بمكة، يبحث لديها عن حماية ونصرة، كي يبلغ دعوة ربه، غير أن سلطة قريش الدينية ومكانتها وتحالفاتها جعلت القبائل لاتصغي للدعوة الكريمة... بل إن الدعاية المضادة التي شنتها قريش الوثنية كان لها أبعد الأثر في تلك القبائل.. فقد اتهموه ﷺ بالمروق على تراث الأجداد، وبالجنون والهلوسة الشعرية وبالتأثر بالجن... وبكل ما في جعبتهم من تهم تجعل الآخرين ينظرون إلى الدعوة والداعية بريبة وحذر (١)... وقد بلغ تأثير قريش درجة جعلت الثقيفيين في الطائف يردون على رسول الله ﷺ أسوأ رد، ويغرون به صبيانهم وسفهاءهم.

غير أن هذه العقبات المضنية لم تزد رسول الله ﷺ إلا مضاءً في الدعوة، فاستمر في عرض دعوته على الأفراد والقبائل، وانتهز فرصة الحج فخرج إلى الوفود يلقى هذا ويحدث ذاك عسى أن يجد أذنا صاغية.. وكان الحجيج من مختلف بقاع الجزيرة العربية يتناقلون أخباراً متناثرة عن ظهور رجل في قريش يسفه معتقداتها، وكانت تلك المعتقدات جزءاً من نسك الحج الذي نسكوه وتحملوا المشقة إليه.. لذا كانت تلك الأخبار القليلة المتناثرة، وما يضاف إليها من دعايات القرشيين ومكانتهم في نفوس الآخرين.. كان ذلك كله كفيلا بصرف الحجيج عن الدعوة، حتى أولئك الذين قدر لهم أن يلقوا رسول

---

١)أنظر: السيرة النبويه لابن هشام٢/٧١

الله ﷺ ويستمعوا له لم يستجيبوا استجابة فورية لدعوته.. بل آثروا التريث والتفكير.. وربما تأثر بعضهم بما سمعه.. وأدرك أنه الحق.. ولكنه - تحت ضغط تلك العوامل - لم يعلن إسلامه..

إرهاصات الوعد : لقاءات في مكة:

وكان من بين أولئك الحجيج عدد من أبناء يثرب من الأوس والخزرج.. وقد تأثر بعضهم بالدعوة في وقت مبكر، ولكنه لم يجد الفرصة لإعلان إسلامه ولم يستطع أن يفعل شيئاً، وتروي الأخبار أن سويد بن الصامت (من بني عمرو بن عوف الخزرجيين) سمع من الرسول ﷺ فقال: إن هذا لقول حسن.. وانصرف متأثراً بما سمع ثم قتل يوم بعاث.. أي في السنة السابعة للبعثة النبوية، ويقول رجال من قومه .. إنّا لنراه قتل وهو مسلم... وكذلك إياس بن معاذ (من بني عبد الأشهل من الأوس) اهتز للدعوة الجديدة واستشعر الإسلام وحث قومه على الاستجابة لها، ولم تجد كلماته أُذناً صاغية في قومه، وضربه سيد قومه أبو الجسر بحفنة من تراب..(١) وكانت هذه الإرهاصات في السنوات الأولى للبعثة النبوية..

وشاء الله أن ينشغل اليثربيون بالفتنة الكبيرة بين الأوس والخزرج، وأن يصطلوا بنيرانها المحرقة يوم بعاث، ويقتل عدد من سادتهم، ليكونوا أكثر استعداداً لقبول الدعوة والانتقال من حياتهم المضطربة إلى الإسلام، ولئن صحت الروايات أن يوم بعاث كان قبل خمس سنوات من الهجرة،أي في السنة السابعة للبعثة النبوية، فان أول بذور الإسلام في اليثربيين كانت في السنة العاشرة من البعثة النبوية.. حيث كان رسول الله ﷺ يطوف بين الحجاج في المشاعر المقدسة ويعرض عليهم دعوته، فلقي ستة أفراد من أهل يثرب وسألهم: من أنتم؟ فقالوا: نفر من الخزرج، فقال: أمن موالي يهود ، فقالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم، قالوا: بلى . فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله

---

١) السابق ٢/٧٦

عز وجل وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.. فقال بعضهم لبعض: ياقوم تَعلّموا - والله - إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إِنّا تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك.. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا(١).

وثمة عوامل كثيرة أدت إلى أن يشرح الله صدور اليثربيين الستة إلى الإسلام.. في مقدمتها هذا التاريخ الطويل من الحروب بين الأوس والخزرج (١٢٠ سنة حسب بعض الروايات) والمعاناة الطويلة التي عاشها أبناء القبيلتين الشقيقتين خلال أجيال ثلاثة.. وبقدر ماكانت نتائج الوقائع تحفر في نفوس الطرفين إِحَناً ورغبة في الثأر والانتقام وزهو النصر المؤقت، كانت تحفر في أعماقهم تطلعا إلى الخلاص من ويلات الحروب والنزاعات، والركون إلى حياة آمنة مستقرة، ينعمون فيها بمحصولاتهم الوفيرة وظلالهم الناعمة، وكان لديهم إحساس بأن اليهود وراء الفتنة، أو هم المستفيدون دائما منها، فعلى الرغم من محالفة بني النضير وبني قريظة للأوس وبني قينقاع للخزرج، واشتراكهم معهما في بعض المعارك، فإن الأوس والخزرج كانوا يحسون باستعلاء اليهود عليهم، ويحفظون تهديدهم بخروج نبي يتبعونه (أي اليهود) ووعيدهم بأن يقتلوهم قتل عاد وإرم(٢).

وكما أسلفت ، قدّم اليهود -بشكل غير مباشر- خدمة للدعوة الإسلامية عندما أقروا في أذهان الأوس والخزرج حقيقة ظهور نبي أظل زمانه، وأقروا في أذهانهم انتصار ذلك النبي ومن يتبعه على خصومهم.. لذا كان أول ما

---

١) السابق ٢/٧٧

٢) السابق ٢/٧٧

يتبادر إلى أذهانهم عندما سمعوا صوت رسول الله ﷺ والآيات التي تلاها عليهم أنه النبي الذي ذكره اليهود كثيرا، وكانت الرغبة إلى سبق اليهود إليه واحدة من الدوافع المهمة لإسلامهم.

إذن اجتمع عامل الشر والعداوة بين القبيلتين الشقيقتين ـ وقد ظهر هذا العامل في قولهم لرسول الله ﷺ (فعسى أن يجمعهم الله بك)، وعامل الرغبة في سبق اليهود إلى الدين الجديد، فكان هذان العاملان سبباً من الأسباب التي شرح الله بها صدور هؤلاء النفر الخزرجيين للإسلام(١).

وعاد هؤلاء النفر إلى يثرب ليكونوا الندى الذي يعد الأرض للبذور القادمة، ونشروا خبر لقائهم مع الرسول ﷺ، وما سمعوه منه، ونقلوا إلى عدد من مواطنيهم الأثر الذي وجدوه في نفوسهم بعد ذلك اللقاء.. ولا بد أنهم نقلوا لهم أيضا آمالهم في أن تجتمع الكلمة على الدين الجديد. ليبقى أمرهم عاليا على اليهود. ولم يقتصر حديثهم على أبناء قبيلتهم الخزرج، بل انتقل إلى خصومهم الأوس، وكانت الأوس قد أوقفت الحرب وهي منتصرة ولم تفتك بالخزرج المهزومة، وبناء على نصيحة أحد سادتهم كي لايخلو الأمر لليهود إذا هلك الخزرجيون.. وخلال هذه الفترة كانت العلاقة بين القبيلتين الشقيقتين هادئة إلى حد ما، يتزاور فيها بعض الناس من الطرفين ويتصاهرون.. (فأسعد بن زرارة الخزرجي هو ابن خالة سعد بن معاذ الأوسي)...

وتمضي السنة، ويخرج الحجيج من يثرب إلى مكة في السنة التالية، فيهم عشرة من الخزرج ورجلان من الأوس، يقصدون رسول ﷺ، ويلتقون به في العقبة أيضا ويسمعون منه، فيسلمون ويبايعونه بيعة العقبة الأولى أو بيعة

---

١) انظر مثالاً لذلك قصة إسلام سعد بن الربيع في كتاب: سعد بن الربيع الأنصاري: النقيب الشهيد - محمد علي كاتبي ص ٧٠ وما بعدها. دار القلم - دمشق ١٤١٢هـ

النساء(١).

داعية في يثرب:

أرسل رسول الله ﷺ مع وفد يثرب الذين أسلموا مصعب بن عمير أحد المسلمين المتفقهين، واستقبلت يثرب أول داعية إسلامي بين جنبيها، وأتاحت له حرية الدعوة إلى الإسلام.. فنزل في بيت أسعد بن زرارة أحد اليثربيين السته الذين سبقوا إلى الاسلام، وسيد من سادات الخزرج، واتخذ من منزله مركزا للدعوة، وأخذ يحدث الذين يأتونه عن الدين الجديد ويدعوهم إليه، واستجاب له عدد من أقارب أسعد وبني قومه.. ثم خرج أسعد وضيفه لزيارة الناس في مجالسهم وفي بساتينهم، وفتح الله على مصعب، فأحسن الحديث، عرض مبادئ الدين الجديد عرضاً مؤثراً، وتلا على الناس شيئاً من القرآن الكريم، فتسرب اليقين إلى قلوبهم، واجتمع إليه الذين أسلموا ليصلي بهم، ويعلمهم أمور دينهم..

أمضى مصعب عدة أشهر في يثرب ينشر فيها الإسلام ويبايعه عليه كل يوم عدد من اليثربيين.. فيهم بعض سادة الأوس وسادة الخزرج، وما أن يسلم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا بني عبد الأشهل (من الأوس) حتى يسلم جميع بني عبد الأشهل.. ولا شك أن لحكمة مصعب في الدعوة وحسن تأتيه الأثر الكبير في أن يفتح الله عليه(٢)، وعاد مصعب إلى مكة قبل انقضاء السنة وليس في يثرب بطن من بطون الأوس والخزرج إلا وفيه عدد

---

١) سميت بيعة النساء لأن المرء كان يبايع فيها رسول ﷺ على جميع أركان الإسلام إلا الجهاد في سبيل الله ، فلم يكن الجهاد قد أذن به بعد .. وهذه البيعة هي التي يبايع عليها النساء

٢) أنظر خبر إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير في السيرة.. فقد جاءاه مهددين يريدان إخراجه، فأحسن مصعب لقاءهما، وجعلهما يستمعان إليه، وأحسن عرض الإسلام عليهما، فشرح الله صدورهما للإسلام.. السيرة ٢/ ٨٣

من المسلمين (باستثناء أربعة بطون صغيرة تأخر إسلامها).. وعاشت يثرب أشهر تلك السنة على ما علمها إياه مصعب بن عمير من القرآن والفقه والعبادات.. وكانت مجالسهم أول مجالس تجمع اليثربيين على العلم و التعلم، وكانت بعض الدور تشهد صلوات جماعية.. فقد اتخذ أسعد بن زرارة من موقع اسمه هزم النبت (في الحرة الغربية) مصلى وصلى فيه الجمعة في أربعين رجلا، وترددت آيات الله في بيوت المسلمين من الأوس والخزرج رجالا ونساء رفتيانا..

البيـــعة الكبرى:

أقبلت أشهر الحج وخرج وفد اليثربيين إليه، وكان كبيرا، فقد بلغ عدد المسلمين فيه سبعين رجلا وامرأتين، وقد عزم هؤلاء على لقاء رسول الله ﷺ في العقبة.. حيث كان اللقاء السابق في العام الفائت، ودعوته إلى الهجرة إليهم. وأبدى المسلمون اليثربيون حنكة كبيرة، فلم يفاتحوا قومهم بعزمهم على لقاء رسول الله ﷺ ولم يعتزلوهم.. وأحكموا خطة اللقاء برسول الله ﷺ، أرسلوا من يواعده في العقبة ليلا أوسط أيام التشريق (الثاني عشر من ذي الحجة) وانسلوا في الموعد المحدد من بين أصحابهم بعد أن هجع القوم.. واصطحبوا معهم أحد سادة الخزرج (عبد الله بن عمرو بن حرام) - ولم يكن قد أسلم - إذ تفرسوا فيه الخير.. فعرضوا عليه الإسلام.. وصدقت فراستهم فأسلم الرجل وصحبهم إلى لقاء الرسول ﷺ.. وكان لقاء تاريخياً عجيباً في شعب من شعاب الجبال بين مكة ومنى، بعيداً عن أعين المشركين من اليثربيين والقرشيين وحضر فيه رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس، ولم يكن العباس قد أسلم بعد، ولكنه كان يناصر ابن أخيه ويحميه، وكان العباس أول المتكلمين، فقد أراد أن يستوثق من القوم لابن أخيه ويرى مدى استعدادهم لحمايته إن هاجر إليهم.. فقال لهم: إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة

في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.. ولم يجب الأنصار إلا بعد أن سمعوا من رسول الله ﷺ ما يريده منهم لنفسه ولربه.. فتكلم رسول الله ﷺ.. فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا (أي نساءنا) فبايعنا يارسول الله، فنحن والله أبناء حروب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر..

وكما أراد العباس أن يستوثق من اليثربيين حمايتهم لرسول الله ﷺ، أراد بعض اليثربيين أن يستوثقوامن ملازمة رسول الله ﷺ لهم، فقام أبو الهيثم التيهان وقال: يارسول الله إن بيننا وبين الرجال (اليهود) حبالا (أي عهود ومحالفات) وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني. أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم. وأراد العباس بن عباده بن فضلة الخزرجي أن يبصر القوم بأبعاد هذه البيعة والعقبات التي ستترتب على هجرة الرسول ﷺ، وأن يشد العقد، فقال لهم: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإننا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة. قالوا: ابسط

يدك، فبسط يده فبايعوه(١).

ولا شك أن الإيمان قد بلغ مبلغا عظيما في نفوسهم فجعلهم يوثقون كل ذلك التوثيق... فرسول الله ﷺ لم يعدهم بملك أو جاه أو ثروة أو غير ذلك من مكاسب الدنيا.. بل وعدهم جزاء الآخرة فقبلوا وبايعوا، وهنا طلب منهم رسول الله ﷺ أن يختاروا منهم اثني عشر نقيبا ليكونوا بمثابة المسؤولين عنهم والمتابعين لهم في أمور دينهم.. فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس (بحسب نسبة الموجودين من القبيلتين آنئذ).. وفي نهاية اللقاء عاد المسلمون المبايعون إلى رحالهم دون أن يحس بهم قومهم، وباتوا على موعد مع عهد جديد.. ينتقل فيه الإسلام والمسلمون إلى مدينتهم.. وتدخل مدينتهم التاريخ من أوسع أبوابه..

ورغم السرية الكاملة التي تمت بها البيعة، نمى إلى قريش شيء من أخبارها. ربما من عابر سبيل رآهم أو سمع بعض كلامهم، فأقبل عتاة الكفر إلى رحال أهل يثرب في منى يتبينون الأمر، وسكت المسلمون.. وقام أصحابهم من غير المسلمين يحلفون بالله أن هذا الأمر لم يحدث، وكانوا صادقين في أيمانهم إذ لم يشعروا بما حدث.. وخرج الحجيج من منى إلى يثرب سالمين.. غير أن قريشا استوثقت من صحة الخبر بعد ذلك، فخرج بعضهم يطلبون المسلمين.. فلم يدركوا منهم إلا سعد بن عبادة فأسروه وعادوا به إلى مكة وعذبوه.. ثم أنقذه منهم جبير بن مطعم، وكان سعد يجير له تجارته في يثرب..

يثرب تستقبل المهاجرين:

بدأت يثرب مرحلة جديدة من عمرها.. مرحلة استقبال المهاجرين إليها من مسلمي مكة تمهيداً لاستقبال رسول الله ﷺ.. فما أن تمت البيعة حتى وجه الرسول ﷺ المسلمين إلى الهجرة إلى يثرب وحضّ عليها.. وبدأ

---

١) ابن هشام ٢/٩٣

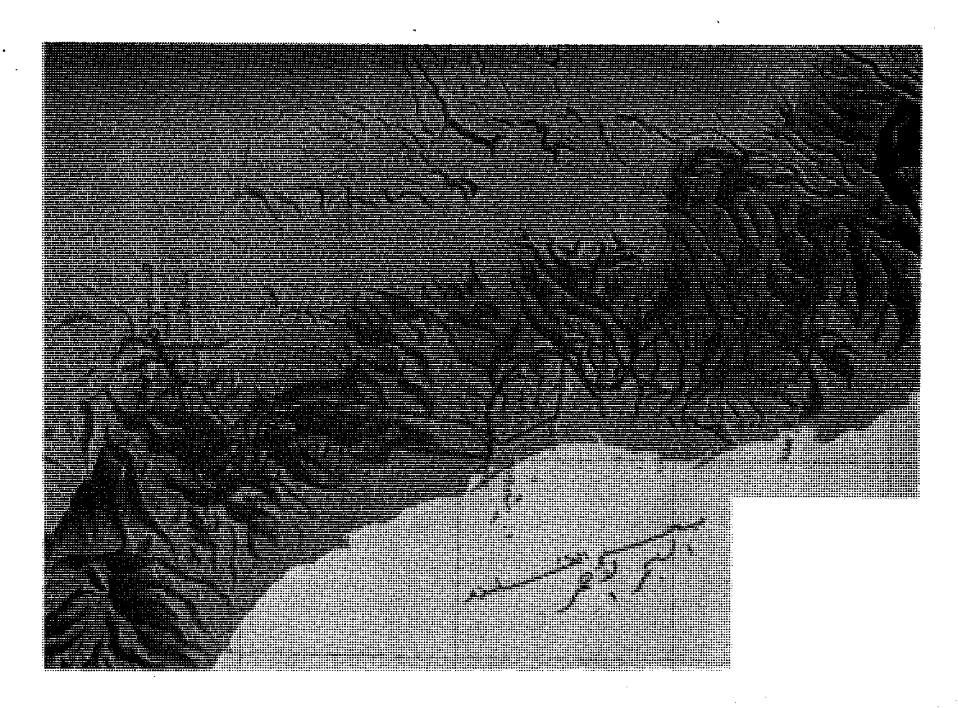
المسلمون ينسلون إليها أفرادا أو جماعات، وكان أول من وصل منهم أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد.. وقصة هجرته صورة صارخة لما وصل إليه طغيان المشركين وتسلطهم على المسلمين الضعفاء(١)، فقد شتتوا أسرته ؛أخذ حموه منه زوجته، وأخذ قومه طفله، فخرج مهاجراً وحده.. ثم تتابع المهاجرون بعده، وكان إخوانهم في المدينة يستقبلونهم وينزلونهم في ضيافتهم، وكان بنو عمرو بن عوف (من الخزرج) الذين يسكنون في قباء - مدخل المدينة من طريق مكة آنئذ - يحظون بالنصيب الأوفر من المهاجرين، وكان سعد بن خيثمة أحد بني عمرو بن عوف عزباً فخصص منزله لاستقبال العزاب والذين لم يصطحبوا عائلاتهم، كما كان منزله بمثابة المجلس العام للمهاجرين والأنصار.. وخلال فترة شهرين وفد إلى المدينة أكثر من أربعين أسرة من مسلمي مكة، منهم عمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف ومصعب بن عمير وطلحة بن عبيد الله وحمزة بن عبد المطلب. ولم يبق في مكة إلا أبو بكر وعلي والمستضعفون، وتوزع معظمهم بين بيوت الخزرج في قباء والعوالي ووسط المدينة عند بطحان، وبعضهم عند بيوت الأوس كبني عبد الأشهل وبني ظفر.

وطلع البدر على يثرب:

في أواخر شهر صفر خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة يصحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ودليل لهما، بعد أن أجمعت قريش على الفتك به.. وقد حماه الله منهم ومن عيونهم، وفشلت مطارداتهم لهما ، ووصل ركب رسول

---

١) الرواية في ابن هشام ٢/ ١١٠، والطبري ٢/٣٦٩ وانظر قصة عياش وهشام أيضا في ابن هشام ٢/١١٤



١ ـ مصور طريق الهجرة من مكة إلى المدينة.



٢ ـ طريق الهجرة داخل المدينة.

المصدر: أطلس تاريخ الإسلام

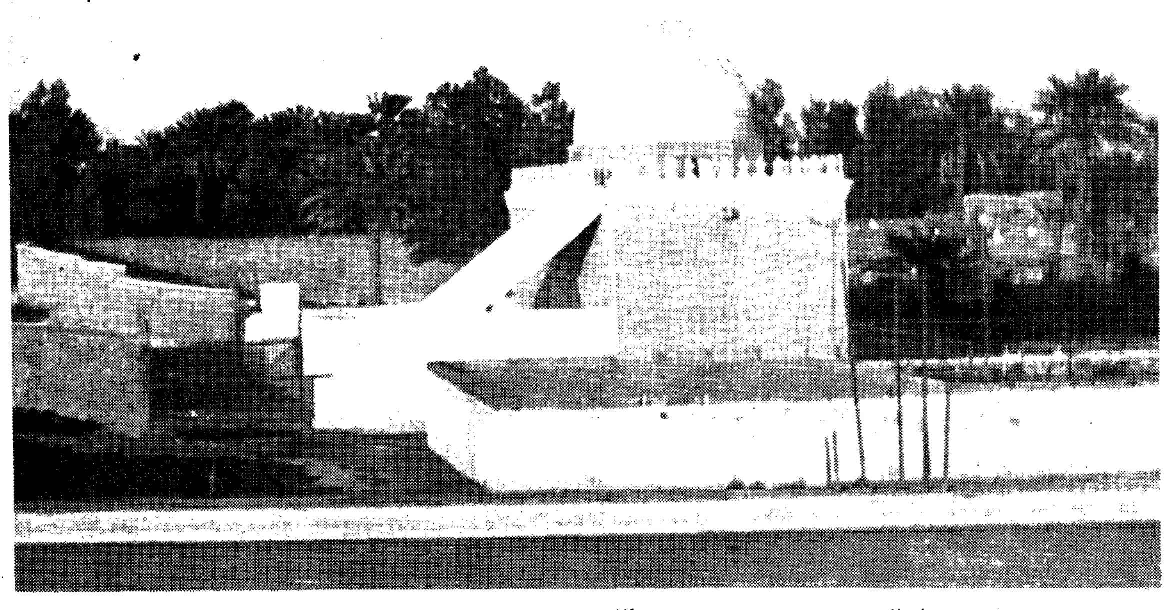
الله ﷺ إلى قباء في الثاني عشر من ربيع الأول(١)، وكان بعض المسلمين يخرج إلى ظاهر المدينة يترقبون الركب، ويمكثون حتى تغلبهم الشمس فيرجعون، وقد وصل ﷺ وأبو بكر بعد أن اشتدت الظهيرة وعاد المترقبون إلى بيوتهم.. فرآه رجل من اليهود وصرخ بأعلى صوته.. يابني قيلة هذا جدكم قد جاء.. فهرع المسلمون إلى لقائه ﷺ وأنزله كلثوم بن هِدم في داره بطرف قباء، وتوافد إليه المسلمون من أهل يثرب ومن المهاجرين.. وخرج إليهم ﷺ، واجتمع بهم في بيت سعد بن خيثمة، وتوافد إليه المسلمون من المهاجرين والأنصار، وغير المسلمين.

وجاء نفر من اليهود ليتعرفوا على شخصه ﷺ ويوازنوا بين ما يرونه وماهو عندهم.. وفي حديث أم المؤمنين صفية رضي الله عنها أن حيي بن أخطب وأخاه أباياسر جاءا مع الوافدين، ونظرا إلى رسول الله ﷺ طويلا وعادا إلى بيوتهما(فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا) وكان رسول الله ﷺ يلتقي بالناس في دار سعد بن خيثمة - مجمع العزاب - وقد مكث في قباء من ظهر الاثنين ١٢ ربيع الأول إلى صباح الجمعة ١٦ ربيع الأول، وكانت قباء ضاحية منفصلة عن المدينة أشبه بقرية مستقلة، وخلال إقامته فيها أسس المسجد الذي ما زال حتى الآن يعرف بمسجد قباء.

وفي صباح يوم الجمعة خرج رسول الله ﷺ ومعه طائفة من المسلمين متوجها إلى قلب يثرب ، وغير بعيد عن قباء، حل وقت صلاة الجمعة، فنزل رسول الله ﷺ في دار بني سالم بن عوف في بطن وادي رانوناء ومعه من حضر من المسلمين وأسس في ذلك الموقع مسجداً سمي فيما بعد مسجد

---

١) ابن هشام ١٣٣/١



في هذا الموقع صلى رسول الله ﷺ أول جمعة في الإسلام وقد أقيم فيه مسجد في عهد عمر بن عبد العزيز، وجُدد عدة مرات، وهذا المبنى هو التجديد قبل الأخير

مسجد الجمعة في توسعته الجديدة التي قامت بها وزارة الأوقاف السعودية

الجمعة (١)، وحاول عدد من بني سالم بن عوف أن يستضيفوا رسول الله، وأمسكوا خطام بعيره وقالوا له: يارسول الله: أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة فقال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة. وسارت الناقة غير بعيد، فمرت بحي بني ساعدة، فخرج سعد بن عبادة أملا في أن يحظى بضيافته ﷺ، ولكنه لقي الجواب نفسه: خلوا سبيلها فإنها مأمورة. وطوال مسير الناقة من قباء إلى قلب يثرب كان سكان تلك المناطق يتسابقون لأخذ خطام الناقة طمعا في نزوله ﷺ عندهم. وكانوا يلقون الجواب نفسه: خلّوا سبيلها فإنها مأمورة. حتى إذا وصلت الناقة إلى فسحة من الأرض (مربد) قرب وادي بطحان بركت (وهي منطقة لبني مالك من آل النجار من الخزرج) وحولها المسلمون ينظرون أين سيحل رسول الله ﷺ، ومن ذا الذي سيحظى بضيافته؟. وما لبثت الناقة أن قامت وسارت غير بعيد ثم رجعت إلى مبركها الأول وبركت فيه. فنزل عنها رسول الله ﷺ. وسارع أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه فحطّ الرحل عن الناقة وأخذه إلى بيته، وكان بيته قريبا، وتسابق سكان المنطقة إلى طلب الاستضافة فقال لهم رسول الله ﷺ: المرء مع رحله.. وذهب مع أبي أيوب الى منزله... بينما ذهب أبو بكر رضي الله عنه إلى منزل رجل(٢) في منطقة السُنْح.

تأسيس المسجد النبوي:

كان الموقع الذي بركت فيه الناقة أرضاً خالية، فيها بقايا نخل وقبور قديمة، يجفف فيها التمر بعد جنيه، ورغب رسول الله أن يقيم فيها المسجد، فسأل عن أصحابها، فأُخبر أنها لغلامين يتيمين من بني النجار يربيهما معاذ

---

١) ولا يزال قائماً مكانه حتى اليوم ومعروفاً بهذا الاسم

٢) وهو الصحابي الجليل خارجة بن زيد الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه. وقد أصهر أبو بكر إليه فيما بعد فتزوج ابنته جبيبه رضي الله عنهم أجمعين. والسنح منطقة بين قربان والعوالي على بعد ميل من المسجد النبوي تقريباً

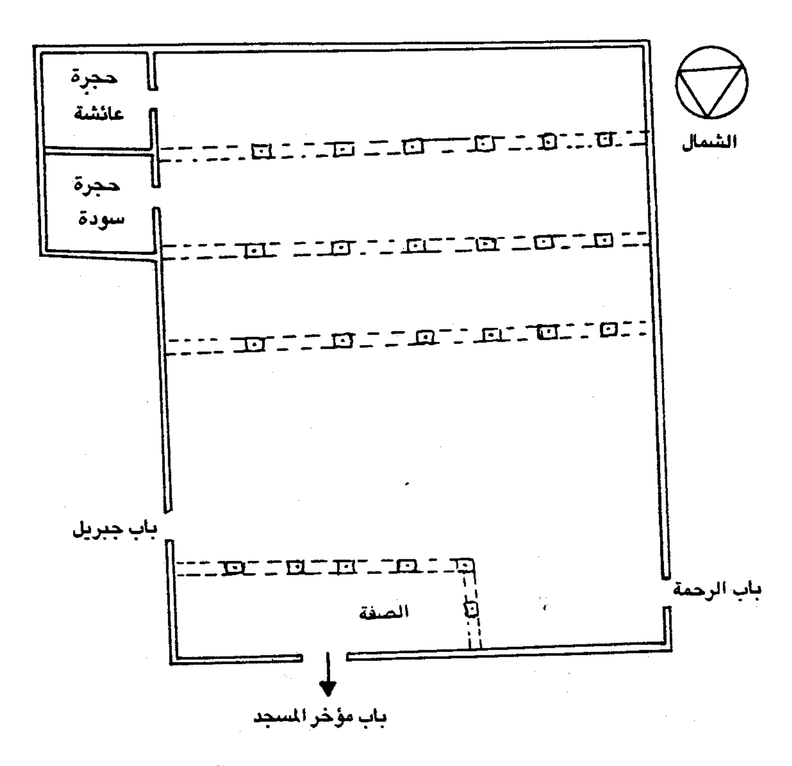
ابن عفراء الخزرجي، وسارع معاذ إلى التبرع بها، ولكن رسول الله ﷺ أبى إلا أن تشترى من الغلامين شراءً.. فكان ذلك..

وأمر رسول الله ﷺ بتسوية الأرض وتنظيفها.. فقطعت بقايا النخل ونبشت القبور ونقل مافيها من عظام إلى موقع آخر وسويت الأرض، فخط لهم رسول الله ﷺ فيها المسجد الذي أصبح اسمه: المسجد النبوي.. وانتدب المسلمين للعمل في بنائه، وشارك فيه بنفسه فكان ينقل الحجارة واللبن على بطنه الشريف.. ويُهرع بعض المسلمين ليحملوا عنه فيأبى ﷺ إلا العمل بنفسه، الأمر الذي أشعل الحماسة في نفوس المهاجرين والأنصار فاجتهد الجميع في إنجاز المسجد في مدة قصيرة، وقد بني من الحجارة والطين وسعف النخل، وفي وسطه السواري من شجر النخل التي قطعت، وحدد رسول الله ﷺ القبلة فيه، وكانت نحو بيت المقدس، وصلى فيه بالمسلمين قبل أن يستكمل تعريشه ووضع سقفه(١) فكان انشاء المسجد أول عمل يقوم به رسول الله ﷺ في المدينة.

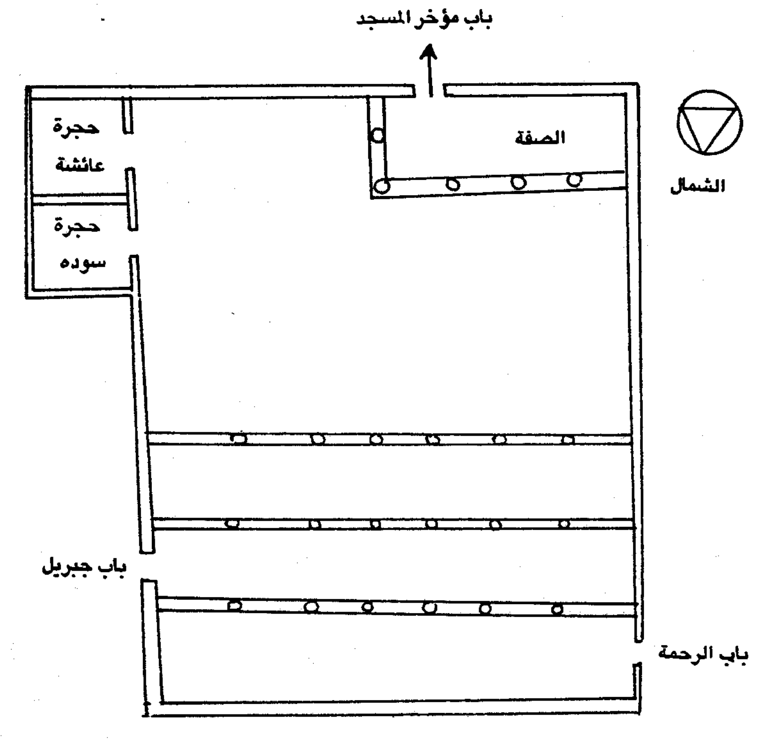
وما إن صار المسجد صالحاً للجلوس فيه حتى صار موقعَ قيادة المجتمع الإسلامي الجديد، ومركزَ الدولة الناشئة ، يجلس فيه رسول الله ﷺ ليقضي أمور المسلمين.. ويصلي فيهم الأوقات الخمس.. ويسكن في حجرة ملاصقة لجداره الشرقي بنيت بعد الفراغ من بناء المسجد، وسرعان ما صار المسجد مركز المدينة المنورة، يقصده المسلمون للصلاة فيه خلف رسول الله ﷺ، وليتفقهوا في دينهم ويسمعوا من رسولهم عليه الصلاة والسلام، وليعرضوا عليه أمور دنياهم، فيقضي فيها بما يلهمه الله.. فكان هذا المسجد نواة المجتمع الجديد، وكانت له وظائف عقدية واجتماعية وسياسية وثقافية كبيرة.. فهو المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الصحابة رضوان الله عليهم من معلم الأمة ﷺ شؤون دينهم، وهو المجلس الذي يدير منه رسول الله ﷺ

---

١) أنظر المصور المرفق



● المسجد في عهد الرسول بعد تحويل القبلة إلى الكعبة عام (٢) هـ



مخطط المسجد النبوي في بنائه الأول. ويلاحظ أن القبلة كانت في الجهة الشمالية إلى بيت المقدس

المصدر: المسجد النبوي عبر العصور د. محمد السيد الوكيل

شؤون المجتمع الجديد.. يقصده الناس المسلم والغير المسلم.. فيسمعهم ويقضي في أمورهم، فهو مقر رئيس ذلك المجتمع الجديد والدولة الجديدة..

التغييرات الكبرى في يثـرب:

منذ قدومه ﷺ بدأت سلسلة من التغييرات في يثرب وفي حياة سكانها.. فمن هذه التغييرات إلغاء الاسم القديم للمدينة (يثرب) وإطلاق تسميات جديدة هي: طيبة وطابة.. والمدينة، ولا شك أن تغيير الاسم يحمل دلالات كثيرة.. فهو انقطاع كامل عن المرحلة السابقة، وبداية لمرحلة جديدة مغايرة تماما.. ولعل أهم تغيير شهدته المدينة باسمها الجديد هو تغيير القيم والمفهومات، والبناء الجديد لشخصية الفرد ولشخصية المجتمع، فمنذ أن يدخل الفرد في الإسلام تتغير قيمه وعلاقاته وعواطفه بتغير ولائه، ويتحول من الولاء للقبيلة والأنصياع لرئيسهاإلى الولاء لله ورسوله والانصياع لتوجيه رسوله ﷺ.. وتتغير علاقاته، فيصبح الإسلام الحكم الفيصل فيها.. وربما يتحول الصديق إلى عدو والعدو إلى صديق في العلاقات الجديدة.. فكان الفرد يتحول عن أسرته وعن أصدقائه القدماء.. وقد يعاديهم إن كانوا مصرين على الجاهلية.. ويحاربهم إن وجد أنهم يحاربون الإسلام.. والشواهد على ذلك كثيرة(١).

بدأ الرسول ﷺ هذه التغييرات في المواقف والعلاقات بعملية عظيمة كان لها أثر كبير في المجتمع الجديد، هي عملية المؤاخاة بين المهاجرين

---

١) منهاأمر محيصة وحويصة، وهماأخوان أسلم الأول وظل الثاني على شركه. فلما أمر الرسول ﷺ بقتل بني قريظة، وثب محيصة على يهودي كان صديقا لهم في الجاهلية يدعى شنينة فقتله، فاستنكر حويصة ذلك، وعنف أخاه، فرد عليه محيصة قائلا: والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك، فقال حويصة: أوالله لو أمرك محمد بقتلى لقتلتني. قال محيصة نعم والله لو أمرني بضرب عنقك لضربتها، فجعل حويصة يتعجب من ذلك ويقول: والله ان دينا بلغ بك هذا لعجيب. ومالبث أن أسلم... ابن هشام. السيرة ١٩/٣

والأنصار، أي تأسيس روابط جديدة لاتقوم على القرابة، ولا تقوم على الانتماء إلى قبيلة ولا على الأعراف الجاهلية القديمة.. بما فيها من كرم ضيافة ومعونة للضيف وجوار وحماية للمقهور.. أراد رسول الله ﷺ بالمؤاخاة أن يتجاوز كل المفهومات الجاهلية، ويجعل العلاقة الجديدة بين القادمين من مكة وأهل المدينة علاقة أخوة تفوق الأخوة الأسرية.. فقال لأصحابه من المهاجرين والأنصار: تآخوا في الله أخوين أخوين ، وأخذ بيد على بن أبي طالب فقال: هذا أخي، ثم آخى بين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، وبين أبي بكر الصديق وخارجة بن زيد بن أبي زهير (من الخزرج)، وبين عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك (من الخزرج) وبين أبي عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ، وبين جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل.. ((كان جعفر مهاجراً في الحبشة)) وبلغ عدد المتآخين خمسا وأربعين أو خمسين من كل طرف، وقد أوجدت هذه المؤاخاة نوعا جديداً و عجيباً من العلاقة الحميمة بين المسلمين لم يعهده العرب من قبل.. فقد روى البخاري أن سعد بن الربيع الذي آخاه الرسول ﷺ مع عبد الرحمن بن عوف قال لعبد الرحمن: انظر شطر مالي فخذه، وتحتي امرأتان، فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها... وقد قابل المهاجرون هذا الكرم النادر والإيثار الكبير بالتعفف والإكبار، فقال عبد الرحمن بن عوف لسعد: بارك الله لك في أهلك ومالك.. ولكن دلني على السوق -ولم يأخذ منه شيئا- وذهب إلى السوق فتاجر(١).

ولم تكن المؤاخاة إعلانا للصداقة الحميمة بين شخصين وحسب - بل كانت إعلاناً عن علاقات عميقة جديدة، تقوم على التكافل بين الطرفين حتى ليرث أحدهما الآخر.. فقد تقرر في تلك المؤاخاة أن الأخ يرث أخاه الجديد، ويورثه، فيصبح بذلك مقدما على أهله في الدم والنسب.. وقد ظل هذا الحكم سائداً إلى مابعد غزوة بدر، حيث نسخ بأيات المواريث ((وأولوالأرحام

---

١) أنظر صحيح البخاري. باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار

بعضهم أولى ببعض في كتاب الله))(١).. لذا، وفي ظل العلاقات الجديدة، بدأ تشكّل المجتمع الجديد في المدينة.. مجتمع يقوم على الأخوة في الإسلام، والتسليم الكامل لله ورسوله ﷺ. وطبيعي في ظل هذا المجتمع أن تغيب الإحن القديمة ، وتنتهي حزازات الأوس والخزرج وعداوتهما الطويلة.. وقد حاول بعض اليهود والمنافقين إحياءها واذكاءها فيما بعد، ولكن رسول الله ﷺ سارع إلى إطفائها وإعادة الوئام إلى المجتمع الجديد في تكوينه الإسلامي وقيمه المتميزة..

اهتم الرسول ﷺ خلال الأشهر الأولى من استقراره في المدينة بالبناء العقدي للمجتمع الجديد.. فكانت له مجالس يومية مع المسلمين في المسجد يحدثهم ويعلمهم ويقوي الإيمان فيهم ويستقبل أعداداً جديدة من سكان المدينة الذين لم يسلموا بعد فيسمعون منه وينطقون الشهادة بين يديه، فيكثر عدد المسلمين ويقل عدد المشركين.. بينما ينزوي اليهود في أحيائهم وحصونهم، ينظرون إلى الوافدين الجدد وإلى دينهم نظرة حقد وغيظ شديدين، لذا لم يسلم منهم أول الأمر إلا واحد من أحبارهم هو عبد الله بن سلام وأهل بيته وقد كشف عبد الله بن سلام لرسول الله ﷺ مدى الغيظ والحقد في نفوس اليهود أنئذ فقال له: يارسول الله: إن يهود قوم بهت، وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم.. ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي. فإنه إن علموا فيه بهتوا في وعابوني. فأدخله الرسول ﷺ في بعض بيوته وجاء اليهود فدخلوا عليه فكلموه وسألوه ثم قال لهم: أي رجل الحصين بن سلام منكم؟ (وكان اسمه الحصين قبل إسلامه). قالوا سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا فخرج عليهم ابن سلام وقال لهم: اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة باسمه وصفته فإني أشهد أنه

---

١) الأنفال/٧٥

رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه. فقالوا كذبت.. وأفحشوا القول فيه، فقال ابن سلام ألم أخبرك يارسول الله أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور (١) وأخذ اليهود في التشكيك برسالة رسول الله ﷺ وكان بعض أحبارهم كأبي ياسر بن أخطب يكثرون عليه الأسئلة ليمتحنوه، ويخالفوه رغم ما يسمعونه من إجاباته.

وإضافة إلى رابطة الأخوة التي عقدها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار عززّ رابطة السكان بالمدينة، فدعا الله أن يملأ القلوب بحبها ((اللهم حببّ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد حباً، وصححها لنا، وبارك لنا في مُدها وصاعها)) وكان دعاؤه ﷺ للمدينة بأن تفيض عليها بركات الله، فتتميز بخصائص تنفرد بها من بين المدن، وتبقى لها إلى يوم الدين (اللهم إن إبراهيم نبيك وخليلك دعاك لأهل مكة، وأنا نبيك ورسولك أدعوك لأهل المدينة، اللهم بارك لهم في مُدهم، وصاعهم، وقليلهم، وكثيرهم ضعفي ما باركت لأهل مكة، اللهم من هاهنا وها هنا وها هنا وأشار إلى نواحي الأرض كلها (اللهم من أرادهم بسوء فأذبه كما يذاب الملح في الماء)(٢) واكتسبت المدينة بتشريع من رسول الله ﷺ حرمة خاصة، ولم يكن في جزيرة العرب غير مكة مدينة لها حرمة وحرم.. فقد حرم رسول الله ﷺ المدينة بريدا في بريد، وحرم الصيد وقطع الشجر - إلا ماتدعو الحاجة إليه - في حرمها ففي رواية لابن زبالة أن رسول الله ﷺ حرم الطير والوحش من حرة واقم إلى حرة العقيق، وحرم الشجر بريدا في بريد،(٣) ووجه إلى

---

١) ابن هشام ١٥٩/٢

٢) انظر ملحق الأحاديث النبويه عن المدينة في آخر هذا الكتاب

٣) أنظر وفاء الوفاء ٩٧/١، ١٠٢، ١٠٥، ١١٠

المحافظة على آطامها لكونها زينة المدينة(١) كل هذا حوّل المدينة من بلدة صغيرة عادية إلى مدينة لها قيمة دينية وعاطفية خاصة.. ستزداد مع تمكن الإسلام وانتشاره إلى أن تصبح عاصمة الدولة الإسلامية الأولى وقطب الرحى في المجتمع الواسع الجديد العهد.



قبائل المدينة ومواقعها في العهد النبوي

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي

---

١) السابق ١/١١٠

وثيقة المدينـة:

أمر رسول الله ﷺ بكتابة معاهدة تبين العلاقات الداخلية والخارجية في المدينة، علاقات المسلمين بعضهم ببعض، وعلاقاتهم مع مساكنيهم من اليهود والمشركين.. وعلاقات أهل المدينة عامة، المسلمين واليهود والمشركين، مع من سواهم من خارج المدينة.. ولم يشر رواة الحديث إلى الكيفية التي تـم فيها إعداد هذه الوثيقة، وما سبقها من لقاءات ومن حضر كتابتها، مع أنها ترتب حقوقا وواجبات على كل من المسلمين واليهود وغيرهم من أهل المدينة، ومع أن نسخة منها أو أكثر كانت موجودة مع اليهود، فقد ذكرت الروايات أن بني قريظة عندما نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ في غزوة الخندق واتفقوا مع الأحزاب مزقوا الوثيقة.. وما دام لدى القرظيين نسخة فلا نستبعد أن يكون مثلها لدى القبائل اليهودية الكبيرة أيضا..

ولعل أهم ماورد في العهد هو ذلك الإعلان الصريح (أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس) وهذا الإعلان مستنبط من الآية الكريمة: «كنتم خير أمة أخرجت للناس..» ولم يكن للمسلمين أنئذ أرض تضم تلك الأمة سوى أرض المدينة، وفيما يلي نص العهد كما أورده ابن هشام:(١):

بسم الله الرحمن الرحيم:

هذا كتاب من محمد النبي - ﷺ - بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم ، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم، بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين: وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي

---

١) السيرة النبوية لابن هشام ١٤٣/٢

عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنوالنجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لايتركون مفرحاً (أي محتاجا) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأن لايحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم (أي الظلم العظيم) أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سِلْمَ المؤمنين واحدة، لايسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لايجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اِعْتَبط مؤمناً قتلا عن بينة فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضىَ ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولايحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لايحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخرأن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولايؤخذ منه صرف ولاعدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين

ماداموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لايوتغ (يظلم) إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ماليهود بني عوف، وان ليهود بني ساعدة مثل ماليهود بني عوف، وإن ليهود بني جشم مثل ماليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ماليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ماليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لايوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشطيبة مثل ماليهود بني عوف، وإن البر دون الاثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لايخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لاينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهلِ بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وإن (يثرب) حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى مافي هذه الصحيفة وأبره، وإنه لاتُجار قريش ولا مَنْ نَصَرَها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دُعُوا إلى صلح، يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دَعَوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلَهم، وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل مالأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة)

وكما نرى نتبين في الوثيقة عدة محاور أساسية.

المحور الأول: إعلان وحدة المسلمين وتميزهم عمن سواهم وإيجاد روابط جديدة من أبناء الدين الواحد تعلو على الروابط القبلية والعائلية.

المحور الثاني: تعزيز التعاون والترابط والتكافل بين المسلمين ولا سيما في الديات والنفقات.

المحور الثالث: بيان حقوق اليهود الساكنين في المدينة وواجباتهم. فلهم حق النصرة والحماية، وعليهم واجب المشاركة في الحماية والدفاع عن المدينة.

المحور الرابع: منع التعاون مع أعداء المسلمين (وبالذات قريش المشركة).

المحور الخامس: حماية دم المسلم وترتيب القصاص على من يهدره.

المحور السادس: إقرار قواعد أمنية في المدينة بمنع حماية المحدثين وأصحاب الفتن وأيوائهم والتستر عليهم.. وإقرار الأمن للساكنين في المدينة جميعاً مالم يرتكب أحدهم ظلماً أو إثماً.

ولا شك أن هذه المعاهدة قد أعطت اليهود شعوراً بالأمان أيضا طمأنهم إلى أن الذين اتبعوا رسول الله ﷺ لن يفعلوا بهم مثل ما كان اليهود يتوعدون الأوس والخزرج أن يفعلوه بهم إذا ظهر النبي بينهم.. فاستمر اليهود في أعمالهم وبدؤوا يقوون صِلاتهم مع أحلافهم الذين لم يسلموا بعد في المدينة كما بدؤوا حملة تشكيك برسالة الرسول ﷺ إذ كانوا يسألونه عن بعض القضايا الغيبية ويحاولون أن يلبسوا عليه شيئا من المتشابهات وكان حيي بن أخطب وأخوه أبو ياسر وعدد من الأحبار من قادة هذه الحملة وكان رسول الله ﷺ يحلم عليهم ويعاملهم بالحسنى ويدعوهم إلى الإسلام..

ومرت أشهر السنة الأولى والمسلمون يشغلون بالتربية الروحية التي تصقل نفوسهم وتعمق قيم الإيمان فيهم وتعدهم للأعمال الجليلة القادمة.. وكانت مجالس رسول الله وما يتلى فيها من قرآن كريم وما يحدث به الرسول ﷺ مادة تلك التربية ووسيلتها الكبرى.. وكذلك زياراته لبعض البيوت

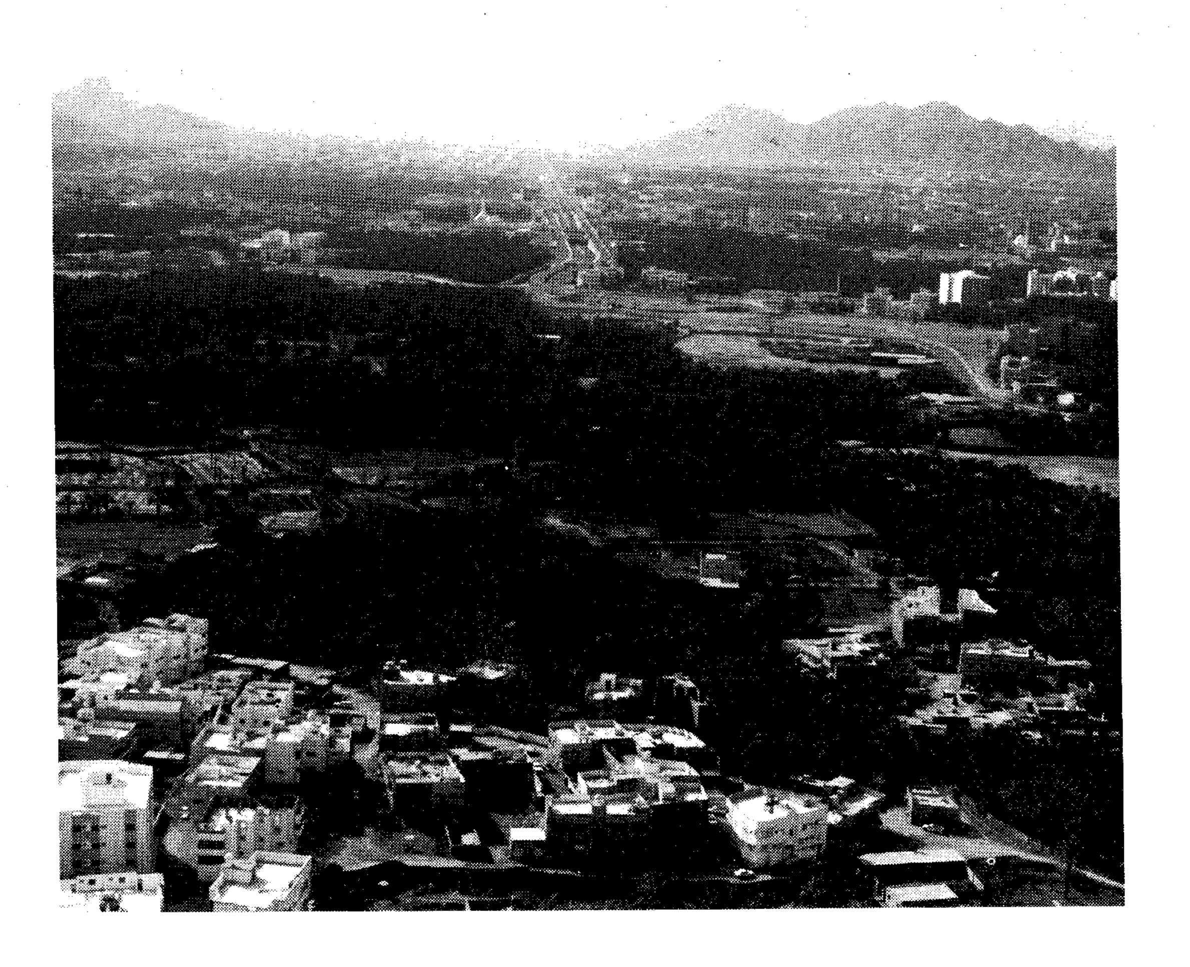
والبساتين التي يجلس فيها الأنصار.. ثم خطبه في الجمع والمناسبات الطارئة.. وكان المسلمون يتناقلون أخبار تلك المجالس وأحداثها ويقبلون على الآيات الكريمة يحفظونها.. وينقلون ذلك كله إلى بيوتهم ومجالسهم فيما بينهم فيزداد الذين آمنوا إيمانا وتتألق شيئا فشيئا الشخصية الإسلامية سلوكها وعلاقاتها، غير أن وجود اليهود ومحاولاتهم الدائمة في التشكيك بالرسالة والرسول ﷺ ووجود عدد من المشركين.. أدى إلى ظهور طبقة أخرى في المجتمع المدني.. طبقة مريضة النفس لا تقوى على المجاهرة بموقفها من الدين الجديد، فأظهرت إليه الولاء، وأضمرت العداوة والخصومة.. هذه الطبقة هي طبقة المنافقين.. التي بدأت تتشكل مع ارتفاع شأن المسلمين، وكان على رأسها عبد الله بن أبي بن سلول الذي أوشك أن يتوجه أهل يثرب زعيما عليهم بعد موقعة بعاث(١)، ولكن هذه الطبقة لم يشتد أمرها إلا فيما بعد، وعاشت المدينة العام الأول بعد الهجرة حياة جديدة، ظهرت فيهاالقيم الجديدة. وأحدثت تغييرات كبيرة في بنية المجتمع المدني، على نحو ما سنراه في صفحات قادمة.

والجدير بالذكر أن المدينة لم تتعرض لأي خطر داخلي أو خارجي خلال السنة الأولى للهجرة، فكأنما قنعت قريش بخروج معظم المسلمين من مكة، واحتباس ضعفائهم مصفدين في البيوت، أو غير قادرين على الهجرة فلم تفكر بالهجوم على المسلمين في المدينة، وعادت لتجارتها وحياتها اليومية،

---

١) لم يشارك عبد الله بن أبي بن سلول في موقعة بعاث كما أسلفنا في الفصل السابق، وعندما فكر بعض العقلاء في إنهاء العداوة بين الأوس والخزرج وإقرار الأمن توجهوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول وعقدوا العزم على أن يولوه الرئاسة. ولكن انتشار الإسلام بين أهل المدينة وهجرة المسلمين من مكة إليها وتسليم زمام الأمور إلى رسول الله ﷺ حال دون ذلك.. لذا حنق ابن أبي سلول على الدعوة فأظهر الايمان وأبطن العداوة، وكانت له مواقف واضحة النفاق

وظنت أن قضية المسلمين قد هدأت بتقوقعهم في المدينة بعيداً عنهم، ولم يَدُر ببالها أن القدر يخبىء لها من الأحداث شيئاً كثيرا.



المدينة مركز نشاط عسكري:

في صفر من العام الثاني للهجرة، شهدت المدينة نشاطا عسكرياً جديداً، فقد قرر رسول الله ﷺ أن يتصدى لقريش ويعاقبها على مافعلته بالمسلمين في مكة، ويُظهر هيبة المجتمع الإسلامي الجديد، فوجه السرايا لقطع الطريق على تجارة قريش، العصب الرئيسي لحياتها(١)، وخرج بنفسه على رأس مجموعة من المهاجرين، واتجه غربا إلى المناطق التي تسكنها قبائل بني بكر حليفة قريش وحامية قوافلها في تلك المنطقة، ووصل إلى الأبواء على بعد (٤٠كم) من المدينة، فلم يجد قافلة لقريش ولا بعثاً من بعوثها. وخاف سكان المنطقة (بنو حمرة من بكر) ووادعوا رسول الله ﷺ وتعهدوا بعدم نصرة قريش على المسلمين، وخلال الغزوة أرسل رسول الله ﷺ سريتين تجوبان المنطقة، الأولى بقيادة عبيدةَ بن الحارث واتجهت جنوبا حتى وصلت منطقة تسمى ثنية المرة، فوجدت جمعا من قريش بقيادة عكرمة بن أبي جهل، وحدث تراشق بالسهام ، وكادت تقع معركة بين الطرفين، ولكن بعض الأحلاف حجزوا بينهما، والسرية الثانية بقيادة حمزة بن عبد المطلب. سارت غربا إلى شاطئ البحر فلم تلق جيشا ولا قافلة لقريش، وعادت السريتان إلى المدينة.

وهكذا... ولأول مرة تتحول المدينة إلى مركز حركة عسكرية تتجه خارج حدودها، وتظهر قوة المجتمع الإسلامي الجديد، وتهدد تجارة قريش.

وتلتها بعد شهر غزوتان أخريان (غزوة بواط التي وصلت رضوى شمالي مكة بمئة وخمسين كيلو متر تقريبا، وغزوة العشيرة قرب ينبع حوالي (٨١ كم) جنوب غرب المدينة) ولم يحدث في هاتين الغزوتين قتال، فقد عمدت قبيلة مدلج (من بني بكر) التي تسكن حوالي ينبع، إلى موادعة المسلمين، وقد أفادت هذه الموادعة المسلمين كثيراً لأنها جردت قريش من نصرة حلفائها

---

١) كانت قريش قد سلبت أموال عدد من المهاجرين كصهيب الرومي وعبد الله بن جحش فأراد رسول الله ﷺ أن يعاقبها بفرض نوع من الحصار الإقتصادي عليها

القريبين من المدينة، والذين كان في قدرتهم الإغارة عليها أو تهديدها.

وحدثت بعد ذلك حادثة أكدت هذه القضية، فقد أغار كُرْز بن جابر الفهري على أطراف المدينة حيث تسرح المواشي، ونهب بعض الإبل وفر بها غربا، فتبعه المسلمون إلى قرب منطقة بدر ولم يدركوه، وهذا يعني أن المدينة التي لم يكن لها سور يحميها من الغارات المفاجئة يمكن أن تتعرض لهجوم من حلفاء قريش القريبين منها في أي وقت، إذا لم يكن بينها وبين القبائل المجاورة عهد أو موادعة.

وفي شهر رجب من السنة الثانية للهجرة أرسل رسول الله ﷺ سرية بقيادة عبد الله بن جحش إلى جنوب مكة حيث طريق القوافل بين مكة واليمن، وذلك لرصد قريش واستطلاع أخبارها، ولم يأمرها بقتال. ولكن السرية وجدت قافلة لقريش فتعرضت لها وقتلت قائدها وأسرت اثنين من رجالها، وعادت بالقافلة والأسيرين إلى المدينة.

ونظراً لأن هذه الحادثة وقعت في شهر حرام (رجب) فقد أثار المشركون ضجة كبيرة، واتهموا المسلمين بانتهاك الأشهر الحرم.. وهذا عمل تستفظعه القبائل العربية، لذلك كان له وقع خطير في الحواضر والبوادي، فهو خرق لعرف عامّ ساد الجزيرة العربية مدة طويلة قبل الإسلام، ولما رجعت السرية إلى المدينة لم يستلم رسول الله ﷺ الغنائم منها، وقال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام. وانتشرت دعاية قريش أن محمداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال وأسروا الرجال(١) وما لبث أن نزل الوحي على رسول الله ﷺ يُبين سلامة موقف المسلمين إزاء قريش، التي لم تراع حرمة المسجد الحرام وأخرجت المسلمين منه، فهذا خرق أكبر من خرق حرمة الأشهر الحرم، يلغي حصانة قريش فيها قال تعالى: (يسألونكَ عن الشهرِ الحرامِ قتالٍ فيه. قُلْ قتالٌ فيه كبيرٌ وصَدٌ عَنْ سبيلِ اللهِ وكفرٌ به

---

١) د. أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة ص ٢٩.

والمسجدِ الحرامِ، وإخراجُ أهلِهِ منه أكبرُ عند الله، والفتنةُ أكبرُ من القتل))(١) عندئذ فُرج عن المسلمين، وقَبِل رسول الله ﷺ الغنائمَ، وكانت أولَ غنائم تدخل المدينة المنورة..

كانت الموقعة انعطافاً واسعاً في حياة المدينة، فهي أول حركة تخرج منها قوة عسكرية من المدينة لتقوم بأعمال حربية بعيدة عنها.. كانت المدينة في حالة دفاع دائماً.. ولم يكن لها جيش قط.. ولم تكن في حالة هجوم قط.

ومما يلفت النظر أن الرسول ﷺ، جند في تلك السرايا المهاجرين فقط ولم يشرك فيها أحداً من الأنصار، وهذه حنكة كبيرة من رسول الله ﷺ: أن يواجه قريشا بأبنائها، ويشعرها بأن القضية عقوبة لقريش التي ظلمت هؤلاء المهاجرين، ولكي لاينشئ عداوةً مبكرة بين القرشيين وأهل المدينة، فلم تكن المدينة مهيئة بعدُ لقتال واسع النطاق مع قريش وأحلافها الكثيرين.. لذا فاقتصار السرايا على المهاجرين يجعل قريشاً لاتفكر في غزوة شاملة تضرب فيها المدينة وأهلها بعامة.. على نحو ما فعلته بعد ذلك في الغزوات التالية: بدر وأحد والخندق..

المسلمون في المدينة يهددون قريشاً:

لم توقف قريش قوافلها الذاهبة إلى الشام واليمن، واكتفت بتشديد الحراسة عليها واتخاذ أقصى تدابير الحيطة والحذر، ببث العيون والرصد في الطريق، وتسقط أخبار المسلمين في المدينة، بينما كان رسول الله ﷺ في المدينة يترصد أخبار قريش، وينتظر الفرصة المواتية لمعاقبتها عقوبة موجعة.

وجاءه أحد الراصدين بخبر قافلة عظيمة لقريش قادمة من الشام، يقودها أبو سفيان. عندئذ انتدب الرسول ﷺ المسلمين من المهاجرين والأنصار، وخرج مستعجلا بمن كان مستعداً للخروج، ولم ينتظر من لم يتهيأ بعد..

---

١) البقرة ٢١٧ -.

وكان معه (٣١٤) رجلا (على أرجح الأقوال)(١) منهم مئة من المهاجرين والبقية من الأنصار، ومعهم سبعون بعيراً يتعاقبون على ركوبها وفَرَسَان فقط.

وعلم أبو سفيان بخروج المسلمين لأخذ القافلة، فغيرّ طريقه واتجه إلى الساحل، وأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري إلى أهل مكة يستنفرهم للدفاع عن القافلة، وكان وقع الخبر شديداً على قريش، فقد رأت في تعرض المسلمين لقافلتها امتهاناً لكرامتها، وتحدياً لهيبتها بين القبائل، وتهديداً خطيراً لموردها الاقتصادي الرئيسي، فخرج جميع فرسانها المشهورين وجميع رجالها القادرين على القتال لمواجهة المسلمين، ويُقدر عددهم بألف رجل(٢) على أصح الأقوال.

استطاع أبوسفيان أن يتجنب مواجهة المسلمين، ونجا بقافلته ووصل بها مكة، وأرسل إلى قريش رسولاً آخر يعلمها بنجاة القافلة، فلما جاء الخبر رأى بعض القرشيين أنه لاحاجة للخروج، فتوقف بنو عدي (قبيلة عمر بن الخطاب) وبنو زهرة(٣)، بينما أصر زعماء القرشيين على مواجهة المسلمين، واقنعوا بقية المشاركين في الحملة بالاستمرار.

الوقعــة الكبرى:

عندما سمع المسلمون بمسيرة أهل مكة جمع رسول الله ﷺ الصحابة واستشارهم فيما يفعلونه.. هل يرجعون إلى المدينة أم يواجهون جيش قريش، لأن المسلمين لم يكونوا قد خرجوا أصلا لمحاربة قريش.. بل خرجوا لاعتراض قافلة فيها عدد محدود من الحراس.. ولم يأخذوا أهبتهم لمعركة كبرى، ثم إن الأنصار قد بايعوا رسول الله ﷺ على منعه إذا هدده خطر أو هجوم في المدينة.. ولم يكن في البيعة مايشير الى الخروج لقتال الآخرين

---

١) المجتمع المدني ص٤٠

٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ٨٤/١٢

٣) المجتمع المدني ص ٢٠

بعيدا عن المدينة.. لذا آثر رسول الله ﷺ أن يعرف رأيهم.. وحدث موقف من المواقف الإيمانية العظيمة تجلت فيه أثار التربية الروحية خلال المدة الماضية، سواء في المهاجرين أو في الأنصار.. فقد وقف رسول الله ﷺ يسأل المسلمين: أشيروا علي أيها الناس.. فقام أبو بكر، فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن الأسود، وهؤلاء الثلاثة من المهاجرين، فقال: يارسول الله امض لما أراك الله فنحن معك.. والله لانقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى ((إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون)) ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له، ثم قال: أشيروا علي أيها الناس، فقال له سعد بن معاذ: والله إنك تريدنا يارسول الله. قال أجل، قال: لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ماتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك بنا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله.

سر رسول الله ﷺ بقول سعد، فقال: سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم(١) وسار المسلمون فنزلوا عند بدر، واحتجزوا عيون الماء التي كانت في المنطقة كي لايستولي عليها القرشيون الذين اقتربوا من المنطقة، وقبضوا على بعض عبيدهم وعرفوا منهم عدد الجيش وأهم فرسانه.. وبنى المسلمون عريشاً لرسول الله ﷺ يدير منه المعركة، وسهر رسول الله ﷺ يدعو ربه أن ينجزه وعده بالنصر.. وهطل مطر خفيف أثناء الليل.. رَكَنَ خلاله المسلمون

---

١) ابن هشام ٢٥٨/٢ والبداية والنهاية ٣٦٢/٣ -.

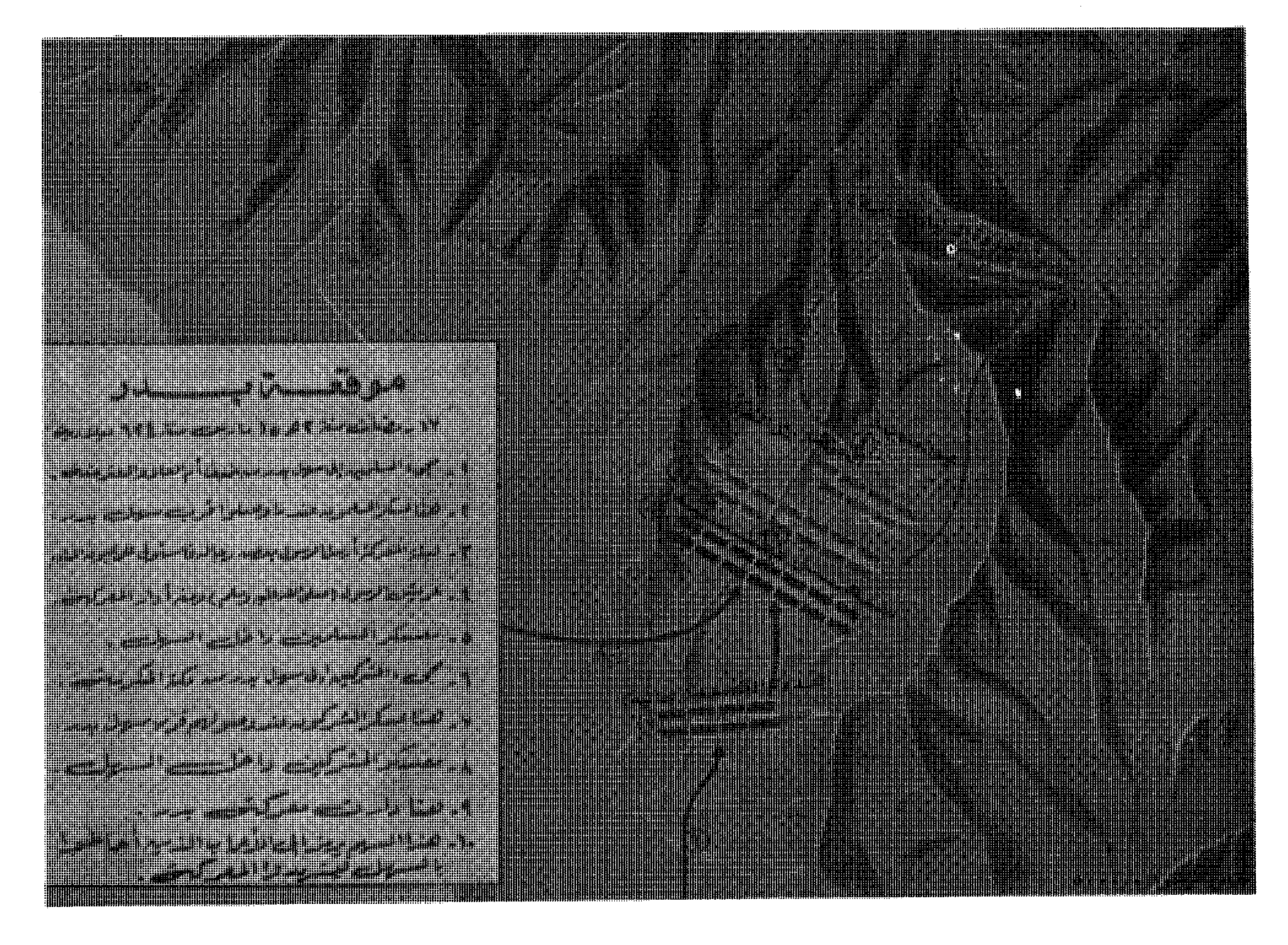
إلى الجحور والأشجار إتقاء رذاذه.. وغشيهم النعاس فاستراحوا.. واستيقظوا على صوت رسول الله ﷺ يناديهم لصلاة الفجر.

كان ذلك اليوم هو اليوم السابع عشر من شهر رمضان، ووصل المشركون إلى موقع قريب مواجه للمسلمين، وبعد الصلاة نظّم الرسول ﷺ الجيش في صفوف متوالية، وهو أسلوب جديد لم تألفه العرب من قبل، فضمن وجود مجموعات احتياطية تردف المجموعة الأولى، كما ضمن مواجهة التفوق العددي للمشركين الذين يستخدمون أسلوب الكر والفر.. ووجه إلى استخدام النبال لكسر شوكة الهجوم، وأوصى بحسن استخدامها فلا ترمى إلا حين يقترب العدو.. وعند طلوع الشمس بدأ جحفل المشركين يزحف نحو المسلمين، فأوصى الرسول ﷺ بعدم التصرف قبل صدور توجيهاته (لايقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه)، ووقف ﷺ يدعو ربه طويلا : (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد في الأرض) وما زال يهتف بربه مادّاً يديه مستقبلا القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فتناوله أبو بكر ورده عليه والتزمه من ردائه وقال له: يانبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.. فأنزل الله قوله ((إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين)) فخرج رسول الله ﷺ من العريش وهو يقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر(١) وقال للمسلمين: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض... وعندما اقترب المشركون من المسلمين هتفوا يطلبون المبارزة الفردية، وخرج ثلاثة من صناديدهم: عتبة بن ربيعة وابناه الوليد وشيبة، وكانت المبارزة إحدى أعراف القتال، ولها تأثير كبير على سيره فيما بعد، فخرج إليهم بعض شباب الأنصار، فرفضوا قتالهم، وطلبوا مبارزة أبناء قومهم من المهاجرين، لكسر شوكتهم والانتقام من السرايا السابقة التي

---

١) فتح الباري ٢٨٧/٧ -.

اقتصرت على المهاجرين.. فانتدب لهم رسول الله ﷺ ثلاثة من المهاجرين هم: علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث... وبدأت المبارزة فقتل علي شيبةَ وقتل حمزة عتبةَ واختلف كل من عبيدة والوليد في ضربتين فجُرح كل منهما.. أنئذ حمل علي وحمزة على الوليد فقتلاه، وحملا عبيدة إلى صفوف المسلمين، وكان لنتيجة المبارزة أثر كبير في تقوية عزائم المسلمين، وفي تهييج غضب المشركين، فاندفع هؤلاء بعصبية نحو المسلمين.. فلقيتهم النبال.. وصرعت وجرحت عددا منهم.. ثم لقيتهم الصفوف المتراصة فكسرت هجمتهم، واشتد الجِلاد بين المسلمين والمشركين، وبدأت صرخات المصابين من المشركين توهن عزائم أصحابهم، بينما كان المسلمون يكبرون ويهللون، ويتسابقون لقتل رؤوس الكفر، وانتشر المقاتلون في ساحة واسعة، وفقد المشركون تفوقهم العددي نتيجة لهذه الضعضعة، ولصمود المسلمين، وقبل ذلك كله نتيجة لنصر الله وتأييد المسلمين بالملائكة ، ولو شاء الله لأمر ملكاً واحداً فدمر جيش المشركين.. ولكن شاءت إرادته أن تكون الأسباب البشرية حاضرة، لتكون عظة وعبرة فيما بعد.. وبدأ الوهن يسيطر على مجموعة المشركين المفككة، ثم تحول إلى غلبة واضحة للمسلمين، ورعب في قلوب المشركين، وبدأ بعضهم بالهرب، فازداد الرعب في الآخرين ودبت الفوضى فيهم وأصبح كل منهم يلتمس مهربا من مسلم يطارده.. وشعر بعضهم بأنه لن ينجو فاستسلم واستأسر.. وكان رسول الله ﷺ يشارك في القتال بنفسه، حتى ليقول علي رضي الله عنه: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ



مصور غزوة بدر

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي

برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا(١)

وسقط أئمة الكفر: أبو جهل، قتله شابان أنصاريان وأجهز عليه ابن مسعود، وأمية بن خلف، قتله بلال وجماعة من الأنصار.. وتتابع قتلى المشركين حتى بلغوا سبعين رجلاً، واستأسر منهم سبعون.. وانجلت المعركة عن هزيمة كبيرة للمشركين تاركين وراءهم غنائم كثيرة، ونصر الله المسلمين نصراً مبيناً..

توقف القتال، وأمر رسول الله ﷺ بسحب قتلى المشركين والقائهم في بعض الآبار، وجمعت الغنائم، وشُد وثاق الأسرى انتظاراً لحكم الله ورسوله فيهم، وجمعت أجساد شهداء المسلمين.. وهم أربعة عشر شهيداً، ودفنت. ومكث رسول الله ﷺ مع صحبه في بدر ثلاثة أيام، ثم خرج عائداً إلى المدينة. وفي الطريق أمر بقتل اثنين ممن كانا يشتدان في أذى المسلمين وهما عقبة بن معيط والنضر بن الحارث فقتلا. وأوفد الرسول ﷺ زيد بن حارثة بالبشرى إلى المدينة، فوصلها قبل الجيش يبشر أهلها بفتح الله على المسلمين.. وكان الخبر مدهشاً للجميع، لما سمعوه من تفاوت الجيشين في العدد، وللهيبة التي كانت لقريش في نفوس الناس.. حتى ليقول بعض الصحابة: والله لم أصدق حتى رأيت الجيش والأسرى والغنائم..

عاد الجيش المنتصر ليدخل الفرحة إلى قلوب المسلمين في المدينة، وليملأهم الشعور بأثر نصر الله لهم عزة ومنعة وتوفيقا.. بينما غَصّ اليهود ومن بقي على الشرك والمنافقون بهذه الأخبار وملأتهم الكآبة.. وكانت الغنائم وافرة، ووزع رسول الله ﷺ الأسرى على بيوت المسلمين.. وأوصى بهم خيرا، وكان فيهم زوج ابنته زينب أبو العاص بن الربيع، وعمه العباس بن عبد المطلب، وابن عمه عقيل بن أبي طالب.. وفيهم أبو عزيز بن عمير شقيق مصعب بن عمير، وقد روى أبو عزيز أن آسريه كانوا إذا قدموا غذاءهم أو

---

١) مسند أحمد ٢/٢٢٨-

عشاءهم خصوه بالخبز - وكان الخبز نادرا - حتى ماتقع في يد أحدهم إلا ناوله إياها، فيستحى فيردها، فيردها عليه(١).

وكما عوّد رسول الله ﷺ أصحابه، فقد استشارهم فيما يفعله في أسرى بدر، فأشار بعض الصحابة - وعلى رأسهم أبو بكر - بقبول الفداء، وأشار عمر وبعض الصحابة بالقتل، فأخذ الرسول ﷺ بالرأي الأول وقبل فداء من يملك المال.. ومن على الفقراء، وجعل فداء من يعرف الكتابة أن يعلم عشرة من صبية المسلمين، ونزل الوحي بعد ذلك معاتبا الرسول ﷺ، ومقراً له على مااختاره (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض)(٢)..

آثار النصـر:

وكانت أصداء بدر كبيرة وقوية، تعدت مكة والمدينة إلى سائر الحجاز، ثم أرجاء الجزيرة العربية الأخرى.. فقد أحس المؤمنون بعزة من الله استعلوا بها على المشركين واليهود.. وانخذل اليهود وظهرت أحقادهم، وجاهر بعضهم بالعداء غيظا من هذا النصر، وذلك أنهم فقدوا امتيازهم في المدينة، وسقطت توقعاتهم بظهور نبي يتبعونه ويستعلون به.. وهابت القبائل حول المدينة المسلمين، وبدأت العرب تتحدث بما أصاب قريشا من ذل وهوان.

ودعم رسول الله ﷺ انتصار بدر بحركة عسكرية أخرى تعزز هيبة المسلمين لدى القبائل.. فبعد عودته من غزوة بدر بستة أيام، بلغه أن بعض أحلاف قريش من غطفان وبني سليم بدؤوا يجمعون الجموع للتحرك ضد المسلمين، فعاجلهم بغزوة قادها بنفسه ﷺ ويبدو أن تلك القبائل بلغها الخبر قبيل وصول المسلمين.. ففروا على عجل وتركوا إبلهم عند الماء الذي كانوا ينزلون عليه (قرقرة الكدر).. فغنم المسلمون الإبل وكانت (٥٠٠) بعير، وأقاموا ثلاثة أيام في المكان، ثم عادوا إلى المدينة.

---

١) البداية والنهاية ٣/٣٠٧ -

٢) الأنفال ٦٧

غدر قرشـــي - يهـــودي:

ازداد اليهود غيظاً وحقداً على المسلمين، وظهرت فيهم بوادر الغدر وبخاصة في بني النضير وبني قينقاع.. أما بنو النضير فقد قدم زعيمهم سلام بن مشكم خدمة كبيرة لأبي سفيان بن حرب الذي حاول أن يقوم بعمل انتقامي مباغت يقلل فيه من آثار انتصار بدر. فقد خرج من مكة في أواخر ذي القعدة على رأس قوة خفيفة (مائتي فارس)، وسلك طريق نجد، أي اتجه شرقا، ثم شمالا، فوصل شرقي المدينة، واجتهد ألا يحس بمسيره أحد، ونزل بالطرف الشمالي الشرقي من المدينة، وتسلل أبو سفيان وحده إلى بني النضير، فاستضافه سيدهم سلام بن مشكم، وقدم له الطعام والشراب، وأرسل من يتجسس له على المسلمين فجاؤوه بأخبارهم.. وأمضى أبو سفيان ليلة عنده ثم خرج إلى أصحابه وتحرك بهم إلى منطقة في الحرة الشرقية تدعى العريض، ودهموا أحد بساتين النخل الجديدة فيها، ووجدوا فيه رجلين من الأنصار فقتلوهما، وأضرموا النار في البساتين وهربوا.. فلما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ خرج ببعض المسلمين في أثرهم.. فأسرع أبو سفيان ومن معه.. وألقوا كل ما معهم من زاد وحمولة ونجوا بأنفسهم، وتبعهم جيش المسلمين فلم يدركهم(١)٠

وعلى الرغم من شناعة مااقترفه سلام بن مشكم فان رسول الله ﷺ لم يعاقبه آنئذ، ولم يهاجم بني النضير، فقد شغله عنه ماكان يراه من تحرش قبيلة أخرى هي بني قينقاع.

المدينة تتخلص من أول قبيلة يهودية:

كان بنو قينقاع من أشد اليهود وأغناهم.. ولا شك أنها حكمة بالغة من

---

١) وسميت تلك الحادثة: غزوة السويق، لأن المشركين لما خافوا أن يدركهم المسلمون تخففوا من أحمالهم وطرحوها في الطريق، وكانت سويقا ، أي طحينا ، فغنمه المسلمون

رسول الله ﷺ كي لايجتمع عليه اليهود.. فيتحالف بنو قينقاع وبنو النضير ضده.. وقد كان بينهما شيئ من النفرة والخصومة.. لذا آثر أن يهتم بأمر بني قينقاع أولا.. فخرج إليهم وجمعهم في سوقهم ودعاهم إلى الاسلام، فردوا عليه رداً خبيثا وقالوا: لايغرنك أنك لقيت قوما لايعرفون الحرب فأصبت منهم، والله لئن جربتنا لتعلمن أنا نحن الناس.. فانصرف عنهم ﷺ مغضباً.

وحدث بعد ذلك أن امرأة مسلمة من خارج المدينة جاءت إلى سوقهم وجلست إلى صائغ ليصنع لها بعض الحلي، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فتأبى، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت عورتها، فضحكوا منها، فاستصرخت المسلمين، فوثب أحدهم فقتل الصائغ، فتجمع عليه اليهود وقتلوه، وبلغ ذلك المسلمين فغضبوا غضباً شديداً، وأخبروا رسول الله ﷺ، فنزلت إليه الآية: (وإمّا تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء)(١) فانتدب الناس للخروج إلى حصونهم، وحاصرهم حصارا شديدا خمسة عشر يوما، فاستسلموا، وكانوا سبعمائة مقاتل، وهمّ رسول الله ﷺ بقتلهم، إلا أن حليفهم عبد الله بن أبي بن سلول مشى إلى رسول الله ﷺ فيهم، وألح عليه لإنقاذهم، فأمر رسول الله ﷺ بأن يخرجوا من المدينة ، فخرجوا منها بما حملته رحالهم من متاع، وابتعدوا إلى أذرعات في أرض الشام.. وبذلك تطهرت المدينة من أول قبيلة يهودية كانت أشد اليهود وأغناهم، وخلت سوقهم ومساكنهم للمهاجرين والأنصار، ولم تتدخل القبائل اليهودية الأخرى لنصرة بني قينقاع لسببين رئيسيين:

الأول: أن رسول الله ﷺ عندما عقد العهد بينه وبين اليهود فرق بين القبائل، فجعل عهده مع كل منها على حده.. فالخلاف الذي يقع بين المسلمين وأية قبيلة منهم لاعلاقة لأطراف أخرى بها.. وبذلك يمنع تكتلهم ومساندتهم لبعضهم بعضاً ضد المسلمين.

---

١) الأنفال ٥٨

الثاني: أن بني قينقاع كانوا في ذلك الوقت على خلاف مع القبيلتين اليهوديتين الرئيستين في المدينة، بني النضير وبني قريظة، لذا لم تتحمسا لمناصرتها...

المسلمون يضغطون على قريـش:

مضت السنة الثانية من الهجرة ودخلت السنة الثالثة والعمل العسكري واضح في المدينة.. فقد تابع رسول الله ﷺ ضغطه على تجارة قريش وحلفائها.. فخرج إلى قبائل غطفان، الذين بدؤوا يتجمعون ثانية عند ماء يسمى ذي أمر ، فسمع الغطفانيون بخروج المسلمين ففروا، ونزل المسلمون في ديارهم وأقاموا فيها طيلة شهر صفر دون أن يلقوا قتالا ثم عادواإلى المدينة. وأرسل الرسول ﷺ سرية بقيادة زيد بن الحارثة لتقطع على قريش طريق التجارة الشرقي، وهو طريق يتجه شرقا إلى نجد والعراق ثم شمالا إلى الشام.. وكان أبو سفيان قد خرج فيه بقافلة، فلقيته سرية زيد بن حارثة عند ماء يسمى ((القردة)) وفر أبو سفيان ومن معه تاركين القافلة غنيمة للمسلمين.. وهكذا اشتد الخناق على تجارة مكة وأصبحت طرقاتها الشمالية والشرقية والجنوبية والغربية كلها مهددة تترصدها سرايا المسلمين وتوقع بها.. وكانت السرايا تخرج من المدينة بأعداد تتراوح بين المائة والمئتين، ويشارك فيها المهاجرون والأنصار معا، ويعودون بالغنائم الوفيرة غالبا، ويخلفون وراءهم أخباراً تتناقلها القبائل.. تهزّ هيبة قريش وتعلي شأن المسلمين..

وفي الوقت نفسه كان بقية المسلمين في المدينة يعملون في مجالات العمل الأخرى.. ويحرصون على الصلاة في مسجد النبي ﷺ، وعلى الجلوس إليه عندما يكون في المدينة.. وكانت الآيات تتنزل بالأحكام فيتناقلونها ويتدارسونها ويحفظونها.. وكان شأن المسلمين يعلو كل يوم.. وفي الوقت نفسه كان كثير من اليهود يتميزون غيظا..

عقوبة يهودي غادر:

ولم يُخفِ بعض اليهود غيظهم وعداوتهم للمسلمين.. بل جاهروا بالعداوة وعملوا جهدهم لينالوا منهم.. وكان من أشدهم إيذاء في تلك الفترة كعب بن الأشرف، (١) أحد سادة بني النضير وصاحب حصن مشهور باسمه في منطقتهم.. وكان كعب شاعراً ، فلما جاءت الأخبار بانتصار المسلمين في بدر ومقتل رؤوس الشرك بكى المشركين بقصائد حارة.. وسافر إلى مكة يحرض أهلها على الانتقام.. وطاف بين عدد من القبائل المجاورة، وحاول أن يجمع كلمة اليهود على محاربة المسلمين رغم أن العهد بين اليهود والمسلمين مازال سارياً.. بل عاد إلى المدينة وأخذ يذيع القصائد التي تؤذي المسلمين.. فيذكر فيها زوجاتهم وبناتهم ويتغزل بهن غزلا فاضحا، فتأذى المسلمون من ذلك أذى شديداً، وقرر رسول الله ﷺ انهاء شره، فانتدب جماعة من المسلمين لقتله على رأسهم محمد بن سلمة (الأوسي)، فاحتالوا له واستنزلوه من حصنه وقتلوه(٢).

ولا شك أن قتل كعب بن الأشرف كان عملاً سياسياً عسكرياً ناجحاً من حيث التخطيط والتوقيت والتنفيذ، يخدم المسلمين في المدينة ويساعد على استتباب الأمن فيها، فكعب كان قادراً على حشد القوى داخل المدينة ضد المسلمين، وبالتالي تهديدهم من الداخل، وعلاقاته مع بني قريظة كبيرة، ومن الممكن أن يجمع كلمتهم على المسلمين، وهو أيضا ذو أصول عربية - من طيئ - وله مكانة بين القبائل العربية، ويدل تحركه السريع والنشيط بين مكة والمدينة والطائف على أنه ذو صلات قوية بالقبائل.. فمن الممكن أن يُجمّع

---

١) كتب بن الأشرف الطائي: من بني نبهان عربي أمه يهودية من بني النضير عاش بين أخواله وتهوّد وصار سيداً في أخواله، بني حصناً كبيراً شرقي المدينة مازالت بقاياه موجوده

٢) أنظر ابن هشام٣/١٢ -

القبائل ويحثها على مهاجمة المسلمين.. فضلا عن دوره الإعلامي الكبير باعتباره شاعرا متمكنا.. والشعر أحد وسائل الاستثارة القوية بين العرب.. لذا كان من الضروري حماية الجبهة الداخلية والخارجية للمدينة المنورة.

وقد ظهرت آثار قتله مباشرة داخل المدينة، اهتز اليهود وذعروا وحافظوا على العهد الذي كان بينهم وبين الرسول ﷺ، واختفت الأصوات الداعية لنقضه ونصرة قريش عليه..

قريش ينفـد صبرها:

ومرت الشهور على المدينة وقد تحسنت أحوال المسلمين فيها.. وعلت شوكتهم، ووادعتهم القبائل المحيطة بالمدينة إلى شاطئ البحر، وكان بعضها حليفاً لقريش، فلما وادعت المسلمين أمن المسلمون غارتهم، واستطاعوا أن يرسلوا السرايا لتهديد قوافل قريش، وشعرت قريش بالخطر الكبير. وتداولت الأمر في دار الندوة، وقال صفوان بن أمية (إن محمدا وصحبه عوروا علينا متجرنا، فما ندري مانصنع بأصحابه وهم لايبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوهم، ودخلت عامتهم معهم، فما ندري أين نسلك؟ وإن أقمنا بدارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا، فلم يكن لها من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة).. ولم تكن قريش قد ضمدت جراحها في بدر بعد، لذا ازداد غيظها، وحولت قوافل تجارتها إلى الطريق الشرقي -طريق نجد- وهو طريق طويل مجهد، ولكنها لم تسلم، فقد خفت إليه سرية المسلمين بقيادة زيد بن حارثة واعترضت قافلة يقودها صفوان بن أمية نفسه.. وكاد صفوان أن يقع في الأسر لولا أن فر تاركاً القافلة غنيمة للمسلمين.. فبلغ الغيظ في قريش ذروته، وبدأت تعد العدة لحملة كبيرة تشنهاعلى المدينة، هدفها الانتقام لهزيمتها في بدر من جهة، ووقف مطاردة المسلمين لقوافلها التجارية من جهة أخرى.

قريش تهاجم المدينة : غزوة أحـد

نشط أبو سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن ربيعة في إثارة البطون والقبائل المجاورة لمكة من ثقيف وكنانة وبني المصطلق، وخصصت قريش أموال القافلة التي نجت من المسلمين قبيل معركة بدر لتجهيز الحملة، وأسندت القيادة لأبي سفيان.. وتجمع الجيش: ثلاثة آلاف مقاتل معهم ثلاثة آلاف بعير ومائتا فرس إضافة إلى الدروع والسيوف والرماح والسهام الكثيرة.. ولم يبق في مكة رجل قادر على القتال إلا خرج أو انتدب من يخرج مكانه، وحضّ صفوان بن أمية الشاعرَ أبا عزة الجمحي على الخروج وتحمل نفقته ونفقة عياله، وأخرج جبير بن مطعم عبده الحبشي (وحشي)، ووعده أن يعتقه إن قتل حمزة بن عبد المطلب، وكان وحشي بارعاً في رمي الحربة.. وخرج مع الجيش أبو عامر الراهب(١)، الأوسي الذي ترك المدينة ولحق بقريش حقداً على رسول الله ﷺ. كما خرجت نساء زعماء قريش يضربن الدفوف لتشجيع المقاتلين وإثارة حماستهم، وكان منهن نسوة موتورات قتل أزواجهن أو إخوانهن أو آباؤهن ببدر.. كهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان.. وتحرك الجيش بجلبته الكبيرة إلى المدينة وسار على طريق عسفان - الجحفة - رابغ -الأبواء -.. وسارع عباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ - وكان مقيماً بمكة لم يظهر إسلامه بعد - إلى إرسال رسالة إلى رسول الله ﷺ وسلم يخبره بتحرك الجيش.. ووصلت الرسالة مع اقتراب الجيش من المدينة، فأرسل رسول الله ﷺ رجالاً لاستطلاع حركة الغزاة القادمين، فرصدوهم عند ذي الحليفة، ورأوهم يسيرون بجانب وادي العقيق إلى المنطقة الشمالية الغربية من المدينة، ليستقروا في مصب وادي قناة قرب جبل أحد.. وعاد المستطلعون إلى رسول الله ﷺ وأخبروه بالأمر، وكان ذلك صباح يوم الجمعة الرابع عشر من شهر شوال.. واستنفر رسول الله ﷺ

---

1) وقد سماه رسول الله ﷺ (الفاسق)

المسلمين وشاورهم في المكان الذي تكون فيه المعركة، فانقسمت آراء الصحابة إلى قسمين، قسم يرى البقاء في المدينة وانتظار قدوم المشركين إليها، فإذا دخلوها قاتلوهم في أزقتها وألقوا عليهم النبال والحجارة من أسطحة البيوت، وقسم يرى الخروج إليهم وقتالهم بظاهرها، وكان رأي الرسول ﷺ مع القسم الأول، بسبب كثرة البنيان في المدينة المنورة واتساعه وحصانته، وخبره المسلمين بشوارعها، وخبرة الأنصار (الأوس والخزرج) بحرب المدن، فطالما اقتتلوا في الجاهلية في ساحاتها وشوارعها، بينما يجهل المشركون شوارع المدينة، وليس لديهم خبرة بحرب المدن..

وكان أصحاب الرأي الثاني متحمسين للخروج، وعلى رأسهم بعض الأنصار الذين فاتتهم بدر فلم يشهدوها وحمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، وقال أحد المتحمسين من الأنصار: يا نبي الله، إنا نكره أن نقتل في طرق المدينة، وقد كنا نمتنع من الغزو في الجاهلية (أي لايصل إلينا أعداؤنا)، فبالإسلام أحق أن نمتنع منه، فأبرر القوم وقال حمزة: والذي أنزل عليك الكتاب لاأطعم طعاما حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة. ومالت الأكثرية إلى هذا الرأي، فعدل رسول الله ﷺ عن رأيه، واستجاب للأغلبية وأمر المسلمين أن يستعدوا لمواجهة المشركين في المكان الذي نزلوا فيه، قرب جبل أحد.. وحان وقت صلاة الجمعة، فصلى الرسول ﷺ بالناس الجمعة، ثم دخل بيته، ولبس درعه، وخرج على المسلمين وأمر الناس بالخروج..

التوجـــه الى أرض المعركـة:

شعر بعض الصحابة أن المتحمسين للخروج استكرهوا رسول الله ﷺ على الخروج خلافا لرأيه، فلاموهم على ذلك، وندم المتحمسون، وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ بأنهم يرجعون عن رأيهم إن شاء، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه، وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله، والصبر عند البأس، وانظروا ما آمركم به فافعلوا). وتجمع المسلمون خارج المدينة في الناحية الشمالية الشرقية، وعقد لهم رسول الله ﷺ ثلاثة ألوية، لواء للمهاجرين يحمله مصعب بن عمير، ولواء للأنصار الأوسيين يحمله أسيد بن حضير، ولواء للأنصار الخزرجيين يحمله الحباب بن منذر، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وسار بالناس شرقا ثم شمالا ثم غربا ليتجنب أية حركة أو دوريات للمشركين، وعبر بعض البساتين وكان دليلهم أبو خيثمة الأنصاري، ثم توقف آخر الحرة الشرقية، واستعرض الجيش ورد غير القادرين على القتال، ومنهم فتيان: رافع بن خديج وسَمُرة بن جندب، فقال رافع: يارسول الله إني ماهر في الرمي، وشهد له بذلك بعض الحاضرين فأجازه، فقال سَمُرة: يارسول الله إني أصرع رافعاً، فطلب رسول الله منهما أن يتصارعا، فصرع سمرة رافعا، فأجازه الرسول أيضاً.. بينما أعاد عبد الله بن عمر وزيد بن ثابت والبراء بن عازب وغيرهم لصغر سنهم.. وبات الرسول ﷺ ومن معه في موقعهم، وكان عددهم ألف رجل تقريباً، ومعهم فرس واحدة فقط للزبير بن العوام، وقام يحرسهم خمسون رجلاً على رأسهم محمد بن سلمة.. ثم تحرك قبل الفجر واقترب من أحد، وأصبح على مرأى معسكر المشركين، ورأى المسلمون كثرة المشركين، فبدأ المنافقون باللغط، وحان وقت صلاة الفجر فصلاها رسول الله ﷺ بالمسلمين، وعليهم السلاح.

نكوص المنافقين:

بعد صلاة الفجر دعا رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول إلى الانسحاب، واحتج بأن رسول الله ﷺ لم يأخذ برأيه، وكان ممن يرون البقاء في المدينة، وتبعه المنافقون والذين لم يتمكن الإسلام من قلوبهم، وكانوا ثلث الجيش.. وحاول عبد الله بن حرام الأنصاري ثنيهم عن الانسحاب في هذا الوقت العصيب، وقال لهم: أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر عدوكم.. ولكنهم أصروا على الانسحاب، فقال لهم: أبعدكم الله ياأعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه.. وقد أثر هذا الانسحاب في نفوس بعض المسلمين، وكاد بنو حارثة الأوسيون وبنو سلمة الخزرجيون أن ينسحبوا أيضا.. ولكن الله ثبتهم..

غضب المسلمون من موقف ابن سلول والمنافقين ورأى بعضهم أنه ينبغي قتالهم وتأديبهم، لأن انسحابهم في هذا الوقت تمرد وخذلان خطيرين، ولكن رسول الله ﷺ رأى تركهم وإهمالهم، فالاشتغال بهم وقتالهم سيعطي الفرصة للمشركين المتربصين كي ينقضوا على المسلمين..

تنظيم الجيش في مواقع القتال:

تقدم رسول الله ﷺ بمن بقي معه - حوالي (٧٠٠) رجل - نحو جبل أحد، ليأخذوا مواقعهم بمواجهة المشركين وليحموا ظهورهم بجبل أحد، واجتاز وادي قناة إلى عدوة الوادي، وهي سهل ينتهي بجبل أحد، وأخذ رسول الله ﷺ ينظم صفوف المقاتلين، واختار منهم خمسين رجلاً من مهرة الرماة، ووضعهم على جبل صغير يقع جنوبي أحد ، وعلى يسار الموقع الذي نزل به المسلمون، وهو موقع (استراتيجي) حساس يؤثر على ساحة القتال، وأمرهم أن يرموا المشركين بالنبل عند الهجوم، وبخاصة الفرسان، وأن يلزموا أماكنهم ولا يغادروها مهما كانت النتائج، سواء انتصر المسلمون أو هزموا، كي لاينفذ أحد من جانب الجبل فيتمكن من ظهور المسلمين.. وجعل

على رأس الرماة عبد الله بن جبير وقال له: انضح الخيل عنا بالنبل لايأتون من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لانُؤتين من قبلك...، ثم صف بقية الجند صفوفا متوالية في ساحة الوادي، وجعل في مقدمة الصفوف أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبد الله بن جحش ومصعب بن عمير وسعد بن معاذ وسعد بن الربيع وأبا دجانة وأنس بن النضر والمقداد بن عمرو والزبير بن العوام.. وعندما انتهى من تعبئتهم قال لهم: لاتبدءوا حتى آمركم. وأخرج سيفا وقال: من يأخذ هذا السيف بحقه، فطلبه كثيرون، منهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام، فأمسكه عنهم، فقام أبو دجانة، وكان مشهورا بقوته وشجاعته، فقال: وماحقه يارسول الله؟ قال أن تضرب به العدو حتى ينحني، قال أنا آخذه بحقه يارسول الله. فأعطاه إياه، فربط أبو دجانة رأسه بعصابة حمراء وأخذ يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ: إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن..

وفي مواجهة المسلمين كان المشركون يرتبون مقاتليهم، ويصفونهم صفوفا خلافا لما كانت عليه عادتهم، ووضعوا على الميمنة في مواجهة جبل الرماة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة، وكانت زوجات زعماء قريش مع النسوة خلف الصفوف يضربن الدفوف ويحضضن الرجال على القتال.. وكان أبو عامر الفاسق يتحرك بين الصفوف بنشاط كبير، وقام قبل وصول المسلمين بحفر عدة حفر في الساحة المواجهة وتغطيتها ليوقع بها المسلمين.. كانت الخطة التي وضعها رسول الله ﷺ بارعة، فالموقع الذي صف فيه المسلمين غير واسع، يناسب عددهم القليل.. ويضطر المشركين إلى أن يقفوا صفوفا، وبذلك يضعف تفوقهم العددي، لأنهم لايستطيعون أن يقاتلوا جميعا في هذه المساحة من الأرض.. وكذلك موقع الرماة على الجبل

يسيطر على جزء مهم من الساحة، ويشل حركة الفرسان ويؤثر على بقية المهاجمين..

المرحلة الأولى من المعركة:

اقترب أبو عامر الراهب - وقد سماه رسول الله ﷺ الفاسق - من صفوف المسلمين، وحاول أن يستميل قومه الأوسيين ليتركوا القتال فردوا عليه رداً عنيفا، ونادى أبو سفيان الأنصار وأخبرهم أن قريشا لاتريد قتالهم بل تريد قومها الذين خرجوا عليها، فرد عليه الأنصار بما أغاظه وأحنقه، فأمر أبو سفيان ميمنة جيشه بالتقدم، فتقدم المشاة أمامهم أبو عامر الفاسق يدعمهم خالد بن الوليد وفرسانه، فرشقهم الرماة بالنبال، ومن نفذ منهم تصدى له الزبير بن العوام ومن معه.. فتقهقرت ميمنة المشركين وفيها جراحات كثيرة، ثم كرروا الهجوم مرتين متواليتين وتقهقروا أمام المواجهة القوية، وطلب حامل لواء قريش طلحة بن أبي طلحة المبارزة فتصدى له الزبير بن العوام وقتله، فأخذ اللواء أخوه عثمان بن أبي طلحة فقتله حمزة، فأخذه أبو سعيد بن أبي فقتله سعد بن أبي وقاص... وتتابع على راية قريش عشرة رجال قتلهم المسلمون جميعا، وسقط اللواء، وهجم المسلمون هجمة رجل واحد، وأبلى أبو دجانة وحمزة بلاء حسنا، فتضعضعت صفوف المشركين وبدأ الصف الأول بالهرب، وتبعهم المسلمون فاتسعت ساحة القتال، وتوزع المسلمون مجموعات وراء المشركين، وبدت المعركة وكأنها قد حسمت لصالح المسلمين.. واستسلم عدد من المشركين، وألقى الكثيرون سلاحهم وأمتعتهم وجدّوا في الهرب، ورأى الصحابي حنظلة بن أبي عامر أبا سفيان على فرسه فعقر الفرس وسقط أبو سفيان على الأرض، وهجم عليه حنظلة ليقتله، ولكن شداد بن الأسود ضرب حنظلة بالسيف فقتله ونجا أبو سفيان، وانتهز وحشي فرصة اضطراب الصفوف وتوزع المقاتلين من المسلمين والمشركين في ساحة واسعة، وبحث عن حمزة، فرآه يطارد أحد المشركين ويقتله، فغافله

ورماه بحربته رمية قاتلة، وسقط حمزة رضي الله عنه شهيداً، وجرى وحشي إلى صفوف المشركين الخلفية ليخبر هند بنت عتبة بما فعله، ونفذ ابن قميئة الليثي إلى مصعب بن عمير حامل لواء المهاجرين، وظن أنه رسول الله ﷺ فقتله، ومضى إلى صفوف المشركين ينادي أنه قتل رسول الله.. وسارع علي بن أبي طالب فحمل اللواء، وتابع المسلمون مطاردة المشركين الفارين، وأخذ بعضهم يجمع الغنائم التي يتركونها، ورأى بعض الرماة راية المشركين تدوسها الأقدام والمسلمين يطاردون المشركين ويجمعون الغنائم فدعوا إلى النزول ومساعدة إخونهم في المطاردة وجمع الغنائم، فذكّرهم عبد الله بن جبير بوصية رسول الله ﷺ، ولكنهم لم يستجيبوا وعَصَوا قائدهم وهبطوا من الجبل، فبقي عبد الله بن الجبير ومعه عشرة رماة فقط..

المرحلة الثانية من المعركة:

لاحظ خالد بن الوليد خلو الجبل من الرماة فأسرع بفرسانه - وكانوا مائتي فارس - إلى طرف الجبل والتف وراءه، ثم صعد إليه من جهته الخلفية وفاجأ الرماة المتبقين على الجبل من خلفهم، فقاومه الرماة، لكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام العدد الكبير فاستشهدوا جميعا، وانحدر خالد بن الوليد من الجبل في ظهور المسلمين، وعلا صوت أحد المشركين ينادي زملاءه للعودة والمواجهة، وصرخ عمرو بن قميئة مدعياً قتل رسول الله ﷺ، والتقطت إحدى النساء القرشيات (وتدعى عَمْرة الحارثية) لواء قريش من الأرض ورفعته، فتنادى المشركون والتفوا حول لوائهم، وكروا على المسلمين، وهاجموا المجموعات الصغيرة المتفرقة التي كانت تجمع الغنائم، وحوصر المسلمون بين فرسان خالد والمشركين الذين كروا عليهم، وفقدوا تنظيمهم ودبت الفوضى فيهم... وارتاع الكثيرون منهم لما سمعوا ابن قميئة ينادي: قتلت محمدا، قتلت محمدا.. واشتبك بعضهم مع بعض وهم لايدرون، وقتل والد حذيفة بن اليمان بيد المسلمين خطأ، وصرخ حذيفة: أبي.. أبي..، فأحسوا أن بعضهم يقتل بعضا، واشتد القتال وسقط عدد من الشهداء، وشرع عدد من المسلمين بالهرب، واتجه بعضهم جنوبا إلى المدينة، وبعضهم الآخر شرقا وشمالا وأصيب عدد كبير من المسلمين، ومرت هند بنت عتبة بجثة حمزة فوقفت لتتشفى منه، وشقت بطنه وأخرجت قطعة من كبده ولاكتها بفمها ولفظتها.. ومثلت نسوة أخريات ببعض الشهداء، فقطعن أذانهم وأنوفهم حقدا وتشفيا.. وازدادت بلبلة المسلمين، ورأى رسول الله ﷺ تشتتهم وانخفاض روحهم المعنوية، وارتفاع الروح المعنوية للمشركين، بعد أن سمعوا مناديهم يزعم أن محمداً قد قتل.. فرجع إلى سفح أحد وتترس به ونادى بأعلى صوته أنا رسول الله، هلموا إلي، أنا رسول الله.. فسمع صوته عدد من المسلمين واطمأنت نفوسهم، واتجهوا إليه رغم كثافة المشركين،

وتجمعوا حوله.. فشكّلوا مركز قيادة ومقاومة جديدة، وسمع بعض المشركين النداء أيضا فاتجهوا إليه ليضربوا قيادة المسلمين، ودارت معركة عنيفة حول رسول الله ﷺ، وأحاط به عدد من الصحابة يقاتلون دونه، منهم أبو بكر وعلي وسعد بن عبادة ونسيبة بنت كعب المازنية وسعد بن أبي وقاص وسهل بن حنيف وأبو دجانة الذي جعل ظهره هدفا لسهام المشركين حماية لرسول الله ﷺ، وأبو طلحة زيد بن سهل، واستطاع أحد المشركين (عتبة بن أبي وقاص) أن يقترب من رسول الله ﷺ ويقذفه بحجر أصاب وجهه الشريف وكسر رباعيته، فشدّ عليه الصحابي حاطب بن أبي بلتعة وقتله، وحمل أحد فرسان المشركين -ابن قميئة- على الجمع واخترقه وأصاب رسول الله ﷺ بضربتين أثرت في درعه وأدخلت حلقتين من حلقات المغفر في وجهه، وسال الدم على وجهه الشريف، ووقع في حفرة وأغمي عليه لبرهة من الوقت، فاستبسل الصحابة في القتال، وأبلت نسيبة بنت كعب بلاء حسن، وأخذ علي رضي الله عنه بيد رسول ﷺ فخرج من الحفرة، وتجمع عدد أكبر من الصحابة حوله، فانسحب بهم إلى جبل أحد انسحابا منظما، جماعة تلو جماعة، وحاول أحد المشركين -أُبيّ بن خلف الجمحي- النفاذ إلى الرسول ﷺ فوقف له الرسول وقذفه بحربة فسقط يتدحرج، وارتد إلى جماعته وهو يقول: قتلني محمد، وما لبث أن مات من تلك الاصابة، وارتقى المسلمون هضبة من هضاب جبل أحد وتترسوا بها، وفشلت كل هجمات المشركين عليهم، وأراد رسول الله ﷺ أن يصعد إلى صخرة تشرف على ساحة المعركة، فلم يستطع لما به من جراح وإعياء، فجلس طلحة بن عبيد الله تحته ورفعه إليها حتى صعدها، وحانت الصلاة فصلى بهم جالسا.. وقاد أبو سفيان وخالد بن الوليد آخر هجوم على المسلمين، فلقي المهاجمون مقاومة كبيرة وارتدوا على أدبارهم وقد أضناهم القتال، واشتد بهم الإعياء، وأيقنوا أنهم لن ينالوا من المسلمين المتحصنين، فقرر أبو سفيان وقف القتال والاكتفاء بما أوقعوه من خسائر في المسلمين

وأمر بالتهيؤ للرحيل، وارتقى تلة تواجه التلة التي تترس فيها المسلمون ونادى: الحرب سجال، يوم بيوم، يوم علينا ويوم لنا، يوم نُسَاءُ ويوم نُسَر، أُعلُ هبل. فأمر رسول الله ﷺ بالرد عليه، فنادى عمر وأبو سفيان لايراه: اللهُ أعلى وأجل، لاسواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. فهتف أبو سفيان: العزى لنا ولا عزى لكم. فأجابه المسلمون بتوجيه رسول الله ﷺ: الله مولانا ولا مولى لكم. ونادى أبو سفيان بأعلى صوته: أفيكم محمد؟ فأمرهم رسول الله ألا يجيبوه. فنادى: أفيكم: ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، فنادى: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه، فالتفت إلى جيشه ونادى: أما هؤلاء فقد كفيتموهم؛ أي قُتلوا. فلم يملك عمر نفسه ونهض فأجاب أبا سفيان: كذبت يا عدو الله، أبقى الله لك ما يسوؤك. فناداه أبو سفيان: هلم ياعمر، أنشدك الله ياعمر، أقتلنا محمدا؟ فقال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن. فقال أبو سفيان: أنت أصدق عندي من ابن قميئة..

بدأ المشركون يحركون رحالهم وينصرفون، ونادى أبو سفيان إن: موعدكم بدر العام القادم، فأمر رسول الله ﷺ رجلا فأجابه: هو بيننا وبينكم موعد.. وسارت جموع المشركين، فأمر رسول الله ﷺ علياً أن يراقبهم ليعرف وجهة سيرهم، خشية أن يتجهوا إلى المدينة ويقتحموها، فتبعهم علي ورأهم يركبون الابل ويسلكون الطريق التي جاؤوا منها.. طريق مكة، فعاد إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك.

السـاحـة التي شهـدت معارك غزوة أُحد ويبدو في الصورة:

١ ـ جبل الرماة.
٢ ـ مقبرة الشهداء.
٣ ـ مسجد الشهداء.
٤ ـ مناطق المعركة.

نتائج المعركة ومواقف اليقين:

نزل المسلمون من الهضبة يتفقدون المصابين، وقال رسول الله ﷺ: من رجل ينظر لي مافعل سعد بن الربيع؟ في الأحياء هو أم في الأموات. فقال محمد بن سلمة: أنا يارسول الله.. ففتش عنه فوجده طريحاً يعاني سكرات الموت، فقال له: إن رسول الله أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات، فقال سعد بن الربيع: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ماجزى نبيا عن أمته. وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لاعذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ﷺ، وفيكم عين تطرف.. ومالبث أن فارق الحياة (١). وقامت بعض الصحابيات اللواتي رافقن جيش المسلمين - منهن عائشة وأم سُليم وأم سُليط الأنصارية - بنقل الماء على أكتافهن من بركة ماء في طرف الشعب.. (٢) وشاركن في إسعاف الجرحى.. وجمعت جثث الشهداء ودفنت في موقع بساحة المعركة، وكان رسول الله ﷺ يجمع بين الرجلين في ثوب واحد، ويقدم إلى اللحد أكثرهم أخذاً للقرآن، ولم يُغسّلوا ولم يصلِ عليهم.. وقد غضب غضباً شديداً لما رأى ما حل بجثة حمزة من تمثيل. وكانت حصيلة المعركة تسعة وستين شهيداً: أربعة من المهاجرين وأربعة وعشرون من الأوس وواحد وأربعون من الخزرج.. وقتل معهم مخيريق اليهودي وقزمان الأعرابي، وكانا يقاتلان مع المسلمين ولم يسلما، وبلغ عدد قتلى المشركين اثنين وعشرين قتيلا، وأسر منهم أبو عزة الجمحي الشاعر. وكان قد شارك في موقعة بدر وأسر فيها، وسأل رسول الله ﷺ أن يطلق سراحه وتعهد بأن لايقاتل المسلمين أبداً فأطلقه الرسول

---

١) انظر قصة استشهاد سعد بن الربيع، وتفقد النبي له وتجلي المواقف الايمانية في:(سعد بن الربيع النقيب الشهيد) محمد علي كاتبي. ص ١٤٩

٢) أنظر صحيح البخاري ك ٦٤ باب ١٨ حديث رقم ٤٠٦٤ -.

ﷺ يومئذ، ولكنه عاد لقتال المسلمين، فأمر الرسول الله ﷺ بقتله فقتل..

وبعد أن انتهى المسلمون من دفن الشهداء، صفهم رسول الله ﷺ وخطب فيهم خطبة رقيقة سأل الله فيها النصر على الأعداء، وعاد بالمسلمين إلى المدينة وفي نفوسهم كثير من الأسى لما حل بهم، وأنزل الله آيات يعاتبهم بها على مخالفتهم لأمر رسول الله ﷺ، ويبيّن لهم أن ماأصابهم كان بسبب تلك المعصية، ويعفو عن خطئهم هذا. (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه. حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ماأراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الأخرة. ثم صرفكم عنهم ليبتليكم. ولقد عفا عنكم. والله ذو فضل على المؤمنين، إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكي لا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون) (١). وقد ظلت ذكرى شهداء أحد في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانوا إذا ذكروا تمنى لو أنه استشهد معهم (٢).

صـور إيمانـيـة:

خرجت النسوة والأطفال والشيوخ من المدينة يستطلعون الأخبار ويسألون عن ذويهم ممن شارك في المعركة، وتألقت صور رائعة للإيمان وآثاره العظيمة فيهم.. فقد جاءت امرأة من بني دينار تسأل عن الأخبار، فأخبرت باستشهاد زوجها وأبيها وأخيها.. فسألت مافعل رسول الله ﷺ قالوا خيراً، وهو بحمد الله كما تحبين، فقالت: أرونيه أنظرْ إليه. فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك هينة يارسول الله. وبكت العائلات شهداءها بكاء حزن ووفاء، وبكى بعض نسوة الأنصار على حمزة عندما بلغهم أن رسول الله ﷺ قال: ولكن حمزة لابواكي له، واحتسبوا مصيبتهم عند الله عز وجل. وازدادت

---

١) آل عمران ١٥٢ - ١٥٣ -.

٢) الفتح الرباني ٢١/٨٥ -.

نفوسهم إيماناً ويقيناً..

ما بعد المعركة : تأكيد القوة:

غير أن المنافقين، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول الذي انسحب قبل المعركة، واليهود، شمتوا بالمسلمين.. وبدءوا يرجفون بهم.. وأدرك رسول الله ﷺ أن الأمر قد يتطور.. فيستهين اليهود والمنافقون بالمسلمين.. وكذلك بعض القبائل المحيطة بالمدينة، وقد يغيرون عليها في هذه الحالة الصعبة، لذلك ماكاد المسلمون يستريحون في بيوتهم حتى أمر المنادي في صبيحة اليوم التالي أن ينادي بالمسلمين أن يخرج من يستطيع الخروج لمطاردة المشركين.. على ألا يخرج إلا من حضر أحدا (١)، وتجمع المسلمون وجراح بعضهم ماتزال موجعة، وساروا يتعقبون المشركين ليرهبوهم، وليزيلوا أي شعور بالهزيمة بين المسلمين، وليشعروا اليهود والقبائل المحيطة بالمدينة أن المسلمين مازالوا أقوياء...

غزوة حمراء الأســـد:

سار المسلون حتى بلغوا حمراء الأسد على مسافة ثمانية أميال من المدينة فلم يجدوا أحداً.. فأقاموا فيها ثلاثة أيام... ويروى أن بعض المشركين قد ندموا على تركهم المدينة يوم أحد فتداعوا للعودة إليها واستئصال المسلمين فيها، فلقيهم معبد الخزاعي وأبلغهم أن المسلمين خرجوا في أثرهم وخذلهم، فجدوا السير إلى مكة.

ولا شك أن هذه الحركة قد آتت ثمارا كثيرة.. فقد أبعدت عن المسلمين الشعور بالهزيمة، وخففت من آثار شماتة اليهود والمنافقين.. وشاع خروج المسلمين وراء قريش في القبائل، وأشعرت الجميع بأن المسلمين مازالوا

---

١) لم يأذن لأحد ممن لم يحضروا موقعة أحد بالخروج إلا جابر بن عبد الله الذي أخبره أنه لم يخرج إلى أحد لأن أباه خرج واستخلفه على اخواته السبع.. فأذن له بالخروج معه -.

أقوياء.

وعاد المسلمون إلى المدينة ليستفيدوا من دروس أحد، وليجلسوا إلى رسول الله ﷺ يتلقون منه الوحي الذي ينزل عليه، ويستكملوا تربيتهم الروحية بتوجيهاته وأحاديثه ﷺ.

وقد حرص رسول الله ﷺ على أن يحفظ للمسلمين في المدينة هيبتهم.. فلما بلغه أن بعض الأعراب من بني أسد يجمعون لغزو المدينة، أرسل سرية بقيادة أبي سلمة بن عبد الأسد إلى طلحة الأسدي من جهة نجد، فهرب طلحة ومن معه، وتركوا أموالهم غنائم للمسلمين. وأرسل عبد الله بن أنيس الجهني إلى خالد بن سفيان الهذلي، أحد قادة بني هذيل وبني أسد أيضا فقتله.

مصائب أخرى:

لم تجرؤ قبيلة هذيل على محاربة المسلمين ثأراً لقائدها خالد بن سفيان، فعمدت إلى الغدر، وأرسلت وفدا يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرسل معهم بعض الدعاة والمقرئين ليفقهوهم في الدين في قبيلتهم، فأرسل ﷺ عدداً من الصحابة (سته أو سبعه) فلما بلغوا ماء الرجيع غدر بهم المشركون، فقاتل الصحابة وأسر منهم اثنان (خبيب بن عدي وزيد بن الدثِنة) وباعهما الهذليون لأهل مكة فقتلوهما.

وتكرر هذا الغدر عندما قدم عامر بن مالك -مُلاعبُ الأسِنة- إلى المدينة، ودعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام فلم يسلم ولم يرفض الدعوة ولكنه وعد رسول الله ﷺ بحماية وفد يقوم بالدعوة بين الأعراب، فأرسل الرسول ﷺ وفدا يضم أربعين صحابيا.. فلما بلغوا بئر معونة على بعد مئة وستين كيلاً كم من المدينة هاجمهم عامر بن الطفيل في جمع من بني سُليم، فاستبسل المسلمون، وقتلوا جميعا سوى عمرو بن أمية الضمري الذي كان متأخرا عنهم، فنجا وعاد إلى المدينة وأخبر بالفاجعة.. وهكذا توالت الأحزان

والفواجع في هذه السنة على المسلمين في المدينة وهم صابرون محتسبون.

أطمـــاع يهــودية:

طمع بعض اليهود في الاستفادة من هذه الفواجع، وقرروا الغدر بالمسلمين، وكانت المعاهدة ماتزال قائمة بينهم وبين المسلمين.. ومن نصوصها أن ينصر اليهود المسلمين إن استنصروهم ويعينوهم إن استعانوهم.. وقد حدث أن ذهب رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم على دفع دية رجلين من المسلمين قتلا خطأ، فتآمروا على قتل رسول الله ﷺ بحجر ضخم يلقونه عليه من سطح منزل كان يستظل بجواره.. إلا أن الوحي جاءه بالخبر، فقام مسرعا، وأرسل إليهم محمداً بن سلمة يأمرهم بالخروج من المدينة جزاءً على غدرهم، وعلم عبد الله بن أبي بن سلول بالأمر فأرسل يحضهم على البقاء ومواجهة المسلمين، ووعدهم بنصرتهم.. فأعلنوا رفضهم الخروج، وتحدّوا المسلمين.

المدينة تتخلص من ثاني قبيلة يهودية:

أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالخروج إليهم، فخرجوا، وتترس بنو النضير بحصونهم فحاصرهم المسلمون وأحرقوا بعض بساتينهم، ولم يجرؤ المنافقون على نصرة بني النضير، وجاء عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ يطلب منه إطلاقهم لأنهم كانوا حلفاءه، وألح على رسول الله ﷺ إلحاحاً شديداً، فسمح لهم رسول الله ﷺ بالخروج من المدينة بما تحمله الإبل، عدا السلاح، فخرجوا من المدينة وحملوا معهم ماالستطاعوا حمله، واقتلعوا أخشاب بيوتهم الثمينة وأبوابها وقناطرها المزخرفة وحملوها معهم إلى الشام.. فتخلصت المدينة من ثاني قبيلة من قبائل اليهود، وتملك المسلمون ماخلفوه من أموال وبيوت وبساتين وارتدّ كيد يهود إلى نحرهم.

معركة لم تقــع:

ازدادت مكانة المسلمين وهيبتهم داخل المدينة بعد إخراج بني النضير،

وعملوا على نشر هذه المكانة والهيبة بين القبائل خارج المدينة، وخاصة بين قريش وأحلافها.

لذا عندما حل الموعد الذي ضربه أبو سفيان للمسلمين يوم أحد، أي بعد سنة من تاريخ الغزوة، خرج المسلمون إلى منطقة بدر بألف وخمسمائة مجاهد، وانتظروا قدوم قريش.. وخرجت قريش بألفين وخمسمائة مقاتل، حتى اذا بلغوا (مر الظهران) على بعد أربعين كيلو مترا من مكة ترددوا في مواجهة المسلمين، ثم رجعوا إلى مكة بحجة أن العام جدب.. ومكث المسلمون عشرة أيام ينتظرونهم.. فلما بلغهم عودتهم رجعوا إلى المدينة مخلفين وراءهم سمعة طيبة بين الأعراب ومشركي قريش..

حملات تأديبـــية:

واصل المسلمون في المدينة التحرك باتجاه بعض المناطق في نجد والحجاز، لتأديب الأعراب الذين كانوا يعدون لمهاجمة المدينة، وكلما وصلت سرية من المسلمين إلى إحدى مناطقهم هربوا منها، وعادت السرية بلا قتال، كما خرجت غزوة إلى دومة الجندل حيث تجمع بعض المشركين.. ولما سمعوا بالغزوة هربوا أيضا، ووادعت القبائل المجاورة المسلمين.. وكان رسول الله ﷺ يحرص على استباق الأحداث والإمساك بزمام المبادرة في سبيل تأمين المدينة المنورة وأهلها من الغزو.. فقد كان يرسل من يترصد له أخبار من أظهروا العداوة للمسلمين.. أرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي إلى بني المصطلق للاطلاع على أحوالهم، واكتشف بريدة أن القوم ينوون مهاجمة

المدينة، فعاد وأخبر رسول الله ﷺ بماعرفه (١) وكان بنو المصطلق ممن اشترك مع قريش في غزوة أحد، وأصابوا المسلمين.

غزوة بني المصطلق:

أغرت نتيجة غزوة أحد بني المصطلق بالكر على المسلمين.. لذا خرج إليهم رسول الله ﷺ ليبادرهم بالضربة ويجهض استعداداتهم، فجمع من المسلمين (حوالي سبعمئة مقاتل) وثلاثين فارساً وفاجأهم بالهجوم، فتمكن منهم جميعاً، وقتل عدداً من محاربيهم وأسر الباقي، وغنم المسلمون غنائم كبيرة.. ومالبث المسلمون أن أطلقوا السبي عندما تزوج رسول الله عليه وسلم جويرية بنت الحارث إحدى نسائهم..

كيد المنافقين... ثانية:

وفي طريق العودة من الغزوة حاول بعض المنافقين أن يحدثوا فتنة عظيمة بين المسلمين، تشق صفوفهم، وذلك ببذر الفتنة بين المهاجرين والأنصار.

فقد حدث أن رجلاً من المهاجرين تزاحم مع أحد الأنصار، فكسعه، فصاح الأنصاري ياللأنصار، وصاح المهاجر ياللمهاجرين، وكادت أن تقع الفتنة، فسمع بذلك رسول الله ﷺ فقال: دعوها فإنها منتنة، ووجد (عبد الله بن أُبيّ) رأسُ المنافقين في هذه الحادثة فرصة للفتنة، فقال : فعلوها، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. وأشار على الأنصار أن لايتفقوا على المهاجرين، وانتشر قوله، فقال عمر لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: دعه، لايتحدث

---

١) طبقات بن اسعد ٦٣/٢ -.

الناس أن محمداً يقتل أصحابه (١)، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بالسير حتى أنهكهم التعب، وأذهب الله عنهم آثار تلك الفتنة. وقد ضعف مركز عبد الله بن أُبي بسبب ما فعله، وصار قومه يعنفونه كلما بدرت منه بادرة سيئة.

ولم يسكت المنافقون على فشلهم، بل حاولوا أن يثيروا فتنة جديدة تؤذي رسول الله ﷺ في أهل بيته، وتوقع الخصومة بين المسلمين، وذلك عندما أشاعوا حديث الإفك على السيدة عائشة رضي الله عنها، زوجة الرسول ﷺ. وكانت عائشة رضي الله عنها قد خرجت معه إلى غزوة بني المصطلق وذلك بعد ما شرع الله الحجاب، وفي طريق العودة، عندما اقترب المسلمون من المدينة نزلت من هودج البعير لبعض شأنها، فلما عادت افتقدت عقداً لها، فرجعت تبحث عنه، فحمل الرجال هودجها فوضعوه على البعير وهم يحسبونها فيه -إذ كانت صغيرة خفيفة- ومضى المسلمون إلى المدينة تاركينها في البيداء، ووجدت عائشة عقدها وفقدت الركب، فمكثت في مكانها تنتظر أن يحسوا بغيابها ويعودوا إليها، فمر بها صفوان بن المعطل السلمي، وهو من كرام الصحابة (رضي الله عنه)، فحملها على بعيره وانطلق بها إلى المدينة، فوصل إليها بعد دخول الرسول ﷺ.

وقد استغل المنافقون هذا الحادث وافتروا على السيدة عائشة ورموها بالإفك، وتولى كذلك عبد الله بن أبي بن سلول، وانتقل الكلام في المدينة، وكان ممن ردده وتكلم فيه مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش (٢). وقد تأذى رسول الله ﷺ مما أشاعه المنافقون، وأعلن سعد بن

---

١) عندما علم ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي بما قاله أبوه استأذن رسول الله ﷺ في قتله، فنهاه، وقال له: بر أباك وأحسن صحبته. ولكن عبد الله بن عبد الله بن أبي وقف في مدخل المدينة ومنع أباه من دخولها حتى يأذن له رسول الله ﷺ، مع أنه كان من أكثر أهل المدينة برا بأبيه واحتراما له -.

٢) انظر المجتمع المدني ص ١٠٠

معاذ أنه مستعد لقتل من يروج حديث الإفك إذا كان من قبيلته الأوس، واعترض عليه سعد بن عبادة الخزرجي، وكادت أن تقع فتنة بين الأوس والخزرج، ونزل الوحي ببراءة السيدة عائشة رضي الله عنها، فقطعت ألسنة السوء، وأقيم الحد على من ولغ في حديث الإفك، وانطفأت الفتنة (١).

وهكذا بدأ مجتمع المدينة المنورة يشهد هزات بين الحين والآخر، يثيرها المنافقون، وهي الطبقة التي أخذ يزداد عددها كلما زاد عدد المسلمين و زادت قوتهم. وكان عدد من كباراليهود يشاركون المنافقين في الإثارة. ولولا أن رسول الله ﷺ كان يجمع الصفوف دائما، ويعمق الإيمان في نفوس المسلمين، لأحدثت فتنهم شراً عظيما في المجتمع الجديد.

غزوة الخندق: تهديد خارجي وداخلي:

ما لبث الخطر أن داهم المدينة المنورة، وهز أهلها، وكاد أن يعصف بها لولا لطف الله.. وذلك عندما تألب عليها عدوان شرسان؛ عدو من الخارج: قريش وأحلافها؛ وعدو من الداخل: يهود بني قريظة.

أما قريش، فعلى الرغم من انتصارها يوم أحد فإنها لم تحقق غايتها، أي لم تستطع كسر شوكة المسلمين، ولا حماية تجارتها إلى الشام واليمن، فقد واصل المسلمون بعد معركة أحد غاراتهم على قوافل قريش التجارية، وهددوا الطرق من جميع الجهات، من الشمال والغرب، حيث طرق المدينة وطريق الساحل إلى الشام، ومن الجنوب، حيث الطريق إلى اليمن، ومن الشرق حيث الطريق إلى نجد. ونالت سراياهم من بعض قوافلهم.. لذا قرروا القيام بعمل كبير يقضي على المسلمين، ويعيد لقريش هيبتها، ويؤمن تجارتها، وشجعهم على ذلك سادة بني النضير الذين أجلاهم المسلمون عن المدينة، فقد ذهب سلام بن مشكم وحيي بن أخطب إلى قريش، وحضاها على مهاجمة المدينة، وطافا على القبائل الحليفة وحثاها على المشاركة في الهجوم، وتعهدا

---

١) انظر سورة النور الآيات: (١٠-٢٦)

بتأليب بني قريظة -الذين ما زالوا في المدينة- على المسلمين، بل إنهما تعهدا بدفع نصف ثمر خيبر لقبيلة غطفان مقابل تحالفها مع قريش ومشاركتها في القتال، (١) فاجتمعت الصدور الموتورة من قريش وبني النضير مع الطامعين في الجوائز والغنائم من غطفان وسليم وبكر وكنانة وأشجع ومرة وبعض أهل تهامة، وعسكرت حشودهم في مر الظهران، ثم تحركت إلى المدينة، وقد بلغ عددهم عشرة آلاف مقاتل.

وعندما بلغ الخبر رسول الله ﷺ جمع الصحابة واستشارهم فيما ينبغي عمله لمواجهة الموقف (٢). فاجتمع الرأي على التحصن بالمدينة وعدم مواجهة هذه الحشود الضخمة خارجها، وأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق في المنطقة الوحيدة التي يمكن أن يدخل منها الجيش إلى المدينة، فتصبح المدينة مغلقة كالحصن القوي، فالحرات تحيط بها من جهاتها الأخرى، وهي صخور سوداء شديدة الوعورة لايمكن أن يسير الجيش فيها، والخندق يغلق المعبر الوحيد إليها، ولو حاول الغزاة اقتحامه فسيتكبدون خسائر هائلة ودون طائل. ولقي اقتراح سلمان القبول، فشرع المسلمون يحفرون الخندق، وبلغ طوله خمسة آلاف ذراع وعرضه تسعة أذرع وعمقه مابين سبعة الي عشرة أذرع. وقد وزع رسول الله ﷺ المسلمين على امتداد منطقة الحفر، فكلف كل عشرة من المسلمين بحفر أربعين ذراعا طوليا.

وصادف في تلك السنة أن كانت المدينة تتعرض لمجاعة شديدة. وكان الوقت شتاءً والبرد قارسا والطعام قليلا.. فكان طعام الجيش شعيرا مطبوخا بدهن سَنِخٍ (متغير الرائحة لقدمه) أو بعض التمر، وربما يمر اليوم واليومان

---

١) انظر فتح الباري ٣٩٣/٧

٢) كان هذا دأبه ﷺ فيما لم ينزل فيه وحي بعد، ليعلّم الصحابة الشورى وليدفعهم إلى التفكير في المشكلات الطارئة والبحث عن حلولها ، وليشعرهم بالمسؤلية تجاه القضايا العامة. انظر في ذلك: المجتمع المدني ص١١١

حتى يتوفر الطعام، ومع ذلك فإن وقدة الإيمان غلبت الجوع والبرد، وعمل المسلمون بنشاط فائق، وشارك رسول الله ﷺ بنفسه، فكان يحمل التراب، ويضرب الصخر، ويردد الأهازيج مع الصحابة، وقد شد على بطنه حجراً من فرط الجوع.. وحدثت عدة معجزات أثناء حفر الخندق (١). وتم إنجاز الخندق في ستة أيام، ووضع الرسول صلى الله عليه وسلم خطة الدفاع عن المدينة.. فنقل النساء والأطفال إلى الحصون المنيعة، ورتب صفوف المقاتلين في مواجهة الخندق، وجعل ظهورهم إلى جبل سلع والمدينة ووجوههم إلى الخندق، وشكل دوريات متحركة على امتداد الخندق لتتابع الحراسة وتنقل المؤونة وتتفقد أطراف المدينة، وقد بلغ عدد المسلمين أنئذ ثلاثة ألاف مقاتل..

وما لبث جيش المشركين أن وصل إلى المدينة.. ففوجؤوا بالخندق، وما كانت العرب تعرف هذا النوع من التحصن. ونزل الجيش في الشمال الغربي عند مجمع الأسيال حيث تصب أودية المدينة، ما بين زغابة والجرف وبئر رومة، وبدءوا يفتشون عن ثغرة ينفذون منها إلى المدينة.. ولما رأى الرسول ﷺ كثرة الأحزاب فكر في أن يفتت صفوف المشركين، فيصالح بعض القبائل المشاركة في الغزو، وبالذات قبيلة غطفان، فهي أكثر القبائل عدداً في جيش الأحزاب، وقد خرجت بعد وعد اليهود إعطاءها نصف ثمار خيبر، وفكر أن يعطيها ثلث ثمار المدينة لعام واحد، فاستشار زعيمي الأوس والخزرج في ذلك. سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فقالا له: يارسول الله أوحي من السماء، فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك وهواك؟... فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء، ماينالون منا تمرة إلا شراء أو قرى... فعدل رسول الله ﷺ عن فكرته واهتم بمواجهة الحصار.

ونجحت الخطة المحكمة في حماية المدينة من الأحزاب فلم يستطيعوا

---

١) منها معجزة تكثير الطعام (حديث جابر بن عبد الله) وتبشيره بفتح الشام والعراق واليمن - واخباره بقتل عمار بن ياسر ..أنظر: المجتمع المدني ص ١١٤ -.

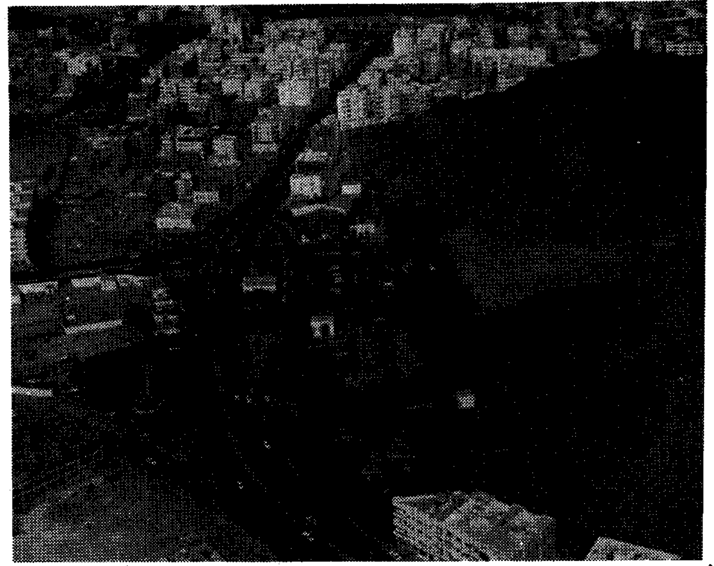
النيل من المسلمين،وحاول بعض فرسانهم اقتحام الخندق والقفز من فوقه عدة مرات،فتصدى لهم المسلمون،وقتلوا أربعة منهم. وحاولوا في بعض المرات اقتحامه بشكل جماعي، فنشب قتال طويل شغل المسلمين عن أداء صلاة العصر في وقتها،فصلوها بعد ما غربت الشمس(١).

وبعد أيام قليلة من بدء الحصار تعرض المسلمون لخطر شديد من داخل المدينة.. هذا الخطر هو خطر بني قريظة.. فقد سعى حيي بن أخطب النضري إلى تحريك بني قريظة.. وهم القبيلة اليهودية الكبيرة الباقية في المدينة، واجتهد في حملهم على نقض المعاهدة مع رسول الله ﷺ، والتحالف مع الأحزاب ومهاجمة المسلمين من خلف ظهورهم، وكان اليهود قد دخلوا حصونهم عندما وصلت الأحزاب ولم يشاركوا في الدفاع عن المدينة، رغم أن المعاهدة التي بينهم وبين المسلمين تنص على مشاركتهم في الدفاع عن المدينة إذا هددها خطر خارجي. ونجح حيي ابن أخطب في إقناع بني قريظة بالتنصل من المعاهدة والتعاون مع الأحزاب، وشعر رسول الله ﷺ بذلك، فأرسل عدداً من الصحابة ليتأكدوا من الأمر، فيهم سعد بن معاذ سيد الأوس، فكشف اليهود عن غدرهم، وأعلنوا نقضهم للعهد (باستثناء بطن من بطونهم هم بنو سعية فلم ينقضوا العهد) وحاول سعد بن معاذ ثنيهم عن الغدر ، فأبوا واغلظوا له الكلام، فانصرف إلى رسول الله ﷺ وأعلمه بالأمر، فبشر رسول الله ﷺ المسلمين بنصر من الله وفتح قريب.. ونشطت دوريات المسلمين في الطواف قرب الخندق وحول بني قريظة، وبلغ عدد أفرادها خمسمائة رجل، يجهرون بالتكبير، لإشعار بني قريظة بوجودهم ويقظتهم ،

---

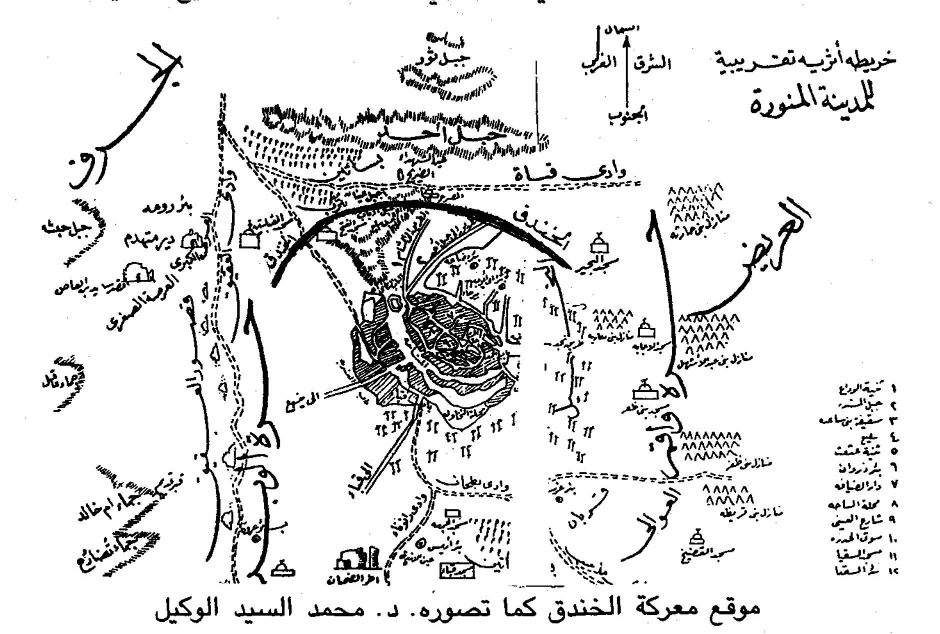
١) فتح الباري ٢/٦٨-.

١ ـ موقع الخندق كما ورد في أطلس التاريخ الإسلامي



٢ ـ صورة مصغرة من جبل سلع حيث كان الخندق يمر أمامه وقد بُنيت فيما بعد مساجد في مواقع يظن أن بعض الصحابة كانوا يرابطون فيها وتسمى السبع مساجد.

موقع الخندق كما تصوره علي حافظ في كتابه فصول من تاريخ المدينة



موقع معركة الخندق كما تصوره. د. محمد السيد الوكيل

خوفاً منهم على النساء والأطفال في الحصون (١) واشتد الحصار وطال، ولم يكن بين المسلمين والمشركين إلا التراشق بالنبال، وأصيب ثمانية من المسلمين، وحاول بعض المشركين تجاوز الخندق ثانية فصدهم المسلمون.. واشتد البرد، وهبت رياح عاصفة، ولم يكن أهل مكة والمناطق المجاورة لها يألفون هذا الجو الشتوي القارس..

وبدأ المشركون يحسون بفشل حملتهم ، فلاهم قادرون على اقتحام الخندق ، ولا يستطيعون النفاذ من جهة أخرى .. واستطاعت يقظة دوريات المسلمين المتوالية أن تخيف بني قريظة وتحول دون نزولهم من الحصون وهجومهم على المسلمين من الخلف ، وضعفت معنويات الأحزاب، خاصة وأنهم لم يجتمعوا على هدف واحد ، فبعض القبائل الأعرابية لم يكن همها إلا الإغارة السريعة على المدينة وجني الغنائم ، بينما كان هم قريش استئصال المسلمين .. لذا بدأ بعضهم يفكر في الانسحاب ، والرجوع عن المدينة.

وتنقل بعض الروايات خبر نعيم بن مسعود الغطفاني الذي هداه الله للإسلام في ذلك الوقت العصيب، ولم يكن أحد من الأحزاب واليهود يعلم بإسلامه، فأخذ نعيم يزرع الشك بين الأحزاب واليهود، وأغرى بعض اليهود بطلب الرهائن من الأحزاب كي يقاتلوا معهم، خشية انصراف الأحزاب عنهم، وأخبر قريشا أن اليهود يطلبون الرهائن لتسليمها إلى المسلمين تكفيراً عن محاولتهم السابقة بالغدر بهم، فوقع الشك بين الطرفين، ولم تخرج قريظة لقتال المسلمين.. واستمر الحصار أربعة وعشرين يوما، وشعر الأحزاب أنهم لن يحققوا شيئاً.

وفي الليلة الأخيرة هبت ريح شديدة باردة عصفت بخيامهم.. وأطفأت نيرانهم وكفأت قدورهم.. فاشتد يأسهم من تحقيق أي نصر، وقرروا الرحيل، وانسحبوا عائدين إلى بلادهم.

---

١) ابن سعد ٢/٦٧ -.

وهكذا انفض الأحزاب عن المدينة، وأذهب الله شرهم ، ولم يخسر المسلمون سوى ثمانية شهداء (أحدهم سعد بن معاذ الذي جرح ولبث عدة أيام ثم توفي بعد معاقبة بني قريظة) واستجاب الله لدعاء نبيه ﷺ خلال الحصار، اذ كان يدعو (اللهم منزل الكتاب وسريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم) فزلزلهم الله وهزمهم وعادوا بالتعب والخسارة لم ينالوا خيراً.

ثمار الغـزوة:

أثر هذا الانسحاب في معنويات قريش.. فلم تفكر ثانية بالهجوم على المدينة.. وأثر في الأحزاب الأخرى، فازدادت هيبة المسلمين في قلوبهم.. وأثرت على اليهود.. إذ عجّلت بنهاية بني قريظة جزاءً وفاقاً لمحاولتهم الغدر بالمسلمين.. وآتت ثماراً جيدة للمسلمين، إذ قر في نفوسهم أن قريشا وأحلافها قد كسرت شوكتهم ولن تقوم بعد ذلك بمهاجمة المسلمين.. وقد عبر رسول الله ﷺ عن ذلك فقال إثر انسحاب الأحزاب (الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم) (١).

لقد كانت وقعة الخندق نقطة تحول كبيرة في خطة العمل العسكري والسياسي عند المسلمين.. فلم يعد الأمر يقتصر على إرسال سرايا إلى طريق القوافل وبعض القبائل.. بل تحول بعد ذلك إلى غزوات كبيرة تخرج بعيدا عن المدينة فتطرق أبواب مكة، ثم تفتحها بعد حين- وتمضي إلى تبوك ومؤتة... أي أنها تأخذ بعداً شاسعاً يتعدى دائرة منطقة مكة والمدينة..

---

١) البخاري ١٤٨/٥ -

عقوبة الغادرين:

كان من الضروري تأمين المدينة من الداخل.. واجتثاث مصادر التهديد والغدر من بين أحيائها، فقد كشفت غزوة الخندق عن خطر بني قريظة واستعدادهم للغدر في أية لحظة.. بل إن غدرهم كان أخطر ما واجه المسلمين في المدينة.. لأنه جاء في أوقات عصيبة، وهو مايسمى في مصطلحاتنا الحديثة: الخيانة العظمى.

لذا لم تكد الأحزاب تنسحب من المدينة، ويرجع المسلمون إلى بيوتهم، حتى أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالتوجه إلى بني قريظة.. ففي اليوم التالي مباشرة نزل عليه الوحي يأمره بذلك، فأرسل من ينادي في المسلمين: لايصلين أحد العصر إلا في بني قريظة... فخرجت جموع المسلمين (١) إلى منطقتهم.. وأدرك بنو قريظة أن جريمتهم لن تمر، فدخلوا حصونهم، وقرروا مناجزة المسلمين من خلالها..

وفي الليلة التالية لانسحاب الأحزاب أحاط المسلمون بحصون بني قريظة وحاصروها حصاراً شديداً.. واستمر الحصار خمسة عشر يوما.. وتروي بعض الأخبار أن سيدهم كعب بن أسد حاول أن يحملهم على الدخول في الإسلام، والنجاة من العقوبة، فأبوا، وأبوا الخروج للقتال.. وأخيرا استسلموا للمسلمين.

وحاول بعض حلفائهم السابقين من الأوس إنقاذهم.. فحكّم رسول الله ﷺ فيهم سيد الأوس سعد بن معاذ، فقال سعد: «لقد آن لسعدٍ ألا تأخذه في الله لومة لائم» وحَكم بأن يُقتل مقاتلوهم وتسبى ذراريهم.. ونفذ الحكم فيهم، إلا من لم يشارك في نقض العهد (كعمرو بن سعد القرظي) والذين

---

١) البداية ٤/١١٩ -.

أسلموا منهم، (١) وقتل معهم حيي بن أخطب النضري الذي أقنعهم بنقض المعاهدة والغدر بالمسلمين، وكان قد دخل معهم الحصن..

تأمين المدينة:

عندما كسرت شوكة اليهود، تخلصت المدينة من خطر كان يتغلغل بين أحيائها وينذر بالغدر في أي حين.. وانتهى شر فئة مالبثت تعاند الرسول ﷺ، وتجتهد في الإرجاف بالمسلمين وبذر الفتنة والشقاق وإذكاء النفاق فيهم. ولكن اليهود لم ينتهوا تماما من المدينة، فقد بقيت منهم بقية، وكانوا منتشرين بين الحرة الشرقية وقباء والعوالي، وعاشوا مع المسلمين إلى أن أخرجهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته.

صارت المدينة بعد القضاء على بني قريظة مركز قوة حقيقية، ولم يعد فيها مايقلق أمنها الداخلي.. فباستثناء أولئك اليهود، لم يبق فيها أحد لم يدخل الإسلام ، حتى البطون الأوسية التي لم تكن قد أسلمت من قبل، سارعت بعد الخندق إلى الدخول في الإسلام، وكذلك فعل الذين في قلوبهم مرض، أعلنوا الإسلام وأسروا النفاق.. وقد ترفق بهم رسول الله ﷺ أول الأمر، وكان الوحي يخبره بهم، وكانوا يحضرون مجالس رسول الله ﷺ بين الحين والآخر ويصلون في المسجد معه، بل وخرجوا معه إلى الغزوات، فإذا خلا بعضهم إلى بعض خاضوا في الإسلام والمسلمين.. ومع ذلك فلم يكونوا يشكلون خطراً، إذ لم يعد في المدينة قوة تدعمهم، ومن طبيعة المنافقين أنهم جبناء، لايجرؤون على التصريح بموقفهم الحقيقي، لذا لن يجرؤوا على المواجهة المكشوفة، وكل مايفعلونه أن ينشروا الحكايات الكاذبة والإشاعات، وأن ينتهزوا أية فرصة مواتية ليفتّوا في عضد المسلمين وينالوهم بألسنة السوء، وقد أصلحت هذه الملاينة عدداً منهم، فتابوا وحسن إسلامهم، بينما اشتط آخرون.. حتى بلغ بهم الأمر أنهم أصبحوا يجلسون في المسجد

---

١) البداية والنهاية ١٢٣/٤ -.

متلاصقين يتخافتون الحديث وينفثون مافي صدورهم من حقد. ولم يَبدُ خطرهم إلا بعد ذلك بسنوات، عندما اشتد النفاق كما سنعرض بعد قليل...



المنطقة التي سكن فيها بنو قريظة تحولت إلى بساتين للنخيل

المدينـة بيـئة إسـلامية قويـة:

أصبحت المدينة قوة حقيقية تمسك زمام المبادرة في الأمور العسكرية والسياسية، وكان القادرون على حمل السلاح يسارعون للاكتتاب في أية غزوة يعلن عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وقد كثر عدد المسلمين بسبب دخول معظم أهلها في الإسلام من جهة، وبسبب هجرة أعداد أخرى كبيرة إليها.. فبينما كان عدد المشاركين في أُحد من المسلمين ألف رجل وجدنا عدد المشاركين في الخندق ثلاثة آلاف رجل.. إذن تضاعف عدد المسلمين ثلاث مرات خلال سنتين.. واستمر العدد يزداد شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة.. وكما أخبر رسول الله ﷺ بعد إنصراف الأحزاب ((الآن نغزوهم ولا يغزونا)) فقد أصبحت الحملات تتجهز في المدينة من أهلها وممن حولها من المسلمين وتخرج إلى المناطق القريبة والبعيدة، وكان أول ماخرج بعد الانتهاء من أمر بني قريظة سرية أرسلها الرسول ﷺ في ثلاثمائة رجل من الأنصار والمهاجرين، يقودهم أبو عبيدة بن الجراح، لرصد قافلة لقريش على طريق البحر، وكانت السرية تأكيدا لفشل قريش في تحقيق أي هدف من أهدافها في غزوة الخندق، وفشلها حتى في حماية خطوط تجارتها..

واستطاعت سرية ثانية أن تظفر بتجارة لقريش يقودها أبو العاص بن الربيع صهر رسول الله ﷺ، وأفلت أبو العاص، ثم جاء إلى المدينة واستجار بزوجته السابقة زينب فأجارته، ورد عليه المسلمون تجارته.. فذهب بها إلى قريش وسلمهم إياها ، ثم عاد إلى المدينة وأسلم.. وتوالت السرايا والبعوث إلى الأطراف.. وكانت تغنم الغنائم وتسوقها إلى المدينة.. ولم يعد يهددالمدينة أحد..

وجاء بعض بني فِهر -من العرنيين - إلى المدينة وأعلنوا إسلامهم، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يأذن لهم بالعودة إلى باديتهم، فأذن لهم وأعطاهم إبلا وراعيين.. فلما خرجوا منها إلى الحرة قتلوا الراعيين ومثلوا

بهما وارتدوا كافرين.. فأرسل ﷺ في أثرهم بعض المسلمين، فقبضوا عليهم وعاقبوهم عقوبة الحرابة..

وباستثناء هذه الحادثة .. كانت الحياة تجري في المدينة المنورة هادئة، يلتفّ المسلمون حول رسول الله ﷺ في المسجد.. ويسمعون أحاديثه.. ويتلقون منه ما ينزل عليه من القرآن والأحكام.. ويأتي المدينة عدد من أهل المناطق المجاورة، ويسلم بعضهم، وتصل بعض النساء مهاجرات من مكة هرباً بدينهن فيستوعبهن المجتمع الجديد..

صلح الحديبية:

وقبل نهاية هذه السنة، في ذي القعدة ، خرج رسول الله ﷺ من المدينة لأداء العمرة، وخرج معه ألف وخمسمائة مسلم من المهاجرين والأنصار.. وكان خروجهم إعلانا صريحاً عن تعظيم المسلمين لمكة المكرمة. وإقرارِ الإسلام لفريضة العمرة .. غير أن قريشاً التي كانت تعاني من فشل حملتها يوم الأحزاب، ومن آثار الحصار الاقتصادي الذي قامت به سرايا المسلمين، رأت في قدوم المسلمين مهانة لها.. وخشيت أول الأمر أن يكون قصدهم أخذ مكة عنوة.. فتأهبت للقتال .. وخرجت بجموعها لصد المسلمين.. ولكن الرسول ﷺ حرص على تجنب المواجهة وأرسل الرسل يؤكد لقريش أنه جاء معتمرا وليس محارباً، ونزل بالحديبية على مسافة إثنين وعشرين كيلاً من مكة.. وتوالت الوفود بين المسلمين والمشركين.. واقتنع المشركون أن المسلمين لايريدون حرباً، وتحوّلت المراسلات إلى اتفاق على الصلح ووضع الحرب بين الطرفين، واشترطت قريش شروطاً رآها بعض المسلمين مجحفة..

وكان رسول الله ﷺ حليماً بعيد النظر فرضي بشروط قريش للصلح، وكان أهمها أن يؤجل المسلمون عمرتهم إلى العام التالي، وأن تقوم هدنة مدتها عشر سنوات.. وأن تُترك الحرية للقبائل تحالف من تشاء من المسلمين أو قريش.. وأن يَرد المسلمون من جاءهم من القرشيين إذا طلبهم ذووهم ولا

يَرد المشركون من جاءهم فاراً من المسلمين.. واغتم كثير من المسلمين لهذه الشروط وتألموا ألماً شديداً، واجتهدوا في رفضها، ولكنّ رسول الله ﷺ قبلها وكتب المعاهدة. ورجع المسلمون إلى المدينة بعد أن أقاموا في الحديبية عشرين يوما، واستغرقت رحلتهم ذهاباً وإياباً شهراً ونصفَ شهر.. وقد رأى المسلمون بعد ذلك صحة توجه النبي ﷺ في قبوله شروط قريش، فقد خدمت المعاهدة مصالح المسلمين إلى أقصى حد.. وأرسلت قريش بعد حين ترجو رسول الله ﷺ وتناشده اللهَ والرحم بإلغاء الشرط الذي اشترطته على المسلمين برد من جاءها من أبنائهم، لأن الذين أسلموا ولم يحمهم المسلمون بهذا الشرط، وكان عددهم سبعين رجلا، فروا إلى الجبال، وشكلوا قوة تغير على قوافل قريش وتفتك بهم فتكا شديداً (وأشهرهم أبو جندل وأبو بصير) وطلبت من رسول الله ﷺ أن يرسل إليهم.. ومن قدم إليه منهم فهو آمن.. فأرسل إليهم رسول الله ﷺ.. وكان من فوائد هذه المعاهدة أن عدداً من القرشيين ممن حاربوا المسلمين بشدة تهيأت له فرصة للتفكير وإعادة النظر في أمره.. فقد كسرت حدة العداوة، وأصبح من الممكن أن يظهر منطق العقل.. وبالفعل أسلم بعد الحديبية خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.. وهاجرا إلى المدينة.. وكان لهما شأن في الغزوات والحروب.. كما أن المعاهدة أتاحت للمسلمين التفرغَ لشأن القبائل الأخرى غير المحالفة.. واليهود الذين تجمعوا في خيبر وفدك ووادي القرى، وبدؤوا يفكرون جديا بالهجوم على المدينة وضرب المسلمين، كما أتاح الفرصة لإعلان الدعوة إلى الآفاق البعيدة وإرسال الرسل والأمراء في أطراف الجزيرة العربية وخارجها...

كانت قريش وحلفاؤها الهمَ الأكبر.. يليهم اليهود.. فلما كسرت شوكة اليهود لم يبق إلا قريش وحلفاؤها.. لذا عندما كتبت معاهدة الحديبية وجد المسلمون فرصة كبيرة للدعوة والتحرك في الجزيرة العربية والتوجه نحو

القبائل.. فنشطوا في فترة السلم هذه للدعوة الى الله. كما نشطوا لضرب اليهود..

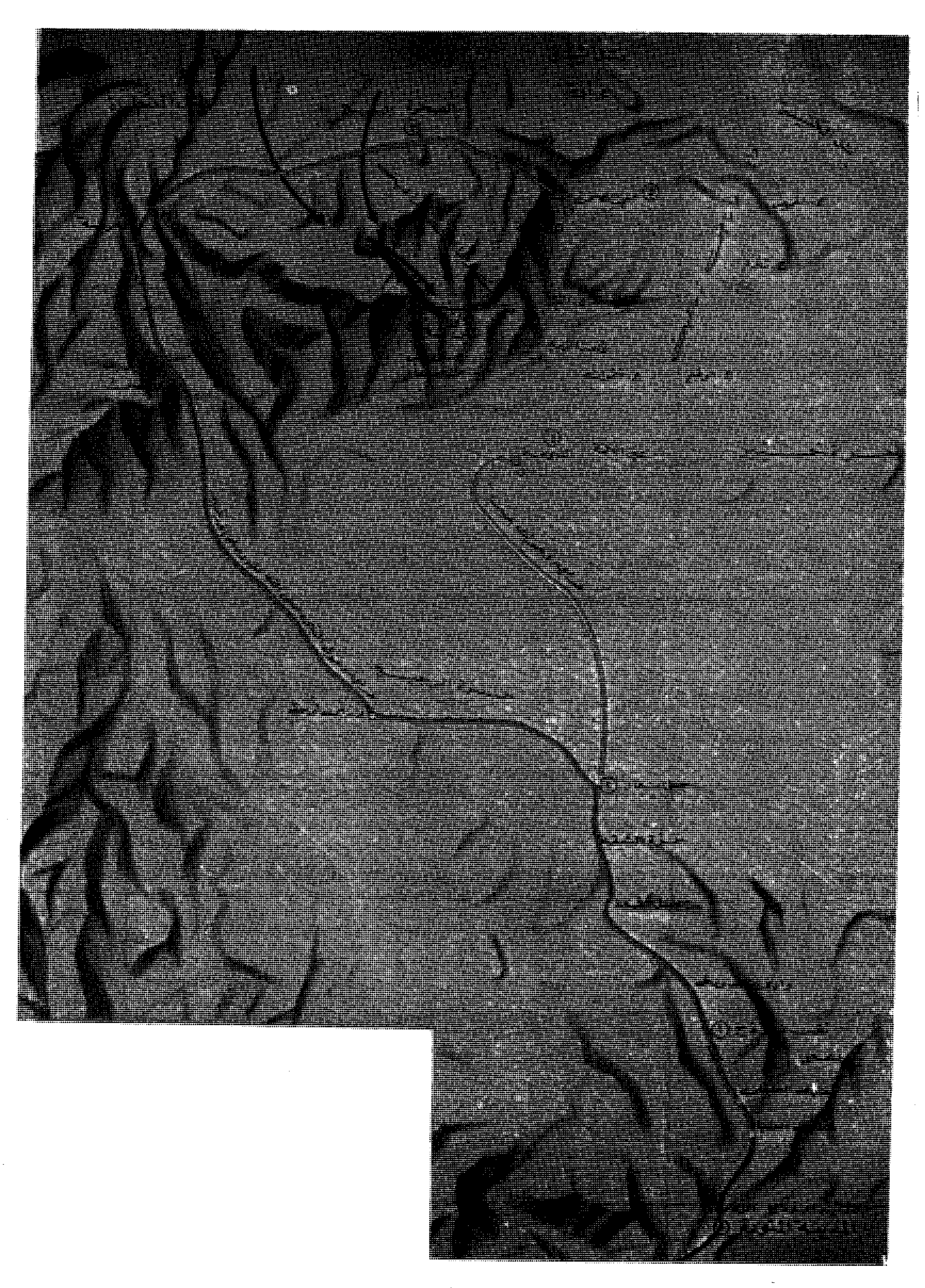
انتصار في خيبر:

اشتد أمراليهود في خيبر، وتجاوز عدد مقاتليهم عدة آلاف بعد أن هاجر إليهم بعض يهود المدينة، وكان لهم حصون منيعة.. وقد تحالفوا مع غطفان، وأصبحوا يشكلون خطراً على المسلمين، لذا انتدب رسول الله ﷺ المسلمين لقتالهم، وسار بالجيش فنزل بموقع يحول بينهم وبين حلفائهم غطفان، وبعد حصار وقتال شديدين سقطت حصون خيبر كلها، وغنم المسلمون غنائم كثيرة، وصالحوا اليهود على أن يبقوا في خيبر ما شاء المسلمون ذلك، ويعملوا في الأرض بالمشاركة. وعاد المسلمون إلى المدينة معززين بنصر الله.. فقد كان هذا الفتح تدعيماً لمركزهم السياسي، وضربا لأكبر تجمع بعد الأحزاب..

ولما كانت قريش في هدنة مع المسلمين، فإن ضربة يهود خيبر قد أمنت المدينة من كل الأخطار الخارجية.. كما أن غنائم هذه الغزوة قد عادت بالخير والسعة على المسلمين في المدينة، وكانت المدينة في حاجة إلى موارد جديدة، فقد كثر سكانها وأصبحت مواردها أقل من أن تفي بحاجاتهم.. خاصة وأن من المسلمين من كان يرابط للجهاد.. حتى لتقول عائشة رضي الله عنها: ماشبعنا التمر إلا بعد أن فتحت خيبر.

انتصارات أخرى:

ومرت السنة في أمنٍ ودعة.. وكانت سنة توفيق وانتصارات.. فقد خرجت عدة سرايا من المدينة إلى هوازن وغطفان، قادها كل من أبي بكر وعمر، وغالب بن عبد الله، وبشير بن سعد، واشتبك بعضها مع المشركين، بينما لم يلق بعضها الآخر قتالاً، لأن الذين قصدوهم سمعوا بهم ففروا.



فتح خيبر

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي

عمرة القضـــاء:

ولما حل شهر ذي القعدة خرج رسول الله ﷺ إلى العمرة ومعه عدد كبير من المسلمين. فأخلى معظم المشركين مكة غيظاً وضيقاً.. فدخلها المسلمون واعتمروا وأقاموا فيها ثلاثة أيام ونحروا عدداً من البدن.. ثم عادوا إلى المدينة.

جهاد وشهادة في مؤتـه:

كان الروم لايأبهون لما يحدث في الجزيرة العربية، فلما قويت شوكة المسلمين في المدينة، بدؤوا يهتمون بالأمر، وفكر بعض أتباعهم في الأردن أن يهاجموهم.. وجاء الخبر إلى المدينة بوجود حشود في الأردن.. وكان رسول الله ﷺ قد أرسل إلى شرحبيل بن عمرو الغساني كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام مع الحارث بن عمير، فاستكبر شرحبيل وقتل الحارث بن عمير خلافا للعرف السائد بأن الرسل لاتقتل، فغضب رسول الله ﷺ وجهز جيشاً بقيادة زيد بن حارثة فيه ثلاثة آلاف مجاهد، منهم جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وخالد بن الوليد وغيرهم من كبار الصحابة.. فسار الجيش إلى مؤتة ولقيه جمع هائل من الروم قدره الواقدي بمئة ألف.. وأصيب المسلمون وقتل زيد ثم جعفر ثم عبد الله بن رواحة.. وتسلم القيادة خالد بن الوليد فأعاد تنظيم الجيش، واستطاع أن يوهم الروم بأن مددا قد جاءه وانسحب بسلام من المعركة وحقن دماء بقية المسلمين.. وقد اغتم المسلمون في المدينة لنتائج هذه الموقعة، حتى أن بعضهم أخذ يحثو التراب في وجوه العائدين من مؤتة.. ويتهمهم بأنهم الفرارون، ولكن رسول الله ﷺ قال: ليسوا بالفرار، ولكنهم الكُرار إن شاء الله.. وقد أفاد المسلمون من هذا اللقاء الصعب مع الروم دروساً وخبرات كبيرة استثمروها في حركاتهم الجهادية التالية: تعرفوا على عدوهم وأساليب قتاله، والأرض التي يقاتل عليها.

حملات وقائية أخرى:

خلفت غزوة مؤته بعض الآثار السلبية، أخطرها أن بعض القبائل استهانت بالمسلمين، وبخاصة قبيلة قضاعة، التي قاتل بعض أبنائها مع الروم ضد المسلمين.. لذا بدأت تجهز لغزو المدينة..

فأراد رسول الله ﷺ أن يبادرها بضربة وقائية، وأمر بتجهيز حملة سريعة، فتجهزت حملة قوامها خمسمئة مجاهد، أسرعت إلى منطقتهم، وعلم القضاعيون بالحملة ففروا وتشتت جمعهم.. ولم تعد قضاعة تفكر في غزو المسلمين، وأسلمت بعض القبائل المحيطة بها أو حالفت المسلمين، فازدادت المدينة منعة ، وصارت مركزاً كبيراً يؤمه الناس من الأطراف لوجود رسول الله ﷺ فيها، ولأنها مركز الحركة العسكرية والسياسية الواسعة..

الفتح المبين:

ومرت الشهور، وشاء الله أن تحدث حادثة تهتز لها المدينة، ويخرج المسلمون ليكتبوا صفحة جديدة واسعة من التاريخ الإسلامي، هذه الحادثة هي موقعة وقعت بين بني بكر حلفاء قريش، وبني خزاعة حلفاء المسلمين.. وتجاوز القرشيون شروط عهد الحديبية، وأعانوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة حلفاء المسلمين.. فجاء الصريخ إلى المدينة المنورة يشكو إلى رسول الله ﷺ ما حل بخزاعة.. وكان بعضهم قد أسلم وأقام شعائر الإسلام، عندئذ رأى رسول الله ﷺ أن قريشاً بفعلها هذا قد نقضت العهد، وآن الأوان أن يستأصل الشرك فيها.. وأدرك القرشيون فداحة خطئهم، فحاولوا تداركه، وجاء أبو سفيان إلى المدينة محاولاً تجديد الصلح دون فائدة، فقد أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالمدينة أن يتجهزوا للخروج.. ولم يعلمهم بوجهته -خلافاً لما كان يفعله في الغزوات السابقة- وأرسل إلى القبائل المسلمة حول المدينة ليخرجوا معه.. فأدركه بعضهم في المدينة ولحقه بعضهم الآخر خارجها، وسار بالجيش، ولم تنتبه قريش للأمر إلا عندما وصل جيش

المسلمين إلى مرْ الظهران قرب مكة.. وأُسقط في يد المشركين، وخرج سادة مكة: أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام، فلقيهم العباس عم الرسول ﷺ، وذهل هؤلاء لعدد الجيش الذي بلغ عشرة آلاف مسلم.. وهذا أكبر عدد يخرج في غزوة إلى ذلك الحين، فأسلم أبو سفيان وعاد يحذر قومه من مواجهة المسلمين ويطلب منهم الاستسلام، غير أن بعض القرشيين أبوا ذلك، وجمعوا بعض أحلافهم من القبائل، ووقفوا في وجه الجيش الفاتح، وكان عددهم ضئيلا فتغلب عليهم المسلمون بسهولة، ودخل رسول الله ﷺ مكة من جهة كُدي، ودخل خالد بن الوليد من أسفل مكة، وبلغ عدد القتلى أربعة وعشرين قتيلا من المشركين، وكان رسول الله ﷺ قد أمر القادة ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم سوى أربعة من الرجال أهدر دماءهم، وقد تمكن المسلمون من اثنين منهم هما: عبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة، ونجا اثنان هما عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن أبي سرح وأسلما بعد ذلك.. وأباح الرسول ﷺ لخزاعة أن تثأر من بني بكر في اليوم الأول من الفتح، فلما كان العصر أعلن وقف القتال، وأعلن حرمة مكة.. ثم جمع عامة أهل مكة وعفا عنهم..

وخشي أهل المدينة أن يكون الأمان الذي أعطاه الرسول ﷺ لقريش دليلا على رغبته في البقاء فيها.. ولكن الرسول ﷺ طمأنهم بقوله: المحيا محياكم والممات مماتكم..

وأمر رسول الله ﷺ بتحطيم الأصنام والأوثان وتطهير البيت الحرام ولم يدخل الكعبة إلا بعد أن طهرت منها... وهكذا سقطت الوثنية من أقدس مركز وأكبره، وتوافد كثير من أهل مكة على رسول الله ﷺ فأسلموا بين يديه.

ملاحقة الشرك حول مكة:

تحول ثقل الشرك بعد فتح مكة إلى قبيلتي هوازن وثقيف خارج مكة، وسارعت هاتان القبيلتان إلى جمع جموع المشركين والاستعداد لمواجهة المسلمين.. فلم يكن للجيش الإسلامي الذي خرج من المدينة وما حولها بد من

أن يتجه إلى تلك الجموع، ويضربها بقوة قبل أن يعود إلى المدينة.. وتمهيداً لتلك الضربة توجهت سريتان إلى ديار ثقيف وهوازن فأصابت من أطرافهم وعادت بأخبار استعداداتهم لمواجهة المسلمين.. ولما مضى نصف شهر على فتح مكة انتدب رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي حدر السلمي ليذهب إلى أماكن تجمع القبيلتين، فذهب ومكث فيهم يومين ورصد أخبار المشركين وعاد بالخبر إلى المسلمين.. وقد قدر تلك الجموع بعشرين ألف مقاتل: أي ضعف عدد المسلمين الذين فتحوا مكة.. فأمر رسول الله ﷺ بالمسير إليهم، واستعار بعض السلاح من صفوان بن أمية، وكان ما يزال على الشرك.

شوائب في جيش المسلمين:

انضم إلى الجيش المتجه إلى ثقيف وهوازن عدد من طلقاء مكة الذين أسلموا حديثا، يقدر عددهم بألفي رجل.. وكان لمشاركتهم آثار سلبية، فقد كانوا حديثي عهد بالإسلام ولم يتخلصوا من رواسب الجاهلية بعد، حتى إنهم لما رأوا في الطريق إلى حنين شجرة تعرف بذات أنواط يعلق عليها المشركون أسلحتهم استفتاحا للنصر، قال بعضهم: يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فقال: سبحان الله، كما قال قوم موسى اجعل لناإلاهاً كما لهم آله - والذي نفسي بيده لتركبن سنة من قبلكم(١).. وكان بعض الذين خرجوا مع الجيش منهم ومن الأعراب إنما خرجوا طلباً للغنيمة، ولم يفهموا بعد معنى الجهاد، وأصاب بعضهم العجب لكثرة عدد الجيش، فقالوا، لن نغلب اليوم من قلة. وقد سبقت جموع المشركين إلى وادي حنين ونصبوا كمائن للمسلمين في مرتفعاته، فلما دخل المسلمون في الوادي اشتبك معهم بعض فرسان المشركين واستدرجوهم إلى داخله.. وظن المسلمون أن المشركين قد هزموا فتبعوهم داخل الوادي، ففاجأتهم الكمائن بوابل من السهام.. أحدثت ذعراً في صفوف الجيش، واضطرب الكثيرون.. وبدأ حديثو

---

١) أنظر مسند أحمد ٥/٢١٨ -.

العهد بالإسلام والأعراب بالفرار، وصمد رسول الله ﷺ ومعه فئة قليلة، ووقف العباس ينادي بصوته الجهوري في المسلمين ليرجعوا ويلتفوا حول رسول ﷺ، وثبت المسلمون رغم ما أصابهم من جراحات كبيرة.. وبدأ بعض الفارين بالعودة.. وتكاثروا، واشتد القتال وبدأت جولة ثانية حامية حمل فيها المسلمون بصدق على المشركين، ودعا رسول الله ﷺ بحرارة.. ولم تصمد جموع هوازن وثقيف طويلاً فبدأت بالفرار.. وتعقبهم المسلمون إلى أوطاس، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وغنموا أموالا ضخمة كانت أكبر غنيمة تقع في يد المسلمين حتى ذلك الوقت، واستشهد أربعة من المسلمين فقط وجرح الكثيرون..

تابع المسلمون طريقهم إلى الطائف وكانت شديدة التحصين، فحاصروها بضع عشرة ليلة، وأصيب في الحصار عدد من المسلمين، ولم يكن الرسول ﷺ يقصد فتحها، بل كسر شوكة ثقيف وتعريفها بأن بلدها في قبضة المسلمين، وأنهم متى شاؤوا دخلوها، وما كان الرسول ﷺ ليشق على المسلمين ويكثر من تقديم الشهداء لفتح بلد حصين يحيط به الإسلام من كل مكان، وليس له إلا الإسلام والاستسلام طال الوقت أم قصر ، كما أنه كان يحرص على ثقيف حرصه على قريش من قبل، فهم إن تحولوا إلى الإسلام عن طواعية كانوا مادة له.. وقد سأله بعض الصحابة أثناء الحصار أن يدعو على ثقيف فدعا: اللهم أهْدِ ثقيفاً(١)، لذلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بفك الحصار والعودة إلى المدينة.

استعلاء الايمان:

وفي طريق العودة، ظهرت آثار تربية الرسول ﷺ للأنصار في المدينة المنورة.. واستعلت قوة الإيمان فيهم أيما استعلاء.. ذلك أن الرسول ﷺ كان قد أمر بحبس غنائم معركة حنين في الجعرانة ومضى إلى الطائف ولم

---

١) المجتمع المدني ص٢١٣

يقسمها.. وفي طريق العودة توقف في الجعرانة ووزع الأموال بصورة خفيت حكمتها على بعض الصحابة آنذاك، فأعطى طلقاء مكة والأعراب عطاءً ضخما يتألفهم، لأنهم حديثو عهد بالإسلام ولم يتمكن الإيمان من قلوبهم بعد، وخص زعماء القبائل بمئة من الإبل لكل منهم، فأثرت فيهم هذه الأعطيات الضخمة، وزادتهم رغبة في الإسلام، وحسن بلاؤهم فيما بعد: وهم الأقرع بن حابس وأبو سفيان وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والعباس بن مرداس... وقد قال صفوان بن أمية: لقد أعطاني رسول الله ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتى أنه لأحب الناس إلي(١).

وقد تأثر بعض الأنصار إذ لم يصبهم شيء من تلك الأعطيات، وتحدثوا في الأمر.. وبلغ الحديث رسولَ الله ﷺ فجمعهم وخطب فيهم قائلا: ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألّف بين قلوبكم؟ قالوا، بلى، الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال : ألا تجيبوني يامعشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يارسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال ﷺ: أما والله لوشئتم لقلتم ولصَدَقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مُكذّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك.. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لَعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار. ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحمِ الأنصارَ وأبناءَ الأنصار وأبناءَ أبناءِ الأنصار..... فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم، وقالوا

---

١) صحيح مسلم ١٨٠٦/٤ -.

رضينا برسول الله قَسْماً وحظا(١). وعاد المسلمون إلى المدينة وهم في ذروة الإحساس بنصر الله...

المدينــــة تنمـــو:

عاد مـع الجيش الذي خرج من المدينة أعداد كبيرة ممن أسلموا وقرروا مجاورة الرسول ﷺ في المدينة.. والمشاركة فيما ينتدب إليه للجهاد.. فكسبت المدينة أعداداً جديـدة من المسلمين، وعظم شأنها في الجزيرة العربية كلها، خاصة بعد أن سقط الشرك في مكة المكرمة، وطهر بيت الله الحرام من الأصنام.. ولم يعد لقريش الوثنية مكانة في القبائل التي لم تسلم بعد...

المدينــــة تستقبل الوفـود:

اتجهت الأنظار إلى المدينة المنورة حيث رسول الله ﷺ يدير أمور المسلمين ويرسل البعوث والسرايا والدعاة، وبدأت القبائل ترسل الوفود إلى المدينة، فوصل في هذه السنة عدد من تلك الوفود.. كان من أهمها وفد ثقيف التي حاصرها المسلمون في الطائف.. وقد أكرم الرسول ﷺ وفادتهم، وضرب لهم خيمة في طرف المسجد، وحاول الوفد الحصول على تنازلات عقدية مقابل دخولهم في الإسلام، فقد طلبوا إعفاءهم من الصلاة، وأن يبقى لهم صنمهم اللات، ولكن رسول الله ﷺ أبى ذلك، وأخيرا دخلوا في الإسلام وطلبوا ألا يكسروا صنمهم بأيديهم، فأرسل رسول الله ﷺ معهم بعض الصحابة من المدينة ليكسروه.. وكان ماأمله رسول الله ﷺ من ثقيف حين فك الحصار عنها، فقد جاءت طائفة منهم ودخلت الإسلام عن رغبة...

العســرة والجهــاد:

وشاء الله في ذلك العام أن يقل المطر ويحدث قحط ومجاعة، وتأثرت المدينة لذلك، فمن جهة كثر عدد سكانها، واشتغل كثير منهم بالجهاد، ولم تعد المحاصيل كافية... لذا اشتد الأمر على المسلمين..

---

١) ابن هشام ١٣٨/٤ -.

وفي هذا العام أمر الرسول ﷺ بالتجهيز لغزو الروم في تبوك، ولم يكن لدى بعض المسلمين ما يتزود به للرحلة الطويلة ولا مايركبه، وظهرت صعوبات في تجهيز الجيش.. خاصة وأن الصيف قد حل بحرارته الشديدة، والموسم قليل العطاء.. ولكن التربية الإيمانية العظيمة جعلت المسلمين يتغلبون على كل الصعوبات.. فقد تسابقوا بمالديهم لتجهيز الجيش، فجاء عثمان بن عفان رضي الله عنه بألف دينار وصبها في حجر رسول الله ﷺ فراح النبي ﷺ يقلّبُها ويقول: ماضرّ عثمانَ مافعل بعد اليوم، وأنفق عبد الرحمن بن عوف نصف ماله، وجاء آخرون بما قدروا عليه، وقد محص هذا الموقف الصعب نفوس كثير من الناس في المدينة، وأظهر دخائل المنافقين الذين وجدوا فرصة في لمز المسلمين والنيل منهم بألسنتهم.. وكان قد كثر عددهم بسبب قوة المسلمين وخوف ضعفاء النفوس من أن يجهروا بموقفهم الحقيقي.. فأبطن هؤلاء النفاق وأظهروا الإسلام.. ولم يكن لهم مركز يجمعهم، وعندما ازداد عددهم حاولوا جمع شتاتهم، واجتهد أحد الحاقدين على الإسلام في جمعهم وتقوية شأنهم وهو أبو عامر الفاسق، فأرسل إليهم أن يبنوا مسجدا ويتجمعوا فيه، وأخبرهم أنه سيسافر إلى الروم ليقنع القيصر بإرسال حملة معه إلى المدينة لاستئصال المسلمين، وعليهم أن يكونوا مستعدين لضرب المسلمين من الداخل إن جاء بالحملة.. فبنى المنافقون مسجدا وزعموا أنه للمنفعة العامة والتوسعة على المسلمين، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلي فيه، فاستمهلهم رسول الله ﷺ إلى أن يعود من تبوك،

وخلال مدة قصيرة تجهز الجيش، وبلغ عدده ثلاثين ألف رجل(١).

سار الجيش بقيادة رسول الله ﷺ حتى وصل إلى تبوك فلم يلق الروم، وأرسل رسولُ الله ﷺ خالدَ بن الوليد في كتيبة إلى دومة الجندل، فأسر أميرها، ثم صالحه على الجزية. ومكث المسلمون عشرين ليلة في تبوك، ووادعتهم القبائل المجاورة، ثم عادوا إلى المدينة المنورة.

تدمير مركز المنافقين:

وقبل أن يدخل الجيش العائد المدينة أوحى الله إلى رسوله ﷺ بأمر مسجد المنافقين، وسماه القرآن الكريم مسجد الضِرار، وبين سوء طوية مؤسسيه ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، ولَيحْلِفُنّ إِنْ أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون..﴾(٢) فأرسل رسول الله ﷺ جماعة من الصحابة وأمرهم أن يسبقوه إلى المدينة ويحرقوا ذلك المسجد، فأحرقوه..

نتائج طيبة:

حققت غزوة تبوك أهدافها.. فنشرت هيبة المسلمين شمالي الجزيرة العربية وجعلت تلك المنطقة تابعة للمدينة المنورة، وكان ذلك تمهيدا لفتوح الشام فيما بعد.. كما أن القبائل التي لم تسلم بعد في سائر أنحاء الجزيرة أدركت أن الإسلام قد أصبح القوة العظمى، وأن المدينة المنورة أصبحت عاصمته.. فبدأت بإرسال الوفود المتوالية إليها تبايع رسول الله ﷺ على الإسلام، وترسل صدقاتها إلى بيت مال المسلمين في المدينة، فمنذ مطلع العام التاسع للهجرة توالت وفود القبائل على المدينة.. ولم تبق قبيلة في شرق الجزيرة أو شمالها أو جنوبها إلا وبعثت وفودا إلى المدينة المنورة...

إضافة إلى تلك الأهداف، حققت الغزوة هدفا تربوياً آخرَ بدا في قصة

---

١) فتح الباري ١١٨/٨ - الواقدي ٩٩٦/٣ -.

٢) التوبة ١٠٧ -.

الثلاثة الذين خُلِفّوا، وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، فلم يخرجوا مع المجاهدين ولم يكن لهم عذر، وندموا ندماً شديداً على تخلفهم، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بمقاطعتهم، فقاطعوهم مقاطعة تامة، وحبس الثلاثة أنفسهم في بيوتهم يستغفرون الله ويبكون، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وبعد أربعين يوما نزل الوحي بقبول توبتهم.. فكان ذلك درساً من دروس الإيمان والطاعة...

المدينة في العام الهجري التاسع:

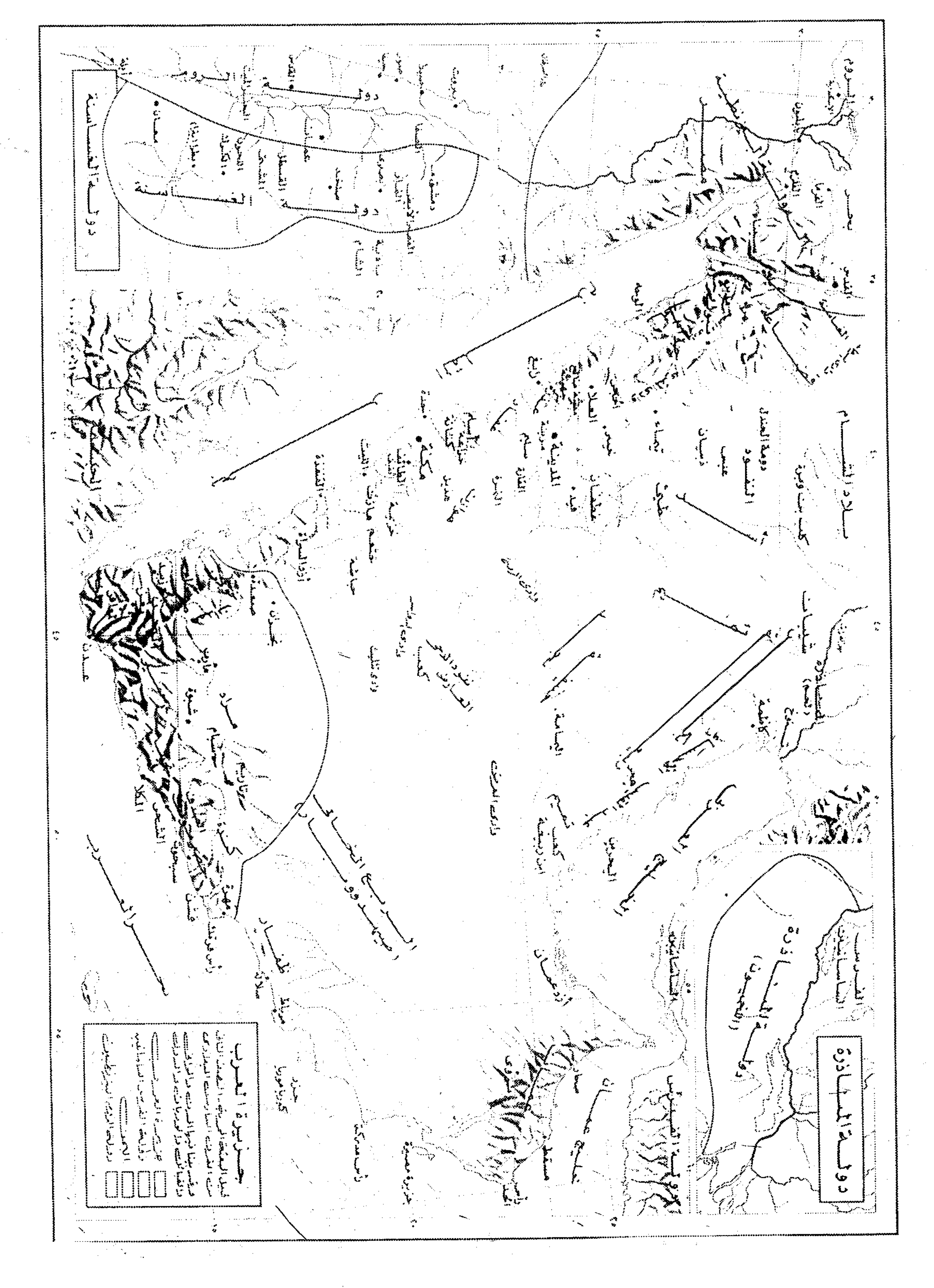
شهدت المدينة في هذا العام حركة (دبلوماسية)، نشطة فقد توالت عليها الوفود من المدن والقبائل القريبة والبعيدة لتلقى رسول الله ﷺ وتسأله في أمر الدين الجديد، بعد أن كتب الله له الانتصار والانتشار، فيسلم بعضها ويحمل الإسلام إلى قومه، ويطلب بعضها الآخر مهلة للتفكير، ويسالم بعضها الآخر ويدفع الجزية.. وقد سمى المؤرخون هذا العام عام الوفود، فقد بلغ مجموع تلك الوفود أكثر من ستين وفدا(١)، وكان من بين الوفود وفد من نصارى نجران، دعاهم رسول الله ﷺ للإسلام فأبوا، ودعاهم إلى المباهلة فرضوا أول الأمر، ثم خافوا أن تصيبهم لعنة الله فطلبوا المصالحة على أن يدفعوا الجزية.. وقد كان دفعهم للجزية بمثابة تقديم الولاء لدولة الإسلام والتحول عن دولة الروم التي كانت صلاتهم بها وثيقة... كما قدمت وفود من اليمن معلنة الإسلام.. وهكذا أصبحت المدينة العاصمة الكبرى لدولة إسلامية تغطي شبه الجزيرة العربية..

الدولة الإسلامية القوية:

ومالبثت سلطة هذه الدولة أن تعززت بشكل نهائي عندما نزلت سورة براءة.. وكان رسول الله ﷺ قد انتدب أبا بكر ليخرج بالناس إلى الحج.. فأتبعه بعلي بن أبي طالب ليقرأ السورة ويعلن نهاية العهود مع المشركين،

---

١) سيرة ابن هشام ٢٣٥/٤



المدينة مركز الدولة الإسلامية القوية ووسط القبائل العربية

مصور للقبائل العربية في الجزيرة العربية وقد اسلم بعضها ووادع بعضها الآخر المسلمين

المصدر: اطلس التاريخ الإسلامي

وإمهالهم أربعة أشهر ومنعهم من الحج في العام القادم.. ومن له عهد إلى مدة ينتهي العهد بانقضاء المدة ولا يجدد له.. وكان هذا إعلاناً حاسماً بالقضاء على الشرك واستواء الدولة الإسلامية القوية ، عاصمتها المدينة المنورة..

أيـــام قبل الوداع:

ومرت الأيام القليلة الباقية من حياة رسول الله ﷺ على المدينة المنورة وهي تعيش أسعد أوقاتها، ومات رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول.. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراج المنافقين من المسجد.. فأُخذوا أخذاً عنيفا وطردوا منه، وأفاء الله على المدينة خيرات وافرة.. ووردت أموال الزكاة من جهات كثيرة لتسد حاجة بيت المال، ولتقوم بأمر المدينة التي اتسعت وكثر سكانها، وانصرف بعض الساكنين إلى التجارة والزراعة، فكانوا يعملون فيها بعض النهار، ويسرعون إلى مسجد رسول الله ﷺ في أوقات الصلوات وحين يجلس للناس.. أو يدعو لأمر من الأمور.. وعندما أعلن رسول الله ﷺ أنه يعتزم الحج في العام العاشر من الهجرة خرج معه جمع غفير من المدينة وماجاورها.. ولحقه أناس آخرون من الطريق، حتى قُدر عدد الجمع بأربعين ألفا ، وتعلموا منه مناسك الحج، وسمعوا خطبة الوداع، وكان فيها دروس عظيمة للمسلمين.. وعندما عاد الحجيج إلى المدينة المنورة بدأ رسول الله ﷺ تجهيز جيش يسير إلى الشام.. وأمّر عليه أسامة ابن زيد الذي استشهد والده في مؤتة، وأمره بالتوجه إلى البلقاء وفلسطين، وتجهز الناس للخروج وفيهم عدد كبير من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر وعثمان.. وتكلم بعض الناس في إمارة أسامة على كبار المهاجرين والأنصار وهو صغير السن.. ولكن رسول الله ﷺ ثبته في الإمارة وأوصى به خيراً.. وكاد الجيش أن يتحرك عندما بدأ مرض رسول الله ﷺ فرابط بالجرف.. وجزع الناس لمرض الرسول ﷺ، وبدءوا يتوافدون على المسجد وينتظرون

رؤيته عندما يخرج للصلاة ليطمئنوا عليه، ولما ثقل عليه المرض لم يستطع الخروج إلى الصلاة، وأوصى أن يصلي أبو بكر بالناس، وراجعته عائشة فقالت: إن أبابكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن، فأصر رسول الله ﷺ على ذلك، فصلى أبو بكر بالناس، وخرج الرسول ﷺ مرة إلى المسجد يتوكأ على العباس وعلي، فخطب وأثنى على أبي بكر ، ثم ألمح إلى دنو أجله فقال: إنّ عبداً عرضت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة. ففطن أبو بكر وبكى، وتعجب الذين لم يفطنوا إلى مافطن إليه لبكائه..

واهتم الناس اهتماماً شديداً لمرض رسول الله ﷺ، وفي أخر يوم من حياته أحس بشيئ من النشاط، وكان قد استأذن نساءه أن يمكث في بيت عائشة، فتحامل على نفسه إلى باب الحجرة وكشف سترتها، ورأى الناس صفوفا في صلاة الفجر، فتبسم، ثم ضحك وكأنه يودعهم، وأحس المسلمون به فكادوا أن يفتنوا فرحا، وفرجوا الصفوف ، وتأخر أبو بكر ظناً منه أن الرسول يريد الخروج للصلاة، فأشار إليهم ﷺ أن يتموا صلاتهم.. ثم أرخى السترة ودخل الحجرة.

إلــى الرفــيق الأعلـــى:

بعد ساعات قليلة اشتد عليه المرض، ودخلت عليه فاطمة فقالت: واكَرب أباه، فقال لها: ليس على أبيك كَرب بعد اليوم.. ودخل عليه أسامة بن زيد فدعا له بالإشارة، وكان يدخل يده في إناء فيه ماء ويمسح وجهه ويتمتم: لاإله إلا الله ، إن للموت سكرات، وأخذته بحة وهو يقول: اللهم في الرفيق الأعلى.. مع الذين أنعم الله عليهم، وأخذته عائشة رضي الله عنها في صدرها، ومالبثت أن فاضت روحه الشريفة إلى الرفيق الأعلى..

كان الناس خارج الحجرة مجتمعين في المسجد وحوله، وقد اشتد الضحى وكثر لغطهم.. فلما بلغهم الخبر بوفاته ﷺ زُلزلوا زلزالاً شديداً.. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أشدهم تأثراً ولم يصدق الخبر، وهدد

من يقول إن رسول الله ﷺ قد مات بالقتل.. وكان أبو بكر غائبا في السُنْح، إذ كان قد استأذن رسول الله ﷺ عندما رأى نشاطه في الليلة السابقة أن يبيت في بيت له هناك فأذن له، وجاء أبو بكر فدخل الحجرة الشريفة، وكشف الغطاء عن وجهه رسول الله ﷺ وأكبّ عليه وقبله، وقال: بأبي أنت وأمي يارسول الله طبت حيا وميتا.. ثم خرج إلى الناس، ورأى مابهم من زلزلة فاجتمعوا عليه، فوقف بثبات عظيم، وقال لهم أما بعد: من كان منكم يعبد محمدا فان محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لايموت، ثم تلا الآية الكريمة (وما محمدُ إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين)(١). فسكن الناس وكأنهم لم يسمعوا تلك الآية من قبل. وجلس عمر على الأرض لاتحمله قدماه. وساد المدينة حزن عميق..

وانتهت بوفاته ﷺ أهم مرحلة في تاريخ المدينة المنورة وأعظمها على الإطلاق.. مرحلة بناء المجتمع الإسلامي الأول والدولة الإسلامية الأولى..

---

١) آل عمران الآيه ١١٤

الجانب السياسي للمدينة المنورة في عهد النبوة

كان وصول رسول الله ﷺ الى المدينة بداية الانعطاف الكبير في الحياة السياسية للمدينة، فالمسلمون الذين أصبحوا يشكلون نسبة مهمة بين السكان (١)ألقوا مقاليدهم الى رسول الله ﷺ فور وصوله. ولم يكن في المدينة أي تنظيم سياسي يمكن أن ينازع على الرئاسة أو ينضوي تحته من لم يسلم.. باستثناء اليهود الذين ظلوا في تجمعاتهم الخاصة، وتدبير شؤنهم بأنفسهم وبزعاماتهم الدينية..

ولم تكن الحياة آنئذ معقدة بحيث تصطدم المصالح، فالعلاقات الداخلية تقتصر على شؤون الحياة اليومية في الزراعة والتجارة والصناعات المحدودة، والتي يصح أن نقول انها أشبه بمصانع صغيرة -كما سنرى في بحث قادم- وهذه العلاقات مجموعة أعراف قديمة متوارثة.. وان حصل فيها تجاوزات معينة، كامتناع مدين عن دفع الدين. أو اعتداء أو سرقة... فان الرئاسات القبلية كانت تحكم في تلك التجاوزات. وكان الأفراد ينفذون الأحكام طواعية أو بواسطة بعض أشداء القبيلة.. فالمعتدي اذا ثبت عليه الجرم يعاقبه رئيس القبيلة أو ينتدب من يفعل ذلك عنه....

اذن لم تكن هناك هيئات تتبع الرئاسة على نحو ما ظهر فيما بعد من هيئات الشرطة أو الحرس أو الجند.. بل كان الأفراد العاديون يقومون مقام الهيئات طواعية وبحكم الولاء القبلي والأعراف.

وقد توطدت السلطة الداخلية للرسول ﷺ وكانت استجابة المسلمين في الذروة، ولايمكن أن تعرف دولة أو مدينة استجابة لرئاستها وحماسة في تطبيق توجيهاتها على نحو ماظهر بين المسلمين.. ذلك لأن الدافع العقدي

---

١) انظر قول ابن هشام: فلم يبق بيت الا وفيه الاسلام الا ماكان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة، ووائل، وواقف. ابن هشام ٢/٨٥.

الذي يربط المسلمين بالرسول ﷺ ينشيء في المسلمين عاطفة إيمانية عالية ، تجعلهم يتسابقون لتطبيق أي توجيه نبوي(١). وهذه الحالة لايمكن أن تصل اليها أية سلطة مدنية لاتدعمها روابط عقدية. وما لبثت هذه السلطة أن امتدت إلى بعض اليهود المتقوقعين في حصونهم، فقد لجؤا الى رسول الله ﷺ ليقضي بينهم في الجنايات التي وقعت بين اليهود أنفسهم، وقد حكم رسول الله ﷺ بحكم الله وطبق الحكم قرب المسجد..(٢). ولاشك أن احتكامهم إلى رسول الله - وترك تنفيذ العقوبة له هو إقرار غير مباشر بأنه المرجع الأكبر في المنطقة..

غير أن اليهود لم يكونوا يرجعون في شؤون حياتهم الأخرى اليه. ثم ان الأحداث المتسارعة وجلاء بني قينقاع ثم بني النضير في السنوات الأولى من الهجرة لم يتح لليهود فرص الانضواء تحت السلطة السياسية الجديدة في المدينة. وبعد القضاء على بني قريظة إثر غزوة الخندق لم يعد في المدينة غير السلطة الإسلامية الجديدة، مع أنه بقيت أبيات من اليهود لم يغدروا بالمسلمين.

ونجم النفاق، ولكن المنافقين لم يكونوا ليجرؤوا على الخروج عن السلطة الإسلامية اطلاقا.. وكان معظمهم يشاركون في الغزوات -كما رأينا- وهذه أكبر استجابة للسلطة...

---

١) يقول الطبري عن تسابق المسلمين لانفاذ أوامر الرسول ﷺ والمبادرة الى ما يسره : كان مما صنع الله لرسوله أن هذين الحيين _ الأوس والخزرج - عندما قتل الأوسيون كعب بن الأشرف اجتهدت الخزرج في عمل مماثل ، وتشاورت ورأت قتل سلام بن أبي الحقيق في خيبر فاستأذنوا رسول الله ﷺ في ذلك فأذن لهم ٢/٤٩٦

٢) جاء اليهود الى الرسول صلى الله عليه وسلم في رجل وامرأة زنيا ، فحكم عليهما بالرجم ورجما عند طرف المسجد . انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٢/١٨٨

وأما الشؤون الخارجية فلم تعرف المدينة قبل الإسلام تنظيمات سياسية تعالج العلاقات مع الآخرين على نحو ماعرفته بعد أن دخل اليها الاسلام..

وكما رأينا، لم تُنشىء يثربُ مملكةً لها علاقات خارجية، وعندما وصل اليها اليهود تقوقعوا على أنفسهم في أحيائهم التي بنوها، ولا نعرف لهم صلات خارجية تذكر، اللهم الا زياراتهم وتجاراتهم مع اليهود الآخرين في تيماء وفدك ووادي القرى. ولانجد في تاريخهم تحالفات أو سفارات تصدر عن كيان سياسي منظم....

وعندما وصل الأوس والخزرج تحالفوا معهم حلف جوار ومعايشة ثم استعلوا عليهم. ولئن صح أن (الفطيون) كان ملكهم فاننا لانعرف هل كان له كيان سياسي على شاكلة ملوك حمير وسبأ وتدمر، أم كان مجرد زعيم لطائفة غالبة على يثرب... وليس له امتدادات خارجية تذكر، وان كان السياق التاريخي يرجح الاحتمال الثاني، ولكن زوال السلطان السياسي الداخلي لليهود بقتل ملكهم وعدد من ساداتهم يدل على محدودية النظام والسلطة آنئذ...

كذلك لم يؤد اجتماع الأوس والخزرج على مالك بن عجلان بعد أن كسروا شوكة اليهود إلى بناء كيان سياسي ذي علاقات خارجية واضحة، بل كان الكيان العشائري هو السائد.. وسرعان مادب الشقاق بين القبيلتين الأختين، فضاعت آخر فرص انشاء كيان وسلطة سياسية. وعندما اشتدت الفتنة ووقعت الحروب بين القبيلتين راح كل منهما يلتمس الأحلاف داخل المدينة وخارجها، فنقرأ أن الأوس حالفت بني قريظة وبني النضير، والخزرج حالفت بين

قينقاع، وذهب رؤساء من الأوس لمحالفة قريش(١) وقامت محالفات محدودة مع قبائل مجاورة على هذه الشاكلة، فلم تكن ليثرب شخصية موحدة تقيم على أساسها العلاقات الخارجية والمحالفات.

وعندما جاء الرسول ﷺ وأمر بكتابة وثيقة المعاهدة بين أهل المدينة بعامة المسلمين واليهود والمشركين، كانت الوثيقة أول تجميع لليثربين في شخصية قوية موحدة، وكان مظهر تلك الوحدة هي النصوص التي تبين أن أهل يثرب يد واحدة على من سواهم، يتناصرون في الدفاع عن المدينة، ويتفقون جميعا في ذلك، كما أنهم يد واحدة على من أراد فتنة داخل المدينة...

ومنذ السنة الثانية للهجرة خرج رسول الله ﷺ الى الأبواء فوادعته القبائل فيها، أي حالفته وعاهدته على عدم الاعتداء، ورغم أن المسلمين لم يكونوا وحدهم في المدينة آنئذ فان مفعول المعاهدة كان يشمل المدينة بكل من فيها، لذا لم تشهد المدينة غارة من تلك القبائل.....

واستمر الحال على هذه الشاكلة، كانت القبيلة توادع رسول الله ﷺ باعتباره رئيسا للكيان السياسي الكبير الذي يمثله المسلمون، وينضوي تحته كل من سكن المدينة وكل ما وصل اليه نفوذ المسلمين، ومن حالفهم، ويبدو هذا الأمر واضحا في معاهدة الحديبية مع قريش، فقد ورد في أحد بنودها نص يتيح للقبائل أن تختار التحالف مع المسلمين أو قريش، فاختارت خزاعة التحالف مع المسلمين، واختار بنو بكر التحالف مع قريش.. وعندما اعتدت بنو بكر على خزاعة أعانتها قريش بالسلاح ، فاعتبر المسلمون ذلك عدوانا عليهم، وأحس القرشيون بخطورة ما فعلوه، وسعى أبو سفيان للاعتذار وتجديد العهد، ولكنه أخفق، وسار الجيش الاسلامي انتقاما لخزاعة وكان فتح مكة ومعاقبة بني بكر.

وقد بلغ الكيان السياسي للمسلمين ذروته آنئذ.. وغدت المدينة المنورة

---

١) ابن هشام ٢/٧٦.

عاصمة لذلك الكيان، فتسابقت اليها وفود القبائل معلنة اسلامها. فتصبح بذلك امتداداً للكيان السياسي المتنامي، أو حليفة لذلك الكيان، أو مسلمة له بالسيادة تدفع الجزية ، كنصارى نجران..

ومع نمو الكيان السياسي للمسلمين كانت التجمعات الخارجية تشكل بعض الخطر على هذا الكيان، وقد أمسك رسول الله ﷺ زمام القيادة دائما، فكان يضرب تلك التجمعات ضربات وقائية أول ما يسمع بخبرها، وقبل أن تتكامل قوتها، فقد توجه إلى غطفان عندما سمع أنها تعد لغزو المدينة، وتوجه إلى بني المصطلق وبادرهم بضربة وقائية، وكان التهديد الآخير متمثلا في اليهود خارج المدينة بعد أن جلا أوقُتل من بداخلها، وهم يهود خيبر وفدك ووادي القرى. وقد سارع رسول الله ﷺ إلى كسر شوكتهم.... وكان توجهه إلى خيبر مثار اهتمام القبائل، وبالذات قريش، لأن يهود خيبر كانوا أشداء، وفيها عشرة آلاف مقاتل، وهي حليفة لغطفان..... ويروي الطبري أن قريشاً عندما سمعت بخروج المسلمين إلى خيبر، وكانت في معاهدة الحديبية، توقعت هزيمة المسلمين، وكان رجال من قريش يخرجون إلى ظاهر مكة ينتظرون الأخبار على أحر من الجمر(١).

وكانت رسائل رسول الله ﷺ الى الملوك في أطراف الجزيرة العربية وخارجها إعلاناً واضحاً عن تكامل البنيان السياسي للدولة الاسلامية.. هذا الكيان الذي يبدأ بعبارة واضحة في الوثيقة التي أمر بكتابتها رسول الله ﷺ بعد وصوله الى المدينة، والتي تقول: إن المسلمين أمة واحدة.....

وقد تولى رسول الله ﷺ قيادة هذا الكيان السياسي ونظم أموره العسكرية والاقتصادية والاجتماعية. فكان يعقد الألوية ويرسل السرايا ويقود بنفسه الغزوات وبعض السرايا، وقد بلغ عدد سراياه ستين سرية، وفي

---

١ الطبري ١٨/٣.

رواية سبعين، وبلغ عدد غزواته سبعاً وعشرين غزوة(١)،

وكان يعين القادة والولاة ورؤساء القبائل بعد إسلامها، فإما أن يقر من عليها أو يعين شخصاً جديداً.. وقد عين بنفسه جميع قادة السرايا التي لم يذهب فيها، وعين من يدير شؤون المدينة عندما يخرج منها... وعندما جاءه زيد الخيل وافداً من قبيلة طيء وأسلم أعطاه كتاباً يعيّنه فيه رئيساً للقبيلة. وعندما جاء وفد الطائف وأعلنوا إسلامهم اختار أصغر أفراد الوفد وعينه أميراً على قومه، ولم يكن أميراً من قبل ، ولكنه تفرس فيه النجابة لما رآى حرصه على التفقه في الدين.... وأرسل علياً الى اليمن.. وأرسل من يجبي الزكاة من القبائل المتفرقة....

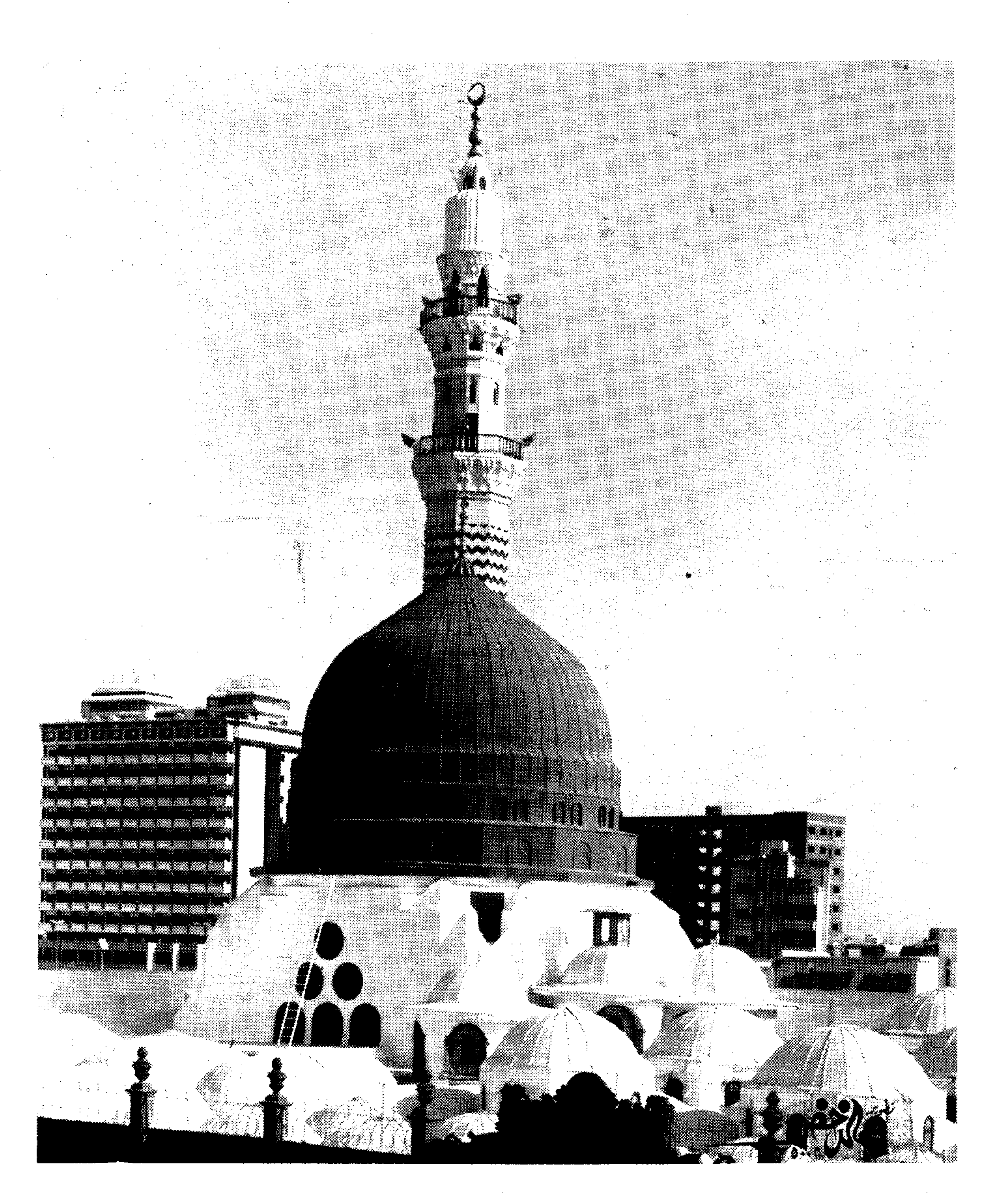
وكان رسول الله ﷺ يستشير صحابته في كثير من أمور السيادة التي يتصرف فيها القائد عادة، مع أنه مؤيد بوحي الله، ولكن ليشيع الشورى بينهم تطبيقا للآية الكريمة (وأمرهم شورى بينهم) فقد دعاهم للشورى في غزوة بدر، واستشارهم في وضع الأسرى، واستشارهم في الخروج يوم أحد، وكذا يوم الخندق.. وكان في حالات كثيرة يقول: اشيروا علي أيها الناس، وكان يأخذ برأي أصحابه إلا ما يلهمه الله خلاف رأيهم، ويرى بفراسته أبعد مما يرون، كما حدث يوم الحديبية حيث كان رأي الصحابة عدم تأجيل العمرة إلى العام التالي كما طلبت قريش، وعدم الاستجابة لطلبها بتسليم من يأتي من المشركين مسلماً ويطلبه ذووه.. ولكنه ﷺ لم يأخذ برأي الصحابة ، ووافق على طلبات قريش.. وأثبتت الأيام صحة مااختاره ﷺ .. فهو اختيار النبوة...

لقد أصبحت المدينة المنورة، ولأول مرة في تاريخها، كياناً سياسياً متكاملاً وقوياً بفضل الاسلام، وتحولت من مدينة صغيرة في زاوية التاريخ إلى مركز لصنع الأحداث والقرارات، بل ولصنع التاريخ نفسه، فهي عاصمة الدولة

---

١) أبو الحسن الندوي السيرة النبوية ص ٢٤٧.

الاسلامية التي أنشأها رسول الله ﷺ، تقصدها الوفود، وتعقد معها المعاهدات، وتخرج منها السرايا والجيوش لتغير خريطة المنطقة، ولتتغير بفضل هذه التغييرات فيما بعد خريطة وأنظمة وعقائد أمم بأكملها.



اقتصاديات المدينة المنورة في عهد النبوة

رأينا أن يثرب كانت مجموعة قرى متجاورة تعتمد على الزراعة في المقام الأول، ثم ما تستفيدة من القوافل العابرة، وعلى شيء من الصناعات الخفيفة أو البسيطة التي كانت أشبه بمصانع محدوده.

وكانت اقتصادياتها تتذبذب وفقاً لتغير الأوضاع الزراعية، فتسوء عند الجدب ويزيدها سوءاً الحروب التي تنشب بين أهلها. وتزدهر في سنوات الخصب والسلام، ونظراً لقلة عدد سكانها فإنها تميل في الغالب إلى الاكتفاء الذاتي أو إلى شيء من الوفرة. وعندما بدأت الهجرة إليها كانت الأحوال الاقتصادية عادية لاتشكو من جدب، وليست في درجة عالية من الثراء والوفرة أيضا. ولاشك أن الزيادة المفاجئة في السكان قد أثرت على اقتصادياتها، خاصة وأن المهاجرين كانوا في الغالب فقراء، أو لم يستطيعوا إخراج أموالهم معهم، كما حدث لصهيب الرومي عندما تنازل عن كل ماله لقريش مقابل أن تتركه يهاجر، وكما حدث لآل عبد الله بن جحش الذين استولى أبو سفيان على دارهم...

وقد استعلت الأخوة الاسلامية على جميع الظروف الاقتصادية، واستضاف الأنصار العائلات المهاجرة وتوزعوها فيما بينهم. ومع أن المهاجرين لم يكونوا أصحاب مهن صناعية، ولم تكن لهم الخبرة بالزراعة -العمل الأساسي لأهل المدينة- فإن معظمهم قد سارع للعمل، فعمل علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المزارع يسقي الماء من الآبار مقابل شيء من التمر. وفي ظني أن عدداً لابأس به من المهاجرين عملوا على شاكلته في المزارع، ومزارع النخل تحتاج إلى أيد عاملة في مواسم معينة، تحتاجها لتأبير النخل ولحرث الأرض وتقليب التربة وتعشيبها، وتحتاجها للسقي والنضح من الآبار بين الحين والآخر ولاسيما في مواسم الصيف، وصيف المدينة طويل، وتحتاجها

عند جني المحصول. لذا فإن الزراعة ستستوعب عدداً من الأيدي العاملة المهاجرة.

ومثلما اتجه بعض المهاجرين إلى المزارع اتجه بعضهم الآخر إلى الأسـواق التجارية، فقد اتجه عبد الرحمن بن عوف إليها ليتاجر فيها، وكان ماهراً في التجارة، استطاع خلال فترة وجيزة أن يجني أرباحا وافرة، حتى إنه تزوج إحدى الأنصاريات وأمهرها وزن نواة من الذهب. وكان سعد بن أبي وقاص يبري السهام ويبيعها في السوق.

وبقدر ما كانت ضيافة الأنصار كريمة تؤثر المهاجرين وتعطيهم بسخاء، كان تعفف المهاجرين كبيراً، فكانوا يأخذون أقل الحاجة، ويجتهدون في العمل والكسب.

وعندما كثر عدد المهاجرين وجه رسول الله ﷺ عدداً منهم إلى السرايا والغزوات. ففي السنة الثانية للهجرة خرجت عدة سرايا تتألف من المهاجرين فقط، وكانت أول غنائم تصل إلى المدينة هي الغنائم التي أحرزتها سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة -طريق التجارة إلى اليمن- حيث غنمت قافلة لقريش. ولم يأخذ رسول الله ﷺ الغنائم أول الأمر، لأن الحادثة وقعت آخر أيام رجب -الشهر الحرام- وعندما نزل الوحي بإجازة مافعلت السرية أخذ الغنائم، وتلتها غنائم بدر فكانت أوفر دخل تحقق للمدينة المنورة حتى ذلك الوقت. ونزلت سورة الأنفال فبيّنت كيفية توزيع الغنائم، وحظي المجاهدون بأربعة أخماسها، وخصص الخمس الآخر للقيادة.. وكما قال رسول الله ﷺ: (ليس لي إلا الخمس، وهو مردود عليكم) أي ينفق عليهم أيضا.

وقد رفعت غنائم الغزوات اقتصاد المدينة وساعدتها على مواكبة الزيادة السكانية فيها، فجاءت غزوة قرقرة الكدر بخمسمئة من الإبل، وغزوة القردة أصابت قافلة لقريش كانت تحمل ثلاثين ألفا من الفضة، وكانت قيمة القافلة مئة ألف درهم.

وكانت غنائم غزوة بني المصطلق ألفي بعير وخمسة آلاف شاة، فضلا عن الأمتعة الشخصية والسلاح. ومع أن الغنائم لم تكن قط هدفا من أهداف الجهاد، فإن عائداتها قد أفادت المسلمين في المدينة ، فأعانتهم على مواجهة الزيادات السكانية.

وفي غزوة حنين وزع رسول الله ﷺ أموالاً طائلة على المؤلفة قلوبهم. وقد بلغ عدد الإبل الموزعة أربعة وعشرين ألفا، والأغنام أكثر من أربعين ألفا، والأموال من الفضة أربعة آلاف أوقية. وبعد أن أعطى المؤلفة قلوبهم أعطى ما بقي لمن اشترك في المعركة، فكان نصيب الراجل أربعة من الإبل وأربعين شاة ، ونصيب الفارس اثنا عشر بعيراً ومائة وعشرين شاة(١)وكان خروج اليهود من المدينة -ولا سيما بنو النضير وبنو قريظة- رافداً لهذا الدخل، فقد غنم المسلمون مساكنهم ومواشيهم وأسلحتهم وما لم يحملوه من متاعهم، فغنموا من بني النضير ثلاثمئة وأربعين سيفاً وخمسين درعاً وخمسين بيضة (خوذة للرأس)، وغنموا مزارعهم وبيوتهم ومواشيهم.(٢) وعندما أراد رسول الله ﷺ توزيع الأراضي والدور، جمع الأنصار، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إياهم في دورهم، وإيثارهم على أنفسهم، ثم قال: إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله علي من بني النضير، وكان المهاجرون على ماهم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم، فتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ فقالا: يارسول الله، بل تقسمه للمهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا، ونادت الأنصار: رضينا وسلمنا يارسول الله فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار... وقسم رسول الله ﷺ ما أفاء الله عليه، وأعطى المهاجرين ولم يعط أحدا من

---

١) المختصر ٣٥٩.

٢) الواقدي ١/٣٧٧.

الأنصار من ذلك الفيء شيئا، إلا رجلين كانا محتاجين هما: سهل بن حنيف وأبو دجانة(١) وكانت الغنائم من بني قريظة ألفاً وخمسمئة سيف وثلاثمئة درع وألفى رمح وألفاً وخمسمئة ترس، فضلا عن الأمتعة والأموال والماشية. وقد قسمت بساتين النخل، وكانت كثيرة فنال منها معظم الأنصار.

غير أن هذه الغنائم لم تكن لتبني ثروات للمسلمين، لأن المسلمين لم يكن هدفهم من الجهاد كسب المال وجمع الثروات من جهة، ومن جهة آخرى لأنهم كانوا يتزايدون في المدينة، فرغم تزايد حجم الغنائم فإن نصيب المجاهد منها لم يكن كبيراً لكثرة عدد المجاهدين، فالذين شاركوا ببدر كانوا ثلاثمئة وأربعة عشر، بينما الذين شاركوا في بني قريظة جاوزوا ثلاثة آلاف، لذا عندما خرج المسلمون إلى غزوة خيبر لم يكن لديهم شيء من الثروة، بل نجد بعضهم يشكو من الجوع، وعندما طال حصار خيبر عدة أيام اشتد بهم الجوع حتى إنهم نحروا الحمير وطبخوها ليأكلوها، فلما علم رسول الله ﷺ أمر بها فاهرقت القدور، وذبحوا بعض خيولهم وأكلوا لحومها إلى أن فتح الله عليهم خيبر(٢).

وكانت السنوات المجدبة تترك آثاراً ثقيلة على المسلمين. ففي غزوة الخندق اجتمع الشتاء القارس وجدب السنة السابقة، فعانى المسلمون من الجوع وربطوا على بطونهم الحجارة... وفي السنة الثامنة عندما جهز رسول الله ﷺ الجيش لغزوة تبوك، كان الناس في ضيق شديد حتى سميت بغزوة العسرة، وكان بعض الصحابة لايجد مايسهم به إلا صاع التمر يأخذه من قوت عياله.. ولكن بعض المسلمين الذين اشتغلوا بالتجارة جمعوا قدراً من المال، وعندما دعا الرسول ﷺ لتجهيز الحملة دفعوا أموالهم بسخاء. فجاء عثمان ابن عفان بألف دينار وصبها في حجر رسول الله ﷺ، وجاء عبد الرحمن بن

---

١) الواقدي ١/٣٧٩.

٢) الواقدي ٢/٦٦١

عوف بنصف ماله وجاء أبو بكر بماله كله...رضي الله عنهم أجمعين.

لقد حققت غنائم الغزوات مكاسب للمسلمين في المدينة. ولكنها لم تكن المكاسب الواسعة التي تصنع الثروات. ثم إن انشغال المسلمين بالغزوات والسرايا المتوالية جعل فرص تثمير الأموال قليلة، وما كان همّ المسلمين قط أن يثمروا الأموال ويتفرغوا للدنيا، إنما كان همهم أن يجدوا مايستعينون به على الجهاد في سبيل الله، وقد كان إنفاقهم على الفقراء والمساكين واليتامى المغنم الأكبر الذي يربحونه.. ولنذكر أن المدينة كان بها عدد كبير من الفقراء، وأن تدافع المسلمين إلى الجهاد والشهادة جعلهم يخلفون نساء وأطفالا في حاجة إلى الإنفاق عليهم، فضلا عن الذين لايستطيعون الكسب لأسباب كثيرة.. وكان المسلمون يتسابقون لذلك. وقد خصص رسول الله ﷺ مكاناً في مسجده للفقراء والمساكين سُمي (الصفة)، وكان عليه السلام يجلس مع أهل الصفة ويؤاكلهم، وكان يفرقهم أحيانا على الصحابة فيأخذ كل منهم واحداً أو أكثر إلى بيته ليتعشى معه ويبيت عنده زيادة في الألفة والمودة... ولقد ضرب المسلمون أروع الأمثلة في هذا الجانب فلم يكن المال همهم قط.. ولم تكن الثروة غاية من غاياتهم.

الزراعـــــة:

إن طبيعة المدينة المنورة تجعل الزراعة مورداً رئيسيا لسكانها، وقد كانت كذلك في الجاهلية، واستمرت عليها في الإسلام. وكان لمعظم أهل المدينة بساتين صغيرة تسقى من آبار حفرها أصحابها، أو من مياه الأودية التي تمر بجانبها، وتنتشر أشجار النخيل في معظم البساتين، فالتمر هو المحصول الرئيسي لسكانها، وهو قوتهم، ومؤونتهم، وطعامهم في الغزوات والسرايا، والسلعة الأولى في تجارتهم مع الآخرين.

وقد لقي النخل في الإسلام عناية وتكريما يزيد عما كان عليه في الجاهلية، فقد شبّه رسول الله ﷺ النخلة بالمسلم لبركتها ومكانتها، ورد

١ - النخيل: الزراعة الأولى في المدينة. وتنتشر مزارع النخيل في كـافة أرجائها،



٢ - بساتين المدينة مصدر انتاج الحبوب والخضار والفواكه لسكان المدينة طوال قرون كثيرة.

في صحيح البخاري: من الشجر شجرة تكون مثل المسلم، وهي النخلة(١)، وعندما وفد المهاجرون إلى المدينة عمل بعضهم في بساتين النخل، وزادوا أغراسها ثم تملكوا بعضها. ولما آلت بساتين بني النضير وبني قريظة للمسلمين استثمروها، وكانت بساتين بني النضير التي في العالية خالصة لرسول الله ﷺ، يعمل فيها غلمانه ويوزع محصولها على زوجاته ليكون طعامهم، وما فضل جعل في الكراع والسلاح. وأما بقية بساتين بني النضير فقد وزعت على المهاجرين واثنين من الأنصار.. كما وزعت بساتين بني قريظة على المهاجرين والأنصار، فوضعوا فيها عبيدهم وعمالهم لانشغالهم بالجهاد. ولما فتحت خيبر و فدك ووادي القرى تركت البساتين والمزارع بأيدي اليهود يعملون فيها ويتقاسمون المحصول مع المسلمين،(٢) وكان رسول الله ﷺ يرسل في وقت جني المحصول من يأتي بحصة المسلمين، وكان عبد الله بن رواحة يجعل المحصول في كومين ثم يخير اليهود أن يأخذوا أيهما شاؤوا.

ولم تكن بساتين المدينة تكفي الأعداد الكبيرة التي قدمت إليها، ويروي ابن عمر رضي الله عنهما أنهم ماشبعوا من التمر إلا بعد أن فتحت خيبر(٣).

ويأتي بعد التمر الشعير. حيث يزرع وسط بساتين النخل أحيانا، وفي حقول مستقلة غالباً. وكان أهل المدينة يحصلون منه على خبزهم، فلم يكن القمح منتشراً، ويروى أن طلحة بن عبد الله التميمي كان أول من زرعه في المدينة(٤) ومالبثت زراعته أن انتشرت في بساتين شمالي المدينة على أطراف

---

١) انظر صحيح البخاري، باب بركة النخلة رقم الحديث ٥٤٤٨، وفتح الباري ٥٧٢/٩

٢) أنظر صحيح البخاري، كتاب المغازي ، باب ٤٠

٣) أنظر صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، الحديث ٤٢٤٢ و ٤٢٤٣

٤) ابن سعد ٢٢٢/٣.

وادي قناة، ثم بمجمع السيول...

ويأتي بعده العنب. وكانت كروم العنب منتشرة حول وادي العقيق وفي العالية، وكذلك منتجات البستنة من البقول والدباء والبصل والثوم والعدس..... الخ. وقد تأثرت الزراعة بانشغال الصحابة بالجهاد وبتقلبات المناخ، فأعوام القحط جعلتها قليلة المحصول، ومرت أوقات شحت فيها الغلال وجاع الناس وشدوا على بطونهم الحجارة، كما حدث عام الخندق وعام تبوك. وقد أرسل الصحابة من يتجر لهم ويأتيهم بقوافل الغلال من نجد والشام، وجاء بعض التجار النصارى بالقمح فاستقبلتهم المدينة، وباعوا قمحهم واشتروا التمر(١) وقد تحسنت أحوال المزارع عندما صار للمسلمين عبيد وموال يؤثرون العمل في المزرعة، ولكنها لم تكن كافية لتأمين حاجة العدد الكبير المتزايد من الوافدين إلى المدينة للإقامة فيها، فتكفلت قوافل التجار بسد النقص وتأمين الحبوب بالدرجة الأولى...

تربية الماشية:

فضلا عن الزراعة كانت في المدينة أنشطة اقتصادية آخرى منها الرعي، فقد تنامت الثروة الحيوانية في المدينة نتيجة الغنائم المتوالية، وظهرت ثروة جديدة هي أموال الصدقة من الإبل والغنم والخيول المعدة للجهاد.. وقد شجع الرسول ﷺ على اقتناء المواشي المنتجة وركائب الحرب. وكان لهذه المواشي رعاة يأخذون الأجر على رعيها(٢).

---

١) انظر الاصابة ٢/١٠٤.

٢) ابن حجر ٣/٥١٠.

الصناعة:

كانت الصناعة في المدينة المنورة محدودة يعمل فيها اليهود والموالي وقليل من المسلمين الآخرين، ولم يكن الأوسيون والخزرجيون يمتهنونها.. وأهم الصناعات: صناعة الحدادة، التي تنتج سكك الحراثة والسيوف والتروس ورؤس الرماح والنبال والسكاكين وبعض مستلزمات البيوت. ويروى أن خباب بن الأرت كان حداداً، وعندما خرج اليهود من المدينة قلت دكاكين الحدادة، واشترى الناس حاجاتهم من تلك الأدوات من القوافل التجارية القادمة من الشام واليمن. لذلك عندما فتحت خيبر وأسر المسلمون ثلاثين حداداً استبقاهم الرسول ﷺ بين المسلمين للانتفاع بصناعتهم وبخاصة صناعة الأسلحة (١) كذلك كانت صياغة الحلي مزدهرة في السنتين الأوليين من الهجرة، فلما نزح بنو قينقاع ضعفت إلى درجة كبيرة، ولمّا خرج بنو النضير وقتل بنو قريظة لم يبق من دكاكين الصياغة إلا ماندر..

إلى جانب ذلك كان في المدينة حياكة النسيج وصباغة بعض المنسوجات، وكانت النساء تقوم بها. وقد أهدت إحدى الأنصاريات لرسول الله ﷺ بردة نسجتها بيدها فقبلها منها(٢)وكان في المدينة أيضا النجارون والبناؤون والخياطون الذين يسدون حاجة أهل المدينة، كما وجدت صناعات يدوية بسيطة كصناعة السلال والحصر.. ويروى أن سلمان الفارسي كان يصنع الخوص ليأكل من كسب يده(٣).

إضافة إلى تلك الصناعات البسيطة كان في المدينة مهن آخرى مثل الجزارة والخرازة والسقاية يعمل فيها الموالي والعبيد، وقد عمل بالسقاية والخرازة بعض المهاجرين عند قدومهم إلى المدينة.

---

١) انظر التراتيب الادارية٢/٧٤.

٢) فتح الباري ٤/١٤٣.

٣) انظر التراتيب الادارية ٦٣.

التجـــــارة:

أما التجارة فكانت عاملاً اقتصاديا نشطاً في المدينة، وخاصة بعد أن قدم إليها المهاجرون من مكة، وكان لبعضهم مهارات فائقة فيها، كأبي بكر الصديق وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص وطلحة بن عبيد الله وآخرين، وقد أسهم المهاجرون في العمل التجاري، وكانوا يتاجرون في سوق المدينة بأنواع من الثياب أول الأمر، ثم ثمّروا أموالهم في قوافل تجارية من الشام واليمن، ويروى أن قافلة كانت لعثمان بن عفان بلغت مائتي بعير تبرع بها للجهاد (١)وكان لليهود في السنوات الأولى من الهجرة أثر مهم في التجارة، وكانوا يستوردون سلعاً كثيرة ويبيعونها في سوق بني قينقاع وفي بعض آطام بني النضير وبني قريظة... فلما جلا بنو قينقاع اضطربت السوق أول الأمر.. ولكن وجود المهاجرين ذوي الخبرة العالية بالتجارة سد الفراغ الذي أحدثوه بسرعة.

وعندما خرج بنو النضير وبنو قريظة لم يحدث أي خلل في السوق التجاري لأن المسلمين كانوا قد أمسكوا زمام الأمور وصارت لهم سوقهم الخاصة.

الأسـواق التجـارية في المدينة المنورة:

كانت الأسواق التجارية بيد اليهود، أو كان معظمها كذلك قبل الهجرة، وكان أضخم أسواقها وأكثرها أهمية سوق بني قينقاع... وقد رغب رسول الله ﷺ في أن يجعل للمسلمين سوقاً خاصة بهم، وكره أن يجعل سوق

---

١) المختصر٣٩١.

المسلمين في موقع سوق بني قينقاع بعد إجلائهم(١) فاختار منطقة تقع غربي المسجد النبوي وتمتد من الشمال إلى الجنوب يقدر طولها بخمسمئة متر تقريبا وعرضها أكثر من مئة متر. وفي بعض الأخبار أن أحد الصحابة أشار على رسول الله ﷺ بمكان قريب من هذا أول الأمر، فاختاره، وضربت فيه خيمة، وكان جزء من ذلك الموقع لكعب بن الأشرف اليهودي، فجاء كعب وقطع أطناب الخيمة.. فلم يتعرض له رسول الله ﷺ بل قال: لاجرم، لأنقلنها إلى موضع هو أغيظ له من هذا . ثم انتقل إلى المنطقة التي تسمى الأن بالمناخة ، وضرب بقدمه الأرض وقال: هذه سوقكم ، فلا ينقص منه ولا يضربن عليه خراج (٢) وكانت بعض الأراضي المجاورة لبني ساعدة فيها مقابرهم ، فسألهم رسول الله ﷺ أن يتنازلوا عنها للسوق ففعلوا، فازدادت مساحة السوق وصارت تكفي أهل المدينة والوافدين إليها من الجوار، والقوافل القادمة من الجهات البعيدة.

ولاشك أن جعل السوق مجانية لكل من يريد التجارة يشجع التجار على المجيء إليها، خاصة وأن نظام السوق يجعلها غير مملوكة لأحد. فلا يجوز البناء فيها، ويروى أن رسول الله ﷺ مر بالسوق فوجد خيمة قد ثبتت فقال: ماهذه الخيمة. فقالوا: هي لرجل من بني الحارثة يبيع فيها التمر، فقال: حرقوها، فحرقت(٣) والمواضع لمن سبق إليها كل يوم، فيأتي التاجر ببضاعته فينزلها في الموضع الذي يجده فارغا ويبقى في تجارته إلى الليل ثم يحمل ما يبقى منها إلى مأواه ليعود في اليوم التالي.

وهكذا تكون السوق متحركة، يستطيع أي فرد أن يأتي بما لديه ويفرش بساطه ويبيع ويشتري، ولا يستطيع أحد احتكار الموقع أو البضاعة.

---

١) وفاء الوفاء ٧٤٧/٢.

٢) وفاء الوفاء ٧٤٨/٢.

٣) السمهودي ٧٤٩/٢.

ولا شك أن اختيار موقع السوق في أرض فضاء بعيدة عن السكن تعطي التجار القادمين وإبلهم فرصة أكبر للحركة، وتحفظ البيوت من ضوضاء البيع والشراء وجلبة السوق وما تسببه المخلفات من روائح مؤذية أحيانا...

وكان رسول الله ﷺ يتفقد السوق بين الحين والآخر، ويمر على التجار، ويروي أبو هريرة أنه ﷺ مر على صرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً، فقال ماهذا ياصاحب الطعام، قال: أصابته السماء يارسول الله. قال: أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غشنا فليس منا(١) وكان يفد إلى السوق تجار من خارج المدينة، من الشام واليمن ونجد يحملون إليه سلعا متنوعة، فيحمل تجار الشام الزيت والبر والشعير والتين والقماش والدقيق والسمن والعسل. وقد يأتي تجار من مكة ليشتروا التمر ويحضروا بعض ما يصلهم من بضائع الصين والهند كالطيب والبرود والعمائم والأواني المنزلية...

ونظراً لانشغال المسلمين في المدينة بالجهاد فلم يكن أحد منهم يسافر إلى التجارة في الآفاق، كما كان أهل مكة يفعلون، إلا في القليل النادر ، بل كانوا يوظفون أموالهم في التجارة.

وقد ذكر أن أبا معلق الأنصاري كان يسافر بمال له ولغيره يتاجر في الشام وفارس(٢)وكان قسم من السوق مخصصاً لبيع المواشي فكان بنو سليم يجلبون إليه الإبل والخيل والغنم والسمن.. وكانت بعض النساء تبيع فيه السمن والصوف والعطور والقماش....

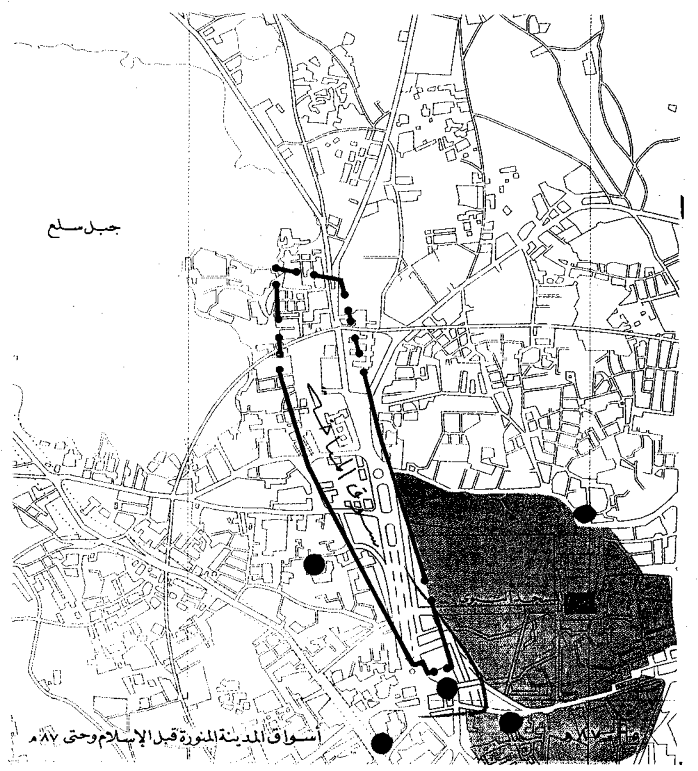
ولاشك أن التشريعات الإسلامية العظيمة للمعاملات بعامة قد جعلت الاقتصاد ينمو في اتجاه صحيح ونظيف. ولئن كانت فترة السنوات العشر الأولى من الهجرة مليئة بالغزوات والحروب وبعض سنوات القحط والجفاف،

---

١) صحيح مسلم ١١/٢.

٢) فتح الباري ١٨٢/٤.

فإنها رغم ذلك كله قد صنعت ركائز اقتصادية جديدة للمدينة المنورة، أساسها التعامل الإنساني الشريف الذي لايستغل فيه الإنسان إنساناً آخر ولا يغشه ولا يكذب عليه ولا يروج تجارته بحلف كاذب، ولا يسلط ذو الوفرة سيف الربا على الذين لايجدون سيولة مالية.. لذا فقد عرفت المدينة المنورة في تلك السنوات العشر بداية لأعظم نظام اقتصادي عرفه البشر، نظام يخدم المجتمع لافئة قليلة، ويساعد المجّد النشيط أن يبني ثروة نظيفة بشرف وأمانة..



أسواق المدينة في العهد النبـوي وتضم الأسواق التي كـانت قائمـة قبل الإسلام وسوق المناخة وهو السوق الطويل

السكان والعمران

أ ـ السكان:

رأينا أن يثرب في آخر عهدها بالجاهلية كانت قرية كبيرة تضم ثلاث فئات من السكان هم: فئة اليهود، وفئة الأوس والخزرج، وفئة بقايا قبائل آخرى أو بطون قبائل هاجرت إلى المدينة ووالت إحدى الفئتين السابقتين..

ولانملك إحصاءاً دقيقاً أو قريباً من الدقة لعدد السكان، غير أن بعض الروايات تذكر عدداً تقريبيا تستنتجه من إشارات متفرقة لعدد المقاتلين والحصون.. هذا العدد هو ثلاثة آلاف، ينتشرون على مساحات طويلة ممتدة ومتفرقة، بحيث تجتمع مساكن كل قبيلة أو بطن قبيلة في منطقة معينة تفصلها عن جوارها بعض البساتين أو الحرار أو الأرض الفضاء، فقد كانت يثرب مجموعة قرى متقاربة لاقرية واحدة، ولكنها بمجموعها تشكل قرية كبيرة أو مدينة صغيرة.

وعندما بدأ المسلمون يهاجرون كانت الحرب المدمرة بين الأوس والخزرج قد توقفت، ولكن آثارها مازالت في النفوس، حتى كان الأوسي لايأمن أن يدخل دار الخزرجي، والخزرجي يخاف أن يدخل دار الأوسي، مالم تكن بينهما قرابة أو صداقة، وطالت هذه الآثار وامتدت إلى مابعد مجيء رسول الله ﷺ بفترة وجيزة. وتروي الأخبار أن رسول الله ﷺ كان نازلا في حي الخزرج، فسأل عن سعد بن زرارة (من الأوس) فجاء سعد إلى النبي ﷺ متقنعا، وبات عنده حتى أصبح، ثم غدا، فقال رسول الله ﷺ لسعد بن خيثمة ورفاعة وميسرة ابني عبدالمنذر: أجيروه قالوا: أنت يارسول الله فأجره، فجوارنا في جوارك. فقال رسول الله ﷺ: يجيره بعضكم، فقال سعد بن خيثمة: هو في جواري. ثم ذهب سعد بن خثيمة إلى سعد بن زرارة في

بيته فجاء به مخاصرة يده في يده(١) وهذه الحالة من التوتر تبطىء الاندماج السكاني بين أهل المدينة، فضلا عن اليهود الذين كانت لهم صداقات مع الأوس والخزرج، ولكن لم يحدث أن اندمجوا بهم.

وعندما بدأ المهاجرون يتوافدون بدت الزيادة السكانية بسيطة أول الأمر، فقد استوعبها الأنصار في بيوتهم، فالمجموعات الأولى التي وصلت خلال الشهرين الأولين من بدء الهجرة لاتتجاوز خمسين عائلة، وعندما وصل رسول الله ﷺ وآخى بين المهاجرين والأنصار كان عدد المتآخين تسعين أو مئة من الطرفين. ولكن مالبث المسلمون أن بدءوا يندمجون بالتزاوج، فتزوج كل من أبي بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف من الأنصار بعد مدة وجيزة من وصولهم إلى المدينة، و شاع التزاوج بعد ذلك بين المهاجرين والأنصار وبالاتجاهين.

وخلال الفترة الممتدة مابين غزوة بدر وصلح الحديبية، أي من نهاية السنة الثانية إلى منتصف السنة الثامنة، شهدت المدينة حركات مد وجزر متوالية في السكان، كانت محصلتها النهائية تضاعف عدد سكانها ومساكنها أضعافا عدة.. فقد ازداد عدد المهاجرين إلى المدينة، إذ كان الذين يسلمون يرحلون إلى المدينة ليتخلصوا من اضطهاد المشركين، وليعيشوا في بيئة إسلامية يستطيعون أن يمارسوا فيها عباداتهم بحرية، وكان رسول الله ﷺ يشجع الهجرة قبل الفتح ليدخل المسلمون الجدد - ومعظمهم من الضعفاء - في حماية إخوانهم المسلمين.

ونزلت الآيات في سورة الأنفال تبرىء الرسول ﷺ من مسؤلية الذين يسلمون ويظلون في ديار المشركين المحاربين ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا

---

١) وفاء الوفاء ١/٢٥٠.

مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا)(١) ولم تُعف الآيات من المسؤلية المستضعفين الذين يبقون في ديار الشرك، وهم قادرون على تركها، فهؤلاء يظلمون أنفسهم (إنّ الذين توفاهم الملائكةُ ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم، قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا)(٢).

ولم تقتصر الهجرة على أهل مكة، فقد هاجر عدد من الذين أسلموا في القبائل إلى المدينة، فجاء أبو هريرة مع جماعة من رهطه، وكان رسول الله ﷺ في خيبر فلحقه إليها ثم عاد معه وأقام في المدينة، وكان كثير من أهل الصفة من القبائل والبادية(٣)، وكان عدد من المقيمين في أطراف المدينة وبعيدا عنها يرغبون في صحبة النبي ﷺ وملازمته والجهاد معه فيقدمون إلى المدينة ويقيمون معه كما فعل أبو ذر الغفاري..

وبالمقابل شهدت المدينة تناقصا متواليا في عدد اليهود الذين كانوا فيها، خرجت قبيلة قينقاع في السنة الثالثة، وكان عدد رجالهم كما قال عبد الله بن أبي في شفاعته بهم عند رسول الله ﷺ سبعمائة رجل.. وهذا يعني أن عددهم الكلي يبلغ ما بين ألفين إلى ألفين وخمسمئة فرد. ثم أُخرجت قبيلة بني النضير في السنة الرابعة للهجرة، وكان عددهم يقارب عدد بني قينقاع . وفي السنة الخامسة للهجرة قُتل مقاتلو بني قريظة ، ويقدر ابن كثير عددهم ما بين ستمئة وسبعمئة. أي أن عددهم مع ذراريهم كان قريبا من عدد بني النضير وبني قينقاع أيضاً، وبذلك يكون مجموع اليهود الذين أفُرغت منهم المدينة ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف....

---

١) الأنفال ٧٢.

٢) النساء ٩٨.

٣) كأبي موسى الأشعري ورهطه وأبي ذر الغفاري...

غير أن هذا التفريغ السكاني كان أقل بكثير من الزيادة التي طرأت على المدينة بعد أن أقبل عليها المسلمون من مكة والأرياف وأقاموا فيها لصحبة رسول الله ﷺ وللإسهام في الغزوات والسرايا.... وفضلاً عن هؤلاء، كانت زيادات طارئة مؤقتة تأتي من البادية وتقيم لبعض الوقت في المدينة، ثم تعود إلى موطنها الأول، ذلك أن سكان البادية الذين اهتدوا للإسلام وجاؤوا إلى المدينة يسألون عنه، كانوا يستوخمون مناخها، وقد أورد المؤرخون أخباراً عن عدد من الوفود الكبيرة والصغيرة والأفراد الذين جاؤوا من البادية، ومنهم رهط من عكل ورهط من مزينة جاؤو إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يارسول الله إنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، وإنا استوخمنا المدينة ، فأمر لهم النبي ﷺ بزود وراع وأمرهم أن يخرجوا منها(١)وظلت المدينة تستقبل الوافدين إليها بعد صلح الحديبية فكان الذين يسلمون يهاجرون إليها كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وعندما فتح الله على المسلمين أوقف رسول الله ﷺ أمر الهجرة (لاهجرة بعد الفتح) أي لم يعد مطلوبا من الذين أسلموا أن يهاجروا، لأن الشرك اندحر في معظم الجزيرة العربية، ولم يعد المسلمون في أية بقعة منها يخشون اضطهاداً، وقد عمل رسول الله ﷺ على تخفيف الهجرة إلى المدينة مع تباشير الفتح، فيذكر الواقدي أن الصحابي بريدة بن الحصيب جاء بقبيلة أسلم إلى رسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى فتح مكة فقال: يارسول الله هذه أسلم، وهذه محالها، وقد هاجر إليك من هاجر منها وبقي قوم منهم في مواشيهم ومعاشهم. فقال رسول الله ﷺ: أنتم مهاجرون حيث كنتم(٢) غير أنه ﷺ لم يمنع أحدا من الإقامة في المدينة بعد الفتح ، فقد جاءها أبو سفيان وأقام فيها بعد إسلامه، وجاء عدد من أهل مكة بعد الفتح ليلازموا رسول الله ﷺ فظلت أعداد السكان في ازدياد. ويقدر الشيخ أبو الحسن

---

١) انظر جامع البيان ٢٠٦/٦ - ٢٠٧.

٢) الواقدي ٧٨٢/٢.

الندوي عدد سكان المدينة عند وفاة الرسول ﷺ بثلاثين ألفاً. (١) واعتقد أن هذا العدد يدخل فيه بطون القبائل التي كانت تسكن في جوار المدينة وتشارك في الغزوات، وقد شاركت في غزوة تبوك وفتح مكة وحجة الوداع، وكانت في الغالب تمكث قرب المدينة مدة ثم تعود بعد انتهاء مشاركتها إلى مواطنها الأصلية. وكانت مواطنها في واحات وقرى منتشرة بين المدينة وينبع جنوبا وغربا وبعض الأماكنِ شمالي المدينة، وكانوا يفضلون العودة إليها لنقاء هوائها....

ومما يدل على أن الوافدين إلى المدينة كثروا حتى فاقوا عدد السكان الأصليين وصية رسول الله ﷺ بالأنصار قبل وفاته، ففي مرضه الذي توفي فيه خرج يوماً إلى المسجد واستغفر لأهل أحد وذكر من أمرهم ماذكر وقال: يامعشر المهاجرين، استوصوا بالأنصار خيراً، فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لاتزيد، وإنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم(٢).

وعندما وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة ميز المسلمين عن سواهم من سكان المدينة بأمور عدة، أولها: بناء مسجد جامع يلتقون فيه جميعا، ويظهر فيه كيانهم الموحد، الذي يستعلي على الكيانات العشائرية والطبقية والمالية، هذا الكيان هو المسجد النبوي، فالمسلمون في صلواتهم وجلساتهم ولقائهم وحدة متماسكة. وقد تعززت هذه الوحدة بالمؤاخاة التي أجراها الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وكانت المؤاخاة أول الأمر تتجاوز جانب العواطف والمشاعر إلى القرابة الحميمة التي يرث فيها الأخ أخاه.. وقد نُسخ التوارث بين المتآخين بعد ذلك.. وظلت الروابط المعنوية كبيرة....

---

١) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص١٣٣.

٢) ابن هشام ٤/٣٠٠.

أما غير المسلمين، اليهود والذين لم يسلموا بعد من أهل يثرب، فقد أقامت المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ نوعاً من التحالف معهم، يلتزم كل فريق فيه بعدم الاعتداء على الفريق الآخر، وبالدفاع عنه إذا تعرض لخطر خارجي. وبذلك يصبح سكان المدينة في حالات معينة وحدة اجتماعية متماسكة.. وهي حالات الخطر الخارجي وتهديد المدينة.. وأما في غير هذه الحالات فالمسلمون وحدة متميزة تتعامل مع اليهود وغير المسلمين وفق قواعد التعامل التي قررها الإسلام آنئذ. وقد أبقى الرسول ﷺ على التقسيمات القبلية للمسلمين وغير المسلمين، وتعامل مع تلك التقسيمات في حالات الحرب والسلم تعاملاً يستفيد من إيجابياتها ويتجنب سلبياتها أو يواجهها ويلغيها.. ونجد في المعاهدة التي كتبت بين أهل المدينة بعامة ذكراً وافيا لأسماء القبائل وبطونها.. سواءً كانت مسلمة أو مشركة أو يهودية...

أما القبائل اليهودية فقد ذكرت باسماء مواليها حيناً (يهود بن عوف، يهود بني النجار، يهود بني الحارث، يهود بني ساعدة، ويهود بني خِشم) وذكرت باسماء قبائلها حينا آخر (وإن لبني الشطية مثل ماليهود بني عوف) وذكر القبائل مفردة على هذا النحو يجعل معاهدة كل قبيلة منها على حدة، ولو كان نص المعاهدة واحداً..

ولهذا التقسيم القبلي فوائد جمة للمسلمين منها: إبقاء اليهود في مجموعات منقسمة وعدم جمعهم صفاً واحداً على المسلمين... وإذا نقضت قبيلة العهد لم يسرِ النقض على القبائل الأُخرى، وعاقبها المسلمون منفردة.. وهذا يستفيد منه اليهود أيضا، بأنهم لايؤخذون بجريرة القبيلة الناكثة ما داموا محافظين على العهد....

وأما التقسيمات القبلية لغير اليهود، فقد كانت بعض البطون القبلية مسلمة بكاملها، كبني عبد الأشهل، وبني عوف، والمحافظة على كيانها القبلي إنما يأتي في جانب التكافل الاقتصادي والاجتماعي، وقد نصت المعاهدة على

أن أفراد كل قبيلة منها يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

الانتماء القبلـــي:

الترابط القبلي قديم عند العرب، ومن ثمرات هذا الترابط ظهور التكافل بين أفراد القبيلة، ومن المفيد الإبقاء على هذا الترابط في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، ذلك أن الأقربين أولى بالمعروف، وروابط الدم تساعد على مزيد من السخاء..

ولقد حرص رسول الله صلى ﷺ على أن يبني في المدينة مجتمعاً موحداً يتآخى فيه المسلمون، ويتجاوزون القيم العصبية والطبقية والمالية التي كانت سائدة في الجاهلية، وينضوون في تنظيم جديد تحكمه قواعد الأخوة الإسلامية. وكان التقسيم القبلي هو الذي يحكم المجتمع العربي في بيئاته كلها، وكان هذا التقسيم أساساً لنظام الحكم داخل القبيلة والدفاع عن الأفراد والثأر والتكافل الاجتماعي بعامة...

ولهذا النظام إيجابياته وسلبياته، فهو من جهة يربط الفرد بالآخرين داخل القبيلة معتمداً على صلة القرابة، وهي صلة طبيعية ترتبط بمشاعر فطرية عند الإنسان.. لأن الإنسان يميل إلى أهله وأقربائه فطرة.

كما أن هذا النظام يجعل التكافل بين أفراد القبيلة قوياً، يدافع المرء عن قريبه ويقاتل من أجله ويثأر له ويعينه بماله إن احتاج المال..

ولكن لهذا النظام سلبيات مؤذية أيضا، أهمها العصبية العمياء والتي سماها الإسلام: العصبية الجاهلية، ووصفها الرسول ﷺ بـأنها منتنة. وهذه العصبية نوع من (الأنانية الجماعية) تتقوقع فيها كل مجموعة على نفسها وتعتقد بأفضليتها المطلقة على المجموعات الأخرى، فتضعف الروابط بين هذه المجموعات -القبائل أو العشائر أو البطون- وقد تفسد وتتحول إلى صدامات دامية. وقد أنشأت هذه الأنانية الجماعية في العصر الجاهلي سلسلة

من المنافرات بين أبناء القبائل والبطون، وهيأت النفوس للخصومات وأنشأت فيها استعداداً دائما للصدام، وتسببت في حروب طويلة دامية كحروب عبس وذبيان وحروب الأوس والخزرج... وأخطر ما في هذه العصبية النصرة العمياء لابن القبيلة أو العشيرة.. حتى ولو كان باغيا وظالماً للآخرين.. فلايكون للحق أي اعتبار في المناصرة والخصومة. وكذلك الثأر الأعمى من أي فرد في قبيلة الخصم ولو لم يكن له ذنب أو علاقة بالخصومة، فإذا قَتل امرؤ من الأوس مثلاً رجلاً من الخزرج أصبح جميع الأوسيين عرضة للثأر.. وهذا ظلم فادح..

وعندما جاء الرسول ﷺ إلى المدينة حرص على تكوين بيئة جديدة للمسلمين، فنص في وثيقة العهد أن المسلمين (أمة من دون الناس). ولم يكن من السهل ولا من المصلحة أن يلغي الإسلام التنظيمم القبلي، الذي عاشت عليه القبائل أجيالا طويلة لايعلمها إلا الله، بقرار مفاجيء. لذلك عمد إلى حل حكيم عظيم، هو الاستفادة من إيجابيات التنظيم القبلي واستثمارها فيما يخدم الدعوة الإسلامية والبناء الجديد للمجتمع المسلم، ومحاربة سلبياته المؤذية. فأبقى على الانتماءات القبلية وحض على حفظ الأنساب، ولكنه جعل الانتماء إلى الدين مقدما على الانتماء القبلي ومحكما فيه. (لايؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) فإذا تجاوزنا قضية الانتماء وتحكيم القيم والقواعد بقي لنا ماتنشئه الروابط القبلية من تماسك وتكافل وضبط وربط.. وقد استفاد الإسلام من هذه الروابط في الدعوة ونشر الإسلام، فكانت بعض القبائل تدخل جميعها في الإسلام إذا أسلم سيدها، أو أسلم فيها رجل شريف مطاع، وقد دخل بنو عبد الأشهل في الإسلام جميعا عندما أسلم أسيد بن حضير وسعد بن معاذ.. واستفاد في دعم الترابط بين المسلمين والمحافظة عليه، فجعل رسول الله ﷺ لكل قبيلة أو بطن من بطونها مسجدا في منطقتهم يلتقون فيه ويصلون أوقاتهم، وخط لكثير منهم مساجدهم

بنفسه، وحدد لهم القبلة وصلى في بعضها وعين لهم أئمة منهم، وكان مسجد قباء أول مسجد خطه بيده لبني عمرو بن عوف. بعد ذلك خط مسجد بني جهينة وصلى لهم فيه، وخط مسجد بني سلمة، وخط مساجد لكل من بني بياضة وبني الحبلى وبني عطية وبني دينار وبني حارثة وبني ساعدة وبني عبد الأشهل(١) وكان أبناء هذه البطون يصلون معظم أوقاتهم في مساجدهم ويصلون بعض الصلوات مع رسول الله ﷺ.. أما صلاة الجمعة فلم يكونوا يصلونها إلا في المسجد النبوي.

واستفاد في المعارك مع المشركين، فكان تنظيم الجيش حسب القبائل والبطون ولكل قبيلة أو بطن راية أو لواء أو أكثر يلتف حوله المجاهدون من أبناء هذه القبيلة ويعضد بعضهم بعضا. فالتوزيع القبلي نوع من التنظيم من جهة، ووسيلة من وسائل رفع المعنويات من جهة آخرى، لأن وجود عائلات تربطها قرابة العقيدة تزيد من استبسال المجاهدين(٢) وكذلك جباية الزكاة في كل قبيلة تكون على يد أحد أبنائها ما أمكن ذلك، لأنه أدرى بأحوال أهل قبيلته، وتكون مصاريف الزكاة داخل القبيلة نفسها في مصارف الزكاة الشرعية، وما فاض عن القبيلة يرسل إلى المدينة.

ومثلما استفاد من إيجابياتها واجه سلبياتها بحزم، فالعصبية القبلية كانت تنذر قرنها حين يقع الخلاف بين فردين من قبيلتين مختلفتين.. ويتحول الخلاف إلى خصومة وقتال ضار، كما كان يحدث بين الأوس والخزرج في الجاهلية.

وقد حاول اليهود النفاذ إلى صفوف المسلمين وتشتيتهم بهذه الوسيلة، فدسّ (شاسُ بن قيس) في أحد المجالس من يثير العصبية القبلية بين الأوس والخزرج بخبث شديد، ونجحت المؤامرة أول الأمر، وكادت المعركة أن تقع

---

١) انظر: تاريخ المدينة المنورة: ٥٧/١ ، ٦٤ ، ٧٤

٢) انظر: فتح الباري ٤٥٢/١ ٢٧٣/٣ و ٤٤٦.

بين الفريقين الأنصاريين، فتصدى لها الرسول ﷺ وأطفأ الفتنة. وكرر رأس المنافقين عبد الله بن أبي المحاولة بين المهاجرين والأنصار في غزوة بني المصطلق.. فعالج رسول الله ﷺ الأمر بحكمة بالغة وأخمد العصبية الجاهلية..

وهكذا استفاد المسلمون من الروابط القبلية فجعلوها نوعاً من التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والعسكري في السلم والحرب، وتجنبوا سلبياتها التي تؤدي إلى تفتيت المجتمع وتناحر أبنائه.

ب ـ العمـــــران :

تطور العمران في المدينة خلال السنوات العشر بعد الهجرة ليستوعب الزيادة السكانية الكبيرة، وقد ساعد على هذا التطور طبيعة البنية المعمارية ليثرب الجاهلية. فقد كانت متناثرة على شكل مجموعات سكنية، تلتف كل مجموعة حول بعضها ثم تنفصل عن المجموعة الآخرى بجملة بساتين أو حرات أو جبال أو أرض فضاء... وتكون المجموعة الواحدة أحياناً متخلخلة يفصل بين دورها بساتين صغيرة أو كبيرة(١) وقد سمح هذا التخلخل بإقامة مساكن جديدة في الأراضي الخالية وسط المدينة وفي جميع نواحيها..

وقد بدأ التغير في البنية المعمارية للمدينة عندما خط رسول الله ﷺ المسجد النبوي.. وبناه مع الصحابة رضوان الله عليهم، وكان المسجد في منطقة تتوسط المجموعات السكنية المتناثرة وكأنه قلبها، فمن الجنوب العوالي وقباء، ومن الغرب حرة الوبرة، ومن الشمال أحد والجرف، ومن الشرق حرة واقم (الحرة الشرقية)، فموقع المسجد هو موقع قيادة المجتمع الجديد..

وكانت الأرض المحيطة بالمسجد خالية من السكان بعضها خرائب مهملة ليس لها مالك وفيها بقايا نخل، وبعضها الآخر مملوكة لبعض الأنصار، فخط لبعض المهاجرين قطعا ليبنوا عليها مساكنهم (فما كان من عفائن الأرض فإنه

---

١) انظر مصور التوزع السكاني ليثرب قبيل الهجرة.

أقطعهم إياها، وما كان من الخطط المسكونة العامرة فإن الأنصار وهبوها له، فكان يقطع ذلك من يشاء)(١)وقد أقطع ﷺ أبا بكر أرضا غربي المسجد، وأقطع عبد الرحمن بن عوف أرضا شماليه، فبناها عبد الرحمن بن عوف بسرعة ووسعها، وكانت أول دار بناها المهاجرون، ومالبث أن جعلها دار ضيافة ينزل فيها ضيوف رسول الله ﷺ. ويروى أن الرسول ﷺ عمل فيها مع عبد الرحمن بن عوف بيده.(٢) وأقطع عمه العباس بن عبد المطلب أرضاً غربي المسجد أيضا فبناها العباس باللبن والحجارة، وأقطع عبد الله وعيينة ابني مسعود الهذليين أرضاً قرب المسجد أيضاً، وخط أرضا لعثمان بن عفان وجعفر بن أبي طالب، وكانا مهاجرين في الحبشة، فلما عاد عثمان إلى المدينة بناها، وأما جعفر فلم يبنها لأنه وصل بعد عودة المسلمين من خيبر ثم استشهد في مؤتة، واشترى عمر أو عثمان نصف الأرض ليوسع بها داره،(٣) وخط للمقداد بن الأسود أرضا فبناها المقداد وسكنها، وخط لبني زهرة شمالي المسجد أرضا فبنوها وسكنوها(٤) وظل عليه الصلاة والسلام يخط في المنطقة القريبة من المسجد للمهاجرين إلى قرب عام الفتح، فعندما جاء خالد بن الوليد خط له أرضا مما بقي، فبناها ووجدها صغيرة، فشكى صغرها إلى رسول الله ﷺ فوجهه إلى أن يرفعها في السماء (يبني طوابق عليا)(٥)وهكذا ظهرت كتلة معمارية متراصة تتجاور فيها المساكن وتتلاصق وتحيط جميعها بالمسجد النبوي. ولم تمض السنوات العشر حتى امتلأت المنطقة بالمساكن، وامتدت إلى منطقة بني ساعدة شمالا وإلى بداية العوالي

---

١) وفاء الوفاء ٧١٧/٢.

٢) السابق ٧٢٨/٢.

٣) السابق ٧١٨

٤) السابق ٧١٨/٢.

٥) السابق ٧٣٠/٢.

وقباء جنوبا. واتصلت بالبقيع شرقا واقتربت من السوق غربا. إذ كان المسلمون يتسابقون إلى القرب من المسجد.. وقد همّ بنو سلمة أن يتركوا موقعهم غربي جبل سلع وينتقلوا قرب المسجد، فنهاهم رسول الله ﷺ وقال لهم: مساكَنكم تُكتبْ لكم خطواتكم. فبنوا مسجدهم وصاروا يصلون فيه. واشتكى بنو زهرة من دور اشتروها وسكنوها فقالوا: يارسول الله اشترينا ونحن جميع فتفرقنا، وأغنياء فافتقرنا. فقال الرسول ﷺ: اتركوها فهي ذميمة، فتركوها(١)وشكا بعض بني حرام أن مسجدهم يحول بينه وبينهم واد. وكان يسيل بالماء حين ينزل المطر، فقال لهم رسول الله ﷺ: ماعليكم لو تحولتم إلى سفح الجبل -يعني جبل سلع- فتحولوا. فدخلت حرام الشعب وصارت سواد وعبيد إلى السفح(٢)إضافة إلى الكتلة المعمارية حول المسجد، بنيت مساكن في الأراضي الخالية بين المسجد والتجمعات السكنية الآخرى.. وقد بنى المهاجرون عدداً من المساكن هناك وخاصة عندما كانوا يتزوجون، فأبو بكر بنى منزلا في السُنْح وتزوج فيه، وعمر بنى في طرف العوالي، وعبد الرحمن بن عوف بنى منزلاً آخر غير منزله الذي في جانب المسجد. وتواصل البنيان حتى اتصلت قباء بمنطقة المسجد ولم تعد قرية منفصلة عنها، فكان أهل قباء يصلون الجمعة في المسجد النبوي(٣)ورغم هذا الاشتباك فقد بقيت المدينة مفتوحة ليس لها سور يجمع مساكنها خلف جدرانه.. وظلت بعض البساتين تتخلل الدور هنا وهناك.. وظلت منطقة سلع وما بعدها مفصولة أيضا ببعض البساتين عن منطقة المسجد النبوي. كما أن خلخلة أخرى قد حدثت عندما هاجر بنو قينقاع وتركوا دورهم، فسكن المسلمون بعضها وبقي بعضها الآخر مهجوراً. أما دور بني النضير وبني قريظة فكانت متطرفة فلم

---

١) السابق ٧٢٤/٢.

٢) تاريخ المدينه المنوره ٧٨١/١.

٣) انظر مصنف عبد الرزاق ٣٦٣/٥.

يُسكن منها بعد زوالهم إلا القليل، سكنها جيرانهم من بني ظفر وبني عبد الأشهل. ويقدر بعض الباحثين عدد المساكن في العام السادس للهجرة بثمانمائة مسكن(١) ولو أخذنا بالنسبة المتصاعدة لزيادة السكان في المدينة فإن عدد المساكن في السنة العاشرة ينبغي ألا يقل عن ألفين إلى الفين وخمسمئة مسكن، وكل مسكن يضم عائلة يتراوح عدد أفرادها بين خمسة الى عشرة أفراد... وهذه الأعداد تخمينية وليست دقيقة..

نخرج من ذلك كله إلى أن تغيراً قد حدث في السكان والعمران، فقد تضاعفت المدينة سكانا ومساكن عدة أضعاف، وظهرت كتلة المسجد النبوي وما حولها من المساكن، فصارت مركز المدينة وقلبها.. ولم تعد الامتدادات العمرانية تبعد أبعد مما كانت عليه.. بل راحت تصل المناطق البعيدة بكتلة المسجد النبوي وتستفيد من الأراضي الخالية بينها.. بينما ظل سوق المدينة على طرفهاالغربي خارج السكن، وتخلخلت مناطق اليهود وفرغت معظمها من سكانها وبالذات مناطق بني قريظة وبني النضير..

---

١) المدينة المنوره، تطورها العمراني ص ١٢.

المدينة المنورة في العهد الراشدي

البحث عن خليفة:

أحس رؤساء الأنصار أن وفاة الرسول ﷺ قد تركت المدينة بلا قائد يوجه أمورها، وأن الساعات القادمة عصيبة، ولابد أن يكون للمسلمين خليفة يحمل المسؤولية، فاجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، وأخذوا يتشاورون من يتولى الأمر، واتجهت العيون إلى سعد بن عبادة، وكان فيه بقايا مرض ألمَّ به قبل أيام، وكاد الحاضرون أن يبايعوه، فذكر بعضهم غيبة إخوانهم المهاجرين، وأنه لابد من حضورهم، واعترض بعضهم الآخر، واقترح فريق ثالث أن يختار الأنصار أميرهم ويتركوا للمهاجرين أن يختاروا أميراً منهم فيكون للمسلمين أميران، واحد من الأنصار وواحد من المهاجرين، ورفض بعضهم هذا الرأي، فلا يصلح أن يكون للمسلمين أميران.

وبينما الأنصار في مداولاتهم وصل الخبر إلى المهاجرين، ونقله بعضهم إلى عمر بن الخطاب، وكان جالساً قُرب حجرة رسول الله ﷺ في حزن شديد، فلما بلغه خبر اجتماع الأنصار في السقيفة أدرك أن الأمر يقتضي تصرفا سريعا كي لاتحدث فتنة بين المسلمين، فلو بايع الأنصار رجلاً ولم يرضه المهاجرون -وقد أصبحوا أكثرية تفوق الأنصار عدداً- فسوف تضطرب الأمور، فأرسل من ينادي أبا بكر، وكان أبو بكر بجانب جثمان الرسول ﷺ في حجرته، فلم يرد عليه ، فأرسل ثانية وثالثة، فخرج أبوبكر، وحدثه عمر بالأمر وضرورة الإسراع إلى السقيفة، فوافقه أبوبكر ومضيا إلى السقيفة.

وفي الطريق لقيا أبا عبيدة بن الجراح فصحبهما.. وقبل أن يصل الثلاثة إلى السقيفة التقوا برجلين من الأنصار شهدا بدراً هما عويم بن ساعدة ومعن بن عدي، وأشار الأنصاريان عليهم بالرجوع إلى المهاجرين ليصنعوا كما صنع الأنصار، أي أن يختاروا أميراً منهم، فأبى الثلاثة ذلك، وأصروا على الذهاب إلى السقيفة، ودخلوها وقد اجتمع أمر الأنصار على سعد بن عبادة، وقام أحدهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: وأمابعد، فنحن الأنصار وكتيبة

الإسلام، وأنتم يامعشر قريش رهط بيننا، تمتّ إلينا من قومكم دافة.

وهمَّ عمر بن الخطاب أن يقف ليرد على الأنصاري، فأمسكه أبو بكر، وقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله بعث محمدا رسولاً إلى خلقه وشهيداً على أمته، ليعبدوه ويوحدوه، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه، والإيمان به، والمؤاساة له، والصبر معه على شدة أذى قومهم له، وتكذيبهم إياه، وكل الناس لهم مخالف، وزارٍ عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم، وإجماع قومهم عليهم. فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله والرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا يناوئهم ذلك إلا ظالم. وأنتم يا معشر الأنصار مَنْ لا يُنكر فضلهم في الدين، ولاسابقتهم العظيمة للإسلام، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفتانون بمشورة ، ولا نقضي دونكم الأمور.

واعترض الحباب بن المنذر، واقترح أن يكون من المهاجرين أمير ومن الأنصار أمير، فبيّن لهم عمر أن ذلك لايصح. وكاد النقاش أن يحتد ويزيد الخلاف، وتكلم أبوعبيدة فقال: يامعشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من غير وبدل. فقام بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه ـمن سادة الخزرج ـ فقال: يامعشر الأنصار، إنا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذاالدين، فما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك نبتغي به من الدنيا عرضاً، فإن الله ولي المنة علينا بذلك، ألا إن محمدا ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لايراني الله أنازعهم هذا الأمرأبدا، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم. فقال أبو بكر: هذا عمر

وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا. فقال عمر وأبو عبيدة: لاوالله، هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك، أو يتولى هذاالأمر عليك، ابسط يدك لنبايعك.

مبايعة أبي بكر:

أثرت كلمات بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه في الحاضرين، وأَتْبَعَ بشيرُ بن سعد كلامه بالتنفيذ الفوري، فتقدم إلى أبي بكر وأمسك بيده وبايعه، ثم تلاه عمر وأبو عبيدة ثم أُسيد بن حضير، ثم توافد عليه من في المجلس يبايعونه (١)وانفض المجلس وانتشر الخبر في المدينة ببيعة أبي بكر رضي الله عنه خليفة للمسلمين.

وفي اليوم التالي جُهز الرسول ﷺ للدفن، وتوافد الناس إلى حجرته فصلوا عليه فرادى لايؤمهم أحد... حتى إذا فرغوا من حفر قبره الشريف في المكان الذي توفي فيه، ووري جسده الشريف في اللحد، أقبل الناس إلى المسجد يبايعون أبا بكر، حتى إذا فرغوا قام أبو بكر فخطب في الناس مبيّنا موقفه في الخلافة وسياسته، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس: إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني... الخ(٢)

إنفاذ الجيش:

كان أول أمر شغل أبا بكر هو إنفاذ جيش أسامة بن زيد الذي أوصى رسول الله ﷺ قبل موته بإنفاذه، لذا أمر أبو بكر منادياً ينادي في أحياء المدينة وضواحيها: ألا يبقى بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف.. وجاءت الأخبار إلى المدينة، والجيش يتجمع في الجرف،

---

١) الطبري ٣/٢١٨.

٢) انظر نص الخطبة في الكامل ٢/٢٢٤

بأن خبر وفاة الرسول ﷺ قد هز المنطقة كلها، وأن كثيراً من الأعراب حول المدينة قد نافق أو ارتد. وتوالت الأخبار عن ارتداد قبائل بأكملها وأفراد من قبائل أخرى. ولم يبق على بيعة الإسلام إلا المدينة ومكة والطائف.

أحس أهل المدينة بالخطر يحيط بهم من كل جانب، واستشعر بعضهم الشر من الأعراب المنافقين والمرتدين، وأحسوا أنهم لابد أن يهاجموا المدينة قريباً، فمشوا إلى أبي بكر يسألونه أن يوقف إرسال جيش أسامة، وأن يبقيه في المدينة تحسبا ممن حولها من الأعراب والقبائل المرتدة.. فأبى، فقال له الناس إن هؤلاء (الذين في الجيش) جل المسلمين، والعرب على ماترى قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين. فقال أبو بكر: والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني، لأنفذت بعث أسامة كما أمر رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته. فلما رأى أهل المدينة إصراره على إرسال الجيش امتثالا لأمر الرسول ﷺ أطاعوه، وخرج معظم الصحابة إلى المعسكر، وفيهم عمر بن الخطاب. وطلب بعض الصحابة من الخليفة أن يغير الأمير لحداثة سنه (كان ابن ستة عشر عاما)، ولوجود كبار الصحابة في جيشه، فأبى، وخرج ليودع أسامة والجيش، وسار إلى الجرف. وبدأ الجيش المسير فسار معهم أبو بكر مسافة على قدميه، وكان أسامة راكبا فرسه فقال له: ياخليفة رسول الله لتركبن أولأنزلن، فقال والله لاتنزل ووالله لاأركب، وماعلي أن أغبرّ قدمي في سبيل الله ساعة.. ثم وقف وخطب في الجيش وأوصاهم وصية تُعَدُّ مِنْ قواعد السلوك الإسلامي في الحرب فقال: يأيها الناس قفوا أوصكم بعشر، فاحفظوها عني: لاتخونوا، ولاتغلوا، ولاتغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم ومافرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم بآنية

فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها. وستلقون أقواماً مخضوا أوساط رؤسهم وتركوا حولها مثل العصائب. فاخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله(١) ثم ودع أبو بكر أسامة واستأذن في أن يترك له عمر بن الخطاب ليساعده فأذن له.

الخطـر يهدد المديـنة:

عاد أبو بكر إلى المدينة ليجد مزيداً من الأخبار عن ردة القبائل، وأن بعضهم قد ائتمروا على مهاجمة المدينة، وأنهم يجمعون جموعهم لذلك، ولم يكن للمدينة أية حماية، ولم يعد بها بعد أن خرج جيش أسامة إلا عدد قليل من الرجال.

وبعد أيام قليلة تجمعت حشود من بني أسد وغطفان وطيء، وتوزعت حول المدينة واقتربت منها إلى ذي القصة (على مسافة خمسة وثلاثين كيلاً من المدينة) وأرسلت وفداً إلى المدينة ليطلب من أبي بكر إسقاط الزكاة عنهم، وليتحسسوا أمر المدينة أيضا، وجاء الوفد وحاول أن يستخلص من الخليفة ما أرادوه، فأبى أبو بكر بشدة وقال مقالته الشهيرة: لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه. ورجع الوفد وقد رأوا قلة الرجال في المدينة فأخبروا عشائرهم وأطمعوهم فيها. شعر أبو بكر بما في نفوس الوفد ومن خلفه، فسارع إلى تشكيل مجموعات حراسة وحماية، فشكل ست مجموعات، ووضع عليها علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص، وجعلهم على مداخل المدينة، وكلفهم أن يعدوا مراسلا ليخبره بأي جديد.

باتت المدينة تترقب غارة قادمة، وسهرت مجموعات الحماية تحرس المنافذ، ولم يمض يومان حتى عبأت القبائل المحتشدة أفرادها، وانقسمت إلى مجموعتين: مجموعة متقدمة تتحرك ليلا، ومجموعة ترابط خارج المدينة (عند

---

١) الطبري ٣/٢٢٦.

ذو حس) لتكون ردفا للمجموعة الأولى ولتهاجم في الوقت المناسب.

وفي الليلة الثالثة زحفت طلائع القبائل إلى المدينة لتباغت المسلمين، وأحست مجموعات الحماية بهم، فتصدت لهم وأرسلت الخبر إلى أبي بكر، وسارع أبو بكر إلى المسجد، وكان فيه عدد من المسلمين، فخرج بهم على الإبل لقتال الغزاة.. وانكسرت شوكة المهاجمين وأخذوا يتراجعون، فتبعهم المسلمون حتى إذا وصلوا إلى (ذو حس) خرجت المجموعة الثانية من القبائل، وعمدوا إلى حيلة يخيفون بها إبل المسلمين.. إذ نفخوا قربا من الجلد وأخذوا يدحرجونها أمام الإبل، فنفرت إبل المسلمين حتى لم يعد الراكبون عليها يملكون أمرها.. وقفلت راجعة إلى المدينة، وسلم الله المسلمين جميعاً فلم يُصب منهم أحد.

ظن الغزاة أن أمر المسلمين قد تضعضع نتيجة لهذه الغارة، لذا أرسلوا إلى حشودهم في ذي القصة أن يتقدموا إليهم ليهاجموا المدينة معا في الصباح، فتحرك الحشد آخر الليل.

أما المسلمون؛ فبعد أن عادوا إلى المدينة لم يركنوا إلى الراحة، وقام أبو بكر يستنهض الناس آخر الليل للخروج معه، فخرجوا، وساروا في ظلمة الليل متخافتين لايحدثون ضجة، ومع طلائع الفجر فاجأ المسلمون جموع الغزاة واشتدوا عليهم، فما ذر قرن الشمس حتى هزموهم، واستولوا على معظم إبلهم وتبعهوم إلى ذي القصة، فتشتتوا، وكان ذلك أول الفتح(١).

وبعد تشتيت جموع الغزاة وضع أبو بكر حامية بقيادة النعمان بن مقرن المزني رضي الله عنه، وعاد ببقية الرجال إلى المدينة سالمين غانمين. وجاءت الأخبار في الأيام التالية بأن عدداً من القبائل التي ارتدت تهاجم الأفخاذ والأفراد الذين لم يرتدوا وتقتلهم، فصمم أبو بكر على قتال المرتدين والانتقام للمسلمين المغدورين، وأرسل الرسائل إلى من لم يرتد يطلب منهم

---

١) الطبري ٣ /٢٤٦

أن يحشدوا مالديهم من المسلمين لقتال المرتدين، وأن يقاتلوا زعماء الردة إن استطاعوا أو يشاغلوهم إلى أن يعود جيش أسامة، وشدد الحراسة على المدينة وأرسل مجموعات الحماية إلى ماحولها زيادة في الحيطة لضمان سلا مة المدينة ومن فيها.

كان الموقف الذي يواجهه أبو بكر صعباً جداً، فالقبائل المرتدة تحيط بالمدينة، وليس في بيت المال أموال تعين على التعبئة، خاصة بعد أن توقفت القبائل عن إرسال الزكاة..

غير أن هذه الضائقة لم تطل، فقد وصل إلى المدينة بعد أقل من شهرين ثلاثة من أمراء الصدقات صفوان بن صفوان والزبرقان بن بدر وعدي بن حاتم الطائي يحملون زكاة قبائلهم. فاستبشر المسلمون خيراً، وبدأ من في المدينة يتجهز للجهاد، وبعد عشرة أيام وصل جيش أسامة بن زيد يحمل غنائم كسبها المسلمون من أعدائهم، ففرح بهم المسلمون.. وأمر أبو بكر أسامة وجيشه أن يستريح من وعثاء السفر، واستنفر الذين لم يذهبوا مع أسامة للخروج معه، وجاءه علي بن أبي طالب يناشده أن يبقى في المدينة ويستخلف غيره على الجيش، فأبى أبو بكر، وأصر على أن يذهب مع الجيش ويقاتل، واتجه الجيش إلى (ذو القصة) فاصطحب الحامية هناك ومضى إلى الربذة، حيث لقي تجمع المرتدين فقاتلهم قتالاً شديداً، ونصر الله المسلمين، وهربت القبائل المرتدة وخاصة عبس وذبيان، وأعلن أبو بكر أن الربذة حمى لإبل المسلمين وخيولهم، ومنع القبائل من الإقامة فيها، ثم رجع إلى المدينة مكللا بالنصر. فارتفعت الروح المعنوية للمسلمين في المدينة، وازداد إصرارهم على الجهاد والقضاء على الردة وإعادة الجزيرة العربية إلى الإسلام.

مطاردة المرتـــدين في ديارهـــم:

جاءت أموال أخرى إلى المدينة فوزع أبو بكر بعضها على الناس، وخصص البقية لتجهيز المجاهدين لقتال المرتدين، ثم جمع الصحابة الكرام

حروب الردة
أيام أبي بكر الصديق
١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ

- هجوم أبي بكر على عبس وذبيان
- جيش خالد بن الوليد إلى طيئ ثم أسد ثم تميم ثم حنيفة
- جيش عكرمة بن أبي جهل إلى بني حنيفة
- جيش شرحبيل بن حسنة في أثر عكرمة إلى بني حنيفة
- جيش طريفة بن حاجز إلى سليم وهوازن
- جيش عمرو بن العاص إلى قضاعة وودیعة والحارث
- جيش خالد بن سعيد إلى مشارف الشام
- جيش العلاء بن الحضرمي إلى البحرين
- جيش حذيفة بن محصن إلى دبا بعمان
- جيش عرفجة بن هرثمة إلى مهرة
- جيش المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء ثم حضرموت
- جيش سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن

بحر الروم
الإسكندرية
الخليج العربي
القطيف
بوشهر
كاظمة
دبا
صحار
خليج عمان
مسقط
بحر العرب
عدن
البحر الأحمر
الليث

الكتائب التي خرجت من المدينة المنورة للقضاء على الردة في عهد أبي بكر الصديق

رضي الله عنهم وشكل إحدى عشرة فرقة مقاتلة عقد لها أحد عشر لواء، وجعل على كل منها واحداً من الصحابة الأشداء في الجهاد، كخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل والمهاجر بن أمية وخالد بن سعد بن العاص وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة. واكتتب معظم القادرين على الجهاد من أهل المدينة في هذه المجموعات، كما اكتتب فيها عدد ممن رجعوا إلى الإسلام من أطراف المدينة، وتحولت منطقة الجرف إلى معسكر كبير نصبت فيه الألوية، وتوزعت الكتائب، وتجمع المجاهدون استعداداً للرحيل، وكتب أبو بكر لقادة الألوية كتاباً موحداً أوصاهم فيه بتقوى الله والجهاد في سبيله وقتال المرتدين، واشترط عليهم ألايقاتلوا أحداً إلا بعدأن ينذروه ويدعوه إلى العودة عن ردته، فإن تاب ورجع إلى الإسلام أمسكوا عنه، وإلا قاتلوه. وكتب رسائل إلى المرتدين يدعوهم فيها إلى العودة عن غيهم، ويبين لهم ما أمر به قادته، وما يكون حالهم إن تابوا وعادوا عن ردتهم، وما يكون حالهم أيضاً إن رفضوا.

وانطلقت الكتائب الإسلامية في أرض الجزيرة العربية، تستأصل الردة وتقضي على الكفر.. وقد نصرها الله نصراً مؤزراً، فعاد من عاد إلى الدين الحنيف دونما قتال، وأبى عتاة الكفار ورؤس الردة الكبار إلا القتال، فقتل بعضهم كمسيلمة، وهرب بعضهم، كسجاح التي فرت ثم تابت.

وتوغلت الكتائب في الجزيرة فوصلت إلى البحرين وعمان واليمن وقضت على الردة نهائياً، ولم تمض سنة حتى عادت القبائل في الجزيرة العربية كلها إلى دين الله أفواجاً، ونصر الله جنده، واستأثر بالشهادة أكثر من سبعمئة

رجل من المدينة، معظمهم من حفظة القرآن(١).

وبالمقابل وردت إلى المدينة غنائم كثيرة فيها أعداد كبيرة من السبي، وفيها أموال وإبل وأغنام، فكان الخليفة يوزع بعضها على الناس ويمسك بعضها لتجهيز الجيوش.

المدينـة منطلق الفتوح:

ما أن استتب الأمر في الجزيرة العربية حتى أمر الخليفة قادته أن يتوجهوا إلى أطراف الفرس والروم، وأن يبدؤوا الجهاد في العراق والشام، واستنهض الناس فنهضوا، وتوافد أفراد وبطون من القبائل التي عادت إلى الإسلام على المدينة يطلبون من أبي بكر أن يرسلهم إلى الجهاد في سبيل الله ليكفروا عما وقعوا فيه... عادت المدينة معسكراً كبيراً يستقبل المتطوعين... وكان الجرف موقع تجمع المرابطين، حيث يقدم لهم الطعام ويزودون بالسلاح، وكلما تجمع عدد منهم سيرهم أبو بكر مدداً لأحد القادة...

وتوجهت الكتائب المتوالية شمالا، وانتشرت ما بين الشام والعراق.. ووفدت بطون جديدة من أطراف نجد والطائف ونجران واليمن وعمان وحضرموت إلى المدينة حيث انتظمت في كتائب، وتوجهت مدداً تلو المدد إلى خالد بن الوليد، وأبي عبيدة بن الجراح، والقعقاع بن عمرو، وسائر القادة الآخرين ليشاركوا في الفتوح.

وما لبثت الغنائم من فارس والروم أن وصلت إلى المدينة، وكان أولها غنائم وقعة عين التمر التي كان يسيطر عليها الروم، وقد نصر الله الجيش الإسلامي بقيادة خالد بن الوليد، وغنم خالد أموالاً كثيرة، فعزل الخمس وأرسله إلى المدينة، فوزع أبو بكر الأموال، وأصاب كل رجل في المدينة دينارا روميا، وكان الدينار الرومي آنئذ مبلغا ذا قيمة كبيرة.

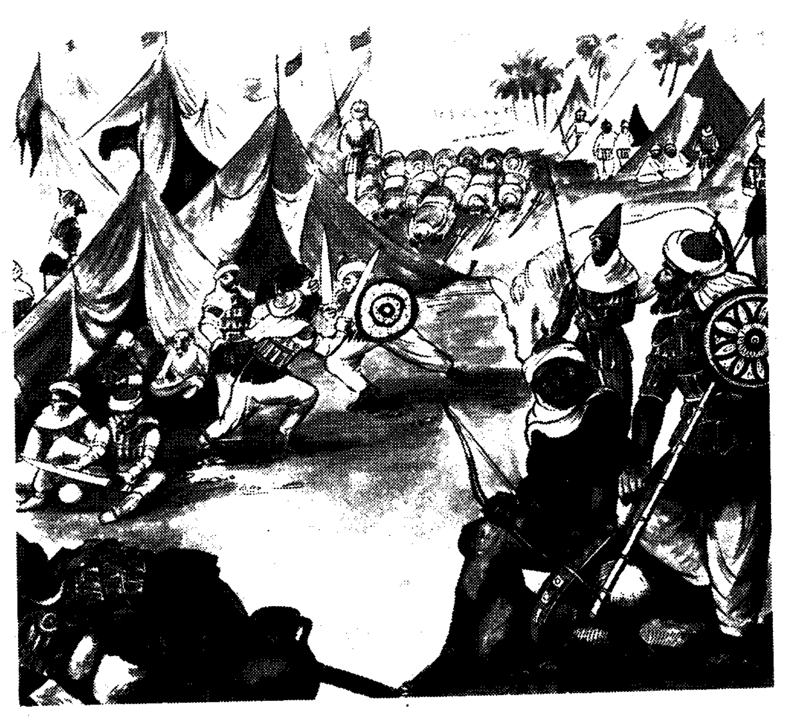
وهكذا مضت السنة الثانية من خلافة أبي بكر والمدينة بين مد وجزر في

---

١) ابن خلدون ٢/٥٠٣.

حركة جيوش الفتح التي خرجت من المدينة في العصر الراشدي

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي



معسكر الجرف كما تصوره الرسام

السكان، يكتتب رجالها في الجهاد، ويأتيها المكتتبون من الأطراف أيضا «فتمتلىء بهم شوارع المدينة ومسجدها، ويمتلىء معسكر الجهاد في الجرف، ثم ما يلبث أن يخلو برحيلهم إلى مواطن الجهاد. وتحولت المدينة من عاصمة هادئة إلى مركز يضج بالمجاهدين والعابرين، وبالمراسلين يأتون من مناطق القتال، ويخرجون إليها، وبالغنائم والسبايا والأسرى يرسلهم القادة إلى الخليفة، فيوزعها على بيوت المدينة. ولأول مرة عرفتِ المدينة مجموعات من الأسرى الفرس والروم من الرجال والنساء. وقد أعتق أهل المدينة عدداً كبيراً منهم، وتزوجوا بعض السبايا اللواتي أُعتقن، ليظهر جيل جديد بعد حين، تختلط فيه الدماء العربية بالفارسية والرومية....

ولم تمض أشهر قليلة من السنة الثالثة عشرة للهجرة حتى كانت المدينة عاصمة لمنطقة تشمل الجزيرة العربية كلها، والأردن وطرفا من فلسطين وجنوب بلاد الشام وشرق العراق، وكان أهلها إما مسلمين وأما معاهدين يدفعون الجزية.

عهدٌ للخليفة القادم:

في السابع من شهر جمادى الآخرة عام ثلاثة عشر للهجرة مرض أبو بكر، فأمر عمر أن يصلي بالناس مكانه واستدعى كبار الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ليستشيرهم فيمن يتولى الأمر بعده، كي لايتبلبل المسلمون أو يختلفوا، وبعد مشاورات متوالية استقر رأيه على تولية عمر بعده. فلما اشتد عليه المرض استدعى عثمان بن عفان وأملى عليه كتابا يوصي فيه المسلمين بخلافة عمرعليهم، جاء فيه: «هذا ماعهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة ، في الحال التي يؤمن بها الكافر ويوقن بها الفاجر. إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا وأطيعوا، ولم آلُ بكم خيراً، فإن صبر وعدل فذلك علمي به، وإن غيرّ وبدّل فلا علم لي بالغيب. والخيرَ أردت. ولكل امرىء

ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون». ثم ختم الكتاب وأمره أن يخرج به إلى الناس مختوما، وقد تجمع عدد كبير من أهل المدينة عندما علموا بثقل مرض أبي بكر. وخرج عثمان إليهم ومعه أسيد بن حضير وعمر، وتحامل أبو بكر على نفسه تسنده زوجته أسماء بنت عميس رضي الله عنها، وأشرف على الناس من كوة في بيته، فقال: أيها الناس: إني قد عهدت عهداً أفترضونه؟ قالوا: بلى، ثم عاد إلى بيته، وأوصى أن تفرق أمواله وأن ترد إلى بيت المال رواتبه التي حمله الصحابة على أخذها. (١).

وفي مساء يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من جمادى الآخرة عام ثلاثة عشر للهجرة فاضت روح أبي بكر الصديق إلى بارئها، ودفن إلى جوار رسول الله ﷺ. وانتقلت الخلافة إلى عمر... وجاء أهل المدينة إليه في المسجد يبايعونه ماتخلف منهم أحد.

---

١) كان أبو بكر تاجراً، فلما بويع بالخلافة ظل في تجارته يحمل أثوابا ويبيعها بالسوق، فاعترض الصحابة عليه وطلبوا منه أن يترك التجارة ويتفرغ لشؤون المسلمين ويأخذ نفقته ونفقة عياله من بيت المال. وفرضوا له ستة الاف درهم في السنة ، فلما مرض مرض الموت طلب أن يرد إلى بيت المال كل ماأخذه من رواتب.

المدينـــة في خـلافـــة عمر بن الخطاب

أصبحت المدينة بعد أن دفن أبو بكر رضي الله عنه في إمرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومضى الناس إلى بيوتهم بعد أن بايعوه، وهم يعلمون ما لعمر من الحزم وضبط الأمور. فلما كانت الغداة واجتمع الناس للصلاة وقف عمر يخطب فيهم ويبين لهم سياسته.

ولم تكن سياسة عمر غريبة عن أهل المدينة، فقد عرفوا شيئا من حزمه واصراره على الحق في عهد النبي ﷺ، وعرفوها أكثر وأكثر في عهد أبي بكر، إذ كان صاحبه الذي لايكاد يفارقه، وكان أبو بكر يستشيره، ويرى الناس ذلك، وربما بادر عمر أبا بكر بالرأي، حتى كان بعضهم يتمنى أن يحظى بلين أبي بكر بعيداً عن عمر، وقد حاول بعضهم أن يستثير أبا بكر في ذلك فقال له: أأنت الخليفة أم عمر. فقال أبو بكر: هو إن شاء...

وسرعان ما بدت آثار سياسة عمر في وضع المدينة بخاصة، وأوضاع المسلمين بعامة.. كان أول ما اهتم به عمر أن يتابع حركة الفتوح التي بدأت في عهد أبي بكر. لذا راح يستحث الناس للخروج إلى الجهاد، ويرسل الرسل من المدينة إلى القبائل في الجزيرة العربية كي ينهض الناس إلى الفتوح، ولبى المسلمون داعي الجهاد، وواصلت منطقة الجرف استقبالها لجموع المكتتبين في الجهاد، فكان يخرج إليهم عمر، ويوصيهم بتقوى الله والبلاء في الجهاد، ثم يؤمر عليهم أميراً ويرسلهم في بعث إلى الشام أوالعراق، ليعضدوا الجيوش الغازية هناك في مواجهة الروم والفرس. ولما جاءت الأخبار إلى المدينة بأن المسلمين الذين يجاهدون الفرس في العراق أصيبوا يوم الجسر، وبأن الفرس قد حشدوا حشودهم ليقضوا على المسلمين، أمر عمر أن ينادى في شوارع المدينة وضواحيها بالتجهز ولا يبقى إلا صاحب عذر، وكتب إلى القبائل ، فوفد عليه عدد كبير، وخرج من المدينة خلق كثير حتى لم يبق فيها

إلا صاحب عذر، وخرج معهم عمر وسار حتى نزل على ماء يقال له صرار، واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب، واستصحب معه عثمان بن عفان وسادات الصحابة الآخرين، وعزم أن يغزو بهم العراق، واستشار الصحابة، فتحمس بعضهم لذلك ووافقوه، وعارضه بعضهم الآخر، ثم وقف عبد الرحمن بن عوف وقال له: إننى أخشى إن كُسرت أن يضعف المسلمون فى سائر أقطار الأرض، وأرى أن تبعث رجلا وترجع أنت إلى المدينة.. واستحسن الجميع رأيه ، فقبله عمر، وعين سعد بن مالك الزهري أميراً على الجيش، وسار معهم حتى بلغوا مكانا يقال له الأعوص، فخطب فيهم وأوصاهم بتقوى الله وحسن البلاء والزهد في الدنيا، وودعهم ورجع إلى المدينة ومعه عدد قليل من كبار الصحابة استبقاهم ليكونوا عونه ومجلسه الاستشاري. وقد بلغ عدد الذين مضوا إلى الجهاد من أهل المدينة أكثر من ألف مجاهد، فيهم ثلاثمئة وبضعة وعشرون صحابياً، منهم بضعة وسبعون ممن شهدوا غزوة بدر، وسبعمائة من أبناء الصحابة (١)وقد فتح الله عليهم في القادسية فتوحاً عظيمة.. وظل أكثرهم في الجهاد من موقعة إلى موقعة إلى أن استشهد معظمهم.

رعـاية أسـر المجـاهدين:

عندما عاد عمر إلى المدينة طاف على بيوت المجاهدين يسألهم عن حاجتهم، ويعطيهم ما يلزمهم من المال والطعام، ولم تكن المدينة قد وصلتها وفرة من المال والطعام بعد، وكان يذهب بنفسه إلى السوق فيشتري لهم مايطلبونه، ويرسل إليهم مواليه، وقد جعل رعاية أسر المجاهدين من أعماله

---

١) البدية والنهاية ٣٧/٤.

الدورية، وربما صحب معه أولاد المجاهدين وجواريهم ليؤانسهم(١).

تنظيم الخدمة البريديــة:

اعتنى عمر بالبريد، فاختار له رجالا يتجلدون في السفر ويحسنونه، ونظمه تنظيماً دقيقاً بحيث تنقل الرسائل بينه وبين الجيوش في الأمصار البعيدة بسرعة قياسية بالنسبة لذلك العصر، لذا سهل على القادة أن يستشيروه في أمور كثيرة وأن يرسلوا إليه الأخبار المتوالية.

وجعل عمر من مهمات البريد أن يحمل الرسائل من المجاهدين إلى عائلاتهم.. فكان إذا وصل البريد إلى المدينة أنفذ الرسائل التي بعثها المجاهدون إلى بيوتهم ، وأرسل معها قارئا ليقرأ الرسالة إن لم تكن زوجة المجاهد أو أبناؤه يحسنون القراءة، وإذا عزم على إرسال البريد إلى جهة ما أرسل من ينادي في الأحياء أن البريد سيخرج في وقت كذا إلى جهة كذا وكذا، فمن كان يريد إرسال رسائل فليأت بها قبل أن يخرج البريد، وقد وجدت أسر المجاهدين بذلك راحة كبيرة.

مجتمع الأمن والوفــرة:

شهدت المدينة أمراً يزيد من إحساس أهلها بالأمن والطمأنينة وسلطان الدولة، فقد شاهدت الخليفة يطوف في الليل على الأحياء ورفيقه غالباً، أحدُ الصحابة أو أحد مواليه، يستتر من الناس كيلا يعرفوه، فإن وجد صاحب حاجة أسرع بتلبية حاجته، وإن وجد فقيراً أعطاه، وإن وجد مذنباً أخذه بذنبه، وربما ينتدب من يفعل ذلك.

وفي الصباح كان الخليفة يجلس للناس، ومعه مستشاروه من كبار الصحابة، كعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، فيأتيه الرجل في حاجته، وتأتيه المرأة في حاجتها، ويقصده المتخاصمون ليقضيَ بينهم، ويأتيه الناس بمن أذنب أو ارتكب جريرة تقتضي أن يقام عليه الحد،

---

١) التاريخ الإسلامي ٣/٢٠٨.

فيستشير مجالسيه ويقضي فيهم أو يوكل القضاء إليهم، وكان أكثر ما يأخذ من الآراء رأي علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان يوكل إليه القضاء في أمور كثيرة، كما كان يوليه على المدينة في غيبته.

واستتب الأمن في المدينة، حتى ليروى بعضهم أنه مرت سنة كاملة وما عرض على عمر شيء من خصومة أو جريرة(١)، ولعل من أسباب ذلك أن عمر كما كان يعس في الليل كان يطوف في النهار، ويذهب إلى أسواق المدينة ويراقب المعاملات فيها، ويرقب قدوم القوافل، وكانت هيبته والدرة التي يحملها (٢) ويخفق بها من يرى فيه أدنى عوج، فكان ذلك كفيلاً باستقامة الأمور وردع المفسدين، وتروي الأخبار أن عمر رأى رجلاً في السوق يكاسر الأسعار ليؤذيَ غيره من التجار فخفقه بالدرة وأمره أن يبيع بسعر التجار أو يرحل عن السوق(٣) ووصلت مرة إلى المدينة قافلة عظيمة قبيل الغروب، فلما جن الليل طلب من عبد الرحمن بن عوف أن يصحبه للسهر على القافلة وحراستها، فصحبه وأمضيا الليل عندها...

وهكذا نعمت المدينة بحالة من الأمن والأمان لم تشهد لها مثيلا من قبل، وتفرغت لاستقبال رسل قادة الفتح في الشام والعراق، وتجهيز المجاهدين، وإرسالهم إلى الآفاق. وتوالت الرسل والرسائل بأخبار المجاهدين المبشرة، فقد كانوا ينتقلون من نصر الى نصر.. في العراق حيث تتهاوى الإمبراطورية الفارسية تحت ضربات سيوفهم، وفي الشام حيث تم فتح سورية كلها مدينة مدينة، وتوافدت على المدينة أخماس الغنائم، حيث كان القادة يجمعون ما يغنمونه بعد المعركة ويوزعون أربعة أخماسه على المجاهدين ويرسلون الخمس الباقي إلى المدينة المنورة، وأول ماوصل منها خمس غنائم القادسية

---

١) المصدر السابق

٢) الدرة عصا قصيرة في رأسها مثل الكرة

٣) المصدر السابق

يحملها زياد ابن أبيه، وقد بلغ ستة ملايين، وكميات من الياقوت والحرير واللؤلؤ والذهب لايعرف قيمتها، ولم تكن المدينة قد شهدت مثل هذه الثروة من قبل، فوضعت في المسجد كومة كبيرة وغطيت بثياب، وبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم يحرسانها، وفي الصباح جمع عمر أهل المدينة وكشف لهم عن المال فبهر الناس بما رأوا.. وبكى عمر خشية أن يفتن المال الناس، ثم قسم المال على أهل المدينة جميعاً(١)وجاءه مرة مال كثير ومعه بساط واحد طوله ستون ذراعا وعرضه مثل ذلك، كانت الأكاسرة إذا هبت الرياح بعد الشتاء شربوا عليه، فكأنهم في رياض، فيه طرق كالقصور وفصوص كالأنهار، أرضه مذهبة ، وخلال ذلك فصوص كالدرر وفي حافاته كالأرض المزروعة، مصنوعة من الحرير والذهب والجواهر، فاستشار المسلمين فيه فأشاروا بقطعه، فقطعه بينهم، فأصاب علي بن أبي طالب قطعة منه فباعها بعشرين ألفا ولم تكن أجود من غيرها(٢)ووفدت بعد ذلك كنوز كسرى الأخرى، وفيها سواراه وتاجه وقفة مليئة بالجواهر، مصداقاً لنبوءة رسول الله ﷺ أيام الخندق عندما بشرهم بقصور كسرى وجواهره، فدعا عمر سراقةَ بنَ مالك، وكان رسول الله ﷺ قد وعده بسواري كسرى، فأعطاه اياهما . وكانت الغنائم الوافدة إلى المدينة توزع مباشرة على بيوتها، وقد آلى عمر نفسه ألا يُبقي منها شيئا البتة، وعندما أشار عليه بعضهم أن يستبقي شيئاً منها لطارىء يحدث، أبى إباء شديداً(٣).

وعاشت المدينة على أخبار الفتوح وقصص البطولات، وكانت الرسل تحملها إلى عمر، فيجمع الناس في المسجد ويبشرهم بما وصله من أخبار الفتوح، وقد يطلب من الرسول نفسه أن يقف ويحدث الناس عن تفاصيل

---

١) انظر نهاية الأرب ٢٣٣/١٩.

٢) السابق ٢٢٩/١٩.

٣) السابق ٣٣٦/١٩.

المعركة(١) وكأنهم يرونها رأي العين، فيسر الناس لذلك وينقلون الأخبار إلى أهليهم وأبنائهم ومن لم يسمعها بعد، وفي الوقت نفسه تحمل الأخبار أسماء من رزقهم الله الشهادة، فيرثَيهم المسلمون ويتقبل أهلهم العزاء فيهم.

توحـــيد صلوات التراويــح:

وفي رمضان من العام الرابع عشر للهجرة توافد الناس إلى مسجد رسول الله ﷺ فصلّوا العشاء وتفرقوا في أطراف المسجد ليُصلّوا السنن والتراويح، وكانوا يصلونها متفرقين، فوقف عمر وطلب منهم أن يجتمعوا وأن يُصلّوا صلاة القيام جماعة، وأن يكمل من شاء معه إلى عشرين ركعة، وانتدب أبي بن كعب لإمامتهم، وهو رابع أربعةٍ كانوا أعلمَ الناس بالقرآن وتلاوته، ففعل الناس ذلك، وأمضوا بقية ليالي رمضان يصلّون التراويح جماعة، وكتب عمر بذلك إلى الأمصار، فصارت سنة في المسلمين.

عطـــاء للجمـــيع:

في العام الخامس عشر صارت الغنائم وافرة، ورأى عمر أن الأموال تتوالى على المدينة، فاستشار بعض الصحابة في أن يجعل للناس أرزاقاً ثابتة توزع عليهم كل سنة، فاستحسنوا ذلك، وأشار عليه بعضهم أن يتخذ السجلات ويسجل فيها أسماء المسلمين ومراتبهم وعطاء كل منهم، فاستحسن الرأي، وانتدب لذلك بعض أعوانه، واتخذ لهذا العمل اسما خاصا هو ديوان العطاء، ونادى في الناس لتسجيل أسمائهم فيه، وبادر هو فسجل من يعرف أسماءهم من الصحابة وقدّر لكل منهم عطاءه، ووضع مقياسا متميزا لهذا التوزيع هو: مكانة الرجل في الإسلام ومدى بلائه فيه، وقد بدأ بالعباس بن عبد المطلب عَم رسول الله ﷺ، فجعل له خمسة وعشرين ألف درهم، ثم الأقرب فالأقرب إلى رسول الله ﷺ، وفرض لكل من زوجات رسول الله ﷺ عشرة آلاف، وزاد عائشة ألفين لأن الرسول ﷺ كان يحبها ، فلم

---

١) السابق ٢٣٢/١٩.

تأخذها عائشة. ثم أهل بدر، وفرض لكل منهم خمسة آلاف، وألحق بهم أربعة أشخاص لم يشهدوا بدراً اعتبرهم في رتبتهم وهم: الحسن والحسين ابنا علي رضي الله عنه، وأبو ذر وسلمان الفارسي. وجعل لمن أسلم بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف، ومن أسلم بعد الحديبية إلى قتال المرتدين ثلاثة آلاف، ومن شهد المواقع بعد ذلك إلى القادسية ألفين، ومن عرف بالبطولة والأعمال المتميزة ألفين وخمسمائة، ومن بعد القادسية واليرموك ألفاً، وفرض للنساء والأطفال. وكتب إلى الأمصار أن يفعلوا ذلك وفق المقاييس التي اعتمدها، وأن يتخذ كل أمير ديواناً للعطاء ويسجل فيه أسماء المسلمين ومقدار أعطياتهم ويصرفها لهم سنوياً.

وفي إحدى الليالي بينما كان يعسّ سمع بكاءً شديداً لطفل صغير، فطرق الباب على أهله وصاح بأمه: اتقِ الله تعالى وأحسني إلى صبيانك. ولكن الصغير لم يهدأ. فأعاد عمر الطرق والتنبيه.. ومرت مدة من الوقت ولم يسكت الصغير فعاد عمر إلى أمه وقال لها: ويحك إنك أم سوء، مالي أرى ابنك لايقر منذ الليلة من البكاء، فقالت ياعبد الله إني أريد أن أفطمه فيأبى ذلك، فقال لها: وكم عمر ابنك، قالت: كذاو وكذا شهراً، فقال لها: ويحك لاتعجليه على الفطام، فقالت: إن عمر لايفرض إلا للمفطوم... فبكى عمر بشدة وانطلق وهو يقول: بئسما لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين. وصلى بالناس الصبح وقراءته لاتستبين من البكاء، ثم أمر مناديا فنادى: لاتعجلوا صبيانكم على الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الاسلام، ثم كتب إلى الولاة ليطبقوا ذلك(١).

وقد عادت هذه العطاءات على أهل المدينة بخاصة والمسلمين بعامة بشيء من الوفرة، وصار لكل فرد دخل يأتيه من الدولة، فيجتمع للأسرة عطاء الرجل وعطاء المرأة وعطاء الأولاد فيكون دخلاً جيداً يوفر لها حياة كريمة... ولا شك أن هذا المال، إضافة إلى ما يرد من غنائم، أنعش الحياة الاقتصادية

---

١) انظر البداية والنهاية ١٤٠/٤.

في المدينة ونمّى أسواقها ورفع القدرة الشرائية للناس. ولكن هذه الأموال لم تنقلهم إلى حياة الترف بعد، فما زال في العيش شيء من الخشونة، ومازال منادي الجهاد يستحث الناس للخروج مرة بعد مرة فيتدافعون بلا تردد.

ومثلما وفق الله عمر إلى أن يفرض للصبي قبل فطامه بسبب ما سمعه خلال العس، وفقه إلى أن ينظم اجازات المجاهدين بسبب ما سمعه خلال العس أيضا، ففي إحدى جولاته الليلية سمع امرأة تتغنى بشعر تقول فيه:

فواللهِ لولا الله تُخشى عواقبه   لزلزل من هذا السرير جوانبه

فأحس عمر بأثر غيبة المجاهدين الطويلة على زوجاتهم، وأدرك أن هذا قد يسبب فتنة في الأُسَر، فسأل ابنته حفصة: كم تصبر المرأة على فراق زوجها، فأجابته حفصة: أربعة أشهر (وفي بعض الروايات ثلاثة وفي بعضها ستة) فكتب إلى قادة الجند ألا يحبس المجاهد عن أسرته أكثر من هذه المدة، وأن يعطى إجازة يعود فيها إلى عائلته.

وقد أدخلت هذه البادرة الكثير من الحيوية على البيوت، ليس في المدينة وحدها، بل في سائر الأمصار التي تشهد بين الحين والأخر عودة مجموعات من المجاهدين ليمضوا مدة من الوقت مع زوجاتهم وأبنائهم ويحدثوا الناس بأخبار الفتوحات والبطولات ونصر الله ثم يعودوا إلى ثغورهم.

أول مؤسسة تعليمية حكومية:

أمر أخر شهدته المدينة أولا، ثم الأمصار الإسلامية الأخرى، وعاد عليها بالنفع الكبير، وهو كتاتيب التعليم.

فكما رأينا، لم يكن المسلمون فيما سبق يتخذون دوراً خاصة للعلم، بل كان الرجل يعلم ابنه أو ابنته بما لديه من الوقت، وباستثناء بعض أسرى بدر الذين كان فداؤهم تعليم صبيان المسلمين، لم يكن في المدينة من يعلم أبناء المسلمين.

وفي عهد عمر عندما كثرت غيبة أرباب الأسر في الجهاد، وكثر صبيان

المسلمين سواء من زوجاتهم الحرائر أو من السبي الوافد، وكثير منهم لا يجد من يعلمه، فأمر عمر باتخاذ كتاتيب في كل حي يغدو إليه الصبيان يتعلمون فيه كتاب الله ومبادىء القراءة والكتابة، وجعل للمعلم المتفرغ لذلك أجراً على عمله... فاستحسن الناس هذا الصنع، وانتشرت الكتاتيب في أحياء المدينة وضواحيها، وكان عمر يمر عليها وينظر مافيها من تعليم ، فسره ما رآه فيها، وكتب إلى الولاة في الأمصار أن يتخذوا الكتاتيب لتعليم أولاد المسلمين ويعينوا المعلمين ويخصصوا لهم الأرزاق المناسبة، وبذلك بدأت مرحلة جديدة في تاريخ التعليم عند المسلمين ، وولدت أول مؤسسة تعليمية حكومية، وأعرق مركز تعليمي اسلامي للأولاد والبنات على امتداد العصور(١).

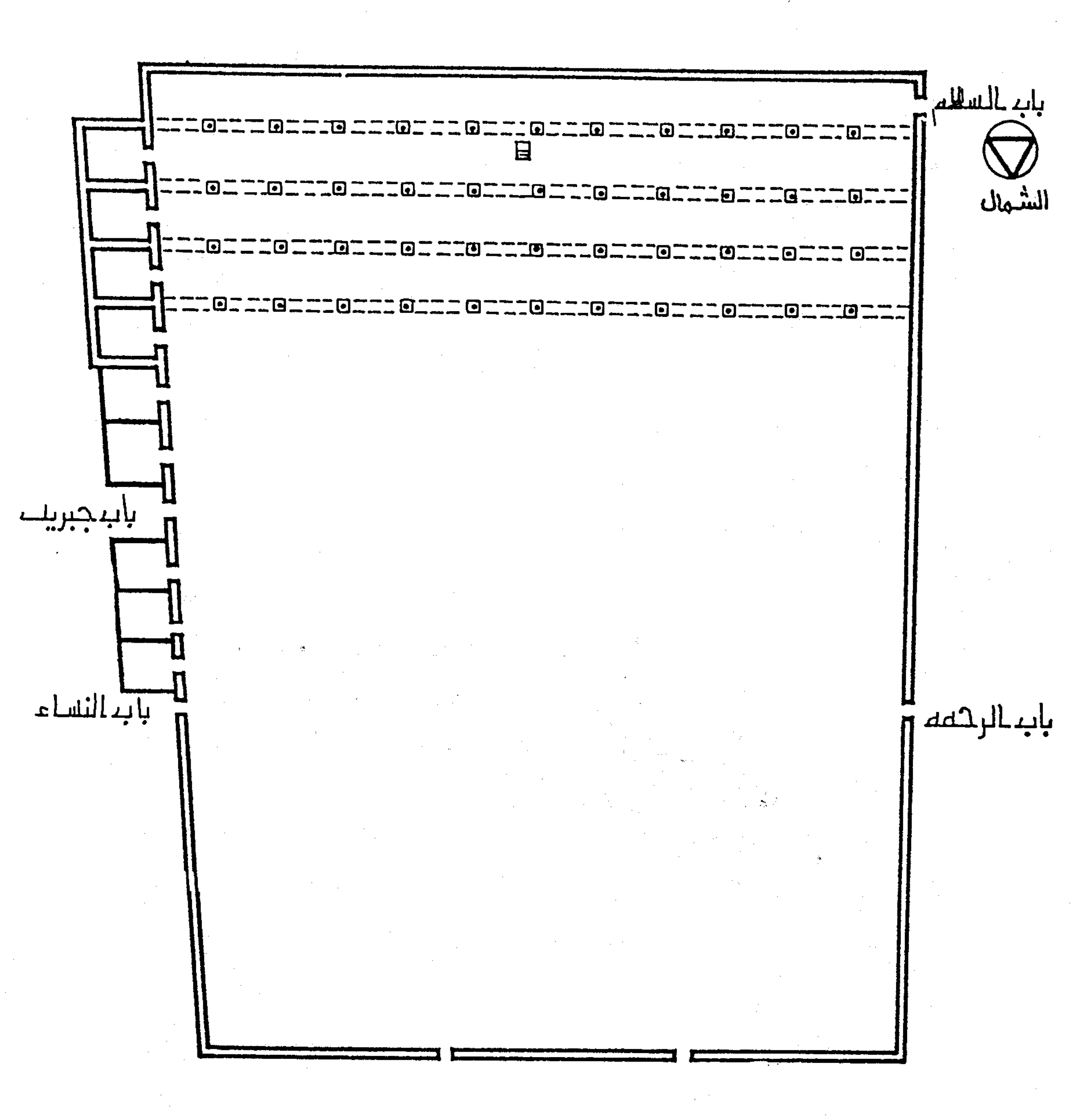
ومع هذه التغيرات المتوالية في حياة المدينة أصبحت الأحياء تمتلىء بسكانها مدة من الوقت.. ويقل عددهم عندما يخرج الكثيرون منهم للجهاد... وكان بعضهم المسلمين يقسمون أيامهم بين الاقامة في المدينة والسفر إلى الجهاد، لذا عادت المدينة إلى الازدهار.. وبدأت تظهر بيوت جديدة هنا وهناك.. خاصة عندما يكبر الفتيان ويتزوجون، أو يتزوج الرجل زوجة أخرى ويبني لها بيتا جديداً، وترد الغنائم فيها الأموالُ والنساء والأطفال فتوزع على البيوت، وقد ازداد عدد سكان المدينة رغم خروج الكثيرين، واستشهاد بعضهم فيه.

توســعة المســجد النبوي:

لم يعد المسجد النبوي يسع الأعداد المتزايدة من المصلين، ويشتد الضيق في موسم الزيارة قبل الحج وبعده، كما أن بعض سواريه -وهي من جذوع النخل - قد نخرت، لذا قرر عمر أن يعيد بناءه ويوسعه. فطلب من أصحاب الدور المجاورة من جهاته الشمالية والغربية والجنوبية أن يبيعوها ليدخلها في المسجد، فباعه بعضهم وتصدق بعضهم الأخر، وامتنع العباس بن عبد

---

١) انظر التراتيب الادارية ٢/٢٩٣.



المسجد النبوي الشريف في عهد عمر بن الخطاب

المصدر: المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري
صالح لمعي مصطفى

المطلب أول الأمر، لأن البيت الذي يسكنه أقطعه إياه رسول الله ﷺ ودعا له فيه بالخير، ولأنه ظن أن عمر سيأخذه منه غصباً، ولكنه مالبث أن تصدق بالبيت كله، فكافأه عمر ببيت بديل بناه له من بيت المال.

وبدأ العمل في المسجد في العام السابع عشر للهجرة، فهدمت الدورالمجاورة من جهاته الثلاث، وأُعيد تخطيط المسجد وبناؤه على هيئته التي كان عليها، ولكن بحجم أكبر، وجُعلت جدرانه من اللبن، وسواريه من الحجارة(١)، ولم ينتهِ العام حتى عاد الناس يصلون في المسجد وقد اتسعت رحبته وفُرشت أرضه بالحصير، وكان مفروشا بالحصى من قبل، وخصصت خارج المسجد في جهته الشمالية الشرقية ساحة لمن يريد أن يجلس ويتحدث ويتناشد الأشعار، للحفاظ على هيبة المسجد بعيداً عن لغط الحياة اليومية والأصوات العالية.

عام الرمادة:

وفي العام التالي، سنة ثماني عشرة للهجرة، شهدت المدينة المنورة وسائر مناطق الحجاز ونجد مناخاً قاسياً، فشح المطر، وكثرت العواصف الرملية، واضطربت قوافل التجارة، وقلت المواد الغذائية التي كانت ترد إلى المدينة كالقمح والشعير والسمن والزيت وغير ذلك. ولم يأت محصول ذلك العام بشيء يذكر، وهلكت قطعان الماشية، واستمرت الضائقة تسعة أشهر(٢) وارتفعت الأسعار ارتفاعاً جنونياً، وأصبح الناس في ضيق شديد لايجدون طعاماً يكفيهم، فبعث عمر الرسائل إلى ولاته في مصر والشام والعراق يطلب منهم أن يرسلوا ما يمكنهم إرساله من الطعام إلى المدينة.

واشتد الجوع بالناس والبهائم (حتى كان الوحش يأوي إلى الأنس، وكان الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها، فأقسم عمر ألا يذوق سمناً ولا لبناً ولا

---

١) انظر مصور هذه التوسعة في المصور المرافق.

٢) البداية والنهاية ٤/ ٥٢٠.

لحماً حتى يحيى الناس)(١). وأقبل سكان البادية يطلبون الطعام وضربوا خيامهم في أطراف المدينة، وأقام عمر موائد جماعية، وبسط السماط للناس ، وكان يقف بنفسه عليه ويدعوهم ويجلسهم ويوزع الطعام عليهم(٢)، وما زال عمر ينفق من بيت المال حتى نفد مافيه.

وتدارك الله الناس برحمته، فوصلت قوافل الإغاثة من أمراء البلاد الأخرى، وكان أولها قافلة يقودها أبو عبيدة بن الجراح فيها أربعة آلاف راحلة، فأمره عمر أن يوزعها على النازلين في أطراف المدينة وضواحيها، وقد قدمهم عمر لِمَا بلغ بهم من جهد، ولأنهم لايملكون أي مخزون. ووصلت القافلة الثانية وقد أرسلها عمرو بن العاص من مصر فوزعها عمر على بيوت المدينة، واستمر في إقامة السماط.

وجاء أهل المدينة إلى عمر يسألونه أن يستسقي لهم المطر عسى أن يغيثهم الله، فنادى في الناس أن يخرجوا لصلاة الاستسقاء إلى ظاهر المدينة، وطلب من العباس عم الرسول أن يخرج معهم، واجتمع الناس خارج المدينة فخطب، وأوجز وصلى، ثم جثا على ركبتيه وقال: اللهم عجزتْ عنا أنصارُنا وعجز عنا حولنا وقوتنا، وعجزتْ عنا أنفسنا، ولا حول ولا قوة إلا بك. اللهم فاسقنا، وأحي العباد والبلاد. ثم أخذ بيد العباس وقال: اللهم إنا نتقرب اليك بعم نبيك وبقية آبائه وأكبر رجاله. وإنك تقول وقولك الحق (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة)، فحفظتهما بصلاح أبيهما. فاحفظ اللهم نبيك في عمه، فقد دعونا إليك مستشفعين ومستغفرين.

وبكى العباس حتى اخضلت لحيته وهو يقول: اللهم أنت الراعي فلا تهمل الضالة، ولاتدع الكبير بدار مضيقة، فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم أغننا بغناك قبل أن يقنطوا فيهلكوا

---

١) نهاية الارب ٣٥/١٩.

٢) انظر البداية والنهاية ١٣٤/٤.

فانه لاييئس إلا القوم الكافرون.

ولم يبرح الناس موقفهم حتى أغاثهم الله بالمطر الكثير، ففرحوا فرحاً شديداً واستشعروا بداية الفرج... وتوالت على المدينة بعد ذلك الأرزاق وهطلت أمطار أخرى وأمرعت الأرض، فعاد سكان الضواحي والبدو إلى مناطقهم، وعاد الخصب والهناء إلى النفوس.

ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى وردت إلى المدينة أخبار طاعون عمواس الذي انتشر في الشام وحصد خمسة وعشرين ألف نفس، فيهم كثير من المجاهدين الذين خرجوا من المدينة المنورة،(١).

ولم تنقض هذه السنة -وهي سنة شدة بحق- حتى انفجر بركان صغير في حرة ليلى، وهي إحدى الحرات الواقعة في غرب المدينة، وظهرت النار في السماء وسالت بعض الحمم على سطح الحرة، وفزع الناس، فخرج إليهم عمر وأمرهم بالدعاء والصدقة، ولم يلبث البركان أن هدأ وانطفأ.

الفــرج بعد الشـدة:

وصلت إلى المدينة دفعات أخرى من الغنائم فوزع عمر بعضها على الناس ورد الباقي إلى بيت المال، وأخصبت الأرض حول المدينة، وجاء المحصول وافراً، واستفاد عمر من محنة المجاعة التي مرت في العام السابق، فقررأن يوفر للمدينة احتياطياً ثابتاً من الطعام، وأمر ببناء مخازن للحبوب والسمن والزيت...الخ، وجعل ينفق منها، ويعوض ما ينفقه أولاً بأول، وجاء التجار ومعهم المواشي فاشترى الناس ماعوضوا به عما فقدوه من ماشيتهم، واستعانوا بالرقيق الوافد للعناية بها كما استعانوا بهم في العمارة والتجارة والحدادة، وكان بعضهم يتقن هذه المهن.

إجـلاء غير المسـلمين:

أرسل عمر بن الخطاب أحد الأنصار إلى خيبر ليحضر نصيب المسلمين

---

١) البداية والنهاية٤/٧٩.

من غلالها وفق المعاهدة التي عقدها الرسول ﷺ مع يهود خيبر، فُقتل الأنصاري غيلة، ولم يعرف قاتله، وشك عمر في أن يكون اليهود قد قتلوه.. ثم ذهب عبد الله بن عمر الى خيبر فتآمروا على الفتك به وآذوه، فأخبر الخليفة بذلك، فقرر عمر أن ينفذ وصية رسول الله ﷺ قبل موته: ألايجتمع في جزيرة العرب دينان... واستشار الصحابة واستتوثق منهم الحديث فوثقوه له، وأشاروا عليه بذلك ولم يكن قد بقي في المدينة إلا عدد ضئيل من اليهود يدفعون الجزية ولايأثرون في حياتها اليومية. فقرر عمر اجلاء اليهود، وأمر مَنْ في المدينة منهم بالخروج فخرجوا، وأرسل إلى يهود خيبر إن الله قد أذن لي في إجلائكم، فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ فليأتني به أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد فليتجهز للجلاء.

وركب عمر في عدد من أهل المدينة من المهاجرين والأنصار، ووزع أراضي خيبر على أهل المدينة، فتملكوها، ووضعوا فيها بعض مواليهم وعمالهم ليستثمروها لهم، وصار للمدينة دخل جديد يأتيهم كل سنة من تمر خيبر الجيد ومحاصليها الزراعية الأخرى، وبنى بعضهم في البساتين بيوتاً وصار يخرج إليها بين الحين والآخر. ومالت الحياة في المدينة إلى شيء من الراحة والوفرة، فالأعطيات ثابتة، بل إن عمر فكر في زيادة الحد الأدنى وجعله أربعة الاف درهم لكل فرد، ولكنه قضى قبل أن ينفذ فكرته....

شـهادة في المديـنة:

منع عمـر غير المسلمين من دخول المدينة بعد أن أخرج منها البقية الباقية من اليهود، وأمر أن ينظر في السبي، فمن بلغ الحلم من الذكوّر ولم يسلم فيخرج منها أيضا، كما منع الموالي والتجار غير المسلمين من الإقامة فيها.

غير أن أهل المدينة احتاجوا إلى بعض الحرفيين، ولم يكن فيهم من يسد حاجة الناس من تلك الحرف، فسألوا عمر أن يسمح لبعض الصناع من غير

المسلمين بالبقاء فيها، فسمح لأعداد ضئيلة.

وكان من بين الذين سمح لهم رجل من سبي فارس وقع في سهم المغيرة بن شعبة رضي الله عنه يتقن الحدادة والنجارة اسمه (أبو لؤلؤة)، ظل على مجوسيته ولم يسلم، فاستأذن المغيرة عمر أن يبقى هذا الرجل في المدينة ليستفيد أهلها من مهارته فأذن له عمر، وقد ترك المغيرة (لأبي لؤلؤة) حرية العمل والكسب من الحرف التي يتقنها، على أن يدفع له مئة درهم كل شهر، فعمله يدر عليه ربحاً وافراً. وكان (أبو لؤلؤة) لعنه الله حاقداً على الاسلام والمسلمين، ويبدو أن حياته في المدينة لم تخفف حقده، وكان يتبرم مما يدفعه لسيده المغيرة.

وبينما كان عمر يجول في الأسواق لقيه (أبو لؤلؤة) وشكا إليه مايدفعه، فسأله عن عمله فأخبره أنه نجّار وحدّاد ونقّاش، فرأى عمر أن هذه المهن تدر عليه أرباحاً كثيرة، وأن ما فرض عليه ليس بالكثير قياسا على مايحققه من دخل، لذلك لم يسقط عنه شيئا ، فاغتاظ (أبو لؤلؤة) وأضمر في نفسه الشر لعمر.

وعند صلاة الفجر خرج عمر إلى المسجد وتجمع الناس وأقيمت الصلاة ووقف عمر يسوي الصفوف بيده.. ثم كبر وبدأ الصلاة، وفجأة شقّ الصفوف (أبو لؤلؤة) وهو يحمل خنجرا مسموما ذا حدين، ووصل الى عمر، فانهال عليه بطعنات غادرة شق باحداها ماتحت سرته، فسقط عمر في المحراب، وانطلق (أبولؤلؤة) لعنه الله هائجا يضرب بين الصفوف ليخرج، فأصاب عددا من المسلمين الذين أخذتهم المفاجأة، ووقع الهرج ، وكاد (أبو لؤلؤة) أن يخرج من الصفوف، فأدركه عبد الرحمن بن عوف وكان يلبس (برنساً) (ثوب فضفاض له غطاء للرأس) فخلعه وألقاه عليه ليتفادى خنجره، وهجم عليه وهو يعالج البرنس، فلما أحس أبو لؤلؤة أنه مأخوذ طعن نفسه بخنجره فخر في البرنس، وأسرع الناس إلى عمر، فأشار إلى عبد الرحمن بن عوف أن

يصلي في الناس كي لاتتأخر الصلاة، فصلى عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة، وحُمل عمر إلى بيته وجراحه تدمى.

وهرع الناس يستجلون الخبر، وجاء الطبيب فرأى إصابتة بالغة ، وسقاه لبنا فخرج اللبن من جرحه، فأخبر الصحابة أن الإصابة قاتلة، وغاب عمر عن الوعي، ثم صحا وسأل عن قاتله فلمّا أُخبر أنه (أبو لؤلؤة) حمدِ الله ألايكون قاتله مسلماً سجد لله سجدة واحدة... وأقبل الصحابة يسألون عمر أن يستخلف عليهم من يراه، فأبى عمر أن يُسميَ شخصاً بعينه، واستدعى ستة من الصحابة الذين توفي الرسول ﷺ وهو راض عنهم وهم: عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، وكان طلحة غائباً، فجاء الخمسة فطلب منهم أن يتشاوروا فيما بينهم ويختاروا أحدهم للخلافة. واستدعى المقداد بن الأسود وطلب منه أن يجمع الستة، بعد دفنه، في بيته، وأن يمهلهم ثلاثة أيام حتى يختاروا خليفة منهم. وأمر صهيباً أن يصلي بالناس إلى أن يتم اختيار الخليفة.

وذهلت المدينة للحادث وتجمع الناس حول بيته ينتظرون الخبر اليقين، واشتدت وطأة الجراح على عمر فأرسل إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يستأذنها أن يدفن في حجرتها إلى جنب الرسول ﷺ وأبي بكر، وجاء الرسول فوجد عائشة تبكي لِمَا علمت من الأمر فقالت: لقد كنت أعددت المكان لنفسي، ووالله لأوثرن أمير المؤمنين.... وعاد الرسول الى عمر بالإذن، فظهر السرور على وجهه، وتجمع أبناؤه وزوجاته حوله يذرفن الدموع، فلمّا صحا ورآهن نهرهن وشددّ عليهم ألا ينوحوا عليه. ومرت ثلاثة أيام وعمر بين الموت والحياة، واشتدت الجراح عليه وكثر إغماؤه. فكان كلما صحا يسأل عن الصلاة وعن الناس ثم يعود إلى الغيبوبه...

وذكر الناس دعاء كان يدعو به عمر ويقول: اللهم اني أسألك شهادة في

سبيلك، وموتاً في بلد رسولك. وذكر الذين صحبوه إلى الحج في ذلك العام أنه نزل في الأبطح ودعا دعاء طويلا شكا فيه إلى الله سبحانه وتعالى ضعف قوتة وانتشار رعيته وخوفه من التقصير، وسأله أن يقبضه إليه وأنّ يمن عليه بالشهادة في بلد النبي ﷺ، وشاء الله أن يستجيب له دعاءه فما إن مرت أيام ثلاث على اصابته حتى فاضت روحه الطاهرة، وخرج الناعي يطوف أحياء المدينة ويخبر بوفاته، فبكى الناس بكاءً شديداً وتقاطروا إلى المسجد للصلاة عليه. وهكذا رحل عمر مع رحيل السنة الثالثة والعشرين للهجرة ودفن في أول محرم عام أربعة وعشرين للهجرة، وفقدت المدينة، بل فقد المسلمون كافة ، قائداً عظيماً وحاكماً لم يعرف التاريخ له مثيلاً.

شكل القبور الشريفة بعد دفن عمر بن الخطاب

على رواية القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق

طول جدار الحجرة الشمالي ١١ ذراعاً وربع وسدس ذراع وتعادل = ٥٢٥ سم

عرض جدار الحجرة الغربي ٧ أذرع ونصف وثمن ذراع وتعادل = ٣٤٣ سم

عرض جدار الحجرة الشرقي مثل الغربي

طول جدار السيدة عائشة نحو ٥٠٤ سم

قبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه

قبر النبي صلى الله عليه وسلم — ١٧٠ سم × ٩٠ سم

قبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه — ١٧٠ سم × ٩٠ سم

طول جدار الحجرة الجنوبي ١٠ أذرع وثلثا ذراع وتعادل = ٤٨٠ سم

المدينـــة فـــي خلافـة عثمـــان بـــن عفـــان

ما أن فرغ أهل المدينة من دفن فقيدهم الكبير عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى تعلقت أعينهم بمجموعة الشورى التي أوصى عمر أن تتولى اختيار الخليفة، فقام الوصي على المجموعة المقداد بن الأسود بجمعهم في بيت (المسـور بن مخرمة) وطلب منهم أن يتفقوا على واحد منهم خلال المهلة المحددة وهي ثلاثة أيام، فلا يصح أن يبقى المسلمون بلا خليفة أكثر من ذلك. وقام صهيب الرومي رضي الله عنه بالإمامة خلال الأيام، والإمامة كما هو معروف إحدى مهام الخليفة، ومظهر وحدة العمل السياسي والديني في القيادة الإسلامية.

وكان طلحة بن عبيد الله غائباً عن المدينة، فذهب إليه الخبر ليحضر، ولم تنتظرالجماعة عودته، فباشرت عملها على الفور، واجتمع الخمسة الباقون: عثمان وعلي والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف، وبدؤوا مداولاتهم: مَنْ الذي يحمل العبء بعد عمر...

كان الزبير وسعد وابن عوف يحسون ضخامة العبء الذي تركه عمر، وكانوا يرون أن عليا أوعثمان أقدر على حمل المسؤولية وأحق بالتقدمة منهم، ولكل منهم اجتهاد في تقديم أحدهم على الآخر، أما الزبير فكان يرى تقديم علي، وأما سعد فكان مترددا بينهما، ويرى أن لكل منهما فضلاً يكافيء فضل صاحبه. وأما عبد الرحمن بن عوف فكان يرى أن الأمر يحتاج الى بحث عميق واستشارة القريب والبعيد. وأحس عبد الرحمن بن عوف أن الحوار بين أفراد الجماعة لن يؤديَ إلى نتيجة سريعة، وعلى العكس قد يفتح أبوابا للخلافات يطول أمرها... فاقترح حلاً عملياً يغني عن الحوار والجدل، اقترح أن يخلع أحد الخمسة نفسه من الخلافة ويقوم هو باختيار واحد من زملائه الأخرين بعد بحث وتدقيق. فوافق الآخرون، واشترط علي رضي الله عنه على من

سيقوم بذلك أن يعطي المواثيق على العدل والحياد ومراقبة الله عز وجل في اختياره، وألا تدفعه عوامل القربى أو الصداقة... فقبل الجميع ذلك الشرط. وطلب عبد الرحمن بن عوف من الآخرين أن يقوم أحدهم بذلك، فصمتوا، فتقدم الى حمل المهمة وخلع نفسه، فأعلن أنه غير راغب في تولي الخلافة، وأنه سيقوم باختيار واحد من زملائه بعد تنقيب طويل، وأعطى العهد والمواثيق على الأمانة ومراقبة الله عز وجل.

وبدأ عبد الرحمن جلسات انفرد بها مع كل واحد من زملائه في المجموعة، وبماأن سعداً والزبير لايرشحان نفسيهما، فقد أصبح الأمر محصوراً بين عثمان وعلي، ولابد من اختيار أحدهما ليكون الخليفة. وكان في قدرة عبد الرحمن بن عوف أن يحسم الأمر وفق اجتهاده في الصحابيين الكريمين أو بالقرعة، كما يحدث عادة في حالات تساوي فردين أو فريقين في نتيجة ما... ولكنه أدرك أن ألأمر أعمق وأخطر من ذلك، لذا لم يقضِ باجتهاده الشخصي وحده، بل آثر أن يرجع إلى أهل الرأي ويسألهم ويسمع آراءهم.. وأن يستمزج آراء مجموعات مختلفة من عامة الناس أيضا.

فخرج إلى من يأنس فيهم بعد النظر وحصافة الرأي، وراح يجلس إلى كل واحد منهم على حدة ويسأله سؤالاً عاماً: من الذي يتوقعه خليفة للمسلمين بعد عمر؟ ولماذا؟ وينصت بعناية لما يقوله صاحب الرأي، وربما يسأله بعض الأسئلة ليتعمق رأيه. ومضى شطر اليوم الثاني، وهو ينتقل بين كبار الصحابة والذين في الأنقاب وأمراء الجند وسادة القبائل الذين وفدوا على المدينة عندما سمعوا باغتيال الخليفة. ثم تلثم وخرج مساءاً الى بعض أحياء المدينة يستوقف رجلا هنا وآخر هناك ويسألهم سؤال المستخبر: من تراه سيكون الخليفة بعد عمر؟ ووجد الاجابات محصورة في النطاق ذاته: عثمان أو علي، وكل يدلي بوجهة نظره في تقديم أحدهما على الآخر... ورجع عبد الرحمن إلى البيت متعباً، ولم يبق من مهلة الأختيار إلا سويعات، وعاد فجلس إلى

عثمان على انفراد، وساره طويلاً وسمع منه، ثم جلس إلى علي طويلا وساره وسمع منه حتى أذن الفجر... فاتجه إلى المسجد، وأرسل من يخبر وجوه القوم من المهاجرين والأنصار وأمراء الجند، واجتمع الناس بعد صلاة الفجر حتى غصّ بهم المسجد، ووقفوا على الأبواب، وجاءهم عبد الرحمن بن عوف وعليه عمامته التي عممه بها رسول الله ﷺ ومتقلداً سيفه، وصعد المنبر ووقف طويلا يدعو دعاء لم يسمعه الناس، ثم تكلم فقال: أيها الناس، قد سألتكم سراً وجهراً عن إمامكم فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين؛ إما علي وإما عثمان، فقم إلي ياعلي، فقام اليه حتى وقف، فأخذ عبد الرحمن بيده، وقال: عليكَ عهدُ الله وميثاقه لتعملنّ بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخليفتين من بعده، فقال علي: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي. فأرسل يده، ونادى على عثمان، فقام إليه، فأخذ بيده وسأله: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخليفتين من بعده. فقال عثمان: اللهم نعم. فرفع عبد الرحمن رأسه الى سقف المسجد، ويده في يد عثمان ثم قال: اللهم اسمع واشهد. اللهم إني جعلت مافي عنقي من ذلك في عنق عثمان. وجلس عبد الرحمن على درجة المنبر وأقبل الناس إلى عثمان يبايعونه (١).

ولما فرغ أهل المسجد من البيعة، صعد عثمان المنبر وخطب في الحاضرين خطبة قصيرة أوصاهم فيها بتقوى الله ومراقبته في السر والعلن والزهد في الدنيا والتطلع إلى ثواب الله في الآخرة....

---

١) يعلل بعض المؤرخين ترجيح عثمان على علي بعدة أسباب، منها سابقة عثمان إلى الاسلام، فقد كان رابع رجل يدخل في الاسلام، ثم فضله وسخائه في سبيل الله، فهو الذي جهز جيش العسرة، ثم إصهاره إلى النبي ﷺ في ابنتيه رقية ثم أم كلثوم، ثم هجرته إلى الحبشة مع المهاجرين الأولين، وبالإضافة الى ذلك ربما خشي بعضهم من أن يؤدي اختيار علي الى بقاء الخلافة وراثية في بيت هاشم لاتخرج منه أبداً انظر: عبد العزيز سالم: التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية ص ٢٩٠

وهكذا انتهت دوامة اختيار الخليفة دون صراعات أو منافسة، ولم يتخلف أحد عن البيعة . وفي آخر النهار وصل طلحة بن عبيد الله عضو جماعة الاختيار الذي كان غائباً خارج المدينة، وحدثه الناس بأمر البيعة، فسأل: أكل الناس بايعوا؟ فقالوا: نعم. فأتى عثمان، فقال له عثمان: أنت على الخيار في الأمر، وإن أبيت أن تبايع رددتها (أي تنازلت عن الخلافة) فقال طلحة: أكل الناس بايعوك؟ فقال: نعم، فقال: رضيت، ولاأرغب عما أجمعوا عليه.

وفي حي آخر من المدينة، وقبل أن تتم البيعة لقي عبد الرحمن بن أبي بكر عبيد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وعزاه بفقد والده، ثم حدثه عما رآه قبيل اغتيال أبيه بيوم. قال عبد الرحمن: مررت على (أبي لؤلؤة) عشية أمس، وكان عنده (جفينة) النصراني (والهرمزان) الفارسي يتناجون بصوت خافت، فلماَ اقتربت منهم فوجئوا بي واضطربوا وتباعدوا قليلاً وسقط منهم خنجر له رأسان.. كذاك الذي قتل به عمر، فغلى الدم في عروق عبيد الله بن عمر، وأحس أن قتل أبيه مؤامرة دبرها أولئك، وأن (أبا لؤلؤة) الذي قتل نفسه واحد من رؤوس المؤامرة، ولا بد من الانتقام منهم جميعا . فانطلق وهو في غضبه وحزنه العميق، فأخذ سيفه وسار في دروب المدينة وهو يقول: والله لأقتلن رجالا ممن شرك في دم أبي، حتى لقي (جفينة) فعلاه بالسيف. فلما أحس جفينة بالموت رفع يديه بالصليب، وهوى مع ضربة السيف... ثم لقي (الهرمزان) وأهوى بالسيف عليه، فلما أحس الهرمزان بالموت نطق بالشهادتين، وملك الغضب عبيدَ الله فقتل مع الهرمزان ابنة (أبي لؤلؤة) قاتل أبيه.... وأحس المسلمون بما يجري فهرعوا إلى عبيد الله وأحاطوا به والدم يتقاطر من سيفه، وهو في حالة هيجان شديد، واقترب منه عمرو بن العاصُ يلاقيه ويهدئه ويفديه بأبيه وأمه، حتى أمسك بسيفه، فهجم سعد بن أبي وقاص عليه وجره من شعره وطرحه أرضا حتى تمكن منه وربطه بحبل وأخذه إلى بيته، إلى أن يختار الخليفة فيحكم فيه.

وراح الناس يتحدثون عن ثأر عبيد الله مثلما يتحدثون عن اختيار الخليفة. واختلفت فيه الآراء، أيقام عليه الحد أم لا. وهل (الهرمزان) مسلم صحيح الإسلام فقتلُه دون محاكمة جريمة؟ أم إنه مجوسي منافق ومتآمر؟ وماذا عن ابنة أبي لؤلؤة.

وهكذا مثلما انتظر الناس قرار مجموعة الاختيار من خلال قرار عبد الرحمن بن عوف.. انتظروا ماذا سيفعل الخليفة الجديد في هذا الحدث الكبير؟.

فلما انتهت أمور البيعة وبدأت أول أيام خلافة الخليفة الجديد، كانت القضية الأولى التي تواجهه هي قضية عبيد الله بن عمر... فجاء عثمان وجلس في ناحية المجلس، وفيه عدد من المهاجرين والأنصار، وذهب سعد بن أبي وقاص ليأتيه بسجينه، فقال لهم: أشيروا علي في هذا الذي فتق في الاسلام مافتق. فقال علي: أرى أن تقتله، وقال بعض المهاجرين قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم؟ لايكون هذا. فقال عثمان: أنا ولي هؤلاء المقتولين (إذ لم يكن لهم ولي في المدينة) وقد جعلتها دية، واحتملتها في مالي. وأمر غلامه أن يحمل من ماله الخاص دية الثلاثة ويجعلها في بيت مال المسلمين.. إذ لا وريث للمقتولين الثلاثة. وأطلق سراح عبيد الله بن عمر.....

وكان قرار الخليفة عثمان رضي الله عنه نموذجاً لعدد كبير من قراراته اللاحقة، تنظر بحلم ورفق، وتتحمل المسؤولية ولو أدى الأمر إلى أن يبذل من ماله، وعثمان رجل اللين والسخاء عرف بعطاءاته وإنفاقه في سبيل الله مرات كثيرة، وقدحمل الخلافة وهو يخطو إلى السبعين من عمره...

تغييرات في حياة المدينة:

بدأت معالم التغيير في عهد الخليفة الجديد من الأيام الأولى، فقد زاد

عطاء الناس عما كان عليه في عهد عمر(١)، ولكن الى جانب هذه الوفرة بدت ظاهرة غريبة لعلها من نذر التغيير أيضا..

ففي العام الأول من الخلافة انتشر بين أهل المدينة حالات من الرعاف لايعرف لها سبب ، يفاجأ المرء بالدم يسيل من أنفه دونما حادثة أو مرض، فيعمد الى مايوصي به الأطباء من استنشاق ماء مملح أو نقيع بعض النباتات فيذهب عنه الرعاف، وقد يعود بعد مدة ، فيعاود الدواء، حتى ينقطع.. وقد أصيب به عثمان وألحت عليه الاصابة حتى ظن أنه سيموت فيها فكتب وصيته واستخلف (٢) ولم يجد الأطباء تفسيراً لهذه الحالات، فلما انقطعت، انقطع حديث الناس عنها.... فهل كانت هذه الحادثة نذيراً بما سيسيل من دماء طاهرة في بعض بيوت المدينة ؟ الله أعلم.......

أما الشطر الأول من ملامح التغيير ـ الوفرة ـ فسرعان ما بدت آثارها في أحياء المدينة وأسواقها ، وفي ثياب بعض الناس وطعامهم وأسفارهم.

وخارج المدينة كان الجهاد مستمراً في الآفاق يفتح للمسلمين مدناً في أرض الروم وأرمينيا ويصل إلى كابل، وفي افريقيا حيث يمضي عبد الله بن أبي السرح في شمالها، وفي قبرص واصطخر وطبرستان وكرمان وسجستان...

وكانت بعض المدن المفتوحة قريباً تنتهز غيبة المسليمن فتنتقض عليهم وتشق عصا الطاعة، كالإسكندرية وبعض مدن خراسان، فيكر عليها الجيش الإسلامي وينهي عصيانها... وكانت الغنائم تتجمع في الأمصار وتقسم على المجاهدين وربما أعطي بعض القادة مكافأة سخية على بلائهم لم يكونوا قبل ذلك يحظون بها ، وكانت البقية ترسل الى المدينة لتقوي بيت المال وتوزع على المسلمين...



---

١) الطبري ٢٤٢/٤.

٢) تاريخ المدينة المنوره ١٠٢٨/٣

وقد بلغت وفرة الغنائم في بعض فتوح إفريقيا قدراً أصاب فيه الفارس ثلاثة آلاف دينار. وكان الرجل يكتتب في الفتوح مدة رغبته في الجهاد، فيؤتيه الله مع أجر الجهاد رزقاً حسناً يعود به إلى أهله، ثم يجد نصيبه من العطاء.. وتأتي الأرزاق إلى المدينة من الغنائم أوالفيء أو الخراج، فتوزع على الناس في حينه، ويروي الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه أدرك زمن عثمان (وما من يوم إلا وهم يقسمون فيه خيراً، يقال: يا معشر المسلمين اغدوا على أرزاقكم، ويأخذونها وافرة، يا معشر المسلمين اغدوا على كسوتكم، فيجاء بالحلل فتقسم، حتى والله يقال: اغدوا على السمن والعسل (١) ويروي عروة بن الزبير أنه أدرك زمن عثمان، وما من نفس مسلمة إلا ولها في مال الله حق..

وقام عثمان بأمور الخلافة خير قيام، فكان على سيرة صاحبيه أبي بكر وعمر في مجالسه، وفي استشارته وجوه الصحابة وأهل الحل والعقد.. وكان علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير وطلحة وغيرهم من مستشاريه وقضاته. وكان يهتم بأمور الأسواق ويتفقدها بين الحين والحين، يدخل إليها على بغلته، أو يمشي بين مباسطها وينظر فيما يفعله التجار ويراقب الطعام.. وبلغه مرة أن بعض أهل السوق يحتكرون بعض السلع، فزجرهم ونهاهم نهياً شديداً.. ودخل السوق مرة فرأى الزبير يضرب نفراً يحتكرون فأقره على فعله رغم مافيه من تجاوز لسلطاته، ولم يكتف بذلك، بل عين مسؤولا عن السوق يقيم فيه ويراقب البيع والشراء ويحكم في الخلافات ويرفع إليه ما يحدث... ومع وجود هذا المسؤول كان يتفقد السوق ويراقبه بنفسه، خاصة وأنه تاجر بارع طالما عمل في السوق قبيل الخلافة وكسب فيها ماكسب.

واتخذ أيضا شرطة يراقبون أحوال المدينة ويطوفون في شوارعها

---

١) السابق ٣/١٠٢٣.

وأسواقها ومزارعها، ولكنهم كانوا قليلي العدد وأشبه بمراقبي البلديات، وكان رئيسهم عبد الله بن قنفذ السهمي(١).

وتوالت السنوات الأولى في عهد عثمان رضي الله عنه والناس في دعة وطمأنينة وخير كثير، والله ينصر المسلمين في الآفاق ويهزم المشركين، ويرزقهم رزقاً من الغنائم والفيء والخراج والتجارة والزراعة والصناعة.... وخرج عدد من الصحابة من المدينة المنورة فقصدوا الكوفة والبصرة والشام ومصر وغيرها.... ولقوا هناك خيراً كثيراً. وبدأ الناس في المدينة وخارج المدينة ينعمون بما آتاهم الله من رزق حسن، فبنوا البيوت الواسعة واتخذوا الأثاث المريح والطعام الطيب، وامتدت المساكن في المدينة تملأ الفجوات الواسعة بين الأحياء، واتصل وسط المدينة بأطرافها، وبلغ البناء جبل سلع وتجاوزه إلى منازل في القبلتين، واتصل مابين قباء والعوالي ، وامتدت المساكن الى طرف العقيق(٢)، وبنى سعد بن أبي وقاص بيتاً واسعاً على أحد أطرافه، وبنى المقداد بن الأسود دارا بالجرف، وبنى عثمان داراً بالزوارء على مرتفع من الأرض، وبنى الزبير داراً واسعة غير بعيد عنه. وجصصت البيوت، وارتفعت بعض أسوارها، وضمت أحواشاً كبيرة، في بعضها النخل وفي بعضها شيء من الخضرة...

وما لبث عثمان أن أقطع بعض الصحابة آراضي يزرعونها أو يؤجرونها لمن يزرعها، وكان أول من نال أعطياته الزبير بن العوام وسعد بن ابي وقاص وعبد الله بن مسعود وخباب بن الأرت وأسامة بن زيد، وأقطع غيرهم.... وكثر المال في أيدي الناس، وأخذ بعضهم ينفقون منه بسخاء حتى بيعت

---

١) انظر : تاريخ المدينة المنوره ٩٦٢/٣ ونهاية الأرب ٥٠٩/١٩.

٢) ابن خلدون ٥٨٨/٢.

جارية بوزنها، وبيعت فرس بمئة ألف درهم، وبيعت نخلة بألف درهم(١) وتجمعت ثروات كبيرة بالنسبة لذلك العصر، ويروى أن تركة يعلى بن أمية بلغت خمسمئة ألف دينار، وديوناً على الناس، وعقارات بثلاثمئة ألف دينار(٢) ، وعمت السعة أهل المدينة بعامة، وعمتهم في الأمصار أيضا، وقويت الوشائج وحسنت العلاقات، فلا تسمع في هذه السنوات خبراً سيئاً، ولعل خير مايصور وداعة تلك المرحلة وطمأنينة المسلمين وإخاءهم فيها قول الحسن بن علي: أدركت زمن عثمان والعدو ينفر (مغلوب) والعطيات دائرة، وذات البين حسن والخير كثير، وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً.

وطبيعي في جو الدعة والطمأنينة هذا أن يميل بعض الناس إلى مزيد من الراحة والتسلية، وأن يبحثوا عن وسائل جديدة للترفيه، وقد ظهرت هواية الرمي على الحمام بالجلاقات(٣) نحو الهدف فإذا أصاب حماماً أو نحوه قتله. ويروى السيوطي أن أول منكر ظهر في المدينة حين فاضت خيراتها طيران الحمام والرمي على الجلاقات(٤)، كما ظهرت لعبة النرد في بعض البيوت، واشتغل بها عدد من الناس، فتصدى عثمان بن عفان رضي الله عنه لهذه الظواهر السلبية، وعين رجلاً شديداً لكسر الجلاقات وهدم أبراج الحمام المخصص لهذاالغرض(٥) ونهى نهياً شديداً عن ممارسة لعبة النرد، وهدد في إحدى خطبه بأنه سيطوف على البيوت التي فيها نرد فيحرقها(٦).

والحق أن عثمان، على ما كان عليه من تقدم السن واللين والسماحة، لم

---

١) تاريخ المدينة المنوره٣/١٠٢١.

٢) التاريخ السياسي ٢٩٤.

٣) الجلاّقة : قوس يرمى به البندق بدلا من السهام ، والبندق حصى متوسطة الحجم

٤) تاريخ الخلفاء ١٨٣.

٥) السابق نفسه ١٨٣.

٦) تاريخ المدينة المنوره ٣/٩٨٨.

يتساهل في القضاء على المنكرات وإقامة حدود الله على الإطلاق.

استمرت هذه الفترة أكثر من ست سنوات، شهدت فيها المدينة - إضافة الى الإنجازات المالية والعمرانية - إنجازات أهم وأبعد أثراً في حياة المسلمين ومستقبلهم.. شهدت جمع المصحف وتوحيد نسخه، وشهدت إعادة بناء المسجد النبوي وتوسيعه.

توحيد نسخ المصحف:

في السنة الثلاثين للهجرة عاد حذيفة بن اليمان من الجهاد في الثغور إلى المدينة فزعا، وسارع إلى عثمان رضي الله عنه في بيته وهتف بعثمان: «أنا النذير العريان، فأدرِك الأمة». فسأله عثمان جزعاً عن الأمر الذي ينذر به، فأخبره بأنه شهد في رحلته الجهادية اختلافا بين بعض الناس في قراءة القرآن، وتمسك كل فريق بما يذهب إليه في قراءته، والخطر الذي يمكن أن يفضي اليه ذلك الخلاف إذا استمر وامتد... فأدرك عثمان أبعاد مايحذره منه حذيفة، وأرسل إلى وجوه الصحابة واستشارهم في أن يجمع المصاحف الموجودة وكل ما كتب عليه القرآن من أوراق وجريد وعظام، ويوكل إلى خيرة من بقي من الحفظة والمدققين كتابة مصحف يجمع السوَر والآيات كلها ويضبطها في رواية موحدة.. فاستحسنوا رأيه، فكلف مجموعة من الصحابة هم: زيد بن ثابت وسعيد بن العاص، وفي رواية النويري أنه كلف معهم عبد الله بن عباس وعبد الله ابن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعبد الله بن عمرو بن العاص، بالجمع والمقارنة، وأرسل إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر لترسل إليه المصحف الذي جمع في عهد أبي بكر، وكان محفوظا عندها، ليقارنوا به ويتخذوه مصحفاً رئيساً فأرسلته إليهم. وكان زيد بن ثابت أحفظ الجماعة، فأمر أن يملي زيد وأن ويكتب سعيد، وأكب الجماعة على العمل، وأوصاهم عثمان رضي الله عنه بتقصي كل آية يسمعون بها، وأن يستوثقوا من روايتها، ويستشهدوا على الراوي، فإذا تمت النسخة قام

الآخرون ونسخوا عنها نسخا للأمصار (قيل أربعة وقيل سبعة) وقام الجماعة بعملهم خير قيام، واجتهدوا فيه حتى تم لهم جمع القرآن ونسخه في نسخ عدة، بقيت واحدة في المدينة، وارسلت نسخة إلى كل عاصمة من الغواصم الكبيرة آنئذ، الكوفة والبصرة والشام (وفي روايات آخرى مكة واليمن والبحرين) وأُعيدت نسخة حفصة إليها(١). وأمر عثمان بما جُمع من أوراق وصحف وكل ما كُتب عليه شيء من القرآن فأتلف أو دفن أو أحرق.. وأمر الناس بالقراءة على تلك المصاحف والنسخ عنها، فكان لعثمان، ولمن عمل معه في هذا العمل المبارك، فضل حماية المسلمين من التشتت في كتابهم الأكبر، كتاب الله العزيز الحكيم٠وصدق الله العظيم: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»٠

تجديـد المسـجد النبوي وتوسـيعه:

في عام تسعة وعشرين للهجرة رأى عثمان رضي الله عنه المسجد يضيق بالناس، وبخاصة يوم الجمعة، حيث يتوافدون من الأحياء البعيدة وضواحي المدينة، وفي مواسم الزيارة، وشكا بعض الناس الضيق، فاستشار كبار الصحابة في أن يعيد بناء المسجد ويوسعه، فاستحسنوا رأيه، فصلى الظهر بالناس، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: اني أردت أن أهدم مسجد رسول الله ﷺ وأزيد فيه، وأشهد أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من بنى مسجداً بنى الله تعالى له بيتا في الجنة. وقد رأيت أن لي فيه سلفا هو الامام عمر بن الخطاب رضي الله عنه زاد فيه وبناه، وقد شاورت أهل الرأي من أصحاب رسول الله ﷺ على هدمه وبنائه وتوسعته٠) فحسن

---

١) تاريخ المدينة المنوره ٢/٩٩٢-١٠٠٤

حجرة حفصة

الشمال

باب السلام

باب جبريل

باب النساء

باب الرحمة

حجرة صفية

المسجد النبوي الشريف في عهد عثمان بن عفان

الناس ذلك ودعوا له(١).

وفي صبيحه الأول من ربيع الأول عام ٢٩هـ بدأ العمال يزيلون سقف الجريد والجدران الطينية للمسجد، وعمل عثمان معهم بنفسه، واستمر يتردد عليهم كل يوم فينظر ماينجزون.... ثم بدأت عملية البناء، واستغرق العمل عشرة أشهر متلاحقة، وعثمان وكبار الصحابة يترددون على الموقع ويتشاورون، وكانت الحجارة تنقل من جبال المدينة، وتنحت وتنقش، وترفع بها الجدران وأعمدة المسجد، ويصب الرصاص في أصول الأعمدة وامتداداتها ويرتفع البناء يوماً بعد يوم، وعثمان لايغيب عنه يوماً، وإذا حضرت الصلاة صلى بمن هو موجود في المكان.

وفي شهر محرم عام ثلاثين للهجرة انتهى العمل في المسجد، ارتفع سقفه بأعمدة حجرية مدعمة بالرصاص، ووضعت فتحات للتهوية والإنارة، وجصصت جدرانه، وبنيت مقصورة من لبن طيني عند المحراب ليصلي فيها الخليفة، وكان لجدار المقصورة فتحات يرى منها الإمام، وقد كلف عثمان حارسا بالصلاة خلفه تحسبا من عدوان غادر، كعدوان (أبي لؤلؤة) على عمر رضي الله عنه، ثم فرش المسجد، وطيبه بعطر نادر تفوح رائحته على المصلين، وجعل له إضاءة ليلية(٢). وتقاطر المسلمون في أول جمعة من شهر محرم على المسجد، ودخلوا فرأوا سقفه المرتفع وجدرانه الحجرية المجصصة وأعمدته المنقوشة، ورأوا سعته التي تستوعب الأعداد الكبيرة.

وقد دهش الكثيرون من هذا التغيير فسر به بعضهم، وأنكره بعضهم الأخر، ورأوا في التجديدات المحدثة مخالفة لما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ. فذكرهم عثمان أنه أخبرهم بما سيفعله قبل أن يبدأ العمل، وأنهم وافقوا عليه، ومن قبلهم وافق أهل الرأي من الصحابة، وبين لهم مميزات ما

---

١) أخبار المدينة ص٩٧٠.

٢) تاريخ المدينة المنوره١/ ٧٠.

فعل، فأقره أكثر الناس على ذلك ودعوا له.....

وهكذا توالت أيام الدعة والطمأنية زمن عثمان رضي الله عنه، والناس في راحة ورخاء يترفق بهم عثمان في أمور حياتهم.

اعتراض أبـــي ذر :

أنكر الصحابي الجليل أبو ذر رضي الله عنه تلك الدعة والثروة على الناس، وكان أبو ذر ممن يؤثر الزهد والتقشف، وكان نسيج وحده في اجتهاداته منذ أيام إسلامه الأولى، وقد قال فيه الرسول ﷺ: رحم الله أبا ذر، يمشي وحده ويموت وحده. وكان قد خرج إلى الشام، فلما رأى ما فشا في أيدي الناس من المال وما بنوه من الدور، أنكر عليهم ذلك، ويروي الطبري أن ابن سبأ استثاره، وكان أبو ذر عاطفياً، فتأثر بكلامه، وأخذ يتكلم بين الناس بما نشأ من المال ويطلب منهم أن يعودوا إلى حياة التقشف والزهد، ثم ذهب إلى معاوية واشتد عليه في القول، وكان معاوية يعرف مذهبه بالتقشف والزهد، فاحتمل منه، فلما بدأ يتكلم في الناس خشي أن يثير فتنة، فشكاه إلى عثمان، فاستقدمه عثمان إلى المدينة وحاوره في الاستمتاع بالرزق الحلال في حدود ما أحله الله. ولكن أبا ذر الذي يميل بطبيعته إلى الأخذ بالعزائم والإعراض عن كثير من المباحات، تشدد، ورفض حياة الراحة والرخاء، واستأذن في أن يخرج من المدينة إلى الربذة، لأنه سمع حديثا من رسول الله ﷺ يحضّه على الخروج إذا بلغ العمران جبل سلع (وقد بلغ العمران جبل سلع) فأذن له عثمان، فخرج إليها، وظل يتردد على المدينة بين الحين والآخر ليصلي في مسجد رسول الله ﷺ، ولم يلبث أن مات في الربذة سنة ٣٢هـ دون أن يكون لرأيه واجتهاده أثر في إثارة أية فتنة أو قلاقل، كما

تزعم بعض الكتابات الحديثة المغرضة(١).

كان عثمان ليناً مع الرعية في أمور حياتهم، يريد لهم السعة والرخاء، ولكنه كان يأخذهم بالحزم في أمور دينهم، فلا يتساهل في إقامة الحدود وعقوبة المخطئين..... حتى الشعراء الذين ساءت طويتهم وساء لسانهم نالوا من عقوبته. وحدث أن الشاعر ضابيء البرجمي هجا أحد المسلمين هجاء فاحشاً، واتهم أمه أنها تزني بكلب، فارتاع عثمان لهول ماسمع به، وضرب ضابئاً ثم سجنه فمات في السجن. وأقام الحد على امرأة زانية... وأما ماسوى حدود الله، فكان يسع الناس بحلمه، ويخالطهم، حتى ليردف الرجل وراءه ليسمع منه.

ولكن ماتلبث أن تظهر من بعد نذر للشر تحدث شرخاً كبيراً في هذه الحياة المطمئنة، وتغرس فتنته عظيمة، تسيل فيها الدماء الذكية..

بـــذور الفتنـــة :

بدأت بذور الفتنه على يد رجل يهودي ماكر خبيث ادعى الإسلام اسمه عبد الله بن سبأ، جاء من اليمن وأعلن إسلامه في المدينة، وكان مريباً، يجيد الحديث مع الناس ويجلس إليهم طويلا ويقلب معهم الآراء حتى ليكاد يزيغهم ببراعته، بدأ ابن سبأ بإثارة تساؤلات تترك في النفوس أثاراً مقلقة، تساؤلات عن الخليفة وتصرفاته، لاليجد الإجابة، بل ليلقي في نفوس المسلمين ظنوناً قاتمة حول الخليفة. وسرعان ماأدرك أهل المدينة سوء طويته فانتهروه، ثم أعرضوا عنه ثم هددوه. فلما يئس من أن يحدث فيهم حدثا خرج من المدينة إلى البصرة، حيث أخذ يعيد الكرة، فيتحدث عن الأمير والإمارة، ويتسقط

---

١) صورت بعض الكتابات المغرضة أبا ذر داعية من دعاة الاشتراكية وافترت عليه وعلى عثمان الكثير ، وهما بريئان من من تلك الافتراءات وأخباره في كتب التاريخ القديمة لاتتجاوز مالخصناه في السطور السابقة ، انظر : الطبري ٢٨٣/٤ - ٢٨٦.

الأخبار والحكايات ويحرفها، حتى ليدخل في روع من يسمعه أن الناس في ضيق وشدة من ظلم الأمير، وأن الذي ولى الأمير أظلم وأعنت، وما الأمير إلا أحد أقارب الخليفة وأهله.

وقد تأثر به بعض الناس وأخذوا يرددون آراءه، وما هو إلا قليل حتى انكشف أمر ابن سبأ في البصرة، فأُخرج منها، فذهب إلى الكوفة... فأخرج منها بعد أن شاع حديثه. فذهب إلى مصر، وهناك بدأ لونا جديدا من الدعوة أشد وأنكى، بدأ يحدث الناس عن رجعة مزعومة لرسول الله ﷺ على نحو ماسيرحع عيسى، ويؤكد ذلك بتفسير أعوج لقوله تعالى (ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى مَعاد) ثم أخذ يشيع أكذوبة أخرى توصله إلى أول طريق الفتنة، وهي أن لكل نبي وصي، وأن وصي محمد رسول الله ﷺ هو علي بن أبي طالب، فعلي أحق بالخلافة من عثمان، وعثمان قد غصب الخلافة منه، وعلى الناس أن يثوروا على أمرائهم وخليفتهم ويعيدوا الحق إلى نصابه تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(١) وقد أثرت دعوة ابن سبأ في نفر من الناس في مصر، وراح هؤلاء يتسقطون عثرات الوالي عبد الله بن أبي السرح، ويضخمونها ويشيعونها، وينتقلون منه إلى الخليفة فيشيعون الكلام فيه أيضا، واستمالت هذه الدعوة عدداً من الشخصيات الكبيرة أمثال محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة(٢)، ثم اتسعت الدعوة وكثر أنصارها، وبرع صاحبها الأول ابن سبأ في إبعاد شخصه واسمه وتحريك الأحداث من وراء الستار، ثم تطور الأمر إلى الاتصال ببعض الشخصيات في البصرة والكوفة والمدينة والتأثير فيها.

---

١) انظر الطبري ٤/٣٤١.

٢) الطبري ٤/٢٩٢.

يقول الطبري عن نشاط ابن سبأ ومن شايعه: (فقد كاتب من كان في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها عن عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون فيقرؤه أولئك في أمصارهم، وهؤلاء في أمصارهم ، حتى تناولوا المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة)(١).

أحدثت هذه الحركة الماكرة اضطرابا في صفوف العامة، مالبث أن انتقل إلى الخاصة، وبدأ بعض الناس يجهرون بالنقد اللاذع للولاة.. وفي المدينة بدأت تشيع آثارها أيضا، وتجرأ بعض الناس على الخليفة عثمان وتحدثوا في المجالس عن أخطائه، وكان من أهم ما أخذوه عليه: تعيينه عدداً من أقاربه في الولايات، ومنحه خمس الخمس (أي أربعة بالمئة) من غنائم فتوح افريقيا لقائد تلك الفتوح وواليه على مصر عبد الله بن أبي السرح(٢) واعطاؤه بعض العطايا السخية لآخرين (وكانت عطاياه من ماله الخاص)(٣) وشاع اللغط حول عثمان في الأمصار، ونقله بعض المتأثرين بعبد الله بن سبأ إلى المدينة، وتردد بعض الصحابة في نقل هذه المقولات إلى عثمان أول الأمر. وكلفوا ابن أخته عبد الله بن عدي بذلك(٤) ولكن عبد الله لم يحسن نقل المقولات بحجمها الحقيقي، لذلك لم يأبه لها عثمان، وقابلها بماليديه من ثقة بنفسه وأمانته ونظرته العطوفة.. ثم تكلم فيها عمار بن ياسر رضي الله عنه

---

١) الطبري ٣٤١/٤.

٢) كان عثمان رضي الله عنه قد أعطى عبد الله بن أبي السرح خمس الخمس لبلائه في فتح أفريقيا فلما اعترض بعضهم على العطية أمره عثمان بردها فردها. انظر: الطبري ٢٥٤/٤ مع أن الإمام مالك يرى أنه يصح للإمام أن يتصرف بالخمس كله ولو أعطاه لواحد لجاز. أنظر: العواصم من القواصم ص ٧٩

٣) انظرالطبري ٣٤٨/٤.

٤) تاريخ المدينة المنوره ٩٧٠/٣.

واشتد على عثمان وأغضبه حتى أمر بضربه وإخراجه من المجلس.. فاستفاد من هذه الواقعة ابن سبأ وأتباعه، وأضافوها إلى مقولاتهم في التشنيع على الخليفة، ثم بلغه أن واليه على الكوفة قد شرب الخمر، فاستدعاه وأقام عليه الحد وعزله، وولى مكانه سعيد بن العاص. وتكرر اللغط في المدينة وبلغ الخليفة، فأدرك الخليفة أن في الأمر مايريب، فجمع كبار الصحابة، واستشارهم في ما يفعله، وبخاصة في اللغط الشائع حول ولاته، فأشاروا عليه بإرسال من يتحرى الأمر.. فانتدب محمد بن سلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعبد الله بن عمر إلى الشام وعمار بن ياسر إلى مصر ليتحققوا من أفعال الولاة وما يشيع عنهم.. فذهب الأربعة ونقبوا في أعمال الولاة وسيرتهم في الرعية.. ورجع محمد بن سلمة وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد يثنون على الولاة خيراً، ويؤكدون للخليفة أنه لاصحة لما يشاع حولهم، أما عمار بن ياسر فقد نجح أتباع عبد الله بن سبأ في إقناعه بآرائهم وأوغروا صدره على الخليفة، لذا لم يؤدِ المهمة التي أوكلت إليه، ولم يعد إلى المدينة ، وبقي في مصر مع الساخطين على الخليفة وولاته..

خيوط المؤامرة:

وبدأ الناس في المدينة يحسون بنذر الخطر، فالكتب تتواصل إليهم من الأمصار بالشائعات وبما يسيء إلى الخليفة وولاته، والأخبار تتطاير عن تزايد عدد الساخطين في تلك الأمصار. والخليفة بلينه وحسن خلقه لايرى أخذهم بالشدة... ومالبث اللغط أن اشتد، وتحوّل الهمس الى الجهر، واجترأ بعض الناس على عثمان في المسجد بما لم يجترئوا به من قبل، وقد أورد ابن خلدون تحليلا عميقا لهذه الحالة، خلاصته: أن معظم الذين نزلوا في الأمصار كانوا من قبائل الجزيرة العربية الذين أسلموا ولم تكن لهم صحبة مع رسول الله ﷺ، وربما لم يره بعضهم على الإطلاق. فبدأت بعض عروق الجاهلية تنتقض فيهم، وأهمها التمرد على رئاسة المهاجرين والأنصار (ووافق ذلك

أيام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالأمصار، والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات، والاستبطاء عليهم في الطاعات، والتجني بسؤال الاستبدال منهم والعزل، ويضيفون بالنكير على عثمان...)(١)، ونجح المتأثرون بالدعوة السبئية في الأمصار في كسب أتباع عديدين، وأقاموا صلات ومراسلات بينهم وبين مصر والكوفة والبصرة...

ولم يكن الخليفة يظن أن الأمر سيبلغ بأولئك الساخطين درجة العصيان أو التمرد.. وتذهب بعض الروايات الى أنه تعرض لمحاولات اغتيال فاشلة، وأنه بحلمه وكرم أخلاقه عفا عن الجناة واكتفى بإبعادهم عن المدينة(٢) وأرسل عثمان يستدعي ولاته في عام أربع وثلاثين للهجرة، وناقشهم طويلاً فيما يدور في المجالس وعلى ألسنة الناس. فكان رأي معظم الحاضرين أن يؤخذ رؤوس الفتنة بالشدة أو يجتثوا، ويضبط الأمر بالحزم..... ولم تكن طبيعة عثمان الرقيقة لترضى هذا الحل، واقترح معاوية بن أبي سفيان أن ينتقل الخليفة ومركز الخلافة إلى الشام ليكون في حمايته، فرفض عثمان أن يترك المدينة. فاقترح عليه أن يرسل إليه حرسا خاصا. فأبى أن يسن هذه السنة في الخلافة، وأن يشق على أهل المدينة بجند الشام. واقترح عبد الله بن عامر إشغال الناس بالجهاد والبعوث، فمال إلى هذا الرأي وأوصى ولاته بالرعية خيراً. وكتب إلى الناس في الأمصار أنه قرر أن يستدعي الولاة كل سنة في موسم الحج ويسألهم عن سلوكهم في ولاياتهم، وطلب من كل فرد له شكاية على الوالي أن يحضر إليه في هذا الموسم ليسمع منه ويحاسب الوالي إن وجد فيه تقصيراً.. وكان لهذه الرسائل وقع طيب، فقد تليت على المنابر،

---

١) ابن خلدون ٢/٥٨٦ - ٥٨٧.

٢) تاريخ المدينة المنوره ٣/١٠٢٦.

وبكى الناس وهدأت نفوسهم(١) ولكن أصحاب الفتنة نجحوا في استثارة العامة بعد حين ونقلوا فتنتهم إلى بعض القبائل، حتى ان قوما من بني عبس تجهزوا ليذهبوا إلى المدينة ويقاتلوا عثمان ، فذهب حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ونهاهم فانتهوا(٢).

واصل أصحاب الفتنة مكرهم ودبروا مؤامرة فظيعة وأخذوا في تنفيذها بدقة.. فقد تواعدوا على الخروج في وقت واحد إلى المدينة، وتغطية أمر خروجهم بإشاعة أنهم يقصدون العمرة والحج، فلا ينتبه الولاة، ولا يأخذ أهل المدينة حذرهم(٣).

تنفيـــذ المؤامـــرة:

في شهر شوال عام خمسة وثلاثين للهجرة نظم المتآمرون صفوفهم وخرجوا من الكوفة والبصرة ومصر متجهين إلى المدينة ((ولم يجترئوا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب، وأشاعوا أنهم خارجون إلى العمرة والحج. وقد انتظم أهل مصر في أربعة فرق على كل فرقة رئيس وللفرق الأربعة رئيس عام. وعسكر أهل البصرة في موضع اسمه (ذو خشف)، ونزل أهل الكوفة في موضع اسمه (عوص)، ولحق بهم بعض أهل مصر، أما بقية أهل مصر فنزلوا بموضع (ذو المروة). وهذه المواضع قريبة من المدينة. ويقدر المؤرخون عددهم (بألفين الى ثلاثة آلاف)(٤). وبلغ الخبر أهل المدينة، فاستعد لهم علي وطلحة والزبير، وجمع علي بعض أهل المدينة وتوشح بالسيف، ولكن رؤوس الفتنة تصرفوا بسرعة، فقد أرسلوا وفداً منهم إلى المدينة للقاء كل من علي وطلحة والزبير ومحاولة استمالتهم واقناعهم بخلع

---

١) الطبري ٣٢/٤.

٢) انظر تاريخ المدينة المنوره ١١٤٤/٣

٣) انظر تفصيل ذلك في الطبري ٣٤٨/٤ - ٣٤٩.

٤) انظر الطبري ٣٤٨/٤.

عثمان وتولية أحدهم، فرفض الثلاثة عروض الوفد وطردوهم وهددوهم، وأرسلوا أبناءهم إلى عثمان لملازمته وحراسته، وجاء الوفد إلى عثمان فالتقى بهم واستمع إلى الاتهامات التي يوجهونها إليه، ورد عليها جميعها بحجج أثبتت براءته، وطلبوا منه أن يعلن توبته، فأعلن توبته على المنبر واستغفر الله ودعا حتى بكى الناس جميعا، وجمع علي عدداً من أهل المدينة واستعد لمناجزة المتمردين إذا حاولوا مهاجمة المدينة، فأعلن رؤساء المتمردين عن الرضا والتسليم للخليفة، وأظهروا أنهم سيرجعون إلى بلادهم، وعاد الوفد إلى معسكراتهم، وحملوا خيامهم وارتحلوا.

وظن أهل المدينة أن الفتنة قد انقشعت ، فسرح علي من جمعهم إلى بيوتهم وعاد الناس مطمئنين...

مداهمة المدينة:

فوجئ أهل المدينة بأصوات مريعة، فقد عادت الحشود على حين غرة، وفاجأت المدينة من أطرافها، وعسكرت في مناطق منها، واتجه عدد كبير إلى دار عثمان فأحاطوا بها. وخرج علي ومحمد بن سلمة وطلحة والزبير وعدد من الصحابة الآخرين إليهم وسألوهم عن سبب رجوعهم ومداهمتهم المدينة، فزعم المصريون أنهم وجدوا في طريق عودتهم غلاماً لعثمان مسافراً إلى مصر ومعه رسالة إلى واليه عليها يأمره أن ينكل بالمصريين الذين خرجوا إليه، ودفعوا إليهم كتاباً بذلك.. فذهب علي مع رؤسائهم إلى عثمان، فأقسم عثمان أنه لم يكتب الكتاب ولم يأمر به ولا يعرف شيئا عنه(١) ولكن المتآمرين لم يقتنعوا، فأدرك علي أن الأمر غير طبيعي، فقال: كيف علمتم ياأهل الكوفة وياأهل البصرة بما لقي أهل مصر (أي بالرسالة المزعومة) وقد سرتم مراحل ثم طرقتم نحونا؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة. وأخرجهم من

---

١) الطبري ٣٥٦/٤.

دار عثمان، ومضى إلى بيته(١).

وبدأت مرحلة صعبة في حياة المدينة، فقد توزع المتمردون في أحياء المدينة ومداخلها، وتجمع عدد وافر منهم حول المسجد النبوي ودار عثمان بن عفان، وأشهروا سيوفهم، وهددوا كل من ينتصر للخليفة، وأمروا الناس أن يلزموا بيوتهم أو أعمالهم وألا يتجمعوا ليكونوا آمنين. ومنعوا كبار الصحابة من الخروج من المدينة، حتى ليقول علي بن أبي طالب عن تلك الفترة: وأما الخروج من المدينة فلم يكن إليه سبيل، وقد كان أحيط بنا كما أحيط بعثمان(٢).

وتوافد الأعراب من البوادي القريبة ونزلوا في أطراف المدينة ينتهزون الفرصة لانتهاب مايستطيعونه، ولم تعد للدولة أي سلطان. وأغرى هذا الوضع بعض الغوغاء والموالي الحاقدين والعبيد ليتمردوا، فلحق عدد منهم بمعسكرات هؤلاء الوافدين ولكل منهم مطمع وهدف.. واضطربت أحوال المدينة أيما اضطراب، وصار كل شيء في أيدي القوة الغاشمة التي اجتاحت المدينة، وصار قادتها متحكمين ومتنفذين يروحون ويغدون إلى المسجد ليحاوروا كبار الصحابة ويستميلوهم دون جدوى، وآثر عدد من الصحابة اعتزال الفتنة والتزام البيت مادامو لايملكون من الأمر شيئا ولا حول لهم ولا قوة. وجاء قادة التمرد إلى عثمان يطلبون منه التنازل عن الخلافة، ولم يكن لديهم مرشح بديل، ولم يوافقهم أحد من الصحابة، وعلى العكس من ذلك جاء الشباب من أبناء الصحابة ولزموا بيت عثمان للدفاع عنه، وفي مقدمتهم الحسن والحسين ابنا علي رضي الله عنهم، وقد حاجج عثمان وفد المتآمرين طويلاً، وسمع منهم وردّ على جميع أقوالهم، وفند التهم الموجهة إليه، ولكنهم مع ذلك أصروا على خلعه، ولم يمنعوه من الذهاب إلى المسجد والصلاة في الناس أول

---

١) الطبري ٣٥١/٤.

٢) ابن خلدون ٦١٢/٢.

الأمر، ولكنهم كانوا يشغبون عليه، فبعث عثمان رسائل إلى ولاته يطلب منهم إرسال نجدة لإخراج المشاغبين من المدينة.. وعلم هؤلاء بخبر تلك الرسائل، وخافوا أن تأتي الجيوش من الشام والعراق فتطردهم أو تقتلهم، لذا شددوا الحصار على عثمان، ثم شغبوا عليه في المسجد بعد صلاة الجمعة وضربوا الناس وفرقوهم. وأصيب عثمان وحمل إلى بيته مغشياً عليه، وثار الصحابة وأبناؤهم، وأرادوا أن يقاتلوا هؤلاء المتمردين، فأبى عليهم عثمان، وحلف الأيمان ألا يراق دم بسببه، وزار علي وطلحة والزبير الخليفة في بيته، ولما رجعوا إلى بيوتهم شدد المتمردون الحصار على عثمان ومنعوه من الخروج إلى المسجد ومنعوا عنه الماء، وحاولت أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنه إسعافه بالماء فمنعها المتمردون وضربوا وجه بغلتها حتى كادت تسقط عنها، وأشهروا سيوفهم، وأخافوا الناس وفرقوهم إلى بيوتهم، وجاء علي وحاول أن يعظ المتمردين وينهاهم عما هم فيه، فلم يستجيبوا له واستشرسوا، ولم تكن لأحد سواهم قوة متجمعة تمسك زمام الأمن أو تستطيع مواجهتهم، واضطرب الأمر على عثمان رضي الله عنه، فهو بطبيعته المسالمة لايريد أن تراق الدماء على الإطلاق، ولو كانت حياته ثمنا لذلك... وقد سبق أن لاين المتمردين واستجاب لمطالبهم رغم أنها تخدش مقام الخلافة، فعندما طلبوا منه أن يعلن التوبة أعلن التوبة على المنبر رغم اقتناعه واقتناع كثير من الصحابة أنه لم يجن ذنباً يتوب منه.. لذلك كان بعض أقربائه يعارضون موقفه اللين، وبخاصة مروان بن الحكم، الذي لازمه مدة الحصار وكان يكثر الدخول عليه ومحاورته ومراجعته في لينه واستجابته للمتمردين، وكان يشير عليه بالحزم ورفض المطالب التي تملى عليه.. وقد زادته تلك المشاورات اضطراباً. وتروي الأخبار أنه أخذ برأي مروان في بعض الحالات، وسمح له أن يخرج الى المتمردين وينهرهم ويغلظ لهم القول.. وقد تأثر علي بن أبي طالب رضي الله عنه لذلك، وكان لمشورات مروان أثر

سلبي أدى إلى استثارة المتمردين والتعجيل بالفاجعة.. وأحس الصحابة بذلك فأرسلوا عدداً من أبنائهم إلى بيت عثمان للدفاع عنه، منهم: عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ومحمد بن طلحة وغيرهم... فأمرهم عثمان ألا يقاتلوا أحداً، وعزم عليهم في ذلك أشد العزيمة ، وطلب من ابن عباس أن يحج بالناس هذا العام، وأصر عليه ، فخرج ابن عباس إنفاذاً لأمره ، وخرجت معه أم المؤمنين عائشة زوجة الرسول ﷺ...

الفاجعـــة:

شدد المتمردون الحصار، وحاورهم عثمان مرات ومرات، ولكنهم أصموا آذانهم عن صوت الحق والعقل. وفي اليوم الثامن عشر من ذي الحجة عام خمس وثلاثين للهجرة وصلت الأخبار إلى المدينة بأن جيوشا قد خرجت من الشام لحماية الخليفة وطرد المتمردين، وأنها وصلت وادي القرى، فخاف المتمردون، وحاولوا الدخول على عثمان عنوة فمنعهم أبناء الصحابة الموجودون معه في الدار، وقاموا على بابه بالسيوف.... فاتجه بعض المتمردين إلى دار عمر بن حزم التي تقع خلف دار عثمان، واقتحموها، وتسوروا منها إلى دار عثمان، بينما قامت مجموعة آخرى باشعال النار في الباب الذي يحرسه من الداخل أبناء الصحابة، وبينما يشتغل هؤلاء بالباب المشتعل لمنع اقتحامه، فوجيء أهل الدار بالذين تسلقوا من الخلف، ووصلوا إلى غرفة عثمان، وأسرع الرجال لمقاتلة المقتحمين ولكن عثمان منعهم وأمرهم بالقاء سيوفهم حتى ألقاها بعضهم، وقاتل بعضهم، وقُتل المغيرة بن الأخنس وهو يدافع عن عثمان، وكان عثمان ممسكاً بالمصحف يقرأ فيه، وأقبلت زوجتاه نائلة وأم البنين مروعتين، وهجم َأمير المصريين الغافقي بن حرب على عثمان فضربه بحديدة، وضرب قترة بن حمران زوجته نائلة التي أكبت على زوجها لتحمَيه، فقطعت أصابعها وبعض كفها، وهجم سودان بن

حمران، أخو قترة، وكنانة بن بشر التجيبي على عثمان بالسيوف فطعناه، وسقط عثمان مضرجاً بدمائه والمصحف في يده، وأصيب الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم بجروح كثيرة، وانطلق المتآمرون يعيثون في الدار فساداً وينهبونها ويقتلون من يقف لهم، فقتلوا عددا من غلمان عثمان، ثم خرجوا إلى بيت المال فنهبوه.

وبينما كان عبد الله بن سبأ يتمايل طرباً لما صنعته فتنته - وكان جالساً في معسكر المتآمرين في ظاهر المدينة - كانت بيوت المدينة تتقطع ألماً على خليفتها المغدور، وأمنها المسلوب، وخلافتها المزعزعة.....

لزم أهل المدينة بيوتهم منذ أن خوفهم أصحاب الفتنة، وبلغ الاضطراب في المدينة درجة جعلت الناس يخافون من دفن جثمان الخليفة المغدور، حتى جاءت أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما، فوقفت بباب المسجد، وفيه رؤساء المتمردين، وهددت قائلة: لتخلين بيني وبين دفن هذا الرجل أو لأكشفن ستر رسول الله ﷺ، ففزعوا وتركوا لها ذلك، فأرسلت إلى بعض الصحابة، فجاء جبير بن مطعم وحكيم بن حزام وعبد الله بن الزبير وأخوه المنذر وأبو الجهم بن حذيفة بن مسك رضي الله عنهم، فحملوا الجثمان ليدفنوه في البقيع، فاعترضهم بعض أهل الفتنة ابن نحرة، أو ابن بحرة، فمنعهم من ذلك، فدفنوه في الأرض المجاورة للبقيع، وتسمى (حش كوكب)، وكان عثمان يفكر في إدخالها في البقيع، وقد أدخلت فيه بعد ذلك(١).

البحث عن خليفة:

يروي ابن خلدون: أن الرئيس العام للمتآمرين الغافقي بن حرب، وهو رئيس القادمين من مصر، نصب نفسه على إمارة المدينة خمسة أيام، والتمس

---

١) تاريخ المدينة المنوره ٤/١٢٣٩

خلالها من يقوم بالأمر، فلم يجبه أحد(١) وجاء رجاله إلى علي يطلبون منه أن يتولى الخلافة فأبى، وفي رواية للطبري أن علياً خرج من المدينة، فأرسلوا إليه فأبى، ثم ألحوا عليه ليعود إلى المدينة فعاد إليها،(٢)، وجاء بعض الكوفيين إلى الزبير بن العوام يطلبون منه أن يتولى الخلافة فأبى، وجاء المصريون إلى طلحة فأبى، ثم بعث المتمردون إلى سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر فامتنعا(٣) فأسقط في أيديهم، وأيقنوا أنهم جاؤوا بفساد عظيم، وأن الشر سيزداد إذا بقي الأمر على هذه الحالة، فجمعوا وجوه أهل المدينة وطلبوا منهم أن يختاروا الخليفة ليبايعوه وأمهلوهم يومين فقط وإلا قتلوا أكابرهم. فاتجهت الأنظار إلى علي بن أبي طالب، وذهب إليه الناس يلحون عليه أن ينقذهم من فتنة أعظم ويقبل الخلافة، وهو يرفض، فخوفوه الله في مراقبة الاسلام، فوعدهم إلى الغد، فجاؤوه في اليوم التالي، فقبل بعد إلحاح كثير.. وأقبل الناس يبايعونه، وأمسك بعضهم وهم في أسى شديد لما يحصل في مدينة رسول الله ﷺ. وفي خبر أورده الطبري أن الأمور ظلت ثمانية أيام حتى رضي علي بالخلافة(٤).

وتذكر بعض الروايات أن الزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله رفضا مبايعة علي أول الأمر، ثم بايعا مكرهين. وقد حرص الناس على بيعتهما لأنهما من كبار الصحابة ومن الستة الذين عهد إليهم عمر باختيار الخليفة بعده...

وتسلل عدد من الأمويين هاربين من المدينة إلى مكة، كمروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة، ولجأوا إلى عائشة رضي الله عنها، التي

---

١) ابن خلدون ٦٠٣/٢.
٢) الطبري ٤٥٨/٤
٣) ابن خلدون ـ٦٠٣/٢.
٤) الطبري ٤٥٩/٤.

لم ترجع من حجها بعد، وأمسك بعض الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة عن البيعة، كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وعبد الله بن سلام ومحمد بن سلمة وأبي سعيد الخدري وزيد بن ثابت وأسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة.....

وهكذا... لم تنته الفتنة بقتل عثمان رضي الله عنه، بل بدأت فتنة كبرى تفرق المسلمين إلى جماعات متنافرة، وينفخ فيها الشيطان، حتى لترتفع السيوف وتراق الدماء، وتبقى آثارها قرونا ممتدة..

عاصفة جديدة:

وبدت نذر العاصفة في المدينة نفسها، فقد اختلفت آراء الصحابة بعد بيعة علي... جاءه عدد منهم يطالبونه بمعاقبة الجناة الذين قتلوا عثمان، ورأوا أن أول عمل ينبغي على الخليفة أن يوطد دعائم خلافته به هو القصاص من القتلة.. وجاءه عدد آخر يطلب منه أن يعزل العمال السابقين على الأمصار والذين كانوا إحدى الحجج التي احتج بها المتمردون على عثمان، وطلب آخرون أن يبقي كل شيء على حاله وأن يهتم بأخذ البيعة من أهل الأمصار كي لاينتقضوا على الخليفة الجديد وتتكرر المأساة(١) وكانت مجموعة المتمردين ومن آوى إليهم من الأعراب والعبيد والموالي ماتزال في المدينة.... وقد حاور علي رضي الله عنه الصحابة الذين طلبوا التعجيل بالقصاص من قتلة عثمان، ومماقاله لهم: (٢). ياخوتاه اني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولانملكهم، هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم مايشاؤون، فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا.

---

١) انظر الطبري ٤/٤٣٧ - ٤٤٠ و ابن خلدون ٢/٦٠٣ - ٦٠٥.

٢) الطبري ٤/٤٣٧.

المدينة في خلافة علي بن أبي طالب

بدأ علي خلافته في ظروف صعبة، لذلك جعل همه الأول توفير الأمن في المدينة ذاتها، وحماية أهلها من الأعراب والسبئيين... ففي اليوم الثالث من بيعته خرج إلى مداخل المدينة، وطلب من الأعراب أن يعودوا إلى بواديهم. فتلكأوا في الخروج، واحتك بعضهم مع السبئيين، وكادت أن تقع مصادمات بينهم، وأصر علي عليهم بالخروج، فبدأوا بالرحيل... أما السبئيون فأعلنوا أنهم سيبقون بالمدينة إلى أن تستتب أمورها، ولم يكن علي يملك إخراجهم، وأما العبيد والموالي فقد أمر الخليفة مناديا أن ينادي بالبراءة من كل خارج وآبق، وأن عليهم العودة إلى حياتهم العادية وإلا أُخذوا بالعقوبة......

وما أن رحل الأعراب، وعاد معظم الموالي والعبيد أو فروا خارج المدينة حتى بدأ الناس يستشعرون جو الأمن، خاصة وأن السبئيين أظهروا الطاعة التامة لعلي، وعاد الناس إلى أسواقهم ومزارعهم وأعمالهم يترقبون ماسيحدث بعد.. فما زالت النذر تلوح في الأفق، فالبيعة لم تنته بعد، والمعتزلون غير قليلين، والمطالبون بالثأر لدم عثمان كثيرون....

ولم يلبث أهل المدينة أن علموا أن النعمان بن بشير الأنصاري قد خرج من المدينة يحمل قميص عثمان رضي الله عنه الذي قتل فيه، وعليه بقع كبيرة من دمه، ويحمل أصابع زوجته نائلة، التي قطعت وهي تدفع عنه السيوف، وأن نائلة الثكلى هي التي أعطته اياها، وأمرته بالتوجه الى معاوية واستقدامه بالناس الى المدينة للثأر من قتلة زوجها، فساد الوجوم، وبدأت التوقعات والشائعات....

وانتهت أيام ذي الحجة، ودخل عام ستة وثلاثين للهجرة، وقرر علي أن يُعيِّن أمراءه على الأمصار، فكلف عثمان بن حنيف بإمارة البصرة وعمارة بن شهاب بإمارة الكوفة وعبدَ الله بن عباس بإمارة اليمن وقيس بن سعد بإمارة

مصر وسهل بن حنيف بامارة الشام، وسيرهم إلى إماراتهم، فوصل ثلاثة منهم إلى إماراتهم، ورجع أميرا الكوفة والشام، لأن جند معاوية في الشام ردوا سهل بن حنيف من تبوك، ورد طلحة بن خويلد، أمير الكوفة الذي عينه عثمان - عمارة بن شهاب، وتفرق الناس في مصر الى فرق، بعضهم يدين لعلي وأميره على مصر، وبعضهم معتزل ينتظر ماستنجلي عنه الأمور، وبعضهم ممتنع.....

فزاد القلق في المدينة وتوقع الناس مزيداً من الفتنة. وكتب علي إلى معاوية يطلب منه البيعة والانصياع لأوامر الخليفة، فلم يجب معاوية وأرسل من يشيع الخبر بأن أهل الشام يطلبون الثأر لعثمان، وأنهم نصبوا قميصه وأصابع زوجته على المنبر ليهيجوا الناس... واستشار علي من حوله في الأمر، فأشاروا عليه بضرورة فرض الطاعة على أهل الشام والتصدي للعصيان قبل أن يستفحل أمره ويسري إلى الإمارات الآخرى، فبدأ علي يستعد، وخطب في الناس يحثهم على الاستعداد للخروج معه إلى الشام، وطاف في الأسواق ولقي الكثيرين، فاستجاب بعضهم وتثاقل بعضهم الآخر، واعتزل بعضهم... وما لبث علي أن جمع من اكتتب معه، ونظم الجيش، ودفع اللواء إلى ابنه محمد بن الحنفية، وولى مقدمة الجيش عمرو بن الجراح، وولى ميمنته عبد الله بن عباس، وميسرته عمرو بن سخنة، ولم يعط القيادة أحداً ممن خرج على عثمان، واستخلف على المدينة تمام بن العباس، وعلى مكة أخاه قثم بن العباس....

وقبل أن يتحرك الجيش من المدينة جاءته الأخبار من مكة بفتنة كبيرة جعلته يتوقف عن الزحف إلى الشام، فقد أرسل إليه واليه قثم أن عائشة رضي الله عنها قد نقمت على قتل عثمان وحرضّت الناس على المطالبة بدمه وعدم مبايعة الخليفة الجديد، وانضم إليها الزبير وطلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الله بن عامر(أمير البصرة زمن عثمان) ويعلى بن أمية

(أمير اليمن زمن عثمان) وجاء هذان الأخيران بمال كثير من إمارتيهما، وجهزا حملة كبيرة ستخرج بمن ينفر معهم من الناس الى البصرة، لحشد الحشود، وإعلان التمرد ، والزحف إلى المدينة للثأر لعثمان.

فانطلق علي إلى المسجد النبوى، وخطب في الناس، وبينّ لهم أبعاد الفتنة وأخطارها البعيدة إذا انتشرت، واستحث القوم على الخروج لوقف العصيان الجديد، وبين لهم أنه لايريد حربهم وسيكف إن كفوا، فتثاقل بعض الناس ورأوا في مواجهة عائشة ومن معها حرجاً شديداً، وآثروا الاعتزال.... وأرسل علي إلى عبد الله بن عمر وطلب منه أن يخرج معه، فأبى عبد الله ذلك، وخرج الى مكة معتمراً....

وانتشرت في المدينة شائعات تقول إن عبد الله بن عمر خرج الى الشام ليلحق بمعاوية ضد علي. وخرج علي إلى سوق المدينة يحرض الناس على الخروج معه ولحقته ابنته أم كلثوم -زوجة عمر بن الخطاب- وأعلمته أن عبد الله مر بها قبل خروجه من المدينة، وأكد لها أنه خارج إلى العمرة، وأنه على طاعة علي ولن يظاهر عليه، فاطمأن علي وطمأن الناس، وعاد إلى المسجد يستحثهم على الخروج، فاستجاب له عدد من أهل المدينة، وجاء بعض الصحابة يسألون علياً أن يبقى في المدينة وأن يؤمر على الجيش من يراه، ولا يترك عاصمة الخلافة، فأبى علي ذلك، لأن الأمر غاية في الحساسية، فالذين خرجوا عليه فيهم زوجة الرسول ﷺ عائشة، وفيهم عدد من وجوه الصحابة، وهو لايريد قتالهم، وإنما يريد مناقشتهم واقناعهم بخطورة مايفعلونه، ولو بعث جيشا بقيادة غيره فلربما شرع في الحرب وإراقة دماء طاهرة.. وألح بعض الصحابة على علي، وجاء عبد الله بن سلام وعلي فوق فرسه، فأخذ بعنانه وقال له: ياأمير المؤمنين لاتخرج منها، فوالله إن خرجت

منها لايعود إليها سلطان المسلمين أبداً(١) ولكن عليا أصر على الخروج، ورغب في الإسراع فيه، كي يدرك الذين خرجوا عليه من مكة قبل أن يبلغوا البصرة ، وتلتف حولهم جموع جديدة، وتتسع الفتنة.... وسار بمن معه في ربيع الآخر عام ٣٦هـ حتى بلغ الربذة، حيث علم أن ركب عائشة ومن معها قد فاته، وأنهم الآن على أبواب البصرة، فقرر المضي إلى لقاء الركب ولو داخل البصرة.

وكان في الجيش عدد من أهل المدينة، وكان فيه أيضا تسعمائة من الكوفيين والمصريين.. وتبعه عدد من الأفراد والجماعات في الطريق.. فسار حتى نزل بذي قار، وكان ركب عائشة قد دخل البصرة وجمع إليه بعض أهلها وخرجوا على واليها عثمان بن حنيف. وحاول ابن حنيف أن يوقف الفتنة، وحاورهم طويلاً، وبين لهم أن الزبير وطلحة قد بايعا علياً ثم نكثا، لذا لايحق لهم الخروج على علي، وكاد الفريقان أن يقتتلا، ثم اصطلحا على أن يذهب رسول من البصرة إلى المدينة يسأل أهلها هل: كانت بيعة الزبير وطلحة بالرضا أم بالإكراه، وجاء الرسول إلى المدينة ودخل المسجد وأخذ يسأل الناس فلا يجيبه أحد، ثم أجابه أسامة بن زيد أنهما بايعا مكرهين، فرجع بالخبر إلى البصرة فمال عدد كبير إلى عائشة ومن معها، وشغبوا على عثمان بن حنيف وأهانوه وكادوا أن يقتلوه، ثم اكتفوا بإخراجه.

أول جيشين مسلمين متحاربين:

بينما خلت المدينة من عدد كبير من سكانها ومن الذين نزلوا فيها، كانت البصرة وما حولها تضم الجموع الحاشدة من أهل المدينة وأهل مكة والكوفة ومصر والعراق والبادية المحيطة بها.. وتترقب المصادمة الكبيرة بين أول جيشين مسلمين متحاربين، الجيش الأول، جيش الخليفة علي بن أبي طالب، والجيش الثاني، جيش الخارجين عليه الذين تمركزوا بالبصرة، والعجيب ان

---

١) ابن خلدون ٢/٦١١.

الكثير من أبناء القبائل والمدن كانوا يتوزعون على الجيشين، فكان الأخ يتوقع أن يواجه أخاه، والأب ابنه، والجار جاره، وبينما كانت عائشة في مقدمة الخارجين على علي والمطالبين بالثأر لعثمان، كان أخوها محمد بن أبي بكر في مقدمة جيش علي والمتصدين للعصيان.

واجتهد علي رضي الله عنه في منع الفتنة، وقطع شوطاً كبيراً في اخمادها، فقد أرسل القعقاع بن عمرو الى البصرة، فكلم عائشة والزبير وطلحة وبين لهم أخطار الفتنة، واحتمال امتدادها إلى كل مصر، ووقوع الأمة في انشقاق عظيم يقتل بعضهم بعضا. فقالوا له: مارأيك أنت ؟ قال: ان هذا الأمر دواؤه التسكين واجتماع الشمل، حتى إذا صح الأمر وهدأت الثائرة وأمن الناس واطمأن بعضهم إلى بعض نظرنا في أمر القتلة، فاقتنعوا وقالوا: إن وافق علي على هذا الرأي صالحناه عليه. فرجع القعقاع إلى علي راضياً وأنبأه بما حدث، فسر علي بذلك أشد السرور. وأقبلت الوفود من البصرة إلى معسكر علي في ذي قار، والتقى الأهل والأقارب وهم يتحدثون في الصلح، ودعا أهل البصرة علياً ليأتي إليهم، واستعد علي للرحيل اليهم، وأمر الذين شغبوا على عثمان ألا يرتحل معه منهم أحد.

وهنا شعر السبئيون والغوغاء الذين خرجوا على عثمان أن الصلح خطر عليهم، فإذا تم وهدأ الناس واستتب الأمر فسرف تنالهم العقوبة، فاجتمعوا ومعهم عبد الله بن سبأ وتداولوا الأمر، فاتفقوا على منع الصلح وإشعال الحرب بين الفريقين. وبينما كان علي يستقبل محمد بن طلحة مندوب أهل البصرة ويحاوره على الصلح، كان السبئيون قد رتبوا أمرهم على الإيقاع بين الفريقين دون أن يفطن إليهم أحد.

المعركــة:

وفي اليوم التالي رحل علي إلى البصرة ونزل بجانب معسكر أهلها، وكان الجميع يتوقعون إعلان الصلح، فتسلل بعض السبئيين في السحر وقتلوا عدداً

من المصريين في معسكراتهم، فثار المصريون وحملوا السلاح وتصايحوا، وسمع علي الأصوات فسأل عنها، فقيل له: إن أهل البصرة قد ثاروا ويحاولون مفاجأتنا (١) وشاع بين كل فريق أن الفريق الآخر بدأ التحرش والقتال. فاجتمع الجيشان كل منهما تجاه الآخر، وخرج علي من الصفوف ونادى طلحة والزبير فكلمهما وناشدهما الله أن يطفئا الفتنة، وكان مما قاله للزبير: أتذكر أن رسول الله ﷺ قال لك: ستقاتله وأنت له ظالم. فقال الزبير تذكرت ذلك، ولو انني ذكرته من قبل لما خرجت. وقررأن يعتزل، وخرج على وجهه حتى إذا وصل وادي السباع لحقه ابن جرموز وأوهمه أنه سيصلي معه، فلما وقف الزبير للصلاة طعنه من خلفه فقتله. وقرر علي بعد ذلك أن يقتل ابن جرموز ولكن شدة الفتنة بعد ذلك جعلته يتوقف..

كان جيش علي يزيد على العشرين ألفا وجيش البصرين يزيد على الثلاثين ألفا، ونجح السبئيون في إشعال الحرب، فوقع القتال بين الطرفين، واشتد، وقتل طلحة وعدد من الصحابة الكرام، والتف البصريون حول جمل تركبه عائشة رضي الله عنها واشتدوا في القتال، ولم تهدأ المعركة إلا بعد أن عقر جمل عائشة وسقط على الأرض، فأسرع أخوها محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر فحملا الهودج إلى مكان أمين بعيدا عن المعركة، وجاء علي إليها فسألها: كيف أنت يا أماه؟ قالت: بخير. فقال لها: يغفر الله لك. قالت: ولك(٢).

وكان علي قد أمر جنده ألا يبادروا بالقتال حتى يبادرهم الآخرون، وألا يتبعوا فاراً من خصومهم، وألا يجهزوا على جريح، وأن يترفقوا بهم.. ولما بدت هزيمة البصريين أمر علي جنده أن يكفوا عنهم، وأن يجمعوا القتلى من الطرفين، فجمعوا، فصلى علي عليهم جميعاً واستغفر لهم. ثم انتقل إلى

---

١) ابن خلدون ٢/٦١٧.

٢) ابن خلدون ٢/٦١٩

البصرة وأمر بعدم التعرض لجرحى الفريق الثاني، وعدم معاقبة أحد. وأمر بجمع ما كان في معسكر المنهزمين ووضعه في المسجد، ونادى المنادي: من عرف شيئا له فليأخذه، إلا سلاحا عليه سمة السلطان، ولم يجعل ماالستولى عليه جيشه غنائم، ولا اعتبر خصومه المهزومين أعداء ينبغي معاقبتهم...

لقد كانت الوقعة مأساة من مأسي المسلمين، قتل بها زهاء عشرة آلاف رجل من الطرفين، فيهم عدد من أهل المدينة المنورة....

وكانت المدينة تترقب أخبار أبنائها الذين خرجوا مع علي، والذين خرجوا مع الفريق الآخر... وبعد أيام قليلة جاء إلى المدينة من يحمل الأخبار الموجعة، ثم جاء إليها موكب عائشة رضي الله عنها معززة مكرمة.. فقد أمر علي رضي الله عنه بتجهيزها بكل ماتحتاجه من ركب ومتاع، وأخرج معها كل من كان معها ونجا من الموقعة، واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات لمرافقتها، وأمر أخاها محمد بن أبي بكر أن يقود قافلتها... ولما كان اليوم الذي ترتحل فيه، جاءها علي ومعه اناس كثيرون، فخرجت على الناس وأعلنت أنها لم يكن بينها وبين علي شيء إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وأنه عندها من الأخيار، وأعلن علي أن عائشة صادقة بارة وزوجة رسول الله ﷺ... وودعها علي وودعها الناس وودعتهم. وسار علي في موكبها أميالا، وشيع أبناءه معها يوما. وعاد إلى المدينة نفر ممن كانوا مع علي أيضا، وبقي معه عدد كبير من كبار الصحابة، كعمار بن ياسر وعبد الله بن عباس والمغيرة بن شعبة... وغيرهم كثير.

مرحلة جديـــدة في حياة المدينة:

وهكذا بدأت مع منتصف رجب عام ستة وثلاثين مرحلة جديدة من حياة المدينة المنورة.. مرحلة خرجت منها الخلافة وما كانت تحمله من مسؤوليات ومشكلات، فقد آثر علي أن يبقى في العراق واتخذ الكوفة مقراً له، وبدأ يعد الجموع لِمَا هَمَّ به قبل أن يخرج إلى وقعة الجمل.. يعدها لمصاولة أهل

الشام، وإخراج معاوية منها، أو حمله على البيعة.

وغابت عن المدينة حشود المسلحين، واختفت معسكراتهم.. وفرغت بيوت كثيرة من أهلها، وصارت مدينة غير كبيرة، تدين بالطاعة لعلي بن أبي طالب، ويدير شؤونها واليه عليها: سهل بن حنيف الأنصاري، أحد أبنائها الذين بايعوا علياً وأخلصوا له... وعادت الحياة بسيطة هادئة تتخللها الأخبار الواردة من الكوفة والشام عن تجهز كل من علي ومعاوية للمعارك الفاصلة بعيداً عن أرضها، وكان على أمير المدينة أن يدبر عطاءات أهلهاالمفروضة لهم من قبل، فقد انتقلت معظم واردات بيت المال إلى الكوفة وخصص معظمها لتجهيز الجيوش، وأرسل علي بعض المال إلى المدينة ليوزع على أمهات المؤمنين ومن بقي من الصحابة والمقيمين الآخرين فيها، ولم يكونوا كثيرين....

وطبيعي أن تتقلص الحركة الاقتصادية بعامة مع تقلص عدد السكان، وأن تقل القوافل القادمة إليها.. إلا ما كان عابراً إلى البلاد الأخرى، وأن يصبح للزراعة شأن في إمداد أهل المدينة بحاجاتهم الرئيسية.....

المدينة والولاءات المتوالية:

وفي عام ثمانية وثلاثين للهجرة ودّع أهل المدينة أميرهم سهل بن حنيف الذي انتقل إلى جوار الله، وكتبوا بذلك لعلي، فأمر علي بتأمير أبي أيوب الأنصاري مضيف رسول الله ﷺ، فتسلم أبو أيوب الأمر وأخذ يصلي بالناس، وكان رجلا وديعا متقدما في السن، يحرص على أن لايشتغل الناس بالفتنة وألا يتأثروا بما يحدث في الشام والكوفة. وكان أبو أيوب مبايعاً لعلي مخلصاً له...

وتوالت الأحداث في الشام، واشتدت فتنة الخلافة، وحدثت موقعة صفين، وقتل من قتل من الطرفين، وفيهم عدد قليل من أبناء المدينة، منهم عمار بن ياسر، فبكاه الناس كثيرا... فلما هدأت المعارك بين علي ومعاوية، وظهرت فتنة الخوارج، وشغل بها علي وجيشه، وجد معاوية الفرصة المواتية للسيطرة على الأمصار التي بايعت علياً، فوجه إليها عدداً من بعوثه.

ولم يلبث الهدوء الذي نعمت به المدينة منذ خروج علي منها - عام ستة وثلاثين - أن اضطرب، عندما حملت الأخبار إلى المدينة نبأ سير جيش لمعاوية إليها بقيادة بسر بن أرطأة.. ولم تكن المدينة قادرة على مواجهة الجيش، ولم يكن فيها من الرجال من يستطيع المناجزة، وكان أبو أيوب رضي الله عنه يكره إراقة الدماء، لذلك قرر أن يتجنب المصادمة.. فأوصى أهل المدينة أن يقروا في بيوتهم ولا يتعرضوا للجيش بشيء، وخرج هو ومن معه إلى الكوفة، وخرج عدد من الناس من بيوتهم إلى حرة بني سليم مترقبين

ماذا سيصنع بسر (١) ووصل بسر بن أرطأة في ثلاثة آلاف رجل، ولقيه قبل أن يدخل المدينة من أخبره بموادعة أهلها وخروج أبي أيوب منها، فأمر الجيش أن لايتعرضوا إلا لمن يقاتلهم.. ودخل المدينة على حذر... فلم يلق أية مقاومة، وعسكر جيشه في أنحائها، وسير مناديا ينادي بالأمان، وطلب من أهلها أن يذهبوا إلى المسجد، فذهب الكثيرون، وصعد بسر إلى المنبر واستصرخ لعثمان وقال: ياأهل المدينة لولا ما عهد الي معاوية ما تركت بها محتلما إلا قتلته، ثم طلب منهم البيعة لمعاوية، فأقبل الناس يبايعون. وأرسل إلى بنى سلمة يقول لهم: والله مالكم عندى من أمان ولامبايعة حتى تأتونى بجابر بن عبد الله (ليبايع). فأخبروا جابراً، فذهب جابر إلى أم المؤمنين أم سلمة واستشارها في الأمر فأوصته أن يبايع، فبايع جابر، وبايع أبناء أم سلمة وصهرها.... وانتقل بسر إلى دار الإمارة التي كان فيها أبو أيوب الأنصاري، ثم أرسل من يستقصي له عن سكان المدينة ويستعلم عمن بقي فيها ممن خرج على عثمان بن عفان رضي الله عنه.. وراح يستدعي كل من عرف شيئا عنهم ويستحكيهم حتى عرف أسماء عدد من الذين ظاهروا الخارجين على عثمان أو شايعوهم.. فأسقط الأمان عنهم، وأرسل جنده للقبض عليهم، وقتل من وصل إليهم، وهدم دورهم كما هدم دور من فرّ منهم أو كان خارج المدينة في جيش علي، فخاف الناس منه حتى رغب بعضهم في الخروج من المدينة خشية أن يُفترى عليهم ويتهموا ظلما ويقتلوا، ولكن بسر بن أرطأة مالبث أن خرج من المدينة وتوجه إلى مكة المكرمة، وطلب من أبي هريرة أن يصلي بالناس.

هدأت الأمور بعد خروج أرطأة، ورغم أن الناس بايعوا لمعاوية فإنهم ظلوا بعيداً عن الصراع على الخلافة.. وعادت المدينة إلى حياتها البسيطة الهادئة، وكان أبو هريرة كأبي أيوب ، رقيقاً، هادئاً، لايلغ في الفتنة، وينصح

---

١) وفاء الوفاء ٤٦/١.

الناس بالسكينة والانصراف إلى حياتهم اليومية والعادية، وكثيراً ما كان يشغلهم بالحديث في المسجد النبوي عما سمعه من رسول الله ﷺ من أحاديث فيها أحكام وقضايا تنفعهم في دنياهم وأخراهم..

غير أن هذا الهدوء مالبث أن عكره قلق جديد، فقد حملت الركبان القادمة خبر جيش لعلي بن أبي طالب يقوده جارية بن قدامة، جاء ليطارد جيش بسر ويستعيد الحجاز... وتسقط الناس الأخبار وعلموا أن الجيشين قد التقيا في نجران، وأن جيش بسر قد هُزم. وأن جيش جارية قادمٍ إلى المدينة. وبينما الناس يتشاورون: ماذا يفعلون إزاء جيش علي القادم وقد أعطوا البيعة لمعاوية؟ جاءت الأخبار باستشهاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الكوفة، عندما طعنه عبد الله بن ملجم لعنه الله طعنة غادرة في صلاة الفجر... فازدادت حيرة الناس واستشار أبو هريرة من حوله، فأجمع رأيهم على الموادعة، وقرر أبو هريرة أن يفعل ما فعله سلفه أبو أيوب الأنصاري، فأوصى الناس بعدم التصدي لجيش جارية، وخرج هو ومن معه من المدينة كي لايعده جيش علي رمزاً من رموز معاوية فيوقعوا في الناس.

وبلغ هذا الأمر جارية فجاء إلى المدينة مسالماً، وأمر جنده بعدم مقاتلة أحد، ودخل المدينة فلم يجد من يعارضه، ووجد الناس قد لزمت بيوتها، فأرسل المنادي بالأمان وطلب منهم الخروج إلى المسجد في الصلاة.. فاجتمع الناس في مسجد النبي ﷺ، وصعد جارية المنبر، وطلب من أهل المدينة البيعة، فقالوا له: لمن نبايع وقد قتل علي؟ فقال لابنه الحسن الذي بايعه أهل العراق، فبايع الناس.... ولم يسيء جارية لأحد، ومكث في المدينة يوماً ثم أمر جيشه بالخروج منها والتوجه الى حيث الحسن بن علي يدير الأمور....

وما إن ابتعد جيش جارية حتى عاد أبو هريرة ومن معه إلى المدينة، فأحسن الناس استقباله، وطلبوا منه أن يعود إلى الصلاة فيهم فعاد.. وسار فيهم سيرته الأولى يحدثهم بأخبار رسول الله ﷺ وما سمعه منه وعنه، ولم

يقل لهم شيئاً في بيعتهم الجديدة، فقد آثر الناس أن يبتعدوا عن الأحداث ما لم تدهمهم، فان دهمتهم وادعوها ، وتصرفوا بالتي هي أحسن..

وبعد ستة أشهر وصل الخبر إلى المدينة بأن نيران الفتنة قد انطفأت، وأن الحسن بن علي رضي الله عنه قد آثر أن يتنازل عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه، حقناً لدماء المسلمين وحفاظاً على هذه الأمة من الشر الوخيم، ففرح معظم أهل المدينة لانطفاء الفتنة واجتماع شمل المسلمين، واغتم بعضهم لأنه أدرك أن الخلافة قد انتقلت إلى دمشق، ولن تعود ثانية إلى المدينة....

ولكن مهما بعدت الأضواء عن المدينة فسيبقى لها ضوءها الساطع، سيبقى لها جسد رسول الله ﷺ الموارى في أرضها، ومسجده الذي يشدّ المسلمون الرحال اليه بعد المسجد الحرام.. ومن يدري فقد يكون هذا خيراً لها ألف مرة من مباذل السياسة ومن الفتن التي تستعر بين الحين والحين، فسيبقى للمدينة نقاؤها، وسيأوي إليها من يضيء الله قلبه بالإيمان ، ومن يملؤه بحبها.. فما يغلق الله باباً الا ويفتح أبواباً أخرى..

ووصلت قافلة آل بيت النبي ﷺ إلى المدينة.. فيها الحسن والحسين وأزواجهما وأبناؤهما، فقد آثروا أن يعودوا إلى مواطن طفولتهم ونشأتهم... وعاد أيضا أبناؤها الذين أنجاهم الله من الفتن والحروب التي حدثت في تلك السنوات الصعبة...

ومثلما بدأت صفحة جديدة من الهدوء منتصف عام ست وثلاثين.. بدأت صفحة آخرى جديدة في حياة المدينة في منتصف عام واحد وأربعين، حيث أصبحت المدينة إمارة من إمارات الدولة الأموية... ولكنها إمارة تتعلق بها أعين الأمويين، وتحظى بقدر من حبهم وقلقهم واهتمامهم وخوفهم.... صفحة جديدة سنرحل معها، في الصفحات التالية، لنقرأ فيها رحلة العصر الأموي في هذه المدينة الطيبة......

المدينة المنورة في العهد الأموي

بدأت المدينة تستقبل أفواج العائدين إليها يوما بعد يوم، فتعمُر بهم بيوت كانت فارغة. وتزداد صفوف المصلين وحلقات الجالسين في المسجد النبوي، وتنشط الحركة في الأسواق، ويخف الركود الذي عاشته المدينة في خمس السنوات السابقة.... كان معظم العائدين إلى المدينة من الذين خرجوا مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى وقعة الجمل، والذين تبعوه من بعدُ مناصرةً له على معاوية رضي الله عنه.

ورغم أن تنازل الحسن بن علي لمعاوية قد غم عدداً من أهل المدينة، الذين كانوا موقنين كل اليقين بشرعية خلافة علي وبضرورة مقاتلة معاوية ومن معه، فإن ما أعقب ذلك التنازل من وقف الفتنة الضخمة وإنهاء الصراع وحقن الدماء قد هدّأ النفوس وجعلها تسلم للأمر الواقع، ثم تركن إليه وتؤثره..

وما لبث الحسن بن علي أن وصل إلى المدينة مع بقية أسرته من آل علي رضي الله عنه واستقر في بيته، وعاد معه، أو بعده بقليل، معظم الذين خرجوا من أهلها وعلى رأسهم قيس بن سعد بن عبادة - أشد المتحمسين لمقاومة الأمويين وأكثرهم سخطاً على ما انتهت إليه الأمور - ثم عاد بقية الأمويين الذين ولدوا وعاشوا سنوات طويلة فيها وأحبوها، ولم يخرجوا منها إلا بسبب الفتنة، فلما انطفأت الفتنة عادوا ليعيشوا مع أقاربهم الهاشميين، ومع أترابهم من أبناء المهاجرين والأنصار، وينعموا بما تفيئه عليهم مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم من سكينة وحبور، وبدا أن الناس يتوزعون في ثلاثة اتجاهات كبيرة.

الاتجاه الأول : يؤثر أن يعيش في مجرى الحياة العادية ويعرض تماماً عن القضية السياسة: قضية الخلافة والحكم، التي لم تَجرّ على المسلمين منذ

تفجرها في عهد عثمان إلا المآسي والجراح.

وكان معظم أهل المدينة من أصحاب هذا الاتجاه، وفي مقدمتهم أولئك الذين لم يشاركوا في الأحداث، وآثروا البقاء في المدينة إلى أن انتهت الأمور إلى بيعة معاوية. يضاف إليهم أولئك الذين شاركوا في الأحداث وأطاعوا الحسن عندما أمرهم أن يبايعوا معاوية.

الاتجاه الثاني : يرى أن الأمور قد استتبت وعادت إلى مجراها الصحيح بعد تنازل الحسن عن الخلافة، لأن بيعة علي في أساسها غير صحيحة، وكل ماحدث بعدها إنما هو من آثار قتل عثمان رضي الله عنه.... ويقف في رأس هذا الاتجاه الأمويون الذين خرجوا إلى معاوية، والذين بقوا في المدينة من آل عثمان، ويشاركهم عدد من الصحابة وأبنائهم أمثال: حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومحمد بن سلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت وفضالة بن عبيد.. وغيرهم.. وباستثناء النعمان بن بشير فإن أحداً من هؤلاء الأنصار لم يشارك في الحروب التي حدثت بين علي ومعاوية ، وآثروا الاعتزال.

الاتجاه الثالث : يرى أن تنازل الحسن لمعاوية خطأ، وأن خلافة معاوية غصب للحق.. ومن هؤلاء الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن العباس وقيس بن سعد بن عبادة وسفيان بن الليل، غير أنهم نزلوا عند رغبة الحسن وسلّموا للأمر الواقع والتزموا بالبيعة،(١)ولم يُخفِ بعضهم

---

١) كان قيس بن سعد بن عبادة أحد قادة جيش علي وابنه الحسن من بعده، فلما كان الصلح بين الحسن ومعاوية رفض البيعة لمعاوية، وكاد أن يقاتله، فبعث إليه الحسن يكفه عن ذلك ويأمره بالبيعة، وسعى معاوية إلى استرضائه بعد أن دخل الكوفة، وأرسل إليه فجاءه إلى المسجد، فأحسن معاوية استقباله وطلب منه البيعة فقال له قيس: إن كنت لأكره مثل هذا اليوم يامعاوية. فقال معاوية: مه رحمك الله؟ فقال: لقد حرصت أن أفرق بين روحك وجسدك قبل ذلك فأبى الله يابن أبي سفيان إلا ما أجد. قال معاوية: فلا يُرَد أمر الله. فأقبل قيس بوجهه على الناس (الذين بايعوا) وقال : يامعشر الناس: لقد اعتضتم الشر من الخير،

سخطه، فعندما لقي سفيان بن الليل الحسن في المدينة قال له: يامذل المسلمين. فاحتملها الحسن منه، وبيّن له أنه أراد حفظ دماء المسلمين(١).

لذا ورغم اجتماع البيعة لمعاوية، لم يكن بد من مجيء معاوية إلى المدينة ليزيل آثار سنوات الفتنة من نفوس أهلها.

الخليفة معاوية في المديـــنة:

جاءت الأخبار بقدوم معاوية إلى المدينة، وخرج عدد من أهل المدينة لاستقباله في ظاهرها.. وسلّموا عليه بالخلافة، فلم يُبدِ لهم شيئاً.. واقترب منه أحد القرشيين من أنصاره، وقال له: الحمد لله الذي نصرك وأعلى كفك. فلم يَرد عليه معاوية، وواصل سيره حتى دخل المدينة وقصد المسجد النبوي، فصلى ركعتين وسلم على رسول الله ﷺ، واجتمع الناس، فاعتلى المنبر وخطب فيهم خطبة مكاشفة ومصارحة بيّن لهم فيها مواقفهم السابقة مع علي، وانتهاء الأمر إليه رغم ذلك. وأعلن عن صفحة جديدة يفتحها للتعامل معهم، ويتناسى فيها من خاصمه، ويطلب منهم الطاعة وتجنب الفتنة، ويعدهم بحسن السياسة والعدل والعطاء الوافر، وكان مما قاله: أما بعد. فإني والله ما وليتها بحجة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي. ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة، وأردتها على عمل عمر فنفرت من ذلك نفاراً شديداً، وأردتها مثل ثنيات عثمان، فأبت علي، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة: مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، فان لم

واستبدلتم الذل من العز والكفر من الايمان، فأصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنين وسيد المسلمين وابن عم رسول رب العالمين وقد وليتم الطليق، وابن الطليق، يسومكم الخسف ويسير فيكم بالعسف، فكيف تجهل ذلك أنفسكم؟ أم طبع الله على قلوبكم وأنتم لاتعقلون. فجثا معاوية على ركبتيه ثم أخذ بيده وقال: أقسمت عليك.. ثم صفق على كفه، ونادى الناس بايع قيس. ويبدو من الرواية مدى حلم معاوية لسل الضغينة من نفس قيس (اليعقوبي٢/٢١٦ - ٢١٧).

١) ابن كثير ٨/١٣٤.

تجدوني خيركم فاني خير لكم ولاية. والله لاأحمل السيف على من لاسيف له، وإن كان منكم ما يستشفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك له مني دبر أذني، وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه، فإن السيل إذا زاد عنّى. وإذا قل أغنى. وإياكم والفتنة، فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة. استغفر الله لي ولكم، استغفر الله...(١)٠

وقد تركت هذه الخطبة آثاراً حميدة في نفوس الناس، وزادتهم اقتناعا بما صار إليه الأمر من إطفاء الفتنة والالتفات إلى شؤون الحياة العادية.

و حرص معاوية على أن يستميل الناس، فوزع عليهم الأموال واستزار الهاشميين ووجوه المدينة وأحسن استقبالهم وأعطاهم بسخاء... ولم يرحل حتى ولى على المدينة أحد الخبيرين بها من الأمويين المحنكين، الذين شهدوا أحداثها الكبيرة منذ عهد عثمان: مروانَ بن الحكم. وأوصاه أن يحسن السيرة فيهم ويصلح من أمر المدينة مايستطيعه....

المدينة في إمارة مروان بن الحكم:

بدأ مروان إمارته على المدينة بنشاط واضح.. فبنى بيتاً بجانب المسجد النبوي من طرف باب السلام وجعله مقراً للإمارة، وقد سمي باسمه وبقي سنوات طويلة من بعده مقراً للإمارة ومعلماً من معالمها... ورصف الممرات حول المسجد النبوي بالحجارة، ويقال إنه بدأ بتبليط الممر من بيته إلى المسجد، فعلم معاوية بذلك فأمره برصف سائر المنطقة حول المسجد، وكلف ابنه عبد الملك بالإشراف على العمل زيادة في الاهتمام به(٢)٠

مشروع العين الزرقاء:

رأى مروان حاجة المسجد النبوي إلى المياه، ولم يكن قربه مورد يكفي

---

١) البداية والنهاية ١٣٥/٨

٢) انظر تاريخ المدينة المنوره ١٦/١ والبداية والنهاية ١٣٥/٨ والعقد الفريد ١٧٠/٤ - ١٧١.

المصلين، وخاصة عندما تفد الوفود للزيارة بعد موسم الحج أو قبله، فاجتهد في أن يجر مياه بعض العيون الغزيرة بأقنية تحت الأرض إلى المسجد النبوي.

ويروى أن معاوية هو الذي أمره بذلك.. وقد نهض مروان بهذا الأمر وبث رجاله لانتقاء المورد المناسب، فأشاروا عليه باحدى العيون التي تنبع من جنوبي قباء، فأمر بحفر الأقنية اللازمة، واستقدم العمال المتخصصين، وأوصل الماء إلى موقع يقابل المسجد، وجعل لها بيتا يدخل إليه الناس ليتوضأوا ويتزودوا بالماء، وقد سميت العين التي جر منها الماء بعين الأزرق، نسبة إلى مروان الذي كانت عيناه زرقاوتين(١) وحرف الاسم بعد ذلك وصار: العين الزرقاء. وظل هذا الإنجاز المورد الرئيسي لأهل المدينة أربعة عشر قرناً، شهد خلالها زيادات وإصلاحات كثيرة.

إنجازات أخـــرى:

اهتم مروان بن الحكم بتوفير المياه للمناطق البعيدة في المدينة أيضا.. فقد نقل السمهودي روايات تفيد أنه مدّ أقنية للمياه من العالية جنوبي المدينة إلى قرب جبل أُحد شمالي المدينة، وأن المياه دخلت قبور بعض الشهداء وكشفتها، فخرج أبناؤهم وأعادوا دفنها(٢)ويروي ابن شبة أن مروان بن الحكم بنى بأمر معاوية حصنين في طرف المدينة سمي الأول قصر خل والثاني قصر جديلة. وربما يكون ذلك لمراقبة مداخل المدينة.. فلم تكن المدينة ولا أهلها مهددين من عدو خارجي(٣)وعندما كثر المال في أيدي بعض أهل المدينة من الهاشميين والأمويين وغيرهم، نشطت حركة البناء، وظهرت بيوت جديدة واسعة، وانتعشت الزراعة وزادت التجارة وأخذت أحوال الناس تتحسن.

---

١) انظر وفاء الوفاء ٣/٩٨٥ - ٩٨٧.

٢) انظر حديث جابر بن عبد الله عن قبر والده الذي استشهد في أحد وفاء الوفاء ٣/٩٣٧.

٣) انظر: تاريخ المدينة المنوره ١/٢٧٢.

وكان مروان حاكماً حازماً يحسن سياسة أهل المدينة على اختلاف مواقعهم ومكانتهم الاجتماعية.. وكان يحرص على أن يجالس وجوههم وعلى أن يزور وجوه الهاشميين ويستزيرهم....

عطاءات معاويــــة:

كان معاوية أحرص من مروان على مداراة وجوه أهل المدينة وإكرامهم، وكان يحضهم على زيارته في دمشق ليكرمهم ويغدق عليهم العطاء. وكان من سياسته أن يخصهم بالعطاءات الضخمة ليرضيهم وليحافظ على وجاهتهم بين الناس، بتميزهم عنهم، وبإتاحته الفرصة لهم كي يوزعوا عليهم شيئا من تلك الأموال الطائلة.

وينقل ابن كثير أن الحسن والحسين وفدا عليه في الشام فأعطى كلا منهما على الفور مائتي ألف، وقال لهما: ما أجاز بهما أحدٌ من قبلي. فقال له الحسين ولم تعطِ أحداً أفضل منا. ووفد عليه الحسن مرة فأعطاه أربعمائة ألف درهم... وكان يهشّ للقاء الهاشميين بالذات، ويحسن استقبالهم، فقد وفد عليه الحسن وعبد الله بن الزبير فقال للحسن: مرحباً وأهلاً يا ابن بنت رسول الله ﷺ وأمر له بثلاثمئة ألف درهم، وقال لابن الزبير: مرحبا وأهلاً بابن عمة رسول الله ﷺ، وأمر له بمئة ألف درهم.

ولم يكن ينتظر وفادتهم إليه، بل كان يرسل إليهم أحيانا بالمال الوفير وهو يعلم أنهم سيوزعونه على من حولهم لما فيهم من كرم ورفعة، وقد بعث مرة إلى الحسن بمائة ألف فوزعها الحسن على جلسائه، وبعث إلى عبد الله بن عمر مئة ألف فوزع منها تسعين ألفا واستبقى عشرة لأهله، وبعث الى عبد الله بن الزبير بمئة ألف أيضا كما بعث إلى مروان بن الحكم وعبد الله بن

جعفر(١)٠

وظهرت آثار هذه العطاءات، فقرّتْ نفوس الهاشميين ولم يظهروا سخطاً أو تبرما أو نقداً لمعاوية.. وزاد من سكينتهم ما أظهره من حلم شديد في حالات الغضب النادرة التي حدثت من بعضهم، فقد غضب الحسين بن علي مرة لتجرؤ بعض عمال معاوية على بستان له - وكان مجاوراً لبستان معاوية - وكتب إلى معاوية يخبرهم باعتدائهم على أرضه وأخذهم جزءاً منها، وهدده بعبارات قاسية. ويروى أن معاوية عرض كتاب الحسين على يزيد وسأله عن رأيه فيه، فكان رأيه أن يرسل بتأديبه لتجرؤه على الخليفة، ولكن معاوية لم يرقه رأي يزيد فبعث بكتاب الى الحسين يعتذر له عن فعلة عماله ويسترضيه ويهبه بستانه كله.. فكتب إليه الحسين يثني عليه ويشكره....

وحرص على أن يكرم بعض الذين كانوا من أشد أعدائه... وقد أكرم أم سنان بنت خيثمة وأعطاها حاجتها عندما وفدت عليـــــه، مع أنها كانت تقول الشعر في التحريض عليه(٢)٠

غير أن معاوية لم يفرض عطاءات لأهل المدينة جميعاً، لذلك لم يحسن الدخول إلى قلوبهم.. وربما نظر بعضهم إلى أعطياته الضخمة لوجوه المدينة بأنها نوع من تألف الزعامة وإهمال الرعية.. لذلك كان التحسن النسبي الذي طرأ على المدينة يتضخم عند فئات من الناس ويقل حتى يكاد ينعدم عند آخرين.... وعلى أي حال مضت ثماني سنوات من ولاية مروان بن الحكم على المديينة وأمورها تسير في هدوء، بينما كانت الأمور في العراق والشام تشهد بقايا الاضطرابات وخروج بعض الخوارج والمرتدين..

وفي عام ٤٤هـ حج معاوية، وحمل معه أموالاً كثيرة إلى المدينة، وزار

---

١) البداية والنهايه ٨/١٤٠

٢) انظر قصة الوفادة في العقدالفريد١/٣٤٩-٣٥٠ وأخبار الوافدات من النساء على معاويه ص ٢٣.

أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها واسترضاها (وكانت غاضبة لمقتل أخيها محمد بن أبي بكر في مصر على يد قادة معاوية) ووزع أموالا على الهاشميين ووجوه المدينة، وليس في الأخبار أنه وزع على جميع أهل المدينة...

وطبيعي أن بقية أهل المدينة سيحسون بالفرق بين حالهم في عهد معاوية وحالهم في عهد الراشدين حينما كانت تأتيهم أعطياتهم بانتظام.... كما أن الهاشميين كانوا لايسكتون عن أي غمز فيهم رغم تلك الأعطيات، ويروى أن معاوية نال من علي في إحدى خطبه، وكان الحسن في حاضراً فغضب وقام على الفور فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله لم يبعث نبياً إلا جعل له عدواً من المجرمين، فأنا ابن علي وأنت ابن صخر، وأمك هند وأمي فاطمة، وجدتك قتيلة وجدتي خديجة، فلعن الله ألأمنا حسبا وأعظمنا كفراً وأشدنا نفاقا. فصاح أهل المسجد: آمين آمين. فقطع معاوية خطبته ونزل ودخل منزله ثم أرسل واعتذر الى الحسن واسترضاه. وروي أن معاوية أراد لعن علي على المنبر ولم يكن الحسن موجوداً، فقيل له أن سعد بن أبي وقاص في المسجد، فأمسك، فلما مات سعد كتب معاوية إلى عماله أن يلعنوا علياً على المنابر(١).

غير أن وجوه المدينة لم يسكتوا عن بعض التحولات التي شهدوها في الحكم الأموي. وهم الذين يتناقلون أحاديث رسول الله ﷺ وسيرته بل كانوا يظهرون احتجاجاتهم ورفضهم لما يحسون أنه مخالف للشرع، وكان الأمويون يراعون ذلك ويخشون جانبهم.... ويروى أن سعيد بن المسيب رضي الله عنه كان من جلساء أمير المدينة مروان بن الحكم، وبينما هم يسمرون مرة ذكروا الفيء، فقال سعيد: الفيء مال الله، وقد وضعه عمر رضي الله عنه مواضعه. فقال مروان: الفيء مال أمير المؤمنين معاوية يقسمه فيمن يشاء.. فخرج أحد الجلساء (ابن البرصاء) وأخبر سعد بن أبي وقاص بما دار في المجلس، فلقي

---

١) العقد الفريد ٥/١١٤.

سعد بن أبي وقاص سعيد بن المسيب واستوضح منه الخبر، فلما استيقنه صحبه إلى مروان ودخل عليه وأغلظ له القول.. فترضاه مروان.. فلما خرج قال مروان لجلسائه: من ترونه أخبره بهذا الأمر، فقالوا: ابن البرصاء.. فجيء به فأمر بتجريده ليضرب، فدخل البواب يستأذن لحكيم بن حزام . فقال مروان: ردوا عليه ثيابه وأخرجوه لايهيج علينا هذا الشيخ(١)•

وكان من مميزات سنوات الهدوء والسكينة هذه تعميق التجانس بين سكانها، رغم توزعهم إلى هاشميين وأمويين وأوس وخزرج.. فصاروا أصحاب وجهات نظر متقاربة في جميع الأمور غير السياسة.. حتى إن الفقهاء قد وضعوا فيما بعد مصطلحاً خاصاً لذلك هو عمل أهل المدينة.. فهم الذين عايشوا رسول الله ﷺ والخلفاء الأربعة من بعده، وهم الذين نقلوا الكثير من حديثه وسيرته، ولقد فرقّتهم الأهواء السياسية حيناً من الدهر.. فلما عادت سنوات السكينة والطمأنينة التأم الشمل ثانية وصارت الخلافات وجهات نظر لاتورث المشاحنة أو الصراع.

شعرة معاويـــة:

كان معاوية في دمشق حريصاً على أن يتتبع أخبار أهل المدينة ويطلب من أميرها أن يوافيه بأخبار الهاشميين، ويبعث العيون ليتحسس أخبارهم، وقد رصد أولئك العيون رسلاً يفدون على الحسين بن علي من العراق وكانوا يقصدونه إذا لم يجدوا من الحسن أذناً صاغية، فكتب مروان بن الحكم إلى معاوية يقول: إني لست آمن أن يكون الحسين مرصداً للفتنة، وأظن يومكم من الحسين طويلاً. فكتب معاوية إلى الحسين يذكره ببيعته ويشدد عليه أن يتجنب الفتنة. وكان مما كتبه: إن من أعطى الله صفقة يمينه وعهده لجدير بالوفاء، وقد أنبئت أن قوما من الكوفة قد دعوك إلى الشقاق، وأهل العراق من قد جرّبَت، فقد أفسدوا على أبيك وأخيك، فاتق الله واذكر الميثاق فإنك

١) التحفة اللطيفة ١/٤٤٩.

متى تكدني أكدك. فكتب اليه الحسين جواباً ينفي ما بلغ معاوية عنه ويؤكد تمسكه بالعهد: أتاني كتابك وأنا بالذي غير بلغك جدير، والحسنات لايهدي بها إلا الله، ولا أردت منك محاربة ولا عليك خلافاً.

وحاول معاوية أن يتقرب من بني هاشم. فأرسل يخطب ابنة عبد الله بن جعفر لابنه يزيد (وكانت أمها أخت الحسن والحسين) وكلف مروان بن الحكم بخطبتها. ولكن الحسين بن علي قطع الطريق على معاوية وزوجها أحد أبناء عمها(١).

أميـــــر جـــديد:

في عام تسعة وأربعين جاء الأمر بعزل مروان بن الحكم عن إمارة المدينة، ويبدو أن معاوية عزله لأسباب كثيرة، منها تعدد الشكاوي عليه من بعض أهل المدينة، ومنها لأنه خشي أن يطول العهد بمروان فيستقوي وينشيء له حاشية أموية تنازعه في الأمر، أو تتحول إلى قوة مؤثرة، وكانت المدينة تضم عدداً كبيراً من الأمويين، فأراد أن يمنع هذا، ويحول دون تكتل أموي قد يصبح قوة سياسية

وصل كتاب معاوية في ربيع الأول عام ٤٩هـ يأمر بعزل مروان وتولية سعيد بن العاص، ولم يطع مروان هذا الأمر في حينه وأمر معاوية سعيداً أن يصفى أموال مروان وأن يهدم داره ليذله، وليوقع الشحناء بين الكتلة الأموية في المدينة فرفض سعيد واكتفى بالعزل(٢) وكان سعيد ابن العاص لين العريكة فيه حلم وصفح.... فسارع إلى التودد الى الناس والإحسان إليهم، وأفرج عمن سجنهم مروان وعفا عن بعض المسيئين، وتقرب إلى الهاشميين ونادمهم.

ومرض الحسن بن علي مرضاً شديداً وسرت شائعة بين الناس تتهم

---

١) وفاء الوفاء ١١٥١/٣.

٢) الطبري ٢٩٤/٥.

معاوية بأنه دس له من سمه، وأقبل بعض أقاربه يسأله عن ذلك فنفى الحسن ذلك، وعندما شعر بدنو أجله تمنى أن يدفن إلى جوار جده رسول الله ﷺ في حجرة عائشة، وأوصى أخاه الحسين أن يستأذن له بذلك وأن ينفذ له وصيته مالم يؤدِ الأمر إلى فتنة.. وعندما مات أرسل الحسين إلى أم المؤمنين عائشة يستأذنها، فأذنت له، فلما بلغ مروان بن الحكم الخبر هاله الأمر، وخشي أن يصبح هذا الأمر تعظيماً للهاشميين يجر وراءه ولاءً سياسياً يهدد الخلافة الأموية ، فجمع عدداً من الأمويين وخرج ليمنع دفن الحسن في حجرة عائشة... ولمّا بلغ الخبر الحسين استشاط غضباً ولبس سلاحه وآلى أن يواجه مروان وينفذ وصية أخيه ولو بالقوة.. وكادت تقع فتنة كبيرة، ففي المدينة من ينتصر له ويناصره لقرابته من رسول الله من جهة، ولنفورهم من مروان الذي كان شديداً في ولايته.. ومثلما استعد الحسين ومن معه استعد مروان ومن معه بالسلاح. وكادت أن تقع المواجهة. وهنا سارع بعض الهاشميين وذكروا الحسين بوصية أخيه الحسن وتأكيده عليه ألا يسبب ذلك فتنة، وأن يدفنه في البقيع.. فسكن الحسين ورضي أن يدفن جثمان الحسن في البقيع.. وجاء أمير المدينة سعيد بن العاص وجمع كبير من الناس فصلوا عليه وواروه في البقيع وعزوا أهله فيه..(١).

وعادت الحياة إلى مجاريها في المدينة ولكنها خلفت في نفس الحسين أثراً مزعجاً ، كان بداية المنعطف نحو أحداث خطيرة ستجري بعد سنوات... كما أن وفاة الحسن قد أخلت الساحة السياسية من الوجه الكبير الذي يعده الناس مكافئا لمعاوية أو مقدما عليه... ونقلت زعامة الهاشميين إلى الحسين رضي الله عنه.. وقد سعى معاوية لإزالة آثار حادثة الدفن فبعث الأموال إلى الحسين وإلى عبد الله بن جعفر وإلى وعبد الله بن الزبير وعدد من الهاشميين، فعادت السكينة إلى نفوس هؤلاء. ومالبث أن جاء معاوية بنفسه

---

١) انظر: البداية والنهاية ٤٥/٨

عام ٥٠هـ في موسم الحج وقاد الوفود إلى عرفات، ومكث في المدينة أياما وفرق الأموال على وجوهها...

ومرت خمس سنوات من ولاية سعيد بن العاص، ازداد فيها الهدوء في المدينة حتى أصبح أقرب الركود، ووردت شائعات بأن معاوية يفكر في أخذ البيعة لابنه يزيد بعد أن مات الحسن، وأن أخاه زياد بن أبي سفيان (بن أبيه) نصحه بالتروي وعدم استثارة الناس بهذا الأمر، خاصة وأن يزيد كان شاباً يتقلب في النعيم.. فعمل معاوية بنصيحة زياد ولم يشع الأمر(١)، ووجه ابنه يزيد إلى ترك اللهو ومرح الشباب، وأرسله في غزوة داخل أرض الروم بلغت أبواب القسطنطينية، وكان فيها عدد من المجاهدين من أهل المدينة منهم أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، الذي توفي هناك ودفن تحت أسوارها.. كما أرسله أميراً على موسم الحج...

غير أن معاوية لم يتخلّ عن فكرة أخذ البيعة ليزيد لأسباب كثيرة، منها الخوف من أن تثور الفتنة على الخلافة بعد موته كما ثارت بعدموت عثمان، خاصة وأن الحسين في المدينة كان محط أنظار الناس بعد أخيه.. وأن العراقيين راسلوه أكثر من مرة ليذهب إليهم ويخلع البيعة فأبى..

ولما رأى معاوية جلد يزيد على الغزو، وحسن سيرته في الحج وما بعده.. تضخمت الفكرة في نفسه. وعندما توفي زياد بن أبي سفيان قرر أن ينفذ فكرته ويأخذ البيعة ليزيد في الشام وفي الأمصار، والمدينة أهم تلك الأمصار... بل أهم وأخطر من الشام نفسها، لأنها مركز الثقل المعنوي.. ففيها من يمكن أن ينازع يزيد في الخلافة ويتبعه الناس ويبايعونه.. فكتب إلى أمرائه في الأمصار.

وصل الخبر الى مروان بن الحكم فغضب، وكان يطمع أن ينتقل الحكم في الأمويين، فجمع عددا من الأمويين وسافر الى الشام ودخل على معاوية

---

١) الكامل ٣/٣٥٠

مغاضبا وأنكر عليه أن (يولي الصبيان) مُعرّضا بيزيد.. فلاينه معاوية واسترضاه، ووعده أن يكون ولي عهد يزيد.. وأعطاه وأعطى كل من جاء معه مالا وردهم الى المدينة(١).

عودة مروان بن الحكم إلى الإمارة:

عزل معاوية سعيد بن العاص وولى مروان لما يعرفه من حزمه وقدرته على أخذ البيعة ليزيد أكثر من سعيد.. كما أن السبب السياسي الذي جعله يعزل مروان عام ٤٩هـ لم يغب عن عزل سعيد، فكتب التاريخ تروي أن معاوية كان يفضل ألا تطول امارة أموي على المدينة وألا تكون له قوة وجماعة..

ومما يزيد ميلنا إلى هذا التصور أن كتب التاريخ لاتذكر أخطاء لسعيد في إمارته، وعلى العكس من ذلك، تذكر أنه كان لين الجانب سمحاً قادراً على استمالة الهاشميين ووجوه أهل المدينة والمحافظة على ولائهم.. وطبيعي أن موقف أخذ البيعة يختلف عن مواقف الإمارة الأخرى، لذا لن يكون من صالح معاوية أن يبقى سعيد في الإمارة، والأفضل أن يأتي مروان..

وقد تولى مروان الامارة عام ٥٤هـ واعتزل سعيد، وتنقل الروايات أن معاوية أمر مروان بمثل ماأمر سعيداً من قبل: محاسبة الأمير السابق وهدم داره.. وهمّ مروان بذلك لولا أن سعيداً راجعه، وأخرج له كتاب معاوية السابق له، وعرفه أن معاوية يحاول أن يوقع بين الأمويين ويشق صفهم.. فتوقف مروان عن تنفيذ الأمر وكتب سعيد يؤنب معاوية على أمره ذاك.

عاد مروان إلى الامارة ومعه حزمه وشدته، وعندما جاءه الكتاب بأخذ البيعة ليزيد أرسل إلى وجوه المدينة، فجاء أبناء المهاجرين والأنصار وعدد من الأمويين والهاشميين.. وعرض مروان عليهم كتاب أمير المؤمنين، وبينّ لهم مساوئ الخلاف والفتنة، وما لمسوه بأنفسهم من آثارها.. فقبل معظم الموجودين إعطاء البيعة باستثناء أربعة من كبار القرشيين، وهم: الحسين بن

---

١) المسعودي: مروج الذهب ٣/٢٩ -

علي وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير (ويضاف إليهم في رواية أخرى عبد الله بن جعفر) وهم الذين كان يخشاهم معاوية ويخشى أن يتبعهم الناس في المخالفة، وحاول مروان أن يقنعهم، ولكنه عجز عن ذلك، وكان عبد الرحمن بن أبي بكر من أشدهم رفضاً للبيعة. وكتب مروان بن الحكم بما جرى لمعاوية، وأرسل وفداً من أهل المدينة برئاسة محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، وبين له أن أهل المدينة يبايعون ولكن امتناع الأربعة قد يخل البيعة.. ولقي محمد بن عمرو بن حزم معاوية وأظهر الاستعداد للبيعة ونصح معاوية بالتروي في الأمر، وقال له: إن كل راع مسؤول عن رعيته، فانظر من تولي أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم، (فأخذ معاوية بهر حتى حتى جعل يتنفس بصوت عال كأنه في يوم شات.. ثم وصله وصرفه)(١).

معاوية في المدينة لأخذ البيعة ليزيد:

أحس معاوية أن أهل المدينة الموادعين، والذين استقاموا له طيلة خمسة عشر عاما، لن يكونوا راضين عن بيعة يزيد، وأنهم قد يشقون عصا الطاعة ويتبعون القرشيين الذين امتنعوا عن البيعة، لذلك قرر أن يتدخل بنفسه، وأن يسافر إلى المدينة لأخذ البيعة، خاصة وأن الولاة في الأمصار الآخرى أخذوا البيعة دون معارضة، وأرسلوا الوفود من وجوه الناس فيها لتأكيدها، ولم يبق إلا المدينة، ومن الخطر الشديد أن يترك أمرها.

جاءت الأخبار بقدوم معاوية إلى المدينة، وخرج مروان لاستقباله في ظاهرها، وخرج عدد من أبناء الأنصار فوقفوا عند مداخلها.. وعندما رأى معاوية بعض أهل المدينة لم يستقبلوه إلا في مداخلها سألهم: مامنعكم من تلقيّ من بعد كما تلقاني الناس من بعد؟ فأجابه أحدهم: منعنا من ذلك قلة الظهر (الخيل والابل) وخفة ذات اليد، بإلحاح الزمان علينا، وإيثارك بالمعروف

---

١) الكامل ٣/ ٢٥٠

غيرنا(١) فأدرك معاوية أن النقمة كامنة في نفوس أهل المدينة الذين لم تأتهم الأعطيات، وأدرك أن هذه النقمة ستصب في الفتنة من بعده.. ولكنه كان يرجو أن تكون الأعطيات الضخمة التي أغدقها على الهاشميين ووجوه أهل المدينة كافية لتدبير الأمور، فإن بايع وجوه الناس بايع الآخرون.

نزل معاوية في دار الإمارة، ورأى أن ينفرد بكل واحد من الأربعة الذين يخشى امتناعهم عن بيعة يزيد قبل أن يطرحها على الناس، فبدأ بالحسين، وهو أول من تتجه إليه الأنظار للخلافة بعد معاوية.. فلما جاءه هشّ له وأحسن استقباله ولاينه في الكلام، ثم قال له: يابن أخي، قد استوثق الناس لهذا الأمر غير نفر من قريش أنت تقودهم، يابن أخي فما أربك إلى الخلاف؟. وطبيعي أن هذا الاتهام سيفاجيء الحسين، لذا رد على الفور: أنا أقودهم؟ فقال معاوية: نعم أنت تقودهم. فقال الحسين: فأرسل إليهم، فان بايعوا كنت رجلاً منهم، وإلا لم تكن عجلت علي بالأمر. فقال معاوية: وتفعل. قال الحسين: نعم.. وأراد معاوية أن يحكم أمره في استنزال كل واحد على حدة، لذا طلب من الحسين ألا يخبر أحدا بحديثهما. فحاول الحسين أن يهون الأمر على معاوية، وألا يوثق بنفسه على بوعد، فألح معاوية عليه حتى أخذ منه عهداً بذلك.. وخرج الحسين، وعلم عبد الله ابن الزبير أن معاوية أرسل إلى الحسين فبعث أحد خاصته فجلس له في الطريق، حتى إذا مرّ الحسين هب اليه وقال له: يقول لك أخوك عبد الله بن الزبير ما كان؟ فامتنع الحسين عن إخباره، فما زال الرجل يلح عليه حتى استخرج شيئاً منه... لذا عندما جاء الرسول إلى ابن الزبير ليذهب معه إلى معاوية كان ابن الزبير يدرك ماسيطلب منه، فذهب إليه، واستقبله معاوية بالأسلوب نفسه، وفاجأه باتهامه بأنه يقود العصيان على البيعة، فكان جوابه كجواب الحسين: أرسل إلى الناس فان بايعوا كنت رجلا منهم. وحاول معاوية أن يأخذ من ابن الزبير عهداً ألا

---

١) البلاذري: الأنساب ١١٦/١.

يتكلم بما دار بينهما، فأبى ابن الزبير قائلا: ياأمير المؤمنين نحن في حرم الله عز وجل، وعهد الله سبحانه ثقيل.. وخرج. وبعث إلى عبد الله بن عمر وحدثه بما يخشاه على الأمة من التفرق بعد موته، وأن تعود الفتنة كما كانت من قبل، فوافقه عبد الله بن عمر ووعده أن يبايع إن بايع الناس ولو كانت البيعة لعبد حبشي. وأرسل إلى عبد الرحمن بن أبي بكر، وكان عبد الرحمن قد أسن، وقد بلغ معاوية رفضه البيعة ليزيد عندما عرضها عليه مروان بن الحكم، لذا كان معاوية شديداً عليه، وكان عبد الرحمن أشد في جوابه، فقد احتد الحوار وخرج عبد الرحمن دون أن يعطي أي وعد خلافا لأصحابه السابقين..(١).

ويروي ابن الأثير أن معاوية خرج بعدها الى مكة للحج، وخرج الأربعة، ولم يلقهم معاوية بعد لقائه الأول بهم، ولم يطلب منهم البيعة. فقد آثر أن يأخذ البيعة من أهل مكة في الموسم، ثم يثني بأهل المدينة. ولما علم بخروج الحسين وابن الزبير وابن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر إلى مكة قرر أن يحكم الأمر هناك، فطلبهم في مكة وأحسن لقاءهم، ولاسيما الحسين وعبد الله بن الزبير، واستصحبهم فكانوا أول داخل عليه وآخر خارج من محله، ولا يمضي يوم إلا ولهم صلة.. دون أن يذكر لهم شيئاً من أمر البيعة، حتى اذا قضى منسكه وقرب مسيره أحضر الأربعة، ولاينهم في الحديث وطلب منهم أن يقدموا يزيد للخلافة ويبايعوه أمام الناس، فسكتوا، وتكلم عبد الله بن الزبير فخير معاوية بين أن يترك الأمر بعده شورى للناس أو أن يعهد لغير ابنه ، فلم يرض معاوية، وأدرك أنه لن يبلغ منهم شيئاً، لذا قرر أن يتصرف بدهاء وحكمة، فأخبرهم أنه سيخطب في الناس ويطلب البيعة ليزيد، فان رد عليه أحد فسيقتله على الفور، وأمر صاحب حرسه على مسمعهم أن يقيم على رأس كل منهم رجلين، فإن رَدّ أحد منهم عليه بكلمة تصديق أو تكذيب

---

١)الطبري ٣٠٤/٥

فليضرباه بالسيف. ثم خرج وخرجوا حتى رقي المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لايتميز أمر دونهم ولايقضى إلا عن مشورتهم ، وإنهم رضوا وبايعوا يزيد، فبايعوا على اسم الله. فبايع الناس.. ولم يجرؤ أحد من الأربعة على الكلام بشيء.

وشاع أمر البيعة ، وسارت بين الركبان إلى المدينة والمناطق الآخرى، وسافر معاويه إلى المدينة ولم يكن أولئك الأربعة قد عادوا بعد، وجمع الناس في المسجد النبوي وطلب منهم البيعة، فلم يتخلف عنها أحد من الحاضرين.. وعاد الأربعة إلى المدينة فقال لهم بعض من لقيهم: زعمتم أنكم لاتبايعون، فلم رضيتم وأعطيتم وبايعتم؟ قالوا: والله مافعلنا. فقالوا: مامنعكم أن تردوا على الرجل؟ قالوا: كادونا، وخفنا القتل(١).

عاد معاوية إلى الشام وقد عزم على أن يغير سياسته إزاء الهاشميين بعامة، وأولئك الأربعة بخاصة.. بل وإزاء المدينة كلها، فأوقف العطاءات التي كانت ترد إلى الهاشميين ووجوه المدينة، وقل المال.

وكان معاوية، قبل أن تحدث قضية البيعة، قد وجه أموالاً كثيرة إلى المدينة، وطلب من أميرها مروان بن الحكم أن يستثمرها له فيها، فيشتري له بعض بساتينها وينفق عليها لاستصلاحها، كما أمره ببناء بعض الأبنية. فاشترى مروان له عدداً من البساتين شمالي المدينة، سميت الصوافي، وبنى له عمارة تجارية كبيرة في السوق، وأجرّ دكاكينها للتجار. وكانت سوق المدينة قد ازدهرت لوفرة المال وسخاء من تصلهم العطاءات، ولا سيما عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر والحسين بن علي.. فلما أمسك معاوية العطاءات تأثرت الحركة الاقتصادية في المدينة بعامة. وكسدت البضائع، فتحول التجار بالقوافل إلى أسواق أخرى، وارتفعت أسعار السلع، ولا سيما الحنطة والشعير قوت الناس، واضطر بعض أصحاب الأراضي الذين لم يجدوا

---

١) الكامل٣/٢٥٣.وقد انفرد ابن الاثير بهذه الرواية

مالاً لاستثمار أرضهم أن يعرضوا بعض أراضيهم للبيع، فاشتراها عمال معاوية وبعض الأمويين الأخرين. ومع استمرار هذا التضيق الأقتصادي هبطت أسعار الأراضي أكثر وأكثر، وازدادت أسعار السلع، وأحس أهل المدينة بالضيق..

وسافر عبد الله بن عباس إلى معاوية وعاتبه في ذلك، فصارحه معاوية بأن امتناع الأربعة عن البيعة ليزيد[1] هو السبب.

الأمير الأموي الثالث:

عزل معاوية مروان بن الحكم للمرة الثانية، ولم يذكر المؤرخون سبباً مباشراً لذلك، ونرجح أن تكون الأسباب التي عزله لها في المرة الأولى قد تكررت، وجعلت معاوية يعزله ثانية، خاصة وأن الشكاوى من شدة مروان قد كثرت في المدة الأخيرة.

وخلف مروان في الإمارة الوليدُ بن عتبة بن أبي سفيان ابن أخي معاوية.. وكان الوليد ألين من مروان، ولكنه لم يكن يملك أن يتصرف بغير توجيهات الخليفة، لذا لم يحدث تغيير الأمير آثاراً تذكر في أهل المدينة. غير أن الأموال التي سبق أن أحرزها وجوه المدينة وما ملكوه من بساتين ومزارع فيها وخارجها خففت من آثار الضائقة عليهم، فبساتينهم تأتي بغلال وافرة، وكذا بساتين معاوية التي استصلحها عماله والتي كانت تغل محصولا ضخما.

وفي شهر رجب عام ستين للهجرة وصل الخبر بوفاة معاوية، وتولي يزيد الخلافة، وجاء البريد إلى أمير المدينة بأخذ البيعة والاحتياط أشد الحيطة من الفتنة.. ذلك أن معاوية عندما أحس بدنو أجله، وكان ابنه يزيد غائباً عن دمشق، دعا اثنين من أوثق رجاله هما الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة، وطلب منهما أن يبلغا يزيد وصيته. وتنص وصيته ـ كما نقلها الطبري ـ على أن يكرم أهل الحجاز بخاصة لأنهم أصله، فيعطي من يقدم عليه منهم، ويتعاهد من يغيب، ولم يرد في الوصية أي استثناء لأهل المدينة. وتضمنت الوصية تحذيراً ليزيد من الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، فهما اللذان يمكن أن يثيرا الفتنة، وقد قال عنهما في وصيته: وأما الحسين بن علي فانه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه، وإن له رحماً

---

1) الكامل ٣/٢٥٠

وحقاً عظيماً وقرابة من محمد رسول الله ﷺ، ولاأظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فلو أني صاحبه عفوت عنه، وأما ابن الزبير فانه خب ضب، فاذا شخص لك فالبد له، الا أن يلتمس منك صلحاً، فإن فعل فاقبل، واحقن دماء قومك مااستطعت(١).

حملت هذه الوصية - فضلا عن فراسة معاوية القوية - صورة عن سياسته التي أفلحت في جمع الشمل ومنع ثورات الهاشميين والقرشيين عليه عشرين سنة، وهي جديرة أن تحفظ الخلافة لو استمرت على يد خلفائه... وقد اهتم يزيد بتنفيذ الوصية ماوسعه ذلك، ولكن ظروفاً كثيرة حالت دون تطبيقها بحذافيرها فلم تؤت ثمارها في الاستقرار وحقن الدماء. فقد حرص يزيد بعد أن تولى الخلافة على تألف أهل المدينة، وأخذ بيعتهم دون أن يحدث أي شقاق، وأمر الوليد بن عقبة أن يرسل إلى الحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر فيأخذ منهما البيعة أولاً، ثم يأخذها من سائر الناس كي لاتحدث فتنة.

اضطرب الوليد عندما قرأ رسالة يزيد، فهو يعلم امتناع الثلاثة عن البيعة من قبل، فأرسل إلى مروان بن الحكم، وكانت بينهما جفوة، ومقاطعة مدة طويلة، فتجاوزها الوليد لخطورة الأمر، وأرسل إلى مروان يستحثه القدوم، وأدرك مروان أن الوليد لم يرسل إليه إلا لأمر خطير، فلبى مسرعا، وقرأ الوليد عليه كتابي يزيد، الأول ينعى له معاوية، والثاني يأمره فيه أن يأخذ الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليس فيه

---

١) الطبري ٥/٣٢٤.

رخصة (١)، وكان مروان بن الحكم أعلم من الوليد بهؤلاء الثلاثة، فضلاً عن أنه يميل إلى الحزم وضبط الأمور بقوة، لذا أشار على الوليد أن يبعث إليهم فورا ويدعوهم إلى البيعة والدخول في الطاعة (فان فعلوا قبلتَ منهم، وكففت عنهم، وإن أبوا قدمتهم فضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فإنهم إن علموا بموت ممعاوية وثب كل امرىء منهم في جانب، وأظهر الخلاف والمنابذة، ودعا إلى نفسه، وأما عبدالله بن عمر فاني لاأراه يحب القتال ولايحب أن يولي على الناس الا من يدفع هذا الأمر عفوا)(٢)٠

المدينة وخلافة يزيـــد:

أخذ الوليد بنصيحة مروان بن الحكم فأرسل أحد أقاربه وهو عبد الله بن عمر بن عثمان، ولم يرسل حاجبه أو بعض شرطته، وكأنما أراد أن يوحي لهما أن الأمر شخصي لايتعلق بشيء من قضايا الحكم، غير أن الوليد أخطأ التوقيت إذ استدعاهم في ساعة لم يكن يجلس فيها للناس، ولا يأتيه أحد.. فلما جاء الرسول إلى الحسين وعبد الله بن الزبير وجدهما جالسين في المسجد يتحدثان، فقال لهما: أجيبا، الأمير يدعوكما. فارتابا في الدعوة وصرفاه ووعداه أن يلحقا به، ثم تشاورا فيما يكون الأمر الذي طلبا له، وتوقعا أن يكونا دعيا للبيعة وأن يكون معاوية قد مات، واتفقا على أن لايبايعا. وذهب الحسين إلى بيته فجمع مواليه وفتيانه وتوجه بهم جميعا إلى الامارة، وأوصاهم أن يمكثوا عند الباب، فإن سمعوا نداءه أو سمعوا مايريب اقتحموا عليهم ليخلصوه..

ودخل الحسين على الأمير ومكث فتيانه ومواليه عند الباب كما أوصاهم، وأظهر الحسين أنه لايعرف سبب استدعائه، وبادر بالحديث وأثنى على تصالح مروان والوليد بعد القطيعة، ولكنهما لم يردا عليه حتى جلس، فقرأ

---

١) الطبري ٥/٣٣٨.

٢) الطبري ٥/٣٣٩.

الوليد عليه رسالة يزيد التي تنعى معاوية وطلب منه البيعة، فاسترجع الحسين وترحم على معاوية وماطل باعطاء البيعة قائلا: أما ما سألتني من البيعة فإن مثلي لايعطي بيعته سراً، ولاأراك تجتزيء (تكتفي) بها سراً دون أن تظهرها على رؤس الناس علانية. فقال الوليد: أجل . فقال الحسين فإذا خرجت الى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمراً واحداً. فاقتنع الوليد بكلامه ورضي بوعده. أما مروان بن الحكم فكان أبعد نظراً، إذ أدرك أن الحسين لن يبايع.. ولو كان في نيته البيعة لأجاب فورا ثم بايع على رؤس الناس.. وأدرك أن امتناعه سيؤدي إلى فتنة كبيرة، لذلك ألح على الوليد أن لايقبل منه التأجيل، وحذره من فتنة تكثر فيها القتلى، وطلب منه أن يمسك الحسين حتى يبايع أو يضرب عنقه، فغضب الحسين ورد على مروان رداً شديدا، وخرج وسار بأصحابه إلى منزله.. فأقبل مروان على الوليد يلومه على تركه الحسين قبل أن يأخذ منه البيعة ويتوقع له ألا يتمكن منه ثانية..

وقد حدث ماتوقعه مروان، إذ جمع الحسين أهله ومواليه وإخوته وبني أخيه وخرج بهم من المدينة ليلاً، لتبدأ رحلة أحداث دامية انتهت بمقتله رضي الله عنه، وقد خالفه في هذا الخروج أخوه محمد بن الحنفية، وحاول أن يثنيه عن عزمه دون جدوى، فنصحه أن يتجنب الخروج على يزيد، وأن يتجنب المدن، وأن يستقر بمكة أو في منطقة نائية ويتروى حتى ينظر مايصير إليه أمر الناس، ولكن الحسين أصر على الخروج ولم يأخذ بنصيحة أخيه ولم يلزم مكة أو الصحارى وكان القدر المقدور.

وأما عبد الله بن الزبير فلم يذهب إلى الأمير، بل كمن في بيته واحتمى باصحابه، فأرسل إليه الوليد مرة تلو المرة وهو يماطل ويستمهل ويعد بالمجيء، فلما كثرت عليه الرسل بعث أخاه جعفر بن الزبير إلى الأمير يسأله أن يكف عنه الرسل فقد ارتاب لكثرة الطلب وفزع، ووعده أن يأتيه في الغد.. فكف الوليد عنه الرسل، فلما صار آخر الليل خرج عبد الله بن الزبير ومعه

أخوه جعفر من المدينة وحدهما، وسلكا طريقا فرعيا لاتسلكه القوافل.. فلما أحس الوليد بخروجه أرسل ثمانين رجلا للقبض عليه واحضاره، فطلبوه فلم يقدروا عليه.

وأما عبد الله بن عمر فكان - كما توقع معاوية - ميالا إلى السلم ووعد بالبيعة إذا بايع الناس، ودخل بيته فأغلق عليه بابه لايستقبل أحداً كي لايتجمع عنده الممتنعون عن البيعة أو يكون رأس الفتنة، فلما خرج الوليد إلى المسجد وجمع الناس وطلب منهم البيعة جاء عبد الله بن عمر فبايع ليزيد.. وجاء محمد بن الحنفية (أخو الحسين) فبايع أيضا.. وجاء عبد الله بن عباس - وكان مسافراً - فبايع ليزيد.. وبايع معظم أهل المدينة ووجوهها ولم يمتنع أحد إلا الحسين وعبد الله بن الزبير، ومن خرج معهما، وهم قلة(١).

ولكن هذه البيعة لم تحل دون تدهور الأمور فيما بعد.. فقد ذهب البريد من المدينة ببيعة أهلها وامتناع الحسين وعبد الله بن الزبير وهربهما.. وذهبت الأخبار من قبل مروان بن الحكم وغيره بما فعله الوليد بن عتبة معها. فغضب يزيد وتوجس شراً، وأدرك أن الوليد لن يستطيع ضبط المدينة أو منع الفتنة فيها، فعزله وولى مكانه عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق.

إمارة الأشدق:

كان الأشدق مقيماً في دمشق مع يزيد، فتوجه إلى المدينة، ووصلها في رمضان من العام نفسه، واستلم الإمارة من الوليد وبدأ يعامل أهل المدينة بكل ماعرف عنه من كبر وجدل وقوة حجة.. ولم يكن عمرو غريباً عن المدينة، فقد عاش فيها حقبة طويلة، وكان أبوه والياً عليها من سنة ٤٩ الى سنة ٥٦هـ لذلك لم يكن يخشى فيها شيئا، ولكنه كان يخشى من تجمع المعارضين ليزيد في مكة أو يشتد أمرهم، ويرسلوا رسلهم إلى المدينة ليثيروهم. فاستشار الناس فيمن يعينه رئيسا للشرطة كي يضبط أمورها ويمنع تسلل المعارضين

---

١) الطبري ٣٣٨/٥ والكامل ٢٦٤/٣

وبالذات أنصار ابن الزبير إليها، فأشاروا عليه بتعين عمرو بن الزبير شقيق عبد الله بن الزبير لأبيه، وكانت أم عمرو أموية، وكان بين الأخوين نفرة شديدة. فعينه. فأخذ عمرو بن الزبير من يظن بميله إلى أخيه أخذاً شديداً، ومنهم أخوه المنذر بن الزبير وابني أخيه محمد بن المنذر وخبيب بن عبد الله بن الزبير، وأخذ رجالا آخرين فضربهم بالسوط. وكان يزيد قد بدأ يعالج تمرد الحسين وعبد الله بن الزبير بالحكمة واللين إنفاذا لوصية أبيه ودفعا للفتن، فيرسل إليهم الرسل بمكة يحضهم على البيعة، وهم يردون الرسل رداً رقيقاً دون أن يعطوا البيعة.. وكانت مكة تابعة لإمارة المدينة، وكان الأمير يعين نائبا عنه من أهلها ليصليَ في الناس وليدير أمورها الداخلية.. وكان آخر من عين لذلك الحارث بن خالد المخزومي، فلما كثر المعارضون للأمويين مكة رأى عبد الله بن الزبير أن يمنع خالدا من الإمامة ليُنهي ولاءها الرمزي للأمويين فمنعه، وبدأ يتصرف في أمورها وكأنه أميرها.

جيش من المدينة لحرب ابن الزبير:

علم يزيد بما حدث في مكة، فكتب إلى عمرو بن سعيد الأشدق أمير المدينة أن يوجه جيشا إلى عبد الله بن الزبير في مكة ليقتحمها عليه وينهي عصيانه، فأعد الأشدق جيشاً معظمه من الموالي المقيمين في المدينة، وأغراهم بالعطاء الجزيل، وولى على الجيش عمرو بن الزبير قائد شرطته. وضرب عمرو بن الزبير خيامه في الجرف ليجتمع جنوده فاجتمع له سبعمائة رجل معظمهم من موالي الأمويين، وجاء مروان بن الحكم إلى المعسكر ولقي أمير المدينة وقائد الحملة، وحذرهما من غزو مكة واستباحة حرمتها، وأشار عليهما أن يتركا عبد الله بن الزبير لأنه بلغ الستين من عمره ولن يعمر طويلا، ولن يعظم أمره وهو محاصر في مكة، ولكن عمرو بن الزبير أصر على أن يسير بالجيش إلى مكة وينهي عصيان أخيه، وخرج الجيش من المدينة وعسكر قريبا من مكة في ذي طوى، وحاول عمرو بن الزبير أن يقنع أخاه

بالاستسلام والانقياد ليزيد، وكان يزيد قد أقسم أن يقيد عبد الله بن الزبير، فعرض عمرو على أخيه أن يرسل إليه قيداً من فضة لايراه الناس ليبر قسم الخليفة ويمنع الصدام ويحقن دماء المسلمين، ولكن عبد الله بن الزبير رفض ذلك.

وانقسم جيش أهل المدينة الى قسمين قسم بقيادة أنيس بن عمرو، وقسم بقيادة عمرو بن الزبير نفسه ليدخل مكة من جهتين ولكن عبد الله بن الزبير انتدب من أصحابه الأقوياء وهما عبد الله بن صفوان ومصعب بن عبد الرحمن لملاقاتهم بجمع من مؤيديه، فهاجم ابن صفوان التجمع الذي يقوده أنيس بن عمرو فشقه وقبض على أنيس، وهاجم مصعب بن عبد الرحمن القسم الثاني فهرب معظم الجند، ولجأ عمرو بن الزبير إلى بيت في مكة وجاءه أخوه عبيدة بن الزبير فأجاره وحاول أن يستأذن له من أخيه عبد الله بن الزبير ولكن عبد الله أبى أن يجيره وأمر أن يقتص منه لكل من عذبه في المدينة، فمات تحت السياط وعادت فلول جيش عمرو بن الزبير إلى المدينة لينتشر خبر انتصار عبد الله بن الزبير وقوته في مكة، ولتنتشر بشكل غير مباشر مشاعر الإعجاب بين عدد من أهلها وبخاصة المستائين من الأموين..

استشاط عمرو بن سعيد الأشدق غضبا لهزيمة جيشه، وأدرك أن أمر ابن الزبير سيستفحل ويتفشى في المدينة، وأن سياسته السابقة مع أهل المدينة ستحوّل الكثيرين منهم إلى خصوم، لذا منع ضرب الناس بتهمة الميل إلى ابن الزبير وأكثر من بث العيون في المدينة وخارجها وعلى أبواب مكة وداخل مكة ليرصد حركة ابن الزبير وليترصد الفرصة السانحة للانقضاض عليه ولو باغتياله.. ويبدو أن مروان بن الحكم سلفه في الامارة قد استفاد من هزيمة جيش المدينة والسكون الذي أعقبه فكتب إلى الخليفة يزيد.. وكان يزيد قد بلغه فشل الحملة على ابن الزبير، فاشتد غضبه وتأثر بما بلغه من سكون عمرو فأرسل يأمر بعزله ويولي الوليد بن عتبة أميراً على المدينة، ويأمره

بالتضييق على عمرو بن سعيد.

إمـارة الوليد بن عتـــبة:

تولى الوليد الإمارة سنة احدى وستين للهجرة فأمر بالقبض على موالي عمرو بن سعيد وأتباعه، فقبضوا على ثلاثمئة رجل وأودعوهم سجن المدينة، وأخذ من يظن أنهم يميلون الى ابن الزبير فيسوقهم الى السجن أيضا.. فاضطرب جو المدينة وساد القلق بين الناس، وخافوا أن يؤخذوا بالظن والشك..

وخرج عمرو بن سعيد إلى دمشق مغضبا ولقي الخليفة يزيد وحدثه عن أحوال المدينة وعن سبب سكونه بعد إنكسار جيشها وبيّن له أن أمر ابن الزبير ينتشر فيها بسبب شدة عمرو بن الزبير من قبل على الناس، وأن من الأفضل أن يأخذهم بالملاينة وأن يكيد لعبد الله بن الزبير ويعالج أمره دون قتال.. وشكا اليه حبس مواليه، فسمع منه يزيد ووعده خيراً.. فتضايق عمرو بن سعيد لعدم إستجابة الخليفة واعتزم أن ينقذ مواليه بالقوة، فرجع إلى المدينة حتى إذا صار على مسير يومين منها بعث أحد خاصته فاشترى من سوق المدينة جمالا بعدد الموالي المسجونين وجهز كلا منها بما يحتاجه المسافر ثم دس خبراً إلى السجن بذلك وأمرهم أن يثوروا في وقت معين ويغالبوا حراسهم ويحطموا أبواب السجن وينطلقوا إلى السوق ليركبوا الإبل التي أعدت لهم ويخرجوا بها من المدينة إلى حيث ينتظرهم عمرو بن سعيد.. وقد شهدت المدينة تطبيق هذه الخطة بنجاح.. إذ ثار المعتقلون فجأة، وكان السجن يضيق بهم وتغلبوا على حراسهم وحطموا الأبواب وانطلقوا في شوارع المدينة لاتقدر عليهم شرطتها.. حتى إذا وصلوا السوق ركبوا الإبل وانطلقوا

بها وسط دهشة الناس وتساؤلاتهم الكثيرة عن حقيقة مايجري..(١).

اغتاظ أمير المدينة الوليد بن عتبة وحاول أن يتعقب الفارين.. ولكنه عجز عن ذلك فكتب إلى الخليفة بالأمر وحذره من أن السكوت عليه سيجرىء أنصار ابن الزبير على الإمارة، وسيزيد من قوة التمرد.. وكان عمرو بن سعيد قد سبق رسول الوليد إلى دمشق ودخل على يزيد متعززا برجاله ومعاتبا يزيد على عدم إنصاته إليه.. فلاينه يزيد وصدقه بما اعتذر به حول فشل الحملة على عبد الله بن الزبير والسياسة التي أراد أن تبعها.. وقد تأكد ليزيد أن الوليد بن عتبة لن يكون أفضل من عمرو بن سعيد في إمارة المدينة ومكة، وأنه لن يستطيع النيل من ابن الزبير، ولكنه مع ذلك لم يعجل بعزله إنما ترك له أن يتدبر الأمور..

وبعد أيام قليلة فجعت المدينة بخبر مؤلم.. فقد وردت قافلة من العراق تحمل خبر مقتل الحسين رضي الله عنه في كربلاء ومعه جميع صحبه من الرجال إلا علي بن الحسين - وكان فتى حدثا - واقتياد النساء إلى يزيد في دمشق.. فضجت بيوت المدينة بالبكاء وامتلأت قلوب الرجال بالحسرة على ابن بنت رسول الله ﷺ واشتعلت النقمة على قتلته.

وفي الوقت نفسه غصت الصدور بالألم على تعجل الحسين في خروجه قبل أن يعد للأمر عدته. وكان الحسين قد خرج إلى مكة بأهله فقط، ولما أزمع السير إلى الكوفة أرسل الى أقاربه في المدينة ليخرجوا معه.. ولم يكن أهل المدينة يريدون له الخروج.. ولا أقاربه يريدون له ذلك.. وقد كلمه أخوه محمد بن الحنيفة طويلاً، ونصحه ألا يسير إلى العراق فتتكرر مأساة أبيه، كما أن عبد الله بن العباس رجاه بإلحاح ألا يسير إلى العراق، وكذا فعل عبد الله بن جعفر.. وعرض عليه الكثيرون أن يبقى في مكة أو يذهب إلى اليمن أو إلى بعض الأماكن التي يمتنع فيها حتى يعد للأمر عدته إن عزم الخروج على

---

١) انظر الطبري ٥/٤٧٨

الخليفة، ولكن رسل أهل العراق المتوالين أوهموه بأنه سيجد النصرة الكافية فأصر على الخروج، وكانت الملحمة الدامية، وكانت بداية نزيف موجع للأمة الإسلامية تبعته دماء لايحصيها إلا الله على إمتداد العصور التالية.

أضعفت فجيعة قتل الحسين رضي الله عنه ولاءَ أهل المدينة للأمويين.. وزاد من ضعفه الشائعات المتوالية التي تتهم يزيد بشرب الخمر واللهو فتصرف الناس عن كل مأثرة يفعلها، وتنسيهم حسناته..

وعندما عاد بقية آل الحسين إلى المدينة، وجميعهم من النساء إلا الفتى علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، تجدد الحزن في البيوت ، وندبت النساء زين شباب المدينة من آل هاشم ، الذين قتلوا في كربلاء، وكانوا ثمانية عشر رجلاً.. وازدادت النقمة على الذين استباحوا دماءهم، وتناقل الناس ما روته العائدات من آل الحسين أن يزيد أكرمهن وعوضهن كل ما فقدنه من حلي ومتاع أضعافا مضاعفة، وسيرهن معززات مكرمات إلى المدينة.. لذلك عندما ثار ابن الزبير في مكة بعد مقتل الحسين، وأعلن خلع الطاعة ليزيد، لم يفعل أهل المدينة ذلك، واكتفوا بالتحسر والدعاء على الظالمين، وربما يكون من أسباب عدم ثورة أهل المدينة لمقتل الحسين أنهم لم يكونوا راضين عن خروجه، ولم يشاركه أحد من أبناء الأنصار والمهاجرين في مسيره إلى الكوفة باستثناء بعض أقاربه من الهاشمين.. وربما يكون من الأسباب أيضا وجود عدد كبير من الأمويين في المدينة فقد زاد عددهم مع مواليهم على الألف فان لم تكن الثورة عارمة قوية فلن تستطيع مواجهة الأمير والأمويين.. غير أن هذه الفاجعة قد أحدثت شرخا كبيراً في النفوس وهيأتها للثورة العصبية العارمة التي ستحدث بعد حين..

واقترب موسم الحج لعام ٦١هـ وخرج الحجيج من أهل المدينة ومعهم أميرهم الوليد بن عتبة.. ورغم إعلان ابن الزبير خلع طاعة يزيد فانه لم يمنع أحدا من رجال الخليفة وأمرائه من الحج، ولكنه اتخذ الحيطة كي لايصبح

الموسم فرصة ينالون فيها منه. وكان في نفس الوليد أن يمكر بابن الزبير فينال منه بأي وسيلة ووجه رجاله لذلك، فلما رأوا حيطة عبد الله بن الزبير وحذره، أبلغوا الوليد بعجزهم عنه. وبلغ الأمر عبد الله بن الزبير فقرر أن يواجه الكيد بكيد مماثل.. فكتب إلى يزيد رسالة يتهم الوليد بتأجيج الخصومة ويلمح له بامكانية الوصول إلى حل إذا أرسل إليه رجلا أفضل من الوليد، وكان مما قاله في رسالته: إنك بعثت إلينا رجلا أخرق لايتجه لأمر رشد ولا يرعوي لعظة الحكيم، ولو بعثت الينا رجلا سهل الخلق لين الكتف، رجوت أن يسهل من الأمور ما استوعر منها، وأن يجمع ما تفرق، فانظر في ذلك، فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله(١).

رسالة ابن الزبير تعزل الوليد:

وقعت الرسالة موقعا حسنا في نفس يزيد. وزادت من اقتناعه بعجز الوليد بن عتبة عن معالجة الأمر في الحجاز، لذلك قرر عزله وتولية أمير لين الجانب لتكون بادرة حسنة مع عبد الله بن الزبير.

وجاء البريد إلى المدينة بعزل الوليد بن عتبة وتولية عثمان بن محمد بن أبي سفيان.. وجاءت الكتب إلى الوالي الجديد توصيته بأن يحسن إلى أهل المدينة ويسمع شكاويهم ويرسل منهم وفداً إلى الخليفة ليسمع منهم أيضا وأن يلاين عبد الله بن الزبير وأنصاره.. كان الوالي الجديد شاباً أموياً عرف بسماحة نفسه ولين جانبه ولم تكن له خبرة في إدارة البلاد وأمورها.. وقد أخذ بوصية يزيد فأطلق من كان في الحبس وأحسن إلى الناس وسمع منهم.. وطلب منهم أن ينتدبوا من يسافر الى دمشق للقاء الخليفة وإبلاغه بما يريد أهل المدينة.. فسر الناس لذلك.

وفد المدينة إلى يزيد:

وافق عدد من وجوه المدينة على السفر إلى يزيد، وكان فيهم المنذر بن

---

١) الطبري ٤٧٩/٥ -.

الزبير شقيق عبد الله.. الذي ضربه عمرو بن سعيد وآذاه.. وعبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، وعبد الله بن أبي عمر بن حفص بن المغيرة المخزومي (من أبناء المهاجرين) فسافروا مع البريد الى دمشق.. فاستقبلهم يزيد أحسن استقبال.. وسامرهم وسمع منهم.. وأكرمهم، ثم أعطاهم جوائز عظيمة.. وجلس الوفد أياما قليلة في الشام، وسمعوا شيئاً من الشائعات حول أسمار يزيد ولهوه، فانقبضت نفوسهم رغم ما نالوه من اكرام وهبات، وعادوا إلى المدينة باستثناء المنذر بن الزبير الذي آثر الذهاب إلى البصرة ليزور صديقه عبيد الله بن زياد.. وعندما وصل الوفد إلى المدينة انتشرت فيها حكايات عن عطاء يزيد للوفد وحسن استقباله.. وانتشرت معها الشائعات التي حملها بعض الوفد، والتي تتهم يزيد بشرب الخمر واللهو بكلاب الصيد، وقال بعضهم إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسامر الخراب والفتيان..(١) ومع أن أحداً من الوفد لم يشهد بأنه رأى يزيد في أحدى المعاصي التي اتهم بها، ورغم ما لقيه الوفد من اكرام وأعطيات فان الشائعات التي بلغتهم قد أثرت فيهم تأثيراً شديداً.

وربما تكون ملاينة يزيد الشديدة لهم ومباسطته وعطاءه الجزيل هوّن أمره في عيونهم فلما سمعوا الحكايات عن سمره ولهوه وصيده ذهبت هيبة الخلافة من أنفسهم وسهل عليهم أن يعلنوا خلع البيعة والخروج عن الطاعة.

وسارت الأمور في منحى عاطفي كانت له أثار سلبية مؤلمة.. فقد فشت الشائعات السيئة عن يزيد في المدينة، وأيقظت بذور النقمة التي بذرت في النفوس يوم جاء الخبر بمقتل الحسين، ونمّاها توارد الأخبار من مكة باشتداد أمر عبد الله بن الزبير يوما بعد يوم.

يضاف الى ذلك كله عامل هام جدا لعله من أهم العوامل في نمو ذلك

---

١) السابق ٥/٤٨٠

المنحنى العاطفي وتحوله الى تيار هائج، هذا العامل هو ضعف أمير المدينة الشديد، وحداثة سنه، وعدم قدرته على التصرف الحسن الذي يقر في النفوس هيبة الدولة والخلافة.

ويروي بعض المؤرخين حادثة يجعلونها السبب المباشر لتفجر الثورة، إضافة إلى الأسباب السابقة، وخلاصة هذه الحادثة: أن المسؤول عن المزارع التي أنشأها معاوية في المدينة واسمه ابن مينا جمع الغلال من الحنطة والتمر - وكانت تغل مائة وخمسين ألف وسق من التمر ومئة ألف وسق من الحنطة - وكانت الغلال شحيحة في المدينة وأسواقها فاعترضه بعض أهل المدينة من الخزرج ومنعه من إخراجها، فاشتكى إلى والي المدينة عثمان بن محمد، فأرسل عثمان معه بعض الجند ليحموه ويعينوه على إخراج الغلال، وتطاول ابن مينا على الناس وأغلظ لهم القول فلم يحتملوه، وضربوه ومن معه من الشرطة، وطردوهم ومنعوهم من أخذ الغلال(١).

لذلك كله، استيقظت عوامل النقمة على بني أمية بعامة وجهر الناس بها، وذكروا كل مالحقهم في السنوات القريبة الماضية من شدة بسبب وقف العطاء عن المدينة، وقسوة عمرو بن سعيد الأشدق. وانتشر الحديث في المجالس وانتقل من بيت إلى بيت، وتجمعت عوامل النقمة على يزيد، وتوجهت أنظار أهل المدينة نحو عبد الله بن حنظلة الغسيل، فأبوه الصحابي الجليل، وهو أحد أعضاء الوفد الذي سافر إلى يزيد، وكان عبد الله ممن سمع الشائعات وتأثر بها، وأفشاها في المدينة، فكان أحد عوامل تشكيل ذلك التيار العاطفي الغاضب على يزيد ولما جاءه الناس وكلموه في خلع الطاعة ليزيد استجاب لهم وأعلن خلع الطاعة، فبايعوه على أن يكون أميرهم والمتولي أمرهم.

وتجمع الكثيرون في المسجد النبوي، وقام عبد الله بن مطيع فدعا إلى خلع بيعة يزيد ومبايعة عبد الله بن حنظلة واستجاب الحاضرون.. وجعل الرجل يأتي بجانب المنبر ويقول خلعت يزيد كما أخلع عمامتي هذه ويخلعها، ويقول آخر خلعت يزيد كما أخلع حذائي ويرمي بحذائه، حتى تجمع كوم من العمائم والأحذية.. وأسرع الأمويون إلى مقر الإمارة لينظروا في أمرهم،

---

١) انظر تاريخ اليعقوبي ٢/٢٥٠ و وفاء الوفاء ١/١٢٨.

فوجدوا أميرهم مضطرباً لايعرف كيف يتصرف، وعلم الناس بتجمع الأمويين في دار الامارة وخافوا أن يدبروا كيداً ضدهم، فتحركت جموعهم الغاضبة إلى الإمارة وحاصروها وأعلنوا خلع البيعة، وطلبوا من الأمير أن يغادر المدينة فلم يعد أميراً عليهم. وحاول مروان بن الحكم، وكان أعقل الأموين وأكثرهم حنكة، أن يحاور الغاضبين وأن يثنيهم عن التمرد والعصيان، ولكنه وجد العواطف مهتاجة فلم يستطع أن يفعل شيئا، سوى أن يأخذ الأمان للأمير كي يخرج من المدينة سالماً، ولبني أمية ألا يُمَسوا بأذى لأنهم لايريدون مواجهة الناس ولاأذية أحد. وخرج عثمان بن محمد من المدينة بأهله وزاده من المدينة، وتفرق الأمويون إلى بيوتهم ، وأعلن أفراد شرطة الأمير اعتزالهم عملهم، وانصرفوا إلى بيوتهم.

أصبحت المدينة تعيش حالة عجيبة من التوتر النفسي، فالذين أعلنوا التمرد وخلعوا الطاعة شعروا أنهم قد انتصروا بخروج الأمير الأموي وأن الأمور قد استقامت لهم، والأمويون الذين يعيشون في المدينة يرون في هذا التمرد بداية لانشقاق كبير في حياة أهلها، يعادي فيها الجار جاره والرجل صديقه، فالسنوات الطويلة التي عاشوها مع بقية أهل المدينة قد أوجدت علاقات تجاوزت حدود الصداقة الى التزاوج والقرابة، فاذا ذرت الفتنة قرنها ونظر الثائرون إلى الأمويين على أنهم أنصار يزيد فسينقلب كل شيء على عقبيه وتتحول الصداقات إلى عداوات، والقرابات إلى قطيعة.

وثمة فئة ثالثة من أهل المدينة كانت أكثر تعقلا وبعد نظر.. فقد رأوا في هذا الهياج العاطفي نذر فتنة دامية، فالأسباب التي يذكرها الثائرون لاتحل عند أكثر أهل الفقه الخروج على ولي الأمر. وهي لاتتعدى معاصي شخصية مصدرها الأقوال والشائعات، فلم يشهد أحد من الوفد أنه رأى الخليفة مقارفا للمعصية، ثم ان الخروج على ولي الأمر أكبر بكثير من شرب الخمر واستماع الغناء واللهو بكلاب الصيد (إن حصل).. فالخروج يحل الدماء، وتلك المعاصي

- إن ثبتت بالدليل القاطع - لاتتعدى جلد العاصي وتعزيره، فضلا عن أنه لايحل الخروج على الإمام العاصي قبل مراجعته واستتابته من معصيته، وإحلال الدماء أكبر من كل شيء ، ولن يسكت الخليفة على تمزيق الدولة.. فقد خرج الحسين وكانت النتيجة فاجعة دامية في آل رسول الله ﷺ، وأعلن عبد الله بن الزبير خلع الطاعة في مكة فأحدث ثغرة كبيرة في الدولة، أضف إلى ذلك عصيان أهل المدينة. فاذا حذا حذوهم آخرون تمزقت الدولة، لذلك لابد أن تواجه الدولة الثورة بالقوة الشديدة...

ووفقاً لهذا الاستنتاج أبى هؤلاء العقلاء أن يشاركوا في الثورة، وحاولوا أن يثنوا أهل المدينة عن ثورتهم العاطفية، وكان في مقدمتهم علي بن الحسين الناجي الوحيد من مذبحة كربلاء، فقد أرسل كتاباً إلى يزيد يعلن أنه مازال متمسكا ببيعته، واعتزل الناس. ومحمد بن الحنيفة شقيق الحسين، فعندما جاءه عبد الله بن مطيع وعدد من أصحابه وطلبوا منه أن يشاركهم في الثورة ويعلن خلع يزيد، وفي ذلك تحريض لبقية أهل المدينة لما له من منزلة كبيرة، أبى ذلك، وجادله عبد الله بن مطيع وقال له: إن يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب. فقال لهم ابن الحنيفة: مارأيت منه ماتذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده، فرأيته مواظباً على الصلاة، متحرياً للخير، يسأل عن الفقه ملازما للسنة. فقالوا له: كان ذلك منه تصنعاً لك. قال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر لي الخشوع؟ ثم ناقشهم في اتهاماتهم وقال لهم: أفأطلعكم على ماتذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. فقالوا له: إنه عندنا لحق ، وإن لم نكن رأيناه (وذلك بسبب ماسمعوه من شائعات كثيرة). فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال الله عز وجل

((إلا من شهد بالحق وهم يعلمون))(١) ولست من أمركم في شيء(٢) وألحّ ابن مطيع وصحبه على ابن الحنفيه أن يوافقهم في خلع الطاعة فأصر على رفضه، فطلبوا منه أن يسمح لولديه بذلك، فأبى، فهددوه، فخرج من المدينة إلى مكة.

ولم يخلع أحد من آل طالب البيعة. وكذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، لما بلغه هيجان الناس واجتماعهم في المسجد وخلعهم الطاعة جمع أبناءه وأهله، ثم تشهد وقال: أما بعد فانا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، واني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان، وإنّ من أعظم الغدر -الا أن يكون من الإشراك بالله- أن يبايع الرجل رجلاً على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته، فلا يخلعن أحد منكم يزيد، ولايسر أحد منكم في هذا الأمر فيكون الفيصل بيني وبينه(٣) فلم يخلع أحد من آل الخطاب البيعة. كذلك عندما بلغ الأمر عبد الله بن العباس استفظعه وسأل: فمن الأمير؟، قالوا: عبدالله بن حنظلة وعبد الله بن مطيع، فقال: أميران؟ هلك القوم. كما ان بعض الأنصار من بني حارثة لم يشتركوا في هذه الثورة، واعتزلوا في حيهم.

غير أن الموجة العاطفية غلبت آراء هذه الفئة واجتاحت المدينة، ولم تدر ماتحمله إليهم الأيام القليلة القادمة.

وصل خبر عصيان المدينة إلى يزيد بن معاوية فاغتم له غماً شديدا، وجاءته رسالة من مروان بن الحكم تخبره بما يلقاه الأمويون في المدينة من حصار ومضايقة، فازداد غمه وأدرك أن الأمر قد أصبح شديد الخطورة، فقد اتسع التمرد عليه وشمل الحرمين الشريفين، وهما محط أنظار الناس، ولئن

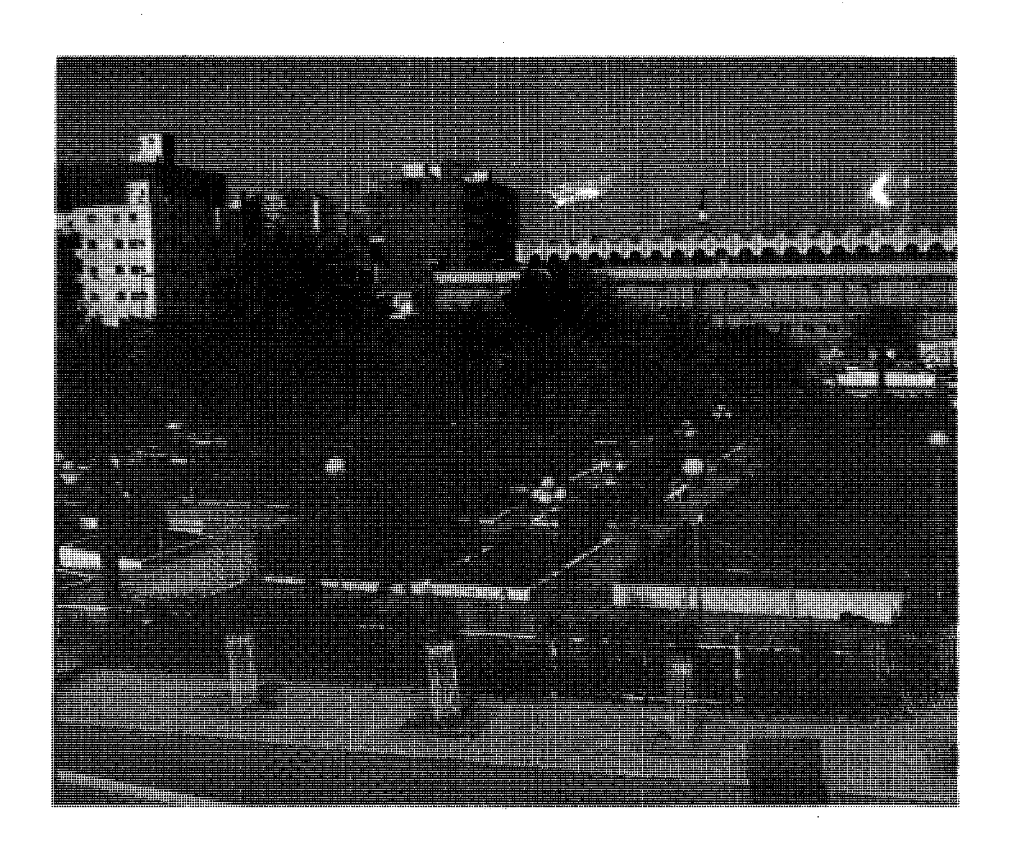
---

١) سورة الزخرف ٨٦.

٢) البداية ٨/٢٣٦.

٣) البداية ٨/٢٣٦.

ترك الأمر على ماهو عليه فلسوف يسري إلى الأمصار الآخرى وتتمزق الدولة المترامية الأطراف، لذا لابد من معالجة الأمر بسرعة وحكمة.



«الصافية» واحدة من «الصوافي» أي المزارع التي كان يملكها معاوية - وبعض الخلفاء والأمراء بعده - في المدينة تحولت اليوم إلى حديقة عامة. وكانت من قبل سبباً من أسباب ثورة أهل المدينة كما يقول بعض المؤرخين

مفاوضات مع أهل المدينة:

حاول يزيد أن يعالج تمردأهل المدينة بالتفاوض، فاستدعى الصحابي الجليل النعمان بن بشر الأنصاري رضي الله عنهما وهو ابن المدينة المنورة والخبير بأهلها، وطلب منه أن يسافر إلى المدينة ويحاور أهلها ويطلب منهم أن يرجعوا عن الفتنة وسيلبي لهم أي طلب يطلبونه. فسافر النعمان إلى المدينة والتقى بعدد من زعمائها في مقدمتهم قادة الثورة ابن حنظلة وابن مطيع، وجادلهم في خروجهم على الخليفة وخَوّفهم من عواقب الفتنة، ونقل إليهم وعود يزيد بن معاوية بأن يعيد لهم الأعطيات التي حجبت في أيام معاوية ويزيدها، ويوفر الميرة للمدينة بكثرة حتى تهبط اسعارها. ولكن ابن مطيع تصدى له واتهمه بأنه يريد شق الجماعة في المدينة وإفساد أهلها وحثّ الناس على عدم الاستجابة له، فخرج النعمان متأسفا لفشل مهمته ومتخوفا من عواقب ماسيحدث(١).

ويروى أن يزيد لم يكتف بالنعمان بل أرسل أيضاً عبد الله بن جعفر ووسطه لينهي التمرد، ووعده بأن يلبي مطالب أهل المدينة كلها وأن يحقق لهم الرفاه. وبذل عبد الله جهوده لدى الثائرين ولكن دون جدوى. فالحماسة قد أخذت مأخذها في الناس، والهياج العاطفي لم يدع مجالا لصوت العقل، ولاللنظر في النتائج المؤلمة لهذا التمرد والعصيان.. فقدرات أهل المدينة محدودة وليس لهم جيش قادر على التصدي لأي جيش يبعثه الخليفة، ثم إن غلالها وأرزاقها محدودة، فلو ضرب عليها الحصار مدة من الزمن لما صبرت عليه، وقد بدأت بوادر أزمة في الأرزاق مع بداية التمرد، إذ فشى خبر العصيان في المدن الأخرى، وتخوف أصحاب القوافل على تجارتهم فصرفوها عن المدينة، وبدا نقص الغلال في الأسواق، وارتفعت الأسعار بسرعة كبيرة، وظهرت بوادر الضيق قبل أن تظهر بوادر القتال والحرب. ثم إن الثائرين في

---

١) الطبري ٥/٤٨١.

المدينة لم يسعوا لتكوين جبهة واسعة قادرة على التصدي للخلافة واكتفوا بالاحتباس في دائرة المدينة المنورة، مع أن عبد الله بن الزبير كان يقود ثورة آخرى في مكة، وكان يتوق إلى مناصرة أي خارج على الخلافة الأموية، ولو أن ثوار المدينة اتصلوا بابن الزبير ووحدوا جهودهم معه وكونوا جبهة مقاومة واحدة فلربما تغير مجرى التاريخ. ولكن الحماسة العاطفية التي تفجرت حالت دون توسع آفاق الثورة والثائرين، فهم قد خلعوا البيعة للخليفة وبايعوا لعبد الله بن حنظلة لكنهم لم يبايعوا له بالخلافة، بل بالإمارة عليهم، أي لم تكن أنظارهم تتجه إلى تغيير شامل لنظام الحكم في الدولة الاسلامية، إنما كانت ردة فعل لضغط نفسي طويل تفجر وصار تمرداً عاطفياً. ولاشك أن هذه الصورة ستؤدي إلى النتيجة المؤلمة التي انتهت إليها الثورة وستملأ الصفحات بسطور من دماء طاهرة تراق دونما طائل.

وهذا ماحدث . فقد نفذ صبر يزيد بن معاوية بعد أن فشلت جهود الوساطة، وخشي أن يمتد التمرد الى الأمصار الآخرى، فقرر اللجوء الى القوة لضرب التمردين معا: تمرد المدينة، وهو في نظره تمرد محدود، وتمرد عبد الله بن الزبير وهو الأكبر والأخطر، ولاسيما وأن الأخبار قد تواترت ببيعة المزيد من أهل الحجاز له.

وتذكر بعض الروايات التاريخية أن معاوية بن أبي سفيان كان يتوقع تمرد أهل المدينة، وأنه أوصى ابنه يزيد أن يوكل أمر التصدي له لقائده العسكري مسلم بن عقبة، وهو أحد المخلصين للأمويين منذ أيام صفين، وكان قد طعن في السن ولكنه عسكري متميز خاض جميع الحروب التي دخلها جيش معاوية، وسواء اكان معاوية قد أوصى يزيد بالاعتماد عليه أو لم يكن فان يزيد قد ولاه أمرالقضاء على التمرد في الحجاز كله وجهز له في أوائل ذي الحجة عام ٦٣هـ جيشاً من إثني عشر ألف مقاتل من أهل الشام وأعرابها، وأجزل للمقاتلين العطاء قبل أن يخرجوا ؛ دفعت لهم أعطيات سنة

كاملة مقدما وفوقها مئة دينار لكل رجل(١)، وخرج يزيد واستعرض الجيش وتمثل بأبيات يهدد فيها عبد الله بن الزبير ولم يذكر أهل المدينة، وأوصى قائده مسلم بن عقبة أن لايداهم المدينة، بل يمنح أهلها الفرصة عسى أن يراجعوا أنفسهم ويرجعوا عن تمردهم فقال له: ادع القوم ثلاثا (أي ثلاثة أيام) فان هم أجابوك، وإلا فقاتلهم، فإذا ظهرت عليهم فأبحها ثلاثا، فما فيها من مال أو ورقة (دراهم) أو سلاح أو طعام فهو للجند. فاذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس، وانظر علي بن الحسين فاكفف عنه، واستوصِ به خيراً وأدنِ مجلسه فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه(٢)•

وقبل أن يتحرك الجيش من دمشق سارت أخباره الى المدينة فازداد هياج أهلها، وأدركوا أن المواجهة واقعة لاريب، لذلك قرر قادة التمرد أن يحصنوا المدينة ضد المهاجمين، وأن يخرجوا منها جميع الأمويين خشية أن يتظاهروا مع القادمين فيوهنوا صفوفهم من الداخل. واتجهت الجموع إلى بيوت الأمويين وعلم الأمويون بالأمر فسارعوا الى بيت مروان بن الحكم وتحصنوا فيه، فحاصرهم الناس وهددوهم بالقتل والحرق، وجرت مفاوضات بين الطرفين، وطلب الأمويون أن يسمح لهم بالخروج من المدينة فمنعوا أول الأمر، وكادت الجموع أن تبطش بهم، ولكنهم سمحوا لهم بالخروج على أن (تعطونا عهد الله وميثاقه، لاتبغونا غائلة، ولاتدلوا على عورة، ولاتظاهروا علينا عدوا، فأعطوهم عهد الله وميثاقه، فأخرجوهم من المدينة)(٣) وحمل الأمويون ممتلكاتهم الثمينة التي تحمل، وخرج مروان بن الحكم إلى علي بن الحسين ورجاه أن يأوي عائلته مع أسرته لأنه لايريد أن يخرج بهم، وكأن مروان أحس أن التمرد لن يطول أمره، فقبل علي بن الحسين، وضم عائلة مروان إلى

---

١) الطبري ٤٨٣/٥

٢) الطبري ٤٨٥/٥.

٣) الطبري ٤٨٥/٥.

عياله وأرسلهم الى ينبع بينما اعتزل هو الناس في مزرعته خارج المدينة.

خرج الأمويون من المدينة ونزلوا بوادي القرى، بينما اشتغل أهل المدينة بتحصينها من الداخل، فأعادوا حفر مانطمر من الخندق الذي حفرة الصحابة يوم غزوة الأحزاب، وأكملوا تحصين المناطق التي يمكن أن يداهمهم الجيش القادم منها ، وتوزع الرجال على مداخل المدينة وأطراف الخندق كلها، وقسمت المدينة إلى أربع مناطق، ووضعت مجموعات الحماية لكل منطقه، وتولى عبد الله بن حنظلة قيادة الأنصار وأبنائهم في ربعين من أرباع المدينة، بينما تولى عبد الله بن مطيع قيادة أبناء المهاجرين ومن معهم في الربعين الآخرين.

وارتفعت درجة الحماسة وتردد التكبير في أرجاء المدينة وسرت روح المواجهة والاستبسال في جميع النفوس.. ووصل عقبة بن مسلم بجيشه إلى وادي القرى والتقى بالأمويين الخارجين من المدينة وأراد أن يستشيرهم في مواجهة أهل المدينة ويعرف منهم ثغراتها، فدعا عمرو بن عثمان بن عفان وسأله عن ذلك فأبى عمرو أن يخبره بشيء لأنه أعطى عهد الله وميثاقه على ألا يدل على عورة ولا يظاهر عدواً، فغضب مسلم بن عقبة وقال له: والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك، وأيم الله لا أقيل قرشياً بعدك. فخرج عمرو بن عثمان من عنده وأخبر أصحابه الأمويين بتهديد مسلم بن عقبة. فدخل عليه عبد الملك بن مروان وحدثه طويلاً وأشار عليه أن ينزل خارج المدينة في نخل قريب من جهتها الشمالية، ويحاول اقتحامها صباحا من الجهة الشرقية من منطقة الحرة الشرقية، حيث وتكون الشمس في ظهور المهاجمين فلا تؤذيهم، وفي وجوه المدافعين فتؤذيهم. وارتحل مسلم الى المدينة واصطحب معه الأمويين الخارجين منها، فوصلها ليلة الخامس والعشرين من ذي الحجة عام ٦٣هـ ونزل خارج حدودها كما أمره يزيد، وأخذ بنصيحة عبد الملك بن مروان ونزل في طرف الحرة الشرقية، وكان أهل المدينة قد أخذوا أهبتهم

ونشروا مجموعات الحراسة، ولما رأوا الجيش القادم استنفروا الناس، فخرجوا الى أطراف الخندق يحرسونه كي لايجتازه أحد. وأطلوا على القوة التي نزلت بجانب الحرة الشرقية.

وفي الصباح أشرف عليهم مسلم بن عقبة وأمر منادياً أن يناديهم: يا أهل المدينة: إن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصل، واني أكره هراقة الدماء، وإني أؤجلكم ثلاثا فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه، وانصرفت عنكم وسرت إلى هذا الملحد الذي بمكة (يقصد عبد الله بن الزبير) وإن كنا قد أعذرنا اليكم(١) وردد المنادون من جيش الشام هذا النداء على امتداد خط المواجهة بينهم وبين أهل المدينة، وعاد مسلم بن عقبة إلى خيمته، وكان موهناً، ومكث أهل المدينة على طرف الخندق وطرف الحرة يترقبون، ولم يحدث أي قتال، ومرت الأيام الثلاثة وكل من الطرفين يراقب الطرف الآخر، والرجال يتناوبون الحراسة.

المواجهة الدامـــية:

كان منظر الجيش الشامي الذي يحاصر المدينة يزيد الناس حماسة ويسكت الأصوات القليلة التي تدعوا إلى المسالمة، تتهمها بالجبن والخوف، فيزداد اللهيب العاطفي ويتردد الحديث عن الاستبسال والبلاء والشهادة في سبيل الله.. ومرت الأيام الثلاثة دون أن يتغير رأي الثائرين، حتى إذا طلع صباح يوم الأربعاء الثامن والعشرين من ذي الحجة عام ٦٣هـ أطل مسلم بن عقبة على أهل المدينة، وأمر مناديه فنادى: ياأهل المدينة قد مضت الأيام الثلاثة فما تصنعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟ فجاءته الأصوات من الجهة الأخرى قوية متحمسة: بل نحارب. فنادى عقبة وقد أخذته الغصة: لاتفعلوا بل ادخلوا في الطاعة، ونجعل حدنا وشوكتنا على هذا الملحد الذي قد جمع إليه المُرَاقَ والفساق من كل أوب. فاستثار كلام مُسلم من يواجهه من أهل المدينة،

---

١) الطبري ٤٧٨/٥.

وردوا عليه بشدة وقالوا: ياأعداء الله لو أردتم أن تجوزوا (تمروا) اليهم ما تركناكم حتى نقاتلكم. نحن ندعكم تفسدو ببيت الله الحرام وتخيفوا أهله، وتستحلوا حرمته؟ لا والله لانفعل.

أمام هذا الإصرار، فقد مسلم بن عقبة كل أمل في أن يثني أهل المدينة عن المواجهة، وأخذه الغيظ الشديد، وقرر أن يضرب بقوة، فرجع إلى عسكره وأصدر أمره بالهجوم.

بدأت الموجة الأولى من الهجوم، فاتجهت كتلة بشرية كبيرة لاقتحام المدينة من الجهة الشرقية والشمالية، واستعد المدافعون خلف تحصيناتهم وأخذوا يرمون المهاجمين بالنبل والحجارة والرماح فتساقط عدد منهم، ولكن لم تقف الموجة المهاجمة، فاشتد المدافعون في الرمي حتى أثخنوا الصف الأول، فتوقفت الموجة، ثم بدأت تتراجع وتتقي السهام والحجارة المتساقطة بالتروس والصخور.

وصدر الأمر للخيالة كي تقتحم من المنافذ الوعرة، فتقدمت الخيالة حتى وصلت إلى أرض تملؤها الصخور السوداء، فتباطأت حركة الخيل ووقع من وقع ، ثم انصبت عليهم النبال والرماح، فانصرفت وجوه الخيل دامية ولم تستطع النفاذ إلى المدافعين، وعادت أدراجها إلى حيث يقف مسلم بن عقبة ، فصرخ فيهم واستحثهم على المعاودة، فعاودت الخيل الكرة، وعاود الرجالة الهجوم، وسقط عدد أخر من القتلى والجرحى ولم تسقط تحصينات أهل المدينة، وعندما نجح بعض جند الشام في اقتحام الخندق بخيولهم وجدوا الرماح تنتظرهم لتجهز عليهم، وكذلك الذين تسللوا من خلال حجارة الحرة القاسية... واستمر القتال مدة من الوقت دون جدوى، واستبسل أهل المدينة، وسقط عدد قليل منهم فجاء آخرون وسدوا ثغرتهم.

كان مروان بن الحكم في خيام عقبة بن مسلم ورأى أن الهجوم لم يصنع شيئاً، فركب فرسه واتجه شرقاً ثم جنوبا بعيداً عن منطقة القتال المحتدم،

حتى إذا أصبح في مكان يواجه المساكن أوغل غرباً إلى أن وصل منطقة بين شعاب الحرة يمكن أن يلج منها الراكب إلى داخل المدينة، ورأى عليها أحد بني الحارثة فناداه وكلمه، وأعطاه شيئا من المال، ووعده أن يعطيه عطاء ضخماً على أن يسمح له ولبعض الفرسان بالدخول من أرضه، فتردد الحارثي وخشي من الداخلين أن يفتكوا بقومه، فوعده مروان بأن يؤمن جميع بني حارثة لايصيبهم أحد بسوء، خاصة وأن معظمهم لم يشاركوا في القتال، فرضي الحارثي، فغاب مروان قليلا وعاد ومعه مئة فارس، واجتازوا من هذه المنطقة الضيقة، تسترهم تلال صخرية فلم يرهم أحد، حتى إذا صاروا داخل حدود المدينة والناس مشغولون بمواجهة الموجات المتوالية من المهاجمين، شد بمن معه من الفرسان على مؤخرة المدافعين من الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة، ففوجيء المدافعون بالخيل تدهمهم من خلفهم والسيوف فوقهم، وانشغلوا عن الموجة المهاجمة أمامهم، واشتد القتال في هذه الزاوية، وأسرع أحد المدافعين إلى من وراءه يخبرهم باختراق الفرسان ويدعوهم للمواجهة، وتردد النداء يستحث أهل اللمدينة إلى هذه الثغرة، وبلغ قائد المنطقة عبد الله بن الغسيل فأسرع بخيله ورجاله، فوجد عدداً كبير من خيالة مسلم قد تجاوزوا الثغرة واقتحموا إلى الداخل فحمل عليهم بمن معه، واشتد القتال وبدأ جند الشام يتراجعون، وعادوا وراء التحصينات فتبعهم عبد الله حتى كاد أن يصل إلى مسلم بن عقبة، وكان الجند حوله قد جثوا على ركبهم مشرعي رماحهم لصد المهاجمين، فهب مسلم إلى الراية وحملها ونادى: ياأهل الشام هذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم، وأن يعزوا به نصر إمامهم، قبّح الله قتالكم منذ اليوم، ماأوجعه لقلبي وأغيظه لنفسي، أما والله ماجزاؤكم عليه الا أن تحرموا العطاء، وأن تجمروا في أقاصي الثغور. شدوا

مع هذه الراية، ترح الله وجوهكم ان لم تفعلوا(١) ومشى بالراية متقدماً، وتبعه الرجال، واشتدت المواجهة، وقاد الفضل بن العباس مجموعة صغيرة من أهل المدينة قاصداً مسلم بن عقبة ليقتله، واقترب منه، وصرخ مسلم في أصحابه فتجمعوا حوله وواجهوا الفضل بن العباس وقتلوه وما بينه وبين مسلم الا قليل، وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف وابراهيم بن نعيم العدوي وآخرون من أهل المدينة(٢) وتراجع أهل المدينة، وتبعهم جند مسلم يشددون الضغط عليهم، وتكاثر الجند ودخلوا ثانية من الثغرة التي اقتحموها ثم بدأوا ينتشرون ويفاجؤن الواقفين خلف الخندق، واستبسل عبد الله بن حنظلة هو وأولاده الثمانية، وسقط أولاده أمامه واحداً تلو الآخر، وأطاح عبد الله بعدد من مهاجميه، ثم تكاثر الجنود عليه وتمكنوا منه فخر صريعا. وسقط معه عدد كبير من أبناء الأنصار والمهاجرين ومواليهم، وتقدم الجند الشاميون بمجموعات كبيرة وهاجموا المتحصنين من خلفهم، واستبسل المدافعون وسقطوا بالعشرات وارتفعت أصوات الجنود الشاميين، وسرى الخبر إلى المدافعين الآخرين بأن جند الشام قد اقتحموا، وبدأ الاضطراب ينتشر في صفوف أهل المدينة وأخذتهم المفاجأة، وحاول بعضهم الهرب فسقطوا في الخندق والرماح وراءهم، واجتاح الجند المنطقة الشرقية كلها، وتقدموا الى الربع الأوسط، حيث عمرو بن حزم الأنصاري، فسقط بأيديهم وقتل معظم المدافعين عنه، وبدأت المعركة تنكشف عن سقوط العشرات من أهل المدينة ونجاة القليلين. وشعر مسلم بن عقبة بأن الكفة مالت لجهته فاستحث جنده على حسم الأمور بسرعة، ووزع المشاة والخيالة إلى الجهات الباقية ثم زحف بمن معه إلى داخل المدينة، ومالبثت المقاومة أن ضعفت ثم قلت ، ثم أصبح الجند لايرون أمامهم إلا أنفاراً قليلين فيحملون عليهم. وما

---

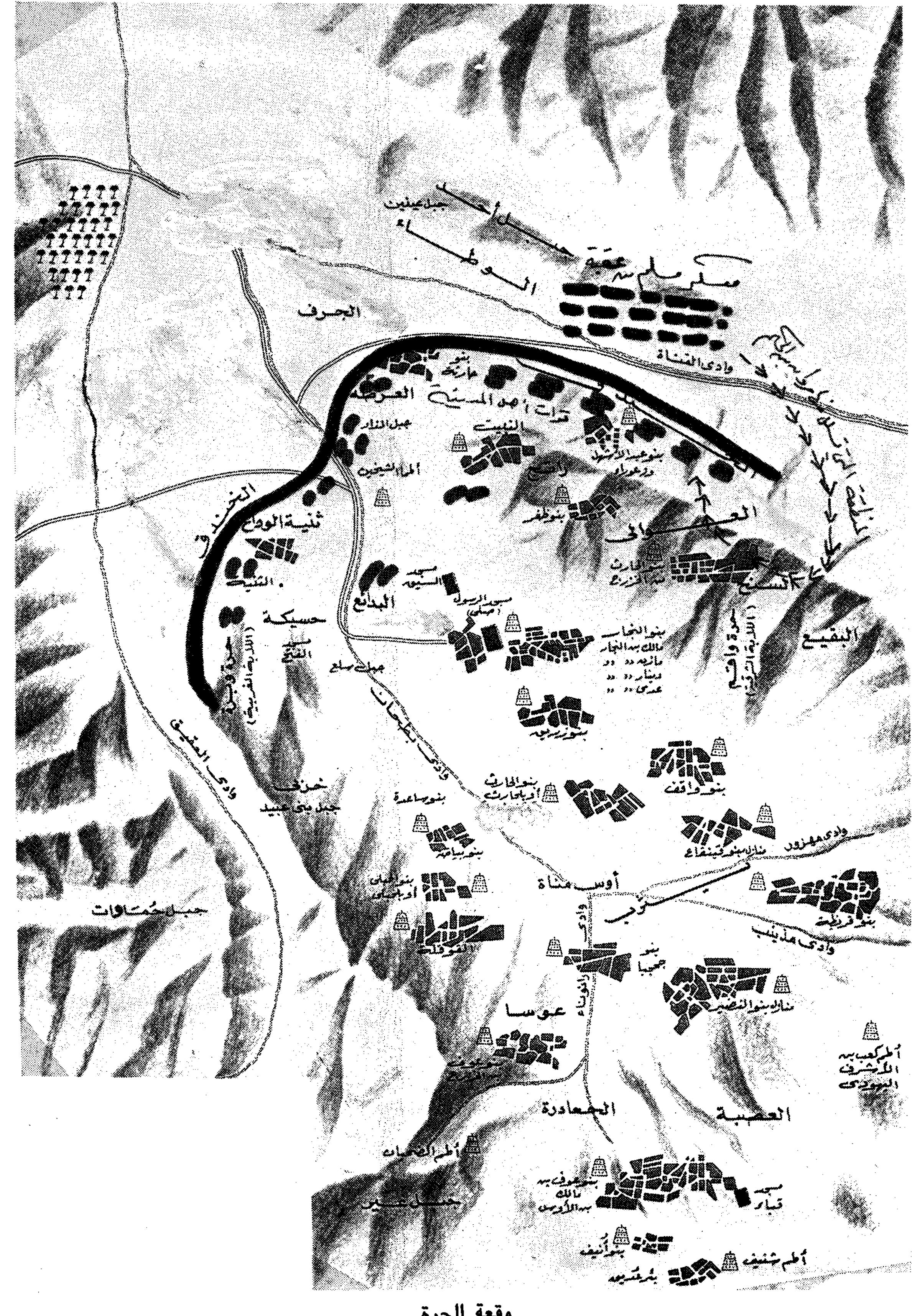
١) الطبري ٤٨٨/٥.

٢) الطبري ٤٨٩/٥.

أن انتصف النهار حتى أصبحت المقاومة ضئيلة لاتذكر. حتى إذا مالت الشمس إلى الجهة الغربية لم يعد يظهر من المقاوميين أحد، منهم من استشهد، ومنهم من أثخنته الجراح، ومنهم من استأسر، ومنهم من نجا إلى البيوت والشعاب. وانتشر جند مسلم بن عقبة في أنحاء المدينة واتجهوا إلى دار الإمارة، ودخلها مسلم ومن معه، وسارت مجموعات من الجند تفتش عن بقية المقاتلين ومن اختبأ منهم. وأذن مسلم لجنده أن يقتلوا كل من يشكون في أنه كان من المقاومين، وأن ينهبوا المال الذي يريدون، فانطلق عتاتهم يعيثون فساداً. وذعر الناس ذعرا شديداً، فلم يسبق لمدينة رسول الله ﷺ أن رُوعت هذه الروعة، حتى المشركون الذين جاؤوها يوم أحد لم يدخلوا أحياءها، ولم يقتلوا الآمنين من أهلها، ولم ينهبوا مال أحد. وحاول بعضهم أن يفر إلى شعاب الجبال ولكن منظر الجنود في الشوارع كان يخيفهم ويجعلهم يلوذون بعقر دارهم.

وخرج أبو سعيد الخدري صاحب رسول الله ﷺ من بيته، فوجد الشارع خاليا فمر منه إلى طريق يفضي الى خارج المدينة، ووصل الى شعب فيه كهف فرآه أحد جنود الشام فتبعه حتى دخل عليه الكهف، فلما أحس به أبو سعيد استل سيفه ليخيفه فأشرع الجندي سيفه وهجم على أبي سعيد، فرد أبو سعيد سيفه وهتف متمثلا بالآية الكريمة (لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين) فبهت الجندي وتوقف وقال له: من أنت لله أبوك؟ فقال: أبو سعيد الخدري. فقال الشامي: صاحب رسول الله ﷺ. فقال أبو سعيد: نعم، فارتخت يدا الجندي عن السيف واسترجع، وأمن أبا سعيد، ثم انصرف عنه.

وأقبل مساء ذلك اليوم ليكون أظلم يوم مر على المدينة المنورة، فالجثث متناثرة بالمئات على منافذ المدينة وفي خندقها وفي بعض شوارعها، ومن بقي حياً مختبيء في عقر بيته أو في شعب قريب، واللاجئون الى بيوت بني



وقعة الحرة

حارثة - وقد نودي بالأمان فيهم - كثيرون، والجند يترصدون الناس وينهبون مايرونه من طعام ومال وسلاح، وأصوات الثكالى واليتامى تختنق بعبراتها تخاف - إن علا بالنواح - أن يقتحم عليهم الجند الباب فيقتلون وينهبون.. وخلا المسجد النبوي من أهل المدينة، بينما تزاحم فيه الأمويون ورجال عقبة، وهبط الليل فتوقفت الحركة بعد صلاة العشاء وهدأ كل شيء..

مجزرة في مجلس ابن عقبة:

في اليوم التالي لم يكن هناك أي قتال، ولم تظهر في شوارع المدينة أية حركة، فكل قابع في بيته ينتظر ماسيحدث، وجنود عقبة يتجولون ويفتشون عن الذين أمر مسلم بن عقبة باحضارهم من أهل المدينة. وانتقل مسلم بن عقبة إلى قباء وبدأ يعطي الأمان لبعض الناس ويستقدمهم ليأخذ منهم البيعة بذل وصغار، فقد طلب من الناس أن يعطوا البيعة على أنهم عبيد للخليفة يزيد بن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم مايشاء، وأظهر قسوة شديدة ولم يقبل أي مراجعة أو تراجع، وجمع عدداً من أهل المدينة في مجلسه والجند حوله ، وجيء برجلين من قريش، هما يزيد بن عبد الله بن زمعة ومحمد بن أبي الجهم، فقال لهما: بايعا على أنكما أعبد ليزيد. فقال القرشيان: نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه، فقال مسلم: لاوالله لاأقيلكم هذه أبداً، وأمر بضرب أعناقهما على الفور، وكان مروان بن الحكم جالساً فنهض إلى مسلم غاضباً وقال: سبحان الله، أتقتل رجلين من قريش أتيا ليؤمنا فتضرب أعناقهما، فنخس مسلم بن عقبه مروان بن الحكم بقضيب كان في يده

وقال له: وأنت والله لو قلت بمقالتهما مارأيت السماء إلا برقة(١) فطارت قلوب الحاضرين رعباً، وجيء بيزيد بن رهب فقال له: مسلم بايع على أنك عبد لأمير المؤمنين يزيد، فقال زيد: أبايع على سنة عمر. فقال مسلم اقتلوه فهلع زيد وقال: أبايع. فلم يمهله مسلم بل قال: لاوالله لاأقيل عثرتك، ووثب مروان بن الحكم ثانية الى مسلم بن عقبة يتشفع لزيد مادام قد رضي أن يبايع كما يريد مسلم، ولكن مسلم أبى وصرخ بحرسه أن يجأوا في عنق مروان ويخرجوه، فوجئت عنقه وقتل زيد. وطارت قلوب أهل المدينة فزعاً، فسارعوا يبايعون بالصيغة التي يريدها مسلم، وعادوا إلى من وراءهم يخبرونهم بما رأوه من طغيان مسلم وتجبره، وينصحونهم أن يخرجوا إليه ليبايعوا على الوجه الذي يريده، ففعل بعضهم وأمسك بعضهم الآخر ينتظر أن تهدأ فورة القتل.

كان مسلم بن عقبة مهتاجاً من آثار المعركة، فقد قتل عدد من جنده مقابل الآلاف الذين قتلوا من أهل المدينة، وكان المرض يدب فيه فيزيده حدة وشراسة وأرسل جنده ليأتوه بصديقه القديم معقل بن سنان، وكان معقل أحد قادة المدافعين عن المدينة وقد نجا من القتل، فجاؤوا به فأظهر له الود والتكريم وأمر أن يسقى عسلا بالثلج، فلما شرب معقل واطمأنت نفسه وظن أنه أخذ الأمان قال له مسلم: أما والله لاتشرب بعدها شراباً حتى تشرب من شراب الحميم. فقال له معقل بن سنان: أنشدك الله والرحم. فلم يصغ له، وذكره بحديثه معه في الشام عندما وفد على يزيد وخرج من عنده متوعداً

---

١) الطبري ٥/٤٩٢.

بخلع البيعة ثم أمر به فقتل(١) واستمر مسلم في ملحمة القتل هذه حتى قتل كل من قدر عليه من قادة الثورة وصناديدها، وعفا عمن أعطى بيعة العبودية دون أية مجادلة أو تحوير، وبدأت نفسه تهدأ، وأرسل الى علي بن الحسين فجاءه علي خائفاً مما سمعه من بطشه، ومشى اليه بين عبد الملك وأبيه مروان حتى جلس امامه، ولم يكن علي بن الحسين يعلم بوصية يزيد فيه، فطمأنه مسلم ، ثم أخبره بوصية يزيد، ورفع مجلسه إلى جانبه، ثم أذن له أن ينصرف مكرماً الى أهله ليهدأ فزعهم(٢)ومر اليوم الثالث على هذه الشاكلة، وفرغ مسلم من أخذ بيعة الذل من الناس، وخف القتل والنهب، حتى إذا غربت الشمس نادى المنادي بالأمان وبمنع الجند من أن يقتتلوا أحداً أو ينهبوا شيئاً.

وهكذا عاشت المدينة المنورة أقسى ملحمة دموية في تاريخها وقتل من كرام أهلها أعداد كثيرة اختلف المؤرخون في إحصائها، فقد ذكر ابن كثير أن عدد القتلى: سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، وعشرة آلاف من الموالي والأحرار والعبيد(٣) وذكر المسعودي أنه قتل من سائر قريش بضع وتسعون، ومن الأنصار مثلهم، ومن سائر الناس أربعة آلاف(٤).

دروس وعبر من الملحمة:

وأيا كانت الرواية الصحيحة(٥) فإنها أقسى مأساة وأوجعها في تاريخ

---

١) الطبري ٥/٤٩٢.

٢) الطبري ٥/٤٩٤.

٣) البداية والنهاية ٨/٢٢٤.

٤) مروج الذهب ٣/٧٠.

٥) استقينا أحداث وقعة الحرة من: الطبري ٥/٤٨٢-٤٩٥ والكامل: ٣/٣١٠-٣١٥ والبداية والنهاية: ٨/٢٢٠-٢٧٧، والعجيب أن ابن خلدون لم يذكر الحادثة إطلاقاً. وقد اختلفت الأقوال في قضية إباحة المدينة. فالطبري يسوق روايتين- الرواية الأولى طويله مفصلة وراويها الرئيسي أبو مخنف وفيها أن يزيد أوصى

المدينة المنورة، بل لانجد لها مشابهاً في مأسي المسلمين حتى ذلك التاريخ. ولئن كان التاريخ يذكر ليزيد أنه حاول جاهداً إطفاء الفتنة في المدينة دون إراقة الدماء حتى فى آخر لحظة قبل المواجهة، فإنه يذكر بكل حسرة إباحته المدينة للجند يقتلون وينهبون ثلاثة أيام متوالية، وليس في قواعد الحرب الإسلامية مايجيز ذلك. لقد أخطأ يزيد في هذه، وأسرف مسلم بن عقبة في بطشه حتى سماه بعض المؤرخين مسرف بن عقبة. والمدهش أن مسلم بن عقبة لم ير فيما فعله خطأ أو إثماً لسوء تقديره للأمور وسوء فهمه للشريعة، حتى إنه قال، فيما تروي كتب التاريخ، قبل وفاته: اللهم إني لم أعمل عملاً قط بعد شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أحبّ إلي

مسلماً بإباحة المدينة ثلاثة أيام إذا أصر أهلها على القتال. وفيها أيضاً أن الإباحة كانت في المال والممتلكات الأخرى، وأما الرواية الثانيه فهي عن أحمد بن زهير عن أبيه عن وهب بن جرير عن جويريه بن أسماء وهي رواية مقتضبة وليس فيها مايدل على استباحة المدينة البته. وقد نقل ابن الاثير رواية الطبري الأولى بتصرف قليل - وذكر فيها استباحة الأموال والامتعه. وأما ابن كثير فقد نقل في البداية والنهاية روايات عدة منها رواية عن المدائني تشير الى استباحة الجند للنساء (٨/٢٢٤) . وهذه رواية غير صحيحه لانجد لها أي أثر في المصادر القديمه الموثوقه. وقد حقق الأستاذ حمد محمد العرينان القضيه وناقش الروايات وتتبع أصولها وخرج بنتيجة تبين كذبها وتثبت أن المصدر الرئيسي لهذه الرواية هو كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة وهو كتاب لم تَصُحّ نسبته إليه وفيه روايات كاذبة كثيرة، ورغم أن هذه الوقعة مؤلمة لكل مسلم، فإن قضية استباحة النساء أكذوبة كبيرة ظهرت في كتابات متأخرة وغير موثوقة، وأقصى مايمكن أن يتصوره الباحث المحقق أن بعض جند الشام نهبوا بعض الأموال والامتعة من أهل المدينة.

أنظر كتاب: إباحة المدينة وحريق الكعبة في عهد يزيد بن معاويه بين المصادر القديمة والحديثة للدكتور حمد محمد العرينان، ط٢ مكتبة ابن تيميه - الكويت ١٤٠٨هـ.

من قتلي أهل المدينة، ولا أرجى عندي في الآخرة(١). فقد كان يرى في الثائرين من أهل المدينة خارجين على الطاعة تحل دماؤهم، ويرى في الإسراف في قتلهم تأديباً لمن خلفهم.

وكذلك أخطأ الذين تعجلوا بالثورة وخلع الطاعة، فما كانت لديهم مسوغات شرعية كافية، وما كانت لديهم القدرة على مواجهة قوة الدولة، وما تصرفوا ببعد نظر كي يحموا المدينة من المأساة الدامية التي وقعت.

سلسلة من الأخطاء أصبحت درساً من دروس التاريخ، نذكرها لالتجدد الآلام ولا لندين أحداً، ولا لنستنزل اللعنات على هذا وذاك، إنما نذكرها لأنها جزء من التاريخ، وليس لنا أن نغيّب التاريخ ولو كان دامياً. وعسى أن تكون عبرة نستفيد منها ونتعلم أن نحتكم دائماً الى مايقوله الشرع في العلاقة بين الحاكم والمحكوم. وقد لخص ابن تيمية العبرة من هذا الدرس فقال في كتابه منهاج السنة (فإذا تولى خليفة من الخلفاء كيزيد وعبد الملك والمنصور وغيرهم، فإما أن يقال يحق منعه من الولاية بالسيف، وهذا رأي فاسد، فإن مفسدته أعظم من مصلحته، وقل من خرج على إمام ذي سلطان إلا وكان ماتولد على فعله من الشر أعظم مما تولد على الخير، كالذين خرجوا على يزيد في المدينة فإنهم هزموا وهزم أصحابهم، فلا أقاموا ديناً ولا أبقوا دنيا، والله تعالى لايأمر بأمر لايحصل به صلاح الدين ولاصلاح الدنيا، وكان أفاضل الناس ينهون عن الخروج والفتنة والقتال في الفتنة، كما كان عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعلي بن حسين وغيرهم ينهون عام الحرة عن

---

١) الطبري ٤٩٧/٥.

الخروج على يزيد)(١).

وينقل ابن كثير عن المدائني أن يزيد بن معاوية عندما بلغه أخبار موقعة الحرة قال: واقوماه، ثم دعا الضحاك بن قيس الفهري فقال له: ترى مالقي أهل المدينة ، فما الذي يجبرهم. قال الضحاك الطعام والأعطية. فأمر يزيد بحمل الطعام إليهم وأفاض عليهم أعطياته(٢) ولعل هذه الرواية أقرب إلى سياسة معاوية ويزيد، فإنهما كانا يرأبان الصدع ويصلحان بالأعطيات ماأفسدته السيوف، ولعل قوافل الطعام قد وردت حقاً إلى المدينة بعد تلك المأساة ومعها صرر المال للقريب والبعيد، وعاد الأمويون إلى دورهم، فيما كان مسلم بن عقبة يجمع جنوده ويخرج من المدينة إلى مكة ليقاتل عبد الله بن الزبير، ويولي على المدينة روح بن زنباع.

ولم يكن روح بن زنباع في قسوة مسلم بن عقبة، لذلك راح يتألف الناس ويوزع عليهم ما وصله من غلال وأعطيات، ولم يلبث أن جاء الخبر إلى المدينة بموت مسلم بن عقبة في المشلل قبل أن يصل إلى مكة واستخلافه على جيشه الحصين بن عمير السكوني، وأن الجيش تابع مسيره إلى مكة، وكان عدد من أهل المدينة قد خرج الى مكة قبل وصول جيش مسلم إما للحج وإما لخوفه من عواقب الصدام، فلما وقعت واقعة الحرة ظلوا في مكة واعتصموا فيها حتى حاصرهم الجيش الشامي.

مكثت المدينة هادئة تتحسر على رجالها الذين فقدتهم إلى أن جاء الخبر في آخر ربيع الأول بموت يزيد بعد أقل من ثلاثة أشهر من الفاجعة، ثم تلاه خبر انسحاب الجيش الذي يحاصر مكة وعودته إلى المدينة في طريقه إلى الشام، عندئذ انفرج شيء من الكرب الذي في نفوسهم وظهر ماكان يخبئه الخوف من الشماتة والتغيظ على الأمويين وجيشهم، ولكن يبدو أن الفاجعة قد

---

١) منهاج السنة ٢٤١/٢

٢) البداية والنهاية ٢٣٧/٨.

طوت بين القتلى أولئك الذين يهبون للانتقام، ويحملون راية التمرد والثورة، ومن بقي من أهل المدينة أضنتهم المأساة وجعلتهم لايفكرون في القتال ثانية.

المدينة بلا أمير:

وأدرك أهل المدينة أن شأن بني أمية قد تضعضع في الشام فقد ولي الأمر بعد يزيد ابنه معاوية، وكان معاوية هذا ضعيفاً مريضاً ولم يلبث أن مات بعد أربعين يوماً من خلافته. وجاءت الأخبار أيضاً أن أهل البصرة بايعوا عبد الله ين زياد ثم طردوه. وأن أهل خراسان بايعوا مسلم بن زياد ثم طردوه، ومع ذلك لم ينهض أحد لمجابهة الأمويين، واكتفوا بالتجرؤ عليهم في الطرقات والأسواق، ولما وصل الجيش العائد من مكة، عسكر في ظاهر المدينة تحسباً من أن ينال أهل المدينة منهم غيلة، وكان أفراد الجيش إذا دخلوا المدينة ليشتروا شيئاً من أسواقها سمعوا منهم مالا يسرهم، حتى إن قائد جيشهم الحصين بن نمير خشي ألا يجد علفا لخيولهم، فاستضافه علي بن الحسين وقدم له المعونة التي يحتاجها. ثم زادت جرأة أهل المدينة عليهم فكانوا إذا وجدوا رجلا منهم منفرداً هجموا عليه، وأخذوا بلجام دابته ورموه من فوقها ومضوا بها ، فخاف الجنود وأصبحوا لايفارقون معسكرهم، وإذا اضطروا ساروا مجموعات يحمي بعضهم بعضاً. ولكن لم يذهب أهل المدينة أبعد من هذا فلم يقتالوا أحداً من الجند، وكانوا قادرين على ذلك، ولم يغدروا بهم، فلا أحد من الناجين أو أبناء المقتولين يعلم من هو غريمه من أولئك الجند، ولم تعد قضية الثأر العام سارية فيهم، لذا كان كل انتقامهم تخويف الجند وأخذ الخيول أو الجمال التي يركبونها إن انفردوا بهم ، جزاء وفاقاً لما نهبوه منهم من قبل. وخاف الأمويون في المدينة من ازدياد جرأة أهلها عليهم بعد انتشار الأخبار عن ضعضعة الخلافة في دمشق، وأن ينصب انتقامهم عليهم، لأن بعضهم نكث بالعهد الذي أعطاه سابقاً وقاتل مع جيش الشام ضد أهل المدينة. لذلك ما أن علم الأمويون أن الحصين بن نمير

سيرحل بالجيش إلى الشام حتى تعلقوا بهم وقالوا لهم (لاتبرحوا حتى تحملونا معكم إلى الشام) وخرج الجيش من ظاهر المدينة وخرج معه روح بن زنباع الأمير الذي عينه عقبة بن مسلم، كما خرج معظم الأمويين الذين كانوا يسكنون المدينة، ولم يبق فيها إلا من عرف أنه لم يعاد أحداً ولم يقاتل أحداً كابناء عائشة بنت عثمان بن عفان، ولم يتعرض أهل المدينة لهؤلاء بسوء، فالخلق العالي الذي عرفوا به جعلهم أكرم وأسمى من أن يعاقبوا بريئاً.

بقيت المدينة بلا أمير أياماً قليلة، والناس يتحدثون في المسجد والمجالس عن تحررهم من البيعة للأمويين، فلم يأخذ منهم أحد البيعة لمعاوية بن يزيد، ومات معاوية ولم يوص بالخلافة لأحد، ولم يعد في الساحة إلا عبد الله بن الزبير الذي بايعه أهل مكة ومن لجأ إليها. وكاتبه أهل الكوفة والبصرة بالبيعة، وبايعه أهل مصر..

المدينة تتحول إلى ابن الزبـير:

بعد أيام قليلة من رحيل الجيش الأموي وصل عبيد الله بن الزبير شقيق عبد الله بن الزبير، فصعد المنبر وخطب في الناس وطلب منهم أن يبايعوا لأخيه عبد الله، فليس للمسلم أن يكون بلا بيعة، وعبد الله بن الزبير أحق الناس بالبيعة، فقام الناس اليه وبايعوا لعبد الله بن الزبير.

وبدأ عبيد الله بن الزبير إدارة المدينة باسم أخيه عبد الله بن الزبير، وكان أول مافعله أن أمر من بقي من الأمويين في المدينة بالخروج منها كي لايبقى لهم فيها نفوذ على الإطلاق، ولم يكن قد بقي منهم الا المسالمون فخرجوا إلى فلسطين والشام.

ومكثت المدينة هادئة تتسقط الأخبار القادمة من الأمصار وما يجري فيها من نزاع بين الأمويين وخصومهم حول الخلافة.. وعادت القوافل التجارية لتجد في أسواق المدينة أمناً يروج تجارتها. وجاء موسم تلك السنة وافراً، فهبطت أسعار الغلال وبخاصة بعد أن قل عدد سكان المدينة، حتى إن التجار حملوا

منها قوافل إلى مكة وإلى الشام التي أضنتها حروب المتصارعين. ومضت شهور قليلة واستدعى عبد الله بن الزبير أخاه عبيد الله أمير المدينة، وولى مكانه جابر بن أسود بن عوف (ابن أخي عبد الرحمن بن عوف). وجاءت الأخبار بأن مروان بن الحكم قد بايعه أهل الشام والأردن وأنه هزم خصومه، ومد نفوذه إلى مصر، وأنه أعد جيشاً لاستعادة المدينة وضمها إلى طاعته بقيادة حبيش بن دلجة. وتذكر الناس دماء الحرة وآثارها السيئة، واضطربوا لها وكلموا الأمير أن يطلب العون من عبد الله بن الزبير ليحمي المدينة من فاجعة جديدة، أو يخرج منها مع رجاله فلا تقع حرب ولاتسفك الدماء، وتوالت الأخبار بأن حبيشاً قد اقترب من المدينة، ولم يستطع جابر بن الأسود بن عوف أن يجمع مايكفي لمواجهته، ولم يتحمس أهل المدينة للقتال، ولم يصل إليه الجيش الذي أعده عبد الله بن الزبير، لذا آثر أن يجنب المدينة القتال، فخرج منها مع رجاله القليلين. وعلم حبيش بذلك فغذ السير إلى المدينة ودخلها بجيشه فلم يلق أحداً يقاومه، وأغلق الناس عليهم أبوابهم إلا نفر قليل لقوا حبيشاً ورحبوا به. وتقول بعض الروايات أن حبيشاً كان صلفاً، وأنه أراد أن يغيظ أهل المدينة ويذلهم لاعتقاده بأنهم قعدوا عن نصرة عثمان بن عفان رضي الله عنه، فذهب إلى المسجد النبوي وجلس على المنبر، والناس ينظرون إليه، ثم طلب من حرسه أن يأتوه بالطعام، فجاؤوة بخبز ولحم فأكله وهو على المنبر، ثم أكل تمراً، وأخذ يقذف النوى في وجه الناس وهم ينظرون إليه لايقدرون على شيء، ثم دعا بماء وتوضأ وهو على المنبر، وقال للناس: إني أعلم أن هذا ليس بموضع أكل، ولكنني أحببت أن أذلكم

لخذلانكم أمير المؤمنين عثمان. فكرهه الناس(١)وما إن استقر حبيش في المدينة حتى جاءه النعي بموت مروان بن الحكم، وتلاه خبر بأن جيشاً لعبد الله بن الزبير قد خرج من البصرة إلى المدينة ليقاتله، فآثر حبيش أن يخرج إلى جيش عبد الله بن الزبير قبل أن يدهمه في المدينة ورحل بجيشه شرقاً، فسر أهل المدينة لخروجه وابتعاد شبح الحرب عن مدينتهم الآمنة. ولما علم عبد الله بن الزبير بخروج حبيش أرسل عباس بن سهل بن سعد على رأس قوة آخرى وأمره أن يسلك الطريق إلى المدينة ويطارد جيش حبيش ويأخذه من خلفه، وجاء عباس بن سهل بن سعد إلى المدينة، وتزود بالمؤنة لجيشه، ثم تابع سيره في مطاردة حبيش، فلقيه عند الربذة، ودارت معركة قصيرة قتل فيها حبيش وتشرد أصحابه، وهرب أكثر من خمسمئة رجل منهم عائدين إلى المدينة، فدخلوها وتحصنوا بها، وخاف أهل المدينة أن يعود القتال إلى ساحاتهم، ولم يكونوا يملكون من الأمر شيئاً، وكانت قلوب معظمهم مع ابن الزبير يتمنون انتصار جيشه. ومالبث جيش عباس بن سهل أن عاد إلى المدينة وحاصر المتحصنين فيها من جيش ابن دلجة فاستسلموا، فضرب أعناقهم. وفرح أهل المدينة بهزيمة ابن دلجة وحيوا قاتله، وتمسحوا بثيابه البيض حتى اسودت وصبوا عليه الطيب فرحاً بقتل حبيش بن دلجة(٢)وعاد عبيد الله بن الزبير إلى المدينة أميراً، ولكن سرعان ماجاء كتاب عبد الله بعزله وتولية أخيه الأصغر مصعب بن الزبير.

قدم مصعب إلى المدينة وقد برم أهلها بالأحداث التي تمر بهم. فالصراع بين الأمويين والزبيريين يمر بأرضها دون أن تكون لها جريرة فيه، وكل من يدخلها يطلب من أهلها البيعة والنصرة، ويأخذ خراج الأرض والمزارع، وما هي بقليل ،ولم يحمل أحد إليها شيئاً من الأعطيات التي كانت تأتيها سابقاً.

---

١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤٤/٤.

٢) الطبري ٦١٢/٥.

فلما جاء مصعب خفف عن أهلها الخراج، وكان مصعب كريماً فأعطى من جاءه من أهلها وأكرم الهاشميين، وتزوج سكينة بنت الحسين، وكان رضياً حسن المعاملة، فأحبه أهل المدينة، ولكن الأحداث المضطربة لم تتركه فيها، اذ ظهرت الفتن الكثيرة في العراق، وعلى رأسها فتنة المختار الثقفي الكذاب، فأرسل عبد الله بن الزبير إلى أخيه مصعب أن يعجل الرحيل إليها ليتولى أمرها ويستخلف على المدينة عبد الرحمن بن الأشعث.

وكان ابن الأشعث رجل حرب وشدة أكثر منه رجل إدارة وإمارة، لذا اجتهد في أن يكون ولاء أهل المدينة لابن الزبير كاملاً ولم يعف أحداً من البيعة، ولما بلغه أن سعيد بن المسيب متوقف لايعطي البيعة لأحد، وأنه يرى الفتنة ماتزال في المسلمين وأن الخليفة الحقيقي غير موجود، غضب وأمر بإحضاره وحاول أن يحمله على البيعة ، فأبى سعيد، فأمر بضربه فضرب ستين سوطاً، وأمر حرسه فطافوا به في أنحاء المدينة. وذهب الخبر الى عبد الله بن الزبير فغضب عبد الله لأنه يعرف مكانة التابعي الجليل سعيد بن المسيب، وخشي إن بقي ابن الأشعث على إمارة المدينة أي يقسو على من فيها من التابعين. لذلك عزله عن الإمارة وأعاد إليها جابر بن الأسود بن عوف الزهري ابن أخي الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف، الذي عرفته المدينة من قبل والياً لمدة بسيطة، والذي حقن الدماء فيها عندما جاء جيش ابن دلجة إليها.

صراع على أطراف المدينة:

وفي هذه الأثناء كادت المدينة أن تقع ضحية لصراع سياسي آخر بين عبد الله بن الزبير والمختار الثقفي الذي ثار في العراق واستولى على جزء كبير منه. فقد كانت عيون المختار الثقفي تتطلع إلى المدينة لمعان كثيرة ، ففضلا عن مكانتها الكبيرة في قلوب المسلمين يمكن أن تكون منطلقاً لمواجهة عبد الله بن الزبير وإنهاء سيطرته على الحجاز، وإذا دخل أهل

المدينة في طاعته فسيكون ذلك تمهيداً لطلبه الخلافة. وكان المختار يعلن أن ثورته انتصار لآل البيت، ويرسل كتب الطاعة إلى محمد بن الحنفية في المدينة، ويجتهد في تتبع قتلة الحسين ويقتل من يصل إليه. وقد بعث إلى محمد بن الحنفية برأس عمر بن سعد قائد الجيش الذي قتل الحسين ورأس ابنه حفص بن عمر(١) وهو يأمل أن يبارك ابن الحنفية عمله، ويعلن أنه قائم باسم أهل البيت، فيلحق به الناس على طاعته لأهل البيت، وربما ينتهي إليه أمر الخلافة ذاتها، غير أن محمد بن الحنفية لم يكن يثق بالمختار، لذلك لم يعلن رضاه عنه. وعندما وجه عبد الملك بن مروان جيشاً لاستخلاص الشام وآخر لاستخلاص المدينة أحس المختار بالخطر، فمصعب بن الزبير في البصرة يتربص به، وجيش عبد الملك قادم إليه، لذا رأى أن يوادع ابن الزبير لينفرد بجيش عبد الملك، فكتب إلى عبد الله بن الزبير يوادعه ويعرض عليه أن يرسل إليه جيشاً للدفاع عن المدينة المنورة ضد جيش عبد الملك بن مروان الذي وصل إلى وادي القرى وخيم فيها، فوافق عبد الله بن الزبير على عرض المختار شريطة أن يعلن المختار طاعته لأبن الزبير ويعطي البيعة، فأرسل المختار جيشاً إلى المدينة المنورة بقيادة شرحبيل بن دوس وأمر قائده أن يمضي إلى المدينة دون توقف، فإذا دخلها واحتلها فليمكث فيها حتى يأتيه أمر جديد من المختار، وكان المختار يريد أي يدعو فيها لنفسه ويخلصها من طاعة ابن الزبير.

حملت هذه الأخبار مزيداً من القلق إلى أهل المدينة، إذ لم تكد المدينة تلتقط أنفاسها من كر ابن دلجة وفره، ومن قتل أتباعه ودخول جيش ابن الزبير ، حتى يأتي جيش المختار، وقد سبقت أخبار هذا الجيش وبطشه إليهم، وكان معظم أفراده من موالي الكوفة وما حولها، ولاذ بعضهم بمحمد بن الحنفية يسأله أن يدفع عنهم شر المختار الكذاب، وطلبوا من أمير المدينة

---

١) الطبري ٦/٦٢.

أن يحتاط للأمر. ولكن مالبثت الأخبار أن وردت إلى المدينة بأن الله قد دفع الشر عنهم قبل أن يدهمهم، فقد أرسل عبد الله بن الزبير جيشاً بقيادة العباس بن سهل ليلتقي بجيش المختار ويكشف حقيقة نواياه، فأسرع العباس بن سهل بجيشه حتى التقى بجيش المختار قبيل المدينة، وقابل قائده شرحبيل بن دوس وحاول أن يثنيه عن دخول المدينة ويقنعه بالتوجه معه إلى وادي القرى، فأبى شرحبيل فكاد له العباس، وأراه أنه اقتنع برأيه وشغل جيشه بالطعام، وفاجأ شرحبيل والجنود المحيطين به ففتك بهم ثم أعطى الأمان للآخرين، فانفرط عقد جيش المختار واستسلم معظمه وهرب الآخرون.

وتنفس أهل المدينة الصعداء وأيقنوا أن المختار سيشغل بنفسه وبمدافعة خصومه الآخرين عن المدينة المنورة، وهذا ماكان، فقد غضب المختار غضباً شديداً لهزيمة جيشه، ورغب في أن ينتقم له، وأرسل كتاباً الى محمد بن الحنفية في المدينة وبين له فيه أنه أرسل جيشه السابق لنصرته، وليحوزوا البلاد له، واستأذنه في أن يرسل جيشاً آخر إلى المدينة على أن يبعث ابن الحنفية رسله، ويعلن لهم أن جيش المختار يقاتل تحت طاعته وباسمه، فأبى محمد بن الحنيفة ورد عليه برسالة يحثه فيها على طاعة الله وحقن دماء المسلمين، ويخبره أنه مصر على اعتزال الفتنة، فاسقط في يد المختار، ولم يبادر التحرش بالمدينة.

ضيـــق في المديـنة:

كان أهل المدينة يطمحون أن تتحسن أحوالهم وقد ابتعدت عنهم الفتن، وأن تنشط تجارتهم وتتحسن زراعتهم ويأتيهم العطاء الوفير، وقد فرحوا لاسقاط الخراج عن أراضيهم الزراعية مدة من الوقت، ولكن لم يتحقق لهم من طموحهم ذاك شيء في هذه السنوات. فلم يكن للبلاد التي دخلت في طاعة عبد الله بن الزبير وارد خارجي يأتيها، ولم تكن له قادة يضربون في الأرض فتحاً ويرسلون إليه بالغنائم والفيء، ولم يكن عبد الله بن الزبير نفسه ممن يرون

سياسة الناس بالعطاء الوفير على نحو ماكان يفعله بعض بني أمية، وصادفت سنوات من القحط، واضطربت قوافل التجارة التي تحمل الحنطة من الشام بسبب الجيوش المتحاربة في الأطراف، فعاد الضيق يلوح بشبحه عليها ، واضطر أمير المدينة بعد أن شحّ خراج التجارة أن يعيد خراج الأرض ليدفع رواتب الشرطة والأئمة والمؤذنين والخدم في المساجد، وكان الذين يقصدون الإمارة أو الخليفة عبد الله بن الزبير نفسه طامعين في شيء من العطاء يعودون خائبين، فعبد الله بن الزبير في مكة حريص على أموال بيت المال، والإمارة لاتجد فضلاً تنثره على هذا وذاك، لذلك بدأ التململ يظهر على الناس، وبدأت الأخبار التي ترد عن شدة ابن الزبير تؤثر في نفوسهم. وعندما عاد حجاج المدينة من مكة عام ٦٧هـ قصوا على الناس كيف حبس عبد الله بن الزبير محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته في زمزم لأنه امتنع عن مبايعته بالخلافة، وهدده بالحرق والقتل وأمهله مدة من الوقت، وكاد ينفذ تهديده لولا أن جاءت مجموعات من جند المختار وخلصته، وكادت أن تبطش بعبد الله بن الزبير، ولكن ابن الحنفية منعهم من القتال في الحرم، وخرج من مكة. هذه الأخبار وأمثالها بدأت تؤثر في أهل المدينة، وانضاف اليها ما أصابهم من ضيق بسبب اضطراب القوافل التجارية في السنتين التاليتين، ثم سنة من القحط، لذلك خفت حماستهم لعبد الله بن الزبير، وأصبحوا غير مبالين أن تبقى المدينة في طاعته أو تخرج عنه إلى غيره، لأنهم في جميع الأحوال لايريدون الفتنة ولا إراقة الدماء.

ولم يستطع أمير المدينة جابر بن أسود أن يخفف من هذا الشعور أو أن يمنع الناس من الحديث به. وازداد الأمر اضطراباً بعد أن وردت الأخبار بمقتل مصعب بن الزبير في العراق على يد جيش أهل االشام، وتوقع الناس أن يرسل عبد الملك جيشاً آخر إلى المدينة ليخلصها من عبد الله بن الزبير.

الخوارج يهددون المدينة:

جاءت الأخبار في سنة تسع وستين أن أحد قادة الخوارج في العراق (نجدة الخارجي) قد توجه إلى المدينة بجيشه، ففزع أهل المدينة، واستعدوا له بالسلاح، وأشاع نجدة الخارجي أنه يريد أن ينتصر لأهل المدينة من الأمويين ويساعد ابن الزبير، ولكن الأخبار التي تتردد عن فتك الخوارج بالناس، ورفضهم الانصياع لغير مذهبهم، جعل أهل المدينة لايثقون بمايشاع، ويعدون لقتاله ، وعلم نجدة الخارجي باستعداد أهل المدينة ويئس من تحييدهم، فعدل عن السير إليها واتجه الى الطائف، فتنفس أهل المدينة الصعداء إلى حين.

أمير زبيري مسالم:

غير أن هذه الحادثة زادت من إحساسهم بضعف موقف عبد الله بن الزبير، وبعدم وجود قوة تحمي خلافته، وأحس عبد الله بن الزبير بضعف مكانته في المدينة وعجز أميرها عن أن يصنع شيئاً فعزله وولى عليها طلحة بن عبدالله بن عوف في عام واحد وسبعين للهجرة ، وكان طلحة آخر أمراء ابن الزبير على المدينة.

أدرك طلحة أن أمر عبد الله بن الزبير آخذ بالتقلص، لذلك لم يحمل المدينة عبء الدفاع عنه، وعلم أن عبد الملك بن مروان قد أعد جيشاً بقيادة طارق بن عمرو ـ مولى عثمان بن عفان سابقاً ـ لانتزاع المدينة من حكم عبد الله بن الزبير وأخذ البيعة من أهلها له، ورأى أن أهلها ليسوا قادرين، وليسوا راغبين في مقاتلة الجيش القادم، لذلك آثر أن يحقن دماء الناس فيها وأن يمنع الحرب في ساحتها، فمازالت حكايات الحرة تدمي القلوب، فجمع أهله ومواليه وخرج من المدينة إلى مكة.

المدينة تعود إلى الأمويين:

دخل طارق بن عمرو في جيش صغير ليعلن نهاية سلطة آل الزبير في المدينة المنورة وعودة السلطة الأموية وليأخذ البيعة من الناس لعبد الملك بن مروان الذي دانت له الشام والعراق ومصر وتقدمت جيوشه إلى الحجاز.

ولا شك أن الله أراد بالمدينة خيراً إذ جاءها طارق بن عمرو ودخلها بسلام وأمان، فقد كان وراء طارق قائد آخر أرسله عبد الملك لمحاربة عبدالله بن الزبير يبطش بطشاً مريعاً، هو الحجاج بن يوسف الثقفي . فلما دانت المدينة بهدو لطارق بن عمرو، أمر عبد الملك الحجاج أن لايدخلها وأن يأتي مكة من طريق الطائف. فاتجه الحجاج شرقاً إلى طريق العراق ثم انعطف جنوباً إلى الطائف ومنها نزل لحصار مكة. وحفظ الله المدينة من حصار مدمر لايعلم - إلا هو - ماكان يحدث لأهلها لو دخلها حرباً.

وبقدوم طارق بن عمرو طوت المدينة فصل آل الزبير وولاتهم، وبدأت فصلا جديداً تعيش فيه في ظل بني أمية ثانية، ولكن في ظل الفرع المرواني هذه المرة، بدأت بالخليفة عبد الملك بن مروان الذي ولد في المدينة المنورة ثم أبنائه إلى أن تغرب شمس الأمويين.

المدينة في ظل المروانيين:

رغم أن دخول طارق إلى المدينة كان هادئاً، وكأنه وعد للمدينة أن تعود إليها سكينتها السابقة أو ماشابهها، فإن العاصفة التي كان يديرها الحجاج في مكة قد بعثت تهديداتها للمدينة المنورة، فقد اقتحم الحجاج مكة على عبد الله بن الزبير بعدما رماها بالمنجنيقات وهدم أجزاء من الكعبة، ثم قتل عبد الله بن الزبير وصلبه في مكة إلى أن جاءت أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما إلى الحجاج تسأله أن يترجل الفارس العابد من صَلبه، فأنزله الحجاج وقطع رأسه ورأس عبد الله بن صفوان وعمارة بن حزم وأرسلها إلى المدينة، فنصبت فيها حيناً من الوقت لتكون نذيراً لمن يخرج عن الطاعة، ثم

حملت إلى الشام(١).

وسرعان ماوصلت توابع ذلك النذير، فقد عزل عبد الملك بن مروان طارق بن عمرو عن إمارة المدينة وضمها الى الحجاج إضافة لمكة والطائف، وأمره أن يجعل المدينة مركز إمارته.

وقدم الحجاج في مطلع عام ٧٤ للهجرة فأقام فيها شهراً ثم خرج إلى مكة معتمراً، وعاد إليها وبدأ يأخذ أهلها بالشدة، فمنع الصحابة رضوان الله عليهم من الخروج من المدينة، واتهم بعضهم بأنهم من الذين تخاذلوا عن نصرة عثمان، رغم أنه مضت على فتنة مقتل عثمان ثلاثون سنة، ويروى الطبري أن الحجاج أرسل إلى الصحابي سهل بن سعد فقال له: مامنعك أن تنصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان. فقال له سهل: قد فعلت. فقال الحجاج: كذبت، ثم أمر فختم عنقه برصاص(٢) كما ختم عنق مالك بن أنس وختم يد جابر بن عبد الله فاغتم الصحابة.

اغتم أهل المدينة بعامة لهذه الأحقاد التي لم تطفئها السنوات المتوالية، والتي تصيب برذاذها من لم يكن له مشاركة في الفتنة.

كان الحجاج مقتنعاً بأن الصدع الذي أصاب الأمة الاسلامية منذ ولاية يزيد لايرأب إلا بالحزم والشدة، وأن أي مخالفة لأولي الأمر لابد أن تعالج على الفور، وبالسيف إن اقتضي الأمر، وكانت لشدته هذه آثار كثيرة تحدث عنها المؤرخون فقد ظلم من ظلم، وسفكت دماء طاهرة، ولكن الدولة عادت إلى تماسكها الذي كانت عليه أيام معاوية. ودانت المدن والأمصار لعبد الملك بن مروان.

ولم تكن المدينة بحاجة إلى الشدة التي أبداها الحجاج، لأنها أصبحت بعد وقعة الحرة أقرب إلى الاعتزال، لاتحارب قادماً عليها ولا تطرد مقيماً

---

١) الطبري ٦/١٩٢.

٢) الطبري ٦/١٩٥.

فيها، وقد تناوب عليها ولاة ابن الزبير ومروان بن الحكم دونما قتال، وجاءها طارق دون قتال، والحجاج نفسه وصلها وقد بايع أهلها بسلام، ولم يجد مسوغاً لضرب الأعناق وإراقة الدماء على نحو مافعل بعد ذلك في الكوفة، لذلك كانت شدته وإهانته لبعض الصحابة في غير محلها.

إستمرت إمارة الحجاج على المدينة سنتين، وكانتا سنتين حالكتين، لم تبتهج المدينة فيهما قط، فالأعطيات مقطوعة عن أهلها إلا من قصد الخليفة، وقل من يقصده. وعاشت المدينة على مواردها الخاصة، وضبطت أمورها بحزم الحجاج وخوف الناس منه، واشتغل الناس بالزراعة والصناعة والعلم وكان فيها عدد من كبار العلماء كعروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وأنس بن مالك وغيرهم.

وفي ربيع الأول عام ٧٥ للهجرة انفرجت الشدة شيئاً ما في المدينة، فقد حمل البريد رسالة من عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره بترك المدينة والتوجه إلى العراق، حيث اشتد فيها أمر الخوارج وكادوا يغلبون عليها قائده المهلب بن أبي صفرة، وأصبح أمرهم يحتاج إلى من يبطش بهم. فأسرع الحجاج في عدد من رجاله وخرج إلى الكوفة وترك أمر المدينة ليحيى بن الحكم بن أبي العاص على نحو ما أمره الخليفة.

كان يحيى بن الحكم بن أبي العاص عم الخليفة مروان بن الحكم، ويبدو من أخباره القليلة أنه كان هادئاً ميالا إلى الملاينة وفيه رقة، وعندما أمره عبد الملك أن يقتل عمرو بن سعيد الأشدق رفض قتله، ولكنه كان يتخوف من أحفاد علي في المدينة ويبث العيون ليراقبوا بيوتهم ويرصدوا زوارهم، وبخاصة العراقيين القادمين من الكوفة، الذيم مافتئوا يستنهضون أبناء الحسن والحسين للخروج على الأمويين ويعدونهم النصرة والقتال معهم. ولكن أبناء الحسن والحسين لم يكونوا يثقون بهم، وقد كاد يحيى بن الحكم أن يوقع بالحسن بن الحسن بن علي في مجلس عبد الملك، اذ اتهمه بأن العراقيين

يكثرون الوفادة عليه ويمنونه بالخلافة، ولكن الحسن بن الحسن بن علي رد عليه بقوة، فأعرض عبد الملك عما قاله يحيي(١)كانت إمارة يحيى على المدينة قصيرة لم تتم السنة، وكانت فترة راحة لأهلها بعد الشدة التي لاقوها من الحجاج، ولكنهم أيضا لم ينعموا بشيء مميز ولم تأتهم عطايا جديدة، وقد حاول بعض الصحابة أن يغيروا موقف عبد الملك من المدينة وأن يحملوه على فرض العطاءات لأهلها فرفض، وكان يكرم من يفد عليه فقط. فقد وفد عليه الصحابي الجليل جابر بن عبد الله وقال له: يا أمير المؤمنين إن المدينة حيث ترى، وهي طيبة سماها النبي ﷺ، وأهلها محصورون، فان رأى أمير المؤمنين أن يصل أرحامهم ويعرف حقهم فعل. فكره ذلك عبد الملك وأعرض عنه، وجعل جابر يلح عليه (وكان جابر قد كف بصره) وهو لايدري بإعراض عبد الملك، فأومأ قبيصة (صاحب ديوان عبد الملك) إلى جابر أن يسكته، فلما خرج أخذ قبيصة بيده فقال له: يا أبا عبد الله: إن هؤلاء القوم صاروا ملوكاً. فقال جابر: أبلى الله بلاء حسناً فإنه لاعذر لك وصاحبك يسمع منك. فقال قبيصة: يسمع ولا يسمع، ما وافقه سمع، وقد أمر لك أمير المؤمنين بخمسة آلاف درهم فاستعن بها على زمانك(٢).

وجاء عبد الملك في هذه السنة إلى المدينة ونزل في دار أبيه، ومكث أياماً قليلة ثم ذهب إلى الحج وعاد اليها بعد فراغه من الحج، وخطب على منبرها، وقام بعده خطيب من حاشيته فذم أهل المدينة واتهمهم بأنهم أهل الخلاف والخروج على الطاعة، وبأنهم يسيؤن الظن بالخليفة وأهل بيته، وذكرهم بما فعلوه يوم الحرة، وشبههم بالقرية التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) فرد ابن عبد

---

١) نسب قريش ٤٧ - ٤٨.

٢) الطبقات الكبرى ٥/٢٣١.

(أحد التابعين من أهل المدينة) على الخطيب وكذبه، وكاد الحرس أن يبطشوا به ولكن عبد الملك عفا عنه وأكرمه(١).

لذلك لم يكن بمقدور يحيى بن الحكم أن يصنع شيئاً لأهل المدينة، وربما يكون لينه هو ما أفادهم بعد شدة الحجاج، وتتهمه بعض المصادر بالحمق، ويبدو أنه لم يحسن فهم شخصية ابن أخيه عبد الملك واهتمامه بهيبة الخلافة، فخرج من المدينة إلى دمشق دون أن يستأذن الخليفة، وفوجيء به عبد الملك فسأله: ما أقدمك علي بغير إذني؟ ومن استعملت على المدينة. فقال يحيى: أبان بن عثمان بن عفان. فقال عبد الملك: لاجرم، لاترجع إليها. وأمر أن يكتب إلى أبان بإقرار إمارته وبعزل يحيى عمه. وبذلك بدأت إمارة أبان بن عثمان بن عفان رضي الله عنهما.

المدينة في إمارة أبان بن عثمان بن عفان:

كان أبان أحد فقهاء التابعين، وأحد المفتين في المدينة(٢)، وكان مقرباً من الأمويين لأنه ابن عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان ظريفاً، وفيه على علمه وفضله حب للدعابة، دون أن يقلل ذلك من مكانته وقوة شخصيته. ويذكر له أهل المدينة موقفه من مسلم بن عقبة حينما رفض أن يدله على عورات المدينة قبيل وقعة الحرة حتى كاد مسلم أن يبطش به، لذلك كان أهل المدينة يحبونه. وكان أبان رجل علم وثقافة وأدب، فهو أول من ألف في السيرة النبوية، ويعد من أهل الحديث أيضا، لذلك كانت فترة إمارته فترة نشاط علمي وثقافي جم، خاصة وأن من بقي من الصحابة الكرام أصبحوا طاعنين في السن يرحلون إلى جنب الله واحداً تلو الآخر، وقد حرص طلاب العلم من جيل التابعين على أن يأخذوا من الصحابة الكرام ما يستطيعونه ويدونونه. وكان أبان واحداً من أولئك قبل أن يتولى الامارة، فلما تولاها اجتمع في مجلسه

---

١) الطبقات الكبرى ٢٣١/٥.

٢) الطبقات الكبرى ٣٨٣/٢.

العلماء والمحدثون والأدباء والظرفاء. ورغم أن إمارة أبان قد استمرت على المدينة ست سنوات من (٧٦ - ٨٣هـ) فان كُتاب التاريخ لم يحفظوا لنا شيئاً ذا بال من تلك السنوات، فقد دأب المؤرخون على أن يرصدوا الأحداث الكبيرة أو القاتمة، ويتجاوزوا الفترات التي تخلو منها، أو يذكرونها باقتصاب شديد. وكل مانجده من أخباره هو أنه حج بالناس عدة مرات خلال سنوات إمارته، وأن عبد الملك حج في إحداها وكذا ابنه سليمان بن عبد الملك. ولا نجد شيئا عن أحوال المدينة . وبينما خلت كتب التاريخ من أخبار المدينة في هذه الفترة عمرت بعض كتب الأدب بالأخبار الظريفة عن أبان بعامة، وهي أخبار - إن صحت - تبين ظرف أبان وميله للدعابة مع سماره، وتظهر الهدوء والاستقرار اللذين عما المدينة في عهده، كما تظهر انصراف الكثيرين إلى حلقات العلم والأدب في المسجد النبوي وغيره.

عزل أبان عام ٨٣هـ، ولم يتول أمر المدينة أو أمر ولاية أخرى بعدها رغم أنه عاش الى ١٠٥ هـ، ولاتذكر المصادر التاريخية سبباً لعزله، وربما يكون السبب أن أبان قد استغرق في الحركة العلمية النشطة، وأن عبد الملك أراد أن يكون أميرها أكثر انهماكاً في القضايا الإدارية والأمنية، فالمدينة مركز أحفاد علي، وما تزال عيون العراقيين ترنو اليهم، وربما يكون السبب مجرد رغبة في تغيير الولاة، أو تولية والد زوجته هشام بن اسماعيل إمارة هادئة ذات مكانة وسمعة. وقد خرج أبان بن عثمان من إمارة المدينة دون أن يسجل له التاريخ شيئاً سوى تلك الأخبار الأدبية.

المدينة في امارة هشام بن اسماعيل:

وجاء خلفه هشام بن إسماعيل المخزومي - وكانت ابنته زوجة عبد الملك بن مروان - وقد سمى عبد الملك ابنه منها باسمه (هشام) وكانت لهذه الزوجة مكانة في نفسه تعزز مكانة أبيها، فقد استمرت ولاية هشام بن اسماعيل على المدينة المنورة حتى وفاة عبد الملك.

وكان هشام بن اسماعيل إدارياً ناجحاً، يتفقد بنفسه الأسواق ويراقب التجار، ويقف على صاحب الحسبة ويتتبع أموره بدقة. وقد أحدث لأهل المدينة مكيالا أكبر من المكيال الذي كانوا يبتاعون فيه، نسب إليه فسمي مدّ هشام، وقد جعل الإمام مالك كفارة الظهار به لأنه المد الأعظم(١) ووصفه الزبيري بأنه كان مُسَدداً في ولايته(٢) ومن المتوقع أن تكون المدينة قد شهدت في عهده المزيد من التنظيم والضبط في أسواقها ومواردها وخراجها وشرطتها وأمنها، ولكنها شهدت أيضاً شيئاً من القسوة على آل علي وآل الزبير، إذ كان هشام ينفذ تعليمات عبد الملك بن مروان بشدة وصرامة، والمعروف عن عبد الملك أنه كان يراقب بحذر شديد خصومه السياسيين أو من يمكن أن يجتمع الناس عليهم من دونه. وقد كتب إلى هشام أن يلعن عليا وعبد الله بن الزبير على المنابر، فكان هشام ينال منهما في خطبه فيتأذى الكثيرون من ذلك، وتطور الأمر عندما غضب عبد الملك لأخبار جاءته عن الأسرتين، وأراد أن ينتقم منهما، فأرسل إلى هشام يأمره بأن يحمل آل الزبير على لعن عبد الله بن الزبير وآل علي على لعن علي، فأرسل إليهم هشام يأمرهم بذلك، فرفضوا، واشتد عليهم، فأصروا على رفضهم ولو أدى بهم الأمر إلى القتل، وكتبوا وصاياهم، فجاءت أخت هشام - وكانت امرأة عاقلة -وحاولت أن تقنعه بمراجعة عبد الملك في الأمر، فرفض هشام مراجعة الخليفة، فاقترحت عليه حلاً وسطاً: أن يأمر آل علي بشتم آل الزبير وآل الزبير بشتم آل علي، فأخذ بنصيحتها، وجاء بالحسن بن الحسن بن علي وأوقفه في المسجد عند المنبر وأمره أن يسب آل الزبير فرفض الحسن وضرب حتى سال دمه، فقام عبد الله بن محمد بن علي (أبوه محمد بن

---

١) انظر الموطأ ٢٨٤.

٢) نسب قريش ٢٨٣.

الحنفية) وقال له: أنا دونه أكفيك أيها الأمير في آل الزبير وشتمهم(١)، وحبس بعض آل الزبير لذلك.

وعندما أرسل إليه عبد الملك أن يأخذوا البيعة لولديه الوليد وسليمان بالخلافة من بعده أخذها من الناس بسهولة، اذ أن أهل المدينة قد تعلموا من الدرس القاسي الذي لقوه أيام معاوية أن لايترددوا في إعطاء البيعة، لذا لم يتردد أحد من أهل المدينة بإعطاء البيعة غير التابعي الجليل سعيد بن المسيب، وكان سعيد أحد الذين امتنعوا عن إعطاء البيعة لابن الزبير من قبل، وضربه جابر بن الأسود ستين سوطاً، فالرجل صاحب رأي وموقف، لذلك عندما رأى هشام بن اسماعيل أن سعيد بن المسيب يماطل في إعطاء البيعة أمر بضربه ستين سوطاً وأن يطاف به في أنحاء المدينة ، فلم يزده ذلك إلا إصراراً على موقفه، واستعد لمواجهة الموت ثم في وضع في السجن، فلما بلغ عبد الملك ما أصابه كتب إلى هشام يلومه على ماصنعه بسعيد ويقول له: سعيد كان والله أحوج إلى أن تصل رحمه من أن تضربه، وإنا لنعلم ما عند سعيد شقاق ولاخلاف(٢).

أفاد أهل المدينة من هشام في الضبط الاداري، فقد كانت مدة امارته هادئة، استمر فيها الناس بأعمالهم اليومية وبطلب العلم، ولكن بعضهم حملوا في نفوسهم لقسوته على آل علي وعلى سعيد بن المسيب رضي الله عنهم جميعاً.

انتهت إمارة هشام بعد وفاة عبد الملك، وتولى الوليد بن عبد الملك الخلافة، فقد عزله الوليد وولى عمر بن عبد العزيز. وتروي بعض المصادر أن الوليد قد بلغه قسوة هشام على أهل المدينة فأمر أن يوقف للناس ليستوفي كل من ظلمه من ظلامته، وكان هشام يخاف من آل علي أن يقتصوا منه،

---

١) نسب قريش ٤٨.

٢) الطبقات ١٢٦/٥.

وبالذات من علي بن الحسين بن علي، وكان يقول: لا والله ما كان أحد من الناس أهم إلي من علي بن الحسين. ولكن علي بن الحسين كان مثال الرجل الزاهد العابد، والمحتسب ما يلاقيه عند الله، فعندما بلغه عزل هشام وإيقافه للناس جمع أبناءه وحاشيته وقال لهم: ان هذا الرجل قد عزل، وأُمر بوقفه للناس، فلا يتعرض له أحد منكم. فقال له ابنه عبد الله بن علي: يا أبت ولم؟ والله إن أثره عندنا لسيء، وما كنا نطلب إلا مثل هذا اليوم. فقال علي بن الحسين: نكله إلى الله. فلم يعرض له أحد من آل الحسين، فلما انتهى إيقافه رأى هشام علي بن الحسين ماراً فناداه معجباً بخلقه الرفيع (الله أعلم حيث يجعل رسالته)(١)وبانتهاء أيام هشام بن اسماعيل بدأت مرحلة جديدة في تاريخ المدينة المنورة ، مرحلة متميزة في الحقبة الأموية كلها، مرحلة إمارة عمر بن عبد العزيز وذلك سنة ٨٧ للهجرة.

المدينة في إمارة عمر بن عبد العزيز:

بدأ عمر بن عبد العزيز إمارته على المدينة بعمل تردد في أنحائها وهز الناس فيها، وجعلهم يدركون لأول وهلة أن هذا الأمير يختلف كل الاختلاف عن الأمراء الأمويين الذين سبقوه. فقد تناقل أهل المدينة أن أميرها الجديد عمر بن عبد العزيز قد وصل في قافلة من ثلاثين بعيراً تحمل أهله وحاجاته، ونزل دار مروان بن الحكم - دار الإمارة - وجاء الناس للسلام عليه، فلما صلى الظهر في المسجد النبوي وعاد إلى مجلسه، دعا عشرة من فقهاء المدينة، وخلا بهم وهم: عروة بن الزبير وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله بن عمر وأخوه عبيد الله وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد بن ثابت. ويمثل هؤلاء العشرة معظم قبائل المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار والموالى بما فيهم آل علي بن أبي طالب

---

١) الطبقات الكبرى ٥/٢٢٠.

وآل الزبير، وكان هذان الفرعان مغضوباً عليهما من قبل، وكان هشام بن إسماعيل قد آذاهما كما مر بنا قبل قليل. وعندما دخل أولئك العشرة على عمر بن عبد العزيز وسلّموا عليه تكلم عمر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال لهم: إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق، إني لاأريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم، أو برأي من حضر منكم. فان رأيتم أحداً يتعدى، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأحرج على من بلغه ذلك إلا أبلغني(١).

كانت كلمات عمر بن عبد العزيز مفاجأة كبيرة لمن حضر، ولمن سمع بها من أهل المدينة بعد ذلك، فلم يعهد أحد من قبل أن يأتي أمير أموي لناس من أهل المدينة فيستشيرهم على هذا النحو، وليسوا من عصبة الأمويين، ولم يعهد أحد من قبل أن يلتفت الأمير إلى الفقهاء بالذات، فهؤلاء أجرأ على قول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد كانوا دائماً بعيدين عن الصراعات السياسية، منشغلين بالعلم طلباً وتعليماً، ولايقولون في شيء إلا إذا استشيروا، لذلك من المدهش أن يتخذ الأمير منهم حاشيته وأن يجعلهم مستشاريه، ثم أن يحرج عليهم أن يكونوا كالمحتسبين يبلغون عن أي ظلم يقترفه موظف من موظفي الدولة في هذه الإمارة، فهم اذن سلطة مراقبة فضلا عن كونهم جهة استشارة مسموع رأيها. ثم إن هؤلاء العشرة يمثلون معظم العناصر السكانية في المدينة، ففيهم من آل علي من أبي طالب محمد بن القاسم، ومن آل الزبير عروة بن الزبير، ومن أبناء القرشيين المهاجرين أبنا عبد الله بن عمر بن الخطاب، ومن أبناء الأنصار خارجة بن زيد وسليمان بن خيثمة، ومن الموالي سليمان بن يسار. ولم يجتمع قط هذا التنوع والمشاركة في فئة استشارية لأمير من أمراء المدينة من قبل، ثم ان وجود ممثلين من الفرعين الهاشمي والزبيري يعني أن عمر يريد أن يطوي صفحة الغضب

---

١) البداية والنهاية ٧٦/٩.

والخوف والإهانة، ويجمع الناس على سيرة حميدة.

ولم يكتف عمر بهؤلاء، بل كان يرسل دائماً إلى سعيد بن المسيب التابعي الجليل يستفتيه ويأخذ برأيه، وكان يعرف عزلة سعيد وتجنبه مخالطة الأمراء، لذلك لم يطلب منه الحضور بل ذهب إليه بنفسه. ولئن دهش أهل المدينة لهذا التصرف العجيب للأمير الشاب فان الذين عرفوا عمر من قبل لم يدهشوا، ذلك أن عمر تلقى العلم من صغره في المسجد النبوي، فقد كان أبوه والياً على مصر فبعثه إلى أخواله في المدينة - وهم أحفاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه - ليدرس على فقهائها وليتربى في جوها العلمي الحافل، ووكل به الفقيه المحدث صالح بن كيسان، فأحسن صالح رعايته وتأديبه، وجعله يتلقى عن شيوخ القراءات والفقه والتفسير والحديث، فضلا عما كان يفيض به عليه من علم وأدب. وقد ظل عمر بن عبد العزيز في المدينة إلى أن توفي أبوه، فطلبه عمه مروان بن عبد الملك إلى دمشق وخلطه بأولاده، وزوجه ابنته فاطمة لما رآه من دينه وخلقه وعقله.

وما إن مات عبد الملك وتولى ابنه الوليد الخلافة، وبلغه مابلغه من شدة هشام، حتى عزل هشام وولى عمر بن عبد العزيز لما عرفه فيه من صفات. لذلك لم تكن المدينة وأهلها غريبة عن عمر، ولم يكن تقديمه للعلماء والفقهاء وجعلهم بطانته الأولى إلا من أثر تربيته في المدينة. ولقد هدأت النفوس في المدينة بولاية عمر، واجتمع إليه الهاشميون وكانوا يزورونه في مجلسه، وكان يجلس معهم في المسجد، كما اجتمع إليه الزبيريون والقرشيون والموالي الذين كثر عددهم في المدينة. وكان زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش المخزومي أحد المقربين عنده، وكان زياد هذا نموذجاً للتقوى والزهد وحسن

المعاشرة (١) ولاشك أن هذا التنوع قد كسر حدة العصبية الأموية والعربية التي كانت تشهدها إمارة المدينة في مجالسها السابقة.

بدأ عمر يهتم بأمور المدينة الإدارية كلها، وكان يذهب بنفسه إلى سوقها ويتفقد الحركة التجارية فيه، وقد ولى أمر السوق رجلاً من الفقهاء الكبار هو سليمان بن يسار، وهو من رصفاء سعيد بن المسيب في الفقه والعلم، وجعل له داراً قريبة منه ليأتيه أصحاب القضايا وليضبط فيها المكاييل والموازين. واهتم بشوارع المدينة وثناياها. وقد ساعده على ذلك أن الخليفة الذي ولاه مولع بالعمران والإصلاح، وقد حضه على إجراء أكبر قدر من الاصلاحات في المدينة، وأن يمهد الثنايا والمرتفعات في طريق الناس، وأن يجر الماء إلى الأحياء. فاشتغل عمر بذلك بنشاط فائق، واستنهض البناة والعملة، وكان يطوف عليهم بنفسه ويتفقد عملهم ويجزل لهم العطاء.

تجديـــد المسجد النبوي وتوســعته:

ولم تمض سنة على إمارة عمر بن عبد العزيز حتى جاءه أمر الخليفة الوليد باعادة بناء المسجد النبوي وتوسعته، وقد ساقت المصادر التاريخية عدداً من الروايات تبين سبب هذا الأمر، وتركز على ضم الحجرات إلى المسجد، وقد تخير السمهودي من هذه الروايات ما يدل على أن الوليد بن عبد الملك كان هدفه الأول من التوسعة ضم الحجرات إلى المسجد النبوي، ونزع بيت فاطمة من يد أحفاد علي رضي الله عنه، لأن الحسن بن الحسن بن علي كان يقيم فيه، وربما يأوي إليه من يغريه بالخروج على الخليفة(٢) غير أن القراءة المتفحصة للروايات تبين أن مرور الزمن قد أثر على بناء المسجد،

---

١) الطبقات الكبرى ٣٠٦/٥.

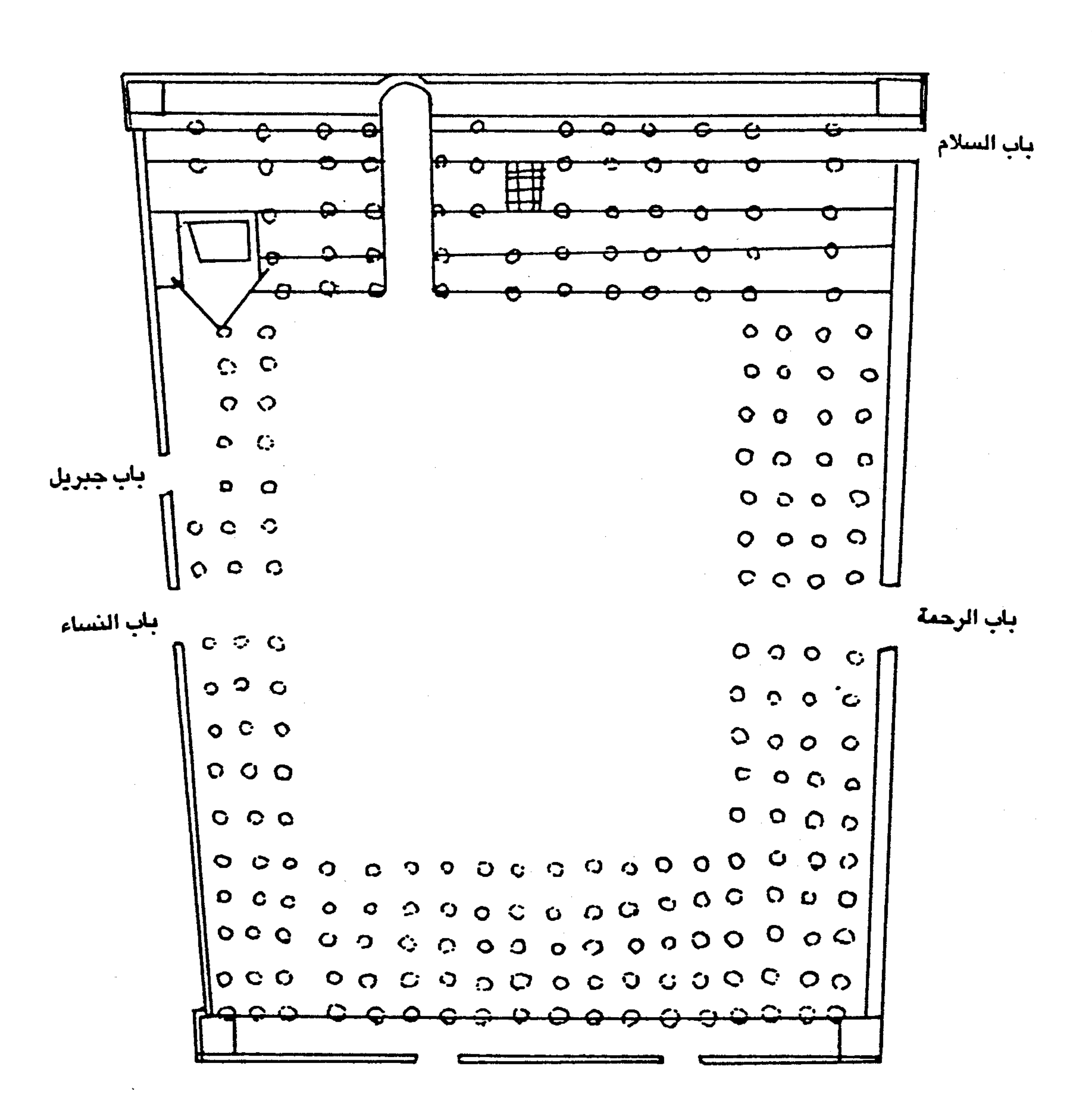
٢) انظر وفاء الوفاء ٥١٣/٢ ومحمد الوكيل ، المسجد النبوي عبر التاريخ ١١٣.

وأن الجدار القائم بجوار قبر رسول الله ﷺ قد سقط(١) والمعروف أن القبر كان في حجرة عائشة رضي الله عنها، وهي متصلة بالحجرات الأخريات بجدر متصلة، لذلك من المعقول جداً أن يكون سقوط هذا الجدار هو الذي دفع الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز إلى هدم الحجرات، التي بنيت قبل خمس وثمانين سنة، وضمها إلى المسجد. واهتمام الوليد بن عبد الملك بالعمران معروف في سيرته، حتى لقد سمي: مهندس بني أمية، ومن إنجازاته العمرانية: المسجد الأموي بدمشق ومسجد الصخرة في القدس. لذلك من كان فضل الله أن يجتمع اهتمام الوليد بالعمران وولاية عمر على المدينة في وقت واحد ليبدأ تجديد المسجد النبوي وتوسيعه.

ولما وصل البريد بأمر الخليفة بالتوسعة جمع عمر بن عبد العزيز أصحاب البيوت التي ستدخل في التوسعة، وقرأ عليهم رسالة الخليفة، وبين لهم فوائد التوسعة، فتنازلوا عن دورهم وأخذ بعضهم ثمن داره، ورفض بعضهم الآخر أخذ الثمن. وثمة روايات متضاربة تبين أن الفقهاء العشرة الذين كان عمر يستشيرهم نصحوا عمر بعدم إدخال الحجرات في المسجد وتركها لتكون عبرة للناس تعلمهم الزهد والتواضع، في زمن يتطاول الناس فيه بالبنيان، وأن عمر كتب الى الخليفة برأيهم فلم يرضه الخليفة، وأرسل يؤكد على ادخال الحجرات في المسجد، فتوجه عمر بن عبد العزيز مع مجموعة من حاشيته وبدأ مع العمال والفعلة بنقض البناء القديم والتأسيس للبناء الجديد، وولى أمر الإشراف على هذا العمل الجليل أستاذه صالح بن كيسان، ووصل إلى المدينة عدد من العمال الروميين الذين طلبهم الخليفة من الإمبراطور البيزنطي، وكانت العلاقات بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية حسنة، فأمد الإمبراطور البيزنطي الخليفة بمئة ألف مثقال ذهب ومئة عامل وأربعين حملا

---

١) انظر طبقات ابن سعد ٢/٣٠٧.



● المسجد النبوي بعد توسعة الوليد وإدخال الحجرات فيه عام ٨٨ ـ ٩١ هـ/ ٧٠٧ ـ ٧١٠ م

المصدر: المسجد النبوي عبر التاريخ

من الفسيفساء(١) كما استقدم الوليد عمالا قبطاً من مصر، لما عرف عنهم من شهرة في البناء. وبذل عمر في بناء المسجد النبوي جهوداً هائلة، وأنفق كل مايستطيع إنفاقه من مال، وعندما ارتفعت الجدران وبدأ العمل في السقف استحضر النقاشين المهرة، فأخذوا بتزيينه من الداخل وكسوته بالفسيفساء. وقد استمر العمل في المسجد ثلاث سنوات كاملة فلم يفرغ منه فراغاً كاملاً إلا سنة احدى وتسعين.

ولعل السبب في تأخر البناء كل هذه المدة اجتهاد عمر في أن يكون المسجد غاية في القوة والجمال. فقد عمل الأساس من الحجارة الصلبة وعمقه، ورفعت الجدران بأنواع من الحجارة المنقوشة المطابقة، وهذا النقش يستلزم قدراً من الوقت، وبنيت الأعمدة التي تدعم الجدران وتحمل السقف من حجارة ضخمة مجوفة وصب بداخلها الرصاص. أما السقف فصنع من الخشب الساج - وهو نوع من الخشب الصلب - وطلي بماء الذهب، وزين جانب من الجدران والسقف بالمرمر والفسيفساء. وكان عمر يراقب العمل يومياً، ويكافيء العمال المحسنين وبخاصة أولئك الذين يتفننون في صنع لوحات الفسيفساء فيعطي من يحسن عمل الشجرة الكبيرة ثلاثين درهماً مكافئة. وعندما وصل البناء إلى موضع الإمام استحدث عمر المحراب، ودعا وجوه المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار والعرب الآخرين والموالي ليحضروا بناء القبلة، فجعل لاينزع حجراً إلا وضع مكانه حجراً(٢) ثم أمر ببناء المقصورة وتزيينها وزخرفة سقفها. وقد أنفق عمر على جدار القبلة وحده خمسة وأربعين ألف دينار(٣).

وعندما انتهى البناء عزم الخليفة الوليد بن عبد الملك على الحج. فخرج عمر بن عبد العزيز في عشرين رجلا من قريش ليلاقوه في ظاهر المدينة.

---

١) الطبري ٦/٤٣٦.
٢) وفاء الوفاء ٢/٥٢٠.
٣) الطبري ٦/٤٣٥.

وكان أول مافعله الوليد حين وصوله المدينة التوجه الى المسجد النبوي لينظر في بنائه، وأخرج الناس منه ولم يبق فيه إلا التابعي الجليل سعيد بن المسيب الذي كان يلازم المسجد النبوي ولايجرؤ أحد على إخراجه، فطاف الوليد بالمسجد وأعجب بعمارته وأثنى على جهود عمر بن عبد العزيز، وود لو أنه أنفق المزيد على تزيينه ليكون مفخرة من مفاخر المسلمين في العمران. وكان الوليد قد أحضر في قافلته عطوراً ثمينة ليطيب بها المسجد، فوضع الطيب في أنحائه، وعلقت حبال في أحد أطرافه نشرت عليها كسوة جديدة للكعبة ليراها الناس، ثم طويت وحملت إلى مكة(١).

أغدق الوليد على أهل المدينة العطايا، ووزع عليهم قسطاً من غنائم الفتوحات التي توالت في عصره، فوزع عليهم من السبايا والرقيق وآنية الذهب والفضة والنقد شيئاً كثيراً لم يوزع مثله منذ عهد بعيد(٢)وكان أهل المدينة ينعمون برعاية عمر بن عبد العزيز وضبطه الأمور وحسن سياسته، وقد اكتتب عدد من شبابها في الجيوش المنطلقة للجهاد في بلاد الروم والترك، وبلغ ما خرج منها في حملة واحدة ألفا مجاهد، وكان بعضهم يفوز بالشهادة، وبعضهم يرجع بما أفاء الله عليه من الغنائم والعطاء. فعادت إلى المدينة نضارتها، وراجت التجارة فيها وانتشر البنيان، وكان الميسورون يبنون في العقيق قصوراً فخمة، ومن هم دون ذلك يبنون في أحياء المدينة وأطرافها بيوتاً كثيرة. وقد منع عمر بن عبد العزيز المراقبة التي كان يفرضها أسلافه على آل علي وآل الزبير ومن والاهم. وبلغ من عدالته أن والد زوجته ابراهيم بن محمد بن طلحة كان يجلس معه عندما يجلس للخصوم، فتعرض إبراهيم للخصوم بشيء فطلب عمر من زوجته أن تنهى أباها، فلما لم ينته وتكرر منه التعرض عدة مرات طلق عمر امرأته كي لايكون زواجه منها سبباً لشيء من

---

١) الطبري ٦/٤٦٧.

٢) الطبري ٦/٤٦٦.

الظلم(١)٠

المدينة بلدة الأمن والعدالة:

انتشرت الأخبار عن حالة المدينة هذه، فقصدها الكثيرون ممن يعيشون جواً مضطرباً أو شيئاً من الضغط، وبخاصة بعض العراقيين الذين كانوا يلقون عنتاً من الحجاج بن يوسف الثقفي، فأصبح الخائف والقلق والكاره لحكم الحجاج يرحل إلى المدينة، فيجد فيها السكينة والطمأنينة. فيقيم فيها بعضهم، وينتجع آخرون الطائف أو مكة. وسرعان ماتجمع في المدينة ومدن الحجاز الآخرى عدد من اللاجئين العراقين وبعضهم ممن يطلبه الحجاج، والتقى بعضهم بعمر بن عبد العزيز وشكوا إليه مايجدونه من شدة الحجاج وتضيقه عليهم دون وجه حق، فكتب عمر بن عبد العزيز بذلك إلى الوليد بن عبد الملك، واقترح عليه أن يعزل الحجاج أو يأخذ على يده.

وبقدر ماكان هذا اللجوء إلى المدينة شهادة لعمر بن عبد العزيز بحسن سياسته فيها وللمدينة بالأمن والعدالة، كان بداية لتغير الخليفة على واليه، فعلى الرغم من ثقة الوليد الكبيرة بعمر بن عبد العزيز نجحت الرسائل التي أرسلها الحجاج إليه، والتي يحتج فيها على حماية عمر بن عبد العزيز للخارجين عليه، نجحت في إثارة الخليفة ، وقد وصف الحجاج اللاجئين إلى المدينة بأنهم (من مراق أهل العراق، وأهل الشقاق) وزعم أن هذا الأمر يوهن الدولة ويجرىء الناس عليها(٢) وما لبثت أن جدت حادثتان كانتا السبب في نهاية هذه الفترة العمرية من حياة المدينة المنورة٠

الحادثة الأولى : أراد الخليفة الوليد أن ينزع أخاه سليمان من ولاية العهد ويعطيها لابنه عبد العزيز، فأرسل يشاور ولاته في الأمصار ويتحسس مدى استجابتهم لذلك وإمكانية أخذهم البيعة من الناس. فاستجاب له عدد من

---

١) نسب قريش ٢٨٦.

٢) الطبري ٦/٤٨٢.

الولاة، ورفض عمر بن عبد العزيز ذلك وكتب للخليفة: إن في عنقنا بيعة لسليمان (وهي من زمن عبد الملك بن مروان) فلا يجوز أن نخلعها، فغضب الوليد لذلك(١).

أما الحادثة الثانية: فقد بلغ الخليفة أن خبيب بن عبد الله بن الزبير يشيع في الناس حديثاً عن رسول الله ﷺ يقول (اذا بلغ بنو العاص ثلاثين رجلاً جعلوا عباد الله خولاً ومال الله دولاً)(٢) فالحديث يسم الأمويين بالظلم والقسوة والتعسف، ويثير الناس عليهم، فغضب الوليد بن عبد الملك وظن أن الحديث موضوع للكيد بالأمويين وتأليب المسلمين ضدهم، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بمعاقبة خبيب عقوبة شديدة، ولم يكن عمر يملك إلا أن ينفذ الأمر، فأمر بضربه وإقامته، ويبدو أن الموكل بالضرب اشتد عليه ثم صب عليه الماء وأقامه، وكان الجو بارداً ولم يكن خبيب شاباً، فلم يتحمل هذه العقوبة ومات في اليوم الثاني، فامتلأت نفس عمر بالألم والحسرة، وشعر أنه السبب في موته، وتحول هذا الشعور الى عقدة لازمته طيلة حياته، حتى إنه عندما احتضر كان يقول: فكيف بخبيب(٣) ويرى بعض المؤرخين أن عمر بن عبد العزيز استقال من الإمارة لهذا السبب(٤) بينما يقرر الطبري أن الوليد هو الذي أقاله بسبب شكاوي الحجاج عليه لايوائه الفارين من العراق وحمايته لهم(٥).

وسواء كان السبب هذا أو ذاك، أو كانا معاً، فان المدينة المنورة قد

---

١) تاريخ الخلفاء ٢٦٠.

٢) نقل ابن كثير الحديث بروايات آخرى مشابهة، ووصفها بالضعف، كما أشار إلى أحاديث مشابهة مكذوبة ولم يروها. انظر البداية و النهاية ٢٤٨/٦ و٢٦١/٨.

٣) انظر نسب قريش ٢٤٠.

٤) محمود شاكر:التاريخ الاسلامي ٢١٨/٤.

٥) الطبري ٤٨١/٦.

فقدت في شعبان سنة ٩٣هـ والياً عادلا رحيماً، أحسن السيرة في الناس، وأوقف الضغائن السياسية لمدة ست سنوات وبضعة أشهر، وقد وُدِّع عمر بن عبد العزيز وداعاً عاطفياً حاراً فخرج منها قبل أن يصل إليها الأمير الجديد الذي عينه الخليفة مكانه (عثمان بن حيان) واستخلف عليها محمد بن عمرو بن حزم الذي عرف بقضائه العادل وحكمته الكبيرة، وعندما وقف على مشارفها بكى بكاء شديداً لفراقها، ثم قصد السويداء فأقام فيها بعض الوقت وهو يقول: إني أخاف أن أكون ممن نفتهم المدينة. يعني بذلك قول رسول الله ﷺ: المدينة تنفي خبثها(١)، وما كان عمر من الخبث في شيء، فقد ظلت المدينة تذكره بالخير وبخاصة بعد أن جاءها أمير جديد يختلف عنه اختلافاً كبيراً.

المدينة في إمارة عثمان بن حيان:

مكثت المدينة شهرين تنتظر قدوم الأمير الجديد، والمتوكل عليها محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، ولكنه لايملك من أمر الإمارة الحقيقية شيئاً، حتى إذا ماقارب رمضان على النهاية وبقي لشوال ليلتان وصل الأمير الجديد عثمان بن حيان المري.

كان عثمان رجلاً من أهل الشام، خدم الأمويين وشارك في غزوات كثيرة في أرض الروم ، لذا كان أقرب إلى الروح العسكرية، وقد عين أميراً على المدينة لينفذ أوامر محددة لم يكن عمر بن عبد العزيز لينفذها. هذه الأوامر هي إعادة ضبط المدينة على النحو الذي كانت عليه قبل عمر بن عبد العزيز، وإلغاء الحرية السياسية التي أوجدها عمر، ومطاردة كل من خرج من العراق هارباً من الحجاج، والقبض على من يطلبهم الحجاج. وقد سارع عثمان لتنفيذ المهمة التي أوكلت إليه بدقة. فأمر شرطته بمراقبة اللاجئين إلى المدينة وإخباره عنهم، حتى إذا اجتمعت لديه معلومات وافرة، وعرف الذين يطلبهم

---

١) انظر الكامل ١٢٩/٤.

الحجاج والذين يتهمهم، أمر بالقبض عليهم، فقبضت الشرطة عليهم جميعا، حتى التجار الذين قدموا المدينة ببضائعهم من العراق قبض عليهم، ووضعوا جميعا في الأغلال وسجنوا ثم رحلوا عن المدينة، أما الذين وردت أسماؤهم في طلب الحجاج فأرسلوا مصفدين اليه، وأما الذين لم ترد أسماؤهم فأطلقوا خارج المدينة وهددوا ان عادوا للإقامة فيها(١) وسار المنادي في شوارع المدينة وأسواقها: برئت الذمة ممن آوى عراقياً.

وبدأت ملامح الشدة في جميع تصرفات الأمير الجديد، في الأسواق، وفي الشوارع، وفي الخصومات التي ترفع إليه، وفي مراقبة القادمين إلى المدينة للزيارة أو للتجارة، وكان رجال الإمارة يتحققون من شخصياتهم ويحددون للتجار مدة إقامتهم بعد بيع بضائعهم، وما لبث الأمير أن خطب في الناس مهدداً متوعدا، فأعاد على أهل المدينة ما كانوا يسمعونه من عبارات قاسية وإتهام بالفتنة والشقاق، واشتد عليهم في قضية أهل العراق وأقسم: والله لاأوتى بأحد آوى أحدا منهم، أو أكراه منزلاً، أو أنزله، الا هدمت منزله، وأنزلت به ماهو أهله، (٢) وأنذرهم أنه سيبث العيون والجواسيس في المجالس، وحذرهم من الخوض في عيوب الولاة، فهي بداية الفتنة ((فإني قد بعثت في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم، إنكم في فضول كلام غيره ألزم لكم فدعوا عيب الولاة، فإن الأمر إنما ينقض شيئاً فشيئاً حتى تكون الفتنة)) وأحس الناس أن الأمر انقلب إلى تخويف جدي، ورأو بأعينهم كيف يعذب من ورد اسمه في المطلوبين للعراق(٣)، فسكتوا على مرارة، فليسوا أهل الفتنة الذين يستحقون هذه القسوة.

وازدادت الغمة على أهل المدينة عندما بدأو يفقدون فقهاءهم الكبار،

---

١) الطبري ٤٨٦/٦

٢) الطبري ٤٨٥/٦.

٣) الطبري ٤٨٦/٦ -.

الذين كان لهم فضل تمحيص كثير من القضايا والاجتهاد فيها، والذين عمرو المسجد النبوي بدروسهم، وأخذ عنهم الكثيرون ورحل إليهم الكثيرون، ففي أول سنة أربع وتسعين توفي علي بن الحسين الذي كان يلقب بزين العابدين رضي الله عنه.. والذي كان حمامة سلام دائماً، يرفض الفتنة ويعتزلها ويكثر الصلاة والذكر، ثم تبعه عروة بن الزبير الفقيه الأديب، فسعيد بن المسيب التابعي الجليل، ثم أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، حتى لقد سميت هذه السنة بسنة الفقهاء، وازدادت الغمة عندما تواردت الأخبار بأن الحجاج قتل سعيد بن جبير رضي الله عنه في الكوفة، وسعيد بن جبير أحد أبناء المدينة البررة، وأحد ملازمي المسجد النبوي والمحدثين فيه، خرج غازيا مع من خرج من المدينة في جيش عبد الرحمن بن الأشعث ثم حصلت الفتنة في الجيش، وخلع ابن الأشعث ومعظم من معه طاعة الحجاج، ودارت معارك طاحنة هزم فيها جيش ابن الأشعث وهرب سعيد، وتعقبته كتب الحجاج الى الولاة حتى ظفروا به في مكة ، وأرسل مصفدا إلى الكوفة حيث قتل في مجلس الحجاج(١).

ومرت السنة الثالثة على ولاية عثمان بن حيان والمدينة لاتجد جديداً في سياسته، حتى ألف الناس ألا يتكلموا شيئاً في الوالي أو الخليفة مخافة أن يوشى بهم فيعاقبوا، واشتغل كلٌّ بأموره، وتحسنت أحوال التجارة والزراعة، ونعم المصلون في المسجد النبوي بالمياه التي جرت إليه، والفوارة التي وضعت في ساحته الخارجية، ولم يكن حول الأمير إلا الجلساء الذين اعتادوا مجالسته، والعاملون في الوظائف وأصحاب القضايا، ولم يكن كبار الموظفين يأمنون عقوبة عثمان، وكان يسمع ما يقوله بعضهم في بعض ولو كان كيداً أو حسداً.

---

١) الطبري ٦/٤٨٧-٤٩١

موافقة عجيبة:

ومن عجيب الموافقات أن محمد بن عمرو بن حزم الذي كان متوليا القضاء استأذن الأمير في أوائل العشر الأخير من رمضان عام ٩٦ للهجرة في أن يغيب ذاك اليوم عن عمله لينام، كي يستطيع أن يقوم ليلة الحادي والعشرين، فأذن له، وكان في مجلسه رجل من قريش بينه وبين محمد بن عمرو مشاحنة، فحاول أن يوغر صدر الأمير عليه واتهمه بأنه إنما طلب الإذن وادعى الرغبة في القيام رياء ليقال عنه إنه متعبد، فتأثر بذلك الأمير وآلى على نفسه أن يجلد ابن حزم مئة جلدة ويحلق رأسه ولحيته، ويشاء الله ألا تمضي تلك الليلة حتى يصل البريد من دمشق، يحمل خبر وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك، وتولي الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك، ويحمل أمراً من الخليفة الجديد بعزل عثمان بن حيان عن الإمارة ومعاقبته لقسوته على أهل المدينة، وتولية محمد بن عمرو بن حزم الإمارة مكانه.

وطلع صباح الثاني والعشرين من رمضان سنة ست وتسعين بعكس ما كان ينويه عثمان بن حيان، فإذا بعثمان مقيد بالحديد، وإذا بمحمد بن عمرو بن حزم على سرير الإمارة ينفذ أمر الخليفة، ويأمر شرطته أن يضربوا الأمير الذي قسا على أهل المدينة وبث بينهم العيون وعاقب الكثيرين على ما يأتيه به مخبروه.

المدينة في إمارة محمد بن حزم : أيام عمرية أخرى:

كان محمد بن حزم رجلاً من أهل المدينة، ولعله أول من يتولاها من أبناء الأنصار، وكان تلميذ الفقهاء الكبار في المسجد النبوي، وما لبث أن تصدر للحديث والفتيا، وقد أعجب به عمر بن عبد العزيز منذ أن كان يدرس معه في حلقات المسجد، فلما تولى عمر إمارة المدينة ولاه قضاءها، وثبّته الوليد بن عبد الملك، فلما جاء عثمان بن حيان كان لمحمد بن عمرو بن حزم شهرة بين الناس لذا لم يعمل على عزله.

سعى محمد بن عمرو بن حزم لاعادة أمور المدينة الى ما كانت عليه أيام عمر بن عبد العزيز، لا سيما وأن الحَجّاج قد مات، وأن العراقيين لم يعودوا يفرون إلى المدينة، وأن القادمين إليها تجارة أو زيارة أو إقامة وجواراً كانوا من طلاب العلم والمتعبدين، لذلك أوقف الاجراءات التي اتخذها عثمان ورفع المراقبة وسار بالناس هوناً وليناً. ولم ير عليه سيف قط، مع أن الأمراء كانت لاتصعد المنبر للخطابة إلا وهي تلبس السيف (١) فحمد أهل المدينة سيرته، واستقامت أمورهم، واكتتب عدد من شبابهم في كتائب الجهاد التي توجهت إلى أرض الروم وأرمينية وجرجان وطبرستان، ونشطت الحركة العلمية ثانية في المسجد النبوي بعد أن ظهر تلاميذ الفقهاء السابقين، وبدأت حركة جمع الحديث الشريف وتدوينه، وقصد المدينة فقهاء ومحدثون من الكوفة والبصرة والشام يطلبون أخبار رسول الله ﷺ والصحابة الكرام، وظهرت أثار الحركة العلمية في مجلس الأمير، الذي كان بالأمس يستند إلى سارية المسجد ليحدث ويفتي، ثم ليقضي بين الناس.

وزاد من سكينة المدينة ونمائها في أيام هذا الأمير تولي عمر بن عبد العزيز الخلافة عام ٩٩ للهجرة، الذي أقر محمد بن عمرو بن حزم على امارة المدينة، وأقر عدداً من الأنظمة التي عادت على المدينة وعلى أمصار الدولة الإسلامية كافة بالخير العميم، فقد أمر أن تصرف الواردات المالية في المدينة المنورة على تحسين المدينة، وأن توزع الزكاة والصدقات على فقرائها لا يخرج منها شيء، وكان يرسل الرسائل المتوالية يطلب من الأمير أن يستعلم له عن أمر من أمور السيرة أو الحديث، ولعل أكثر ما ارتاحت له المدينة وأهلها أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بعدم لعن علي بن أبي طالب على المنبر، ومنع التعرض لأحد من آله، وبافشاء الأمن والعدالة بين الناس وإعطائهم حقوقهم في كل شيء، وهو ما كان قد طبقه حينما كان أميراً

---

١) طبقات ابن سعد،القسم المتمم ١٢٦ -.

للمدينة، فنعمت المدينة بخلافة عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين وولاية محمد بن عمرو بن حزم الرجل الفقيه المحدث، ونعم أهلها جميعاً بالطمأنينة والعدل.

المدينة تعود الى أيام الشدة:

في آخر رجب سنة ١٠١هـ توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز، وتولى الخلافة بعده يزيد بن عبد الملك، وكان يزيد مختلفا عن سلفه، فعمل على إلغاء التغييرات التي أحدثها عمر بن عبد العزيز، وأعاد السياسة التي كان عليها عبد الملك، وأمر بعزل محمد بن عمرو بن حزم وتولية عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري وبمحاسبة محمد بن عمرو ومعاقبته إن وجد عليه ما يستحق العقوبة، وعزل قاضيه أبو طواله عبد الرحمن بن معمر بن حزم - وكان قريبه - وعين الضحاك قاضياً جديداً هو عبد الرحمن بن سلمة المخزومي، وأمره بمحاسبة محمد بن عمرو بن حزم، فحاسبه واستقصى أخباره ونادى في الناس من له ظلامة أو شكوى عليه، فلم يتقدم أحد، ولم يتهمه أحد بشيء، فعاد إلى حلقته في المسجد وعاد إلى علمه . وبدأت أيام الضحاك، أو أيام الأمويين الثانية.

كان عبد الرحمن بن الضحاك قرشي الأصل ، وكان أبوه من أخلص الرجال لمعاوية في صفين وصاحب شرطته، حتى إنه جعله على وصيته، غير أن الضحاك اختلف مع مروان بن الحكم وخرج عليه ودعا لنفسه فقتله مروان في مرج راهط. ولكن أبناء مروان تألفوا أبناء الضحاك ولم ينسوا خدمة أبيهم للبيت الأموي، ولما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة جعل عبد الرحمن

الضحاك أمير المدينة المنورة، ثم مالبث أن ضم إليه مكة(١) وكان عبد الرحمن فتى شاباً شديد الإخلاص للأمويين، لذلك سرعان ما أعاد سياسة سلفه الأسبق عثمان بن حيان المري، فشدد الرقابة على الهاشميين، وبث العيون في المجالس والأسواق، وراقب التجار القادمين وبخاصة العراقيين الذين يتطلعون إلى آل البيت.

كان لشباب عبد الرحمن بن الضحاك أثر في تصرفاته في الإمارة، فقد أظهر شيئاً من الفتوة والإعجاب بالنفس والتفرد بالرأي، ولم يطع ناصحيه في الاحسان إلى أهل المدينة، ولاسيما أبناء الأنصار، ولم يحسن انتقاء حاشيته منهم، وكان قريبه ابن شهاب الزهري قد لقيه بدمشق عندما علم بتوليه الإمارة، فحادثه طويلاً وأوصاه بأهل المدينة خيراً، وابن شهاب تابعي من أهل المدينة نزل الشام، وكان مما قاله له: إنك تقدم على قومك وهم ينكرون كل شيء خالف فعلهم، فالزم ما أجمعوا عليه، وشاور القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله فانهما لا يألوانك رشداً(٢) فلم يأخذ بوصية الزهري، وأظهر الجفاء لأبناء الأنصار واشتد عليهم.

لم يظهر من أهل المدينة ما يستدعي شدة ابن الضحاك، وكان الهاشميون بعد وفاة علي بن الحسين منهمكين في دروس العلم وفي مزارعهم وأعمالهم الخاصة، ولم يكن أحد يخرج على الطاعة في شيء، بل كانوا يبذلون من الطاعة مثل مايبذله أبناء المدن الآخرى في الشام ومصر، وعندما بعث الخليفة يزيد بن عبد الملك إلى الأمصار يطلب مدداً من الرجال لمقاتلة يزيد بن المهلب الذي خرج عليه في خرسان تطوع عدد من شباب المدينة للمشاركة في الجيش وشكلوا مع متطوعي الكوفة (ربعاً) تولى قيادته عبد الله بن سفيان بن يزيد بن المفضل الأزدي، وقاتلوا قتالاً شديداً حتى انتصر جيش الخليفة وقتل يزيد

---

١) الطبري ٥٣٥/٥.

٢) الطبري ١٤/٧.

بن المهلب.

ولكن عبد الرحمن بن الضحاك لم يغير سياسته في أهل المدينة، حتى ضجّ الكثيرون منهم، وتكلم فيه الشعراء وذموا شدته وإعراضه، وقد بدت قسوة عبد الرحمن بن الضحاك وتحيزه في الحادثة التي تناقلتها كتب التاريخ عن ضربه محمد بن عمرو بن حزم سلفه في إمارة المدينة، وقد تقدم أن عبد الرحمن حاول أن يوقع بابن حزم منذ وصوله، وأمر قاضيه أن يحقق معه في تصرفاته وأموال الإمارة فلم يثبت عليه شيء. ويذكر الطبري أن ابن الضحاك ظل يتربص بابن حزم ليوقع به فلم يظفر بشيء يعاقبه عليه(١).

وحدث أن ذهب عثمان بن حيان المري - أمير المدينة قبل محمد بن حزم - إلى يزيد بن عبد الملك وادعى لديه أن ابن حزم قد ضربه حدين ظلماً، وطلب أن يقتص له منه، وكان ابن حيان مقرباً عند يزيد، فحاول أن يعوضه عن ذلك بولاية المدينة ولكن ابن حيان رفض الولاية لأنه لايستطيع أن يضرب ابن حزم وهو أمير دون مسوغ، وألح على يزيد أن يكتب إلى ابن الضحاك ليقيده منه. فكتب يزيد رسالة يطلب فيها من ابن الضحاك أن يحقق في إدعاء عثمان بن حيان، فإن ثبت أنه مظلوم فليقتص له، وإن ثبت أنه ضرب بحق أو بقضية فيها خلاف، فلا يقتص له. وجاء عثمان إلى ابن الضحاك بالرسالة ورجاه أن ينتقم له، فما كان من ابن الضحاك إلا أن استدعى محمد بن عمرو بن حزم وضربه حدين انتقاماً لعثمان دون أن يحقق معه أو يسأله عن حقيقة القضية، وكأنه وجد في إدعاء عثمان بن حيان فرصة للنيل من ابن حزم لم يجدها من قبل، ولم يلتفت ابن الضحاك إلى ما أوصاه به الخليفة من التحقيق في القضية. وقد بلغ هذا الأمر يزيد بن عبد الملك فأحفظه على الضحاك، وكذلك بلغته شكاوى الناس والشعر الذي قيل في ذم الضحاك، فاجتمع ذلك كله في نفسه، وتفجر عندما وصلته شكوى من فاطمة بنت الحسين رضي الله

---

١) السابق ٦/٥٧٤

عنها.

ذلك أن ابن الضحاك الذي شدد على الهاشميين، بدا له أن يتزوج إحدى نسائهم، فأرسل يخطب فاطمة بنت الحسين، وكانت أرملة الحسن بن الحسن بن علي، ولم تكن صغيرة السن، فابنها عبد الله بن الحسن قد بلغ سن الشباب، فاعتذرت فاطمة بأنها قد تفرغت لأبنائها ولا تريد الزواج، ولكن ابن الضحاك ألح في الطلب، فخافت فاطمة وتوجست منه الشر، فأخذت تتعلل له بعلل شتى، وأصر ابن الضحاك وأرسل يهددها بأنه سيجلد ابنها عبد الله بتهمة شرب الخمر إن لم توافق على الزواج منه، فبلغ الغيظ مبلغه في نفسها. وجاءها المسؤول عن ديوان المدينة (ابن هرمز)، وهو رجل من أهل الشام، يودعها قبل سفره إلى الخليفة لتقديم حساباته الدورية، وسألها إن كان لها حاجة في الشام، فأخبرته بما تلاقيه من ابن الضحاك، وطلبت منه أن يبلغ شكواها للخليفة، ولن تكتف فاطمة بذلك، بل كتبت رسالة إلى الخليفة حدثته فيها عن همومها من ابن الضحاك، وسألته بحق القرابة والرحم أن يحميها من ظلمه، وأرسلتها مع رسول خاص.

وما لبث الرسول أن وصل إلى يزيد بن عبد الملك وعنده ابن هرمز لم يحدثه بعد بشكوى فاطمة، فلما سمع ابن هرمز بقدوم الرسول سارع فنقل إلى الخليفة شكوى فاطمة، وقرأ يزيد الرسالة فاشتد غضبه، وزحف من على سريره، وأمسك بخيزرانته وجعل يضرب بها على يده ويقول: لقد اجترأ ابن الضحاك، هل من رجل يسمعني صوته من العذاب وأنا على فراشي. واستشار من حوله فأشاروا عليه بواليه على الطائف عبد الواحد بن عبد الله بن بشر النضري، فدعا بقرطاس وكتب بيده: سلام عليك ، أما بعد، فاني قد وليتك المدينة، فإذا جاءك كتابي هذا فاهبط، واعزل عنها ابن الضحاك، وأغرمه

أربعين ألف دينار وعذبه، حتى أسمع صوته وأنا على فراشي، والسلام(١).

وخرج البريد بخطاب الخليفة إلى الطائف، ويبدو أن عيون ابن الضحاك قد أوصلوا إليه أن فاطمة بنت الحسين قد أرسلت رسولا إلى الشام، فدس من يستحكي فاطمة وأولادها ليعلم أمر الرسالة فلم يفز بشيء فبدأ القلق يساوره. ولما وصل البريد إلى المدينة لم يجد في رسائله شيئاً يخصه وعلم أنه يحمل رسائل الى جهات آخرى، فحاول أن يعرف الوجهة التي يمضي إليها، ورشى صاحب البريد بألف دينار فأخبره صاحب البريد بالرسالة التي يحملها إلى أمير الطائف فيها أمر الخليفة بتوليته على المدينة وعزل ابن الضحاك، فارتاع ابن الضحاك وحاول أن يستدرك الأمر، فانتظر حتى يغادر البريد المدينة، ثم خرج مسرعاً إلى الشام، فنزل عند مسلمة بن عبد الملك شقيق الخليفة يزيد واستجار به، ورجاه أن يطلب له العفو من الخليفة، فسعى مسلمة إلى يزيد بذلك، وكان الغضب بلغ من يزيد مبلغه، فرفض شفاعة مسلمة، واضطر مسلمة أن يتخلى عن ابن الضحاك وأن يرده إلى المدينة. فعاد عبد الرحمن بن الضحاك الى المدينة قبل أن يصل أميرها الجديد عبد الواحد بن عبد الله بن بشر النضري وهو لايدري ماسيلاقيه على يد الأمير الجديد من عذاب وهوان.

نهاية قاسية للأمير القاسي:

وجاء عبد الواحد النضري الأمير الجديد للمدينة في منتصف شوال سنة مئة وأربع للهجرة، ونزل دار الإمارة، وأمر الشرطة بتقييد عبد الرحمن بن الضحاك وإهانته، ثم وكل به من يحاسبه حساباً شديداً، وصادر أمواله ليستوفي الأربعين ألف دينار التي أمر الخليفة أن يغرمها، وجلده أمام الناس وطيف به في أنحاء المدينة لابساً ثوباً من صوف خشن ثم سجن مدة ثم أطلق. فذل ابن الضحاك ذلا شديداً وتشفى منه كل صاحب ظلامة. فكان يسير

---

١) الطبري ١٣/٧.

في أحياء المدينة ذليلا فقيراً جزاءً وفاقاً بما قدم وظلم.

الأمــير المترفق:

وبقدر ما أبداه عبد الواحد بن عبد الله النضري من شدة في حساب عبد الرحمن بن الضحاك، أبدى ليناً ومودة لأهل المدينة جميعاً، وزار فاطمة بنت الحسين واعتذر لها، واستزار محمد بن عمرو بن حزم والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ووجوه التابعين فيها، وأكرمهم وطلب منهم المشورة والعون، وأوقف مراقبة آل علي، والتجسس على الناس، وألغى كل ما جاء به ابن الضحاك من قسوة وشده، فأحس أهل المدينة أن الله سبحانه وتعالى فرّج عليهم وساق إليهم أميراً يحسن السيرة فيهم بعد ثلاث سنوات من القسوة والشدة.

اتخذ عبد الواحد المدينة مقراً لإمارته الواسعة، إذ أنه كان والياً على الطائف ومكة وضمت إليه المدينة، فأناب عنه في كل من مكة والطائف وجعل يستخبر أخبارها ويزورها قليلا. وفي نهاية العام قاد الحجيج في موسم الحج وتفقد الأمور في مكة، وكذا في الطائف ، ثم عاد إلى المدينة وجعل حاشيته من خيار أهلها، وأكثر من مجالستهم واستشارتهم، وصرف الأموال في إصلاح أمور المدينة والعناية بطرقها وسوقها وفقرائها، فدخل إلى قلوب أهل المدينة حتى قال المؤرخون: لم يقدم عليهم وال أحب إليهم منه(١) غير أن ولايته لم تطل سوى سنة وثمانية أشهر، فقد مات يزيد بن عبد الملك وتولى الخلافة أخوه هشام بن عبد الملك في أواخر شعبان عام ١٠٥ للهجرة. فأقر عبد الواحد على إمارته أول الأمر، ولكن خال الخليفة إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي رغب في عمل يتولاه، فسعى لذلك عند ابن أخته فلم ير ما يكرمه به خيراً من أن يوليه ما كان أبوه قد تولاه من قبل، إمارة المدينة المنورة، فكتب له بريداً بذلك. فخرج إبراهيم في قافلته وقدم المدينة

---

١) الطبري ٧/١٤.

في منتصف جمادى الآخرة عام مئة وسته للهجرة، وتسلم الإمارة من عبد الواحد بن عبد الله دونما إثارة أو حساسية، فلم يكن عزل عبد الواحد لخطأ ارتكبه ولم يكن في سيرته ما يستدعي عقوبته.

اعتزل عبد الواحد بين الناس معززاً مكرماً وبدأت ولاية ابراهيم بن هشام، الرجل الذى عرفته المدينة صغيراً أيام إمارة أبيه قبل ثلاث وعشرين سنة.

المدينة في إمارة إبراهيم بن هشام:

أعقب الأمير الشفيق اللين الجانب أمير فيه شدة وقسوة، فعبد الواحد الذي أحبته المدينة كان لين الجانب عطوفاً، أما إبراهيم بن هشام فكانت فيه شدة وصرامة، بدت بوادرها في موقفه من آل الزبير، فقد عاد إلى التشديد عليهم وصادر بعض أراضي عبد الله بن عروة وأخيه يحيى بن عروة، وكان عبد الملك بن مروان قد صادر أموال الزبيريين بعد مقتل عبد الله بن الزبير، ثم رد أموال من لم يشترك معه في حرب الأمويين(١) ويبدو أن تصرف إبراهيم بن هشام كان لأسباب شخصية، كما أن إبراهيم استفاد من منصبه في تملك بعض الأراضي في المدينة ، شمالا وجنوباً، واستعمل فيها العبيد والموالي وزرعها واستثمرها.

وأقبل موسم الحج، وجاء الخبر من دمشق بأن الخليفة سيحج بالناس هذا العام، فخرج وجوه أهل المدينة مع أميرها لاستقباله في ظاهر المدينة، وسعى الأمويون، وبخاصة أحفاد عثمان بن عفان رضي الله عنه لتعزيز مراكزهم وأموالهم فيها.

نزل الخليفة بدار الإمارة واستقبل أهل المدينة، وجاءه آل الزبير يشكون شدة الأمير عليهم ومصادرة بعض أموالهم، وكان عبد الله بن عروة بن الزبير جريئاً فوقف يقول للخليفة: أخذ إبراهيم بن هشام ما بين منابت الزيتون إلى

---

١) أنظر نسب قريش ١٤٧.

منابت القرظ، فلم يغنه كثير ما بيديه عن قليل ما في أيدينا، وإنا والله ما طبنا نفساً عن فراق الأحبة إلا بما تُرك لنا من معايشنا، وقد أعطيتمونا عهدكم وأعطيناكم طاعتنا، فإما وفيتم لنا بما أعطيتمونا وإما رددتم علينا بيعتنا، وإني أعيذك بالله أن تصل رحمنا بقطيعةٍ آخرى(١) فتأثر هشام بقوله وأمر برفع الظلم عن آل الزبير.

أما آل علي بن أبي طالب رصفاء آل الزبير في الاضطهاد والتضيق عادة، فلم يضيق عليهم إبراهيم بن هشام بشيء. وربما كانت العقوبة التي لقيها عبد الرحمن بن الضحاك قبل سنتين عبرة لمن بعده من الأمراء في العهد الأموي، اذ لم يجدوا ما يضيق عليهم ثانية. وقد حاول بعض الأمويين المقيمين في المدينة أن يستثيروا الخليفة هشام بن عبد الملك عليهم، فلم يفلحوا، وجاءه سعيد بن عبد الله بن عثمان بن عفان فاحتفى به هشام. ولما سأله سعيد أن يلعن علياً في المدينة أو يأمر باعادة اللعن الذي أبطله عمر بن عبد العزيز، رفض هشام وأعرض عنه(٢).

ولكن الخليفة هشام بن عبد الملك لم يغادر المدينة قبل أن يترك فيها أثراً يذكره به الناس، فعندما قفل من حجه ومر بها توفي سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، صلى عليه هشام وسار في جنازته إلى البقيع ورأى الجموع الحاشدة من أهل المدينة، الذين خرجوا لتشييع فقيدهم الكبير، فلما عاد إلى الامارة أمر بتجنيد أربعة الآف من أهل المدينة في الجيوش المتجهة إلى الثغور، وكان الاكتتاب في الجهاد قبل ذلك طوعياً، وكان كثير من شباب المدينة ينخرطون فيه، فلما فرض عليهم هذا العدد لم يعد الأمر مجرد تطوع، واضطر للخروج من لم يكن راغباً في الخروج، وسموا عامهم ذاك عام الأربعة الاف، وكان لهذا الخروج نتائج ايجابية، فقد أبلى

---

١) نسب قريش ٢٤٦.

٢) الطبري ٧/٣٦.

المجاهدون بلاء حسناً في قتال الترك وغنموا غنائم وافرة، وسر الخليفة منهم، وفرض لأهل المدينة عطاءَ وافراً في تلك السنة يوزع عليهم من الفيء الذي غنمه المجاهدون، وعندما وزع الفيء على الأمصار التي شارك أبناؤها في الجهاد كان نصيب أهل المدينة أقل مما أمر به الخليفة، فاحتار إبراهيم بن هشام ماذا يفعل، وكتب بذلك للخليفة، فأمر الخليفة أن يستكمل عطاء أهل المدينة من الأموال التي ترد من اليمامة، فلما وصلت الأموال الى المدينة عرف الناس أنها من أموال الصدقة، فغضبوا وخرج إبراهيم بن محمد بن طلحة وعدد من أهل المدينة إلى المكان الذي انيخت فيه قافلة الأموال الواردة في ظاهر المدينة، فجعلوا يضربونها ويطردونها خارج المدينة ويقولون: والله لاندخلها وفيها درهم من أموال الصدقة(١) •

واضطرب الأمر ثانية على الأمير إبراهيم بن هشام، فكتب إلى الخليفة يخبره بغضب أهل المدينة وبقولهم أنهم لايأخذون من أوساخ الناس، فأمر الخليفة أن ترد عنهم تلك الأموال وأن يعوضوا عنها بأموال آخرى تأتي من الفيء الذي وصل آنئذ، فرضي أهل المدينة وأخذوا مما أفاء الله على المسلمين.

وقد كانت لهذه المواقف الكريمة من أهل المدينة أثر في تصرفات أميرها إبراهيم بن هشام، إذ أصبح يحسب حساباً لنظرة الخليفة إليهم كما يحسب حساباً لبعض الشخصيات التي تعيش فيها، وبخاصة إبراهيم بن محمد بن طلحة الذي تزعم رفض أموال الصدقة. وتروي المصادر لإبراهيم بن محمد بن طلحة مواقف فيها خير وبركة لبعض أهل المدينة، منها أن الخليفة هشام بن عبد الملك قد بلغه عن آل الصحابي الجليل صهيب الرومي شيئاً، فأمر أن تخفض أعطياتهم من مستوى أعطيات الصحابة وأبنائهم إلى مستوى أعطيات الموالي، فحزن آل صهيب، وجاؤوا إلى ابراهيم بن محمد بن طلحة ليعينهم

---

١) نسب قريش ٩٨.

على إعادة أعطياتهم إلى ما كانت عليه، فوعدهم إبراهيم بذلك، ثم خرج إلى طريق الأمير إبراهيم بن هشام، وكان ذاهباً إلى قباء كعادته كل يوم سبت، فأمسك بزمام دابته وطلب منه أن يعيد عطاء آل صهيب إلى ما كانوا عليه، وذكره بحرمة جدهم صهيب رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ، فاعتذر الأمير بأنه لايستطيع مخالفة أمر الخليفة ، ولكن إبراهيم بن محمد ألح عليه، فأصر الأمير على الأعتذار فهدده إبراهيم بأنه سيحمل أبناء قبيلته القرشيين على رفض عطائهم وتركه إن لم يأخذ آل صهيب عطاءهم السابق، فاستجاب الأمير إبراهيم آنئذ لطلبه(١).

وخلال إمارة ابراهيم بن هشام بدأ اللغط يسري بين أهل المدينة حول تصرفاته المالية، فقد بدا إبراهيم حريصاً على تثمير الأموال، وتحقيق مكاسب مالية ومعنوية، مالية : بجمع ثروة خاصة، ومعنوية: بالتقرب من الخليفة واستثمار بعض الأموال لصالحه، فقد اشترى للخليفة بعض البساتين وأقام فيها الفلاحين والعمال لتأتي بغلة كبيرة.

اعتداء على مرافق عامة:

لم تكن هذه الاستثمارات لتثير أهل المدينة، وعلى العكس من ذلك كانت تعود عليهم بشيء من النفع، سواء بتوفير المحاصيل لأسواقهم أو بتشغيل بعض العمال فيها. غير أن ابن هشام قام باستثمار آخر أثار حفيظة أهل المدينة وأحنقهم عليه، لكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً ازاءه. ذلك أن إبراهيم كتب إلى الخليفة يغريه باقامة مبنى ضخم في الأرض التي تقوم عليها سوق المدينة - في منطقة المناخة - يجعل فيها دكاكين ومحلات يؤجرها الى التجار، فبدلاً من أن تكون السوق أرضاً مفتوحة، تكون بناء منظماً. وقد شجعه على ذلك أن مروان بن الحكم - أول أمير أموي على المدينة - سبق أن بنى لمعاوية بناءين في طرف منطقة السوق مازالا قائمين، يؤجران للتجار

---

١) نسب قريش ٩٦ - ٩٧.

وتعود غلتهما لورثة معاوية، وقد سوّغ إبراهيم بن هشام للخليفة مشروعه بما فعله معاوية من قبل وزين له ذلك. فأجابه الخليفة لما طلب وأذن له أن يقيم مبنى السوق. وفوجيء أهل المدينة بالبنائيين يقيمون جداراً طويلا يستوعب السوق كله، ويرتفعون به ويدخلون فيه الطرقات التي تمتد بين السوق والأحياء المقابلة، فلا يبقى بين جدران البيوت المواجهة وجدار السوق غير ثلاثة أذرع أحياناً، فضجوا من ذلك، وراجعوا الأمير فواجههم برسالة الخليفة. وكتب بعضهم إلى الخليفة شاكياً فلم يجد جواباً، وأسرع ابراهيم بالبناء قبل أن يستطيع أحد أن يغير رأي الخليفة، وكان يرسل بأخبار البناء المتوالية إلى الخليفة، فأعجب الخليفة بذلك، وأمر أن تحمل الأخشاب النفيسة والأبواب الضخمة من الشام والبلقاء إلى السوق، ولم تمض سنة حتى تم البناء الضخم، وتحول السوق إلى مجموعة دكاكين مسورة بسور كبير، وأقبل التجار يكترون الدكاكين.

ومع أن هذا البناء قد نظم السوق وجمله وجعل الحركة فيه منضبطه، والإشراف عليه أفضل فان أهل المدينة كرهوه، فالكراء الذي يدفعه التجار يتحول إلى زيادة في أسعار السلع، ثم إنهم اعتادوا أن يكون السوق مفتوحاً للجميع وغير مملوك لأحد، يفرش فيه من يشاء بساطه ويبيع ويشتري ، وهم يحفظون حديثاً عن رسول الله ﷺ ينهى عن أخذ الخراج منه(١) ولكن الذين سوغوا ما فعله إبراهيم بن هشام نظروا إلى أجرة البناء وليس الى أجرة الأرض. وما لبث السوق المبني أن أصبح أمراً واقعاً يسكت الناس عليه لأنه ملك الخليفة، ولأن الأمير يعاقب من يلغط فيه.

وهكذا مضت ثماني سنوات من إمارة ابراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي وأمور المدينة تتراوح بين الشدة والقسوة التي يبديها إبراهيم حيناً، واللين الذي يظهره حيناً آخر إكراماً لبعض الشخصيات أو إنفاذاً لأمر

---

١) انظر الحديث في ابن شبة ١/٣٠٤.

من أوامر الخليفة.

ورغم قرابة إبراهيم من الخليفة، فان تصرفاته قد أحفظته عليه آخر الأمر، فقد كثرت شكاوى الوافدين من المدينة منه، ولغط الناس بثروته المتنامية وتغطرسه، وتحدثوا عن جهله بأمور الفقه وإدعائه العلم، حتى إنه تصدى مرة للفتيا في عرفات وهو يقود الحجيج، فلما سأله سائل عن الأضحية أواجبة هي أم لا ؟ لم يدر ما يقول(١) وارتفعت أصوات آل الزبير بالشكوى منه ثانية، فازدادت قسوته عليهم، فهجاه يحيى بن عروة بن الزبير بأبيات سارت بين الناس، فازداد غضب إبراهيم وقبض على يحيى بن عروة وأمر به فجلد بالسياط جلداً شديداً، وما لبث أن مات، فضج أهل المدينة لذلك، ورأى الخليفة أن خاله قد أسرف في تصرفاته، فأرسل أمراً بعزله وتولية خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم مكانه وذلك في شهر ربيع الأول من عام مئة وأربعة عشر للهجرة.

المدينة في إمارة خالد بن عبد الملك بن الحارث:

لم يكن خالد بن عبد الملك بن الحارث يختلف عن إبراهيم بن هشام في الحزم والشدة، ولكنه كان يختلف عنه في الدهاء وحسن التصرف وعدم إظهار الصلف والثروة. وبدا منذ أيامه الأولى أنه يهتم بمراقبة أحفاد علي ليضمن ولاءهم الكامل الدولة، خاصة وأن فيهم زيد بن علي بن الحسين الذي نقل بعض الناقلين عنه أنه يتطلع إلى الخلافة. وقد استخدم خالد دهاءه في هذا الأمر، فلم يظهر العداوة لأحفاد علي ولم يتعرض لأحد منهم علناً، ولكنه استفاد من فرصة كبيرة سنحت له ليضغط عليهم ويهون شأنهم بين أهل المدينة. فقد دب الخلاف بين أحفاد علي حول الأموال الموقفة لهم، وانقسموا قسمين، قسم يتجمع فيه أحفاد الحسن ويقوده جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي، وقسم يتجمع فيه أحفاد الحسين ويتزعمه زيد بن علي بن الحسين

---

١) الطبري ٥٣/٧.

بن علي. وكل من الفريقين يريد أن يتسلم الإشراف على إدارة ذلك الوقف.

ورفعت الخصومة إلى الأمير، وأدلى كل بحجته ببلاغة عجيبة، ولم يفصل الأمير في الأمر ، ثم مات جعفر بن الحسن بن الحسن، وخلفه عبد الله بن الحسن بن الحسن في مواجهة زيد ومنازعته في الإشراف على الوقف، وكانا متكافئين في المناظرة والجدل. فوجد خالد بن عبد الملك في هذه الخصومة فرصة للنيل من العائلة كلها، فأمر المتخاصمين أن يحضرا للمسجد أمام الناس ويثبت كل منهم جدارته بولاية الوقف، ولإثبات الجدارة لابد من الطعن في الطرف الآخر وإثبات التفوق عليه، فإذا طعن كل في ابن عمه هان شأن الأسرة بين الناس(١).

وفي المسجد النبوي اجتمع الطرفان، وحرص خالد على استثارتهما، واستحث بعض الحاضرين للتدخل وزيادة لهب الخصومة، فقام أحد أبناء الأنصار ونال من أبناء الحسين، وثارت ثائرة أحد القرشيين فرد عليه، وأدرك كل من عبد الله بن الحسن وزيد بن علي حقيقة الموقف وشماتة الأمير فيهما، فسارعا لتدارك الأمر، وقال زيد لخالد بن عبد الملك: أما والله جمعتنا لهذا الأمر وما كان أبو بكر ولا عمر ليجمعنا على مثله، وإني أشهد الله ألا أنازعه إليك محقاً أو مبطلا ما كنت حياً. ثم قال لعبد الله: انهض يا ابن عم فنهضا وتفرق الناس(٢).

والحقيقة أن هذا الخلاف الذي استثمره خالد بن عبد الملك كان بداية شرخ كبير في أرفع عائلة من عائلات المدينة علماً وفضلاً ونسباً، ولئن تداركه عبد الله بن الحسن وزيد بن علي بفطنتهما، فان الخلاف مالبث أن عاد بعد حين، ثم تطور في سنوات تالية على نحو ما سنرى، إلى أن أدى الى صدام مريع بين فرعي العائلة، ونتائج غير حميدة.

---

١) الطبري ١٦٤/٧

٢) الطبري ١٦٣/٧ والكامل ٢٤١/٤

على أية حال كانت المدينة في سنوات حكم خالد بن عبد الملك هادئة، تتناقل الأخبار التي تصلها من الأمصار، وتتناقل أخبار الخلاف بين أحفاد علي إلى أن توقف حيناً من الوقت. وقد صادف أن بدأت مع إمارة خالد بن عبد الملك على المدينة فترة قحط طويلة، شحت فيها الأمطار، وتناقصت الغلال، وارتفعت الأسعار ولولا حسن إدارة الخليفة هشام بن عبد الملك وضبطه المالي لموارد الدولة للقي الناس عنتاً شديداً، فقد رحل الكثيرون من أهل الحجاز ونجد إلى الشام هرباً من آثار القحط الموجعة، وتدارك هشام أهل المدينة ومكة بقوافل من الحنطة والشعير من غلال العراق وخراسان، وتوالت سنوات القحط طوال إمارة خالد بن عبد الملك حتى إن أهل المدينة أطلقوا على تلك الفترة اسم ((سُنَيَّات خالد))، وبدت فيها أريحية وجوه أهل المدينة وأثريائها، فكانوا يعطون الناس من أموالهم ويفتحون لهم بساتينهم ويوزعون عليهم من الغلال والطعام. فكان عبد الله بن عروة بن الزبير يدخل الناس في مربد ثمره طرفي النهار، غدوة فيتغدون، وعشية فيتعشون، فما زال كذلك طوال سنوات القحط حتى أحيا الناس(١) ولا نجد مأثرة لأمير المدينة يذكره بها الناس آنئذ، فلم يستن بسنة عمر بن الخطاب الذي كان يقيم السماط للناس ويثرد لهم الطعام في عام المجاعة، ولم يستن حتى بسنة وجوه أهل المدينة.

وتضايق عدد من وجوه أهل المدينة من شدته ومكره بهم. فاشتكوا إلى الخليفة هشام مراراً. فبدأ الخليفة هشام يتضايق من تصرفات واليه، ولم يكن الخليفة يتسرع في تصرفاته، لذا لم يسرع بعزله إلى أن جاءته شكوى كانت الشعرة التي قصمت ظهر البعير. فقد تأذى عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق من خالد بن عبد الملك، وأحس أنه يظلمه ظلماً لايحتمل، فخرج إلى دمشق ليشكوه إلى الخليفة، وكان خالد يتفقد وجوه أهل المدينة

---

١) نسب قريش ٢٤٦.

ويتتبع أخبارهم. فلما جاءه خبر غياب عبد الرحمن بن القاسم ولم يدر أين ذهب، اغتم لذلك، وخشي أن يكون وراء غيابه ما يؤذيه، لذا سارع فكتب إلى الخليفة أن عبد الرحمن خرج إلى المشرق، أي إلى العراق، وكان خروج أحد من وجوه أهل المدينة إلى العراق مظنة شك وريبه. ذلك أن العراق موطن الخارجين على الخلافة من الهاشمين والخوارج وكل من يخلع طاعة بني أمية، ولا شك أن خروج أحد من وجوه أهل المدينة -وابن القاسم بن محمد التابعي الكبير وحفيد أبي بكر الصديق- يثير الظنون، وقد قصد خالد بن عبد الملك بهذه الرسالة أن يستثير الخليفة على عبد الرحمن بن القاسم وأن يبيح له معاقبته. ولكن حدث غير ذلك، فقد توجه عبد الرحمن إلى الشام وقصد الخليفة ودخل عليه بعيد وصول رسالة خالد مباشرة، فأدرك الخليفة أن خالداً لم يكن صادقاً في خبره، وأنه يقصد مآرب بعينه، فغضب غضب شديداً وأمر بعزله عن إمارة المدينة، وآلى الا يوليه على عمل له أبداً(١). وأمر أن تضم إمارة المدينة إلى محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي الذي سبق أن عينه هشام أميراً على مكة المكرمة والطائف، وأكرم عبدَ الرحمن بن القاسم وسأله عن أحوال المدينة وأهلها. وكان ذلك سنة مائة وثمانٍ للهجرة(٢).

---

١) نسب قريش ٢٨٠.

٢) انظر الكامل ٢٢٤/٤ وتاريخ خليفة بن ضياط ٩٤٣.

المدينة في إمارة محمد بن هشام:

كان محمد بن هشام قد ولي مكة والطائف في السنة نفسها التي ولي فيها خالد بن عبد الملك المدينة (سنة مئة وأربع عشرة)، وهو ثالث فرد في أسرة واحده تتولى إمارة المدينة، فأبوه هشام قد وليها من ٨٣ - ٨٧، وأخوه إبراهيم وليها من ١٠٦ - ١١٤ وجاء هو ليتولاها إلى نهاية خلافة هشام بن عبد الملك سبع سنين متوالية، ولتصبح جزءاً من ولايته التي تضم مكة والطائف أيضاً فيجتمع الحجاز في ولاية أمير واحد.

وكان محمد بن هشام يتردد على المدينة ويقيم فيها بعض الوقت وينظر في أمورها ثم يعود إلى مكة، ثم ينتقل منها إلى الطائف، وكان مركزه الرئيسي مكة، لذلك كانت غيبة الأمير الطويلة عن المدينة تحول الإمارة إلى إدارة هادئة، تنظر في الأمور اليومية العادية، وتجعل بقية الموظفين من شرطة ومحتسبين ونظار الأسواق هم المتنفذين الحقيقيين في أمور المدينة، وتجعل القضية السياسية فاترة أو غائبة عن ساحة الجدل والحوار، لاسيما وأن الاستقرار والهدوء هما السمتان اللتان ميزتا خلافة هشام بن عبد الملك الطويلة - حوالي عشرين سنة - وكانتا سمة واضحة في حياة المدينة المنورة أيضاً إذ لم يتقلب عليها سوى ثلاثة أمراء، اثنان منهما أخوان وهما إبراهيم ومحمد بن هشام وهما خالا الخليفة، وواحد منهما أموي وهو خالد بن عبد الملك. وكانت إمارة كل واحد منهما طويلة، أقصرها إمارة خالد التي تجاوزت أربع سنوات، ولم تشهد المدينة طوال هذه الإمارات أحداثاً سياسية فاقعة.

ولا شك أن الهدوء والاستقرار وطول إمارة الأمير سيجعل الناس يعيشون أحداث حياتهم اليومية العادية بين العمل والعلم والعبادة والعلاقات الاجتماعية والمشاحنات الصغيرة التي سرعان ما تنقضي، وتجعل مادة السمر والأحاديث تعتمد على ما يفد من أحداث الجهاد في الثغور الرومية وعلى مفردات الحياة اليومية. كما أن هذا الهدوء جعل مشاركة أهل المدينة في

بعوث الجهاد أوسع، فكانت لهم فرق خاصة بهم في الحروب ضد الروم، وكان يتولاها أحد أبناء المدينة أو ما حولها ، وتسمى عادة (ربع المدينة)، وكان المجاهدون يتناوبون السفر إلى الثغور في الصائفة والشتوية، ويعودون إثر كل غزوة إلى المدينة حاملين معهم ما أفاء الله عليهم من الغنائم، ليمضوا مدة من الوقت بين ذويهم وأقاربهم، قبل أن يعودوا إلى الثغور ثانية. كما كان يفد إلى المدينة في مواسم الحج من يحمل المال الوفير لتوزيعه على فقرائها، وعندما يفد أمير أموي أو وال من ولاة الأمصار يحمل مزيداً من المال ليوزعه على الفقراء وغير الفقراء من أهل المدينة إكراماً لها ولأهلها.

وقد وفد عام مئة وتسعة عشر للهجرة مسلمة بن هشام بن عبد الملك ابن الخليفة ومعه ابن شهاب الزهري التابعي الجليل والفقيه الكبير وابن المدينة الذي أقام في الشام، فوزع فيها أموالا عظيمة على الفقراء وغير الفقراء تودداً لأهلها، والتف الناس حول ابن شهاب ورأوا مكانته في بيت الخلافة ومدى احترام مسلمة بن هشام وطاعته له.

ووسط هذا الجو الهادئ في المدينة اشتدت الحركة العلمية وكثرت حلقات الدارسين في المسجد، وكثر الوراقون والكتبة الذين يدونون الأحاديث والأحكام.

وكان من فوائد هذا الجو الهادئ أن نعم آل علي بن أبي طالب بالراحة، ولو أن العيون لم تنصرف عنهم نهائياً، ونعم آل الزبير بالراحة والسكينة أيضا، وانصرف الكثيرون منهم إلى العلم وإدارة المزارع والبساتين والأعمال التي يملكونها.

غير أن واحداً من آل علي كان محط المراقبة أكثر من سواه هو زيد بن علي بن الحسين، فقد نقل عنه الوشاة غير مرة أنه يتطلع إلى الخلافة، ولكن سياسة الخليفة هشام إزاءهم كانت إكرام آل علي وعدم استثارتهم إلا إذا بدر منهم شيء، وقد سافر زيد بن علي غير مرة إلى هشام فأكرمه، وسافر إلى

العراق فاستقبله واليها خالد بن عبد الله القسري وأكرمه، وكان خالد يحسن ضبط الأمور في العراق، لذلك لم يتمكن الشيعة من تحريض زيد بن علي بن الحسن على الخروج كما فعلوا بأسلافه من قبل.

وفي سنة إحدى وعشرين ومائة جاء البريد إلى أمير المدينة محمد بن هشام أن يحقق مع زيد بن علي فيما إذا كان لديه مال لخالد بن عبد الله القسري، وكان الخليفة قد عزل خالداً عن العراق وولى عليها غريمه يوسف بن عمر الثقفي فاتهمه بتهم شتى، منها أن ابنه يزيد بن خالد أودع مالاً عظيماً عند زيد بن علي ليستعين به على الخروج على الخليفة عندما تسنح الفرصة (١) فكتب الخليفة الى محمد بن هشام ليحقق في هذا الإدعاء، فجاء الأمير إلى المدينة واستدعى زيداً وسأله فأنكر زيد ذلك الإدعاء واستحلفه فحلف، فصدقه الأمير وأطلقه، ثم طلب منه أن يتوجه إلى الخليفة في دمشق ليؤكد له بنفسه بطلان التهمة، فذهب زيد إلى دمشق، ولقي الخليفة وحلف له فصدقه الخليفة وبعثه إلى والي العراق يوسف بن عمر الثقفي، وخاف زيد إذا سافر إلى العراق أن يؤذيه يوسف بن عمر، ولكن الخليفة طمأنه وكتب كتاباً بذلك ليوسف. فسافر زيد إلى العراق، وكانت سفرته طريقاً إلى قدره المقدور.

فبعد أن قابل يوسف وواجهه يوسف بيزيد بن خالد وبرأه يزيد من تهمة حيازة الأموال، تركه يوسف. فأقبل عليه بعض أهل الكوفة، وما زالوا يغرونه بطلب الخلافة، ويعاهدونه على النصرة، حتى وثق بهم وتزوج فيهم ووقع فيما وقع فيه بعض أسلافه، رغم نصيحة كل أقاربه له بعدم الثقة بالكوفيين وعدم التهور، ولكن زيداً لم يأخذ بالنصائح.

وتوالت الأخبار إلى المدينة باتساع أمر زيد في السر، وبكثرة عدد مبايعيه، ولكن هذه الكثرة لم تكن لتمنع أهل المدينة من أن يتذكروا ما حدث لأسلافه الثائرين من قبل، وهاهي ذي الملحمة الدامية تتكرر ثانية، فتأتي

---

١) الطبري ١٢١/٧.

الأخبار المحزنة إلى أهل المدينة أن زيداً قد أعلن الثورة بالكوفة في أول صفر سنة اثنتين وعشرين ومائة للهجرة، وأن ماحدث للحسين قد تكرر معه ، فقد خذله كثير ممن بايعوه، ولم يثبت معه إلا رجال قليلون قاتلوا قتالا شديداً ثم سقطوا مضرجين بدمائهم، واحتزت رؤسهم ونصبت للناس. وباتت المدينة تبكي رجلا آخر من رجالها، وبات الهاشميون يتحسسون من ردة الفعل لهذا العمل المتهور ويتألمون لذلك الغدر المتكرر من الكوفيين.

وما لبث الحزن أن بلغ أوجه عندما وصل رأس زيد بن علي الى المدينة لينصب فيها، إرهاباً لمن تحدثه نفسه بالخروج على طاعة الخليفة(١) فكان في الناس من يتألم له، ومن يتألم منه، فما كان لمثله أن يقتل ويمثل به هذا التمثيل، وما كان له أن يشق عصا الطاعة ويخرج على الخليفة دون مسوغ من جهة، ودون استعداد حقيقي ودون أن يأخذ بنصائح أهله وأقارب من جهة أخرى.

ومرت الشهور، وما لبثت المدينة أن استعادت هدوءها وسكنت أحزان الهاشميين، وعاد الناس إلى حياتهم العادية، وعادت إليهم العطاءات وأموال الفيء الواردة من الثغور، وتحول الأمير إلى المدينة وجعل إقامته الأساسية فيها.

وفي هذا الوقت شهدت الأسرة الأموية بعض التبلبل والانقسام، ذلك أن هشام بن عبد الملك رغب في أن يعزل ولي عهده الوليد بن يزيد بن عبد الملك عن ولاية العهد لما رآه من مجونه وتهتكه، وأن يولي مكانه ابنه مسلمة بن هشام بن عبد الملك. ولكن الوليد احتاط للأمر فخرج من دمشق مع مواليه واتباعه ورفض الاعتزال، واستشار هشام بذلك كبار الأسرة الأموية، ومنهم خالد محمد بن هشام أمير المدينة وعدداً من الأمويين المقيمين في المدينة، فوافقه خالد على العزل، وتردد بعض الأمويين، وأصبحت القضية موضع جدل

---

١) الطبري ١٨٩/٧.

بينهم، ذلك أن في عنقهم وعنق الناس بيعة للوليد منذ خلافة الوليد بن عبد الملك، أي قبل أن يتولى هشام بن عبد الملك الخلافة، وعندما تولاها هشام كان في صك البيعة نص يبين أن ولي عهده والخليفة من بعده هو الوليد بن يزيد، وقد أخذت البيعة من الأمويين ومن سائر الناس عليها. لذا فإن تغييرها سيحتاج إلى خلع تلك البيعة وتغييرها ببيعة جديدة. وربما يحدث هذا فتنتة بين الناس، فقد كان للوليد رغم مايشاع عنه من مجون أنصار في البيت الأموي، وكان الاستقرار الذي وطده هشام قرابة عشرين سنة يجعل الناس ينفرون مما قد يؤدي إلى فتنة أو اضطراب.

وفي أواخر شهر ربيع الأول سنة خمس وعشرين ومئة للهجرة، تمزق الهدوء الذي لف المدينة سنوات طويلة، فقد فاجأ الناس صوت مناد وقف على ثنية الوداع الشامية في مدخل المدينة، وجعل ينادي: يا أهل المدينة مات الخليفة هشام الأحول، واستخلف أمير المؤمنين الوليد بن يزيد.

تجمع الناس إلى صاحب الصوت، فإذا به ابن مكدم الثقفي أحد أخوال الوليد بن يزيد الخليفة الجديد، وإذا به يحمل لهم أخباراً جديدة ومثيرة، فقد تم الأمر للوليد ولم ينازعه أحد من الأمويين، وذابت فكرة خلافة مسلمة بن هشام بن عبد الملك ، بل إن مسلمة نفسه قد بايع للوليد بالخلافة، وقبض على عدد من المقربين للخليفة السابق هشام، ووضعت الحراسة على أموالهم، ولكن أهم خبر حمله ابن مكدم، هو أن الوليد أمر بزيادة عطاء الناس جميعاً، فسيزداد عطاؤهم.

أحس الناس بمشاعر مضطربة ومختلفة، فلم يكن أهل المدينة يتشيعون للوليد ضد هشام، ولكنهم كانوا قد حنقوا على هشام لأمرين: أمر السوق الذي أقامه له خاله محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي أمير المدينة والذي أخذ بعض دورهم. وفي نفوس الناس شيء من أميرهم هذا أيضاً، والأمر الثاني هو قتل زيد بن علي ونصب رأسه بالمدينة، لذلك اهتاج عدد من

الحاضرين، وفرحوا، وأدركوا أن التغييرات قادمة إليهم في المدينة أيضاً.

ثورة في الســوق:

سار بعض أهل المدينة مع القادم الجديد إلى دار الإمارة، وقبل أن يصلوها مروا بالسوق الكبيرة المبنية، فصاح به بعضهم: ماتقول في هذه الدار. وأدرك الثقفي أن أهل المدينة مغتاظين منها فناداهم: اهدموها اهدموها. وكان نداؤه الشرارة التي أثارت حماستهم، فهجموا على أبواب السوق يقتلعونها، ثم مضى بعضهم إلى دكاكين الحدادين فأحضروا الفؤوس وقضبان الحديد، وأغاروا على جدران السوق يثلمونها ويسقطونها جزءاً جزءاً، وفزع التجار، فحملوا بضائعهم وخرجوا بها بعيداً عن البناء، وسار الخبر في المدينة، فأقبل الكثيرون يشاركون في هدم المبنى الكبير، وبلغ الأمير الخبر وعلم أن الناس مهتاجون وأن عددهم أكبر من أن تكبحهم شرطته، فلم يحرك ساكناً. ومضى النهار وقد تحطمت أجزاء عدة من جدار السوق ودكاكينه. فلما طلع اليوم الثاني واصل الناس هجمتهم عليه ونهبوا الأخشاب الثمينة من السقوف والمشربيات وما بقي من الأبواب، فكانت ثورة تنفس ما تجمع في صدورهم من غيظ طيلة سنوات عدة. وقد استمرت هذه الثورة في اليوم الثالث وشارك فيها كل من يطمع في خشب ثمين أو حجر منقوش، ولم يمض ذلك اليوم حتى سوي البناء الكبير بالأرض، ولم تعد له قائمة. وعاد السوق فسحة ممتدة تؤذيها ركامات الأتربة والحجارة التي تساقطت من البناء، والتي بدأ الناس يسحبونها منه.

ولم تنته ثورة السوق حتى وصل البريد بعزل أمير المدينة محمد بن هشام بن اسماعيل المخزومي وإشخاصه إلى الشام لمحاسبته، وتولية أمير جديد عليها هو يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي أحد أبناء الطائف وقريب الحجاج بن يوسف الثقفي المشهور. فغادر محمد بن هشام المدينة إلى الشام وهو لايدري أي مصير سيلقاه. بينما المدينة تنتظر قدوم أميرها الجديد.

نهايــة تعيســـة:

وصل الأمير الجديد في الثامن عشر من شعبان عام ١٢٥هـ، وتقاطر الناس إلى دار الإمارة ليسلموا عليه، ففوجئوا بأميرهم السابق محمد بن هشام ملفوفاً بعباءته، مقيداً بالأغلال، ومقاماً للتنكيل به على باب الامارة قرب المسجد، والشرطة تهينه بين الحين والحين، وإلى جانبه أخوه إبراهيم بن هشام أمير المدينة الأسبق لمدة ثماني سنوات (١٠٦ - ١١٤هـ) مقيداً مثله، وأدركوا أن الخليفة الجديد إنما يريد أن ينكل بأخوال الخليفة القديم وأعوانه الذين وافقوه على خلع بيعة الوليد وتحويلها إلى مسلمة بن هشام، وقد حوسب الأميران السابقان حساباً عسيراً، واتهما باستغلال، منصبيهما واستخرجت منهما أموال طائلة، ومكث المسكينان في هذا الذل عدة أيام، ثم نقلا مقيدين إلى العراق ليعذبهما والي العراق يوسف بن عمر الثقفي، ولتنتهي حياتهما تحت التعذيب القاسي أتعس نهاية.

المدينة في إمارة يوسـف بن محمد الثقفي:

ولا شك أن بداية إمارة يوسف بن محمد بن يوسف بهذا العرض المرهب قد أدخل في نفوس الناس شيئاً من الخوف، يزيده ماعرف عن الثقفيين من شدة وبطش، فاستكانت المدينة لإمارته، وانصرف الناس إلى أعمالهم متعجبين مما تجره الإمارة والسياسه، فبينما المرء عزيز في إمارته يأمر وينهى ويسجن ويبطش، إذا به بين ليلة وآخرى ذليل مهين تسومه شرطته التي كانت تأتمر بأمره سوء العذاب، فتجنب معظم الناس مجالس الإمارة، وزادهم بعداً عنها أن الأمير لم يعد مشغولا بهم وحدهم، فقد أصبحت المدينة جزءاً من إمارة الحجاز كلها، والأمير ينتقل بينها وبين مكة والطائف، يوزع اهتماماته في المدن الثلاث.

كان الأمير الجديد خال الخليفة الجديد أيضاً، ولاشك أن اهتمام الخلفاء بتعين أقاربهم ولاة عليها إنما هو بسبب مكانتها عندهم، ومكانتها في نفوس

المسلمين، ورغم خوف الناس من سمعة الثقفيين فان الأمور قد تحسنت في بداية الأمر، إذ ازداد عطاء الناس، وجاءت أموال آخرى إضافية للمدينة في موسم الحج، ولم يحدث ما يعكر صفو الحياة الماضية في رتابتها وهدوئها..

غير أن الأخبار كانت تتوارد مع القوافل القادمة من دمشق عن الغليان فيها، فالخليفة الجديد لم يقلع عن عن المجون الذي عرف به قبل توليه الخلافة، وحكايات مجالس الشراب والقيان تنتقل بين الناس فتثير غضبهم، ووجوه البيت الأموي منزعجون كل الانزعاج مما يسري بين الناس، وما لبثت الأخبار أن جاءت بنقمة يزيد بن الوليد بن عبد الملك ابن عم الخليفة على تصرفات الخليفة، وتأليب الناس عليه، وكانت سمعة يزيد بن الوليد طيبة بين الناس، فقد عرف بالصلاح والتقوى. وكان أهل المدينة يتناقلون ما يصلهم من أخبار، وينتظرون مع المنتظرين، ولم تكن بهم أية رغبة في الثورة على الخلافة، فالفواجع الماضية قد علمتهم ألا يتهوروا بتصرف مرتجل، قد يؤدي إلى مذبحة جديدة، وشدة الوالي الثقفي وعيونه المبثوثة تحول دون التفكير في شيء من ذلك، والهاشميون منطوون على جراحات كثيرة، آخرها مقتل زيد بن علي بن الحسين في العراق ومن بعده ابنه يحيى بن زيد في خراسان، وهم أعقل من أن يتهوروا بعمل طائش، لذا لم يحرك أحد في المدينة ساكناً رغم ما يتردد من أخبار حول الخليفة والفتنة.

ولم تمض شهور قليلة حتى جاء الخبر بثورة في الشام على الوليد بن يزيد بن عبد الملك، قادها ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وانتهت بقتل الخليفة ومبايعة قائد الثورة بالخلافة في جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ، وتبعت هذه الأخبار أوامر جديدة من الخليفة الجديد بعزل أمير المدينة عن إمارته، لكونه خال الخليفة المقتول، وتولية أمير جديد هو ابن أحب رجال بني أمية إلى المدينة بل وإلى الناس جميعاً عمر بن عبد العزيز، فالأمير الجديد هو ابنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز.

والمعروف أن صلاح الآباء سيظهر في حسن تربية الأبناء ونجابتهم، ولقد ظهرت آثار هذه التربية والنجابة فيه(١)٠

المدينة في امارة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز:

وصل الأمير الجديد في الثامن والعشرين من ذي القعدة ١٢٦هـ دون ضجة، وتسلم الإمارة من سلفه بهدوء كامل، ولم يسء اليه بشيء، ولم يتهمه بتهمة، وجلس يستقبل الناس ويسألهم عن أحوالهم ومشكلاتهم ويحسن إليهم. ولم يكن هذا الأمير غريباً عليهم، فقد نشأ في صغره بينهم أيام إمارة أبيه عمر بن عبد العزيز على المدينة، ودرس على شيوخ المسجد النبوي، وعرف مكانة الناس فيها، وأخذ عن أبيه حسن الرعاية والاهتمام بشؤون الناس، فمضت الحياة في المدينة المنورة في عهده هادئة، رخية، لاتشكو من شدة أو قسوة ولا يصيبها شيء من التمزق الذي أصاب الحياة العامة في الشام والعراق. وكان مقتل الوليد بن يزيد بداية النهاية في البيت الأموي، فقد اختلف بنو أمية على الخلافة من بعده، ورفض بعضهم البيعة ليزيد بن الوليد بن عبد الملك، وثار عليه أهل حمص وأهل فلسطين، وبدأت الفتنة بين القيسية واليمانية في العراق وخراسان، وتوفي الخليفة في السابع من ذي الحجة من العام نفسه ولم يمكث في الخلافة الا سبعة أشهر، فخلفه أخوه إبراهيم بن الوليد، فاشتدت الفتنة بين الأمويين، وسار مروان بن محمد بالجيوش رافضاً بيعة ابراهيم، وثار أهل حمص ثانية، وخرج في الكوفة عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب. وهكذا اشتعلت الحرائق السياسية في أماكن كثيرة، وسلمت منها المدينة لحسن سياسة أميرها ، وزهد الناس في قضية الخلافة ومشاكلها، فظلت بعيدة عن الفتن والصدامات والدماء٠

وكانت منزلة الأمير عبد العزيز بن عمر عالية عند الأمويين كلهم، فلم يتأثر بتغيير الخلافة وانتقالها بين الأمويين المختلفين من طرف إلى طرف،

---

١) الطبري ٧/٢٩٥.

فعندما تولى إبراهيم بن الوليد الخلافة أبقاه في إمارته، وعندما خلفه مروان بن محمد أبقاه أيضاً في الإمارة، وانشغل مروان بن محمد باطفاء الفتن المتوالية في الشام والعراق وخراسان، واستمرت الحياة الهادئة في المدينة المنورة.

غير أن مروان بن محمد احتاج لعبد العزيز بن عمر في بعض حروبه، فأرسل عام ١٢٩هـ يستدعيه، وولى مكانه أميراً آخر هو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وضم إليه مكة والطائف أيضاً، فانتهت الفتره العسلية الثانية في حياة المدينة المنورة في العهد الأموي.

المدينة في امارة عبد الواحد بن سليمان:

لم يكن عبد الواحد كسلفه عبد العزيز لين الجانب متواضعاً، بل كان فيه شدة وقسوة ورثهما عن أبائه، وقد شهدت المدينة في عهده ملحمة آخرى فقدت فيها عدداً من أبنائها البررة، ولم تكن هذه الملحمة خروجاً على الخليفة الأموي هذه المرة، بل كانت دفاعاً عن الخلافة الأموية، والمواجهة الأولى مع الخوارج.

ففي موسم الحج من هذا العام خرج الأمير عبد الواحد بن سليمان إلى مكة ليقود الحجيج في المشاعر، وبينما الناس واقفون في عرفة، فوجئوا بحشد من الخوارج يحملون عمائم سوداً حرقانية على رؤوس الرماح يقودهم أبو حمزة الخارجي، وأعلن هؤلاء أنهم خلعوا طاعة مروان بن محمد وتبرأوا منه، وبايعوا عبد الله بن يحيى العلوي الملقب بطالب الحق، وهو أحد أحفاد الحسين بن علي رضي الله عنه ، ففزع عبد الواحد وخشي أن يفسد هؤلاء الحج أو أن يفتكوا بالناس. ومع أن عددهم لايتجاوز سبعمائة رجل إلا أن شهرتهم في البطش وسفك دماء المسلمين الذين لايوافقونهم في آرائهم خوف الناس منهم. لذا أرسل عبد الواحد رسلا يطلب منه المهادنة، فاستجاب أبو حمزة لطلب عبد الواحد ووافق على إقامة هدنة طوال أيام الحج. ووقف الناس

في جهة من جهات عرفة ووقف الخوارج في جهة أخرى، ثم نزل كل منهم إلى جهة في منى.

وحرض بعضهم الأمير عبد الواحد للقضاء عليهم في الموسم، خاصة وأن الحجاج كثيرون ويمكن أن يغلبوهم، ولكن عبد الواحد أبى، وخشي أن ينقض أبو حمزة العهد فيشن هجوماً على أتباعه، لذا أرسل اليه وفداً من وجوه أهل المدينة وفيهم أحفاد الحسن بن علي وعثمان بن عفان وأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، فدخلوا على أبي حمزة واستوثقوا منه المحافظة على الهدنة فأكد لهم ذلك. ووجد عبد الواحد في بقية أيام الحج فرصة للتصرف، فنزل مسرعاً إلى مكة واتجه منها إلى المدينة ولم يبت ليالي منى.

وفوجيء أهل المدينة بالمنادي يستنفر الناس لمواجهة الخوارج ويعلن عن عطاء خاص لمن يشارك في الحملة، وفتح ديوان الامارة ليستقبل المتطوعين في الحملة، وبينما كان أهل المدينة يستعدون بالزاد والسلاح، نزل أبو حمزة من منى إلى مكة ووجد الأمير قد هرب، ولا أحد يتصدى له، فدخلها بغير قتال واستولى على دار الإمارة، وجمع الناس في المسجد الحرام ونقض بيعة الخليفة الأموي وبدأ الاستعداد للتوجه إلى المدينة لتخليصها من نفوذه.

ملحمة أخرى في قديد:

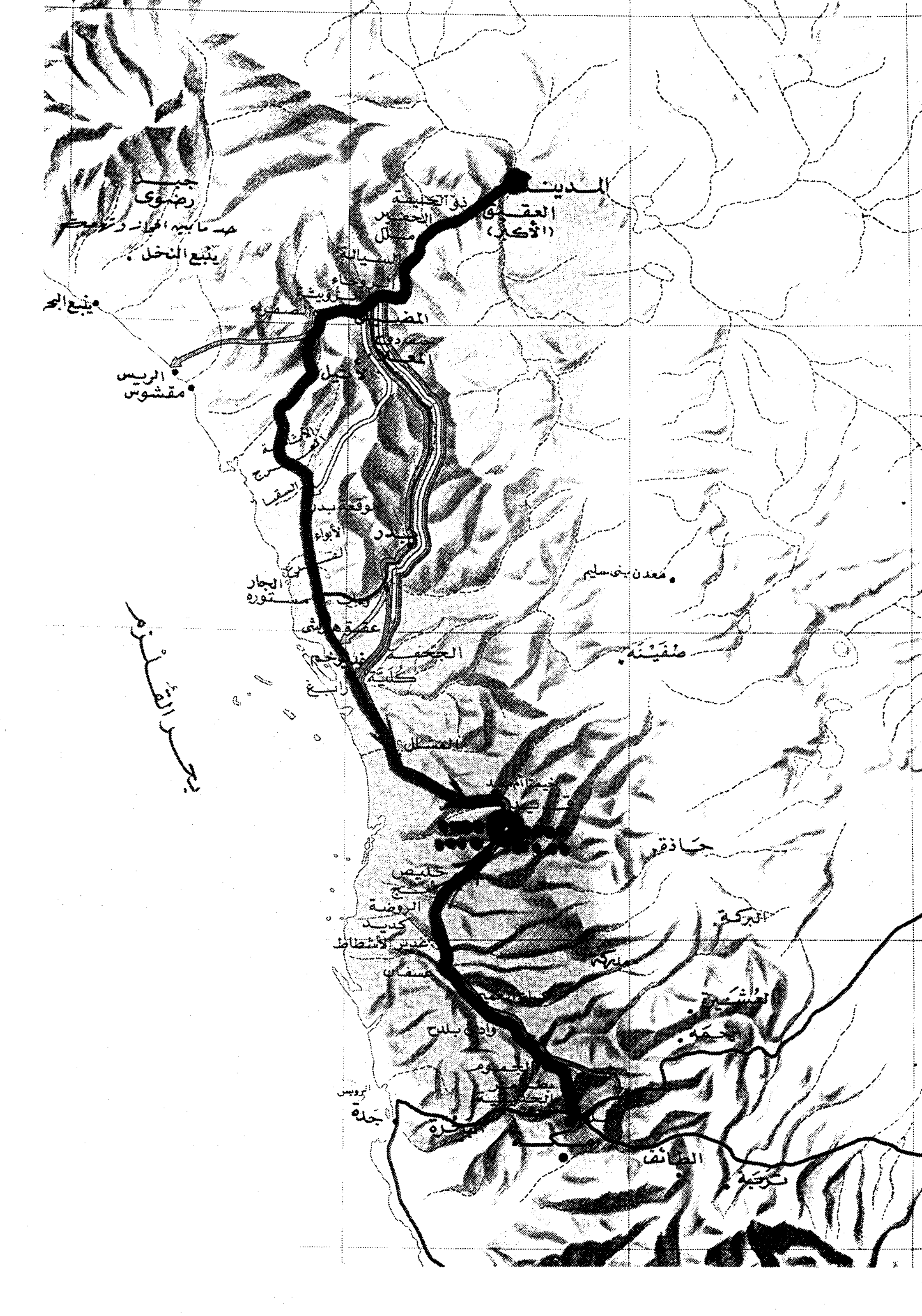
لم يطل أبو حمزة مقامه في مكة، وخرج منها بجيشه الصغير إلى المدينة، فيما كان رجال الإمارة في المدينة يستحثون الناس للانخراط في جيش المواجهة وقد تثاقل كثير منهم عن الخروج، فالمدينة لم تشهد حرباً منذ مدة طويلة، والذين تمرسوا في القتال مسافرون في الثغور، ورغم المغريات التي أعلنها عبد الواحد بن سليمان فإن العدد الذي تجمع في جيش المدينة لم يبلغ ألف مقاتل. وعندما جاء الخبر بخروج جيش أبي حمزة أمر عبد الواحد جيش المدينة بالتحرك لملاقاته في الطريق، وعين قائداً له هو عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، ولم يخرج عبد الواحد معهم، فسار الجيش

حتى نزل منطقة قديد في أوائل صفر عام ١٣٠هـ ولم تكن لدى قائده الخبرة العسكرية ولا الحنكة التي تجعله يحسن التصرف في هذا الموقف العصيب، فضلا عن أن معظم الخارجين في الحملة كانوا من المترفين وليسوا أصحاب حرب(١) لذا لم يتخذ الجيش احتياطاته الأمنية اللازمة عندما نزل في قديد، ولم يرسل طلائع الاستكشاف لمعرفة مكان العدو، واكتفى بأن ضمن مورد المياه من أبار قديد التي استحوذ عليها، بينما استعان أبو حمزة الخارجي ببعض القاطنين في المنطقة من قبيلة خزاعة، وعرف منهم مسالك المنطقة وثغراتها، واستفاد من المباني الموجودة في قديد، فأرسل مجموعة من رجاله تسللوا واختبأوا فيها، ليفاجئوا جيش المدينة.

ومع أن أبا حمزة نجح في صنع المفاجأة، فإنه لم يهاجم أهل المدينة مباشرة بل (أعذرهم) وجعل مناديه ينادي فيهم (إنا والله ما لنا حاجة في قتالكم، دعونا نمضي إلى عدونا) فأجابه مناد من جيش المدينة بالرفض، وكرر أبو حمزة النداء وطلب وضع السلاح وحقن الدماء، وأعلن أنه إنما يتصدى للأمويين وحسب، ولكن قادة جيش المدينة استخفوا بعدد رجاله وأصروا على المواجهة، فهاجم الخوارج جيش المدينة، وجعلوا يطلعون عليهم من مخابئهم ويفاجئونهم ويعملون فيهم السيف، وذعر الكثيرون وبدأوا يفرون فيتصدى لهم المختبئون، وتساقط الشهداء، وقتل قائد جيش المدينة عبد العزيز بن عبد الله، وصمد بعض أهل المدينة، ولكن خصومهم كانوا أشد قوة وأكثر دراية بالكر والفر، فتمكنوا منهم وأثخنوهم، وبدأ بعضهم يستسلم ويطلب الأمان، ونجح بعضهم الآخر في الهرب من أرض المعركة والتجأ إلى القبائل المجاورة، وأسرع بعضهم هارباً إلى المدينة. وسرعان ما انتهت المعركة بخسارة فادحة بلغت سبعمائة رجل من أبناء المهاجرين والأنصار والموالي، فما من فرع من فروع أهل المدينة إلا ونكب بقتيل أو جريح،

---

١) الكامل ٤/٣١٤.



معركة قديد بين قوات المدينة والخوارج بقيادة أبي حمزة الخارجي

وعادت فلول الجيش إلى المدينة فرادى، تضمد جراحاتها المثخنة وتحمل للناس نعي الشهداء، وضجت البيوت بالبكاء، وخرج الأمير وحاشيته إلى الشام طلباً للمدد، ولم يعد فيها من يقدر على مواجهة الغزاة القادمين، ومكث أهل المدينة ينتظرون وصول أبي حمزة، ويترقبون ما سيفعله.

الخوارج في المدينة:

ولم يطل الانتظار، فبعد سبعة أيام من الموقعة الدامية، وصل جيش أبي حمزة، فوجد أهل المدينة قد دخلوا بيوتهم، وأغلقوا عليهم أبوابهم، ولم يتصد له أحد منهم، فدخل المدينة واحتل الإمارة. وأرسل المنادي ينادي في الشوارع بالأمان.

التزم رجال أبي حمزة بعهد الأمان، فلم يتعرضوا لأحد بسوء، ورأى الناس منهم تعظيماً لحرمة المدينة وإجلالا للمسجد النبوي، ورأوهم يصلون الصلاة الخاشعة ويقومون الليل بالصلاة والتلاوة، وخطب فيهم أبو حمزة خطبة قوية لام فيها جيشهم على القتال، وأكد لهم أنهم يقصدون طاعة الله ورسوله، وأنهم ثائرون على بني مروان لأن بني مروان يظلمون الناس ولا يحقون الحق، وقد سجلت كتب التاريخ خطبته لبلاغتها وقوة معانيها ومما قاله: يا أهل المدينة، بلغني أنكم تنتقصون أصحابي، قلتم: شباب أحداث، وأعراب جفاة، ويلكم يا أهل المدينة وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شباباً أحداثاً، شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضية عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقدامهم، قد باعوا الله عز وجل أنفساً تموت بأنفساً لاتموت، قد خالطوا كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفاً من النار، وإذا مروا بآية شوق شهقوا شوقاً الى الجنة، فلما نظروا إلى السيوف قد انتضيت والرماح قد شرعت وإلى السهام قد فوقت، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفوا وعيد الكتيبة لوعيد الله عز وجل، ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة،

فطوبى لهم وحسن مآب، فكم من عين في منقار طائر طالما فاضت في جوف الليل من خوف الله عز وجل، وكم من يد زالت عن مفاصلها طالما اعتمد بها صاحبها في سجوده لله، وكم من خد عتيق وجبين رقيق فلق بعمد الحديد. رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها الجنان . أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا، وما توفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب(١).

وتوالت الأيام والخوارج مقيمون في المدينة لايؤذون أحداً، وعلى العكس من ذلك كانت صلواتهم الخاشعة تعجب الناس، وكان تأكيد أبي حمزة على القيام بأمر الله على وجهه الصحيح وتوزيع الأموال في المسالك التي قررها الإسلام يُحسِّن النظرة فيه، حتى ظن الناس به خيراً وأحبوه واقتربوا منه وسمعوا أحاديثه في مجلسه في الإمارة وفي المسجد وفي خطاباته.

ولكن أهل المدينة الذين توارثوا السنة النبوية وفقهوها حق الفقه ما لبثوا أن سمعوا من أبي حمزة ورجاله عبارات تدل على اضطراب فقههم وسوء توجيههم للأحكام الإسلامية، فقد سمعوه يقول على المنبر (من زنى فهو كافر، ومن شك فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شك أنه كافر فهو كافر)(٢) فأدركوا أنه يستبيح دم الناس بسهولة، فليس في سنة رسول الله ﷺ أن يكفر الناس بالمعصية. وتغيرت نظرتهم إليه والى أصحابه، ورأوا أنهم متطرفون، ضيقو الأفق، لايفهمون الشريعة الإسلامية على وجهها الصحيح، رغم صلواتهم الخاشعة، فالإسلام يحمي دم المسلم ويجعل حرمته عند الله أكبر من حرمة الكعبة، لذلك أعرضوا عنهم وبدأوا يحذرونهم.

وامتدت إقامة أبي حمزة الخارجي ورجاله ثلاثة أشهر، ورأى أبو حمزة أنه لم يدخل في قلوب أهل المدينة، ولم يمسح جراحهم المؤلمة في قديد، فلم يتبع مذهبه منهم سوى رجل واحد من مواليهم، كان يميل إلى معتقدهم من

---

١) الطبري ٣٩٦/٧.

٢) الطبري ٣٩٧/٧.

قبل، فلما جاؤو انضم إليهم، وهو عبد العزيز القاري، المشهور بشكست النحوي.

وجاءت الأخبار إلى المدينة بأن الخليفة الأموي مروان بن محمد قد جهز أربعة آلاف من خيرة فرسانه لطرد الخوارج من الحجاز، وتتبع زعيمهم عبد الله بن يحيى في اليمن واستئصال فتنته. ورغم انشغال مروان بن محمد بالفتن الكثيرة آنئذ وبالعباسيين الذين يهددون الدولة الأموية بشر خطير، فإنه قد اهتم بفتنة الخوارج هذه اهتماماً شديداً، فانتقى لها من خيرة فرسانه، وأعطى كل فارس مائة دينار، وفرساً عربية، ودروعاً لم ير مثلها في ذلك الزمان، وبغلا ليحمل عليه أثقاله، وانتقى لقيادة الجيش عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي من قبيلة هوازن المعروفة بشدة رجالها(١).

وعندما علم أبو حمزة بخروج الجيش الأموي عبأ رجاله وهيأهم لملاقاة الجيش القادم، وودع أهل المدينة بخطبة لم تخف شعوره بأنهم لم يحبوه، ومع ذلك وعدهم إن ظفر على الأمويين بحسن السيرة والعدل، وكان مما قاله لهم: يا أهل المدينة، إنا خارجون إلى مروان، فإن نظفر نعدل بينكم، وإن يكن ما تمنون فسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون(٢) وخرج برجاله من المدينة في أوائل جمادى الأولى عام ١٣٠هـ، ولم يخرج معه أحد من أهلها سوى عبد العزيز القاري الذي انضم إليهم. وتقول بعض المصادر(٣) أن أبا حمزة قد ترك بعض أتباعه في المدينة ، بينما تقول مصادر أخرى إنه خرج بأصحابه جميعاً(٤)وعلى أية حال لم تمض سوى أيام قليلة حتى وصلت الأخبار بأن جيش أبي حمزة قد التقى عند وادي القرى بجيش ابن عطية،

---

١) الطبري ٧/٣٩٩
٢) الطبري ٧/٣٩٩.
٣) الطبري ٧/٣٩٨.
٤) ابن الأثير ٥/٣١.

ودارت الدوائر على الخوارج فقتل معظمهم ونجا منهم القليل، ولم يلبث أن وصل إلى المدينة فلول منهم فرأى فيهم بعض أهل المدينة الجنود الذين قتلوا اخوانهم في قديد وجرحوا وأسروا، فغلت الحمية في نفوسهم، وهاجموهم وقتلوهم كي لايبقى من جيش الخوارج أحد.

وصل جيش ابن عطية إلى المدينة في نهاية جمادى الأولى ودخلها سلماً، وسر ابن عطية بما علمه من قتل أهل المدينة لفلول الخوارج وأحسن إلى بعضهم (١) ومكث في المدينة شهراً يتردد فيه إلى المسجد النبوي ويلتقي بالناس، ثم خرج بجيشه قاصداً اليمن لملاقاة زعيم التمرد عبد الله بن يحيى، واستخلف على المدينة ابن أخيه الوليد بن عروة بن محمد بن عطية.

عادت المدينة إلى سكينتها بعد انتهاء زوبعة الخوارج، وأقام الوليد بن عروة فيها يدير شؤونها، وبينما الفتن مستعرة في الشام والصدام بين جيوش مروان ومناوئيها من الأمويين أنفسهم والعباسيين تتقاتل بشراسة، كانت المدينة تنعم بالهدوء والسكينة يقصدها طلاب العلم والزائرون والتجار، ويحملون معهم أخبار الاضطرابات وتمزق كلمة الأمويين وزحف جيوش العباسيين من شمال خراسان إلى أطراف العراق.

وجاء موسم الحج عام ١٣١هـ واستعد بعض أهل المدينة للخروج، وفوجئوا بالأمير يشجع الناس على الخروج معه والاستعداد بالسلاح لكل طارئ يعرض في الطريق، فأخبار الفتن متواترة، والمغامرون كثيرون، واللصوص وقطاع الطرق يجدون في هذه الأجواء فرصة ذهبية لنهب أموال الناس.

كان من المفروض أن يتولى موسم الحج عبد الملك بن محمد عطية فقد جاء أمر الخليفة مروان بن محمد بتوليته الموسم، غير أن القادمين مع قوافل اليمن نعوا إلى الوليد بن عروة عمه عبد الملك وأبلغوه أن بعض القبائل قرب

---

١) الطبري ٣٩٨/٧.

مكة قد خرجوا عليه وهو قادم في اثني عشر رجل فقط إلى الحج واتهموهم بأنهم لصوص، ولم يصدقوا ابن عطية الذي أبرز لهم كتاب الخليفة بإمارته للحج وقتلوهم، فنقم الوليد بن عروة نقمة شديدة، ومضى بمن معه من الناس، فقاد موسم الحج، ثم أمر صحبه ومن أدركه من الجند في مكة أن يسيروا إلى القبيلة التي قتلت عمه، فساروا إليها وفاجأوها، وبطشوا بها بطشاً ذريعاً، وقتلوا بعض الفتية والنساء انتقاماً لعبد الملك بن عطية ولغيره ممن قتلوهم(١).

ويبدو أن مروان بن محمد الذي يقاتل خصوماً كثيرين في أطراف الشام والعراق وخرسان قد ساءه بطش الوليد بن عروة وفتكه بالصبيان والنساء، فرأى أن ينحيه عن المدينة ويستعين به في بعض معاركه، فأرسل بعزله وطلبه ليلحق به وبعث مكانه أخاه يوسف بن عروة.

البيــعة الســرية:

كان من بين شباب الهاشميين شاب قوي طموح هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، وقد تفرس فيه عدد من أهل الحجاز النجابة والشجاعة، فأغروه باستغلال هذه الفرصة والدعوة لنفسه ووعدوه بالنصرة، ولكن محمد بن عبد الله بن الحسن لم يستجب على الفور، بل أخذ يفكر في الأمر ملياً، ويشاور أقاربه وأصحابه، فأشار عليه بعضهم بالخروج، وحذره بعضهم الآخر من أن تتكرر مأساة أسلافه فيه، واجتمع عدد من أحفاد الحسن والحسين وعبد الله بن العباس وبعض أهل الحجاز وقلبوا الأمر معه وشجعوه عليه فقبل، واجتمع عدد من الهاشميين والعباسيين سراً وخلعوا طاعة مروان بن محمد وبايعوا محمد بن عبد الله بن الحسن.

وكان مع المبايعين أبو جعفر المنصور الذي سيصبح خليفة بعد عدة سنوات، وستكون لمبايعته هذه أثر قوي على محمد بن عبد الله وأهل المدينة.

---

١) الطبري ٧/١٤٠-١٤١.

ولكن محمد بن عبد الله بن الحسن لم يعلن خروجه، وفضل أن يكمته ويراقب تطورات الأمور الى أن يجد الفرصة المناسبة فيخرج داعياً إلى نفسه. وظل الأمر داخل البيوت وخلف الأبواب المغلقة في المدينة ومكة، وظل في صدور عدد قليل من الناس ولم يشعر به أمير المدينة قبل أن يعزل، ولم تتح الفرصة للأمير الذي خلفه أن يشعر به أيضا(١).

نهاية العصر الأموي:

وفي هذه الفترة لغط الناس بضعف حالة الخلافة، وتفرق كلمة الأمويين وكثرة خصومهم. وكانت الأحوال السائدة في دمشق والعراق وخراسان تؤذن بقرب نهاية حكمهم، رغم الجهود الهائلة التي كان يبذلها مروان بن محمد. ولم يكن في المدينة من يفكر بمحاولة استعادة الخلافة وإعادتها إلى المدينة، فأهل طيبة قد دفعوا ثمناً غالياً في المرات التي خرجوا فيها على الخليفة، ولم يعودوا يفكرون في الأمر، باستثناء بعض الهاشميين الذين يغريهم شيعتهم في الكوفة وخراسان بين الحين والآخر.

ووصل الأمير يوسف بن عروة إلى المدينة في أواخر شهر ربيع الأول عام ١٣٢هـ ووصلت معه أخبار الاضطرابات الشديدة وهزائم جيوش مروان أمام زحف جيوش العباسيين بقيادة أبي مسلم الخرساني. واضطرب الأمويون من أهل المدينة اضطراباً شديداً، وما كاد يوسف يستقر في الامارة حتى وصل الخبر بأن العباسيين قد أحكموا سيطرتهم على العراق وبايعوا السفاح في الكوفة في ١٣ربيع الآخر، وبعد أقل من شهر وصلت أخبار هزيمة الجيش الأموي في موقعة الزاب الكبير ثم سقوط دمشق بعدها في العاشر من رمضان.

أدرك أهل المدينة بعد سقوط دمشق بيد العباسيين أن دولة الأمويين قد زالت، وراحوا يترقبون أثار هذا التغير على مدينتهم، ويخشون أن يكون على غرار ما يجري في المدن الأخرى، يستأصل فيه العباسيون من يجدونه من

---

١) انظر عن هذه البيعة: التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ١١٧/٥

الأمويين، ويقتلونهم شر قتلة. واضطرب الأمير يوسف بن عروة، ولم يكن قادراً على أن يفعل شيئاً، كما اضطرب جميع الأمويين في المدينة، وكان بعضهم يملك قصوراً مترفة على وادي العقيق، وبعضهم يملك المزارع والبساتين، وسواء أكانوا منغمسين في الحياة السياسية أم لا فان نسبهم الأموي سيجعلهم متهمين عند العباسيين.

ووردت الأخبار من الكوفة باستقرار أمر العباسيين تماماً، وبأن الخليفة السفاح قد عين عمه داود بن علي أميراً على المدينة ومكة واليمن، وانه قادم براياته السوداء لتخليصها من الأمويين(١)٠

فزع الأمير يوسف بن عروة ولم يجد ما يفعله سوى أن يترك الإمارة ويضرب في الأرض إلى حيث تقيم بطون من قبيلته ليحتمي بها. ولم يدر بخلد أهل المدينة أن يواجهوا العباسيين، أو أن يحموا الأمويين، فليسوا بأهل حرب، وما زالت دماء قديد شاهدة على قلة خبرتهم فيها، وليس لديهم دوافع تجعلهم يضحون من أجل الأمويين. وربما كان في نفوس الكثيرين بقايا ألم وجراح منهم، فضلا عن أن الأمويين في المدينة كانوا فئة متميزة بالثراء الواسع، وقصورهم على العقيق تشهد بذلك.

لذا عندما وصلت طلائع قافلة العباسيين نصب بعض أهل المدينة ثياباً سوداء على دورهم إعلاناً عن طاعتهم للعباسيين وطلباً للأمان، وكان العباسيون اذا لقيهم الناس بالسواد أمنوهم وقبلوا منهم البيعة.

واحتار الأمويون في المدينة ماذا يصنعون؟ هل يقبل منهم العباسيون البيعة وقد رفضوها من أقاربهم في الكوفة ودمشق وقتلوهم شر قتلة؟ أم هل يهربون؟ وإلى أين وجيوش العباسيين في الشام ومصر وهي قادمة إلى الحجاز واليمن؟٠

لم يجد معظم الأمويين بدأ من البقاء في المدينة، فليس لهم مهرب، ثم

---

١) الكامل ٤/٣٤١.

كيف يهربون ويتركون قصورهم وبساتينهم ليعيشوا مشردين يتهددهم القتل في كل مكان، لذا قر رأي معظمهم على البقاء ورفع السواد على البيوت وتسليم الأمر لله.

ودخل داود بن علي المدينة في ذي الحجة عام ١٣٢هـ ليطوي في نهاية هذا العام العصر الأموي، وليبدأ فصلا جديد هو فصل العصر العباسي، وهو فصل طويل مليء بالأحداث، وهو ما سنراه في الصفحات القادمة.

الجانب السياسي في العهد الأموي في المدينة المنوره:

كانت فراسة الصحابي الجليل عبد الله بن سلام صائبة عندما وقف يرجو على بن أبي طالب رضي الله عنه إلا يخرج ويخرج الخلافة من المدينة. وقال له: إذا خرجت الخلافة منها فلن تعود اليها أبداً.

ومن يومها لم تعد المدينة المنورة مركز الثقل السياسي، بل تحولت إلى منطقة لها مكانتها الدينية والتاريخية من جهة، ولها محاذير سياسية كبيرة يخشاها الخلفاء الأمويون في دمشق من جهة أخرى، وهاتان صفتان هما كفتا الميزان اللتان كانت الحياة السياسية تتأرجح بينهما، وتتأرجح من ثم عوامل الاستقرار والأمن والتعامل بين الحكومة والرعية.

فالمكانة الدينية والتاريخية للمدينة المنورة مستقرة في أعماق الخلفاء والأمراء وقادة الذين غزوها منذ (حبيش بن دلجة) إلى (أبي حمزةالخارجي) هؤلاء جميعاً كانوا يعظمون المدينة المنورة، ويحسبون لها ولأهلها حسابات خاصة، فيتذكرون قدسيتها وحرمتها وأنها جديرة بالرعاية الخاصة، ويذكرون المسلمين الأوائل الذين عاشوا فيها، ويتهمون سكانها الذين يعاصرونهم بأنهم بدلوا وغيروا، وبأن الأصول عظيمة والفروع غير مستقيمة. يضاف إلى ذلك أن المدينة المنورة كانت منبت عدد كبير من الأمويين الذين هاجر آباؤهم إليها منذ زمن رسول الله ﷺ، فهي الموطن والأصل.

وأما المحاذير السياسية التي كان يخشاها الخلفاء الأمويون فأهمهاالمناداة بالحق التاريخي أو الوراثي للمدينة والهاشميين أو الزبيريين الذين يقطنونها، فالمدينة عاصمة الإسلام الأولى، وخروج علي منها إلى الكوفة كان بقصد التصدي لمعاوية فقط، ولم يعلن علي انتهاء المكانة السياسية للمدينة، وربما كان من الحكمة أن يخرج منها ليجنبها الحروب والصدامات في أحيائها أو ضواحيها.

والهاشميون الذين يقطنونها هم أبناء علي وأحفاده، وكثير منهم يرى أن

الأمويين قد اغتصبوا الخلافة رغم تنازل الحسن بن علي عنها لمعاوية تنازلا شرعياً صحيحاً، ثم إن انتقال الخلافة من معاوية إلى يزيد كان اجتهاداً من معاوية لم يوافق عليه الحسين بن علي ولا عبد الله بن الزبير، وقد سرى في بعض أحفاد الحسين بن علي وبعض أحفاد الحسن أيضاً هذا الاعتقاد، كزيد بن علي بن الحسين بن علي ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، واذا كان الخلفاء الأمويون يدينون الناس بالطاعة المقررة شرعاً لأولي الأمر، وكان أولو الأمر هؤلاء يتولون الخلافة وراثة، فالهاشميون في اجتهاد الهاشميين وشيعتهم أحق بتلك الوراثة لنسبهم ومكانتهم.

وهكذا يتحول الأمر إلى هاجس في ضمير عدد قليل من الهاشميين والزبيريين، وهاجس في ضمير بعض الخلفاء وأمراء المدينة، ويصبح المحور الأساسي للجانب السياسي في المدينة المنورة أمرين رئيسيين مترابطين ومتداخلين هما: الموقف من الخلافة بين الولاء والتمرد، والعلاقات بين أمراء المدينة وأهلها ليناً وشدة.

والجانب الثاني مرتبط بالجانب الأول غالباً،لأن العلاقات ستتأثر بما يراه أو يظنه الخليفة أو الأمير في طاعة المدينين أو عصيانهم، فيلينوا لهم ما آنسوا فيهم الطاعة، ويشتدون عليهم إن رأوا أو ظنوا فيهم الشقاق.

وقبل أن نستعرض سلسلة العلاقات المتذبذبة في هذا المحور نقف عند قضية مهمة جرت في حياة المدينة المنورة، هذه القضية هي الصيغة السياسية الموحدة لأهل المدينة المنورة، وهذه الصيغة تحول وتطور كبير وخطير. فمن المعروف أن المدينة قبل الاسلام (يثرب) لم يكن لها كيان سياسي موحد، وكانت القوة تتوزع في ثلاثة تجمعات سكانية لكل منها كيانه السياسي المستقل، وعلاقاتها الخاصة مع جيرانها القريبين والبعيدين، هذه التجمعات هي: الأوس، الخزرج، واليهود، وكان لكل منهم ولاءاته ومعاهداته الخاصة وعلاقاته المتميزة مع الآخرين. فالأوس متحالفة مع بعض القبائل وشطر كبير

من اليهود (بني قريظة وبني النضير). والخزرج تبحث عن تحالفات خاصة خارج المدينة، تصل إلى مكة، وتحالف شطراً محدوداً من اليهود (بني قينقاع وبعض الفروع الصغيرة الأخرى) وبين التجمعات الثلاثة علاقات متذبذبة تضطرب إلى حد الصدام المسلح أحياناً، وتسكن الى حد التصاهر أحياناً آخرى.

وعندما انتشر الإسلام في المدينة وجاء المهاجرون إليها تغيرت التجمعات إلى المهاجرين والأنصار، وبخاصة بعد أن كسرت شوكة اليهود. وقد ظهرت أثار هذا التحول السياسي بوضوح وقوة يوم السقيفة، فكان التخاطب وتقرير حق الخلافة وفق هذا التقسيم. وقد استمر هذا الكيان السياسي المزدوج مدة الخلافة الراشدة، وكانت ألوية الحروب والغزوات توزع بين المهاجرين والأنصار باعتبار هذا التقسيم نوعاً من التنظيم الإداري، وليس باعتباره حزبين سياسين متعارضين أو متخاصمين.

ولكن عندما تحولت الخلافة إلى الأمويين تغير الأمر، وبدأ التغير منذ خلافة معاوية، إذ لم يكن في صف معاوية من أهل المدينة باستثناء الأمويين - إلا نفر قليلون - واتحد موقف المهاجرين والأنصار الذين لم يخرجوا من المدينة المنورة على بيعة علي، ومن ثم لم يكن لمعاوية ولاء فيها. وكان في جيش علي فرقة خاصة من أهل المدينة ظلت موالية له حتى استشهاده، ثم والت ابنه الحسن ووقفت معه بقوة، وعندما عزم الحسن بن علي رضي الله عنه على التنازل لمعاوية لم تكن فرقة المدينة راضية، حتى إن قائدها لام الحسن على تنازله وحاول إثناءه عنه، ولكن الحسن أقنعه بضرورة ذلك ، فعادت الفرقة إلى المدينة على مضض.

وكان معاوية رضي الله عنه يدرك مشاعر أهل المدينة، وقد اجتهد في تحويلها ما وسعه ذلك، وجاء إلى المدينة عام الجماعة (وهوالعام الذي تنازل فيه الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية واجتمع شمل المسلمين على خليفة

واحد) ليوثق البيعة لنفسه، وكان الموقف هذا بداية توحيد لأهل المدينة في نسق واحد وموقف واحد. ولا يعني هذا أن أهل المدينة كانوا جميعاً خصوماً مناوئين لمعاوية والأمويين من بعده. فقد كان من بين رجاله المخلصين عدد منهم كالنعمان بن بشير وابنه. فضلا عن الأمويين أبناء المدينة، ولكنه يعني بداية الالتحام بين القسمين الكبيرين: المهاجرين والأنصار في تركيبة جديدة ينظر إلى ولائها وتمردها نظرة عامة لاعلاقة لها بذلك التقسيم، فمن كان موالياً من أهل المدينة فهو المقرب، سواء كان من المهاجرين أم من الأنصار، أم من أبنائهما، ومن ظن فيه قلة الطاعة أو الميل إلى الزبيريين أو الهاشميين أو أبنائهم حوسب على ميله أياً كان نسبه، وكأنما انتهى ذلك التقسيم السابق، وبخاصة بعد موقعة الحرة، ولعل تلك الموقعة هي آخر وجود سياسي لذلك التقسيم، فقد كان للأنصار لواء وتجمع يقوده عبد الله بن حنظلة، وللمهاجرين لواء وتجمع يقوده عبد الله بن مطيع. بعدها لم يظهر هذا التقسيم في موقف سياسي قط، وصارت النظرة إلى أهل المدينة تعدهم كلمة واحدة، فيهم الموالون المخلصون كأبناء النعمان بن بشير، وفيهم من هو مظنه التمرد والخروج على الطاعة كأحفاد علي. وهذا يعني شخصية موحده اندمجت فيها - نظرياً - العناصر السكانية وذابت معظم التوزعات القبلية - باستثناء الأموية - في الصيغة الجديدة، صيغة أهل المدينة.

ومثلما توحد الكيان السياسي لأهل المدينة توحدت النشاطات السياسية فيها، وتجمعت في قضية واحدة هي: قضية الولاء للخلفاء وأمرائهم. فانتقال الثقل السياسي خارج المدينة أعفاها من الأمور الكبيرة التي تشتغل بها العاصمة، مثل أمور الفتوحات وشؤون الولايات الأخرى والفتن التي تنشأ في بعض الأمصار والصراعات القبلية هنا وهناك، وغدت المدينة كسائر المدن الأخرى تشارك في البعوث والفتوحات بعدد من شبابها، يشكلون مجموعة خاصة لها قائدها، تسمى ربع أهل المدينة، تأتمر بأمر قائد الجيش أو

الكتيبة التي تضمها.

لذا يصح أن نقول ان النشاط السياسي تحول في المدينة المنورة في العهد الأموي إلى نشاط إداري يوجهه ويشرف عليه الأمير الذي يعينه الخليفة.

وقبل أن ندخل في تفصيلات هذا النشاط ننظر في اختيار أمراء المدينة وصلاحياتهم السياسية والادارية.

كان الخليفة هو الذي يختار أمير المدينة بنفسه، وكأنما وضعها تحت اشرافه المباشر. وقد حرص الخلفاء على انتقاء شخصيات لها وزن سياسي في بعض الحالات، ولها صلة وثيقة بالبيت الأموي إن لم تكن من أفراد ذلك البيت. ففي عهد معاوية وابنه يزيد تولى إمارة المدينة خمسة أشخاص جميعهم من البيت الأموي وهم على التوالي: مروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عتبة وعمرو بن سعيد بن العاص وعثمان بن محمد بن أبي سفيان. وكان مروان بن الحكم أطولهم زمناً، تولاها مرتين: الأولى من ٤١ الى ٤٩ للهجرة، والثانية من ٥٤ الى ٥٨ للهجرة. وكانت سياسة معاوية الحذر من التجمع الأموي في المدينة ومنع قيام قوة سياسية قد تؤثر عليه أو على ولاية عهده. وعندما تولى الفرع المرواني (أبناء مروان بن الحكم) الخلافة تناوب على الخلافة أمراء أمويون وأمراء غير أمويين، أما الأمويون فهم: يحيى بن الحكم بن العاص (٧٥ـ٧٦هـ) أبان بن عثمان بن عفان (٧٦ـ ٨٣هـ) هشام بن اسماعيل المخزومي (٨٣ـ٨٧هـ) عمر بن عبد العزيز (٨٧ـ٩٣هـ) عثمان بن حيان (٩٣ـ٩٦هـ) إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي (١٠٦ـ١١٤هـ) خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم (١١٤ـ١١٨هـ) محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي (١١٨ـ١٢٥هـ) عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز (١٢٦ـ١٢٩هـ) عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان (١٢٩ـ١٣٠هـ). وأما غير الأمويين فهم: عبد الرحمن بن الضحاك (١٠١ـ١٠٤هـ) والمشهورين بولائهم للأمويين كالحجاج بن يوسف الثقفي

(٧٣ـ٧٥هـ) ويوسف بن محمد بن يوسف الثقفي (١٢٥ـ١٢٦هـ) ومن الثقفيين المشهورين بولائهم عبد الله بن محمد بن عقبة وأخوه الوليد (١٣٠ـ١٣٢هـ) وأمير واحد من أبناء الأنصار هو محمد بن عمرو بن حزم (٩٦ـ١٠١هـ).

وكان بعض الخلفاء ينظر إلى إمارة المدينة على أنها إكرام شديد لمن يتولاها، فيوليها أحد أقاربه المقربين، فعبد الملك بن مروان ولاها لخاله هشام بن إسماعيل المخزومي، وهشام بن عبد الملك ولاها لخاليه إبراهيم ومحمد بن هشام بن اسماعيل، والوليد بن يزيد ولاها لخاله يوسف بن محمد الثقفي أيضاً.

وكانت إمارة المدينة تتسع أحياناً فتضم مكة والطائف وبقية الحجاز، بل واليمن أحياناً، وتتقلص حتى تقتصر على منطقة المدينة وحدها أحياناً أخرى. عير أن فترات اتساع الإمارة (حوالي ٨١ سنة)، تزيد على فترات تقلصها (حوالي ٣١سنة). وخلال العهد الأموي تبعت المدينة لابن الزبير قرابة عشر سنوات، وكانت إمارة مستقلة، يرسل لها عبد الله بن الزبير أميراً، وقد تناوب عليها خمسة أمراء هم: عبيد الله بن الزبير (٦٤ـ٦٥هـ) جابر بن أسود بن عوف (٦٥ـ٦٥ وفترة أخرى ٦٧ ـ ٧١) ومصعب بن الزبير (٦٥ـ٦٦) وطلحة بن عبد الله بن عوف (٧١ـ٧٢) وهم أيضاً مقربون من ابن الزبير واثنان منهم هما أخواه، الأمر الذي يؤكد مكانة المدينة وأهمية إمارتها عند الخلفاء.

أما النشاط السياسي وبالأصح الإداري الذي كان يقوم به الأمير فيتوزع على الأمور التالية:

ضبط الأمن في منطقة الإمارة:

ويشمل مفهوم الأمنِ الأمنَ السياسي أي: ولاء الناس للخليفة ومنع أية دعوة لمناصرة المناوئين، وفي مقدمتهم الزبيريون والهاشميون، والمحافظة على الولاء لعبد الله بن الزبير مدة سلطانة فقط، ولم يجد الأمراء صعوبة في تحقيق هذا اللون من الأمن، فقد استطاع معاوية بالترغيب والترهيب والعطاء و

الحرمان أن يضبط الأمور في المدينة، واستطاع ولاته أن يحولوا دون ظهور أي تمرد عليه، فلما تولى يزيد بن معاوية الخلافة خرج الأمر من يده، واستطاع ولاة ابن الزبير أن يضمنوا الولاء العام لعبد الله بن الزبير، ولكن وجدت حالات استثنائية قليلة، فسعيد بن المسيب رفض المبايعة لعبد الله بن الزبير وضرب لذلك. ومنذ أن ظهرت فكرة أخذ البيعة لولي العهد كان في المدينة من يأبى إعطاءها، وعندما أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد امتنع الحسين وعبد الله بن الزبير، وعندما عقد الوليد بن عبد الملك لابنه العباس رفض سعيد بن المسيب المبايعة أيضاً(١). أما عامة أهل المدينة فكانوا يعطون البيعة بسهولة.

ولم تحدث بعد موقعة الحرة فتنة أو ثورة إلى نهاية العصر الأموي. وعندما فكر أحد الهاشميين بالخروج على الخلافة (زيد بن علي بن الحسن) غادر المدينة إلى الكوفة وأعلن تمرده فيها، ولم يشايعه أهل المدينة على تمرده. وعندما اضطرب أمر الأمويين في عهد مروان بن الحكم، وأغرى بعض القرشيين محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بالخروج وطلب الخلافة وبايعوه لم يجد في بيئة المدينة وظروفها مايساعده على ذلك ، فلم يظهر الخروج.

إذن يمكن أن نستنتج من ذلك كله أن الأمن السياسي كان مستتباً في المدينة مدة الحكم الأموي باستثناء فترة موقعة الحرة. وقد حدث تحول الولاء من الأمويين الى الزبيريين، ومن الزبيريين الى الأمويين دون إراقة دماء ودون امتناع أحد. وعندما وصل عبيد الله بن الزبير إلى المدينة في نفر قليل من رجاله أخذ البيعة لأخيه دون معارضة، وعندما جاء طارق بن عمرو ليعيدها الى الأمويين لم يجد عنتاً، حتى إن أمير المدينة من قبل الزبيريين لم يجد من يناصره ويتصدى للأمويين فخرج من المدينة وتركها لطارق.

---

١) انظر: جمهرة أنساب العرب ص ٨٩

وفي حياة المدينة المنورة وقعتان أخريان قدمت فيهما عدداً من أبنائها هما وقعة عمرو بن الزبير ضد أخيه عبد الله، ووقعة قديد ضد أبي حمزة الخارجي، وقد خرج أهل المدينة في المعركتين على غير رضى منهم ولا حماسة، حملهم أمراؤهم عليها حملاً بالترغيب والترهيب، وهُزموا في الموقعتين.

لذا يصح أن نقول إن المدينة بعامة قد تحولت إلى دار سلام يجنح أهلها إلى الموادعة وتجنب الدماء ولو كانوا غير راضين عن أمرائهم، وإنهم قد اشتغلوا بالجوانب الثقافية والاقتصادية والعمرانية، وزهدوا في السياسة والخلافة، وإن الآثار التي خلفتها موقعة الحرة كانت عميقة جداً في نفوسهم ونفوس أجيالهم التالية، فقد علمتهم هذه الآثار أن يكونوا أكثر تعقلا وألصق بالفقه والعلم الذي يتدارسونه، وهو علم يقرر أن شق عصا الطاعة وإضرام الفتنة من الأخطاء الكبيرة ولا يجوز تكررها على الإطلاق. لذلك لم يكن من العسير على الأمراء تحقيق الأمن وضبط الأمور في المدينة المنورة، ولم يكن هناك خطر يتهددهم أو ينذر بالفتنة على نحو ما كان في بعض الأمصار.

ومع ذلك كانت هواجس الفتن في الأمصار البعيدة تجعل بعض الولاة يشتدون على أهل المدينة، ويهددونهم، ويبثون فيهم العيون في مجالسهم، كما فعل عثمان بن حيان المري ويوسف بن محمد الثقفي، ولم يخف عثمان بن حيان تجسسه على الناس بل أعلن عنه في خطبته إمعاناً في التهديد والوعيد.

وبالمقابل لم تكن تلك الشدة تتعدى الغلظة في المعاملة والخشونة ومصادرة بعض المال والجلد، فلم تعرف المدينة مَنْ رَفَع السيف على الناس في غير فتنة الحرة، كما أن الخلفاء كانوا يوصون الأمراء بالرفق بأهل المدينة وحسن معاملتهم غالباً، وقد أشار إلى ذلك الحجاج بن يوسف عند مغادرته المدينة فقال: والله لولا ما كانت تأتيني كتب أمير المؤمنين فيهم لجعلتها مثل

جوف الحمار[1].

وكان الخلفاء يعزلون الأمراء الذين يؤذون أهل المدينة أو يشتطون في الحزم وترتفع بهم الشكاوى، ويعاقبونهم عقوبة مهينة، وقد عاقب سليمان بن عبد الملك عثمان بن حيان المري لقسوته على أهل المدينة، وعاقب الوليد بن عبد الملك هشام بن إسماعيل وأمر بوقفه للناس ليقتصوا منه جزاء ظلمه مدة إمارته، وأمر الوليد بن يزيد بمعاقبة إبراهيم ومحمد بن هشام ووقفهما للناس، ولم تكن عقوبتهما لأجل قسوتهما على أهل المدينة فحسب بل كانت معها أسباب أخرى، وأمر يزيد بن عبد الملك بتعذيب الضحاك عذاباً شديداً لأنه اجترأ على فاطمة بنت الحسين رضي الله عنها وهددها إن لم تقبل الزواج منه بجلد ابنها.

وهكذا تشاء القدرة الإلهية أن يلقى الذين اشتدوا على أهل المدينة وظلموهم عقوبة عاجلة، وأن يتنكر لهم الخلفاء، وقد مات كل من محمد وابراهيم بن هشام بن إسماعيل في التعذيب، ولقي عبد الرحمن بن الضحاك ذلا شديداً بقية حياته.

ولم تخل الحياة السياسية والادارية في المدينة من فترات ذهبية كانت فيها أنعم المدن أمناً وطمأنينة وحسن رعاية ومعاملة. ومن تلك الفترات فترة أبان بن عثمان (٧٦ـ٨٣هـ) وعمر بن عبد العزيز (٨٧ ـ٩٣هـ) ومحمد بن عمرو بن حزم ابن المدينة وأحد فقهائها الكبار (٩٦ـ١٠١هـ) وعبد الواحد بن عبد الله بن بشر النضري (١٠٤ـ١٠٦هـ) وعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز (١٢٦ـ١٢٩هـ).

ولو تمعنا في هذه التواريخ لوجدنا أن الشدة واللين كانتا تتناوبان تقريباً على المدينة، ما أن يأتي أمير قاس حتى يتبعه أمير لين الجانب يمسح شدة سلفه.

---

١) الكامل ٣/٩٦.

وكان لأمير المدينة شرطه ينفذون أوامره ولهم رئيس يلازمه في كثير من الأوقات ويكون المشرف على السجن، ولم تذكر المصادر التاريخية عدد رجال الشرطة ولكنهم على ما يبدو ليسوا كثيرين ولم يكونوا يشكلون قوة محاربة، بل قوة ضابطة لمدينة آمنة، ونحن نستنتج هذا من بعض الأحداث التي رواها المؤرخون، فعندما سجن الوليد بن عتبة موالي سعيد بن العاص أرسل إليهم سعيد أن يشغبوا ويهربوا من السجن، وأعد لهم جمالا في السوق، فشغبوا على صاحب السجن وحرسه المحدود وكسروا الأبواب وذهبوا إلى السوق فركبوا الابل ومضوا ولم تستطع شرطة الإمارة أن تفعل شيئاً لقلة عددهم. وعندما خلع أهل المدينة طاعة يزيد بن معاوية سنة ٦٢هـ أخرجوا عثمان بن محمد بن أبي سفيان ولم تكن له شرطة تمنعه.

ولا شك أن جو السكينة الذي خيم على المدينة جعل أمراءها لايفكرون في إنشاء قوة حماية ضخمة، وبعض الأمراء كعمر بن عبد العزيز كان يسير معه شرطي واحد فقط يرافقه في الذهاب إلى المسجد ويصلي خلفه لحمايته. كما أن المدينة لم تكن لها قوة عسكرية دائمة أو جيش نظامي فلم تكن بها حاجة لهذا الجيش، وفي الحالات القليلة التي هاجمتها فيها الجيوش كجيش يزيد بقيادة مسلم بن عقبة سنة ٦٣هـ، وجيش أبي حمزة الخارجي سنة ١٣٠هـ شكل أهلها على عجل قوة عسكرية لمواجهة الغزاة. وقد انخرط في المرة الأولى عدد كبير من أهل المدينة يتجاوز عشرة آلاف مقاتل، وأبلى المقاتلون بلاء عظيماً، لأنهم كانوا يدافعون عن مدينتهم. ولم يتجاوز الجيش في المرة الثانية ١٥٠٠ مقاتل، قتل أكثر من نصفهم وهُزم الباقون.

فضلا عن هذه الحالات كان عدد من أهل المدينة يكتتب في بعوث الفتوحات ومحاربة الفتن، وكان الخليفة أو الأمير يقدر العدد المطلوب ويفرضه فرضاً أحياناً، فقد فرض الوليد بن عبد الملك عليهم بعث ألفين للغزو في الصائفة، فلم يخرج سوى الف وخمسمئة، وفرض عليهم هشام أربعة آلاف

فخرجوا وشاركوا في عدد من الحروب الأخرى في أرباع خاصة بهم.

أما جوانب الأمن الأخرى فأحسب أن أهل المدينة كانوا أكثر الناس تمتعاً بها، لأن جذوة الايمان المشتعلة فيها، وحلقات العلم والتربية التي مازالت تتأثر بسيرة الجيل السابق، كل ذلك أدى إلى ندرة الجريمة والانحراف خاصة وأن الأمراء حريصون على تطبيق شرع الله وإقامة الحدود.

الجوانب الشرعية والإدارية الأخرى:

كان أمراء المدينة يأمرون بجباية زكاة الأموال وعشور الأراضي وخراج الأسواق، فقد كان من مسؤلية الإمارة أن تجبي زكاة الأموال، ومنذ أن تولى مروان بن الحكم إمارة المدينة سير الجباة في منطقة الإمارة كلها، داخل المدينة وخارجها إلى حدود اليمن. وكان عثمان بن عفان قد أباح للناس أن يخرجوا زكاة أموالهم بأنفسهم، فلما تولى مروان إمرة المدينة ألغى ما قرره عثمان، خشية أن يتهاون الناس في إخراج الزكاة من جهة ولتدبير موارد ديوان الإمارة والخلافة من جهة أخرى. وقد كانت الأموال توزع على الناس أول الأمر، أو يوزع قسم كبير منها، ثم أصبحت تودع في الدواوين ويحمل قسم منها إلى ديوان الخليفة في دمشق، ولا يعطى منها إلا من يسجل اسمه في الديوان، وكان أهل المدينة من غير الفقراء يأبون أن يأخذوا من أموال الصدقة شيئاً، وقد ردوا أموال الصدقة، التي جاءتهم من اليمامة زمن هشام بن عبد الملك. وأما الأراضي فتقدر غلاتها وتجبى عشورها وتضم إلى خزينة الديوان. ولم يكن في المدينة خراج، لأن الحجاز كلها لاخراج عليها، ولكن ضرب خراج على السوق التجارية أو على جزء منها زمن معاوية وهو الجزء الذي بني فيه مبنيين، وكان الخراج على التجار الذين يبتاعون فيها، فهو بمثابة الإيجار. وفي خلافة هشام بن عبد الملك شيد أمير المدينة إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بناء أدخل فيه سوق المدينة كله وفرض الخراج على التجار جميعاً، فتضايق أهل المدينة وأدوه مكرهين، فلما مات هشام هجموا

على المبنى وسووه بالأرض، فلم يفرض على سوقهم خراج بعد ذلك.

إضافة إلى جباية الأموال كان الأمير يؤم الناس في الصلاة، ويخطبهم في الجمعة والعيدين، وعند تولي الإمارة، وعند ورود أمر من الخليفة يقتضي التعميم أو الإنذار، ولم يجد أهل المدينة أي بأس من الصلاة خلف أمرائهم، فقد كان الحسن والحسين يصليان خلف مروان بن الحكم، وقدم الحسين بن علي سعيد بن العاص أمير المدينة آنئذ للصلاة على أخيه الحسن، وصلى أهل المدينة وراء القادة الذين غزوا المدينة كلهم، من جيش بن دلجة إلى أبي حمزة الخارجي أخذاً بأمر رسول الله ﷺ (صلوا خلف كل بر وفاجر).

وكان من مهمات الأمير أن يعين القاضي، وهو أول عمل يقوم به عندما يتولى الإمارة، وفي الغالب كان الأمير يعزل القاضي الذي عينه سلفه ويعين قاضياً آخر يعرفه، فعندما تولى مروان بن الحكم الإمارة عين عبد الله بن نوفل بن الحارث، فلما جاء سعيد بن العاص عزله وعين مكانه أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، فلما عاد مروان بن الحكم للإمارة مرة ثانية عزل أبا سلمة وولى مصعب بن عبد الرحمن بن عوف. وقد تولى القضاء في المدينة مدة الحكم الأموي ٢٣ قاضياً على التوالي وهم أكثر عدداً من أمرائها، فبعض الأمراء كان يعزل القاضي الذي عينه أو يموت القاضي في عهد إمارته فيعين بديلا عنه.

جدول قضاة المدينة في العهد الأموي

١ - عبد الله بن نوفل بن الحارث	٤١ - ٤٩هـ
٢ - أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف	٤٩ - ٥٤هـ
٣ - مصعب بن عبد الرحمن بن عوف	٥٤ - ٥٨هـ
٤ - عمرو بن عيد بن زمعة	٥٨ - ٦٢هـ
٥ - طلحة بن عبد الله بن عوف	٦٢ - ٧٣هـ
٦ - عبد الله بن قيس بن مخرمة	٧٣ - ٧٥هـ

٧ ـ نوفل بن مسالق ٧٥ ـ ٨٢هـ

٨ ـ عمر بن خلدة الزرقي ٨٣ ـ ٨٧هـ

٩ ـ عبد الرحمن بن يزيد بن حارثة ٨٧ ـ ٨٧ هـ

١٠ـ أبو بكر محمد بن عمر بن حزم الأنصاري ٨٧ ـ ٩٦هـ

١١ـ أبو طوالة عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر ٩٦ ـ ١٠١هـ

١٢ـ سلمة بن عبد الله بن سلمة ١٠١ ـ ١٠٤هـ

١٣ـ سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ١٠٤ ـ ❋

١٤ـ سعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت ❋ ـ ❋

١٥ـ محمد بن صفوان بن عبد الله ❋ ـ ❋

١٦ـ الصلت بن زبيد بن الصلت الكندي تداخلت عهودهم

١٧ـ أبو بكر بن عبد الرحمن كان يعين ثم يعزل ويعين غيره

١٨ـ مصعب بن محمد بن عبد الرحمن بن شرحبيل ثم يعين ثانية

١٩ـ محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو ❋ ـ ❋

٢٠ـ يحيى بن سعيد الأنصاري ١٢٥ ـ ❋

٢١ـ عثمان بن عمر بن موسى التيمي ❋ ـ ❋

٢٢ـ محمد بن عمران بن إبراهيم ١٣٠ ـ ١٣٢

❋ التاريخ المشار إليه بنجمة غير معروف على وجه التحديد بسبب تداخل زمن تعيين هؤلاء القضاة، فقد كان القاضي يعين ويعزل ويعين غيره ثم يعاد إلى منصبه، وربما يتكرر هذا أكثر من مرة، ولم تذكر المصادر التاريخية تواريخ محددة لتعينهم وعزلهم.

الجانب الاقتصادي في المدينة المنورة في العهد الأموي:

بين السياسة والاقتصاد روابط كثيرة تنتهي إلى تأثير وتأثر متبادل. فالوضع السياسي في بلد ما تظهر أثاره سلبياً وإيجابياً في وضعه الاقتصادي، والاستقرار السياسي طريق الى الرخاء الاقتصادي غالباً، بينما يؤدي الاضطراب السياسي إلى اختناقات اقتصادية متوالية. وبالمقابل تؤثر الحالة الاقتصادية لبلد ما على سياستها فتدعمها إن كانت قوية، وكانت السياسة رشيدة، أو تؤدي بها إلى التفكك والاسترخاء، وربما تجعلها عدوانية شرسة.

ولكن عندما يتعلق الأمر بمنطقة أو مدينة لاتملك القرار الساسي، فان حالتها الاقتصادية تتأثر بالعامل السياسي، وقلما تؤثر فيه. لذا ينبغي عندما ننظر في الحالة الاقتصادية للمدينة المنورة في العهد الأموي أن ننتبه إلى أثر العامل السياسي فيها.

ذلك أن انتقال مركز الدولة بعيداً عنها قد أثر على نشاطاتها الاقتصادية وعلى الموارد المالية التي كانت تصب فيها.

وقد رأينا أن الازدهار الاقتصادي الذي شهدته المدينة في العهد الراشدي كان له عاملان: عامل خارجي، هو الموارد المالية الكبيرة التي صبت في المدينة المنورة من الغنائم والفيء والعطاءات الدورية التي نظمها عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وعامل محلي، هو تطور النشاطات الاقتصادية المحلية، وبالذات التجارة والزراعة والحرف المختلفة، وقد عززت الموارد الخارجية النشاطات المحلية وأسهمت في تنميتها، لأنها يسرت لها رؤوس أموال تدعمها وتزيد أرباحها.

وطبيعي أن يتأثر هذان العاملان بالتحول السياسي الذي حل بالمدينة. أما الموارد الخارجية فقد اتجهت إلى العاصمة الجديدة دمشق، وقد جلبت الفتوحات الكثيرة في عهد الأمويين أموالا هائلة، بعضها غنائم صافية أخذتها

الجيوش من المناطق التي فتحت عنوة، فوزعت أسهم المجاهدين عليهم، وأرسلت البقية إلى الخليفة، وبعضها فيء كسبه المسلمون من المناطق التي فتحت صلحاً، أو جزية يدفعها أبناء البلدان الذين لم يدخلوا في الإسلام، وهي جميعها تصب في خزانة الخلافة بدمشق، ولايصيب المدينة شيء منها، اللهم إلا إذا شاء الخليفة أن يخص المدينة بعطية منها. ولا نجد فيما ذكره المؤرخون من تلك الاعطيات إلا حالات قليلة، كالحالة التي أمر فيها هشام بن عبد الملك أن يعطى أهل المدينة مبالغ كبيرة فدفعت إليهم من الفيء، ولما لم يكف الفيء دفعت لهم من صدقات نجد ، فأبى أهل المدينة أن يأخذوها، وردوا الإبل على أعقابها، فأرسل الخليفة لهم عوضاً عنها أموالا من الشام.

غير أن المدينة لم تحرم من بعض عطاءات الأمويين الكبيرة، ففي أول خلافة معاوية جاءت إلى المدينة أموال كثيرة منه، أراد أن يتألف بها قلوب أهلها، ولكن عندما صدم بامتناع الهاشميين والزبيريين عن مبايعة يزيد بولاية العهد أوقف العطاء.

وتوقف أيضاً العطاء الذي كان مفروضاً في ديوان العطاء لكل فرد من أهل المدينة. بعد ذلك أصبح العطاء غير منتظم، يأتي على فترات متباعدة وبمناسبات خاصة، فبعد موقعة الحرة أراد يزيد بن معاوية أن يمسح جراحات المدينة، فنصحه بعض من حوله أن يرسل إلى أهلها الطعام والمال ففعل. وعندما جاء الحجاج إلى المدينة حمل معه عشرة الاف دينار ووزعه، وحاول أن يعتذر إلى الناس بقلة ماحضره من المال، فلم يعذروه ، فاستحضر أموالا أخرى ووزعها عليهم.

وكان الخلفاء عندما يحجون أو يعتمرون يحملون إلى المدينة أموالا كثيرة ويوزعونها على الناس، فقد حمل عبد الملك بن مروان مالا كثيراً ووزعها في المرات التي حج فيها، وكذلك فعل أبناؤه: الوليد وسليمان وهشام. وكان الأمويون يخصون بعض وجوه أهل المدينة بأعطيات كثيرة.

وقد بالغ معاوية في إعطاء كل من الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والسيدة عائشة وزوجات الرسول ﷺ وبعض الصحابة، وكان يعرف أن هذه الأموال، أو قسم كبير منها، سيوزعها أصحابها على أهل المدينة.

وقد دأب الخلفاء على إكرام من يفد اليهم من أهل المدينة وإعطائه الأموال الوافرة، وبخاصة إذا كان من وجوه أهل المدينة. وقد أعطى يزيد بن معاوية أموالا طائلة لوفد المدينة الذي قدم إليه وفيهم عبد الله بن حنظلة وعبد الله بن مطيع وعبد الله بن الزبير. وعندما آلت الخلافة الى عبد الملك بن مروان أعطى الذين وفدوا إليه من المدينة أموالا كثيرة، وبخاصة الأمويين الذين استوطنوا المدينة وظلوا فيها.

وطبيعي أن هذه الأعطيات ستسهم في تنمية ثروات خاصة محدودة ولن يكون لها أثر كبير في تنمية الحالة الاقتصادية العامة في المدينة. كذلك لم تعد غنائم الحرب التي يحظى بها المجاهدون تشكل دخلا كبيراً لأهل المدينة، لأن الذين كانوا يكتتبون في بعوث الفتوحات قليلين، لم يتجاوزوا في عهد عبد الملك ألفاً وخمسمئة مجاهد، وعندما رآى هشام بن عبد الملك كثرة الناس في المدينة وقلة من يشارك منهم في البعوث فرض عليهم أن يخرج منهم أربعة آلاف رجل.

وهكذا تتقلص الموارد الخارجية في العهد الأموي عن عامة أهل المدينة، وتستمر بشكل متقطع على عدد من خاصة أهلها، فتصبح محدودة الأثر في تنشيط الحالة الاقتصادية العامة، وكأنها تترك المجال للعامل الثاني ، عامل الموارد المحلية كي يستأثر بالقسط الأوفى من النشاطات الاقتصادية ويصبح الدخل الرئيسي لأهل المدينة. وأهم هذه الموارد ما يلي:

الزراعة : نشطت الزراعة في العهد الأموي نشاطاً واسعاً، فازدادت المزارع واتسعت وجاءت بغلال وافرة. فالمدينة بطبيعتها الزراعية وتوافر المياه

في أراضيها شجعت أصحاب الثروات الكبيرة والمتوسطة على إقامة مزارع تغل لهم محصولا جيداً، وقد ورث بعض التابعين من آبائهم أراضي شاسعة، فورث أبناء الزبير بن العوام مناطق كبيرة في الغابة والجرف، وورث أبناء عبد الرحمن بن عوف مزارع وأراضي في مناطق شتى من المدينة، وورث عدد من أبناء المهاجرين والأنصار ما تملكه آباؤهم بالشراء أو الاستقطاع من رسول الله ﷺ أو الخلفاء. وقد شجع وقف الأعطيات والموارد الخارجية أصحاب تلك الأراضي على العناية بها واستثمارها، ويسر لهم ذلك وجود عدد كبير من العبيد والموالي في المدينة، ووجود أعداد أخرى منهم على موجات متوالية، سواء من السبي أو من التجارة.

وعندما بدأت حركة إعمار منطقة العقيق واكبها إنشاء مزارع وبساتين على أطرافه، أو في امتدادات القصور بينه وبين المدينة، فكان لكل قصر بستان كبير تغرس فيه أنواع شتى من أشجار النخيل، وتزرع فيه الخضروات والبقول. وقد امتدت المزارع في منطقة زغابة والجرف، وسارت مواكبة الغابة شمالا وشرقاً واتصلت ببساتين الحرة الشرقية، كما امتدت البساتين جنوباً واتصلت ببساتين قباء ومزارع بني قريظة سابقاً، وانتشرت مزارع القمح والشعير والذرة، وصارت استثمارات لها دخل عال.

وكانت المياه الجوفية القريبة خير مشجع على انتشار تلك المزارع، وقد حفر أصحاب الأراضي في العقيق والجرف أباراً كثيرة وسقوا بها زروعهم.

ونجد في الأخبار روايات عن اهتمام معاوية بمزارع المدينة وشرائه بعض الأراضي وإنشائه مزارع واسعة كانت تغل له أموالا ضخمة، وقد بلغ محصول تلك الأراضي في بعض السنين مائة وخمسين ألف وسق من الحنطة، ومثلها من الشعير، ومئة ألف وسق من التمر.

وكان بعض أهل المدينة يملكون مزارع خارج المدينة المنورة تغل لهم أموالا كثيرة، فأحفاد علي كانت لهم مزارع كثيرة في ينبع وخيبر وفي أطراف

المدينة، وقد وفرت لهم هذه المزارع دخلا جيداً مكنهم من مواصلة حياتهم الكريمة رغم إعراض الأمويين عليهم، والتقليل من العطاءات في بعض الظروف.

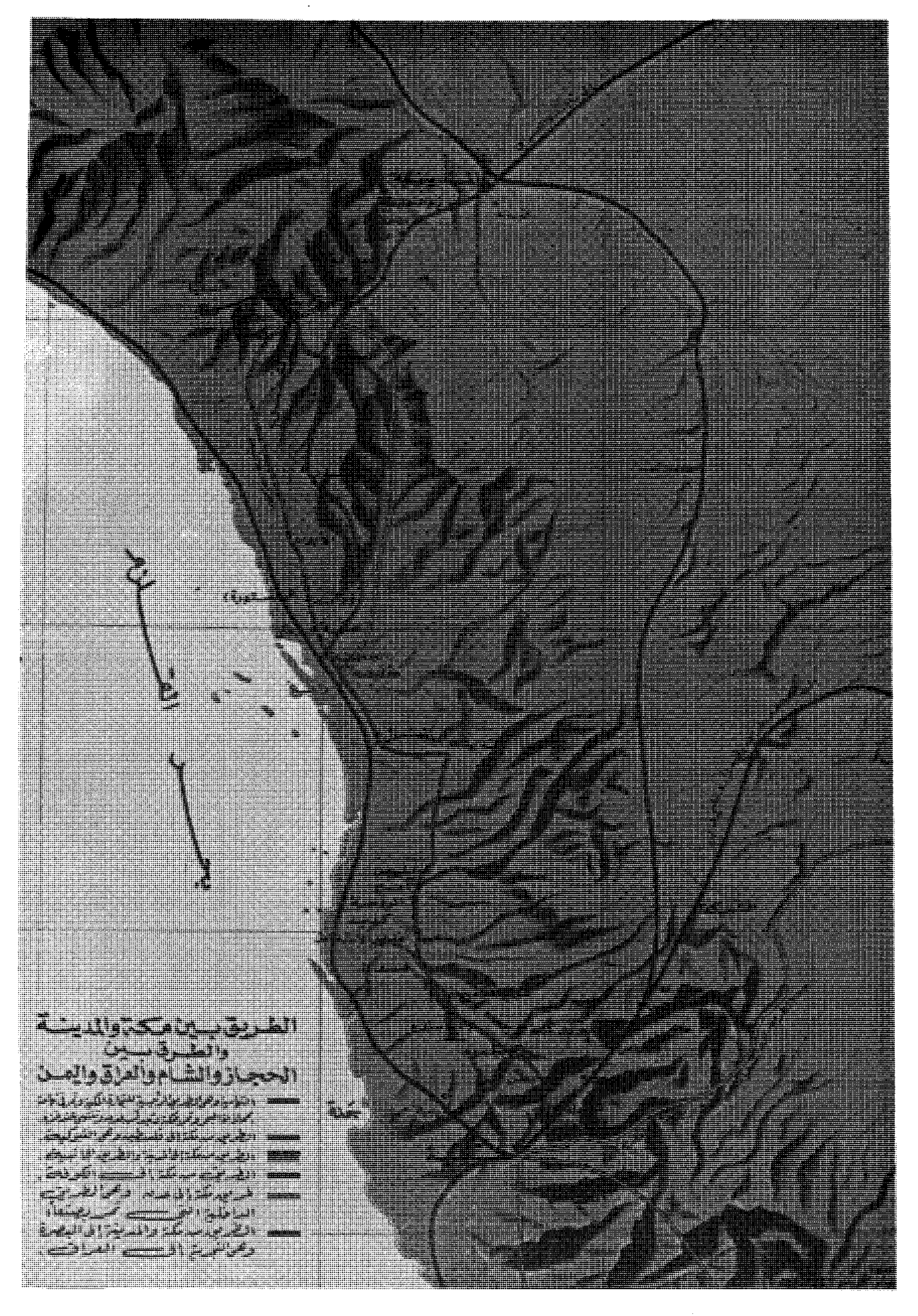
غير أن الزراعة قد تأثرت بموجات الجفاف التي مرت بالمنطقة، وساءت المواسم وقلت الحبوب قلة شديدة، وبلغ الناس شدة في الضيق في بعض السنوات، ولا سيما في سُنَيّات خالد، وهي سنوات عجاف صادفت مدة إمارة خالد بن عبد الملك بن الحارث، انقطع فيها المطر. واللافت للنظر أن المدينة لم تستقطب أبناء المناطق المجاورة في سنوات الجفاف، على نحو ما كان يحدث في عهد الراشدين، فعندما اشتد الأمر على الناس رحل من أرياف الحجاز ما يقدر بعشرين ألف شخص إلى بلاد الشام، وقد قدر هؤلاء أن المدينة لم يعد لديها من الموارد ما يؤمن لهم حاجاتهم، بينما الموارد في الشام وافرة تأتي من البلاد الاسلامية، ثم إن مركز الخلافة في الشام ولا بد أن الخليفة سيساعد المنكوبين.

التجــارة في العهد الأمـوي:

أما التجارة فقد تغيرت شيئاً ما، اتسعت التجارة المتوسطة والصغيرة، وتقلصت التجارة الضخمة التي كانت تسوق القوافل الكبيرة، ولم نعد نسمع بمثل قوافل عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف التي تصل إلى ألف جمل.

ومع أن المدينة المنورة كانت على الطريق التجارية من اليمن والشام،إلا أن الاضطرابات السياسية وهجرة الثروات الكبيرة ووفاة التجار الكبار السابقين وعدم ظهور من يخلفهم، هذه الأسباب قللت من القوافل الضخمة لأهل المدينة. غير أن سوق المدينة ظلت عامرة بما يفد اليها من أسواق الكوفة والبصرة والشام واليمن. وكان أصحاب هذه القوافل من أهالي تلك البلاد غالباً ما يأتون بتجارتهم فيبيعونها ويعودون بالأموال وبما يحملونه من منتجات المدينة المنورة إلى بلادهم.

وقد أسهمت مواسم الحج والعمرة في تنشيط التجارة المتوسطة، إذ كان



خطوط التجارة إلى المدينة المنورة من الآفاق

بعضهم يجمع بين الهدف التعبدي والعمل التجاري، والإسلام يبيح هذا الجمع (ليشهدوا منافع لهم) فتمتلئ سوق المدينة بكميات من واردات البلاد المختلفة ولا سيما الثياب والعطور والسكر وبعض أنواع البسط والحلي.

الصنـاعة في المدينة في العهد الأمـوي:

ظلت الصنـاعة تعتمد على الموالي والعبيد، وقد أسهمت الثروات الجديدة في تنمية بعض الحرف. فكان الرجل يقتني عدداً من العبيد المهرة في التجارة أو الحدادة أو البناء أو صنع الأثاث أو غير ذلك من الحرف، ويقيم لهم مصانع يعملون بها، ويحصل على دخل جيد من عائداتها. ولكن تلك الصناعة لم تتجاوز سد الحاجة المحلية غالباً، فلم يعرف عن المدينة أنها تصدر شيئاً من مصنوعاتها إلى المدن الأخرى.

العمـــران:

أهم ما يميز العمران في هذا العهد أمران:

أولا : حركة المد والجزر السكاني في عمق المدينة.

ثانياً : إعمار وادي العقيق وبعض المناطق الأخرى المحيطة بالمدينة، بالقصور والدور الواسعة.

أما داخل المدينة فقد تأثر بالموجات النازحة من المدينة منذ أن خرج جيش علي بن أبي طالب إلى الكوفة. وعندما خرج عدد من الأمويين إلى بلاد الشام، فقد فرغت بعض البيوت وظلت خاوية مدة طويلة.

وقد تكررت هجرة أفواج من أهل المدينة أيام الفتن، ولا سيما في وقعة الحرة، وإبان التجاذب بين الأمويين وعبد الله بن الزبير، ولكنها لم تتكرر بعد ذلك إلا في شكل هجرات فردية محدودة. وبالمقابل كان تزايد أهل المدينة يعمر مناطق غير مبنية، وكان معظم الناس من غير الأثرياء يفضلون السكنى داخل المدينة المنورة غير بعيد عن المسجد النبوي. وقد امتد العمران في الأحياء المحيطة بالمسجد النبوي وسار في جميع الاتجاهات. وحرص بعض

الذين يعيشون خارج المدينة على بناء دور فيها، أو شراء دار خالية لينزل فيها إذا جاء للزيارة، وكان لعدد من الأمويين المقيمين في دمشق والكوفة دور في أنحاء متفرقة من المدينة، كما أن بعض الولاة اشتتروا دوراً قريبة من المسجد النبوي وهدموها وأعادوا بناءها كما فعل عمر بن عبد العزيز وسليمان بن عبد الملك.

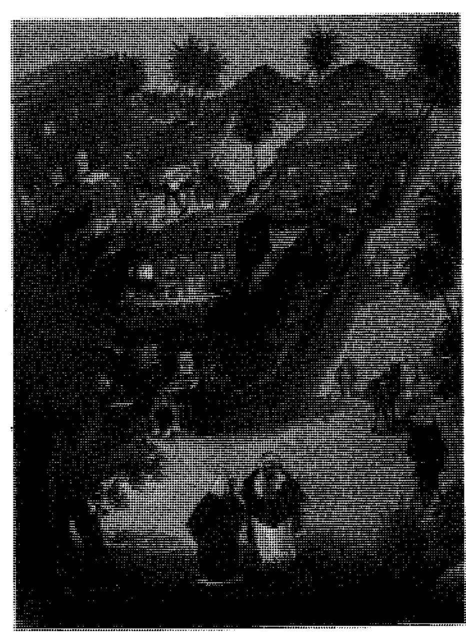
أما حركة الإعمار الثانية فكانت حركة متميزة في تاريخ المدينة المنورة.

فقد بدأ ورثة الثروات الكبيرة(١) كعروة بن الزبير وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم وبعض أبناء عثمان بن عفان في بناء دور واسعة على أطراف العقيق، وتنافسوا في ذلك تنافساً شديداً. وكانت إقطاعات العقيق بيد الخليفة مباشرة، لايستطيع أحد أن يمتلك موقع قصر أو مزرعة إلا بإقطاع منه. وقد بدأت حركة البناء في العقيق منذ أواخر الخلافة الراشدة، لكنها اشتدت في العصر الأموي وغطت ضفافه وعرصاته حتى لم يبق فيه موضع لبناء قصر.

وكانت القصور التي تبنى فيه تقام على أرض واسعة، ولكل قصر حديقة أو بستان كبير يغرس فيه صاحبه أنواعاً مختلفة من أشجار النخيل، ويزرع

---

١) ترك عدد من الصحابة ثروات كبيرة توزعها أبناؤهم . فقد بلغ مال الزبير بن العوام بعد وفاته خمسين ألف دينار وألف فرس وألف عبد وألف أمة ودوراً في المدينة والكوفة ومصر. وبلغت ثروة طلحة بن عبيد الله مبلغاً ضخماً ، وكان يرد إليه من أملاك له في العراق ثلاثمئة وستون ألف دينار في العام، وقد شيد داراً في المدينة وبناها بالآجر والجص والساج. وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف بعير ومئة فرس وعشرة آلاف من الغنم، وقد دفع لأحدى زوجاته - وكان طلقها قبل وفاته - أربعة وثمانين ألفاً. وترك زيد بن ثابت حين مات من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس، وخلف من الأموال والضياع ما قيمته مائة ألف دينار، وخلف يعلى بن أمية خمسمئة ألف دينار وديوناً على الناس وعقارات بمئة ألف دينار. المسعودي ٤٣٤/١، تاريخ الاسلام ٥٤٠/١.



قصور في منطقة العقيق أجمل وأغنى أحياء المدينة في العهد الأموي

فيه بعض البقول والخضار والفاكهة. وقد أورد المؤرخون أسماء عدد كبير من القصور المنتشرة في الحزام الغربي والشمالي للمدينة المنورة، وذكر السمهودي (١) أسماء خمسة عشر قصراً للأمويين، واثنين للزبيريين، وأحد عشر قصراً لبعض أبناء المهاجرين، وذكر قصوراً كثيرة لم يسم أصحابها، وبذلك يمكننا أن نتصور قيام حزام من القصور ذات الحدائق الواسعة تبدأ بالجزء الجنوبي الغربي للمدينة المنورة، وتمتد شمالا حتى تصل إلى أقصى الشمال الغربي على امتداد وادي العقيق، ثم تتجه شرقاً لتغطي أجزاءً من منطقة الجرف، وتصل إلى جبل أحد. أما المنطقة الشرقية فلم يذكر المؤرخون فيها شيئاً من القصور، ويبدو أن البناء الذي أقيم بها من قبل قد اتصل بتلال الحرة ولم يعد فيها متسع للبناء، فضلاً عن أن وعورة الأرض هناك تجعل استصلاحها أمراً شاقاً ومكلفاً، أما المنطقة الجنوبية من مناطق بني قريظة إلى قباء فالقصور فيها قليلة، فقد كانت تشغلها مزارع النخل، وليس من الحكمة أن تقطع تلك المزارع لتحول إلى مناطق سكنية أو أن تبنى القصور فيها رغم وجود بعض المباني البسيطة فيها.

وقد تردد ذكر العقيق وقصورة في كتب التاريخ والأدب، وحفظ لنا الشعر قصائد كثيرة فيه تدل على أن الحياة قد بلغت فيه ذروة المتعة والرفاه المعروفين آنئذ، وإلى تلك القصور ينسب ما ينسب لأهل المدينة من حياة الترف والغناء والاسترخاء.

---

١) انظر: وفاء الوفاء ٣/١٠٤٢-١٠٦٦

جدول القصور التي ذكرت في المصادر القديمة

أـ قصور الزبيريين :

١ـ قصر عروة بن الزبير

٢ـ قصر عبد الله بن مصعب الزبيري

ب ـ قصور الأمويين

قصر سعيد بن العاص

= مروان بن سعيد بن العاص

= عبد الله بن سعيد بن العاص

= عاصم بن عمرو بن عثمان بن عفان

= عبد الله بن بكر بن عمرو بن عثمان

= مروان بن الحكم

= ابراهيم بن هشام

قصر عنبسة بن سعيد بن العاص

= سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص

عنبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان

قصر عبد الله بن عامر

= عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان

= عبد الله بن أبي بكر

= سفيان بن عاصم بن عبد العزيز بنمروان

ج ـ قصور للقرشيين وغيرهم

قصر سعد بن أبي وقاص

= آل طلحة بن عمر بن عبد الله

= أمينة الزهرية

قصراسحاق بن أبن أيوب المخزومي

= سكينة بنت الحسين

= جعفر بن ابراهيم بن جعفر

= خارجة بن حمزة بن عبد الله
بن عبد الرحمن بن العوام
= محمد بن عيسى

= يزيد بن عبد الملك بن
المغيرة النوفلي
= أروى بنت أويس

= جعفر بن سليمان بن علي
= المقداد بن الأسود في الجرف
قصور بالعرصة لعبد الله بن
علي بن عبد الله بن العباس
قصور بالعقيق لم يسم أصحابها
قصور ببئر رومة كثيرة يمنة
ويسرة لم يسم أصحابها

قصور على يمين العقيق ويساره بعد مزارع أبي هريرة لم يُسَمَّ أصحابها.



د/ عبد الباسط بدر

الجزء الثالث



د/ عبد الباسط بدر

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

المدينة المنورة - ص.ب ٣٦٦٢

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

المدينة في عهد العباسيين

إمارة داود بن عيسى:

وصل داود إلى المدينة أميراً عليها فأصبحت المدينة عاصمة لإمارة واسعة تضم معظم شبه الجزيرة العربية، فقد أضيفت إليه مناطق مكة والطائف واليمن واليمامة، واشتغل بترتيب أمور إمارته وبالتجهيز لموسم الحج، ورتب أمر شرطته وعزل من ظن به الولاء أو الميل للأمويين، واستقبل الذين وفدوا يسلمون عليه بالإمارة، وكان فيهم عدد من الأمويين الذين بقوا في المدينة، ولم تكن لهم مشاركة في الأمور السياسية... فلم يبد لهم شيئا.. وخرج إلى الحج، فلما وصل إلى مكة أظهر التسامح والعفو، ووقف الى جوار الكعبة وخطب بالناس وذكر ما فضل الله بني العباس من قرابة إلى رسول الله ﷺ ومكانتهم في الجاهلية والإسلام، وظلم بني أمية لهم، ثم انتصار العباسيين عليهم، وختم الخطبة معلناً العفو عما سلف، ومما قاله: إنما كانت لنا فيكم تبعات وطلبات، وقد تركنا ذلك كله، وأنتم آمنون بأمان الله، أحمركم وأسودكم وصغيركم وكبيركم، وقد غفرنا التبعات ووهبنا الظلامات. وضرب بيده إلى الكعبة قائلاً: فلا ورب هذه البنية لا نهيج أحدا..(١).

فاطمأن الناس وانصرفوا إلى شعائر الحج.. فلما مضت أيام الحج عاد داود بن عيسى إلى المدينة، وأظهر لأهلها الحزم وهدد من تحدثه نفسه بالفتنة، وخطب فيهم قائلاً: أيها الناس: حتام يهتف بكم صريخكم، أما آن لراقدكم أن يهب من نومه، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون. أغركم الإمهال حتى حسبتموه الإهمال؟ هيهات منكم، وكيف بكم والسوط فيكفي

---

١) الوثائق ٨٨

والسيف مشهر، وتمثل بالبيتين:(١).

حتى يبيد قبيلة فقبيلـــــة ويعض كل مثقف بالهـــــام
ويقمن ربات الخدور حواسراً يمسحن عـــرض ذوائب الأيتام

ثم أمر بالقبض على جميع الأمويين، وكان بعضهم قد فر من المدينة أو اختبأ في بعض بيوتها عند مجيء داود.. حتى إذا مرت الأيام الأولى ولم يعاقب داود أحداً منهم اطمأن وعاد إلى بيته وحياته العادية، فأخذ مع من أخذ وأسرع عبدالله بن الحسن إلى داود بن علي يتشفع فيهم ويسأله ألا يقتلهم، ولكن داود أبى وأمر بقتلهم.. وشهدت المدينة، بعد شهر من دخولها في طاعة العباسيين، مذبحة عدد من أبنائها الأمويين، ولم يبق منهم إلا الفتيان والنساء.. وصودرت قصورهم، كقصر عنبسة بن سعيد بن العاص.

ومع أن عددا من أهل المدينة كانوا متضايقين من الأمويين إلا أن هذه المأساة حزت في نفوسهم. ولم يمكث داود بن علي بعدها سوى شهر حيث داهمته علة شديدة وقضت عليه خلال أيام قليلة، فتوفى في ربيع الأول عام ١٣٣هـ، وعندما أحس بدنو أجله استخلف ابنه موسى، أملا في أن يكون الأمير عليها من بعده. وعندما بلغ الخبر الخليفة السفاح عقد الولاية لخاله زياد بن عبدالله الحارثي وكان السفاح شديد الاعتماد على أخواله وأعمامه، وكأنما عز عليه أن تكون تلك الإمارة الواسعة في غير أيديهم.. وربما يكون وراء ذلك سبب آخر هو القلق من الهاشميين الموجودين في المدينة.. ولا سيما محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن..

وصل زياد بن عبدالله الحارثي إلى المدينة بعد توليته بقليل.. فاراد أن يوثق إمارته ويدخل هيبتها في قلوب الناس.. فأمر بإعداد حملة من أهل المدينة وما حولها لتسير إلى اليمامة.. وكان معظم أهل المدينة يميلون إلى السلم والراحة، غير أن دماء الأمويين التى سفكت قبل قليل جعلت أهل المدينة

---

١) الوثائق ٨٩

يستجيبون لطلب الأمير الجديد.. فاكتتب الشباب في الحملة، وولى زياد قيادتها إبراهيم بن حسان السلمي، أحد أبناء المدينة، وأمره أن يسير إلى المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة في اليمامة.. وكان المثنى متحكماً في أمورها، وقد عرف آل هبيرة بولائهم السابق للأمويين وتولوا عدة ولايات لهم في خراسان وأطارف العراق واليمامة وحاربوا في صفوفهم ضد العباسيين، وبعد هزيمة الأمويين بايعوا للعباسيين، ولكن العباسيين لم يطمئنوا لولائهم وقتلوا عدداً منهم.

سارت الحملة إلى اليمامة واستطاعت أن تفاجيء المثنى وجيشه القليل.. وتتغلب عليهم.. فقتل المثنى وعدد كبير من صحبه.. وعادت الحملة إلى المدينة بالأسرى والغنائم.

تغييرات في حياة المدينة:

بدأت معالم التغير بطيئة في حياة المدينة، فانتقال الحكم إلى العباسيين لم يغير من أمورها الكثير أول الأمر.. اللهم إلا إخلاء المدينة من كبار الأمويين وتطامن من بقي منهم على قيد الحياة، وفقدهم التميز الذي كانوا يشعرون به، والثروة التى كانوا يتمتعون بها، وانخراطهم في تيار الحياة اليومية مع سائر أهل المدينة.

أما الهاشميون فقد تحسنت أوضاعهم أول الأمر.. وأكرمهم أبناء عمومتهم العباسيون، وكان مقدمهم في المدينة عبدالله بن الحسن بن الحسن. وقد سافر عبدالله مع ابنه الحسن وبعض أقاربه إلى الخليفة في العراق، فأكرمه إكراماً بالغاً، ولكنه لم يخف عنه قلقه من ولده محمد بن عبدالله بن الحسن، الملقب بذي النفس الذكية. وكانت ذكريات تحريض محمد على الثورة زمن مروان بن محمد ومبايعة عدد من الهاشميين والعباسيين له، ومن بينهم أبو العباس نفسه وأخوه أبو جعفر المنصور، كانت تلك الذكريات تقلق السفاح.

أدرك السفاح أن الهاشمين أصيبوا بخيبة أمل كبيرة عندما انتقلت الخلافة إلى العباسيين، فهم الذين كانوا مضطهدين أيام الأمويين.. وبدمائهم أطفئتت ثورات عدة شارك فيها آلاف الناس، لذلك آثر السفاح أن يتألفهم ويحول دون انفجارهم، وعندما وجد استجابة عبدالله بن الحسن بن الحسن لمعاملته الرقيقة فرح بها، وحاوره في أمر ابنه محمد (النفس الذكية) وتغيبه عن بيعته، فأكد له عبدالله أن محمداً لن يخرج عليه، وأنه يكنّ له المودة والطاعة.. وعاد إلى المدينة ليوطد ولاء الأسرة الهاشمية للعباسيين، ويحول دون شقاق ابنه.. ونجح في ذلك.. وكان أبو العباس قد أوصى أميره على المدينة زياد بن عبد الله خيراً بالهاشميين فأحسن إليهم زياد، ولم يضايق أحداً منهم.. ولكنه لم يأل جهداً في مراقبة تحركاتهم، وخاصة محمد بن عبدالله بن الحسن، وكان زياد يكتب بكل ما يصله من أخبار عنهم إلى الخليفة.. وقد حرص الخليفة على أن يُبقي الجسور قائمة مع عبد الله بن الحسن، فكان يرسل إليه ما يأتيه من روايات وشكوك، ويعاتبه على ما ينقل عنه وعن أبنائه، ويذكره بعهوده، فيجيبه عبد الله بن الحسن إجابات رقيقة ويؤكد له ولاء أسرته له، وقد كتب السفاح لعبد الله بن الحسن بأنه بلغه أن ابنيه محمد وإبراهيم يعدان للثورة عليه. وتمثل في ختام الرسالة ببيت له مغزى كبير يقول:

أريد حياته ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد

فأجابه عبدالله بن الحسن برسالة لبقة ينفي فيها ما بلغ الخليفة من وشايات ويؤكد ولاء أبنائه له وتمثل في ختامها بقول الشاعر:

وكيف يريد ذاك وأنت منه ... بمنزلة النياط من الفـؤاد

وكيف يريد ذاك وأنت منه ... وزندك حين يقدح من زناد

وكيف يريد ذاك وأنت منه ... وأنت لهاشم رأس وهـــاد

وقد نجحت سياسة أبي العباس السفاح وسياسة أميره على المدينة(١) في تألف الأسرة الهاشمية وحفظ طاعتها وولائها ومنع تفجر الثورة، ومضت سنتان والمدينة في حياتها اليومية الهادئه يزداد فيها شأن الحركة العلمية التي يقودها مالك بن أنس رضي الله عنه في دروسه بالمسجد النبوي، ويزيدها توهجاً ونوراً عدد من الشيوخ والتلاميذ وطلاب العلم الآخرون، ويخفت صوت السياسة وحديث الخلافة.. إلا من حكايات قليلة تنتشر بين الحين والآخر عن تحركات محمد بن عبدالله بن الحسن وأخيه إبراهيم.. فقد تغيب هذان عن الحياة العامة.. وغادرا المدينة إلى بعض القرى التي لهم فيها أملاك أو أشياع.. وكانا يترددان على المدينة خفية وقلما يظهران فيها..

وفي عام خمسة وثلاثين ومائة أقبل الحجيج من العراق ومعهم أبو جعفر المنصور ولي العهد، وأبو مسلم الخراساني قائد العباسيين المشهور، وحرص أبو جعفر على لقاء الهاشميين.. وكأنه يتحسس درجة ولائهم، ويفتش عن أية بذور للثورة فيهم.. فكان يجالسهم ويحادثهم، ويخص عبدالله بن الحسن بن الحسن بالاهتمام ويسأله عن ولديه الغائبين محمد وإبراهيم، وعبد الله بن الحسن يظهر له كل المودة والولاء ويعتذر لابنيه بأنهما عند بعض أقاربهما في القرى ولا يمكنه أن يوصل إليهما الرسائل، وليس في نفسيهما شيىء ضد الخلافة وخرج أبو جعفر إلى مكة ومعه أمير المدينة زياد بن عبيد الله الحارثي وعدد من الهاشميين وأدى المناسك.. وعاد إلى المدينة ليخرج منها إلى العراق.. فوافاه في الطريق محمد بن الحصين العيدي رسولاً من عمه عيسى بن علي في الكوفة ينعى إليه الخليفة أبا العباس السفاح الذي

---

١) د. محمد ماهر حمادة. الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول ٤/٢٩.

توفي في الثاني عشر من ذي الحجة(١)، ويخبره بتحول الخلافة إليه، وأنه أخذ البيعة من الناس في الكوفة، وأرسل إلى الأمصار ليأخذوا له البيعة.. فحط أبو جعفر رحاله قبل أن يصل المدينة وأسرع إليه أبو مسلم الخراساني يعزيه بأخيه وهنأه بالخلافة وبايعه عليها،(٢) وحرص أبو جعفر على أن يأخذ بيعة الهاشميين الذين صحبوه، فأقبل الهاشميون ومن معهم من أهل المدينة فبايعوه.. فأقر أبو جعفر زياد بن عبيد الله على إمارة المدينة ومكة والطائف، وأمره بالتوجه إلى المدينة ليأخذ بنفسه بيعة الهاشميين المقيمين فيها وبقية أهلها، وأن يكلف نوابه في مكة والطائف بأخذ البيعة من أهلها.. فعاد زياد إلى المدينة وجمع الناس في المسجد وحرص على حضور الهاشميين، ثم خطبهم وأخبرهم بوفاة الخليفة أبي العباس وتولي أبي جعفر المنصور، ومبايعة الناس له، وطلب منهم أن يعطوا البيعة.. فما تخلف من الحاضرين أحد.. وما لبث أن جاء خطاب من المنصور يأمر زياداً أن يوزع العطاء على أهل المدينة، وأن يسلمهم أرزاقهم بأيديهم، ويحصي من يتخلف.. وأن يراقب الهاشميين وبخاصة عبدالله بن الحسن بن الحسن وابنيه محمد وابراهيم مراقبة دقيقة.. فشرع زياد يوزع العطاء واستعرض الهاشميين فرداً فرداً.. فلم يتغيب أحد سوى محمد وإبراهيم ابني عبدالله بن الحسن بن الحسن.. فأحضر زياد أباهما عبدالله وسأله عنهما فكرر ما كان يقوله: ما أعرف أين هما.. فكتب زياد بذلك إلى الخليفة.

كان الخليفة أبو جعفر مشغولاً بمن حوله: عمه عبدالله بن علي الذي خرج عليه، وأبو مسلم الخراساني الذي تعاظم نفوذه.. ولكنه على ما عرف عنه من حذر وحزم أدلك خطورة تغيب محمد وابراهيم ابني عبد الله بن الحسن.. فهما لم يبايعا ولم يحضرا لأخذ العطية.. ومحمد بن عبدالله الذي هادن السفاح مدة

---

١) الطبري ٧/ ٤٧٠

٢) اليعقوبي ٢/ ٣٦٤.

خلافته قد لا يهادنه. لذا كتب إلى زياد يأمره بتشديد المراقبة وبث العيون للوصول إلى أخبار محمد وابراهيم، ومراقبة بيت أبيهما عبد الله بن الحسن بن الحسن، ورصد الرجال الذين يلقونه لضبط أي اتصال بينه وبين أبنائه.. وكان زياد بن عبيد الله على حزمه وشدته يرق للهاشميين ويرى أن التشديد عليهم ربما يدفعهم إلى خلع الطاعة.. وكان معجبا بشخصية عبدالله بن الحسن بن الحسن وأبنائه.. لذلك حرص على أن ينفذ أوامر الخليفة بطريقة لينة.. فكان يستزير عبدالله دائما ويجالسه، وكان عبدالله حسن الحديث والمسامرة، ذا علم وافر ودراية بمجالسة الأمراء.. وقد نجح زياد في تألفه والمحافظة على ولائه وعلى العهود التي أعطاها بألا يخرج ابناه على الخلافة، وعلم أبو جعفر بتصرفات زياد، فأرسل يلومه ويعنفه.. ويأمره برصد الداخلين إلى المدينة والخارجين منها، والذين يقصدونه أو يزورونه.. ولم يكن زياد بن عبدالله يحس بما في نفس أبي جعفر المنصور.. وكان يرى أن الأمر لا يزيد عن توجس مبالغ فيه، ولم تكن لزياد أية خصومة مع الهاشميين.. ثم إنه ((حارثي)) وليس ((قرشياً)) ولم يدخل في منافسات على السلطة أوالتفكير فيها رغم كونه خال الخليفة السابق أبي العباس، لذا لم يأخذ عبدالله بن الحسن بالشدة التي طلبها المنصور، وربما كان يرى أن التشديد المبالغ فيه سيحول الولاء الذي يبديه عبدالله بن الحسن - ولو لم يكن مخلصا فيه - إلى خصومة علنية، وربما يكون هناك سبب آخر هو نصائح كاتبه حفص بن عمر، وكان حفص يتشيع سراً لمحمد بن عبدالله.. وينتهز الفرص المناسبة لسرد الأخبار عما لاقاه الهاشميون من معاناة والتأثير على زياد، وقد أثر حفص في زياد وجعله يصم أذنيه عما تنقله إليه العيون أحياناً، وقد نقلوا له عدة مرات أن محمد بن عبدالله بن الحسن مختبىء في المدينة أو أنه شوهد يصلي في المسجد النبوي، فلا يرسل من يتحرى الأمر أو يقبض عليه إلا بعد أن يتأكد من خروجه من المكان أو تحوله عن المكان الذي وشي به فيه.. وتناقل الناس

في المدينة أخبار محمد بن عبدالله، وتحدثوا عن جرأته وبراعته في التنكر ودخول المدينة والتجول في أحيائها وحضور الصلاة في المسجد النبوي أحياناً، وتواترت الروايات، وذكر بعضهم أنه شاهده يطرق الباب على أبيه ويدخل بيته رغم وجود الشرطة في طرف الشارع.. وأخذت هذه الأخبار تنتشر وتزداد في الانتقال من راو إلى راو، وتتخذ سمة بطولية وعاطفية تزرع في الناس الإعجاب بمحمد بن عبدالله بن الحسن، وكما توقع أمير المدينة صار أمر محمد بن عبدالله قضية تشغل جزءاً من مجالس الناس، وتستميل إليها بعض القلوب، وقد وصلت بعض الحكايات إلى الخليفة، فاشتد قلقه. فلما كان موسم الحج التالي جاء الخليفة يقود وفد الحجيج.. وخرج وجوه أهل المدينة لاستقباله، وفيهم عبدالله بن الحسن فهش له الخليفة وأدناه من مجلسه وأقبل عليه يحادثه، ثم دعا بالطعام وجلس يأكل معه.. حتى إذا فرغا واستأنس كل منهما بالآخر سأله أبو جعفر عن ابنيه، فأخبره عبدالله بن الحسن أنه لا يعرف مكانهما.. فألح عليه، فأكد له الكلام نفسه، وأخذ أبو جعفر يذكره بالعهود والمواثيق، ويحذره أن ينقضها، وعبدالله يؤكد الولاء والطاعة. واستدعى المنصور عدداً من أهل المدينة يسأل كل واحد منهم على حده عن رأيه في محمد بن عبدالله بن الحسن وسر اختفائه، فكان كل واحد يجيب بمثل ما أجاب عبدالله بن الحسن، واستدعى الهاشميين فأجابوه بالجواب نفسه أيضاً، غير رجل واحد كانت بينه وبين محمد بن الحسن ضغينة، هو ابن عمه الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب..(١) فقد حذر أبا جعفر من ابن عمه، وأكد له أنه يطلب الخلافة وأنه يتحين الفرصة للخروج عليه ومحاربته، فوقع كلام الحسن بن زيد في نفس أبي جعفر موقعاً عظيماً واهتم له، وأحضر عبدالله بن الحسن وطلب منه أن يتصل بابنيه بأية وسيلة ويحضرهما، ووعده الوعود القاطعة أن يقربهما ويوليهما

---

١) الطبري ٥١٨/٧. والكامل ٣٧٠/٤.

بعض الإمارات، فأقسم عبدالله أنه لا يعرف مكانهما.. فغضب الخليفة وكاد أن يبطش بعبدالله، فقام زياد بن عبدالله وألقى عباءته على عبدالله بن الحسن واستأمن له من الخليفة، ووعده أن يكفيه أمر محمد وإبراهيم ابني عبدالله بن الحسن فهدأت نفس الخليفة، وسمح لعبدالله بالإنصراف سالماً..

انتشر الخبر في أطراف المدينة فضخم قضية محمد بن عبدالله، وجعلها حديث المجالس، وانقسم الناس إلى كاره متخوف من أن تتكرر مأساة الهاشميين، فيصيب المدينة شيىء من أوضارها، وناقم على أبي جعفر المنصور والعباسيين.. لسيرهم على نهج الأمويين في الحذر من الهاشميين والضغط عليهم..

وهكذا عاد القلق إلى المدينة ليصبح جزءاً من حياتها اليومية، ينتقل مع الحكايات المتواترة عن عبدالله بن الحسن وأبنائه ولا سيما محمد بن عبدالله. ولا شك أن هذه الحكاية ستسهم في صنع صورة بطولية له.. ومحمد يملك عناصرها: الشجاعة والتقوى والإصرار على عدم البيعة.. وإشاعة خبر مبايعة العباسيين له، وفيهم أبو جعفر نفسه أيام مروان بن محمد، وتتطور الحكايات، ويزيد عليها بعضهم ما سمعه من هنا وهناك، وما يضيفه الخيال، وتصبح هذه الحكايات دعاية ناجحة تستميل إليه بعض القلوب وتهيؤها للاستجابة لدعوته.

ولم تكن هذه الأحداث هي الشغل الشاغل لأهل المدينة.. بل كانت جانباً منه، تأخذ قسطاً من أحاديث السمر والأخبار التي يتناقلها الأصحاب كلما التقوا، وكانت الجوانب الأخرى حلقات العلم في المسجد النبوي، بخاصة بعد أن نبغ مالك بن أنس وأصبح مقصد طلاب وفقهاء كثيرين، وصارت حلقته تتسع وتتسع، وكان مالك محور حركة علمية واسعة يشكل أهل الحديث جانباً آخر فيها، وأهل التفسير جانباً ثالثاً، فضلاً عن أهل اللغة ورواة الأدب والأخبار، وكان للهاشميين قسط وافر في حلقات العلم، محدثين ومستمعين،

وكان عبدالله بن الحسن واحداً منهم.. وقد أقلقه اهتمام المنصور الشديد بأبنائه والتضييق عليه.. ولولا ما يحسه من عطف الأمير زياد بن عبيدالله وتساهله معهم لكانت محنته أشد بكثير، وقد بلغ من الضيق مرة أن فكر بالاستجابة للمنصور وإحضار ولديه إليه، لتخرج الأسرة من ذلك القلق، وينهي ابناه تشردهما، وقلقهما وهم أن يكتب إليهما ليحضرا إليه فيصحبهما بنفسه الى الخليفة قبل أن يقفل عائداً من الموسم.. وقام في نفسه صراع بين هذه الرغبة التي يجد فيها حلاً لمشاكل الأسرة وربما تحسيناً لوضع المدينة كلها، وبين خوفه من أن ينكث المنصور بوعوده فيقتل ابنيه.. وأخيراً قرر أن يستشير سليمان بن علي بن عبدالله عم الخليفة وأحد أفراد حاشيته، وكان بين عبدالله بن الحسن وسليمان مودة.. فجاءه واستوثقه بما بينهما من مودة وقرابة، وسأله النصيحة الصادقة، فخوفه سليمان، وذكر له ما فعله المنصور بعمه حين خرج عليه، حيث أنه قتله بعد أن أعطاه الأمان، فتأثر عبدالله بن الحسن بقول سليمان، وعاد إلى رأيه الأول، وعدل عن تسليم ابنيه للمنصور..

عاد المنصور إلى الكوفة، فأرسل بعض عيونه إلى المدينة ليتحسسوا له الأخبار، فقد بدأ يشك في واليه زياد بن عبيدالله ويظن فيه التساهل في أمر محمد بن عبدالله بن الحسن، وترصدت العيون أخبار محمد، وسمعوا الحكايات عن قدومه المدينة متنكراً وتجوله في أحيائها وصلاته في المسجد وزيارته لوالده وبعض أقاربه، فكتبوا بما يسمعون إلى الخليفة، وقد أعجزهم أن يروا محمداً بأنفسهم، ولكن الخليفة لم يتعجل، وأراد أن يستوثق الأخبار التي وصلته، فأرسل عدداً من مهرة شرطته وأمرهم بتشديد المراقبة وضبط أية رسائل أخرى، وعمد إلى حيلة أشد مكراً ودهاء ليوقع بعبدالله بن الحسن: كلف رجلاً من المقيمين في خراسان، هو عقبة بن مسلم بن نافع الأزدي، أن يسافر إلى المدينة ويدعى بأنه شيعة آل الحسن وينظر ما يفعلونه ويخبره، ووفد عقبة بن مسلم إلى المدينة وسأل عن عبدالله بن الحسن فدل عليه، فلما

رآه اختلا به وأخبره أنه موفد من القرية الخراسانية التي تراسله، وأنه يحمل إليه أموالاً وهدايا قيمة ليتقوى بها آل الحسن ويستعدوا للخروج على الخليفة.. فشك عبدالله بن الحسن به ونهره وانصرف عنه.. ولكن عقبة - كما أوصاه جعفر - عاود الكرة مرة ومرة.. وهو يحلف الأيمان على صدقه، ويعرض المال على عبدالله.. فلما رأى عبدالله إلحاحه الشديد وأيمانه المتوالية وثق به وأخذه إلى داره وقبل منه المال والهدايا، وطلب منه عقبة أن يكتب كتابا لأهل القرية الخراسانيه فأبى عبدالله، وحمله رسالة شفوية تبين عزمهم على الثورة وتحدد موعد تقريبياً لخروج ابنه محمد، فعاد عقبة بهذه الأخبار إلى المنصور، واستيقن المنصور بأن آل الحسن ليسوا في طاعته، وأنهم يجمعون الأنصار ويترقبون الفرصة السانحة للثورة..(١).

كان عبدالله يظن أنه محتاط أشد الحيطة في تصرفاته واتصاله بابنيه وأشياعه.. ورغم كثرة العيون وشدة المراقبة فإن ابنه محمداً كان يأتي المدينة متنكراً ويمكث فيها قليلاً ويخرج منها، وتبقى وراءه همسات تدور بين عدد من أهل المدينة.. ثم تنتشر وتصل إلى العيون والرصد.. وتنتقل إلى الأمير الذي لا يبالي بالأمر، وتنتقل إلى الخليفة لتقضي مضجعه.

أعاد الخليفة الكرة، وقابل حيطة آل الحسن وتكتمهم الشديد بالحيلة والدهاء، فقد وصل إلى المدينة رجل آخر يزعم أنه من خراسان، ويحمل رسائل مختومة إلى عبدالله بن الحسن من بعض أهل خراسان يذكرون فيها طاعتهم ومبايعتهم لآل الحسن، ويرفقونها بأموال ولطائف قيمة.. ولم يكتف الخراساني بلقاء عبدالله بن الحسن بل طلب منه أن يوصله إلى ابنه محمد ليسلمه رسائل وأموالاً أخرى تخصه.. فأرسله عبدالله إلى علي بن الحسن (الرجل الصالح الذي يدعى الأغر) في منطقة ذي الإبر. فرحل الخراساني إليه، فأوصله علي إلى محمد بن الحسن في مخبئه.. وبينما كان الخراساني يقابل

---

١) الطبري ٧/٥٢٥

محمد بن الحسن وصل إلى المدينة رجل من العراق وسلم عبدالله بن الحسن رسالة من أحد كتاب المنصور - وكان يتشيع لآل الحسن - يخبره فيها أن المنصور قد دس إليه الخراساني ليزعم أنه رسول بعض شيعته، ومهمته الحقيقية التجسس عليه وعلى ابنه والإيقاع بهما.. ففزع عبدالله بن الحسن، وأسرع إلى أحد أعوانه المخلصين (أبو هبار) وأمره أن يسرع للقاء ابنه محمد ويحذره من الخراساني.. فأسرع أبو هبار ووصل إلى محمد فوجد الخراساني في مجلسه يشارك في الحديث بحيوية وحرارة، وفي المجلس عدد من كبار المبايعين لمحمد.. فجلس أبو هبار قليلاً.. ثم انتحى بمحمد وأخبره عن حقيقة الرجل.. فارتاع محمد لذلك ورفض، مشورة أبي هبار في قتله، وقرر اعتقاله.. غير أن الخراساني لاحظ قدوم أبي هبار وشك في انفراده به، فتظاهر أنه خارج للوضوء واختفى في الشعاب.. وجد وراءه رجال محمد بن عبدالله.. ولكنه أفلت منهم ولقي قافلة فاختبأ في بعض أحمالها، حتى وصل إلى أبي جعفر فأخبره الخبر كله..(١) ولم يعد لدى أبي جعفر أي شك في تمرد الحسن وقرب الثورة، لذلك قرر أن يبادر آل الحسن بضربة قوية قبل أن يشتد أمرهم ويكثر أتباعهم.. وكان موسم الحج قد اقترب فأمر بإعداد أحماله ليؤدي فريضة الحج.. وقبل نهاية ذي القعدة من عام ١٤٠هـ.. جاءت الأخبار بقرب وصول موكب الخليفة.. فخرج أمير المدينة زياد بن عبيدالله الحارثي ومعه وجوه أهل المدينة.. وفيهم عبدالله بن الحسن وعدد من الهاشميين.. ورغم توجس عبدالله.. إلا أنه آثر الخروج لاستقبال الخليفه وسلم عليه فيمن سلم.. فلم يلحظ عليه شيئاً يكرهه.. وبالعكس ما لبث الخليفة أن أدنى عبدالله وحادثه طويلاً.. وطلب منه أن يتردد عليه في إقامته في المدينة فوعده عبدالله بذلك.. احتار عبدالله بن الحسن في أمر أبي جعفر وأخذ يدافع ظنونه القاتمة لما رأى من بشاشته.. فأكثر التردد عليه وهو يراقب كل انفعال فيه.. وعزم

---

١) أنظر الطبري ٥٢٨/٧.

على الذهاب إلى الحج معه.. وفي المشاعر التقى عبدالله بولديه وبعض أشياعه سراً، وتداولوا في قضية الخراساني واحتمال أن يكون قد وصل إلى أبي جعفر وأخبره بما رآه وسمعه، وتحمس بعض أتباع محمد لاغتيال أبي جعفر في الموسم ورسموا - بقيادة الأشتر عبدالله بن محمد بن عبدالله - خطة دقيقة لذلك..(١) واستعانوا بأحد قادة أبي جعفر - وكان خراسانياً متشيعاً - غير أن محمداً رفض مبدأ القتل غيلة، وقال لهم: لا والله لا أقتله أبدا غيلة حتى أدعوه. وحذرهم عبدالله بن الحسن من إراقة الدماء في المشاعر المقدسة فأمسكوا على مضض.. وانتهت مناسك الحج، وعاد أبو جعفر إلى المدينة وكان رجاله لا يهدؤون عن العمل والمراقبة.. وتسربت خطة الاغتيال ووصلت إلى الخليفة.. فأرسل الخليفة رجاله للقبض على المتآمرين.. فظفروا ببعضهم ونجا بعضهم الآخر، فاشتد غضب الخليفة ونفد صبره، وقرر أن يبطش بآل الحسن في المدينة.. ويروي أمير المدينة زياد بن عبيدالله أن أبا جعفر أرسل إليه في منتصف الليل رجاله فطرقوا عليه طرقاً شديداً فلم يجبهم، ولكنهم عاودوا الطرق عليه عدة مرات حتى أخذوه إلى أبي جعفر في قصر الإمارة، إذا أبو جعفر محتبٍ بحمائل سيفه على بساط ليس تحته وسادة ولا مصلى، وهو منكس رأسه ينقر بجرز في يده، فما زلت واقفا، فما يكلمني ولا أكلمه، ثم رفع رأسه إلي فقال: يابن الفاعلة أين محمد وابراهيم قتلني الله إن لم أقتله. قلت: اسمع مني ودعني أكلمك. قال: قل: قلت: أنت نفرتهما عنك. بعثت رسولاً بالمال الذي أمرت بقسمه على بني هاشم، فنزل القادسية ثم أخرج سكينا يحده وقال: بعثني أمير المؤمنين لأذبح محمداً وإبراهيم، فجاءتهما

---

١) انظر الطبري ٥٢٥/٧.

هذه الأخبار فهربا.. قال: فصدقني فانصرفت.(١) وقبل أن يغادر المنصور المدينة جمع آل الحسن وعدداً كبيراً من الهاشميين في مجلسه وأجلس عبدالله إلى جواره وحادثهم طويلاً ثم أمر بالطعام وتغذى معهم.. ثم عاد لمحادثتهم والتفت إلى عبدالله بن الحسن وقال له: أعطني العهود والمواثيق ألا تبنني بسوء ولا تكيد لي سلطاناً. فقال عبدالله: أنا على ذلك يا أمير المؤمنين.. والتفت أبوجعفر إلى ناحية يجلس فيها عدد من رجاله وأشار خفية أحدهم وعاد إلى حديثه.. فقام الرجل وجاء من وراء عبدالله وغمزه بإصبعه.. فلم يلتفت إليه عبدالله بن الحسن، فوقف الرجل خلفه وغمزه باصبعه في ظهره فرفع عبدالله إليه رأسه.. وفوجيء بأن الرجل الواقف فوقه هو الخراساني الذي جاءه برسالة ومال من أشياعه في خراسان، وحمل إليهم منه رسالة شفهية، وأدرك عبدالله أن هذا الرجل دسيسة من أبي جعفر ليكشف أمره، وأن أبا جعفر قد اطلع على كل شيء، وأسقط في يده، ولم يجد مخرجا.. فوثب إلى ما بين يدي الخليفة وأخذ يستعطفه قائلاً: أقلني يا أمير المؤمنين أقالك الله، فقال أبو جعفر.. لاأقالني الله إن لم أقتلك(٢) وأمر حرسه أن يقبضوا عليه ويسوقوه إلى السجن.. وأخذ يتحدث عن كيد عبدالله وابنيه له.. فاضطرب المجلس.. وتغيرت نفوس أهله، وخرجوا بين مشفق على عبدالله وآله، ولائم له، ومتعجب من دهاء المنصور ومكره(٣).

ومع نهاية عام أربعين ومائة خرج المنصور من المدينة وقد خلف فيها عبدالله بن الحسن وبعض آله في السجن.. وخلف في أهل المدينة أحاديث متناقضة عن قضية الهاشميين ومواقف متباينة منها.. بعضها يتعاطف مع الهاشميين.. وبعضها يحذر من تكرار التجارب المؤلمة السابقة.. وانتقلت

---

١) الطبري ٥٢٧/٧.

٢) الطبري ٥٢٣/٧.

٣) انظر ابن خلدون ٢٣٧/٣.

القضية من الهمس إلى الحديث العلني في المجالس واللقاءات، وأحس كثير من الهاشميين بنذر الفتنة والمصائب.

كانت غاية المنصور من حبس عبدالله معاقبته على نكثه بالعهود التي قطعها من قبل، وإرهاب ابنيه ومنعهما من الثورة، وإرهاب المتعاطفين مع آل الحسن والمستعدين لمبايعتهم على الخلافة.. وحرص على أن يواصل رجاله المبثوثين في المدينة مراقبة الهاشميين وتسقط أخبار محمد بن عبدالله.

وسجن عبدالله بن الحسن في غرفة من غرف الإمارة، وشددت الحراسة عليه، غير أن الأمير زياد بن عبيدالله كان رفيقا به، وكان يسمح لعائلته بزيارته بين الحين والحين، وكانت عائلته تنقل إليه أخبار ابنيه وتنقل إلى الإبنين وصايا أبيهما في أن يزيدا الحيطة ولا يتعجلا بالثورة لئلا يفشلا.. ولم يغب عن رجال المنصور معاملة الأمير الشفيقة لآل الحسن وزيارات عائلة عبدالله بن الحسن في السجن واستمرار حضور ابنيه إلى المدينة دون أن يقبض عليهما، فقرر الخليفة عزل الأمير ومعاقبته.

أمير مؤقت:

وفي الثالث والعشرين من جمادي الآخرة عام ١٤١هـ وصل مع البريد أحد رجال الخليفة إلى المدينة يدعى أبو الأزهر، وكان الأمير قد خرج لتفقد بعض الأمور، فأرسل إليه أبو الأزهر فجاءه على عجل ورحب به فدفع إليه كتاباً من الخليفة يأمره فيه أن يسمع لأبي الأزهر ويطيع، فلما قرأه قال: سمعاً وطاعة يا أبا الأزهر، فمر بما أحببت فقال أبو الأزهر: ابعث إلى عبدالعزيز بن عبد المطلب - قاضي المدينة - فبعث إليه من أحضره، فدفع إليه أبو الأزهر خطابا من الخليفة يأمره فيه بتسلم الإمارة من زياد، والقبض على زياد وتقييده بالحديد ودفعه مع كبار موظفيه لأبي الأزهر كي يمضي بهم إلى الخليفة، فنفذ عبدالعزيز أمر الخليفة، ووضع زياد بن عبيدالله الحارثي وكبار موظفيه في القيود، ورأى أهل المدينة أميرهم المعزول يحمل على الجمال في

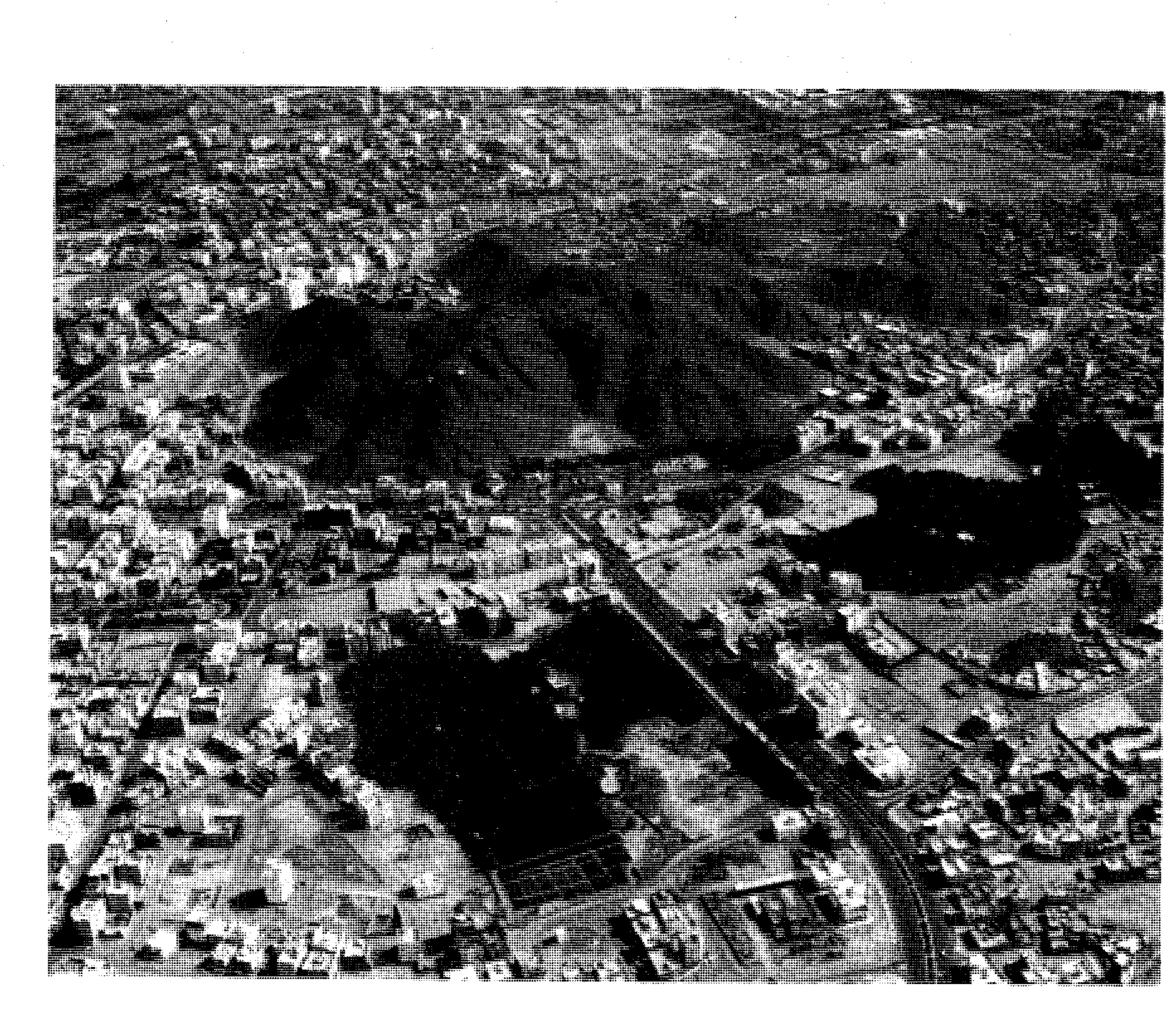
حالة سيئة من الذل والمهانة، وسار بعضهم يشيعونه إلى ظاهر المدينة، ويوصونه بالصبر والدعاء، وأقسم لهم زياد أنه لم يقترف ذنبا، وأن غضب الخليفة عليه كان بسبب آل الحسن.

محمد بن خالد القسري في المدينة:

لم تطل إمارة عبدالعزيز بن المطلب على المدينة سوى سبعة أيام، بعدها وصل محمد بن خالد القسري يحمل أمراً من الخليفة بتوليه إمارة المدينة.. فسلمه عبدالعزيز الإمارة، ومضى محمد بن خالد إلى الديوان وأحصى ما فيه من أموال فوجد سبعين ألف دينار وألف ألف درهم فتحفظ عليها وأعلن أن الخليفة أوصاه بانفاقها على تتبع ابني عبدالله بن الحسن والقبض عليهما.

كان محمد بن خالد مدركا أن المنصور لم يعينه بالإمارة إلا لإنهاء قضية آل الحسن وإحباط ثورة محمد بن عبدالله المنتظرة، لذلك جد في تتبع محمد بن عبدالله وأخيه ابراهيم.. وعين عددا أكبر من الرجال للبحث عنهما وبذل لهم الأموال الكثيرة، وأصبحت قضية القبض على ابني عبدالله بن الحسن الحديث الأول لأهل المدينة والهاجس الأكبر لأميرها وأعوانه.. وقد اجتهد بعض رجاله في تتبع محمد بن عبدالله وكاد أن يوقع به، ولكن محمداً أفلت منهم مرة تلو مرة.. ثم خرج مع أخيه من المنطقة إلى عدن فالعراق فالهند.. وأخذ ينتقل بين شيعته، يحشد التأييد ويستكثر من الرجال تمهيداً لإعلان الثورة وأبوه ما يزال في سجنه.. وكان محمد بن خالد لا يتمكن من بغيته، ورغم تشديده كان بعض المتعاطفين مع آل الحسن من عمال الإمارة وغيرهم ينقل الأخبار بين السجين وأهله.. وكانت بعض تلك التصرفات تصل إلى الأمير فيغضب ويعاقب من يوصل أمرهم إليه ويهدد ويتوعد.. ولكنه لم يستطع أن يوقف تسرب الأخبار.. وما لبث محمد بن خالد القسري أن قبض على عدد آخر من أقارب عبدالله بن الحسن وفيهم محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان الملقب بالديباج، ونمى إليه أن محمداً قد عاد إلى المنطقة وشوهد غير بعيد عن

عن المدينة.. فأرسل عدداً كبيراً من الرجال لتفتيش المنطقة قرية قرية وجبلا جبلا، ولكن رجاله لم يظفروا بشيء.



منع التجول والتمشيط :

مرت على إمارة محمد بن خالد القسري ثلاث سنوات وهو لايألو جهداً في إرسال الرجال للبحث عن محمد وابراهيم حتى أنفق في ذلك أموالاً كثيرة.. واستبطأ الخليفة عمل القسري فأرسل إليه يأمره بالبحث عنهما في المنطقة بشدة، وكانت عيونه ترسل له بأنهما يتنقلان بين المدينة وقراها القريبة فعمد محمد بن خالد إلى أمر يعد فريدا من نوعه في عصره.. وهو مانسميه في عصرنا بمنع التجول وتمشيط المنطقة.. يقول الطبري ((وأمر القسري أهل المدينة فلزموا بيوتهم سبعة أيام، وطافت رسله والجند ببيوت الناس يكشفونها ، لايحسون شيئا ، وكتب القسري لأعوانه صكاكا يتعززون بها لئلا يعرض لهم أحد))(١) ثم خرج رجاله إلى أعراض المدينة أيضا واشتدوا في البحث.. ولكنهم لم يظفروا بشيء.

غضب الخليفة لفشل محمد بن خالد.. وقرر عزله ومعاقبته.. فقد وصل إلى المدينة في الثاني والعشرين من شهر رمضان عام أربع وأربعين ومئة رياح بن عثمان بن حيان المري.. ومعه بعض الرجال وتوجه إلى دار الإمارة وأبرز أمرا من الخليفة بعزل محمد بن خالد ومحاسبته، وتنصيب رياح بن عثمان أميرا على المدينة . فأخذ رياح سلفه أخذاً شديداً.. وقيده بالأغلال، وصادر أمواله، وسجن عدداً من رجاله وعذبهم، وقرر أن يعالج أمر ابني عبد الله بن الحسن بالعنف.. فذهب إلى أبيهما في السجن وهدده بكلام قاس.. ولكن عبد الله بن الحسن رد عليه بثبات وتوقع له أن ينتهي أمره بالقتل، فعين رياح عدداً من الرجال الأشداء للبحث عن محمد بن عبد الله، واستعان

---

١) الطبري ٧/٥٣١ -.

برجال من القبائل المجاورة، وكاد بعضهم أن يقبض عليه(١) ولكن محمداً نجا في اللحظات الأخيرة، وتوجه محمد إلى المدينة متنكراً واختفى في بعض بيوتها.. وكان يتنقل من بيت إلى بيت، وصادف في بعض المرات رياحا ورجاله، فلم يعرفوه ونجا منهم..(٢).

أخذ رياح يتصرف كمن فقد أعصابه، فقبض على أبناء عم محمد وأبناء خاله وأبناء خالاته وأبناء عماته.. وأخذ يشتمهم في خطبة الجمعة، ونال منه ومن أخيه إبراهيم مرة نيلاً شديداً، وذكر أمهما وأفحش لها.. فأنكر الناس عليه أقواله ورفعوا أصواتهم بالتسبيح.. فهددهم بأن يكتب للخليفة بأنهم يغشونه ويعصونه، فرماه الناس بالحصى وشتموه وهموا بأذيته.. فنزل من على المنبر وهرب إلى دار الإمارة..

واضطربت الأمور في المدينة لقسوة رياح وسوء معاملته..(٣) وراح أعوانه يجوبون الأحياء في شئ من الفظاظة، فاستاء الناس من الأمير الجديد وأعوانه.. ومالت قلوبهم أكثر وأكثر إلى آل الحسن، وأخذوا يتحدثون عن المعاناة التي يلاقيها المسجونون ظلما.. فهذا العدد الكبير من أقارب محمد بن عبد الله لاذنب لهم، ولم يظهر أحد قط مخالفة للخليفة أو الأمير، ومع ذلك سجنوا وأهينوا وعذبوا.

وجاء موسم الحج لعام أربع وأربعين ومائة، وعلم الناس أن الخليفة المنصور قادم للحج، واستعد بعضهم للقائه، واستعطافه على المظلومين.. ولكن الخليفة لم يمر بالمدينة لافي مجيئه ولافي إيابه.. وعندما خرج من مكة سار في طريق مكة ونزل في الربذة، وأرسل يأمر رياحا بإخراج آل الحسن وتسييرهم بأغلالهم الثقيلة إليه في الربذة.. وشهدت المدينة يوما حزينا..

---

١) الطبري ٥٣٥/٧ -.
٢) الطبري ٥٣٦/٧ -.
٣) الطبري ٥٣٧/٧ -.

رأت فيه مظاهر القسوة البشعة.. فقد أخرج من السجن عبد الله بن الحسن متغير اللون وقد صدئ الحديد في يديه ورجليه.. وأخرج معه بقية المسجونين من الهاشميين مغلولين، وحملوا على جمال بلا هوادج..

وجاءت نسوة من آل هاشم ليروا ذويهم.. فلم يتمالكوا أنفسهم من النحيب والصراخ.. ودمعت عيون الناس ووقف عبد الله بن جعفر وراء ستر من شعر يرقب هذا المشهد المؤلم فانهمرت دموعه غزيرة.. لكنه لم يكن يملك شيئا، وسار بعض أهل المدينة يشايعون آل الحسن ويدعون لهم(١).

وخرج الركب من المدينة وعاد المشايعون وصدورهم تغلي.. فقد نجح رياح بتصرفاته الهوجاء في تأليب الناس عليه، وتهيئتهم للانضمام إلى أية ثورة قادمة.

وعلم محمد وابراهيم بالأمر.. فتنكرا في زي الأعراب وأدركا الركب في الطريق، واستطاعا أن يصلا إلى أبيهما ويحادثاه، فاستأذناه في إعلان الثورة فاستمهلهما حتى يتمكنا من الأمر، وكانت آخر وصية أوصاهما بها هي: إن منعكما أبو جعفر أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين.. ومضى الركب إلى أبي جعفر في الربذة.. وطلب عبد الله بن الحسن مقابلته فرفض وأدخل محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان (الديباج) فأغلظ له القول ثم أمر بجلده وجلد عدد آخر معه.. ومضى أبو جعفر في قافلته إلى الكوفة، وسار وراءهم موكب المسجونين في عذاب كبير.. وبعد مدة جاءت الأخبار إلى المدينة أن آل الحسن الذين رحلوا إلى الكوفة قد سجنوا في سجن بالهاشمية..

ملحمة المدينة الثانية:

تواردت الأخبار عن تعذيب المسجونين وقتل بعضهم بقسوة.. وبخاصة محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان (الديباج) ولا ذنب له في الأمر على الاطلاق. وجاءت الأخبار بقتل عبد الله بن الحسن وبلغت ابنيه.. فاشتد الأمر

---

١) الطبري ٧ / ٥٤١ -

عليهما.. وجاءهما أشياعهما يستعجلانهما الثورة.. فلم يعد مجال للصبر.. ونمت الأخبار إلى أمير المدينة رياح فاشتد في طلب محمد بن عبد الله وأخيه. وحوصر محمد عدة مرات، وتدلى في الآبار، وسقط طفل له من بعض الشعاب في إحدى مطارداته فمات. وعجت المدينة برجال رياح يراقبون ويفتشون، وكان رياح يقود دوريات البحث بنفسه في مرات كثيرة..

ونتيجة لهذه الحالة توقع أهل المدينة انفجار الثورة قبل أن تحدث.. وسرت الشائعات بذلك، وأسرع الناس في شراء الطعام حتى باع بعضهم حلي نسائه (١) وفي مساء اليوم الأول من شهر رجب عام ١٤٥ هـ. شاهد أحد رجال رياح محمد بن عبد الله يدخل منطقة المزاد، قرب جبل سلع، فأسرع بالخبر إلى الأمير، فخرج الأمير بنفسه على رأس مجموعة من رجاله وداهم المنطقة، واشتد في تفتيشها، ولكن محمدا نجح في التخفي وأفلت من الحملة، وعاد رياح إلى الإمارة غاضبا، وأرسل إلى من بقي من أقارب محمد وهددهم بالقتل إن لم يسلموه، فأنكروا جميعا أن يكون مختبئاً عندهم.

عندئذ ألح أنصار محمد بن عبد الله عليه أن يعلن الثورة، فقد اشتد الخناق عليهم وامتلأ السجن بأقاربه وكل من شك الأمير في مشايعته، ولم يعد مجال للصبر، فقد يأخذهم رياح في أي وقت..

فاقتنع محمد بن عبد الله وأخوه ابراهيم بذلك، وقررا بدء الثورة في اليوم نفسه. واتصل أنصاره ببعضهم بسرعة وسرية، وتحرك مائتان وخمسون رجلاً منهم في وقت واحد ، فهاجموا السجن ، وأخرجوا كل من فيه، وكان من بينهم أمير المدينة السابق محمد بن خالد القسري وأعوانه.. ثم تحرك الجمع الثائر إلى الإمارة وهم يكبرون، ولما سمع رياح أصواتهم أدرك أن محمداً قد خرج.. وأشار عليه بعض أعوانه أن يقتل أقارب محمد الذين مازالوا عنده فتردد، ثم حاول الهرب ولكن رجال محمد دهموه وقبضوا عليه

---

١) الطبري السابق نفسه -

وعلى أعوانه جميعاً، وأنقذوا من عنده من أقاربهم.. وكان فيمن قبض عليه مسلم بن عقبة.. الذي تنكر في هيئة الخراساني وأوقع بعبد الله بن الحسن، وأودعوا في السجن..

كان تحرك رجال محمد بن عبد الله سريعاً.. غطى أطراف المدينة كلها، فقبضوا على عدد كبير من أعوان رياح.. وهرب الباقون، ولم يمض شطر من الليل حتى كانت المدينة كلها تدين لمحمد بن عبد الله. وارتفع التكبير في المسجد النبوي.. واتجه محمد ورجاله لصلاة الصبح فيه، وقرأ سورة الفتح تيمنا بانتصاره، وخطب في الحاضرين خطبة قوية ذكر فيها ظلم المنصور ولقبه بالطاغية، ودعا الناس إلى خلع طاعته ومبايعته بالخلافة، وتلقب بالمهدي فأقبلوا عليه وبايعوه..

وتردد بعض أهل المدينة في مبايعة محمد.. ففي عنقهم بيعة للمنصور، فذهب عدد منهم إلى الإمام مالك واستفتوه في خلع بيعة المنصور وتحويلها إلى محمد بن عبد الله.. فأفتاهم بذلك مجتهدا بأن بيعتهم للمنصور كانت بالإكراه، فذهبوا إلى محمد بن عبد الله وبايعوه.. ولم يتخلف سوى عدد قليل من وجوه المدينة، فقد رأى هؤلاء أن ثورة محمد لامسوغ لها، وأنها غير مجدية، وستفشل كما فشلت ثورة الحرة من قبل، وستكون ملحمة دامية. وكان الممتنعون من القرشيين كإسماعيل بن عبد الله بن جعفر(١) والضحاك بن عثمان بن عبد الله وعبد الله بن منذر وأبو سلمة بن عبيد الله وخبيب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير(٢).

المدينة في ظل محمد ذي النفس الزكية:

أصبحت المدينة تدين لمحمد بن عبد الله بن الحسن ليس بالإمارة وحسب بل بالخلافة، وأصبح بطل حكايات الاختباء والهرب من رجال العباسيين

---

١) الطبري ٧/ ٥٦٠ -
٢) الطبري ٧ / ٥٧٧ -

وعيونهم صاحب الأمر والنهي في دار مروان بن الحكم.. مقر إمارة المدينة المنورة.. وتوافد أصحاب محمد ومشايعوه ومن يميل إليه إلى الإمارة، وجاءت أعداد كبيرة تبايعه بعد أن أفتاهم الإمام مالك بجواز التحرر من بيعة أبي جعفر، وبخاصة آل الزبير وآل الخطاب وبعض المخزوميين وآل زهرة والهاشميين.

بدأ محمد بن عبد الله يتصرف من موقع الخلافة، ويرتب أموره في المدينة وخارجها، فقد شغرت المناصب الكبيرة بعد أن ألقي رياح ورجاله بالسجن.. وهرب الباقون أو اعتزلوا في بيوتهم.. لذلك عين عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير أميراً على المدينة وعبد العزيز بن المطلب بن عبد العزيز المخزومي قاضياً فيها، وعثمان بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رئيساً للشرطة وعبد العزيز الداروردي على السلاح، وعبد الله بن جعفر بن عبد الله بن مسور بن مخرمة على العطاء،(١) وتطلع محمد بن عبد الله إلى الأمصار الأخرى، وكان بعض أهلها قد راسلوه أيام اختفائه فطمع في أن يدخلوا في طاعته بمجرد إعلان ثورته.. فأرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة لتدبير أمر العراق.. وأرسل أخاه موسى بن عبد الله إلى الشام ليتولى إمارتها ويعزل واليها العباسي. وأرسل الحسن بن معاوية إلى مكة لينتزعها من السري بن عبد الله أميرها من قبل العباسيين، وأرسل القاسم بن اسحاق إلى اليمن ليتولاها.. وأرسل ابنه عبد الله بن محمد الملقب بالأشتر إلى السند حيث واليها عمر بن حفص ممن كاتبوه ووعدوه بالبيعة(٢) والعجيب أنه لم يرسل أحداً إلى خراسان، رغم وجود شيعة له فيها، وربما كان يفكر في ترك أمرها إلى أخيه إبراهيم الذي توجه إلى البصرة.. كما أنه لم يزود أحدا من بعوثه بقوة تدعمه في استلام السلطة إلا الحسن بن معاوية الذي وجهه إلى مكة فقد

---

١) البداية ٨٦/١٠ -.

٢) الطبري ٣٣/٨ -.

أرسل معه سبعين رجلا وعشرة فرسان.. وكان لهذه القوة الصغيرة فائدة كبيرة لأن أمير مكة العباسي رفض تسليمها للحسن.. فهاجمته القوة الصغيرة وأرغمته على الهرب بعد أن قتلت سبعة من رجاله.. وتسلم الحسن بن معاوية إمارة مكة داعيا لمحمد بن الحسن.. فكانت الإمارة الوحيدة التي دانت ودخلت في طاعته، أما الشام فإن موسى بن عبد الله ذهب إليها دون قوة ترافقه.. ولقي بعض وجوه أهل الشام فلم يستجيبوا له، وكان أحسنهم قولاً الذي قال: والله لقد مللنا البلاء، وضقنا به ذرعا، حتى مافينا لهذا الأمر موضع ولالنا به حاجة..(١) فقد لقي أهل الشام من سيوف العباسيين مرارت كثيرة جعلتهم يرغبون عن قضايا الخلافة وصراعاتها، لذلك هدد بعض الشوام موسى بن عبد الله بأن يرفع أمره إلى العباسيين ويدل عليه رجالهم.. (٢) فنزح موسى بن عبد الله من الشام وتوارى..

لم يطل الهدوء في المدينة ولم يصف الأمر لمحمد بن عبد الله، فبعض أهلها أمسك عن البيعة وبعضهم كان يحس أن الأمر لايعنيه، فالصراع بين العباسيين والهاشميين، والمدينة قد نسيت الخلافة منذ جيلين أو ثلاثة وأصبحت مجرد إمارة.. غير أن بعض الطامعين في الجوائز رأى في الأحداث فرصة ذهبية يستفيد منها، ففي اليوم التالي لاستيلاء محمد بن عبد الله على المدينة خرج رجل من من بني سرح مسرعا إلى الخليفة ليحمل له الأخبار وينال بسبقه إليه جائزته.. واجتهد في المسير فقطع المسافة بين المدينة والكوفة (وهي تزيد على ألف وخمسمائة كيلومتر) في تسعة أيام(٣) - وفي

---

١) الطبري ٥٧٢/٧ -.

٢) السابق -.

٣) الطبري ٥٦٥/٧-.

رواية أخرى في سبعة أيام -(1) ودخل على أبي جعفر المنصور بالخبر، وتروي كتب الأخبار عدة روايات لاستقباله الخبر.. وهي جميعها تظهر أن شعوره كان مزيجا من الانزعاج والفرحة.. حتى أنه هتف - حسب رواية الطبري - أنا أبو جعفر.. استخرجت الثعلب من جحره..(2) ولاشك أن المنصور كان ينتظر هذه الفرصة.. فقد أعياه اختباء محمد وأخوه سنوات طويلة.. وأقلقه ما كان يصل إليه من أخبار مراسلاته واتصالاته مع الأمصار والقبائل والعساكر.. وكان لايعرف حقيقة قوته ولا يستطيع الوصول إليه، أما وقد خرج وتولى الحكم في منطقة فقد ظهر أمره وبانت قوته، وأصبح من الميسور معرفة رجاله... كما أصبحت المواجهة مكشوفة.. وعندما تتم المواجهة تكون الغلبة للأقوى.. وشتان مابين قوة محمد في المدينة وقوة أبي جعفر سيد الدولة العباسية وصاحب جيوشها الكبيرة.. ولقد أجزل المنصور العطاء لمن جاءه بالخبر بعد أن استوثق من صحته.. وبدأ يرتب أموره بكل مالديه من دهاء وبراعة: استشار عدداً كبيراً ممن حوله فيما يفعله إزاء ثورة محمد بن عبد الله، حتى أنه استشار عمه المسجون عبد الله بن علي، وقد أجمعت أراء الذين استشارهم بأن الثورة عقيمة وأن عليه أن يسرع في مواجهتها قبل أن يتمكن أمرها.. وأن يقطع الطريق على امتدادها في المواطن التي يمكن أن تؤيدها.. وبالذات الكوفة والبصرة.. ثم يرسل قوة عسكرية يقودها رجل محنك لمواجهة الثورة في المدينة المنورة.. وكان أبو جعفر في بغداد يشهد عمارتها عندما جاءه خبر الثورة.. وأخذ بنصيحة عمه فسارع إلى الكوفة خوفا من أن يشايع الثورة أحد فيها، ففي الكوفة من شيعة آل البيت غير قليل، ووزع رجاله المسلحين في أحيائها كلها يرصدون تحركات الناس ويستبقون أي عمل مسلح.. وأرسل إلى البصرة جندا أيضا، وأرسل

---

1) البداية والنهاية ١٠/٨٦ -.

2) الطبري ٧/٥٦٤ -.

إلى الشام يطلب المدد.. وبذل للجند أموالا لم يبذلها من قبل، وأرسل إلى واليه في مصر أن يقطع الميرة التي ترسل من مصر إلى الحجاز بحراً كي لايتقوى بها محمد بن عبد الله، وليفرض عليه حصارا اقتصادياً يضعف شأنه ويصرف الناس عنه(١).

وفي الوقت نفسه سلك المنصور طريق السلم والمفاوضة، فأرسل رسالة مسهبة إلى محمد بن عبد الله الحسن، قال فيها: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله بن عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم. إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم).

ولك علي عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ﷺ إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعك على دمائكم وأموالكم، وأسوغك ماأصبت من دم ومال، وأعطيك ألف ألف درهم، وماسألت من حوائج، وأنزلك من البلاد حيث شئت، وأن أطلق من في حبسي من أهل بيتك وأن أؤمن من جاءك وبايعك واتبعك أو دخل معك في شئ من أمرك ثم لاأتبع أحداً منهم بشئ كان منه أبدا. فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إلي من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ماتثق به).

كان عرض أبي جعفر مغرياً إلى حد كبير لمن في نفسه أمر الثروة أو الجاه.. وكان من الممكن لمحمد بن عبد الله أن يفاوض المنصور على ولاية كبيرة وأموال طائلة ويأخذها.. ويأخذ لأصحابه أموالاً كثيرة أيضا.. ولو فعل ذلك لسقطت دعوته وانقلبت السيوف التي ارتفعت من أجله.. إيمانا بأنه على الحق وأن المنصور على الباطل.. لانقلبت تلك السيوف عليه.. كما أن محمد

---

١) الطبري ٧/ ٦٢٠ -.

بن عبد الله الذي عانى سنوات طويلة من التشرد والهرب وتسبب في سجن والده وعدد من أقاربه وقتلهم لايمكن أن يقبل بأقل من الخلافة.. لذلك كتب إلى أبي جعفر رسالة طويلة يتهمه فيها بالطغيان والاعتداء على حقوق الهاشميين، واغتصاب الخلافة منهم، فهم أحق بها منه ومن العباسيين، لأنهم أبناء علي وهم الذين تحملوا عسفاً كبيراً خلال السنوات الماضية، ورد على عرضه الأمان بأن عهوده لايوثق بها، فقد سبق أن أعطى الأمان لابن هبيرة وأبي مسلم ثم قتلهما ولعمه عبد الله بن علي ثم سجنه، وعرض عليه أن يعطيه الأمان إن ترك الخلافة ودخل في طاعته، وأكد أنه لاينكث بعهده.. وكانت رسالته قوية ومثيرة، جعلت المنصور يرد عليه برسالة أطول ينقض فيها حججه في الخلاف، ويستند إلى قواعد الميراث في الإسلام.. فإن كان الهاشميون يطلبون إرث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحكم فإن العباسيين أولى به، لأنهم أقرباء الرسول صلى الله عليه وسلم من جهة الرجال، بينما الهاشميون أقرباؤه من جهة النساء وإرث الرجال مقدم على إرث النساء.. وأكد أبو جعفر أن الله سبحانه لم يشأ للهاشمين تولي الحكم.. فجميع مطالباتهم بالخلافة كانت تنتهي بالقتل وذكر فضل العباسيين منذ الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي..(١) والحقيقة أن هذه الرسائل المتبادلة كانت مناقشات عميقة في نظرية الخلافة وصاحبها.. وهي تكرار لما كان يتبادله العباسيون والهاشميون منذ عهد أبي العباس السفاح، لذلك لم تصل إلى نتيجة، وأدرك كل من المنصور ومحمد بن عبد الله أن المواجهة قادمة لامحالة..

وبينما كان المنصور منهمكا بالإعداد للمواجهة كان محمد بن عبد الله منشغلا بالأمور اليومية في المدينة، وبانتظار الأخبار من اليمن والشام والعراق.. ولم يقم بأية تعبئة عسكرية تكافئ طموحه الكبير في إنهاء خلافة

---

١) انظر نص الرسالتين في الطبري ٥٦٨/٧

العباسيين وانفراده بالحكم، كما أن طبيعة المدينة المنورة وقلة رجالها ومواردها تقتضي جهوداً مضنية لتعبئة تكافئ الأمر الكبير الذي طلبه محمد بن عبد الله.

والحق أن محمداً بدأ الإعداد.. ولكنه لم يتصرف بالقدر المطلوب.. بدأ فنظم ديوان العطاء وسجل فيه أسماء مبايعيه وفرض لهم فروضا مالية على أنهم جنده حين اللزوم.. واستعان برجاله الذين خرجوا معه.. وجعلهم القوة المسلحة.. ولكنهم لم يزيدوا على الثلاثمئة.. وجاء أبوبكر عبد الله بن محمد بن أبي سبرة بأموال كثيرة من صدقات بني أسد وطيء(١)، فسر محمد بذلك وعينه على ديوان العطاء. وبدأت الأيام تمر بسرعة ومحمد بن عبد الله في إمارة المدينة ينتظر أن تأتيه أخبار الانتصارات من العراق أو الشام أو اليمن.. دون جدوى.. وعلى العكس من ذلك، وردت الأخبار بما لايسر.. فالقاسم بن محمد الذي وجهه إلى اليمن لم يتمكن من الوصول إليها ولم يغلب على أمرها وعاد إلى مكة مع الحسين بن معاوية، وأخوه الذي أرسله إلى الشام لم ينصره الشاميون بل هددوه بتسليمه للعباسيين ، وأخوه إبراهيم في البصرة مع فئة من أهلها وعلمائها ولكنه لايملك الجيش القوي الذي يخرج الى الكوفة ويواجه المنصور.. وبدأ بعض أصحاب محمد يشعرون بصعوبة الموقف وخطورته.. وعجز المدينة المنوره عن أن تواجه الحرب وحدها (فليس فيها كراع ولا سلاح)(٢).

أمام هذا السكون (الهاشمي) كان المنصور يحشد قواه.. وجاءت الأخبار بأن المنصور يعبئ عسكره، وأنه ولى عليه واحدا من أمهر قواده.. هو ابن أخيه عيسى بن موسى.. وأنه سيخرج وشيكا إلى المدينة، وجاء محمداً من ينصحه بأن يفعل شيئا.. أن يخرج من المدينة فليست دار حرب وليس في

---

١) الطبري ٦٠٩/٧ -

٢) الطبري ٧ / ٥٧٣ -

أهلها من يصمد للجيش العباسي.. وكان محمد بن خالد القسري عندما أطلق سراحه من السجن قد بايعه، وأخلص له النصيحة، فنصحه أن يتوجه إلى مصر ففيها رجال وسلاح وأهلها قادرون على مواجهة الجيش العباسي، ولكنه أبى(١) وعند ذلك رأى محمد بن خالد أن محمد بن عبد الله ليس رجل دولة وخلافة فنكص بيعته، وراسل أبا جعفر المنصور يخبره بضعف أمر محمد بن عبد الله وقلة رجاله، ويعلن ولاءه له.. ونمى خبر الرسالة إلى محمد بن عبد الله فأمر بالقبض على محمد بن خالد فقبض عليه وأودع السجن.. ونجح محمد بن عبد الله في استقطاب عدد من وجوه المدينة وفقهائها كابن هرمز والإمام مالك والقاسم بن اسحاق بن عبد الله بن جعفر وعلي بن زيد بن علي وأخوه حسين وأبناء معاوية بن عبد الله بن جعفر ومحمد بن عبد الله بن عمر بن سعد بن العاص ومحمد بن عمر بن حفص بن عاصم وأبو الأخيضر عيسى بن الحصين.. وكان من رجاله المخلصين وقادته الشجعان، ولكن محمدا لم يشكل جيشا من أهل المدينة..

وعندما وصلت الأخبار بتحرك جيش المنصور بقيادة عيسى بن موسى بدأ محمد بن عبد الله عملاً جديا.. فجمع أصحابه واستشارهم فيما يفعله؟ هل يستنفر الناس للخروج وملاقاة الجيش القادم خارج المدينة، أم ينتظره في المدينة؟؟ واختلف أصحابه في الرأي فتحمس بعضهم للخروج، ورأى بعضهم البقاء في المدينة.. واحتج أصحاب الرأي الثاني بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق.. وحرضوا محمداً على حفر الخندق من جديد وتفاءلوا بأنهم سينتصرون باتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك.. ويبدو أن استثارتهم العاطفية هذه أثرت فيه وفي عدد كبير من أصحابه فغلب هذا الرأي عليهم.. وأدرك آخرون من أصحابه ضيق هذا الرأي.. لأن الظروف قد تغيرت والبقاء داخل المدينة لايكفي للانتصار على

---

١) الطبري ٧/ ٥٦١ -

الجيش القادم.. ولا بد من المناجزة.. لذلك جاء بنو سليم إلى محمد بن عبد الله - وكانوا قد بايعوه - فقال متكلمهم جابر بن أنس الرياحي: ياأمير المؤمنين نحن أخوالك وجيرانك، وفينا السلاح والكراع، والله قد جاء الإسلام والخيل في بني سليم أكثر منها في الحجاز، ولقد بقي فيها منها ماإن بقي مثله عند عربي تسكن إليه البادية، فلا تخندق الخندق، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خندقه لما الله أعلم به، فإنك إن خندقته لم يحسن القتال رجاله، ولن توجه لنا الخيل بين الأزقة، وان الذين يقاتلون دونهم هم الذين يقاتلون فيها، وإن الذين يخندق عليهم يحول الخندق دونهم(١) وكاد محمد بن عبد الله أن يقتنع برأيه، ولكن واحدا من أصحاب الرأي الثاني قال: أتريد أنت أن ندع رأي رسول الله ﷺ؟؟ فتأثر محمد بقوله وقال: إنما اتبعنا في الخندق أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يردني عنه أحد، فلست بتاركه(٢).

خندق المدينة مرة ثانية :

وخرج محمد بأصحابه إلى موقع الخندق وبدءوا بحفره ثانية فقد طمر بعد موقعة الحرة.. وبدأ محمد الحفر بيده ليشجع أصحابه ويزيل آثار المعترضين عليه في ذلك.. وحفر فظهرت له لبنة من خندق الرسول صلى الله عليه وسلم فكبر.. وكبر الناس معه، وقالوا: أبشر بالنصر هذا خندق جدك رسول الله صلى الله عليه وسلم(٣). وأخذت الجميع موجة من الحماسة واستسلموا لصوت العاطفة.

أثار حفر الخندق اضطرابا في أهل المدينة.. وبدءوا يشعرون بجدية الموقف وخطورته.. وأسرع بعضهم للإسهام في الحفر.. وذهب بعضهم إلى

---

١) الطبري ٧ / ٥٨١ -

٢) السابق نفسه

٣) الطبري ٧ / ٥٨٢ -

دار السلاح في الإمارة فاكتتب في المقاتلين وأخذ السلاح والعطاء، وبدأ بعضهم الآخر يعد العدة للاعتزال في بيته أو بستانه وتهيئة المؤونة اللازمة لذلك.. بينما أخذ بعضهم يعد للرحيل خارج المدينة بعداً عن الحرب وويلاتها.. وبينما المدينة في شغلها هذا كان عيسى بن موسى قد فرغ من تعبئة جيش زاد عدده على أربعة آلاف مقاتل.. وجهزه بعدة لم ير مثلها(١) . وجاءه المنصور فأوصاه أن يبذل كل جهده في مفاوضة محمد بن عبد الله قبل حربه.. وأن يدعوه ثلاثة أيام إلى إلقاء السلاح والدخول في طاعة المنصور.. وأن يؤمنه وأصحابه ويكرمهم إذا استجابوا.. وإلا فالقتال.. وقد شدد عليه أن يهتم بأهل المدينة وأن يحاول جهده عزلهم عن محمد بن عبد الله.. وألا يقتل منهم أحدا إذا استجاب له أو استسلم.. وخلافا لما كان يزيد قد أوصى قائده مسلم بن عقبة فإن المنصور كان حريصا إلى أبعد حد على سلامة المدينة وأهلها.. وسار عيسى بن موسى بالجيش إلى المدينة.

حرب نفسية لتحييد أهل المدينة:

بدأ عيسى بن موسى حربه مع محمد بعمل يعد من أعمال الحرب النفسية البارعة، وهو العمل على تفريق جماعة خصمه، بصرفهم عنه، سواء باستعادة ولائهم، أو بتحييدهم، ودفعهم إلى عدم المشاركة في المواجهة المرتقبة، فعندما أنزل الجيش للاستراحة في منتصف الطريق تقريبا، استقدم بعض الأعراب الحجازيين، وأغراهم بمال كثير ليحملوا رسائل إلى المدينة المنورة، وبينما أهل المدينة مشغولون بخندقهم وبالإعداد للمواجهة كان الأعراب الوافدون يقصدون بيوت عدد من وجوه المدينة، وقد خبئوا رسائل خطيرة في نعالهم.. فلا يراها أحد ولو فتشوه، وكانت هذه الرسائل تدعو الناس إلى عدم المشاركة في الحرب وتحذرهم من عواقبها وتحضهم على الخروج من المدينة ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم.. بل ولهم المكافآت.. وتوالت الرسائل على

---

١) البداية والنهاية ١٠ / ٩١ -

عدد كبير من أهل المدينة.. وكان الأعرابي يسلم الرسالة ويغيب مسرعا.. وقد أثرت الرسائل في عدد ممن تسلموها، وبدأ بعضهم يفكر بالخروج حقيقة بينما حمل بعض المخلصين الرسائل إلى محمد بن عبد الله وحذره من خطورة آثارها.. فأمر محمد شرطته برصد القادمين وتفتيشهم.. ولاسيما الأعراب، ونجحت شرطته في القبض على عدد من الرسل بعد ذلك.. ووجدوا مع احدهم مخاطبات لبعض أهل المدينة تثير شبهة تواطئهم مع العباسيين.. فأمر محمد بالقبض عليهم وحقق معهم وضربهم وأمر بحبسهم(١). وانتشر أمر الرسائل في المدينة وانتشر معها خبر الأمان الذي وعد به عيسى بن موسى لمن يخرج أو يعتزل.. وبدأ بعضهم ينسل بأهله إلى المزارع والشعاب..(٢)، وعلم محمد بذلك فتضايق من الخبر ولكنه أنف أن يجبرهم على البقاء.. بل أخذته الحمية والأنفة ووقع في خطأ لم يكن لمثله أن يقع فيه، فقد خطب الناس يوم الجمعة وحدثهم عن يقينه المطلق بحقه وبنصر الله له.. وانطلاقا من هذه الثقة الكبيرة أعلن لهم أنه لايمسك من أراد الخروج من المدينة ولا يحمل أحدا على نصرته، بل ذهب أبعد من ذلك فأباح لهم التحلل من بيعته.. وكانت غلطة كبيرة(٣).

---

١) الطبري ٥٨١/٧ -

٢) الطبري ٥٨١/٧ -

٣) الطبري ٥٨١/٧ -

سارع عدد كبير من الناس بعد تلك الخطبة إلى الخروج من المدينة، يحملون معهم أهليهم وزادا يكفيهم مدة من الوقت، وانتشروا في الشعاب والقرى المجاورة، والتقى بعضهم بطلائع الجيش العباسي القادم ونال من قائده الأمان والعطاء. وأقبل بعض أصحاب محمد يلومونه على تعجله، وأحس محمد بأنه قد أخطأ، فطلب من رجاله أن يردوا من يستطيعون رده.. ولكن الأمر أفلت من أيديهم فلم يعد بمقدور أحد أن يتبع الذين خرجوا وضربوا بعيدا، واكتفى رجال محمد بأن منعوا من بقي من الخروج.. وقد أظهر خروج ذلك العدد الكبير من المدينة قلة من بقي للقتال مع محمد، وشعر محمد بضعف جيشه وقلة عدده، فكتب إلى أخيه في مكة أن يجمع ما يستطيع جمعه ويلحق به على وجه السرعة لمواجهة عيسى بن موسى وجيشه الكبير.. وبدأ الوقت يمضي مسرعاً، وخرج عدد من أصحاب محمد يستطلعون أخبار الجيش القادم.. وعادوا إلى المدينة مسرعين فقد أصبح جيش عيسى بن موسى على مشارف المدينة..

وبدأ محمد بن عبد الله يرتب رجاله ويوزعهم على امتداد الخندق المحفور، ورأى عددهم قليلاً جداً وأقل بكثير مماسجل في ديوان العطاء، بل ومما كان معه قبل أيام عندما بدأ حفر الخندق.. وأدرك أن رسائل عيسى بن موسى قد نفذت إلى عدد منهم واستجرتهم، وأن غلطته التي وقع فيها عندما أباح لمن يريدالخروج من المدينة والتحلل من بيعته قد فعلت فعلها وأن بعض القبائل التي كان يعتمد عليها قد تخلفت عنه (١) فلم يبق معه إلا القليل.. وأحصى الرجال الذين معه على أطراف الخندق وثغور المدينة الأخرى فوجدهم يزيدون على الثلاثمائة قليلاً، واغتم محمد.. ولكن صديقه أبا القلمس بشره بأن هذا العدد هو نفس عدد المسلمين يوم بدر وأن الله سينصره كما نصر أهل بدر.. فانفرجت أساريره وواصل استعداداته،

---

١) الطبري ٧/٥٨١ -.

حصار ومفاوضات:

وفي يوم الجمعة الحادي عشر من رمضان ظهرت للعيان حشود الجيش القادم على بعد من المدينة.. ووصلت الطليعة التي تقوم باستكشاف الطريق مساء إلى الخندق وعادت إلى حيث عسكر الجند.. فسهر رجال محمد الليل كله على الخندق والثغور يحرسونها..

ولما أقبل الصباح زحفت الحشود إلى منطقة قريبة من الخندق ثم توقفت بأمر قائدها.. وجاءت رسل الجيش فوقفت غير بعيد عن الخندق.. وكان فيهم عيسى بن موسى وحميد بن قحطبة وأمر عيسى بن قحطبة فنادى محمد بن عبد الله وأبلغه أن أبا جعفر المنصور أمرهم بإعطاء الأمان له ولمن معه إذا ألقى السلاح ودخل في الطاعة، وأنه يمهله للتفكير في ذلك.. (١). فأمر محمد بن عبد الله مناديه بأن يرد عليه بالرفض.. فانصرف عيسى ومن معه إلى معسكرهم.. وبات كل من حرس العسكرين يرقب الطرف الآخر ولكن لايبدي أي تحرك.. ومضى النهار في الترقب.. وتبعه الليل دونما أية بادرة قتال، وجاء أحد قادة عيسى بن موسى إليه فأشار عليه أن يرسل مجموعة من الجيش إلى طريق مكة لتمنع وصول أي مدد منها ولتقطع الطريق على محمد بن عبد الله إذا فكر بالهرب.. فأعجب عيسى بالفكرة وأمر أحد الهاشميين الذين يرافقونه وهو محمد بن أبي الكرام مع خمسمائة جندي أن يلتفوا من حول المدينة وينزلوا جنوبيها على طريق مكة عند الشجرة.. فتحركت المجموعة واتجهت جنوبا من خلف جبال الحرة لايراها أحد من أهل المدينة، حتى إذا ابتعدت عن مسافة الرؤية انحرفت غربا.. ونزلت عند الشجرة

---

١) الطبري ٧ / ٥٨٦ -

ولم يشعر محمد ورجاله بذلك (١). وفي صباح اليوم التالي الأحد الثالث عشر من رمضان عادت كوكبة الفرسان ثانية وكررت النداء وأعطت المواثيق والعهود وألحت في طلبها تجنب الحرب، فكان الجواب أشد من جواب اليوم السابق.. فتحركت المجموعة إلى جهة أخرى من الخندق وأخذت تنادي بعض وجوه أهل المدينة من الهاشميين وتسألهم أن يكفوا عن الحرب ولهم الأمان، وأن يقنعوا صاحبهم بذلك.. ولكن الهاشميين رفضوا واحتجوا بهاشميتهم، فخرج إليهم من المجموعة رجل هاشمي وخاطب القاسم بن الحسن بن زيد وأعلمه أنه هاشمي مثله وأنه يسأله بالله وصلة القرابة ألا يدع الدماء تجري فرفض، الهاشميون ثانية.. ولكن القاسم بن الحسن تأثر بالنداء وبدأ يعد العدة للاستجابة..

وتحركت المجموعة إلى آخر الخندق فأعادت النداء.. ولكنها لقيت إجابات منكرة. فعادت إلى المعسكر..

ومر اليوم الثاني دون قتال أيضا.. فقد كانت أوامر المنصور أن يمهل الناس ثلاثاً..

لذلك عندما طلع نهار اليوم الثالث أقبل حميد بن قحطبة في جند كثيرين.. وكرر النداء.. فسمع إجابات شديدة مليئة بالسباب والشتائم.. فلما استيأس من استجابتهم أمر جنده ببدء الهجوم..

الملحمه الداميه:

تحرك رجال ابن قحطبة وحاولوا أن يجتازوا الخندق بخيولهم فقابلتهم رشقات غزيرة من السهام من طرف الخندق الآخر. فارتدت الخيول.. وتحركت الحشود على امتداد الخندق بعيداً عن رمي السهام لتحيط به إحاطة تامة. وأمر عيسى بن موسى الجند أن يتوزعوا على أطراف المدينة كلها وأن يتركوا ثغرة واحدة عند مسجد أبي الجراح ليخرج منها من يريد الهرب من

---

١) الطبري ٧ / ٥٨٤ -

جند محمد بن عبد الله.. وحاولت مجموعة أخرى عبور الخندق ، وردت على أعقابها..(١).

فأمر ابن قحطبة مجموعة من رجاله أن يحضروا مامعهم من الأحمال والهوادج والمتاع، وتقدمت مجموعة تحمل التروس لتمنع عنها النبال، حتى إذا وصلت طرف الخندق ألقى الرجال مايحملونه وتكدس المتاع بعضه فوق بعض فردم جزأ من الخندق.. وهجمت مجموعة واقتحمت الخندق من فوقها، وبدأت تجالد رجال محمد.. فيما مضى عدد آخر من جيش عيسى فأحضروا المزيد من المتاع واستغلوا فرصة انشغال خصومهم بالطليعة التي اقتحمت عليهم فردموا جزءاً آخر من الخندق واجتازوه..

ورأى ابن قحطبة في جهة قريبة جداراً يطل على الخندق فأمر رجاله بهدمه على الخندق ليكون ردما له. فاتجهوا إليه بالفؤوس والرماح وعمد الخيام، ونقضوه على الخندق..

وبلغت أخبار الثغرة محمد بن عبد الله فأسرع إليها ومعه عدد من رجاله المقربين.. فحمل حملة شديدة، وبدأ يرد المقتحمين إلى طرف الخندق الآخر واستبسل هو ومن معه، وسقط عدد كبير من خصومه تحت ضربات سيفه وتراجع المهاجمون حتى جازوا الخندق عائدين إلى عسكرهم..

ورجع محمد وقد أصابته بعض الجراح وشد من عزم الرجال. وجاءه الخبر بأن الجيش العباسي قد أحدث ثغرة أخرى فانطلق إليها أيضاً، وجمع عدداً ممن وجدهم في طريقه وذهب يقاتل بنفسه.. وشهد مصرع بعض أصحابه فاشتد في القتال حتى تقهقر الخصوم..

وانتصف النهار والقتال يشتد في طرف ويهدأ في طرف. ونجحت مجموعات من جيش عيسى بن موسى في اجتياز جزء مردوم من الخندق ثانية، وانتشرت في طرق المدينة تقاتل من تواجهها.. بينما جاء إلى الموقع

---

١) الطبري ٧/٥٨٥

الذي يقاتل فيه محمد بن عبد الله رجل من آل طالب كان مع جيش عيسى فناداه ورجاه أن يكف عن القتال ويدخل في الطاعة، فلم يستجب له محمد، وكر عليهم فقتل بعضهم وهرب الباقون.. وجاءه من يخبره بأن ثغرة أخرى قد تدفق منها بعض الخيالة والرماة وأنهم كثروا.. ثم جاءه خبر آخر بثغرة في الشرق ، فأسرع إلى أقرب الثغرتين ووجه صديقه ابن خضير إلى الثانية، وتجالد الطرفان.. وكان محمد يكشف خصومه ويردهم في الجهة التي يواجههم فيها.. ولكنهم سرعان مايدخلون من جهة أخرى ويقتلون بعض أصحابه فيتناقص العدد القليل . وبدأ أصحاب محمد يشعرون بحرج الموقف ، فجاءه ابن خضير وأخذ يناشده الله أن يترك المعركة ويتجه إلى البصرة أو غيرها، ولكن محمداً أبى أن يترك القتال..

وتناقص عدد أصحاب محمد إلى حد كبير وأصبحت مناطق كثيرة دون حراسة، واستطاع أحد قادة عيسى بن موسى أن ينفذ إلى موقع يسكن فيه بنو غفار، وكان يمت إليهم بصلة، فحادثهم ومناهم بالأعطيات وطلب منهم أن يفتحوا لرجاله طريقا إلى المدينة فاستجابوا له، وفتحوا له طريقا اندفعت منه أعداد كبيرة من الفرسان ودخلت المدينة، وفاجأت رجال محمد من خلفهم وأعملت فيهم السيوف فسقط بعضهم ولاذ بعضهم الآخر بالفرار..

واقترب العصر وتضاعف عدد العباسيين الذين اجتازوا الخندق، واقترب بعضهم من البيوت دون مقاومة، وعاد ابن خضير يحض محمدا على الانسحاب ومحمد يأبى وأخيرا قال له: والله لاتبتلون بي مرتين، ولكن اذهب حيث شئت فأنت في حل.. فقال ابن خضير وأين المذهب عنك..

أدرك ابن خضير أن محمدا قد بلغ مرحلة التضحية والفداء، وأنه سيقاتل حتى الموت، وهذه مرحلة لاينفع فيها الجدال.. وسرت هذه الروح إليه، فصمم على أن يقوم بعمل كبير ويضرب الخصوم بكل ماأوتي من قوة.

لذا استأذن محمداً بدخول المدينة لبعض الوقت فأذن له، فاتجه إلى

السجن، حيث أمير المدينة العباسي رياح وكبار موظفي، فدخل عليهم وأخذ يقتلهم واحداً واحداً، وبدأ برياح فصب عليه كل غيظه وضربه بالسيف ضربا فظيعاً، وثنى بابن عقبة بن مسلم، ثم ببقية رجال الإمارة العباسية السابقة. وكان محمد بن خالد القسري أمير المدينة الأسبق في غرفة قصية من السجن، فسمع الجلبة، وعلم من بعض الحراس مايفعله ابن خضير وأدرك أنه لابد قاتله، فنادى من معه في الغرفة وسدوا الباب بكل ماوجدوه، فلما جاء ابن خضير لم يتمكن من الدخول عليه، فتركه وانطلق إلى ديوان الإمارة وكانت فيه سجلات تحوي أسماء الجنود، وأسماء الذين بايعوا محمداً، وأوراقاً أخرى ستؤذي بعض أهل المدينة إن سقطت في أيدي العباسيين، لذلك حمل ابن خضير جذوة من النار وألقاها في الديوان، ولم يغادره حتى رأى النار تلتهم كل ما فيه من أوراق ورسائل فعادإلى صاحبه محمد.

وكان محمد قد فرغ لتوه من صد مجموعة من جيش ابن قحطبة، وسقط معظم من معه من المقاتلين، وأدرك أن الشهادة قادمة لامحالة، فقرر أن يواجهها بشجاعة، ومضى إلى دار مروان بن محمد، فاغتسل وتحنط وصلى صلاة استقبال الموت وخرج، فلقيه عبد الله بن جعفر فقال له مشفقا: بأبي أنت، والله مالك بما رأيت طاقة، ومامعك أحد يصدق القتال، فاخرج الساعة حتى تلحق بالحسن بن معاوية في مكة، فإن معه جلة أصحابه. فأجابه محمد: ياأبا جعفر، والله لوخرجت لقتل أهل المدينة، والله لاأرجع حتى أَقتل أو أُقتل. وأنت مني في سعة..(١) فتأثر عبد الله بن جعفر ومضى معه حتى إذا

---

١) الطبري ٥٩١/٧

وصل إلى منطقة الزياتين(١)٠ قرب ثنية الوداع، سمع الصريخ يطلب النجدة فانطلق عبد الله بن جعفر ومضى محمد بن عبد الله إلى ثنية الوداع ولحقه عدد من الرجال فشدوا على من وجدوه من جيش عيسى وهزموهم، وانطلق صوت المؤذن من مسجد خلفهم لبني الديل، فرجع محمد إلى المسجد ودخل فصلى ثم خرج، واستسقى فسقته ربيعة بنت أبي شاكر القرشية، ثم قالت له: جعلت فداك، انج بنفسك فقال لها: إذاً لايبقى في المدينة ديك يصرخ . (٢) . ومضى إلى الثنية فوجد عندها مجموعة من بني شجاع صامدين، فسر بهم محمد بن عبد الله، ونزل عن دابته وعرقبها، ثم رمى غمد سيفه وكسره وقال لهم: قد بايعتموني ولست بارحاً حتى أقتل، فمن أحب أن ينصرف فقد أذنت له، فلم ينصرف منهم أحد، بل أقبلوا عليه وكسر كل منهم غمد سيفه،

---

١) يبدو أنها منطقة كان بائعو الزيت قديماً يبيعون زيوتهم فيها - وهي امتداد لمنطقة سوق المناخه وقد أخبرني الدكتور محمد الوكيل أن فيها «حجارة الزيت» وهي حجارة مشبعة بالزيت كان الزياتون يصفون بضائعهم عليها٠ وقد ورد في صحيح ابن ماجه -كتاب الفتن- حديث يشير الى وقوع فتنة تراق فيها الدماء حتى تغطي حجارة الزيت «عن ابي ذر٠٠٠ قال: قال رسول الله ﷺ : كيف انت وقتلاً يصيب الناس حتى تُغرق حجارة الزيت بالدم٠ قلت: ماخار الله لي ورسوله ٠ قال إلحق بمن أنت منه٠ قال: قلت يارسول الله أفلا آخذ بسيفي فأضرب به من فعل ذلك؟ قال: شاركت القوم إذن٠ ولكن ادخل بيتك (سنن ابن ماجه ١٣٠٨/٢ رقم الحديث ٣٩٥٧ دار إحياء التراث العربي ٠ بيروت) وقد شرح محقق سنن ابن ماجه محمد فؤاد عبد الباقي حجارة الزيت بأنه موضع بالمدينة المنوره في الحره سمي بها لسواد الحجارة كأنها طليت بالزيت ويقول معقباً: وهذا إشارة الى وقعة الحرة التي كانت زمن يزيد»٠

وأنا أرجح ماذهب اليه الدكتور محمد الوكيل، وقد سألت عدداً من أهل المدينة المسنين عن حجارة الزيت فقرروا أنها في منطقة الزياتين، وهو الموضع الذي ذكره الطبري

٢) الطبري ٥٩٢/٧ -

وعرقب دابته واستعدوا بما استعد له.

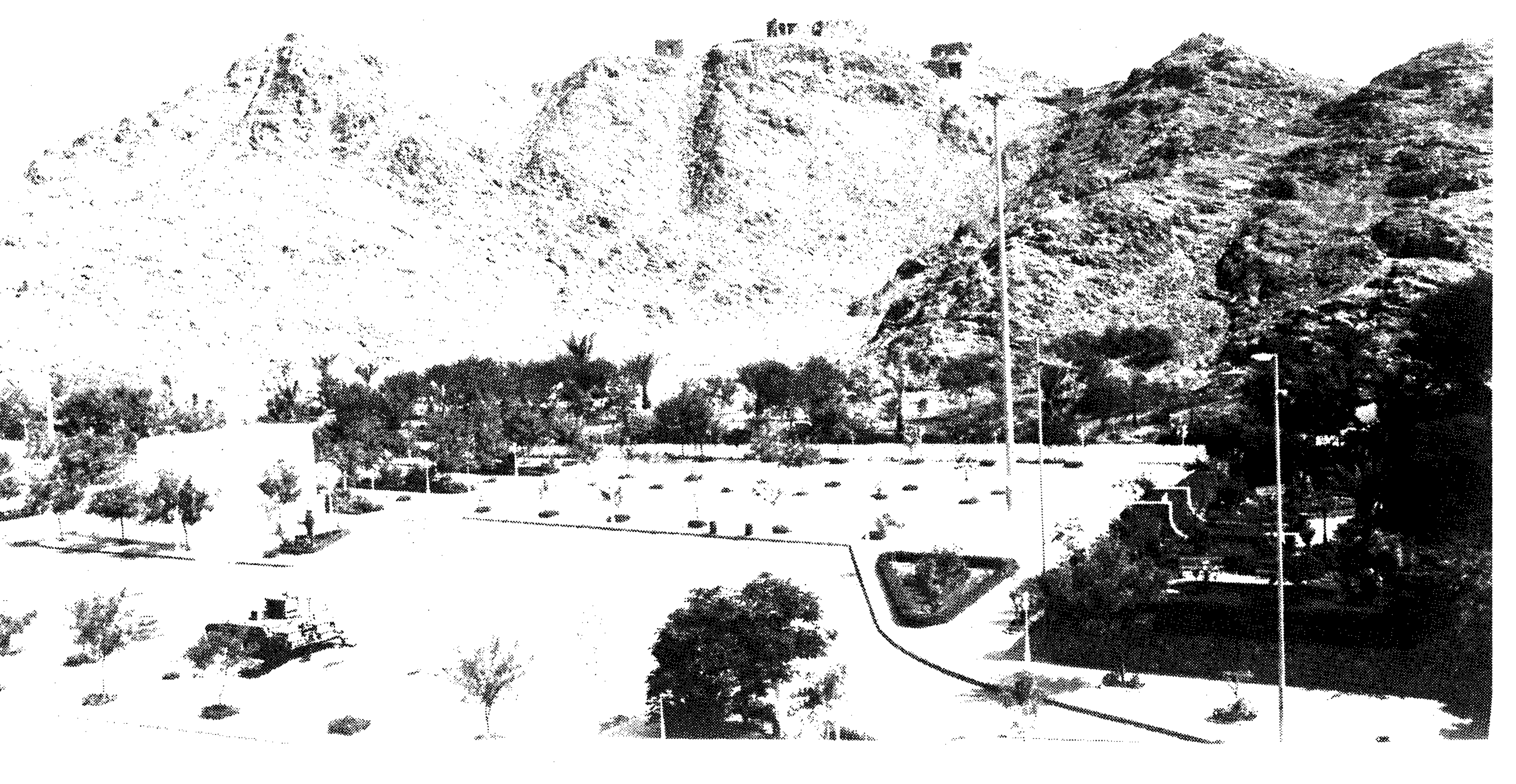
وفتحت ثغرة كبيرة عند جبل سلع، وكان عنده عدد من أعراب بني جهينة الذين ثبتوا مع محمد بن عبد الله ثباتاً كبيراً. فعمد أحد الجنود الخراسانيين في الجيش العباسي إلى حيلة فظيعة، جاء إلى جثة أحد القتلى فاقتلع الرأس والحلقوم والكبد والأمعاء، وعلق الرأس أعلى الرمح وترك بقية الأشلاء تتدلى على طرفي الرمح، واعتلى طرف سلع من جهته الأخرى وأطلع هذا المنظر المخيف أمام الجهنيين، فأجفلوا، ونزلوا من على صخرات سلع إلى السهل فصرخ الخراساني بالفارسية (كوهبان) فصعد إليه أصحابه حتى بلغوا القمة ونصبوا عليها راية سوداء كبيرة، فلما رآها الناس من بعيد ظنوا أن المعركة قد انتهت.

وقرب المسجد النبوي كانت تسكن امرأة عباسية هي أسماء بنت حسن بن عبدالله، فأرسلت مولى لها بخمار أسود كبير وأمرته أن يعلو مئذنة المسجد النبوي وينصبه عليها، ولم يكن أحد من رجال محمد عند المسجد النبوي، ففعل المولى ماأمرته سيدته، وفوجئ الناس من بعيد برؤية الراية السوداء على مئذنة المسجد النبوي فتنادوا: دخلت المدينة، وأخذ من بقي من رجال محمد بالهرب، (١).

ووصل ابن خضير إلى محمد بن عبد الله فأخبره بما فعله، فسر محمد بحرق الديوان وأثنى على فعله، وفجأة علت الأصوات وظهرت جلبة كبيرة، فقد أقبلت مجموعة كبيرة من فرسان العباسيين وعليها ابن قحطبة، فاندفع إليهم الرجال يضربون خيولهم، واقتحمت الخيل، وتقدم ابن خضير فنادى ابن قحطبة لمبارزته، ولكن ابن قحطبة أخذ يدعوه إلى الطاعة والأمان، ويستكثر عليه القتل، والتحم الفريقان وهجم ابن خضير يريد الوصول إلى ابن قحطبة، وصرع عددا من الرجال أمامه.. ولكن أحد الفرسان أصابه بضربة في اليته

---

١) الطبري ٥٩٣/٧



جبل سلع: الثغرة الأخيرة التي اقتحم منها لجيش العباسي ونفذ الخراساني حيلته المرعبة وقد تحولت قاعدته في العصر الحاضر إلى مزار للمساجد الستة فيها

فأحدث فيها جرحاً كبيراً، فخرج ابن خضير إلى أصحابه وشق ثوبا فعصبها إلى ظهره وعاد إلى القتال فأصاب عدداً آخر من خصومه، وتمكن منه أحد الفرسان فضربه على وجهه فخر على الأرض صريعا، وأقبل أحد الجنود الخراسانيين فاحتز رأسه وبدأ يصرخ بالفارسية (خضير آمد خضير آمد) (١) ورأى محمد بن عبد الله مصرع صديقه ابن خضير فاهتز جسمه وراح يضرب بعنف شديد، وتقهقر الرجال أمامه وشقوا له طريقا كي يدخل فيه، بينما أخذوا يحيطون به من جانبه، وهو لشدة انفعاله لايدري بما حوله، وأخيرا تمكن أحد الجنود أن يضربه من خلفه فخر على ركبتيه، وتجمع الجنود عليه فصاح حميد بن قحطبة: كفوا كفوا لاتقتلوه، ولم يكن حميد يريد أن ينقذه بل كان يريد أن يجهز عليه بنفسه، فأسرع إليه وهو يتهاوى وأجهز عليه، ثم احتز رأسه ومضى به إلى قائده عيسى بن موسى.

وسقط البطل الكبير بعد أن صرع بيده أكثر من سبعين رجلا، سقط بعد أن فتحت الثغرات في المدينة كلها، وسقط أتباعه، ولم يبق معه أحد.

وقبل أن تغيب شمس ذلك اليوم، كانت المدينة تطوي صفحة ثاني ملحمة دامية في تاريخها، سالت فيها دماء كريمة في طاحونة الصراع المرير على الخلافة، وقتل عدد من أحفاد المهاجرين والأنصار، في فتنة ما كان أغنى المدينة عنها.

وشاء الله أن تتلبد السماء بالغيوم ثم تتفجر بمطر غزير، كأنها تبكي الدماء التي سالت، ويقول أحد شهود العيان (انخرقت السماء بالمطر بما لم

---

١) الطبري ٧/٥٩٤ .-

أر مثله انخرق قط منها) (١) فأمر عيسى بن موسى مناديه بأن ينادي بالجند كي يخرجوا جميعا من المدينة ويتجهوا إلى الجرف حيث معسكرهم، ولايبقى فيها إلا مجموعة صغيرة يقودها كثير بن حصين، فخرج الجنود تحت المطر من المدينة وتقاطروا إلى الجرف فباتوا ليلتهم فيه.

بعد المعركه:

وأشرقت شمس الخامس عشر من رمضان عام مائة وخمسة وأربعين للهجرة وكأن السماء بمطرها قد أتمت إغلاق ذلك الفصل الدموي، وسالت مياهها لتمسح الدماء المراقة، وأحس الناس بالسكينة وخرجوا إلى أسواقهم، وفي نهاية المدينة عند سلع إلى طريق أُحد انتصب صفان من الجثث المصلوبة لعدد من رجال محمد بن عبد الله ، لتكون درساً قاسياً لمن يشق عصا الطاعة، وتحرك بعض الجنود الذين باتوا في المدينة إلى بيوت عدد قليل من وجوه المدينة طلبهم عيسى بن موسى كانوا مشايعين لمحمد بن عبد الله ولكنهم لم يقاتلوا معه، ولم يزد عيسى على أن وبخهم ثم عفا عنهم وردهم إلى بيوتهم آمنين، وكانت العقوبة الكبيرة منصبة على آل الحسن ثم من شايعهم من آل الزبير وآل الخطاب، فقد جمع الجنود من قدروا عليه وساقوهم أسارى إلى عيسى، الذي قرر اصطحابهم معه إلى الخليفة، وكذلك مصادرة أموال آل الحسن جميعا باستثناء أموال الحسن بن الزبير الذي بقي على ولائه للعباسيين، وبعد يومين أنزلت الجثث المصلوبة ودفنت في خندق عند جبل ذباب (٢) وظل الجيش في معسكره بالجرف خارج المدينة، وقائده عيسى بن موسى يتردد على المسجد النبوي، يصلي فيه ويعود ليبيت مع الجند.

وفي اليوم التاسع عشر من رمضان، أي بعد الملحمة بخمسة أيام، عزم عيسى بن موسى السفر إلى مكة لأداء العمرة، فاستخلف كثير بن حصين على

---

١) الطبري ٧/٥٩٩ -.

٢) الكامل ٥/١١ -.

إمارة المدينة وخرج بعدد من جنوده وحرسه، وما أن وصل مكة حتى جاءه أمر المنصور بالتوجه إلى العراق استعداداً لمواجهة ابراهيم بن عبد الله الذي تحصن بالبصرة وأخذ يعد العدة للثورة فيها، فأسرع بالعودة إلى المدينة وسحب الجيش المرابط في ضاحيتها، وحمل معه أسراه من آل الحسن وآل الزبير وآل الخطاب، وترك الباقين في سجن المدينة وترك تدبير شؤون المدينة لكثير بن حصين إلى أن يرسل الخليفة أميراً جديدا لها.

وانصرفت جهود كثير بن حصين إلى إعادة تنظيم الدواوين بعد احتراق السجلات القديمة، والحفاظ على الأمن في المدينة، ولم يكن الأمر الثاني يكلفه جهدا كبيرا، فآثار الملحمة كفيلة بدفع الناس إلى السكينة والاعتبار بما حدث، ورجاله الذين بقوا معه يجوبون أحياء المدينة وأسواقها زيادة في الحيطة والحذر، وجاءت الأخبار بأن الخليفة المنصور قد قتل عثمان بن محمد من آل الزبير وأطلق محمد بن عبد العزيز من آل الخطاب وحبس الباقين، واشتغل بأمر ابراهيم بن عبد الله الذي أشعل الثورة في البصرة وبدأ الناس يبايعونه في الأهواز وواسط وأطراف خراسان، ولكن لم يكن في المدينة أحد يجرؤ على إذاعة أمر إبراهيم أو الانتصار له، ومن أراد مشايعته خرج إليه.

موازنة بين الملحمتين:

كانت ملحمة محمد بن عبد الله بن الحسن ثاني ملحمة دموية في تاريخ المدينة وشتان مابين هذه الملحمة والملحمة التي سبقتها، ملحمة الحرة. ففي ملحمة الحرة كان المستهدف هو: أهل المدينة، وكانت القضية جماعية والعقوبة عامة فاحشة ، تصيب من لا ناقة له فيها ولا جمل، وفي هذه الملحمة كان المستهدف رجلا واحداً، ثار على الخليفة وشايعه في ثورته عدد من الناس، ومهما كان عدد الذين بايعوه، فإن الذين قاتلوا معه وأصبحوا مستهدفين لايتجاوزون ثلاثمائة، لذا فالقضية محدودة أيضا، والعقوبة لاتمتد خارج إطارها، ولعل التشابه الواضح في سطور الملحمتين هو حرص كل من

الخليفتين على تحكيم العقول قبل السيوف، وإنهاء القضية سلماً وليس حرباً، فكماعرض يزيد على أهل المدينة عروضا مغرية، عرض أبو جعفر على الثائرين عروضاً تلغي كل ماقيل عن بخله الشديد..

وفي كل من الملحمتين جاء القائد العسكري للحملة الغازية يحمل آخر فرصة من فرص السلام، ومنح الثائرين ثلاثة أيام يراجعون فيها أنفسهم، ولكن العاطفة طفت على العقل..

وفي الملحمتين كان عدد من عقلاء المدينة ومن أقارب زعماء الثورة ينصحون الثائرين بالتعقل والعودة إلى طاعة الخليفة، ويحذرونهم من مغبة المواجهة مع جيش الخليفة، ويتوقعون لهم النهاية الدامية، ولكن أصواتهم كانت تضيع أمام ضجيج الأصوات المندفعة(١).

وفي الملحمتين أبدى الثائرون شجاعة نادرة وصمدوا واستبسلوا، وآثر القادة الموت على الاستسلام أو الفرار..

وفي الملحمتين كان عمل القادة أشبه بالعمل الانتحاري، فالمدينة لاتملك إمكانات المقاومة الطويلة ولاتكافئ القوة المهاجمة..

وفي الملحمتين حفر خندق رسول الله صلى الله عليه وسلم..

وفي الملحمتين لم يدم القتال أكثر من بياض نهار واحد.

غير أن ماأعقب كلا من الملحمتين مختلف عن الآخر، فمسلم بن عقبة صب غضب يزيد على أهل المدينة، وكانت الغلطة التاريخية الكبرى، أن تستباح أموال المدينة وأرواح أهلها ثلاثة أيام متوالية، وأن يقتل مسلم بعد انتهاء المعركة عدداً من الناس في مجلسه، أما عيسى بن موسى فما إن جاءه رأس محمد بن عبد الله حتى أرسل المنادين ينادون بالأمان، ومنع الجنود من الاعتداء على أحد من أهل المدينة، ومن النهب والسلب. ولم تحدث أية

---

١) كان في الأولى النعمان بن بشير الانصاري رضي الله عنه وفي الثانيه الرجل الهاشمي الذي كان مع جيش العباسيين وخاطب القاسم بن حسن بن زيد

تجاوزات، سوى واقعة واحدة في بني فزارة: فعندما دخلت خيل عيسى شعب بنو فزارة لتلتف على محمد بن عبد الله في الثنية التي قتل فيها، اقتحم نفر من الجند بيت أبي الشدائد، فقتلوه وأخذوا رأسه فصرخت ابنته: وارجالاه، فقال لها أحد الجند: ومن رجالك ؟ قالت بنو فزارة، فقال والله لو علمت مادخلت بيتك، فلا بأس عليك. وأعطاها قطعة من عمامته السوداء فعلقتها على بابها كي لايقتحمه أحد، وحمل الجند رأس أبي الشدائد إلى عيسى بن موسى، وعنده رجلان من قريش، ورجل من بني فزارة كفيف البصر ، فاسترجع القرشيان وقالا والله مابقي من أهل المدينة أحد، هذا رأس أبي الشدائد، فاهتز الفزاري وأقبل على عيسى بن موسى يسأله بإلحاح شديد أن يحجز جنده . فأرسل عيسى مناديا فنادى: من جاء برأس ضربنا رأسه (١) وأرسل عيسى بن موسى عدة رايات نصبت أمام بيوت بعض أهل المدينة من العباسيين والقرشيين وأحفاد المهاجرين والأنصار وصاح المنادي: من دخل تحت لواء منها أو دخل دارا من هذه الدور فهو آمن، (٢) بعدها لم تحدث أية تجاوزات، ولم يرتكب الجنود العباسيون أية جرائر.. وأرسلت زينب بنت عبد الله أخت محمد وابنته فاطمة إلى عيسى تسألانه أن يسمح لهما بدفن جثة محمد، فأجابهما إجابة رقيقة، وسمح لهما بالدفن، فأرسلتا بعض مواليهما فحملوا الجثة ودفنوها في البقيع ولم يمثل بجثة أحد، (٣).

تجديد الإمارة العباسية في المدينة :

في الخامس والعشرين من شهر شوال وصل إلى المدينة عبد الله بن الربيع الحارثي ومعه عدد من الرجال، يحمل كتابا من الخليفة بتوليته إمارة المدينة، فتسلم الإمارة من كثير بن حصين، وواصل تنظيم دواوينها وعني

---

١) الطبري ٧/٥٩٩ -.

٢) الطبري ٧/٦٠٠ -.

٣) السابق نفسه

عناية خاصة بديوان المسلحة (الشرطة) وأمر رجاله بمراقبة الأحياء والأسواق بحرص شديد.

تجاوزات الجنــود:

كان معظم جنود ابن الربيع من الخراسانيين الذين شاركوا في مقاومة العديد من الفتن في أطراف العراق، وكانت أجواء الاضطرابات قد أثرت في سلوكهم، وجعلتهم يعاملون الناس بخشونة واستعلاء، فتضايق أهل المدينة من أفعالهم ولكنهم صبروا عليها. ثم تطور الأمر عندما نزل بعض الجنود إلى السوق وأخذوا بضائع من التجار ولم يدفعوا ثمنها، وانتشر الخبر في المدينة فازدادت نقمة الناس عليم، وأبلغ بعض المترددين على الإمارة الأمير عبد الله بن الربيع بذلك فلم يفعل الأمير شيئاً، وطمعَ الجنود في سكوت الأمير فازدادت تصرفاتهم سوءاً، وأصبح التجار يتحاشونهم ويعتذرون عن مبايعتهم ما أمكن ذلك، وإن أخذوا شيئاً بسيطاً تركوه لهم تجنبا للفتنة، وفي أحد أيام ذي الحجة ارتفعت في السوق أصوات أحد التجار يستغيث من حوله، فهرع إليه جيرانه والمارة، فوجدوه متعلقا بجندي، والجندي قد سلبه كيس نقوده وشهر عليه السيف، فاجتمع الناس على الجندي وجردوه من سيفه وخلصوا منه كيس النقود وأعادوه إلى التاجر المذعور، واقتادوا الجندي إلى دار الإمارة وسلموه لرئيس الشرطة وهم في غاية السخط، ولم يكن الأمير موجوداً في دار الإمارة آنئذ، فطلبوا من رئيس الشرطة أن يبلغه بالأمر وأن يضع حداً لمثل هذه التصرفات، ومالبثت الحادثة أن صارت حكاية تنتقل من بيت إلى بيت، وتملأ الناس بالسخط والتذمر من أولئك الجنود الوافدين، وتجعل التجار أشد ضيقا وحذرا منهم، وتوقع أهل المدينة أن يعاقب ابن الربيع الجندي علنا، أو أن يهدئ خواطر الناس بطريقة ما، ولكن ابن الربيع لم يفعل شيئاً من ذلك تألفا لجنده، فهم رجاله في المدينة التي سالت في أطرافها الدماء قبل شهور قليلة، ولم يفعل أهل المدينة شيئاً سوى الغضب

الصامت.

ثورة الســـودان:

في ضحى يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر ذي الحجة دخل أحد الجنود دكان جزار، وكان الجزار عبداً أسود يدعى (معقل)، وطلب بعض اللحم، فأعده معقل له، فأخذه الجندي ولم يدفع الثمن، فلما طالبه به الجزار أغلظ الجندي له القول، وتحرك لينصرف من الدكان فلم يملك معقل نفسه وهجم على الجندي وضربه بسكينه الكبيرة في خاصرته، فصرخ الجندي مستغيثا بزملائه وخر صريعا على الأرض، وهرع الجنود الموجودون في السوق إلى دكان معقل فاستغاث معقل بزملائه وجيرانه. وكان معظمهم من السودان والموالي، فهاجموا بسكاكينهم الحادة الجنود، وأصابوا عدداً منهم، وفر الباقون وأخرج أحد السودان من دكانه بوقا، ووقف على مرتفع من الأرض ونفخ فيه بقوة، فبلغت أصوات البوق الأحياء المحيطة بالسوق، وأجابته أصوات أبواق أخرى من عالية المدينة وسافلتها، وكانت هذه الأصوات بمثابة أجراس الإنذار، هب لتلبيتها كل من سمعها من السودان، وتجمع عدد كبير منهم في السوق، وحدثهم معقل بما فعله الجندي، وكيف قتله، فتحمس له زملاؤه وباركوا فعله، وخرج من الصفوف رجل ضخم منهم يدعى وثيق، وحدثهم عن إساءات الجنود وسكوت أهل المدينة عنهم خوفا من أذاهم وضرورة التصدي لهم، وتبعه آخر يدعى زمعة (١) فاشتعلت نفوس الحاضرين بالثورة. وتصايحوا للانتقام منهم لجميع أهل المدينة وتحول الصراخ إلى حركة، واتجهت جموعهم خارج السوق، وحملوا ماوجدوه في طريقهم من أعمدة وعصى غليظة، واختاروا كلا من وثيق وأبي قيس وزمعة ومعقل قادة لهم، وانطلقوا إلى الطريق العام فوجدوا بعض الجنود فقتلوهم، وتوزعوا إلى فرق، كل فرقة يقودها واحد من القادة المختارين، وانطلقوا في أحياء المدينة

---

١) الطبري ٦١٠/٧ . الكامل ١٣/٥ البداية والنهاية ٩٣/١٠ -.

يفتشون عن الجنود، ومن وجدوه انهالوا عليه بالعمد والعصي حتى يقتلوه ويأخذوا سلاحه، وعلت أصواتهم وهم يصيحون غضبا وتهديدا، وفرحا بمن يظفرون به، وانتشر الخبر في أحياء المدينة ، وكان الناس متجهين إلى المسجد النبوي لصلاة الجمعة، ففزعوا، ورجع معظمهم إلى بيته، ووصلت طائفة من السودان الثائرين إلى قرب المسجد النبوي وقتلوا عددا من الجنود المتوجهين إلى المسجد، وهرب بعضهم إلى دار الإمارة وأخبروا الأمير وصاحب الشرطة، وجاء جنود ناجون من أحياء أخرى بأخبار مماثلة، ففزع الأمير، وكان يستعد للذهاب إلى صلاة الجمعة أيضا، فجمع من عنده من الجنود وخرج بهم لملاقاة السودان، ولقوا مجموعة صغيرة منهم فهجموا عليهم، لكن السودان هربوا منهم واتجهوا إلى السوق ليجتمعوا بأصحابهم، ورأى الجنود خمسة رجال عليهم أسمال بالية - وكانوا من السائلين الذين يقفون في طريق المسجد - فظنوهم من الثائرين، وقتلوهم ولم يلتفتوا إلى أيمانهم بأنهم شحاذون، وواصل الجند تحركهم، ووجدوا فتياناً على سطح أحد الدور، فاستنزلوهم وقتلوهم أيضاً، ومضوا في طريقهم إلى السوق، وعلا صراخ الناس، ووصل الخبر إلى السودان فاتجهوا نحو السوق ووجدوا إخوانهم الهاربين من الجنود، ثم التقوا بالأمير وجنوده، عند دكاكين تجار القمح فشدوا عليهم وأصابوا عدداً منهم، وأخذ الأمير وجنوده يتراجعون، والسودان يتبعونهم حتى وصلوا إلى البقيع، وخشي الأمير أن يصلوا إليه ويقتلوه، فأخرج صرة كبيرة من المال ونثرها، فأقبل السودان عليها يلتقطون الدراهم المنثورة، وهرب ابن الربيع وجنوده، وخرج من المدينة إلى جبل أحد، ثم اجتازه إلى وادي نخل فنزل فيه، وعلم الناس أن ابن الربيع قد هرب مع رجاله فتعطلت صلاة الجمعة، وصلى الناس الظهر وخرجوا من المسجد، ومضى السودان إلى دار الإمارة ودخلوها فلم يجدوا أحدا من الجند، ورأوا في مخازنها أكداسا من الدقيق والزيت وغير ذلك من الطعام المعد للجند

ورجال الإمارة، فنهبوها، واتجهوا بها إلى السوق فكدسوها وأخذوا يبيعونها بأي ثمن، حتى بيع كيس الدقيق بدرهمين، وراوية الزيت بأربعة دراهم (١) وخلت المدينة من الجنود، وهرب القائمون على المرافق، وأصبح السجن بلا حراس، وعلم المساجين بما حدث في المدينة فخرجوا بقيودهم، ولم يجرؤ أحد من موظفي الإمارة على أن يفعل شيئاً خشية أن يبطش به السودان الثائرون. وبدت المدينة بلا سلطة تدير أمورها، واشتغل السودان بما نهبوه من دار الإمارة، ورغم وجود قادة لهم فانهم كانوا غير منظمين البته، وتجمعوا في السوق يتبادلون الأحاديث عما فعله كل منهم في سرور ونشوة.

تناقل أهل المدينة أخبار السودان، وهرب ابن الربيع، وكان بعضهم مغتبطا بالثورة، وبعضهم الآخر متخوفا من عواقبها، فما زالت آثار ثورة محمد بن عبد الله ماثلة في أذهانهم، واشتدت خشيتهم عندما علموا أن أحد رجال الإمارة خرج بخبر الثورة إلى المنصور، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً لتدارك الأمر.

---

١) الطبري ٧ / ٦١١ -

ســجين يطفىء الثورة:

كان في سجن الإمارة رجل خالط الأمراء وعمل لهم هو أبو بكر بن أبي سبرة، الذي أرسله أمير المدينة الأسبق رياح لجمع زكاة طيئ وأسد، فقدم بها وقد خرج محمد بن عبد الله فدفعها له، وعندما قتل محمد بن عبد الله قبض عليه وسجن.

أدرك ابن سبرة خطورة ثورة السودان، وتوجس من عواقبها، فنفس المنصور ماتزال تغلي من ثورة محمد ثم أخيه ابراهيم، ومن المشكلات التي يواجهها في الأهواز وخراسان، ولئن تسامح مع أهل المدينة إثر إخماد ثورة محمد بن عبد الله، فإنه لن يسكت عن إخراج أميره ابن الربيع منها ونهب مخازن الإمارة، ثم إن هذه الثورة ليست إلا ثورة غضب أصابت بعض الدهماء، وليس فيها من يطالب بالخروج على الخليفة، ولا من يطمع بتغيير الحكم، وقد تحولت إلى النهب والسرقة، ولم يعد في المدينة من يحمي أمنها وأموال الناس فيها، ولئن تركت الأمور على عواهنها فربما تتطور إلى الأسوأ، وربما تكون معاقبة الخليفة جماعية تشمل أهل المدينة كلهم، لذا لابد من تدارك الأمور.

خرج ابن سبرة من السجن يجر قيوده في رجليه، واتجه إلى المسجد، فلم ير فيه إلا عدداً قليلاً من الناس، فأرسل إلى بعض وجوه المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار، فجاؤوا إليه، فحدثهم عن خطورة الأمر، والخوف من عقوبة الخليفة وتكرار إراقة الدماء في المدينة الطاهرة، وحثهم على سرعة التحرك والتصرف، واستقر الرأي على أن تتوزع الجهود في جهتين: جهة السودان الثائرين، بإنهاء ثورتهم وإعادتهم إلى سواء الحياة اليومية، وجهة الأمير الذي نزل ببطن نخل، لإقناعه بضبط جنوده والعودة إلى المدينة وإدارة أمورها وتجاوز الفتنة، كأن شيئاً لم يكن، قبل أن يأمر الخليفة بشيئ.

وشرع الحاضرون بتنفيذ ما اتفقوا عليه، فذهب بعض الهاشميين إلى

السوق وخاطبوا قائد السودان (وثيق) وطلبوا منه أن يفرق جماعته وينهي حشدهم، ورحب وثيق والسودان بمن جاؤوهم، وأبلغوهم أنهم ثاروا حمية وفعلوا ما فعلوه ثأراً لما أصابهم من ظلم، وعرضوا عليهم أن يستمروا في ثورتهم حتى يتشفوا من ظالميهم، فأبى محاوروهم ذلك وبدؤوا يشرحون لهم عواقب الأمور إن استمرت على هذا الحال، ويطلبون منهم الاستجابة لهم، فأبدى الثائرون استجابة كبيرة، واتجه قادتهم إلى المسجد، واجتمعوا بابن سبرة، وحاورهم رأقنعهم بإنهاء ثورتهم. وعودة كل رجل إلى مولاه وعمله، وإعادة مانهب من الإمارة، وكانت نفوس الثائرين غاية في الإستجابه لمواليهم من أهل المدينة، فانصاعوا لهم بطواعية مدهشة، ومضى قادة الثورة إلى زملائهم فأقنعوهم بعدم التصدي للجنود بعد ذلك، والعودة إلى مواليهم وأعمالهم، فأطاعهم زملاؤهم طاعة كاملة، وأنهوا ثورتهم.

ودخل وقت العشاء وتجمع المصلون في المسجد ينتظرون من يؤمهم، فلم يتقدم أحد، ذلك أن الإمامة هي إحدى مظاهر الإمارة، ومن يتقدم في مثل هذه الحالة فربما يتهم بأنه من دعاة الثورة أو أنصارها، وأقام المؤذن الصلاة واستوت الصفوف، وتلفت ينظر من يتقدم للإمامة فلم يتقدم أحد، فطلب من بعض الحاضرين أن يؤم المصلين فاعتذر، وأعاد الكرة فلم يستجب له أحد، وكادت الجماعة أن تتفرق، فخرج من بين الصفوف أحد الأمويين الباقين في المدينة وهو الأصبغ بن سفيان بن عاصم بن عبد العزيز بن مروان، ونادى: أنا أصلي بالناس على طاعة أبي جعفر المنصور، وكرر ذلك ثلاثة وكبر، فصلى الناس وراءه.

وأما الفريق الثاني من وجوه أهل المدينة فقد توجهوا إلى بطن نخل للقاء الأمير ابن الربيع وإقناعه بالعودة إلى المدينة، وكان جلهم من القرشيين -وابن الربيع قرشي- والتقوا به فوجدوه غاضبا، وعازما على مواصلة السفر إلى الخليفة لمعاقبة الثائرين وأهل المدينة، فأخذوا يهدئون غضبه ويحاورونه

في الأحداث التي جرت، ويربطون بينها وبين تصرفات بعض جنوده، ومازالوا يلحون عليه أن يرجع إلى المدينة فيتأبى عليهم، حتى اختلى به محمد بن عبد العزيز وأقنعه بالعدول عن السفر إلى الخليفة لأن الخليفة سيحاسبه هو أيضا لتقصيره في معاقبة جنوده المسيئين، والذين كانوا السبب في الثورة، فاقتنع برأيه.

وقبل أن يصل ابن الربيع إلى المدينة، قام ابن سبرة بعمل آخر يثبت فيه بعد نظره وحسن تصرفه، فقد حث أهل المدينة على إصلاح ما أفسدته الثورة الغاضبة بإعادة المنهوبات أو مابقي منها، وأرسل منادياً يطوف بالأحياء ويخبرهم أنه كلف الحكم بن عبد الله بن المغيرة بالجلوس في الإمارة واستلام ما يرده الناس من أموالها وأرزاقها، وحث موالي السودان أن يعيدوا كل ما يجدونه لديهم من منهوبات، واستجاب لهم عدد كبير من السودان ومواليهم،(١) وتسلم الحكم بن عبد الله قدراً كبيراً من الأموال والأمتعة المنهوبة، أما الطعام فلم يعد منه إلا القليل.

ولم ينقض شهر ذي الحجة، حتى عاد عبد الله بن ربيع الحارثي إلى المدينة مع من بقي من جنوده، ودخلها لايعترضه أحد، ومضى إلى دار الإمارة والتقى فيها بعدد من وجوه المدينة، وبخاصة أولئك الذين كان لهم أثر كبير في إنهاء الفتنة.. وأفرج عن ابن سبرة وأكرمه شكراً له على صنيعه، غير أنه أصر على معاقبة قادة الثورة والقصاص منهم لجنوده الذين قتلوا، وبعضهم قتل غيلة في الشوارع، ولم يكن له ذنب فيما حدث، غير أن جلساءه أقنعوه بأن الفتنة كانت عامة في الثائرين ولا موضع للقصاص فيها، فاكتفى بتوقيع عقوبة السرقة والنهب على رؤساء الثائرين، وأمر بالقبض عليهم، فقبض على القادة ونفذت فيهم العقوبة، وكتب ابن الربيع إلى المنصور يخبره بإنتهاء الفتنة واستتباب الأمور ومعاقبة الجناة، فاكتفى المنصور بتلك

---

١) الطبري ٦١٣/٧ -.

العقوبات ولم يأمر بشئ أخر.

نتائـــج وآثار:

وهكذا مضت سنة خمس وأربعين ومائة حاملة معها أحداثها الكبيرة وتاركة آثاراً وعبراً في نفوس أهل المدينة، فقد كانت نتائج ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن درسا قاسياً، تعلم منه الكثيرون في المدينة، وبدت آثار هذا الدرس في موقفهم الحكيم من ثورة السودان، فقد سارعوا لإطفائها وتفادي آثارها، ولا سيما وأنها أسرفت في الانتقام من الجنود وقتلت بلا تمييز، ثم تحولت إلى النهب وسرقة الأموال العامة. وكانت أحداث ثورة السودان درسا للأمير ابن الربيع، تعلم منه أن يكبح جنوده، ويراقب تصرفاتهم، فلم يتكرر عدوانهم على أحد، ولم تبد منهم بعد ذلك أية تجاوزات. وكانت أيضا تنبيها للخليفة المنصور بأن أميره لايناسب المدينة المنورة، ولا يحسن التصرف، لذا لم يلبث أن استدعى ابن عمه جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس وعقد له الإمارة على المدينة المنورة، وأمره بالتوجه إليها وتسلمها من ابن الربيع، فرحل جعفرإلى المدينة ووصل إليها في ربيع الأول عام ١٤٦هـ أي بعد شهرين من إنتهاء ثورة السودان، فتسلم الإمارة من ابن الربيع وبدل جنود الإمارة فاستغنى عن رجال ابن الربيع ولا سيما الخراسانيون، وعادت السكينة إلى نفوس أهل المدينة (١)، واشتغلوا بأمور حياتهم اليومية مطمئنين، وعادت حلقات العلم في المسجد إلى ما كانت عليه قبل الفتنة، وكان نجمها الكبير الإمام مالك بن أنس، ومن نجومها الآخرين جعفر بن محمد وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، الذي يرحل إليه طلاب العلم من الآفاق، وقد شجع الاستقرار والأمن المزيد من طلاب العلم على الرحيل إلى المدينة والإقامة فيها مدة من الزمن، والتتلمذ على علمائها.

---

١) الطبري ٧/٦٥٦. الكامل ٥/٢٢ -.

ولا شك أن التصرف الحسن الذي أبداه أهل المدينة في ثورة السودان قد جعلت العباسيين يطمئنون إلى طاعتهم، وجعلت جعفر بن سليمان أميرها الجديد يحسن إليهم مدة ولايته، وقد دامت خمس سنوات متوالية، فلم يسجل التاريخ خلال تلك المدة أية أحداث تعكر حياة المدينة، ولم يشهد على جعفر أنه ظلم الناس فيها، ويبدو أن الأمور الاقتصادية قد استقرت في هذه السنوات وكثر اعتماد الناس على الزراعة ليعوضوا فيها ماحرمته المدينة من القمح الذي كان يرد إليها من مصر، فما زال أمر المنصور بوقف تصدير الميرة من مصر إلى الحجاز نافذاً، غير أن أمر المنصور كان مقتصراً على طريق البحر، وكانت تجارة مصر تأتي عن طريق البحر، أما تجارة الشام واليمن فتأتي عن طريق البر، ولم تحرم المدينة من ميرة الشام، وقد أفادها ذلك النقص في تنشيط الزراعة والاستكثار من زراعة الحبوب، ولم يسجل المؤرخون ضائقة أو نقصاً في طعام الناس والحجيج خلال تلك المدة، بل نجد في بعض الأخبار أن مزارع المدينة كانت تغل غلة حسنة، وكان المنصور يملك بعضها، وقد كتب مرة إلى عامله يأمره أن يبيعها بسعر جيد إلى من يملك المال الوافر ولا يبيعها إلى من قل ماله، وهذا يدل - إضافة إلى ماعرف من حرص المنصور وبخله - على وفرة غلال مزارع المدينة آنئذ (١).

طالـــبيّ في إمارة المدينة:

بعد خمس سنوات من إمارة جعفر بن سليمان، رأى أبو جعفر المنصور أن يستقدمه من المدينة، فأرسل عام ١٥٠ أمراً بعزله عنها، وولاها لرجل طالبي أثبت ولاءه للمنصور في أوقات الشدة، هذاالرجل هو الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو ابن عم كل من محمد وابراهيم ابني عم عبد الله بن الحسن. ولكنه كان ضدهما، وعندما ثار محمد بن عبد الله أعلن ولاءه للمنصور، ولما بلغه أن ابنيه تبعا محمد بن عبد الله تبرأ منهما، لذلك

---

١) أنظر الطبري ٨/٨٧ -.

رأى المنصور أن يكافئه على ولائه بإمارة المدينة بعد ابن عمه، وقدم الحسن بن زيد إلى المدينة بعد مرور خمس سنوات على ملحمة محمد بن عبد الله، وكان هذا الفاصل الزمني كفيلا بمسح أثارتلك الملحمة وتضميد جراحات الهاشميين، ولو جاء الحسن بن زيد بعد مقتل محمد بن عبد الله مباشرة لكانت إمارته مثيرة للضغائن.. ومعمقة للانشقاق بين بني هاشم، وربما تكون مثيرة لأحداث دامية وفتن.. غير أن إمارة جعفر بن سليمان التي سبقته، وحسن سياسة جعفر مع أهل المدينة قد مهدا السبيل للحسن بن زيد لاستلام الإمارة وإدارتها دون حساسية من أهلها.

كان الحسن بن زيد أول هاشمي من أحفاد علي بن أبي طالب يستلم إمارة المدينة، بل وأول (طالبي) بعد علي بن أبي طالب يقوم بأمرها، غير أن الطالبية لم تكن عند الحسن بن زيد تعني شيئاً سوى النسب الكريم، أما قضية الخلافة ومنازعة الخلفاء العباسيين فيها فقد طويت في نفسه تماماً منذ قيام الدولة العباسية، لذا سارت الحياة في المدينة المنورة في عهده على الوتيرة نفسهاالتي كانت عليها زمن جعفر بن سليمان، وربما زاد فيها تآلف الهاشميين في المدينة وترددهم على ابن عمهم الأمير.

ويبدو أن المنصور رغب في مسح آثار محنة آل الحسن، بعد أن قتل من قتل ومات من مات منهم في السجن، فأطلق سراح الباقين.

وفي السنة التالية لولايه الحسن بن زيد وصل إلى المدينة حفيد محمد بن عبد الله، وكان أبوه عبد الله بن محمد الملقب بالأشتر، قد ذهب إلى السند عندما قام محمد بن عبد الله بثورته وأخذ البيعة من أميرها عمر بن حفص لوالده، وقبل أن يفعل عمر شيئاً وردت الأخبار بمقتل محمد بن عبد الله فعاد عمر بن حفص إلى طاعة المنصور ونصح الأشتر بالخروج إلى مملكة مجاورة يحكمها رجل سندي وثني، فخرج إليه الأشتر فأكرمه الملك السندي، وبعد مدة عزل المنصور عمر بن حفص وولى هشام بن عمرو، فاستطاع أخو هشام

ـويدعى سفنجةـ أن يظفر بالأشتر وهو في نزهة صيد فقتله وأرسل زوجته السنديه وابنها الصغير إلى المنصور ، فأكرمهما المنصور ووجههما إلى الهاشميين في المدينة وبعث معهما كتابا يشهد فيه بصحة نسب الصغير إلى آل الحسن، (١).

ولم تشهد المدينة في زمن الحسن بن زيد أحداثا فاقعة، ويبدو أن الخليفة آثر أن يتركها تعيش حياتها العادية في الظل، حتى إنه عندما حج عام اثنين وخمسين ومائة لم يمر بها، جاء من الكوفة إلى مكة ورجع من الطريق ذاته، وربما كان من حسن حظ المدينة أن تستمر فيها سنوات الهدوء بعيدا عن مشكلات السياسة والولاء والخارجين.. فقد حظيت من هم الخليفة وكيده وتدبيره، قبل ذلك ما أتعبها وأتعب أهلها، ومازالت تحمل شيئاً يسيراً من آثارها، وهي منع الميرة المصرية عنها.

وهكذا تتجه أضواء التاريخ إلى بلاد أخرى لتظهر ما كان فيها من مشكلات سياسية وفكرية ومن ثائرين ومفسدين وزنادقة، ويكرم الله المدينة المنورة بالبراءة والتطهر من ذلك كله، فما زالت المدينة تعيش على إرث رسول الله ﷺ القرآن والسنة والفقه والعلوم الإسلامية الأخرى، ومازالت الرئة الذي تأوي إليها الدماء لتنتقى فيها من الشوائب، ومازال كثير من رجالها يتناقلون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويروونه ويدونونه، وكذا يدونون أخباره وسيرته.

عزل الأمير الطالبي:

ومضت خمس سنوات أخرى من الحياة الهادئة المطمئنة في المدينة المنورة، نمت فيها ثروة الأمير نمواً واسعاً، والتف حوله الهاشميون وانتهت شقاقاتهم، وكان للمنصور في كل إمارة عيون تكتب له عن أمرائه، فكتبوا له بذلك، وشعر المنصور بأن الحسن بن زيد قد نال أكثر من المكافأة التي يريد

---

١) أنظر الطبري ٣٦/٨ -.

أن يعطيه إياها، وخشي إن استمرت إمارته في المدينة أن تنمو شوكة الهاشميين فيها، أو أن يدخل في نفس الحسن بن زيد شئ، وأثاره ما بلغه عن ثروته الكبيرة، فقرر عزله وتولية عمه عبد الصمد بن علي مكانه.

ولاشك أن إسناد الإمارة إلى عم الخليفة مظهر من مظاهر اهتمام الخليفة بالمدينة، واعتبار إمارتها تكريما لمن يتولاها، كما فعل السفاح، وقبله معظم الخلفاء الأمويين.

المدينة في إمارة عبد الصمد بن علي:

ومثلما تسلم الحسن بن زيد الإمارة بهدوء و سكينة، جاء عبد الصمد بن علي مع رجاله القليلين وتسلم الإمارة من الحسن بن زيد عام ١٥٥هـ، وسافر الحسن إلى بغداد بناء على أمر الخليفة، فوجد الخليفة قد تغير عليه وواجهه بالتهم التي وصلته، ثم صادر أمواله وحبسه، وظل في سجنه حتى مات المنصور وتسلم الخلافة المهدي، فأطلقه ورد عليه أمواله(١)واستمرت الحياة في المدينة المنورة على النسق ذاته، وادعة، مطمئنة شحيحة الغلال أحياناً، ووافرة الغلال أحياناً أخرى، فما زالت الميرة المصرية ممنوعة عنها، وقد عوض الله أهلها بعض السنوات خيراً مما حرموه، فهطلت أمطار غزيزة، وسالت الأودية، ونشط المزارعون لتعويض النقص فزرعوا الحبوب بكثرة، وجاء الموسم طيباً.

سيل يهدد المسجد النبوي:

وفي سنة ١٥٦ هـ هطلت الأمطار أياما متوالية، وسالت جميع أودية المدينة، وطغا وادي مهزور وانتشر في منطقة العالية والبطحاء واقترب من المسجد النبوي، ففزع الناس إلى الأمير عبد الصمد، فخرج الأمير والقاضي عبد الله بن أبي سلمة العمري وبعض الحاشية للبحث عن مصرف للمياه، لتتحول عن المسجد النبوي، وخرج جمع غفير من أهل المدينة بالمساحي والفؤوس، فوجدوا المياه قد غطت المنطقة ووصلت إلى بساتين (صدقات الرسول صلى الله عليه وسلم) وجاءت عجوز من العالية فأخبرت القاضي أنها سمعت منذ سنوات طويلة بوجود مصرف للمياه في أحد البساتين، فدخل الناس بستانا يدعى ((برقة)) وحفروا فيه، فظهرت لهم حجارة منقوشة يرجع

---

١) أنظر الكامل ٧/٥ -.

عهدها إلى ماقبل الإسلام، فأزاحوا الحجارة فظهرت فتحة تؤدي إلى نفق طويل، فحولوا الماء إليه، ودخل الماء في النفق، وجرى فيه متجاوزاً منطقة المسجد النبوي حتى اتصل بوادي بطحان وجرى فيه، ففرح الناس بذلك فرحا شديدا(١).

سنوات هادئه:

ونقلب صفحات التاريخ بقية عهد أبي جعفر ومدة إمارة عمه عبد الصمد بن على فلا نعثر على شيء يثير الإنتباه وكل مايمكن أن نقوله هو: إن الحياة كانت تجري في تيارها الطبيعي الهادئ تلك المدة وإن أهل المدينة استغرقوا في شؤونهم اليوميه: التجاره والزراعه والحرف الأخرى، وحلقات العلم في المسجد النبوي التي أخذت تزداد يوماً بعد يوم.

وفي موسم الحج عام ثمان وخمسين ومئة، جاءت الأخبار بأن أبا جعفر المنصور قادم لأداء مناسك الحج رغم مرضه، وكما فعل المنصور في حجه السابق فعل هذه المرة، فلم يمّر بالمدينة، وعندما إنتهت شعائر الحج وقدم الناس إلى المدينة حملوا معهم خبر وفاة المنصور في مكة، وقام أمير المدينة خطيباً في الناس، وطلب البيعة للخليفة الجديد (المهدي).

ولم يكن أهل المدينة يولون أمر البيعة أهمية كبيرة، لذا بايعوا على الفور، وكان أول من بايع هم الهاشميين..

غير أن المدينة بدأت تشهد شيئاً من التغيير في عهد الخليفة الجديد، أوله: تغيير أميرها عبد الصمد بن على، فعندما استقر الأمر للمهدي في بغداد غيرّ عدداً من الولاة الذين عينهم المنصور، ومنهم أمير المدينة، حيث استدعاه

---

١) أنظر ابن شبه ١٦٩/١. وفاء الوفاء ١٠٧٨/٣ -

ليوليه بعد ذلك على مكة والطائف، وولى على المدينة مكانه عبد الله بن صفوان الجمحي.

ولكن الجمحي لم يمكث سوى شهور قليلة فمات خلال عام ١٦٠هـ، وولى الخليفة بعده زفر بن عاصم الهلالي.

المهدي يزور المدينة:

وفي عهد زفر هذا انحسر الظلم من المدينة إلى حد ما، ونعم أهلها بالراحة وبعطاءات وافرة، فعندما اقترب موسم الحج عام ١٦٠هـ جاءت الأخبار أن الخليفة المهدي سيفد حاجا وسيزور المدينة المنورة قبل عودته إلى بغداد، فقد أراد المهدي أن يزيل آخر آثار الجفوة التي نشأت بسبب ملحمة محمد بن عبد الله قبل خمسة عشر عاما، لذلك حمل معه إلى المدينة، مثل ماحمل معه إلى مكة، أموالا كثيرة ليوزعها على الناس.

أقبل المهدي بعد أن أدى شعائر الحج في أواخر ذي الحجة عام ١٦٠هـ، وخرج لاستقباله وجوه أهل المدينة، وفي مقدمتهم الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، فلما بصر به المهدي انحرف إليه ونزل عن دابته وعانقه وسايره، وهش له الإمام مالك، ونصحه أن يحسن إلى أهل المدينة، وكان مما قاله له: ياأمير المؤمنين، إنك تدخل الآن المدينة فتمر بقوم عن يمينك ويسارك، وهم أولاد المهاجرين والأنصار، فسلم عليهم. فامتثل المهدي لذلك، ومضى فدخل دار الإمارة واستقبل الناس وأمرلهم بالعطاءات، وطلب من الإمام مالك أن يتردد عليه، وفرح أهل المدينة بما وجدوه من لين المهدي واحترامه لمدينة

رسول الله صلى الله عليه وسلم واكرامه لأهلها (١). ودخل المهدي المسجدالنبوي، ورأى المقصورة التي يصلي فيهاالأمراء عالية فأمر بهدمها، وأراد أن ينزع المنبر ويعيده إلى ما كان عليه زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، فيهدم الزيادة التي زيدت زمن معاوية والوليد بن عبد الملك، فأشار عليه الإمام مالك ألايفعل ذلك وأن يترك المنبر كما هو، خشية أن يتكسر المنبر الأصلي إذا زعزع أو حركت بعض مساميره، فاقتنع برأي الإمام مالك وترك المنبر على حاله(٢).

مشاريع وعطاءات:

رأى المهدي ازدحام الناس في المسجد النبوي فعزم على توسعته، وشاور أهل المدينة في الأمر فوافقوه عليه، واختار اثنين منهم ليكونوا قائمين على البناء، وهم عبد الله بن عاصم بن عمر بن عبد العزيز، حفيد عمر بن عبد العزيز الذي وسع المسجد على يديه زمن الوليد، وعبد الملك بن شبيب، وأوصى أن يبدأ الهدم بعد رحيل القادمين إلى موسم الحج، وأن يضم للمسجد عدد من الدور في جهته الشمالية، ووعد بإرسال الأموال اللازمة لذلك.

مكث المهدي في المدينة أكثر مما يمكث فيها الزائرون القادمون للحج والعمرة، وأنس به أهلها، ورغب في أن يصهر إليهم، فتزوج احدى حفيدات عثمان بن عفان رضي الله عنه وهي رقية بنت عمرو، وكانت هذه المصاهرة من مظاهر رضى المهدي عن المدينة وأهلها،(٣) ويذكرالمؤرخون أنه صرف ما وصله من خراج مصر واليمن ذلك العام في الحرمين الشريفين، فذكر الطبري أنه جاءته من مصر ثلاثمئة ألف دينار، ومن اليمن مائتا ألف دينار وأضاف

---

١) التحفة اللطيفة ٣/٦١٠ -

٢) الطبري ٨/١٣٣-

٣) الطبري ٨/١٣٤

إليهما ألف ألف درهم من خزينته في بغداد (١) إضافة إلى مائة وخمسين ألف ثوب، ولو كان نصيب المدينة منها النصف أو مايقاربه، فسيكون عطاء ضخماً لم يرد إلى المدينة عطاء مثله منذ سنوات كثيرة.

كما طلب أن يرافقه عدد من أهلها إلى بغداد ليكونوا من رجاله وحرسه الخاص، وشاعت رغبة الخليفة بين أهل المدينة، فأقبل عدد من رجالها إلى ديوان الإمارة ليكتتبوا في الوظائف المطلوبة، وعرضوا على المهدي فأمر بإثبات خمسمئة رجل منهم ليرحلوا معه إلى العراق، وأمر لهم بأعطيات عاجلة، وبأعطيات أخرى دائمة، وبإجراء بعض الأرزاق الأخرى عليهم(٢) وقد سأله أهل المدينة أن ينهي الحظر البحري الذي كان المنصور قد فرضه على المدينة المنورة فاستجاب لهم، وأمر كاتبه أن يكتب إلى واليه في مصر بإعادة تسيير الميرة عن طريق البحر إلى الحجاز، ففرح أهل المدينة بذلك فرحا كبيراً.

ودخل عليه الإمام مالك رضي الله عنه قبل رحيله، فقال له المهدي: أوصني، فقال مالك: أوصيك بتقوى الله وحده، والعطف على أهل بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيرانه، فإنه بلغنا أنه صلى الله عليه وسلم قال: المدينة مهاجري، ومنها مبعثي، وبها قبري، وأهلها جيراني.. فتأثر المهدي بذلك تأثراً شديداً(٣)، ووعد بأن يستمر على ماهو عليه من رعاية المدينة وأهلها، وخرج الناس يودعونه بعد إقامته الطويلة في المدينة، فودعوا فيه صهرا باراً، وودعوا معه خمسمئة رجل من أهل المدينة سيكونون من حرسه ورجاله في الجيش وبعض المناصب الإدارية.

---

١) الطبري ١٣٣/٨.

٢) الطبري ٨ / ١٣٣ -

٣) التحفة اللطيفة ٦١١/٣

وكان المهدي وفياً بما وعد، فما إن استقر في بغداد حتى أكرم رجاله الجدد من أهل المدينة، وأقطعهم قطيعة خاصة عرفت بهم، فبنوا في بعضها البيوت واستثمروا بعضها الآخر(١) واستدعى ابن عم أبيه جعفر بن سليمان الذي ولي المدينة من عام (١٤٦ - ١٥٠هـ)، وأمره بالعودة إليها واستلام إمارتها من زفر بن عاصم الهلالي وأرسل معه أموالا كثيرة للبدء في توسعة المسجد النبوي وشراء الدور المجاورة له.

المدينة في إمارة جعفر بن سليمان ثانية:

جاء جعفر بن سليمان إلى المدينة يحمل وصية المهدي بالإحسان إلى أهلها والاجتهاد في تحسين مرافقها والإشراف العام على توسعة المسجد النبوي، ووجد أن عبد الله بن عاصم بن عبد العزيز أحد المكلفين بأمر التوسعة قد توفي، فكتب للخليفة بذلك، فأرسل له الخليفة عبد الله بن موسى الحمصي (٢) وهو أحد العارفين في البناء ليقوم مقامه، وبدأ العمل في التوسعة، واشترى القائمون عليها أربعة دور شمالي المسجد وهدموها، ليدخلوها في المسجد، وهدموا السور الشمالي والمنطقة التي زادها الوليد بن عبد الملك وخططوا لبنائها من جديد، وتواردت عليهم الأموال متوالية، وكانوا كلما أنجزوا جزءاً كتبوا بخبره للمهدي فسر به وأرسل لهم مزيداً من المال، وقد استمر العمل في التوسعة خمس سنوات كاملة، وكان الناس خلالها يصلون في الجزء القديم من المسجد وفي ساحاته الخارجية.

وقد عني المشرفون على البناء بتحسين التوسعة الجديدة وتزيينها بالحجارة المنقوشة، واختاروا للسقف خشب الساج الثمين والقوي، وكسيت

---

١) الطبري ١١٣/٨

٢) وفاء الوفاء٢/٥٣٨ -.

أطراف من الجدار بالفسيفساء وزينت بكتابة بعض الآيات القرآنية، فجاءت التوسعة مضاهية في جمالها ومتانتها للبناء الأموي السابق، وانتهت التوسعة وشهد الوافدون في موسم حج عام مئة وخمسة وستين المسجد النبوي في حلة قشيبة.

خــدمة بريدية عامة لأهل المدينة:

كسبت المدينة خدمة جديدة أمر بها المهدي، هذه الخدمة هي البريد المنتظم الذي ينقل المراسلات بينها وبين مكة واليمن، فقد كان البريد مقتصراً من قبل على بغداد، يحمل أوامر الخليفة وتوجيهاته ويعود بخطابات الإمارة وأخبارها وحساباتها، ورغم أن المدينة قد أصبحت عاصمة لمنطقة كبيرة تشمل مكة والطائف واليمن في مرات عدة، فإن البريد لم يتنظم بين هذه الأجزاء قط، ولم يكن خدمة عامة للناس، وكان يقتصر على مبعوث يجهز حين الطلب ليحمل أوامر الأمير إلى نواب الأمير في تلك المناطق، وقد أحس المهدي بالحاجة إلى وجود صلة مستمرة بين الحرمين، وبالصلة المتواصلة مع اليمن، رغم أنها غدت إمارة مستقلة لها أمير يدير شؤونها، فأمر بإقامة محطات ثابتة للبريد على امتداد الطريق من المدينة إلى مكة واليمن، وصارت الأخبار تنتقل بين هذه المناطق بسهولة ويسر، وكانت إقامة البريد آنئذ تعني إقامة مبان كل عدة أميال، يرابط فيها موظفون معهم بغال أو جمال قوية سريعة ليتناوبوا السفر وليستريح حامل البريد ويستبدل بغله أو بعيره بين

المحطة والمحطة، وقد أقيم هذا البريد عام ١٦٦هـ(١).

أمـــير عباســـي جديـــد:

بينما المدينة تفرح بمكاسبها الجديدة، جاء أمر الخليفة بتغيير أميرها الذي تقدم في السن، وتكررت إمارته مرتين، وجاء الأمير الجديد وكان ابن عم الخليفة أيضا، هو إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وتسلم الإمارة من سلفه جعفر، فبقيت إمارة المدينة في يد أقرباء الخليفة تأكيداً لمكانتها في نفوسهم، ولحرصهم على ضبط أمورها ومداراة العلويين فيها خشية من فتنة تعكر صفاءها وصفاء الخلافة العباسية.

غير أن إمارة ابراهيم بن يحيى لم تطل، فما إن حج بالناس في موسم ذلك العام وعاد إلى المدينة حتى اشتدت به العلة ومات في الأيام الأولى من عام ١٦٧هـ، وذهب البريد بنعيه إلى الخليقة في بغداد، فأرسل الخليفة رجلا أخر من أبناء عمه ليخلفه في الإمارة وهو إسحاق بن عيسى بن علي العباسي، فجاء إسحق وواصل سيرة أسلافه العباسيين في إدارة المدينة، غير أنه على ما يبدو كان أكثرمن سلفيه حساسية من الهاشميين، وكان ينظر إلى بعض العلويين نظرة قلق وحذر، وقد نقل إليه الناقلون أن الحديث عن أحقية الهاشميين بالخلافة بدأ يظهر على بعض الألسنة، وأن رجلاً منهم هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب على رأس أولئك المتحدثين. وأنه أكثرهم تأثيراً، وأن بعض الهاشميين قد التفوا حوله، والحسين هذا هو ابن عم محمد بن عبد الله بن الحسن صاحب الثورة المشهورة قبل خمسة عشر عاماً، لذا بدأ الأمير يشدد المراقبة عليهم..

وكان بعض شيعة العراق يفدون إلى المدينة بحجة الزيارة ويلتقون

---

١) الطبري ٨ / ١٦٨ -.

بالحسين بن علي ويشجعونه على الخروج والمطالبة بالخلافة ويعدونه بالنصرة، وحملوا إليه أموالا يستعين بها، وكانوا ينجحون دائما في التخفي عن عيون المراقبين، وقد أثرت هذه الوفادات على الحسين بن علي وجعلته يفكر بالثورة، ويراسل بعض القبائل في الحجاز التي شايعت من قبل ابن عمه محمد بن عبد الله فيجد عند بعضهم التأييد وعند بعضهم الآخر الحذر والتردد.

كان المهدي متسامحا مع الهاشميين رغم مايبلغه من أخبارهم. وكان يكرم من يفد عليه منهم، وقد وفد الحسين هذا عليه في بغداد فبالغ في إكرامه وأعطاه أربعين ألف دينار (١) ففرقها الحسين قبل أن يخرج من العراق، ويبدو أن الحسين لم يفكر بالخروج أيام المهدي أو لم تتوافر له الأسباب الكاملة، ولكن تردد العراقيين عليه ومراسلاته التي تسرب شيء منها قد لفت أنظار أمير المدينة إسحاق بن عيسى إليه. ولم يكتف إسحاق بمراقبة الحسين بن علي بل أخذ يشدد على عدد آخر من الهاشميين وبخاصة الذين يلتقون بالحسين كثيراً من إخوته وأبناء عمومته..

وفي شهر صفر من عام ١٦٩هـ للهجرة وصل الخبر إلى المدينة المنورة أن الخليفة المهدي قد توفي في الأسبوع الآخير من محرم، وبويع ابنه موسى الهادي بالخلافة، وكالعادة تلقى الأمير العباسي التعزية بالخليفة الراحل وأخذ من وجوه أهل المدينة البيعة للخليفة الجديد.

ويبدو أن الأمير إسحق بن عيسى الذي لم يمض على إمارته للمدينة سوى سنة واحدة توجس من الهاشميين فيها، وتأمل أن يجد في بغداد فرصة أكبر، فكتب إلى الخليفة الجديد يستأذنه في ترك إمارة المدينة واللحاق به إلى

---

١) الكامل ٥ / ٧٦ -.

بغداد، واقترح عليه أن يتولى إمارة المدينة رجل من أهلها من أحفاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمربن الخطاب، فوافق الخليفة على طلبه، وسلم إسحاق بن عيسى الإمارة للعمري وأوصاه أن يتنبه لأمر الهاشميين ويشدد المراقبة عليهم ويتفقدهم فلا يغيبون عن عيونه ومراقبيه، ومن يشتبه في أمرهم يفرض عليهم أن يثبتوا وجودهم كل يوم..

المدينة في إمارة عمر الخطابي : عودة الازمة:

أخذ الأمير الجديد عمر بن عبد العزيز العمري بوصيه إسحاق بن عيسى وبالغ في تطبيقها، فشدد المراقبة على الهاشميين، وجمعهم، وحذرهم، وهددهم، وجعل بعضهم يضمن بعضاً(١) أي أن يكفل أحدهم الآخر بألا يأتي بعمل يغضب الأمير وألا يتخلف عن إثبات وجوده في المدينة كل يوم، فإن تخلف أو جاء بشيء أخذ الكفيل به حتى يحضر الجاني أو المتأخر فينال عقابه. وكانت في عمر بن عبد العزيز شدة لم تكن فيمن قبله من أمراء المدينة العباسيين، لذا تضايق الهاشميون من شدته هذه، وتضايقوا من المراقبة الصارمة التي فرضها عليهم، وإزداد احساسهم بالظلم وأخذوا يفكرون بالثورة والخروج على العباسيين، وبدأ الحسين بن على يحضر لهذه الثورة بجدية بالغة وحذر شديد، وكاتب شيعته في الكوفة فأرسلوا له عدداً من الرجال كان فيهم عذافر الصيرفي وعلي بن السابق القلاس ومعهم أموال وافرة، وأعد الحسين لهم بيتا بعيدا عن المراقبة فنزلوا فيه.

وكاتب بعض من شايعه وشجعه على الخروج في القرى المجاورة واستوثق من مبايعتهم له والنهوض معه عندما يعلن الثورة، وبحذر شديد

---

١) الكامل ٥ / ٧٥ -.

استطاع أن يتصل بعدد من مشايعيه في العراق والقبائل الحجازية المجاورة، واتفق معهم على التجمع في موسم الحج وإعلان الثورة والدعوة لنفسه بحضور حجاج المسلمين من كل فج لأخذ البيعة منهم وخلع البيعة العباسية، ومواجهة العباسيين، ومكث في المدينة يعد العدة لهذا التاريخ المحدد.

الثورة المتعجـــلة:

غير أن الأمور جرت بغير ماخطط له الحسين، وجعلته يضطر إلى أن يعدل خطته في الثورة ويغير الزمان والمكان، فيستعجل الخروج، ويبدؤه في المدينة وليس في منى.

فقد حدث أن قبض على الحسن بن محمد بن عبد الله الملقب بأبي الزفت - لشدة سواده - وهو ابن محمد بن عبد الله بن الحسن صاحب الملحمة الدامية أيام المنصور - قبض عليه مع اثنين من أصحابه هما: مسلم بن جندب الشاعر وعمر بنْ سلام مولى آل عمر، بتهمة شرب النبيذ، فلما عرضوا على الأمير بالغ في عقوبتهم وأمر بجلدهم والطواف بهم في شوارع المدينة مغلولين مهانين..

وأحس الهاشميون بالظلم، وذهب رئيسهم الحسين بن علي إلى الأمير واعترض عليه فيما فعله، واحتج أن فقهاء العراق لا يرون إقامة الحد في شرب النبيذ، حتى وإن استحقوا إقامة الحد عليهم، فإنهم لايستحقون أن يطاف بهم في المدينة والحبال في أعناقهم، وطلب من الأمير أن يوقف هذه الإهانة، فاستجاب له الأمير وأمر بوقف الطواف بالحسن بن محمد وصحبه وردهم إلى السجن وحبسهم.

ثم عاد الحسين وطلب إطلاق سراح الحسن بن محمد فأطلق الأمير سراحه شريطة أن يكفله رجلان فكفله الحسين وعمه يحيى بن عبد الله بن الحسن، والتزم الحسن بأمر العرض فكان يحضر كل يوم إلى نائب الأمير

فيثبت وجوده عنده ثم ينصرف، غير أن الحسن بن محمد ذهب بعد مدة إلى إحدى زوجاته في إحدى ضواحي المدينة وبقي عندها ولم يحضر العرض ثلاثة أيام متوالية ، فيما كان الحسين ويحيى يحضران العرض المقرر ولا يعلمان شيئاً عنه...

وفي اليوم الثالث سأل نائب الأمير عن الحسن بن محمد وألح على كفيليه أن يحضراه، وأغلظ لهما القول فتضايقا ولكنهما وعداه خيراً، فذهب النائب إلى الأمير وأخبره بغياب الحسن بن محمد ثلاثة أيام، فطلب الأمير الكفيلين وشدد عليهما أن يحضراه، وأغلظ لهما القول أيضاً، فتأثر لذلك يحيى بن عبد الله تأثراً شديداً وحلف للأمير ألاينام هذه الليلة حتى يحضر له الحسن بن محمد وأنه سيأتيه في الليل ويضرب عليه باب داره ليعلمه بأنه قد أحضره، فلما خرجا من مجلس الأمير أخذ الحسين يعاتب عمه يحيى على يمينه، ويتعجب من تعهده بإحضار الحسن وهما لايعرفان مكانه، فكشف له يحيى أنه قصد بكلامه ذاك توعد الأمير بالهجوم عليه في هذه الليلة، وأنه ينوي فعلا جمع الرجال ومهاجمة الإمارة والتعجيل بالثورة، وراجعه الحسين بن علي وذكره بالموعد المتفق عليه مع شيعتهم -وهو أيام منى- ولكن يحيى أصر على تنفيذ وعيده وبدء الثورة في هذه الليلة بالذات.

وكان الغضب قد أخذ منه كل مأخذ، فلم يراجعه الحسين في الأمر. وكان ذلك اليوم هو يوم الجمعة الخامس عشر من ذي القعدة، وكانت طلائع القادمين إلى الحج قد وصلت إلى المدينة المنورة للزيارة ثم مواصلة الطريق إلى مكة، وكان فيهم عدد آخر من شيعة الحسين والراغبين في المشاركة في الثورة.

لذلك انطلق الحسين ويحيى وقد أخذتهم الحمية الى المنازل التي ينزل فيها أشياعهم، وحدثاهم عن قرارهم ببدء الثورة هذه الليلة، وطلبا منهم أن يستعدوا وينتظروا إشارة البدء، ثم طافا على بيوت الهاشميين من أشياعهم

وطلبا منهم الاستعداد أيضا، وبينما كان الليل يسدل أستاره كانت الحركة دائبة بين أنصار الحسين، يستعدون بالعدة والسلاح للخروج.

ومضى الهزيع الأكبر من الليل، وقبل أن يستيقظ النائمون لصلاة الفجر، تحرك الحسين ورجاله إلى منطقة المسجد النبوي، وهاجموا دار الإمارة. واقتحموها مفتشين عن الأمير عمر بن عبد العزيز العمري، ولكنهم لم يعثروا عليه، وتسلل أحد الحراس إلى الأمير في منزله فأخبره بالهجوم على الإمارة، وحذره بأن عدد المهاجمين أكبر من أن تقاومهم شرطة الإمارة، فهرب الأمير وعائلته من الدار إلى بيت قصي لأحد أقربائه.

وعلت جلبة الثائرين وارتفعت أصواتهم بالتكبير وسط هدوء الليل الساكن، ووصلوا إلى دار الأمير فلم يجدوه فيها، فانتهبوا محتوياتها الثمينة، وعادوا إلى الإمارة وكسروا أبواب ديوان العطاء، فوجدوا فيه سبعين ألف دينار فأخذوها، وأذن الفجر، فاتجه الحسين ورجاله إلى المسجد، وجلس الحسين على المنبر ينتظر تجمع الناس للصلاة، ليعلن لهم عن ثورته، وليأخذ البيعة منهم..

ولكن الجلبة التي حدثت أثناء مهاجمة دار الإمارة ومسكن الأمير أيقظت كثيراً من الناس، وأشعرتهم أن الأمر غير طبيعي، لذلك أحجم بعضهم عن الخروج إلى المسجد النبوي، وجاء عدد آخر، فرأوا رجال الحسين بن محمد وقد رفعوا رايات بيضاء على مقدمة المسجد ومآذنه، دلالة على خلعهم لراية العباسيين السوداء، ورأوا الحسين بن علي على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم متوشحا بالسيف وعليه عمامة بيضاء فأدركوا أنه بدأ الثورة ورجع بعضهم إلى بيته بمجرد أن رأى ذلك المنظر، ودخل الآخرون المسجد، وصلى الحسين بالناس الفجر ثم قام إلى المنبر فحمد الله وأثنى عليه وتهجم على العباسيين وظلمهم وذكر أحقية أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالخلافة وطلب منهم البيعة.. فتقدم أنصاره فبايعوه ثم بايعه عدد من الحاضرين، وسرى الخبر إلى بيوت العباسيين المقيمين في المدينة فوقع عليهم وقعاً شديداً وأرسل إليهم الأمير المتواري بعض رجاله ليجتمع بهم بعيداً عن الثائرين ليعالجوا الأمر، وأرسل إلى الجند وأمرهم أن يجتمعوا في ظاهر المدينة في مزرعة من مزارع الإمارة (الصوافي) وبعث رسولا إلى الخليفة ليخبره بخروج الهاشمي، وتجمع مائتان من الجنود، وتولى خالد البربري ـ المسؤول عن الصوافي ـ قيادتهم، واتجه بهم إلى قلب المدينة حيث الحسين ورجاله..

معارك في ساحات المسجد النبوي:

كان رجال الحسين منتشرين في المسجد والساحات المحيطة به (البلاط) ودار الإمارة، ولم يتوقعوا مواجهة مباشرة من جنود الإمارة، فلما رأوهم أسرعوا يخبرون الحسين، وطلعت مجموعة أخرى من العباسيين يقودهم الأمير عمر بن عبد العزيز العمري، واستعد رجال الحسين بن علي لمواجهتهم، واقتحم خالد البربري المسجد يلبس درعين ويحمي رأسه ببيضة فولاذية، فاعترضه يحيى بن عبد الله بن الحسن وأخوه ادريس فقتلاه وجراه إلى البلاط خارج المسجد..

وتصدى رجال الحسين للجنود الذين هالهم قتل قائدهم بهذه السرعة فهاجموهم بعنف، كما هاجموا الأمير عمر بن عبد العزيز ورجاله، ودارت في الساحة المجاورة للمسجد معركة سريعة سيطر الذعر فيها على حملة الراية السوداء.. فانكشفوا وولوا هاربين ، ورجع الحسين ورجاله إلى المسجد النبوي ليرتبوا أمورهم ويكملوا سيطرتهم على المدينة.

كان لهذه الموقعة أثر سيئ في نفوس أهل المدينة، فالاقتتال داخل المسجد النبوي وفي ساحاته أمر لم يحدث قط من قبل.. والمسجد الذي يأتيه الناس للعبادة قد تحول إلى معسكر لرجال الحسين، فعلى الرغم من أن دار الإمارة مجاورة للمسجد فإن رجال الحسين قد آثروا الإقامة في المسجد النبوي بأسلحتهم، يتحدثون ويتناولون الطعام، ويطلبون البيعة من كل من يدخل المسجد.. لذلك انصرف الناس إلى بيوتهم وأغلقوا عليهم أبوابهم..

أما العباسيون فقد تجمعوا في منطقة بعيدة عن المسجد يمسحون جراحاتهم ويخطُطون لإعادة الكرة والقضاء على الثائرين..

ويبدو أن الحسين ورجاله قد أخذتهم نشوة النصر فلم يفكروا في تعقب العباسيين، ولا في إخراجهم من المدينة أو حتى منع تجمعهم، واكتفوا بما

حققوه من مكاسب أولية..

واجتمع العباسيون وقرروا أن يعيدوا الكرة في اليوم التالي، ويحرروا الإمارة والمسجد من الثائرين..

وفي صباح اليوم الثاني توجهوا إلى منطقة المسجد النبوي حاملين الرايات السوداء، فوجدوا أصحاب الحسين في الساحة الخارجية للمسجد النبوي، وقد رفعوا الريات البيضاء، فالتحموا معهم في قتال عنيف.. وفشت الجراحات بين الطرفين وسقط عدد من القتلى على بلاط الساحة، واستمر الصدام إلى وقت الظهر دون أن يحقق أحد الفريقين نصراً حاسماً، فتحاجز الفريقان وحمل العباسيون جرحاهم وانسحبوا إلى موقع تجمعهم، بينما انتشر رجال الحسين في محيط المسجد ومنطقة الإمارة إلى الزوراء، وأمضى كل فريق بقية يومه في شؤونه الخاصة لايهاجم خصمه.

وفي صباح اليوم التالي وصل راكب إلى المدينة وأخبر العباسيين أن أحد قادة الخليفة - وهو مبارك التركي - قادم إلى المدينة ومعه عدد من جنوده، كان قد اصطحبهم لتأديب قطاع الطرق الذين يعترضون قوافل الحجاج والمسافرين، فأرسل إليه الأمير يستعجله الحضور ليساعده في إطفاء الثورة، وخرج إليه عدد من العباسيين المقيمين في المدينة فكلموه أيضاً فوعدهم أن يسير إليهم في الليل وأن يلقاهم عند ثنية الوداع صباح اليوم التالي، وفي صباح اليوم التالي وصل مبارك ومعه جنوده، واجتمع إليه العباسيون وبقية جنود الإمارة وتوجه الجميع إلى منطقة البلاط في قلب المدينة حيث التحموا مع رجال الحسن في معركة جديدة، ولم تكن هذه المعركة بأفضل من سابقتها، فرجال مبارك التركي متعبون من السفر، ومبارك نفسه غير جاد في قتال الحسين تحرجا من أن يقتل رجلا من أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل إنه أرسل إليه سراً من أخبره بحقيقة موقفه، ووعده بأن ينهزم

أمامه.

وعلى أية حال فقد اشتد القتال إلى منتصف النهار أيضاً، وسقط عدد من القتلى والجرحى من الفريقين، واستطاع رجال الحسين أن يردوا المهاجمين إلى الوراء، ولما انتصف النهار تحاجز الفريقان، ورجع العباسيون إلى موقع تجمعهم، ومكث رجال الحسين في منطقتهم. وهكذا أصبحت منطقة المسجد النبوي ميدانا للمعركة، وأعرض أهل المدينة عن الذهاب إلى المسجد النبوي خشية أن يصيبهم شئ من آثار القتال، ولم يحضر المؤذنون للأذان في منارات المسجد النبوي، فتوقف لأول مرة الأذان فيها، وامتلأت قلوب الذين لم يتورطوا في هذا الصراع بالغم والحزن.

تكررت المعركة للمرة الثالثة دون نتيجة حاسمة، وغاب عنها مبارك التركي، ويروى أنه استغل فرصة انشغال الفريقين بالاستراحة فهرب على جمل سريع، ويروى أن الحسين نفذ شن غارة مفاجئة على معسكره فانسحب مع رجاله بعيدا، وتركوا أمير المدينة والعباسيين يواجهون الحسين ورجاله(١) ومر بقية الأسبوع والمعركة سجال من الفريقين، يحمل العباسييون على رجال الحسين حتى يلجئوهم إلى باب المسجد النبوي، ويكر هؤلاء على العباسيين حتى يبلغوا بهم الزوراء عند سوق المدينة.. وأخيرا كف العباسيون عن مقاتلتهم، وغادروا المدينة.

أحس الحسين بن علي أن أهل المدينة لم يلتفوا حوله، ولم يباركوا ثورته، وأدرك أن مقامه في المدينة غير مجد.. فالعباسيون الذين انهزموا أمامه في المواجهات الأولى لن يلبثوا أن يجمعوا جموعهم ويكروا عليه، والخليفة في بغداد لن يسكت عن ثورته عندما يصله الخبر.. والمدينة ليست

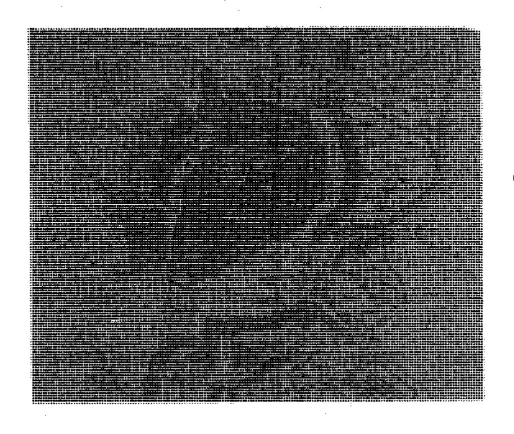
---

١) الطبري ١٩٥/٨

موقعا للمجابهة والقتال، لذا أمر رجاله بالتجهيز للخروج منها والتوجه إلى مكة حيث الموعد أن يفد إليه أنصاره من قرى الحجاز ومن العراق لتبدأ حركته الواسعة في منى.

خرج الناس من بيوتهم عندما رأوا توقف القتال، وفتحت الأسواق وعادت الحياة اليومية الى مجراها الطبيعي، وغدا رجال الحسين إلى الأسواق يتجهزون ويشترون الطعام والعدة، وأبدى أهل المدينة إعراضاً واضحاً عنهم.. فلم يذهبوا إلى المسجد النبوي، ولكنهم اضطروا إلى بيعهم ما يطلبونه خوفا من قوتهم.. ولم يستطع الحسين أن يتألف أهل المدينة، وحمل في نفسه عليهم لإعراضهم عنه.

فلما كان يوم الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة، أي بعد أحد عشر يوما من بدء الثورة، أمر الحسين رجاله بالخروج من المدينة والتوجه إلى مكة، وروى الطبري أن الحسين لما خرج من المدينة مر بالسوق فوبخ الناس لتخلفهم عن نصرته، وقال لهم لاخلف الله عليكم بخير.. فقال الناس وأهل السوق، لا بل أنت لاخلف الله عليك، ولا ردك(١)٠



ساحة المعارك بين الحسين بن علي ورجاله من جهة والعباسيين من جهة أخرى لم تشهد هذه المنطقة معارك من قبل

---

١) الطبري ٨/١٩٥-

خرج الحسين بن علي من المدينة المنورة بعد أغرب صراع تشهده في تاريخها.. صراع يدور في قلبها، في الساحات الخارجية للمسجد النبوي، ومع ذلك يقف معظم أهلها منه على الحياد، صراع يشهد عدة جولات من المعارك دونما نتيجة حاسمة، وصراع يحجب أهل المدينة عن مسجدهم النبوي أحد عشر يوما فتتأذى النفوس وتمتلئ القلوب بالمرارة، وتنقم على الذين حولوا المسجد إلى معسكر يبيتون فيه ويأكلون الطعام وينشرون فيه الأوساخ.

لذا ما إن خرج الثائرون حتى سارع أهل المدينة إلى المسجد النبوي، وراعهم مارأوه فيه من مخلفات المقيمين، فقد تركت بقايا الطعام هنا وهناك، وألقيت العظام في عدد من الأطراف، وانتشرت الأوساخ في جهات المسجد كلها، فاشتغلوا في تنظيفه وهم يدعون عليهم أن يفعل الله بهم ويفعل(١).

فلما كان وقت الظهر ارتقى المؤذنون المنائر وعلت أصواتهم الشجية بالأذان، فكبر الناس وفرحوا، وخرج بعضهم إلى الأمير عمر بن عبد العزيز العمري الذي يعسكر مع العباسيين على مسافة من المدينة، وبشره بخروج الثائرين، فعاد الأمير ورجاله إلى المدينة ليصلحوا ما فسد من دار الإمارة وشؤونها، وعادت الرايات السوداء إلى الساحات، وانتشر رجال الأمير في السوق وبعض الأحياء، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي في المدينة، وأخذ الناس يتناقلون الحكايات عما رأوه وسمعوه في تلك الأيام المعدودة وينتظرون الأخبار عن الفصول القادمة لهذه الثورة..

ولم يطل الانتظار، فقد وصل جنود الخليفة يقودهم محمد بن سليمان، وواصلوا سيرهم إلى مكة، وتوقع الناس أن تأتيهم أنباء المواجهة بين رجال الحسين بن علي الذين تجمعوا في فخ على بعد عشرة أميال من مكة ورجال

---

١)الطبري ١٩٥/٨ و الكامل ٧٥/٥ و البداية والنهاية ١٦٢/١٠-

الخلافة الذين تجمعوا من أطراف مكة، وانضموا إلى القادمين من بغداد.

ومرت أيام التشريق، وعاد الحجيج من أهل المدينة يحملون معهم أخبار ملحمة دامية وقعت في (فخ) يوم التروية -الثامن من ذي الحجة- ويروون فصلا آخر من فصول الصراع الدموي بين الهاشميين المطالبين بالخلافة والعباسيين. وروى القادمون كيف التحم الفريقان في فخ، وكيف تساقط عدد من رجال الحسين صرعى، ثم قتل الحسين نفسه والحسن بن محمد أبو الزفت، وهرب بقية رجاله، واختلطوا بالحجيج في منى وعرفات، وانسلوا معهم إلى الآفاق.

ورغم أن أهل المدينة لم يتعاطفوا مع الحسين في ثورته، بل نقموا عليه وعلى رجاله لعدم مراعاتهم حرمة المسجد النبوي، فإن القلوب قد حملت آلاماً كثيرة لمصرع بعض أبنائهم، وانطوت على حزن دفين لهذه الحلقة من سلسلة مأساة الصراع على الحكم، ولتكرر الأخطاء ، وسقوط نفوس مؤمنة يضن بها المرء على هذه النهاية....

ولئن أخطأ الأمير عمر بن عبد العزيز العمري، ومن قبله إسحاق بن عيسى في تضييقهم على الهاشميين، فقد أخطأ الحسين في ثورته أيضا، وأخطأ رجاله في بعض تصرفاتهم.. وكأن الخطأ قدر مقدور، ليكون عبرة للأجيال...

والعجيب أن بعض الذين نجوا من هذه الملحمة كان لهم شأن في صفحات أخرى من التاريخ، فإدريس بن عبد الله نجح في التوجه إلى المغرب وتأسيس دولة الأدارسة، ويحيى بن عبد الله نجح في التوجه إلى أرض الديلم، وأقام فيها إمارة هاشمية.

ولا نعدم في فصول هذه الملحمة مواقف مشرقة، فقد حاول العباسيون -كما تروي كتب التاريخ - جهدهم لمنع الصدام في فخ، وطلبوا من الحسين الكف عن الثورة وبذلوا له الأمان والعطاء فرفض.. وعندما هزم الحسين أعلن

القائد العباسي الأمان للجميع، ومنع تعقب الهاربين، وغضب لقتل أبي الزفت، كما غضب الخليفة الهادي وحرم الذين حملوا إليه رأس الحسين من عطائهم(١)

بعـــد العاصـفة:

ومثلما تعقب العواصف فترات هدوء طويلة، اعتادت المدينة أن تخلو إلى السكينة سنوات كثيرة بعد كل عاصفة تمر بها، ورغم أن عاصفة عام ١٦٩ هـ لم تكن عارمة، فإن السكينة التي أعقبتها كانت طويلة...

ففي أواخر ربيع الأول وصل الخبر من بغداد بوفاة موسى الهادي وتولى هارون الرشيد الخلافة، وشرع الرشيد يغير بعض الولاة وبخاصة الذين شهدت مناطقهم أحداثاً قاتمة، ولم يحسنوا التصرف فيها، وكان عمر بن عبد العزيز العمري واحداً من هؤلاء، فعزله الرشيد وولى مكانه إسحاق بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس، فعادت إمارة المدينة المنورة إلى حظيرة العباسيين، وجاء الأمير الجديد ليدير شؤونها على نحو ما كان أسلافه..

وجاء الخليفة هارون الرشيد بعد موسم الحج إلى المدينة، وأقام فيها عدة أيام ، ووزع أموالاً كثيرة، يتألف بها قلوب الناس ويتودد إليهم(٢). ورغم أن المدينة قد شهدت خروج عدد من الطالبيين، آخرهم الحسين بن علي، فان الرشيد لم يتخوف من إقامتهم في المدينة، وربما كان موقف أهل المدينة من ثورة الحسين وعدم مناصرتهم له، سبباً من أسباب إطمئنانه للمدينة، لذلك وخلافاً لما يمكن أن يتوقعه المرء، أمر الرشيد بعد عودته من الحج بإعادة جميع الطالبيين الموجودين في بغداد إلى المدينة باستثناء شخص واحد هو العباس بن الحسن بن عبد الله، وقدم الطالبيون إلى المدينة المنورة ليعيشوا مع أقاربهم بعيداً عن مركز الثقل السياسي، لتنصرف طائفة

---

١) الكامل ٧٦/٥

٢) الطبري ٢٣٤/٨-

كبيرة منهم إلى العلم، وتشتغل طائفة بتنمية ثروتها من المزارع والممتلكات والأعطيات، التي لم يبخل بها الرشيد عليهم..

وقد تحقق ما تأمله الرشيد، إذ أن تيار الحياة الهادئ(١) في المدينة مالبث أن طوى الطالبيين في ثناياه، وجعلهم ينسون المطالبة بالخلافة، فخلال خلافة الرشيد التي امتدت قرابة ربع قرن لم يثر طالبي واحد في المدينة، ولم يحدث منهم أي شغب في الأمصار الأخرى.

وعندما حج الرشيد سنة مائة وثلاث وثمانين اغتاظ من موسى الكاظم لأنه تعمد أن يفخر عليه عند السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاصطحبه إلى بغداد، وفرض عليه ما يشبه الإقامة الجبرية في أحد القصور حتى مات، وكان موسى الكاظم هو المرشح من أبناء الحسين لزعامة الهاشميين والمطالبة بالخلافة(٢).

ولا شك أن إحدى مهمات أمير المدينة كانت مراقبة الطالبيين غير أن أمراء المدينة اللاحقين استفادوا من الدرس المؤلم الذي خلفته إمارة عمر بن عبد العزيز العمري، وتعلموا أن التضييق على الطالبين دون وجه حق سيدفعهم إلى التمرد، وسيخرج منهم من يقود الثورة، لذلك تغيرت معاملتهم لهم، فأحسنوا إليهم، وراعوا الرحم التي تصلهم بهم، فسكن الطالبيون وعاشوا حياتهم في المدينة المنورة بطمأنينة كاملة.

وقد تمتعت المدينة أيام الرشيد بعطاءات كثيرة، فقد زارها الرشيد بعد توليه سنة ١٧٠هـ ثماني مرات، وهو ذاهب إلى الحج أو عائد منه، وكان في

---

١) الطبري ٨/٢٣٥-

٢) الكامل ٥/١٠٩-

كل مرة يفرق أعطيات كثيرة على أهلها جميعا(١)٠

وفي عام ١٨٦هـ زار المدينة ومعه ولداه الأمين والمأمون.. فوزع كل منهم عطاء على أهل المدينة، فكان لكل رجل في المدينة ثلاث أعطيات(٢) وطبيعي أن هذا التردد على المدينة ولقاءه بالطالبيين سيزيد من سكينة الحياة فيها وطمأنينتها، مثلما زاد في مكاسب أهلها وعطاءاتهم.

ويذكر ابن الأثير أسماء أحد عشر أميرا تولوا إمارة المدينة في خلافة هرون الرشيد دون أن يحدد مدة إمارة كل منهم.. وهم على التوالي:

١ - إسحاق بن سليمان بن علي.

٢ - عبد الملك بن صالح بن علي.

٣ - محمد بن عبد الله.

٤ - موسى بن عيسى بن موسى.

٥ - إبراهيم بن محمد بن إبراهيم.

٦ - علي بن موسى بن عيسى.

٧ - محمد بن ابراهيم.

٨ - عبد الله بن مصعب.

٩ - بكار بن عبد الله بن مصعب.

١٠- أبو البختري وهب بن وهب.

ومعظم هؤلاء من العباسيين، وفيهم اثنان من الزبيريين هما عبد الله بن مصعب وابنه بكار بن عبد الله، ويروى صاحب كتاب نسب قريش أن بكاراً

---

١) الطبري ٢٣٩/٨-

٢) الكامل ١١٢/٥-

هذا تولى إمارة المدينة ثلاثة عشر عاماً(١)، ولا شك أن تعاقب هذا العدد الكبير من الأمراء على المدينة أمر لافت للنظر، خاصة وأن المدينة لم تشهد في عهودهم أية فتن تستدعي تغييرهم، والتفسير الأقوى لهذه الظاهرة هو سياسة الرشيد في قضية الولاة ، فقد دأب على تغييرهم في جميع الأمصار، ولو نظرنا إلى عدد الولاة في الإمارات الأخرى لوجدنا الظاهرة نفسها، فقد تولى إمارة مكة في عهده ١٦ أميراً والبصرة ١٥ أميراً والكوفة ٩ أمراء وخراسان ١٢ أميراً(٢)ومن اللافت للنظر أمام هذه السياسة أيضاً أن تستمر إمارة عبد الله بن مصعب ثلاثة عشر عاماً، أي أكثر من نصف مدة خلافة الرشيد، ويبدو أن عبد الله بن مصعب كسب ثقة الرشيد أو كانت له علاقة خاصة به فتركه في الإمارة تلك المدة الطويلة، ورغم طول مدة إمارته لانجد في كتب التاريخ أحداثاً مهمة وقعت في المدينة المنورة، الأمر الذي يجعلنا نقول إن الحياة في المدينة المنورة طوال عهد الرشيد، بل وإلى نهاية القرن الهجري الثاني، كانت هادئه ناعمة تتميز بالحركة العلمية في المسجد النبوي، وبالعطاءات والرزق الكريم.

سنوات أخرى من الهدوء:

ظلت المدينة المنورة إمارة مستقلة إلى آخر عهد الرشيد وأول عهد الأمين عام ١٩٣ للهجرة حيث كان أبو البختري آخر أمرائها، وما نعرفه عن هذا الرجل يزيد من اقتناعنا بأن الحياة في المدينة المنورة كانت آنئذ هادئة مطمئنة محافظة على طابعها (المديني) الخاص، فأبو البختري رجل قرشي اشتغل بالفقه والقضاء ولم يشارك في شئ من الفتن والشقاقات، وكان قريبا من الرشيد فولاه قضاء عسكره بضع سنين، ثم ولاه المدينة المنورة، فسير الأمور بعقليته القضائية العادلة، ولم يجد المؤرخون في تلك الفترة أحداثاً

---

١) نسب قريش ص٢٤٢

٢) أنظر الطبري ٣٤٦/٨ - ٣٤٧ .

متميزة يسجلونها، لا أحداثاً مفرحة ولا أحداثاً مؤلمة، وبصعوبة نعثر على اسمه في الطبري عام ١٩٣ للهجرة ضمن اشارة عابرة إلى أنه كان على ولايته (١) ولا نعرف متى بدأت تلك الولاية، ولكننا نقرأ عبارة أخرى في المصدر نفسه تقرر أنه كان على المدينة عام ١٩٤ للهجرة إسماعيل بن عباس بن محمد، والحقيقة أن قلة اهتمام المؤرخين بإمارة المدينة وأحداث الحياة فيها آنئذ يرجع إلى حالة السكينة والهدوء التي كانت تسودها مقابل الأحداث الفاقعة في أمصار أخرى، فقد حفظ الله المدينة من اضطرابات الخوارج المتوالية التي ظهرت في الجزيرة(٢) وحركات الطالبيين بعد معركة فخ، وثورات بعض المتمردين والمغامرين والزنادقة(٣) وقد استمرت هذه السكينة عدة سنوات أخرى رغم ظهور بعض الأحداث السياسية التي كان للمدينة موقف متميز فيها، ولكن عناية الله جعلت الموقف يمر بسلام ولايصيب أهلها بأذى، وعلى العكس من ذلك يأتيهم شئ من الخير، فقد ضمت إمارة المدينة إلى إمارة مكة بعد ذلك، وكان الخليفة الأمين قد عين داود بن عيسى بن موسى بن محمد العباسي أميراً على مكة منذ عام ١٩٣ للهجرة، ونفهم من عبارات الطبري التي أشرنا إليها آنفاً أن إمارة المدينة كانت مستقلة في عام ١٩٤هـ وأميرها إسماعيل بن العباس بن محمد، ولانجد مايشير إلى أنه كان نائباً لداود، ولكننا نجد في أخبار عام ١٩٦هـ أن سليمان بن داود كان نائباً عن أبيه في إمارة المدينة، ولا يهتم الطبري ولا غيره من المؤرخين ببيان التاريخ الذي انتهت فيه إمارة إسماعيل بن العباس، وضمت المدينة إلى داود بن عيسى في مكة، وربما حدث ذلك أواخر عام ١٩٥- أو مطلع عام ١٩٦هـ، وكل مايمكن أن نقطع به هو أن المدينة كانت عام ١٩٦هـ تابعة لمكة، وكان

---

١) الطبري ٤٩٨/٨-.
٢) انظر التاريخ الإسلامي ١٦٨/٥-.
٣) أنظر السابق ١٧٥/٥ - ١٦٧-.

يدير شئونها سليمان بن داود بن عيسى ابن أمير مكة نائباً عن أبيه، ولعل هذا من حسن حظ المدينة المنورة، فقد أفادتها هذه الإدارة في الفتنة التي قامت بعد حين بين الأمين والمأمون .

المدينة والفتنة بين الأمين والمأمون:

اشتدت الفتنة في تلك السنة بين الأمين والمأمون وامتدت آثارها من خراسان إلى الإمارات الأخرى، وانقسم القادة العباسيون إلى فئتين: فئة حافظت على ولائها للأمين وفئة حولته إلى المأمون، وشهدت المدينة منذ عام ١٩٤هـ أثارا بسيطة لبداية هذه الفتنة، إذ أرسل الأمين إلى أمرائه كي يخطبوا لولده على المنابر ويذكروا اسمه في الدعاء بعد اسم الخليفة وولى عهده المأمون والقاسم، فكان هذا الأمر نذيراً مبكراً من نذر الفتنة ودليلا على رغبة الأمين في تحويل ولاية العهد من أخويه إلى ولده.

وفي شهر رجب من عام ١٩٦ للهجرة جاء أمر الخليفة الأمين بقطع الدعاء في الخطبة لأخويه المأمون والقاسم، وكان الأمر موجهاً إلى داود بن عيسى باعتباره أميراً على مكة والمدينة، وكان داود قد شهد مع طائفة من العباسيين والهاشميين البيعة التي أقامها الرشيد للأمين ومن بعده أخويه المأمون والقاسم، وشهد كتابة وثيقة بذلك أودعت في جوف الكعبة، وغضب داود عندما علم أن الأمين أرسل من استل الوثيقة من الكعبة ومزقها، تمهيداً لتحويل ولاية العهد إلى ابنه، فقام داود بحركة جريئة تنم عن قوة شخصيته ووفائه بالمواثيق، فقد جمع العباسيين والهاشميين في مكة وأطلعهم على الأمر، وأقنعهم بخطأ الأمين، وبضرورة المحافظة على العهد الذي قطعوه للرشيد في حياته، وكان من بين نصوص ذلك العهد نص يأمر بمواجهة من ينقض العهد أويخالفه والتصدي له ومحاربته، فاقتنع العباسيون والهاشميون بذلك، بعدها جمع داود عامة الناس في الحرم وخطب فيهم خطبة مؤثرة بين فيها غدر الأمين بأخويه، وأعلن أنه وسائر العباسيين والهاشميين في مكة

يتمسكون بالعهد الذي أخذه الرشيد من الناس جميعاً، وأنهم قد خلعوا طاعة الأمين وتحولوا إلى طاعة المأمون، وطلب داود منهم أن يبايعوا للمأمون، فقام الناس وبايعوا.

وحدث في المدينة ماحدث في مكة، فقد أرسل داود بن عيسى إلى ابنه سليمان نائبه على المدينة أن يعلم الناس بحقيقة الأمر ويأخذ منهم البيعة للمأمون، فاستدعى سليمان وجوه العباسيين والهاشميين أول الأمر وعرض عليهم خطاب أبيه وما حدث في مكة، وأقنعهم باعطاء البيعة للمأمون وخلع بيعة الأمين، وكان عدد من هؤلاء العباسيين والطالبيين قد حضروا كتابة الوثيقة في مكة، وأعطوا البيعة مع من أعطى، كما أن الأمير أيام الرشيد أخذ البيعة من أهل المدينة بعد ذلك، لذا لم يجد سليمان صعوبة في إقناعهم بما طلبه فأجابوه جميعاً، ثم جمع الناس في المسجد النبوي، وخطبهم وحدثهم عن غدر الأمين، وطلب منهم إعطاء البيعة للمأمون، فأعطوها جميعاً، فأرسل سليمان البريد إلى أبيه يخبره بما حدث.

أصاب المدينة من هذه البيعة خير وفير، إذ أن المأمون فرح ببيعة أهل الحرمين فرحاً شديداً، وكانت أول بيعة ترد عليه من الأمصار بعد أن خلعه الأمين، فأقر المأمون إمارة داود على الحرمين وأرسل إليه مالا كثيراً وأمره بتوزيعه على أهاليهما (١) وواصلت المدينة حياتها الهادئة، بينما الأحداث تعصف بالفتنة بين الأمين والمأمون، والجيوش تقتتل أعنف اقتتال في الشام وخراسان والعراق، وأخيراً حوصرت بغداد حصاراً شديداً ولقي أهلها من عناء الحصار واضطراب الأمن وفتك اللصوص والعيارين الأهوال الشديدة، إلى أن قتل الأمين في شهر صفر سنة ثمان وتسعين ومائة، فبدأت الأمور تعود

---

١) الطبري ٥٣٨/٨ -.

إلى مجراها الطبيعي شيئاً فشيئاً..(١).

وكان من فضل الله على المدينة أن نعمت طوال تلك المدة بالأمن والسكينة، بل إن بعض الهاربين من لهيب الأحداث في بغداد والبصرة، قد شد الرحال إليها لينعم بالطمأنينة في جنباتها، وظلت الأمور على هذا المنوال إلى السنة الأخيرة من القرن الثاني، وبالتحديد إلى الأشهر الأخيرة منه، شهر شوال عام ١٩٩ للهجرة، حيث تطايرت بعض شظايا الفتنة من الكوفة ووصلت إلى المدينة المنورة لتغير شيئاً ما في حياتها ولتنهي سنوات من السكينة، تزيد على نصف قرن، وتحمل بعض القلق إلى أهلها..

المدينة وفتنة أبي السرايا:

لكي نستوعب ما حدث في المدينة في نهاية القرن الثاني الهجري لابد أن نطل إطلالة بسيطة على المصدر الذي جاءت منه الشظية..

ففي هذا العام خرج مغامر يدعى أبو السرايا على المأمون، وأبو السرايا هو السري بن مقصود، وينتهي نسبه إلى هانئ بن قبيصة الشيباني، كان في أول حياته فقيراً يكري الحمير، والتحق ببعض قطاع الطرق وصار زعيم عصابة، ثم التحق بالقائد يزيد بن مزيد الشيباني واشتغل معه ببعض الفتوحات وصار من قادته المشهورين. وعندما اشتعلت الفتنة بين الأمين والمأمون التحق مع رجاله بجيش المأمون وانضم إلى القائد المشهور هرثمة بن أعين ولقب بالأمير، وعندما قتل الأمين واستتب الأمر للمأمون، أنقص هرثمة أرزاقه وأرزاق أصحابه، فغضب أبو السرايا وانفصل بعدد من رجاله عن هرثمة واحتل مدينة عين التمر، وأخذ مافيها من أموال فوزعها على أصحابه، ثم استولى على الأنبار وقويت شوكته، ولقي في الرقة محمد بن إبراهيم العلوي الملقب بابن طباطبا، وكان العلوي قد أعلن الثورة على العباسيين وطالب بالخلافة لنفسه، فبايعه أبو السرايا وصار قائداً لجيوشه،

---

١) انظر المصدر السابق

وتوجه إلى الكوفة فاستولى عليها وسير الجيوش إلى البصرة وبغداد والمدائن وواسط، وما لبث أن مات ابن طباطبا، ويقال إن أبا السرايا سمه، فنصب أبو السرايا أحد الفتيان الطالبيين في الخلافة وهو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وصار يسير الأمور بنفسه، فضرب الدراهم باسمه وأرسل الأمراء إلى الأمصار ليخلع منها الخلافة العباسية ويقيم خلافة هاشمية، وقد أرسل إلى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فجاءها محمد مع مجموعة من مواليه وأقاربه، ومع أن كتب التاريخ لم تحدد تاريخ وصوله إلى المدينة المنورة فإن القرائن تشير إلى أنه وصلها في أواخر شهر شوال أو ذي القعدة..

وعندما بلغ أمير المدينة سليمان بن داود قرب وصول محمد بن سليمان الطالبي، لم يفكر في مواجهته ولم يعمل شيئاً للدفاع عن السلطة العباسية، وربما يكون السبب في ذلك النجاح السريع الذي حققه أبو السرايا في العراق والأهواز، وهزيمة الكتائب التي تصدت له أول الأمر، إضافة إلى وجود عدد من الطالبيين في المدينة المنورة، لذا آثر أن يجنب المدينة شرور المصادمة والقتال ، فانسحب مع رجاله وخرج من المدينة، وربما يكون خروجه بإيعاز من والده داود بن عيسى بن موسى، لأن داود قد واجه الموقف نفسه واتخذ الإجراء ذاته، فقد وجه أبو السرايا طالبياً أخر إلى مكة ليتولى إمارتها هو حسين بن حسن الأفطس بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ونزل الطالبي خارج مكة، فرفض داود قتاله لقرب موسم الحج، وترك له مكة فدخلها

الطالبي بعد الحج»(١).

ولاشك أن تصرف سليمان بن داود العباسي قد حقن دماء كثيرة في المدينة، ومنع مجابهة بين العباسيين والطالبيين، فالمدينة معقل كبير للطالبيين، ويبدو أن الأمير الطالبي الذي أخذ المدينة دون حرب لم يؤذ العباسيين الموجودين فيها، خاصة وأن موظفي الإمارة قد خرجوا مع سليمان بن داود بن عيسى، لذلك كان المظهر الأكبر لهذا التحول هو إنزال الراية السوداء عن المنائر ودار الإمارة، وخلع السواد ولبس العمائم الخضر شعار الطالبيين، ولم يسجل المؤرخون أية أحداث فاقعة في هذا التحول، ولم يذكروا شيئاً عن وقوع عمليات انتقام من العباسيين أو نهب أو تحريق لدورهم على نحو ماحدث في مدن أخرى،(٢) وكأنما السكينة التي قدرها الله للمدينة منذ أكثر من نصف قرن قد تركت بصماتها على كل شيء، فشملت هذا التحول الخطير من الولاء للعباسيين إلى الولاء للطالبيين، بل لقد كان حظ المدينة أوفر من حظ جارتها مكة في الإمارة الطالبية، فقد شهدت مكة ويلات عدة على يد الحسين بن الحسن الأفطس طوال ستة أشهر متوالية(٣) وكان من فضل الله على المدينة أن أميرها الطالبي استقل بها تماماً عن أمير مكة وسار في الناس سيراً حسناً، وقد استمرت هذه الإمارة الطالبية إلى منتصف عام مائتين للهجرة، ويبدو أن عدم وقوع صدام مسلح بين الطالبيين والعباسيين قد جعل الإمارة الطالبية مغموسة بشؤون الحياة اليومية ليس أكثر، اللهم إلا المكاسب التي يحققها من يتولى الإمارة في ذلك العهد، مكاسب الديوان والأموال المجباة من الأسواق... وغيرها من موارد الدولة.

---

1) الطبري ٥٣٣/٨ -.

2) في البصرة مثلا ، أحرق الأمير الطالبي دوراً كثيرة للعباسيين، حتى سمي زيد النار. أنظر الكامل : ٧٧/٥ -.

٣) أنظر تفصيل ذلك في الطبري ٥٣٦/٨ - ٥٤٠ -.

ومثلما بدأت الإمارة الطالبية بهدوء وسكينة، انتهت بهدوء وسكينة أيضاً..

ففي ربيع الأول من عام مئتين انتهت ثورة أبي السرايا في العراق، إذ هزمت جيوشه وقتل أبو السرايا صبراً، وأرسل القائد العباسي علي بن أبي السعيد عدداً من قادته لإخراج الطالبيين من الأمصار التي غلبوا عليها، وقدم أربعة من مشاهيرهم إلى المدينة ومكة، وهم عيسى بن زيد الجلودي وورقاء بن جميل وحمدون بن علي وهارون بن المسيب، وكانت معهم قوة كبيرة، وقد سبقت أخبارهم إلى المدينة، وعلم بها أميرها الطالبي، وأحس بعجزه عن مواجهة القوة القادمة، فآثر أن يفعل مافعله سلفه العباسي فيفوز بالسلامة، لذلك جمع رجاله وأعوانه، وحمل معه ما حمله من متاع وأموال، وانسحب من المدينة إلى بعض النواحي التي انتشر فيها الطالبيون، ففاز بالنجاة، وفازت المدينة المنورة بالأمن والأمان، ووصل الجيش العباسي في جمادى الأولى، فدخلها ورفع الراية السوداء على المنائر ودار الإمارة، ولزم الناس في المدينة بيوتهم، فأعلن القادة الأمان، ولم يمكث الجيش في المدينة، لأنه كان مكلفاً بإخراج الطالبيين من مكة أيضاً، وكانت مكة قد شهدت أحداثاً مؤلمة على يد أميرها حسين الأفطس، وقد تحول الأمر فيها من الإمارة إلى الخلافة، اذ بايع حسين الأفطس طالبيا آخر اسمه محمد بن جعفر بالخلافة وأخذ له البيعة من الناس، وجمع الأعوان وحفر الخنادق وقاتل الجيش العباسي الذي جاءهم من اليمن، لذلك خرج الجيش من المدينة متوجهاً إلى مكة، وبقي في المدينة القائد هارون بن المسيب أميراً عليها ومعه عدد من الجنود لحماية الإمارة ورجالها، ونجح الأمير الجديد هارون بن المسيب في السير بأمور المدينة سيراً حسناً، واستمر تيار الحياة الهادئة فيها، ولم ينتصر أحد للطالبيين، ولم يبايعوا لمحمد بن جعفر الذي نصب خليفة في مكة، ومع أن التنصيب جرى قبل وصول العباسيين إلى المدينة فاننا لانجد في كتب التاريخ أية

إشارة إلى استجابة الأمير الطالبي في المدينة أنئذ إلى ذلك التنصيب أو أخذه البيعة من الناس، وربما تكون الأخبار السيئة التي تطايرت عن حسين الأفطس قد وصلت المدينة فجعلت أميرها الطالبي يأنف من البيعة لتلك الخلافة، فقد أساء الأفطس وبعض رجاله إساءات بالغة تجاوزت نهب الأموال إلى خطف بعض النساء حتى كاد أهل مكة أن يبطشوا بهم.

محمد بن جعفر يهدد المدينة:

أثرت أحداث مكة في أهل المدينة، لذلك تحول ولاؤهم إلى العباسيين بمجرد دخولهم إليها تحولا كاملا، فبعد ثلاثة أشهر من ولاية هارون بن المسيب هدد الطالبيون المدينة المنورة، فقد توجه إليها محمد بن جعفر الذي نصب في مكة بعد أن هزمته الجيوش العباسية، فخرج منها إلى بعض بلاد جهينة وجمع عدداً من أتباعه وتوجه إلى المدينة المنورة ليقيم ملكه فيها، وجاء الخبر إلى هارون بن المسيب، فجمع رجاله وعبأ جنده، وطلب من أهل المدينة أن يشاركوا في الدفاع عنها فلبوه، وجاءه عدد من أبنائها فخرجوا للقاء محمد بن جعفر ورجاله قبل أن يقتحموا المدينة، فلقوه في ذي الحليفة عند الشجرة، واقتتل الفريقان قتالا شديداً، ونجح أهل المدينة في صد خصومهم، وتراجع رجال محمد بن جعفر حتى غابوا عن الأنظار، ومكث أهل المدينة قليلا يستريحون من عناء المعركة ثم قفلوا عائدين، وأرسل هارون بن المسيب عدداً من رجاله ليقتفوا أثر محمد بن جعفر ويقبضوا عليه، ولكن رجال هارون لم يتمكنوا منه، إذ أنه تحصن في بني جهينة، فرجعوا عنه، وغضب محمد بن جعفر وقرر أن يعيد الكرة ويهاجم المدينة المنورة، وأخذ يراسل بعض القبائل المحيطة به يطلب منها النصرة، فوعده بعضهم بالنصرة ولم يجبه أخرون، ثم بدأ يجمع رجاله من بني جهينة ومن بايعه من الأعراب، وحاول رجال هارون بن المسيب الإيقاع به ثانية فاصطدم معهم وهزمهم وتحرك بمن اجتمع معه من الرجال إلى المدينة المنورة ثانية.

علم هارون بن المسيب بتحرك محمد بن جعفر، فأمر بالنداء في المدينة بالنفير، واجتمع إليه مع جنده عدد من أهل المدينة وخرجوا مسرعين إلى طريق مكة، ونزلوا في ذي الحليفة عند الشجرة أيضاً، وأعد رجاله للقاء الجموع القادمة، وأوقف مجموعة من الرماة خلف المقاتلين، ووصلت جموع محمد بن جعفر، وكانت هذه المرة أكثر عدداً، فالتحم الفريقان واشتد القتال، واستبسل أهل المدينة وأبلوا بلاء حسناً، وسقط عدد كبير من أصحاب محمد بن جعفر تحت ضربات سيوفهم، ونجح الرماة في كشف الفرسان المهاجمين وردهم على أعقابهم، وتواصل الكر والفر، وبدأت موازين المعركة تميل لصالح أهل المدينة، واستطاع أحد الرماة أن يوجه نباله إلى قائد المهاجمين محمد بن جعفر فأصابه بنشابة في عينه ففقئت، واشتغل به من حوله، ودب الذعر في عدد من مقاتليه(١) فبدءوا بالإنسحاب، ثم تحول الإنسحاب إلى هزيمة كاملة.

كانت نتيجة المعركة درساً قاسياً لمحمد بن جعفر، فقد قر في نفسه أنه لايستطيع دخولها، وأن أهل المدينة لن ينتصروا له، لذلك أقلع عن العودة إليها نهائياً، وعاد إلى مكانه في بني جهينة يداوي جراحاته البليغة، وكانت هذه الهزيمة بداية تحول كبير في ثورته، إذ أنه لم يحارب بعدها قط، وطلب الأمان من أمير مكة، وذهب إليها بعد موسم الحج ووقف في المسجد الحرام في الموقع الذي نصب فيه خليفة من قبل وأعلن اعتزاله الخلافة، واعتذر عما حدث من قبل ودخل في طاعة المأمون، ثم لحق به في خراسان،(٢) وكان لمجالدة أهل المدينة الفضل في هذا التحول الكبير...

---

١) الطبري ٨/٥٣٩ -.

٢) الطبري ٨/٥٤٠ -.

المدينة في القرن الثالث الهجري

تغيرات خطيرة:

كان هارون بن المسيب من القادة العسكريين الذين يولون على المدن التي يفتحونها أو يخمدون فيها فتنة مدة من الزمن، مكافأة لهم على جهودهم وانتصارهم، وقد نجح هارون في ضبط أمور المدينة وسط القلاقل التي أثارها بعض الطالبيين، وحال دون ظهور مؤيدين لهم بين الأسر الهاشمية الكثيرة المستوطنة في المدينة، ونجح في تأليب أهل المدينة على محمد بن جعفر وحشدهم للوقوف ضده ومحاربته، وعندما هدأت الأمور وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي أدار هارون شؤون الإمارة أربع سنوات متوالية، غير أن الحياة في المدينة تأثرت إلى حد ما بتغير خطير طرأ على الخليفة العباسي المأمون وهو في عاصمته الأولى مرو.

ففي السنة الأولى من القرن الثالث الهجري، اتخذ المأمون قراراً خطيراً ينعطف بالدولة أغرب انعطاف، اتخذه بعد مرحلة تأمل عميقة، هذا القرار هو تحويل ولاية العهد إلى أحد الطالبيين من أحفاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو أيضاً أحد أبناء المدينة المنورة، ولد فيها ونما وترعرع، وعلت شهرته العلمية في أرجائها، وهو علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والملقب بعلي الرضا. ويروي المؤرخون أن المأمون نظر في بني العباس، وفي بني علي فلم يجد أحدا أفضل ولا أورع ولا أعلم منه، وأنه سماه الرضا من آل محمد ، وجعله

ولي عهده، (١) وذلك في الثاني من رمضان سنة ٢٠١ للهجرة، واستقدمه إليه وزوجه ابنته أم حبيب، وزوج ابنته الأخرى أم الفضل لمحمد بن علي الرضا، ونتيجة لذلك أمر المأمون بطرح السواد -شعار العباسيين- ولبس الخضرة، وبدأ بنفسه فاتخذ عمامة خضراء وجبة خضراء، وأمر قادته بذلك ففعلوا، وكتب إلى عماله في الأمصار أن يتخذوا الخضرة شعارهم.

غضب العباسيون لذلك، وخرج عمه إبراهيم بن المهدي فخلع الخليفة، وبايعه عدد كبير من العباسيين، وأهل بغداد، أما المدينة المنورة فأغلب الظن أن عاملها قد نفذ أمر الخليفة، فلم يعرف عن القادة غير العباسيين أنهم لم يستجيبوا لأمر الخليفة المأمون، ولم تذكر المدينة ضمن الأمصار التي عصت أمره أو أحدثت حدثاً بسببه، ولا نملك الدليل القاطع على تغيير الشعار فيها من السواد إلى الخضرة، ولكنا نرجح ذلك، لأن المؤرخين ذكروا الأمصار التي رفضت التغيير ولم يذكروا المدينة المنورة ضمنها، ولا شك أن هذا التغيير قد أحدث تغييراً في معاملة الطالبيين في المدينة المنورة، فأصبحوا من المقربين من السلطة، خاصة وأن ولي العهد غدا واحداً منهم، وغدا صهراً للمأمون. ومما يرجح هذا الرأي عندي أن الخليفة قد ولى المدينة بعد هارون بن المسيب واحداً من الطالبيين هو عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وضم إليه إمارة مكة المكرمة أيضاً وذلك عام ٢٠٤ للهجرة(٢) فعادت المدينة عاصمة الإمارة الحجازية..

كاد التحول الخطير الذي بدأه المأمون أن ينهي الدولة العباسية ويقيم دولة طالبية جديدة، ولكن شاء الله أن يموت علي الرضا في السنة التالية، وأن يراجع العباسيون المأمون ويلحوا عليه للرجوع عن رأيه في الخضرة، وأن تقوم عدة ثورات تهدد خلافة المأمون، لذلك لم يلبث المأمون أن رجع عن

---

١) الكامل ١٨٣/٥ -.

٢) الطبري ٥٧٦/٨ -.

قراره السابق وطرح الخضرة، وأعاد السواد شعاراً للدولة والخلافة، وذلك بعد أن دخل بغداد عام ٢٠٤ للهجرة،(١) وأمر الطالبين جميعاً بارتداء السواد عام ٢٠٧ للهجرة،(٢) غير أنه لم يعاد الطالبيين قط، وظل يكرمهم، وبخاصة أولي العلم والفضل منهم.

وقد أفاد الطالبيون في المدينة بعد ذلك فوائد مادية ومعنوية كثيرة، ويروي ابن الأثير أن محمد بن علي بن موسى الرضا خرج من المدينة للقاء المأمون سنة ٢١٥ للهجرة، فلقيه في تكريت، فأكرمه المأمون إكراماً بالغاً وأدخله على ابنته أم الفضل، وكان قد عقد له عليها وهي صغيرة قبل ثلاث عشرة سنة، عندما زوج أباه من ابنته الأخرى أم حبيب، فتزوجها محمد بن علي ثم انصرف بها إلى المدينة المنورة وأقام فيها،(٣) ولاشك أن مصاهرة المأمون للطالبيين قد قربته منهم وقربتهم منه، فلم نعد نسمع بخروج أحد منهم على الخلافة، وهذا دليل آخر على استقرار الحياة في المدينة وتلاحم الطالبيين مع بقية سكانها في نسيج واحد.

المدينة وثورة محمد بن القاسم:

كان محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من وجوه الطالبيين في المدينة، اشتهر بعلمه وزهده، وكان ملازماً للمسجد النبوي. وكان في المدينة رجل من خراسان مجاور، فأعجب به، ورأى أنه أصلح الناس للخلافة، فأخذ يغريه بها، وكلما وفد زائرون من خراسان أخذهم إليه فكلموه مثل ما كلمه، حتى اقتنع برأيهم وأخذ البيعة منهم لنفسه، ثم راسلوه من خراسان وأرسلوا له بيعات كثيرة، وقد نجح هذا الخراساني في حشد مبايعين كثيرين حتى ليسميه ابن خلدون: (شيطان من

---

١) الطبري ٨/٥٧٤ -.
٢) الطبري ٨/٥٩٣ -.
٣) الكامل ٥/٢١٩ -.

أهل خراسان)(١) غير أن محمد بن القاسم كان موقناً بأن المدينة المنورة ليست المكان المناسب لدعوته ولقضيته، ورغم توافد عدد كبير من المؤيدين عليه فإنه لم يدعُ لنفسه بين أهلها، ولم يستنصر أقاربه الطالبيين، ولولا اقتناعه بأنه لن يجد لديهم النصرة لما أمسك عن ذلك، فقد قرت نفوس الناس للحياة الآمنة وكرهوا الشغب وشق عصا الطاعة، لذلك اضطر محمد بن القاسم الى أن يخرج بأصحابه إلى الجوزجان، ولم يخرج معه من أهل المدينة أحد، وكانت ثورته كبقية الثورات الطالبية محدودة الزمان والمكان، إذ سرعان ما أخمدها قادة عبد الله بن الطاهر بعد وقعات عدة في الطالقان، وأسر محمد بن القاسم وأرسل إلى بغداد(٢) حيث سجن في بيت مسرور الخادم، ثم نجح أنصاره في تهريبه من سجنه ليلة عيد الفطر عام ٢١٩ للهجرة واختفى عن الأعين وغاب عن سطور التاريخ، وربما يكون قد عاش بقية حياته في إحدى مناطق أتباعه بصمت كامل.

كان محمد بن القاسم قبل خروجه من المدينة نموذجا لكثير من الطالبيين الذين اشتغلوا بالعلم والعبادة، ولولا (شيطان خراسان) لما فكر بالثورة، وعندما اقتنع بها لم يجعل المدينة ميدانها، فقد أثبتت التجارب السابقة أنها لا تصلح لذلك، وجاءت حالة الاستقرار فزادتها سكينة وأمناً.

مظاهر أخرى للسكينة:

ومن مظاهر السكينة التي عاشتها المدينة في ذلك الوقت: طول إمارة أمرائها، فبعد عبد الله بن الحسن، تولى إمارتها صالح بن العباس بن محمد العباسي سنة ٢٠٩هـ، وظل عليها خمس عشرة سنة، فلا نجد ذكراً لأمراء آخرين قبل سنة ٢٢٤ هـ حيث نعثر على اسم سليمان بن عبد الله بن سليمان الذي تولى إمارتها خمس سنوات أخرى، تسلم بعدها الإمارة محمد بن صالح

---

١) ابن خلدون ٣٢١/٣ -.

٢) الطبري ٧/٩٠ - الكامل ٢٣١/٥ -.

ابن العباس بن محمد علي العباسي عام ٢٩٩ للهجرة.

وبينما كانت الأحداث تتدافع في العراق وخراسان بعد موت المأمون عام ٢١٨ للهجرة وتولي المعتصم، كانت المدينة وادعة آمنة من شغب الجند وثورات الطامحين.

آثار سلبية للسكينة : بداية مشكلة تاريخية مستعصية:

غير أن هذه السكينة تحولت إلى ركود يدب فيه الضعف وينذر بأخطار قادمة، خاصة وأن قوة الدولة محتشدة في العراق، وجنود الإمارة لايقدرون على مواجهة أي تجمع مسلح، وقد بدأت هذه النذر عندما انشغلت الخلافة عن شبه الجزيرة العربية وقبائلها، وعندما أصبحت سلطة الإمارة قوية في حدود المدن التي توجد فيها فقط، لاتصل إلى القبائل التي تعيش خارج المدن وفي أطراف الجبال والبوادي، فقد شعرت هذه القبائل ببعد سلطان الدولة عنها، وبدأت شؤون الحياة البدوية والريفية تشغل الناس عن العلم والتفقه في الدين والوقوف على الحلال والحرام، وتربطهم بمنطق الواقع والقوة وتلبية الحاجة الآنية، لافرق في ذلك بين حلال و حرام، وبين مال يكسبونه بعرقهم -وما أقله- ومال يغيرون على أصحابه فينهبونه.

ومع أن بعض الأعراب قاموا بعمليات غزو ونهب وسلب قبل أكثر من نصف قرن، إلا أن هذه العمليات كانت محدودة جداً، لايذكرها المؤرخون لقلتها وقلة تأثيرها على الحياة العامة في المدينة المنورة آنئذ، ولكن الأمر بدأ يتغير مع فترة الركود الطويلة هذه، ففي أطراف المدينة تسكن عدة قبائل أهمها: بنو سليم وبنو هلال وتمتد فروع هذه القبائل في الحجاز ونجد، وتمر بمناطقها طرق الحجاج القادمين من العراق واليمن والشام، وعندما انشغلت الخلافة العباسية بالفتن المتوالية في العراق وخراسان صرفت معظم قوتها العسكرية إلى تلك الأماكن، وأصبحت سلطتها على القبائل تقوم على الولاء الذي يقدمه رؤساؤها مقابل أعطيات ينالونها من الخليفة أو أمرائه كلما وفدوا



قوافل الحجاج تقطع الطريق من وإلى المدينة وتعاني فوق مشاق السفر في الصحراء والحرارة الشديدة غارات الأعراب

إليهم، ولم يكن للدولة أي وجود مسلح بينهم، وبالعكس كانت تستعين بالمتطوعين من رجالهم لتعزيز جيوش الفتوحات ومكافحة الفتن، ولكن عندما بدأ الخلفاء العباسيون يقدمون الفرس ثم الأتراك على العنصر العربي في جيوشهم قلت الإستعانة بهم وربما انعدمت، ولم تعد خيوط الارتباط وثيقة بين القبائل والخلافة، وربما يكون للظروف الإقتصادية الصعبة في البادية والريف أثر في سلوك بعض القبائل وشغبها، فقد كانت تمر سنوات من القحط تهلك فيها كثير من مواشيهم، وهي المصدر الأول لثروتهم، وتقل الغلال وترتفع الأسعار، فتتحرك بعض القبائل أو أفخاذها لتأمين موارد ميسورة، وكانوا من قبل يفدون على الخلفاء والأمراء فيحصلون منهم على أعطيات سخية، فلما قلت وفادتهم وقلت عطاءاتهم أصبح هذا المورد لايغنيهم شيئاً، ولم تكن تنقصهم روح التمرد واستشعار القوة والجهل أو قلة المبالاة بالحلال والحرام، لذلك استحلوا العودة إلى الغزو الجاهلي والإغارة على الطرق والقرى والمدن وأخذ الأموال في هجمة خاطفة ثم العودة إلى المعاقل الحصينة في البادية أو الجبال.

ظهرت بوادر هذه الغارات في تصرفات محدودة لبعض الأعراب وأفراد من بني سليم وبني هلال، فقد أخذ بعضهم يجترئ على الناس في السوق، يأخذون أكثر من حقهم ويساومون في بعض السلع ويفرضون لها سعراً دون سعرها الحقيقي في السوق، فاذا رفض صاحبها بيعها اشتدوا عليه، وربما ضربوه وأخذوها قسراً، وقد تدخل رجال الإمارة في عدد من الحالات، ولكنهم لم يفلحوا في وقف هذه التعديات ومنع تكرارها، ثم غدت الأسواق تشهد مجموعات منهم تشتبك مع الشرطة وتخرجهم من السوق وتغصب بعض السلع وتخرج من المدينة، وقد ضج التجار من هذه التصرفات وشكوا أمرهم إلى الأمير، فعزز الأمير محمد بن صالح بن العباس رجاله في السوق، وحدثت عدة مصادمات بين بني سليم وبعض تجار المدينة، كما حدثت مصادمات بينهم

وبين بعض بني كنانة وبني باهلة، وتطورت الصدامات إلى قتال، وقتل السلميون عدداً من الكنانيين والباهليين وفروا، ولم تقدر الإمارة عليهم.

قوة من بغداد تحمي المدينة:

كان الأمير محمد بن صالح حديث عهد بالمدينة، فعمل جهده لضبط الأمور والتصدي للمشاغبين ولكنه لم يستطع وُقف هجماتهم، فكتب إلى الخليفة في بغداد، وكان الخليفة آنئذ الواثق بن المعتصم، فأرسل إليه الواثق قوة مسلحة قوامها مائتا رجل من الشاكرية عليهم حماد بن جرير الطبري، ووصلوا المدينة أواخر عام ٢٢٩ للهجرة، وتوزعوا في أنحائها، واهتموا بالسوق وقت انعقادها، وأخذوا يتربصون بالمشاغبين ليعاقبوهم ويجعلوهم عبرة لمن خلفهم.

كان لوصول هذه القوة أثر معنوي طيب، فقد اطمأن أهل المدينة لوجود من يواجه المشاغبين، وبالفعل قلت حوادث السلميين والهلاليين، ولكنها لم تنقطع، كانت قوة السلميين تتركز في قرى خارج المدينة، أهمها السوارقية، وهي قرية محصنة بين مكة والمدينة، والرويثة، منطقة دونهما، وكان عدد منهم قد استوطن المدينة قرب البقيع في حرة سميت باسمهم ((حرة بني سليم)) ولكن هؤلاء المستوطنين لم يشاركوا أقرباءهم في الشغب، وإن كانوا ينزلونهم عندهم في بعض الأحيان. ويبدو أن وصول القوة المسلحة قد أحدث ردة فعل عند السلميين بالذات، فقد جمعوا قوتهم حول قائدهم عُزَيْزَة بن قطاب السلمي، وأخذوا يتحركون في مجموعات كبيرة، ويغيرون على خصومهم الكنانيين والباهليين، وينزلون بعض أسواق الحجاز، ويتحكمون بأسعارها كيف شاؤوا.

حملة خاسـرة:

خشي أمير المدينة أن يشتد أمرالسلميين ويهاجموا المدينة رغم وجود القوة المسلحة فيها، لذا قرر أن يمسك زمام المبادرة ويضربهم ضربة تأديبية

توقفهم عند حدهم وتعيدهم إلى سلطة الدولة، فأخذ يحرض أهل المدينة على الخروج إليهم، وعبأ مالديه من قوة مسلحة، وفتح باب التطوع فتطوع عدد من القرشيين والأنصار والموالي، وجاء معهم عدد كبير من عبيدهم ولاسيما السودان، وتجمعوا في معسكر الجرف، وجاءهم الأمير وعين حماد بن جرير قائداً للحملة، وأمرها بالمسير إلى بني سليم وقتالهم، سارت الحملة إلى ديار بني سليم على طريق مكة، وبعد مسير يوم وليلة وصلت الحملة إلى الرويثة في أوائل جمادى الأخرة عام ٢٣٠ للهجرة، ووجدوا جموعاً لبني سليم، ولم يكن عددهم كبيراً ومعهم عزيزة قائدهم فأرسل السلميون إلى حماد الطبري يخبرونه بالموادعة وأنهم لايريدون القتال، ولكن حماداً رد عليهم رداً شديداً وأبلغهم أنه مصر على قتالهم أو يستسلموا، وحاول السلميون أن يثنوا حماداً عن القتال دون جدوى، وكانوا ينتظرون وصول عدد من السلميين المقيمين في بادية نجد، فلما رأى زعيم السلميين عُزيرة إصرار حماد على القتال عبأ فرسانه فبلغوا مائة وخمسين فارساً، وهم أقل بكثير من حملة حماد، ومع ذلك التحم بالحملة وقاتل قتالا ضارياً، وأرسل يستعجل بقية السلميين وكان أول هجومه على مجموعة من السودان الذين خرجوا في الحملة ولم تكن معهم خيول، لذلك نجح في شق صفوفهم ونشر الذعر فيهم، فقتل منهم من قتل وولى الباقون هرباً، فهجم بقية أهل المدينة على الفرسان والرجال من بني سليم واشتدت المعركة، وثبت الطرفان، ثم بدأ السلميون يتراجعون من أعلى الرويثة إلى أسفلها، واستمر القتل في الطرفين، ثم ظهرت طلائع السلميين القادمين من البادية وهجمت على أهل المدينة بعد أن كادوا ينتصرون، وتكاثروا عليهم وبدأت الكفة تميل لصالح السلميين، واستبسل القرشيون والأنصار وثبت حماد وجماعته بشجاعة نادرة، غير أن السيوف المتكاثرة مالبثت أن أصابتهم إصابات شديدة فسقط حماد ومن معه، وسقط عدد كبير من أهل المدينة، وأصيب آخرون بجراح، وبدأ من أخطأته السيوف

ينسحب تاركاً كل ماكان يحمله، ناجياً بروحه نحو المدينة، وفرح السلميون بما تركه المدينيون، واشتغلوا بجمعه، وتركوا المنسحبين ينجون بأنفسهم.

وجاء الخبر إلى المدينة، فعمها حزن شديد، وكانت قد نسيت الأحزان منذ مدة طويلة، فقد فقدت عدداً من شبابها، وفقدت معظم القوة المسلحة التي جاءتها من بغداد لحمايتها، وأصبحت غير قادرة على أن تتصدى لمن يفكر في غزوها أو الشغب فيها، لذلك سارع الأمير محمد بن صالح فأرسل البريد بخبر الحملة الفاشلة، ومافعله السلميون بأهل المدينة وجيشها.

أما السلميون فقد انتشوا بهذا النصر، وتحركت جموعهم وأغارت على عدد من القرى المجاورة، ولاسيما قرى الباهليين والكنديين وقتلوا عدداً من أبنائهم ونهبوا أموالهم، وأغاروا على بعض القبائل المسافرة، وتطايرت أخبارهم إلى المدينة المنورة وأطراف الحجاز.. فقلق الناس قلقاً شديداً واضطرب التجار وخافوا أن يدهموهم في أسواقهم(١).

آثار الحملة الخاسرة:

اهتم الخليفة الواثق بما جاءه من أخبار المدينة، فكلف أحد قادته الكبار، بغا الكبير ((أبو موسى التركي)) أن يجهز على وجه السرعة جيشه، ويعبئ فيه المقاتلين الأتراك، ويعجل السير إلى السلميين، كما أرسل أمراً بعزل أمير المدينة محمد بن صالح وتعيين عبد الله بن أحمد بن داود الهاشمي مكانه.

حملة تأديبـــية تنظف المنطقة:

جهز الجيش تجهيزاً حسناً، وسار قاصدا مدينة السوارقية، أكبر مراكز

---

١) أنظر الطبري ٩/١٢٩-١٣٠

السلميين وأكثرها تحصيناً(١)، فوصلها في شعبان من العام نفسه ٢٣٠ للهجرة، وكان قد تجمع فيها قادة السلميين النجديين والحجازيين، فيهم عزيزة الذي قتل حماد بن جرير، فهاجمهم بغا وقاتلهم بعنف شديد، واستخدم خبرته العسكرية بالإحاطة بهم، فقتل خمسين رجلا منهم وأسر مثلهم وبدأ الآخرون في الهرب، ولم يكن بغا يريد القضاء على السلميين، بل كان يريد تأديبهم وحملهم على الطاعة، لذلك عندما رآهم يهربون نادى فيهم بالأمان، وأمر رجاله بعدم التعرض لمن يغمد سيفه، واتجه نحو قلب السوارقية فنزل فيها، وأرسل إلى السلميين أن يأتوه وهم آمنون ليفاوضهم، فجاءه عدد منهم فأخبرهم أنه يريد منهم عهداً موثوقاً ألا يشغبوا ولايتعرضوا للمدينة المنورة ولا لأحد من المسافرين، وأنه سوف يقبض على سفهائهم الذين لايستطيعون ضمانهم ويحبسهم في المدينة لكيلا يحملوا إخوانهم على الشغب والإفساد، فرضي معظم السلميين ونزلوا على حكمه، وجاءه عدد كبير منهم، وأخذ منهم رهائن، وقبض على من اتهموا بالسفه والإفساد وارتكاب الجرائم، وأرسل إلى بطون سليم في الأطراف وبخاصة بني عوف وبني حبش، وأمضت قواته أكثر من شهرين وهي تتجول في قراهم ومضاربهم لتقبض على من يوصف بالشر والفساد، وفر بعضهم قبل أن يصل إليه رجاله، فأمسك ألف رجل وأطلق سراح الباقين، وسار بهم إلى المدينة المنورة، فوصلها في أوائل ذي القعدة عام٢٣٠هـ، وفرح أهل المدينة بقدوم بغا وجيشه وأسراه، واستقبلوه بترحاب شديد، وأملوا عودة السكينة التي افتقدوها، وسلم بغا الكبير سجناءه ورهائنه لأميرالمدينة، فحبسهم الأمير في دار كبيرة قرب الإمارة تعرف بدار يزيد بن معاوية.

أحس الناس بالأمان بعد أن كسرت شوكة السلميين، وعادت الحياة إلى هدوئها وتجهز الراغبون في الحج، فلم يعد أحد يتعرض لقوافل المسافرين،

---

١) الطبري ١٣٢/٩ -.

وخرج بغا الكبير على رأس الحجاج إلى مكة واصطحب معه جيشه، وبعد إنتهاء موسم الحج قفل راجعاً إلى المدينة، وتوقف في ذات عرق، على بعد يومين من مكة، فأرسل رسله إلى بني هلال يعرض عليهم الأمن والأمان مقابل أن يسلموه رهائن منهم، ويسلموه المفسدين والمشاغبين ليحبسهم في المدينة أيضاً ضماناً لعدم تكرار الشغب والجرائم، وهددوهم إن لم يستجيبوا بالقتال والقتل، فاستجاب الهلاليون لطلب بغا الكبير وجاءه عدد كبير منهم، فأخذ ثلاثمئة من عتاتهم ومردتهم، وخلى سبيل الباقين، وتوجه بمن أخذه إلى المدينة فحبسهم مع السلميين، وغدت المدينة تتحدث بأخبار بغا والقبائل التي شغبت من قبل، ومن أمسك منهم ومن نجا، ومن بقي من القبائل المشاغبة والتي تتعرض للقوافل، وتتوقع خروج الجيش إليها، فقد انتشر الخبر بأن الخليفة الواثق أمر قائده بغا بأن يؤمن المنطقة كلها ويؤدب جميع المفسدين، وألا يعود إلى العراق الا بعد أن يعيد الأمن إلى نصابه.

ومالبث بغا أن خرج إلى شمال المدينة ثم شرقها، إلى بني فزارة ثم بني مرة، يعرض عليهم ماعرضه على السلميين والهلاليين من قبل، ومن أبى يهاجمهم في دورهم، ويقتل من يشهر السيف، ويأسر من يستأسر، ليعود إلى المدينة بطائفة أخرى من الأسرى والرهائن.

شغب في السجن:

بينما كان بغا وجيشه يجوبون مواطن الحربيين والفزاريين شهدت المدينة أحداثاً جديدة صاخبة، فقد ازدحمت دار يزيد بن معاوية بالرهائن والأسرى، إذ جاوز عددهم ألفاً وثلاثمئة رجل، وكان فيهم عزيزة زعيم السلميين، فلما طال عليهم الحبس بدؤوا يفكرون في الهرب من السجن، وحاولوا رشوة بعض الذي وكلوا بحراستهم فاستجاب بعضهم، وترك لهم الفرصة كي ينقبوا أحد الجدران ويفتحوا ثغرة فيه يتسللون منها خارج السجن، وقد أفلحوا في ثقب الجدار وإحداث الثغرة، وخرج عدد من شجعانهم وباغتوا الحراس فقتلوا منهم

رجلين وأخذوا سلاحهما، وتدفق زملاؤهم من الثغرة، وانتشروا حول السجن ليهاجموا بقية الحراس، وشاء الله أن تشرف امرأة من دارها فترى السجناء يتقاطرون من الثغرة، ففزعت وصرخت تنبه أهل الحي، وتردد صوتها في هدأة الليل بين البيوت، وهب الرجال على صوتها، وتعالت الأصوات تنادي كل من يسمع من أهل المدينة أن يدركوا السجناء قبل أن يخرجوا من الثغرة، وأسرع الذين سمعوا النداء ووقفوا في وجه السجناء وأشهروا سيوفهم عليهم وهددوهم بالقتل إن لم يرجعوا، وتقدم عدد من أهل المدينة إلى الثغرة ليوقفوا تدفق الخارجين منها، وأخذوا يدفعون السجناء بالعصي والرماح وأطراف السيوف ليعودوا إلى سجنهم، ويضربون من يحاول الفرار، ولكن السجناء تجمعوا ثم اندفعوا في وجه أهل المدينة، ونجح بعضهم في شق الصفوف، وجرى في الشوارع إلى ظاهر المدينة، وجاء أمير المدينة عبد الله بن أحمد بن داود ورجاله، وأمر رجاله بتعقب السجناء الفارين، وجرى السودان وراءهم فأدركوا عدداً منهم وأمسكوهم، وعندما قاوموهم ضربوهم ضرباً مبرحاً، وقتلوا من شهر السلاح عليهم، وأفلت عُزيزة ونفر قليل معه، وتوارى في أطراف المدينة، وشد أهل المدينة على بقية السجناء وضربوهم، وبخاصة بعد أن قتل عدد من المدنيين، فتراجع السجناء وسقط عدد منهم بين قتيل وجريح. واستسلم الباقون وطلبوا الأمان ليعودوا الى السجن..

وتوقف القتال، وقبض على رؤوس الفتنة، وطلب الأمير من أهل المدينة أن يعينوا رجاله في الحراسة بقية الليل.. فتطوع عدد منهم، وأحكمت الحراسة على السجن، وسارت دوريات منهم في الأحياء وأطراف المدينة للقبض على الفارين...

وقبل أن يطلع الفجر.. كان الأمن قد استتب في المنطقة، وحمل أهل المدينة شهداءهم وجرحاهم إلى البيوت، وعزل الذين شوهدوا يقتلون الحراس والمدافعين من أهل المدينة في غرفة في الإمارة للاقتصاص منهم..

وفي الصباح قتل هؤلاء، وجمعت جثتهم إلى جثث قتلى الليل من السجناء، وصفت على باب الإمارة بعضها فوق بعض، وجاءت المجموعات التي تعقبت الفارين بجثث من تمكنت منهم فطرحت مع مثيلاتها.. وقبل أن ينتصف النهار دفن أهل المدينة شهداءهم، ثم أقبل رجل يحمل على دابته جثة عزيزة، وأخبر أنه عثر عليه مختبئاً في بئر، فحاول القبض عليه ، ولكن عزيزة قاومه، فقتله.

واطمأن الناس إلى أنهم قد تغلبوا على ذلك التمرد وأمنوا شر المفسدين.. فلا أحد إلا الله يعلم ماالذي كان يمكن أن يفعله ألف وثلاثمئة من العتاة لو تمكنوا من الخروج من السجن والانتشار في المدينة.. يحملون في جنباتهم وقود الشر والفساد، وحرص أهل المدينة على مساعدة الأمير في ضبط السجناء، واستمر المتطوعون في التناوب على الحراسة، بانتظار عودة بغا وجيشه من حملة تأديب الأعراب والقبائل المفسدة، وكتب الأمير إلى الخليفة بالأحداث التي جرت، وأرسل الخليفة عوناً مادياً لأهل المدينة، فوزعت عليهم الأعطيات، وحصنت دار يزيد بن معاوية، وزاد الأمير من عدد الشرطة والحراس.. وسكن السجناء بعد أن قتل مردتهم وزعماؤهم.

وفي رمضان من العام نفسه ٢٣١هـ عاد بغا الكبير إلى المدينة وهو يحمل معه مزيداً من السجناء والرهائن، فقد أخذ ألفاً من عتاة الفزاريين والحربيين بعد صولات وجولات كثيرة في ديارهم، وجاء بهم فأضافهم إلى سجنائه السابقين، وعندما علم بالأحداث التي جرت في غيبته غضب غضباً شديداً، وهم أن يقتل مجموعة أخرى من الأسرى ولكنه كف عن ذلك، كما غضب عندما علم أن السودان قد قتلوا بعض الأعراب الذين وجدوهم في أحياء المدينة ظناً بهم أنهم من السجناء الفارين، ولكنه لم يعاقب أحداً منهم، لأنه لايعرف على وجه التحديد قاتله، فضلاً عن أنهم كانوا يقصدون نصرة السلطة على الخارجين عليها..

وهكذا تحولت المدينة المنورة إلى مركز للقوة التأديبية التي جاءت لضبط الحجاز ونجد، وتأمين طريق المعتمرين والحجاج، والضرب بقوة على أيدي المفسدين، وقد عسكر جيش بغا في أطراف المدينة بقية تلك السنة، وخرج بغا وبعض رجاله مع وفد الحجيج إلى مكة في موسم الحج، وخرج معه عدد كبير من أهل المدينة، واستتب الأمن في الموسم..

وعاد بغا بعد الموسم وتابع حملاته التأديبية في أطراف نجد وبدأ بتأديب بني نمير، ثم بني ثعلبة ثم بني كلاب ، وشارك في حملة التأديب عدد من شباب المدينة، وزاد عدد السجناء وتجاوز الألفين، واستمر في الازدياد كلما وفدت مجموعة جديدة من الأسرى من بني كلاب وبني ثعلبة..

ومرت شهور من سنة مئتين واثنتين وثلاثين والمدينة مركز تجمع للأسرى، حتى إذا دخل شهر ذي القعدة أرسل بغا الكبير إلى محمد بن صالح العباسي- أمير المدينة السابق -يطلب منه أن يأتيه بالسجناء المجموعين في سجون المدينة إلى العراق.. فجهز محمد بن صالح الجنود والابل والقيود.. وأعد العدة لكيلا يفلت أحد من أسراه، وخرج بهم في قافلة كبيرة تضم أكثر من ألفين ومئتي رجل، ووقف أهل المدينة يشهدون خروج هؤلاء المفسدين، ويحمدون للخليفة الواثق وقادته مافعلوه لتنظيف المنطقة وتأمين طريق الحجاج وتوفير الأمن والسلامة. وقبل أن ينتهي العام جاء النعي بوفاة الواثق وتولي المتوكل، فحزن عليه أهل المدينة وبكوه بدموع سخية..(١).

---

١) انظر أخبار بغا الكبير وشغب السلميين وحربهم في: الطبري ١٢٨/٩ وما بعد

الأمن والطمأنينة في المدينة:

بعد ذلك دخلت المدينة في فترة هدوء ثانية، وعقد المتوكل لابنه محمد المنتصر ولاية فخرية على الحرمين واليمن والطائف في رمضان سنة ٢٣٢، وأغلب الظن أنه أبقى عليها واليها السابق، محمد بن إسحق بن إبراهيم(١).

واستتب الأمن بفضل حملات بغا التأديبية التي نظفت المنطقة من عدد كبير من المفسدين، فلا نجد أية إشارات إلى اضطرابات أو مشكلات تقع في المدينة المنورة أو بقية منطقة الحرمين الشريفين.

ومع أن المنتصر كان هو الوالي الاسمي للمدينة ومكة ، فإنه لم يرها إلا بعد أربعة أعوام من ولايته عليها، حيث جاء للحج عام ٢٣٦ مع جدته شجاع أم الخليفة المتوكل، واحتفى به أهل المدينة مثلما يحتفون بأي أمير من بيت الخلافة يفد إليها، وحمل المنتصر إلى الحرمين أموالاً فوزعها فيهما.

وعندما تغير المتوكل على ابنه محمد المنتصر ألغى ولايته على الحرمين، ووجه إلى المدينة صالح بن علي، ويغلب على الظن أن هذا الأمر قد حدث في عام ٢٤٦ للهجرة حيث أراد المتوكل أن يعزل المنتصر عن ولاية العهد فأبى المنتصر، فأخذ يهينه في مجلسه، وقد أثر ذلك في المنتصر فكان أحد المتآمرين على قتل أبيه المتوكل، وكان أول عمل قام به بعد مبايعته بالخلافة هو عزل صالح بن علي من المدينة وتعيين أمير آخر عليها هو علي بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد(٢)، ووصاه أن يعنى بأهلها عناية فائقة، وكان مما قاله له: ياعلي إني أوجهك إلى لحمي ودمي، ومد جلد ساعده وقال، إلى هذا وجهتك، فانظر كيف تكون للقوم، وكيف تعاملهم، (يعني آل أبي طالب) فقال علي: أرجو أن أمتثل رأي أمير المؤمنين أيده الله فيهم إن شاء

---

١) الطبري ٩/١٨٣-.

٢) الطبري ٩/٢٥٤ - الكامل ٥/٣١١-.

الله، فقال: إذاً تسعد بذلك عندي(١).

وطبيعي أن تحظى المدينة بأمير يرعى شؤونها رعاية حسنة، وأن يجد الطالبيون الرفق والعناية، بل إن طالبيي المدينة من حفدة الحسن والحسين قد ردت إليهم فدك بأمر الخليفة المنتصر، فصار لهم منها دخل وفير.

ومع أن المدينة عاشت في هدوء ودعة فإنها قد تأثرت بالضعف العام الذي أصاب الدولة العباسية عام ٢٤٧هـ، فالفتن الكثيرة المشتعلة حول الخلافة بسبب تسلط القادة العسكريين على الخلفاء قد أضعفت اهتمام الخلفاء بالولايات والأمصار، وأثر ذلك على الحالة الاقتصادية بعامة، وكانت طرق التجارة تضطرب بين حين وحين، فترتفع الأسعار ويشكو الناس من الضائقة، والمدينة التي اعتادت أن تعتمد على منتجاتها الزراعية لم تكن لتستطيع أن تستغني عما يحمل إليها من الأمصار، فليس لديها صناعة تكفي أهلها الثياب والأواني المنزلية والأثاث، والاضطراب كثيراً ما يؤثر على موسم الحج، فيقل عدد الوافدين وتقل الواردات من الموسم.

طالبي جـديد يستولي على المدينة:

غير أن المدينة لم تشهد اضطراباً وضائقة حقيقية إلا عام ٢٥١ للهجرة عندما احتلها لبعض الوقت طالبي ثائر هو إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو من أحفاد عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي خرج ابناه محمد ذو النفس الزكيه وإبراهيم زمن المنصور، ومع أن جده المباشر موسى، والملقب بالجون، لم يخرج مع أخويه إلا أنه أوذي بسببهما، فقد أخذه المنصور وحبسه، ثم أطلقه وكاد رجال أمير المدينة رياح أن يقتلوه، ولكن رجال محمد أنقذوه، فلما قتل محمد توارى موسى الجون في بادية الحجاز، ولم يصل إليه المنصور، وقد نشأ أبناؤه وأحفاده في ذلك الريف بين الأعراب

---

١) الطبري ٩/ ٢٥٤ -.

وورثوا قصص الخروج السابقة، ولكن لم يخرج أحد من أبناء موسى ولا من الجيل الأول من أحفاده، فلما ظهر الجيل التالي من الأحفاد كان فيه إسماعيل هذا وأخوه محمد الأخيضر، وكانا يترددان على مكة والمدينة ولم يسكنا فيهما، ويبدو أن ضعف الإدارة العباسية في المنطقة قد جرأهما على التحرك، ومع أن محمد الأخيضر أكبر من أخيه إسماعيل بعشرين سنة فإن إسماعيل هو الذي جمع الأعراب ورجال بعض القبائل وخرج بهم، ولا أستبعد أن تكون بداية الحركة قد تزامنت مع تحرك بني سليم عام ٢٢٩هـ، إذ يذكر ابن خلدون أن إسماعيل كان يتردد بالحجاز قبل خروجه عام ٢٥١هـ بإثنين وعشرين سنة(١) أي منذ عام ٢٢٩هـ، ولكن حملة بغا الكبير على بني سليم جعلته يؤجل ثورته، فلما تطاولت السنوات على تلك الحملة وضعف شأن الإدارة العباسية وجد الفرصة سانحة للخروج والثورة، فهاجم مكة المكرمة في مطلع ربيع الأول عام ٢٥١ للهجرة، ولم يكن فيها قوة قادرة على مقاومته، فهرب واليها جعفر بن عيسى، فأمر إسماعيل رجاله بنهب دار الإمارة وبيوت كبار العاملين فيها والقبض على جنودها، ثم أمر بقتلهم جميعاً، وقتل جماعة من أهل مكة، وكان إسماعيل دموياً، فلقب بالسفاك(٢). ولم يكتف بذلك بل أغار على الكعبة الشريفة فأخذ مافي خزانتها من الذهب والفضة والطيب والكسوة، واستولى على الأموال المخصصة لإصلاح عين زبيدة، وفرض على الناس إتاوة، وجمع منهم مائتي ألف دينار، وأباح لرجاله أن ينهبوا ما يشاؤون.

تطايرت أخبار السفاك ووصلت إلى المدينة ففزع أهلها، ثم اشتد فزعهم عندما علموا أنه خرج من مكة في أواخر ربيع الثاني عام ٢٥١ قاصداً المدينة، وليس في المدينة قوة قادرة على مواجهته، فأسقط في أيديهم، ولجئوا إلى

---

١) ابن خلدون ٤/١٢٧-

٢) التحفة اللطيفة ١/٣٢٢ -.

الأمير علي بن الحسين، ولكن الأمير لا يملك شيئاً، فجنوده قليلون لايكافئون رجال السفاك، وما صنعه السفاك بجنود مكة أدخل الرعب في قلوبهم، وليس في الوقت متسع لوصول نجدة من بغداد، لذلك كان من رأي الأمير مسالمة السفاك وطلب الأمان منه، ولكن أهل المدينة لم يقتنعوا بهذا الحل، فليس السفاك ممن يؤمن جانبه، وفظائعه في مكة تجعل الثقة فيه معدومة.

أصر الأمير على رأيه، واقتنع بأن المقاومة عقيمة، وكتب إلى الخليفة في بغداد بالأمر طالباً النصرة، ثم جمع حاشيته وخرج من المدينة.

وكانت الأمور في العراق مضطربة بسبب الخلاف بين الخليفة المستعين بالله وابن عمه المعتز بالله، وكان الصراع على أشده بين الفريقين، لذلك لم يكن من المتوقع أن تصل نجدة سريعة إلى المدينة لتدفع عنها السفاك ورجاله.

بطولات شعبية نادرة:

يشير المؤرخون إلى موقف، كان الأجدر بهم أن يفصلوا القول فيه، هذا الموقف هو ثبات أهل المدينة في وجه الغزاة القادمين رغم هرب أميرها وحاشيته، فقد اشتعلت الحماسة فيهم، ونظموا المقاومة، ونجحوا في صد السفاك ومنعه من دخول المدينة.

فقد توجه السفاك بعد خمسين يوماً من استيلائه على مكة إلى المدينة المنورة، أي في أواخر شهر ربيع الثاني، والمسافة بين مكة والمدينة يقطعها المسافرون في مدة تتراوح بين الأسبوع والعشرة أيام، فيكون بذلك وصوله إلى مشارف المدينة في أوائل جمادى الأولى، وعندما وصلها وجد أهل المدينة قد حصنوها، ولا يكون تحصينها إلا بإعادة حفر الخندق، الذي حفره رسول الله ﷺ وأعيد حفره مرتين بعد ذلك، وبإقامة المدافعين على أطرافه، وكان آخر مرة حفر فيها قبل مائة عام في ثورة محمد ذي النفس الزكيه. وبناء على ماذكره ابن خلدون فقد حاصر السفاك المدينة محاصرة شديدة، وصمد أهل المدينة ونفروا جميعاً لمواجهته حتى عطلت بعض الصلوات في

المسجد النبوي، وطال الحصار على الناس وأجهدهم، ونفدت الأقوات وحصلت مجاعة ومات عدد من السكان، ومع ذلك ثبتوا على المقاومة ورفضوا الاستسلام. ونجد إشارات في كتب متفرقة إلى وقوع بعض الصدامات، وربما تمكن بعض رجال السفاك من اقتحام الخندق ومقاتلة أهل المدينة، وربما تمكنوا من دخولها بعض الوقت، فقد أشار أبو الفرج الأصفهاني في كتابه مقاتل الطالبيين، إلى أن السفاك قد قتل عدداًمن الجعفريين(١)، وهذا يبين مدى إجماع أهل المدينة على مقاومته.

ولا ندري كم عدد الذين سقطوا في القتال أو تمكن منهم السفاك ورجاله،(٢) ولنا أن نتصور كيف كانت الأمور تجري في هذه الأيام العصيبة، ومن الذي يوجهها بعد غيبة الأمير وحاشيته، والدور البطولي العظيم الذي قام به رجال مجهولون من أهل المدينة في توجيه الناس وتثبيتهم على المقاومة وإدارة شؤونهم آنئذ.

صحيح أن للمدينة موارد زراعية، ولكن المنطقة التي انحصر فيها الناس ضيقة، وليس فيها من المزارع والبساتين ما يكفي أهلها، وأغلب المزارع والبساتين تقع خارج منطقة الحصار، في متناول الغزاة، لذا كان اعتماد أهل المدينة في الحصار على الطعام المدخر، وكل يوم من الحصار ينقصه ويزيد هموم الناس وموتاهم.

وأخيراً شاء الله أن يأتي الفرج، فقد بدت طلائع العسكر قادمة من العراق، وسبقت أخبارها إلى السفاك ورجاله، فرغم الصراع المشتعل بين المستعين بالله وابن عمه المعتز بالله في بغداد، ورغم المعارك التي كانت تدور بين عساكرهما، اهتز المعتز بالله لخبر حصار المدينة، ووجه مجموعة من جيشه بقيادة محمد بن أحمد بن عيسى المنصور وعيسى بن محمد

---

١) أنظر مقاتل الطالبيين ص ٧٢٠

٢) ابن خلدون ١٢٧/٤ -.

المخزومي، وأسرع الجيش لملاقاة السفاك قبل أن يقتحم المدينة، وحاول السفاك ورجاله اقتحام المدينة قبل أن يصل الجيش ولكنهم فشلوا، فقد استمات أهلها في الدفاع عنها، واقترب الجيش القادم، ورأى السفاك أنه ليس في موقع يستطيع فيه مواجهته وبخاصة إذا اجتمع عليه الجيش القادم من أمامه وأهل المدينة من ورائه، فجمع رجاله ورحل بهم عن المدينة بعد أن أجهدها بالحصار والتجويع(١).

والحقيقة أن موقف أهل المدينة هذا لون من البطولات الشعبية النادرة، وكم يود المرء لو يجد في كتب المؤرخين تفصيلات لهذه البطولات، وأسماء الذين قادوا معركة الصمود ومقاومة الحصار، والذين قاموا بشؤون الناس، صحيح أن المدينة قد دفعت ثمناً غالياً لهذا الصمود والمقاومة، ثمناً من جوع أبنائها وموت بعضهم، ولكن أهل المدينة نجحوا في حمايتها من تلك الحملة الغادرة، فلا أحد يعلم إلا الله، ما الذي كان سيفعله هذا السفاك في المدينة لو نجح في اقتحامها، خاصة بعد أن قاومته وثبتت في وجهه، فلربما فاق مافعله بأهل مكه، ومما يرشح لذلك أن السفاك ورجاله قد ارتكبوا أعمالا وحشية بعد ذلك في مكة وجدة، فقد توجه إلى مكة فسارع أهل مكة لمقاومته، وفعلوا مثل مافعل أهل المدينة، وفوجئ بتحصن أهلها، وحاول اقتحامها ففشل ، فانصرف عنها إلى جدة، فأوقع فيها بلاء عظيماً وأخذ أموال التجار واستولى على البضائع والسلع القادمة بالبحر، ثم عاد برجاله إلى مكة وقد دخل شهر ذي الحجة، ووصل الجيش القادم من العراق لمحاربته وهاجمهم السفاك في عرفة، وقتل عدداً كبيراً من الطرفين، وقتل من الحجاج أكثر من ألف حاج، وتفرق الناس عن عرفة ولم يقفوا فيها في اليوم التاسع، وانتصر رجال السفاك على الجيش العباسي في تلك الموقعة ووقفوا في عرفة وحدهم، بينما انسحب الجيش العباسي شمالا، ثم نزل السفاك إلى مكة وعاث

---

١) ابن خلدون ١٢٧/٤ - الطبري ٣٤٧/٩ -.

فيها فساداً، فلما عاد الجيش العباسي خرج منها وعاد إلى جدة ثم تغلغل في ريف الحجاز، وظل الناس في مكة والمدينة يترقبون أخباره ويخشون عودته إلى أن جاءت الأخبار بإصابته بالجدري وموته في السنة التالية ٢٥٢هـ، وتحول أخيه محمد الأخيضر إلى اليمامة، فاستراحت المدينتان من شروره.(١)

سنوات من الهدوء والسكينة:

سكنت المدينة إلى الهدوء والراحة بعد تلك الفترة العصيبة وعاد إليها الأمن، وقام أهلها يصلحون ما أفسده رجال السفاك حول المدينة، فقد كانت تصرفاتهم سيئة لدرجة جعلت الطالبيين في المدينة يلتحمون ببقية السكان، ويقاومون قريبهم في النسب بصلابة، ويذكرونه وحركته من بعد بسوء، فقد كان عامة رجاله من بدو الحجاز وأعرابها والمغامرين وطالبي المال، وهؤلاء لايرعون إلا ولا ذمة.

واشتغل أهل المدينة بأمورهم اليومية، وآب إليها بعض الطالبيين الذين خرجوا في الآفاق، فوصلها من مصر عام ٢٥٦هـ إبراهيم بن محمد بن يحي بن عبد الله بن محمد بن الحنفية، الذي ثار في صعيد مصر وجمع حوله عدداً من الأشياع، ولكن ثورته فشلت، فهرب إلى مكة، فقبض عليه أميرها ثم أطلقه، فعاد مع رجاله إلى المدينة واستقر فيها إلى أن مات..

عاشت المدينة خمس عشرة سنة بعد السفاك بهدوء، وابتعدت أكثر وأكثر عن الأضواء والأحداث السياسية العنيفة، ففي هذه السنوات ضعف أمر الخليفة العباسي، واستبد القادة العسكريون بالأمور، وتكررت السنة التي سنها المتوكل في إمارة الحرمين، عندما عقد لابنه المنتصر إمارتها والمنتصر مقيم في بغداد لايخرج منها، فلم يصل إلى المدينة أمير معين من الخليفة، بل

---

١) المصادر السابقة. وأنظر الكامل ٣٢٨/٥ - والتاريخ الاسلامي ٥٩/٦ - التحفة اللطيفة ٣٢٢/١-٣٢٣ -.

أصبحت إمارتها إمارة شرف لكبار الشخصيات ثانية، وعقد الخليفة المعتمد لأخيه أبي أحمد الإمارة على الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن عام ٢٥٧هـ، (١)، وأناب أبو أحمد بعض رجاله لإدارة الأمور في كل من تلك المناطق، واكتفى بأن ترفع إليه حسابات الديوان، خاصة وأن أبا أحمد قد اشتغل بفتنة الزنج التي تفجرت عام ٢٥٥هـ وتفرغ لها.

كوارث طبيعية في المنطقة:

ظهرت تبديلات كبيرة في الطقس في عام ٢٥٩هـ فحدثت بعض الزلازل والعواصف الترابية الشديدة فأضرت بريف المدينة وباديتها وبخاصة بني سليم وبني هلال فهربوا إلى المدينة ومكة، وأحضروا بعضاً من متاع الحجاج الذين قطعوا عليهم الطريق، وذكروا أنه هلك منهم خلق عظيم في البادية(٢). وفي عام ٢٦٠ للهجرة وقع قحط شديد، شمل معظم العراق والشام وخراسان ومصر والحجاز، وكان فضل الله على المدينة أن القحط فيها أقل من غيرها فلجأ إليها كثير من أهل مكة وأهل المناطق المجاورة وظلوا فيها بقية العام(٣) وفي الوقت نفسه كانت الفتن مستعرة في الكوفة والبصرة والأهواز وسبخات العراق وخراسان والبحرين، وقد أثرت هذه الفتن على الحالة الاقتصادية فاضطربت طرق التجارة وقلت القوافل المنتقلة بين البلدان خشية أن تقع ضحية الثائرين أو المقاتلين، وبلغت الضائقة ذروتها عامي ٢٥٩ و ٢٦٠ للهجرة، حيث أصاب الناس قحط شديد فاجتمع القحط مع آثار الفتن فازداد الوضع سوءاً.

ولم يذكر المؤرخون أسماء الذين تولوا إدارة المدينة في هذه الفترة بعد أن عقدت إمارتها لأبي أحمد شقيق الخليفة، وكان أبو أحمد قد أناب عليها

---

١) الطبري ٤٧٦/٩ -.
٢) اليعقوبي ٥١١/٢
٣) الطبري ٥١٠/٩ -.

بعض أهلها من الطالبيين.

وعندما نصل إلى عام ٢٦٦هـ يذكر المؤرخون أن القيم بأمر المدينة هو إسحق بن محمد بن يوسف الجعفري، والقيم رتبة دون الإمارة، ولايته إدارية ومالية وليست سياسية، ولاندري هل كان إسحق هو القيم في المدة الماضية منذ أن عقدت الولاية لأبي أحمد أم كان غيره.

صراع بين الطالبيـــين في المدينة:

مر بنا أن المنافسة بين الطالبيين في المدينة بدأت منذ العهد الأموي، وأن بعض الولاة قد عملوا على إذكائها، ولكن المصائب المتوالية عليهم أخمدتها، وخبأتها تحت الرماد إلى أن تحين فرصتها ومنذ بداية العصر العباسي توزع الطالبيون بين الولاء للعباسيين والثورة عليهم.

وعندما سيطر العسكريون على أمور الخلافة في بغداد، كثر الخارجون على الدولة، وتشجع عدد من الطالبيين في الحجاز والعراق وخراسان ومصر والمغرب على الثورة، ونجح بعضهم في إقامة إمارة أو دولة مستقلة وأخفق بعضهم الآخر.

أما الذين استوطنوا المدينة فكان أغلبهم موالين للخلافة العباسية -وقد بدا هذا الولاء في مناسبات عدة منذ ثورة محمد المهدي عام ١٤٥هـ- إلى محاصرة السفاك للمدينة عام ٢٥١هـ..

وكان للطالبيين أموال كثيرة في المدينة وما حولها، وكان بعضها موضع نزاع تاريخي بين فروعهم، وهي الأملاك التي أوقفها علي بن أبي طالب في أطراف المدينة وينبع وفدك لذريته، فاختلف فيها أحفاد الحسن وأحفاد الحسين، وكان الخلاف يقوم على ولايتها..

ويبدو أن عدم وجود أمير قوي في المدينة، قد أتاح المجال لهذا الصراع أن يظهر على السطح ثانية، وزاد من فرصة ظهوره اعتماد العباسيين على أحد الفروع الطالبية دون الفروع الأخرى لبعض الوقت، فكان هؤلاء يجدون

الفرصة لتقوية مواقفهم أو عزل منافسيهم عن ولاية بعض الأوقاف الذرية، فلما كان عام ٢٦٦هـ بلغ الصراع ذروته الأولى ووصل إلى مرحلة القتال. ولا نجد سبباً مباشراً لتفجير الصراع.. بل نجد أن كلا من الفريقين كان ينتظر الفرصة السانحة ليثب على الفريق الآخر.. وقد سنحت لأحدهما في هذه السنة..

ففي هذه السنة - كما يذكر الطبري-(١) كان القيم على أمر المدينة من الحسنيين (إسحق بن محمد بن يوسف) وكان قد وزع إخوته ومواليه على الإدارات والأعمال التابعة له، فولى على وادي القرى رجلا لم يذكر المؤرخون اسمه، وكان للحسنيين فيها ممتلكات قيمة، وفيها إخوان لإسحق. وثار أهل وادي القرى على عامل إسحق.. فقتلوه وقتلوا أخوي اسحق، فغضب إسحق وخرج بنفسه على رأس قوة إلى وادي القرى لتأديب أهلها.. وخلف أخاه موسى بن محمد بن يوسف الجعفري نائباً عنه، ولكن المنية عاجلته ومات في الطريق، فقام موسى بأمره ونصب نفسه مكان أخيه وكتب إلى بغداد طالباً تثبيته في المنصب..

وهنا وجد بعض الطالبيين الفرصة سانحة للاستئثار بالسلطة -فليس لدى موسى بن محمد قوة كبيرة تسانده، لذلك سارع أحد المتطلعين إلى السلطة، وهو حسني أيضاً، واسمه الحسن بن موسى بن جعفر، فأعلن العصيان، وحاول انتزاع الإمارة من موسى بن محمد، ولكن موسى فاوضه على التخلي عن ثورته، وكانت طموحات الحسن هذا صغيرة.. فرضي بالتخلي عن الثورة لقاء ثمانمائة دينار..

ولم تكن هذه الفرصة لتفوت أبناء الفرع الحسيني، لذلك سارع أبو القاسم أحمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد الحسيني. إلى جمع رجاله ومهاجمة موسى بن محمد في دار الإمارة.. وقد شجع أبا القاسم على

---

١) انظر: الطبري ٩/٥٥٢

الخروج أن ابن عمه الحسن بن زيد قد ثار في طبرستان واستطاع أن ينتزعها من أميرها العباسي ويقيم فيها إمارة مستقلة، واستطاع أبو القاسم أن يتغلب على رجال موسى بن محمد القليلين وأن يقتله ويتسلم إدارة الإمارة..

وقد استعان أبو القاسم هذا بابن أخيه أحمد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد في ضبط أمور المدينة، وكان خارج المدينة فاستقدمه وولاه أمنها وجندها، فضبط أحمد أمورها بحزم وحكمة..

وقد أثرت هذه الصراعات بين الطالبيين على سوق المدينة فانحرفت عنها القوافل وأمسك التجار عن استخدام ميناء الجار خوفاً من أن تنهب بضائعهم، فقلت السلع وغلت الأسعار وتضايق الناس. ورأى أحمد بن محمد أن الحل لايكون إلا بإقناع التجار بإرسال البضائع والقوافل إلى المدينة، وتأمين الطريق والسوق ونشر الجند فيها لحمايتها، ففعل ذلك، وأرسل رسله إلى التجار في ميناء الجار يتعهد لهم بضمان سلامة قوافلهم وبضائعهم وبحراستها في المدينة، فوثق به التجار، وبدءوا بإرسال البضائع إلى المدينة، فرخصت الأسعار وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي.

وتوزع أقرباء أبي القاسم الأعمال والإدارات فصار الحكم والسلطان في المدينة للحسينيين، وانكسر الحسنيون بعد مقتل موسى، وخرج بعضهم من المدينة، وكمن بعضهم الآخر يتربص الفرصة للثأر واستعادة السلطة..

وفي بغداد كان الخليفة المعتمد مشغولاً بمواجهة الفتن الكثيرة، وبخاصة فتنة الزنج ، فطلب من أخيه أبي أحمد، الذي ولاه إمرة الحرمين، أن يتفرغ نهائياً لقتالهم، وكان أبو أحمد قد سافر إلى مكة فاستقدمه منها وعقد ولاية الحرمين لمحمد بن أبي الساج، وأمره بالتوجه إليها.

جاء محمد بن أبي الساج في أواخر عام ٢٦٦هـ، ورأى الأمور في يد الحسينيين فتسلمها منهم، وأقام في مكة، ووضع نائباً عنه في المدينة اسمه الحارث بن سعد، فقام الحارث بجهود ضخمة لضبط الأمن في المدينة

وضواحيها، والقبض على المفسدين، وكان بعض الطالبيين الذين لم تتح لهم فرصة المشاركة في الإدارة قد ثار، وبدأ يغير على القوافل والمسافرين، فتتبعهم الحارث أيضاً، وقبض على محمد بن الحسن بن محمد بن إبراهيم في ميناء الجار وحبسه حتى مات، وكان محمد هذا من المجاهرين بالمنكرات والقتل (١). وقبض على أحمد بن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن وحبسه في دار الإمارة بالمدينة حتى مات(٢)، ونجح الحارث في توفير الأمن والأمان مدة ولايته على المدينة، واختفت الصراعات بين الطالبيين إلى حين.

وفي عام ٢٦٩ هـ عين الفضل بن العباس العباسي نائباً عن ابن أبي الساج في إدارة المدينة فتفجرت الصراعات بين الطالبيين مرة ثانية، لأن الفضل بن العباس انحاز إلى الحسنيين، واصطدم مع الحسينيين..

ويلوح لنا من الإشارات القليلة أن الحسينيين قد تورطوا في خلاف مع نائب المدينة الفضل بن العباس العباسي في سنة ٢٦٩هـ وأن أمراً قد زاد من حدة الخلاف بينهم وبين أبناء عمومتهم، ووقع الصدام، وحاول الحسينيون السيطرة على المدينة كلها، وتم لهم ذلك أول الأمر، وقبضوا على نائب الأمير الفضل بن العباس العباسي ولكن الحسنيين قاوموهم بشدة، ثم حملوا عليهم حملة قوية. وسقط عدد كبير من القتلى، عد الأصفهاني منهم ثمانية عشر حسنياً، ثمانية منهم قتلوا دفعة واحدة على يد محمد بن الحسن بن جعفر بن موسى، وتسعة عشر حسينياً(٣). وانتصرالحسنيون آخر الأمر، وأنقذوا الفضل بن العباس. ونزح عدد من الحسينيين من المدينة(٤).

لم تستقر الأوضاع في المدينة بعد انتصار الحسنيين، وأخذ الحسينيون

---

١) ابن خلدون ٤ / ١٤٥ -

٢) مقاتل الطالبيين ص ٦٧٢

٣) أنظر مقاتل الطالبيين ٧١٦ - ٧١٩ -

٤) الطبري ٦/٦٢١-.

يترقبون فرصة لينتقموا منهم، وبدت آثار هذا الترقب في حياة المدينة المنورة، فقد هجرها عدد من أهلها خشية تفاقم الفتنة، وكان كثير من الطالبيين الذين نذروا أنفسهم للعلم والعبادة يكرهون مايحدث على أيدي سفهائهم، فخرج بعضهم، واعتزل بعضهم الآخر الناس ، يمضي جل نهاره بين بيته والمسجد النبوي.

طالبيون منحرفون يقلقون المدينة :

قدر للمدينة أن تشهد أحداثاً مفجعة أخرى على يد أناس قادمين من خارجها.. فمنذ حركة محمد المهدي كان عدد من الطالبيين يخرج إلى ريف الحجاز، ويوغل بعضهم فيه إيثاراً للسلامة وتجنباً للصدام مع العباسيين، وقد ظل محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن عشر سنوات في ذلك الريف لاتصل إليهم يد الدولة، وخرج أخوهم موسى الجون بعدهما، وعدد من أبنائهم في الأجيال التالية، وعاشوا في تلك المناطق..

وبمرور الزمن ظهر بعض الطالبيين المختلفين عن أسلافهم في سلوكهم، وانحرف عدد منهم لأسباب كثيرة متداخلة منها: تأثرهم بالبيئة البدوية القاسية، وإحساسهم بعراقة النسب إحساسا خاطئاً يدفعهم إلى الإستعلاء والمطالبة بالسيادة المطلقة، وحقدهم على العباسيين لأنهم -في نظرهم- اغتصبوا حقهم المطلق في الخلافة، وقلة العلم، وخاصة العلم الشرعي الذي يعطيهم مقاييس التمييز الصحيح بين الحلال والحرام، والخطأ والصواب، وقد ارتكب هؤلاء المنحرفون جرائم فاحشة، فقتلوا وسلبوا وأقلقوا المدينة، وآذوا أهلها، وسفكوا فيها الدماء، ونهبوا الأموال، وأمعن بعضهم في الفساد فطاردتهم القبائل المحيطة بالمدينة ، كقبائل بني مالك الجهنية، وطيئ وسالم

وقتلت عدداً منهم(١).

ومن أولئك المنحرفين محمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن الذي تحول إلى قاطع طريق، يتربص بالقوافل المتجه إلى المدينة والخارجة منها، وبالحجاج والمسافرين، وقد هاجم مع رجاله المدينة ونهبوا بعض الأموال والأرزاق وأخافوا الناس حتى تعطلت الصلوات في المسجد النبوي(٢).

ومنهم السفاك الذي سفك الدماء في مكة والمدينة وحاربه أهل المدينة، وفي مقدمتهم الهاشميون المقيمون في المدينة، وقَتل السفاك -كما رأينا- عدداً من الهاشميين، فلم تعد القضية قضية ثورة ومبادئ لدى هؤلاء بل أصبحت انحرافاً وجريمة.

ومنهم أيضا محمد وعلي ابنا الحسين بن جعفر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، اللذين فجعت بهما المدينة في شهر صفر من عام ٢٧١هـ فقد فاجآها ومعهما عدد كبير من أتباعهما، وكانت المدينة تعيش جو التوتر، وتتوقع الصدام بين الحسينيين والحسنيين، ولم تكن للإمارة قوة قادرة على ضبط الأمن، لذا دخلت جموع الغزاه شوارع المدينة بأسلحتها، وبدأت ببيوت الطالبيين، فنهبتها، وقتلت عددا من أصحابها، ثم تحولت إلى بيوت بعض الموسرين فنهبتها، وقصدت الإمارة وقتلت الجنود الذين حاولوا الدفاع عنها، ونهبت الأموال التي وجدتها، ولم يجرؤ أحد على التصدي لهم لما رأوه من سفكهم للدماء، وهرب الأمير الفضل بن العباس، ولزم الناس بيوتهم، وأغلقت الأسواق والدكاكين بعدما نهب الغزاة عدداً منها.

انتشر الفزع في أهل المدينة، وخلت الشوارع والأسواق، وانقطعت الصلاة

---

١) انظر مقاتل الطالبيين ص ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨.

٢) أنظر : مقاتل الطالبيين ٦٠٥ وابن خلدون ١٤٥/٤.

في المسجد النبوي، حتى صلاة الجمعة التي كان الساكنون في ضواحي المدينة كقباء والقبلتين يحضرونها انقطعت أيضاً، وظل الغزاة يجوبون شوارع المدينة ويعيثون فساداً أربعة أسابيع متوالية، وساد المدينة جو من الإرهاب، وخرج منها عدد من أهلها إلى أقاربهم في الأرياف والمدن الأخرى، فلم يحدث في تاريخها أن استمر الإرهاب فيها وعطلت الصلاة في المسجد النبوي كل تلك المدة الطويلة.

وأخيراً خرج الغزاة حاملين معهم مانهبوه تتبعهم لعنات أهل المدينة(١) ولم يذكر المؤرخون عدد الضحايا الذين أزهقت أرواحهم، ولا حجم الخسائر التي مني بها أهل المدينة، ولكننا نستنتج من حالة الذعر التي صوروها، وإحجام أهل المدينة عن المقاومة، أن عدد الضحايا كان كبيرا، وأن الخسائر كانت ضخمة.

والمدهش ألا يهب أحد من خارج المدينة لنصرتها، مع أن الغزاة مكثوا فيها أربعة أسابيع، وهي مدة كافية لانتشار الخبر ووصوله إلى مكة وبغداد، ورغم خروج الغزاة من المدينة وعودة أميرها إليها فقد ظل أهلها خائفين من عودتهم، أو ظهور غزاة آخرين.

استمر الأمر على هذا الحال إلى شهر رمضان من العام نفسه، حيث وصلت الأخبار أن الخليفة عقد الولاية لأحمد بن محمد الطائي على مكة والمدينة والطريق من بغداد إليهما، ليعيد الأمن إلى هذه المنطقة، بعد ماعاث المفسدون فيها، وأصبح الحجاج والمسافرون والقوافل في خطر شديد..

الأمن يعود الى المدينة:

وجاء أحمد بن محمد الطائي إلى المدينة أواخر رمضان عام ٢٧١هـ، ومعه حملة كبيرة، ووزع الجند في أطراف المدينة لمراقبة المفسدين وضربهم أول تحركهم، وبث العيون لرصد المنحرفين والمفسدين خارج المدينة ومعرفة

---

١) الكامل ٦/٥٧.

أماكن تجمعهم، ثم خرج بعدد كبير من جنوده اليهم، وعثر على بعضهم فقتلهم شر قتلة، وفر الباقون إلى البادية، وأرسل جنوده على امتداد الطريق بين مكة والمدينة وطريق بغداد، فضرب القبائل التي تعرضت للحجاج والقوافل، ونظم سير القوافل الحجاج والمسافرين، وكلف مجموعات من جنوده بمرافقتهم إلى المدينة ومكة، واستمر جنوده في حركة دائبة طوال أشهر قدوم الحجاج وعودتهم.

ودخلت السنة الثالثة والسبعون بعد المائتين والمدينة المنورة تنعم بالأمن والطمأنينة، وعاد الذين رحلوا منها في فترة القلق إليها، وصلح أمر المدينة وعمرت(١).

وخلف الطائي هارون بن محمد الهاشمي، الذي سار على نهج سلفه، وامتدت إمارته من ٢٧٦ الى ٢٧٩هـ وشملت منطقة الحجاز كلها، حيث ضمت إليه مكة والطائف، وكان يقود مواسم الحج، ويكثر الإقامة في مكة، وينيب عنه في إمارة المدينة المنورة أحد موظفيه من الحسينيين المقيمين فيها، وشهدت هذه الفترة وفرة في الأموال، فالاستقرار الذي تحقق أتاح للناس تنشيط أعمالهم الزراعية والتجارية والصناعية، والقوافل التي أصبحت طرقها آمنة توالت على المنطقة تحمل منها وإليها البضائع المختلفة، وظهر مصدر دخل خارجي جديد يشبه عطاءات الخلفاء قديماً، هذا المصدر هو الإمارات العلوية البعيدة، فقد تمكن بعض الطالبيين الذين فر أجدادهم من العباسيين من إقامة إمارات في طبرستان والمغرب، وقويت تلك الإمارات وبدأت تتسع في المناطق المجاورة لها، وعندما تمكن الملك فيها للعلويين بدؤوا يرسلون الأموال لأقربائهم في المدينة، وراسلوهم واستقدموا بعضهم فرحل إليهم من رحل،

---

١) أنظر الطبري ١٠/١١-

ومن بقي في المدينة وصلته الهدايا والأموال مع الحجاج والمسافرين(١) فتكاملت عوامل الإستقرار والطمأنينة في حياة المدينة المنورة في تلك الفترة، أمن داخلي، وأموال وافرة، وسنوات خصبة.

وتزداد قيمة هذا الاستقرار إذا قارنا المدينة بما حولها في ذلك الوقت، ففي الوقت الذي كانت المدينة تنعم فيه بالاستقرار كان القرامطة يعيثون فساداً في نجد والأحساء، وتصل غاراتهم إلى البصرة والكوفة، حتى إن القوافل كانت تعدل إلى المدينة لأن طريقها أكثر أمناً من طريق الكوفة - مكة(٢)..

المدينة المنورة والطولونيون : أول ارتباط بمصر:

قامت الدولة الطولونية في مصر، على يد مؤسسها أحمد بن طولون، ففي عام ٢٥٦هـ عقد الخليفة المعتمد ولاية مصر لأحد قادته العسكريين الكبار ويدعى بارجوخ، المقيم معه في بغداد، فأناب بارجوخ صهره أحمد بن طولون للقيام بالولاية، فقام بها، وقويت سلطته، وفي عام ٢٥٩ توفي بارجوخ وكانت مصر مستقرة بيد ابن طولون فثبته الخليفة والياً عليها، وفي عام ٢٦٩ حاول الخليفة -بضغط من أخيه الموفق- أن يخلع ابن طولون، فامتنع ابن طولون وأرسل جيوشه لقتال أنصار العباسيين في بلاد الشام، كما أرسل جيشاً إلى الحجاز لينتزعها من العباسيين، واتجه الجيش الطولوني إلى مكة واصطدم مع القوات العباسية في موسم الحج وهزم، وعادت فلوله إلى مصر بعد أن دفعت مئتي ألف دينار لعساكر العباسيين، ولم يمر الجيش الطولوني بالمدينة(٣) وحاول ابن طولون بعد ذلك أن يمد نفوذه إلى المدينة ومكة ولكنه لم يوفق، وخلفه ابنه خمارويه الذي أصلح العلاقة مع العباسيين، وزوج ابنته قطر الندى

---

١) الكامل ٦/٨٠ -.

٢) الكامل ٦/١١٦ -.

٣) الكامل ٦/٤٩ -.

للخليفة المعتضد بالله، فعقد له المعتضد بالله الولاية على المنطقة الممتدة من شاطئ الفرات إلى برقة في ليبيا، وتشمل هذه المنطقة بلاد الشام والحجاز ومصر وجزءاً من ليبيا، فدخلت المدينة -فيما دخل- في سلطة الدولة الطولونية، وذلك عام ٢٧٩هـ(١).

وكانت سلطة الطولونيين على الحجاز اسمية لاتتعدى الخطبة على المنابر، أي ذكر الأمراء الطولونيين والدعاء لهم بعد ذكر الخليفة العباسي.. ولم يكن لهم جيش في المنطقة، ولم يكونوا يعينون أمراء المدن، فقد شغل خمارويه بحروبه حتى وفاته عام ٢٨٢هـ، وخلفه ثلاثة من أبنائه على امتداد عشر سنوات تالية مليئة بالمشاحنات والقتال، وانتهى أمر الدولة الطولونية عام ٢٩٢هـ(٢).

لذا لم يتغير شئ في حياة المدينة المنورة طوال ولائها الاسمي للطولونيين، وظل أمراؤها المحليون يديرون أمورها. والشئ الوحيد الذي جد فيها -إضافة الى ذكر إسم الطولونيين على المنابر- هو الأموال التي أرسلها خمارويه مع وفود الحج لتوزع على أهالي الحرمين، لذا فقد سارت الحياة في المدينة هادئة، بسيطة إلى نهاية القرن الثالث الهجري، وكما دخلت المدينة في ولاء الطولونيين بهدوء، خرجت بهدوء مماثل عندما انتهت الدولة الطولونية، فقطعت الخطبة لهم على المنابر، ولم يعد الخطيب يذكر أسماء أمرائهم..

ولم يترك الطولونيون أي أثر يذكر في حياة المدينة المنورة، رغم أن العلاقة معهم هي أول علاقة رسمية بمصر، ومقدمة لارتباط سيقوم بعد ذلك ويستمر طويلا على نحو ما سنرى في صفحات قادمة..

---

١) أنظر الكامل ٧٣/٦ - ٧٥ -.

٢) انظر : شاكر ١٠٥/٦-

سنوات الوفاق بين الطالبيين:

والجدير بالذكر أن الخلافات التي استمرت بين الحسنيين والحسينيين في النصف الأول من هذا القرن قد هدأت في الفترة الطولونية، واستمرت هادئة بعدها أكثر من عقدين من الزمن..

فقد توصل الفرعان الطالبيان المتنافسان الى مهادنة حقنت الدماء وحفظت للمدينة أمنها واستقرارها، ويذكر ابن خلدون أنه عندما دخلت المئة الرابعة للهجرة كانت الخطبة بالمدينة للخليفة العباسي المقتدر، وكانت الرئاسة فيها تتردد بين بني حسين وبني جعفر (بني حسن)(١) وأكبر الظن أنه كانت للخلافة العباسية أثر في هذا الوفاق، أو على الأقل في تثبيته واستمراره، فالخليفة المقتدر الذي تولى الخلافة ربع قرن من الزمن من ٢٩٥-٣٢٠هـ كان يحسن إلى الطالبيين ويقربهم، وقد نظمت في عهده أمورهم، وصار لهم نقيب يحضر، مع كبار الطالبيين في بغداد، مجالس الخليفة، ويشهد التولية والعزل، وصارت لهم كلمة مسموعة واحترام كبير، ولا نستبعد أن يتدخل رجال الخليفة والمتنفذون في بغداد، ولاسيما الطالبيون، في تنظيم أمور الطالبيين في المدينة، ومناوبة الرئاسة بينهم وتوزع الوظائف عليهم.. وقد لقيت المدينة طوال عهد المقتدر عناية حسنة، ووصلتها أموال وافرة وزعت على أهاليها، وأوقفت لها عقارات وضياع كثيرة(٢).

المدينة واحة الأمن:

وبينما كانت الأحداث الدامية تعصف بمناطق من الحجاز ونجد والعراق والشام، كانت المدينة واحة الأمن والسكينة حتى القرن الرابع الهجري..

ففي مكة ثار محمد بن سليمان بن داود بن حسن بن الحسن بن علي وخلع طاعة العباسيين وأنشأ الدولة الهاشمية الأولى..

---

١) ابن خلدون ٤/١٣٩-

٢) انظر : البداية والنهاية ١١/١٣١-

وفي نجد والاحساء والبحرين كان القرامطة يعيثون فساداً ويغيرون على القوافل والقرى الآمنة ويقتلون ويسلبون، وقد زحفوا إلى مكة، ثم دخلوها عام ٣١٧هـ وسفكوا الدماء وقتلوا الحجاج في المسجد الحرام، وقبضوا على الأمير الهاشمي وحاشيته وقتلوهم خارج مكة وأنهوا الدولة الناشئة..

وفي المنطقة بين مكة والمدينة كان بنو سليم وبنو هلال يغيرون على القوافل وبعض القرى ينهبون ويقتلون، لكنهم لم يدخلوا المدينة..

ونجد في بعض الكتب التاريخية إشارة الى ثورة رجل علوي في المدينة عام ٣٢٩هـ فقد..((خرج الناس للحج ثم رجعوا أثناء الطريق، بسبب رجل من العلويين قد خرج بالمدينة وخرج عن الطاعة))(١). وهذه الاشارة الضنينة تزيدنا بلبلة، فمن هو العلوي الثائر في المدينة؟ ولماذا أغفل المؤرخون اسمه؟ وما حجم ثورته؟؟ ولم امتنع الناس عن الحج والثورة في المدينة؟ هل امتد سلطانه فشمل المدينة ومكة؟ ثم ان مكة والمدينة شهدتا ثائرين كثيرين من قبل ولم ينقطع الحج أيام ثورتهم، فما الجديد في هذا الثائر؟ ومتى انتهت ثورته؟ وكيف انتهت؟

أسئلة كثيرة لاإجابة لها، تجعلنا نشك في صحة الخبر، ونعتقد أن الأمر قد اختلط على رواته الأوائل قبل أن يصل الى المؤرخين الكبار، فخلطوا بين القرامطة والثائر العلوي، وبين المدينة وطريق المدينة..

فالثابت أن المسلمين في الآفاق قد انقطعوا عن الحج عدة سنوات بعد المجزرة الرهيبة التي ارتكبها القرامطة في المسجد الحرام عام ٣١٧هـ، وأن القرامطة دأبوا على قطع الطريق قبل ذلك وبعده، والراجح أن مجموعة منهم هددت الطريق المؤدية إلى مكة من أكثر من جهة في ذلك العام، وبخاصة من جهة طريق المدينة.. فعاد الذين خرجوا إلى الحج لما وصلتهم الأخبار. وليس لدينا أي خبر يقيني عن قيام ثورة في المدينة أو دخول القرامطة إليها سنة

---

١) الكامل ٦/٢٨١ - البداية والنهاية ١١/٢١٣-

٣٢٩هـ. وقد سكت المؤرخون عن تلك الفترة في حياة المدينة، ولم يذكروا شيئاً عنها، حتى أسماء أمرائها أو القائمين بإدارتها لانعرف شيئاً عنهم، وليس لنا سوى أن نتوقع استمرار الأمر على ماكان عليه في العقدين السابقين، فلم تتعرض المدينة لهجمات القرامطة، ولا للصراع المستمر بين المتنفذين والطامعين في الامارات في مكة والشام ومصر واليمن، وكانت الأسرتان المتنافستان على السلطة في المدينة -الحسينيون والحسنيون- في هدنة مستمرة أيضاً، تتناوبان على الوظائف -كما أشار ابن خلدون- وتنمو المنافسة بينهم تحت الرماد إلى أن تصل لحظة الانفجار كما سنرى بعد قليل.

المدينة المنورة والدولة الاخشيدية:

في بداية العقد الرابع من القرن الهجري الرابع دخلت المدينة المنورة في سلطة الدولة الاخشيدية وذلك عام ٣٣٠هـ، وكان دخولها هذا بداية مرحلة جديدة في حياة المدينة، مرحلة صراع بين الخلافة العباسية ومنازعيها، ينتقل فيها ولاء المدينة المنورة ومكة المكرمة من جهة إلى أخرى أكثر من مرة، وكانت سلطة الأخشيديين على الحجاز اسمية لاتتعدى ذكر اسم الحاكم الأخشيدي على المنابر بعد اسم الخليفة والدعاء له، وظلت هذه السلطة الاسمية إلى نهاية الدولة الاخشيدية عام ٣٥٧هـ، وقابل الاخشيديون هذا الولاء الاسمي بأموال وافرة أرسلوها الى أمراء المدينة.(١).

---

١) تنسب الدولة الاخشيدية لمؤسسها الأخشيد محمد بن طغج أحد القادة العسكريين في الجيش العباسي ، كلف بملاحقة القبائل التي تتعرض للحجاج القادمين من العراق والشام ، ولاسيما قبائل لخم وجذام ، فقام بمهمته خير قيام ، واشتهر أمره . ولما هدد الفاطميون مصر عام ٣٢١ هـ أرسل لصدهم ، فاستمر هناك الى عام ٣٢٤ هـ ونجح في مهمته أيضاً ، وكافأه الخليفة بولاية مصر والشام ، ودعي له على منابرها ، ونجح في ضبط أمور مصر المضطربة. وفي عام ٣٢٨ هـ غضب عليه الخليفة ، وأرسل جيشاً بقيادة ابن رائق لإخراجه ، فتصدى له الأخشيد بجيشه ، ووقعت معركة عند العريش وانهزم جيش ابن

وفي عهد كافور الاخشيدي قويت العلاقة بين المدينة ومصر، بسبب أحد الحسينيين المقيمين في مصر وهو محمد بن عبد الله بن طاهر بن يحي بن الحسن الملقب بمسلم، وكان محمد هذا صديقاً لكافور، وكان يدبر أمره، ولم يكن بمصر لعصره أوجه منه(١) واستطاع أن يضاعف اهتمام كافور بالمدينة ويزيد عطاياه لأهلها، وباستثناء الولاء الاسمي والأموال الاخشيدية لانجد اية أثار أخرى لارتباط المدينة المنورة بالدولة الاخشيدية، فلاهم يعينون أمراءها، ولا يتدخلون في شيء من شؤونها، وعندما انفجر الصراع فيها بين الحسينيين والحسنيين لم يستطع الاخشيديون أن يفعلوا شيئاً، وانتهت العلاقة بين المدينة والاخشيدين بهدوء كامل مثلما بدأت، فقطع ذكرهم على المنابر بعد سقوط دولتهم عام ٣٥٧هـ..

انفجار الصراع بين الحسينيين والحسنيين في المدينة:

كان التنافس بين الفرعين الطالبيين: الحسينيين والحسنيين ينمو شيئاً فشيئاً منذ العصر الأموي، وقد بدأ بالخلاف على إدارة الأملاك الموقوفة لذرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والتي يشترك فيها الفرعان، وكاد الصدام أن يقع في إمارة محمد بن هشام بن اسماعيل لولا أن عبد الله بن الحسن بن الحسن أدرك أن الأمير آنئذ يعمل على تأجيج الصراع لإشغال الفرعين الطالبين ببعضهما وصرفهما عن التفكير بالخلافة، فتصالح مع أبناء عمه..

وقد مر الفرعان الطالبيان بعد ذلك بمحن كثيرة، وقتل عدد من رجالهما

رائق ، وظل الأخشيد حاكماً لمصر وحكم ابن رائق الشام ، ووقع صدام أخر عام ٣٣٠ هـ قتل فيه ابن رائق واستعاد الأخشيد الشام ، واضطر الخليفة للاعتراف بالامر الواقع وتثبيت الأخشيد والياً على مصر والشام وضم إليه الحجاز ، كانت سلطة الأخشيد على مصر والشام فعلية ، وكانَ يعين نوابه لادارة مدنها ، أما الحجاز فكانت سلطته عليها اسمية . أنظر محمود شاكر ١٣٨/٣ ـ ١٤٠ ، والكامل ٢٨٤/٦

١) ابن خلدون ١٤٠/٤.

في ثورة محمد المهدي وأخيه ابراهيم وبعض أحفاده، وكانت إصابات الحسينين أكثر من اصابات الحسنيين لأنهم كانوا يتزعمون الخروج والثورة غالباً، وقد ساعدت هذه المحن الفرعين الطالبيين على تجاوز خلافاتهما مدة من الزمن..

وعندما عمت السكينة المدينة المنورة ظهرت الخلافات ثانية، وتجاوزت التنافس على ادارة أملاك الوقف إلى التنافس على السيادة، فقد شغلت الخلافة العباسية بالصراعات الكثيرة بين العسكريين عن أمر المدينة، وأصبحت السيادة فيها قضية يتجاذبها الحسينون والحسينيون، معتمدين على قوتهم حيناً، وعلى دعم بعض رجال الخليفة في بغداد حيناً آخر، ونجح رجال الخليفة الواثق في توزيع السيادة بين الطرفين مدة من الوقت ، بعد أن نجحوا في تنظيم أمور الأشراف ونقابتهم، وظل الوفاق بين الطرفين أكثر من عشرين سنة بعد الخليفة الواثق..

وعندما بدأت السيادة الاسمية للاخشيديين على المدينة المنورة عاد الاضطراب بين الحسنيين والحسينين، وكان محمد بن عبد الله بن طاهر المقرب من كافور حسينياً، فاستشعر الحسينيون بعض القوة، وربما خص فرعه بمزيد من الأموال فتعززوا بها.

واشتد الاضطراب وتحول إلى صدامات متفرقة هيأت للانفجار الكبير والحرب الدامية بين الفرعين الطالبيين عام ٣٤٨هـ. ومن المؤسف أن المؤرخين لم يسجلوا أحداث هذه الحرب، ولا أسبابها المباشرة، بل لانجد أية إشارة إليها عند ابن كثير وابن الأثير أعرق من أرخ لهذه الفترة، إنما نجد اشارات مقتضبة في تاريخ ابن خلدون والمقريزي..

أما ابن خلدون فإشارته أقرب إلى الإبهام، فهو يقول في إيجاز شديد خلال حديثه عن أحداث المئة الرابعة للهجرة:

(ترددت ولاية بني العباس عليها (أي المدينة) والرياسة فيها بين بني

حسين وبني جعفر (أي بني الحسن)، إلى أن أخرجهم بنو حسين، فسكنوا بين مكة والمدينة، ثم أجلاهم بنو حرب من زبيد إلى القرى والحصون، وأجازوهم إلى الصعيد، فهم هنالك إلى اليوم، وبقي بنو حسين بالمدينة إلى أن جاءهم طاهر بن مسلم من مصر) (١).

وأما المقريزي فيذكر أن المعز لدين الله الفاطمي عندما كان في المغرب علم بالفتنة التي وقعت بين العلويين والجعفريين (الحسينيين والحسنيين)، فأنفذ رجالاً ومالاً سراً، وسعوا بين الطائفتين فأصلحوا بينهما وتحملوا الحمالات عنهم، ويذكر أن قتلى العلويين زادوا عن قتلى الجعفريين سبعين رجلاً، فتحمل المعز دياتهم، وعقد الصلح، ويؤرخ لهذه الواقعة بعام ٣٤٨هـ(٢)

ولئن كان قتلى الحسينين أكثر من قتلى الجعفريين بسبعين رجلاً، فكم كانت حصيلة الموقعة من الطرفين؟؟ وكيف انتصر الحسينيون آخر الأمر؟ وهل أخرجوا الحسنيين قبل الصلح ولم يسمحوا لهم بالعودة بعد ذلك أم حدثت موقعة تالية كانت الفاصلة؟؟، أسئلة كثيرة مازلنا ننتظر اجابتها من صفحات التاريخ المطوية في مخطوطات لم تحقق بعد...

والى ذلك الحين يمكنا أن نرسم صورة ظنية، نلتقط أجزاءها من الاشارات المتناثرة، ونصل بينها بما يقبله العقل والمنطق..

فالمتوقع أن الخلافات بين الفرعين الطالبيين بلغت ذروتها في ذلك العام، وتحولت إلى صدام دموي، سقط فيه عدد كبير من القتلى لايقل عن مئتي قتيل، أكثرهم من الحسينين، ولكن الحسينيين تغلبوا على الحسنيين آخر الأمر وأجلوهم عن المدينة، وربما استعدوا للفتك بهم والثأر لقتلاهم الكثيريين، غير أن رسل المعز لدين الله الفاطمي جاءت من المغرب، وسعت

---

١) ابن خلدون ٤/١٣٩-

٢) انظر : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الحنفا ١/١٠١

بين الفريقين بالصلح، فوافق الحسينيون على أخذ ديات القتلى، ولم يرجع الحسنيون إلى المدينة، وطبيعي أن معركة يسقط فيها هذا العدد الكبير من الرجال ستخلف بالمدينة دماراً كبيراً.

وقد امتدت شرارة الفتنة إلى مكة، فاصطدم الحسنيون والحسينيون المقيمون فيها، ووقع عدد من الضحايا لانعرف عددهم(١) واستطاع الفاطميون أن يطفئوها كما أطفؤها في المدينة، وكان للتدخل الفاطمي أثر كبير في نفوس الطالبيين في مكة والمدينة فقد قارب بينهما، وهيأ الطالبيين للارتباط بالفاطميين بعد ذلك..

---

١) ابن خلدون ١٣٠/٤ -.

المدينة والدوله الفاطميه

بعد خروج الحسنيين من المدينة استقرت الإمارة للحسينيين فيها، ولا نعرف أسماء الأمراء الذين تولوا إدارتها، فلم تذكرهم كتب التاريخ، ولم تذكر لهم منجزات مهمة، لأكثر من عشر سنوات.

وفي المغرب كان المعز لدين الله الفاطمي يتطلع إلى الشرق، ويطمح في أن يمد نفوذه إلى مصر والحجاز والشام وينافس الخلافة العباسية أو يلغيها ويحل محلها، واستطاع قائده جوهر الصقلي أن يمد سيطرة الدولة الفاطمية شرقاً، وهدد مصر عدة مرات، ثم نجح في احتلالها وتخليصها من أبناء الاخشيد بعد موت كافور، وذلك في عام ٣٥٨ هـ، وأعلن الخلافة الفاطمية فيها.

وفي الحجاز فرح الطالبيون بإعلان الخلافة الفاطمية في مصر، وقام أحد رجال الفرع الحسني بالاستيلاء على امارة مكة وطرد واليها العباسي، وخطب في المسجد الحرام معلناً ولاءه للمعز الفاطمي(١) وكتب بذلك إلى جوهر الصقلي في مصر، وكان الحسينيون يديرون إمارة المدينة، فجاروا أبناء عمهم وأعلنوا على منبر المسجد النبوي خلع طاعة العباسيين وتحويل الولاء إلى الفاطميين، وأرسلوا رسولا بذلك إلى مصر أيضاً، فأرسل جوهر الصقلي إلى المعز في المغرب يبشره بما حدث، ويدعوه الى نقل عاصمته الى

---

١) انظر: اتعاظ الحنفا ١٤٥/١ ، والتاريخ الإسلامي ٢٣٧/٤

مصر(١).

سر المعز الفاطمي بمبايعة المدينتين المقدستين سروراً بالغاً، لأنها تعطيه مكانة كبيرة ينافس بها الخليفة العباسي، وينشر اسم دولته في الآفاق الإسلامية. وأرسل قافلة من الهدايا القيمة والأموال الجزيلة لتوزع على أهل الحرمين(٢). وقد وجدت في تركته بعد وفاته قطعة نسيج ثمينة أمر بصنعها عام ٣٥٣هـ كتبت عليها عبارات تدل على تطلعه الى الحرمين قبل أن يمتد سلطانه إليهما، والقطعة أشبه بلوحة فنية منسوجة من الحرير الأزرق ومحبوكة بأسلاك من الذهب، عليها صورة أقاليم الأرض بمدنها وجبالها وبحارها وأنهارها الواسعة، وفيها صورة للمدينة ومكة، وقد تكلف صنع القطعة اثنين وعشرين ألف دينار(٣).

بدت آثار الولاء الجديد في المدينة المنورة من خلال المظاهر العامة، فقد أنزلت الرايات السوداء ورفع مكانها رايات بيضاء على الإمارة ومنائر الحرم، وقطعت الخطبة للخلفاء العباسيين وحولت إلى الفاطميين، أما ما سوى ذلك فلم يتغير شيئ في حياة المدينة، لم تتغير إدارة المدينة، وظل الأمير الحسيني -الذي لم تذكر كتب التاريخ اسمه- في مكانه، وظلت الإدارة على حالها.. ولم يكن للعباسيين وجود عسكري في المدينة لذا لم تحدث أية صدمات أو قلاقل نتيجة لتغيير الولاء..

وقد أكرم الفاطميون أهل الحجاز بعامة، وأهل المدينة بخاصة، وأغدقوا عليهم الأعطيات، وفي عام ٣٦٤هـ توجه وفد من أهل المدينة وأهل مكة إلى المعز الفاطمي في مصر، وكان قد انتقل إليها، فلقي الوفد حفاوة كبيرة ونال

---

١) السابق١/١٧٢

٢) السابق ١/١٠١-

٣) انظر السابق ١/٢٩٢ - ٢٩٣ -

أعطيات سخية بلغت أربعمائة ألف درهم وهدايا أخرى قيمة(١)٠

وقد تجاوب أمير المدينة، أو أمراؤها، طوال فترة حكم المعز مع الدولة الفاطمية في كل مايطلبه الفاطميون، فكان خصوم الفاطميين لايجرؤون على الظهور في الحجاز خشية القبض عليهم ومعاقبتهم أو تسليمهم للفاطميين، وكانت الكتب تأتي من مصر الى أمير المدينة، وأمير مكة، بمن يطلبه الخليفة الفاطمي(٢) وكانت الرايات البيضاء ترفع في موسم الحج في عرفة، يتقدمها أمراء مكة والمدينة، ورغم أن أمراء المدينة من الفرع الحسيني وأمراء مكة من الفرع الحسني، وبينهما ذكرى وقعة سنة ٣٤٨هـ وطَردِ الحسنيين من المدينة، رغم ذلك فان الولاء للفاطميين قد جمع بينهما، وأوقف المشاحنات. وقد ظل هذا الولاء مدة خلافة المعز..

المدينة تحول ولاءها إلى العباسيين:

وفي عام ٣٦٥هـ توفي المعز لدين الله الفاطمي وخلفه ابنه العزيز، فأوقف أمير المدينة الخطبة لهم وأعادها للعباسيين وأنزل الرايات البيضاء ورفع الرايات السوداء!! وكذلك فعل أمير مكة الحسني..

ولايذكر المؤرخون سبباً لهذا التحول المفاجئ، رغم أن الفاطميين أقرب للطالبيين إنتساباً وفكراً، فهل كان الأمر خلافاً شخصياً مع العزيز بالله؟؟ ام أن العباسيين استطاعوا أن يستعيدوا نفوذهم في مكة والمدينة بطريقة غير عسكرية؟ فلا يذكر المؤرخون أية صدمات أو جيوش قدمت من بغداد..

فكيف تم التحول؟؟ ولماذا؟٠

لانجد في كتب التاريخ أية إجابة على هذه الأسئلة، لذلك نقدر أن هذا التحول يشبه التحولات التي حدثت فيما بعد، وهي تحولات من الولاء للعباسيين إلى خصومهم وبالعكس.. تمت جميعها ببذل المال والهدايا لأمراء

---

١) اتعاظ الحنفا ١/٢١٦-

٢) انظر السابق ١/٢٠٤-

مكة والمدينة.. كما سنرى في صفحات قادمه.

صدام مع الفاطميين:

غضب العزيز بالله الفاطمي لخروج المدينة ومكة من الولاء الفاطمي، فأرسل جيشاً بقيادة باديس بن زيري الصنهاجي لاستعادتهما، ووصل الجيش إلى مشارف المدينة المنورة أواخر عام ٣٦٧هـ. ولم يكن في المدينة قوة تدافع عنها وتمكنها من مواجهة الجيش المهاجم، فأرسل الأمير الحسيني لقائد الجيش يطلب المفاوضة والصلح كي لايتعرض أهل المدينة لبطش المهاجمين، فطلب القائد الفاطمي إعلان الولاء للفاطميين، وإعادة الرايات البيضاء وخلع السوداء، فاستجاب الأمير الحسيني مقابل عدم إلحاق الأذى بالمدينة وأهلها، وتم الاتفاق، ودخل الجيش المدينة المنورة سلماً، وأنزل السواد ورفعت الرايات البيض، وخطب للفاطميين وحدهم على المنبر، ومكث الجيش في المدينة بضعة أيام، ثم خرج منها إلى مكة..

ربح الفاطميون ولاء أهل المدينة الاسمي، ولكنهم لم يربحوا قلوبهم، فلم يصمد هذا الولاء، ولم يطل، وانقلب بعد أقل من عام بفضل عاملين متكاملين هما: تسلم حسيني مناوئ للفاطميين إمارة المدينة، وحسن تصرف العباسيين..

أما الحسيني المناوئ للفاطميين فهو طاهر بن مسلم، الذي قدم من مصر هارباً من الفاطميين، وهو ابن عبد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن الذي كان مقدماً عند كافور الأخشيدي، وكان له الفضل في إرسال الأموال والعطايا للمدينة آنئذ، وله الفضل أيضاً في استقرار الحسينيين في المدينة بعد معركتهم مع الحسينين..

ويذكر ابن خلدون أن المعز لدين الله الفاطمي عندما جاء إلى القاهرة أراد أن يتقرب من مسلم، لنسبه العلوي، ولأنه أحد رجال الدولة الأخشيدية، فخطب ابنته لأحد أبنائه، فرفض مسلم الخطبة، وغضب المعز، وسجن مسلماً

واستصفى أمواله، وظل مسلم مسجوناً حتى مات، وفر ابنه طاهر إلى المدينة، فوصلها بعد خروج الجيش الفاطمي..

وقد احتفى الحسينيون في المدينة بطاهر، وذكروا فضل أبيه، وقدموه عليهم وجعلوه أميراً للمدينة(١)..

ولاشك أن تولي طاهر بن مسلم إمارة المدينة يثير تساؤلات كثيرة؟ فكيف تنازل الحسينيون عن الإمارة لمغترب قادم من مصر، وهم الذين قاتلوا أبناء عمهم الحسنيين عليها؟ وهل تكفي أيادي مسلم السابقة عليهم ليخرج الأمير عن إمارته ويسلمها لطاهر؟

أغلب الظن أن الحسينيين في المدينة كانوا يعانون من مشكلة الإمارة، وأنهم وجدوا في تولية طاهر حلا مرضياً، وكثيراً ما يحدث خلاف في الأسرة الحاكمة حول شخص الأمير عندما يشغر المنصب. لذلك فالمتوقع أن يكون مجيء طاهر قد صادف وفاة أميرها، ووقوع خلاف حاد حول من يخلفه، فكان الحل في تولية طاهر..

وأما العامل الثاني: حسن تصرف العباسيين، فقد تولى وزيرهم عضد الدولة البويهي استعادة ولاء المدينة بحنكة ، فلم يرسل جيشاً مقاتلا، ولم يزعج أحداً من أهل المدينة، بل أرسل مع أمير الحج العراقي لموسم عام ٣٦٨هـ أموالاً طائلة وهدايا قيمة للأمير الحسيني، ولم يجد أمير الحج العراقي صعوبة في إقناع طاهر بن مسلم الذي وتره الفاطميون بأبيه بإعادة الولاء للعباسيين، كما أن الفاطميين بعد عودة جيشهم إلى مصر انشغلوا بحروبهم في فلسطين والشام، ولم يرسلوا أموالاً كافية، وكانت الأرزاق قليلة، وكان من بين ما حمله أمير الحج العباسي أموالاً مخصصة لبناء سور للمدينة يحميها من غارات الأعراب والطامعين الآخرين..

لذلك كله، قبل طاهر بن مسلم عرض العباسيين، ونزع الرايات البيضاء

---

١) انظر ابن خلدون ٤/١٤٠

وقطع الخطبة عن الفاطميين وحولها للعباسيين. وأشرف على بناء السور بالأموال التي أرسلها عضد الدولة البويهي..

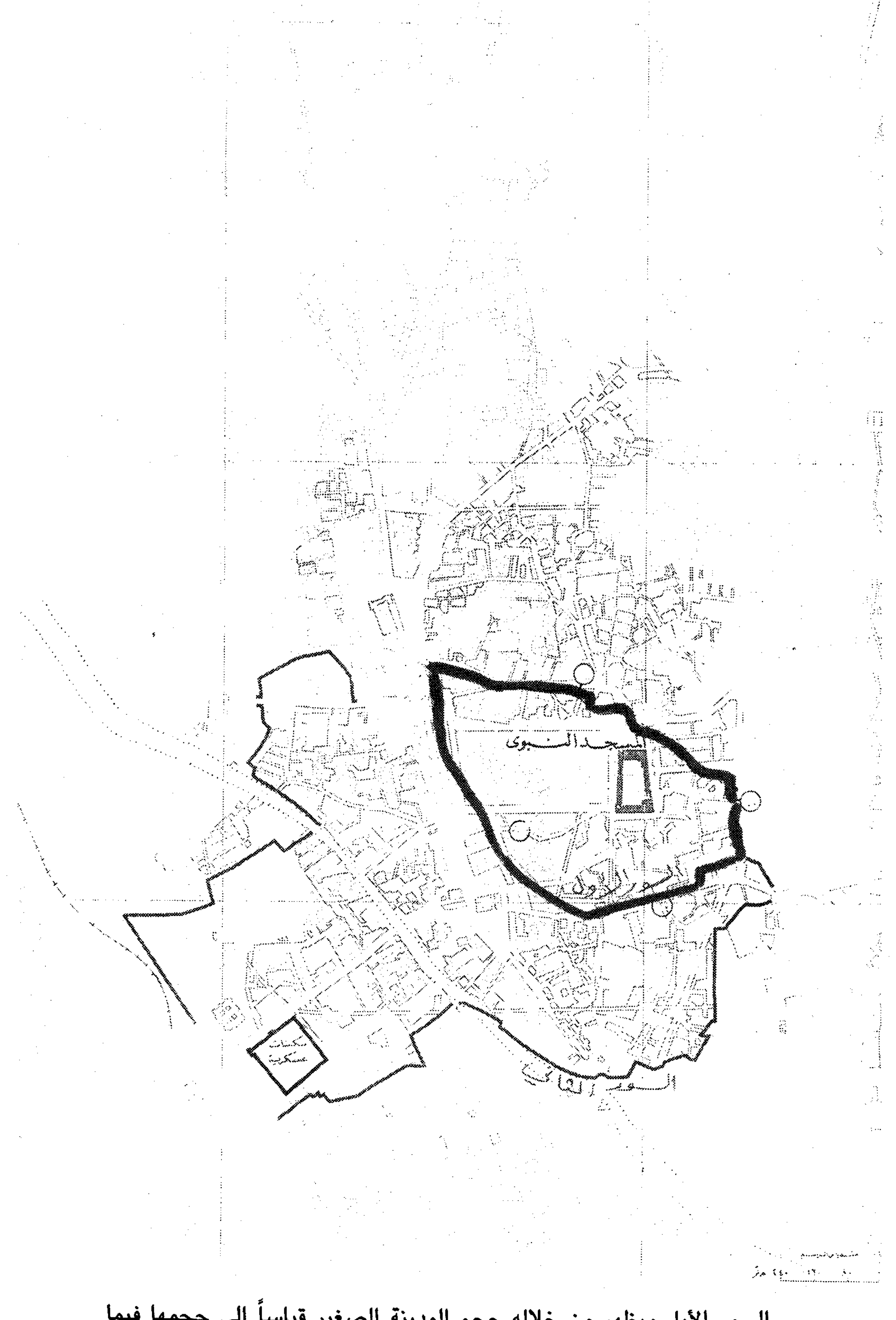
سور المدينة المنورة:

كانت المدينة تتألف من عدة كتل عمرانية متفرقة، أهمها كتلة المسجد النبوي وما يتصل به من أحياء متلاصقة، وهناك كتل أخرى في العوالي وقربان وسلع، أما قباء والقبلتين والعقيق فكانت أشبه بقرى وضواح بعيدة عن مركز المدينة..

وقد اتسعت المدينة في القرن الهجري الأول كما رأينا، ووصل المد العمراني في نهاية العصر الأموي إلى جبل سلع غرباً، وقباء جنوباً، واتصلت المساكن، وظهرت قصور العقيق..

وتوقف هذا التوسع في بداية العصر العباسي، ثم تحول إلى تقلص ظاهر منذ بداية القرن الثالث الهجري، وخرجت هجرات كثيرة بسبب الفتن والقلاقل التي مرت بها، والتي كانت على شكل موجات متقطعة، آخرها موجة الصدام الدموي بين الحسينين والحسنيين عام ٣٤٨هـ..

وقد أثر ضعف الإدارة المركزية في الدولة العباسية على الحالة العامة لمعظم المدن - فتطاول البدو والأعراب، وكثر الثائرون وأصحاب الفتن، وعانت المدن منهم الكثير، وقد أصاب المدينة المنورة بعض ماأصاب تلك المدن، فلم تسلم من هجمات الأعراب السريعة، حيث ينهبون ما تصل إليه أيديهم، ويفرون قبل أن يطاردهم رجال الإمارة وأهل المدينة، لذلك كانت الأحياء المتطرفة أكثر مناطق المدينة تعرضاً للأذى، وأول المناطق التي يرحل عنها أهلها، إما إلى داخل المدينة، أو إلى بلد آخر، ومع ضعف الإمارة، وقلة الرجال أصبحت المدينة أكثر تهديداً.. لذا عندما جاء عرض عضد الدولة البويهي بناء سور للمدينة لقي ترحيباً كبيراً، وكان أحد أسباب تحول ولاء المدينة من الفاطميين إلى العباسيين. والعجيب أن عضد الدولة البويهي كان



السور الأول ويظهر من خلاله حجم المدينة الصغير قياساً إلى حجمها فيما بعد. كما يبدو السور الثاني الذي بُني لاحقاً

متشيعاً، وفي الوقت نفسه وزيراً للعباسيين وخصماً للفاطميين، حتى إنه بدأ بتجهيز حملة لقتالهم ثم تراجع وسلك طريق السياسة، فأرسل الأموال الى الحرمين(١). وقد عُرف عضد الدولة بأنه شغوف بالعمران، اجتهد في عمارة مرافق كثيرة في بغداد، فشق الطرقات، وحفر الآبار وبنى المستشفيات(٢) وله إنجازات كثيرة في مدن أخرى ، ومنها بناؤه سور المدينة.

لم يحضر عضد الدولة إلى المدينة ولم ير السور ، فقد كان مشغولا بالصراع السياسي في بغداد، ولكنه أمر ببناء سور المدينة ودفع نفقاته....

وقد بني السور حول الكتلة العمرانية الكبيرة التي تشكل معظم المدينة آنئذ، وهي كتلة مركزها المسجد النبوي، وتضم دار الإمارة والأربطة ومساكن الزوار والأحياء المتلاصقة، ومعظم مساكن أهل المدينة، وجعل للسور أربعة أبواب، باب في الشرق يخرج إلى البقيع، وباب في الجنوب يخرج إلى قباء، وباب شمالي غربي، يخرج إلى العقيق، وباب شمالي يخرج إلى أحد(٣).

أسست جدران السور بالحجارة، وأكملت باللبن الطيني، وصنعت الأبواب من الخشب القوي. ورغم بساطة هذا السور فقد حفظ المدينة من غارات الأعراب المفاجئة، ومنح أهل المدينة طمأنينة وشعوراً بالأمان، وزاد الأمان إنشغال الفاطميين بحروبهم في بلاد الشام، فنعمت المدينة بالهدوء في ظل إمارة طاهر بن مسلم حتى عام ٣٨٠هـ، حيث عاد الفاطميون يدقون أبوابها، وكان الوزراء والأثرياء العباسيون في تلك الفترة يرسلون الأموال لتوزع على أهلها..

الفاطميون في المدينة ثانية:

انتصر الخليفة الفاطمي العزيز بالله على خصومه في سلسلة الحروب

---

١) انظر الكامل ٧/١٠٠.

٢) انظر البداية والنهاية ١١/٣٢٠.

٣) انظر مرآة الحرمين ١/٤١٠ - وانظر المصور المرفق -

المتوالية في فلسطين والشام، وكسر شوكة القرامطة واضطرهم للعودة إلى عمق الباديّة. فالتفت الى الحجاز، وقرر استعادته من العباسيين، فجهز حملة قوية، خرجت من مصر في شوال عام ٣٨٠هـ واتجهت إلى المدينة، فوصلتها مع اقتراب موسم الحج.

أغلق أهل المدينة أبواب السور، فحاصرها الجيش الفاطمي، وكأنما جاءت الحملة لتكون التجربة الأولى للسور، وتبين جدواه ومدى احتماله لهجمات الجيوش..

غير أن الأمير طاهر بن مسلم أراد أن يتجنب الصدام مع الفاطميين ففاوضهم على الصلح ، وصالحهم أخيراً على قطع الخطبة للعباسيين وإعادتها إلى الفاطميين نهائياً، مقابل تأمين المدينة وأهلها.. وفتحت أبواب السور وأنزلت الرايات السوداء ورفعت الرايات البيضاء، وأعلن الأمير طاهر بن مسلم في خطبته على المنبر ولاءه وولاء أهل المدينة للفاطميين، فعاد الفاطميون إلى المدينة، ولكنهم عادوا هذه المرة وفي ذهنهم أن يمدوا إليها نفوذهم الحقيقي(١).

فقد استفاد الفاطميون من التجربة السابقة، وأدركوا أن الولاء الاسمي عرضة للتحول بمجرد عودة الجيش الفاطمي إلى مصر، لذلك سلكوا منهجاً جديداً ينبع من فكرتهم الأولى، منهج التغيير الفكري، وتحويل الناس إلى أفكارهم وعقيدتهم، فإذا نجحوا في نشر معتقداتهم الفاطمية، وهي لون من التشيع لايخلو من الغلو والتطرف -ضمنوا انفصال المدينة عن العباسيين وارتباطها الوثيق بهم، لذلك نشروا دعاتهم بين أهل المدينة واستخدموا وسائل الترغيب والترهيب، والمناقشات والجدل، والتقاليد والبدع والاحتفالات للتأثير في الناس.. فبدأت مرحلة جديدة في حياة أهل المدينة، وكان للفاطميين أساليب بارعة في الدعاية والإقناع، ففضلا عن المناقشة والجدل

---

١) انظر: اتعاظ الحنفاء ١/١٧٢-

هناك التقاليد والاحتفالات الكثيرة التي ابتدعوها: كالاحتفال بيوم غدير خم (الثامن عشر من ذي الحجة كل عام لوقوف الرسول صلى الله عليه وسلم مع علي وأبنائه عند غدير خم ودعائه لهم) ويوم عاشوراء (العاشر من محرم ذكرى مقتل الحسين رضي الله عنه) ويوم المولد النبوي.. وغيرها من المناسبات المبتدعة..

ورغم النشاط الذي بذله دعاة الفاطميين في المدينة فان استجابة أهلها كان ضعيفاً، وكان معظم الذين تأثروا بهم من البسطاء والجهلة، فليس من السهل نشر تلك المعتقدات في بلد يعيش على إرث الرسول صلى الله عليه وسلم من السنة المطهرة، والمسجد النبوي مازالت فيه حلقات العلم وفقه الامام مالك، وقد تصدى هؤلاء لدعاة الفاطميين وحاجوهم، كما أن أمير المدينة طاهر بن مسلم الذي أعلن الولاء للفاطميين لم يكن متحمساً لعقائدهم، وكذا الحسينيون الذين مازالت لهم صلات بالعلم.. لذلك ستشهد المدينة غضب الفاطميين وعودة جيشهم إليها بعد عشرسنوات، في ظل أسرة المهنا، التي تسلمت إمارة المدينة، وشهدت المدينة في عهدها أحداثاً كثيرة..

من هم آل المهنـا؟:

يرجح ابن خلدون نسبة هذه الأسرة إلى الحسن بن طاهر بن مسلم الذي خلف أباه في إمارة المدينة عام ٣٨١هـ. وكان يلقب المهنا، وإليه تنسب الأسرة، ويعرض رأياً آخر لبعض المؤرخين يقرر أن المهنا هو اسم شخص انتقلت إليه الإمارة بعد وفاة طاهر بن مسلم، ونسبه كمايلي: مهنا بن هانىء بن داود بن القاسم بن عبد الله بن طاهر. فمهنا حسب هذه الرواية هو حفيد

ابن عم طاهر بن مسلم. ويستبعد ابن خلدون هذه الرواية(١)وعلى أية حال فإن أسرة المهنا هي فرع من الأسرة الحسينية ذاتها، سواء كان المهنا ابن طاهر أو حفيد ابن عمه...

بداية امارة آل المهنا:

بدأ عهد آل المهنا أواخر القرن الرابع الهجري وقد حكمت هذه الأسرة المدينة المنورة عدة قرون، وشهدت المدينة في عهدها أحداثاً كثيرة..

وقد انتقلت الإمارة إلى المهنا بهدوء كامل، وبناء على اتفاق آل الحسين الذين انفردوا بالسلطة في المدينة بعد خروج الحسنيين منها.

وفي عهد المهنا، رأس أسرة آل المهنا ـ شهدت المدينة هزة كبيرة كادت أن تقضي على حكم الأسرة وتؤذي الكثيرين من أهلها.

فقد استمر المهنا على سياسة طاهر بن مسلم في الولاء الاسمي للفاطميين، وعدم الاستجابة لدعاتهم، وتطور الجدل بين دعاة الفاطميين الذين يحاولون نشر فكرهم الشيعي المتطرف وبين أهل السنة، وظهرت مقولات تشكك في صحة نسب الفاطميين وانتمائهم لأهل البيت، فغضب الفاطميون، ووافق ذلك تولي الحاكم بأمر الله الخلافة الفاطمية، بعد أن تسلم الحكم من الوصي عليه وقتله، فعزم على معاقبة آل المهنا في المدينة، وتثبيت الحكم الفاطمي وفكره، فأرسل مع قافلة الحج المصرية قوة عسكرية إلى أمير مكة الحسن بن جعفر الحسني ويلقب بأبي الفتوح ـوكان أبو الفتوح محافظاً على ولائه للفاطميين حتى ذلك الوقت ـ وطلب منه أن يضم إليها رجاله ويزحف بهم جميعاً إلى المدينة فيستولي عليها ويطرد آل مهنا منها نهائياً.

احتلال المدينة:

صادف طلب الحاكم بأمر الله هوى في نفس أمير مكة، إذ كان يتطلع إلى توسيع نفوذه والسيطرة على بقية الحجاز، بل سنجده يتطلع فيمابعد إلى

---

١) انظر: ابن خلدون ٤/١٤٠

الخلافة ويعلن نفسه خليفة. فلما وصل المحمل المصري ضم إليه رجاله وزحف بهم الى المدينة..

علم أهل المدينة بالزحف، فخرجوا مع أميرهم المهنا لمقابلة الحملة القادمة، واشتبكوا معها على مشارف المدينة، ولكن وجود الجيش الفاطمي جعل الكفة تميل لصالح الحملة، فهزم أهل المدينة وسقط عدد من القتلى والجرحى، وتراجعوا إلى المدينة وأغلقوا عليهم أبواب سورها، فتبعهم أبو الفتوح، وحاصرهم وطلب منهم الاستسلام والدخول في طاعته، وتعهد لهم ببذل الأمان وحفظ الدماء والأموال، وجرت مفاوضات بين الطرفين انتهت بالتسليم وخروج آل المهنا آمنين إلى بعض القرى في ينبع، ودخل أبو الفتوح المدينة بجيشه وتسلم الإمارة، ووفى بوعده فبذل الأمان للناس.

الفاطميون يحاولون نقل جسد الرسول ﷺ :

عرف الحاكم بأمر الله الفاطمي باضطراب عقله، وأوامره العجيبة المتناقضة، ويذكر المؤرخون أنه أمر قائد الحملة التي وجهها إلى المدينة أن ينبش قبر الرسول ﷺ، ويحمل جثمانه الطاهر إلى مصر لتصبح عاصمتهم محط أنظار المسلمين، ويتهمون بعض أفراد حاشيته بأنهم وسوسوا له بذلك لترتفع مكانة الفاطميين بين المسلمين، واقتنع الحاكم بأمر الله بالفكرة. وقد نقل القائد الفاطمي أمر الحاكم الى أبي الفتوح بعد أن دخلوا المدينة، فارتاع أبو الفتوح واستفظع الأمر ونصحه بعدم التعرض لمثوى رسول الله ﷺ، ولكن القائد الفاطمي أصر على تنفيذ أمر خليفته، وأدخل بعض رجاله ليلاً إلى الحرم وجاؤوا إلى الحجرة الشريفة لينبشوا القبر. فهبت ريح عاصفة أظلم لها الجو وكادت تقتلع البناء من أصله، فخافوا وتوقفوا عن فعلتهم النكراء، وأقبل عليهم أبو الفتوح وخوفهم من عاقبة ماأقدموا عليه، وأقنعهم بالعدول عنه.. فاقتنعوا وخرجوا من المسجد النبوي مذعورين(١).

شاع أمر هذه الحادثة بين الجيش الفاطمي، والمكيين القادمين معه -فاستفظعوه- كما شاع بين أهل المدينة فحمدوا الله على حفظ جسد رسول الله ﷺ ومسجده وقبره.. وتضايق أبو الفتوح أمير مكة. وعزم على العودة إلى إمارته. وعلم آل المهنا بالأمر ، فأرسلوا يفاوضون ابن عمومتهم ليعودوا إلى إمارتهم وتعهدوا له بعدم الدعوة للعباسيين ثانية، وبالمحافظة على الولاء للفاطميين.. فقبل منهم ذلك وسمح لهم بالعودة إلى إمارتهم بعد أن يخرج جيشه من المدينة.

وخرج أبو الفتوح والجيش الفاطمي بعد أقل من شهر من قدومهم، وسلم الله المدينة من العبث والأذى، وعاد آل المهنا إلى إمارتهم، ووفوا بعهودهم وأعلنوا الطاعة التامة للفاطميين.

---

١) انظر ابن خلدون ٤/١٤٠-

تقويم الحملة الفاطمية الأخيرة: أسبابها الحقيقية ونتائجها:

تثور أسئلة حول الأسباب الحقيقية لهذه الحملة.. هل هي كما ذكرت بعض المصادر التاريخية (التشكيك في نسب الفاطميين) أم أنها أبعد من ذلك؟ وهل بلغ التشكيك درجة من العلانية تؤذي الفاطميين؟ ثم كيف يشكك المدنيون بنسب الفاطميين ويحافظون على الولاء الاسمي لهم فيخطبون للخليفة الفاطمي؟

إننا نميل إلى الاعتقاد بوجود أسباب أخرى (غير مباشرة) دفعت الفاطميين إلى محاولة (معاقبة) أهل المدينة؛ هذه الأسباب ترتبط بالدعوة الفاطمية ذاتها، فرغم الولاء الاسمي للفاطميين لم ينتشر فكرهم في المدينة، ورغم أن حكامها من آل الحسين ويمتون بالقرابة إلى الفاطميين -حسب إدعاء الفاطميين بانتسابهم الى آل البيت- فان العقائد التي انتحلها الفاطميون لم تجد رواجاً في الحجاز بعامة وفي المدينة بخاصة.. وكان الفاطميون يكتفون أول الأمر باعلان الولاء لهم، ولكنهم منذ أواخر عهد العزيز تحولوا إلى التوسع في نشر العقيدة المذهبية في مناطق نفوذهم، وبثوا دعاتهم لاقناع الناس بها.

ورغم تراجع الحالة العلمية في المدينة آنئذ فإن التراث الفكري الذي حمله المدنيون قد عوق الدعوة الفاطمية فيها، فلم يأخذ بها المثقفون أومعظمهم في المدينة.. وهذا ما أغضب الفاطميين وجعلهم يوجهون ضربة للمدينة.

غير أن هذه الحملة لم تحقق أهدافها، لأسباب كثيرة، فبمجرد عودة أبي الفتوح إلى مكة عاد آل المهنا، وما لبث الفاطميون في مصر أن انشغلوا بتصرفات خليفتهم المتقلب الأهواء الحاكم، ثم توالت الأحداث في الحجاز ـ على نحو ماسنرى ـ فحالت دون تحقيق الأثر المنشود وحُفظت المدينة المنورة من أن تدين للمذهبية الفاطمية، وبقي ولاؤها اسمياً يلتقي مع التشيع العام للأسرة الحاكمة، ومع شعورهم بالعجز عن مواجهة الفاطميين، ورغبتهم في

الحصول على العطايا التي ترد منهم، وكان الحاكم يرسل أحياناً بعض الأموال للحسينين(١)٠

استقلت المدينة عن مكة رغم مشاركتها في الولاء للفاطميين، وسارت الرسل بين المدينتين لتحسن العلاقة بينهما وتمسح آثار حملة أبي الفتوح، ولتفتح الأبواب أمام الزائرين والقادمين للحج والعمرة كي ينتقلوا بين المدينتين المقدستين بأمان، ونشط ميناء الجار واستقبل البضائع من مصر واليمن، ولكن المدينة لم تعد تتسع، فكأن السور قد حد لها حدوداً لاتتجاوزها. والأحداث التي تجري في المناطق المجاورة لاتتيح لها ظروف التوسع. والصراع السياسي بعيد عنها، وليس فيها مطمح لأهل الثروات والمناصب، والنمو السكاني فيها بسيط، وأصحاب الطموح السياسي أو الاقتصادي يقصدون العواصم الكبرى. كبغداد وحلب ودمشق والقاهرة وخراسان والمغرب والأندلس، وأما المدينة فتستقبل المجاورين والزائرين؛ منهم من يقيم الأيام والأسابيع القليلة، ومنهم من يمد إقامته سنة أو أكثر. وهؤلاء يلتمسون الصلاة في المسجد النبوي وملازمة حلقات العلم فيه.

---

١) انظر النجوم الزاهرة ٢١٧/٤ -

الحاكم يستولي على آثار جعفر الصادق:

وفي مطلع القرن الخامس الهجري. اهتزت المدينة لحدث جديد.

فقد قدم وفد من مصر أرسله الحاكم بأمر الله ليبحث عن آثار بعض الأئمة الذين يعتقد الفاطميون بعصمتهم. وكان الوفد برئاسة ختكين العضدي أحد قادة الفاطميين آنئذ، فقصدوا دار جعفر الصادق، وكانت مغلقة منذ مدة طويلة، ففتحوها، ووجدوا فيها مصحفاً وقدحا ضخماً من خشب له اطار حديدي، ودرقة خيزران، وحربة، وسريراً، فأخذوها. وجاءهم عدد من العلويين يستعلمون الأمر فأخبروهم بأن الحاكم قد أمر بحمل مافي الدار إليه، فخرج معهم طائفة منهم، وسافرو إلى مصر، واستقبلهم الحاكم وأكرمهم وأمر باعطائهم بعض المال، ثم أخذ المصحف والقدح والحربة والدرقة ورد السرير إلى العلويين، فتذمر العلويون من تصرفة وخاب أملهم فيه، وعادوا إلى المدينة وهم يذمونه ويدعون عليه(١).

ولعله من لطف الله بمدينة رسوله ﷺ أن يكون هذا نصيبها من تصرفات الحاكم الهوجاء وجنونه.. فقد لقيت مصر منه الأهوال مدة حكمه، وأصبحت تصرفاته نموذجاً لتصرفات الحاكم الطاغية المجنون(٢).

كما أنه من لطف الله بهذه المدينة الطيبة أن الأحداث كانت تجري حولها قلقة دامية دون أن يصيبها شيء من أذاها، وجل ماأصابها أن أحد أمراء الحج الفاطميين أمر الناس في المدينة وهو يخطب على المنبر أن يقوموا واقفين كلما ذكر اسم الحاكم في الخطبة(٣)..

المدينة وثورة أبي الفتوح:

في عام ٣٩٧هـ استطاع وزير مغربي مقيم عند أمير مكة أبي الفتوح أن

---

١) الكامل ٢٤٩/٧ - البداية ٣٦٥/١١ -

٢) انظر بعض سيرة الحاكم وتصرفاته - البداية والنهاية ١٠/١٢ -

٣) المنتظم ٢٣٠/٧ -

يقنع أبا الفتوح بأنه أحق بالخلافة من الفاطميين، فخرج أبو الفتوح على طاعة الحاكم وطلب البيعة لنفسه وتلقب الراشد بالله، ورحل من مكة مع رجاله الى قبيلة طيء فبايعه أميرها أبو حسان، ونزل بالرملة. فبعث الحاكم جيشاً لمحاربته، ووقعت معركة هزم فيها جيش الحاكم وقتل قائده، فعمد الحاكم إلى طريق المال لإنهاء تمرد أبي الفتوح، ونجح في استمالة الطائيين وصرفهم عن نصرة أبي الفتوح، وأرسل إلى ابن عم أبي الفتوح يغريه بالاستيلاء على مكة، ويعينه أميراً عليها ففعل ذلك، وعادت مكة لولاء الخليفة الفاطمي.

وأدرك أبو الفتوح أن مكر الحاكم قد نجح في تخذيل معظم رجاله عنه وأنه أصبح مهدداً بين الطائيين. فراسل الحاكم واعتذر له وعاد إلى طاعته فقبل منه الحاكم وأعاده إلى إمارة مكة سنة ٤٠٣هـ.

مرت هذه العاصفة كلها حول المدينة ولم تصبها بشيء. فأبو الفتوح الذي سبق أن احتل المدينة عام ٣٩٠هـ بأمر الحاكم، مر بها في طريقه إلى طيئ ولم يفعل شيئاً لضمها إلى مكة آنئذ. وظلت المدينة في سكينتها وادعة تعيش حياتها اليومية البسيطة طوال تلك الفتنة التي استغرقت ثلاث سنوات.

سنوات عجاف:

غير أن المدينة المنورة أخذت تتأثر من ظهور شوكة الأعراب حولها وتسلطهم على قوافل الحجاج والمسافرين، وعجز الدولة عن تأمين الطرق. وقد أثر ذلك على حركة القادمين إليها وقلل عدد زوارها وبخاصة في موسم الحج. ويذكر المقريزي أن الحجاج المصرين لم يتمكنوا من زيارة المدينة المنورة في عام ٤٠١هـ، وكذلك في عام ٤٠٣ و٤٠٥ و٤٠٦ هـ بسبب هجمات

الأعراب المتوالية على القوافل ونهبها(١) وكذلك كان الحجاج القادمون من العراق يعانون من هجمات الأعراب والقرامطة على قوافلهم. وكانوا يرجعون أحياناً أو يقتلون. وطبيعي أن حركة التجارة تتأثر بهذه الحالة وتقل السلع الواردة إلى المدينة وترتفع أثمانها نتيجة دفع مبالغ طائلة للأعراب كي يخفروها.

وقد وافق ذلك حدوث قحط ومجاعات شديدة في مصر، فانقطعت الميرة لبعض الوقت، ولم تصل الإعانات الفاطمية أيضاً. وأصبح لزاماً على المدينة أن تعتمد على منتجاتها، وعلى القليل الذي يصلها بين الحين والآخر. وقد تضايق أهل المدينة - كما تضايق أهل الحجاز بعامة - من هذه الحالة وفكروا بالتحول عن الولاء الفاطمي إلى العباسيين.

وذهب وفد من أهالي المدينتين المقدستين إلى مصر في ذي القعدة عام ٤١٥هـ ليطلب أن تعمل الدولة على تحسين الأوضاع، فتزيد المخصصات المرسلة الى الحجاز، وترسل جيشاً يؤدب المفسدين ويؤمن طريق القوافل والمسافرين. ولكن مصر كانت ترزح تحت أعباء اقتصادية شديدة آنئذ، وكان القحط قد عاودها، فلم يجد الوفد آذاناً صاغية، ولم يستجب له أحد، بل لم يجد الضيافة اللائقة، فجاهر أعضاؤه بضيقهم مما لقوه، وألمحوا إلى إمكانية تحول المدينتين المقدستين عن الفاطميين. وقد وصف المقريزي حالة الوفد آنئذ فقال:

اجتمع الوفد بباب القصر واستغاثوا وقالوا: ياقوم قد جئناكم وفارقنا أهلينا وقد هلكنا من الجوع، فإن لم يكن لكم حاجة بإقامة الدعوة بمكة والمدينة، فاصرفونا، فاننا قد بذل لنا الرغائب في إقامة الدعوة لغير إمامكم فلم نأخذها، ونريد إنساناً يكلمنا (فلم يجابوا بشيء)، وكانوا قد مضوا قبل ذلك إلى رجال الدولة، فصار يدفعهم هذا إلى هذا. فلما انصرفوا عن باب

---

١) اتعاظ الحنفا ٢/٧٨ - ٨٦ - ١٠٥ -

القصر خائبين بعث إليهم جمال الدولة مظفر الصقلبي صاحب المظلة ألف دينار من ماله، فقالوا: لانأخذ إلا مايصلنا به أمير المؤمنين، وهذه الصلة قد قبلناها والله مجازيك عليها. ونحن نفرقها على ضعفائنا وعبيدنا. ففرقوها على خمسمائة نفس(١).

المدينة ومشكلة الأعـــراب:

كان لتردي الأحوال في مصر آثار سيئة على الأحوال الاقتصادية والأمنية في المدينة المنورة، فانقطاع الأموال التي ترد إلى الإمارة أو شحها جعل المدينة في ضيق، وأضعف قوتها العسكرية، فليس في ديوان الامارة مايكفي لتجنيد أعداد تحفظ هيبة الإمارة وترد هجمات الأعراب، وليس فيه أموال تدفع لرؤساء القبائل ليكفوا شرورهم عن المدينة والمسافرين، وكما ان الأعراب حول المدينة وفي ريف الحجاز عامة يحتاجون إلى موارد تعوضهم عن سنوات القحط وهلاك المواشي وآثار المنازعات والحروب القبلية.

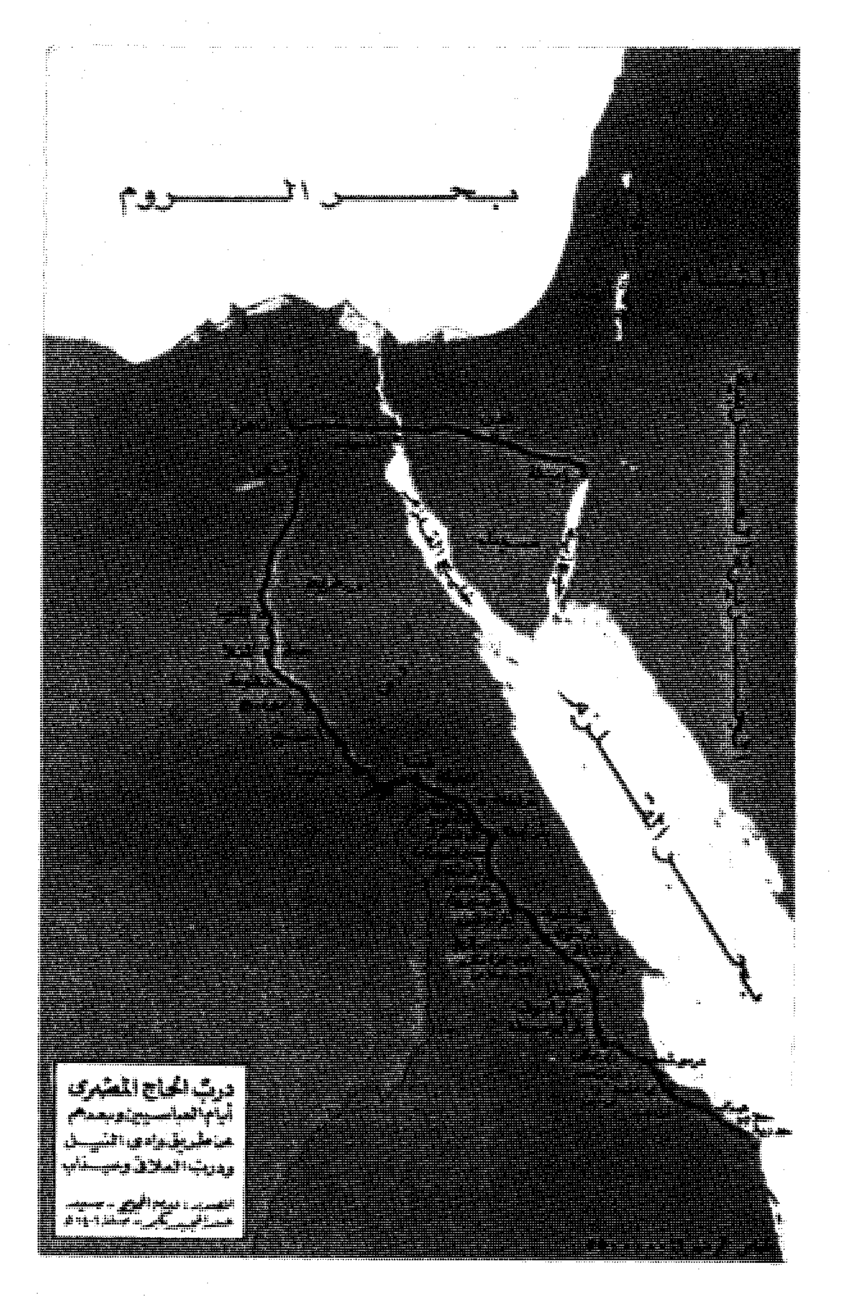
لذا أصبحت قوافل الحجاج هدفاً رئيساً لهؤلاء الأعراب، يعدون مافيها غنيمة لهم، وأصبح من الضروري لتلك القوافل أن تؤمن حماية لنفسها وتصطحب قوة قادرة على مقاومة الأعراب والطامعين فيها وإلاهلكت أو رجعت. ففي عام ٤١٢هـ خرج نقيب الطالبيين محمد بن الحسن على رأس قافلة الحج فاعترضها بنو نبهان، فقاتلهم رجال القافلة وتغلبوا عليهم وقتلوا أميرهم حسان(٢) وبعد عامين عجزت قافلة الحجيج عن مواجهة حشود الأعراب فرجعت ولم يحج أحد منها، ثم انقطع الحجاج العراقيون عدة سنوات.

وعندما تولى القائم بأمر الله العباسي الخلافة عام ٤٢٤هـ حاول أن يؤمن طريق الحج، ولكنه عجز عن تجهيز قوة قادرة على التصدي للأعراب لضعف

---

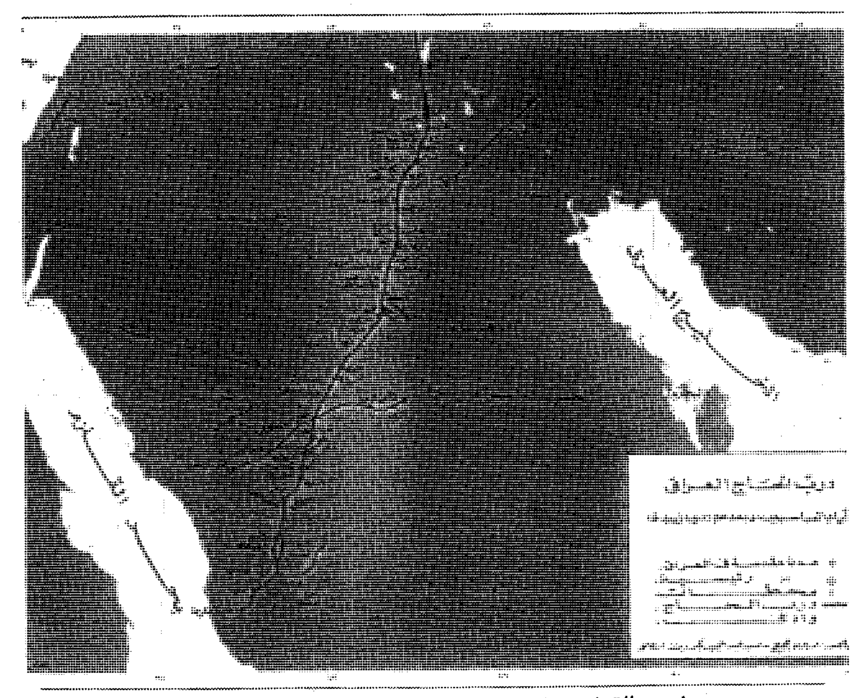
١) اتحاف الحنفا ١٦٣/٢ -

٢) ابن خلدون ١٣١/٤-



طريق القوافل البرية من مصر إلى المدينة فمكة

المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي



طريق القوافل والحجاج من العراق والبلاد التي وراءها.
المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي.



الطريق السلطاني من دمشق إلى المدينة فمكة. كانت تسير فيه قافلة المحمل الشامي
المصدر: أطلس التاريخ الإسلامي

جهاز الدولة، وتشتت أمرها بين القادة المتنازعين، وضعف بني بويه المتسلطين على بغداد آنئذ(١)٠

وتفاقمت مشكلة الأعراب وسكان البادية القريبين من طرق الحج، وتحولت الى مشكلة تاريخية لم يحسن أحد من الحكام على امتداد القرون إلى العصر الحديث حلها، وبالعكس من ذلك، كان الحل الخاطئ الذي بدأه الفاطميون تعميقاً للمشكلة جعلها مستعصية. فقد عمد الفاطميون إلى دفع مبالغ مرضية للقبائل الساكنة على طريق الحج، كي لايتعرضوا للمحمل المصري وقوافل الحجيج ، وهذا حل مؤقت أشبه بمخدر محدود الفاعلية، يهيج المشكلة بشكل أعنف بعد زوال مفعوله، ويغري الأعراب بمعاودة الكرة، بل سيجعلهم كالمدمنين. لابد من جرعات تالية وإلى مالانهاية. وهذا ماحدث..

فقد وجد الأعراب في المبالغ المدفوعة دخلا مربحاً، لايكلفهم عناء العمل ولاحتى القتال والضحايا، يكفي أن يهددوا أو يقوموا بغارة على إحدى القوافل، فتكون رسالة قاسية، تصل الأموال بعدها إليهم. وتصبح هذه الإتاوة عرفاً وحقاً لهم، إن أخل به الطرف الآخر أبيح دمه وماله..

وربما تكون حياة الأعراب الصعبة، وبعض السنين العجاف قد دفعتهم إلى هذا السلوك أول مرة.. ولكنهم امتهنوا قطع الطريق بعد ذلك، وأصبح النهب دخلا شرعياً عندهم، سواء كانت السنون عجافاً أو مخصبة.

والمدهش أن الخلفاء والحكام والأمراء لم يفكروا بحل جذري للقضية، وكان أكثرهم غيرة يجرد حملات تأديبية قوية، تطارد الأعراب وتبطش بمن تصل إليه، فيفر الباقون إلى أعماق باديتهم، ويصبح طريق الحج آمناً لبعض الوقت، ولكن ما إن تعود الحملة أو يموت صاحبها حتى يعود الأعراب إلى ماكانوا عليه، ويفرضون الإتاوات أو يقتلون وينهبون..

ولم يفكر أحد في إيجاد حل جذري للقضية يوطن هؤلاء الأعراب ويبني

---

١) السابق -

لهم القرى ويحولهم إلى مزارعين، أو يحول مناطقهم إلى محطات تجارية على طريق القوافل فيكون دخلهم أفضل من قطع الطريق والنهب والسرقة، فظلوا على امتداد السنين الطويلة مصدر خطر دائم على الحجاج من جهة، وعلى القرى والمدن من جهة أخرى، ومصدر قلق وأذى للمدينة المنورة ومكة المكرمة.. فانقطاع الحجاج أو قلة عددهم سيحرم المناطق التي يحلون بها موارد مالية، تشكل جزءاً من دخلها، والمدينة واحدة من تلك المناطق، يمكث بها الحجاج والزائرون بعض الوقت..

يضاف إلى ذلك أن تهديد الطرق يؤثر أيضاً على القوافل التجارية التي تحمل القمح واللوازم الأخرى. وهذا يؤدي إلى فقد السلع الضرورية وارتفاع الأسعار. ويزداد الأمر سوءاً عندما تحل سنوات من القحط، فلايكتفي الأعراب بقطع الطريق بل يغيرون على المدينة ذاتها فتضطرب حياة سكانها من كل الجوانب.

أمير مكة يحتل المدينة:

استمرت الأحوال مضطربة في المدينة أكثر من ثلاثة عقود، ولم يكن الاضطراب سياسياً هذه المرة يتصارع فيه المتنافسون على الإمارة، بل كان أمنياً واقتصادياً، بسبب تسلط الأعراب على القوافل والحجاج وغاراتهم المتقطعة على المدينة وأطرافها وضعف أمراء المدينة وعجزهم عن مطاردة الأعراب وتأديبهم.. وقد توالى على إمارة المدينة بعد المهنا ابنه عبد الله بن المهنا عام ٤٠٨هـ ولا تذكر المصادر مدة إمارته، وتكتفي بذكر خلفه الحسين بن مهنا، الذي لانعرف متى تولى الإمارة.

وتنقطع أخبار المدينة في كتب التاريخ إلى عام ٤٣٦هـ حيث نجد إشارة إلى حدث عاصف يلغي استقلالها ويخرج آل المهنا منها، هذا الحدث هو هجوم أمير مكة شكر بن أبي الفتوح وجيشه على المدينة واحتلالها.

كان شكر لايقل طوحاً ورغبة في التوسع عن والده أبي الفتوح، وتوجهت أنظاره الى المدينة، التي كانت في ضعف اقتصادي وأمني كبيرين، وزحف بجيشه إليها، وعندما وصل الخبر إلى أمير المدينة استنفر الناس للدفاع عن مدينتهم، ورممت الأجزاء المتهدمة من السور، ووصل جيش شكر فتصدى له أهل المدينة، ووقعت بين الطرفين معارك ضارية يسميها ابن خلدون (خطوب) ولكنه لايذكر تفاصيلها ولاعدد ضحاياها، ونفهم من كلمة خطوب وجود وقعات عدة وخسائر جسيمة في الطرفين، وهذا يعني أن أهل المدينة استبسلوا في الدفاع رغم ضعف قوتهم العسكرية، ولكنهم خسروا المعركة

آخر الأمر، ودخل شكر ورجاله المدينة، واستولى على الإمارة(١) وأنهى سيطرة آل المهنا عليها وألحقها بإمارته.

ولانسمع شيئاً عن آل المهنا بعد ذلك، وقد جرت العادة في ذلك الوقت أن يخرج المهزوم إلى القرى التي يسكنها أقرباؤه أو حلفاؤه، ويكتفي الأمير المنتصر بالسيطرة على الإمارة، ولايتعقب خصمه، ويعود الناس إلى حياتهم العادية في ظل النظام الجديد بعد أن تغمد السيوف وتنتهي عملية المعاقبة والانتقام.

وقد حكم المدينة بعد ذلك أفراد من الأسرة الحاكمة في مكة، العائلة السليمانية، وهي فرع من الحسنيين، وانتقل إليها عدد من أفراد تلك العائلة ووطدوا حكمهم فيها قرابة ثلاثين سنة، ولايذكر المؤرخون أسماء الذين تولوا إمارتها نيابة عن أمير مكة، ولايذكرون أية أحداث مهمة أواضطرابات خلال حكم السليمانيين هؤلاء، وأغلب الظن أن الأمور قد هدأت فيها بعد توحيد المدينتين تحت حكم أسرة واحدة، وأن الأمن قد استتب، وقلت غارات الأعراب.

وفي عام ٤٥٤هـ مات شكر بن أبي الفتوح في مكة، ولم يكن له ولد يخلفه في الإمارة، وتولاها أحد عبيده فعقد أهل مكة أمرهم لأحد الحسينين وهو محمد بن جعفر، وقاتلوا الأمير الجديد وأنصاره من العائلة السليمانية وهزموهم وأخرجوهم من مكة إلى اليمن(٢).

ولكن الأمر لم يتغير في المدينة، وظل الحسنيون الذين ولاهم شكر في إمارتها، وانفصلوا عن مكة، وظلوا كذلك تسع سنوات تالية، ولم يستفد آل المهنا من فرصة خروج السليمانيين من مكة فيستعيدوا المدينة، وأغلب الظن أنهم بعد أن فقدوا الإمارة ضعفوا وتفرقوا، بينما كثر السليمانيون وعاضدهم بعض الحسنيين الآخرين، وقويت شوكتهم فلم يستطع آل المهنا أن يتعرضوا

---

١) ابن خلدون ٤/١٣١-

٢) ابن خلدون ٤/١٣٢-

لهم.

حصار اقتصادي مؤقت:

رغم اختلاف الأسرة الحاكمة في المدينة مع الأسرة الحاكمة في مكة، تأثرت المدينة بتصرفات أمير مكة الهاشمي.

ففي عام ٤٥٨هـ حج الوزير العباسي أبو الغنائم، ومُكث في مكة مجاوراً، واتصل بأميرها محمد بن جعفر، واستطاع أن يقنعه بقطع الخطبة عن الفاطميين وتحويلها إلى العباسيين مقابل مساعدة مالية سخية ، فاستجاب محمد بن جعفر لطلب الوزير، وحول الخطبة في موسم الحج التالي عندما جاءه المحمل العراقي بالأموال الموعودة.

وبلغ الخليفة الفاطمي ذلك فغضب، وأمر بقطع الميرة المصرية عن الحجاز كله، فتوقف نقل الحبوب والبضائع الأخرى، وتأذت المدينة رغم أنها مازالت محافظة على ولائها الاسمي للفاطميين، وغلت الأسعار وقلت السلع.

ولم يطل هذا الحصار، فقد لام الهاشميون في مكة أميرهم على تصرفه وأقنعوه باسترضاء الفاطميين، فأرسل الأمير إلى الخليفة معتذراً وأعاد الخطبة للفاطميين. فرضي الخليفة الفاطمي، وأمر بفك الحصار الاقتصادي عن الحجاز وشحن الميرة إلى مكة والمدينة.

وواصل الفاطميون بعد ذلك إرسال مخصصات مالية لمكة والمدينة وعنوا بالطالبيين عناية خاصة، فكانوا يرسلون إليهم سائر مايحتاجون إليه من الكسوة وغيرها حتى يحمل اليهم ألواح الصبيان التي يكتب فيها، والأقلام

والمداد(١).

وكانوا ينفقون على محمل الحج بسخاء، ويحملونه أموالاً لأهل مكة والمدينة وهدايا لأمرائها سوى مخصصاتهم السنوية، وبلغماينفقونه في ذلك مائتي ألف دينار(٢).

ضائقة شديدة:

غير أن الأحوال الاقتصادية في مصر مالبثت أن اضطربت، فقد حل عام ٤٦١هـ يحمل معه القحط والمجاعة والغلاء الفاحش، ولم يرسل الفاطميون ماعتادوا إرساله إلى الحجاز. فاشتد الضيق على أهل المدينة، كما اشتد على أهل مكة لأن القحط قد أصابهم أيضاً في تلك السنة، وغلت الأسعار وقلت الأرزاق وقلت الأموال في أيدي الناس. وتأخرت رواتب الجند، وخشي أمير المدينة أن يشغبوا عليه. وطالت الضائقة ودخلت سنة ٤٦٢هـ ولم تصل أية مساعدات خارجية، ولم يتحسن الوضع في الداخل، فبدأ الأمير يفتش عن مصدر ينقذ الإمارة من الهاوية، وبلغه أن أمير مكة، الذي يعاني من الضائقة أيضاً، قد أخذ ذهباً من باب الكعبة، وأستارها، وضربه دنانير، وسد بها حاجة الإمارة، فأمر أن تأخذ القناديل الذهبية من المسجد النبوي -وهي هدايا من ملوك وأمراء وأغنياء من سائر العالم الاسلامي- وتصهر وتصك نقوداً ليسد بها حاجة الإمارة. فأخذت القناديل الذهبية المعلقة والموجودة في المستودع، وعوض عنها بقناديل عادية وصهرت وصكت نقوداً وسدت الحاجة لبعض الوقت.

وكانت هذه الواقعة أول حالة تؤخذ فيها بعض موجودات المسجد النبوي

---

١) انظر : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ص ٢١٣ - محمد حمدي النادي دار المعارف بمصر د . ت

٢) انظر : النفوذ الفاطمي في مصر ص ٢٨ - جمال الدين سرور -

الثمينة (١) والملاحظ أن المؤرخين الذين ذكروها لم يعقبوا عليها كما عقبوا على حوادث أخرى مشابهة في قرون لاحقة، ولم يستفظعوها أو يعدوها جريمة اعتداء على المسجد النبوي بسبب (الضرورة) التي ألجأت الأمير إلى مافعله، ولأن الذهب تحول إلى دنانير صرفت في المصلحة العامة كدفع رواتب الجند وموظفي الإمارة أوالإنفاق على المرافق العامة أو شراء طعام للمحتاجين، ولم تنفق في مصالح شخصية.

---

١) انظر : البداية والنهاية ٤/١٠٥ -

الولاء بالعطاء:

تضايق الخليفة العباسي القائم بأمر الله لفشل محاولة وزيره تغيير ولاء مكة والمدينة، وراسل أمير مكة وأرسل إليه بعض الهدايا والأموال ووعده بعطاء سخي ومخصصات ثابتة له ولإمارته إذا قطع الخطبة عن الفاطميين وأعادها إلى العباسيين، وتطلع إلى المدينة أيضاً، وكان الجهد قد بلغ بالمدينتين مبلغاً كبيراً، والنقود التي صكت من ذهب المسجدين: المسجد الحرام والمسجد النبوي، محدودة وستنفد بعد حين، والدولة الفاطمية تعاني من متاعب اقتصادية وسياسية. كل هذه العوامل جعلت أمير مكة يستجيب لدعوة القائم بأمر الله العباسي، ويرسل وفداً برئاسة ابنه إلى بغداد، فاحتفى الخليفة بالوفد حفاوة كبيرة، وأكرمه، وأعطاه ثلاثين ألف دينار وخلعة نفيسة، وقرر للأمير راتباً سنوياً قدره عشرة آلاف دينار، وأرسل رسالة شفهية الى أمير المدينة، يعرض عليه أن يحذو حذو أمير مكة وله عشرون ألف دينار(١).

أما أمير مكة، فقد نفذ طلبات الخليفة العباسي على الفور، وقطع الخطبة عن الفاطميين وحولها إلى العباسيين، وأما أمير المدينة، فقد اختلفت المصادر التاريخية في رده، فذكر ابن الجوزي أنه استجاب لطلب الخليفة العباسي وقطع الخطبة عن الفاطميين وحولها إلى العباسيين(٢) بينما تسكت المصادر الأخرى عن هذه القضية، بحيث نشعر أنه لم يتغير شيئ في المدينة، وظل ولاء أميرها السليماني -الحسني- للفاطميين. ونحن نميل إلى هذا الرأي لسببين:

- الأول : أن تحول ولاء مكة الى العباسيين كان في موسم حج عام ٤٦٢هـ

---

١) انظر : الكامل ٨ / ١٠٧ - ١٠٨ -

٢) انظر: المنتظم ٨/٢٩٤ -

أي في آخر تلك السنة(١) وقد دوهم السليمانيون بعدها بوقت قصير، ولم يتح لهم المجال لمراسلة الخليفة.

الثاني : أن أمير مكة الهاشمي كان خصماً لأمير مكة السليماني، وهو الذي طرد السليمانيين من مكة، وتتبعهم بعد ذلك إلى المدينة فأخرجهم منها.

ولئن كان في ذهنه أن يفعل ذلك فليس من المنطقي أن يبلغ رسالة الخليفة لخصمه، ويتيح له الفرصة كي يتقوى بالدنانير القادمة، وليس من مصلحته أيضاً أن يجتمع مع خصمه تحت ولاء الخليفة العباسي، فربما يفرض الخليفة عليه شيئاً من الحماية، أو يعاقب أمير مكة إذا حارب أمير المدينة، ولو بقطع المخصصات والعطايا في هذه الظروف الصعبة.

أمير مكة يهاجم المدينة:

أحس أمير مكة بالقوة بعد وصول الأموال من بغداد، ومعها مجموعة من الجنود الأتراك، جاءت مع الحجاج العراقيين لحمايتهم، بعد فشل محاولة الفاطميين طرده من مكة(٢) فشكل جيشاً قوياً من رجاله ومن الجنود الأتراك،

---

١) ابن خلدون ٤/١٣٣-.

٢) حاول أمير مكة أن يقيم توازناً في علاقاته مع العباسيين والفاطميين في آن واحد، فقبل عرض القائم بأمر الله العباسي بتحويل الخطبة للعباسيين ، وقبض الأموال ، وكتب للخليفة الفاطمي يعتذر له بأنه سيقيم الخطبة في الموسم للعباسيين ، وفي سواه للفاطميين . ولكن الخليفة الفاطمي لم يقبل تصرف محمد بن جعفر ، ولم يكن في حالة تسمح له بإرسال جيش من مصر ، فكتب إلى أمير اليمن الصليحي - وكان موالياً للفاطميين - أن يسير إلى مكة ويطرد محمد بن جعفر ، فخرج الصليحي في خمسة آلاف رجل إلى مكة ، وعندما وصل إلى قرية المهجم فاجأه أحد خصومه على الحكم في اليمن : سعيد بن نجاح الأحول ، وقتله ، فرجعت الحملة إلى اليمن ، ولم يعد أمير مكة يحسب حساباً للفاطميين ، وتوجه للمدينة ، وربما يكون محمد بن جعفر قد خشي أن يستعين الفاطميون بأمير المدينة ضده ، فعاجلهم بالهجوم.-.

وزحف بهم الى المدينة، واستولى عليها ، وأخرج السليمانيين الحسنيين منها في النصف الأول من عام ٤٦٣هـ(١) وتلقب بأمير الحرمين، وهذا يعني أن المدينة أصبحت خاضعة لنفوذه، إن لم تكن جزءاً من إمارته. غير أن المؤرخين يذكرون اسم الحسن بن مهنا بن الحسن الأعرج بعد ذلك مباشرة على أنه أمير المدينة، فقدأعاد محمد بن جعفر آل مهنا إلى إمارة المدينة(٢)، وحول الخطبة في منبر المسجد النبوي ومنابر المدينة الأخرى إلى العباسيين، وحافظ آل مهنا على هذا الولاء الاسمي للعباسيين، وتلقوا الأموال من بغداد وخرسان..

آل المهنا في إمارة المدينة:

عندما أعاد محمد بن جعفر أمير مكة آل المهنا إلى إمارة المدينة كان الحسين بن المهنا بن الحسين الأعرج هو الوريث الذي نصب في الإمارة، وفق أعراف الأسرة. وقد بدأ الحسين إمارته تابعاً لأمير مكة، ثم استقل عنه بعد عودة ابن جعفر إلى مكة.

وبعد مدة بدت منه تصرفات تضايق منها أهل المدينة، فقد فرض على التجار والمزارعين ضرائب يؤدونها للإمارة، وابتدع ضريبة أنكرها عليه المؤرخون، وهي ضريبة زيارة المدينة، ففرض على كل وافد إليها أن يدفع مبلغاً من المال للإمارة، واحتج بما يفعله أمير مكة، ورفض المؤرخون حجته لأن أمير مكة كان يستوفي الرسوم من التجار الوافدين إلى مكة في موسم الحج ولايأخذ شيئاً من الحجاج العاديين، فهي ضريبة (أرباح) وليست ضريبة

---

١) لم يذكر المؤرخون أية تفاصيل عن المعركة التي حدثت بين جيش مكة وأهل المدينة ، ونرجح أن السلمانيين قد شعروا بقوة محمد بن جعفر وعجزهم عن مواجهته ، فخرجوا منها قبل أن يصل اليها ، أو بعد مفارضات قصيرة. ولو حدثت معركة وضحايا لأشار إليها المؤرخون

٢) المنتظم ٨/٣٠٤- صبح الأعشى ٤/٢٦٩

(زيارة). وانتشر خبر رسوم الزيارة في الأمصار وشاعت سمعة الأمير السيئة داخل المدينة وخارجها(١).

واستمرت إمارة الحسين دون أحداث تذكر، سوى تلك الضرائب. واستمر ولاء المدينة الاسمي للعباسيين، وحافظت عليه، وعلى استقلالها الكامل أيضا، بدليل أن ولاء أهل مكة قد تذبذب ثانية عام ٤٦٧هـ، عندما مات الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وسارع الخليفة الفاطمي فكاتب محمد بن جعفر وأغراه بإعادة الخطبة، وسوغ له ذلك بأن اعطاء الخطبة نوع من المعاهدة، ومعاهدته مع القائم قد سقطت بموته، لذا فهو في حل منها، وأرسل إليه أموالا وهدايا كثيرة، فقبلها ابن جعفر، وخطب في موسم ذلك العام للفاطميين.

وسارع العباسيون في العام التالي فاستعادوا الخطبة بالأموال والهدايا أيضاً (٢).

ولم يكن الفاطميون أقل اهتماماً بالمدينة من مكة، ومع ذلك لانجد خبراً عن تحول الخطبة في المدينة للفاطميين. فقد حافظ الحسين بن مهنا على ولائه للعباسيين، ولم يتحول عنهم.

محيط العلوي يستولي على المدينة:

يذكر بعض المؤرخين أن رجلا يدعى محيط العلوي استولى على المدينة في صفر عام ٤٦٩هـ وأن أهل المدينة أعانوه على ذلك. فهرب الحسين بن مهنا، ولحق بالسلطان السلجوقي ملك شاه وقطعت الخطبة عن العباسيين، وحولت إلى الفاطميين(٣) ولا نجد أي توضيح عن شخصية محيط العلوي؟ ولانجد اسمه أيضاً بين أسماء أمراء المدينة.

وتشير العبارات التي ورد فيها ذكر محيط العلوي إلى أنه جاء من خارج

---

١) انظر : المنتظم ٣٠٤/٨ -

٢) انظر : الكامل ١٢١/٨ -

٣) انظر النجوم الزاهرة ٥ / ١٠٤-

المدينة، حيث يقول ابن الجوزي (فدخل رجل علوي المدينة) ويقول: ابن تعزي بردي (في صفر غلب على المدينة النبوية محيط العلوي)(١) ولاندري هل كان محيط العلوي من رجال الفاطميين؟ أم أنه شيعي من أبناء المنطقة أعان أهلَ المدينة على التخلص من أميرها الذي أرهقها بالضرائب، واكتفى بتحويل الولاء للفاطميين، وسلم الإمارة لرجل من آل المهنا؟.

ففي كتب التاريخ ثغرة كبيرة تشمل هذه الفترة، حيث سكت المؤرخون عن أحداث المدينة وحكامها. فلا نجد أية اشارة حتى عام ٤٩٢هـ، حيث نلقى منصور بن عمارة بن مهنا الحسيني -من آل المهنا أيضاً- أميراً على المدينة، وله علاقة بمجد الملك الباسلاني. وقد توفي منصور بن عمارة عام ٤٩٥هـ وخلفه ابنه.

فمن هو أمير المدينة في هذه المدة الطويلة: من ٤٦٩ - ٤٩٢؟؟

وماالأحداث التي جرت آنئذ؟؟ سلسلة من المجاهيل لانجد فيما بين أيدينا من كتب أية اجابات عنها..

عودة آل المهنا إلى الإمارة:

نتوقع أن محيطاً العلوي الذي أخرج الحسين بن مهنا قد تسلم الإمارة مدة من الزمن، ثم تسلمها منصور بن عمارة بن مهنا. وليس في كتب التاريخ مايشير إلى معارك أو وقائع. وهذا يجعلنا نرجح عودة الإمارة إلى آل مهنا سلماً بوفاة محيط أو تركه الإمارة طواعية.

وأما العلاقة بين منصور بن عمارة ومجد الملك الباسلاني فدافعها اقتصادي محض، ذلك أن مجد الملك كان واحداً من القادة المتنفذين في الدولة العباسيه، وكان شيعياً غير متطرف لايسب الصحابة، وكان يكرم العلويين ويرسل إليهم الأموال والهدايا، وقد طلب من أمير المدينة أن يسمح له ببناء قبة على قبر الحسن بن علي وأخرى على قبر العباس بن عبد المطلب في

---

١) انظر المنتظم ٨ / ٣٠٤ - والنجوم الزاهرة ١٠٤/٥-

البقيع، وأرسل أموالاً وهدايا، وأرسل معماراً بارعاً فبنى القبتين، وفي عام ٤٩٢ هـ قتل مجد الملك الباسلاني، وعندما علم أمير المدينة بذلك قبض على المعمار ثم قتله(١).

وليس في كتب التاريخ مايشير إلى استمرار ولاء المدينة الاسمي للفاطميين، وبالعكس يشير بعض المؤرخين إلى أن الحجاز كله قد خرج من ولاء الفاطميين نهائياً في تلك الحقبة من الزمن(٢).

وقد تولى إمارة المدينة بعد منصور بن عمارة ابنه مهنا، واستمر فيها إلى عام ٥٠٧هـ، ولم تحدث في مدة إمارته أحداث لافتة للنظر يسجلها التاريخ، فقد بقيت المدينة في هدوئها وحياتها العادية، وودعت القرن الخامس الهجري واستقبلت القرن السادس وكأنها تتهيأ لأحداث متميزة..

وقبل أن نخرج من المدينة في القرن الخامس الهجري نلمح إلى بعض الكوارث العامة التي مرت بالحجاز كله وبعض البلاد الاسلامية الأخرى، وكان للمدينة نصيب ضئيل منها، ففي عام ٤٥٣هـ ظهر الطاعون في الحجاز، وكان أكثر انتشاره في الريف، وهلكت منه قرى كثيرة، ووقعت بعض الإصابات في المدينة، ولكنه لم يتحول إلى وباء خطير فيها، وفي عام ٤٧٨هـ تكررت الإصابات، وصحبها أيضاً انتشار موت الفجأة وجدري الأطفال، وكان نصيب المدينة ضئيلا أيضاً(٣).

---

١) انظر الكامل ١٩١/٨ - ٢١٤.

٢) انظر: التاريخ الإسلامي ٢٠٨/٤ و د.حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدوله الفاطميه ٢٣٩

٣) انظر المنتظم ١٩/٥-

المدينة في القرن السادس

حمل القرن السادس إلى المدينة المنورة قدراً أوفر من الاستقلال الذاتي، والبعد عن الأحداث العامة الكبيرة، فالصراعات تدور في أطراف العراق وخراسان والشام ومصر. والصليبيون يحتلون شريطاً ساحلياً ممتداً من جنوب تركيا إلى حدود مصر، ويهددون بعض المدن في الشام ومصر. والمدينة بعيدة عن ذلك كله.. تعيش حياتها اليومية العادية، وتتأثر بما يجري خارجها وتضطرب لغارات بعض القبائل على الطرق المؤدية إليها، ويزداد اضطرابها عندما تغير على بيوت المدينة نفسها فتنهب وتسرق. أما ما سوى ذلك فلايسجل التاريخ أحداثاً مهمة في المدينة. بل إن التاريخ يضن علينا بأسماء أمرائها لفترة طويلة، فالأمير الذي استقبل القرن السادس الهجري مهنا بن منصور بن عمارة توفي عام ٥٠٧هـ وأول أمير نجد أخباره من بعده هو القاسم بن مهنا، الذي تولى الامارة عام ٥٦٣ هـ واستمر فيها إلى عام ٥٨٨هـ. فهناك أميران أو أكثر لانعرف أسماءهم ولامدة إمارة كل منهم.

لذلك ليس لنا إلا أن ننظر في الأمور العامة التي جرت في المدينة خلال هذه المدة، قبل أن يتولى القاسم بن المهنا الإمارة.

الولاء السياسي لأهل المدينة:

كان ولاء أهل المدينة في هذا القرن للعباسيين، حيث ترتفع الرايات السوداء على الإمارة، وينصب علمان أسودان بين يدي خطيب المسجد النبوي، ويدعي للخليفة العباسي على المنابر.

وكانت المدينة تستقبل في كل موسم حج قافلة الحجاج القادمة من العراق، ومعها الأموال المخصصة للمدينة بدءاً بأميرها، ومروراً بنفقات المسجد النبوي وكسوة الحجرة التي تضم قبر رسول الله ﷺ، ووصولا الى

أعطيات الأشراف وصدقات الفقراء والمجاورين.

وكانت الأموال الواردة إلى المدينة تضم مايرسله بعض الأثرياء الذين يتطوعون بالصدقات على فقراء الحرمين، أو بإقامة الأربطة للمقيمين والمجاورين والزائرين أو ما يوصون به في هذه السبل، فتخرج بعد وفاتهم. وقلما يخلو موسم منها.

وقد بلغت وصية أحد الأمراء، وهو معلم أبناء الخليفة في بغداد -أكثر من ثلاثين ألف دينار للمدينة- ومثلها لمكة(١).

غير أن الأموال المرسلة إلى الأمراء لم تكن كافية لسد نفقاتهم الخاصة والعامة، لذلك عمدوا إلى فرض رسوم على القادمين إلى المدينة لدعم وارداتهم وكانت هذه الرسوم تزعج القادمين.

ويذكر السمهودي أن بعض إمراء المدينة استولوا على الأراضي التي كانت موقوفة للمساكين من صدقات النبي ﷺ حوالي سنة ٥٢٠هـ وأخذوا ريعها لأنفسهم(٢) ورغم أن هذا الحدث كبير وخطير، يثير مشاعر المسلمين، ويعرض أمراء المدينة لمعاقبة الدولة العباسية او الفاطمية، فإنه مر دون أية ضجة، وفي تقديري أنه وقع تدريجياً، وأن الذي استولى على هذه الصدقات قد استغل فرص انقطاع الأموال القادمة من بغداد، أوقلتها، فأخذ بعض أموال الصدقة، ثم أخذها كلها، ثم أخذ المزارع ذاتها، وقد يكون عدد من الأمراء المتوالين قد فعلوا ذلك بالتواطئ مع القائمين عليها..

ولاشك أن انشغال الخلافتين العباسية والفاطمية بالحوادث المضطربة آنئذ ساعد امراء المدينة على الاستقلال الكامل والتصرف بما يريدونه.. كما كانت الخلافة العباسيه مشغولة بمواجهة الصليبيين الذين استولوا على القدس في نهاية القرن الخامس ٤٩٢هـ.

---

١) المنتظم ٩ / ٢١٩ - البداية والنهاية ١٢ / ٢٠ -

٢) وفاء الوفاء ٢/٩٩٤ -

وقد أدت هذه المعارك إلى اضطراب قوافل التجارة وقوافل الحج القادمة من الشام عدة مرات، الأمر الذي يؤثر على اقتصاديات المدينة المنورة.

فاذا أضفنا إلى ذلك استمرار بعض الأعراب في التعرض للقوافل التجارية وقوافل الحجاج أدركنا حجم العزلة والضائقة التي كانت تمر بالمدينة بين الحين والآخر، لذلك لم تتسع المدينة في هذه الفترة، ولم تخرج من السور الذي أحاط بها، ولم تحدث فيها أحداث مهمة يسجلها المؤرخون.

واشتهرت قبيلة (زعب) بغاراتها على قوافل الحجاج قرب المدينة المنورة، فقد أغارت عام ٥٤٥هـ على قافلة الحج ونهبتها وفتكت بعدد كبير من الحجاج(١)، وتكرر الأمر مرات كثيرة، حتى إنه لم يصل إلى المدينة في بعض المواسم (غير حفنة قليلة من الحجاج، وغلت الأسعار وقل الطعام)(٢) وكان أمراء المدينة عاجزين عن تأديبهم وعن تأمين الطرق المؤدية إلى المدينة، وعاجزين عن حماية المدينة نفسها، فقد تهدمت أجزاء من السور الذي مر أكثر من قرن ونصف على إنشائه، ولم يكن في الإمارة المال الكافي لترميمه وتقويته، كما لم يكن لها قوة كافية تتصدى لغارات الأعراب، لذا كثرت غاراتهم، فقد كانوا يفاجئون الناس ليلا، فينهبون ما تصل إليه أيديهم، وربما يسبون بعض النساء والأطفال ثم يفرون إلى معاقلهم. فتأذى منهم أهل المدينة أذى شديداً.

سور جديد للمدينة:

شكى بعض أهل المدينة في عام ٥٤٥هـ إلى الوزير جمال الدين أبو محمد بن علي بن أبي المنصور الأصفهاني صاحب الموصل آنئذ ماتعانيه المدينة من هجمات الأعراب، وكان الوزير جمال الدين يلقب بالجواد لشدة كرمه وكثرة صدقاته، فأمر الوزير ببناء سور محكم حول المدينة المنورة مكان

١) الكامل ٢٧/٩.

٢) الكامل ٩٢/٩.

السور القديم المتهدم، وأرسل نفقاته من ماله الخاص، وقد استوعب السور الكتلة المعمارية المحدودة التي كانت تتألف منها المدينة المنورة آنئذ(١)، وقد حفظ السور المدينة من شرور المغيرين عليها فيما بعد(٢) حتى إن خطيب المدينة كان يدعو له على المنبر بعد وفاته لأنه (صان حريم المدينة)(٣).

واللافت للنظر في هذه الأخبار ليس عجز إمارة المدينة عن تجديد سورها وحسب، بل إنشغال الخلافتين العباسية والفاطمية عن هذا الأمر الخطير، وإذا كنا نحسب للفاطميين بعدهم وعدم موالاة المدينة لهم، فإننا نعجب لانشغال الخلافة العباسية عن أمر المدينة والأخطار التي تهددها حتى يقوم بها فرد واحد استجابة لدافع إيماني خالص.

ولم يكتف جمال الدين ببناء السور، بل بنى رباطاً كبيراً فيها أوقفة لفقراء العجم الذين يجاورون في المدينة المنورة، وللزائرين في الموسم، في موقع دار عثمان بن عفان المسماة (الدار العظمى) وهي أكبر دور المدينة آنئذ (٤) وخصص غرفة منها ليدفن فيها بعد موته، واتفق مع أسد الدين شيركوه على نقل جثمانه إليها إن توفي بعيداً عنها. وقد نفذ شيركوه وصيته فأرسل جثمانه إلى المدينة ودفن فيها عام ٥٥٨هـ(٥).

ويذكر ابن كثير مآثر عدة للوزير جمال الدين وآثاراً في مكة والمدينة والطريق بينهما.

ومما يذكر في هذا السياق أن المبادرات الفردية هي التي كانت تقوم بأمر الأربطة والفقراء وبعض احتياجات المسجد النبوي، وأن مكانته ومكانة

---

١) الكامل ٨٨/٩ -
٢) البداية والنهاية ٢٦٧/١٢ - مرآة الحرمين ٤١٠/١ -
٣) النجوم الزاهرة ٣٦٥/٥
٤) عائشة بوقاسي: الحجاز في العصر الأيوبي ص ٩٦ -
٥) اتعاظ الحنفاء ٣ / ٣٠٧ - الكامل ١٤٤/٩-

المدينة في نفوس المسلمين في أقطار الأرض كانت تحثهم على إرسال الأموال إليها وتخصيص الأوقاف للانفاق على الأربطة وبعض المرافق الأخرى. ولا سيما مرفق المياه الكبير والحيوي في المدينة (العين الزرقاء).

الآثار الفاطمـية في المدينة:

من المدهش أننا لانجد في المدينة المنورة أثراً عمرانياً للفاطميين، لافي المسجد النبوي، ولافي المرافق العامة، ولا في الأربطة الموقوفة على الفقراء والمحتاجين. وقد عرف عن الفاطميين اهتمامهم بالعمران، وبناؤهم بعض الأبنية المشهورة ولاسيما المساجد كالجامع الأزهر والجامع الأقمر وجامع الصالح وغير ذلك من الأبنية(١). وكذلك عرف عنهم اهتمامهم الشديد بمد نفوذهم إلى الحرمين وإنفاقهم الأموال الطائلة على قوافل الحجاج، ودفعهم الأموال لأمراء الحرمين لكسب ولائهم الاسمي والخطبة لهم على المنبر، فهل يكون إحساسهم بضعف ولاء امراء الحرمين لهم السبب في عدم إقامة الأبنية والمرافق فيها؟ أو حتى إعادة إعمار المسجد الحرام والمسجد النبوي أو ترك أية منشأة معمارية تحفظ ذكرهم.

محاولة ثانية لنقل جسد الرسول ﷺ:

ويذكر مؤرخ الدولة الفاطمية الكبير المقريزي حادثة خلاصتها: أن الخليفة الفاطمي الحافظ - الذي حكم مابين ٥٢٤ و ٥٤٤هـ - حاول أن ينقل جثمان رسول الله ﷺ الى القاهرة، فبعث أربعين رجلا من الأشداء، فتوجهوا إلى المدينة وأقاموا بها مدة، وحفروا سرباً من مكان بعيد، فعصم الله رسوله ﷺ منهم، ويقال إن السرب انهار عليهم فهلكوا، وقيل بل سُعي بهم

---

١) تاريخ الاسلام ٦١٩/٤ .

فأهلكوا (١) ولا يذكر هذه الحادثة مؤرخ غير المقريزي. غير أننا نذكر أن الحاكم العبيدي قد فكر بالأمر نفسه من قبل، واستعان بأمير مكة، ولكن الله رد كيده. لذلك لايستبعد نظرياً أن يكون الحافظ قد فكر بما فكر فيه سلفه الحاكم وكرر المحاولة ورد الله كيده أيضاً.

قوافـل الحجاج المنكوبة:

منذ أن اكتمل بناء السور بأموال جمال الدين الأصفهاني الجواد أحس أهل المدينة والقاطنون فيها بشيء من الطمأنينة، فقد أمنوا غارات الأعراب ومفاجآت الليل، ولكن هذا الأمن لم يتعد سور المدينة إلى خارجها، أي الى الطريق شمالا أو جنوباً، فالقبائل المستوطنة خارجها مازالت تتربص بالقوافل المارة لتنهبها، لذلك كان المسؤولون عن القوافل يفاوضون رؤساء القبائل ويدفعون لهم الإتاوات مقابل عدم الاعتداء عليهم، وحمايتهم من اللصوص في المناطق التي يسكنونها، وإذا لم تبادر القافلة بالدفع تعرضت للنهب والقتل والاسترقاق.. وقد أغارت قبيلة زعب على قافلة عراقية قادمة من مكة الى المدينة عند منطقة (الغرابي) وكان أمير القافلة (قايماز) قد همّ بدفع إتاوة لزعب قبل أن يخرج من مكة، ولكن مرافقيه رفضوا الدفع، فخرج عليه بنو زعب وقاتلوهم، وظفروا بالحجاج، ونهبوا أموالهم ومتاعهم، وتفرق الحجاج في البر، وهلك منهم خلق كثير، ولم يسلم إلاالقليل(٢).

وتكرر هجومهم في العام التالي وكان في القافلة أخت السلطان نور الدين زنكي، فأخذوا منها مئة ألف دينار، ومات كثير من الحجاج جوعاً وعطشاً(٣).

---

١) اتعاظ الحنفا ١٩٢/٣-

٢) الكامل ٩ / ٢٧ واتحاف الورى ٢ / ٥١١ -

٣) الكواكب الدرية ١٣٦-

المدينة المنورة والأيوبيون:

لم يجد السلطان نور الدين زنكي بداً من مهادنة هذه القبائل وإرضائها، إذ كان مشغولا بمواجهة الصليبيين وبعض الأمراء المجلين في الشام وحلب فأرسل إلى تلك القبائل أموالا، وأوقف لها ولبقية القبائل في الطريق من المدينة إلى الشام إقطاعات توفر لهم دخلا سنوياً، وأرسل إلى أميري الحرمين الشريفين أموالا لإصلاح بعض المرافق ولاسيما مجرى العين الزرقاء وعين الشهداء التي تجري بين أحد وقبر حمزة رضي الله عنه(١).

ونتيجة لذلك قامت علاقة حسنة بين أمير المدينة والزنكيين. وأرسل نور الدين أموالاً كثيرة واشترى رباطاً وأوصى أن يدفن فيه بعد موته(٢).

وفي الوقت نفسه كان الفاطميون الذين أشرفت دولتهم على نهايتها يحرصون على شيء من المودة مع أمراء الحرمين، فقد أرسل رؤيك بن الصالح وزير العاضد - آخر الخلفاء الفاطميين - أموالاً الى أمير الحرمين، ودفع عن الحجاج الرسوم التي تطلب منهم في مكة والمدينة، وللأعراب الذين تمر بهم قافلة الحجاج المصريين(٣).

انتعاش محدود:

أخذت المدينة تنتعش تدريجياً في ظل الأمان والسكينة والأموال الواردة من الشام ومصر، وأخذت البيوت تكثر حتى ضاق عنها السور. فتجرأ بعض السكان وبنى بيوتاً خارج السور، اعتماداً على حالة الأمن التي اضطردت أكثر من عقد من الزمان. وعندما كثرت الدور خارج السور أطمعت بعض الأعراب. فأغاروا عليها وسرقوا منها. فاضطرب الأمن الذي نعمت به المدينة المنورة لسنوات عدة. وأصبحت الحاجة ماسة لتوسعة السور ليحمي الدور الجديدة.

---

١) الكواكب الدرية ١٦ - ١٧ ودر الفوائد ٦٦٣ -

٢) اتحاف الورى ١٠ / ٥٢٢ -

٣) اتعاظ الحنفا ١٧١/٢ -

سور ثان للمدينة المنورة:

وفي عام ٥٥٧هـ حج نور الدين زنكي، وزار المدينة، فاستغاث به بعض الساكنين خارج السور وأخبروه بما يلحقهم من أذى شديد، فأمر ببناء سور جديد يشمل جميع بيوت المدينة داخل السور القديم وخارجه، فبني على وجه السرعة، وتم بناؤه في العام التالي ٥٥٨هـ، وقد بني هذا السور في مواجهة السور القديم تماماً واتسع ليضم المسافة الجديدة في الجهات كلها.

تحسين مرفق المياه في المدينة:

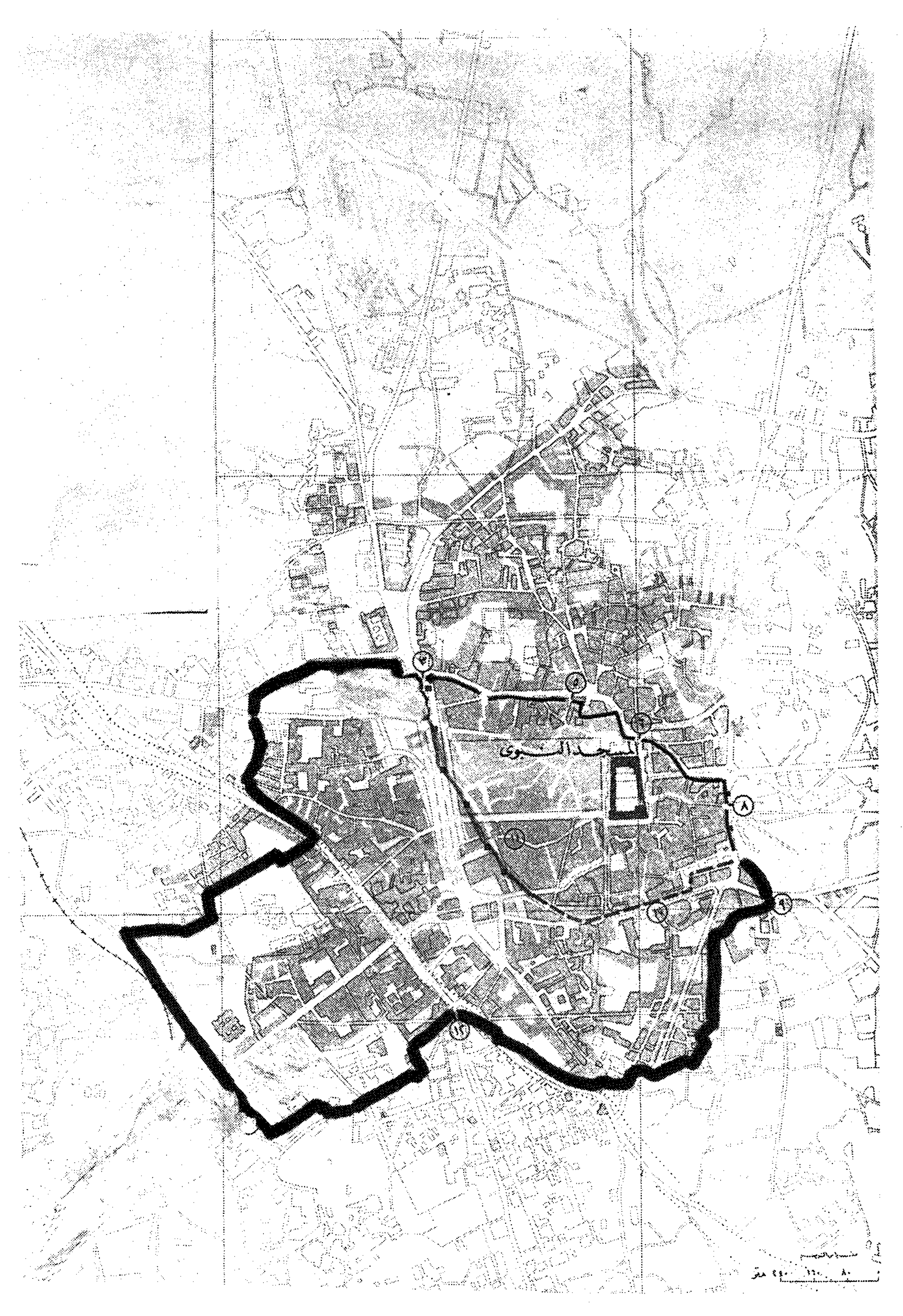
كانت شبكة مياه عين الزرقاء التي أنشأها مروان بن الحكم مصدر المياه الرئيسي لبيوت المدينة، وبمرور السنين تعطلت أجزاء من هذا المرفق وأصبح في حاجة للإصلاح، وعندما حج الوزير العباسي ابن أبي الهيجاء وزار المدينة رأى حاجة أهلها لإصلاح مرفق المياه، فأرسل بعد عودته أموالا كثيرة بنيت بها خزانات جديدة تجتمع فيها مياه عين الزرقاء وبعض العيون الأخرى، وأجريت صيانة لبعض الأقنية القديمة، وحفرت قناة جديدة من الخزانات إلى داخل المسجد النبوي، وبني في ساحته مكان للوضوء، وبنيت في بعض الأحياء التي تمر بها الأقنية موارد ينزل إليها الناس ليستقوا منها، واستفاد أهل المدينة من هذه التحسينات، باستثناء القناة التي مدت إلى داخل المسجد النبوي، فقد أساء بعض الزائرين استخدامها فأمر أمير المدينة باغلاقها بعد سنة واحدة من بنائها(١) .

النصارى وقبر الرسول:

يسوق بعض المؤرخين حادثة تثير شيئاً من الجدل، خلاصتها أن نور الدين زنكي رأى في منامه رسول الله ﷺ ثلاث مرات في ليلة واحدة وهو يقول له في كل مرة: يا محمود أبعدني عن هذين الأشقرين، ويشير إلى شخصين تجاهه، فاستحضر وزيره وذكر له الرؤيا، فقال الوزير هذا أمر قد

---

١) أنظر : الحجاز في العصر الأيوبي ص ٨٩-٩٠



السور الثاني ويظهر من خلاله اتساع العمران في المدينة

حدث في مدينة رسول الله ﷺ ليس له غيرك. فتجهز نور الدين وخرج على عجل ومعه وزيره، ووصل المدينة في ستة عشر يوماً ودخلها على غفلة من أهلها، ومضى إلى المسجد فسلم على رسول الله ﷺ، ثم طلب أن يأتيه أهل المدينة جميعاً لينعم عليهم ، فجاؤوه، ولم يبق إلا رجلان من أهل الأندلس مجاوران قالا : نحن على كفاية ولا نقبل شيئاً، فجدّ في طلبهما، فجيء بهما، فلما رآهما تبين له أنهما اللذان رآهما في منامه، وحقق معهما فأنكرا، وأنكر أهل المدينة اتهامهما بشيء، لِمَا عُرف عنهما من نُسُك وصدقات، فذهب نور الدين إلى منزلهما، وكان قرب المسجد النبوي في مواجه الحجرة الشريفة، واكتشف بعد التفتيش أنهما حفرا نفقاً إلى الحجرة وقاربا الوصول إلى القبر الشريف، فقررهما، فاعترفا أنهما من النصارى، وأن بعض الملوك الصليبيين بذلا لهما مالاً كثيراً ليسرقا جسد الرسول ﷺ وينقلاه من المدينة، فضرب عنقيهما قرب المسجد، ثم أمر بحفر خندق عميق حول الحجرة، فحفر عميقاً حتى خرج الماء، فصب فيه رصاصاً كثيراً، وبذلك أصبح حول الحجرة سور عظيم من الرصاص(١).

وقد تناقل المؤرخون المتأخرون هذه الحادثة، فقبلها بعضهم، ورفضها بعضهم الآخرللأسباب التالية:

أولا : إن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحماية نبيه صلى الله عليه وسلم. ولا يعقل أن يستغيث رسول الله ﷺ بنور الدين.

ثانياً : إن المساحة المذكورة من النفق الذي حفره النصرانيان تقتضي نقل كميات كبيرة من التراب، ولايمكن نقلها دون أن يشعر بهما أحد.

ثالثاً : لو نجح النصرانيان في الوصول إلى القبر فكيف يستطيعان نقل جسد رسول الله ﷺ، والخروج به عبر البلاد الإسلامية دون أن يضبطا. لذلك لايمكن أن يفكر أحد بهذا العمل..

---

١) الكواكب الدرية ٧٢، وفاء الوفاء٢/٦٥ -.

وينتهي بعضهم الى أن هذه الحادثة من صنع الخيال، وأن الداعي لاختلاقها رفع درجة السلطان نور الدين محمود الزنكي(١).

ولو ناقشنا الأسباب التي أبداها المعترض لوجدناها تتساوى في ضعفها مع الرواية التي يرفضها. فقد اعتمد في قضية الاستغاثة على رواية للسمهودي، بينما الرواية التي وردت في الكواكب الدرية (ص ٧٢) ليس فيها استغاثة. إنما طلب، أو أمر، بإبعاد النصرانيين عن القبر.

ولاشك أن حفظ الله سبحانه وتعالى لرسوله مطلق في حياته وبعد وفاته إلى يوم الميعاد. وقد يكون من وسائل الحفظ تسخير بعض عباد الله لمعاقبة المعتدين على حرمة رسول الله ﷺ حياً وميتاً، للتشهير بهذا المعتدي، وليكون عبرة للكفار وضعفاء النفوس.. وقد نقل المؤرخون محاولة الحاكم الفاطمي نقل الجسد الطاهر إلى مصر، واشتداد الأمر على أبي الفتوح والي مكة. وفي إحدى الروايات أن أهل المدينة عندما علموا بالخبر جاؤوا إلى المسجد النبوي ومعهم مقرئ يعرف بالزلباني فقرأ (وإن نكثوا أيمانهم من بعدِ عهدِهم وطعنوا في دينِكم فقاتلوا أئمةَ الكفرِ إنهّم لاأيمانَ لهم لعلّهم ينتهون * ألاتقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أولَ مرةٍ ، أتخشونهم ، فاللهُ أحقُ أَنْ تَخشوه إن كنتم مؤمنين)(٢)، فماج الناس وكادوا يقتلون أبا الفتوح ومن معه من الجند، ولما رأى أبو الفتوح ذلك قال لهم: الله أحق أن نخشى، والله لو كان علي من الحاكم فوات الروح لما تعرضت للموضع، وحصل له من ضيق الصدر ما أزعجه؛ كيف نهض في مثل هذه المخزية؟ فما انصرف نهار ذلك اليوم حتى أرسل الله ريحاً كادت الأرض أن تتزلزل من قوتها، حتى دحرجت الإبل بأقتابها، والخيل بسروجها كما

---

١) انظر المدينة بين الماضي والحاضر ص ١٦٤ -والمسجد النبوي عبر التاريخ ص ١٣٩ -

٢) التوبه: ١٢/١٣

تتدحرج الكرة على وجه الأرض، وهلك أكثرها، وخلق من الناس، فانشرح صدر أبي الفتوح، وذهب روعه من الحاكم لقيام عذره(١).

وأما السبب الثاني، نقل التراب، فليس بعسير، ولن يعدم المجرمان طريقة هادئة لذلك.

وأما نقل الجسد الطاهر، فان تفكير الكاتب يختلف عن تفكير أبناء ذلك العصر، فلم يكن أولئك يحسبون الحسابات التي تدور في أذهاننا اليوم، ولم يكن السفر من بلد الى بلد على الجمال يخضع للتفتيش والمراقبة الموجودتين في عصرنا، فضلاً عن أن منافذ السفر لاتقتصر على نقاط حدود أو مطارات أو موانئ محددة.

فمن حيث المبدأ يمكن لبعض أعداء الإسلام أن يفكروا بما ورد في الخبر، خاصة وأن عصر الرواية هو عصر ذروة المشاعر العدائية ضد المسلمين، وهي المشاعر التي نتجت عنها الحروب الصليبية. لذلك كله لانستبعد القضية نظرياً.

غير أننا نجد أسباباً أخرى تثير بعض الشكوك حولها، هذه الأسباب هي سكوت المصادر التاريخية الكبيرة عن هذه الحادثة، كالبداية والنهاية، والكامل، وتاريخ ابن خلدون. وأول رواية للحدث نجدها عند جمال الدين أحمد بن محمد المطري صاحب كتاب ((تاريخ المدينة الشريفة)) وقد نقلها ابن قاضي شهبة في الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ٧٢ -٧١، ونقلها السمهودي أيضاً، ولم يطعن فيها، رغم أنه ينقد الروايات التي يشك فيها، ولكنه تعجب من عدم وجود هذه القصة في كتابات من ترجم لنور الدين. ولعل السمهودي لم يطلع على كتاب السيرة النورية لابن قاضي شهبة، فقد وردت القصة فيه كاملة نقلاً عن المطري.

نخرج من ذلك كله إلى أن القصة محتملة الوقوع إذا تجردت من المبالغة

---

١) رسائل في تاريخ المدينة ص ١٣٢ -

الواردة في بعض الروايات، وبالذات قضية استغاثة رسول الله ﷺ بنور الدين.

ضائقة مؤقـــــتة:

في منتصف القرن السادس الهجري شهدت المدينة، وسائر الحجاز، ضائقة اقتصادية شديدة، فقد شحت الأمطار وانتشر القحط، وبلغ ذروته عام ٥٥٩هـ فقلّ الطعام، وجفت معظم العيون، ولم يستطع الحجاج زيارة المدينة لأن العيون التي يستقون منها في الطريق إليها قد نضبت، وانقطع كثير منهم في فيد والثعلبية وواقصة وغيرها، وهلك خلق كثير في البرية(١) وأضر القحط بزراعة المدينة، فقل المحصول، وغلت الأسعار غلاءً فاحشاً.

واستمر الحال على ذلك في العام التالي ٥٦٠هـ الى نهايته(٢) وفي العام الثالث جاء الفرج، فجادت السماء بالأمطار، وجرت الأودية، وعادت المياه إلى الينابيع، وتحسن المحصول ورخصت الأسعار، وتوافد الناس الى المدينة زائرين(٣)..

---

١) انظر اتحاف الورى بأخبار أم القرى ٢/٥٦٢-

٢) انظر الكامل ٩/٩٢ -.

٣) انظر المنتظم ١٠/٢٢٠

القاسم بن مهنا:

وفي الستينيات من هذا القرن تسلم الإمارة رجل تردد اسمه في كتب التاريخ، واقترن بالثناء العطر، وهو القاسم بن مهنا.

تولى القاسم إمارة المدينة عام ٥٦٣هـ بعد وفاة أبيه -الذي لاندري كم سنة أقام في الإمارة، ولم يرتبط اسمه بحدث مهم- وكان عاقلا تقياً محبوباً، كثير الأسفار. وهو أول أمير من أمراء المدينة بعد القرن الثالث الهجري يخرج من حدود الحجاز، ويتصل برجال العصر ويقيم معهم علاقات وطيدة، تعود آثارها الطيبة على المدينة وأهلها.

فقد سافر القاسم إلى بغداد عام ٥٦٦هـ عندما تولى الخلافة المستضيء، وأكد ولاءه للعباسيين، فسر الخليفة لذلك، وأصدر مرسوماً بتثبيته في الإمارة، تأكيداً لارتباط المدينة بالدولة العباسية(١) وتردد القاسم على بغداد بعد ذلك عدة مرات ونال أعطيات الخليفة له وللمدينة(٢). وسافر إلى مصر في العام التالي، واتصل بصلاح الدين الأيوبي، فأحبه صلاح الدين، وقامت بينهما علاقات طويلة، واصطحبه في بعض معاركه، وكان يتفاءل بوجوده معه ويستبشر بالنصر..

صلاح الدين الأيوبي في المدينة المنورة:

كان صلاح الدين الأيوبي منهمكاً بترتيب أمور بلاد الشام ومصر، والقضاء على الأمراء والملوك الذين فتتوا البلاد واستعانوا بالصليبيين، والإعداد لطرد الصليبيين من المنطقة، ورغم ذلك التفت إلى المدينة المنورة وأهتم بأحوالها بعد أن اتصل به أميرها القاسم، فقد أرسل إليها أموالاً كثيرة لإصلاح مرافقها، وتأمين الطريق إليها، وحفر الآبار فيها، وأرسل

---

١) انظر د٠جميل حرب الحجاز واليمن في العصر الأيوبي صـ٦٨

٢) محمد بن تقي الدين: مضمار الحقائق وسر الخلائق ص ٣٩-٤٠ ، تحقيق حسن حسن حبشي. القاهرة ١٩٦٨-.

أموالاً للقبائل المقيمة على طريق الحرمين كي لايتعرضوا للحجاج والمسافرين، وطلب من أمير المدينة وأمير مكة إبطال الرسوم المفروضة على الحجاج والزائرين، وعوضهم عما كانوا يحصلون عليه من خزانته، فأبطلت الرسوم. وأرسل ثمانية ألاف إردباً قمحاً لتفرق على أهل الحرمين(١) وأرسل أربعة وعشرين خادماً خصياً لخدمة الحرم، وجعل عليهم شيخاً اسمه بدر الدين الأسدي، وكان هؤلاء بداية فئة الأغوات التي توالت على خدمة المسجد النبوي في الأجيال التالية، وارتبط اسمها باسمه، وأوقف لهم صلاح الدين قريتي قبالة ونقادة في صعيد مصر ليكون دخلهما رواتب دائمة لهم ولمن يخلفهم(٢) وأقنع صلاح الدين القاسم بن مهنا بحذف عبارة (حي على خير العمل) من الأذان، وكان الفاطميون قد أدخلوها على الأذان، وفرضوها على المدينة أيام نفوذهم فيها، وبقيت بعد زوال نفوذهم بسبب تشيع عدد من آل المهنا، فاستجاب القاسم لطلب صلاح الدين وأمر بحذف تلك العبارة من الأذان في المدينة، فحذفت، ووافق ذلك وصول أموال أخرى من الخليفة العباسي المستضيء لتصرف على المسجد النبوي، فبنيت فيه غرفة لحفظ ذخائره، ولاسيما المصحف العثماني الذي أصبح أقدم أثر فيه(٣) وعاشت المدينة فترة انتعاش في عهد صلاح الدين الأيوبي، ومعظم عهد الأيوبيين بعده، لايقلقها شيء سوى قلق الحملة الصليبية التي هددتها عام ٥٧٧هـ.

حملة صليبية تهدد المدينة:

كانت الحجاز بعيدة عن الحروب الصليبية منذ بدايتها، ورغم وصول الصليبين إلى أطراف مصر فانهم لم يتجهوا قط إلى الحجاز ولم يفكروا فيه. غير أن واحداً من عتاة الصليبيين حاول أن يغير مجرى تلك الحروب ويضرب

---

١) أنظر النجوم الزاهرة ٧٨/٦ و المدينة في العصر الأيوبي ٨٩ - ٩٠ -.

٢) أنظر : بدائع الزهور ٧٢/١ و السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٥٧ -.

٣) التحفة اللطيفة ١٧٦/١-.

المسلمين في أقدس بقاعهم، ولكن الله رد كيده إلى نحره، فدفع حياته ثمناً لمحاولته الفاشلة فيما بعد، هذا الصليبي هو: (رينولد دي شامون)، والذي يعرف في المصادر العربية باسم أرناط.

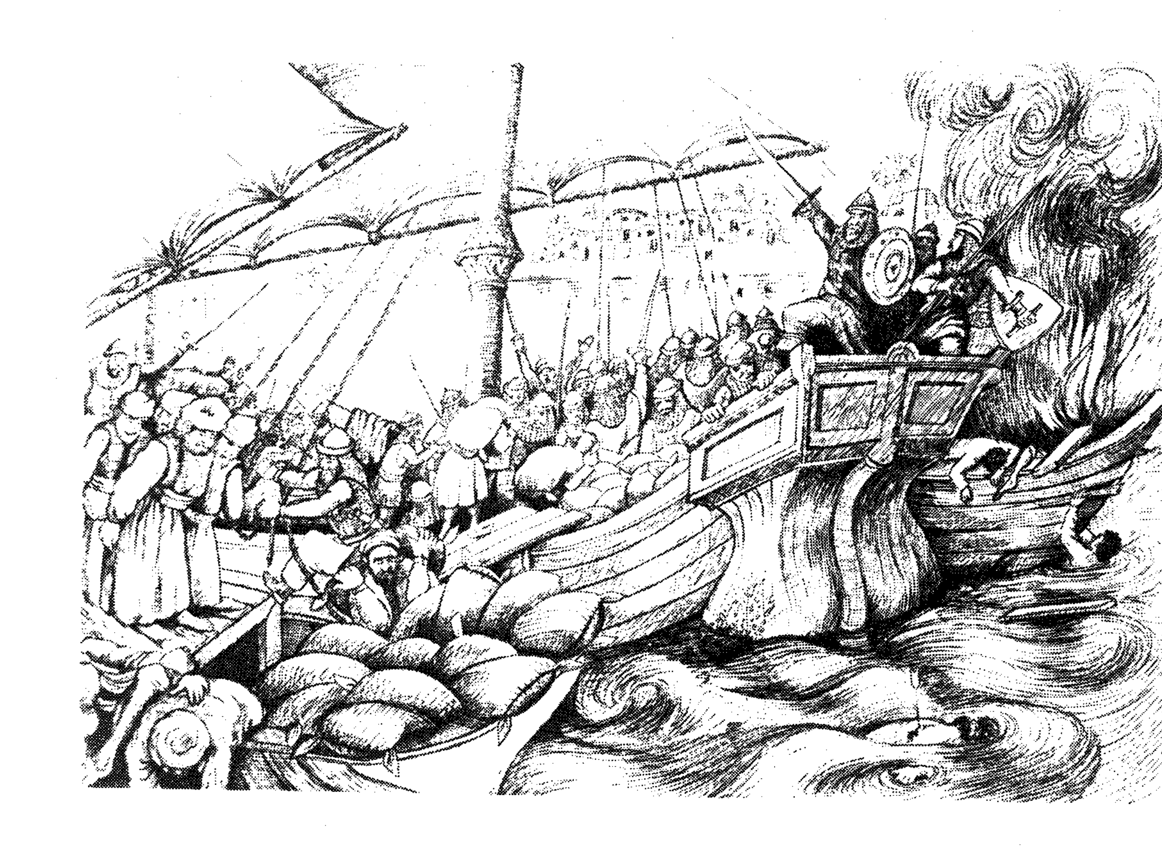
كان أرناط أحد القادة الصليبيين وأشدهم حقداً ولؤماً وغدراً، يعقد المواثيق مع المسلمين ثم ينقضها في أقرب فرصة، وقد وصفه ابن الأثير بأنه من شياطين الإفرنج ومردتهم وأشدهم عداوة للمسلمين، وكان يغير على المدن الإسلامية ويعيث فيها فساداً، فأسرة مجد الدين أبو بكر بن الداية، أحد قواد نور الدين زنكي، ومكث في الأسر خمس عشرة سنة ثم أطلق سراحه، فتزوج من أميرة نصرانية (اتبنت دي ميلي) ورثت مستعمرة صليبية في الأردن من أبيها، فانتقل إلى الكرك وجعلها مركزاً لغاراته على المسلمين، وتسلط على طريق القوافل بين الشام ومصر والحجاز وأخذ يغير عليها وينهبها ويفتك بالحجاج والمسافرين.

فكر أرناط بغزو الحجاز والوصول الى المدينة ومكة لطعن المسلمين في أعز مقدساتهم، فجهز حملة كبيرة اتجه بها الى الجزيرة العربية عام ٥٧٧هـ ووصل إلى مشارف تيماء، وأصبح طريقه إلى المدينة مفتوحاً، ففزع المسلمون لذلك، وكانت أول مرة تطأ فيها أقدام الصليبيين جزيرة العرب، ولم تكن في الحجاز قوة قادرة على التصدي للحملة، وكان صلاح الدين في الشمال مشغولا بترتيب أمور حلب والموصل، فلما بلغه الخبر أرسل إلى ابن أخيه ونائبه في دمشق فرخ شاه أن يتدارك الأمر، فجهز فرخ شاه حملة سريعة وسار بها إلى الكرك عاصمة أرناط ليأخذه من خلفه أو يجبره على الرجوع من الجزيرة العربية، ونجحت الخطة، وعاد أرناط إلى عاصمته مسرعاً عندما سمع بحملة فرخ شاه وترك غزو الجزيرة العربية، فأنقذها الله منه، ولم يرجع فرخ شاه عن الكرك إلا بعد أن وقع ارناط معاهدة بعدم التعرض لطريق المسلمين وقوافلهم.

غير أن أرناط لم يتخل عن مشروعه وراح يخطط له بخبث أشد، فقرر أن يتسلل إلى الحرمين من البحر الأحمر، ويفاجئ المدينة ومكة قبل أن يشعر به المسلمون ويجمعوا الجموع لصده، ولم يكن لأرناط ولا لأحد من الصليبيين سفن في البحر الأحمر، لذا بدأ بإعداد السفن في مدينة الكرك، ونقلها مفككة على ظهور الجمال إلى البحر الأحمر.

وأثناء ذلك اعترض قافلة كبيرة للمسلمين ذاهبة الى الحج، رغم أنه وقع قبل مدة وجيزة معاهدة بعدم التعرض للقوافل والحجاج، ونهب القافلة، وقتل كثيراً من الحجاج، فلما بلغ الخبر صلاح الدين غضب غضباً شديداً وأقسم ليقتلنه بيده إن ظفر به.

استفاد ارناط من الثروة الكبيرة التي نهبها من قافلة الحج، واستعان بها على إكمال صنع سفنه، واستأجر بعض الأعراب لنقلها على الجمال إلى العقبة، وأرسل معهم عدداً كبيراً من غلاة رجاله وأشدائهم، وفي العقبة جمع رجاله أجزاء السفن وأنزلوها إلى البحر الأحمر، وأبحروا فيها، دون أن يشعر بهم أحد، إلى شواطئ مصر في منتصف عام ٥٧٨هـ، ونجحوا في مفاجأة الموانيء التي نزلوها، فهاجموا ميناء عيذاب وقتلوا عدداً كبيراً من الآمنين ونهبوا السفن الموجودة في الميناء ثم أحرقوها، وكان فيها سفن شحنت بالميرة إلى المدينة ومكة، واستولوا على سفن قادمة من اليمن تحمل بضائع كثيرة، وقتلوا بحارتها ونهبوا مافيها ثم أحرقوها، وأبحر الصليبيون بعد ذلك إلى شواطئ الجزيرة العربية ونزلوا في الحوراء، وأحرقوا السفن التي وجدوها فيها، ثم انتقلوا إلى ينبع، فوجدوا سفناً قادمة من اليمن وبها بعض التجار المسلمين، فاستولوا على السفن وأسروا التجار. ثم نزلوا إلى الساحل وهاجموا القرى والبدو الذين صادفوهم، وفتكوا بهم ونهبوا أموالهم، ونجا من بطشهم من استطاع الفرار وأشاع الخبر حيثما وصل، فانتقل الخبر مع الركبان في كل إتجاه، وعظم البلاء، وأشرف أهل المدينة على الخطر، وكان



كانت القوة التي أرسلها أرناط أول قوة صليبية تبحر في بحر القلزم (البحر الأحمر)

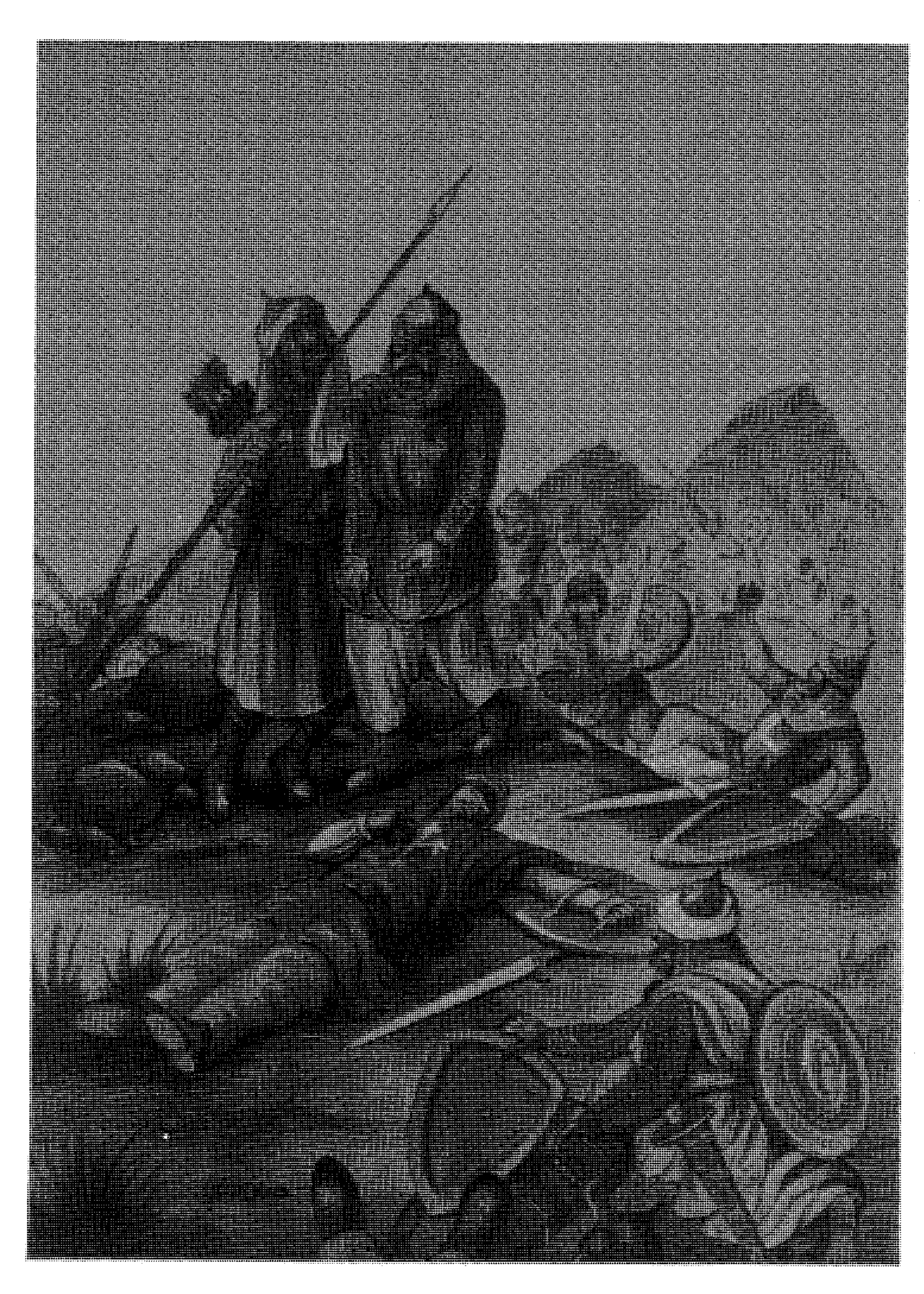
أمير المدينة القاسم بن مهنا مسافراً الى الشام ليلقى صلاح الدين، وكان نائبه لايملك شيئاً يستطيع به أن يدفع الغزاة الذين صاروا على بعد ليلة واحدة منها(١).

بلغ الخبر صلاح الدين بعد أن ضربت السفن الصليبية مرفأ عيذاب، وكان متجهاً من الشام إلى حوران جنوباً، فأرسل على وجه السرعة إلى نائبه في مصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب أن يوجه الأسطول بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ فوراً في أثر الغزاة، فاندفع الأسطول المصري إلى ميناء إيلة حيث وجد بقية من سفن الصليبيين المنقولة فقضى عليها كي لاتكون مدداً لهم، واتجه نحو عيذاب، ولما وصلها وجد الصليبيين قد خرجوا منها، فتبعهم إلى شواطئ الحجاز، وعثر على سفنهم في ميناء الحوراء في أوائل شوال عام ٥٧٨هـ، ووجد عدداً كبيراً من التجار المسلمين وقد أخذوا أسرى ونهبت بضائعهم وأموالهم، وتغلب على الحامية الصليبية الباقية للحراسة، وفك أسر التجار ورد إليهم أموالهم، واستعان بأهل المنطقة لتتبع أثر المتوغلين نحو المدينة، وكانوا ثلاثمئة رجل كما يروي العلمي(٢) وعلم الصليبيون المتوغلون نحو المدينة بوصول لؤلؤ إلى ينبع، وسيره نحوهم، وأدركوا أنهم إن دخلوا المدينة وقعوا بين فكي كماشة، فأهلها سيقاومونهم، ولؤلؤ سيدركهم من خلفهم، لذلك قرروا التحول إلى المرتفعات والاعتصام بها، حيناً من الوقت ثم شن الغارة على رجال لؤلؤ وعلى المدينة، فاتجهوا إلى الجبال القريبة واعتصموا بها وعلم لؤلؤ بتحركهم، فاشترى خيولا نشطة، وركب مع رجاله في أثر الصليبيين، وصعد إلى المناطق الوعرة، وظل يتبعهم خمسة أيام متوالية حتى وجدهم، وبعد معركة قاسية انتصر لؤلؤ ورجاله على الصليبيين الغزاة وقتل مائة وثلاثين رجلا منهم وأسر مائة وسبعين وأنزلهم من الجبال

---

١) المقريزي انقاظ الحنفاء ١/٧٢-

٢) الأنس الجليل ١/٢٨



وصـــار الصليبيون على مســافة ليلــة واحدة من المــدينــة. ولكن القــائــد حسام الدين لؤلؤ ورجاله استطاعوا الوصول إليهم فقتلوا بعضهم وأسروا الباقين

مقيدين.

وفي مطلع ذي القعدة من العام نفسه وصلت البشرى إلى المدينة المنورة ففرح أهلها فرحاً عظيماً، ورأوا بعض الصليبيين يقودهم جنود لؤلؤ ويتجهون بهم إلى مكة ليقتلوا على مرأى الحجاج، وعلموا أن لؤلؤاً وبقية رجاله عادوا إلى مصر ببقية الأسرى(١) وقد كتب صلاح الدين الى أخيه الملك العادل بمصر أن يضرب أعناق الأسرى في هذه الحملة لأنهم تجرأوا على مقدسات المسلمين، ولأنهم عرفوا الطريق إلى المدينة ومكة واطلعوا على عورات المسلمين في البحر الأحمر، ولايقبل فيهم فداء ولايطلقهم، كي لايفكر الصليبيون بعدها بالدخول إلى الجزيرة العربية، وقام كاتبه الأثير القاضي الفاضل بتدبيج رسالة بليغة في ذلك، وكان مما قاله فيها (ليس في قتل هؤلاء الكفار مراجعة ولا في استبقاء واحد منهم مصلحة، ولاللتغاضي عنهم عند الله عذر مقبول، فليمض العزم في قتلهم ليتناهى أمثالهم عن فعلهم)(٢) وقال في رسالة أخرى: (هؤلاء الأسارى قد ظهروا على عورة الإسلام وكشفوها، وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها، لوجرى في ذلك سبب والعياذ بالله لضاقت الأعذار إلى الله والخلق، وانطلقت الألسن بالمذمة في الغرب والشرق، ولابد من تطهير الأرض من أرجالهم والهواء من أنفاسهم، بحيث لايعود منهم مخبر يدل الكفار على عورات المسلمين)(٣).

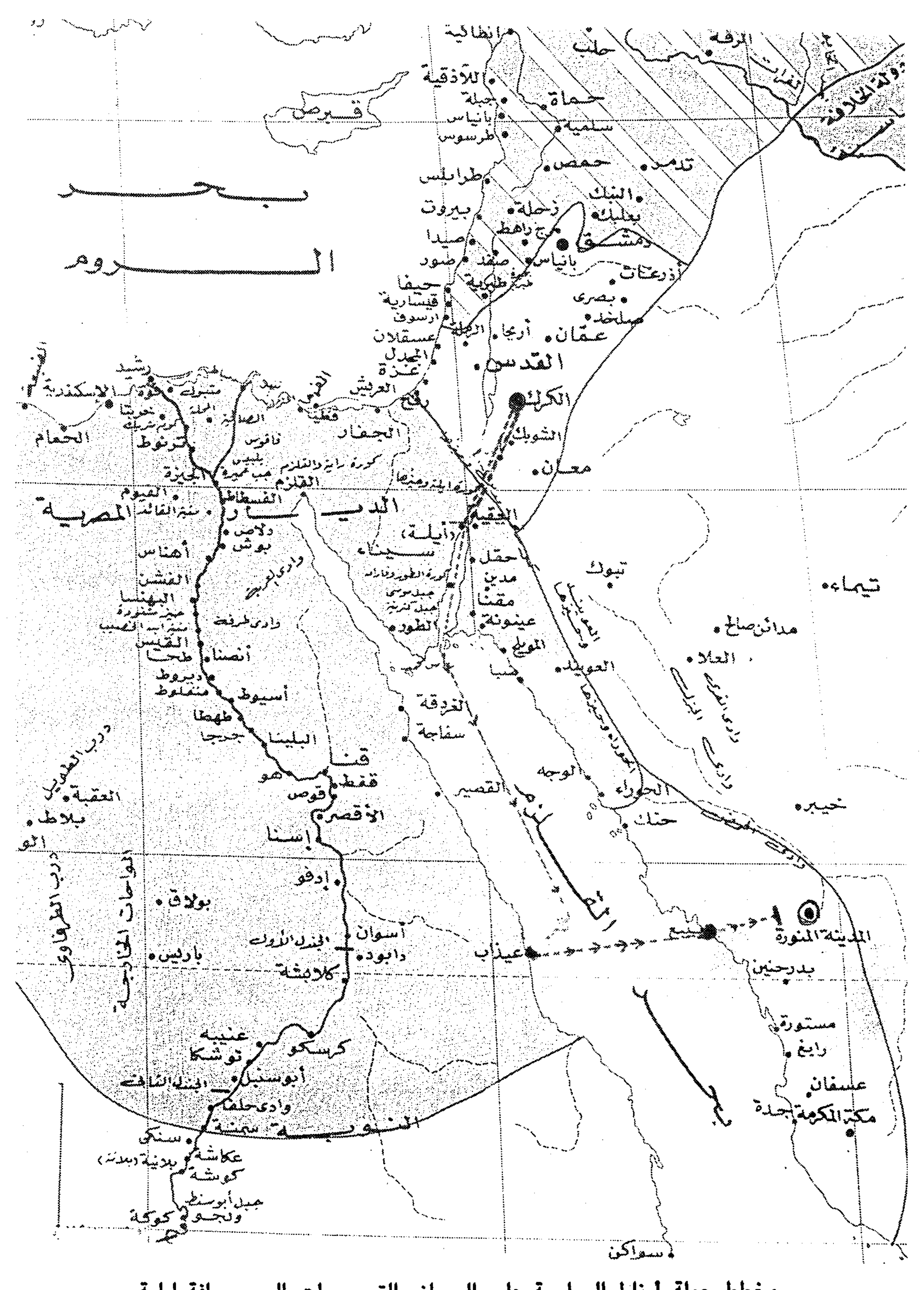
ومن وقتها لم يعد صلاح الدين يأمن من أرناط على الحجاز وعلى الحجاج، فبعث عيونه ليراقب تحركات أرناط، وأرسل الجنود لمرافقة قافلة

---

١) الكامل ٩/١٦٠-.

٢) الروضتين ٢/٣٧ -

٣) ذيل الروضتين ٢ / ٣٦ و انظر خبر هذه الحملة : سنا البرق الشامي ص ٢١٢ و ابن جبير ٣٣ / ٣٤ و ابن شداد : النوادر السلطانية ٧٨ و المقريزي : السلوك ١ ح قسم ٢ ص ٧٩ و العلمي : الانس الجليل ١/٢٨٠ -



مخطط حملة أرناط الصليبية على الحجاز والتي وصلت إلى مسافة ليلة واحدة من المدينة

الحجاج، وخرج بنفسه في العام التالي لمصاحبتهم من حوران، وأخذ يعد للقضاء على أرناط ورصفاءه من الصليبيين.. واستطاع بعد عامين أن يحشرهم في معركة حطين ويقضي على جيوشهم.. وأسر عدداً من ملوكهم وقادتهم بينهم أرناط، وبر بقسمه فقتل أرناط بيده جزاء وفاقاً لجرأته على الحرمين(١).

ومن اللافت للنظر في أخبار هذه الحملة أن المدينة المنورة كانت كجزيرة معزولة لاحول لها ولاقوة، فهي لاتملك جيشاً يذب عنها الغزاة، والسور الذي لم يمض وقت طويل على بنائه لم يكن كافياً لدفع الغزاة، والقبائل التي تحيط بالمدينة لاتتحمس لاعتراض الغزاة والايقاع بهم، وأقاربهم الهاشميون في مكة لايفعلون شيئاً لنجدتهم. ويبدو أن الضعف والتفكك كان عاماً في المنطقة، وأن الخصومات بين القبائل حالت دون تشكيل قوة تقف في وجه.. ثلاثمئة صليبي.. وربما يكون للمفاجأة أثر في هذا الموقف.. فالحجازيون لم يحسوا قط بخطر الصليبيين، ولم تقترب منهم عواصف الحرب التي تدور في الشام ومصر، ولم يكونوا يتوقعون أن تدنس أرضهم أقدام الصليبيين. لذلك لم يعدوا للأمر عدته.. وفاجأهم الغزاة فلم يتصرفوا على الوجه المطلوب.

والمتوقع أن الغزاة لايعرفون الطريق الى المدينة ولايستطيعون المضي في الحجاز دون دليل. ولابد أنهم استعانوا ببعض الأعراب سواء بالتهديد أوبالاغراء.. وقد نجحوا من قبل في خداع بدو الأردن وجعلوهم ينقلون لهم سفنهم المفككة على جمالهم وأوهموهم أنهم ينقلون بعض البضائع ليس غير.

على أي حال كان التفكك في الجزيرة العربية عاماً، وكان انشغال صلاح الدين بمواجهة الصليبيين ومكانة الحرمين الكبيرة في نفسه ومكانة أميرها أيضاً، يصرفه عن تغيير الإمارة فيها وضمها الى سلطنته. ومع أنه وجه أخاه سيف الدين إلى اليمن ليدير شؤونها مباشرة، فإنه اكتفى بذكر اسمه في

---

١) الكامل ٩ / ١٧٨ و ابن شداد ص ٧٨ -

الخطبة على منابر الحرمين الشريفين بعد اسم الخليفة، وأقر الحسينيين في المدينة على إمارتهم ولم يتدخل في شؤونهم على الإطلاق، كما أقر الهاشميين على إمارتهم في مكة ولم يتدخل في شؤنهم أيضاً.

خطيب جشع:

رغم الأموال المتدفقة على المدينة، يحدثنا ابن جبير الذي زار المدينة عام ٥٨٠هـ عن واقعة يستفظعها ويستصرخ بسببها للإسلام، وهي أن خطيب المسجد النبوي جلس بعد الخطبة الأولى، وقام عبيده والمردة يدورون في الصفوف ويجمعون له من الحاضرين الأموال والعمائم والثياب والذهب والفضة، حتى تجمع كوم عظيم، فقام وخطب الخطبة الثانية(١) ويقرر ابن جبير أن هذا الخطيب كان على مذهب غير مرض، وأنه استغل الزائرين من الأعجام والأغراب والقادمين في موسم الحج.

ولعل الأمر لايعدو أن يكون جشعاً من شخص الخطيب. وليس عادة متبعة أوصورة للحالة الاقتصادية في المدينة، فقد أنكر -كما يروي ابن جبير- عدد من الحاضرين هذه الكدية وعلت أصواتهم بالاحتجاج، ولكن الخطيب لم يأبه لهم وظل متوقفاً عن الخطبة حتى تجمع له كوم عظيم من العطايا(٢) ولانجد في حديث ابن جبير أية إشارة إلى ضائقة اقتصادية في المدينة، وأغلب الظن أن المدينة قد نعمت بفترة هدوء ورخاء طيلة إمارة القاسم بن مهنا التي امتدت خمسة وعشرين عاماً (من ٥٦٣ - ٥٨٨ هـ)، وباستثناء حملة أرناط الفاشلة لم تتعرض المدينة لأية حروب أو تهديدات خطيرة.

---

١) رحلة ابن جبير ص ١٧٩

٢) المصدرالسابق -

المدينة في عهد سالم بن قاسم بن مهنا :

توفي الأمير قاسم بن جماز وانتقلت الإمارة بهدوء إلى ابنه سالم بن قاسم، وكان شاعراً وشجاعاً، سار على نهج أبيه في إقامة العلاقات الطيبة مع كل من الأيوبيين والخليفة العباسي. فبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٩هـ راسل أخاه العادل وخطب له على المنبر بعد الخليفة(١) وسافر في العام التالي لزيارته ولزيارة الخليفة العباسي الناصر.. وكان لهذه العلاقات الطيبة آثار حسنة على المدينة وأهلها، وفوائد جمة في الأحداث اللاحقة.

وانتهزت بعض القبائل فرصة غياب الأمير سالم بن قاسم عن المدينة، فطمعوا في الإغارة عليها ونهبها.. وكان في مقدمة الطامعين بعض رؤساء قبيلة زعب، التي سبق أن هاجمت قوافل الحجاج.. فاجتمع هؤلاء الطامعون في جمادى الآخرة عام ٥٩٠هـ وتحركوا إلى المدينة. ووصل الخبر إلى المدينة.. فجمع الأمير هاشم بن قاسم شقيق سالم ونائبه في إمارة المدينة، مالديه من رجال، وخرج بهم إلى ظاهر المدينة لملاقاة الغزاة وقتالهم، كي لايحاصروا المدينة ويخربوا سورها.. ووصلت جموع زعب ومن معهم، ودار قتال شرس، واستبسل هاشم ورجاله.. ولكن الغزاة كانوا أكثر عدداً وأشد فتكاً. فاستشهد هاشم وقتل عدد من رجاله. وبدأ الآخرون بالهرب إلى المدينة.. فتبعهم الغزاة واستفادوا من حالة الفزع التي دبت بين المدافعين ودخلوا المدينة، ونهبوا ماوصلت إليه أيديهم من الدكاكين والبيوت، ومكثوا أياماً قليلة، والناس في ذعر شديد.. ثم خرجوا إلى بلادهم(٢).

عاد سالم بن قاسم إلى المدينة واهتم باصلاح ماأفسده الغزاة في السور وداخل المدينة، ولكنه لم يهتم بإنشاء قوة عسكرية ثابتة في المدينة تحفظها من أطماع الغزاة، وسرعان مانسي الناس تلك الغزوة وانخرطوا في شؤونهم

---

١) البداية والنهاية ١٣ / ص ٣ -

٢) انظر : الكامل ٩ / ٢٣١ و الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ٧٩ - ٨٠ -

اليومية.

وتوالت سنوات القرن السادس على المدينة بهدوء وسكينة، والأموال التي تصلها من الأيوبيين والعباسيين والزائرين تسد حاجة الإمارة الصغيرة وتسعف فقراءها والمجاورين في أربطتها. وكانت قبائل السرويين تأتي كل موسم من اليمن، تحمل الميرة والطعام والفواكه الميبسة، فيقضون حجهم ويسارعون إلى المدينة، ومعهم طعام كثير يوزعونه على المجاورين والفقراء(١) وقد اهتم الملك العادل بالحرمين كاهتمام صلاح الدين، فواصل إرسال الأموال والأعطيات، وبخاصة بعد أن اتسع ملكه وشمل البلاد التي كان يحكمها أبناء صلاح الدين، ودعي له على منبرالمسجد النبوي في المدينة والمسجد الحرام بمكة(٢). لذلك نجد بعض الناس في مصر يلتجئون إلى المدينة ومكة عام٥٩٧ هـ عندما هبط النيل واشتد عليهم الغلاء والوباء(٣). فودعت المدينة المنورة القرن السادس الهجري وهي في سكينتها ووداعتها وحياتها الهادئة، خلافاً لما كانت عليه مكة، التي عصف بها الصراع على الإمارة حتى استولى عليها أمير ينبع أبوعزيز قتادة بن إدريس عام ٥٩٧ هـ. ثم تطلع بعد ذلك إلى المدينة ليفسد هدوءها في مطلع القرن السابع الهجري كما سنرى في الصفحات القادمه.

---

١) ابن جبير ص ١٤٣-
٢) النجوم الزاهرة ١٩٦/٦-
٣) النجوم الزاهرة ١٧٣/٦ -

المدينة المنورة في القرن السابع الهجري

فتن واضطرابات:

مع مطلع القرن السابع تضطرب حياة المدينة المنورة شيئاً ما، ثم تشهد أحداثاً عاصفة وصدامات مع أمير مكة أبي عزيز قتادة بن إدريس ورجاله.

ونظراً لأثر الأحداث التي جرت في مكة على المدينة نقف قليلاً عند بدايتها لنفهم امتداداتها الى المدينة بعد ذلك.

كانت مكة إمارة مستقلة تتبع اسمياً للأيوبيين، ويخطب لهم على منابرها كما هو الحال في المدينة، وكان أميرها مكثر بن عيسى الهاشمي يدير شؤونها منذ عام ٥٧١هـ، وقد طرده أمير الحج طاشتكين منها لبعض الوقت، ونازعه أخوه داود في إمارته مدة يسيرة، وصفت له منذ عام ٥٨١هـ حيث جاء الأمير طغتكين شقيق صلاح الدين الأيوبي وأقره عليها. واعترافاً بالجميل بادر الأمير مكثر بإلغاء عبارة (حي على خير العمل) من الأذان في مكة، وصك الدراهم باسم صلاح الدين وألغى المكوس عن الحجاج لقاء المبالغ التي أرسلها إليه صلاح الدين(١).

ولكن مكثراً لم يستقم على هذا الحال مدة طويلة.. فقد أعاد بعد سنتين فرض المكوس على الحجاج، وتغاضى عن اعتداءات بعض الشيبيين والأعراب ونشط قطاع الطرق فلم يتصد لهم، وانهمك في اللهو، واحتاج لمزيد من المال فصادر بعض أموال التجار القادمين ببضائعهم إلى مكة، وكثر ظلمه، ولم يعد أهل مكة وحجاجها يأمنون شره وشر رجاله، كما أن بعض قادته أخذوا يتذمرون من سوء معاملته.

وبعيداً عن مكة.. في منطقة ينبع الواقعة بينها وبين المدينة، كان الأمير قتادة بن إدريس ينشر نفوذه في القبائل المستوطنة في المنطقة، وقد تحالف مع بعض القبائل، وحارب بعضها الآخر، حتى دان له وادي ينبع وماجاوره

---

١) ابن جبير ص ٤٩.

بالطاعة (١) وبلغ الأمير قتادة سوء الأحوال في مكة.. وجاءه في مطلع عام ٥٩٧هـ بعض التجار يشكون إليه مالحقهم من ظلم الأمير مكثر وحاشيته، وقصوا عليه عدداً من الأخبار في ذلك وحثوه على التدخل لدى الأمير فوعدهم خيراً. ويبدو أن هذه الأخبار قد حركت مطامع قتادة الطموح، وجعلته يفكر بالاستيلاء على مكة ونقل إمارته إليها.. فدعا أصحابه وأعوانه واستشارهم في الأمر فوافقوه على رأيه..

وعلى الأثر جهز قتادة جنوده وزحف بهم إلى مكة.. وسبقت أخباره إلى الأمير مكثر.. فلم يعبأ بالأمر استخفافاً به، واستمر في لهوه وملذاته.. حتى فاجأه أبو عزيز على أبواب مكة، ورأى جيشه الكثيف.. فلم يجد حيلة سوى الهرب، وترك مكة فدخلها قتادة في السابع والعشرين من رجب عام ٥٩٧هـ وكان معظم أهلها مشغولين بالعمرة، فلم يلق قتالا، فاتجه إلى الإمارة وأعلن انهاء إمارة الهواشم وبدء إمارة جديدة(٢).

هرب الأمير مكثر إلى منطقة نخلة قرب مكة، ويئس من استرجاع إمارته لما بلغه من قوة قتادة، ومات بعد سنة واحدة. وحاول ابنه محمد عام ٦٠٠هـ استعادة الإمارة فجمع بعض الأشراف والأتباع وسار بهم إلى مكة، فتصدى له حنظلة بن قتادة وهزمه شر هزيمة.. فعاد إلى نخلة. واستتبت الأمور لقتادة ولم يفكر الهاشميون باستعادة الإمارة منه بعد ذلك..

أرسل قتادة إلى الخليفة الناصر العباسي يطلب إقراره، وخطب له على المنابر فأقره الخليفة على إمارة مكة..

ولكن قتادة لم يكتف بما حصل عليه، وتطلع إلى بقية الحجاز واليمن.. وسرعان مااتجهت أنظاره إلى المدينة المنورة التي كانت تعيش هادئة وادعة في ظل الأمير سالم بن قاسم..

---

١) العقد الثمين ج ٤٠/٧.

٢) انظر سمط النجوم ٢٠٨/٤.

بدأ قتادة يعد جيشه للزحف على المدينة بعد هزيمة محمد بن مكثر مباشرة..

قتادة يهاجم المدينة:

وصلت الأخبار إلى المدينة وسرت بين الناس وانقلبت السكينة قلقاً واضطراباً، ودهش الحسينيون لعدوان ابن عمهم، فلم يسبق لهم أن آذوه بشيء. وعقدوا الأمر على مواجهة المعتدي وقتاله. وأمر الأمير سالم بتجهيز قوة لمواجهة الزحف قبل أن يصل إلى المدينة، وخرج المنادون يحضون الناس في الأسواق وعلى المنابر للانخراط في القوة المسلحة والإسهام بتجهيزها بما يلزمها من مؤن وسلاح.. وخلال أيام قليلة تشكل في المدينة جيش صغير.

خرج جيش قتادة من مكة قبل أن يتم استعداد أهل المدينة، ولما صار على مقربة منها خرج جيش المدينة لملاقاته، وتواجه الطرفان عند ذي الحليفة، ودارت معركة ضارية، واستبسل فيها المدنيون وأوقعوا في جيش قتادة خسائر كبيرة، ولكن جيش قتادة كان أكبر من جيش سالم، وأكثر منه خبرة في الحرب.. لذلك استطاع أن يضغط على جيش سالم وأن يوقع فيه عدداً من القتلى ثم يضطره إلى التراجع..

وأخذ سالم ورجاله يتقهقرون إلى المدينة وهم يدفعون خصومهم ماستطاعوا، وأخيراً أمر سالم قسماً من جيشه بمشاغلة الغزاة بقية اليوم ريثما ينسحب القسم الآخر إلى ماوراء السور.. فإذا حل الظلام وتوقف القتال انسحبت المجموعة المقاتلة بهدوء إلى المدينة.. ونجحت الخطة وعاد الجيش إلى المدينة بعد أن خسر عدداً من رجاله وأغلق عليه الأبواب..

وفي الصباح اكتشف قتادة انسحاب المدنيين فأمر بمحاصرة المدينة، ونشر رجاله على امتداد السور أملا في أن تستسلم له المدينة أو ينفذ إليها بعد حين..

كان قتادة مغروراً بنفسه وجيشه، وزادته هذه الوقعة غروراً واستهانة

بأهل المدينة، وحسب أنهم سيسلمون له بعد حين.. لذلك لم يفعل شيئاً سوى الحصار والمراقبة، وامتد الحصار أياماً. كان جيش قتادة يلتقط فيها أنفاسه ويستريح من السفر الطويل والقتال المرهق الذي شهده..

كان جيش سالم يعيد تنظيم صفوفه ويعوض خسائره برجال لم يشاركوا في المرة الماضية، وكانت دكاكين الحدادين والنجارين تصنع مزيداً من الأقواس والسهام والرماح والسيوف والتروس.. وشهدت الساحات الضيقة داخل المدينة تنظيم الجيش إلى مجموعات وتدريب الأفراد الجدد وتنشيط الذين شاركوا من قبل.. وفي الوقت نفسه كان عدد من الرجال يتناوبون الحراسة على أطراف السور كي لايفاجئهم رجال قتادة بتسلل أو هدم..

ومع امتداد الحصار ركن جيش قتادة إلى الراحة مستفيداً من البساتين المحيطة بالمدينة.. فقد استباحها ونعم بما فيها من تمور ممتازة ومياه عذبة وخضار وفواكة أخرى.. بينما كان أهل المدينة يعيشون على ماخزنوه في بيوتهم. وقرر سالم أن يستخدم سلاحاً آخر إضافة إلى أسلحة الحرب هو سلاح الدهاء والسياسة والمال، فبعث عدداً من رجاله إلى أطراف السور يخاطبون من يعرفونهم من رجال قتادة.. وبخاصة قادتهم ومقدميهم، وأخذوا يحاورونهم عبر السور ويثبطونهم عن القتال بطرق شتى: بمناشدتهم الله والرحم، وبعدم وجود مسوغات لهذه الحرب سوى أطماع قتادة، وإغرائهم بالمال إذا نكثوا عنه. وقد نجحوا في استمالة بعضهم وحصلوا منهم على وعود قاطعة ألا يقاتلوهم إذا وقع القتال..

وسر سالم بهذه النتيجة وقرر أن يخرج إلى قتادة ليدفعه عن المدينة.

ويروي صاحب إتحاف الورى(١) أن سالم بن قاسم لما فرغ من تنظيم جيشه داخل السور وقرر الخروج إلى قتادة، ذهب إلى المسجد النبوي، وصلى عند الحجرة الكريمة، ودعا الله أن ينصره على عدوه قتادة، وألح في الدعاء وأخلص فيه، ثم خرج برجاله للقاء قتادة، ودارت بينهما معركة حامية، وقتل عدد من الفريقين، واستبسل سالم ورجاله، ونكث بعض رجال عنه وفاء بعدهم لأهل المدينة من قبل، فمالت الكفة إلى جيش سالم وانتصر أهل المدينة وطردوا قتادة وجيشه، وأسروا بعض رجاله، ومنهم وزيره ومساعده الأكبر ابن الريحاني، وغنموا غنائم وافرة، رغم الفرق الكبير بين الجيشين(٢).

العين بالعين: جيش المدينة يحاصر مكة:

قبل أن يستريح الجيش وينفرط عقده قرر الأمير سالم مطاردة قتادة والقضاء على قوته كي لايطمع في المدينة ثانية، وخرج في اليوم الثاني في إثره، وعلم قتادة بالأمر، فأسرع السير ووصل مكة قبل أن يدركه جيش المدينة ودخلها وأغلق عليه أبواب سورها، ومالبث سالم ورجاله أن وصلوا

---

١) إتحاف الورى ٣/٣.

٢) انظر الكامل ٢٦٩/٩، وابن خلدون ١٤١/٤، ويعرض ابن خلدون صورة أخرى للمعركة، فيروي أن قتادة يئس من استسلام أهل المدينة، فرحل عنها، وبعد رحيله مباشرة وصل مدد من قبيلة لام -إحدى بطون همدان- فتقوى به سالم وخرج لملاحقة قتادة، فأدركه في بدر، واقتتل الفريقان قتالا شديداً، وهلك منهم خلق كثير، وانهزم قتادة إلى مكة، ويسمي المعركة معركة المصارع، لأن قتادة تمثل فيها بيت يقول فيه:

مصارع آل المصطفى عدن مثلما بدأن ولكن صرن بين الأقـــارب

ويكشف هذا البيت إحساس قتادة بالمرارة لهذه المعركة، وهو إحساس يناقض ما نراه في شخصيته وسلوكه، فهو الذي بدأ العدوان على المدينة، وهو الذي جرد السيف لقتال أبناء عمه، هذا الاحساس استيقظ فيه متأخراً بعد خسارته في المعركة.. انظر ابن خلدون ١٤١/٤ والحجاز واليمن في عصر الأيوبين ص ٣٩.

إلى مشارف مكة وانتشروا حولها فانعكست الآية، وأصبح المحاصرون يحاصرون، والمهاجمون مدافعين، وكما عاشت المدينة أياماً صعبة من الحصار والقلق والخوف عاشت مكة أياماً مماثلة، وكما استبسل سالم ورجاله في المدينة من قبل استبسل قتادة ورجاله ورفضوا التسليم للمحاصرين، وأخذوا يعدون العدة لكرة أخرى.

كانت مشاعر الثأر تملأ سالم ورجاله، ولكن هذه المشاعر بدأت تهدأ بتوالي أيام الحصار، فقد هدأ الغضب تدريجياً، وتحول إلى رغبة في معاقبة قتادة ورجاله وإذلالهم، وعمد قتادة إلى ماعمد إليه سالم من قبل، فاستنهض من المكيين من لهم أدنى صلة بأهل المدينة، ومن نكصوا عن القتال في الموقعة الأخيرة، وبثهم ليحاوروا المحاصرين ويقنعوهم بوقف إراقة الدماء ومراعاة حرمة البلد الأمين.

ومثلما أثر المدنيون في المكيين من قبل وجعلوا بعضهم ينكصون عن محاربة إخوانهم، أثر المكيون في بعض المدينيين، وبخاصة بعد أن فقد المدنيون الدافع القوي الذي كان فيهم من قبل للقتال، دافع حماية النفس والأهل والمال والبلد، والمدنيون بطبعهم أرق عاطفة وأكثر استجابة للحسنى، لذلك بدأ بعضهم يتحدث عن جدوى الحصار ومغزى الحرب، وتحول الهمس إلى كلام مسموع انتقل إلى سالم بن قاسم، فأدرك سالم أن عدداً من رجاله بينهم بعض قادته قد ينقلبون عليه، وأنه إذا خرج إليه أهل مكة مدافعين فلن تكون له القوة السابقة، وجاءت رسالة من قتادة تحض سالماً على المصالحة ورفع الحصار يقول فيها: ياابن العم كسرة بكسرة، وأيام حصار بمثلها،

والبادئ أظلم، فإن كان أعجبكم عامكم فعودوا في القابل(١). وكانت لهجة الرسالة مرضية لسالم. ففيها إقرار بانكسار قتادة ورجاله وشعورهم بذله وبآثار الحصار، وفيها تأكيد على صلة القربى بين الأميرين وأهل البلدين، وهذا كاف ليروي نفس سالم ويعوضها عن هموم الأيام الفائتة، ويشعرها أنها أدركت ثأرها، أو معظمه.. فاتخذ قراره الحاسم بفك الحصار والعودة إلى المدينة..

وقد يتساءل المرء.. لماذا لم يفاوض سالم قتادة ولم يعقد معه معاهدة صلح؟ ولماذا لم يرتب العلاقة المستقبلية بين الأسرتين والبلدين المقدسين؟.

في ظني أن الأسباب كثيرة. منها عدم الثقة بعهود قتادة.. فشخصيته الطموحة لاتلزمها عهود يقطعها وهو محاصر أو مكسور. بل ستدفعه إلى أن ينقض كل العهود عندما يحس بقدرته على المواجهة، وستجعله أكثر شراسة وعدوانية، فالتوقف عند مرحلة الانتصار المعنوي يجعل قتادة لايفكر بمعاودة الكرة أو يحسب لها ألف حساب..

ويؤيد هذا الظن أن قتادة مكث سنوات طويلة لا يعرض فيها للمدينة، واشتغل بعلاقاته المضطربة مع الخلافة العباسية وبالمشكلات التي ثارت بين بعض أهل مكة والحجاج العراقيين، والتي وصلت إلى حد الاقتتال وإراقة الدماء في أيام الحج لأكثر من موسم(٢) ولكنه بدأ بعد ذلك يتحرش بأمير المدينة.. وبدأت بعض قواته تجتاز من ينبع إلى بعض القرى المحيطة بالمدينة وتسيئ إلى أهلها..

حملة تأديبية ضد قتادة:

كانت المدينة محافظة على ولائها للأيوبيين.. وكان سالم يراسل الملك المعظم (عيسى بن محمد الأيوبي) سلطان دمشق، ويراسل الملك الكامل

---

١) العقد الثمين: ٤٢/٧.

٢) انظر: الكامل ٣٠٥/٩ والعقد الثمين: ٤٨/٧ والروضتين ٧٨.

سلطان مصر. وفي سنة ٦١٠هـ جاء الملك المعظم من الشام حاجاً فخرج سالم وعدد من وجوه أهل المدينة لاستقباله واحتفوا به وأكرموه إكراماً بالغاً، وقدموا له كل ماتحتاجه قافلته من خيل ومؤن، وسلمه سالم مفاتيح المدينة وأنزله في داره، وسهر على راحته، فسر المعظم بذلك..

وعندما خرج المعظم من المدينة إلى مكة صحبه الأمير سالم ونزل معه في مكة وصحبه في المشاعر، وحاول قتادة أن يبطش بالأمير سالم فأرسل بعض رجاله ليقبضوا علية ويحضروه إليه.. وكان سالم يتوقع غدر قتادة فلزم مع رجاله موكب الملك المعظم.. ولما قدم رجال قتادة للقبض على سالم أحس رجال المعظم بهم فطردوهم وكادوا أن يبطشوا بهم(١) وبلغ الخبر الملك المعظم فغضب غضباً شديداً وحنق على قتادة الذي لم يحسن استقباله ولم يلقه بمثل ما لقيه به أمير المدينة وأهلها. وانتهز سالم الفرصة فأخبر الملك المعظم بتحرشات قتادة وبعض رجاله وإفسادهم في مكة وينبع وبعض قرى المدينة، فقرر الملك المعظم أن يكسر غرور قتادة ويلقنه درساً قاسياً، ووعد سالما أن يرسل فور عودته جيشاً لذلك..

لم يكن سالم يرغب في أن تعود الحرب بين المدينة ومكة.. ولم يكن يملك القوة الكافية لمواجهة جيش قتادة الذي قوي قي السنوات القليلة الماضية.. ولم يكن أيضاً مطمئناً إلى أن قتادة لن يعود إلى مهاجمة المدينة، خاصة بعد أن حاول اختطافه في موسم الحج، لذلك مكث ينتظر الجيش الذي وعده به الملك المعظم من الشام.. وفي الوقت نفسه يجهز رجاله القليلين ليكونوا قادرين على رد أي عدوان يحدث على المدينة وضواحيها..

وتختلف روايات كتب التاريخ حول مجريات الأحداث بعد ذلك. فبعضها يقول إن سالماً عاد مع الملك المعظم إلى الشام، فشكى الملك المعظم إلى أبيه الملك العادل مالقيه من قتادة ومايلقاه الناس منه، فجهز العادل جيشاً وبعثه

---

١) العقد الثمين ٦٠٩/٤ والمقريزي: السلوك ج١ قسم ١ ص٨٠.

مع الأمير سالم ليطرد صاحب مكة (فلما انتهوا إليها هرب منهم إلى الأودية والجبال والبراري)(١).

ويقول بعضها الآخر إن الأمير سالماً مكث في المدينة ينتظر الجيش، فلما تأخر قدومه خرج إلى الشام لاستعجاله فالتقى بالجيش في الطريق يقوده الأمير الناهض بن الجرخي، فاصطحبهم إلى المدينة، وخرج معهم لقتال قتادة، وبلغ الخبر قتادة فاستعد لهم بجيشه، وخرج للقائهم، ودارت بينهم معركة كبيرة في منطقة الصفراء، فهزم قتادة وفر إلى حصنه في ينبع، وتبعه الجيش وحاصره فيها وذلك سنة ٦١١هـ(٢).

ومنها من يقول إن سالماً لم يشهد المعركة مع قتادة، وأنه توفي أثناء عودته من الشام مع الجيش(٣). ومنها من يؤخر المعركة إلى سنة ٦١٢هـ ويقرر أن الأمير سالماً خرج إلى الشام لزيارة العادل وإخباره بأفعال قتادة، فانتهز قتادة الفرصة وزحف برجاله إلى المدينة في التاسع من صفر عام ٦١٢هـ، وقطع تمرها جميعه وكثيراً من نخلها(٤) فقاتله من فيها، وقتل جماعة من أصحابه، ورحل عنها خاسراً، وكان أمير المدينة عند العادل في الشام، فبعث معه جيشاً، واستخدم جماعة من التركمان، وسار من الشام في ثالث شعبان إلى المدينة، وتوفي سالم في الطريق، وقام ولد أخيه قاسم بن جماز بعده، واجتمع أهله على طاعته، فمضى بمن كان معه لقصد قتادة صاحب مكة، وجمع بشر بن قتادة عسكراً كثيراً والتقى بعسكر الشام في وادي الصفراء، فكانت الغلبة لعسكر المدينة، فاستولوا على عسكر قتادة قتلاً ونهباً، ومضى قتادة منهزماً إلى ينبع، فتبعوه وحصروه بقلعته، وغنم صاحب

---

١) البداية والنهاية ٧٣/١٣.

٢) الذيل على الروضتين: ٨٧.

٣) الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ص ٤٠.

٤) الذيل على الروضتين: ٨٩-٩٠.

المدينة شيئاً كثيراً(١).

والصورة التي يمكن أن نخرج بها من الروايات المتضادة هي: نشب النزاع بين أمير المدينة سالم بن قاسم وأمير مكة قتادة بسبب محاولة قتادة القبض على سالم، وبسبب تعديات رجاله المتوالية على أطراف المدينة وكثرة الشكاوى منه، واهتم سالم بإخراج قتادة من إمارة مكة أو القضاء عليه لتعاظم قوته، وخشية أن يعيد الكرة على المدينة، ونجح في استعداء الملك المعظم وأبيه الملك العادل الأيوبيين، فسير الملك العادل جيشاً لمحاربة قتادة، وسواء لقي سالم هذا الجيش أم لم يلقه، وسار معه إلى مكة أو لم يسر، فإن ماتجمع عليه الروايات هو أن الجيش الأيوبي قدم إلى المدينة، واستراح فيها شيئاً يسيراً، واصطحب معه بعض رجالها، وخرج إلى قتادة، وحدثت موقعة انتصر فيها الجيش القادم من الشام والمدينة، وهزم قتادة إلى ينبع، وتوفي الأمير سالم وخلفه ابن أخيه القاسم بن جماز، الذي واصل الصراع مع قتادة. وهذا يعني أن المدينة قد اشتغلت بهذا الصراع، وأن عدداً من رجالها كانوا يشاركون في المعارك، وأنهم في هذه الجولة قد حفظوا المدينة من عدوان قتادة ورجاله.

ويروي صاحب العقد الثمين أن المعركة التي وقعت بين الجيش الشامي وجيش قتادة في وادي الصفراء قد أسفرت عن غنائم ضخمة وأسرى كثيرين، استرقوا، فلما استعرضوا عرف بينهم عدد من الأشراف الحسنيين، ففك أسرهم وسلموا إلى أقاربهم الأشراف في الشام والمدينة(٢).

المدينة في إمارة قاسم بن جماز: عسكرية جديدة:

تسلم قاسم بن جماز إمارة المدينة في ظروف الصراع مع قتادة، فاهتم بالجانب العسكري اهتماماً كبيراً، وجند عدداً من رجال المدينة في القوة

---

١) السابق وإتحاف الورى ٣/٢٢٠.

٢) العقد الثمين ٧/٤٣.

المسلحة، واستعان ببعض التركمان الذين قدموا من الشام مع الجيش الأيوبي، وأخذ يرد على اعتداءات رجال قتادة بمثلها، ويرسل رجاله للإغارة على ممتلكاته (١)، وقد استشعر القاسم بن جماز القوة فقرر أن يوسع إمارته ويقوي نفوذه ودخله، فخرج برجاله أول العام التالي ٦١٣هـ إلى وادي القرى واستولى عليها وغنم منها أموالا وافرة فرقها في رجاله وقوى بها جيشه، وأخذ يفكر في الاستيلاء على ينبع ومكة وإنهاء أمر قتادة، وعلم قتادة بما يدبره قاسم بن جماز وشعر أن جيش قاسم قد أصبح قادراً على قهر بقية جيشه، لذلك أرسل إلى الملك الكامل الأيوبي سلطان مصر يستغيث به، ويطلب منه حماية إمارته من قاسم وجيشه، وكان الأيوبيون راضين عن أمراء المدينة ويقدمونهم على أمراء مكة لأسباب عدة، منها المكانة الرفيعة التي كانت لأمير المدينة الأسبق القاسم بن مهنا عند الأيوبيين، ومنها أن أمراء المدينة لم يخرجوا قط على طاعة الأيوبيين وظلوا يدعون لهم على المنابر، بخلاف أمراء مكة الذين خرج بعضهم عليهم، ومنها إساءة بعض أمراء مكة للحجيج، وبخاصة مكثر ثم قتادة. كل ذلك جعل علاقة أمراء المدينة مع الأيوبيين إيجابية ومستقرة، ولهذا سارعوا إلى نجدة سالم بن قاسم على قتادة عام ٦١١هـ أو ٦١٢هـ. ورغم ذلك فقد استجاب الملك الكامل سلطان مصر لاستغاثة قتادة أمير مكة، وأرسل إليه قوة نزلت في ينبع وفرضت حمايتها عليها، وكان قتادة قد خرج منها إلى مكة لتجهيز قواته فتسلمتها القوات المصرية من نائب قتادة وحمتها من هجوم قاسم بن جماز.

وقد يكون السبب في حماية الملك الكامل لقتادة الخلاف الذي نشب بين الملك العادل سلطان الشام وأخيه الملك الكامل سلطان مصر، وخشية الكامل من أن ينتصر قاسم بن جماز على قتادة ويخرجه منها، ويلحقها بإمارة المدينة، فتصبح تابعة للملك العادل حكماً، لأن قاسم بن جماز كان يخطب

---

١) الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ص ٤٠.

للعادل على المنابر، وقد يكون السبب رغبة الأيوبيين في حفظ التوازن بين الأمراء الحسنيين و الحسينيين في مكة والمدينة.

على أي حال فقد توقف جيش المدينة عن الزحف إلى ينبع بعد أن وصلها الجيش المصري، ولم يضيع قتادة الوقت، واستشعر القوة بوصول النجدة المصرية، فجمع رجاله في مكة في مطلع ذي الحجة عام ٦١٣هـ وسار بهم للإغارة على المدينة، وعلم قاسم بن جماز بتحركه فغذ السير إليه، وكان قد خرج بجيشه من المدينة فالتقى الجيشان عند قرية الحميمة، وهي أقرب إلى مكة، واقتتل الفريقان قتالا مريراً في مطلع يوم النحر، ورغم أن النجدة المصرية لم تكن مع قتادة، فقد استطاع قتادة بمن معه من رجال أن يضغط على جيش قاسم بن جماز وأن يهزمه آخر النهار، وتوقف القتال وانسحب قاسم بن جماز بمن معه مخلفاً عدداً من القتلى لم يذكره المؤرخون، وعاد قتادة إلى مكة.

أوقفت هذه المعركة اندفاع قاسم بن جماز، غير أنها أججت الخصومة بين أميري المدينتين الكريمتين وجعلتها إحدى همومها الكبيرة، ولم يكن لهذه المعركة أية أثار سلبية مع الأيوبيين، ولم يشعر أهل المدينة أن الملك الكامل الأيوبي سلطان مصر يقف ضدهم، ذلك أن جيشه لم يشارك في المعركة، واكتفى بحماية ينبع، وينبع مهمة لسلطان مصر، لأنها المرفأ الذي تبحر إليه السفن القادمة من عيذاب في مصر، ومركز تجمع قافلة الحج المصرية غالباً.

والراجح أن أمير المدينة قد أدرك هذه المعاني فلم يغير علاقته بالأيوبيين وظل محافظاً على مودة سلاطينهم جميعاً، كما أن الأيوبيين حافظوا على تقديرهم لأمير المدينة ولأهلها، وذكر ابن خلكان أن الملك الكامل سلطان مصر عندما انتصر على الصليبيين في معركة دمياط عام ٦١٦هـ، علم أن أحد الصليبيين كان يسب النبي ﷺ جهاراً نهاراً، فلما أسر هذا الصليبي في المعركة أمر الكامل بإرساله إلى أمير المدينة كي يقتل فيها، فلما وصل

الأسير إلى المدينة أقيم قريباً من قبر الرسول ﷺ (فقيل: يارسول الله هذا عدو الله وعدوك، فتهادته أيدي الناس ضرباً بالسيوف)(١).

وسارت الحياة في المدينة في عهد قاسم بن جماز وسط هاجس الصراع مع قتادة ورجاله، فهزيمة جيش قاسم في موقعة الحميمة لم تشف قتادة القاسي الطموح، وقد نجح قتادة في مد نفوذه إلى الطائف، وحصل على رضا الخليفة العباسي رغم اعتداء رجاله على الحجيج مرات عدة، ولم يعد يشغله شيء عن التوجه إلى المدينة والاستيلاء عليها، وكان قاسم يدرك ذلك ويعمل جهده لتقوية القوة المسلحة للمدينة ولإعداد المؤن والسلاح للموقعة المترقبة، وفي عام ٦١٧هـ وصلت الأخبار بأن قتادة يجهز جيشه للخروج إلى المدينة وأنه جمع جموعاً كثيرة فبدأت المدينة تستعد لمعركة كبيرة، وشاء الله أن تتطور الأحداث لصالح المدينة وأهلها فقد مرض قتادة بعد أن تحرك جيشه، وتوقف عند وادي الفرع -منتصف الطريق تقريباً- واشتد مرض قتادة، فاستخلف على الجيش كلاً من أخيه الحسن وابنه الحسن، وأمرهما بمواصلة السير إلى المدينة، وطلب إعادته إلى مكة، وعندما فصل الجيش من وادي الفرع، دب الخلاف بين القائدين: الحسن بن قتادة والحسن أخي قتادة. وبلغ الحسن بن قتادة أن عمه الحسن قال لبعض جنده: إن أخي مريض، وهو ميت لامحالة، وطلب منهم أن يحلفوا له ليكون هو الأمير بعد أخيه قتادة، فحضر الحسن عند عمه، واجتمع إليه كثير من الأجناد والمماليك الذين لأبيه، فقال الحسن لعمه: قد فعلت كذا وكذا، فقال: لم أفعل، فأمر الحسن الحاضرين بقتله، فلم يفعلوا وقالوا: أنت أمير وهذا أمير، ولا نمد أيدينا إلى أحدكما، فقال غلامان لقتادة: نحن عبيدك فمرنا بما شئت، فأمرهما أن يجعلا عمامة عمه في عنقه، ففعلا، ثم قتله، فسمع قتادة الخبر فبلغ منه الغيظ كل مبلغ، وحلف ليقتلن ابنه، وكان على ماذكرناه من المرض، فكتب بعض أصحابه إلى

---

١) وفيات الأعيان ٩١/٥.

الحسن يعرفه الحال، ويقول له: ابدأ به قبل أن يقتلك، فعاد الحسن إلى مكة، فلما وصلها قصد دار أبيه في نفر يسير، فوجد على باب الدار جمعاً كثيراً، فأمرهم بالانصراف إلى منازلهم، ودخل الحسن إلى أبيه، فلما رآه أبوه شتمه وبالغ في ذمه وتهديده، فوثب إليه الحسن فخنقه، وخرج إلى الحرم الشريف، وأحضر الأشراف وقال لهم: ان أبي قد اشتد مرضه، وقد أمركم أنْ تحلفوا لي أن أكون أنا أميركم، فحلفوا له، ثم أظهر تابوتاً ودفنه ليظن الناس أنه مات، وكان قد دفنه(١) ومع أن المصادر التاريخية لم تذكر شيئاً عن الحملة التي اجتازت منتصف الطريق إلى المدينة، فإن الاضطراب والقتل الذي حصل في آل قتادة قد أوقفها ولاشك، فعادت أدراجها، وسلم الله المدينة من موقعة كانت ستصيبها بشيء من البلاء.

ومن الواضح أن هذا التفسخ الذي وصلت إليه أسرة قتادة في مكة، قد سلمت منه أسرة المهنا في المدينة، فشخصية قتادة الطموحة القاسية أنجبت شخصية أخرى أشد منها ضراوة وأكثر دموية هي شخصية الحسن بن قتادة، الذي قتل عمه وأباه، واستدعى أخاه من ينبع وقتله كي لاينافسه على الإمارة، ومثل هذه الشخصية السفاكة لابد أن تلقى عقاب الله العاجل، فكانت نهاية حكم آل قتادة على يديه، لاجرم.. لم يمهله الله سبحانه وتعالى، نزع ملكه وجعله طريداً شريداً خائفاً يترقب، فقد دهمه الملك المسعود من اليمن عام ٦٢٠هـ وطرده، فهام على وجهه ومات شريداً على دكة في الجانب الغربي من بغداد(٢).

وبينما الأمور على هذا الاضطراب والقلق في مكة كانت المدينة تعيش في طمأنينة رغم شدة أميرها قاسم بن جماز وطموحاته العسكرية، وقد أفادت هذه الطموحات المدينة في تقوية القوة المسلحة فيها، وتأديب الأعراب الذين

---

١) الكامل ٣٤٦/٩.

٢) السابق نفسه.

حاولوا غزوها ومطاردتهم وإنزال أشد العقاب بهم، فنعم أهل المدينة والمجاورون بالأمن، وتواصلت الحركة العلمية في المسجد النبوي، والمدارس التي أنشئت حوله وبعض الرباطات، ونمت الحركة التجارية شيئاً ما، ووجدت البساتين من يعطيها مزيداً من الوقت للعناية بها واستخراج الخضار والفواكه والتمور منها، ويذكر صاحب التاريخ المنصوري أن الحج كان في غاية الأمن والرخاء وكثرة المياه وغيرها في تلك السنوات(١).

كبوة الجواد: الخطأ القاتل:

غير أن الروح العسكرية عند قاسم بن جماز لم تخل من آثار سلبية أضرت ببعض أهل المدينة، وأضرت به بالذات، بل وقضت عليه، فرغم العلاقة التاريخية الطيبة بين الأيوبيين وآل المهنا أمراء المدينة، منذ أيام صلاح الدين الأيوبي، ورغم الاحترام الشديد الذي كان الأيوبيون يظهرونه لأمراء المدينة وأهلها، فإن قاسم بن جماز قد تصرف تصرفاً خاطئاً عام ٦٢٢هـ، أي بعد سنتين من استيلاء الملك المسعود الأيوبي -سلطان اليمن- على مكة المكرمة، فقد انحاز قاسم بن جماز إلى آل قتادة ضد الأيوبيين، رغم ماأصاب المدينة من شرورهم، ورغم أنهم حاولوا طرد آل المهنا من المدينة أكثر من مرة. ويروي المقريزي أن راجح بن قتادة لجأ إلى قاسم بن جماز واستنصره على الأيوبيين ليعيد مكة إلى أبناء قتادة الذين بقي منهم راجح هذا، فأمر قاسم بتجهيز حملة من أهل المدينة ومن العربان حولها لمهاجمة مكة وانتزاعها من الأيوبيين، وتجهز الجيش عام ٦٢٢هـ وتجمع في جرف المدينة، ثم سار إلى مكة بقيادة قاسم، وكان الملك المسعود الأيوبي قد غادرها إلى اليمن وخلف عليها نور الدين عمر نائباً عنه، ولم يأبه نور الدين لأخبار الجيش الزاحف أول الأمر واكتفى بتحصين أسوار مكة وتدعيمها، أملاً في أن يفاوض قاسم بن جماز ويرده بحكم الصداقة العريقة بين أسرته والأيوبيين، ولكن قاسم بن

١) التاريخ المنصوري: تلخيص الكشف والبيان ص ١١٦.

جماز نشر رجاله حول الأسوار وأصر على أن تستسلم له ويخرج الأيوبيين ويعود الأمر إلى آل قتادة، ورفض الأيوبيون ومعظم أهل مكة، واستمر الحصار شهراً كاملا، عندها يئس نور الدين عمر من رد قاسم ابن جماز، ويئس من وصول نجدة تنهي هذا الحصار، فجمع ثلاثمائة فارس من أشداء جيشه ومن أهل مكة، وخرج بهم لقتال قاسم، ودارت معركة طاحنة، واشتد نور الدين عمر ورجاله على جيش قاسم، واجتهدوا في الوصول إليه بالذات لتحطيم معنويات رجاله وهزيمتهم، وتم له ذلك خلال جولات سريعة حاسمة، فَقَتَلَ أحدُ مماليك نور الدين عمر قاسمَ بن جماز، وعلت أصوات المنادين بالخبر، وقتل مع قاسم عدد من رجاله الأشداء، فتضعضع جيش المدينة الغازي وانسحب إلى التلال الخلفية تاركاً عدداً من القتلى والأسرى(١).

وهكذا خسر قاسم بن جماز حياته في معركة ما كان له أن يدخل فيها، ولا أن يزج فيها رجالا من أهل المدينة نصرة لأبناء عمه آل قتادة، خاصة وأن آل قتادة كانوا على قدر كبير من العقوق وظلم الناس وسفك الدماء.

ولا يخلو تاريخ قاسم بن جماز من الأخطاء، قد يكون سببها الروح العسكرية والشعور بالقوة والتفوق، فقد ذكرت بعض المصادر أنه عدا على ينبع مرة(٢) وأخذ من مينائها أموالا وأسلحة ومؤنة جاء بها (ألطن بغا) من مصر، وكانت ينبع مخزن المؤنة والأسلحة للأيوبين. وطبيعي أن تتردى القوة العسكرية في هذه المزالق إذا لم تضبطها ضوابط دينية وخلقية قوية..

أمير جديد .. بالقوة:

وعاد الجيش المنسحب -أو فلول ذلك الجيش- إلى المدينة يحمل نعي أميرها قاسم بن جماز، وقبل أن يمسح أهل المدينة أحزانهم على من فقدوه من أبنائهم، وقبل أن يجتمع آل جماز ليختاروا من يتولى إمرة المدينة بعد

---

١) السلوك: ج١ قسم ١ ص ٢١٩.

٢) التاريخ المنصوري ١١٦.

قاسم، كان ابن عم لقاسم يدعى شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا نازلاً عند بعض الأعراب قرب المدينة، فلمَّا بلغه مصرع قاسم جمع أعوانه، واستنصر أولئك الأعراب فنصروه وأمدوه بعدد من رجالهم، فقادهم إلى المدينة ودهمها، واستولى على دار الإمارة دون إراقة دماء، وأصبح الناس فرأوا شيحة على منبر المسجد النبوي يدعو إلى مبايعته بالإمارة والحلف له على السمع والطاعة، ورجاله قائمون في أنحاء المسجد وخارجه حول الإمارة وفي الطرقات، فلم يكن بد من مبايعته. حتى الجمامزة أبناء قاسم وإخوته اضطروا لإعطاء البيعة والحلف للأمير الجديد. فمن أعراف الإمارة الاستيلاء عليها بالقوة وتنحية الأمير السابق أو ورثته، وقد عهدت المدينة ذلك مرات عدة، وسيستمر هذا العرف خلال مراحل الصراع القادم بين أبناء الأسرة الواحدة.

كان شيحة قوياً عاقلا حسن السياسة، لذلك كان أول مافعله هو أن يمسح أخطاء سلفه قاسم بن جماز، وأهمها الروح العسكرية الصارمة، ومعاداة الأيوبيين. فبدأ بتخفيف وطأة (الروح العسكرية) عن أهل المدينة، وأوقف الصراع مع أمراء مكة ورجالهم. وقد أرسل رسله إلى السلطان الكامل الأيوبي في مصر، تحمل ولاء المدينة له، فسر السلطان بذلك وأرسل الخلع والأموال للأمير ولأهل المدينة، ونعمت المدينة بالطمأنينة والأمن إلى نهاية ذلك العقد، وسارت الحياة العلمية والاقتصادية في مجرياتها الهادئة.. وكان من الممكن أن تستمر على هذا المنوال تحت حكم الأمير شيحة لولا الأحداث التي وقعت خارج المدينة وبعيداً عنها، ولكنها أثرت فيها، فقد واصل شيحة محافظته على الأمن بحزم لايقل عن حزم قاسم بن جماز من قبله، واستفاد من صلاته القديمة بالأعراب المحيطين بالمدينة فضمن عدم إغارتهم عليها، وأنفق مقابل ذلك بعض الأموال التي كانت ترده من مصر والشام.

غير أن هذه السكينة والطمأنينة مالبثت أن اضطربت بسبب الأحداث التي وقعت في اليمن ثم في مكة عامي ٦٢٩- ٦٣٠هـ.

جيش المدينة في مكة ثانية:

توفي السلطان مسعود الأيوبي حاكم اليمن عام ٦٢٩هـ وهو في طريقه إلى مصر، وخلفه على اليمن أحد أعوانه المخلصين نور الدين عمر، الذي سبق أن تولى أمر مكة وقاتل قاسم بن جماز وقتله، وقد أظهر نور الدين عمر الولاء للأيوبيين أول الأمر.. ثم استقل عنهم في العام التالي وتلقب بالمنصور ودعا لنفسه. وجهز جيشاً سيره إلى مكة المكرمة لطرد أميرها من قبل الأيوبيين طغتكين بن عبد الله الكاملي. وعند اقتراب الجيش اليمني من مكة عمل قائده ابن عيدان على استمالة أهلها، فذكرهم بإحسان نور الدين عمر إليهم عندما كان والياً عليها، فمالوا اليه، وشعر طغتكين بذلك وفر إلى ينبع مركز تجمع القوة الأيوبية آنئذ، وأرسل من هناك إلى السلطان الكامل يطلب منه النجدة لاستعادة مكة. ودخل ابن عيدان مكة وخطب فيها لنور الدين عمر الرسولي وجعلها إمارة تابعة للرسوليين.

ولما بلغ الخبر السلطان الكامل جهز جيشاً بإمرة فخر الدين ابن الشيخ الجويني إمام الحرمين المشهور وأرسل إلى الأمير شيحة يطلب منه أن يجهز قوة من أهل المدينة وينضم بها إلى جيش فخر الدين، كما أرسل إلى أمير ينبع الشريف أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة أن يفعل ذلك، كان شيحة قد نجح في تجنب الحروب طوال السنوات الماضية، وأقام علاقات حسنة مع الأيوبيين وولاتهم في مكة، ولكن الحدث الجديد قلب الموازين، ولم يجد شيحة بداً من الانصياع لطلب السلطان الكامل الأيوبي، فأمر بالنفير وجهز رجاله والمتطوعين معه، واستقبل الجيش القادم من مصر وخرج معهم إلى مكة، وفي الطريق انضمت إليهم القوة القادمة من ينبع بقيادة أميرها أبي سعد وسار الجيش الضخم إلى مكة، وحاصرها حصاراً شديداً، وانتشرت القوة الكبيرة حول سورها تمنع الدخول والخروج، وتناوش الحراس بالنبال، ومالبث ابن عيدان أن رتب رجاله واندفع بهم خارج السور، والتقى الجمعان في معركة

طاحنة غير متكافئة قتل فيها ابن عيدان وعدد كبير من أعوانه، وهرب جنده الأخرون إلى تلال مكة البعيدة، ودخلت القوة الأيوبية المنتصرة إلى مكة ودخل معها شيحة ورجاله، ولم يخسر الجيش المنتصر سوى عدد قليل من القتلى، وقد ارتكب قائده طغتكين خطأ فاحشاً إذ أباح لجنوده أن ينهبوا ماتصل اليه أيديهم من أموال ومتاع ذلك اليوم. وغضب شيحة لذلك وأمر رجاله بالانسحاب من مكة والعودة إلى المدينة، وكتب للسلطان الكامل بذلك، فغضب السلطان الكامل وعزل طغتكين وأمر الجيش كله بالانسحاب من مكة والعودة إلى ينبع ومصر(١).

المدينة على الحياد:

عاد الأمير شيحة إلى المدينة مع رجاله وقد اغتم لما حدث في مكة، لذلك قرر ألا يشترك مع الجيش المصري في أحداث مكة المتوالية، فقد حدث في السنة نفسها أن جمع راجح بن قتادة بعض الأعوان والأعراب وأغار على مكة، فخرج منها واليها الأيوبي، ومع ذلك لم يتحرك الأمير شيحة ولم يرسل قوة من المدينة، واضطر السلطان الكامل إلى إرسال قوة من مصر بقيادة الأمير الزاهر استطاعت في آخر ذلك العام أن تعيد مكة إلى طاعة الأيوبيين وأن تقيم الحج بأمن وطمأنينة(٢) وبقي الأمير شيحة محافظا على حياده هذا في الصراع الذي استمر سبع سنوات متوالية، أي إلى عام ٦٣٧هـ، حيث كان كل من الأيوبيين والرسوليين يستولي على مكة مدة من الزمن، ثم يخليها عندما تأتي قوة كبيرة للطرف الآخر.

---

١) العقد الثمين ٥/٦٥.

٢) سمط النجوم ٤٨٠.

العودة إلى الصراع العسكري:

ففي ذلك العام استقر الأمر في مصر للسلطان الصالح نجم الدين أيوب بعد سنتين من الصراع بين أبناء السلطان الكامل الذي توفي عام ٦٣٥هـ، وسافر الأمير شيحة مع عدد من وجوه المدينة إلى القاهرة لتهنئته بالسلطنة، فاستقبله السلطان الصالح أحسن استقبال وأكرمه وخلع عليه، ثم حادثه بشأن مكة التي استولى عليها الرسوليون قبل وفاة السلطان الكامل، ولم يتفرغ أحد لاستعادتها منهم بعد، وطلب منه أن يقود الحملة لإخراج الرسوليين منها وإعادتها إلى المظلة الأيوبية، فوافق الأمير شيحة على طلب السلطان الصالح وخرج عن حياده الذي التزمه سبع سنوات متوالية، وعاد إلى المدينة ومعه ألف فارس من الجيش الأيوبي.

مكث الأمير شيحة في المدينة مدة يسيرة، جمع فيها عدداً من رجاله ليصحبوه إلى مكة، وقوى جيشه ببعض المؤن والعتاد وتوجه به إلى مكة المكرمة، وكان الرسوليون قد أسندوا إمارتها إلى الشريف راجح بن قتادة، فأصبح على أمير المدينة شيحة بن جماز أن يواجه راجح بن قتادة الذي انتصرت له المدينة عام ٦٢٢هـ، وقاتل رجالها من أجل إعادتها إلى إمارة مكة وقتل أميرها قاسم بن جماز في سبيل ذلك، ولقد تحول الصديق إلى عدو والمنجد إلى محارب.

وصل شيحة بجيشه إلى ضواحي مكة فعلم أن الشريف راجح بن قتادة مسافر إلى اليمن قبل أن تتحرك الحملة، وأن الذين يتولون أمرها هم قادة الجيش اليمني المرابط فيها، وتمهل شيحة فلم يهاجم مكة أملا في أن يستسلم الجيش اليمني وينحاز المكيون إليه، خاصة بعد أن عرف عنه غضبه لاستباحة الأموال فيها في حملة طغتكين عام ٦٣٠هـ، وأرسل من يتحسس له الخبر، وقد صدق حدسه إلى حد ما، إذ جاءه المخبرون بأن القادة اليمنيين عندما علموا بقوة جيشه خرجوا من مكة إلى اليمن، ففرح شيحة بذلك وأمر

الجيش بإغماد السيوف ودخول مكة سلماً، وأرسل المنادين ينادون فيها بالأمان، ودخل شيحة مكة واتجه مع كبار قادته إلى البيت الحرام وطاف فيه، واستقبل الشرفاء ووجوه أهل مكة، وأخذ منهم البيعة للأيوبيين، ومكث فيها يدير بنفسه شؤونها، وترك أمور المدينة لنائبه وولده عيسى بن شيحة.

غدت مكة امتداداً لإمارة المدينة التي يديرها الأمير شيحة، وكانت هذه الإمارة انغماساً في الصراع بين الأيوبيين والرسوليين، الذي امتد إلى نهاية الحكم الأيوبي، فلم يكد الأمر يستقر لشيحة في مكة حتى بلغه أن السلطان المنصور الرسولي في اليمن قد جهز جيشاً كبيراً بقيادة الأمير ابن النضيري لاستعادة مكة منه، وأرسل معه راجح بن قتادة الذي ترك أتباعه ومؤيديه في مكة، وعندما تحقق شيحة من تحرك الجيش وقرب وصوله إلى مكة، وتحقق أن عدده كبير ولا طاقة لجنده بمواجهته، أمر رجاله بالانسحاب والاتجاه شمالاً إلى المدينة المنورة.

عاد الأمير شيحة إلى المدينة وقد أحس بالضيق لانسحابه الاضطراري، وأبقى الجيش فيها، وسافر إلى مصر يطلب من الملك الصالح مدداً آخر يواجه به الجيش الرسولي الذي استولى على مكة دون قتال، كما استولى هو عليها من قبل، ورغم أن الأمير شيحة كانت له صلة حسنة بالقبائل المحيطة بالمدينة فإنه لم يستمد منها العون لمواجهة الجيش الرسولي، ولم يعتمد أيضاً على أهل المدينة، والراجح أنه فعل ذلك ليقينه بأن المدينة غير قادرة على تجنيد العدد اللازم لمواجهة الجيش الرسولي، وبأن الأعراب والقبائل المحيطة بالمدينة قد لاتلبي دعوته وقد لاتكون طيعة لقيادته، وهكذا أصبح أمير المدينة مشغولاً بقضية مكة ومنشغلاً عن تدبير أمور إمارته الأساسية، ومتورطاً في الصراع العسكري.

صراع في غير ميدانه:

لبى الملك الصالح طلب الأمير شيحة، وجهزه بجيش كبير يفوق عدده

الجيش اليمني بقيادة الأميرين علم الدين الكبير، وعلم الدين الصغير، والمدهش أن الملك الصالح الذي كان يواجه الإعصار الصليبي الذي يهدد مصر، والذي استولى على بعض مدنها الساحلية لبعض الوقت، قد انغمس أيضاً في هذا الصراع الهامشي على السلطة والنفوذ، والمؤلم أن تتشتت الجهود الإسلامية في وقت كانت فيه كتائب الصليبيين تحاول استعادة ماانتزعه منها صلاح الدين وأخوه الملك العادل، وكانت زحوف التتار تهدد الأمصار الإسلامية في الشمال والشرق وتنذر بقرب توجهها نحو الشام والعراق، ومع ذلك كانت حمى الصراع على الإمارة تستنزف الجهود والأموال والدماء، ولعله من لطف الله أن يكون هذا النزيف في مكة مقتصراً على الجهود والأموال غالباً، وأن يكون الصراع استعراضاً للقوة ليس أكثر، فمن يجمع حشوداً ضخمة يدخل مكة، وينسحب أمامه خصمه، ليعد حشوداً أضخم ويأخذ مكانه بعد حين، وهذا ماحدث مرات عدة في ظل الأمير شيحة بالجيش الجديد من مصر، واصطحب الجيش الماكث في المدينة وتوجه إلى مكة في رجب عام ٦٣٨هـ. سبقت أخبار هذا الزحف المهول إلى مكة، وأحس راجح بن قتادة والجيش الرسولي أن خصمه يفوقه عدة وعتادا، فانسحب من مكة وأخلاها له(١) فدخلها شيحة بجحافله منتصراً، وعاد إلى كرسي الإمارة، ومكث في مكة إلى نهاية العام، مكتفياً بإنابة ابنه جماز حيناً، وابنه الآخر عيسى حيناً آخر، لإدارة شؤون المدينة الداخلية، فكانت المدينة في هذه المدة تابعة لمكة وليس العكس، لأن الموجه الحقيقي للأمور ماكث هناك(٢).

واستمرت حلقة الصراع المفرغة في دورانها، فما إن انتهى موسم الحج ذلك العام حتى وصلت الأخبار إلى الأمير شيحة بأن السلطان المنصور الرسولي جهز جيشاً كبيراً يفوق جيشه عدداً وعدة، وسيره إلى مكة المكرمة

---

١) الحجاز واليمن ص ٦١.

٢) السلوك ج١ قسم ٢ ص ٣٢١.

بقيادة الشريف علي بن قتادة، فقرر الأمير شيحة ألا يغادر مكة هذه المرة، وأرسل على وجه السرعة رسولاً إلى الملك الصالح يطلب منه نجدة سريعة، فأرسل إليه الملك الصالح مائة وخمسين فارساً بقيادة الأميرين مبارز الدين علي بن الحسن بن برطاس ومجد الدين أحمد التركماني، ووصلت أخبار النجدة قبل وصولها، فأشاعها الأمير شيحة وتعمد تسريبها إلى خصومه الزاحفين إليه، فلما بلغتهم توقفوا عن الزحف عند قرية السرين، وأرسل الشريف علي بن قتادة إلى المنصور الرسولي يخبره بذلك ويطلب منه نجدة إضافية، وتحمس السلطان المنصوري الرسولي لذلك، وأمر بتجهيز أكبر قوة ممكنة على وجه السرعة، وقرر أن يخرج بنفسه على رأسها.

ولا شك أن هذا القرار يبين حقيقة الصراع الذي يقف فيه أمير المدينة شيحة وأشراف مكة من آل قتادة، فهو صراع مزدوج أو صراعان متوازيان:

الصراع الأول والأكبر: بين الأيوبيين والرسوليين، فالأيوبيون في مصر هم الذين يجهزون القوة الحقيقية التي ترهب الرسوليين وتخرجهم من مكة، وتقاتلهم إذا التقت الجموع، كما حدث في عام ٦٣٠هـ وعام ٦٣٥هـ، والرسوليون في اليمن هم الذين يجهزون القوة الحقيقية التي ترهب الأيوبيين وتقاتلهم وتخرجهم من مكة.

وأما الصراع الثاني والأصغر: فهو الصراع بين أمراء المدينة من آل مهنا وأمراء مكة من آل قتادة، ولهذا الصراع خلفية تاريخية ترجع إلى عهد قتادة نفسه عام ٦٠١هـ عندما زحف إلى المدينة وحاصرها، ثم رد له أمير المدينة سالم بن قاسم الهجمة بمثلها فلحقه إلى مكة وحاصره فيها. وكان أمراء مكة هم المبادرون إلى الصراع، ودافعهم إلى ذلك الطموح الشخصي والطمع في إدخال المدينة تحت سلطتهم. أما آل المهنا فكانوا مدافعين عن إمارتهم. ثم تغير الأمر، فصار آل المهنا -هم- المهاجمين، ليس لتوسيع نفوذهم وضم مكة إلى إمارة المدينة، بل قادة للأيوبيين، ينفذون رغبتهم ليس أكثر، حتى إن

الأمير شيحة لم يستطع في حملة عام ٦٣٠هـ أن يمنع الجيش المصري من نهب مكة إذ لم يكن القائد العام للجيش، وكذلك في الحملات التالية عام ٦٣٧-٦٣٨هـ. كان للجيش قادة غير شيحة يأتون معه من مصر، ومع أن الأمير شيحة هو الذي كان يتولى الإمارة في مكة عندما يدخلها الجيش، إلا أننا لانعرف حجم سلطته الحقيقية، ومدى نفوذ أمراء الجيش الأيوبي المزاحم، لذلك من البين أن انغماس أمراء المدينة في هذا الصراع كان في غير محله، ولم يعد على المدينة بنفع على الإطلاق، فقد خسرت فيه بعض رجالها، وخسرت أميرها قاسم ابن جماز، وكادت أن تخسر أميرها الثاني شيحة على نحو ماسنرى، وهذا طبيعي في أي صراع هامشي ينشأ بدافع الطمع في الإمارة بين الأقارب. فأمراء المدينة هم أبناء عم أمراء مكة. وطبيعي أيضاً أن المتصارعين عندما يكونون أتباعاً لأطراف أخرى فإنهم خاسرون مهما كسبوا، فضلا عن أن الصراع بين أمراء المدينتين المقدستين كان صورة من صور الصراع الكثيرة المنتشرة آنئذ بين ممالك العالم الإسلامي، وهو الذي مهد للتتار أن يبطشوا بطشتهم الدامية..

الدرس القاسي:

خرج السلطان المنصور الرسولي من اليمن بنفسه على رأس القوة التي جمعها ومعه أموال ومؤن كثيرة، ولحق بجيشه في السرين، وزحف الجميع إلى مكة.

وقبل أن يصل إليها وصلت أخبار من المدينة المنورة اضطرب لها الأمير شيحة. وخرج مسرعاً برجاله تاركاً مكة للجيش المصري.

كانت الأخبار تتعلق بأمن المدينة، وبإمارته عليها، فقد حركت غيبته الطويلة أطماع أقاربه في الإمارة، كما حركت أطماع بعض الأعراب المقيمين حولها، خاصة بعد أن لمسوا غياب القوة المسلحة عنها وانشغال الأمير ورجاله بمكة، فداهم الأعراب أطراف المدينة ونهبوا ماوصلت إليه أيديهم.

وتحرك عمير بن قاسم بن جماز ابن عم شيحة، وبدأ يجمع الجموع حوله لينتزع الإمارة من شيحة ويردها إلى الجمامزة، ونجح في جمع أعداد غفيرة من الأعراب وطالبي الجوائز، وأوشك أن يهاجم المدينة، لذا سارع الأمير شيحة بالعودة إلى المدينة، ولكن عميراً فاجأه بجموعه أواخر صفر من العام نفسه واقتحم سور المدينة وانتشر رجاله في أحيائها واتجهوا إلى الإمارة للقبض عليه، فلم يجد بداً من الهرب والنجاة بنفسه.

لقد جنت قضية الصراع على مكة بين الأيوبيين والرسوليين على الأمير شيحة، وأتاحت الفرصة لظهور صراع آخر داخل أسرة المهنا نفسها على إمارة المدينة، وحملت أهالي المدينة غير قليل من أوزارها، فالصراع يدور في ساحاتها ويسقط فيه القتلى والجرحى.

اختبأ الأمير شيحة في بعض بساتين المدينة إلى الليل، ثم خرج إلى الجبال البعيدة حيث أصدقاؤه القدماء الذين ساعدوه في الاستيلاء على الإمارة قبل سبع عشرة عاماً، فلجأ إليهم، وبدأ يرسل الرسل إلى رجاله في المدينة ليخرجوا إليه، ويستنهض أصدقاءه القدامى كي ينصروه ثانية. واستغرق هذا الأمر مدة لم تذكر المصادر كم هي؟ ولكنها ذكرت أن شيحة أفلح في إعادة تجميع قواته وتجهيزها، فهاجم المدينة وطارد عميراً ورجاله وأخرجهم منها وعاد إلى إمارته.

ولابد أن هذا العمل قد استغرق عدة أشهر، وكلف الأمير شيحة وابن عمه عميراً عدداً من رجالهما، وأصاب أهل المدينة بالقلق والخوف

والاضطراب(١).

كانت هذه الحادثة درساً قاسياً للأمير شيحة، أقنعه بالابتعاد نهائياً عن الصراع بين الأيوبيين والرسوليين على مكة، ولم يعد يتدخل في شؤونها رغم عودة الصراع واستمراره حتى نهاية عصر الأيوبيين(٢) وتفرغ الأمير شيحة لأمور المدينة ثانية، واهتم بتقوية سورها وتحسين مرافقها، وفي الوقت نفسه اهتم بتأديب الأعراب الذين هاجموا المدينة، والذين ناصروا ابن عمه عميراً وبخاصة بعض فروع بني لام، المقيمين في ضواحي المدينة وامتداداتها على طريق العراق، وقد سيطر الرسوليون على مكة إثر خروج الأمير شيحة منها وانسحاب الجيش المصري بعده(٣).

ومرت سنوات سبع لايعكر صفو المدينة سوى حوادث صغيرة، أهمها غارات محددة لبعض بني لام، فيخرج رجال الإمارة لتعقبهم وتاديبهم، وعندما يظفر بأحد مردتهم يؤخذ إلى المدينة ويقتل فيها جزاء وفاقا لإفساده في الأرض، الأمر الذي أحفظ تلك القبائل على الأمير وجعلهم يتربصون به الدوائر.

وفي عام ٦٤٧هـ خرج الأمير شيحة مع عدد قليل من رجاله إلى العراق لزيارة الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين، فعلم بخروجه الحانقون عليه من بني لام فلحقوه وأدركوه غير بعيد عن المدينة وقتلوه، وفر أصحابه إلى المدينة يحملون إلى أهلها نعي أميرهم الذي امتدت إمارته قرابة ربع قرن من الزمان، كان فيها فترات طويلة من الهدوء والسكينة وفترات قليلة من الاضطراب والقلاقل..

---

١) العقد الثمين ٥/٢٣-٢٤.

٢) السابق ١/١٧٦.

٣) السلوك ج١ قسم ٢ص ٣٢١.

المدينة في إمارة عيسى بن شيحة:

كان عيسى بن شيحة نائبه على المدينة، فلما بلغه النعي تلقى العزاء بوالده وتلقى معه البيعة بالإمارة، فقد عرفه أهل المدينة في فترات غياب أبيه نائباً عنه في الإمارة ومدبراً لشؤون المدينة. ويذكر صاحب التحفة اللطيفة أن الجمامزة طمعوا في انتزاع الإمارة من عيسى، وجاء منهم جماعة على حين غفلة للاستيلاء عليها ففطن بهم عيسى وقبض عليهم، ويقال إنه قتلهم(١).

لم يكن عيسى يختلف عن أبيه في تفكيره وسياسته، فقد (رباه أبوه ليكون خليفته في الإمارة، وكان ينيبه عنه في غيبته، فكان مجتباه وحبه، وعلى الملك أمينه)(٢) وقدمه على أبنائه الثمانية الآخرين. وترك هذا التقديم أثراً سيئاً في نفس أخويه جماز ومنيف، فكانا يظهران النفور منه.

سار عيسى بإمارته سيراً حسناً، فأقام علاقات ودية مع الأيوبيين في مصر والشام، وحافظ على الولاء لهما، كما أقام علاقة حسنة مع آل قتادة، ولم يدخل في الصراع حول مكة. وفي عام ٦٤٩هـ تعاون الأخَوَان منيف وجماز ضد عيسى، وجمعوا رجالهم، وهاجموا الإمارة، وقبضوا على عيسى وسجنوه، وأعلنوا عزله(٣). وظل عيسى في السجن مدة من الزمن، ثم خرج منه ليعيش حياة عادية بعيداً عن الإمارة ومشكلاتها لمدة ثلاثين سنة، ومات سنة ٦٨٣هـ في إمارة أخيه جماز، ولم يذكر المؤرخون أنه حاول استرداد الإمارة قط.

الإمارة بين الأخوين:

تضطرب الروايات التاريخية في اسم الأمير الذي تسلم الإمارة بعد

---

١) التحفة اللطيفة ٢/٢٢٦.

٢) التحفة اللطيفة ٢/٢٢٧.

٣) انظر ابن خلدون ٤/١٤١ والتحفة اللطيفة ٣/٣٨٣.

عيسى. فبعضها يذكر اسم منيف وبعضها يذكر اسم جماز(١) وقد تبين لنا بعد تدقيق الروايات أن الأخوين تناوبا الإمارة، ولم يحدث أي تنازع بينهما، فتسلم جماز الإمارة من عام ٦٤٩هـ إلى عام ٦٥٣هـ، ثم تركها لأخيه منيف الذي تسلمها أربع سنوات متوالية من ٦٥٣-٦٥٧هـ، وتوفي في آخرها، فعاد جماز وتسلم الإمارة ثانية، وبقي فيها حتى عام ٧٠٠هـ، حيث تنازل عنها لابنه منصور، وعاش بقية شيخوخته وتوفي عام ٧٠٤هـ.

الإمارة الأولى لجماز:

عاشت المدينة المنورة السنوات الأربع من إمارة جماز حياة عادية هادئة رغم عواصف الأحداث من حولها، فقد انتهت الدولة الأيوبية في مصر بقتل توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، ثم بقتل شجرة الدر واستيلاء المملوك عز الدين أيبك على الحكم، حيث بدأت دولة المماليك الأولى(٢). وفي مكة كان الصراع بين آل قتادة على الإمارة مستمراً، يوظف في صراع آخر هو الصراع بين بقايا الأيوبيين في الشام والرسوليين في اليمن(٣) وقد شارك جماز بن شيحة في بعض هذه الأحداث أواخر ولايته الأولى، وناصر الرسوليين الذين قدموا من اليمن لانتزاعها منهم، ففي شوال عام ٦٥٢هـ

---

١) ذكر ابن خلدون والشرفي أن الذي تولى الإمارة بعد عيسى هو جماز، انظر ابن خلدون ١٤١/٤ وجميل حرب نقلا عن مخطوط زهرة العقول للشرفي ص٨٢. بينما ذكر السخاوي أن الذي تولى الإمارة بعد عيسى هو منيف: انظر التحفة اللطيفة ٤٢٣/١، وقد اضطرب السخاوي في هذا الموضوع لانه أرخ استلام منيف للإمارة في مكان آخر من كتابه عام ٦٥٧هـ، وهو العام الذي توفي فيه منيف، انظر التحفة اللطيفة ٣٨٣/٣، وذكر ابن الاثير أن جمازاً كان على رأس الإمارة في سنة ٦٥٩ وسنة ٦٧٩. انظر البداية والنهاية ٢٤٢/١٣ و ٣٠٧/١. وانظر النجوم الزاهرة ١٤٦/٧.

٢) انظر البداية والنهاية ١٩٠/١٣-١٩١.

٣) انظر: العقد الثمين ١٧٦/١، و ٤٣٥/٣ وشفاء الغرام ٢٠٢/٢.

استطاع الشريفان أبو نمي وإدريس بن قتادة الاستيلاء على مكة، وحكماها معاً وأقاما الخطبة لسلطان مصر المملوكي، إلى أن فاجأه جيش الرسوليين بقيادة ابن برطاس في الخامس والعشرين من ذي القعدة من العام نفسه، وكان جماز أمير المدينة في مكة، وانتصر لهما، وخرج برجاله فقاتل معهما ابن برطاس على أبواب مكة، وانتصر الرسوليون وهزم أبو نمي وإدريس وجماز، ودخل ابن برطاس مكة، ومكث فيها إلى أيام الحج حيث قاد وفود الحجيج، ودعا للرسوليين، وبقي إلى آخر ذي الحجة.

وفي أوائل محرم سنة ٦٥٣هـ أعاد أميرا مكة أبو نمي وإدريس تنظيم صفوفهما وانضم إليهما أمير المدينة برجاله، وهاجموا ابن برطاس ورجاله، وقاتلوهم قتالاً عنيفاً على أبواب مكة وهزموهم، واسترد شريفا مكة إمارتها، وعاد جماز ورجاله إلى المدينة(١).

ولا شك أن هذا التعاون بين أمير المدينة وأميري مكة يعني وجود علاقات حسنة بين البلدين طيلة إمارة جماز الأولى. ولا نجد أحداثاً متميزة أخرى في تلك الفترة، فبعد عودة جماز إلى المدينة انتقلت الإمارة إلى أخيه منيف.

---

١) العقد الثمين ١/٤٥٨.

المدينة المنورة في إمارة منيف بن شيحة:

ظلت المدينة المنورة هادئة في السنة الأولى من إمارة منيف، وكانت العلاقات الخارجية حسنة مع جميع الأطراف، فبعد أن ساعد جماز آل قتاده في مكة ضد الرسوليين لم يتدخل في شؤون مكة، إذ عاد الصراع بين الإخوة من آل قتادة على الإمارة، فوقفت المدينة على الحياد. واستمرت العلاقات مع بقية الأيوبيين في الشام، ولم تحدث أية مشكلة مع المماليك في مصر الذين استولوا على الحكم من الأيوبيين فيها والمدينة تفتح أبوابها للقادمين من جميع الجهات وتكرمهم وتحسن معاملتهم، والأمن مستتب بشكل عام، فليست هناك صراعات ظاهرة حول الإمارة وليس هناك من يهددها من القبائل المحيطة بها.

ولا يخلو حكم الأمير منيف بن شيحة من شدة وظلم أحياناً فهناك (مكوس) تؤخذ من القادمين إلى المدينة، و(مكوس) تفرض على التجار وعلى المحاصيل الزراعية، وقد بلغ الأمر بمصادرة بعض أموال التجار والمزارعين الذين يخفون أملاكهم أو يتخلفون عن دفع (المكوس) المفروضة. والحركة التجارية رغم ذلك تجري في الأسواق بشكل طبيعي، وكذا الحركة الثقافية في المسجد النبوي بشكل رئيسي، حيث حلقات العلم المختلفة وبخاصة حلقات التفسير والحديث والفقه، يشارك فيها عدد كبير من الزائرين والمجاورين. وقد ألِف الناس أن يحضر -بين الحين والآخر- عالم كبير من العراق أو الشام أو مصر أو خراسان ويجاور في المدينة عدة أشهر ويعقد خلالها دروساً يومية في المسجد النبوي، ويتقاطر إليه الناس يحضرون مجلسه ويستفيدون من علمه، وقد امتلأت كتب الرجال بأخبار هؤلاء في كل قرن.

وفي عام ٦٥٤هـ شهدت المدينة المنورة حدثين كبيرين هما: انفجار بركان في منطقة ((الحرة الشرقية)) وهو ماتسميه الكتب التاريخ القديمة ((النار العظيمة))، واحتراق المسجد النبوي. وليس بين الحدثين سوى شهرين

انفجار البركان:

أورد المؤرخون روايات مختلفة تناقلتها الكتب عن شهود عيان لايخلو بعضها من التناقض. وباستعراض هذه الروايات نخرج بالصورة التالية :

شهد عام ٦٥٤هـ منذ شهوره الأولى أحداثاً جيولوجية عدة في منطقة العراق والشام والحجاز. فقد حدثت تغييرات مفاجأة في الطقس، وهطلت أمطار غزيرة أعقبتها سيول وفيضانات أغرقت بغداد وهدمت دوراً كثيرة(١) وصار الناس ينتقلون في الشوارع بالقوارب(٢) وحدثت سلسلة من الهزات الأرضية في منطقة الحجاز، ووقع أعنفها في محيط المدينة المنورة وانتهت بانفجار البركان في الحرة الشرقية.

ففي يوم الاثنين أول رجب عام ٦٥٤هـ وقع زلزال خفيف أحس به بعض أهل المدينة ولم يشعر به الآخرون، ويبدو أن مركز هذا الزلزال كان بعيداً عن المدينة فوصل إليه أطراف منه. وقد تكررت الهزات الخفيفة في الليل، وسمع بعضهم له صوتاً يشبه صوت الرعد البعيد تارة تارة(٣) وفي اليوم الثاني من رجب اشتدت الهزات وتوالت وأحس بها أهل المدينة جميعاً.

وفي اليوم الثالث: الأربعاء الثالث من رجب حدثت زلزلة قوية في الثلث الآخر من الليل، فزع لها الناس، وقد وصف القاضي سنان أثرها في رسالته فقال: إنه كان في المسجد النبوي وأن المنبر قد اضطرب له حتى سمعوا صوت الحديد الذي فيه واضطربت قناديل الحرم(٤) واتصلت الهزات على شكل نوبات متقطعة قدر عشر مرات(٥) وفي اليوم التالي الخميس الرابع من رجب

---

١) السمهودي ١/١٥١.
٢) البداية والنهاية ١٣/٢٠٢.
٣) البداية والنهاية ١٣/٢٠١.
٤) البداية ١٣/٢٠١.
٥) عقد الجمان ١/١٢٦.

استمرت الهزات المتقطعة أيضاً.

وفي ضحى يوم الجمعة الخامس من رجب حدثت زلزلة قوية، أعقبها دوي هائل مثل دوي الرعد القاصف، فارتاع الناس روعة عظيمة وظهرت لهم نار هائلة تنفجر من الأرض في الجهة الشرقية من المدينة، وظهر لها دخان عظيم في السماء يتعقد حتى يبيض كالسحاب الأبيض(١) واستمر تدفق الدخان إلى السماء يخفي في ثناياه النار إلى مغيب الشمس، وفي الليل بدت ألسنة النار الهائلة ((إشعالها أكثر من ثلاث منارات))(٢) تصعد في السماء ثم ينحدر منها شلال ضخم فيه صخور تحترق وأبخرة تتصاعد.

كان موقع البركان قريباً من منطقة بني قريظة، ويبدو أنه رأس تل من التلال المنتشرة هناك ويقع بين جبلين وبجانبه واد كبير انهمرت فيه الحمم، وأخذت تجري محرقة كل ماتصادفه أمامها من نبات قليل وصخور صغيرة. ولأول مرة يشاهد أهل المدينة ناراً على الأرض تمشي ((مثل النهر أحمر وأزرق)) (٣) واستمر تفجر البركان وارتفاع اللهب في عنان السماء طوال الليل، ولم يجرؤ الناس على الذهاب إلى المنطقة التي تفجر فيها، وتوجلت القلوب وأشفقت وأيقن الناس أن العذاب قد أحاط بهم(٤) وتوجه القاضي سنان إلى أمير المدينة منيف بن شيحة ووعظه ونصحه أن يتوب إلى الله ويقلع عن ذنوبه ((فأعتق كل مماليكه، ورد على الناس مظالمهم وأبطل (المكس))) (٥) وهبط من قصره في القلعة ومعه أعيان البلد إلى المسجد النبوي، وتوجه أهل المدينة إليه ومعهم النساء والأطفال حتى لم يبق في

---

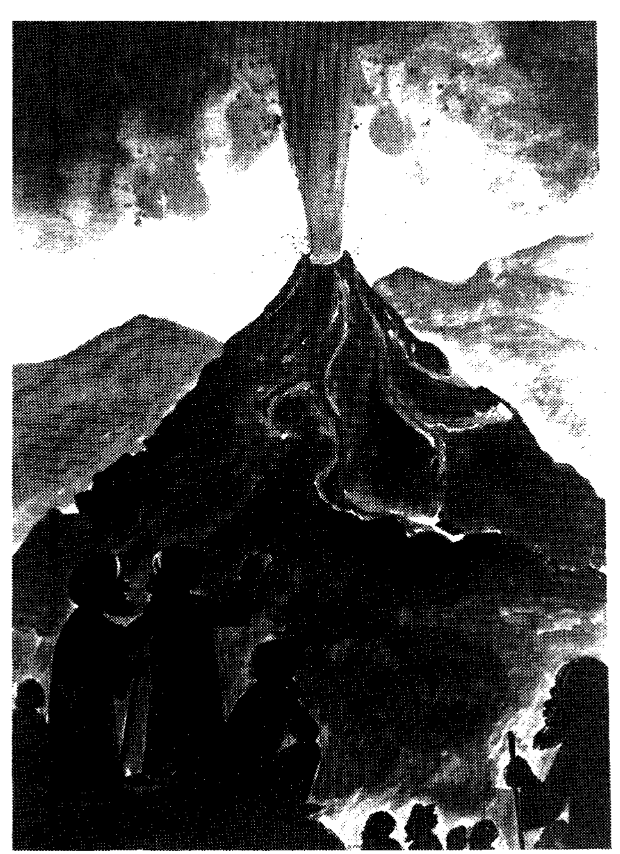
١) البداية ١٣/٢٠٣.

٢) السابق ١٣/٢٠٠.

٣) وفاء ١/١٤٣.

٤) وفاء ١/١٤٤.

٥) وفاء ١/١٤٤ والبداية ١٣/٢٠١.



وفي الخامس من رجب عام ٦٥٤ هـ ظهرت نار عظيمة، إشعالها أكثر من ثلاث منارات، تعود إلى الأرض لتمشي مثل النهر وتحرق كل شيء
«القاضي سنان»



صورة لآثار البركان: الحجارة المحروقة في الحرّة الشرقية.

النخل أحد، وأخذوا يبكون ويتضرعون إلى الله أن يكشف عنهم الضر ((وأحاطوا بالحجرة الشريفة كاشفين رؤوسهم مقرين بذنوبهم مبتهلين مستجيرين))(١).

وفي اليوم التالي شاهد الناس من أسطحة المنازل نهراً من الحمم يتجمع في واد قرب موقع الانفجار، ثم يتحرك غرباً باتجاه المدينة ففزع الناس فزعاً شديداً ولم يجسر أحد على الذهاب إلى المنطقة، وأرسل الأمير عدداً من الفرسان للإتيان بخبرها، فلم تجسر الخيل على القرب منها، فترجل أصحابها واقتربوا من نار الحمم ((قدر غلوتين بالحجر)) ولم يستطع أحد أن يجاوز موقعه من حرارة الأرض ومقابلة مايتصاعد من اللهب(٢) وكانت الحمم تتحرك وتضطرم فيظهر فيها شرر وتتدحرج الأحجار فتشتعل. واشتد فزع الناس فلجأوا إلى المسجد النبوي وازداد بكاؤهم وتضرعهم. ثم تجمعت الحمم في بحيرة صغيرة، ثم بدأت تشق طريقها في أكثر من اتجاه، اتجه القسم الرئيسي منها شمالا نحو جبل أحد، وانحرف تيار منها في ميلان خفيف نحو الغرب واقترب من منطقة العريض وهذا ما أفزع الناس، فلو استمر هذا التيار في اتجاهه لنزل إلى المدينة، وأتى عليها لأنها منخفضة عن العريض.

وشاء الله أن يتوقف التيار المتجه غرباً عند العريض ويتابع التيار الشمالي ويتجه جزء منه شرقاً حتى تقاطع مع مجرى وادي قناة (ويسمى أيضاً وادي شظاة) القادم من الشرق، فأخذت الحمم تتجمع فيه يوماً بعد يوم، وكلما انسابت موجة جديدة وقفت فوق الحمم السابقة وأخذت تبرد وتجمد، فبدأ يتكون في مجرى الوادي سد كبير مالبث أن امتد إلى طرفيه وأخذ يحدث تلة طويلة تمتد يوماً بعد يوم.

استمر ثوران البركان اثنين وخمسين يوماً في بعض الروايات، وثلاثة

---

١) وفاء ١/١٤٤.

٢) وفاء ١/١٤٥.

أشهر في رواية أخرى(١) وتوقف اللهيب فترة بسيطة في السابع والعشرين من شهر رجب عام ٦٥٤هـ ثم عاود الاشتعال، وامتد نهر الحمم حسب تقدير القسطلاني أربعة فراسخ في عرض أربعة أميال، وارتفاع قامة ونصف، ولم تزل الحمم تتجمع في وادي قناة حتى قطعته وكونت سداً عظيماً(٢) ثم خرج منه وانتشر في فسحة من الأرض كانت منزلا للحجاج العراقيين يستريحون فيه قبل أن يدخلوا المدينة (تسمى بحرة الحاج) فقطعت الوادي وقطعت الطريق القادم من العراق، وكونت حرة جديدة لاتصلح للسير والمواصلات(٣) وقد ذكر السمهودي أن الحمم التي تجمعت في وادي قناة والساحة المجاورة لها كونت سداً كبيراً يقطع السيل عندما يسيل (حتى يصير بحراً مد البصر عرضاً وطولا)(٤) وهذا يعني أن المدينة المنورة قد كسبت بحيرة تبقى فيها المياه مدة طويلة في السنة، تزيد منسوب المياه الجوفية وتغذي الآبار. وذكر السمهودي فائدة أخرى لهذا السد هو أنه قطع الطريق التي كان يأتي منها المفسدون، ويقصد بعض الأعراب القاطنين في تلك الجهات، فلما قطعت هذه الحرة البركانية طريقهم أصبحوا لايصلون إلى المدينة الا عن طريق بعيد يمضي بهم خلف جبل أحد(٥).

تحديد موقع البركان:

حاول السمهودي أن يحدد موقع البركان بدقة فجمع عدة روايات تحدد الموقع في المواضع التالية:

أ - في صدر واد يقال له الأحيلين، وينسب هذا القول للمؤرخين دون أن

---

١) وفاء ١/١٤٥.

٢) وفاء ١/١٥٠.

٣) وفاء ١/١٥٠.

٤) وفاء ١/١٥١.

٥) وفاء ١/١٥٠.

يذكر اسماً معيناً. ويحدد وادي أحيلين بأنه شرقي المدينة على طريق السوارقية (مسيرة من الصبح إلى الظهر).

ب - في قارعة الهيلاء، قرب مساكن قريظة شرقي قباء بين قريظة وأحيلين، ثم سالت في أحيلين وعرجت واستقبلت الشام إلى منطقة تسمى قرين الأرنب قرب جبل أحد(١).

وحددها ابن كثير كما يلي:

أ - في منطقة المقاعد وراء قريظة على طريق السوارقية مسيرة نصف يوم من المدينة(٢).

ب - في رأس جبل أحيلين، في طريق الحرة(٣).

وذكر عبد القدوس الأنصاري في كتابه آثار المدينة وجود فوهة بركانية ذات شق مستطيل جداً من فوق جبل ((وشم)) ويقرر في الهامش أن اسم الجبل جشم وحرفته العامة إلى وشم(٤) وما زالت أثار هذه الحمم باقية إلى عصرنا هذا تغطي منطقة واسعة من الأرض بحجارة سوداء(٥).

آثار البركان:

أحدث ثوران هذا البركان هزة نفسية في المجتمع المدني، إضافة إلى ما أحدثه من دهشة وخوف. وتتجلى مظاهر هذه الهزة في الملاحظات التي سجلها المؤرخون وأهلها: مراجعة النفس والاعتراف بالأخطاء والانحرافات. فقد أرعبت هذه الظاهرة الكونية الضخمة الناس، وجعلتهم يقفون مع أنفسهم وقفة محاسبة صادقة، ويعترفون بذنوبهم، ويعلنون التوبة. ولئن حَرَّض

---

١) وفاء ١/١٥٠.

٢) البداية والنهاية١١/٢٠٢.

٣) السابق نفسه ١١/٢٠٢.

٤) آثار المدينة ص ٢٠٧.

٥) انظر مصور البركان في الملحق

القاضي سنان أمير المدينة منيف بن شيحة على التوبة، فإن أعيان المدينة وسائر رجالها ونسائها قد هرعوا دون أن يدفعهم أحد إلى المسجد النبوي مستغفرين تائبين، وأمضوا الليلة في الدعاء والتضرع، ويقول ابن كثير: وبات الناس تلك الليلة بين مصلٍ وتالٍ للقرآن وراكع وساجد، وداع إلى الله عز وجل، ومتنصل من ذنوبه ومستغفر وتائب، وأبطل أمير المدينة (المكوس) التي كان يجمعها ظلما، ورد المظالم إلى أهلها وأعتق مماليكه، وتبعه في ذلك كل من اقترف ظلماً(١) وورد في خطاب لسنان القاضي بعثه إلى أحد أصدقائه أن المدينة ((قد تاب جميع أهلها، ولا بقي يسمع فيها رباب ولا دف، ولاشرب.)) (٢) وهذه العبارة توضح جانباً من مراجعة النفس التي أحدثها البركان، والوقوف عند المعاصي التي انزلق اليها بعضهم في المجتمع المدني والرجوع عنها.

ثانياً: ربط هذه الحادثة بالقيامة بناء على حديث صحيح قاله رسول الله ﷺ ((لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى)) رواه البخاري. مع أن الحديث الشريف لاينص على أن هذه النار ستكون بالمدينة ضرورة بل بالحجاز، والحجاز إقليم واسع يمتد من جنوبي مكة إلى حدود الأردن. وقد التمس بعضهم ما يؤكد هذا الربط، فأورد ابن كثير رواية عن القاضي صدر الدين علي بن أبي القاسم المقيم بدمشق أن أعرابياً أخبر والده -وكان معاصراً للحادثة- أنهم رأوا في تلك الليلة أعناق الابل ببصرى على ضوء هذه النار(٣) ونقل السمهودي هذه الرواية واحتج بها لتأكيد أن هذه النار هي المقصودة بالحديث السابق، وناقش القطب القسطلاني الذي شك في أن تكون هذه النار قد رؤيت في بصرى، وعزز السمهودي

---

١) البداية والنهاية ٢٠٣/١٣.

٢) السابق ٢٠١/١٣.

٣) السابق ٢٠٤/١٢.

تأكيده بما نقله عن أبي شامة من أن أحد الثقاة بلغه أنها رؤيت في تيماء ((وبصرى عنها مثل ماهي من المدينة في البعد))(١) ويبدو أن السمهودي لم يكن يعرف تماماً أين تقع بصرى. وقد ذكر الحموي بلدين بهذا الاسم: الأولى من أعمال دمشق وهي قصبة كورة حوران، والثانية من قرى بغداد قرب عكبراء(٢). فالأولى تبعد عن المدينة أكثر من ألف (كيلو متر)، والثانية أكثر من ألف وخمسمائة (كيلو متر)، بينما لاتبعد تيماء سوى أربعمائة كيلو متر.

ولو ناقشنا الرواية التي نقلها ابن كثير واحتج بها السمهودي لوجدنا أنها تحتمل الشك، لأن الراوي الأول هو أعرابي لاندري مدى صدقه، ولو صحت إضاءة هذه النار لأعناق الإبل في بصرى لكانت خارقة تتواتر فيها الأحاديث، خاصة وأن النار قد استمرت مدة شهرين إلى ثلاثة أشهر، ولكنا لانجد إلا رواية ذلك الأعرابي المجهول؟. ومع يقيننا الذي لايتطرق إليه الشك أن النار التي ذكرت في الحديث الصحيح هي احدى علامات الساعة، لأن الذي أخبر بها لاينطق عن الهوى ﷺ. فاننا نعتقد أن تفسير الحديث يحتمل ظهور نار أخرى في مكان ما من منطقة الحجاز كلها، وأن تلك النار ستكون عظيمة جداً أضخم بكثير من هذا البركان، ويكون وهجها شديداً يضيء أعناق الإبل في بصرى، وقد تظهر شمالي الحجاز وقد تظهر في وسطه ولكن لن تكون رؤيتها قاصرة على أعرابي مجهول، بل سيراها كل من يرى أعناق الابل آنئذ. فاللفظة في الحديث الشريف تذكر أنها ((تضيء)) والإضاءة كما نعرفها درجة قوية من الإبانة والاظهار.

ثالثاً: إضفاء خصائص غير عادية على هذه النار، فقد شاعت مقولات بأن تلك النار ليس لها حر ولاتحرق الشجر بينما تحرق الحديد والحجر، وينقل المطري أن (سنجر العربي أحد عتقاء الأمير عز الدين منيف بن شيحة

---

١) وفاء الوفاء ١٤٨/١.

٢) معجم البلدان ٤٤١/١.

صاحب المدينة قال: أرسلني مولاي الأمير عز الدين بعد ظهور النار بأيام، ومعي شخص من العرب، وقال لنا ونحن فارسان: اقربا هذه النار وانظرا هل يقدر أحد على القرب منها، فإن الناس يهابونها لعظمها. فخرجت أنا وصاحبي إلى أن قربنا منها، فلم نجد منها حراً، فنزلت عن فرسي وسرت إلى أن وصلت اليها، وهي تأكل الصخر والحجر، فأخذت سهماً من كنانتي ومددت به يدي إلى أن وصل النصل إليها، فلم أجد لذلك ألماً ولا حراً، فعرق النصل ولم يحترق العود، فأدرت السهم، وأدخلت فيها الريش، فاحترق الريش ولم يؤثر في العود)(١) وقد ناقش السمهودي هذه الرواية وقرنها برواية للقسطلاني، وتبيّن أنها كانت تذيب مالاقاها من الشجر الأخضر والحصى من قوة اللظى، ولا أحد يقدر على الاقتراب منها ويأخذ بهذه الرواية ويرد كلام المطري(٢) وقد أصاب السمهودي في مناقشته فقد أتت نار البركان آنئذ على الأخضر واليابس، والرواية التي نقلها المطري لاتخرج عن إطار تزيّد القصاصين والمتخيلين.

حريق المسجد النبوي:

ولم تكد صدمة ((النار العظيمة)) تنتهي حتى فاجأت أهلَ المدينة صدمة أخرى كان لها وقع شديد في نفوسهم أيضاً، وكأن هذا العام عام صدمات ومحن. فقد ظل البركان يقذف حممه قرابة الشهرين، ثم هدأ، وثار بعد ذلك ثورة بسيطة. وما لبثت أن وقعت صدمة ثانية في الليلة الأولى من شهر رمضان في ذلك العام نفسه ٦٥٤هـ أي قبل أن ينطفىء البركان نهائياً.

فبعد أن انصرف الناس من صلاة العشاء والتراويح إلى بيوتهم، وقبل أن يخلدوا إلى النوم، ارتفع الصريخ ينادي الناس كي يهرعوا إلى المسجد النبوي فقد اشتعلت فيه النار. ويذكر المؤرخون أن أحد الفراشيين -واسمه أبو بكر

---

١) وفاء ١/١٤٦، اليافعي ٤/١٣٢.

٢) وفاء ١/١٤٧.

بن أوحد- دخل إلى مخزن في الجهة الشمالية الغربية من المسجد ليخرج بعض القناديل التي تعلق في المنارات طوال ليالي رمضان، وكان بيده سراج يستضيء به، فوضع السراج على قفص من أقفاص القناديل، وفيه مشاق (أي قطعة قماش من كتان) ريثما يخرج القناديل المطلوبة فعلقت النار بالمشاق، وامتدت منها بسرعة إلى الحصر والبسط الموجودة في المخزن، وحاول أبو بكر الفراش أن يطفئها فازداد اشتعالها، وامتدت إلى القناديل المملوءة بالزيت، وأمسكت النار بالفراش نفسه، وتزايد اللهيب ووصل إلى السقف، عندئذ رأى الناس خارج المسجد لهيب النار فتصايحوا وأسرعوا إلى المسجد ليطفؤوها بوسائلهم البسيطة آنئذ، وما كانوا يملكون سوى دلاء الماء، وجرى المنادي في أحياء المدينة وأسرع العسس إلى الأمير فطرقوا عليه الباب وأخبروه، فهرع مع رجاله إلى المسجد النبوي، واجتمع غالب أهل المدينة يحاولون إخماد النار ولكن النار أمسكت بخشب السقف الجاف، وما فيه من حصر وردم، وامتدت من خشبة إلى خشبة، وأخذت الأخشاب المحترقة تتساقط في أطراف المسجد فتحرق ما تقع عليه من بسط ووسائد خشبية وخزانات جانبية ومصاحف، فتزداد النار التهاباً وتصل نار الأرض بنار السقف، وتعجز الدلاء المسفوحة عن إيقافها، ثم بدأ السقف يتهاوى، وعلقت النار بعدد من الرجال الذين يحاولون إطفاءها دون جدوى، فأسرع إليهم إخوانهم ليخلصوهم منها وارتفع أزيز اللهيب من أطراف السقف كله ولم يعد أحد يستطيع الوصول إلى أعلى المسجد، وصار الناس يسفحون الماء من الجوانب والنار تستعر داخل المسجد حتى آتت على المنبر والشبابيك الخشبية ورؤوس السواري، ووقع السقف الذي على أعلى الحجرة على سقف بيت النبي ﷺ

فوقعا جميعاً في الحجرة الشريفة وعلى القبور المقدسة(١) وتلف جميع ماالحتوى عليه المسجد الشريف من المنبر النبوي والأبواب والخزائن والشبابيك والمقاصير والصناديق، وما اشتملت عليه من كتب وكسوة الحجرة(٢) ومات الفراش المسكين متأثراً بحروقه الشديدة، وتأذى عدد من الذين أمسكت بهم النار، ولم يسلم من النار إلا مستودع صغير على شكل قبة أشبه بخزانة كبيرة كروية بُني زَمن صلاح الدين الأيوبي وسط المسجد النبوي لتوضع فيه ذخائر الحرم، مثل المصحف العثماني وصناديق من منتصف القرن الرابع الهجري(٣).

جرت كل هذه الأحداث بسرعة مذهلة، وبهت الناس وصاروا في كمد عظيم، فهذه أول مرة في تاريخ المسجد النبوي يصيبه الحريق، والمدهش أن البركان الذي ثار قبل شهرين وأفزع الناس، لم يصل منه شيء إلى المسجد النبوي.

وكان اليوم التالي يوم الجمعة، وأول جمعة في رمضان، وعز على أهل المدينة ألا يصلوا في المسجد النبوي، لذلك تقاطروا صباحاً إليه وعزلوا ناحية منه ونظفوها من الركام وصلوا فيها والحزن يعصر قلوبهم.

إعادة بناء المسجد النبوي:

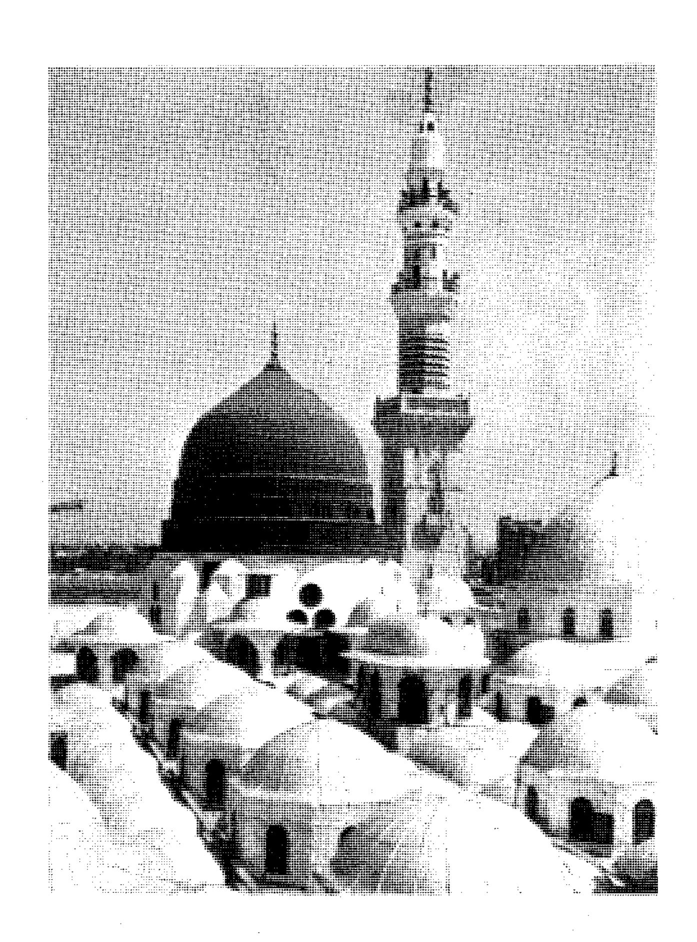
كتب أمير المدينة إلى الخليفة المستعصم يخبره باحتراق المسجد النبوي وتهدمه، ويطلب منه المساعدة لإعادة بنائه، فلم تكن الإمارة قادرة على إعادة بنائه بالشكل اللائق. فأمر الخليفة بإرسال فريق من البنائين والنجارين والحدادين والصناع ومعهم أدوات البناء اللازمة، وسيره على الفور مع المركب

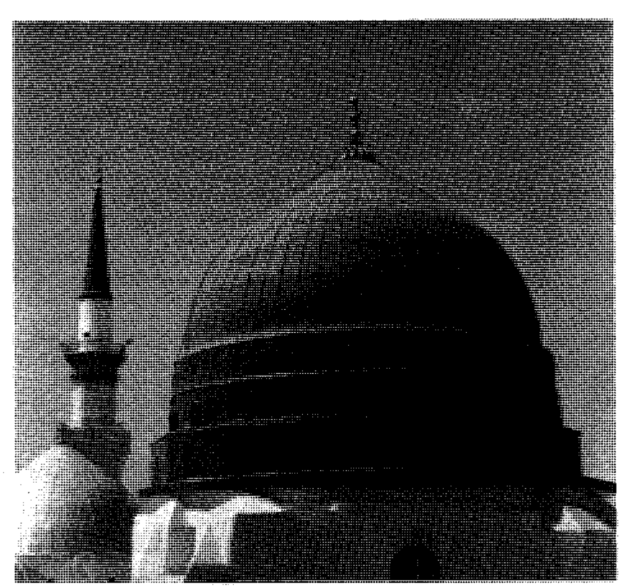
---

١) السمهودي ٢/٦٠٠ -٦٠١.

٢) السمهودي ٢/٥٩٩.

٣) السمهودي ٢/٦٠٠، عقود الجمان ١/١٢٨، الذيل على الروضتين ص ١٩٤، النجوم الزاهرة ٧/٣٦، البداية والنهاية ١٣/٢٠٥ -٢٠٦.





عند إعادة بناء المسجد النبوي بأمر السلطان قلاوون بُني سقفه على شكل مجموعة من القباب وبُنيت قبة كبيرة فوق الحجرة النبوية وكان لونها أبيض أيضاً ثم غُيِّر إلى الأخضر في عهد السلطان قايتباي

العراقي الذاهب إلى الحج(١) ووصل الفريق المدينة فطلب منه الأمير أن يؤخر العمل حتى ينتهي موسم الحج وينصرف الزوار. وفي أول محرم عام ٦٥٥هـ بدأ العمل في المسجد بإزالة الأنقاض تماماً وهدم بقية الجدران والسواري وإعادة بنائها.

وانتشر خبر احتراق المسجد والبدء بإعادة بنائه في الأمصار بعد عودة الحجاج، فسارع بعض السلاطين للإسهام في البناء الجديد، وأرسل سلطان اليمن آلات وأخشاباً وأموالاً لعمل الأساطين وتقوية الجدران، وأرسل الظاهر بيبرس من مصر ثلاثة وخمسين صانعاً ومعهم الحديد والرصاص والخشب الثمين والأموال اللازمة لنفقة الصناع لتجديد السقف وجعله من خشب الساج الثمين ولبناء مقصورة جديدة حول الحجرة النبوية وأخرى حول بيت السيدة فاطمة.

بعد ذلك أرسل السلطان قلاوون عمالاً وأموالاً لبناء قبة فوق الحجرة النبوية فبنيت عام ٦٧٨هـ، كما بنيت خارج المسجد عند باب السلام ميضأة، وجرت اليها قناة من مياه عين الزرقاء، وأعيد بناء المئذنة الرابعة فوق باب السلام، التي هدمت في عهد سليمان بن عبد الملك(٢).

ما بعد الحدثين:

سارت الحياة في المدينة المنورة بقية أيام منيف بن شيحة على وتيرتها الهادئة، حيث كان إعمار المسجد النبوي أهم أحداثها، وكانت آثار انفجار البركان واحتراق المسجد النبوي ماتزال تؤثر في النفوس وتحافظ على الرقة والصلاح اللتين ازدادتا إثر الحدثين المريعين.

أميران على المدينة:

وفي عام ٦٥٧هـ توفي منيف بن شيحة، وكان جماز خارج المدينة،

---

١) السمهودي ٦٠١/٢.

٢) انظر السمهودي ٦٠٥/٢ -٦١١.

فجاءها مسرعاً وتولى الإمارة(١) ولم يكن مستقلا بالإمارة وحده، بل كان يشركه فيها ابن أخيه مالك بن منيف، ولأول مرة يشترك أميران في إدارة المدينة المنورة. والراجح أن آل المهنا هم الذين فرضوا هذه الشراكة فمالك هو ابن الأمير المتوفى، وهو الوريث الحقيقي للإمارة، غير أن حداثة سنه، وحاجته لخبرة عمه جماز الذي تولى الإمارة أربع سنوات من قبل. جعلت الأسرة تشركه في الإمارة. ولم يكن جماز مقتنعاً بهذه الشراكة، ولكنه قبلها على مضض، وكان هو المتنفذ الحقيقي، وعندما دبَّ الخلاف بينهما بعد ذلك طرد جماز ابن أخيه عام ٦٦٤هـ. فذهب مالك إلى السلطان بيبرس -وكان بيبرس يحارب الصليبيين في صفد- وشكا إليه ما فعله عمه، فكتب بيبرس رسالة إلى جماز يطلب منه إعادة منيف إلى نصف إمارته، واستجاب جماز لطلب بيبرس وأعاد ابن أخيه(٢) ولا ندري مالمقصود بالنصف هنا، أهو النصف الجغرافي، بحيث يتولى كل من الأميرين الإمارة على قسم من منطقة المدينة المنورة الواسعة، أم هو نصف سلطوي يقتسم كل من الأميرين فيه السلطة الإدارية والمالية.

وبعد عامين رد مالك لعمه الكيل بمثله، وكاد له في الأسرة، واستطاع أن يقنعهم بعزله، فعزله ولم ينتصر له أحد داخل المدينة.

واستنجد جماز بأميري مكة اللذين وقف معهما في إمارته الأولى عام ٦٥٣هـ ضد الرسوليين، فأنجداه، وجاء معه إدريس بن قتادة ليرد له الجميل وينصره على ابن أخيه مالك، كما ناصره بعض العربان الذين سبق أن أحسن إليهم جماز واتجه الجميع إلى المدينة وحاصروها، ولكن مالك بن منيف أحسن التحصن والمقاومة، وصمد لمهاجميه حتى يئسوا منه، فرجع أمير مكة إلى بلده ورجع العربان إلى مناطقهم وبقي جماز، ورجاله في ضواحي

---

١) انظر النجوم الزاهرة ١٤٦/٧ والسلوك ج ١ قسم٢ ص ٤٢١.

٢) انظر السلوك ج١ قسم٢ ص ٥٦٠ و عقود الجمان ٩/٢ و ١٠.

المدينة(١) ويذكر السخاوي أن مالك بن منيف قام بعد ذلك بمبادرة لم يسبق لها مثيل في تاريخ أمراء المدينة من آل المهنا، إذ أرسل إلى عمه جماز يقول له ما معناه: أراك حريصاً على إمرة المدينة، وأنت عمي وصنو أبي، وقد كنت لي معاضداً ومساعداً ويجب علينا أن نحترمك ونرعى حقوقك، وقد استخرت الله تعالى ونزلت لك عن الإمارة طوعاً لاكرهاً. فسر بذلك جماز، وحمد الله على حقن الدماء وبلوغ مقصده، واستقل بها يومئذ(٢) ولئن صحت الرواية عن طريقة الصلح بين جماز ومالك فإنها نموذج رفيع لالتئام الأسرة الواحدة، والإيثار في الإمارة، ونادراً ما يحدث ذلك.

جماز في إمارته الثالثة:

كان جماز مختلفاً عن أخيه منيف وابن أخيه مالك، فمنيف أقرب إلى الرقة الليونة، وعندما ثار بركان الحرة الشرقية استمع لوعظ القاضي، وأعتق مماليكه ورد المظالم وألغى المكوس، ولم يدخل طوال مدة إمارته في نزاع مع سلطان أو أمير، وأحسن العلاقة مع الأيوبيين والمماليك وأمراء مكة والرسوليين، فلم يكن له خصوم.

أما جماز فكان أميل إلى الحزم والشدة، قليل الاهتمام بالعلاقات الخارجية، وقد اختلف مع مماليك مصر. ففي جمادى الآخرة عام ٦٦٤هـ جاءه الأمير شكال بن محمد أحد كبار المسؤلين في دولة المماليك وطلب منه أن تسهم إمارته في تكاليف الحرب ضد الصليبيين، وكانت تجمع من المناطق التي تتبع المماليك في كل مكان، وتسمى (العداد) فرفض جماز، فهدده شكال بالحرب، واستعان عليه ببني خالد المقيمين في بادية الحجاز، فخاف جماز

---

١) التحفة اللطيفة ١/٤٢٣.

٢) التحفة اللطيفة ١/٤٢٣.

وأرسل مذعناً، (ملتزماً القيام بحقوق الله، واستخراجها من قومه)(١) وبقيت العلاقات غير ودية مع المماليك أيام الظاهر بيبرس. رغم ما كان بيديه الظاهر بيبرس من اهتمام بالحرمين الشريفين، ورغم إسهامه في إعادة إعمار المسجد النبوي إثر حريق ٦٥٤هـ، وإرساله منبراً قيماً ليقام فيه. فعندما حج الظاهر بيبرس عام ٦٦٧هـ هرب منه جماز وخرج من المدينة. ومكث الظاهر بيبرس ثلاثة أيام في المدينة وقال لمن حوله: لو كان جماز يستحق القتل لما قتلته لأنه في حرم النبي ﷺ(٢) ووزع أموالاً كثيرة على أهل المدينة والمجاورين.

وما لبث جماز أن اختلف مع أمير مكة، وفتح صفحة جديدة من العلاقات المضطربة والحروب بين المدينتين، فقد دخل في الصراع الدائر هناك بين آل قتادة على الإمارة، وانتصر لفريق على فريق، وشارك بنفسه وبرجاله في القتال. فقد أدى الخلاف المستعر بين آل قتادة على إمارة مكة إلى صراع بين الشريكين إدريس بن علي بن قتادة وابن أخيه أبي نمي محمد بن حسن بن علي بن قتادة، وكانا قد اشتركا في حكم مكة سبعة عشر عاماً بعد أن خلصاها من الرسوليين بمساعدة جماز أمير المدينة. واتهم أبو نمي عمه إدريس بالميل إلى الرسوليين، فأخرجه من مكة عام ٦٦٧هـ وكتب إلى الظاهر بيبرس يعلمه بطرد عمه لميله إلى الرسوليين، ويعلن ولائه لمصر، ويطلب تثبيته وحده دون عمه في الإمارة. فقبل منه بيبرس الولاء واشترط عليه فتح مكة للحجاج والمعتمرين دون قيد أو شرط، وحمايتهم، وحماية التجار الوافدين والخطبة له وذكره في العملة المسكوكة، ونفذ أبو نمي الشروط. ولكن بعض آل قتادة مالبثوا أن صالحوه مع عمه إدريس، فعاد إدريس إلى مشاركته في الإمارة. وفي سنة ٦٦٩هـ دب الخلاف ثانية بين الأميرين واستطاع إدريس هذه المرة أن يطرد أبا نمي من مكة، فذهب أبو نمي إلى

---

١) عقود الجمان ٤٢٨/١، السلوك ج١ قسم٢ ص٥٥٨ ويؤرخها المقريزي بعام ٦٦٥هـ.
٢) النجوم الزاهرة ١٤٦/٧.

ينبع واستعان بأميرها وحارب عمه إدريس وقتله واستقل بإمارة مكة. ولجأ أحد أبناء إدريس واسمه غانم إلى الأمير جماز بن شيحة، ونجح في استثارته لمساعدته على قتال أبي نمي، فجهز جماز حملة من رجاله وخرج معهم بصحبة غانم بن إدريس في صفر عام ٦٧٠هـ إلى مكة وحاصروها، وقاتلوا رجال أبا نمي وتغلبوا عليهم، فهرب أبو نمي إلى بعض ضواحي مكة، ودخل جماز وغانم بن إدريس مكة ومكثا فيها معاً وحاول جماز أن يضمها إلى إمارته، ويجعل غانماً نائبه فيها، غير أن أبا نمي استطاع أن يجمع أعوانه واستعان ببعض أقاربه ومناصريه خارج مكة، وهاجم جمازاً وغانماً وأخرجهما من مكة بعد أربعين يوماً فقط من خروجه منها(١).

وقد أعادت هذه الحادثة الصراع بين أمراء مكة والمدينة وأحفظت جمازاً وجعلته ينتظر الفرصة المناسبة للعودة إلى مكة وقتال أبي نمي. ففي شعبان عام ٦٧٣هـ خرج جماز برجاله إلى مكة، ولم يكن خروجه هذه المرة انتصاراً لأحد من آل قتادة، بل ثأراً لنفسه ولكسر شوكة أبي نمي. غير أن أبا نمي تحاشى المواجهة، وأرسل يفاوض جمازاً على الصلح وعرض عليه أن يدفع له مبلغاً مجزياً من المال، على أن يرجع عن مكة ويتخلى عن نصرة خصومه من آل قتادة الذين قتلوا والده نهائياً. ونجحت المفاوضات وقبل جماز العرض ورجع عن مكة وخلى بينه وبين قتلة أبيه(٢).

ولكن جمازاً لم يحافظ على تعهده طويلا، فقد نجح أمير ينبع إدريس بن حسن بن قتادة في استثارته واستعداءه على أبي نمي بعد سنتين، فخرج جماز مع إدريس بن حسن في ربيع الأول عام ٦٧٥هـ لقتال أبي نمي، وكان عدد رجال الأميرين المتحالفين كما يذكر الفاسي ٢١٥ فارساً وستمائة راجل. وعلم أبو نمي بالخبر فجمع رجاله وكانوا أقل عدداً ٢٠٠ فارساً و١٨٠ راجلا

---

١) انظر العقد الثمين ١/ ٤٦٠ -٤٦١.

٢) انظر السابق نفسه.

فقط، وسار إلى مر الظهران قرب مكة، وخطط للمعركة بدقة، وقاد القتال في التاسع عشر من الشهر نفسه ونجح رغم قلة عدد رجاله في كسر الأميرين المتحالفين ضده وتغلب عليهما، فارتدا منسحبين بعد أن خسرا عدداً من رجالهما وعتادهما. وعاد أبو نمي إلى مكة منتصراً(١).

بعد ذلك بدأت فترة مصالحة وعلاقة حسنة، فقد اصطلح جماز مع أبي نمي، ومع المماليك في مصر أيضاً.

أما صلحه مع أبي نمي فلا ندري هل تدخل فيه أحد من الوسطاء أم تم بالمراسلة بين الأميرين، وقد حرص كل من الأميرين على أن يكون الصلح قوياً ودائماً، وأن تنشأ بينهما ارتباطات وشيجة، فتزوج جماز بن شيحة خزيمة ابنة أبي نمي وصار صهراً لخصمه القديم.

وأما صلحه مع المماليك فبعد وفاة الظاهر بيبرس عام ٦٧٦هـ أرسل جماز بالولاء إلى ابنه السعيد بركه الذي خلفه في الملك، وخطب له على منبر المسجد النبوي، فقبل السعيد الولاء وأرسل أموالا وكسوة للحجرة النبوية. وامتدت فترة الهدوء هذه اثني عشرة عاماً، حظي فيها جماز بثناء المؤرخين(٢).

غير أن العلاقات مع أبي نمي ما لبثت أن اضطربت عام ٦٨٧هـ وتحولت إلى قتال بين الفريقين. وكان المسؤول عن ذلك هذه المرة هو أبو نمي وليس جمازاً، لأن جمازاً كان ممثلا للسلطة الشرعية في مصر لمعاقبة أبي نمي على خطئه.

وترجع أصول المشكلة الجديدة إلى الصراع الدائر آنئذ بين الرسوليين في اليمن والمماليك في مصر. وحرص كل من الفريقين على بسط نفوذه على مكة المكرمة والاحتفاظ بولائها لسلطانه.

---

١) السابق نفسه.

٢) انظر التحفة اللطيفة ١/٤٢٤.

وكان أبو نمي -كما أسلفت- قد أعلن ولاءه للمماليك في مصر عام ٦٨١هـ فكتب عهداً للسلطان قلاوون يلتزم فيه بوضع الكسوة التي يرسلها المماليك على الكعبة وبالخطبة لهم وكتابة أسمائهم على العملة المسكوكة وحماية الحجاج والتجار، وغير ذلك من الالتزامات. وكان المماليك يدفعون له ثلاثين ألف درهم سنوياً ويرسلون الأعطيات والنفقات للحرم.

وفي عام ٦٨٧هـ استطاع خصوم المماليك الألداء في اليمن إقناع أبي نمي بالخطبة لهم، فخطب لملكهم المظفر الرسولي. وغضب السلطان قلاوون، وأرسل حملة بقيادة مملوكه الجماكي وطلب من أمير المدينة أن ينضم إليه لمقاتلة أبي نمي وإعادة الخطبة للمماليك. وجاء الجماكي إلى المدينة فخرج جماز معه برجاله رغم مصاهرته لأبي نمي، وخرجت معه أسرته وفيها زوجته خزيمة بنت أبي نمي ووصيفاتها. وعلم أبو نمي بالحملة، فخرج من مكة ولجأ إلى بعض أقاربه في ضواحيها، ودخل جماز مكة، واستولى على دار الإمارة، وأعاد الخطبة للمماليك، وأمر أن تضرب العملة في دار السكة باسمه وباسم السلطان المنصور قلاوون.

ولم يكن أبو نمي خصماً سهلاً، فقد عمل ببراعة على إخراج جماز، اذ راسل الجماكي قائد الجيش المملوكي ووعده بتنفيذ كل مايريده السلطان قلاوون، وبأعطيات له. كما حرض ابنته خزيمة على التخلص من جماز، واستطاعت إحدى وصيفات خزيمة واسمها أم هجرس أن تدس السم في شراب جماز، فاعتل جماز وكاد أن يهلك لولا أن سارع بعضهم لمعالجته. وعلم جماز بالمراسلات التي تجري بين الجماكي وبين أبي نمي، وحصل على دليل قاطع بأن الجماكي تواطأ مع أبي نمي وأنه سينقلب عليه، فاشتد الأمر عليه ورأى أنه لامخلص له من هذه الورطة إلا الرحيل عن مكة، فأمر بالعودة سريعاً إلى المدينة ليكمل علاجه فيها، وقبض على الجماكي وأرسله موثوقاً إلى السلطان قلاوون بمصر، فعزله السلطان عن وظيفته وسجنه. أما جماز

فقد تعافى من السم بعد مدة، وعاد لإدارة إمارته في المدينة والاهتمام بشؤونها(١).

بنى جماز لنفسه قصراً على جبل سلع، وجعله قلعة يتحصن بها ويشرف منها على مداخل المدينة، وما لبث أن نقل قصر امارته إليه(٢) وصانع عدداً من القبائل المحيطة بالمدينة والذين ظهرت شوكتهم، ودفع (خفارة لمن تخشى غوائله من رؤسائها)(٣) وساعد على تهدئة الخلافات بين السنة والشيعة في المدينة، وأذن للقاضي السني الشيخ سراج الدين عمر بن أحمد بن الخضر في معالجة أمور أهل السنة وإمامتهم والخطبة في المسجد النبوي، وسمح له بالبقاء الدائم في المدينة وحماه من تهجم الشيعة المتطرفين. وكانت الخلافات قد اشتدت قبل ذلك حتى لم يكن قاض سني يجرؤ على البقاء في المدينة مدة طويلة. وكان سلطان مصر هو الذي يعين القاضي السني ويرسله مع وفد الحجيج فيمكث إلى رجب ويأتي خلفه مع المعتمرين في ((الرجبية)) ليكمل السنة، وكان القاضي يعاني من مضايقات شديدة وربما حصبه بعضهم وهو على المنبر، وربما آذوه في بيته وهددوه بالقتل. وقد نجح الشيخ سراج الدين بالتعاون مع جماز في استمالة الشيعة، وصاهرهم ولم يعد أحد يتعرض له بالأذى(٤).

نتيجة لذلك علت مكانة الأمير جماز عند السلطان قلاوون فاستقبله عام ٦٩٢هـ واحتفى به حفاوة كبيرة، وكان السلطان قلاوون قد غضب على أمير ينبع وسجنه في مصر، فتشفع فيه الأمير جماز، فقبل شفاعته وأطلقه له، وأعاده إلى الإمارة، وأجاز جمازاً بأموال وفيرة وأرسل إلى المدينة مثلها.

---

١) انظر العقد الثمين ٤٦٢/١.

٢) السمهودي ١٢٣٦/٤.

٣) النجوم الزاهرة ٣٥٧/٧.

٤) انظر الدرر الكامنة ٢٢٤/٣-٢٢٥.

نجح جماز في ضبط الأمن في المدينة المنورة وحفظها من المغيرين والطامعين سواء بالمصانعة أو بالتأديب والعقوبة، وقد حاول أحد أمراء العربان عام ٦٩٣هـ الإغارة على المدينة المنورة -وكان شديد الفتك كثير الاغارة على المناطق الأخرى- فجهز جماز رجاله وعدداً من أشداء المدينة المتطوعين، وسار بهم إليه فالتقاه في منطقة قريبة من المدينة وقتله وقتل عدداً من رجاله فحمد الناس لجماز هذا القتل وانتشر صيته في البلاد(١) وعاشت المدينة المنورة بقية إمارة جماز هادئة آمنة.

وفي عام ٧٠٠هـ ضعف جسم جماز ضعفاً شديداً ولم يعد قادراً على إدارة شؤون الإمارة، فتنازل لابنه منصور عن الإمارة، واعتكف في قصره يعيش بقية أيام شيخوخته، ويزجي النصائح لابنه منصور إلى أن توفي عام ٧٠٤هـ(٢).

وقد نشطت الحركة الثقافية في عهده وكثرت الكتاتيب وحلقات العلم في المسجد النبوي. وحدثت في العقد الأخير من إمارته حادثتان طبيعيتان كان لهما أثر في أهل المدينة.

أما **الحادثة الأولى** فقد وقعت عام ٦٩٠هـ حيث هطلت أمطار كثيرة وسالت الأودية وتجمع سيل عظيم في وادي قناة وكون بحيرة كبيرة خلف السد الذي أحدثه بركان عام ٦٥٤هـ. وما لبث السيل أن أحدث ثغرة في السد، فاندفع الماء وانساح في المزارع الشمالية والشرقية، وفزع أهل المدينة، وخافوا أن ينهار السد وتندفع المياه إلى الدور والمسجد النبوي، غير

---

١) عقود الجمان ٢٩٦/٣.

٢) العقد الثمين ٤٣٧/٣. وفي الدرر الكامنة أنه اعتزل سنة ٧٠٢هـ بمرسوم من السلطان. ونرجح الأول. وربما كان الاعتزال عام ٧٠٠هـ والمرسوم بتولية منصور بعد سنتين. وفي السلوك أنه تولى سنة ٧٠٤هـ بعد وفاة أبيه. قسم١ ج٢ ص١٢.

أن الله كتب السلامة آخر الأمر وظل انسياب المياه على مستواه الأول، واتجهت بعض المياه إلى مجرى وادي قناة خلف السد وسارت غرباً إلى مجمع الأسيال واحتوتها الأودية هناك(١).

وأما **الحدث الآخر** فوقع بعد عامين من حادثة السد، حيث عاود البركان ثورانه عام ٦٩٢هـ وقذف الحمم في السماء، ولكنه لم يستمر في الثوران سوى ثلاثة أيام حيث خمد وانطفأ، ولم يحدث أي أذى للمدينة، ولم يحدث الذي أحدثه البركان السابق(٢).

وفي سنة ٦٩٥هـ احتبست الأمطار وقحط الناس، وهبت ريح صفراء مؤذية، فارتفعت الأسعار ارتفاعاً شديداً وقل الوافدون إلى المدينة، وعانى الناس من ذلك معاناة شديدة(٣) واستمر القحط إلى السنة التالية، ثم بعث الله الفرج.

وودعت المدينة القرن السابع بهدوء ودعة وسكينة، واستقبلت القرن الثامن بإمارة منصور بن جماز التي ستشهد أحداثاً جديدة مختلفة.

---

١) وفاء الوفاء ١٠٧٤/٣.

٢) عقود الجمان ١٤٩/٣.

٣) السابق ٣٠١/٣.

إمارة منصور بن جماز:

استهلت أيام الأمير منصور بن جماز بخير وفير عم أهل المدينة. ففي موسم عام ٧٠٠هـ حج الأمير بكتمر الجوكندار، أحد أمراء المماليك وحمل معه كسوة للحجرة النبوية وأموالاً كثيرة أعطى بعضها للأمير وفرق الباقي، ويقدر ما فرقه في مكة والمدينة بثمانين ألف دينار، فإذا كان نصيب المدينة نصفها فهو مبلغ ضخم بمقياس ذلك الزمن(١) وفي السنة الثانية وقع زلزال شديد وأعقبه شيء من القحط، فتأذى الناس، فلما كان موسم الحج وفد الأمير سلار نائب السلطة بمصر يصحبه ثلاثون أميراً ومعهم آلاف الأرداب من القمح -عشرة آلاف منه وعشرة آلاف من الأمير سنقر وآلاف أخرى من سائر الأمراء- فرقها في مكة والمدينة وأعطى كل واحد قوت سنة، كما فرق أموالاً طائلة(٢).

وأعاد سلار الكرة عام ٧٠٤هـ(٣) وأغدق العطاء على أهل الحرمين، وكان بصحبة سلار قوة مسلحة كافية لتأمين طريق الحج. وقد شكا إليه بعضهم ما تعرض له بعض الحجاج في الطريق بين مكة والمدينة، فقاد رجاله لمطاردة الأعراب الذين اعتدوا على الحجاج، ووصل إلى مضاربهم وقبض على خمسين رجلا منهم ممن شارك في الجريمة وأخذهم إلى المدينة واستفتى الفقهاء فيهم فأفتوة بتطبيق حد الحرابة عليهم ليكونوا عبرة لمن خلفهم فلا يتجرأ أحد على طريق الحج بين المدينتين المقدستين. فأمر سلار بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ونفذ الحد، وسرت أخباره بين القبائل فكان لها

---

١) الدرر الكامنة ١٨/٢ و درر الفوائد ص ٦٩٤.

٢) الدرر ٢٧٦/٢. التحفة ١٦٧/٢. السلوك ج١ قسم٣ ص ٩٥٤ ويجعل تاريخ الحج سنة ٧٠٣هـ.

٣) السلوك ق١ ج٢ ص١٢.

أثر كبير في تأمين الطريق عدة سنوات.

كما استطاع بعض العلماء المجاورين في المدينة المنورة أن يؤثروا في مجريات الحياة العامة ويحدوا من انتشار بعض البدع، ويذكر بعضهم أنه كان في المسجد النبوي عند الروضة جذعة تسمى جزيرة فاطمة، وكانت عالية يتطاول الزائرون ليلمسوها ويتبركوا بها، ويتزاحم الرجال والنساء عليها ((فتقف المرأة للأخرى حتى ترقى على ظهرها وكتفيها لتصل اليها، وربما وقعت المرأة وانكشفت عورتها، وربما وقعتا معا))(١) فاستطاع العالم الفقيه أحمد بن محمد بن علي بن سليم المصري أن يقنع الأمير بقلع تلك الجذعة فاقتلعت. كما استطاع أن يزيل عدداً من البدع الأخرى(٢) ونقل بعضهم إلى السلطان بمصر أنه ليس في المدينة من يحسن إقامة المواقيت وربما أخطأوا في توقيت الأيام والصلوات، فأرسل السلطان ثلاثة من الخبراء في المواقيت ليتولوا في الأمر بشكل دائم(٣).

وهكذا مضى معظم العقد الأول من القرن الثامن الهجري والحياة في المدينة المنورة هادئة هانئة، استتب الأمن وتوافرت السلع وتوالت العطاءات من السلطان والأمراء، إلى أن كان عام سبعمائة وتسع للهجرة، قبل أن ينتهي العقد، حيث حدث شرخ في أمن المدينة كاد أن يعيدها إلى أيام الفتن والحروب المضنية.

كان السبب في هذا الشرخ تنافس الإخوة على الإمارة، وسوء تصرف السلطان المملوكي. فرغم أن سلطة السلطان المملوكي على المدينة اسمية أكثر منها فعلية، فقد كان يتدخل في تعيين الأمير، وكان قراره مؤثراً يلتزم به الأشراف. ولكن المؤسف أن هذا القرار لم يكن يصدر عن روية أو معرفة

---

١) التحفة ٢٤١/١.

٢) السابق نفسه.

٣) التحفة ٤٥٨/٣.

بالأمور أو سياسة حكيمة، بل كان قراراً ارتجالياً في غالب الأحوال. فعندما يقصد أحد الأشراف السلطان ويطلب منه أن يعينه في الإمارة أو يشركه في إمارة أمير موجود، يستجيب له السلطان دون أن يدرس أثر استجابته على الوضع في المدينة، وهل سيتقبله الآخرون بقناعة ورضا ؟ أم أنه سيحدث فتنة ؟

وهذا ما وقع عام ٧٠٩هـ في المدينة المنورة. فقد طمع طفيل بن جماز شقيق الأمير منصور بن جماز في إمارة المدينة، ولم يكن قادراً على انتزاعها من أخيه، ولم يجد حجة يقنع بها السلطان كي يعزله، لذلك اكتفى بطلب المشاركة في الإمارة. وقصد طفيل السلطان الملك المظفر سلطان المماليك في مصر آنئذ، فاستقبله المظفر وأكرمه واستجاب لطلبه، وأعطاه أمراً سلطانياً يشركه فيه بالإمارة مع أخيه منصور بن جماز.

وعاد طفيل إلى المدينة، وقبل أن يصلها علم أن أخاه منصوراً مسافر إلى نجد، وأنه استخلف على إمرة المدينة ابنه كبيش بن منصور، فتحركت أطماع طفيل، ولم يقتنع بما أعطاه السلطان من مشاركة في الإمارة، وقرر أن يستغل الفرصة ويستولي على الإمارة كلها وينفرد بها، فجمع رجاله وأعوانه خارج المدينة، ثم أغار على المدينة في السادس عشر من شعبان عام ٧٠٩هـ فأغلقت المدينة أبوابها، وتحصن الناس خلف السور، وأمر كبيش أن لايبيت رجل قادر على حمل السلاح في بيته، حتى المجاورون والفقراء الذين في الرباطات أمرهم بالخروج والتوجه إلى القلعة وأطراف السور والسهر في الحراسة، فكرب الناس، لذلك ولم يسعهم الا الطاعة ولم يتخلف أحد.

واستمر الحصار ليلتين، وفي الليلة الثالثة استخدم رجال طفيل سلماً طويلا أحضروه من الشام قطعاً، وتسلقوا السور وفاجأوا المحاصرين بالهجوم، فتضعضع الناس وبدأوا بالفرار، وتراجع كبيش ورجاله، وخرجوا

من المدينة لبعض الوقت(١) ولكنهم ما لبثوا أن جمعوا صفوفهم واستنهضوا الناس معهم من أطراف المدينة والمرابطين على الجهات الأخرى من السور وهاجموا طفيلاً ورجاله، واشتد القتال، وكاد كبيش أن يهرب ولكنه ثبت أخيراً واستطاع مع أنصاره أن يصل إلى طفيل ويقتله، وقتل معه عدداً من أعوانه، وفر الباقون.

وهكذا أمضت المدينة ثلاث ليال مشحونة بالتوتر انتهت بمعركة دامية بين أفراد الأسرة الواحدة بغى فيها الأخ على أخيه، واقتتل أبناء العائلة الواحدة وقتل ابنُ الأخ عمه وأبناء عمه(٢).

وعاد الأمير منصور بن جماز إلى إمارته وقد أقلقه ما حدث، لأن السلطان الذي أصدر أمره بإشراك أخيه طفيل في الإمارة يمكن أن يصدر أمراً آخر لغيره من أفراد الأسرة المتطلعين إلى الإمارة، لذلك ما إن جاءه الخبر بمقتل السلطان المظفر وتولي السلطان الناصر محمد بن قلاوون حتى شدَّ الرحال إلى مصر وزار السلطان لتهنئته بالسلطة، واستصدر منه مرسوماً بتفرده بالإمارة وإلغاء ما سبق أن حدد له في مرسوم إشراك طفيل معه(٣).

كان هذا الحدث بداية لدوامة من الفتن والحروب الصغيرة المتصلة الحلقات في عهد منصور بن جماز، فقد أثار مقتل طفيل بعض أفراد العائلة عليه وأوتر ابنه ماجداً، ولجأ ماجد إلى بعض الضواحي قرب المدينة المنورة، وكانت لهم إقطاعات فيها ملكها أبوه، فجعلها مركز إقامته، وبدأ ماجد يعد العدة للثأر من الأمير منصور وإخراجه من المدينة والاستيلاء على الإمارة.

---

١) ابن خلدون ١٤١/٤، ويرى أن أبا كبيشة قد استجاش العرب.

٢) انظر التحفة اللطيفة ٧٠٣/٣. السلوك ق١ ج٢ ص٨٢. النجوم الزاهرة ٢٧٨/٨. ويذكر ابن بطوطة أن كبيشاً بلغ من غيظه من عمه وضرواته في قتاله أن توضأ بدمه بعد قتله. رحلة ابن بطوطة ص١٤٣.

٣) انظر السلوك ق١ ج٢ ص٩٤.

واتصل ماجد بأمير ينبع الذي شايعه وشجعه وأمده ببعض المال والرجال، فاتسعت جبهة الخصومة ضد أمير المدينة.

بدأ ماجد بشن غارات مفاجئة على المدينة المنورة، يحاول فيها النيل من الأمير منصور ورجاله، فيتصدى له رجال الإمارة وتدور معركة صغيرة وسريعة يقع فيها بضع ضحايا ثم يرتد المهاجمون إلى مكامنهم تاركين وراءهم حالة من الفزع والاضطراب، وقد يحمل معهم المغيرون ما تصل إليه أيديهم من سلاح ومؤونة.

ثم أخذ ماجد يتحين فرص خروج الأمير منصور من المدينة ليشن الغارة ويحاول الاستيلاء على الإمارة. وضاق الأمير منصور بهذه الغارات وخرج متقفياً ابن أخيه فلم يظفر به، فقرر أن يضعف قوته ويقطع عنه مدد أمير ينبع قتادة بن إدريس، وفي الوقت نفسه يعاقب قتادة لمساعدته خصمه، فخرج بقواته إلى ينبع في عام ٧١١هـ. وعلم أمير ينبع بخروجه فأعد العدة لملاقاته وعزز حصنه، ولم ينجح الأمير منصور في مباغتة قتادة بن إدريس، ووقعت بين الفريقين مناوشات محدودة وتحصن قتادة بقلعته، وأدرك الأمير منصور أنه لن يظفر بطائل من حملته، وخشي أن يستغل ماجد غيبته ويستولي على المدينة، لذلك انسحب مع رجاله عائداً إلى المدينة(١).

أثرت هذه الفتنة في أمن المدينة وحياتها الهادئة، واضطربت هيبة الإمارة، وظهرت آثار هذه الاضطرابات في اللغط الذي انتشر في المدينة حول غارات ماجد، واستفاد الطامعون والمفسدون من هذا الوضع، فتحركوا ليزيدوا الحالة بلبلة واضطراباً. ويروي السخاوي أن بعض الشرفاء المتمردين على الأمير منصور أو المتعاطفين مع ماجد أشاعوا أنهم: سوف يغلقون أبواب الحرم بعد صلاة الصبح على الناس، وينقضون على بيوتهم فينهبونها، وأنهم سوف يقتلون من بالحرم من الناس. فاستعد المجاورون والخدام لذلك، وقام

---

١) انظر ابن خلدون ١٤١/٤. والتحفة الملوكية في الدولة التركية ص١٢٦.

الشيخ علي بن يحيى نور الدين بعد صلاة الصبح وصاح بأعلى صوته: ياأيها الناس الفتنة خامدة، لعن الله مثيرها، وكرر ذلك مراراً، واستمر يسكن الفتنة وساعده أشياخ مثله في حلمه وعقله حتى سكنت(١) وساعدت حالة الاضطراب هذه على نشر الإشاعات العدائية المتبادلة بين الشيعة والسنة، وراجت حكايات لاتعرف مصادرها الحقيقية حول صدامات وعمليات انتقام متوقعة، وبخاصة بعد أن أشيع أنه لن يحج في هذه السنة أحد من المماليك والقادة لانشغالهم بمواجهة التتار، ولكن مالبث الخبر أن جاء بأن السلطان الناصر بن محمد بن قلاوون سيحج ومعه عدد كبير من الأمراء، فهدأت الأحوال، وجاء السلطان ومرافقوه إلى المدينة أواخر ذي القعدة ٧١٢هـ وفرق الأموال، وسكنت الفتنة بين الشيعة والسنة.

وفي العام التالي ٧١٣هـ شارك عدد من أشراف المدينة في الصراع الدائر بين أبناء أبي نمي في مكة، حيث انخرط خمسمائة فارس من أهل المدينة وما حولها في حملة قادها أبو الغيث بن نمي ضد أخويه رميثة وحميضة، وأعانوه على الاستيلاء على مكة(٢).

وطبيعي أن مثل هذه المشاركة ستزيد الروح الحماسية والاستعداد للقتال والمصادمات عند هؤلاء، وبالتالي فان أخبار الغارات التي يشنها ماجد والخصومة مع قتادة بن إدريس وتحركات بعض الأعراب المحيطين بالمدينة ستجد بيئة تنميها وتزيد الاضطرابات، على حساب السكينة والأمن اللتين كانت المدينة تنعم بهما.

وشاعت أخبار هذه الاضطرابات ووصلت إلى السلطان محمد بن قلاوون الذي كان مشغولا بالتصدي للتتار وتعقبهم وإخراج بقية الصليبيين من السواحل. فتضايق وعدّ ذلك ضعفاً من أمير المدينة أو سوء إدارة. وزاد من

---

١) التحفة ٣/٣٦٧-٣٦٨.

٢) العقد الثمين ٤/٤٠٦-٤٠٧.

ضيقه شكاوى الحجاج وأمراء الحج من اضطراب الأمن في الحرمين الشريفين والطريق بينهما، وأثر ذلك في فقدان السلع وغلاء الأسعار، فأمر قائد موكب الحج عام ٧١٦هـ بالقبض على الأمير منصور وإحضاره إلى مصر للتحقيق معه في هذا الأمر. ونفذ قائد الركب الأمر، فقبض على الأمير منصور واصطحبه معه في العودة إلى مصر، وأناب أخاه الأمير ودي في إمارة المدينة، وهناك استطاع الأمير منصور أن يقنع السلطان بأنه ليس مسؤولا عن الحالة المتردية في المنطقة، وأن المسؤول الحقيقي هم خصومه: ماجد وقتادة بن إدريس وعدد من أشراف المنطقة وشرفاء مكة. وعندما نجح الأمير منصور بن جماز في إثبات براءته أطلقه السلطان وجهزه وأعاده إلى إمارته في ربيع الأول ٧١٧هـ غير أن أخاه ودي طمع في الإمارة وحاول أن يتصدى لأخيه منصور ويمنعه من دخول المدينة، وجمع رجاله وأعوانه لذلك. ووقعت مناوشات بين الطرفين واستطاع الأمير منصور آخر الأمر أن يطرد ودي ويسترد الإمارة(١).

وأغار ماجد على المدينة في جمادى الأولى من العام نفسه، وفاجأ الأمير منصور وكاد أن يأسره، فهرب الأمير منصور خارج المدينة، وجمع رجاله واستعان بعساكر السلطان قلاوون الذين جاؤوا معه، وكروا على المغيرين داخل المدينة، ودارت معركة عند جبل سلع أسفرت عن مقتل ماجد وعدد كبير من رجاله وهزيمة الباقين، كما سقط عدد من الضحايا من رجال الأمير منصور، وعاد منصور إلى إمارته وقلعته(٢) ولم يذكر ابن خلدون مقتل ماجد

---

١) السلوك ق١ج٢ ص١٧٥ والعقد ٤٣٧/٣.

٢) العقد الثمين ٤٣٧/٣، التحفة ٤٤٢/٣. وأورد ابن خلدون مع شيء من الاختلاف، فقرر أن ماجداً استولى على المدينة ومكث فيها لبعض الوقت وأن الأمير منصور قد أرسل إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون يستنجده فأنجده السلطان بجيش ١٤٠/٤.

في حين ذكر السخاوي ذلك في ترجمته الموجزة(١).

استراحت المدينة من غارات ماجد ورجاله، ولكنها لم تعد إلى أمنها وسكينتها السابقة، وأثرت هذه الأحوال المضطربة على الحياة العامة، وقلت التجارة، واضطر الأمير أن يفرض المزيد من (المكوس) والضرائب على القادمين إلى المدينة والبضائع التي يحملونها ليغطي نفقات الإمارة وما تواجهه من صدامات وفتن. واشتد أصحاب الخراج على التجار القادمين بالبضائع فقلت التجارة كثيراً، وأصبح غالب عيش أهل المدينة من زرعها وزرع السوارقية، وكان القمح لايأتي من الشام إلا قليلاً حتى كان السعيد من يدخل بيته بحمل أو حملين، وكانت العقوبة على من يشتري ولا يبلغ ولا يدفع الخراج كبيرة(٢).

وضج الناس من هذه الحالة وشكوا الأمر إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون عندما حج عام ٧١٩هـ، فأمر الناصر بإبطال جميع المكوس والخراج، وعوض أمير المدينة عن دخله منها فمنحه إقطاعات في مصر والشام وجعلها وقفاً يخصص ريعها لإمارة المدينة وفقرائها(٣) وكان مع السلطان صاحب حماة الملك المؤيد ونحو خمسين أميراً وجماعة من أهله وأعيان دولته فوزعوا أموالاً كثيرة(٤).

ووردت بعد ذلك أموال أخرى لمساعدة أهل المدينة على مواجهة ظروف المعيشة في فترات الاضطراب. وأرسل جوبان بن قدوان نائب السلطة بالعراق أموالاً أخرى كثيرة لبناء مدرسة قرب المسجد النبوي ولشراء بعض العقارات

---

١) انظر ٤٤٢/٣.

٢) التحفة ٧٠٩/٣.

٣) درر الفوائد ص٦٧٧.

٤) إتحاف الورى ١٦٢/٣-١٦٤ والسلوك ق١ ج٢ ص٢١٤.

ووقفها عليها(١) فخففت هذه الأموال من أثر القحط(٢).

ونجح الأمير منصور في حفظ الأمن في المدينة المنورة في السنوات التالية، ولكنه لم ينجح في سل الضغينة من صدور أبناء أخيه وأبناء عمه الذين وترهم من قبل. فما زال هؤلاء يتحينون الفرصة لقتله، وقد استطاع أحد أقاربه الموتورين أن يظفر به في رمضان عام ٧٢٥هـ، وهو في عدد قليل من رجاله، فهاجمه وتمكن من قتله(٣).

إمارة كبيش بن منصور:

كان الأمير منصور قد بلغ السبعين من عمره، وكان في أيامه الأخيرة يستعين بابنه كبيش الذي أثبت قدرته على إدارة الإمارة في غيبة والده والدفاع عنها، وقد تولى كبيش الإمارة مباشرة بعد أبيه وطلب من السلطان أن يثبته بمرسوم، فأرسل السلطان بتثبيته.

غير أن كبيشاً الذي أحفظه مقتل أبيه الشيخ لم يسع إلى تصفية الحقد المتراكم بينه وبين أبناء عمه، بل أخذ يطارد قتلة أبيه وخصومه الآخرين، وأخذ أقاربه القاطنون في ضواحي المدينة وقراها يشنون الغارات عليها أيضاً للنيل منه. وظهرت مطامع أفراد الأسرة الواحدة في الإمارة، وعاد الصراع بينهم. ففي شهر صفر عام ٧٢٧هـ جمع ودي بن جماز عم الأمير كبيش أعوانه وسار بهم مع ابنه عسكر إلى المدينة، وكان الأمير كبيش غائباً عنها وينوب عنه في الإمارة أخوه طفيل بن منصور، فحاصر المدينة سبعة أيام ثم اقتحم سورها وهاجم الإمارة، فهرب طفيل، ودخل ودي المدينة فأخذ غلمان الأمير وأهله وصادرهم وعذب جماعة من رجاله فمات بعضهم تحت التعذيب، وقتل قاضي المدينة هاشم بن علي وشريفاً آخر. ومضى طفيل إلى القاهرة

---

١) العقد الثمين ٣/٤٤٦.

٢) الدرر الكامنة ٣/٧٠، التحفة ١/٤٣١.

٣) السلوك ق١ ج٢ ص٢٦٩ والدرر ٥/١٣٢.

يشكو عمه ودي إلى السلطان المنصور، وطمع ودي في أن يثبته السلطان المنصور في الإمارة، فترك أعوانه يدبرون شؤون المدينة وسافر إلى مصر ليقنع السلطان المنصور بإصدار مرسوم تعيينه، ولكن المنصور جمع بين ودي وطفيل وسمع منهما معاً في جلسة أشبه بجلسة القضاء والمحاكمة، وفي نهايتها أمر بالقبض على ودي وسجنه وإعادة كبيش إلى إمارته، وأرسل الأمير علاء الدين بن طفربل مع قوة مسلحة لطرد أعوان ودي وتسليم الإمارة لكبيش، وعلم كبيش بذلك فجمع أنصاره، ولقي الأمير علاء الدين، وتوجه الجميع إلى المدينة للقبض على أعوان ودي، وعلم هؤلاء ففروا قبل أن يصل إليهم الجمع. وعاد كبيش إلى إمارته(١).

ولم تطل إمارة كبيش لكثرة خصومه والمتربصين به، وكان كبيش قد قتل أحد أبناء عمه عام ٧٠٩هـ واسمه مقبل، ورغم مضي قرابة العقدين من الزمن فإن أبناء مقبل ما زالوا يحملون الرغبة في الثأر والانتقام، ويتحينون الفرصة للنيل من كبيش، وقد ظفروا بهذه الفرصة في نهاية رجب عام ٧٢٨هـ حينما كان كبيش خارج المدينة مع عدد قليل من رجاله، فكمن له أبناء مقبل وقتلوه. ويروي ابن بطوطة أن الناس في المدينة كانوا يقولون (إن أبناء مقبل قتلوا كبيشاً ولعقوا دمه)(٢) ولكن أبناء مقبل لم يستطيعوا أن ينزعوا الإمارة من أسرته، فانتقلت الإمارة إلى أخيه طفيل بن منصور(٣).

---

١) السلوك ق١ ج٢ ص٢٨٠-٢٨١.

ينقل السخاوي عن الفيروز آبادي رواية مختلفة تقرر أن ودي بن جماز جهز هدية سنية للسلطان وذهب إليه بنفسه طالباً تعيينه، فعينه السلطان بعد شهر، ورجع طفيل إلى كبيش في العربان وحمل هدية أكبر وعاد بها إلى القاهرة في شعبان، فلما وصلها جاء الخبر بمقتل كبيش، فقلد المنصور طفيلاً. التحفة ٢/٢٦٠. ولكننا نرجح رواية المقريزي الذي قرر أن السلطان سجن ودياً وأعاد كبيشاً لتظاهرها مع الروايات الأخرى التي تؤكد سجن ودي.

٢) رحلة ابن بطوطة ١٤٣.

إمارة طفيل بن منصور:

ورث طفيل بن منصور الإمارة من أخيه وورث معها مشاحناتها وخصوماتها، وأول تلك الخصومات خصومة عمه ودي بن جماز الذي أطلق سراحه، وعاد وجمع رجاله (وأخذوا يشنون على المدينة الغارات ويطلبون بها الثارات، ويفسدون الزروع، وينهبون الضروع، ويحرقون النخيل والأشجار وما يجدون أينع من الثمار)(١) وقد تأثر أهل المدينة بغارات ودي ورجاله تأثراً شديداً، ولم يستطع طفيل أن يقمعهم أو يمنع غاراتهم، ولم يجد أهل المدينة بداً من التصرف بأنفسهم لحماية أرواحهم وممتلكاتهم، وحسب رواية السخاوي فقد خرج وجهاء المدينة، وفي مقدمتهم قاضيها شرف الدين الأسيوطي، وشيخ الحرم والأعيان، وفاوضوا ودي بن جماز على الصلح واتفقوا معه على أن يدفعوا له خمسة عشر ألف درهم مقابل الكف عن أملاكهم وزروعهم، فرضي ودي وتم الصلح(٢) غير أن هذا الصلح ما لبث أن نقض، وكان بعض رجال ودي هم الذين نقضوه، لذلك قرر طفيل أن ينهي أمر ودي وعصابته فاستنجد بعدد من القبائل المحيطة بالمدينة من الحربيين ((صالح بن حريبة من آل فضل، وعمرو بن هيبة من آل مراد، وعياق بن متروك)) فحشدوا له جموعاً كبيرة وأخذوا في مطاردة ودي ورجاله -وكانوا قلة- واستطاعوا أن ينزلوا بهم هزيمة موجعة، وفر ودي وقتل عدد كبير من رجاله(٣).

اعتقل ودي ثانية عام ٧٢٩هـ بأمر من السلطان وسجن في قلعة الجبل

---

٣) النجوم الزاهرة ٢٧٣/٩.

١) التحفة اللطيفة ٢٦٠/٢.

٢) السابق نفسه.

٣) السابق نفسه.

بمصر فاستراحت المدينة من غاراته إلى حين(١) وسارت حياة الناس في مجراها المعتاد، وقد حرص السلطان قلاوون على أن يهدئ المنازعات بين أفراد الأسرة الحاكمة في المدينة المنورة، ويستل السخائم من النفوس المضطربة فأفرج عن ودي عام ٧٣١هـ وأنعم عليه بإقطاع في الشام ليشغله به عن مشاحنة ابن أخيه وتعكير حياة المدينة المنورة بالغارات والفتن، وأطلق له أكبر أعوانه الذي كان معتقلا معه، فذهب إلى الشام وأقام فيها مدة من الزمن(٢) وجاء السلطان قلاوون في السنة التالية حاجاً فزار المدينة المنورة بعد أن قضى النسك، فتلقاه أشراف المدينة من ينبع ورافقوه في الطريق، وصادف أن هبت ريح شديدة بعد وصوله المدينة، وألقت الخيم واقتلعت بعض الأشجار واستغل بعض عبيد السلطان الفرصة فهربوا، وعندما سكنت الريح في اليوم الثاني أرسل أمير المدينة رجاله فتعقبوا العبيد الآبقين وجمعوهم وردوهم للسلطان، فسر السلطان بذلك، وأنعم على أمير المدينة بعطاءات سخية وفرق أموالاً كثيرة في أهل المدينة(٣).

كوارث طبيعية:

وقد شهدت المدينة في فترة إمارة طفيل هذه حدثين طبيعين أصابا أهلها بأضرار مزعجة، ففي سنة ٧٣٤هـ نزلت أمطار غزيرة أواخر الشتاء، فاضت على أثرها الأودية، وحجز السد الذي صنعه البركان على وادي قناة السيل تجمعت بحيرة ضخمة جداً، ومالبثت المياه أن أحدثت ثغرة ونفذت إلى الطرف الآخر من السد ومضت إلى طرف جبل أحد، وجبل عينين ومشهد سيدنا حمزة السيل ودخل إلى البيوت، وخرب عدداً منها وحمل شيئاً من ماشيتها، وقد بلغ من القوة أنه (أخذ جمالاً كثيرة وعشرين فرساً) وتضررت

---

١) السلوك قسم ٢ ج ٢ ص ٣٣٣.

٢) السابق نفسه.

٣) النجوم الزاهرة ١٠٥/٩.

عدد من المزارع، وكانت الخسارة كبيرة، ومكث الماء أربعة أشهر، ولايصل الناس إلى المشهد إلا بمشقة كبيرة(١).

وفي السنة الثانية انتشر وباء (الخناق) بشكل لم يعهد من قبل، وربما وفدت عدواه مع أحد الزائرين، ثم سرت بين الناس بسرعة كبيرة، وبدأت الضحايا تتساقط (فكان يموت في كل يوم خمسة عشر) بهذا الوباء، وكانت وسائل العلاج بسيطة وبدائية -فمات بسببه خلق كثير- إلى أن أذن الله برفع هذا الوباء(٢).

موجة عابرة:

وباستثناء هذين الحدثين لانجد ما ينغص الحياة الوادعة في المدينة منذ انتهاء مشكلة ودي إلى سنة ٧٣٦هـ حيث عادت الأحداث السياسية لتصنع موجة معاكسة وتحدث تغييراً كاد أن يعيد القلق والاضطراب والدماء إلى أحياء المدينة وضواحيها.. ولكن الموجة مرت بعد أن أحدثت هزة بسيطة وتغييراً في سدة الإمارة، وعادت الحياة إلى هدوئها. أما الهزة التي حدثت عام ٧٣٦هـ فكان سببها النفوذ السياسي الهائل الذي كان المماليك يفرضونه على المدينة المنورة، حيث ساد شعور واحد عند كل من أمراء المدينة والسلطان، وهو أن إمرة المدينة منوطة بالقاهرة، فلا إمارة لمن لم تعينه القاهرة، ولا أمير الا من هذه الأسرة، والخيار لايخرج عن أحد الأخوة أو الأعمام. لذلك على من يطمح في الإمارة منهم أن يسترضي السلطان، ويحمل إليه هدية سنية، ويقنعه بأنه جدير بالإمارة، فإن رضي السلطان صدر المرسوم بتثبيته دون الاهتمام بأية اعتبارات أخرى، والطريف في الأمر أن السلطان بلغ من تحكمه في هذا الأمر أنه سن الشركة في الإمارة، وبدأت هذه السنة قبل المنصور محمد بن قلاوون منذ أن أشرك الظاهر بيبرس كلاً من

---

١) السلوك ق ٢ ج ٢ ص ٣٧٤، والمغانم ص ٢٧٧.

٢) السابق نفسه.

جماز وأخيه منيف في الإمارة، وكانت هذه الشركة تنتهي بمنازعات وصدامات، فقد اختلف جماز ومنيف، واختلف جماز ومالك بن منيف، واقتتل مالك ومقبل وقتل مقبل. ورغم هذا التاريخ الحافل بالاضطرابات بسبب الشركة في الإمارة، أمر المنصور بها ثانية.

ففي مطلع عام ٧٣٦هـ جاء ودي بن جماز إلى القاهرة بعد أن مات رفيقه وشريكه في الاقطاع، واستطاع بهديته السنية وتلطفه للسلطان أن يستصدر منه مرسوماً بإشراكه في الإمارة مع ابن أخيه طفيل بن منصور بن جماز، وفوجيء طفيل بهذا المرسوم فرفضه، ورفض أن يسلم خصمه القديم نصف إمارته. ويبدو أن ودي بن جماز قد استفاد من تجربتيه السابقتين لذلك لم يعمد إلى القوة، ولم يستنهض رجاله وأعوانه لإجبار طفيل على القبول بالمرسوم السلطاني أو إخراجه، بل عاد إلى القاهرة يشكو إلى السلطان تمرد ابن أخيه ورفضه تنفيذ أوامر السلطان، فكسب عطف السلطان ومساعدته. وأدرك طفيل أنه لن يستطيع الاستمرار في رفض أمر السلطان، وأن عليه أن يتدارك الأمر ويقنعه بعدم صلاحية ودي لمشاركته في الإمارة بسبب تاريخه السابق، لذلك شد الرحال إلى القاهرة، وقابل السلطان وحاول أن يقنعه بعدم إشراك ودي في إمارة المدينة ولكنه لم يفلح، وأيقن طفيل أن عمه ودياً قد استطاع أن يؤثر على السلطان تأثيراً بالغاً، وأنه إذا رضي بالأمر فلا بد أن تقع فتن ومشكلات كثيرة لأنه لايستطيع التعاون معه في الإمارة، فقرر الإصرار على رفض المشاركة مهما كلف الأمر. وعندما رأى السلطان إصراره عرض عليه أن يتخلى عن الإمارة نهائياً مقابل إقطاعه أرضاً واسعاً في حوران ببلاد الشام، بعيداً عن المدينة، فلم يجد طفيل بداً من قبول هذا العرض، وتنازل عن الإمارة لعمه، وعاد إلى المدينة فحمل عياله ومماليكه وانتقل بهم إلى إقطاعه الجديد وسلم الإمارة لعمه وخصمه ودي بن جماز.

إمارة ودي بن جماز:

بدأت إمرة ودي على المدينة في شهر شوال عام ٧٣٦هـ، وتحول الفارس الذي كان يرهب أهل المدينة بغاراته، ويفاوضونه ويدفعون له المال كي لايؤذيهم في أملاكهم وأرواحهم، تحول إلى منصب الإمارة وصار حامي الناس والأملاك. وقد نجح ودي في تغيير صورته في أذهان الناس، فأحسن معاملتهم وخفض (المكوس) والجبايات، وكان قد أثرى من إقطاعه السابق في الشام، وتقرب إلى إخوته وأبناء إخوته الآخرين، وأحسن استقبال الوافدين في مواسم الحج من أعيان المماليك ورؤسائها ووزرائها، وبادلهم الهدايا، وحظي بعطاءاتهم، وفرق في الناس الأموال التي خصصوها لأهل المدينة(١) واستطاع أن يتألف العربان والقبائل المحيطة بالمدينة، التي كان يتعاون معها من قبل في الغارات أو يأوي إليها إذا اشتد عليه الطلب. وأفادته علاقاته القديمة في ذلك. وكان ودي شاعراً فصيحاً. وحرص أيضاً أن يكسب سمعة حسنة لدى السلطان المملوكي في مصر، وعندما توفي السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٤١هـ، وتولى المنصور أبو بكر سارع إلى السفر إلى القاهرة ليعزي في السلطان الراحل ويهنىء خلفه ويثبت إمارته، خشية أن يسبقه خصمه طفيل في ذلك وينتزع الإمارة منه، وقد لقي الحفاوة والتكريم في القاهرة وثبت في إمارته.

وتكرر سفره إلى القاهرة مع انتقال الخلافة ثلاث مرات في سنتين متواليتين. فقد خلع المنصور أبو بكر عام ٧٤٢هـ وولي الأشرف كجك، وبعد

---

١) انظر درر الفوائد ٦٩٤-٦٩٥ والسلوك ق٢ ج٢ ص٤٦٣-٤٧٢.

سنة خلع الأشرف كجك وولي الناصر أحمد(١).

وكانت المدينة تعاني في غيابه من بعض الفتن والغارات، وقد قتل في إحداها عام ٧٤٢هـ أخوه ونائبه في الإمارة ثابت بن جماز(٢).

الاستيلاء على الإمارة:

وما لبث طفيل بن منصور أن استفاد من اضطراب الأحوال السياسية في مصر وعدم استقرار السلطان مدة طويلة، فرحل إلى أطراف المدينة، وأقام في بعض قراها عند أقاربه وبدأ يعد العدة لاستعادة الإمارة من عمه ودي.

لم يلجأ طفيل إلى السلطان كما فعل غريمه ودي من قبل، وذلك لتيقنه بأن السلطان لن يخرج عن إقرار الأمر الواقع، لذلك اختار أن يستولي على المدينة ويطرد ودي ثم يرسل إلى السلطان طالباً إقراره اعترافاً بالأمر الواقع وهذا ما حدث.

فقد حشد طفيل عدداً كبيراً من أنصاره من العربان وزحف بهم إلى المدينة في ذي القعدة عام ٧٤٣هـ(٣) وكان ودي خارج المدينة، واستطاع أن يقتحم المدينة ويقبض على نواب ودي ويستولي على الإمارة. وعندما علم ودي بالأمر لم يستطع أن يفعل شيئاً فاتجه إلى بادية الحجاز حيث يقيم بعض أقاربه، ثم انطلق منها إلى أمير اليمن فأقام عنده(٤).

سارع طفيل إلى الحصول على شرعية لإمارته، وأرسل أخاه حميد بن منصور إلى مصر بهدية سنية على رأس وفد من الأشراف، وكانت الظروف السياسية مناسبة لهذا الوفد، فقد خلع السلطان الناصر أحمد وتولى السلطنة الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون، ولم تكن له خبرة سابقة بمشكلات

---

١) انظر تاريخ الاسلام ج٧ ص٣٥-٣٦.

٢) التحفة ٣٨٩/٢.

٣) انظر الاعلام للزركلي ١١٢/٨.

٤) السلوك ق٢ ج٢ ص٢٣٩-٨٤٠.

أمراء المدينة، لذلك قابل وفد الشرفاء بالترحاب وقبل الهدية وأصدر المرسوم الذي طلبوه منه بتعيين طفيل بن منصور بن جماز أميراً للمدينة(١).

إمارة طفيل بن منصور الثانية:

امتدت إمارة طفيل الثانية سبع سنوات، كان في أولها حسن السيرة، رفض أن ينصر القضاة الإماميين -مع أنه كان إمامياً- أو يستجيب لطلبهم بالضغط على القاضي السني ابن فرحون الذي مال الناس عنهم إليه فانقطعت أرزاقهم(٢) وكان له وزير عاقل يحسن تدبير الأمور هو الحسن بن علي بن سنجر(٣).

انحراف وجريمة:

غير أن طفيلا مالبث أن تغير، وظهرت له مساوئ كثيرة، فاستولى على بعض الأموال وفرض (المكوس) وزاد الجبايات، حتى إن وزيره المخلص الحسن بن علي بن سنجر كان يحتال ليمنع وقوع الضرر من بعض تصرفاته، فقد هم مرة أن يأخذ المخزون في أحد المستشفيات قهراً، فاتصل الوزير سراً بالقاضي الحنفي ودبر معه حيلة أنقذت المخزون من الأمير(٤) وبدأ أهل المدينة يتضايقون من تصرفاته، وكثرت الشكايات عندما ظهرت آثار تصرفاته في ارتفاع الأسعار واشتداد الغلاء، وقلة ورود القوافل إلى المدينة، وكتب القضاة والأشراف إلى السلطان الناصر حسن في مصر بذلك، فأمر الناصر بعزله وتولية ابن عمه سعد بن ثابت بن جماز، وأرسل الأمر مع الركب المصري القادم إلى الحج وأمر باعلانه وتنفيذه عقب الموسم مباشرة.

علم طفيل بالمرسوم قبل أن يصل الركب المصري إلى المدينة، فأطلق

---

١) الدرر الكامنة ٢/٣٢٤.

٢) التحفة ٢/٥٠٩.

٣) التحفة ١/٤٨٤.

٤) التحفة ١/٤٨٤-٤٨٥.

رجاله لينهبوا ما يستطيعون نهبه من تجار المدينة وأثريائها، وسطا على الحجرة النبوية، فأخذ من قناديلها الذهبية والأموال الكثيرة التي كان الأثرياء يرسلونها إليها، كما سطا رجاله على بعض الحجاج ونهبوهم، فتجمعت لهم مبالغ وافرة، وخرجوا بها من المدينة إلى باديتها قبل أن يصل الأمير الجديد. فكان عمل طفيل هذا أفظع جريمة يرتكبها أمير للمدينة حتى ذلك الحين، فقد انقلب مع رجاله إلى لص يسرق بقوة السلاح، ويتعدى على حرمة المسجد النبوي وعلى أموال الحجاج وأهل المدينة(١) وقد لقي طفيل جزاءه في موسم الحج للعام التالي ٧٥١هـ فقد استطاع قائد الركب المصري الأمير طاز أن يقبض عليه، فقيده وجعل الغل في عنقه وساقه أسيراً إلى مصر، حيث سجن فيها إلى أن مات في السجن عام ٧٥٢هـ(٢).

المدينة في إمارة سعد بن ثابت: إصلاحات عامة:

وصل الأمير الجديد سعد بن ثابت بن جماز إلى المدينة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من ذي الحجة عام ٧٥٠هـ مع الركب المصري، وفي يوم الجمعة ٢٥ من ذي الحجة قرأ أمير الركب المصري على منبر المسجد النبوي مرسوم تعين الأمير الجديد سعد بن ثابت بن جماز(٣) وبدأ سعد إمارته بإصلاحات عامة، فسير منادياً في الشوارع والأسواق ينادي ألا يقضي في الناس غير القاضي الذي يعينه السلطان، وألا يعقد الأنكحة سواه، ومنع آل سنان الذين تورثوا القضاء والعقود من ذلك، وكان القضاء قد تحول إلى مهنة

---

١) البداية والنهاية ٢٥٠/١٤ والسلوك ج٢ ق٣ ص٨١٦ والدرر الكامنة ٣٢٤/٢ والتحفة اللطيفة ٧٥/١.

٢) التحفة ٢٥٩/٢، النجوم الزاهرة ٢٢٨/١٠، واتحاف العروس ٢٤٤/٣، ذيول العبر ص١٩٩.

٣) العقد الثمين ٤٣٨/٣.

يرتزق بها القاضي من المتخاصمين أنفسهم، وكان يدخل في ذلك حيف على أحد الفريقين. وكان معظم القضاة من الشيعة. وتصدى الأمير سعد للمظالم والبدع فمنعها وألغى الجبايات التي فرضها سلفه طفيل آخر أيامه، واشتد على المفسدين، وكتب إلى السلطان يستعينه على تجديد سور المدينة، فأرسل السلطان إليه الأموال، فشرع بترميم السور وتقويته، وأقام خندقاً حول السور زيادة في منعة(١).

ونعمت المدينة في عهد سعد بن ثابت بن جماز بالأمن والسكينة والعدل، وحسنت سيرة الأمير بين الناس فأحبوه، غير أن أيامه لم تطل فقد ذهب ضحية الأمن الذي اجتهد في تثبيته. ففي مطلع ربيع الأول عام ٧٥٢هـ أغار بعض العربان على المدينة المنورة، وكان العمل في تحصين السور لم ينته بعد، فخرج بنفسه على رأس القوة المسلحة، وقاتلهم حتى ردهم عن المدينة وأوقع منهم ضحايا عدة، وأصيب بجرح بالغ، فحمل إلى المدينة، فاشتد عليه جراحه شديداً وما لبث أن مات في الثامن عشر من ربيع الآخر عام ٧٥٢هـ.

آل جماز يختارون الأمير:

حزن أهل المدينة لفقد أميرهم، واجتمع آل جماز لاختيار خليفة له من بينهم، ووقع اختيارهم على ابن عمه الفضل بن قاسم بن جماز، وحلفوا له على الطاعة والنصرة، وسافر أحدهم (مانع بن علي بن جماز) إلى القاهرة يحمل نعي سعد بن ثابت، ويطلب باسم آل جماز تعيين الفضل بن قاسم، فاستجاب السلطان للطلب وأصدر مرسوماً بتعيين الفضل بن قاسم، وعاد مانع إلى المدينة، وقرأ المرسوم على دكة المؤذنين في المسجد النبوي في

١) انظر العقد الثمين ٤٣٨/٣ وتحقيق النصرة ص ١٤٧.

جمادى الآخرة من العام نفسه(١).

إمارة الفضل بن قاسم بن جماز:

بدأ الفضل إمارته باكمال تحصين السور الذي بدأ به سلفه، ووسع الخندق حول السور، وسار سيرة سلفه سعد في العدل بين الناس وتوفير الأمن وقمع الفتنة، وبخاصة الفتنة بين الإمامية والسنة. ولم تحدث أيام إمارته أية أحداث كبيرة، وسارت الحياة في المدينة في هدوئها بعد أن تم تجديد السور وحفر الخندق حولها، وقد أسهم هذا العمل في حفظ المدينة من مفاجآت الليل وغارات الأعراب. ولم تطل إمارة الفضل أيضاً، فقد كان ضعيف الجسم يشكو من مرض خفي، وما لبث أن ظهر عليه واشتد به وتوفي في السادس والعشرين من ذي القعدة عام ٧٥٤هـ(٢).

كان مرشح الإمارة بعده الرجل الذي سافر إلى مصر واستصدر مرسوم تعيين الفضل بن قاسم قبل سنتين، وهو مانع بن علي بن جماز، وقد اختاره آل جماز وكتبوا للسلطان في مصر، فجاء مرسوم تعينه.

إمارة مانع بن علي:

واصل مانع سيرة سلفه، فاستقر في الإمارة خمس سنوات هادئة لم تجر خلالها أحداث متميزة يسجلها المؤرخون، وبينما كان مانع في إمارته كان ابن عمه جماز بن منصور بن شيحة يحبك مؤامرة لانتزاع الإمارة منه ببراعة وسرية. فقد سافر إلى مصر، واتصل بكبار المسؤلين حول السلطان، ونجح آخر الأمر في استصدار مرسوم بتعيينه أميراً على المدينة، وحمله وعاد به دون أن يشعر به أحد، وفاجأ الناس في ربيع الناس عام ٧٥٩هـ بالمرسوم الذي يحمله، وكان مانع مسالماً، فترك له الإمارة بهدوء.

---

١) التحفة ٣/٣٩٥.

٢) التحفة ٣/٣٩٦.

انقلاب كبير في المدينة:

وخلافاً لما كان عليه مانع كان جماز حاد المزاج، كثير المرض، يزداد عصبية في مرضه، فنفر منه معظم أقاربه، وقد أظهر تعصباً للإمامية منذ أول إمارته، فأعاد القضاء اليهم، وعين عدداً منهم في المناصب العالية، وجرى في أحكامه على الشدة حتى خرج عن الحد (١) وقبض على أحد المشايخ المجاورين من أهل السنة وسجنه في القلعة وعذبه حتى مات. وبدت الشدة في تعامل رجاله مع الناس، وعادت الرسوم والجبايات، فضج الناس بالشكوى، وكتبوا الكتب بذلك للسلطان في مصر، وسافر بعض أهل المدينة إلى القاهرة ليبلّغ الشكوى ويفصّل أخبار جماز. وقبل أن يفصل السلطان في الأمر فصل القدر المقدور فيه، فبعد انتهاء مناسك الحج، ازدحمت المدينة بالزائرين، وكان بينهما رجلان أشقران جاءا مع الركب الشامي، هاجما الأمير وقتلاه غيلة، وهو سائر بين حرسه. وحصل شغب كبير وهاجم رجاله جموع الحجاج وغيرهم من الحاضرين ظناً منهم أنهم متواطئون مع القاتلين، ودافع هؤلاء عن أنفسهم، وحصل اشتباك بالسلاح وبالأيدي، وقتل عدداً من المتقاتلين، وأسرع حرس السور فأغلقوا الأبواب وكان معظم الجيش القادم مع الركب معسكراً خارج السور، فأمر قائده بمهاجمة السور واقتحامه، وأضرموا النار في الأبواب التي وقفوا عليها واقتحموها ودخل الجيش المدينة وقبض على القاتلين وتحفظ عليهما ليقتادهما إلى دمشق لمحاكمتهما(٢).

وينسب السخاوي إلى سلطان مصر الناصر حسن بن قلاوون الذي حكم

---

١) التحفة ١/٤٢٧.

٢) التحفة اللطيفة ١/٢٢٧ واتحاف الورى ٤/٢٧٧.

(٧٥٥-٧٦٢هـ) أنه هو الذي بعث القاتلين إلى المدينة(١) ونحن نستبعد ذلك لأن الناصر هو الذي أصدر مرسوم تعيينه دون طلب من الأسرة في المدينة، وبسعي من جماز نفسه. وكان قادراً على إصدار مرسوم آخر بعزله، أو إرسال أمر مع قائد الركب الشامي في موسم الحج بالقبض عليه واقتياده إلى القاهرة كما حدث لسلفه الأسبق طفيل بن منصور. فما الذي يلجئه إلى أن يبعث شقيين لأغتياله؟ ثم إننا لانعرف أن الناصر استخدم هذا الاسلوب أثناء حكمه. ويذكر المقريزي أن سبب قتله كان (كثرة تظاهره بمذهبه الشيعي وإساءته إلى أهل السنة، فلما قدم الحاج وليس الخلعة على العادة، وثب فداويان فقتلاه في أواخر ذي الحجة)(٢).

وعلى أية حال كانت فترة إمارته شديدة على معظم أهل المدينة، وانعطافاً حاداً في الطريقة التي نهجها أسلافه مدة عشر سنوات كاملة، غير أن هذا الانعطاف زال بسرعة وعادت الحياة في المدينة إلى سكينتها على يد خليفة الأمير عطية بن منصور بن جماز.

إمارة عطية بن منصور:

اجتمعت الأسرة بعد مقتل جماز وتداولت في من يخلفه، وكان هذا الاجتماع -كما يعرضه السخاوي نقلا عن المجد الفيروز آبادي- صورة أخرى من صور الإيثار النادرة، وخلافاً لما سرى بين معظم أفراد الأسرة من تزاحم واقتتال على الإمارة. فقد عرضت الإمارة على هبة بن جماز أقرب الناس إلى الأمير المقتول، ولكن هبة رفضها. وربما يكون لظروف الفتنة آنئذ أثّر في رفضه. وعرضت على زيان بن منصور أحد اخوة جماز، فاعتذر عن قبولها ما دام أخوه عطية على قيد الحياة، وذلك لفضل عطية وتدينه وزهده، وكان عطية

---

١) التحفة ١/٤٢٧.

٢) السلوك ج٣ ق١ ص ٤٦.

مسافراً في البادية، فأجمع الحاضرون على توليته الإمارة دون أن يرجعوا اليه، وكتب المجتمعون رسالة إلى السلطان وأوفدوا أخاه نعير بن منصور إلى القاهرة ليقوم بالمهمة، وسافر نعير إلى القاهرة وقابل السلطان، وأخره السلطان شهراً كاملا بانتظار ما ستنجلي عنه الأمور بعد مقتل جماز، وربما كان السلطان يريد أن يستوثق من عدم وجود منافس في الإمارة، وبعد شهر أصدر مرسوماً بتعيين عطية بن منصور أميراً للمدينة وسلمه لنعير مع الخلعة. عاد نعير إلى المدينة في الثامن من ربيع الأول عام ٧٦٠هـ وكان عطية قد حضر إلى المدينة وعلم بالأمر، فلبس الخلعة وقرئ مرسوم التولية في المسجد النبوي وبدأت ولايته المتميزة(١).

١) التحفة ٣/١٩٧-١٩٩.

سيرة عمرية جديدة:

عاشت المدينة المنورة فترة هدوء طويلة في ظل الأمير الجديد. فقد كان إجماع العائلة عليه وتدينة وزهده وحسن معاملته مع الناس سبب تقديره واحترامه. وينقل السخاوي عن المجد الفيروز آبادي وصفاً لسياسته خلال إمارته بعبارات مسجوعة فيقول:

فلم يزل في ولايته ساعياً في مصالح المسلمين، راعياً للبلاد بالتطمين والتأمين، داعياً إلى الله بما يجب على كل مسلك بالتأمين، سائساً للملك سياسة مقطوعة العيوب، ماشياً بسيرة أحبابها شيئاً من سيرة بني أيوب، شيمته العبادة والصلاح، وطريقته التوجه إلى الله بالغدو والرواح، والأمسيات والصباح، مع الكراهية في النهي والأمر، والنزاهة عن القبض على الجمر، من تنكيد أو تشويش على زيد وعمرو، غير راغب في الدنيا ولا طالب، وهو مع الله بالقلب والقالب، يجلس في النادي، يجتمع عنده الحاضر والبادي، آخذ الصمت والسكوت، وشغل قلبه بما يصلح به منقلبه ومعاده، شيمته خشية الله، مع مراعاة النظر في مصالح الرعية وتدبير الملك بما جبل عليه من الغريزة الألمعية(١).

ويشير السخاوي إلى أثر هذه السيرة الحسنة في أسرته الأميرية، وسائر أهل المدينة، فقد انصلح بصلاحه أقرباؤه، ونعم أهل المدينة بالعدل والخصب والأمن. أسقط الأمير عطية (المكوس) والعشور والجبايات الأخرى التي كانت تؤخذ من الوافدين إلى المدينة ومن أهلها التجار والمزارعين، والتي تشكل الدخل الرئيسي للإمارة. وطلب من السلطان الأشرف إعانة سنوية تغطي

---

١) التحفة ٣/٢٠٠.

نفقات الإمارة فأجابه الأشرف لذلك(١) وقرر دروساً في المذاهب الأربعة في المسجد النبوي، وأعطى المدرسين نفقاتهم، وقرر أرزاقاً للقراء ومدرسة الأيتام، وأحكم القبة على الضريح النبوي وشرفات المسجد النبوي. وكان يعيش حياة زهد وتقشف، وينفق على نفسه وعائلته من ماله الخاص(٢).

استمرت إمارة عطية بن منصور ثلاث عشرة سنة، وكان يكثر الغياب عن المدينة، وينيب عنه من أبنائه واخوته من يراه صالحاً، غير أن زهده قد أثر على عمله لاحقاً وجعل الإدارة بيد نوابه وكبار أعوانه. وقد سعى ابن أخيه هبة بن جماز بن منصور لتولي الإمارة مكانه، ونجح في استصدار مرسوم من السلطان الأشرف في شعبان عام ٧٧٣هـ بعزله وتوليته مكانه، ولم يكن عطية حريصاً على الإمارة فسلمها لابن أخيه راضياً(٣).

إمارة هبة بن جماز:

مكث هبة بن جماز بن منصور تسع سنوات في الامارة، كان في أولها حسن السيرة. ولكنه أساء في آخرها، وأعاد (المكوس) والجبايات، وكثرت الشكاوى منه، فقبض عليه أمير الحج في مكة، وأخذه إلى مصر، حيث سجن مدة من الزمن ثم أطلق سراحه وعاد إلى المدينة ومات فيها.

إمارة عطية الثانية:

عندما شغر منصب الإمارة بالقبض على هبة بن جماز عادت الأسرة إلى ترشيح عطية بن منصور، وألحت عليه حتى قبل الإمارة، وكان قد تقدم في السن فعاد بالحياة في المدينة سيرته الأولى وألغى المكوس التي فرضها هبة من قبل. ولكنه ما لبث أن مات في السنة التالية عام ٧٨٣هـ قبل أن يتم سنة في الإمارة.

---

١) التحفة ٣/١٩٨.

٢) التحفة ٢/٢١٩.

٣) انظر عقود الجمان ٣/٤٣٩.

وفي هذه السنة شحت الأمطار وأصيبت الحجاز بعامة بقحط شديد وارتفعت الأسعار، وبلغت قيمة غرارة الدقيق أربعمائة درهم، وزادت عن ذلك في موسم الحج(١) واشتد الأمر على فقراء أهل المدينة وعلى عربانها والسكانين في ريعها، ومات كثير من الناس جوعاً، وأكلت الجلود(٢) ثم جاء الفرج في السنة التالية فوصلت بعض القوافل من مصر واليمن، ووصلت عطية السلطان برقوق التي يبعثها كل سنة من القمح، وصار يخبز ثمانية آلاف رغيف يومياً وتوزع على المدينة، كما وزعت ألف وخمسمائة أردب من القمح، فانفرجت الغمة وانخفضت الأسعار(٣).

صراع على الإمارة:

وكان عطية ينيب أخاه نعيراً في الإمارة عندما يغيب عنها، وفي أواخر حياته كان نعير يدير شؤون الإمارة، وعندما مات عطية استولى نعير على الإمارة وأرسل إلى السلطان في مصر يطلب تثبيته فيها، غير أن فرداً آخر في العائلة هو جماز بن هبة بن جماز سارع في السفر لمصر، وكانت السلطنة قد تحولت من يد المماليك الأتراك إلى المماليك الشراكسة، واستولى السلطان برقوق الشركسي على السلطنة ولم يكن على دراية بأمور الأسرة في المدينة المنورة، لذا عندما وفد عليه جماز استقبله واستجاب لطلبه وأصدر مرسوماً بتعيينه أميراً على المدينة، وعاد مع الركب القادم لموسم الحج في ذي القعدة ٧٨٣هـ.

علم نعير بخبر المرسوم، فقرر مقاومة جماز والاحتفاظ بالإمارة، وجمع رجاله وخرج لملاقاته خارج المدينة. وكان مع جماز عدد من الرجال، ونشبت معركة بين الطرفين، واستطاع أحد أصحاب جماز أن يصل إلى نعير ويطعنه،

---

١) السلوك ق٢ ج٣ ص ٤٦٠.

٢) إتحاف الورى ٣٣٧/٣.

٣) النجوم الزاهرة ١٠٩/١٢.

فانخذل أصحابه، وحملوه وانسحبوا به إلى داخل المدينة وأغلقوا أبواب السور، فحاصرهم جماز ومن معه، ولما غابت الشمس أمر جماز أصحابه باحراق باب السور، فاشتعلت فيه النار حتى احترق تماماً واقتحمه جماز ورجاله ودخلوا المدينة حيث كان نعير يحتضر وما لبث أن مات في اليوم التالي، فأطلق جماز منادياً في الشوارع والأسواق يعلن الأمان للناس، وقرئ مرسوم تعيينه على المنبر وبدأت إمارته(١).

إمارة جماز ومسلسل الصراع:

عادت المدينة إلى مرحلة الصراع على الإمارة، واتسمت هذه المرة بسمة جديدة هي خروج الأمير الجديد من السلطة ثم عودته ثلاث مرات على الأقل، وهذا ما لم يحدث من قبل. ورغم أن الفترة التي أمسك فيها جماز زمام السلطة طويلة ومتقطعة ومشحونة بالأحداث، فان كتب التاريخ تذكرها بما يشبه الإشارة وبغموض يصعب على الباحث فك طلاسمه أحياناً. فقد عاصر جماز عدداً من الطامعين بالإمارة، وسعي بعضهم إلى استصدار مرسوم بانتزاعها منه أو إشراكه معه، وقاتله بعضهم. وكان للسلطة المركزية في مصر موقف ضعيف أسهم في الصراع بين أفراد الأسرة الواحدة.

فبعد أقل من سنتين من تسلم جماز الإمارة استطاع ابن عم أبيه محمد بن عطية، وهو ابن الأمير السابق عطية بن منصور أن يستصدر من السلطان برقوق مرسوماً بإشراكه في إمارة جماز، فأذعن جماز أول الأمر وأشركه معه في الإمارة، ولكنه أخذ يكيد له، حتى أحاط به وطرده من إمارة المدينة، فذهب محمد بن عطية إلى السلطان برقوق بمصر، وشكا له عصيان جماز وسوء معاملته، فغضب السلطان برقوق وأصدر مرسوماً بعزل جماز بن هبة وتعين محمد بن عطية في ٧٨٧هـ وأرسله مع الركب المصري فاستطاع أن يخرج جمازاً وسلم الإمارة لمحمد بن عطية.

---

١) التحفة ١/٤٢٧-٤٢٨ والعقد الثمين ٣/٤٣٨.

وفي هذه السنة أخصبت الأرض، وأنتجت المزارع غلالا وفيرة، ورخصت الأسعار وأرسل بعض الأمراء قمحاً كثيراً إلى مكة والمدينة(١) وأمر الأمير جركس الخليلي أن يخبز كل يوم في المدينة المنورة خمسمائة رغيف توزع على الفقراء ولا يرد عنها أحد(٢) فنعم الناس بالخير والبركة والأمن.

غير أن الأمير الجديد لم يلبث في الحكم إلا بضعة أشهر اذ توفي في جمادى الأولى في السنة التالية ٧٨٨هـ فحاول أخوه على بن عطية أن يستأثر بالحكم، ولكن جمازاً كان يتحين الفرصة فهاجم المدينة، وقاتل علي بن عطية ورجاله وتغلب عليه وطرده، وأصيب جماز بجراحات وكسرت رجله، ثم أرسل يسترضي السلطان ويستصدر منه مرسوماً بتعينه، وتم له ذلك في العام نفسه(٣).

وكان لهذه الأحداث المتوالية أثر سيء على الأمن والاستقرار، فقد وجد بعضهم فيها فرصة الإغارة على المدينة وضواحيها والنهب والسلب، وكان بعض الأشراف قد سكنوا في ريف المدينة وبنوا حصوناً خاصة بهم وفسدت أخلاق بعضهم وصاروا يغيرون على القوافل والمسافرين وعلى المدينة إن سنحت لهم الفرصة، وكان منهم هيازع بن هبة، شقيق الأمير جماز نفسه، وعلي بن عطية بن منصور شقيق محمد بن عطية الأمير السابق. وقد بلغت الجرأة بهيازع أنه تعرض للركب المصري، فقبض عليه الجنود المرافقون للركب وأخذوه موثوقاً إلى القاهرة، حيث عذب ثم نقل إلى سجن الاسكندرية ومات فيه بعد سنتين عام ٧٨٩هـ. وأما علي بن عطية فقد استطاع أن يستولي على المدينة في ربيع الآخر عام ٧٨٩هـ، وكان جماز غائباً عن

---

١) نزهة النفوس ١/١٢٤.

٢) اتحاف الورى ٣/٣٤٨.

٣) انظر التحفة ٣/٢٤١، العقد ٣/٤٣٩، نزهة النفوس ١/١٣٨.

المدينة، فنهب علي ممتلكاته وقتل بعضهم رجاله وهرب(١).

وجاء الخبر إلى السلطان برقوق، فأدرك أن جمازاً لن يستطيع توفير الأمن في المدينة، وأنه كثير الخصومات لذلك قرر أن يعزله ويعين أميراً آخر هو ثابت بن نعير بن جماز، وكان ثابت قد احتجز في مصر مع بعض الأشراف، فأطلق سراحه وأصدر مرسوماً بتعينه وسيره إلى المدينة(٢).

إمارة ثابت بن نعير: عودة الهدوء:

استطاع ثابت أن يقبض على الأمور ويديرها بحزم، وتتبع عدداً من رجال جماز وسجنهم، واستعان بالأشرف برساي، فأرسل الأشرف قوة مسلحة بقيادة بكتمر السعدي لتقوية أميرها ونصرة أهل السنة فيها. امتدت أيام ثابت في الامارة، فكانت أطول إمارة في هذا القرن، فقد جاوزت خمس عشرة سنة، شهدت فيها المدينة المنورة استقراراً سياسياً عاماً، ولكن هذا الاستقرار لم يخل من اضطرابات متقطعة يحدثها صراع قصير حول الإمارة أو محاولة فاشلة لانتزاعها. وكان المصدر الأكبر لهذه الاضطرابات والمثير الأول لها الأمير السابق جماز الذي خرج إلى عربانه في ريف المدينة وأخذ يتحين الفرص للانقضاض عليها، وكان لجماز حصن بعيد عن المدينة يقيم فيه، وقد حاول غير مرة القضاء على ثابت ابن نعير أو طرده من الامارة، أو انتهاز فرصة غيابه للاستيلاء على المدينة، ولكنه كان يفشل في كل مرة، وكانت أعنف محاولة وأقربها إلى النجاح عام ٧٩٥هـ، حيث حشد جمعاً غفيراً من الأعوان والمناصرين وزحف بهم إلى المدينة وحاصرها، وكاد أن يقتحمها، ولكن ثابت بن نعير خرج له برجاله، وحدث قتال عنيف سقط فيه عدداً من الضحايا من الطرفين، وهزم جماز وارتد إلى حصنه.

كان لجماز أنصار من أهل المدينة يساعدونه بطرق شتى لاستعادة

---

١) السلوك ق٢ ج٣ ص ٥٦٢.

٢) السابق نفسه.

الإمارة، وكان لبعضهم وجاهة وصداقات مع كبار المسؤولين في مصر، يذكر السخاوي منهم محمد بن أحمد، الذي كان يسعى في القاهرة كي يخلع الأمير ثابت ويتولى جماز، وقد علم الأمير ثابت بجهود محمد ووساطته، وخطط للتخلص منه، فانتهز فرصة سفره إلى القاهرة، وبعث وراءه مجموعة من رجاله اعترضوه في الطريق وعذبوه عذاباً فظيعاً، ثم قتلوه(١).

وتوالت سنوات العقد الأخير من القرن الثامن تحمل أحداث الحياة اليومية العادية في معظم أيام السنة، حتى إذا اقترب موسم الحج بدأ موسم الزيارة الأول، إذ يفد الحجاج القادمون من الشام والعراق ليزوروا المدينة قبل أداء نسك الحج، وربما يعود هؤلاء إلى المدينة ثانية بعد موسم الحج في طريقهم إلى بلادهم ويقيمون فترة قصيرة، ويأتي معهم الزائرون الذين جعلوا زيارتهم بعد أداء نسك الحج، ومنهم المصريون أحياناً والقادمون من إفريقيا، فيطول موسم المدينة ويمتد إلى نصف محرم وربما إلى نهايته.

وقبيل انتهاء هذا العقد الأخير من القرن الثامن تكررت هجمات جماز على المدينة، فشكا الأمير ثابت بن نعير ذلك إلى السلطان برقوق، فأمر برقوق أمير الركب المصري بالقبض عليه وإحضاره إلى مصر، واستطاع أمير الركب الإمساك به في موسم ٧٩٨هـ وأخذه موثوقاً إلى القاهرة حيث سجن فيها سبع سنوات متوالية(٢).

---

١) التحفة ٣/٦٧١.

٢) انظر العقد الثمين ٣/٤٩٣.

المدينة في القرن التاسع

دخل القرن التاسع الهجري والحياة في المدينة المنورة هادئة مطمئنة، فبعد القبض على جماز وسجنه في مصر لم يجرؤ أحد من منافسي الأمير ثابت والطامحين في الإمارة على إثارة شيء من القلاقل والفتن، وقد واصل ثابت سياسة أسلافه في حسن معاملة السنيين في المدينة المنورة والتحبب إليهم، وأقام ثابت علاقات حسنة مع آل عجلان أمراء مكة، ولما جاء الشريف حسن بن عجلان -الذي صار أمير مكة فيما بعد- عام ٨٠٣هـ، استقبله وأكرمه وكان الشريف حسن قد جاء في موكب كبير يضم مائة راحلة ومائتي جمل وستين فرساً وثلاثمائة راجل، وكان لهذا الاستقبال أثره في نفس الشريف حسن عندما أسند إليه الإشراف على ينبع والمدينة كما سيمر معنا(١) كما أنه أحسن التعامل مع سلاطين مصر من المماليك، وقد عاصر خلال إمارته هذه ثلاثة سلاطين هم الصالح حاجي والظاهر برقوق والناصر فرج، ولم تحدث أية مشكلات مع وفود السلاطين وقوافل الحجاج، باستثناء مشكلة أثارها جنتر عام ٧٩٥ بسبب محاولته الاعتداء على بعض الشرفاء وسلبهم صقراً وفهداً مدربين للصيد، فتدخل ثابت وفض النزاع، ولكن ثابتا بدأ بالتغير في أواخر أيام حكمه، فقد انحاز إلى الإماميين، وأعاد القضاء إليهم، وكان سلفه عطية قد قصره على القاضي السني الذي يعينه السلطان من مصر، وبدت منه عدة تصرفات تضايق منها معظم أهل المدينة وشكوه إلى السلطان عام ٨٠٥هـ، فعزله السلطان، وأمر بإطلاق سراح أمير المدينة السابق جماز

---

١) انظر إتحاف الورى ٣/٤٢٢.

بن هبة، وأعاده إلى الإمارة(١).

من السجن إلى إمارة قصيرة:

توجه جماز بن هبة إلى المدينة بعد أن أمضى سبع سنوات في السجن، وتسلم الإمارة من ثابت بن نعير، وعمل على مخالفة ثابت، واسترضاء السلطان وأهل المدينة، فتودد إلى السنيين وأحسن معاملتهم ومنع الاعتداء عليهم وعاقب كل من يهددهم أو يسيء إليهم، فسر به أهل السنة، وعاد قضاة المذاهب السنية إلى ممارسة القضاء(٢) ولكن الأمير السابق ثابت بن نعير لم يستسلم لهذه الهزيمة، فسافر إلى مصر لاستعادة الإمارة، وكان خلال مدة إمارته الطويلة قد ارتبط بصداقات وعلاقات حسنة مع عدد من رجال الدولة، فلجأ إلى أصدقائه، واجتهد هؤلاء في التوسط له عند السلطان فرج، ونجحوا بعد شهور قليلة في إقناعه بإعادته إلى الإمارة وعزل جماز، وأصدر مرسوماً بذلك، فرجع به ثابت وتسلم الإمارة من جماز في العام نفسه.

صراع دبلوماسي:

أصبحت المنازلة بين جماز وثابت دبلوماسية تتوقف الغلبة فيها على حسن التوسط لدى السلطان، ولم يلجأ جماز هذه المرة إلى القوة والقتال كما كان يفعل من قبل، وسار في الطريق الذي سار فيه ثابت، فعاد إلى مصر، واجتهد في التوسط ثانية لإقناع السلطان بأنه الأجدر بالإمارة، غير أن أنصار ثابت لدى السلطان كانوا من القوة بحيث مكث جماز يتردد على أبواب السلطان مدة طويلة، دون أن يستجاب له، ونتوقع أن يكون ثابت قد أحسن السيرة مدة ولايته الثانية كي لاتتكرر الشكاوى منه، فلم يذكر أحد أن أهل السنة قد تضايقوا منه بعد عودته إلى الإمارة. غير أن جماز بن هبة نجح في استعادة الإمارة ثانية عام ٨٠٩هـ، ويروي السخاوي خبر عودته في سياق

---

١) نزهة النفوس ١٧٣/٢ وانظر السلوك ق٣ ج٣ ص ١٠٩٧.

٢) العقد الثمين ٤٣٩/٣.

أقرب إلى الأسطورة فيقرر أن السلطان المملوكي فرج أمر كلاً من جماز وثابت بالاقتتال (فمن غلب فهو الأمير) فاقتتلا في ذي القعدة سنة تسع فغلب جماز واستولى على المدينة(١)، ونحن نشك في هذه الرواية ونعدها من خيال القصاصين، فلم يذكرها أحد غير السخاوي، ولا يعقل أن يبلغ العبث بالسلطان فرج هذا الحد، وقد عرف عنه حسن إدارة الأمور بعامة، وأنه قضى على الخلاف في إمارة مكة بتوليته حسن بن عجلان، وأسند إليه الإشراف فيما بعد على أميري المدينة وينبع.. ونعتقد أن الذي حدث هو تغلب أنصار جماز في الصراع (الدبلوماسي) في القاهرة وإقناعهم السلطان بتولية جماز. فأصدر السلطان مرسومه بتولية جماز عام ٨٠٩هـ وربما يكون ثابت قد رفض تسليم جماز الإمارة عندما جاء المدينة بمرسوم الإمارة فوقع صراع مسلح بينه وبين جماز فلكل منهما رجال وعصبة وهزم ثابت وانزوى مدة من الزمن.. وهذا ما نرجحه.

إمارة قلقة:

بعد تسلم جماز الإمارة، جاء حسن بن عجلان أمير مكة إلى المدينة المنورة زائراً، وخشي جماز أن يكون قدومه انتصاراً لخصمه أو لمحاربته، فاستعد لذلك، وخاف أهل المدينة واحتاطوا. غير أن حسن بن عجلان أرسل إلى ثابت يطمئنه إلى سلامة نيته وعدم تفكيره في أية مجابهة وأقام حسن عدة أيام في المدينة وتزوج (موزة بنت عجلان بن نعير) وهي ابنة أخي ثابت، وعاد بها إلى مكة فاطمأن جماز(٢).

تأثر جماز بالصراع المتوالي على الإمارة وخطط لتقوية نفسه ورجاله، ولم تكن الظروف الاقتصادية في المدينة تساعده على ذلك، فدخل الإمارة محدود والمساعدات الواردة من مصر تنفق على المصروفات الإدارية والفقراء،

---

١) التحفة ١/٣٩٦.

٢) التحفة اللطيفة ٣/٤٥١.

لذلك أعاد بعض (المكوس) والجبايات، وصادر بعض الأثرياء(١) وتغيرت نظرة الناس إليه وبدؤوا بالشكوى منه، ووجد خصوم جماز في هذه الحالة فرصة سانحة فعملوا على استصدار مرسوم سلطاني من مصر بعزله. وكان السلطان الناصر فرج قد ملّ من مشكلات إمارتي مكة والمدينة والصراع بين أفراد الأسرة الواحدة.. ففي مكة كان الصراع على أشده بين أبناء عجلان، وتدخل السلطان عدة مرات وسجن عدداً منهم، وأخيراً وثق بأحدهم وهو حسن بن عجلان، الذي كان مسجوناً لديه، فأطلق سراحه وولاه إمارة مكة وكلّفه بإنهاء النزاع بين أفراد الأسرة الواحدة وتأمين الحجاج والمعتمرين، وقد نجح حسن بن عجلان في مهمته نجاحاً كبيراً، دفع السلطان إلى أن يوسع نفوذه ويكلفه بالإشراف العام على إمارتي المدينة وينبع ومتابعة أعمال أميريهما(٢).

وعندما كثرت الشكاوي من جماز بن هبة قرر حسن بن عجلان عزله وإعادة عم زوجته الجديدة ثابت بن نعير، فأرسل إلى السلطان فرج يسأله إصدار مرسوم بذلك. فاستجاب له السلطان لثقته الكبيرة به، وأرسل مع البريد مرسوماً يفوضه فيه بتعيين أمير المدينة وفقاً للصلاحيات التي منحه إياها في المرسوم السابق. وقبل أن يخرج البريد من مكة بأمر تعيين ثابت توفي ثابت، فقرر حسن بن عجلان تعيين شقيق ثابت، عجلان بن نعير أميراً على المدينة، وكان حسن قد تزوج ابنته موزة، وأرسل إليه يستدعيه إلى مكة وقلده الإمارة هناك في آخر ربيع الثاني سنة ٨١١هـ(٣).

علم جماز بما حدث وأدرك أنه لن يستطيع أن يستعيد الإمارة بالطرق الدبلوماسية، فنفوذ حسن بن عجلان عند السلطان الناصر فرج في مصر

---

١) التحفة اللطيفة ١/٢٤٠.

٢) انظر تاريخ مكة ٢٩٠.

٣) العقد الثمين ٣/٤٣٩.

كبيرة ولن يستطيع مزاحمة آل نعير عند حسن بن عجلان لأنهم أرحامه ولكثرة الشكاوى منه، لذلك قرر إعلان التمرد ومقاومة عزله وفرض نفسه على الإمارة بالقوة.

علم الأمير حسن بن عجلان بتمرد جماز ورفضه ترك الإمارة، وبلغه بتجهيز الرجال للمقاومة، فكتب إليه يقول له: أخرج بسلام وإلا فأنا قاصدك(١) وبدأ حسن بن عجلان يجهز جيشه للتوجه إلى المدينة إذا رفض جماز الانصياع، فلما وصلت الرسالة لجماز وعلم باستعدادات الأمير حسن أدرك أنه لاطاقة له بالصدام فأظهر الطاعة، كي لايعجل الجيش بالخروج إليه، واستغل الفرصة وارتكب عملا شنيعاً يدل على مدى الاضطراب والانحراف الذي وصل إليه(٢).

جريمة جماز: نهب المسجد النبوي:

أراد جماز أن يحصل على أكبر قدر من المال قبل أن يترك الإمارة، ولم يكن في الإمارة أموال كثيرة، لذلك اتجهت أنظاره إلى جهتين تتوافر فيهما الأموال التي ترضي جشعه: الأثرياء والمسجد النبوي.

وفي ضحى العاشر من جمادى الأول عام ٨١١هـ جمع جماز رجاله وبعض أقاربه لهذه المهمة، وأباح لهم نهب بعض البيوت والمتاجر، وأرسل إلى القائمين على المسجد النبوي وكبير خدامه، يستدعيهم إلى الإمارة، فأدرك هؤلاء ماينطوي عليه استدعاؤهم من أخطار ورفضوا الذهاب إلى الإمارة، فاشتد غضب جماز وأخذ مجموعة من رجاله وذهب بهم إلى المسجد النبوي، حيث جمع له رجاله كل من وجدوه في المسجد من الشيوخ والقضاة وخدام المسجد، فأهانهم باللسان، ويروي المقريزي أن جمازا طلب من خدام المسجد

---

١) إتحاف الورى ٤٦٢/٣.

٢) إتحاف الورى ٤٦٢/٣.

أن يدفعوا له تسعة آلاف درهم مقابل عدم فتح القبة ونهبها فرفضوا(١) وطلب مفاتيح مستودع المسجد النبوي من قاضي المدينة زين الدين بن أبي بكر بن الحسين المراغي فرفض القاضي تسليمها، فأهانه وأخذها منه عنوة، وأتى إلى غرفة القبة، وضرب شيخ الخدم بيده وألقاه على الأرض، وكسر بابها ودخلها ومعه جماعة، فأخذ ماوجده فيها(٢) وكان مما أخذه جميع مافيها من قناديل الذهب والفضة التي أهداها بعض السلاطين والموسرين من سائر الآفاق، وزيت المصابيح وشموع التراويح وأكفانا ودراهم، وصندوقين من الذهب وأشياء كثيرة غيرها(٣) وبلغ من شناعة عمله أنه قطّع صكوك العقارات الموقوفة للمسجد النبوي، والمحفوظة في غرفة القبة(٤) كي تضيع الوثائق التي تثبت ملكية المسجد النبوي لبعض العقارات. وفي الوقت نفسه كان بعض أقاربه ورجاله ينهبون عدداً من البيوت والدكاكين(٥).

أشاعت تصرفات الأمير جماز ورجاله الذعر الشديد في المدينة المنورة كما ملأت نفوس الناس بالغضب والألم، فالعدوان على بيوت الناس وأموالهم يأتي من الأمير نفسه، الذي يفترض فيه حمايتهم، ثم الصدمة الكبيرة التي أحدثها العدوان المريع على حرمة المسجد النبوي، ولم يكن في استطاعة أهل المدينة المقاومة أو فعل شيء يوقف الأمير ورجاله عن هذه الأعمال الشنيعة، والمشاعر الثائرة في النفوس لاتجد متنفساً سوى كلمات الغضب والدعاء، ولم تظهر قيادة تحول هذا الغضب الجامح إلى مواجهة عملية تتصدى للأمير

---

١) السلوك قسم ١ ج٤ ص ٧٥.

٢) إتحاف الورى ٣/٤٦٣.

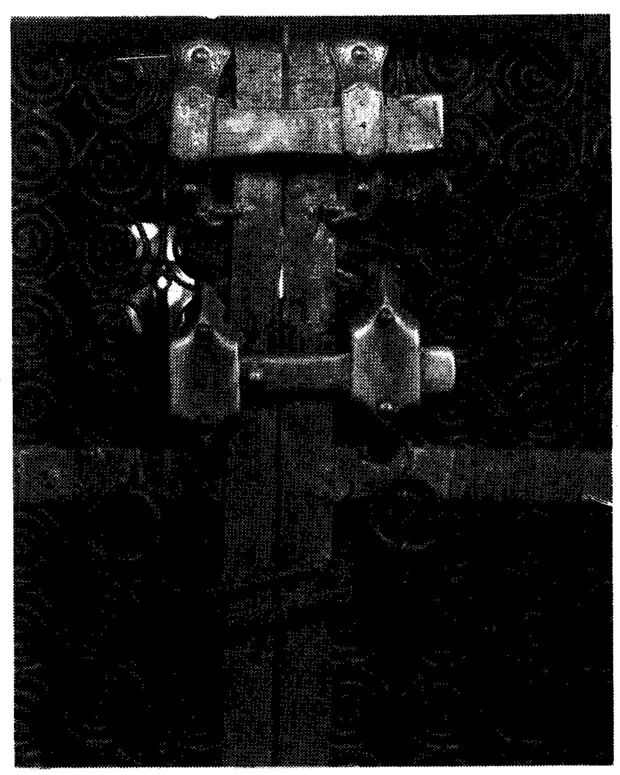
٣) وفاء الوفاء ٢/٥٨٦.

٤) السابق نفسه.

٥) السابق نفسه، وانظر تفصيلات أخرى لهذه الجريمة الشنيعة في: إتحاف الورى ٣/٤٦٢-٤٦٥، السلوك ق١ ج٤ ص ٧٥-٧٦، العقد الثمين ٣/٤٣٩.



الحجرة النبوية من جهتها الجنوبية



أقفال بوابة الحجرة النبوية في المسجد النبوي. وكانت الحاجز الذي يقف أمام مطامع الجشعين

وعصابته، ولم تكن المواجهة مستحيلة، غير أن صدمة المفاجأة والذهول الذي استولى على الناس لانتهاك حرمة المسجد النبوي، وشخصية المعتدي، كل هذه الأمور حالت دون تجمع الغاضبين والمنهوبين ومقاومتهم.

استمر النهب وإثارة الذعر بياض ذلك النهار، واختبأ كثير من الناس في بيوتهم وأحكموا إغلاق الأبواب، ولم يخرج أحد إلى المسجد النبوي، وفر بعضهم بأمواله خارج المدينة، وركب بعضهم إلى مكة ليخبر الأمير حسن بن عجلان بما يحدث في المدينة، فلما جاء الليل خفت حركة الرجال، وملأ السارقون غرارات كثيرة بما نهبوه من مستودع المسجد النبوي ومن غرف القائمين على المسجد والبيوت الأخرى، وعمد بعضهم تحت جنح الظلام إلى دفن بعض المسروقات في أماكن مهجورة، وخبأها بعضهم الأخر في بيوت أقاربه وأصحابه، ومضى الليل ولا حركة في المدينة إلا لرجال جماز، وعطلت الصلاة في المسجد النبوي ولم يحضر أحد لصلاة الصبح ولم يؤذن، فلما طلع النهار سمع الناس جلبة الخيل والمشاة، فقد خرج جماز ورجاله بأثقالهم تاركين المدينة الحزينة وخرج بعض الناس من بيوتهم ينظرون موكب الجريمة المغادرة، وتجرأ بعضهم فقذفهم بالحجارة وهرب، وغاب الموكب مشيعاً بلعنات أهل المدينة ودعائهم إلى الله أن يعجّل لهم العقوبة.

وحاول مجموعة من الأعراب القاطنين في ضواحي المدينة والذين يتحينون الفرص للنهب والسلب الهجوم على المدينة عندما بلغهم الخبر، فتجمعوا إثر خروج جماز ورجاله وقصدوا المدينة فرماهم الناس بالحجارة(١).

ووصل الخبر إلى حسن بن عجلان الذي كان يجهز جيشه، فارتاع للأمر، وسارع بإرسال الأمير الجديد عمه عجلان بن نعير على رأس مجموعة كبيرة من الرجال، وأمرهم أن يسيروا في الطريق الذي يدخل المدينة من شرقها، وأن يستنهضوا في الطريق بعض أنصارهم من القاطنين في الريف، وسيّر

---

١) إتحاف الورى ٤٦٣/٣.

ابنه أحمد على رأس مجموعة أخرى سلكت الطريق الرئيسي المعتاد، فوصل ابن عجلان أولاً في التاسع عشر من جمادى الأولى ومعه آل منصور، ونشر الرجال في أنحاء المدينة ونادى بالأمان، وفي اليوم التالي وصل أحمد بن حسن بن عجلان على رأس المجموعة الثانية، ولم يلتق أحد من الفريقين بجماز. فقد توارى جماز في بعض القرى، وأرسل عجلان بن نعير مجموعة من الجند للبحث عنه، فساروا أياماً ولم يهتدوا إليه وعادوا إلى المدينة(١).

المدينة تستعيد سكينتها:

شرع عجلان بن نعير في ترتيب الإمارة وإعادة الأمن إلى المدينة، وجمع أعيان المدينة وكتبوا محضراً بما فعله جماز وذكروا فيه تفصيل المسروقات، وقد اطلع السمهودي على المحضر ونقل خلاصته(٢) وقرئ على الناس في المسجد النبوي مرسوم السلطان بإسناد الإشراف على المدينة لأمير مكة حسن بن عجلان، ومن ثم تبعية المدينة وأميرها لإمارة مكة، وقرئ أيضا قرار حسن بن عجلان بتعيين عجلان بن نعير أميراً على المدينة(٣) كما قرئ قرار بالقبض على جماز والتحفظ على أمواله وممتلكاته.

استتبت الأمور بعد فترة بسيطة، وأصبحت حادثة جماز ذكرى مؤلمة في ذاكرة الناس، واستطاع رجال عجلان بن نعير أن يتعقبوا بعض أقارب جماز الذين خبأ عندهم السارقون بعض المسروقات، واستعادوها، ويذكر السمهودي أن كثيراً من المسروقات لم يعلم مكانه بعد مقتل جماز وموت من شاركه(٤) وعاد الجيش الذي قدم من مكة بعد أن رتب عجلان ابن نعير رجاله

---

١) المصادر السابقة، العقد الثمين ٤/١٠٥-١٠٦.

٢) انظر: وفاء الوفاء ٢/٥٨٥.

٣) وفي رواية إتحاف الورى أن السلطان فرج أرسل مرسوماً بتعيينه، وربط التعيين بموافقة حسن بن عجلان ٣/٤٦٤.

٤) وفاء الوفاء: ٢/٥٨٦.

وإمارته، وصارت إمارة المدينة تابعة اسمياً لإمارة مكة، حيث يذكر على المنابر اسم السلطان أولاً، ثم الأمير حسن بن عجلان، ثم أمير المدينة عجلان بن نعير، كما يدعى لهم كل يوم بعد صلاة المغرب على سدة المؤذنين. ولم يكن نفوذ حسن بن عجلان يتجاوز ذلك، فأمير المدينة هو والد زوجته، وليس في الإمكان التدخل في تصرفاته الإدارية أو مراجعتها لعدم وجود الاتصالات المناسبة آنئذ، والمناصب العليا تعين من القاهرة، وقد وصل قاضٍ جديد أرسله السلطان، وقرئ مرسوم تعيينه وبدأ عمله(١).

أما جماز بن هبة فلم يجرؤ على العودة إلى المدينة، ولم ينعم بما سرقه، وقتل في جمادى الأخرة من السنة التالية ٨١٢هـ في الفلاة، صادفه بعض خصومه السابقين، وكان في قلة من الرجال، فاشتبك معهم فقتلوه، ويروى أن بعض المطيريين هم الذين قتلوه طمعاً فيما نهبه(٢) وهكذا انتهى الأمير السارق جثة مرمية في الصحراء.

عزل الأمير الجديد:

اشتد عجلان بن نعير على آل جماز أملاً في أن يجد عندهم بقية المسروقات، وغضب آل جماز لذلك، فلم يكونوا جميعهم مشاركين في تلك الجريمة، وخرج بعضهم من المدينة ولحق بجماز قبل قتله، وقصد آخرون أقاربهم في مناطق أخرى، وبدؤوا يعدون العدة للانتقام من عجلان بن نعير، ولم يحسن عجلان تقوية سلطته ورجاله، وبدرت منه بعض الأخطاء، وبعد مصرع جماز عمد أقرباؤه إلى التخلص من عجلان بدهاء ومكر، فقد انتظروا قدوم مواكب الحج، واستطاعوا أن يقنعوا (بيسق) أمير الحج المصري، بأن عجلان بن نعير غير جدير بالإمارة، وأنه ظلمهم ظلماً شديداً، وحصلوا على

---

١) إتحاف الورى ٣/٤٦٤.

٢) انظر السلوك ق١ ج٤ ص ١٢٩-١٣٠ التحفة اللطيفة: ٤٢٨/١، وفاء الوفاء: ٥٨٦/٢-٥٨٧.

موافقته لطرده من الإمارة، وعلى إشارة منه إلى أمير الحج الشامي بمساعدتهم، فلما وصل أمير الحج الشامي في ذي القعدة عام ٨١٢هـ هاجموا -بمساعدة رجاله- إمارة المدينة وقبضوا على عدد من رجال عجلان، وحاصروا عجلان في القلعة، فتنكر في ثياب امرأة وخرج هارباً، ولكن بعضهم تنبه إليه فتبعه وقبض عليه، وسلمه إلى أمير الركب الشامي، فحمله أمير الركب الشامي إلى مكة موثوقاً، وسلمه لأمير الركب المصري، فسجنه، وتشفع فيه صهره أمير مكة حسن عجلان فأطلق سراحه واكتفى بعزله عن الإمارة(١).

وتحت ضغط هذه الأحداث، ومراعاة لسلطة أمير الركب المصري الذي كان وراء عزل عجلان بن نعير، ومراعاة لآل جماز الثائرين، قرر حسن بن عجلان أمير مكة المكرمة تعيين سليمان بن هبة بن جماز، شقيق جماز المقتول، أميراً على المدينة، فعادت الإمارة إلى آل جماز، وكان في نفوسهم آثار قاسية لما لقوه خلال إمارة عجلان بن نعير، لذلك أخذ سليمان بن جماز يسيء معاملة عدد من أهل المدينة ويطارد خصوم آل جماز، ويستولي على أموالهم، فساءت سيرته بين الناس وتوالت الشكاوى منه، وبلغت حسن بن عجلان في مكة وتجاوزته إلى السلطان في مصر، وعندما كثرت الشكاوى وجاءت الأخبار من رجال السلطان في الحجاز بأن سليمان بن هبة قد أساء السيرة فعلاً، أمر السلطان المؤيد -الذي تسلم سدة الحكم عام ٨١٥هـ- أمير الركب المصري (يلبغا) بالقبض على سليمان بن هبة وإحضاره موثوقاً إلى القاهرة، فجاء يلبغا إلى المدينة وقبض على سليمان بن هبة وعلى أخيه ومعاونه محمد بن هبة، وعين مكانه ابن أخيه غُرَيِّر بن هيازع بن هبة بن جماز أميراً على المدينة وذلك بتفويض من السلطان، فكان هذا التعيين نهاية لنفوذ حسن بن عجلان في المدينة، واستعادت المدينة استقلالها عن مكة، وارتبطت بالقاهرة مباشرة. أما سليمان بن هبة وأخوه فقد أُخذا مقيدين إلى مصر حيث سجنا

---

١) العقد الثمين ٤٣٩/٣، التحفة اللطيفة ١٧٧/٣.

ومات سليمان بعد عامين عام ٨١٧هـ وأطلق سراح محمد(١).

إمارة غُرَيِّر بن هيازع:

تسلم غُرَيِّر بن هيازع الإمارة واستطاع أن ينهي اضطرابات آل جماز، فقد تحقق لهم مايريدون، وبدأ يزيل أسباب الشكوى التي ظهرت في المدينة من سلطة سليمان، فيحسن معاملة الناس ويتشدد في حفظ الأمن وتعقب المفسدين، ويتودد إلى أهل السنة ويمنع أي تطاول عليهم، فحسنت سيرته بين الناس، وحسنت علاقاته مع جيرانه أشراف مكة وينبع، وقد تزامنت بداية ولايته مع عودة النفوذ الاسمي للخليفة العباسي إلى الحرمين الشريفين، ويتمثل هذا النفوذ بذكر اسمه في الخطب والدعاء له واعتباره إمام المسلمين الأول، وكانت الخطبة للخلفاء العباسيين قد قطعت منذ سقوط بغداد بيد التتار عام ٦٥٦هـ(٢) وأصبحت مقصورة على سلطان مصر وأمير المنطقة، وقد جاءت إعادة الخطبة للخليفة بعد انتقال الخلافة لمصر وتحولها إلى منصب ليس له أية فعالية سياسية، يتوارثه أبناء الأسرة العباسية السنية، ولاشك أن إقامة الخطبة للخليفة العباسي في الحرمين الشريفين تأكيد على بقاء الخليفة رمزاً للوحدة المعنوية بين المسلمين، وتأكيد لارتباط هذين المكانين المقدسين بالخلافة ولو اسمياً، ويزداد هذا التأكيد أهمية إذا تذكرنا أن أمراء المدينة كانوا من الشيعة الإمامية، ولكن تشيعهم لم يكن متطرفاً في غالب الأحيان، وقد كان غُرَيِّر بن هيازع واحداً من الأمراء غير المتطرفين.

استمرت ولاية غُرَيِّر بن هيازع أربع سنوات متوالية لم تشهد فيها المدينة أحداثاً كبيرة أو اضطرابات تذكر، خلافاً لما هو الحال عليه في مكة المكرمة، حيث قام صراع بين رميث بن محمد بن عجلان وأميرها حسن بن

---

١) العقد الثمين ٣/٤٤٠، التحفة ٢/١٨٤، وقد ضبط مؤلف العقد اسمه (بغين معجمة وراءين بينهما ياء مثناة).

٢) السلوك ق١ ج٤ ص ٢٤٠.

عجلان، وطرد حسن بن عجلان من مكة عام ٨١٨هـ بالقوة، ثم عاد إليها عام ٨١٩هـ بالقوة أيضاً، وبمباركة السلطان المؤيد(١).

وكان لعودة حسن بن عجلان إلى إمارة مكة أثر على إمارة المدينة فقد استطاع أن يقنع الملك المؤيد بإعادة حميه والد زوجته عجلان بن نعير إلى إمارة المدينة وعزل غُرَيِّر بن هيازع. وورد الخبر من مصر بعزل غُرَيِّر قبل وصول ركب الحج المصري، ولما قدم الركب توارى غُرَيِّر خشية أن يقبض عليه أمير الركب، مع أنه كان محمود السيرة في المدينة، وكان لأمير الركب سلطة محاسبة أمراء الحرمين والقبض عليهم وأخذهم إلى مصر سجناء، ولم يكن أمير الركب ليعدم حجة أو سبباً يقبض به على أمير المدينة، وأقل تلك الحجج محاسبته على أموال الإمارة، لذلك آثر غُرَيِّر أن يتوارى عن المدينة ويترك الإمارة لأميرها الأسبق عجلان بن نعير(٢).

مسلسل الإمارة فالسجن:

تسلم عجلان بن نعير إمارة المدينة في ذي الحجة عام ٨١٩هـ، وعاد بعودته الصراع الدبلوماسي على الإمارة، حيث يتنافس الطامحون فيها في استرضاء السلطان المملوكي في مصر كي يستصدروا مرسوماً بتعيين أحدهم أميراً وعزل الأمير المعين، وقد سلك غُرَيِّر هذا الباب لأول مرة، واستطاع بعد سنتين من عزله أن يستصدر مرسوماً من السلطان بتنصيبه أميراً على المدينة المنورة، وبعزل عجلان بن نعير والقبض عليه، وكان موعد تنفيذ هذا المرسوم قدوم الركب المصري الذي يحمله، والذي يقوم بمراسيم التقليد، فيقرأ المرسوم السلطاني على منبر المسجد النبوي، ويلبس الخلعة للأمير الجديد، وقد وصل الركب المصري إلى المدينة المنورة في العشر الأخير من ذي الحجة

---

١) تاريخ مكة ٢٩٦.

٢) العقد الثمين ٣/٤٤٠، التحفة اللطيفة ٣/١٧٧.

عام ٨٢١هـ وقبض على عجلان وقلد غُرَيِّراً الإمارة(١).

ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن سيرة عجلان في هاتين السنتين، مع أن له سابقة في الإمارة جعلت آل جماز يثورون عليه، وربما يكون عجلان قد ارتكب بعض الأخطاء واشتكاه بعض أهل المدينة، فاستفاد خصومه من ذلك واستطاعوا إقناع السلطان بعزله، ولكن الأمر بسجنه يدل على أن الأخطاء كثيرة أو مضخّمة للسلطان. ويعني أيضاً أن أمير مكة حسن ابن عجلان لم يستطع هذه المرة أن ينقذ حماه من السجن لضعف نفوذه، أو لحجم الخطأ الذي ارتكبه عجلان، وليس لدينا في المصادر التاريخية مايوضح ذلك. وقد اقتيد عجلان إلى مصر وسجن في القلعة وأطلق سراحه بعد أشهر قليلة بسبب منام رآه أحد جلساء السلطان(٢).

ولاشك أن هذا التحول الهائل من النقيض إلى النقيض في أحوال الأمير سيجعل أي أمير يتولى المنصب يحسب حساباً لعوامل التحول والمؤثرات فيها. فالسلطان الذي يصدر مرسوماً بتعيين الأمير بعد وساطات كثيرة سرعان مايصدر أمراً بالقبض على الأمير نفسه إذا نجح خصومه في تشويه سمعته، وفي أحسن الحالات يصدر مرسوماً بعزله وتولية شخص آخر ينال رضا السلطان ويقنعه بأنه أجدر من غيره وأقدر على إدارة شؤون الإمارة. وكان لبعض هؤلاء الطامحين والمتصارعين على الإمارة شفعاء ووسطاء من جلساء السلطان ومن عليّة القوم. كما أن شخصية أمير مكة حسن بن عجلان قد لعبت دوراً في هذه التعيينات لمدة من الوقت..

ومالبث غُرَيِّر أن وقع فيما وقع فيه بعض أسلافه. فقد دفعه قلة موارد الإمارة إلى التفتيش عن مصادر أخرى تسد حاجته للمال، فاشتد في

---

١) العقد الثمين ٣/٤٤٠ والتحفة اللطيفة ٣/١٧٧.

٢) الضوء اللامع ١٤٥/٥ والسلوك ق ١ ج ٤ ص ٤٧٠، والعقد الثمين ٣/٤٤٠ والتحفة اللطيفة ٣/١٧٧.

الجبايات، وارتفعت الشكاوى ضده، وأخذ شيئاً من حاصل الحرم النبوي لنفسه بالمكر والحيلة(١) فسقط السقطة التي كانت فيها نهايته.. ومع أن طريقة أخذه من الحاصل النبوي لم تكن مشابهة لطريقة جماز بن هبة، بل كانت هادئة، فإن شيوع هذا الخبر قد أسقطه نهائياً عند السلطان المؤيد وجعله يصدر مرسوماً بعزله والقبض عليه.

ومع قدوم الركب المصري عام ٨٢٤هـ إلى المدينة المنورة كانت نهاية إمارة غُرَيِّر بن هيازع وبداية نهايته تماماً. فقد قبض عليه واقتيد إلى مصر حيث سجن ببرج القلعة ومات فيه في أوائل صفر عام ٨٢٥هـ.

وكان المنافس الأول لغُرَيِّر بن هيازع سلفه عجلان بن نعير، الذي تقلبت به الأحوال من الإمارة إلى السجن. وبالعكس(٢) فقد عين أميراً للمدينة مكان غُرَيِّر، وتسلم الإمارة في العشر الأخير من ذي الحجة عام ٨٢٤هـ وشهدت المدينة المنورة في ولايته (الثالثة) هذه الفتن والمحن. إذ ضعفت هيبة الإمارة وتطاول بعض المفسدين حتى قتلوا القاضي عبد الرحمن بن محمد بن صالح الذي كان شديداً في أحكامه عليهم(٣) ونكبت المدينة عام ٨٢٦هـ، -والمنطقة بعامة- بأسراب ضخمة من الجراد الذي أتلف زروعها وأحدث قحطاً ومجاعة شديدتين، ومات عدد من الفقراء جوعاً(٤) وتسلطت الأرضة -دودة تصيب جذور النبات- على مابقي في المزارع فأتلفتها(٥) وقلت السلع وغلت الأسعار غلاء فاحشاً..

استمرت ولاية عجلان إلى موسم عام ٨٢٩هـ.. حيث استطاع قريبه

---

١) العقد الثمين ٣/٤٤٠.
٢) العقد الثمين ٣/٤٤٠ والسلوك ق٢ ج٤ ص ٦٢٧.
٣) السلوك ق ٢ ج ٤ ص ٦٥٠.
٤) السلوك ق٢ ج٤ ص ٦٣٣.
٥) السلوك ق٢ ج٤ ص ٦٥٠.

خشرم بن درغام، الذي أقام في القاهرة مدة طويلة يعمل لتولي الإمارة، أن يستصدر مرسوماً بتوليه الإمارة في الثامن عشر من شوال عام ٨٢٩هـ وتقلدها في القاهرة على أن يقلدها ثانية في المدينة كما جرت عليه العادة. ويذكر المؤرخون أن خشرم بن درغام تعهد بتقديم خمسة آلاف دينار للسلطان لقاء توليته الإمارة(١) وبذلك يكون خشرم قد اشترى الإمارة على نحو ماكان يحدث في المناصب المالية (جباية المكوس والعشور وغيرها) وهذه أول مرة تتحول فيها إمارة المدينة إلى (التزام) ووظيفة تعطى لقاء تعهد بدفع مبلغ من المال. ولاشك أن خشرم بن درغام الذي مكث في القاهرة مدة من الزمن يسعى للإمارة قد اطلع على أحوال المناصب والوظائف العليا آنئذ، ورأى كيف توزع في موعد معين من كل سنة بطريقة تشبه المزاد العلني في عصرنا هذا.. وعرف تقبل المماليك لهذا الأسلوب، فسلكه، وزج إمارة المدينة المنورة في مستنقع الالتزامات المالية، وغالباً ماكان هذا المستنقع يؤذي من يخوضه، وهو ماوقع لخشرم نفسه بعد حين.

وعند قدوم الركب المصري إلى المدينة علم عجلان بأمر المرسوم فخرج من المدينة حانقاً ومضمراً الشر وقبل وصول الأمير الجديد في ذي القعدة من العام نفسه(٢).

ولم يكد خشرم يتسلم الإمارة ويخطب على منبر المسجد النبوي حتى فوجئت المدينة المنورة بعجلان بن نعير وقد جمع جموعاً حاشدة من العربان، ومن أشرار الأشراف الذين اتخذوا حصوناً خارج المدينة(٣) وجعلوها مراكز

---

١) السلوك ق٢ ج٤ ص ٧٢٧ و النجوم الزاهرة ٣/١٢٢-١٢٣.

٢) يروي السخاوي أن عجلان قبض على قضاة المدينة وخدام المسجد النبوي وأطلق يد رجاله في النهب قبل أن يخرج من المدينة ويتركها لخشرم. التحفة اللطيفة: ٣٩٧/١.

٣) التحفة اللطيفة ٢/٤٥٠.

قوتهم ومنطلقهم للإغارة على المدينة والقوافل وبعض القرى، وكان فيهم ذريان الحسيني الطفيلي، وكانت له شهرة في الفتك، وكان الركب الشامي قد غادر المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، وخرج معه عدد من أهلها للحج، ولم يبق فيها من يدافع عنها إلا رجال الإمارة، وأغلقت المدينة أبوابها وتحصن الناس داخل السور، ولكن رجال عجلان بدؤوا يفتحون ثغرات في السور ويشعلون النار في أبوابه، واستطاعوا بعد ثلاثة أيام من الحصار والمناوشات أن يقتحموا السور ويدخلوا المدينة ويستولوا على الإمارة ويقبضوا على أميرها الجديد خشرم بن درغام. وقد ارتكب رجال عجلان جرائم كثيرة، فنهبوا بيوت الناس، واستولوا على الودائع التي تركها الركب الشامي إلى حين عودته من مكة، وأحرقوا بعض البيوت والدكاكين، ويذكر السخاوي أن بيوت الشيعة قد سلمت من هجماتهم، ومع أن الغزاة لم يكونوا كلهم من الشيعة، ففيهم العربان والبدو والطامعون في المال.. فإن تشيع عجلان جعلهم يتجنبون ممتلكات الشيعة، وربما يكون لعجلان دخل مباشر في ذلك(١) وهكذا تحول عجلان بن نعير من أمير المدينة الذي يضبط أمورها ويحمي أمنها وممتلكات أهلها إلى غازٍ يستعين بقطاع الطرق لينتقم من أهل المدينة، الذين لم تكن لهم يد في عزله..

ولاشك أن هذا التصرف يظهر الانحطاط الذي وصل إليه عجلان بن نعير وتخلخل القيم الذي مكنه من تكوين قوة شريرة تهاجم المدينة وتنهبها. والمدهش أن عجلان بن نعير أطلق سراح غريمه خشرم بن درغام بعد أن قبض عليه.. ورد شيئاً من المنهوبات التي استولى عليها.

كان أهل المدينة المنورة ضحايا هذا الصراع المر على الإمارة، وضحايا الانحطاط الخلقي الذي تردى فيه عجلان وأمثاله.. ولم تكن لهم قوة تحميهم من عدوان أمرائهم عليهم..

---

١) انظر التحفة اللطيفة ٣٩٧/١ والسلوك ق ٢ ج ٤ ص ٧٢٨.

ويذكر المقريزي أن عدداً من أهل المدينة قد نزحوا عنها وتشتتوا بسبب ماحدث لهم ولخوفهم من أن يتكرر هجوم عجلان وأمثاله، وأن الأحوال قد اضطربت في المدينة اضطراباً كبيراً، وقلَّ الاهتمام بإقامة الشعائر الدينية وساءت أحوال المسجد النبوي(١) ولايستبعد ذلك.. لأن الأمير خشرم الذي استهل إمارته بتلك الصدمة المريعة قد اضطربت أحواله، وربما يكون قد هادن عجلان بن نعير وأعوانه، أوصالحهم لقاء إطلاق سراحه، وإذا أضفنا إلى ذلك أنه التزم بدفع خمسة آلاف دينار لخزينة السلطان في مصر استطعنا أن نتصور الضيق الشديد الذي حل بالمدينة منذ أيامه الأولى. فالمبلغ الذي التزم به لابد أن يجبيه من أهل المدينة وزوارها ومن الحركة التجارية والزراعية فيها. وهذه ستؤثر عليها تأثيراً شديداً وستجعل الجبايات عالية، فتضاف إلى نكبة أهل المدينة بما نهبه عجلان بن نعير ورجاله نكبة المبالغ التي سيجبيها الأمير الجديد، والذي لم يعد قادراً على توفير الأمن للناس.. وطبيعي أن تضطرب الأحوال الاقتصادية بسبب النهب والخوف من تكرره، وأن تعرض القوافل التجارية عن المدينة أو تقل فيها. وقد نتج عن ذلك كله أن الأمير خشرم عجز عن جمع المبلغ الذي تعهد به.

لذا جهز السلطان الأشرف برسباي حملة مع أحد قادته -الأمير بكتمر- وأرسلها في موسم الحج لعام ٨٣٠هـ فجاء إلى المدينة وعزل خشرم عن الإمارة وقبض عليه وعين أميراً جديداً من الأسرة نفسها هو مانع بن على بن عطية، واصطحب خشرم إلى القاهرة سجيناً(٢).

وما لبث مانع أن قصد القاهرة مسلماً على السلطان برسباي، وطالبا

---

١) السلوك ق ٢ ج ٤ ص ٧٣٩.

٢) السلوك ق ٢ ج ٤ ص ٧٥٦ و النجوم الزاهرة ١٢٣/٣.

إصدار مرسوم تعيينه، فظفر بالمرسوم وعاد إلى المدينة(١) ليتولى إمارتها

شيء من الاستقرار:

امتدت إمارة مانع تسع سنوات متوالية لم تخل من صدامات ومعارك مع الطامعين في السلطة، والطامعين في نهب المدينة والمفسدين وقطاع الطرق.. وكان مانع حازماً يحسن تدبير أموره، وقد صرف اهتمامه منذ بداية إمارته إلى ترسيخ الأمن في المدينة. فأصلح سورها وسد الثغرات التي أحدثها هجوم عجلان من قبل، وزاد عدد رجاله ونشرهم في الأسواق ومداخل المدينة لمراقبة الأعراب ومن يشك في أمرهم، ولم يكن عليه التزام مالي للسلطنة لذلك ألغى الجبايات الإضافية التي فرضها سلفه خشرم، وبدأ يتعقب المفسدين الذين اتخذوا حصوناً خارج المدينة يغيرون منها على المدينة والقرى والقوافل. واصطدم مع عدد من الأشراف وقتل بعضهم، فبعد عام من توليه الإمارة أي في سنة ٨٣٢هـ تحرك سلفه خشرم بن درغام الذي أطلق سراحه في القاهرة وجاء إلى المدينة وجمع منها ومن العربان حولها حشداً كبيراً وهاجم المدينة، فتصدى له مانع برجاله، وجرت معركة في مداخل المدينة وساحاتها سقط فيها عدد من الضحايا، واستطاع مانع ورجاله أن يقتلوا خشرم بن درغام، وقتلوا معه بعض الأشراف الذي ناصروه من داخل المدينة ومن أهل الحصون المنتشرة في ريفها، وتشتت جموع خشرم(٢) وأرسل مانع أعوانه لتتبع عجلان بن نعير الأمير الأسبق الذي نهب المدينة وأصبح واحداً من الذين

---

١) التحفة اللطيفة ٨١/٢.

٢) انظر التحفة اللطيفة ١٨/٢ والسلوك ق ٢ ج ٤ ص ٤١١ ونزهة النفوس ١٦٨/٣.

يهددون أمنها، فظفروا به وقتلوه(١) وتخلصت المدينة من أخطر مهدديها واستقر الأمر لمانع مدة من الزمن، وحسنت سيرته بين الناس، وهدأت الحساسية المذهبية بين الإمامية وأهل السنة بسبب حسن سيرته، ونشطت الحركة التجارية في ظروف الاستقرار الجديدة(٢) ومما يذكر به الأمير مانع أنه تصدى لعصابة خطيرة يقودها الشريف زهير بن سلمان بن زيان بن منصور، وكان زهير هذا فاتكاً يقطع هو وجماعته الطريق(٣) وكان معه شريف آخر هو هلمان بن عزير بن هيازع ابن أمير المدينة الأسبق عزير بن هيازع، وقد بلغ عدد رجالهما أكثر من ثلاثمائة فارس فضلاً عن رماة السهام، وامتد نشاطه إلى أطراف نجد والعراق(٤) وقد تجرأت هذه المجموعة مرة على قافلة -رسمية- تابعة للإمارة يقودها سعد بن المرة كانت متوجهة إلى رابغ. وكان مع القافلة قوة مسلحة للحراسة فخرج عليهم زهير بمئة فارس وقاتلهم، وقتل رجال من الفريقين، ثم صالحهم على أن يدفعوا له مبلغاً من المال فدفعوه(٥) وقد تصدى مانع بن علي لزهير وجماعته في شهر رجب سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة.. ووقعت معركة حامية بينهما في ضواحي المدينة، وتمكن مانع من قتل زهير بن سلمان وزميله هلمان بن عزير وانتهى أمر هذه العصابة.

وبسبب هذه الانجازات الكبيرة حظي مانع بن علي بمكانة مرموقة عند السلطان المملوكي الأشرف برسباي(٦) فلم يستطع أحد أن يزاحمه على

---

١) التحفة اللطيفة ٣/١٧٧.

٢) الضوء اللامع ٦/٢٣٦ و نزهة النفوس ٣/٣٥٩.

٣) التحفة اللطيفة ٢/٨٥.

٤) نزهة النفوس ٣/٣٢٥.

٥) السابق وانظر في سيرة زهير وجرائمه نزهة النفوس ٣/٣٢٥.

٦) السابق التحفة اللطيفة ٢/٨٥.

الإمارة. واستمرت الإمارة في بيته من بعده فانتقلت إلى ابنه أميان..

كانت نهاية مانع بن علي سنة تسع وثلاثين وثمانمائة غيلة. فقد كان مغرماً بالصيد، وكان يصطاد في نواحي المدينة وفي العاشر من شهر جمادى الآخرة من ذلك العام خرج مع مجموعة قليلة من رجاله للصيد في ضواحي المدينة، فكمن له الشريف حيدر بن درغام، أخو خشرم بن درغام أمير المدينة السابق وتمكن من مفاجأته وقتله. ثأراً لأخيه خشرم الذي قتله مانع بن علي قبل ست سنوات(١).

تنازع على الإمارة بعد مانع بن علي عدد من المتطلعين إليها، منهم علي بن مانع، وأخوه أميان بن مانع، وكان أميان مقرباً من أبيه ينوب عنه في حالات سفره. ومنهم العجل بن عجلان بن مغير وكبش بن جماز، وقد اتهم كبش هذا بالتعاون مع حيدر بن درغام في قتل مانع. وذهب كبش إلى مصر محاولاً استصدار مرسوم بتعيينه أميراً على المدينة، فظفر به بعض أقارب مانع بن علي، وقتلوه ثأراً لقريبهم قبل أن يدخل القاهرة(٢) وذهبت الرسائل إلى القاهرة طالبة تعيين أمير جديد، وجاء مرسوم السلطان الأشرف في أول رمضان عام ٨٣٩هـ يقلد الإمارة لأميان بن مانع فتقلدها، وكف علي وعجل عن المطالبة بها(٣).

---

١) انظر نزهة النفوس ٣/٣٥٩-٣٦٠ والتحفة اللطيفة ١/٥٤٠ والسلوك ق ٢ ج ٤ ص ٩٨٥.

٢) انظر الضوء اللامع ٦/٢٢٦ والسلوك ق ٢ ج ٤ ص ٩٨٥.

٣) انظر الضوء اللامع ٥/١٤٥-١٤٦ ونزهة النفوس ٣/٣٤٨، ويذكر المقريزي أن اسمه دميان؛ انظر السلوك ق٢ ج٣ ص ١١٥٧ والتحفة ١/٣٣٨.

إمارة أميان بن مانع:

استقر أميان في الإمارة مستفيداً من المكانة التي حققها أبوه، وواصل سياسة والده الحازمة في ضبط الأمن وحماية المدينة ومنع المشكلات المذهبية، وظهرت حالة من الرخاء في المدينة، وبخاصة في أواخر عهده، نتيجة لهذا الاستقرار، وتولى السلطنة في مصر الظاهر جقمق فقرر رواتب لعدد كبير من أهل المدينة وأهل مكة بدءاً بالأشراف، وقرر طعاماً يصرف للفقراء كل يوم(١).

ومع تغيير السلطان وجد الطامحون في الإمارة فرصة لمزاحمة أميان، فسعى الشريف سليمان بن غُـرير بن هيازع لدى السلطان الجديد لتولي الإمارة، ونجح في مسعاه، وجاء الركب المصري في ذي الحجة عام ٨٤٣هـ يحمل معه مرسوماً سلطانياً بعزل أميان وتولية سليمان بن غرير بن هيازع إمارة المدينة(٢).

إمارة سليمان بن غُـرير:

اتخذ سليمان بن غُرير موقفاً عدائياً من أميان، وعين حيدر بن درغام قاتل مانع بن علي والد أميان نائباً له في الإمارة، فخرج أميان من المدينة وأقام في بعض ضواحيها حنقاً على سليمان، وجمع حشداً من العربان، وهاجم سليمان عام ٨٤٤هـ محاولا انتزاع الإمارة منه، ولكن سليمان جمع رجاله وخرج إلى ظاهر المدينة وقاتل أميان، ورغم أن عدد رجاله كان أقل من عدد رجال أميان، فقد انتصر على خصمه، واضطره إلى الانسحاب والعودة

---

١) الضوء اللامع ٧١/٣.

٢) التحفة ٣٣٨/١ أو ١٨٤/٢.

إلى معقله(١).

استمر سليمان في الإمارة حتى وفاته عام ٨٤٦هـ، ولم تجر أية محاولة لانتزاع الإمارة منه بعد محاولة أميان السابقة، ولم يتجرأ أحد على مهاجمة المدينة، غير أن الأمن خارج المدينة كان ضعيفاً، ولم يسلم الحجاج والمسافرون من هجمات العربان، حتى المماليك وبعض جنود المحمل المصري لم يسلموا من تعرض العربان لهم خارج أسوار المدينة، فقد هاجم العربان بعضهم عندما خرجوا من السور إلى البقيع وقتلوا ثلاثة من المماليك(٢).

وقد تعزز الأمن داخل المدينة وازدادت قوتها المسلحة عندما أرسل السلطان جقمق قوة عسكرية أقامت فيها أكثر من سنتين، وكان السبب المباشر لإرسال القوة جريمة ارتكبها أحد الأشراف وكادت أن تحدث فتنة من الشيعة والسنة، فقد اغتال ذلك الشريف واحداً من أعيان أهل المدينة السنيين هو محمد الكمال أبو الفضل، وينتهي نسبه إلى ابن طولون، كان الفضل يطالب الشريف بدين في ذمته لبعض الورثة، فلما ألح عليه خرج الشريف في جماعة وقتل أبا الفضل سراً وأرهب عدداً من أهل السنة، وكان أمير المدينة سليمان غائباً، فركب نائبه حيدر بن درغام إلى موقع الحادث وحاول القبض على الجاني دون جدوى، فقد فر مع جماعته واختبأ في بعض المزارع، وسافر شقيق المقتول إلى القاهرة فنقل إلى الظاهر ماحدث وأخبره بما يلاقيه أهل السنة من بعض الشرفاء، فأمر جقمق بإرسال مجموعة من الجند بقيادة أحد الأمراء المماليك لتعزيز الأمن في المدينة، وجهز الجند بما يحتاجونه، وقد مكث الجنود أكثر من سنتين في المدينة، وتعقبوا عدداً من المفسدين

---

١) التحفة ٣٨٨/١.

٢) انظر السلوك ق٣ ج٤ ص ١١٥٧.

ولكنهم لم يستطيعوا القبض على الشريف القاتل(١) وقد أمر السلطان الظاهر بعدم إدخال جنائز الشيعة إلى المسجد النبوي باستثناء الأشراف العلويين، وظل هذا الأمر مطبقاً من بعده(٢).

ويبدو أن أمراء الحج بحكم نيابتهم عن السلطان وشعورهم بأنهم أعلى مرتبة من أمراء الحرمين، بدؤوا يأخذون من أمراء الحرمين بعض المال سواء للخزانة أو لأنفسهم، وكان بعضهم يطلب كميات من تمر المدينة، فقد فرض الأمير جرباش الكريمي على قاضي المدينة أن يحضر خمسين صاعاً من تمر، وبعد لأي رضي بثلاثين(٣) واشتكى أهل المدينة إلى السلطان جقمق من هذه التصرفات، فشدد السلطان على أمراء الحج وأمرهم ألا يطلبوا شيئاً ولايأخذوا شيئاً من أهل المدينة ولو قدم لهم(٤) فاستراحت المدينة من ضرائب غير مباشرة كانت تثقلها..

وفي ربيع الآخر عام ٨٤٦هـ توفي الأمير سليمان بن غُرير بن هيازع. وأمسك الأمور نائبه حيدر بن درغام بإجماع أهل المدينة(٥). وذلك لما أبداه من جهود في حفظ الأمن أثناء نيابته عن سليمان، وكتب أعيان المدينة إلى السلطان يطلبون تثبيته وإصدار مرسوم بتوليته الإمارة(٦) واستغل بعض الأعراب فرصة موت الأمير سليمان وهاجموا المدينة في جمادى الآخرة من العام نفسه، فخرج إليهم حيدر برجاله وقاتلهم وهزمهم. ولكنه أصيب بجرح كبير، وحمل إلى المدينة. وظل يعالج فيها مدة شهرين. ثم مات في أوائل

---

١) التحفة ٥٢٥.

٢) التحفة ٢٩٢/٣.

٣) السلوك ق ٣ ج ٤ ص ١٢٠١.

٤) السلوك ق ٣ ج ٤ ص ١٢٢٥.

٥) الضوء اللامع ١٦٨/٣.

٦) السابق.

رمضان من العام نفسه ٨٤٦هـ.

ومن المفارقات أن السلطان جقمق وافق على طلب أهل المدينة وأصدر مرسوماً بتثبيت حيدر في إمارة المدينة. ووصل المرسوم بعد دفن حيدر(١).

بعد حيدر مرت بالمدينة المنورة أربع سنوات سكتت المصادر التاريخية عنها، فلم تذكر أسماء أمرائها ولا الأحداث التي جرت فيها، غير أن السخاوي أشار في ترجمته لحيدر بن درغام -ويسميه حيدرة- أن الذي استقر بعده هو مؤنس بن كبيش يليه ضيغم بن خشرم. ويذكر أن تسلم مؤنس الإمارة جرى بالاتفاق بين أمير الترك وأهل المدينة، ولعل المقصود بأمير الترك أمير الركب المصري أو الشامي.. وهو من المماليك عادة ويعد نائباً عن السلطان، وله صلاحية كبيرة في قضايا إمارة المدينة ومكة، وهنا تواجهنا مشكلتان: الأولى مشكلة مؤنس بن كبيش، حيث لانجد له ترجمة فيما بين أيدينا من مصادر، وربما تكشف المخطوطات التي ستحقق لاحقاً شيئاً عنه وتعرفنا به، وبمدة إمارته على المدينة وأية أحداث جرت خلالها.

والمشكلة الثانية هي مشكلة ضغيم بن خشرم. فالمصادر التي بين أيدينا تتحدث عن شريف اسمه ضغيم بن خشرم بن نجاد بن ثابت بن نعير بن منصور الحسيني(٢) الذي تولى إمارة المدينة لأول مرة سنة تسع وستين وثمانمائة ثم عزل وولي مرات أخرى كما سيمر معنا بعد قليل. وليس في ترجمته مايشير إلى توليه الإمارة في أي سنة من السنوات مابين سنة ٨٤٦ و ٨٦٩هـ لأن المصادر تذكر أن أميان بن مانع قد أعيد للإمارة سنة ٨٥٠هـ(٣) خلفاً لضيغم بن خشرم.. فهل ضيغم بن خشرم هذا هو غير ضيغم بن خشرم بن نجاد والذي سيتولى الإمارة سنة ٨٦٩هـ. إننا نميل إلى هذا الرأي،

---

١) التحفة اللطيفة ٥٤٠/١.

٢) انظر التحفة اللطيفة ٢٥٢/٢.

٣) التحفة اللطيفة ٣٣٨/١.

ويشجعنا عليه أن كثيراً من الأشراف كانت تتشابه أسماؤهم الأولى والثانية. والسخاوي لم يذكر لنا من هو ضيغم بن خشرم الذي تولى بعد مؤنس بن كبيش وقبل إمارة أميان بن مانع الثانية عام ٨٥٠هـ. ولو كان هو ضيغم بن خشرم بن نجاد لذكر السخاوي إمارته هذه في ترجمته.

ولكننا لا نعرف متى تسلم الإمارة وكم مكث فيها بعد مؤنس؟ إن صحت رواية السخاوي(١) والتي لانجد سواها يغطي هذه الفترة. وقد ترجم صاحب الضوء اللامع لضيغم بن خشرم بن نجاد. وجاء في ترجمته أنه عزل سنة ٨٥٠هـ وعين مكانه أميان بن مانع. وأن ضيغم هذا قتل بعد عزله بوقت يسير. فهو ضيغم الذي نبحث عنه والذي نعتقد أنه تولى الإمارة مدة من الزمن قبل عام ٨٥٠هـ(٢) والطريف في سيرته أنه رفض أن يسلم الإمارة لأميان إلا بدراهم بذلها له أميان فأخذها ثم خرج(٣).

على أي حال تبقى هذه المجهولات بانتظار المخطوطات التي ستكشف لنا الحقيقة وتبين صحة الاسم والنسب من جهة والحوادث التي حدثت في هذه السنوات الأربع من جهة أخرى، ثم سبب قتل ضيغم هذا. أهو الصراع على الإمارة أيضاً أم حادثة من الحوادث العادية التي كانت تجري في ذلك العصر؟.

إمارة أميان الثانية:

تسلم أميان إمارة المدينة للمرة الثانية عام ٨٥٠هـ، وإن صح أنه دفع لضيغم بن خشرم مبلغاً من المال ترضية له فهذا أسلوب جديد في انتقال الإمارة يحقن الدماء ويوفر على المدينة فتنة، ولكنه يرتب التزامات مقدمة على الأهالي، تزيد من المكوس والجبايات أو تشدد في استيفائها لتسديد (فاتورة)

---

١) التحفة اللطيفة ١١/٥٤٠.

٢) الضوء اللامع ٤/٢.

٣) السابق.

الإمارة المدفوعة سلفاً.

كانت إمارة أميان الثانية هادئة. ليس فيها صدامات تذكر ولاحوادث لافتة للنظر، فقد حنكته الأيام وجعلته يحافظ على رضا السلطان ورضا الشرفاء ويؤجل صراع المنافسين. وقد استمرت هذه الإمارة ثلاث سنوات وانتهت بوفاته أواخر عام ٨٥٣هـ.

إمارة زبيري وسنوات من الاستقرار:

تسلم الإمارة بعد أميان الشريف زبيري بن قيس بن ثابت بن نعير، ولم يكن له منافسون خطيرون، وقد امتدت إمارته إحدى عشرة سنة وبضعة أشهر، ويبدو من أخباره القليلة أنه اهتم بالأمن اهتماماً شديداً، وطارد الأعراب الذين يهددون المدينة المنورة بغاراتهم الخاطفة، واستعان بالسلطان الظاهر فأرسل له السلطان أحد قادته الشجعان مع مجموعة من الجند لتعزيز قوة الإمارة ومواجهة الأعراب، وهو توروز الحافظي، وأقام توروز عدة سنوات في المدينة المنورة، وقاد حملات مطاردة الأعراب والمفسدين وقطاع الطرق، وحمدت سيرته وشجاعته(١) ونجد في أخبار المدينة آنئذ العقوبة الصارمة التي فرضها الأمير على من يعتدي على المسجد النبوي ويسرق شيئاً من موجوداته، وقد حدثت عام ٨٦١هـ سرقة روعت المدينة(٢) إذ اعتدى برغوث

---

١) الضوء اللامع ٦١/٣.

٢) وردت تفاصيل هذه السرقة في كتاب رسائل في تاريخ المدينة، جاء فيها: عدا على القبة النبوية، في ليلة السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ستين وثمانمائة برغوث بن نعير بن جريس الحسيني، فدخل الدار المعروفة (بدار الشباك) بجانب باب الرحمة ليلاً -ولم يكن بها ساكن- وتسور جدار المسجد ودخل بين سقفي المسجد الشريف من شباك هناك، ومشى حتى بلغ مايحاذي سقف الحجرة، فأخذ من تلك القناديل شيئاً كثيراً، وكرر ذلك المرة بعد الأخرى، ولم يشعر أهل المسجد ونظاره بشيء من ذلك، غير أن أمة لبعض جيران الدار رأت من سطح دارهم شخصين في أعلى دار الشباك، يتعاطيان شيئاً له حجم كبير

بن نعير بن جريس الحسيني، وزميله بركات على الحجرة النبوية وسرقا بعض قناديلها الثمينة، وقبض عليهما، ولم يكتف الأمير بتطبيق حد السرقة (قطع اليد) عليهما، بل أمر بشنقهما أمام المسجد النبوي، لأن عملهما من الإفساد في الأرض، وليكونا عبرة لغيرهما، فشنقا في شعبان ٨٦١هـ(١) واستعان الأمير زبيري ببعض أشراف المدينة لتتبع الشرفاء المنحرفين، فقد كان من جملة من سرق الحجرة النبوية دبوس بن سعيد الحسيني الطفيلي، وكان لدبوس رجال كثيرون ولم يستطع زبيري القبض عليه أو أنه خشي من فتنة فتركه يهرب إلى خارج المدينة، ثم دخل دبوس المدينة ثانية واعتدى على أحد وجهاء المدينة، فأرسل الشريف محمد بن أبي ذر بن عجلان بن نعير رجاله لتتبعه، فأدركوه عند جبل عير خارج المدينة وقتلوه(٢) وجاء أحد الشيعة الباطنيين من الشام إلى المدينة، واسمه عبد الوهاب بن جعفر الشامي، فأقام

وصوت صليل، فأخبرت بواب المسجد فلم يعبأ بذلك لخلو تلك الدار، وبعد ذلك الأمر عن الأفكار، ولكن الله أراد هتك المذكور، وحلول النقمة به، فأنهى بعض الناس إلى أمير المدينة أن برغوثاً معه شئ كثير من المال لم يعهد به من قبل، فأمسكه الأمير، وضيق عليه بالسجن، فانخلس ليلاً، ثم شاع بالمدينة بيع شبابيك من الفضة والذهب، فكثر القال والقيل، ثم في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وستين، استفاض أن برغوثاً في ينبع ومعه قطع من ذهب القناديل، فتفقد النظار الحجرة الشريفة، فرأوا أكثر القناديل مأخوذاً فعلموا الحال ولم يعلموا الكيفية، وكتبوا إلى أمير ينبع بالقبض على برغوث وإرساله، فقبض عليه واعترف أنه فعل ذلك هو ودبوس بن سعد الحسيني الطفيلي، ولم ير أمير الينبع إرساله بل تركه عنده منتظراً الأوامر السلطانية، ثم إن أمير المدينة أمسك دبوساً وبعض أقاربه، فأنكر هو، وأقر عليه بعض جماعته، وأحضروا جانباً من الذهب والفضة، ثم هرب برغوث من ينبع وجاء إلى المدينة فأخبر عنه فقبض عليه وسجن، وبرزت المراسيم بقتل من تجرأ على هذه العظيمة، فقتلوا. ص ١٩٢.

١) انظر التحفة ١/٦٧٣ و٢/٦٩ وانظر الضوء اللامع ٣/١٠.

٢) التحفة ٢/٣٨.

بها وأفسد عقائد كثيرين، وتجمع حوله عدد كبير من بسطاء الشيعة، وتجرأ المتأثرون به فأظهروا سب الصحابة وشنيع الكفريات فأمر بالقبض عليه ومحاكمته، فحكم عليه فقيه المالكية بالقتل إذا رفض التوبة، ونفذ فيه الحكم في نهاية عام ٨٦٥هـ(١).

ورغم أن زبيري ينتمي إلى الشيعة الإمامية، إلا أنه لم يتهاون في أمر هذا الباطني، ومن جهة أخرى كان حريصاً على منع وقوع الفتنة بين الشيعة والسنة، وكان يشتد في عقوبته على من يتصرف أي تصرف يؤدي إلى الفتنة، ويأخذ عليه المؤرخون أنه بالغ في معاقبة أحد وجهاء أهل السنة شمس الدين الأزهري لشتمه أحد الشيعة، فقد كان شمس الدين جالساً في الروضة فداس أحد الشيعة على سجادته، فقال له شمس الدين: يارافضي.. فشكاه الرجل إلى الأمير الزبيري، فأمر زبيري بالقبض عليه ومعاقبته، فأخذ إلى القلعة وضرب إلى أن مات(٢) وذلك في عام ٨٦٢هـ ويبدو أن الأمير زبيري استطاع أن يغطي هذه الحادثة، وكان المتوقع أن تحدث فتنة، فيثور أهل السنة، أو يبلغوا السلطان في مصر، فيعاقبه السلطان أو ربما يعزله، وقد سبق لسلاطين مصر المماليك أن عزلوا بعض أمراء المدينة عندما علموا أنهم يسيئون معاملة أهل السنة.

وعلى أي حال فقد استمر زبيري في الإمارة بعد هذه الحادثة ثلاث سنوات، إلى أن عزل عام ٨٦٥هـ وعين مكانه الأمير زهير بن سليمان بن هبة بن جماز.

زهير بن سليمان والإمارة المضطربة:

طالت إمارة زهير بن سليمان أيضاً، ولكنها لم تخل من أحداث وصدامات، بل ومن انقطاع عن الإمارة وعزل دام أربعة أشهر فقط.

---

١) التحفة ١٨/٣.

٢) التحفة ٨١/٢.

بدأ زهير بالتودد إلى أهل السنة فأزال ماعلق في نفوسهم من أثر زبيري، ونال رضى السلطان الظاهر في مصر، فلم يستطع أحد أن يستصدر مرسوماً باستبداله، وكان أكثر الطامعين في الإمارة جرأة ضيغم بن خشرم بن نجاد بن ثابت، فلما يئس من استمالة سلطان مصر وإقناعه بتوليه الإمارة عزم على أخذها بالقوة، وجمع في عام ٨٦٧هـ جموعاً كبيرةً من أتباعه والعربان المحيطين بالمدينة، وزحف بهم على حين غرة إلى المدينة، فوصلها ليلا، وتسلق بعض رجاله السور وغلبوا حراس أحد الأبواب، وفتحوه، وتوزع رجاله في شوارع المدينة، وأمرهم ضيغم بالجلوس على أبواب القضاة وأعيان الفقهاء، وكل من خرج منهم لصلاة الصبح يمسكونه(١) فإذا قبض على وجوه أهل المدينة تمكن من فرض نفسه على الإمارة، وكان الأمير زهير غائباً عن المدينة وينوب عنه أخوه إبراهيم بن سليمان، وعندما شعر إبراهيم بالهجوم سارع واستعان بابن عمه وجمع رجاله وأعوانه وأخذ يطارد رجال ضيغم في أحياء المدينة، وشاء الله أن يهطل في هذه الليلة مطر غزير جداً، بحيث امتلأت شوارع المدينة بالمياه، وجرت الأودية فيها وحولها، وهي كثيرة، وكان بعض رجال ضيغم قد اقتحموا عدداً من البيوت والدكاكين ونهبوا ماوصلت إليه أيديهم، فلما هطل المطر الغزير احتبسوا وثقلت حركتهم ولم يستطيعوا الفرار بما يحملونه بسرعة، واستغل إبراهيم بن سليمان هذه الحالة فنشط مع رجاله في مطاردة الغزاة، فأخذ هؤلاء يلقون مايحملونه ويفرون، وانجلى الليل، وتوقف المطر، وأسقط في أيدي ضيغم ورجاله، وفشلت خطته في السيطرة على الإمارة وقبض على عدد من رجاله، وكان أحدهم من الشرفاء، وجد في سوق المدينة فقتل، وانسحب ضيغم وبقية رجاله وهربوا من الباب الذي دخلوا

---

١) التحفة ٢/٢٥٢.

منه(١).

استفاد كل من زهير بن سليمان أمير المدينة، وضيغم بن خشرم خصمه ومنافسه على الإمارة من هذه الحادثة، أما زهير فقد قويت شوكته بعد فشل محاولة ضيغم في الاستيلاء على الإمارة، وتوقف التهديد الذي كان مسلطاً عليه، وأما ضيغم فقد أدرك أن أسلوب الاستيلاء بالقوة لن يؤتي ثماره، لذا عليه أن يسلك الأسلوب الأخر، أسلوب الدبلوماسية والوساطة، وإقناع السلطان بتحويل الإمارة إليه، فأخذ يعمل على ذلك، ورحل إلى مصر ولقي عدداً من أقاربه المقيمين فيها، ووسط الوسطاء، وأخيراً وبعد سنتين استطاع أن يستصدر مرسوماً بعزل زهير بن سليمان وتوليته مكانته، وقد وصل المرسوم إلى المدينة في شهر شوال عام ٨٦٩هـ وتسلم ضيغم الإمارة.

أبدى زهير حكمة وتعقلاً في تصرفه إزاء منافسه ضيغم فقد سلمه الإمارة، ولم يثر عليه أو يقاومه، وتوجه إلى مصر بوساطات كثيرة، وكان له مؤيدون يشفعون له عند السلطان الظاهر خشقدم، ويجرّحون منافسه ضيغم لتاريخه السابق، ووجد في مصر من يصغي إليه ويساعده عند السلطان الظاهر، كما أعانه بعض الفقهاء والقضاة الموجودون في المدينة والقاهرة وشهدوا له، ولا نستبعد أن يكون قائد ركب الحج الذي زار المدينة وعاد منها قد ساعده في إقناع السلطان الظاهر بإعادته إلى الإمارة وإقصاء ضيغم، وما لبث السلطان الظاهر أن أصدر مرسومه أواخر محرم عام ٨٧٠هـ بعزل ضيغم وإعادة زهير بن سليمان وتثبيته في الإمارة.

وطبيعي أن هذا المرسوم يشكل نكسة كبيرة لضيغم الذي لم ينعم بالإمارة سوى أربعة أشهر فقط، وهو الذي قاتل من أجلها من قبل وسعى سعياً حثيثاً للحصول عليها بعد ذلك، وقد سلّم الإمارة لزهير بضغط من القوة المسلحة المصرية التي أرسلها السلطان، ونال زهير ثقة السلطان الظاهر

---

١) التحفة ٢/٢٥٢-٢٥٣.

وثلاثة سلاطين تولوا السلطنة من بعده هم: الظاهر بلباي والظاهر تمربنا والأشرف قايتباي، ومات زهير بعد سنتين من تولي قايتباي، فدامت إمارته الثانية من محرم ٨٧٠هـ إلى أن توفي عام ٨٧٤ هـ، ولم يعزله أحد منهم(١).

ضيغم بن خشرم يعود للإمارة:

استطاع ضيغم بن خشرم أن يفوز بالإمارة بعد وفاة زهير رغم وجود منافس خطير له هو قسيطل بن زهير بن سليمان الذي كان يساعد والده وينوب عنه في غيابه، وقد استفاد من الدرس الذي تعلمه في ولايته القصيرة السابقة فسارع إلى توطيد علاقاته بكل من سلطان مصر وأمير مكة، وبعدد من جلساء السلطان، وأحسن التعامل مع الناس، وحمد له أهل السنة وغيرهم معاملته، لذلك طالت إمارته هذه المرة تسع سنوات (من ٨٧٤-٨٨٣هـ)، وكان ضيغم يتألف بعض الشرفاء خارج المدينة ويرسل لهم أعطيات دورية ليأمن شرهم، وقد تأخر مرة عن أحد الشرفاء -شامان بن فارس- فلم يعطه، فجاء الشريف إلى المدينة ومعه خمسمائة فارس ونزل تحت جبل سلع مهدداً، فسارع الأمير ضيغم إلى إرضائه(٢).

إصلاحات في المسجد النبوي:

وفي عهد ضيغم بن خشرم جرت إصلاحات مهمة في المسجد النبوي، فقد بلغ السلطان قايتباي وجود بعض العيوب في سقف المسجد وضرورة تداركها قبل أن تشتد وتهدده بالانهيار، فأرسل أحد رجال حاشيته ((الخوجكي شمس الدين بن الزمان)) سنة ثمانمائة وتسع وسبعين واطلع على حالة السقف والأعمدة التي يستند عليها وسور المسجد وأحضر المهندسين ورتب العمال لبدء العمل وترك لهم مايلزم من المال وعاد إلى مصر، فقام المهندس والعمال بكشف جزء من السقف وهدموا العقود التي يستند إليها

---

١) انظر الضوء للامع ٢/٤، التحفة ٢/٨٥ وتاريخ الاسلام ٧/٦٩.
٢) التحفة ٢/٢٥٣.

وبعض الأساطين، وأعادوا بناءها وصبوا فيها الرصاص، وهدموا أيضاً جزءاً من السور من الجهة الشرقية وحفروا إلى الأساس وأعادوا بناءه، ولاحظوا أن المنارة بجانبه تهتز فصبوا في أساسها مايقويها، وبنوا السقف الذي كشفوه، ثم توقفت العمارة لنفاد المال وعدم وصول أموال جديدة، وكتب بذلك للسلطان، فعاد شمس الدين بن الزمان في سنة إحدى وثمانين وثمانمائة وأقام في المدينة ليشرف بنفسه على إكمال الإصلاحات اللازمة، حيث كشف سقف الروضة وما يلي القبة وبناه من جديد بعد أن رفع الجدار والسواري التي تحمله، كما أبدلت الأخشاب العتيقة وأصلحت رؤوس السواري وارتفع السقف الأعلى عن سقف الحجرة مقدار قامة رجل، فتجدد السقف بعامة(١) ومع أن هذه الإصلاحات تنسب للسلطان قايتباي، فإن حدوثها في إمارة ضيغم جعلت له نصيباً من الذكر والثناء في المدينة على الأقل.

غير أن الأمير ضيغم لم يحافظ على العلاقة الحسنة مع أمير مكة محمد بركات، الذي أصبح مقرباً من السلطان الأشرف قايتباي، فقد زار محمد بن بركات المدينة المنورة عدة مرات، وكان ضيغم يتحاشى لقاءه ويسافر خارج المدينة ويترك نائبه ليقابله ويحتفي به، فأثر ذلك في نفس محمد بركات. وفي سنة ٨٨٢هـ، وقعت حادثة في المدينة المنورة قتل فيها القاضي الزكوري بن صالح، بسبب خلاف حول دار الأشراف العباسيين، ووصل الخبر إلى السلطان قايتباي في مصر، فأمر أمير ركب الحج بالتحقيق في القضية، فلما جاء الركب إلى المدينة خرج ضيغم منها ولم يقابل أمير الحج، فغضب أمير الحج ونقل الخبر إلى السلطان، فكتب السلطان إلى الشريف بركات ليتدخل بنفسه ويحقق في مقتل القاضي، ويعاقب المشاركين في الحادثة، وجاء الشريف محمد بن بركات إلى المدينة ومعه قوة مسلحة فلم يجد الأمير ضيغم، وعلم أنه خرج إلى البادية كيلا يقابله، فأرسل في طلبه، ورفض ضيغم الحضور،

---

١) وفاء الوفاء ٢/٦٠٥-٦٠٨.

فترك الشريف محمد بن بركات قوة مسلحة في المدينة وعاد إلى مكة، وكتب إلى السلطان يخبره بما حدث، ويقترح عليه عزل الأمير ضيغم وتولية الشريف قسيطل بن زهير بن سليمان ابن أمير المدينة الأسبق، فجاءت المراسيم بذلك مع ركب حج عام ٨٨٣هـ، وانتهت إمارة ضيغم الذي لم يعد إلى المدينة، وقد حاول كل من الشريف محمد بن بركات والأمير الجديد قسيطل بن زهير القبض عليه ولكنهما لم يوفقا في ذلك، وظل ضيغم في بادية الحجاز مع أعوانه سنين طويلة لايدخل المدينة إلى أن وليها صديقه حسن بن زبيري فدخلها، وأصبح أحد مشاوريه، ولكنه لم يعد إلى الإمارة مطلقاً(١).

قسيطل في الإمارة:

تسلم قسيطل الإمارة منذ عينه محمد بن بركات عليها، فلما وصلت المراسيم من مصر كانت تثبيتاً له وإقراراً باستمرار نفوذ أمير مكة في المدينة المنورة، وقد استمر في إمارته إلى نهاية عام ٨٨٧هـ وكان يميل إلى أهل السنة(٢) وشهدت المدينة في إمارته حدثين كبيرين، الأول: زيارة السلطان الأشرف قايتباي للمدينة، وآثارها الحميدة. والثاني: حريق المسجد النبوي للمرة الثانية، وإعادة بنائه.

السلطان قايتباي في المدينة:

في السنة التالية لتولي قسيطل الإمارة زار المدينة المنورة السلطان قايتباي، جاء مع ركب الحج، وخرج قسيطل وعدد كبير من الأشراف ووجوه أهل المدينة لاستقباله، ووصلها فجر يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي القعدة عام ٨٨٤هـ، وعندما وصل سور المدينة ترجل عن فرسه ومشى على قدميه تقديراً وإجلالاً، وأظهر التواضع والخشوع، ودخل المسجد النبوي وصلى الصبح في الروضة خلف الإمام، ثم سلم على رسول الله ﷺ ومكث مدة

---

١) انظر التحفة ٢/٢٥٢-٢٥٣. الضوء اللامع ٢٤.

٢) التحفة ٢/٤١٧.

ثم خرج وأمر بضرب خيامه خارج سور المدينة كيلا يزاحم أهلها بعسكره وقافلته الكبيرة، وقد أقام ثلاثة أيام كان يتردد فيها على المسجد للصلاة، فإذا رجع إلى خيامه واستراح استقبل أمير المدينة وأهلها، واطلع على أحوالهم، وفرق فيهم الأموال، وبلغ ماوزعه عليهم أكثر من ستة آلاف دينار، ثم غادر المدينة إلى مكة في الرابع والعشرين من ذي القعدة، حيث كان في استقباله أمير مكة، وأمير الحجاز بعامة محمد بن بركات مع جمع كبير من الأشراف والوجهاء قبل مكة بمسير ليلتين(١).

وكان لزيارة الأشرف قايتباي آثار طيبة على المدينة المنورة، فقد أمر ببناء مدرسة فيها من ماله الخاص، وأمر بشراء عدد من العقارات لتكون وقفاً عليها، وبلغ ماأنفق على المدرسة وتوابعها مائة وعشرين ألف دينار، وكميات كبيرة من التمر والذبائح(٢) وقد أمر بأن يصرف لأهل المدينة والمقيمين فيها والواردين عليها، من كبير وصغير وغني وفقير ورضيع وفطيم وخادم ومخدوم، مايكفيه من البر والدشيشة والخبز، وصار يحمل لذلك سبعة آلاف وخمسمائة إردب كل سنة(٣) وأمر بإلغاء كثير من المكوس والجبايات المفروضة على أهل المدينة والقادمين إليها، ودفع لأمير المدينة مايعوضه عنها، واستمر ذلك طوال حكمه في مصر، أي إلى نهاية القرن التاسع، ويصف السمهودي ماقدمه الأشرف قايتباي للمدينة بأنه بلغ درجة لم يسبقه إليها أحد(٤).

الحريق الثاني في المسجد النبوي:

في عام ٨٨٦هـ شهدت المدينة حادثة مفجعة هي: احتراق المسجد

---

١) التحفة ٤١١/٣، ابن اياس ١٦٠/٣.

٢) التحفة ٤١١/٣.

٣) السابق.

٤) السمهودي ٤١١/٣.

النبوي، وذلك للمرة الثانية في تاريخه، وقد سبق أن احترق عام ٦٥٤هـ كما أسلفنا، وكان مؤرخ المدينة المنورة المشهور السمهودي معاصراً لهذا الحريق، وكان له في المسجد خلوة فيها مكتبته القيمة، فاحترقت، واحترق فيها مسودة كتابه وفاء الوفاء، وكان السمهودي مسافراً في مكة فلم يشهد الحريق، ولكنه عندما رجع تقصى أخباره وسجلها في كتابه عندما كتبه للمرة الثانية.

حدث الحريق هذه المرة بفعل صاعقة أصابت المسجد، وذلك في ليلة الثالث عشر من شهر رمضان من ذلك العام، ويبدو أن المنطقة بعامة كانت تشهد تقلبات في المناخ، فيها رياح وأمطار وصواعق، فيذكر ابن إياس أن مصر شهدت في هذه الفترة نفسها تقلبات جوية غير مألوفة، ثارت رياح من جهة الغرب وكانت عاصفة جداً وأظلم بسببها الجو وأرعد وأبرق ثم أمطرت السماء مطراً غزيراً، وجاء الخبر من دمياط أن الريح قلعت عدة أشجار وهدمت بعض الأماكن وأغرقت بعض المراكب وكانت مهولة جداً(١).

ونفهم من وصف السمهودي أن تلك الليلة كانت كثيرة الغيوم، يدوي فيها الرعد القاصف، فالوقت شتاء، وقبيل الفجر صعد المؤذنون إلى المنارات يهللون (وكانت العادة أن يهلل المؤذنون قبل طلوع الفجر في رمضان ذكراً لله وتنبيهاً إلى قرب وقت الإمساك) وقد صعد رئيس المؤذنين شمس الدين محمد بن الخطيب إلى المنارة الشرقية، وصعد بقية المؤذنين إلى المنارات الثلاث الأخرى، وعندما بدءوا التهليل دوى رعد قاصف، وظهرت صاعقة تهوي من عنان السماء وتتجه إلى الأرض صوب المسجد، فأصابت هلال المنارة الشرقية (والمعروف أن المعادن تجذب الصواعق) وحطمته وتناثرت شظاياه داخل المنارة وخارجها، وسقطت بقية الصاعقة على السقف العلوي للمسجد، فأحدثت فيه ثقباً واسعاً بحجم الترس ونزلت إلى السقف السفلي، وتخللت

---

١) البدائع ١٨٧/٣.

الأخشاب المرصوفة فيه، فاشتعلت الأخشاب بسرعة، ورأى المؤذنون الأخرون النار، وأحسوا أن رئيسهم قد سكت، فنادوه، فلم يجب، فصعد بعض الحاضرين إلى المئذنة فوجدوه قد مات، ووجدوا رأس المنارة قد شق بفعل الصاعقة، وصرخ المؤذنون والحاضرون ينبهون إلى النار التي اشتعلت في السقف، وأسرع الخدم والقيمون على المسجد، ففتحوا أبوابه كلها، وارتفعت الأصوات في أحياء المدينة تخبر بالحريق، وأقبل الناس مسرعين يحملون الدلاء وقُرب الماء، وصعدوا إلى السقف وأخذوا يسفحون الماء على النار المشتعلة، ووصل الأمير ورجاله واشتغل الحاضرون بنقل المياه وصبها، ولكن النار ازدادت اشتعالا وسارت في السقف، فأشار بعضهم بهدم الجزء الذي أمامها كي تنقطع، فسبقتهم النار وامتلأ المسجد بدخان كثيف، ولم يعد أحد يستطيع البقاء فيه، وتراجع الذين على السقف أمام زحف النار، وطلبوا من إخوانهم أن يسرعوا إليهم بملء الدلاء من الميضة والبيوت المجاورة، واشتدت الحركة وتعثر بعضهم على السلالم التي نصبت بسرعة، وسقط بعضهم فمات من فوره، واتجه بعضهم الآخر إلى الدرج الذي ينزل داخل المسجد فسقطت عليهم قطع محترقة وأمسكت النار ببعضهم، وهرب الآخرون إلى صحن المسجد مع من حالت النار بينهم وبين الوصول إلى الأبواب، وبدأ بعضهم يسقط مختنقاً بالدخان، ثم بدأت أجزاء السقف تنهار الواحدة تلو الأخرى، واشتعل البساط على أرض المسجد، وامتدت النار فأمسكت الخزائن الخشبية الموضوعة على أطراف المسجد، وصعدت ألسنتها في الجو، وأثرت في النخلات التي في صحن المسجد، وعلق منها شئ بالمنارة الرئيسية فاحترقت، ومات عدد من الخدام والحاضرين حرقاً أو خنقاً أو تحت الردم المتساقط، ووصلت النار إلى السقف المحاذي للحجرة النبوية، وذاب الرصاص الذي في القبة بالسقف العلوي واحترقت أخشابه وسقط على السقف السفلي (للحجرة سقفان الأول فوق الحجرة مباشرة والثاني أعلى من الأول بقامة) وسقطت

أسطوانات المسجد كلها باستثناء الأسطوانات الملاصقة للحجرة النبوية، واحترقت المقصورة التي تحيط بالحجرة، واحترق المنبر الذي في الروضة ثم سقطت عقود المسجد.

أصيب أهل المدينة بالذهول وهم يرون هول النار، ولم يسبق لهم أن رأوا مثلها في الضخامة والشدة، وفزع كثيرون، وأخلى سكان البيوت المجاورة منازلهم وهرب بعضهم من باب البقيع وبعضهم من باب المصلى، وأجهش الكثيرون بالبكاء وهم يرون ألسنة النار تحيط بالمسجد من كل صوب، ومالبث معظم السقف أن انهار تماماً وملأ الردم أرض المسجد فأطفأ النار الملتهبة بالبسط وغطى الركام كل شيء، ثم بدأت ألسنة النار تتضاءل وتخبو، لتخلفها أعمدة من الدخان تتناقص تدريجياً. ومع انبلاج الفجر لم يبق سوى ألسنة صغيرة متفرقة من اللهب، تنسكب فوقها الدلاء وقرب الماء فتتحول إلى أعمدة صغيرة من الدخان، واكتشف المحيطون بالمسجد أن قبة الحجرة النبوية والسقف السفلي سليمان، رغم أن الدخان وألسنة صغيرة متقطعة من النار تظهر حيناً من الردم الذي سقط عليها ثم تختفي، فأسرعوا إليها بالدلاء وأطفؤوها، وصلى الناس الصبح في الساحة خارج المسجد جماعات متفرقة، ثم عادوا إلى المسجد الذي خمدت فيه النار نهائياً لينقلوا الجثث المحترقة والمختنقة، واشتغل بعضهم بإزالة الركام من الحجرة النبوية، ثم أخذوا ينقلون الردم من مقدمة المسجد إلى مؤخرته، وعمل في ذلك أمير البلدة والقضاة والأشراف وعامة الناس حتى النساء والأطفال تقرباً إلى الله

تعالى(١) واستمر العمل، يتناوب فيه أفواج متوالية من أهل المدينة حتى المساء، وتواصل في اليومين التاليين، حتى أمكن نقل الردم كله وتنظيف موقع الروضة الشريفة والمصلى، وعملوا لبعض أبواب المسجد فتحات يدخل منها المصلون، وسدوا الأبواب الأخرى، ونصب الخدام خياماً في المسجد ليظلل المصلين، وجاء بعض الناس بأسرجة وقناديل فعلقوها على الجدران وأوقدوها لصلوات العتمة، ثم بدءوا بتنظيف ماسقط حول الحجرة وداخلها، فوجدوا الردم قد حمى معظم مقتنياتها، فأخرجوها، وبنوا على الحجرة جداراً من الآجر موضع المقصورة المحترقة، وجعلوا فيها شبابيك وطاقات وأبواباً، بعد ذلك اجتمع القائمون على المسجد النبوي والقاضي وأعيان المدينة عند أميرها، وقر الرأي أن يكتبوا رسالة إلى السلطان قايتباي بماحدث، وكتبت الرسالة في السادس عشر من رمضان تصف الواقعة وآثارها تفصيلاً، وحملها أحد رجال الإمارة إلى القاهرة.

إعادة بناء المسجد النبوي:

يروي ابن إياس أن السلطان عندما اطلع على الحادثة بكى بكاءاً شديداً وبكى كل من حضر معه(٢) وأمر بتجديد عمارة المسجد النبوي، وأمر الخواجكي شمس الدين محمد بن الزمان بالتوجه فوراً إلى المدينة المنورة وأن يصطحب معه مايلزم من البنائين والنجارين والرخامين(٣) وكان السلطان قد أمر بإنشاء بعض العمارات في مكة فأمر بإيقافها وتحويل الصناع والعمال ومواد البناء إلى المدينة، فحضر أكثر من مائة صانع مابين بنّاء ونجار وحداد وسباك وغير ذلك من أصحاب الحرف، ومعهم معدات البناء، ثم بدأ شحن معدات ومواد أخرى من الطور إلى ينبع فالمدينة، ومالبث الخواجكي شمس

---

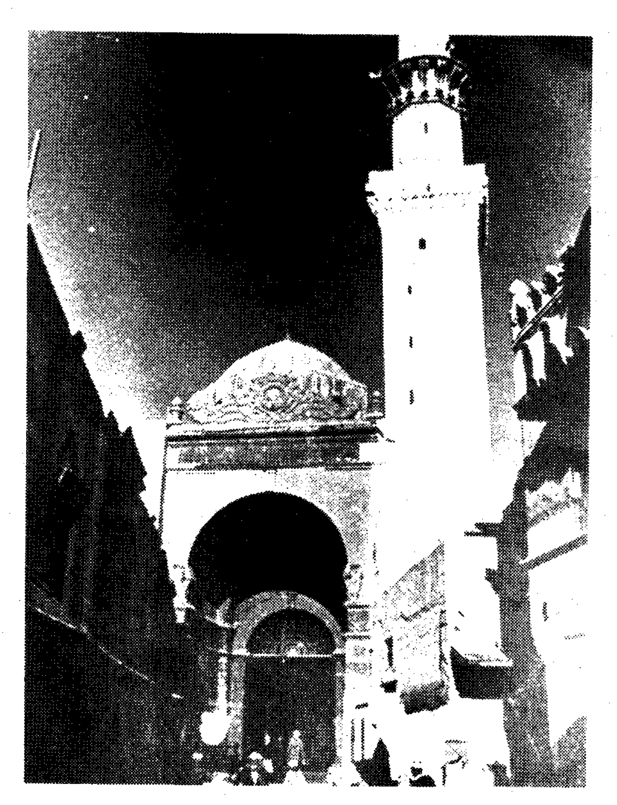
١) وفاء ٢/٦٣٦.

٢) بدائع الزهور ٣/١٨٨.

٣) السابق.



مبنى مكتبة المحمودية



باب السلام ومبنى مكتبة المحمودية على اليسار ومدرسة بشيـر اغا على اليمين وزقاق الخياطين

الدين بن الزمان أن وصل ومعه أكثر من ثلاثمئة صانع، وحمولة مائة جمل، وتوالت بعده قوافل أخرى، وبدأ العمل بهمة ونشاط، فهدمت المنارة الرئيسية التي أصابها الحريق إلى أساسها، وهدمت أجزاء من سور المسجد والأساطين التي تضررت، ثم بدأ البناء من جديد، وقد فصَّل السمهودي، الذي حضر أعمال البناء، مراحل العمل، وبيَّن ماأحدث فيه من تجديد يغاير البناء السابق وما بني على شاكلة البناء السابق، ومافيه من فن عماري متقن(١).

وقبيل إتمام البناء بدأ العمل في عدة أماكن أخرى جانب المسجد النبوي، فبنيت مدرسة في موقع الحصن العتيق ورباط بجانبها ثم رباط آخر، ثم حمام عمومي مقابل الرباط الثاني، ولم يكن بالمدينة حمام عام من قبل، ثم سبيل ماء وفرن وطاحون، ولم يكن بالمدينة طاحون عام من قبل بل كان لكل بيت رحى تدار باليد، ومطبخ لطبخ الدشيشة وتوزيعها على الفقراء يومياً، وأمر السلطان أيضاً بشراء بعض العقارات ووقفها على تلك المنشآت ليوفر لها دخلا ثابتاً.

استمر العمل في المسجد النبوي حتى أواخر شهر رمضان عام ٨٨٨هـ وامتد إلى السنة التالية في المنشآت الأخرى(٢) ونشطت الحركة الاقتصادية خلال هذه المدة.

تغيير الأمير:

غير أن السلطان الأشرف عزل أمير المدينة في نهاية عام ٨٨٧هـ وذلك لأخبار وردته عنه لم يسر بها، وعين زبيري النعيري بناء على توصية أمير مكة محمد بن بركات، ولكن زبيري توفي بعد شهر واحد من توليه الإمارة، فعين ابنه حسن زبيري مكانه وأرسل إلى السلطان قايتباي ليثبته، فأصدر السلطان مرسوماً بتثبيته.

---

١) وفاء ٢/٦٤١-٦٤٤.

٢) وفاء ٢/٦٤٤.

ومنذ أن أسند أمر الأشراف على المدينة المنورة إلى الشريف محمد بن بركات تقلصت سلطة أمير المدينة، وتقلص دخله، ومع أنه المتصرف الحقيقي في الشؤون العامة، ولكنه يخضع لإشراف أمير مكة، فلا يستطيع أن يعين أحداً في المناصب المهمة إلا بعد استئذان أمير مكة أو إجازته، أما كبار موظفي المسجد النبوي والقضاة فيعينون من قبل السلطان في مصر مباشرة ويصدر لهم مرسوم بذلك، وقد أدى تقلص النفوذ هذا إلى وجود مسؤول مالي يحاسبه أمير مكة وليس أمير المدينة، وصار أمير المدينة نائباً لأمير مكة، يذكر اسمه في الخطب بعد السلطان وبعد أمير مكة، وتقلص دخله وصار حصة محددة من الجبايات وصندوق الصدقة، بينما كان من قبل المتصرف الوحيد بدخل الإمارة(١) ويذكر السخاوي أن حسن الزبيري كان محمود السيرة، وأن أهل المدينة فضلوه على سلفيه قسيطل وضيغم بن خشرم وأنه أحسن معاملتهم(٢) ومنذ أن تولى حسن الزبيري الإمارة عام ٨٨٧هـ وإلى نهاية القرن التاسع لانجد له أخبارا تذكر، ويبدو أن تقليص منصبه وتحويله من أمير للمدينة إلى نائب لأمير الحجاز محمد بن بركات قدأبعده عن دائرة الضوء وأدخل المدينة المنورة في تيار الحياة العادية الهادئ، فلم تعد هناك قضايا سياسية. ولاحروب ولاصدامات ولاأعمال كبيرة، كل ماهناك أمن أهل المدينة وممتلكاتهم، والخطر الوحيد الذي بقي يهددهم هو الأعراب الطامعون في بعض المال والمواشي والمتاع، والذين ينتهزون الفرصة للإغارة فيمنعهم سور المدينة وحراسها القلائل.

ولم تعد للمدينة علاقات خارجية مباشرة مع مركز السلطنة في القاهرة. فكل شيءيتم عن طريق الشريف محمد بن بركات في مكة.. وقد أدى ذلك إلى تقلص الحركة الاقتصادية، ووقف النمو السكاني والعمراني. فلا يأتي إلى

---

١) وفاء ٢/٥٩١.

٢) التحفة ١/٤٧٩.

المدينة إلا الزائرون والمجاورون، وهم متحركون غالباً ربما تطول إقامة بعضهم أشهراً عدة. لكنهم يرحلون آخر الأمر. أما التجار والصناع وأصحاب الأموال فليس في المدينة مطمع يغريهم بالإقامة الدائمة فيها. وكان أول من تأثر بهذه الحالة أمير المدينة نفسه، فقد تضاءل دخله إلى حد كبير وصفه السمهودي بأنه ((فقر ثقيل)) الأمر الذي جعله يزهد في الإمارة بعد أربعة عشر عاماً من توليها(١) ويقرر تركها. ولكن بعد أن يرتكب (كائنة شنيعة) ارتبط بها اسمه، وضاع بسببها كل عمل عمله مدة إمارته الطويلة. هذه الكائنة هي هجومه على الحجرة النبوية ونهبه مافيها من أموال وقناديل وأشياء ثمينة أخرى..

وقد صنّف أحد العلماء رسالة خاصة بهذه الحادثة وجدها الأستاذ حمد الجاسر مخطوطة في الأسكوريال، ويرجح الأستاذ حمد الجاسر أن يكون مصنفها السمهودي نفسه(٢) كما وردت القصة موجزة في كتابه وفاء الوفاء(٣) وأشار إليها السخاوي في ترجمة حسن الزبيري(٤).

---

١) انظر رسائل في تاريخ المدينة ص ١٨٣.

٢) رسائل ص ٢٧.

٣) انظر وفاء الوفاء ٢/٥٩٠.

٤) التحفة اللطيفة ١/٤٧٩، وابن اياس ٣/٣١٨.

جريمة حسن بن زبيري:

كان من قدر المدينة المنورة أن تستقبل العام الأول بعد التسعمائة -القرن العاشر الهجري- بهذه الحادثة التي اضطربت بها جنباتها ودب الذعر في أهلها، لالعدوان الأمير حسن الزبيري على المسجد النبوي وحسب، بل لما عاشه أهلها من قلق وخوف، فقد شاع بينهم أن رجال حسن بن زبيري سينهبون المدينة: دكاكينها وبيوتها، فشاع القلق والاضطراب بين الناس أياماً عدة..

كان أمير المدينة يستدين من بعض التجار والشرفاء، فكثرت ديونه، وليس له موارد تعينه على سدادها، وكان حوله ثلة من الرجال من عائلته وأقربائه وأصحابه، ولابد أن ينفق عليهم جميعاً..

وتسرب خبر بأن الأمير بدأ يفكر بمصادرة أموال بعض الأثرياء في المدينة وأنه اختار (أربعة عشر نفساً من مياسير البلد للقبض عليهم) وأن زوجته نصحته بالعدول عن ذلك(١) فتحولت أنظاره إلى ذخائر الحرم النبوي والأموال الموجودة في الحجرة النبوية، وكانت تأتيها الأموال من الآفاق للإنفاق على احتياجات المسجد النبوي، وكان فيها قناديل ذهبية وجواهر ثمينة أهداها بعض الموسرين على مر الأيام..

وفي يوم الثلاثاء السادس من ربيع الأول عام ٩٠١هـ توجه الأمير حسن بن زبيري إلى المسجد النبوي في جمع كبير من رجاله، فيهم بعض إخوته وبعض الشرفاء وحرسه، فلما وصلوا إلى المسجد النبوي وجدوا فيه بعض الزوار والمصلين، فأمر ابن زبير بإخراجهم وإغلاق أبواب المسجد كلها. وأغلقت أبواب المسجد وانتشر رجاله المسلحون في أرجائه ووقف بعضهم خارجه عند الخيل والركاب، وأمر بإحضار المسؤول الأول عن المسجد ((الخازندار إيدي الرومي)) فحضر إليه الخازندار، وجلس حسن يحدثه عن

---

١) رسائل من تاريخ المدينة ص ١٨٤.

الأزمة التي يمر فيها وحاجته الشديدة للمال، وطلب منه مفتاح غرفة الذخائر ليأخذ منه مايسد هذه الحاجة، وتعلل بنسبه إلى رسول الله ﷺ وبمنصبه. ولكن الخازندار اعتذر عن إعطائه المفتاح لأنه مؤتمن عليه ولايحق له أخذ شيء من أموال المسجد النبوي.. فاشتد عليه الأمير حسن فأصر على رفضه. وغضب الأمير وأمسك بالخازندار وسحبه إلى صحن المسجد. وقاومه الخازندار وعضه من يده فاشتد غضبه، وأمر رجاله بضربه فضربوه ضرباً شديداً وكادوا أن يقتلوه لولا أن تدخل أحد الشرفاء فأنقذه منهم، وفتشوه فلم يجدوا المفتاح معه، ورفض أن يدلهم عليه أو يحضره لهم. فأمر الأمير حسن بكسر أقفال غرفة الذخائر.. فاتجه بعض الرجال إلى الغرفة وبدءوا بتكسير الأقفال.

وخارج المسجد ارتاب بعض الناس من إغلاق الأبواب ووقوف ركائب الأمير وبعض حرسه عند باب الرحمة، فاتجهوا إلى باب النساء في الجهة المقابلة وتجمعوا عنده ليستطلعوا الأخبار عما يحدث داخل المسجد. وسمع الجنود داخل المسجد الضجة فأبلغوا حسن بن زبيري بتجمع الناس، وظن حسن أن هناك من يقاومه، فأمر بعض جنوده بالصعود إلى المئذنة الشرقية التي تشرف على باب النساء، ورمي المقاومين بالنشاب، فصعد أولئك ولم يجدوا شيئاً من المقاومة أو من المسلحين.

وفتح باب الحجرة النبوية، فدخل حسن بن زبيري ووجد في صندوق المال مبلغاً كبيراً ومجوهرات كثيرة، ووجد في الغرفة قناديل ذهبية، فأمر الجنود بتعبئة المال في أكياس صغيرة والقناديل في غرارات، فملأت القناديل عشر غرائر والدنانير والجواهر بضعة أكياس، ثم اتجه الجنود إلى خزائن المسؤولين عن الحرم فكسروا أقفالها وأخذوا ماوجدوه فيها من أموال ومقتنيات ثمينة. ثم فتحوا باب الرحمة وحملوا المنهوبات على الخيل، وتوترت أعصاب حسن بن زبيري وبعض رجاله وخافوا أن يكون أحد من خارج

المسجد قد درى بما يفعلون فيهاجمونهم فور خروجهم من المسجد النبوي، وكأنما شعروا بفظاعة جريمتهم، فشهروا سيوفهم، وطلب حسن بن زبيري أن يدخلوا حصانه، فأدخلوه إلى قرب الحجرة الشريفة المنهوبة. فركب وخرج به من المسجد، وحملت الخيول الأخرى أكياس المنهوبات.

لم يكن أحد خارج المسجد يدري ماذايحدث داخله، ولكن قافلة الجريمة كانت تنبئ عن الفعلة الشائنة. والغرار على الخيول بادية للعيون، والسيوف المشهورة تتحدث عن شر وبيل، وبهت كل من رأى هذا المنظر وأخذتهم الصدمة ولم يفعل أحد شيئاً..

وخرج بعض الخدم من المسجد يخبر بما كان، وأسرع بعضهم يسعف الخزندار المسكين. وتحولت أحاديث نهب المسجد إلى توقعات وتخمينات عما سيتبع ذلك. وساد الناس اعتقاد بأن الأمير لن يكتفي بما حصل عليه وأنه سيطلق رجاله في الدكاكين والبيوت يسرقون وينهبون. وتحولت الدهشة إلى فزع حقيقي، وتفرق الناس إلى بيوتهم يتحدثون عما جرى وعما يخشونه.

وحان وقت الظهر فلم يأت أحد إلى المسجد النبوي وعطلت صلاة الجماعة. وأحس رجال الأمير بالهلع الذي ركب الناس، ورأوا الدكاكين تغلق والشوارع تفرغ من المارة، فنقلوا ذلك إلى الأمير حسن. فأمر الأمير حسن بأن ينادى في السوق والشوارع بالأمان وأن يرجع الناس إلى بيعهم وشرائهم في حماية رجاله، ولكن الناس لم يطمئنوا، ولم تفتح الدكاكين وظلت الشوارع شبه خالية، وتحرك رجال حسن بن زبيري ثانية فجمعوا الصائغين من بيوتهم وأخذوهم مع معداتهم إلى حصن الأمير عند جبل سلع، حيث أمروهم أن يصهروا المقتنيات الذهبية من قناديل وغيرها ويسكبوها عملة ذهبية، وأبلغوهم أنهم سيظلون محتجزين بالحصن حتى يفرغوا من عملهم، وأغلقت أبواب سور المدينة.

ظل الفزع سائداً بين الناس، وزاد عندما انتشرت أخبار جمع الصائغين

وإقفال أبواب المدينة، واستطاع أحد الشرفاء، واسمه شهوان الحسيني، أن يتسلل خارج المدينة، ويقصد ينبع لإخبار أميرها وطلب النجدة منه، واستمر الأمر على هذا الحال بقية اليوم، وكان بعض فقهاء المدينة وأعيانها خارج السور عندما وقعت الحادثة، فلما رجعوا ورأوا الأبواب مغلقة تسلقوا السور ليلا ودخلوا المدينة، وأخفى الناس أموالهم وحليهم وممتلكاتهم الثمينة، واستغل الأمير حسن بن زبيري خوف الناس واختباءهم في بيوتهم، فوزع على رجاله ومن حضر معه بعض المال، وأرسل بعضه الآخر ليخبأ في بيوت بعض أصحابه ومعارفه أملا في أن يستفيد منه بعد حين، واستمر الحال على ماهو عليه في اليوم التالي، وتعطلت الأعمال طيلة يوم الأربعاء، فلم تفتح الدكاكين ولم يخرج العمال والمزارعون إلى أعمالهم ومزارعهم، واستاء الأمير لذلك، فأرسل رجاله إلى أعيان المدينة يحلفون على لسانه أنه لايريد بأهل المدينة شراً، وأنه قد أمَّـن الناس حقاً، وأنه اضطر إلى مافعله ليسد حاجته، ولكن رسله لم تغير من الأمر شيئاً، فالخوف يسيطر على الناس، ويزيده تصورهم لفظاعة انتهاك حرمة المسجد النبوي وسرقة الأموال المخصصة له.

وفي المساء سمع الناس ضجة من جهة حارة الحزام قرب باب البقيع، وفسر بعضهم الضجة بأن بعض الغزاة قد أغاروا على المدينة وسيدخلونها من باب البقيع، وتحول هذا التفسير إلى شائعة تنتشر بسرعة مذهلة، وارتجت البلد وخرج بعض الفقهاء والأعيان بعيالهم إلى المسجد، وتبعهم الناس حتى غص المسجد بالرجال والنساء والأولاد يحتمون به من الغارة المتوقعة وباتوا فيه تلك الليلة، ولم يحدث ماكانوا يخشون منه.

ومضى يوم الأربعاء، وانتهى الصاغة المحتجزون في الحصن من صياغة المنهوبات وسكها دنانير ذهبية، وعادت رسل الأمير إلى وجوه المدينة تؤكد لهم أنهم في أمان، وأرسل الأمير بعض رجاله إلى تجار كانوا قد وصلوا المدينة قبل الحادثة بقليل، واشتروا منهم ستة عشر حملا من القمح، ودفعوا

ثمنها، وانتشر الخبر بين الناس وكان الأمير يقصد انتشاره بينهم ليتأكدوا أنه لن يتعرض لهم بشيء، وعند الظهر فتح باب حصن الأمير، وخرجت منه قافلة تحمل الأمير وعائلته وشركاءه في السطو وعدداً آخر من رجاله، واخترقت شوارع المدينة إلى بابها، وفي الطريق توقف الأمير عند بيوت بعض الفقهاء والأعيان وأخبرهم بعزمه على ترك المدينة، وقال لهم: أي شيء ينقم علي أهل المدينة؟ هل تعرضت لأحد منهم بسوء أوهاجمت بيته أو غصبت ماله؟ وإنما أخذت -حين الغلبة- نذر جدي(١) وأمر بعض الفقهاء أن يقول: إن الأمير اضطر لأن يأخذ الأموال من المسجد النبوي، وإن الشريف محمد بركات أمير مكة والحجاز هو الذي ألجأه لذلك، إذ لم يترك له شيئاً من دخل الإمارة يغطي نفقاته، وشاطره في الميراث (٢) وخرجت القافلة من باب المدينة والناس يشيعونها بنظرات الخوف والغضب والازدراء.

إدارة ذاتية في المدينة:

اجتمع قضاة المدينة وكبار أعيانها في المسجد النبوي يتشاورون فيما يفعلونه فقد غدت المدينة بلا أمير ولا قوة مسلحة تحرسها، ولايخلو سورها من ثغرات صغيرة يستطيع المهاجمون أن يوسعوها وينفذوا منها، ولم يكن لديهم قوة يعتمدون عليها، فاستقر رأيهم على أن يقوم أهل المدينة أنفسهم بحراستها، وأن ينتدب بعض الشجعان لحراسة السور في مناطق ضعفه، وأن تسمر الأبواب، فندبوا الشريف سرداح الحميضي لحراسة السور مع مجموعة من الرجال الأشداء، وسار المنادي في الشوارع ينبه الناس أن يحترسوا ويتحفظوا، وأن يقوم سكان كل حي بحراسة حيهم والتناوب على السهر فيه ليلاً، كيلا تأخذهم مفاجأة غادرة، ومع هبوط الليل كان في كل حي عدد من الرجال يتناوبون الحراسة، وكان الشريف سرداح وجماعته يطوفون بالسور،

---

١) السابق ص ١٨٥.

٢) انظر السابق.

وكل يتوجس من أية حركة، ولم تر ليلة أوحش من تلك الليلة لولا أنس النبوة(١).

وفي صباح الجمعة كان الناس يتحدثون عن تلك الليلة المتعبة، وأقيمت صلاة الجمعة في المسجد النبوي وقطع الخطيب اسم الأمير حسن بن زبيري من الخطبة ودعا عليه أن ينتقم الله منه.

النجدة الأولى:

وعند المساء وصل إلى باب المدينة أحد الشرفاء المقيمين في ضواحيها وهو الشريف ضيغم بن خشرم، أمير المدينة السابق، ورجاله، ولم يدخل المدينة، فخرج إليه بعض أعيانها وحدثوه بما فعله حسن بن زبيري ابن عمه فاستفظع ذلك وأخذ يبرأ إلى الله من فعله، ورأى مابهم من خوف، فعرض عليهم أن يتولى حماية المدينة فشكروه على ذلك وجمعوا له مبلغاً من المال(٢) اطمأن الناس شيئاً ما إلى حماية الشريف ضيغم، وكان الشريف ضيغم يأمل أن يكافئه أمير مكة الشريف محمد بركات أو السلطان في مصر على هذه الحماية فيعينه أميراً على المدينة، واجتهد في حمايتها وتوفير الأمن فيها ليلا ونهاراً ووزع رجاله في شوارعها وأسواقها، وبدأ الناس يعودون إلى أعمالهم بحذر شديد، وبعد مرور أسبوع كامل على الحادثة اطمأن الناس إلى أن حسن بن زبيري لن يعود إلى المدينة، فدعا القاضي فقهاء المذاهب الأربعة وكبار الأعيان وكتب الجميع محضراً بما حدث وأرسلوه إلى السلطان في القاهرة.

نجدة من ينبع:

وفي صباح اليوم التالي الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول ٩٠١هـ، وصل أمير ينبع دراج استجابة لاستغاثة الشريف شهوان الحسيني،

---

١) السابق ص ١٨٥.

٢) السابق ص ٤٠.

ومعه خمسة وأربعون فارساً وأكثر من ثلاثمئة راجل، فاستقبلهم أهل المدينة بفرح شديد، وأنزلوهم في أكبر دار في المدينة -دار منصور- وضيفوهم، وانتشر رجال دراج في أنحاء المدينة وحول سورها، وشعر أهل المدينة بالأمان، وفي اليوم التالي وصلت مجموعة أخرى من رجال الأمير دراج، ونادى مناديه بالأمان، فسر الناس بذلك.

مكث الأمير دراج في المدينة يومين والتقى خلالهما بوجهائها، وناقش معهم من يتولى الإمارة، واتفق الجميع على أن تبقى المدينة تابعة لإمارة مكة وأن يقوم الشريف محمد بن بركات بتعيين أحد أولاده أو من يراه نائباً له فيها، وكتبوا محضراً بذلك وأرسلوا نسخة منه للسلطان، وحمل الأمير دراج نسخة أخرى إلى الشريف محمد بن بركات في مكة، وبعد أسبوعين تقريباً وصلت مجموعة أخرى من القوة المسلحة أرسلها الشريف محمد بن بركات لتعزيز أمن المدينة، وانتهت مهمة الشريف ضيغم بن خشرم في حراسة المدينة وتولى الإدارة قائد القوة المسلحة.

أمير جديد:

استمر الأمر على هذه الحال إلى منتصف جمادى الأولى حيث وصل مرسوم من السلطان في مصر يلبي طلب أهل المدينة في المحضر الذي أرسلوه، ويثبت الشريف محمد بركات مسؤولا عن إمارة المدينة ويعهد إليه باختيار من ينوب عنه في إدارة شؤونها، ويكلفه بتعقب حسن بن زبيري ولو كان في رؤوس الجبال لمعاقبته على ماارتكبه، فسارع الشريف محمد بن بركات لتعيين ابن خاله وزوج أخته الشريف فارس بن شامان الحسيني نائباً

عنه في المدينة المنورة(١) وكان الشريف فارس عاقلا حازماً، فتوجه إلى المدينة ووصلها في السادس عشر من شهر رجب في مجموعة كبيرة من الجنود، وتلقاه أعيان المدينة وقضاتها على مداخل البلدة، وسألوه أن ينتقم من حسن زبيري وأعوانه، وأن يتتبع المنهوبات التي أودعت في بعض البيوت، فاهتم الشريف فارس بذلك اهتماماً كبيراً وطلب منهم أسماء من يظنون وجود المنهوبات عندهم.

تتبع الجناة:

وفي اليوم التالي طاف رجال الأمير على بيوت من حام الشك حولهم، فقبضوا عليهم، وضربوهم ضرباً شديداً فأقروا بما لديهم، ودلوا على منهوبات أخرى مودعة عند أشخاص آخرين، وبدأت المنهوبات المودعة تظهر تباعاً، وكان بعضها مما ضرب دنانير وبعضها مما بقي على حاله، وقد أبلغ الخزندار الشريف فارس أن بعض الصاغة استطاعوا أن يهربوا شيئاً من المنهوبات، وكانوا قد ضربوا بعضها قطعاً صغيرة، فأخذت منهم وفرضت عليهم غرامات أخرى تؤخذ من ممتلكاتهم، وقرر الشريف فارس أن يخرج كل من يثبت تواطؤه في هذه الجريمة البشعة من المدينة، فأخرج الصاغة والمتسترون مع ذراريهم ومنعوا من أخذ شيء معهم إلا الزاد، وساروا في موكب ذليل، وصودرت جميع ممتلكاتهم ومنعوا من الذهاب إلى مكة أو ينبع، وفرض عليهم السير شرقاً باتجاه نجد، وقاسوا من الإهانة والمرارة شيئاً كثيراً، فرقت لهم قلوب بعض أهل المدينة، وتشفعوا فيهم لدى الشريف فارس ورجوه السماح لهم بالعودة إلى المدينة ورد ممتلكاتهم والاكتفاء بما لقوه من إهانة، فقبل الشريف شفاعتهم وسمح لهم بالعودة إلى المدينة، وقد بلغ مجموع مااسترد من المنهوبات أكثر من عشرة آلاف دينار فضلا عن القناديل التي لم تصهر، ولكن لم تسترد جميع المنهوبات فقد فرَّ حسن بن زبيري بما

---

١) سمط النجوم ٤/٢٨٢.

حمله، وربما دفن بعضه في الرمال، وظل حسن بن زبيري طريداً لايجرؤ على الاقتراب من المدينة مدة طويلة، وتخلى عنه جميع أصحابه، ولم يؤوه إلا عربان آل نعير.

وطوت المدينة صفحة قاتمة في تاريخها، وبدأت صفحة مشرقة في ظل إدارة الشريف فارس بن شامان نائب الشريف محمد بن بركات، الذي يعد الأمير الرسمي للمدينة (١).

المدينة تسترد استقلالها:

استتب الأمن في ظل الشريف فارس بن شامان، وعادت الحياة في المدينة المنورة إلى مجراها الطبيعي، وسدت الثغرات التي حدثت في السور وأصلحت التصدعات التي ظهرت في بعض نواحيه، ولكن الشريف فارس لم يطل المكث في المدينة إذ استدعي إلى مكة بعد موت الشريف محمد بن بركات عام ٩٠٣هـ، ونشب الصراع العنيف بين أبنائه، وبخاصة ابنه بركات الذي تولى الإمارة بعد أبيه وأخيه هزاع(٢) وشغل أمراء مكة عن أمر المدينة فعاد إليها أمراؤها من أشراف المدينة وعاد لها استقلالها طوال مدة النزاع، وقد تولاها مانع بن زبيري شقيق الأمير الأسبق حسن الذي سمح لشقيقه بالعودة إلى المدينة ليعيش أيامه الأخيرة والقليلة ويموت فيها(٣)، واستطاع مانع أن يتجاوز حادثة أخيه حسن وأن يدير شؤون المدينة المنورة مدة طويلة بسبب النزاع الكبير بين أشراف مكة على إمارتها، وقد شغلهم هذا النزاع عن التدخل في تعيين أمير المدينة أو التدخل في شؤونها، رغم أن هذا الأمر مسند إليهم منذ أيام الأشرف قايتباي، وقد استمر مانع بن زبيري في إمارة المدينة وخلفه

---

١) انظر تفصيلات حادثة حسن بن زبيري في: رسائل في تاريخ المدينة المنورة ١٨٣-١٨٧، ووفاء الوفاء ٥٩٠/٢، والتحفة اللطيفة ٤٧٩/١، ٣٩٢/١.

٢) انظر في هذا النزاع تاريخ مكة للسباعي ٣٠٩.

٣) التحفة اللطيفة ٤٧٩/١.

من بعده أبناؤه، قايتباي، ثم سليمان، ثم إيسان، حتى عام ٩١٨هـ، حيث استتب الأمر في مكة المكرمة للشريف بركات بن محمد بن بركات.

المدينة تعود لإمارة مكة:

في بداية عام ٩١٩هـ، أرسل السلطان المملوكي قانصوه الغوري إلى الشريف بركات مرسوماً يعهد به إليه النظر في تعيين أمير المدينة المنورة، على أن يستشير شيخ الحرم النبوي وقضاة المدينة، غير أن رأي الشريف بركات هو المعول عليه(١) وكان هذا المرسوم بمثابة نهاية حاسمة للنفوذ الحقيقي لأمراء المدينة، حيث تحولت سلطتهم بعد ذلك إلى سلطة اسمية وعاد أمر تعيينهم وعزلهم إلى أمير مكة، الذي أصبح الحاكم الحقيقي لمنطقة الحجاز كلها، لذلك نجد الأمير بركات يتصرف باسم الحجاز كلها، ويراسل السلطان سليم الأول العثماني بهذه الصفة، وينقل ولاء المدينة -مع ولاء بقية الحجاز- إلى السلطة العثمانية في عام ٩٢٣هـ، ولا نجد أي ذكر لأمير المدينة أو وجوهها.

نهاية النفوذ المملوكي في المدينة:

وفي عام ٩٢٣هـ، وصلت إلى الحجاز أنباء انتصارات سليم الأول العثماني في مصر، وتغلبه على سلطان المماليك الشراكسة قانصوه الغوري، وإلحاقه مصر بالتبعية العثمانية، وقد وجد السلطان العثماني في سجن الغوري بمصر بعض أشراف الحجاز، فأطلق سراحهم، وعلم هؤلاء برغبة السلطان العثماني في السيطرة على الحجاز، وأنه يعد جيشه لذلك، فكتبوا إلى الشريف بركات ينصحونه أن يرسل وفداً إلى السلطان العثماني ويقيم معه علاقات حسنة، كيلا يقتحم الحجاز وينهي إمارة الشرفاء، فأخذ الشريف بركات بالنصيحة، وأرسل ابنه أبا نمي مع عدد من وجوه مكة إلى مصر،

---

١) انظر كتاب الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، د. ريتشارد مورتيل. ط جامعة الملك سعود ١٤٠٥ ص ١٧٢.

فوصل الوفد إلى القاهرة في منتصف جمادى الآخرة عام ٩٢٣هـ، واستقبله السلطان سليم بحفاوة كبيرة، وقدم أبو نمي الطاعة للسلطان سليم وأعلن دخول الحجاز كله تحت سلطة العثمانيين، وسلمه مفتاح أحد أبواب مكة(١)، فكان هذا نهاية للنفوذ المملوكي في المدينة المنورة، وبداية لسيطرة العثمانيين عليها، وعلى بقية الحجاز، وبداية عهد امتد أكثر من أربعة قرون متوالية، وشهد أحداثاً كثيرة سنقف عليها في الصفحات القادمة.

---

١) نظر بدائع الزهور ١٩٠/٥.

المدينة المنورة في العهد العثماني

كان العثمانيون -كغيرهم من المسلمين- ينظرون إلى الحرمين الشريفين نظرة إكبار وتمجيد، وكان سلاطينهم قبل السلطان سليم مشغولين بالحروب في أوربا، ولم يفكروا في الانسياح جنوباً. وكانوا يرسلون الأموال والصدقات لتوزع على فقراء الحرمين، وقد أوقف السلطان محمد الأول جزءاً من أمواله على فقراء الحرمين، ورتب ابنه بعده مبلغ ٣٥٠٠ دينار لتوزع في المدينة ومكة، وأرسل السلطان محمد الثاني (فاتح القسطنطينية) هدايا كثيرة، وكان السلطان بيازيد والد السلطان سليم الأول يحب أهل الحرمين ويحسن إليهم إحساناً كثيراً، وكان يجهز لفقراء الحرمين في كل سنة أربعة عشر ألف دينار ذهباً يصرف نصفها على فقراء مكة ونصفها على فقراء المدينة، وكان يكرم الوافدين إليه من أهل الحرمين إكراماً بالغاً(١) وعندما وجه البرتغاليون نشاطهم البحري إلى الشواطيء العربية في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر وهاجموا ميناء جدة(٢) تنبه العثمانيون لضرورة مد نفوذهم إلى الشام ومصر والحجاز وحمايتها، وشجعهم على ذلك تفكيرهم بتوحيد البلاد الإسلامية تحت سلطان واحد، وضعف دولة المماليك حتى إن بعض المماليك كتب للسلطان سليم الأول يغريه بفتح بلاد العرب(٣) وقد حاول السلطان سليم أن يضم دولة المماليك إلى السلطنة العثمانية سلماً فكتب بذلك للسلطان قانصوه الغوري، ولكن الغوري رفض الاذعان، فحاربه السلطان سليم وانتصر عليه في مرج دابق، ثم زحف إلى مصر فاحتلها عام ٩٢٣هـ وألحقها بالسلطنة العثمانية. وكان يعتزم متابعة زحفه إلى الحجاز وضمها إلى سلطنته لمكانة الحجاز في نفوس المسلمين، فلما جاءه وفد الحجاز وقدم له الطاعة

---

١) الكواكب السائرة ١/١٢٢.

٢) تاريخ مكة ٣١٦.

٣) الوثائق العثمانية دارة الملك عبد العزيز برقم ٥/٥٠٥ تاريخ الوثيقة ١٧ ذي الحجة ٩٠٨هـ.

والولاء فرح فرحاً شديداً، وبالغ في إكرام الوفد، وقبل منه الولاء.

وبدخول الحجاز تحت سلطة العثمانيين بدأت مرحلة جديدة في حياة المدينة المنورة، مرحلة ستؤثر في حياتها الاجتماعية والسكانية والثقافية أكثر بكثير مما تؤثر في حياتها السياسية. ذلك أن الوضع السياسي الذي كانت عليه عند دخولها في حيز العثمانيين قد أثر عليها وحدَّ من نشاطها معظم العهد العثماني، فقد عرف العثمانيون المدينة المنورة منطقة تابعة لإمارة مكة، وعندما أعلن أبو نمي بن بركات الولاء للعثمانيين أعلنه عن منطقة الحجاز كلها، وسلم السلطان العثماني مفتاحاً اعتبر مفتاح الحرمين الشريفين، ولقب السلطان آنئذ ((خاقان البر والبحر وخادم الحرمين الشريفين)).

وقد أصدر السلطان سليم مرسوماً بتثبيت الشريف بركات أميراً على مكة وما تبعها، أي ماكان تحت سلطانه الفعلي آنئذ، فأصبحت ولايته على المدينة المنورة جزءاً من إمارته، بحكم مرسوم السلطان. واستمرت المدينة مجردة من استقلالها السياسي، تابعة لإمارة مكة، وظلت حالة أمرائها على ما كانت عليه من الضعف والعجز عن التصرف، بل وشحِّ الموارد الإقتصادية على النحو الذي ذكره حسن بن زبيري من قبل(١) وأصبح ترتيب أمير المدينة في خطبة المسجد النبوي في المرتبة الثالثة، حيث يسبقه ذكر السلطان العثماني -خادم الحرمين الشريفين- ثم أمير مكة، ثم أمير المدينة.

ومما يزيد من ضعف أمير المدينة أن أمير مكة كان يرسل أحياناً بعض أقاربه ليكونوا نوابه في المدينة، وتكون لهم سلطة فعلية في تصريف الأمور رغم وجود الأمير الحسيني العاجز عن فعل شيء، بل إن هذا الأمير معرض للعزل وتعيين شخص آخر من الأسرة الحسينية محله بسهولة. فقد عزل أمير

---

١) انظر الصفحات السابقة ومبحث إمارة حسن بن زبيري.

المدينة مانع بن زبيري لأن والده سطا على تركة أحد خدام الحرم النبوي(١).

وتغيب أخبار أمراء المدينة عن كتب التاريخ، بل وعن كتب التراجم والأعلام لقلة شأنهم وبعدهم عن الأحداث المهمة حتى لانستطيع أن نعرف أسماءهم. وقد أورد المؤرخ التركي أيوب صبري باشا سلسلة من الأسماء يتناقض بعضها مع ما ورد ذكره في كتابات الذين أرخوا للقرن التاسع، ويذكر مجموعة من الأسماء في الفترة الممتدة من ٨٣٩هـ إلى ١٠٩٩هـ. ودون أن يحدد تاريخ إمارة كل منهم. ونعتقد أن مانقلناه عن السخاوي أصح وأدق، ويذهب بعض مؤرخي المدينة إلى أن إمارة الحسينيين قد انتهت بنهاية القرن الحادي عشر حيث ضمت إدارة المدينة بعد وفاة أميرها الأخير حسن بن زبيري إلى مكة وانتهت الإمارة الاسمية للحسينيين. ويذكر العياشي الذي زار المدينة عام ١٠٧٣هـ أن أميرها آنئذ اسمه حسين بن حماد، وأنه أمير صوري ليس له من الإمارة شيء، وأن السلطة موزعة بشكل لم يستطع التعرف عليه أو فهمه بين نائب أمير مكة وصهره وقائد الحملة العسكرية التركية في القلعة وشيخ الحرم(٢).

الآثار الأولى للنفوذ العثماني:

استفادت المدينة المنورة من دخولها في التبعية العثمانية فوائد سريعة. إذ وصلها في السنة التالية (٩٢٤هـ) ألفا إردب من القمح من أصل سبعة آلاف إردب أرسلها السلطان سليم إلى الشريف بركات، وكانت هذه أكبر جراية تصلها في ذلك العهد(٣).

وما لبث عدد الحجاج الزائرين أن ارتفع، وتقاطر رعايا الدولة العثمانية من آسيا الوسطى وبعض الولايات العثمانية في أوربا إلى المدينة ومكة،

---

١) التحفة ٣٥١/١.

٢) انظر الرحلة العياشية ٣٠٩/١ ومقتطفات منها أصدرها حمد الجاسر ص ١٨١.

٣) انظر تاريخ مكة ٤٦١.

وكانوا يأتون مع الركب الشامي. وقد أمر السلطان سليم بإنشاء محمل رومي، وهو بمثابة بعثة حج سنوية تخرج من العاصمة العثمانية، يحمل كسوة للكعبة وأخرى للحجرة النبوية، إضافة إلى ما يأتي به المحمل المصري، وكانت ترد معه أموال كثيرة لتوزع في الحرمين الشريفين وهدايا ثمينة للمسجد النبوي والمسجد الحرام(١). وقد تعرض المحمل لما يتعرض له الحجاج من بعض الأعراب رغم الحماية التي ترافقه.

بناء سور جديد:

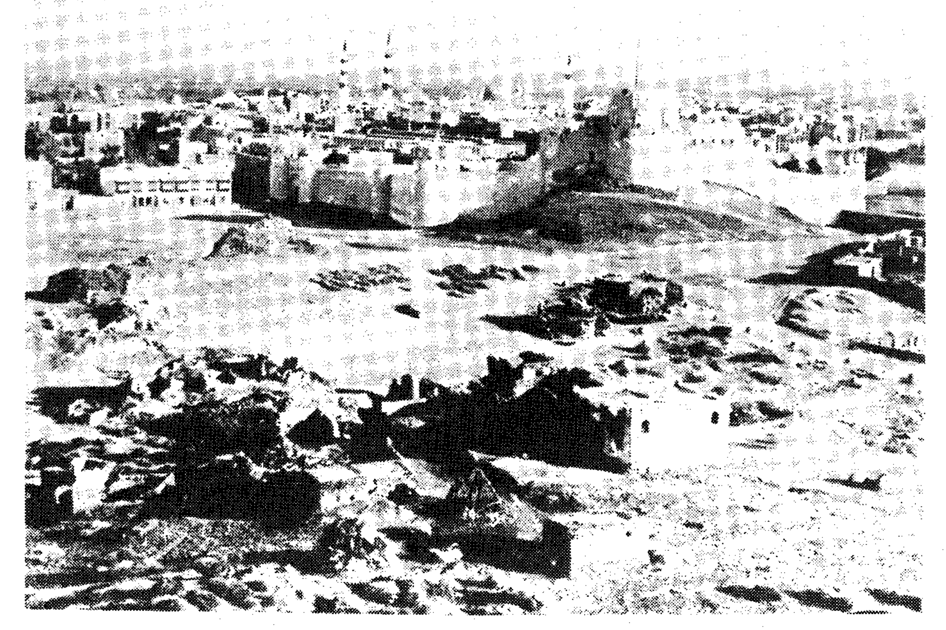
عندما تولى السلطان سليمان القانوني الخلافة شكا إليه بعض أهل المدينة ما يجدونه من العربان المفسدين في أطراف المدينة وبخاصة عربان عنزة وظفير، وقد بلغ بهؤلاء الجرأة أن هاجموا المدينة عدة مرات، ونهبوا من أطرافها ما وصلوا إليه ولم يستطع سورها القديم الذي أحدثوا فيه ثغرات عدة، أن يصد هجومهم، فأمر السلطان سليمان بإنشاء سور حجري عال وقوي يحيط بالمدينة من جميع جهاتها، ويمنع أهل الفساد والأذى من دخولها، وكلف نائبه في مصر، وكان اسمه سليمان باشا بالإنفاق عليه من خزانة القاهرة(٢) فكلف سليمان باشا كاتب جدة محمود جلبي بالإشراف على العمارة وعين شيخ الحرم السيد أحمد الرفاعي ناظراً على العمارة.

وفي ذي القعدة عام ٩٣٨هـ وصل مع الركب المصري أكثر من مائة جمل تحمل الغلال والأرزاق المخصصة لعمال السور، ثم توالت قوافل معدات البناء، ووصل في محرم من أول العام التالي ٩٣٩هـ البناؤون والحجارون والنجارون وغيرهم، وكانوا يزيدون على ثلاثمائة نفر، كما وصلت مجموعة عسكرية قوامها خمسون نفراً من الفرسان والرماة، وهذه أول حامية عسكرية عثمانية تصل إلى المدينة، وقد كانت هذه الحامية نواة للقوة العسكرية الثابتة التي

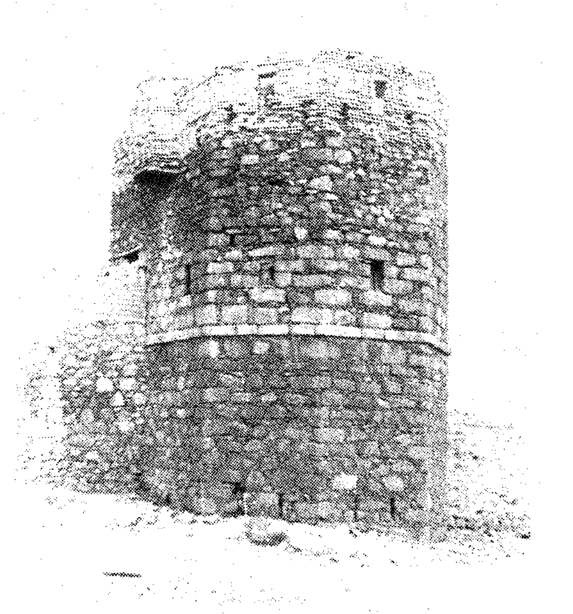
---

١) انظر تاريخ مكة ٣٤٥.

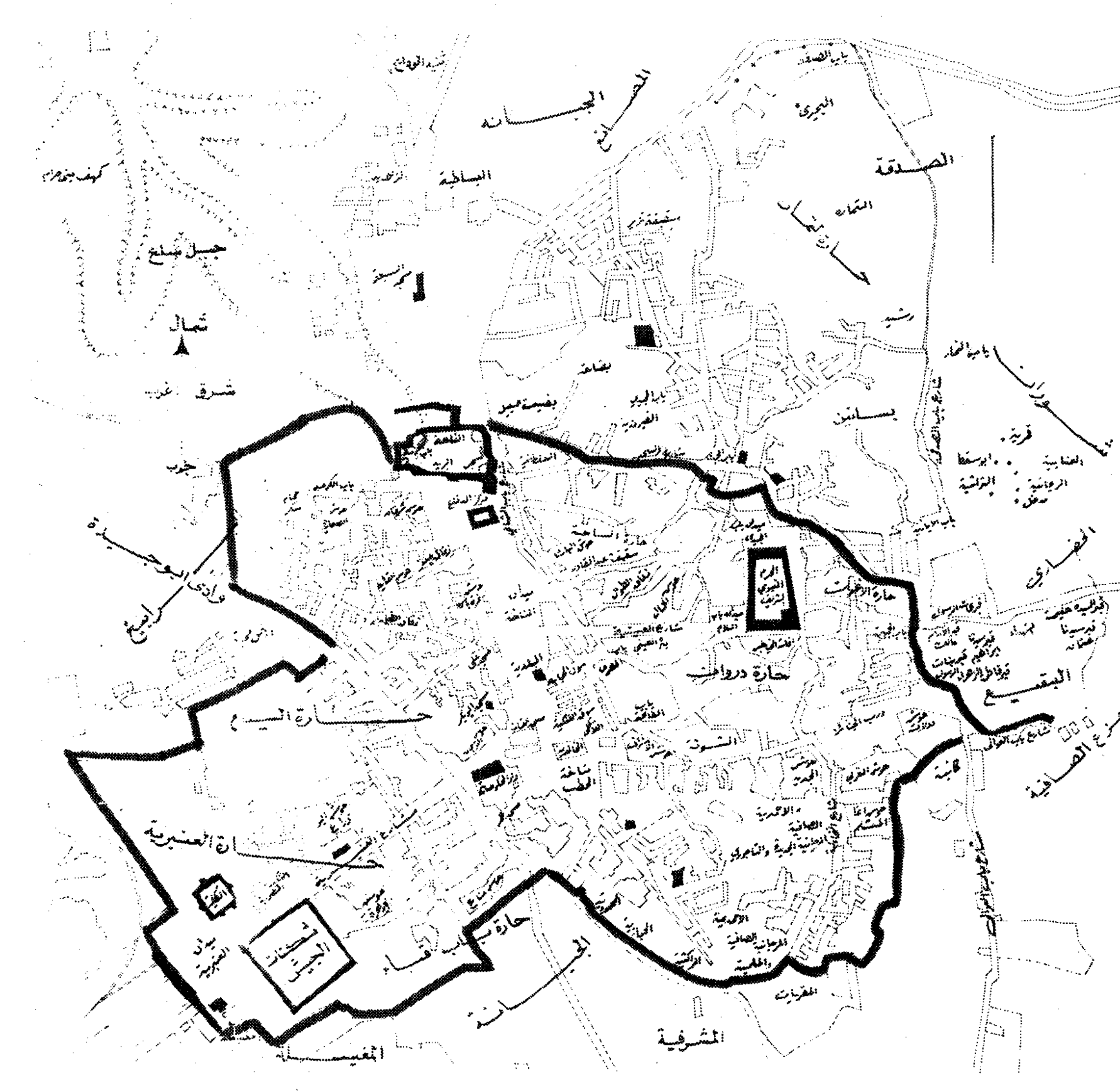
٢) درر الفوائد المنظمة ص ٦٤٠_٦٤١.



١ ـ مبنى القلعة من خارج السور ومتصلاً به.



٢ ـ برج من أبراج السور للمراقبة والمدافع.



بناء السور والقلعة في مطلع العهد العثماني

سترابط في قلعة المدينة فيما بعد. وبدأ العمل بإزالة السور القديم جزءاً فجزءاً، وكانت خطة مهندس البناء أن يزيل الأجزاء المضعضعة فيها نهائياً ويبني جداراً حجرياً على الأساس القديم، باستثناء الأجزاء التي بنيت أخيراً في عهد السلطان المملوكي قايتباي، لأنها مبنية إلى نصفها بالحجارة، وبقيتها باللبن الترابي، فاكتفى المهندس بإزالة القسم المبني باللبن الترابي، وأبقى القسم المبني بالحجارة وأكمله بالحجارة المنحوتة القاسية.

استغرق العمل في البناء سبع سنوات ونصف، توقف خلالها بضعة أشهر لوفاة ناظر العمارة واستبداله بناظر آخر، ولوفاة المهندس وتعيين مهندس جديد، وانتهى العمل في منتصف شعبان سنة ست وأربعين وتسعمائة، وبدا السور حصيناً مرتفع الجدران، وله أبواب كبيرة محكمة، وأبراج يتحصن فيها المدافعون وجهزت الأبراج بالمدافع الحديثة آنئذ، وبنيت قلعة عند الباب الشامي متممة للسور من جهته الغربية الشمالية، وتقع على تلة مرتفعة، شيدت فيها أبراج للمراقبة وبني بداخلها مساكن للجند وبيت لقائد الحامية، وجعل لها باب إلى داخل المدينة وآخر إلى خارجها(١) ووصل من تركيا تسعون جندياً من جنود الإنكشارية الأشداء ليكونوا مع أسلافهم الحامية العسكرية للمدينة المنورة، وعينت الدولة ضابطاً كبيراً في منصب قائد القلعة، وأصبح هذا المنصب أحد المناصب الرئيسية في المدينة وأصبح من يفوز به واحداً من شخصيات المدينة والمتنفذين في أمورها فيما بعد.

والجدير بالذكر أن عملية بناء السور قد تمت بتوجيهات مباشرة من والي مصر سليمان باشا، ودون أن يكون لأمير المدينة الحسيني شأن أو تدخل أو إشراف، الأمر الذي يؤكد انحسار نفوذه إلى درجة كبيرة جداً. فليس في المصادر التي تحدثت عن بناء هذا السور أية إشارة إلى الأمير.

---

١) انظر المصور المرافق للقلعة.

ضعف سلطة الحسينيين:

ضعفت سلطة الأمير الحسيني في المدينة، وأُبعد عن تصريف شؤون الإمارة وتحولت السلطة إلى مراكز القوى الجديدة. وكانت متوزعة بين شيخ الحرم ورئيس الحامية العسكرية والقضاة، وهناك أخبار كثيرة تظهر ضعفه، منها: أن أحد الوزراء العثمانيين الأثرياء زار المدينة عام ٩٥٠هـ ورأى أحد الأحياء المحيطة بالحرم غير معبد يضايق المارة، فلما عاد إلى القسطنطينية أرسل أموالاً وافرة لإزالة الحجارة من هذا الزقاق وتعبيده، ووجهها إلى ناظر الحرم (ستدام) وكان يلقب بالأمير أيضاً(١) فقام ستدام بالمهمة خير قيام. والأصل أن هذه الأمور من صلاحيات أمير المدينة أو موظفيه، وعلى أقل تقدير ينبغي أن يحاط الأمير علماً بمثل هذا العمل، ولكن المصادر التاريخية تغفل ذكر أمير المدينة ورجاله، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أنه لم تخرج من يده القضايا السياسية وحسب، بل خرجت القضايا الإدارية أيضاً، وغدا منصبه شرفياً ينال لقاءه بعض المال ويكون واسطة بين الإمارة والقبائل المنتشرة في أطراف المدينة والمتسلطة على طريق الحجاج إلى مكة، فيوزع عليها عطاءات الدولة، ويتفق معها على تأمين قوافل الحجاج. وقد تحولت هذه العطايا إلى إتاوات تدفعها الدولة أو الإمارة مرغمة تحت طائلة التهديد، وإذا امتنعت أو تأخرت عن الدفع تعرض الحجيج للقتل والنهب والسلب. ومن مظاهر ضعف أمير المدينة أنه لم يعد يملك قوة يستطيع بها خفر القوافل أو تأديب قطاع الطرق والمفسدين، وقد كثروا على الطريق وتزاحموا وشاطرهم في ذلك بعض الحسينيين الذين تركوا المدينة وبنوا حصوناً وهجرات بين المدينة وينبع واستوطنوا فيها. ويذكر العصامي أنه في سنة ٩٦٢هـ امتنع أمير المدينة عن دفع المبالغ المخصصة للعربان والحسينيين المقيمين على طريق الحج، فتحالف أبناء عمه الحسينيون الذين منع عنهم الأعطيات مع العربان، وجهزوا

---

١) انظر درر الفوائد ٦٩٦.

حملة شارك فيها آل نعير برئاسة منصور بن محمد، وآل الجماز برئاسة أحد مقدميهم، وطوائف من قبائل أخرى مختلفة برئاسة الشيخ أبي ذراع، وكمنوا لموكب الحج المدني عند منطقة الفريش (على بعد ٦٠ كم من المدينة) وكان في الموكب قاضي المدينة المنورة وشيخ الحرم المدني والأمير محمد بن حسن وعدد كبير من الهاشميين وأعيان المدينة الآخرين، ولما وصل الركب المنطقة هاجمه المتحالفون، وحاول حراس الموكب ورجاله المقاومة، فقتل المهاجمون أعداداً منهم وأسروا عدداً آخر وبدؤوا ينهبون الركب، ولم يتوقف القتل والنهب إلا بعد أن تعهد شيخ الحرم وقاضي المدينة بدفع المبالغ المقررة للمتحالفين، وأكمل الركب مسيره إلى مكة بعد أن خسر عدداً من رجاله وممتلكاته. ولم يجرؤ الركب على العودة إلى المدينة إلا بعد أن جهز أمير مكة حسن بن محمد بن أبي نمي سرية من شجعان الفرسان والمقاتلين لترافقهم، واستطاع بذلك الركب العودة إلى المدينة سالماً. وقد نفذ قاضي المدينة وشيخ الحرم تعهدهما فأقنعا الأمير بإرسال الأموال والقمح والثياب إلى المتحالفين(١) وكانت هذه الحادثة آخر محاولة يذكرها المؤرخون لأمراء المدينة لاستعادة سلطانهم ونفوذهم.

وكان من سوء حظ الأمير أن يلجأ إلى الطريق الخطأ، فبدلاً من أن يتألف قلوب جماعته وأقاربه عادى كل من حوله، ولم تكن له قوة قادرة على مواجهة قسم من هؤلاء الخصوم، ويبدو أن الدافع الرئيسي لتصرفه كان البخل والطمع في المال، ولو كان له من السياسة أو الأهداف البعيدة شيء أو كانت لديه حنكة سياسية لما فعل ذلك.

وقد أفل نجم الأمراء الحسينيين بعد ذلك تماماً. وغابت أسماؤهم عن كتب التاريخ، وابتعدوا عن الأحداث، وتحولت إمارتهم إلى منصب شرفي أخذ يفقد قيمته الاسمية شيئاً فشيئاً، مقابل ازدياد نفوذين مختلفين: نفوذ أمير

---

١) المدينة المنورة عبر التاريخ للبرداعي ١٢٦.

مكة، وهو أمير الحجاز كله، والنفوذ التركي الجديد.

آخر الأمراء الحسينيين:

ويذكر صاحب مرآة الحجاز قائمة بأسماء عدد من الأمراء توالوا على الإمارة حتى عام ١١٠٠هـ. وهم من أبناء الأمير مانع وأحفاده، ولكن هذه القائمة مضطربة لايمكن الاعتماد عليها على الإطلاق فقد ورد فيها أسماء أمراء تذكر كتب التاريخ أنهم وجدوا قبل ذلك بكثير. ويبدو أن تشابه أسماء الأمراء الحسينيين هو الذي أدخل اللبس على المؤلف، فسمط النجوم يذكر اسم الأمير مانع ولا يحدد بقية اسمه، ويلتبس الأمر على المؤلف فيجعله مانع بن علي بن عطية، والمؤكد أن مانعاً هذا هو غير مانع بن عطية الذي ولي الإمارة قبل ذلك.

ويذكر أيوب صبري أن مانع بن علي بن عطية تولى الإمارة قبل ٨٣٩هـ. ثم يذكر بعده أربعة أبناء له تولوا الإمارة على التوالي وهم: وثبان ثم قايتباي ثم سليمان ثم إميان. وتنقطع سلسلة أبناء مانع بعد إميان بسليمان بن غُرَيِّر بن هيازع، ثم تعود بعد وفاته إلى السلسلة السابقه فيتولى زهير بن إميان الإمارة وهو حفيد مانع، ويذكر أيوب صبري أنه عزل وتولى بعده أخوه ضغيم بن زهير، ثم قسيطل بن زهير، ثم زهير بن قسيطل بن زهير، ويذكر أن زهيراً هذا توفي عام ١٠٩٩هـ. فتولى ابنه حسن وهو آخر الأمراء الحسينيين نهائياً(١).

وهذه السلسلة تستغرق ٢٤١ سنة من تاريخ المدينة، وتضم عشرة أمراء منهم أربعة إخوة في الجيل الأول الذي تلا مانع بن عطية، والثلاثة في الجيل الثاني زهير وضيغم وقسيطل من أحفاد مانع، وقد امتدت إمارة هذه الأجيال المتوالية من ٨٣٩-١٠٩٩ أي ٢٧٠ سنة.

ونقل البرادعي عن أيوب صبري وأضاف بعد حسن بن زهير اسم الأمير

---

١) مرآة الحجاز ١٢٢.

فارس بن شامان ثم ابنه بازين فارس، وهذا وهم من البرادعي لأن الثابت في المصادر التاريخية أن فارس بن شامان تولى أمر المدينة عام ٩٠١هـ بعد حادثة حسن بن زبيري(١) وقد ورد في إفادة الأنام عن إمارة زيد بن محسن للحجاز في الفترة ما بين ١٠٤١هـ و١٠٧٧هـ ما نصه: ((ولاية الحجاز اليوم بأطرافه كلها للأمير زيد بن محسن ولأسلافه، وليس لبني الحسين في ولاية المدينة في هذا الزمان إلا الإسم فقط وبعض تصرف من، تحت يد الأمير زيد))(٢).

وهناك أحداث كثيرة شهدتها المدينة عام ١٠٨٢هـ ستمر بنا بعد قليل لم يكن فيها وجود لأمير المدينة على الإطلاق، رغم أنها تتعلق بالصراع على إمارة الحجاز بما فيه المدينة. ونعتقد أن الحسينيين الذين ورثوا الإمارة الاسمية قد تركوا المدينة إلى ريفها وأقاموا في القرى والمزارع لعدم جدوى إقامتهم في المدينة سياسياً واقتصادياً.

وقد شهد العياشي في القرن الحادي عشر هذا التغيير ووصفه بقوله ((والآن صار الأمر لبني حسن -أمراء مكة- فجمعوا الولايتين، ولم يبق لبني حسين إلا رسوم قليلة من ولاية المدينة، وصاروا كلهم إلا القليل بادية يرحلون وينزلون بنواحي المدينة))(٣) وذكر أن الدعاء يوم الجمعة على منبر المسجد النبوي يكون للسلطان العثماني ثم لشريف مكة ثم لأمير المدينة، وأنه ليس له من إمرتها إلا الإسم ولأنه من تحت أمير مكة والتصرف لنوابه وأقاربه(٤).

---

١) وفاء الوفاء ١٠٥٩/٢ والتحفة اللطيفة ٣٨٢/١-٤٧٩ ورسائل من تاريخ المدينة ص ١٨٦.

٢) إفادة الأنام بأخبار البلد الحرام. مخطوط مصور في مكتبة السيد حبيب الخاصة بالمدينة ٣١٦/٦.

٣) ماء الموائد ٣١٠/١.

تحولات في المدينة المنورة:

نعود إلى التحول الكبير الذي طرأ على المدينة المنورة منذ أواخر القرن العاشر. فقد استقبلت المدينة أعداداً متوالية من المجاورين الذين تحولوا إلى مقيمين دائمين، وكان معظمهم من أطراف الدولة العثمانية في آسيا الوسطى، وحمل هؤلاء الوافدون كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم المحلية معهم، وما لبثوا أن اختلطوا بأهل المدينة والوافدين من الشام ومصر والمغرب وتصاهرت العائلات الجديدة والقديمة.

وكان بعض الوافدين مرسلاً من الدولة العثمانية، فقد بدأت السلطة في الآستانة بتعيين المناصب الكبرى من قبلها مباشرة، وبخاصة مناصب شيخ الحرم، وكبير خدام المسجد النبوي -الأغوات- والقاضي، وقائد الحامية العسكرية في القلعة. وتشكل تدريجياً ثلاثة فرق عسكرية جديدة يعين قائد كل منها من الآستانة مباشرة، وهي (وجاق الإسباهية)، وتعني مجموعة الخيالة أو الفرسان، وهي قوة مسلحة خفيفة تعتمد على الخيل في تحركاتها وقتالها ولها إدارة مستقلة ومهمتها حفظ الأمن، و(وجاق النوبتجاية)، وهي قوة عسكرية من المشاة، و(وجاق الإنكشارية)، وهي جزء من فرقة (الإنكشارية) العثمانية المشهورة، فضلا عن (وجاق القلعة) التي ذكرناها سابقاً.

وفي بداية الأمر كانت كل فرقة تأتي بكاملها من الآستانة، ثم أخذت هذه الفرق تقبل المتطوعين من أهل المدينة والمقيمين فيها، ثم صارت تعتمد عليهم اعتماداً أساسياً ولم يعد يأتي من خارج المدينة إلا الرؤساء وكبار الضباط.

وانتشرت اللغة التركية بين عدد كبير من أهل المدينة بحكم تعاملهم مع الوضع الجديد ودخول بعضهم في الوظائف، ولا سيما الفرق العسكرية الأربعة المذكورة، ولكنها لم تطغ على اللغة العربية ولم تؤثر فيها، بل صارت لغة

---

٤) ماء الموائد ١/٣٠٩.

ثانية تستخدم حين اللزوم. وقد بدأ هذا التغير بسيطاً في أواخر القرن العاشر الهجري، وتسارع في القرن الحادي عشر، وأسهمت المدارس والأربطة والدور التي أنشأها المماليك من قبل، وعدد من المحسنين، وتبعهم في ذلك العثمانيون، أسهمت في زيادة عدد الوافدين إلى المدينة، فقد كانت هذه الأربطة مأوى لهم، وكان لها مخصصات تؤمن لهم الطعام إذا لم يكونوا من أولي الغنى والوفرة، ووفدت عائلات الموظفين والعساكر فصار المظهر العام للمدينة أميل إلى الرفاهية والتوسع في المعيشة، بينما ظلت مكة أقرب إلى شدة العيش والبداوة، وهو ما سنقف عليه بمزيد من التفصيل في دراستنا للمدينة المنورة في القرن الحادي عشر.

المدينة في القرن الحادي عشر

عزلة سياسية:

ليست الأخبار عن المدينة المنورة في القرن الحادي عشر بأفضل من الأخبار عنها في القرن العاشر، فهي قليلة نسبياً، نجد معظمها في كتب الرحالة الذين زاروا المدينة المنورة آنئذ، ونجد نزراً يسيراً في كتب تراجم هذا القرن.

ولعل تحول مركز الثقل السياسي إلى مكة المكرمة، واضطراب الأحداث هناك والصراعات الكبيرة بين الشرفاء، قد استقطب اهتمام المؤرخين فلم يلتفتوا إلى أخبار المدينة إلا عرضاً، أو ما كان فيها ما يمس أخبار مركز الإمارة في مكة. حتى الأمور الاقتصادية التي لها بعض ارتباط بالإمارة والسيادة تحولت عن المدينة إلى مكة، وأظهرها الضرائب (المكوس) التي كان يدفعها زائرو المدينة، وكان ريعها يعود إلى إمارة المدينة ويشكل جزءاً مهماً من دخلها أصبح يستوفى في مكة فيدفع الزائر القادم رسوماً عن زيارته لمكة والمدينة معاً، ويؤول المبلغ المدفوع إلى صندوق الإمارة في مكة، وكان يرسل منه شيء يسير لأمير المدينة، ويذكر العياشي أن إمارة مكة كانت تستوفي اثني عشر ديناراً من كل حاج أعجمي، ستة لدخول مكة وستة لدخول المدينة(١) وإذا بدأ الحاج أو المعتمر دخوله بالمدينة فيُستوفى (المكس) على أبوابها وتحول الحصيلة إلى مكة، أما الضرائب التي تستوفى من التجار والزائرين في الموانيء، كميناء الجار وينبع وجدة، فلم يعد للمدينة نصيب منها على الإطلاق، فقد استقلت ينبع بأمير من آل الحسن، وتحولت السفن عن ميناء الجار إلا ما نزر، وقسمت عائدات ميناء جدة بين إمارة مكة وقائمقام جدة التركي.

---

١) مقتطفات حمد الجاسر ص٩٠.

آثار العزلة السياسية:

كان لهذا الأفول السياسي أثر سلبي على المدينة المنورة، فقد أصبحت تابعة لا متبوعة، وشحت مواردها الاقتصادية غير أن هذه العزلة كان وجها إيجابيا إلى حد ما. فهذا الأفول أبعد عن المدينة أحداثاً دامية كانت تشتعل في مركز الإمارة بمكة، سببها الصراع على الإمارة بين الإخوة الأشقاء وأبناء العم، وكانت مكة تحصد من ذلك القتلى والجرحى والفوضى والنهب مرات ومرات، فقد تعاقب على الإمارة ستة عشر أميراً انتهى عدد منهم بالقتل(١).

وكان من نتائج هذه العزلة الساسية أن كثر القادمون إليها والمجاورون الذين يتحولون إلى مقيمين، وشكلوا ظاهرة واضحة تضاف إلى ظاهرة العائلات التركية التي جاءت بسبب الوظائف المدنية والعسكرية التي كانت تعين من الآستانة. وقد صور محمد كيريت المدني هذه الظاهرة فقال: من محاسن المدينة أنها عون لغريبها، حتى على أهلها، وفيه سر الإيثار، وأنه لايرد إليها أحد من الآفاق إلا ويختارها على وطنه(٢).

ومن أسباب هذا الإقبال ما كان يلاقيه الزهاد والمتعبدون من حسن معاملة من أهل المدينة ورؤسائها الذين كانوا كما يقول ابن فرحون: يوالون المجاورين، ويخدمونهم، ويتقربون إلى خواطرهم بقضاء الحوائج والهدايا والطرف، مع حسن الاعتقاد فيهم والتماس بركتهم وأدعيتهم، وبالمقابل كان هؤلاء يتصفون بحسن السيرة وصفاء السريرة(٣).

وقد أتاحت لها هذه ((العزلة السياسية)) فرصة أكبر للازدهار العلمي، فكان المسجد النبوي مليئاً بحلقات العلم والمتعلمين، وبلغت المدارس درجة عالية من النشاط وظهر عدد من العلماء والشعراء والرحالة، وجاء إلى المدينة

---

١) انظر تاريخ مكة للسباعي: من ص ٣٤٨ إلى ص ٤٠٢.

٢) الجواهر الثمينة ورقة ٢٣.

٣) انظر السابق نفسه ورقه ٨٥.

عدد كبير من العلماء المجاورين والتقوا مع علماء المدينة ومع أمثالهم القادمين من الآفاق البعيدة. وأخذ بعضهم عن بعض.

ومن أشهر الأعلام الذين أسهموا في هذه الحركة العلمية النشطة: إبراهيم الخياري المدني (١٠٣٧- ١٠٨٣هـ) الذي وصفه المحبي بأنه أحد المشاهير بالبراعة في الحديث والمعارف وفنون الأدب والتاريخ وفي الرحلات (١) وقد اشتهر كتابه ((تحفة الأدباء وسلوة الغرباء)) في وصف رحلته إلى الآستانة. ومنهم الشاعر غرس الدين محمد بن أحمد الخليلي ثم المدني (ت ١٠٥٧) وهو محدث فقيه وشاعر تولى منصب الخطابة في المدينة المنورة وأنشأ فيها ديوانه ((الديوان العجيب والأسلوب الغريب))(٢) ومنهم الشاعر المجاور فتح الله بن النحاس الحلبي، ومصطفى بن قاسم الذي قدم المدينة مجاوراً ثم استوطنها وألف عدداً من المؤلفات وديواناً شعرياً(٣)، ومنهم محمد بن عبد الله الحسيني المشهور (كبريت) الذي ألف عدداً من الكتب منها كتاب عن تاريخ المدينة المنورة عنوانه ((الجواهر الثمينة في محاسن المدينة)) وكتاباً في الرحلات سماه ((رحلة الشتاء والصيف)) وكتاب ((نصر من الله وفتح قريب)) وكان شاعراً جيداً، ومنهم ابن معصوم المدني (١٠٥٠- ١١٢٠) وله عشرون مؤلفاً منها: سلافة العصر، وأنوار الربيع في أنواع البديع، وله كتاب في الرحلات بعنوان سلوة الغريب، وله ديوان شعر كبير أيضاً(٤).

ولعبت التوظيفات الرسمية دوراً مهماً في إعادة تشكيل المجتمع المدني. وكان القادمون من أولي المناصب الكبيرة يحتلون مكانة رفيعة في المدينة

---

١) انظر خلاصة الاثر ٢٥/١، وتحفة المحبين ٢٠٥.

٢) خلاصة الاثر ١٤٦/٣.

٣) ابن معصوم: سلافة العصر ٢٢٦.

٤) انظر ترجمته في البدر الطالع ٤٢٨/١ ونفحة الريحانة ١٨٧/٤.

المنورة وبخاصة شيخ الحرم الذي يعين من الآستانة مباشرة. وكانت الدولة العثمانية تنظر إلى هذه الوظيفة على أنها من الوظائف المهمة لمكانتها الدينية، وكان ينتقى لهذا المنصب شخصية ذات مكانة مرموقة تتصف بالعلم والتقوى. وقد ارتقت مكانة شيخ الحرم في حياة المدينة، قبل منتصف القرن الحادي عشر الهجري رقياً كبيراً، فلم يعد هذا المنصب دينياً محضاً أو مقصوراً على شؤون المسجد النبوي، بل صار واحداً من مراكز القوة والنفوذ. ويذكر الأنصاري أنه في عام ١٠٤٥هـ عين الشيخ بشير آغا الحبشي في مشيخة الحرم النبوي وفوضت إليه الدولة العلية جميع أحكام السياسة بالمدينة المنورة. ولا يعني هذا أن شيخ الحرم أخذ يمارس نشاطاً سياسياً محدوداً(١) أو أن المدينة المنورة صار لها كيان سياسي متميز، إطلاقاً فقد ظلت الأمور كما كانت عليه من قبل، ظلت المدينة تابعة لمكة، وكان الأمير آنئذ الشريف زيد بن محسن الذي حكم من (١٠٤١- ١٠٧٧هـ) إنما يعني إيجاد نفوذ رسمي لشيخ الحرم، فيؤخذ برأيه -غالباً- في تعيين قاضي المدينة وفقيهها، وتقبل شكواه فيهم ويعزلون إذا طلب عزلهم، وقد تطور الأمر بعد ذلك بحيث أسند إليه تعيين بعض القادة العسكريين في الفرق المقيمة في المدينة، فيعين (كتخذا القلعة، وكتخذا النوبتجائية، وكتخذا السباهية)، وسيكون لهذا النفوذ أثر كبير في ظهور بعض الفتن وإطفائها.

استقلال نسبي:

رغم تبعية المدينة لإمارة مكة تبعية سياسية كاملة فإن الأحداث كانت تخرج أحياناً عن يد السلطة في مكة، وتتحول المدينة إلى منطقة شبه مستقلة يأوي إليها المعارضون للأمير المكي، وبعض المتصارعين على الحكم من أبناء العائلة الحاكمة هناك، وذلك بسبب ضعف التماسك الإداري بين مدن الحجاز، وعدم وجود قوة عسكرية تابعة لأمير مكة في المدينة المنورة.

---

١) تحفة المحبين ص ٦٢.

المدينة تساعد أمير مكة المخلوع:

ففي سنة ١٠٤١هـ نشب صراع على الإمارة بين أبناء الأسرة الحاكمة في مكة (آل الحسن) وكان الأمير وقتئذ محمد بن عبد الله بن حسن بن أبي نمي يشاركه الشريف زيد بن محسن، وقد نافسهما على الإمارة الشريف نامي بن عبد المطلب بن حسن بن أبي نمي (وهو ابن عمهما) واستعان بعدد من الجنود الأتراك الذين فروا من قائدهم قانصوة في اليمن[١] ونزلوا في القنفذة، فاتصل بهم الشريف نامي وأقنعهم بمساعدته في الهجوم على مكة فأعانوه، وزحف بهم إلى مكة وحدثت معركة الجلالية بينهم وبين الشريفين محمد بن عبد الله وزيد بن محسن أميري مكة، وقتل محمد بن عبد الله وهرب الشريف زيد بن محسن إلى المدينة، فدخل الشريف نامي والجنود الأتراك مكة وتولى إمارتها. ووجد الشريف زيد بن محسن في المدينة المنورة الأمن والمساعدة من أبناء عمومته، فأمن مطاردة رجال الشريف نامي، وما أن استقر به المقام حتى أخذ يخطط لاستعادة الإمارة من الشريف نامي والقضاء على قوته، ولكن أبناء عمومته لم يكونوا راغبين في خوض حرب ضد الشريف نامي والجنود الأتراك، فلم تكن لديهم العدة والعتاد، لذلك مد الشريف زيد بصره إلى والي مصر الذي يمثل الدولة العثمانية وتتبعه إمارة الحجاز عادة، فأرسل رجلا من أبناء عمومته المدينيين وهو علي بن هزاع ليشرح ما حدث لوالي مصر ويستعديه على الشريف نامي، وفي الوقت نفسه أرسل رسالة مفصلة إلى دار الخلافة، وقد نجح علي بن هزاع في سفارته واستطاع أن يستدر عطف الوالي على الشريف زيد، فكتب إلى مقر الخلافة يستأذنها في مساعدته ضد الشريف نامي، وكانت رسالة الشريف زيد قد سبقت إلى الآستانة، فصدرت موافقة الآستانة على إرسال قوة عسكرية لمساعدة الشريف زيد وتثبيته في الإمارة، وجاءت مع الموافقة خلعة سلطانية تؤكد مباركة دار الخلافة لإمارته، فجهز

---

١) انظر تاريخ مكة ص ٣٦٧.

والي مصر حملة قوامها ثلاثة آلاف جندي وأرسلها إلى ينبع، وأرسل مع علي بن هزاع وفداً برئاسة محمد أرض رومي وعددٍ من خواصه يحملون الخلعة السلطانية والخطابات المؤيدة، فجاءته إلى المدينة، واحتفى بها الشريف زيد مع أقاربه، وذهب إلى المسجد النبوي ولبس الخلعة السلطانية في الروضة الشريفة تيمناً وتفاؤلاً بالنصر، وسار إلى ينبع حيث التقى مع القوة القادمة، وسار بها حتى نزل منطقة الجموم قرب مكة. وبلغ الخبر الشريف نامي فأرسل قوة صغيرة من بعض الفرسان والهجانة لتكشف حقيقة الأمر، فلما وصلوا الجموم أحس بهم جيش الشريف زيد فقتل بعضهم وفر الباقون بالأخبار المروعة إلى مكة، وأخبروا الشريف نامي، وهولوا له الأمر، وحذروه من مواجهة الجيش القادم، فأدرك الشريف نامي ألا طاقة له بمقاتلة هذا الجيش، ولم يكن أهل مكة ليؤيدوه، فجمع رجاله وانسحب بهم شرقاً، ووجدت مكة نفسها دون أمير ودون حامية، وكان أحد رجالات المدينة وصل مع رجاله وعبيده للحج وهو الشريف أحمد بن قتادة، فتطوع بالسهر على حراسة البلد الحرام وحجاجها، ونشر رجاله وعبيده ليقوموا بالمهمة، وأرسل إلى الشريف زيد يخبره بخروج الشريف نامي ورجاله، ويطلب منه المسارعة لدخول مكة وتسلمها وحفظ الأمن فيها. وفي صباح السادس من ذي الحجة عام ١٠٤١هـ دخل الشريف زيد بن محسن مكة في موكب حافل تتقدمه ((صناجق)) الأتراك، ونزل في دار الإمارة وأرسل مناديه بالأمان وأنه منذ اليوم حاكم البلاد(١) ولم ينس الشريف زيد لأهل المدينة ولأبناء عمه ما لقيه لديهم من حماية ومساعدة، فقابل جميلهم بالجميل بعد أن استتب له الأمر، وأرسل بعض الأموال والقمح والثياب إلى المدينة وزاد من حصتها مما يرد من مصر والآستانة إلى الحرمين الشريفين، وأخذ يتردد على المدينة بين الحين والحين، ويشن الغارات على أفخاذ قبيلة حرب التي تقطع الطريق على الحجاج

---

١) تاريخ مكة: للسباعي ص ٣٦٩.

وتهدد المسافرين إلى المدينة المنورة، بل وتهدد المدينة ذاتها أحياناً، فاطمأنت المدينة وانتشرت أخبار الأمن وكثر الوافدون إليها، كما تواترت القوافل التجارية ورخصت الأسعار.

حظر على العجم (الإيرانيين):

وفي موسم الحج عام ١٠٤٢هـ وصل الأمر من الشريف زيد إلى المدينة بإخراج ((العجم)) منها ومنعهم من دخولها بعد ذلك، والتنبيه عليهم ليخبروا من وراءهم كيلا يأتوا للحج أو الزيارة، وخرج المنادي في الأسواق يأمر العجم بالخروج من المدينة، وبإبلاغ مواطنيهم في بلادهم بمنعهم من دخول الحجاز، وكان السبب في ذلك المعارك الطاحنة التي كانت تدور بين الدولة العثمانية والصفويين، فقد استولى الصفويون على العراق، ودخل الشاه مدينة بغداد وقتل واليها العثماني وعدداً كبيراً من جيشه، ثم تواترت الحروب بين العثمانيين والصفويين، فأمر الخليفة العثماني بمنع العجم من الحج والزيارة. وقد استمر هذا المنع طوال مدة الحرب بين الدولتين وانتهى عندما طرد الصفويون من العراق وعقد السلطان مراد معهم الصلح عام ١٠٤٩هـ(١).

جريمة تبعث شبح الحرب:

ظلت العلاقات بين الشريف زيد وأهل المدينة حسنة مدة طويلة، ثم اضطربت وكادت تتحول إلى مصادمة وحرب.

ففي الثامن من شعبان عام ١٠٥٩هـ زار الشريف زيد بن محسن المدينة المنورة وكان قادماً من إحدى حروبه مع أفخاذ قبيلة حرب على الطريق بين مكة والمدينة، ووصل الخبر بقدومه إلى أهل المدينة فخرج رؤساؤها إلى ظاهرها واستقبلوه ونزل بعسكره في السهل الممتد خارج السور وضربت خيامه فيه، كيلا يضيِّق على أهلها، وأخذ يتردد على المسجد النبوي ليصلي فيه ثم يعود ويبيت في معسكره.

---

١) انظر تاريخ الاسلام ٨/١٣٢-١٣٣ وتاريخ مكة ٣٧١.

وبعد وصوله بيومين حدثت حادثة مريعة اهتزت لها المدينة واتهم بها الشريف زيد ورجاله. ففي العاشر من شعبان بينما كان قاضي المدينة المنورة التركي (زفر أفندي المعين من الآستانة) نازلاً إلى صلاة الصبح ومعه ثلاثة من خدمه، فاجأه في أحد المنعطفات رجل مسلح وضربه بخنجره في ظهره فأنفذه إلى صدره وفر في العتمة، وألجمت المفاجأة خدمه فلم يستطيعوا شيئاً، وأكب القاضي على دابته ولكزها فمضت به في طريقها المعتاد حتى دخلت المسجد والخدم يجرون وراءها، وكان إمام الشافعية قد بدأ الصلاة، فقام إليه بعض الموجودين في المسجد وأنزلوه من على دابته وهو ينزف، فأشار إليهم أن يدخلوه إلى قرب الحجرة النبوية، وما كاد يصل ويسلم على رسول الله ﷺ حتى فاضت روحه. وأشاع بعضهم أن للشريف زيد يداً في اغتياله، فهاج الناس، وكان الموقف العاطفي يحول دون التحقق من تلك الإشاعة، وخرج المصلون بجثمان القاضي وهم يفورون من الغضب، وسرعان ما انتشر الخبر في أرجاء المدينة، وتجمع الناس واتجهوا إلى القلعة فهيجوا العساكر المرابطة فيها ورئيسها، وأغلقوا أبواب السور، وعلت الصيحات بالانتقام من الشريف زيد وعسكره.

أخذ العساكر أماكنهم في أبراج السور وسلطت المدافع على معسكر الشريف زيد الممتد غربي السور، وارتقى عدد من أهل المدينة جدار السور وتوجهوا بصيحات الغضب إلى عسكر الشريف زيد، وفوجىء عسكر الشريف زيد بهذا الهياج الشعبي ورأوا المدافع موجهة إليهم، وسرت حالة من الاضطراب فيهم، ما لبثت أصوات أهل المدينة أن بلغتهم وهم ينادون: أخرجوا عنا. وأرسل الشريف زيد بعض رجاله ليستوضح الأمر، فعلموا بما جرى وباتهام أهل المدينة للشريف زيد وعادوا إليه بالخبر، وكان الشريف زيد عاقلاً فأعاد الوفد ومعه أكابر جماعته، وأكابر جماعة عسكر مصر وخاطبوا عقلاء أهل المدينة من وراء السور، وحلفوا لهم أن الشريف لاعلم له

بما حدث، وأنه غاضب لمقتل القاضي وأنه سيبذل كل جهده للقبض على الجاني، وطال الحديث بين الجانبين حتى اقتنع أهل المدينة وهدأت ثورتهم وفتحوا أبواب السور، وما لبث الشريف زيد أن دخل المدينة وذهب إلى مقر الإمارة واستدعى وجوه أهل المدينة ليبحث معهم الأمر، وباشر التحقيق بنفسه، وأمر رجاله بالقبض على جميع المشبوهين والمعروفين بالفساد في المدينة، فقبض على عدد كبير منهم وسجنوا جميعاً وبدأ التحقيق معهم. وطوال مدة إقامة الشريف في المدينة لم يصل التحقيق إلى نتيجة، ولما طال سجن المشبوهين بدأ بعض أهل المدينة يستشفعون لهم فقبل الشفاعة في بعضهم وأطلق سراحهم، وأبقى تسعة أشخاص كانت الشهادات بفسادهم كثيرة في السجن، وعندما رحل من المدينة أمر بنقلهم في قيودهم مع العسكر إلى سجن ينبع، وظلوا فيه حتى وصل ركب الحج الشامي، فسارع أهلوهم إلى أمير الحج الشامي وطلبوا منه الشفاعة فيهم وإطلاقهم، خاصة وأنه لم تثبت عليهم تهمة قتل القاضي، فتشفع فيهم أمير الحج وأطلق سراحهم، ولم يعثر على قاتل القاضي ولا عرف سبب الجريمة.

وقد استفادت المدينة من هذه الحادثة مزيداً من الأمن والطمأنينة باعتقال المشبوهين ومن عرفوا بشيء من الفساد، وظل اسم الشريف زيد يفزعهم كما يفزع قطاع الطريق من قبيلة حرب وغيرها. ونعمت المدينة بالأمن طوال مدة إمارة الشريف زيد التي انتهت بوفاته عام ١٠٧٧هـ وقد تولى الإمارة بعده ابنه الشريف سعد بن زيد، وبدأت في عهده مرحلة اضطرابات أثرت على المدينة المنورة.

قلاقل في ينبع تؤثر على المدينة:

كان الشريف حمود بن عبد الله بن حسن بن أبي نمي منافساً للشريف سعد في الإمارة بمكة، وحدثت مناوشات بين رجالهما، وكادت أن تقع فتنة كبيرة لولا أن تدخل بعض الوجهاء وأصلحوا بينهما على أن يأخذ الشريف

حمود مبلغاً معينا كل سنة، وبعد مدة ثار الشريف حمود لعدم حصوله على المبلغ المقرر وتوجه إلى ينبع وأعلن عصيانه فيها.

وما لبث والي مصر أن بعث حملة من خمسمائة عسكري لإخضاع الشريف حمود، ولكن الشريف حمود جمع أقاربه وأعوانه وأفخاذاً من قبائل مجاورة وهاجم الحملة في الرابع عشر من شهر رجب عام ١٠٧٨هـ فقتل معظم رجالها.

وطار خبر هذه الوقعة في مناطق الحجاز وبلغ أهل المدينة فاضطربوا له اضطراباً شديداً، وخافوا أن يزحف الشريف حمود ورجاله بعد انتصارهم ذاك إلى المدينة فيحتلوها، ولم تكن بها قوة قادرة على المواجهة، غير أن الأثر الأكبر لهذه الوقعة على أهل المدينة كان أثراً اقتصادياً، فقد انقطعت القوافل التجارية خشية تفاقم الأحداث، وقلَّت السلع، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً بقية ذلك العام، واضطر المسافرون إلى المدينة أن يسلكوا طرقاً قديمة بعيدة عن مواطن رجال الشريف حمود، ولم تنته هذه الشدة إلا بعد أن جرد الشريف سعد حملة لمطاردة الشريف حمود ورجاله، ثم انتهى الأمر إلى الصلح بين الشريفين في أوائل عام ١٠٧٩هـ فعادت القوافل التجارية إلى المدينة ومكة ورخصت الأسعار(١) وفي هذه السنة ازداد نفوذ العسكر في المدينة المنورة وتحدوا سلطة الإمارة وسلطة القضاء، وبخاصة عسكر (الإسباهية) الذين يرأسهم محمد ظافر، واتهموا القاضي بالتحيز والأحكام الجائرة ضدهم، واتهموا نائب الشريف بممالأة القاضي، وثاروا وحاصروا بيت القاضي ورجموه، كما هاجموا بيت نائب الشريف وأسمعوه إهانات كثيرة، وهددوا بعض رجال الإمارة والقضاء، وشهر بعضهم السلاح عليهم في الحرم، وكان أمير مكة الشريف سعد مشغولاً بعصيان الشريف حمود، ولم يكن لدى نائبه في المدينة قوة قادرة على تأديب الجنود العصاة، لذلك طأطئوا رؤوسهم

---

١) انظر سمط النجوم ٤/٤٩٤ و تاريخ مكة ٣٧٦.

لتمر العاصفة. ولم يتعد شغب الجند المهاترات والشتائم، ولم يقتل أحد وظل القاضي مدة متوارياً في بيته لايخرج إلى الناس إلى أن كلم وجهاء المدينة قائد العسكر فهدأهم بعد أيام، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي.

اضطرابات داخل المدينة: شغب العساكر:

شهدت المدينة منذ الشهور الأولى لولاية الشريف سعد أحداثاً مقلقلة، فقد ضيق الشريف سعد على أهل المدينة، وأخذ نائبه فيها الناس بشيء من الشدة لم يعهدوها من أبيه من قبل، وتدخل في الوظائف والتعيينات التي كانت متروكة لشيخ الحرم وقادة العسكر، ولم يرسل ما كان أبوه يرسله من الصدقات والمعونات لأهل المدينة، فتضايق أهل المدينة وأرسلوا العرائض إلى مصر والآستانة يشكون فيها من سوء معاملته، فلما اقترب موعد الحج انتدبت الآستانة أحد كبار موظفيها ((حسن باشا)) لإمارة موكب الحج وفوضته بالنظر في شكاوى أهل المدينة، فوصل حسن باشا في منتصف ذي القعدة ١٠٧٩هـ إلى المدينة المنورة والتقى بعدد من رجالات المدينة وسمع منهم شكواهم ضد الشريف سعد(١) وكان من بينهم قائد الخيالة محمد ظافر الذي أخذ نجمه يبرز في المدينة المنورة، وكان أبوه ((حسن آغا الرومي البشناقي)) قد وفد إلى المدينة رسولاً من الدولة العثمانية بوظيفة ((آغا الإسباهية)) أي قائد فرقة الخيالة، وكان رجلاً كاملاً عاقلاً صاحب ثروة عظيمة، وقد خلفه ابنه محمد بن ظافر في منصبه، وصار له شأن في المدينة، وعندما حدثت واقعة قتل القاضي واتهام الشريف زيد كان محمد ظافر من بين الذين تأهبوا للقتال ضد الشريف، ولما سكنت الفتنة عادت الأمور إلى مجاريها، وظل محمد بن ظافر في منصبه، (وعندما تولى الشريف سعد

---

١) سمط النجوم ٥٠٦/٤.

الإمارة صار بينه وبين محمد ظافر شنآن عظيم)(١) وقد أغرى محمد ظافر حسن باشا بالقبض على نائب الشريف سعد في المدينة وجميع رجاله وأقنعه بذلك، فأمر حسن باشا بالقبض عليهم وساعده رجال محمد ظافر، وأهانوهم وكادوا أن يفتكوا بهم، وأمر حسن باشا بقطع الخطبة والدعاء للشريف سعد على منبر المدينة، وأخذ بنصيحة خصوم الشريف سعد وبدأ يعد لعزله والقبض عليه.

وانتقلت أخبار ماحدث في المدينة إلى الشريف سعد، فجمع رجاله وأخذ حذره من حسن باشا وقرر ألا يواجهه عند قدومه إلى مكة مدة الحج، وكادت أن تقع الفتنة بين الطرفين لولا شدة حذر الشريف سعد وتجنبه الاحتكاك بحسن باشا ورجاله.

وقد سعى بعض أهل مكة وأمير المحمل الشامي الأمير غسان بن محمد بن فروخ في الصلح بين الشريف سعد وحسن باشا وبذلوا جهوداً كبيرة حتى أزالوا الجفوة بينهما، والتقى حسن باشا والشريف سعد بعد انتهاء موسم الحج وأمر بإطلاق سراح من قبض عليهم في المدينة، واستمر الشريف سعد في إمارته، وانتقل حسن باشا إلى جدة وسكنها مندوباً للسلطة العثمانية(٢).

تركت هذه الحادثة آثاراً متباينة على أهل المدينة، فقد تراجع الشريف سعد عن شدته معهم، وغيَّر بعض رجاله وأمرهم بحسن التعامل مع الناس، وأعاد الأموال والميرة التي كان يرسلها أبوه إلى أهل المدينة. ومن جهة أخرى أوغرت صدر الشريف سعد على الأفراد الذين حرضوا حسن باشا عليه، وفي مقدمتهم محمد ظافر قائد فرقة الفرسان (أغاة الإسباهية) فأمر رجاله في المدينة بتتبع أخباره وجمع مثالبه والشكاوى ضده.

---

١) تحفة المحبين ص ٣٤٧.

٢) سمط النجوم ٤/٥١٠.

معركة بلا سبب:

وفي منتصف عام ١٠٨٠هـ شهدت المدينة المنورة حادثة ضخمة كان السبب فيها سوء التقدير والتعجل غالباً.

فمنذ عهد المماليك اعتادت المدينة أن تستقبل في شهر رجب من كل عام زائرين كثر، حتى صارت الزيارة في هذا الشهر عادة يطلق عليها اسم (الرجبية)، ويأتي الزائرون من أطراف الجزيرة العربية ومن الشام ومصر أيضاً، واعتادت المدينة أيضاً أن يعترض المسافرين منها وإليها في شهر رجب وغيره بعض أفخاذُ قبيلة حرب المنتشرة حول المدينة ليأخذوا منهم إتاوة أو يُغيروا عليهم وينهبوا ويقتلوا. وفي السابع والعشرين من شهر رجب من ذلك العام أراد أحد مشايخ قبيلة حرب واسمه أحمد بن رحمة زيارة المدينة مع عربانه فسار إليها في مجموعة من رجاله، وكانت العادة أن يحمل المسافرون أسلحتهم أو يكون معهم مسلحون يحمونهم. ويبدو أن بعض المسافرين إلى المدينة قد رأوهم وسبقوهم إليها فنقلوا أخبار جماعة حرب القادمة دون تبصرة، ويكفي أن يذكر اسم قبيلة حرب آنئذ ليكون إيذاناً بالحرب، واستعد عسكر المدينة لمواجهتهم، فلما وصل الحربيون عصراً فاجأهم العسكر بالهجوم، وأخذت الحربيين المفاجأة ولم يجدوا فرصة يوضحون فيها الأمر لمقاتليهم، فشرعوا في الدفاع عن أنفسهم، واشتد القتال واستمر إلى المغرب، وتفرق الجمعان، وعاد عسكر المدينة إلى داخل السور، وانسحب الحربيون إلى ذي الحليفة (آبار علي) وما لبث أن وصل إليهم رسول من نائب الأمير في المدينة يسألهم الصلح وعدم مهاجمة المدينة، فشرح لهم الشيخ أحمد بن رحمة أنهم لم يكونوا يقصدون مهاجمة المدينة وأن العسكر هم الذين بدؤوا بالقتال فدافعوا عن أنفسهم، واتفق الطرفان على اللقاء في اليوم التالي، وباتت المدينة في شيء من القلق، وظل العسكر طوال الليل مستيقظين يحرسون بأسلحتهم سور المدينة وأبوابها. وفي الصباح التالي

التقى شيخ الحرم والمفتي وقاضي المدينة وقادة الفرق العسكرية وعدد من وجهائها بالشيخ أحمد بن رحمة وعدد من رجاله، وجعل الفريقان يختصمان ويدعي كل منهما على الآخر البدء بالعدوان، وأخيراً استطاع المشايخ أن يهدئوا المتخاصمين، ويصلحوا بين قادة العسكر والحربيين وأُلبس الشيخ رحمة خلعة نفيسة وأُلبسَ خواصه جوخاً، على أن ما مضى لايعاد، وبذلك وقع الاتفاق والأمان(١) وأتم الحربيون زيارتهم ورحلوا معززين مكرمين، وقد خسر الحربيون في هذه الواقعة خمسة عشر رجلاً وخسر أهل المدينة أربعة رجال(٢).

كان إكرام أهل المدينة لشيخ حرب وخواصه تألفاً سبق لأهل المدينة أن فعلوه مع الحربيين مراراً لتجنب هجماتهم، ووفى الحربيون بعهودهم فلم يغيروا على المدينة وقوافلها ذلك العام. وظلت المدينة هادئة والحياة فيها تجري باضطرادها العادي إلى ختام عام ١٠٨٢هـ حيث قدر لها أن تشهد طرفاً من الصراع على إمارة الحجاز والخلافات حولها.

المدينة مركز عسكري:

في ذلك العام عين حسن باشا نائباً للدولة العثمانية ((سنجق)) في جدة فأخذ يضايق الشريف سعد أمير مكة والحجاز وكان أقسى مافعله قطع حصته من واردات (المكوس) والجبايات التي تجبى في جدة، وبخاصة التي تجبى من التجار على البضائع الواردة. وبينما كان حسن باشا يؤدي مناسك الحج في منى تعرض للاغتيال، وكادت تقوم فتنة بين عسكره ورجال الشريف سعد، إذ اتهم عسكرُ الباشا الشريفَ سعد بأنه وراء عملية الاغتيال، وأنكر الشريف سعد، ثم سعى بعض الوسطاء في الصلح بين الرجلين فتم الصلح على أن يدفع الباشا الأموال التي احتجزها من حصة الشريف، ودفع الباشا

---

١) سمط النجوم ٥١٢/٤.

٢) السابق ٥١١/٤..

بعض ذلك المال وتوجه إلى جدة ومنها إلى المدينة، وفي المدينة أغراه خصوم الشريف سعد وفي مقدمتهم محمد ظافر قائد الفرسان (أغاة الإسباهية) بعزل الشريف سعد وتولية ابن عمه الشريف أحمد بن محمد بن الحارث بن الحسن بن أبي نمي، فبعث إليه الباشا فجاء إلى المدينة، فأعلن الباشا تولية الشريف أحمد إمارة الحجاز وألبسه خلعة سلطانية في الروضة الشريفة بالمسجد النبوي، وأرسل المنادين يعلنون الخبر في المدينة وما حولها، وأمر بقطع الخطبة عن الشريف سعد وتحويلها إلى الشريف أحمد.

كان الشريف أحمد غير مقتنع بتولي الإمارة مكان ابن عمه، غير أنه كان ضعيفاً عاجزاً عن رفضها أمام الباشا، فكتب له الشريف سعد رسالة في غاية اللطافة والرقة واللين يستوضحه عن حقيقة الأمر، ويخبره أنه إذا رغب في الإمارة فعلا فإنه -الشريف سعد- سيتنازل له عنها وسيكون من أعوانه المخلصين، وأما إن كان توليته مكيدة وانتصاراً للباشا حسن فالأحسن ألا يتورط في ذلك. فأجابه الشريف أحمد بأنه مكره على ماحدث وأن الأمر لم يتم (١) وقد سارع الشريف سعد مع أخيه الشريف أحمد بن زيد بتعبئة قواتهما، واتجه الشريف سعد بهما إلى ينبع فنزلها، وكان أميرها الشريف حمود غائباً عنها، ورغم الخصومات السابقة بينهما كتب إليه يطلب منه العودة إلى ينبع والانضمام إليه ضد حسن باشا، وفي الوقت نفسه كتب حسن باشا إليه رسالة يطلب منه الوقوف معه ضد الشريف سعد، ووصلت رسالته قبل وصول رسالة الشريف سعد بيوم واحد، وعندما تسلم الشريف حمود الرسالتين حزم أمره وقرر أن ينضم إلى ابن عمه الشريف سعد متجاوزاً ما كان بينهما، فعاد إلى ينبع وأعلن مؤازرته له.

الإعداد للمعركة:

شعر حسن باشا أن الشريف سعد قد ازدادت قوته وأدرك أنه سيتحرك

---

١) سمط النجوم ٥١٨/٤.

إليه في المدينة ويثبت إمارته، فعبأ العسكر الموجودين في المدينة، وجهز المدافع وقرر أن يسير بها إلى الشريف سعد لقتاله، ولكن الشريف أحمد بن محمد الذي عينه الباشا أميراً طلب منه التريث وأقنعه بعدم الخروج.

أقام الباشا في المدينة يقوي الجيش، وأمر بصنع قذائف تسمى (قنابر) وهي عبارة عن كرة معدنية تملأ بقطع الرصاص والحديد وتقذف بالمدفعية إلى مسافات بعيدة تنفجر وتصيب عدداً كبيراً في منطقة مرماها، واستقدم الحدادين والصناع وأقام مصنعاً كبيراً بالقلعة لهذا الغرض حتى تم له صنع مائتي قذيفة. ولم يكتف بذلك بل أرسل إلى جدة يطلب من نائبه فيها أن يرسل إليه على وجه السرعة كميات وافية من الذخيرة والعتاد والمؤونة.

وانتشر الخبر بين الناس في المدينة، فأخذوا يستعدون بتخزين الطعام لمواجهة الأيام الصعبة التي تعيشها كل مدينة في فترة الحرب، وجاءت الأخبار أن الشريف سعد وحلفاءه قد تحركوا من ينبع إلى المدينة، واستعد عسكر القلعة والمجندون بمدافعهم وبنادقهم لمواجهة القادمين وبات الجميع يرقبون الصدام الدموي القادم.

نهاية الزوبعة:

ولكن شاء الله أن ينقذ المدينة من هذا الصدام، فقد ورد البريد من دار الخليفة يحمل مرسوماً بعزل حسن باشا وترحيله من الحجاز، ووصل البريد عن طريق مصر إلى جدة، ولما لم يجد الباشا تحرك إلى مقره في المدينة، ولكن الخبر شاع ووصل إلى الشريف سعد وحلفاءه قبل أن يصل البريد إلى المدينة، فتوقفوا عن الزحف وحمدوا الله الذي صرف عنهم ذلك البلاء.

استقبل حسن باشا أمر العزل بغيظ شديد، ولم يكن له بد من تنفيذه، فأخذ يستعد للخروج من المدينة مع رجاله المقربين وأحس أنصاره من أهل المدينة بأنهم في مأزق كبير، فلا بد أن يعاقبهم الشريف سعد الذي ثبت في الإمارة، لذلك قرروا وفي مقدمتهم (أغاة الإسباهية) قائد الفرسان الخروج مع

حسن باشا والذهاب إلى الآستانة لإقناع كبار رجال الدولة بعزل الشريف سعد.

وخرج حسن باشا وأنصاره من المدينة، وتوجهوا شمالاً بالطريق البري إلى مصر، فلما وصلوا غزة كان الضيق والألم قد بلغ بحسن باشا مبلغه، فمرض مرضاً شديداً ثم فارق الحياة(١) فدفنه أصحابه في غزة وواصلوا المسير إلى مصر ومنها إلى الآستانة. أما الشريف سعد فقد عاد إلى مكة منتصراً وأرسل الكتب إلى دار الخلافة بما حدث، وشكا خصومه وفي مقدمتهم محمد ظافر، وعدد جرائرهم، وطلب إنزال العقوبة بهم، وقد أثرت هذه الكتب بما يريده الشريف سعد، فورد جواب دار الخلافة بالموافقة على معاقبة ((الجناة)) وقتل محمد ظافر، وكان محمد ظافر قد عاد من الآستانة إلى مصر، فأرسل الشريف سعد أمر دار الخلافة بقتله إلى والي مصر، فقبض عليه الوالي وقتله(٢).

المدينة تعزل أمير الحجاز:

رغم انتصار الشريف سعد وعودته إلى إمارته، فإن هذه الأحداث قد أثرت فيه تأثيراً كبيراً وما لبثت أن عصفت بإمارته، فقد بذل خصومه جهوداً كبيرة لإقناع كبار المسؤولين في دار الخلافة بضرورة عزل الشريف سعد، وتزعم هذه الجهود شيخ مغربي كان مجاوراً بالمدينة ومكة هو الشيخ محمد

---

١) سمط النجوم ٥١٨/٤-٥٢٠.

٢) وتشير عبارة أوردها الأنصاري عن وفاة محمد ظافر أنه كان خلال رئاسته لفرقة الخيالة في المدينة (آغا الإسباهية) شديداً قاسياً، حتى إن بعضهم أرخ وفاته بعبارة تحمل كثيراً من التشفي وهي ((مات فرعون المدينة)) وكان لأهل المدينة ولع بتأريخ الحوادث على طريقة الجمل -طريقة مقابلة الأرقام بالحروف لتوافق العبارة المشكلة مع رقم السنة التي وقع فيها الحدث وتدل عليه- ولا شك أن تسميته فرعون المدينة فيها مغالاة كبيرة، وربما حقد شخصي، ولكن الأمر لايخلو من دلالة على تصرفات قاسية. انظر تحفة المحبين ٣٤٧.

بن سليمان المغربي، ولا نستبعد أن يكون محمد ظافر قد أثر فيه عند زيارته للآستانة، ونذكر هنا أن أهل المدينة سبق أن اشتكوا من الشريف سعد قبل ثلاثة أعوام، وكاد أن يعزل على يد حسن باشا نفسه لولا أن أصلح بينهما بعض المصلحين، وتكررت شكاوى أهل المدينة، ورافقتها شكاوى أنصار حسن باشا والمتضررين من الشريف سعد، وقبل أن ينتهي عام ١٠٨٣هـ صدر الأمر بعزل الشريف سعد وبإرسال قوة عسكرية من جهتين: ثلاثة آلاف من مصر تسافر إلى مكة مع ركب الحج، وألفان من حلب تسافر مع الركب الشامي، ويصحبه الشيخ محمد بن سليمان المغربي. وذهبت الأوامر السلطانية إلى كل من والي حلب ووالي مصر فأنفذ الواليان الأمر، وتحرك الجنود إلى الحجاز، وجاء الشيخ محمد بن سليمان مع الجنود الحلبيين ومروا بالمدينة ثم واصلوا السير إلى مكة، فوصلوها في بدء الموسم، وعسكروا في الزاهر، وسبقهم الجيش المصري بأيام قليلة وعسكر في جرول. وفطن الشريف سعد للأمر فتهرب من مقابلة أمراء الحج، وما لبث أن فر في أيام منى مع بعض أعوانه إلى الطائف، ومنها إلى المدينة، فوصلها قبل نهاية ذي الحجة مع أخيه الشريف أحمد معزولاً، ونزل منطقة ((الغابة)) خارج المدينة ولم يجرؤ على دخولها خشية أن يفتك به بعض خصومه أو أبناء محمد ظافر المقتول. وكان أمراء الحج عندما علموا بهروب الشريف سعد قد استدعوا الشريف بركات بن محمد وولوه الإمارة بموجب مرسوم الخلافة، وأعلنوا أن للشيخ محمد بن سليمان المغربي حق الإشراف على عدد من شؤون الحجاز. وكان مما جاء في مرسوم عزل الشريف سعد وتولية خلف له أن الشريف سعد (شد الخناق على أهل المدينة البهية، وأذاقهم كأس المنون روية، فلما بلغ هذا الحال السمع

الكريم السلطاني أمر بعزل السيد سعد عن شرافة مكة)(١) وقد أرسل الشريف بركات بن محمد بعد توليته الإمارة من يتعقب الشريف سعد، فاضطر الشريف سعد إلى الخروج من المدينة والتوجه إلى الآستانة(٢).

الشريف بركات بن محمد والمدينة:

عمل الشريف بركات على استرضاء أهل المدينة والإحسان إليهم لتعزيز مكانته بينهم وفي دار الخلافة، وقد عين نائباً له لإدارة شؤونها وأطلق عليه لقب وزير، وهذه أول مرة يذكر فيها المؤرخون وجود وزير لأمير مكة في المدينة يدير شؤونها، وكان أول وزير يعينه فيها هو أبو بكر بن جبريل، فجاء أبو بكر إلى المدينة وباشر تسيير أمورها(٣).

---

١) انظر الدحلان ص ٩١.

٢) انظر تاريخ مكة ص ٣٧٩.

٣) انظر تحفة المحبين ص ١٥٢ وقد أخطأ الأنصاري في تحديد السنة التي تولى فيها عمله في المدينة فذكر أنها ١٠٨٠هـ، والمعروف أن الشريف بركات بن محمد تولى الإمارة بعد عزل الشريف سعد نهاية عام ١٠٨٣هـ وعلى ذلك تكون وزارة أبي بكر ١٠٨٣هـ.

نهاية إمارة الحسينيين في المدينة:

كان المنصب الجديد في إدارة شؤون المدينة النهاية الحقيقة لمنصب أمير المدينة الذي يتولاه الحسينيون، ولئن صح ماذهب إليه أيوب صبري من أن الحسينيين ظلوا أمراء إسميين في المدينة إلى نهاية هذا القرن فإن وصول وزير شريف مكة هو بداية النهاية، وبوفاة آخر الأمراء الحسينيين حسن بن زهير الذي نعتقد أنه كان معاصراً لهذه الوزارة انتهى أمر الحسينيين وألغى منصبهم الأسمي.

معركة في الرجبية:

يشير بعض المؤرخين إلى حادثة وقعت في عهد الوزير أبي بكر بن جبريل دون أن يحددوا السنة التي وقعت فيها، وهي حادثة الفتنة العظيمة في الرجبية بين حرب وأهل المدينة(١) ولابد أن هذه الوقعة قد حدثت قبل نهاية هذا العقد، لأننا سنجد في بداية العقد التالي عام ١٠٩٠هـ وزيراً آخر في إدارة المدينة هو محمد الخلفاني(٢) وسنتحدث عنه بعد قليل.

وتدل التفصيلات القليلة المذكورة عن هذه الحادثة أن بعض أفخاذ قبيلة حرب استغلت موسم الرجبية، فتحركت لغزو المدينة ونهب ما يمكن نهبه منها.

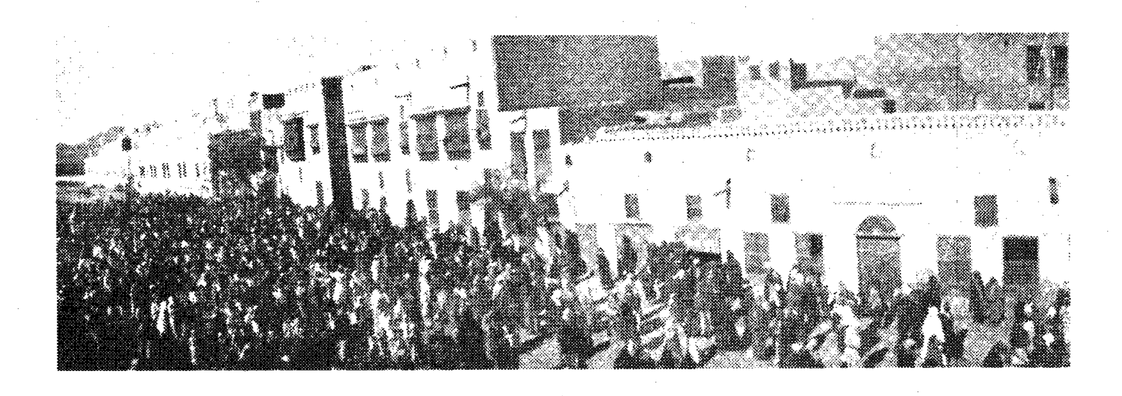
وكانت العادة أن يخرج أهل المدينة والزائرون إلى مقبرة سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب في سفح جبل أحد من أوائل شهر رجب، ويخيمون في البساتين حول المقبرة، ويخرجون معهم المضارب والخيام الكبيرة فلا يبقى في المدينة إلا أهل الأعذار، ويبيت الناس طوال ليلهم ويومهم في القراءة حول

---

١) السابق ص ١٥٢.

٢) السابق ١٦٣.

«الرجبية» في أوائلها وقبل أن يتجمع الزائرون حيث تغص المنطقة بالخيام
حول مسجد سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب



في نهاية الرجبية يعود الزائرون إلى المدينة ليصلّوا في المسجـد النبوي
ويحتفلوا باختتام الموسم فتغص بهم شوارع المدينة وساحاتها

قبر سيدنا حمزة(١)، وكانت أفخاذ قبيلة حرب تحصل منذ القديم على أموال من الإمارة ومن الدولة العثمانية لقاء عدم تعرضهم للحجاج والمسافرين، وقد أصبحت هذه الأموال المصدر الرئيسي لدخلها، فإذا تأخرت أو انقطعت عنها ثارت ثائرتها وهاجمت المسافرين أو هاجمت المدينة. ويبدو أن هذه القبيلة لم تستلم حصتها أو طمعت في الزيادة، فانتهزت فرصة موسم الرجبية وهاجمت المدينة، وهب أهل المدينة للدفاع عنها، ووقعت معركة كبيرة انتهت بهزيمة الحربيين مخلفين وراءهم ثمانين قتيلاً(٢)، وقد نبهت هذه الحادثة الوزير أبا بكر لضرورة الاحتياط والحذر، فأمر أن يستنفر جميع العساكر في هذا الموسم وينتشروا على أبواب المدينة وأبراجها، وعلى الطريق بين المدينة وأحد وحول مقبرة سيد الشهداء لحراسة المدينة وحفظ الناس في أيام موسم الرجبية، وأصبح هذا القرار عادة تطبق في كل موسم رجبي فيما بعد.

فيضان يهدد المدينة:

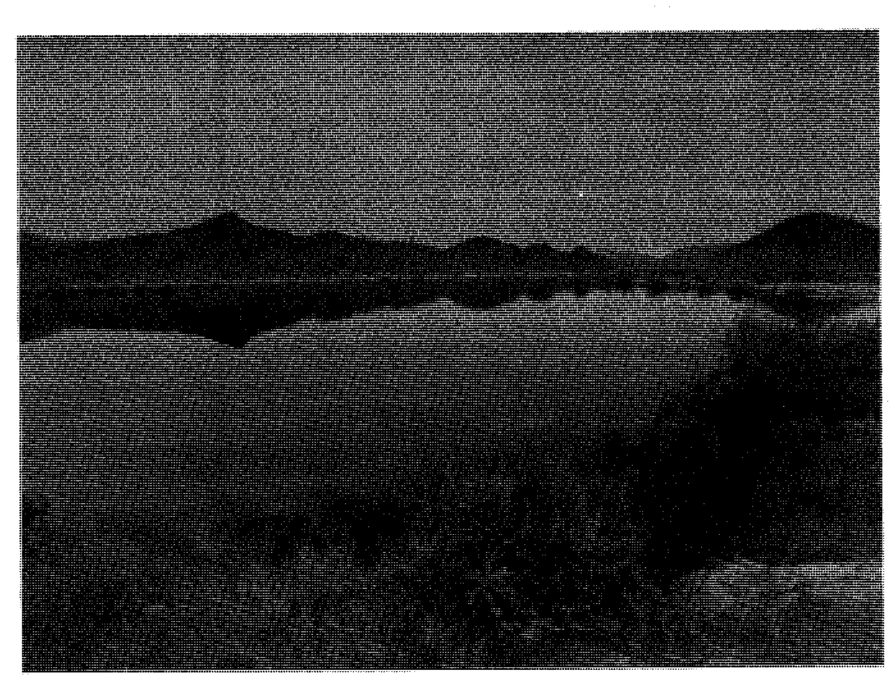
تشهد المدينة على فترات متباعدة أمطاراً غزيرة، فتجري الأودية، وقد تفيض وتتحول إلى سيل يهدد الشوارع والبيوت.

وفي نهاية عام ١٠٨٩هـ هطلت أمطار غزيزة وسالت الأودية، وما لبثت المياه أن ازدادت زيادة كبيرة، وفي الرابع عشر من ذي الحجة فوجيء الناس بسيل هائل يتدفق في وادي بطحان (ويسمى أيضاً وادي أبو جيدة) وتقتحم مياهه البيوت المحيطة به، وتعصف بمعظمها فتسقط جدرانها، وتنطلق إلى الحدائق والبساتين فتغمرها وتخرب الزرع وتقتل بعض الماشية، وفزع الناس فزعاً شديداً وأسرعوا لإنقاذ سكان المنطقة التي يجتاحها، واقترب السيل من المسجد النبوي، فضج الناس بالدعاء والبكاء، ونشط الرجال في عمليات الإنقاذ، وأخيراً صرف الله خطر السيل عن الحرم وبقية البيوت، وأثمرت

---

١) انظر مختصر رحلة العياشي ص ١٧٠.

٢) تحفة المحبين ١٥٢.



١ ـ وكانت فيضانات الأودية تفرق عدداً من بساتين المدينة وتهدد البيوت والمسجد النبوي.

٢ ـ بحيرة سد العاقول.

جهود الرجال فأنقذت السكان القريبين من الوادي ((ولم يهلك في هذا السيل العظيم إلا شخص أو شخصان، وصارت تحية الناس بعضهم لبعض: نهنيكم السلامة))(١).

حادثة الوزير الخلفاني:

رأينا أنه منذ أواخر القرن العاشر ظهرت في المدينة المنورة مراكز نفوذ متعددة هي: نائب أمير مكة، وشيخ الحرم، وشيخ الأغوات، وقادة الفرق العسكرية، وخاصة قائد حامية القلعة وقائد فرقة الخيالة. وطبيعي أن يؤدي تعدد مراكز القوة إلى احتكاك بينها، ومن ثم إلى صدام ومواجهة.

وقد تأخر هذا الصدام إلى العقد الأخير من القرن الحادي عشر. ففي عام ١٠٩٠هـ كان نائب أمير مكة -الذي سمي بالوزير- هو محمد بن أحمد الخلفاني يدير شؤونها نيابة عن الشريف بركات بن محمد، وقد اختلف هذا الوزير مع القادة العسكريين، وحاول أن يحد من نفوذهم ويضبط تصرفاتهم، فثاروا عليه، واتهموه بأنه سب السلطان العثماني، وكان العسكر هم الذين يمثلون السلطان العثماني في المدينة، فحاصروه في بيته، وطلبوا منه أن يمتثل للمحاكمة أمام القاضي، وخشي الوزير إن خرج للعسكر أن يفتكوا به، فامتنع أول الأمر، ثم طلب منهم أن يفكوا الحصار عن بيته ويتفرقوا، وينتدبوا منهم شخصاً يمثلهم في الخصومة أمام القاضي، فلا يمكن أن يواجههم جميعاً، فرفضوا طلبه وشددوا الحصار وألحوا عليه في الخروج إلى المحاكمة فرفض، واعتبروا رفضه عصياناً وامتناعاً عن الامتثال للشرع وقضائه، وكتبوا محضراً بذلك عند القاضي، ثم اقتحموا عليه البيت، وكان قد دخل معه في منزله عدد من أصحابه ومناصريه فلما اقتحم العسكر البيت فر الوزير الخلفاني إلى بيوت الحريم، وطلب الباقون الأمان فأعطاهم العسكر الأمان على

---

١) سمط النجوم ٤/٥٣٠.

أمان الله وأمان السلطان، فلما خرجوا قتلوهم(١) وفتشوا عن الوزير الخلفاني فلم يجدوه، وبعد ساعات ((دلتهم امرأة على مكانه، فدخلوا عليه عند الحريم وقتلوه ثم سحبوه من أعلى البيت وطرحوه على الطريق إلى آخر النهار))(٢).

واضطربت المدينة لهذا الحادث الشنيع، وغضب الشريف بركات بن محمد لمقتل وزيره، وأرسل بعض رجاله ليحقق في الأمر ويعرف أسماء رؤوس الفتنة، وجمع معلومات كافية عن الحادثة، وكتب بها محضراً مفصلا وأرسله إلى دار الخلافة، وطلب معاقبة الجناة، وكانوا نحو ثلاثين نفراً.

وما لبث البريد أن حمل جواب دار الخلافة يأمر بفصل العساكر المتسببين في الفتنة ومصادرة ممتلكاتهم وطردهم من المدينة(٣)، والمدهش أن الجواب لم يتضمن أمراً بإعدام أي واحد منهم رغم قتلهم الوزير وجميع أصحابه الذين كانوا في البيت وعدداً من عبيده. ويبدو أن العاصمة العثمانية لم ترغب في كسر شوكة عساكرها الذين يمثلون سلطتها في المدينة فاكتفت بتلك العقوبة المخففة وقد نفذ الشريف بركات الأمر فأخرج الجناة من المدينة وصادر أموالهم وعين وزيراً جديداً خلفاً للوزير المقتول، واستطاع بعض المنفيين أن يحصلوا على عفو من دار الخلافة، فعادوا إلى المدينة وطويت صفحة تلك الجريمة.

هدايا لم تصل:

دأب بعض السلاطين والوزراء والموسرين في آفاق العالم الإسلامي على إرسال الأموال والصدقات وبعض الهدايا النفيسة لسكان الحرمين الشريفين المقيمين والمجاورين، وكانوا يرون في ذلك تقرباً إلى الله تعالى. وكانت بعض الهدايا توجه إلى المسجد النبوي وللحجرة النبوية بالذات، وبعضها -وهو

---

١) سمط النجوم ٤/٥٣٠.

٢) السابق نفسه.

٣) السابق.

الأنفع والأفضل- توجه للفقراء والسكان وللشرفاء والحسينيين. وفي عام ١٠٩٣هـ أرسل ملك الهند (أورنك زيب) مبلغ مئة ألف روبية، أربعون ألفاً منها إلى الشرفاء وستون ألفاً توزع مناصفة على سكان مكة والمدينة. وتسلم الشرفاء المبلغ كله، وبدؤوا يسجلون أسماء أهل مكة تمهيداً لتوزيع حصتهم عليهم، غير أنهم طمعوا في المبلغ، وطلبوا من أهل مكة أن يوقعوا على أنهم تسلموا حصتهم منه دون أن يعطوهم شيئاً. واستطاعوا أن يحملوا عدداً منهم على التوقيع، وأرسلوا إلى الوزير في المدينة المنورة أن يحصل على توقيعات أهل المدينة بتسلم حصتهم أيضاً لترسل التوقيعات إلى ملك الهند بناء على طلبه. وقد أبدى أهل المدينة شجاعة كبيرة، وتوحدت كلمتهم جميعاً على رفض التوقيعات، وكتب شيخ الحرم رسالة إلى شرفاء مكة وقع عليها وجهاء المدينة وقاضيها وقادة العسكر بالرفض(١)، وعجز الوزير عن حملهم على التوقيع، ولكن متسلمي الأموال لم يعدموا حيلة ينفذون فيها رغباتهم فدبروا تدبيراً آخر(٢) وأرسلوه إلى ملك الهند، وربما يكونوا قد زوروا بعض التوقيعات والأختام، وكلفوا واحداً من أهل المدينة بحمل الرسالة الجوابية إلى أورنك زيب في الهند، وهو السيد محمد البرزنجي، فسافر البرزنجي إلى الهند مع بعض رفاقه، واستطاع بعض أهل المدينة وأهل مكة أن يسربوا الأخبار مع الحجاج العائدين بما حصل، فلما وصل محمد البرزنجي إلى الهند لم يستطع أن يقابل أورنك زيب الذي اطلع على حقيقة الأمر وعاد خائباً إلى مرسليه، فلما رجع إلى المدينة كادوا له ليعاقبوه على تواطئه مع الذين استولوا على الأموال، فادعى عليه أحدهم أنه ضربه وطلب محاكمته أمام القاضي، فلما أرسل إليه القاضي ليحضر المحاكمة أدرك أنه سيتعرض لمكيدة ومحنة فرفض الخروج، فأرسل القاضي من أخرجه بالقوة واجتمع الناس

---

١) السابق ٥٣٩/٤.

٢) سمط النجوم ٥٣٧/٤.

لسماع الدعوى، وحصلت مناقشات حادة في المحاكمة فأمر القاضي بحبسه، وظل محبوساً أكثر من شهرين، وتمكن بعد ذلك من الفرار إلى مكة(١).

وداع هادئ للقرن الحادي عشر الهجري:

كانت الصراعات بين شرفاء مكة على إمارتها شديدة، وكانت آثارها كبيرة على مكة والمدينة. فقرر الخليفة العثماني محمد الرابع إنهاء هذا الصراع بإبعاد المتصارعين جميعهم عن الإمارة وتولية الشريف أحمد بن زيد الذي كان مقيماً في تركيا منذ مدة طويلة، فاستدعاه إلى قصره وقام له وصافحه قائلا: اللهم صلي على سيدنا محمد، ياشريف أحمد الحجاز خراب وأريدك أن تصلحه. وخرج الشريف أحمد من مقابلة الخليفة يحمل مرسوماً بتعيينه أميراً على الحجاز، وسافر مع البريد إلى دمشق فوجد الركب الشامي قد سافر للحج فغذ السير وراءه حتى لحقه في مدينة ((العلا)) ثم دخل المدينة المنورة مع الركب الشامي وتلقاه أعيان البلدة وعساكرها الذين سبق إليهم الخبر، وسار الأمير أحمد بموكبه إلى المسجد النبوي، فدخله وصلى فيه وسلم على رسول الله ﷺ ثم لبس الخلعة السلطانية في الروضة تجاه الحجرة النبوية، كما لبسها أبوه زيد قبل عدة سنوات، وجلس في دار الإمارة واستقبل أهل المدينة ثم توجه إلى مكة وتسلم إمارتها في ٧ من ذي الحجة ١٠٩٥هـ.

اهتم الأمير أحمد بتوطيد الأمن وكسر شوكة القبائل العاصية والتي تهدد القوافل والمدينة المنورة، فشن حملة قوية عليها وسار بعسكره في الطريق بين مكة والمدينة يخضع القبائل المستوطنة فيها إما حرباً وإما سلماً، وطارد عدداً كبيراً من المفسدين وقطاع الطرق وقتلهم. وفي السادس من شوال عام ١٠٩٧هـ انتهى من حملته التأديبية الواسعة ووصل إلى المدينة المنورة زائراً، فاستقبله أهلها بحفاوة، واستمر استقباله إلى العصر، ثم دخل المدينة المنورة

---

١) سمط النجوم ٥٧٢/٤.

وصلى في المسجد النبوي وسلم على رسول الله وزار مشهد سيد الشهداء حمزة وبات في المدينة.

وفي اليوم الثاني وصل البريد إلى المدينة يحمل إليه هدية من دار الخلافة، التي سرت من نجاحه في توطيد الأمن في الحجاز، وكانت الهدية سيفاً مذهباً وخلعة سلطانية، ومعها هدية أخرى لشيخ الحرم المدني قفطان فاخر، فذهب الشريف أحمد إلى المسجد النبوي ولبس الخلعة في الروضة تيمناً وتبركاً. وقد استمرت زيارته للمدينة إلى الثاني عشر من شهر ذي القعدة، وفرق خلال زيارته الأموال وأحسن إلى أهل المدينة(١) وودعت المدينة القرن الحادي عشر بهدوء واستقرار في داخلها وفي الطريق المؤدي إليها.

---

١) انظر خلاصة الكلام ١٠٩.

المدينة المنورة في القرن الثاني عشر

الاضطرابات الخارجية تؤثر على المدينة:

دخل القرن الثاني عشر والحياة في المدينة المنورة في مجراها العادي لايقلق الناس فيها سوى الخوف من عودة القبائل المجاورة من الإغارة على الطرق أو على المدينة نفسها، ومع أن المدينة تحصنت بعدد أكبر من العساكر، ونجح سورها في رد المغيرين غير مرة فإن ظهور أية قلاقل أو أفخاذ قوية متسلطة على القوافل والمسافرين يحدث اضطراباً في الحياة الاقتصادية، فتتحول القوافل التجارية عن المدينة أو تنهب، وتقل السلع وترتفع الأسعار ارتفاعاً فاحشاً.

ومما يسهم في اضطراب الحياة في المدينة أيضاً اضطراب الأحوال السياسية في مكة وتوابعها، فكثيراً مايؤدي الصراع على الإمارة أو الثورة على الأمير القائم إلى مصادرة التجارة والتجار في ميناء جدة، وقد يمتد أثر الثورة إلى ينبع فتختنق الموانئ ويقل الحجاج والزائرون.

وقد شهدت مكة المكرمة في مطلع القرن الثاني عشر صراعاً على إمارة الحجاز عندما توفي أميرها في أواخر ربيع الأول ١٠٩٩هـ، فاتفق أعيان مكة وشرفاؤها والقاضي والمفتي وقادة العسكر على تولية ابن أخيه سعيد بن سعد بن زيد، وكتبوا بذلك لدار الخلافة، وانتهز الفرصة الشريف أحمد بن غالب فكتب إلى والي مصر يطلب تعيينه في الإمارة وبذل له أموالا كثيرة، فأرسل والي مصر إلى والي جدة بموافقته على توليته، ورفض الشريف سعيد التولية، وأعد كل من الشريفين رجاله للقتال وكادت أن تقع معركة كبيرة في شوال ١٠٩٩هـ لولا أن الشريف سعيد قرر في آخر الأمر الانسحاب ومغادرة

البلاد(١) وما لبث الأمر السلطاني أن ورد من دار الخلافة يقر الشريف أحمد بن غالب.

ولكن الشريف أحمد بن غالب دخل في صراعات مع كثير من الأشراف، فأعلن بعضهم العصيان وتوزعوا في ينبع والطائف وجدة وانفصلوا بجماعاتهم وأخذوا يعدون العدة للزحف على مكة وطرد الشريف أحمد بن غالب، فعمت الفوضى واضطرب الأمن في السنة الأولى بعد الألف والمئة للهجرة ١١٠١هـ، وانقسم الشرفاء حسب عائلاتهم القريبة عدة شيع، منهم من يطالب بعودة سعيد بن سعد بن زيد، ومنهم من يطالب بتولية أحد أولاد الشريف مبارك شنبر، ومنهم من يطالب بتولية محسن بن الحسين بن زيد. واستطاع هؤلاء أن يحتلوا جزءاً من مكة ويناجزوا الشريف أحمد بن غالب عشرين يوماً إلى أن غادر مكة، وتسلم الشريف محسن بن الحسين بن زيد الإمارة، وتلقى مرسوم التأييد من السلطة بعد حين، ولكن كثيراً من الشرفاء خرجوا عليه فقطعت الطرق وقلت الأرزاق(٢) ولم تعد تصل إلى جدة إلا إذا أرسل والي جدة من يحرسها، فاشتد غلاء الأسعار وتحرك الشريف سعيد بن سعد بن زيد واستطاع أن ينتزع الإمارة ويدخل برجاله مكة عام ١١٠٣هـ وكتب أعيان مكة إلى دار الخلافة يطلبون مرسوم التأييد فجاء الجواب بتعيين سعد بن زيد والد سعيد أميراً واعتماد ابنه نائباً عنه إلى حين وصوله فقد كان سعد بن زيد منذ خروجه إلى تركيا قبل ٢٠ عاماً مقيماً فيها وكان آخر عهده بالحجاز يوم غادر المدينة المنورة خشية أن يقبض عليه رجال الشريف بركات عام ١٠٨٣هـ، وشاء الله أن يعود سعد بن زيد بعد هذه المدة الطويلة أميراً على الحجاز كله.

وقد تأثرت المدينة المنورة بالاضطرابات التي وقعت في مكة، ولكن

---

١) تاريخ مكة ٣٩١_٣٩٢.

٢) السابق ٣٩٣.

تأثرها كان اقتصادياً وليس سياسياً أو دموياً، فلم يشارك أحد من أهل المدينة في هذا الصراع ولم يحدث في ساحاتها أي ردة فعل لعزل شريف وتولي شريف آخر، فالتغيرات السريعة المتلاحقة لم تمكن شرفاء مكة المتوالين على إمارتها من النظر في أمور المدينة أو إجراء أي تغييرات مهمة في إداراتها، وظل النواب والموظفون في مناصبهم رغم تبدل الأمراء في مكة ولكن اضطراب الأمن وندرة القوافل التجارية القادمة، وقلة المسافرين والزائرين في هذه الفترة أسهم في ارتفاع الأسعار من جهة وفي تحرك بعض أفخاذ قبيلة حرب من جهة أخرى.

ففي حمأة الصراع على الإمارة على مكة لم يهتم أحد بدفع شيء لهذه الأفخاذ، وكانت المبالغ التي تصلها مورداً رئيسياً ومهماً لحياتها، فإذا انقطعت عنها فلا بد أن تفتش عن مورد آخر، ونظراً لقلة القوافل والمسافرين لم يعد أمام تلك الأفخاذ إلا أن تهاجم المدينة نفسها، خاصة وأنه لاتوجد قوة كبيرة تدافع عنها، ولا أمير يجرد حملة تأديبية رادعة. وقد هاجمت أعداداً كبيرة من أفخاذ حرب المدينة المنورة أكثر من مرة، وكان آخرها بعد أن تولى الشريف سعد الإمارة في مكة (وأخذوا ذخائر أهل المدينة من حبوب وزيت وشموع وطعام وتحيزوا في وادي الصفراء ولم يتركوا لأهل المدينة من حصتهم بيضاء ولا صفراء)(١).

تأديب الغزاة:

وعندما استقرت الأمور للشريف سعد بن زيد قرر أن يجرد حملة على الأفخاذ التي آذت المدينة لتأديبها، ولتأمين طريق القوافل والمسافرين أيضاً فجهز قوة كبيرة وزودها بالمدافع والبنادق والذخيرة، وسار على رأسها إلى وادي الصفراء فهاجم القبائل المجتمعة فيها، وقتل عدداً من رجالها وأسر عدداً آخر، وأخذ يطارد الهاربين منهم ويضربهم ضربات شديدة كي يمنع

---

١) الحقيقة والمجاز للنابلسي ٣٢٣.

تجمعهم ويشتت قواهم، وتابع هذه القبائل على طريق المدينة إلى أن اقترب منها وتم له النصر وقتل عدداً من شيوخ حرب، وأرسل الأخبار إلى المدينة المنورة، وأمر نائبه فيها بنصب الزينات ثلاثة أيام وبضرب المدافع في القلعة ليشعر الناس بالنصر ويروحوا عنهم ما أصابهم من قبل. وفي منتصف رمضان وصل الشريف سعد وعساكره إلى مشارف المدينة المنورة وضرب خيامه في ذي الحليفة (أبيار علي) فخرج أعيان المدينة لاستقباله واحتفوا به، ودخل الشريف سعد وابنه سعيد المدينة وأقام فيها عدة أيام، وفرق في أهلها الأموال، ثم عاد إلى مكة. وقد اطمأنت المدينة بعد هذه الحملة وأمنت شرور حرب مدة طويلة.

عودة (الأمير) إلى المدينة:

وما لبث الشريف سعد أن عين أخاه محسن بن زيد نائباً له في المدينة المنورة، فوصل الشريف محسن في مطلع عام ١١٠٧هـ وتولى إدارة الأمور عن أخيه، وأطلق عليه لقب الأمير وكان هذا اللقب قد غاب عن المدينة المنورة وحل محله لقب: الوزير منذ أن عين الشريف بركات أحد وزرائه في إدارة المدينة المنورة، كما أن الأمراء الحسينيين -حكام المدينة سابقاً- تركوها نهائياً وتنازلوا عن الجزء الضئيل من النفوذ الذي بقي لهم، وآثروا أن يعيشوا حياتهم الخاصة بلقب ((السادة)) الذي يطلق على العلويين من أحفاد الحسين بن علي رضي الله عنه.

فتنة بني علي ومحنة المدينة:

بنو علي فخذ من قبيلة حرب يقيم معظمهم قرب المدينة المنورة، ويقيم عدد قليل منهم داخل المدينة، وقد عانى أهل المدينة والمسافرون منها وإليها من بعض أفخاذ قبيلة حرب الذين يتعرضون للقوافل المسافرة، كما عانت المدينة نفسها منهم الكثير، لذلك كان في نفوس أهل المدينة الكثير عليهم.

ومع أن فخذ بني علي لم يرد ذكره في المرات التي هوجمت فيها

المدينة، إلا أن الكثيرين كانوا يعتقدون بتواطئ أبناء هذا الفخذ مع أقاربهم في الهجوم على المدينة ونهبها أو في مناصرة المهاجمين وإيوائهم بعد غاراتهم أو حين مطاردتهم. وقد تطورت مشاعر أهل المدينة بعد الغارات المتوالية في مطلع القرن الثاني عشر، وكان الاحتكاك بهذه الأفخاذ كفيلا بتفجير الضغائن وإحداث المصادمات. ويذكر المؤرخون أنه في سنة ١١١١هـ بلغ ذلك الاحتكاك ذروته مع فخذ بني علي، وكان لشيخ الحرم آنئذ (شاهين أحمد آغا) مشاركة فعالة في هذه الفتنة. ولا نجد سبباً مباشراً للصدام الذي وقع ذلك العام، وربما يكون السبب حادثة احتكاك مع أشخاص معينين من بني علي، مالبث أن تحول إلى نزاع شامل تعاضد فيه عدد كبير من أهل المدينة ضد بني علي، وثمة تقارير بهذه الفتنة رفعت إلى دار الخلافة لابد أنها موجودة ضمن الوثائق العثمانية، ولكنها لم تعرض ولم تترجم بعد، وسيؤدي ظهورها إلى كشف الأسباب المباشرة والحقيقية لها. وإلى أن يتم ذلك لانملك إلا أن نقول: إن المشاعر قد تألبت في المدينة ضد بني علي المقيمين داخل المدينة وخارج سورها وإن شاهين أحمد آغا أسهم في تأجيجها. وقد تفجرت هذه المشاعر، فحمل أهل المدينة السلاح وانضم إليهم عدد من العساكر وهاجموا بني علي وأوقعوا فيهم إصابات شديدة، فانسحب بنو علي شرقاً وتبعهم أهل المدينة حتى بلغوا حرة بني قريظة، وكان الوقت صيفاً والحر شديداً، فقتلوا عدداً منهم وأسروا عدداً آخر، فتابع بنو علي فرارهم شرقاً وجنوباً فأمر شاهين آغا بالكف عنهم والرجوع إلى المدينة، غير أن بعض أهل المدينة أرادوا أن يجهزوا على بني علي ويقضوا على قوتهم نهائياً، فطلبوا أن يتابعوا القتال حتى يستسلم المقاتلون فيأسروهم ويقضوا على شوكتهم نهائياً خاصة وأنهم أحيط بهم، فأبى شاهين أحمد آغا، وأصر على العودة إلى المدينة، ولكي يحملهم على طاعته والرجوع إلى المدينة أمر بإهراق الماء الذي يحمله الناس معهم، ورجع بمن أطاعه، وكانوا

كثيرين، وبقي الآخرون في أرض المعركة، واشتد حر الشمس على الجميع وسقط بعضهم من أذى الشمس وحرها ومن العطش، ثم فوجيء أهل المدينة بجموع من الأعراب تدهمهم وتسلبهم مايحملون من أسلحة وأموال، وكان مع الأعراب قرب من المياه تحملها نساؤهم من خلفهم بينما كان العطش يأخذ من أهل المدينة مأخذه، فضعفت مقاومتهم وتشتتوا في المنطقة لاهثين، وأمسك الأعراب عدداً كبيراً منهم وتبعوهم إلى المدينة، ولم تكن فيها مقاومة تذكر بعد أن تشتت الرجال، فتابعوا النهب والسلب، وعاثوا بالبساتين فساداً وأخذوا ما وجدوه من تمر وحنطة، فخرج العسكر من القلعة وردوا الأعراب بالبنادق، فانسحب الأعراب حاملين معهم غنائمهم، وتقاطر أهل المدينة منهكين منهوبين.

كانت نتائج الموقعة قاسية جداً على بني علي وعلى أهل المدينة أنفسهم، فبعد أن ضرب أهل المدينة بني علي ضربة قاصمة جاء الأعراب ففتكوا بالطرفين ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم، وقد حنق الناس على شاهين آغا وعدوه سبب النكبة التي حلت بالناس، لأنه بإهراقه الماء عرضهم للعطش الشديد وأضعف مقاومتهم، ومكن الأعراب من البطش بهم، فكتبت فيه الشكاوى إلى الأمير سعد بن زيد وإلى دار الخلافة، فجاء أمر دار الخلافة بعزل شاهين آغا من مشيخة الحرم(١).

معرض الأموال المنهوبة:

في نهاية عام ١١١٣هـ وبعد أن رحل الحجاج من المدينة، فوجئ الناس بعدد من أعراب قبيلة عنزة يدخلون بجمالهم المدينة وينيخونها في السوق ثم يخرجون منها أحمالا كثيرة ويبسطونها للبيع، وكانت المعروضات تضم أنواعاً شتى من الأقمشة والثياب والأواني والأمتعة الشخصية والبضائع الأخرى منها الجديد ومنها المستعمل، ومنها المألوف ومنها الغريب، وعرض

---

١) انظر الأخبار الغريبة ص ٣، ٤ وتحفة المحبين ٦٣.

الأعراب على الناس شراءها بأسعار رخيصة جداً، وأدرك الناس أن هذه المعروضات لابد أن تكون أموال قافلة نهبها الأعراب، وعرفوا من ثم أنها أموال ركب الحج الشامي، والغريب أن المدينة التي اكتوت بغزوات الأعراب ونهبهم، وكان أقربها وقعة بني علي لم تفعل شيئاً مع أولئك السارقين. واشترى بعض أهلها البضائع المنهوبة، ويذكر الأنصاري أن رجلا من أهل المدينة اشترى أكياساً من البن بمبلغ بخس، فلما فتحها وجد فيها صرراً من المال فاغتنى(١) ولا شك أن الذين اشتروا هذه البضائع المنهوبة كانوا قلة من الناس، لايمثلون الاتجاه الأخلاقي العام في المدينة، لكنهم يمثلون تياراً محدوداً تنشئه ظروف الاضطرابات والقلاقل عادة.

الثائر للمظلومين:

لملمت المدينة المنورة جراحها بعد وقعة بني علي وعاشت حياتها العادية إلى أن تولى إمارة الحجاز الشريف عبد الكريم بن محمد بن علي عام ١١١٦هـ بعد سلسلة من الصراعات مع الشريف سعيد بن سعد وأبيه سعد بن زيد، وثبت بمرسوم من الخليفة العثماني في السادس من شعبان ١١١٧هـ، وأخذ يرتب شؤون إمارته وألغى منصب الأمير في المدينة وأعاد مسمى الوزير وعين وزيراً للمدينة المنورة هو السيد أحمد بن محمد بن دده، وهو ابن أحد المهاجرين الروم إلى المدينة المنورة، ولد ونشأ فيها وتقلب في عدة وظائف كان آخرها وظيفة في القلعة السلطانية، ويذكر الأنصاري أن أحمد هذا عندما تولى وزارة المدينة ظلم وتعدى الحدود(٢) ولقي منه أهل المدينة عنتاً. (وبلغ

---

١) تحفة المحبين ١٧٨.

٢) تحفة المحبين ص ٢٢٥.

به الظلم أنه أمر بقتل رجلين صالحين أحدهما سندي والآخر يماني)(١).

وقد ضج أهل المدينة من تصرفاته، واشتكوه إلى الشريف عبد الكريم فعزله، ولم يتركه أهل المدينة بعد عزله، فرفع عبد الكريم بن يوسف بن عبد الكريم الأنصاري -والد عبد الرحمن الأنصاري مؤلف كتاب تحفة المحبين- دعوى القصاص نيابة عن أولاد الرجل اليماني الذي قتله ابن ددة ظلماً، وكان الأنصاري قد تولى أمرهم وألحقهم بأبنائه، فنظر القاضي بالدعوى وثبت لديه صحتها، فحكم بقتل ابن ددة قصاصاً وقبض عليه وشنق في السجن ثم علقت جثته في المناخة عام ١١٢٠هـ.

المدينة تشهد عزل الشريف:

وكما شهدت المدينة نهاية هذا الوزير الظالم، شهدت الأحداث التي أدت إلى نهاية إمارة الشريف عبد الكريم.

فقد فرض الشريف عبد الكريم على حجاج الأحساء ضريبة يؤدونها كما يؤديها القادمون من البلاد البعيدة، فضج أهل الإحساء من هذه الضريبة، واشتكى أميرهم إلى قائد العسكر التركي نصوح باشا، فأرسل نصوح باشا إلى الشريف عبد الكريم أن يسقط الضريبة، فانزعج الشريف ورأى في لهجة نصوح باشا الآمرة تدخلاً في شؤون الإمارة والحكم وتعدياً على منصبه، وكتب إليه يطلب منه ألا يتدخل في شؤون بلده، فغضب نصوح باشا وكان يؤدي مناسك الحج، ولما فرغ من حجه توجه إلى المدينة المنورة، وفي الطريق هاجم بعض بني حرب قافلته، فظن نصوح باشا أن الشريف عبد الكريم أمرهم بذلك، وكتب محضراً بالحادثة وطلب عزل الشريف عبد الكريم وتعيين الشريف سعيد بن سعد، ومهر المحضر بتوقيعات أعيان الحجاج الذين يرافقونه في القافلة، فلما وصل إلى المدينة أرسل المحضر إلى الآستانة، وبعد عدة أشهر جاء البريد إلى نصوح باشا يحمل موافقة الآستانة على

---

١) السابق نفسه.

اقتراحه بعزل الشريف عبد الكريم وتعيين الشريف سعيد، فسارع نصوح باشا بإعلان مراسيم دار الخلافة، وأطلق المنادي في شوارع المدينة ينادي أن الأمير الجديد للحجاز هو الشريف سعيد، وأرسل كتاباً بذلك إلى قاضي مكة والقائد العسكري في جدة لإنفاذ الأمر، وأرسل إلى الشريف سعيد يخبره ويهنئه ويحثه على المسارعة إلى مكة وتسلم الإمارة، فأخذ الشريف سعيد برأي نصوح باشا وتوجه بجموعه إلى مكة، واستعد الشريف عبد الكريم برجاله للقتال، وكادت أن تحدث معركة كبيرة لولا أن تدخل بعض المصلحين وأصلحوا بين الشريفين، وانتهى الأمر بخروج الشريف عبد الكريم من مكة ليقيم في وادي فاطمة وتولي الشريف سعيد بن سعد.

صراع العسكر في المدينة:

كانت المدينة منطقة الأحداث التي عصفت بإمارة الشريف عبد الكريم، لكنها لم تكن ميداناً لتلك الأحداث، وظلت محافظة على هدوئها في حياتها اليومية في السنوات العشر التالية، لايعكر هذا الهدوء سوى أخبار قطع الطريق على بعض القوافل والمسافرين، والخلافات التي تنشب بين فرق العساكر في المدينة المنورة. فكان الصراع على النفوذ أو تدخل طرف في أمر من الأمور ومعارضة طرف آخر مدعاة لهذه الخلافات، وكانت هذه الخلافات تحل بالتفاهم بين الرؤساء غالباً أو بمساعي المصلحين كالقاضي وشيخ الحرم وأعيان المدينة الآخرين، وقلما تتفاقم وتتحول إلى صدامات مريعة بين العساكر.

وفي عام ١١٢٧هـ وقعت خلافات شديدة بين عساكر القلعة وعساكر من الفرق الأخرى، فهاجم عساكر الفرق الأخرى القلعة وحاصروها، وكان نائب القاضي متحيزاً لعساكر القلعة فحوصر معهم داخل القلعة، واستمر الحصار ثلاثة عشر يوماً وحدثت مناوشات بين الطرفين وسقط عدد من الجرحى، ثم اقتحم المهاجمون القلعة وأخرجوا العساكر المعتصمين وسجنوهم، وفوجئوا

بنائب القاضي معهم فرفعوا أمره إلى دار الخلافة، فورد الأمر بعزله ومصادرة أمواله وإخراجه من المدينة(١).

وقد تأذى أهل المدينة من هذه الصراعات التي كانت تنشب بين العساكر ولكنها حتى هذا الوقت كانت صراعات محدودة لم يتدخل فيها إلا بعض كبار الموظفين، وكان الأذى الحاصل منها ينحصر في موجة من القلق والاضطراب التي تنتشر مع أخبار الصراع، ولم تكن هناك إصابات بين السكان على نحو ما سيحدث فيما بعد.

ولم تكن مشكلات العساكر مقصورة على السكان داخل المدينة، بل كانت تمتد خارجها أحياناً، فتقع مصادمات بينهم وبين بعض أفخاذ القبائل، كما أن تصديهم للمغيرين من قبائل حرب يترك في نفوس تلك القبائل ثارات عليهم، وينشئ سبباً جديداً لمهاجمتهم المدينة. وقد حدث في عام ١١٣٢هـ أن هاجم جنود من فرقة (الإسباهية) الخيالة مجموعة من العربان ينتمون إلى الحنانية -وهي فرع من فروع قبيلة حرب- وقتلوا أفراداً منهم، فعزم الحنانيون على الثأر من الإسباهية لاعتقادهم أنهم هوجموا دون مسوغ، فباغتوا المدينة المنورة في إحدى ليالي ذلك العام واستطاعوا أن يتسلقوا السور ويفاجئوا الحراس ويصيبوا عدداً من جنود الإسباهية ويأسروا عدداً آخر ممن وجدوه في المنطقة، فحملوهم وخرجوا بهم إلى البر(٢).

جماعة العهد:

إزاء هذه الأحوال المضطربة في المدينة المنورة، وصراعات مراكز القوى المختلفة ومعظمها أصلاً من خارج المدينة، كالفرق العسكرية الأربعة: (القلعجية والنوبتجانية والإسباهية والإنكشارية)، وكشيخ الحرم ونائب الأمير أو وزيره، أحس عدد من أهل المدينة بالضيق الشديد وقرروا أن يفعلوا شيئاً

---

١) السابق ٦٧ـ٦٨.

٢) السابق ٤٥٢.

يجنبون به أهل المدينة آثار الصراعات وضعف الإدارة، فتداعوا إلى الاجتماع ومناقشة الأمور، واجتمعوا في بيت واحد من أعيان المدينة، واتفقوا على أن يكونوا يداً واحدة ضد الانحراف والفساد وأن ينصروا الحق بأيديهم وأموالهم وسيوفهم، وتعاهدوا على ذلك، واختاروا واحداً منهم ليكون رئيساً للمجموعة هو السيد محمد بن علي بن أبي العزم العادلي، وتعاهدوا على الالتزام بما اتفقوا عليه، وقد سمي هؤلاء بجماعة العهد، وكان فيهم رجال ينتمون إلى عدد من عائلات المدينة البارزة، وفيهم من عمل في الفرق العسكرية.

ويمثل هذا التجمع ردة فعل طبيعية لتردي الأحوال والفساد الإداري وضعف قوة الدولة أمام مراكز النفوذ المتعددة. كما أنه يمثل درجة عالية من الوعي في أهل المدينة ومن الإحساس بضرورة تدخلهم في الأحوال التي يصنعها الآخرون ولا يجنون منها إلا القلق. وكان من الممكن أن تتحول هذه الجماعة إلى قوة مراقبة وتصحيح تحجم نفوذ القوى الأخرى أو تستوعبها وتفرض نفسها حتى على الدولة العثمانية، لأن الدولة العثمانية كانت تأخذ في كثير من الأحيان بمنطق الأمر الواقع، وتقر الذين يتغلبون بالقوة في المراكز التي استولوا عليها وكان من الممكن أن تغير هذه الجماعة صفحات كثيرة في تاريخ المدينة لولا أن أجهضت في أول مواجهة لها مع الأحداث، وكان من سوء حظها أن تكون تلك المواجهة في فتنة الأغوات فيبتلعها تيار الصراعات والدسائس.

فتنة الأغوات:

رغم وجود نائب عن أمير الحجاز في المدينة المنورة يحمل لقب وزير، فإن الإدارة فيها كانت ضعيفة أدت إلى ظهور قوى أخرى تصنع الأحداث والفتن، وتؤثر في حياة أهل المدينة في ذلك الوقت، وكانت أول قوة تظهر هي قوة الفرق العسكرية التي قدمت بعد دخول الحجاز في سلطة الدولة العثمانية، وقد ازداد نفوذ هذه الفرق تدريجياً وأدى إلى صراعات بينها وبين نائب الأمير أحياناً، وبينها وبين بعضها بعضاً أحياناً أخرى.

وما لبث أن برز نفوذ آخر لأصحاب الوظائف الكبرى، شيخ الحرم والقاضي والمفتي، وهؤلاء يعينون من قبل دار الخلافة مباشرة، ويعد شيخ الحرم أقوى هؤلاء نفوذاً، يؤخذ برأيه، وتنفذ طلباته في كثير من الحالات.

ويتبع شيخ الحرم جميع العاملين في الحرم وفي مقدمتهم الأغوات. والأغوات هم خدام المسجد النبوي والقائمون على شؤونه، ولهم نظام دقيق وتاريخ طويل يرجع إلى أيام نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، وقد تطور وضع الأغوات بعد دخول الحجاز في سلطة الدولة العثمانية، وصار شيخهم يعين من قبل الدولة العثمانية مباشرة، وبلغ عددهم ثمانين شخصاً منقسمين إلى قسمين: أغوات أصلاء وعددهم أربعون، وأغوات احتياطيون يحلون محل من يتوفى من الأصلاء وعددهم أربعون أيضاً، وكان الناس في المدينة يجلونهم لقيامهم على شؤون المسجد النبوي ولاستغراقهم في العبادة وسلوكهم الحسن. غير أن تدخل الدولة العثمانية في تعيين بعض الأغوات وما تفعله الوساطات والرشوة قد أدخل إلى صفوف الأغوات بعض الأفراد الذين ليسوا في المستوى المطلوب لهذا العمل، فظهرت بعض الانحرافات والتصرفات السيئة ويذكر بعض المؤرخين أنه في عام ١١١٨هـ سرق ثلاثة من الأغوات تحفة ثمينة من التحف المهداة إلى الحجرة النبوية، وهي كرة ذهبية على شكل شمامة مرصعة بالجواهر ومحشوة بالعنبر، أهداها أحد سلاطين العجم

للمسجد النبوي كي توضع في الحجرة النبوية، وقد كسروها وبدؤوا يبيعون أجزاءها الذهبية، فكشف أمرهم وعوقبوا وعزل شيخ الحرم(١).

وتطور وضع الأغوات سلبياً في هذا القرن بسبب ضعف الإدارة واضطراب الأمور في المدينة المنورة ودخول بعض من لاتتوافر فيهم الشروط اللازمة في سلك الأغوات، فخرج بعضهم عن مهمتهم الأصلية، وأخذوا يتدخلون في الشؤون العامة في المدينة المنورة، وصار لهم أتباع ووساطات ومداخلات. وقد أحدث تدخلهم في الشؤون العامة امتعاضاً عند الكثيرين من أهل المدينة، فصورة الأغوات ترتبط في النفوس بالزهد والتقوى والعبادة وسدانة المسجد النبوي، وأدى هذا الشعور إلى وقوف معظم أهل المدينة ضدهم عندما اصطدموا مع عسكر القلعة عام ١١٣٤هـ وحدث ما سمي فيما بعد فتنة الأغوات.

أحداث الفتنة:

تتلخص أحداث فتنة الأغوات في أن رجلا من أتباع الأغوات يدعى علي قنا كان يعمل في حامية القلعة، ففصل من عمله بسبب بعض تصرفاته، وحاول بعض الأغوات التوسط له وإعادته إلى عمله، فرفض قائد حامية القلعة إعادته بحجة أن نظام الحامية يمنع إعادة المفصولين من الخدمة، فغضب الأغوات وعدوا رفض قائد الحامية إهانة لهم واستهتاراً بقيمتهم الاجتماعية، وأغلظوا القول له، فاشتد الخلاف بين الأغوات وعسكر القلعة وتحول إلى خصومة جماعية، وأخذ الأغوات يؤلبون الناس على حامية القلعة ويستنصرونهم عليهم. ورد قائد الحامية وعساكره على تصرفات الأغوات بالمثل فتحدثوا عن أخطاء الأغوات وتدخلاتهم في الشؤون العامة. وبدأت الفتنة تتسع وتتعدى العسكر والأغوات إلى مناصريهما، وأراد قاضي المدينة أن يتوسط للصلح بين الطرفين، فأرسل إليهما للحضور عنده في مجلس القضاء، فرفض الأغوات

---

١) انظر الأخبار الغريبة ص ٥.

حضور المجلس لأنه لاتوجد دعوى ضدهم ولا يرون أنفسهم مخطئين، وكرر القاضي دعوتهم فخافوا أن يقبض عليهم أو يتطاول عليهم العسكر، فعدهم القاضي عصاة خارجين على الشرع، وتحصن الأغوات بالمسجد النبوي وأغلقوا أبوابه وصعدوا إلى مناراته، واستعدوا بالأسلحة لمواجهة من يهاجمهم.

وهنا برز جماعة العهد، فقد رأوا في تصرفات الأغوات خطأ فاحشاً، لأنهم امتنعوا عن الامتثال لأمر القاضي، وعطلوا الصلاة بالمسجد النبوي، ورأوا أن واجبهم أن يصححوا الخطأ ويتصدوا للمخطئين، وازدادت حماستهم لذلك عندما أصدر القاضي أمراً بإنهاء اعتصامهم في المسجد النبوي وإخراجهم منه ولو أدى الأمر إلى قتالهم فيه، فذهبوا مع جماعة من العسكر وحاصروا الأغوات بالمسجد، وتبادل الفريقان إطلاق النار بالبنادق، وحصلت مصادمات بينهم وبين أتباع الأغوات وأنصارهم في أماكن متفرقة من المدينة، وسقط بعض القتلى والجرحى، وقتل رجل من جماعة العهد اسمه أحمد بن سفر بن أمين قتله أنصار الأغوات عند جبل سلع(١) وظل التراشق والقتال إلى مساء ذلك اليوم، وأدرك الأغوات أن الدائرة ستدور عليهم فطلبوا الأمان مقابل إنهاء اعتصامهم، فأبى محاصروهم إعطاءهم الأمان إلا إذا قبلوا المثول للمحاكمة، واتفقوا أخيراً على أن تكون المحاكمة عند الشريف مبارك بن أحمد أمير مكة و الحجاز، وتقدم ستة من الأغوات نيابة عن بقية الأغوات وسلموا أنفسهم للحامية، وكانوا هم رؤساءهم ومحرضيهم على الاعتصام.

وسافر قائد الحامية ومجموعة من ضباطه وجنوده وقاضي المدينة والمفتي وأفراد من جماعة العهد وستة الأغوات المعتقلين إلى مكة، وعقد الشريف مبارك بن أحمد جلسة للقضاء حضرها قاضي مكة ومفتيها وعدد من الشرفاء والأعيان، وأدلى كل فريق من المتخاصمين بأقواله، فأدان المجلس جماعة الأغوات وحكم بعزل رؤساء الفتنة وسجن بعضهم ونفي بعضهم الآخر،

---

١) تحفة المحبين ٢٨٤.

وأمر الشريف مبارك بإنفاذ الحكم، فنفذ على الفور، وأرسل محضر بذلك إلى دار الخلافة.

انتقام الأغوات:

غير أن الفتنة لم تنته فصولها، فقد ذهب المنفيون إلى دار الخلافة وتبعهم بعض الأغوات الذين لهم صلات وصداقات في الآستانة، واتصلوا بكبار المسؤولين وطرحوا القضية من وجهة نظرهم هم، وصب الأغوات جام غضبهم على جماعة العهد، وعدوهم المسؤولين الرئيسيين عما أصابهم من إهانات. واستطاعوا أن يقنعوا المسؤولين بالآستانة بخطورة هذه الجماعة.

وطبيعي أن يتحسس المسؤولون في الآستانة من قيام أي تنظيم يشكل قوة تنافس أو توازي قوة السلطة، غير أن هؤلاء المسؤولين تصرفوا كما كانوا يتصرفون في كثير من أمور الولايات البعيدة، وتقبلوا أقوال الأغوات ووسطاءهم على أنها حقائق مسلمة، ولم يكلفوا أنفسهم التحقيق في الأمر، ورغم وجود رسالة الشريف مبارك بن أحمد بالقضية فإنهم اقتنعوا آخر الأمر بوجهة نظر الأغوات وأصدروا أوامر قاسية ضد جماعة العهد، منها قتل النشيطين فيهم: رئيسهم محمد العادلي وعبد الكريم البرزنجي وابنه حسن ومحمد بن أحمد الدلال، ونفي عدد آخر منهم عبد الكريم حيدر ومحمد تقي البكري ومحمود أحمد السندي، وإلغاء الأحكام الصادرة بحق الأغوات الستة وإعادتهم إلى مناصبهم.

وقد استغرقت جهود الأغوات عدة شهور حتى استصدروا هذه المراسيم، فوصلت الأوامر إلى شريف مكة ثم نائبة في المدينة في أوائل عام ١١٣٦هـ. فقبض على عبد الكريم البرزنجي وعبد الكريم حيدر، وهرب كل من محمد الدلال ومحمود أحمد السندي وحسن بن عبد الكريم البرزنجي، وسبق قدر محمد العادلي رئيس جماعة العهد المراسيم فستره الله عز وجل بالموت، وأرسل عبد الكريم حيدر إلى الآستانة وسيق عبد الكريم البرزنجي إلى جدة

حيث سجنه القائد العسكري التركي باكير باشا مدة من الوقت ثم أخرجه ليشنق قرب سوق جدة وتطرح جثته إلى آخر النهار.

وقد روع أهل جدة بهذا العمل القاسي، وكانت قد انتشرت بينهم أخبار القضية كلها، فذهب بعض أهل جدة إلى باكير باشا ورجوه أن يأذن بدفن الجثة فأذن لهم، وكانت مشاعر أهل جدة متعاطفة معه إلى أبعد حد، فسمي الحي الذي شنق فيه: حارة المظلوم، وما زال يحمل هذا الاسم حتى اليوم.

ولا شك أن المدينة قد تجرعت مرارة كبيرة بهذه النهاية التعيسة لجماعة العهد، ولهذا الخطأ الكبير الذي وقع فيه المسؤولون في الآستانة، والذي يتكرر ويتكرر، وهو إصدار الأحكام بناء على تقارير أو آراء من طرف واحد(١).

فتن متوالية:

لم تتحسن الأحوال في المدينة المنورة بعد القضاء على جماعة العهد، ورغم الإحساس بقوة الدولة وإمكان بطشها من خلال تلك الأحكام التي كانت تصدرها بناء على التقارير التي تصلها دون أن تتثبت من صحتها، فإن القلاقل والفتن مافتئت تظهر بين الحين والآخر وكان في مقدمتها الفتن التي تنشب بين الفرق العسكرية ذاتها، وأحياناً داخل الفرقة الواحدة، بين الجنود والقادة، إما لسوء المعاملة، أو لغبنهم بعض الحقوق، غير أن الفتن التي تنشأ بين الفرق العسكرية هي الأظهر وهي التي ستؤثر على الأحداث في السنوات التالية.

ولم تكن هذه الفتن تؤدي إلى قتلى دائماً، وبخاصة عندما يتدخل كبار الموظفين كالمفتي والقاضي وشيخ الحرم، ولكنها تحدث أزمات واضطراباً في الأمن وخوفاً عند الناس وقد تغلق الدكاكين أبوابها، ويشير الأنصاري إلى أن

---

١) الأخبار الغريبة ص ٦-١٠ وتحفة المحبين صفحات ٩١، ١٠٧، ٢٣٧، ٢٨٤، ٣٥٨، ٤٤٩ وتاريخ مكة ٤١٦- ٤١٧.

الفتن قد كثرت بين العساكر عام ١١٤٨هـ، وتركت ضغائن في النفوس وثارات نفذت فيما بعد، كما أن بنو علي عادوا للظهور ثانية، واصطدموا مع عساكر القلعة ومع بعض أهل المدينة في منتصف القرن الثاني عشر، وتسببوا في فتنة كبيرة عام ١١٥٤هـ، وقد هاجموا المدينة وتصدى لهم عساكر القلعة، وقاتلوهم عدة مرات وقتلوا عدداً منهم كما قتل بعض العساكر، ولم يحرزوا انتصارات تذكر، وقد تسلل بعضهم داخل المدينة وظفروا بقائد حامية القلعة عبد الرحمن بن عثمان الليبي وهو جالس في بستانه في السيح، وليس معه قوة تحميه فهجموا عليه وقتلوه، وهربوا، وكان بين قائد الحامية ومفتي المدينة عبد الله بن أسعد أفندي شيء من الخصومة، فاتهم عساكر القلعة المفتي بأنه وراء هذه الجريمة، وأنه ساعد بني علي على قتل قائد الحامية، وثار العساكر وتوجهوا إلى دار المفتي بالسلاح، واقتحموها وأطلقوا النار على من وجدوه فيها من الرجال، فقتلوا عدداً من عبيده، وعثروا على المفتي فأطلقوا النار عليه أيضاً وسقط المفتي يتضرج بدمائه، غير أنه لم يمت رغم إصابته بإحدى عشرة ضربة، فجاء أهله وحملوه وخرجوا به من المدينة إلى أبيار علي عند بعض أصدقائه، وظن عساكر القلعة أن المفتي قد مات، وظل المفتي يتعالج من جروحه أربعة أشهر حتى شفاه الله.

والمدهش ألا تحدث ردة فعل مباشرة على الهجوم على دار المفتي، وألا يتدخل نائب الأمير، وألا يحرك الأمير في مكة ساكناً -وكان الأمير هو الشريف مسعود بن سعيد- إزاء هذا الحدث الكبير، وربما أخذوا بما أشاعه العساكر من اتهام للمفتي فعدوا قتله ثورة غضب وانتقام لقتل قائد الحامية لا أكثر ولا أقل.

ظل أمر المفتي مكتوماً حتى تم شفاؤه، فعزم على السفر إلى الآستانة ليعرض أمره على الدولة ويطلب معاقبة عسكر القلعة، وعلم العسكر بذلك فبذلوا جهوداً كبيرة لاسترضائه، ووسطوا كبار الموظفين وأعيان المدينة حتى

أرضوه، وعفا عنهم وعاد إلى وظيفته.

وطبيعي أن هذه الحادثة تظهر غيبة السلطة الفعلية القادرة على ضبط الأمن ومعاقبة الجناة، سواء سلطة أمير مكة أو نوابه أو سلطة الدولة العثمانية ذاتها، وطبيعي أيضاً أن يجد بعض كبار الموظفين في هذه الظروف فرصة لتحقيق مكاسب شخصية، وأن يظهر الفساد والرشوة والاستيلاء على الأموال العامة وحقوق الناس بينهم، وأن يؤدي ذلك كله إلى فتن ومنازعات، وإلى ردة فعل قوية يقوم بها أهل المدينة وقد حدثت ردة الفعل هذه بين عامي ١١٥٥و ١١٥٦هـ وخلفت ضحايا عدة، وكان بدايتها ثورة شعبية عامة قادها رجل اسمه حسن كابوس.

ثورة حسن كابوس:

ينتمي حسن كابوس إلى أسرة مصرية الأصل، هاجرت إلى المدينة قبل أكثر من قرن، وولد حسن كابوس في المدينة ونشأ فيها، ثم انخرط في فرقة النوبتجاية وكانت له شخصية قوية ومؤثرة، فاستطاع أن يكون لنفسه مركزاً مرموقاً في الفرقة، رغم أنه جندي عادي فيها، وكان لحسن كابوس دكان قرب باب المصري يبيع فيها الحبوب خارج أوقات عمله الرسمي، وفي أواخر عام ١١٥٥هـ انتشر خبر في المدينة المنورة بأن كميات من الحبوب قد جاء بها عثمان بك لتوزع على أهل المدينة، فاستولى عليها كبار الموظفين ومنهم القادة العسكريون، وتصرفوا بها، واضطرب الناس وأخذوا يلغطون بالأمر ويوزعون الاتهامات على المفسدين الكبار، وكان حسن كابوس واحداً ممن اشتد بهم الغضب، فاستنهض زملاءه في الفرقة وعدداً من أهل المدينة وقاموا بثورة شعبية عارمة، وبدؤوا بأبواب المدينة فأغلقوها ووضعوا عليها حراساً منهم، ثم توجهت مجموعات صغيرة منهم إلى جهات متفرقة من المدينة، وتوجهت بقية الجموع إلى القلعة، حيث قادة الفرق العسكرية وعدد من كبار الموظفين، الذين لجؤوا إلى القلعة عندما سمعوا الاضطراب، وتزايدت الجموع

المحتشدة على أسوار القلعة، وأخذت تهدد باقتحامها، وظهرت الأسلحة وشرع حسن كابوس ورفاقه يخططون لاقتحام القلعة، ووجد المحصورون في القلعة أنه لاطاقة لهم بهذه الجموع الغاضبة، فبدؤوا يفاوضونهم، وأبدوا استعدادهم للتفاهم والإصلاح، فارتفعت أصوات الجموع المحتشدة تطالب بقتل المفسدين، وظهرت أصوات أقل تشدداً فطالبت بإخراجهم من المدينة، وقامت مجموعة صغيرة من أهل المدينة بالتوسط بين الطرفين وتم الاتفاق أول الأمر على إخراج ستة أشخاص من المدينة بينهم عمر زكي قائد حامية القلعة، ومصطفى (أودة باشي) قائد فرقة (النوبتجية)، ومحمد مراد قائد (الإسباهية) وثلاثة من كبار الموظفين، ولكن الجموع المحتشدة لم تكتف بهذا العدد، وراحت تتذكر أسماء المفسدين من كبار الموظفين وأتباعهم وأصروا على إخراجهم، فارتفع عدد المطرودين من المدينة إلى ثمانية عشر رجلا، وأذعن المحاصرون في القلعة لهذه الطلبات، وطلبوا كتابة حجة شرعية بذلك تضمن سلامتهم، وأخرجوا المبعدين من الباب الخارجي للمدينة، وكتب القاضي الحجة الشرعية وضمنها بناء على طلب الطرفين عهداً على المحافظة على الصلح، وعلى الإصلاح، والإعانة على تقوى الله وعدم الخيانه، وإعطاء كل ذي حق حقه، ووقع على الحجة كل من القاضي والمفتي وشيخ الحرم وجماعة من أهل القلعة والثائرين، وكانت هذه النتيجة أول انتصار لأهل المدينة على فئة كبار الموظفين، وقد أرسل شيخ الحرم صورة من هذه الحجة إلى الآستانة، وصورة أخرى إلى أمير الحجاز في مكة الشريف مسعود بن سعيد، فجاء المرسوم

من الآستانة بالموافقة على ماورد بالحجة(١).

نتائج متضاربة:

وكان من المتوقع لهذه الثورة الشعبية أن تؤتي نتائج كبيرة، منها إصلاح الأمور في الإدارات وفرق العساكر، وانتهاء الفساد والتسلط، واستتباب الأمن، ولكن الثورة مالبثت أن فقدت نتائجها وأدت إلى انتكاسة مريرة، فقد عزم أهل القلعة على الثأر مماحصل لهم والانتقام من رؤوس الثورة واستعادة سلطتهم وهيبتهم في نفوس الناس، فقرروا قتل محرك الثورة ضدهم وقائدها حسن كابوس، فقامت مجموعة من عساكر القلعة في شهر صفر عام ١١٥٦ بمباغتة حسن كابوس في دكانه وقتلوه وهربوا إلى القلعة، وانتشر الخبر في المدينة فاهتاج الناس وتجمعوا، وتنادوا إلى مهاجمة القلعة والانتقام لحسن كابوس، وتحصن أهل القلعة وراء أسوارها، وأشرعوا مدافعهم من فتحات الأبراج، وأطلقوا النار، فتراجع الناس وفكوا الحصار، ودفنوا حسن كابوس، وانصرفوا على مضض، ووقعت بعد ذلك صدامات محدودة بين الأهالي وعساكر القلعة، وسقط بعض الضحايا من الطرفين، فازداد سعار الفتنة.

نجدة خارجية لأهل المدينة:

وفي شهر جمادى الأولى عام ١١٦٥هـ استعان بعض أهالي المدينة بأقاربهم من خارج المدينة، فجاءتهم نجدة من قبيلة الجلوية الحربية بقيادة رجل يسمى الصالحي، وتسلقوا سور المدينة في ليلة الحادي والعشرين من جمادى الأولى في العتمة الأولى بين العشائين، ونزلوا داخل القلعة دون أن يشعر بهم الحراس فأغلقوا باب القلعة، وكان كثير من العساكر مايزالون خارج القلعة، ثم توجهوا إلى بيت القائد ونادوا عليه، فخرج إليهم فقتلوه، وخرج أخوه فقتلوه أيضاً وأحس ابنه بما يجري فخرج شاهراً سيفه وهاجمهم، واستطاع الوصول إلى الصالحي فقتله وتجمع عليه المهاجمون

---

١) انظر الأخبار الغربية ص ٢٥، وتحفة المحبين ص ٤١٢.

فقتلوه، ثم حملوا قائدهم الصالحي وخرجوا من القلعة قبل أن يصل إليهم العساكر.

غضب عساكر القلعة لمقتل القائد ومن معه، وهددوا بالانتقام من أهل المدينة إن لم يسلموهم القتلة، وحددوا أسماء خمسة أشخاص مطلوبين، وتحرك شيخ الحرم بسرعة، وأرسل خطاباً إلى دار الخلافة يعرفها بماحدث في المدينة، وخطاباً آخر إلى كل من الشريف مسعود أمير الحجاز بمكة، ووالي جدة العثماني، يستنجد بهما ورأى الشريف مسعود فيما يحدث في المدينة تمرداً على الدولة، وتهديداً للنظام، فجهز الشريف مسعود حملة عسكرية على وجه السرعة وأمر قائد الحملة أن ينفذ طلبات حامية القلعة، وأن يساعدهم في القبض على قتلة قائد الحامية، وطلب منه أن يستعين بشيخ الحرم في هذا الأمر فإن لم يستجب شيخ الحرم ويتعاون معهم فله سلطة التصرف ولو أدى الأمر إلى القبض على شيخ الحرم نفسه.

تحركت الحملة وكانت خفيفة قليلة العدد، وعندما وصلت إلى رابغ حطت رحالها لتستريح بعض الوقت، وفوجئت بهجوم مباغت شنته إحدى أفخاذ قبائل حرب بقيادة رئيسها الشيخ هزاع، وكان السفر قد أجهد الرجال، وأخذتهم المفاجأة فلم يدروا إلا والخيل تجول بينهم والسيوف تعمل فيهم، فسقط من سقط وهرب من هرب، وتشتت الحملة في سهل رابغ، وعادت إلى مكة واتهم الشريف مسعود شيخ الحرم بأنه وراء ماحدث لها، وأنه أوعز للشيخ هزاع الحربي بمهاجمتها، وأخذ يعد لمعاقبة الشيخ هزاع، ولكنه أدرك أن الأمر ليس سهلاً، فأفخاذ حرب الأخرى تعاضد الشيخ هزاع وستقف إلى جانبه، ومالبث فخذ آخر من حرب بقيادة الشيخ عيد الحربي أن وصل إلى المدينة لمعاضدة أهلها وشيخ الحرم ضد عسكر القلعة، ودخل المدينة، ثم وصل الشيخ هزاع ورجاله، وكان لدخولهم المدينة آثار على عدد من دكاكينها وبيوتها، وغدا رجال حرب على شيخ الحرم يؤيدونه ويهددون عساكر القلعة

إذا مابدرت منهم أية تصرفات، ولم يكن أهل القلعة قادرين على مواجهة هذه الأعداد المتوالية من القبائل والأعراب، وحدثت عدة حالات من النهب والسرقة والصدام مع بعض الأهالي وعساكر القلعة، فأفراد هذه المجموعات غير منضبطين في الغالب، لذلك اضطرب الأمن اضطراباً كبيراً، وخاف الناس على أموالهم وأرواحهم، وبدأت بعض العائلات تنزح عن المدينة.

حاول شريف مكة أن يتدارك الأمر قدر الإمكان، ولم تكن لديه القوة الكافية للتصدي للحربيين، لذلك قرر مصانعهتم والاتفاق معهم على هدنة لكسب الوقت، فأرسل بعض رجاله لشيوخ أفخاذ حرب وفاوضهم على إعطائهم بعض الأموال مقابل أن يكفو عن المدينة، وتم الاتفاق بين الطرفين، فتوقف تدفق الحربيين، ولكن عساكر القلعة لم يجرؤوا على معاودة تهديدهم لأهل المدينة وطلبهم خمسة الأنفار المتهمين بقتل قائد الحامية، واستمرت الهدنة حتى مجيء الركب الشامي، الذي تصحبه قوة عسكرية كبيرة، وكان الشريف مسعود قد كتب بما حدث إلى دار الخلافة وطلب عزل شيخ الحرم عبد الرحمن آغا الكبير، وكتب أهالي المدينة المنورة المتضررين شكاوى وعرائض بالاتفاق مع شيوخ حرب ضد حامية القلعة.

تغيير شيخ الحرم:

وفي ذي القعدة من العام نفسه ١١٥٦هـ وصل الركب الشامي ومعه مرسوم بعزل عبد الرحمن آغا الكبير شيخ الحرم وبإسناد المشيخة إلى نائبه عبد الرحمن آغا الصغير وبوصول الركب الشامي كفت أفخاذ حرب عن القدوم

إلى المدينة ذلك العام، وهدأت الأحوال بعد اضطراب دام أكثر من شهرين(١)، كان مرسوم تولية الشيخ عبد الرحمن آغا الصغير يمنحه سلطات واسعة، تساعده على ضبط الأمور. وحاول أهل القلعة أن يضغطوا على بعض الأهالي، وبخاصة الذين يظنون أنهم يشكلون قوة مواجهة وتحد لسلطتهم، ولكن شيخ الحرم الجديد وقف في وجههم، ورأى أن الأهالي بعد موجات الفتن وتهديد القبائل وماتعرضوا له من نهب وسلب ليست لهم قوة المقاومة، وأنهم الجانب الأضعف، لذلك منع العساكر من التعدي عليهم. وفي الوقت نفسه صادق بعض شيوخ حرب، ومنع الحملة المرافقة للركب الشامي من قتالهم، وكان شديداً حازماً استطاع منع الصدامات بين أهل القلعة والفرق العسكرية الأخرى والأهالي عدة سنين ولكن العساكر وعدداً من الأهالي ضجوا منه وأكثروا فيه الشكاوى فجاء المرسوم بعزله وتولية الشيخ أحمد آغا مكانه(٢).

سنوات من الاضطراب والفوضى:

بعد ذلك تفاقمت الخلافات بين فرق العسكر، وظهر صراع خفي بين أصحاب النفوذ العالي، وكثرت السعايات والشكاوى من بعضهم ضد بعضهم الآخر، وحدثت عدة حوادث اغتيال وقتل. ففي سنة ١١٧٢هـ اغتيل (كتخدا النوبتجيابة) (مصطفى أوده باشي)، رماه جماعة برصاصة وهو راكب على ظهر فرسه فسقط ميتاً(٣) ولم يعرف القاتل فالخصوم كثيرون. منهم خصوم من الفرق العسكرية، وبخاصة حامية القلعة، ومنهم من أهل المدينة الذين تأذوا من قادة العسكر لتطاولهم أو لاستيلائهم على شيء من حقوقهم. وكانت آثار هذه الخصومات تمتد إلى دار الخلافة، حيث يسعى كل فريق ليمكن لنفسه عند كبار الموظفين في الآستانة، وليحصل له أو لجماعته على بعض الوظائف

---

١) انظر الأخبار الغريبة ٢٥ وما بعد. تحفة المحبين ٤٤و ٤١٢.

٢) انظر تحفة المحبين ص ٥٢.

٣) السابق ٣٨.

أو يسعى بعزل من يتولى تلك الوظائف من خصومه.

ويحدثنا عبد الرحمن الأنصاري أن أخاه الشيخ يوسف الأنصاري رحل إلى استانبول عام ١١٧٧هـ وسعى لدى كبار الموظفين حتى حصل على منصب الإفتاء في المدينة المنورة وحمل مرسوماً بتعيينه وعاد إلى المدينة.. ولكن قبل أن يصلها استطاع خصومه أن يستصدروا مرسوماً بعزله وتعيين شيخ آخر محله.. وعلم بذلك الشيخ يوسف فلم يجرؤ على دخول المدينة وذهب إلى مكة وأقام فيها مدة، ثم عاد إلى المدينة ونزل في العوالي، وأرسل الشريف مساعد بن سعيد أمير الحجاز كتاباً بشأنه ليدخل المدينة وعليه الأمان. وأرسل إليه شيخ الحرم أحمد آغا (وكتخدا) القلعة محمد صالح الطيار كتاباً بهذا الأمان. فنزل الشيخ يوسف إلى المدينة ومعه ابنه محمد أبو الفرج وابن أخيه أحمد، فلما وصلوا إلى باب الصغير -وهو أحد أبواب سور المدينة- قبض عليهم عساكر القلعة واقتادوهم إلى القلعة وسجنوهم فيها، وعذبوهم عذاباً شديداً ثم قتلوهم في ليلة واحدة[1] ولم يذكر عبد الرحمن الأنصاري التهمة التي أخذ بها هؤلاء.. ولكن سياق الحادثة تدل على وجود خصومة شديدة بين محمد صالح الطيار (كتخدا) القلعة والشيخ يوسف الأنصاري فقتله وقتل معه ابنه وابن أخيه، ولم يبال بأوامر الشريف مساعد بمنحه الأمان.. والمدهش أن الشريف مساعد لم يتخذ أي إجراء ضد كتخدا القلعة الذي خرق أوامره وقتل ثلاثة أشخاص.. الأمر الذي يدل على سعة نفوذ (كتخدا) القلعة وعدم وجود سلطة للشريف عليه في المدينة.

وكان (الكتخدا) يتصرف في الشؤون الداخلية للمدينة كأنه الحاكم الفعلي لها.. فقد اشتكى بعض أهالي المدينة من أن رجلين فاسدين يصنعان الخمر في رباط الجوبانية -قرب باب الرحمة- ويتحرشان بالناس في الليل فلا تستطيع امرأة أو صبي أن يمر بذلك الموضع بعد المغرب فقبض عليهما قائد

---

١) السابق: ٢٣-٢٥.

القلعة وحبسهما ثم شنقهما سنة ١١٨١هـ دون أن يرجع إلى الشريف(١).

ولم يطل أمر هذا (الكتخدا)، ففي عام ١١٨٣هـ عينت الدولة العثمانية أحمد شاهين باشا والياً على المدينة، وكان شديداً حازماً، فاشتكى إليه آل الأنصاري وطالبوا القصاص لقتلاهم منه ومن عساكر القلعة، فحول الوالي القضية للقضاء، فحكم عليه القاضي بالقتل قصاصاً وبتغريم عساكر القلعة ديات المقتولين. فقتل (كتخدا) القلعة ودفع العساكر الديات(٢).

وقد استطاع شاهين باشا أن يوقف الصراع بين العساكر، ويوقف تعدياتهم على الآخرين، وضبط الأمن بحزم.. ولكن ولايته لم تطل فقد نقل إلى مدينة أخرى وخلفه وال آخر، وخلفه عثمان باشا، وتوفي بعد مدة وجيزة فعهدت الدولة إلى (كتخدا) القلعة أن يقوم مقام الوالي فعاد الاضطراب وظهرت الفتن من جديد.

ولم تقتصر الفتن هذه المرة على الصدام بين الفرق العسكرية.. بل حدثت فتن داخل الفرقة الواحدة.. الأمر الذي يظهر ضعف الانضباط وعدم وجود (ولي أمر) حازم. وكان من نتيجة الضعف ظهور المفسدين واللصوص ثانية. فكثرت السرقات أواخر عام ١١٨٦هـ وكثرت شكاوى الناس وقامت فرقة (النوبتجية) بمهمة الحراسة ليلا، وكان الصراع بين بعض أفرادها وأفراد حامية القلعة يؤذن بتفجير فتنة جديدة.. ولكن الفتنة بدأت داخل فرقة (النوبتجية) ذاتها.

---

١) السابق ص ١١٥.

٢) السابق ص ٢٥.

فتنة داخل فرقة (النوبتجاية):

ففي ليلة ٢٤ من جمادى الآخرة عام ١١٨٦هـ(١) بينما كان جنود من فرقة (النوبتجاية) تقوم بالحراسة التقوا بمجموعة من رجال القلعة وكان أحدهم -ويدعى سلطان- في حالة سكر، ووقعت مشاجرة بين الطرفين انتهت إلى القتال. فقتل سلطان، وفر أفراد (النوبتجاية) إلى حارة الأغوات. وفي الصباح أمر شيخ الحرم باعتقال عدد من أفراد دورية (النوبتجاية)، وكتب إلى الشريف أحمد بن سعيد في مكة، وبعد أربعة أيام طلب عدد من فرقة (النوبتجاية) إطلاق سراح زملائهم إذ لم تثبت عليهم التهمة، ولكن شيخ الحرم رفض إطلاق سراحهم قبل أن يأتيه أمر شريف مكة وانقسم (النوبتجاية) قسمين: بعضهم يلح على إطلاق المسجونين وبعضهم الآخر ومنهم (جاويش النوبتجاية) رئيس الدورية يرى التريث.. وثار الفريق الأول واقتحموا السجن وأطلقوا سراح زملائهم.. ثم تحولت ثورتهم إلى عصيان وطلبوا عزل رئيس الدورية وتعيين شخص آخر مكانه، وعجز قائدهم عن تهدئتهم، ورفض شيخ الحرم الإذعان لطلب الثائرين أول الأمر، ثم نزل عند رغبتهم وعزل رئيس الدورية وشخصاً آخر معه.. وعين اثنين آخرين مكانهما.. ورفض الثائرون الشخصين المعينين أيضاً، فغضب شيخ الحرم و(كتخدا النوبتجاية) وقررا عدم تلبية أية مطالب للعصاة.. فتوجه هؤلاء إلى معسكرهم واستنفروا عداً من زملائهم وامتنعوا عن تنفيذ أوامر قادتهم. وغادر بعضهم إلى المدينة حيث انتشر فيها خبر العصيان فاضطرب الناس وخافوا من وقوع صدام بين العساكر يعود وباله على أهل المدينة.. وكتب شيخ الحرم إلى شريف مكة

---

١) وردت في المخطوط ١١٨٧هـ وهذا خطأ لأن المخطوط ذكر اسم الشريف أحمد أميراً على مكة عدة مرات وفي تاريخ مكة أن الشريف أحمد انتهت إمارته باستيلاء ابن أخيه على مكة في ١٣ ذي القعدة لذا فالتاريخ الصحيح هو ١١٨٦هـ.

ثانية.. فجاء الأمر بجمع أعيان أهل المدينة وحكامها في مجلس محلي يتخذ قراراً صارماً يلتزم به الجميع. واجتمع المجلس، وحضره قادة العساكر وكبار الموظفين وقضاة المدينة والمفتي وشيخ الحرم وأعيان أهل المدينة، وقرئ كتاب الشريف أحمد، وكان أهم مافيه أن يلتزم كل بعمله ومسؤولياته ولايتدخل في شؤون غيره، وأن ينضبط العساكر، وأن يقبض على رؤوس الفتنة ويرسلوا إلى مكة. ووافق الحاضرون على ماجاء في كتاب الشريف، باستثناء عساكر القلعة الذين رفضوا تسليم المتهمين بالاعتداء على (النوبتجاية). وكادت أن تقع الفتنة ويحدث صدام دموي لولا تدخل أحد الشرفاء الذي أصلح بين الفريقين، واتفقا على طي ما مضى والعفو عن الجرائم السابقة، وبدء صفحة جديدة وعدم تدخل أحد في شؤون غيره. وكتبت حجة شرعية بذلك وانفض المجلس على أن تعيش المدينة حياة آمنة هادئة.

صراع بين الفرق العسكرية:

نعمت المدينة بالهدوء لبعض الوقت.. إلى أن عادت مشكلات العساكر تقلقها وتصنع حكايات تتناقلها الأفواه بشيء من الضيق والترقب.. فقد عادت المشاحنات بين فرقة حامية القلعة وفرقة (النوبتجاية) وأصبح كل فريق يتربص بالآخر، ولم يسلم المدنيون من تجاوزات بعض الجنود، وأحس قائد القلعة (كتخدا) محمد فلبلي أن الأمور تتطور نحو الأسوأ، وأن الجنود يسيئون إلى الناس وإلى بعضهم بعضاً، وصار (كتخدا النوبتجاية) محمد (قمقمجي) خصمه اللدود، ورأى أنه وراء تحرشات رجاله أنه المسؤول عنها. وأشار عليه بعض الناصحين أن يتوجه إلى أمير مكة الجديد سرور بن مساعد، وهو شاب نشيط وذكي انتزع الإمارة من عمه أحمد بن سعيد واستطاع أن يوطد الأمن في أنحاء مكة، ويضرب على أيدي المفسدين، فكتب فلبلي رسالة مطولة إلى الشريف سرور بن مساعد، وسمى فيها عدداً ممن يعدهم رأس الفساد في المدينة، ومعظمهم من رجال (النوبتجاية). واستجاب

الشريف سرور لخطاب فلبلي، فكتب إلى شيخ الحرم وإلى (كتخدا) محمد قمقمجي أن يقبضا على مسببي الفتن والمفسدين ويرسلاهم إلى مكة ليحقق معهم ويعاقبهم..

وتنبه (كتخدا النوبتجية) محمد (قمقمجي) للأمر وأدرك أن وراء كتاب الشريف سرور خصمه (كتخدا) محمد فلبلي. فقرر أن يقابل كيداً بكيد، وبدلاً من أن يرسل المطلوبين سافر بنفسه إلى الشريف سرور، وحدثه طويلاً عن الأمور من وجهة نظره، واتهم عساكر القلعة وقائدها بالفساد وطلب أن يحاكم الجميع عند الشريف، ووضع نفسه تحت تصرفه..

تأثر الشريف سرور بن مساعد بما عرضه محمد قمقمجي، وأرسل يطلب (كتخدا) القلعة محمد فلبلي وبعض رجاله الذين سماهم القمقمجي للمحاكمة عنده..

وأدرك فلبلي أن خصمه القمقمجي قد شحن الشريف مساعد ضده، ورأى أن ذهابه إلى مكة قد يوقعه فريسة هينة لخصمه.. فأرسل يعتذر عن الحضور ويتعلل بتوعكه، وانتهز خصمه فرصة عدم حضوره واتهم به عند الشريف بأنه لو كان بريئاً لما تهرب من المواجهة. وسنحت فرصة أخرى للقمقمجي كي يتغلب على خصمه.. إذ وقعت مشاحنات بين عدد من جنود القلعة وعساكر (النوبتجاية) في المدينة انتهت بصدام دموي.

فقد قرر بعض عساكر القلعة أن يضربوا رؤوس الفتنة في (النوبتجاية) ليعود الصفاء بين الفريقين، وكانت مجموعة من عساكر القلعة أشبه بعصابة متماسكة يتحركون معاً ويشكلون قوة ترهب العساكر والمدنيين.. وكانوا يسهرون معاً وينزلون الفجر معاً.. فنصبوا لهم كميناً عند الفجر، وظفروا بأربعة منهم، فحملوا عليهم، وقتلوا ثلاثة منهم، وفر الرابع، وفي الصباح اجتمع رؤساء الفرق وشيخ الحرم وحكام المدينة واتفقوا جميعاً على أن المقتولين هم من المفسدين ولن يطالب أحد بدمائهم، وخافوا أن يستغل

(كتخدا النوبتجاية) محمد قمقمجي الحادثة عند الشريف فيطالب بالبطش ببعض العساكر أو الانتقام من أهل المدينة فطلبوا من شيخ الحرم أن يعزل القمقمجي ويعين شخصاً آخر مكانه، فوافق على طلبهم وعين -بناء على اختيارهم- أحمد مكي مكانه(١) وسرعان ماانتقل الخبر إلى مكة، وحدث ماتخوف منه أهل المدينة فقد استغل محمد قمقمجي الحادثة وأقنع الشريف سرور بأنه وفرقته مظلومون، وأن خصومه هم سبب اضطراب الأمن في المدينة.. وعندما بلغه خبر عزله وتعيين أحمد مكي محله استنصر الشريف سرور وطلب منه أن يعينه بقوة مسلحة ليعود إلى المدينة ويجتث (المفسدين) فاستجاب له الشريف سرور، وكلف مجموعة من رجاله على رأسهم وزيره إبراهيم آغا بالسفر مع محمد قمقمجي إلى المدينة لإعادته إلى منصبه والقبض على خصومه. وكتب إلى أحد مشايخ حرب أن يمده ببعض الرجال أيضاً.

القمقمجي يهاجم المدينة:

خرج محمد قمقمجي من مكة بمن معه فوصل إلى ظاهر المدينة في الحادي والعشرين من شعبان عام ١١٨٧هـ وبصحبته عدد كبير من الرجال.. وأنزلهم عند وادي قناة، وانتقل هو إلى العوالي والضواحي المنتشرة حول المدينة يستنصر أهلها ويغريهم بالمال والعطايا إذا أعانوه، فلم يستجب له إلا نفر ضئيل وعلم أهل المدينة بوصول القمقمجي فأرسلوا إليه يمنعونه دخول المدينة كيلا تثور الفتنة، ويهددونه إذا حاول دخولها بالقبض عليه ومعاقبته.. وتسلل أحد مرافقيه (حسين كوافي) إلى المدينة ونزل عند بعض أقاربه، والتقى بعدد من أبناء الحي الشرقي -بين المسجد النبوي والبقيع- وأعطاهم بعض المال مقابل الانحياز إليهم إذا دخلوا المدينة، فوعدوه بذلك، ومكث عندهم ثلاث ليال إلى أن استوثق من مساعدتهم فخرج إلى زملائه، وانطلق عدد أخر من رجال القمقمجي إلى سد بطحان ففتحوا ثغرة كبيرة فيه

---

١) الأخبار الغريبة ص ٥٧.

ليشغلوا أهل المدينة بالمياه المتدفقة عن مواجهتهم، وأشعلوا النار في أحد أبواب السور من جهة البقيع -باب درب الجنائز- ليسهل عيهم اقتحامه فيما بعد، وبعد تسعة أيام قرروا اقتحام المدينة والقبض على (كتخدا فلبلي) وأعوانه، فانطلقوا ليلة التاسع والعشرين من شعبان إلى جهة البقيع، وكمنوا عنده حتى فتح أحد الحراس الباب بعد الفجر، فهجموا عليه، فهرب منهم، وخرج شيخ الحرم خارجاً من المسجد ومعه أحمد مكي، فهاجموا المكي، فهرب مكي إلى شيخ الأغوات واحتمى به، فانطلق القمقجي ورجاله إلى المسجد النبوي واحتلوه وأغلقوا أبوابه إلا باباً يدخلون منه وارتقوا المنارات وأطلقوا منها البنادق، وتوزع عدد منهم في الشوارع المحيطة بالمسجد النبوي والسوق ووصلوا إلى ساحة المناخة وباب المصري قرب القلعة، وفوجئ أهل المدينة بهذا الاحتلال وذعروا بما صاحبه من إطلاق البنادق والأصوات فلاذوا ببيوتهم، وأدرك عساكر القلعة مايجري فاندفعوا ليواجهوا المهاجمين، وحصل قتال في المناخة وعند باب المصري، وهزم القمقجي ورجاله، وعادوا إلى معسكرهم عند وادي قناة(١) انتقل القمقجي ورجاله بعد ذلك إلى ضاحية المدينة الجنوبية عند العوالي وحصلت بينهم وبين عساكر القلعة عدة مناوشات على مدى الأشهر الثلاثة التالية، ولم يستطيعوا أن يظفروا بشيء فقد شدد رجال (فلبلي) الحراسة على أبواب المدينة وراقبوا تحركات خصومهم ولم يمكنوهم من مباغتتهم، وحصدت المدينة خلال الأشهر الثلاثة القلق والضيق، ولكن لم يقع بينهم قتلى فقد آثروا ألا يتدخلوا بين المتصارعين على المنصب.

وفي ذي القعدة من ذلك العام وصل الركب الشامي بقيادة محمد باشا العظم ونزل في منطقة الجرف شمالي المدينة، وخرج أهل المدينة -كالعادة- لاستقباله وشكوا إليه مايلاقونه من صراع العساكر، وسارع محمد قمقمجي

---

١) انظر الأخبار الغربية ص ٦١.

للقائه وعرض الأمر عليه من وجهة نظره وبين له أنه (الكتخدا) القديم صاحب الحق الشرعي في منصبه وأن عزله غير شرعي وأن الشريف سرور يؤيده، ثم جاء خلفه أحمد مكي وبين له أن شيخ الحرم قد عينه لما ظهر من سلفه من فساد، وكان محمد باشا العظم أمير الركب الشامي مخولاً بحل مشكلات المدينة ومكة ويملك سلطة التعيين والعزل لأي موظف بها في ذلك الأمير نفسه، وعلم الباشا بميل الأمير إلى محمد قمقمجي، فقرر إعادته إلى منصبه وعزل أحمد مكي والتحفظ عليه واصطحابه إلى مكة منعاً من تجدد الفتنة والصدام، ففرح القمقمجي ورجاله ودخلوا المدينة ظافرين، وعندما وصل الركب الشامي إلى مكة صحب معه أحمد مكي فأنزله أمير مكة في بعض دوره ومنعه من مغادرة مكة.

ولم يكن تصرف محمد باشا العظم أمير الركب الشامي حكيماً، إذ أنه لم ينه الفتنة بل وضع عليها شيئاً من الحطب المبلل، ما إن يجف حتى يشتعل، وأدرك شيخ الحرم بفراسته أن الفتنة لابد أن تعود وأن الأمر لايصلح مع وجود القمقمجي في قيادة (النوبتجاية)، فكتب رسالة طويلة إلى دار الخلافة شرح فيها ماحدث في المدينة وطلب من الباب العالي إبطال مافعله محمد باشا العظم وإعادة أحمد مكي إلى منصبه، وأرسل الرسالة مع مفتي المدينة تاج الدين إلياس، فسافر إلياس مع الركب الشامي العائد إلى بلاده في نهاية موسم الحج لعام ١١٨٨هـ.

أما محمد قمقمجي فقد تصرف بذكاء أول الأمر فلم ينتقم من أحد، ولم يتعرض لرجال أحمد مكي، ونعمت المدينة بالهدوء الكامل عدة أشهر، ثم بدأ رجاله يتعرضون لرجال أحمد مكي ويسخرون منهم، ومالبث شريف مكة أن أطلق سراح أحمد مكي وسمح له بالعودة إلى المدينة شريطة أن يلتزم بيته والمسجد ولا يتدخل في شيء من أمور العساكر أو الوظائف، وجاء أحمد مكي إلى المدينة، والتزم بما عاهد الأمير عليه، وفرح أنصاره أول الأمر

بعودته ولكن فرحتهم تحولت إلى مرارة عندما أخذ رجال (القمقمجي) يتحرشون بهم فيمنعهم أحمد مكي من الرد عليهم ويرفض أن يتدخل في شيء أو حتى أن يشكوهم إلى الشريف، وتفاقم الأمر، وتناقل الناس في المدينة أخبار الفريقين، فعادت مشاعر الخوف والترقب إلى الصدور، وجعلت أهل المدينة يتوقعون الصدام بينهما في أية لحظة، ومن المفارقات الكبيرة أن تنمو هذه المشاعر، وتكون السبب المباشر في حادثة مؤلمة تشهدها المدينة، فيتحقق حدس شيخ الحرم بعد سفر المفتي إلى استنبول بأقل من شهرين، فقد حدثت مصادمة محدودة بين الفريقين ليلة السابع عشر من صفر عام ١١٨٩هـ وفض النزاع دون سقوط قتلى، ولكن الصراع تجدد وأصبح أنصار أحمد مكي لايسكتون على إهانات رجال (القمقمجي) ويردون الصاع صاعين، فتهيأت الأمور للانفجار.

تفجر الصراع في المدينة:

ولم يطل موعد الانفجار، فقد حدث بعد شهرين تماماً من تلك المصادمة وكان سببه المباشر كل مايدور في الصدور من ترقب وحذر وتوقع للشر..

كان يوم جمعة.. وتقاطر الناس إلى المسجد النبوي لأداء صلاة الجمعة ولتجنب الصدام والمشاكل كان رجال حامية القلعة وأنصار أحمد مكي يجلسون في الجزء الغربي من المسجد بين باب السلام وباب الرحمة، فيما كان رجال القمقمجي يجلسون في الجزء الشرقي منه، ولما أتم الخطيب خطبته وبدأ الناس يقومون للصلاة صرخ رجل به لوثة صرخة عظيمة أفزعت كل من سمعها.. فظن كل من جماعة أحمد مكي وجماعة القمقمجي أن خصومهم قد هجموا عليهم فسارع أحد رجال القمقمجي واسمه (عذيب قبيطي) إلى سلاحه الناري (الطبنجة) وأطلق حشوتها في الهواء داخل المسجد. فاهتاج الناس وتيقنوا أن الصدام المتوقع قد بدأ واندفع الجميع بحركة عشوائية نحو الأبواب وكان أغوات الحرم أولهم فسارع بعضهم إلى خزاناتهم في دكة الأغوات وأخرجوا منها أسلحة وقام بعضهم الآخر إلى باب السلام فأغلقوه..

واضطربت الصفوف وارتفعت الأصوات بصيحات مبهمة بعضها يكبر وبعضها يستنهض وبعضها يستنجد وبعضها يخوف بالله.. واختلطت الأصوات وازدحمت الأجساد وتلاطمت. وبلغ الزحام ذروته عند باب الرحمة الذي لم يستطع الأغوات إغلاقه وكان إغلاقهم باب السلام خطأ كبيراً. وتعاصر المندفعون عند الباب وسقط بعض الضعفاء على الأرض فداسته الأقدام، وضاعت صرخات الاستغاثة وسط الهيجان المتزايد. وازداد عدد الذين يسقطون على الأرض قرب باب الرحمة. وأحس جماعة أحمد مكي بضيق عظيم. وهجم بعضهم على باب السلام وأبعدوا الأغوات الذين يقفون دونه وكسروا مغاليقة وفتحوه. فاندفع قسم آخر من الناس نحوه. وتكرر ماحدث

في باب الرحمة عند باب السلام، واشتد الزحام وضاقت الأنفاس وسقط آخرون تحت الأقدام.

وانتشرت الأجساد في الجزء الغربي من المسجد النبوي وعلى باب الرحمة وباب السلام وصار بعضها عائقاً يتعثر به المتدافقون فيسقط فوقها عدد آخر. لترتفع قائمة الضحايا. وضاقت الأنفاس وسقط في الزحام من سقط..

حدث ذلك كله بسرعة مذهلة. وداست أقدام المتزاحمين من سقطوا. وخرج من نجا مذعوراً لايصدق ما حدث، حتى إذا خف الزحام. وتمالك من بقي في المسجد رباط جأشه أسرعوا إلى الأجساد الممددة على الأرض يدركون من بقيت فيه أنفاسه. حتى إذا ماانتهوا من رفعهم ونقلهم إلى ساحة المسجد.. عمدوا إلى الأجساد الهامدة. فنقلوها.. وكانوا بضعاً وثلاثين جثة.

لم تنته الحادثة عند هذه النتيجة المأسوية. بل بدأت بصعود هذه الأرواح الطاهرة إلى ربها. ومالبثت أن استجرت ضحايا آخرين. فقد خرج رجال أحمد مكي موقنين بأن خصومهم قد غدروا بهم في البقعة الطاهرة واستغلوا كونهم عزلا من السلاح. فأسرعوا إلى بيوتهم هائجين.. وشهدوا سقوط بعض إخوانهم في الزحام فحملوا أسلحتهم وتقاطروا إلى المسجد النبوي ليكيلوا لخصومهم الصاع صاعين. وانتصر لهم بعض رجال القلعة و(الإسباهية) الذين خسروا عدداً من الضحايا في الزحام أيضاً فحملوا أسلحتهم وجاؤوا يناصرونهم.

وتوقع رجال القمقمجي عودة خصومهم فاستعدوا لهم وصعدوا إلى منائر المسجد النبوي وسطحه وتترسوا به..

وما هو إلا قليل حتى اشتعلت المنطقة المحيطة بالمسجد بالحرب، وأخذت الأسلحة النارية تطلق حشواتها في الاتجاهين المتقابلين. ويسقط البارود المشتعل وقطع الرصاص على سطح المسجد والمنارات والساحة.

وتصيب بعض (البنادق) عدداً من المتراشقين وتعلو الصرخات وتختلط بأصوات التهديد والوعيد. وزحف رجال مكي ومناصروهم نحو المسجد لإسكات نيران المعتصمين على سطحه ومناراته ولطردهم واحتلوا المباني المطلة على المسجد النبوي مبنى المحكمة السلطانية ومبنى المدرسة الكائنة برباط السلطان. وسقط عدد من القتلى والجرحى من المباني والمنائر وسطح المسجد. منهم (الجاويش) علي ملكي أحد قادة (النوبتجاية) وكان في صفوف جماعة أحمد مكي.. وطال التراشق (بالبنادق والطبنجات). وتدخل شيخ الحرم والأغوات. وأخذوا ينادون الفريقين أن يتقوا الله ويراعوا حرمة مسجد رسول الله ﷺ. واستطاعوا بعد جهود مضنية أن يوقفوا التراشق الناري، ويقنعوا الفريقين بالانسحاب. فانسحب كل منهما على حذر وترقب. وأخذوا معهم قتلاهم، وجرحاهم، وباتت المدينة على جرحيها النازفين: ضحايا الزحام. وضحايا التراشق بالنار.. وباتت أيضاً على وجل أن يعود الصدام مرة أخرى. ولئن فعل توقع الصدام مافعله في المسجد إثر صيحة ذلك المجنون فربما يفعل أضعاف ذلك بعد سقوط الضحايا وامتلاء النفوس بالحزن والغضب وتحميل كل فريق الآخر مسؤولية ما وقع(١).

وفي اليوم التالي كادت أن تتكرر المأساة لولا حكمة شيخ الحرم وجهوده الكبيرة، فقد طاف على عدد من أعيان المدينة الذين لاينتمون إلى الفريقين المتخاصمين وعلى قادة العسكر. وكل من أحمد مكي والقمقمجي وأسر الضحايا. واجتهدوا في تهدئة النفوس واستطاعوا. غير أنهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا نهائياً آثار تلك الحادثة المريرة، فقد حدثت بعد ذلك حوادث فردية متفرقة. وكان شيخ الحرم والقضاة والعقلاء يسارعون لمنع تفاقمها. ووقع صدام بين أفراد الفريقين المتخاصمين عدة مرات. وأصيب عدد قليل من الطرفين. واستمر التوتر والقلق في المدينة إلى أن وصل مبعوث الشريف

---

١) الأخبار الغريبة ص ٦٩.

سرور السيد حسين العلوي في الخامس والعشرين من شعبان، فجمع رؤساء الطرفين المتخاصمين وشيخ الحرم والقضاة وعدداً من أعيان المدينة وأقنعهم بوقف النزاع وعقد هدنة يحترمها الجميع إلى مجيء الركب الشامي. حيث يحكم أمير الركب النزاع حكماً نهائياً. فتم الاتفاق على ذلك.. وتنفس أهل المدينة الصعداء بعد أربعة أشهر وثمانية أيام..

أمير الركب الشامي يفض النزاع:

ومرت الأيام في هدوء. ووصل الركب الشامي بقيادة محمد باشا العظم، وخيم -كالعادة- في منطقة الجرف. وخرج وجوه أهل المدينة لاستقباله، وخرج أحمد مكي وعدد من رجاله مع المستقبلين. ولم يخرج محمد قمقمجي وأرسل بعض رجاله للاعتذار متعللاً بمرضه، ورحب بهم قائد الركب. وسأل عن محمد قمقمجي فاعتذر بعض أصحابه الحاضرين بتوعكه. وأدرك محمد باشا العظم أن القمقمجي متخوف من لقائه فتعمد أن يحدث جلساءه عن مناصرته للقمقمجي قبل عامين وميله له ولوح بأنه سيناصره هذه المرة، وانتقل الخبر إلى محمد قمقمجي فجاء في اليوم التالي للقاء محمد باشا العظم واعتذر عن تأخره. وفوجئ القمقمجي بأن محمد باشا لايقبل اعتذاره كما فوجئ بوجود مفتي المدينة الشيخ تاج الدين إلياس الذي سافر إلى استانبول قبل شهور في المجلس ومالبث محمد باشا أن أخرج المرسوم الذي اجتهد المفتي في استصداره، وكان السبب الرئيسي في صدوره خطاب شيخ الحرم إلى دار الخلافة، مرسوم عزل محمد قمقمجي والقبض عليه وتعيين أحمد مكي بمنصب (كتخدا النوبتجاية). وانقلبت حالة القمقمجي رأساً على عقب. ووضعت القيود في يديه، بينما ألبس أحمد مكي خلعه سلطانية.

كان المرسوم الذي أصدره الخليفة في الآستانة حازماً ينص على عزل القمقمجي والقبض عليه وإخراجه من المدينة وينص أيضاً -وهذا هو الأهم- على تحرير حكام المدينة من سلطة الشريف سرور بن مساعد أمير الحجاز

بمكة. وإسناد أمورها إلى أصحاب المناصب كل حسب تخصصه، بدءاً بشيخ الحرم ومروراً بالقضاة والمفتي وكان هذا شبه استقلال للمدينة المنورة، فباستثناء القضايا الأمنية الكبيرة -كالحروب مع قبيلة حرب وغيرها- والقضايا الاقتصادية -(المكوس) والجبايات- لم يعد للشريف سرور سلطة على أمور المدينة المنورة. فليس له أن يتدخل في النزاعات بل تحال إلى القضاة ولايتدخل في سلطة شيخ الحرم، الذي أصبحت سلطته واسعة تصل إلى درجة التعيين في بعض المناصب العسكرية والعزل منها. وبخاصة منصب (الكتخدا). وأمور الفرق العسكرية تعود لقادتها. ثم لشيخ الحرم..

وقد ضايق هذا المرسوم الشريف سرور وهو الشاب النشيط والطموح، وكان آنئذ مشغولاً بالحروب المتوالية التي شنها الشريف أحمد بن سعيد بن زيد فآثر الصمت. واكتفى بحماية محمد قمقمجي والحيلولة دون إخراجه إلى الشام -كما أراد محمد باشا العظم- فكتب إلى محمد باشا قبل أن يترك المدينة يطلب منه أن يرسل إليه أو يصطحب معه محمد قمقمجي إلى مكة. وهدده بمنعه من الحج إن رفض. فرأى محمد باشا أن يستجيب له. فاصطحب معه القمقمجي وأسلمه لرجاله. وحج الباشا ولم يلتق بالشريف سرور، الذي كان غاضباً من تقييد سلطته ومشغولاً في الوقت نفسه ببعض الفتن حوله. وكأنه آثر أن ينتظر الفرصة المناسبة لتحدي ذلك المرسوم. بل وإلغائه تماماً.

أربع سنوات هادئة:

أقام محمد قمقمجي عند الشريف سرور مدة من الزمن، وصفت الحياة في المدينة ولم يحدث أنصار القمقمجي أية فتن. وبعد عدة أشهر طلب القمقمجي من الشريف سرور أن يسمح له بالعودة إلى المدينة، فسمح له بذلك وأوصاه بالتزام الهدوء والسكينة وعدم إثارة أية فتنة، ووعده بالمجيء إلى المدينة وإصلاح الأمور بينه وبين أهلها وإعادته إلى منصبه، بعد أن يقضي على قوة الشريف أحمد بن سعيد فجاء القمقمجي إلى المدينة، ونزل في

العوالي، وأرسل إلى شيخ الحرم والمسؤولين يستأذنهم في العودة إلى بيته، فأذنوا له شريطة أن يلتزم الهدوء والسكينة ولايتسبب هو ولاأنصاره بأية فتنة، فتعهد لهم بذلك ودخل المدينة.

وقد وفى القمقمجي بعهوده فلم يحدث أية فتنة، ومنع أنصاره من إحداث أي شغب في المدينة. وساعده على ذلك وفاة خصمه السابق محمد فلبلي الذي كان السبب الأساسي في عزله وتعيين أحمد مكي. فاستمرت الحياة تجري في مجراها العادي بهدوء مدة أربع سنوات متوالية إلى أن قطعت مجراها الهادئ أحداث مفاجئة أعادت المدينة إلى الاضطراب والقلاقل وجعلتها تعيش فترة عصيبة مرة أخرى.

الشريف سرور ينتقم من أهل المدينة:

بدأ هذا الحدث أو سلسلة الأحداث المضطربة بوصول الشريف سرور فجأة إلى ظاهر المدينة في الخامس من رجب عام ١١٩٤هـ وكان في موكبه الضخم ٥٠٠٠ من العربان و٣٥٠٠ جمل و٢٥٠٠ من الرجالة و٢٥٠ من الخيل وفيه عدد من السادة والأشراف والأتباع والعبيد. ومعه أيضاً عدد من الأسرى والرهائن الذين أخذهم من قبيلة حرب على الطريق، بعد أن حاربهم وتغلب عليهم. ونزل هذا الحشد في السهل الممتد خلف باب العنبرية. وخف وجوه أهل المدينة لاستقباله والترحيب به، ولكنهم توجسوا من قدومه المفاجىء على هذه الشاكلة شراً، فلم تفتح الأسواق، وأخذ الجميع يترقبون ماذا سيتصرف الأمير، وأسرع مفتي المدينة الشيخ تاج الدين إلياس فرحل هارباً خشية أن يمسكه رجال الشريف، فقد سبق أن عزله الشريف سرور فعاد إلى عمله بمرسوم سلطاني، كما أنه استصدر مرسوماً بعزل القمقمجي وتعيين أحمد مكي خلاف رغبة الشريف، ومرسوماً آخر هو الذي أثار حنق الشريف عليه

-برفع يد الشريف عن حكام المدينة-(١) ولم يكن الشريف قادراً على مواجهتهم آنئذ لانشغاله بصد الهجمات المتكررة التي يشنها الشريف أحمد بن سعيد بن زيد على مكة. وقد امتدت هجماته حتى عام ١١٩٣هـ فلما فرغ الشريف من أمرها واعتقل خصمه قرر السفر إلى المدينة المنورة.

وتدارس عدد من أعيان المدينة الأمر، وخافوا من انتقام الشريف وقرروا أن يسترضوه. فانتظروا حتى ذهب إلى المسجد النبوي وصلى فيه وسلم على رسول الله ﷺ وجلس في الروضة الشريفة وذهبوا إليه هناك فاعتذروا إليه اعتذاراً شديداً وطلبوا منه أن يصفح عن الجميع ولايعاقب أحداً. فاستجاب لطلبهم وأجابهم بالعفو وأعطاهم الأمان. فخرج الناس مطمئنين، وفتحت الأسواق. ودعا الأمير أعيان المدينة إلى مجلسه ودعا القمقمجي وخصومه وأصلح بينهم فاصطلحوا جميعاً وفرق عليهم الأموال وأمر بتوزيع المزيد على الفقراء والمرابطين والمحاربين. فاستبشر الناس ومكث الشريف في مخيمه يتردد كل يوم على المسجد النبوي ويتناوب رجاله النزول عشرين يوماً.. واعتادت المدينة في هذا الشهر -شهر رجب من كل سنة- أن يفد إليها الزوار بكثرة غير أن الزوار في هذه السنة كانوا قليلين جداً. وقد عوضها عن ذلك وصول هذا العدد الضخم مع الشريف سرور. وجاء الخبر إلى الشريف في المدينة أن أفخاد قبيلة حرب التي وجه إليها ضربة شديدة وهو في طريقة إلى المدينة وأخذ منها الأسرى والرهائن قد قطعت الطريق ومنعت الزوار من التوجه إلى المدينة انتقاماً مما فعله الشريف.. فأمر الشريف بأخذ الحيطة والسهر حول المدينة خوف هجوم مباغت يشنونه عليه. كما أمر أن تقوم مجموعات صغيرة من الخيالة بدوريات في المناطق المجاورة ومراقبة القادمين والمسافرين..

---

١) تحفة المحبين ص ٤١.

المكيدة والغدر:

وفي اليوم التالي -السادس والعشرين من رجب- دعا الشريف حكام المدينة وكبار موظفيها وأعيانها إلى مجلسه، فأجابوه وذهبوا إليه. وما إن استقر بهم المجلس حتى فوجئوا بجنود الأمير يهجمون على الحكام وكبار الموظفين ويكبلونهم بالأغلال. ويأمرون الباقين بالتزام الهدوء والبقاء في أماكنهم. ودهش المدنيون لهذا التصرف وأخذوا يتساءلون بين الاستنكار والاستعطاف فانهالت عليهم الشتائم والإهانات والاتهامات بالخيانة والتآمر..

وفي الوقت نفسه تحركت أعداد كبيرة من رجال الشريف إلى داخل المدينة وأحاطوا بالمسجد النبوي واستولوا على أبواب المدينة وأغلقوها. وهجموا على القلعة. فسارع من كان داخل القلعة فأغلقوا أبوابها وتحصنوا بأسوارها المنيعة. وجهزوا مدافعهم وصوبوها نحو عساكر الشريف..

وأحدث هذا الهجوم الباغت من رجال الشريف فزعاً في المدينة فسارع التجار إلى إغلاق دكاكينهم. وهرع الناس الذين كانوا في الشوارع إلى بيوتهم خائفين. ولم يدر أحد سبب هذا الهجوم بعد.

وخلال فترة قصيرة كانت المدينة تحت سيطرة الشريف، باستثناء القلعة التي تحصن فيها بعض الأهالي وعدد قليل من الجنود.

وفي مخيم الشريف كشف الشريف لأهل المدينة أن دورياته قبضت على أعرابي خارج من المدينة يحمل رسالة إلى بعض شيوخ حرب مكتوبة بخط رجل من آل الكوافي من أهل المدينة تطلب باسم شيخ الحرم وباسم أهل المدينة أن يجمع رجاله ويهاجم الشريف سرور، وتعده أن تشارك في الهجوم من داخل المدينة ومن القلعة. فأقسم الكوافي وشيخ الحرم أن الرسالة مزورة ولاعلم لهما بها. فقال لهم الأمير: إن كنتم صادقين فسلموني القلعة حتى يتضح لي الحال. فاعتذر الحاضرون بأنهم لايملكون ذلك وأن أمر القلعة بيد العساكر الذين هم داخلها.. فأمر الشريف بالتحفظ على من قبض عليهم.

وحاول شيخ الحرم تسوية الأمر والوصول إلى حل وسط فأرسل إلى العساكر المتحصنين أن يسلموا القلعة له فيضع فيها من يختاره من الرجال. فاعتذروا لشيخ الحرم بأنهم يخشون أن يكون الأمر مكيدة، خاصة وأن الشريف مازال يظن بأهل المدينة الغدر. لذلك طلبوا أن يعلن الشريف الأمان للجميع أول الأمر ويطلق سراح المعتقلين. فأعلن الشريف الأمان، وأرسل بعض رجاله لاستلام القلعة ولكن الجنود المتحصنين لم يطمئنوا فرفضوا التسليم وأطلقوا النار على القادمين فأصابوا واحداً من رجال الشريف وفر الباقون عائدون إلى الشريف وأخبروه. فغضب الشريف، وأمر بالقبض على شيخ الحرم وعلى الكوافي وتقييدهم. وبمحاصرة القلعة والرمي عليها.. وعلم أهل المدينة بما يجري ووصل الخبر إلى عساكر القلعة باعتقال شيخ الحرم فصوبوا مدافعهم إلى معسكر الشريف وبدؤوا يقصفونه فقتلت القذائف رجلين وجملين، وانتقل الشريف إلى بيت بعيد عن قذائف القلعة وتوزع رجاله حول القلعة وبدؤوا بالرمي عليها.. وتحولت بذور الفتنة إلى حرب حقيقية تدور في منطقة القلعة وما جاورها، وتنطلق القذائف من الجانبين فتسقط هنا وهناك وتدوي أصوات الانفجارات على فترات متقطعة ثلاثة أيام متوالية تشتد حيناً وتهدأ حيناً.. وقد أصابت قذائف أهل القلعة مخيم الشريف بأضرار كثيرة، فأحرقت عدداً من خيمه وأتلفت متاعه وقتلت عدداً من رجاله وإبله.. كما أصابت طلقات رجال الشريف عدداً قليلاً جداً من المدافعين عن القلعة.

ورأى الشريف تعذر السيطرة على القلعة بالقتال فلجأ إلى الحيلة ونادى أهل القلعة أن يكفوا عن القتال ولهم الأمان وسيستجيب لكل طلباتهم.. فأوقف عساكر القلعة إطلاق النار وطلبوا ابتعاد رجال الشريف من القلعة لينسحبوا منها خلال ثلاثة أيام ويسلموها.

فاستجاب الشريف وأمر رجاله بالابتعاد مسافة كافية عن القلعة وحاول عساكر القلعة خديعة الشريف والاستفادة من وقف القتال لتزويد القلعة

بالمؤونة ولإدخال بقية العساكر الذين بقوا خارجها إلى داخلها. وخرج بعضهم لهذه المهمة فرأوا أن رجال الشريف قد انسحبوا من جوار القلعة لكنهم استولوا على البيوت المجاورة وكمنوا فيها فتوجسوا الشر وعادوا إلى القلعة.

وأمر الشريف رجاله بصنع سلالم طويلة فصنعوها على وجه السرعة، وفي حلكة الليل تسلل عدد من عبيده الأشداء ووضعوا السلالم وبدؤوا بالصعود عليها. ولكن عساكر القلعة تنبهوا لمحاولتهم فرموهم بالحجارة والمشاعل وأسقطوهم وأحرقوا سلالمهم وقتلوا بعضهم فانتقضت الهدنة وعاد إطلاق النار من جديد، وبعد يومين كاد أن ييأس الشريف من الاستيلاء على القلعة ويأمر رجاله بالانسحاب قبض رجاله على شاب نزل من القلعة ليلاً على حبل وعلموا منه سوء حالة المحاصرين لقلة الطعام والماء كما علموا أن عدد العساكر داخل القلعة قليل وأن ذخيرتهم توشك على النفاد. فأمر رجاله بفتح ثغرة في جدار القلعة واقتحامها مهما كان الثمن، فاجتهدوا في ذلك واستطاعوا أن يفتحوا ثغرة بعد أن أطلقوا قذائف متوالية من مدفعهم على بيت آغا القلعة.. وهجم جنوده ونفذوا من الثغرة واندفعوا داخل القلعة، بينما أخذ العساكر القليلون المحاصرون يهربون من أبراجها وينزلقون على حبال مربوطة في أعلاها إلى خارج المدينة ويولون الفرار.

وأرسل الشريف خيلاً لتدرك الهاربين بينما سيطر رجاله على القلعة تماماً وقبضوا على العساكر الذين لم يتمكنوا من الفرار ودخل العربان القلعة وأخذوا ينهبونها. وكان فيها غير قليل من الأثاث والودائع التي يودعها أهل المدينة فيها تحسباً من الهجوم على بيوتهم..

ومع نهاية شهر رجب كتبت السطور الأخيرة في مأساة القلعة، وأمر الشريف بوقف جميع عمليات القتل والنهب وبعدم تعقب الفارين. كما أمر باستبقاء خمسين شخصاً من أهل المدينة. منهم من اتهم بأنه سبب الفتنة،

ومنهم من ينتمي إلى بعض الفرق العسكرية، ومنهم من عرف بالقوة والفتوة، وأن يؤخذوا رهائن وتوضع القيود في أيديهم وأرجلهم كيلا تعود الفتنة. وأطلق سراح الباقين بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق بالتزام الهدوء والسكينة. وظل الشريف في المدينة يراقب الأحداث وعيَّن وزيره محمد بن العدواني المضايفي قائداً للقلعة وأمر أن يبقى معه أربعمائة من رجاله ليكونوا الحامية الجديدة، ومنع العساكر القدماء من دخول القلعة وأمرهم بالبقاء مع رؤسائهم في مناطق أخرى من المدينة.

مكث الشريف في المدينة إلى الثالث والعشرين من شهر شعبان عام ١١٩٤هـ حيث تحركت قافلته الضخمة التي حملت معها خمسين رجلا من أهل المدينة وعساكرها يرسفون بالقيود وخلفت وراءها حامية تابعة للشريف تعسكر في القلعة. وخلفت أيضاً -وهذا هو الأهم- آلاماً لما حدث ونقمة تنتظر الفرصة السانحة للانتقام.. ولما وصل الشريف إلى مكة سجن بعض رهائنه من أهل المدينة فيها، وأرسل بعضهم الآخر إلى القنفذة أما الذين اتهمهم بأنهم رؤوس ومسببيها فقد أرسلهم إلى الهند(١).

ثورة وانتقام:

كانت القوة العسكرية التي تركها الشريف سرور في المدينة المنورة أشبه بقنبلة موقوتة، لابد أن تنفجر. وقد عجل انفجارها تصرفات بعض جنودها فمنهم من عامل أهل المدينة بخشونة. ومنهم من كان ينظر إليهم نظرة صاحب السلطة، وكان بعضهم يحمل نقوداً غير متداولة في المدينة، ففرضوا على أصحاب الدكاكين قبولها مقابل مايحتاجونه من السلع.. ومن يرفض فلن يحصل على ثمن مايؤخذ من دكانه. ولاأحد يستطيع أن يرفض بيعهم.. وكانت جراحات أهل المدينة جديدة وآلامهم لمن فقدوه -سواء بالقتل أو بالنفي والسجن- تحتاج إلى من يراعيها.. فجاءت هذه التصرفات لتزيد

---

١) الأخبار الغريبة ٩٠/١٠١، خلاصة الكلام ٢١٦/٢١٨.

الآلام وتزيد من النقمة على رجال الشريف سرور، وتدفع الشباب إلى الغليان والثورة. وهذا ماحدث.

فبعد شهر واحد من رحيل الشريف سرور قرر عدد من شباب المدينة المتحمسين التصدي لرجال الشريف، وإخراجهم من المدينة المنورة. وخططوا لذلك بذكاء.. فقرروا أن تقوم مجموعة منهم بإشعال النار في دار الوزير محمد العدواني المضايفي قائد القوة العسكرية، وتقع داره خارج القلعة. فيسرع الجنود إليها وينشغلون بإطفاء النار.. فتهاجم مجموعة من الشباب القلعة وتحتلها وتحول بين الجنود خارج القلعة وبين الأسلحة والمدافع. وتقوم مجموعة أخرى بمهاجمتهم عند الدار المشتعلة وتقاتلهم إن لم يستسلموا..

وفي مساء الرابع والعشرين من شهر رمضان عام ١١٩٤هـ بدأ تنفيذ الخطة واستطاعت مجموعة صغيرة من أهل المدينة أن تشعل النار في عدة جهات من دار الوزير دون أن يفطن لهم أحد.. وفوجئ أهل القلعة بالصريخ يعلن عن احتراق دار الوزير.. فخرج الوزير من القلعة ومعه مجموعة من جنوده وأسرعوا ليطفئوا النار. وتبعتهم مجموعة أخرى.. وكادت الخطة أن تنجح.. لولا أن امرأة رأت مجموعة من الشباب الكامنين فنبهت الوزير وحذرته.. وفطن الوزير للخدعة فانسحب مع رجاله بسرعة إلى القلعة. وأمر جنوده بالتأهب بأقصى سرعة. ثم دفعهم للقبض على المجموعة الكامنة وكل من يرونه مسلحاً في المنطقة.. فخاف الشباب وهربوا. وخلال هربهم وجدوا في أحد الأحياء جنديين يمنيين تعدوا عليهما فقتلوا الأول وأصابوا الثاني وسلبوهما.. وتوزعوا في أحياء المدينة ينادون أهلها للخروج لمواجهة رجال الشريف، فاهتاج الناس وكرر المنادي صريخه في أهل المدينة أن يخرجوا للدفاع عن أنفسهم وأموالهم وإلا فسوف يفتك بهم رجال الشريف فاندفع رجال مسلحون.. وخاف رجال الشريف الذين نزلوا من القلعة إذ كانوا يظنون أنهم سيطاردون عدداً من الشباب ولم يتوقعوا أن يواجهوا جموعاً من أهل

المدينة الغاضبين. فأخذوا بالانسحاب نحو القلعة وتخلفت مجموعة من رجال الشريف عند سبيل الحاكم مقابل الباب المصري وكان عددهم ٢٥ رجلاً فأحاطت بهم الجموع الغاضبة ونفثت فيهم غضبها وقتلتهم جميعاً.. وازدادت حدة الهياج في المدينة وارتفعت الأصوات تنادي بقتل كل من يوجد من رجال الشريف سرور. فسارع الجنود في القلعة وأغلقوا الأبواب ونصبوا المدافع في الأبراج وأطلقوا القذائف صوب المدينة دون تمييز. فأصابوا شاباً عابراً فاشتد الأمر على أهل المدينة. وازداد عدد الثائرين وتوجهوا إلى القلعة وحاصروها وبدؤوا يطلقون عليها النار من (بنادقهم وطبنجاتهم). وما لبث الهياج أن تحول إلى ثورة منظمة انضم إليها أفراد من الفرق العسكرية المذكورة. وعدد كبير ممن سبق لهم العمل في تلك الفرق. وكثير من شباب أهل المدينة ولاسيما الذين فجعت عائلاتهم بقتيل أو جريح أو سجين. وبدت المدينة يداً واحدة في مواجهة رجال الشريف سرور وظهرت قيادات نشطة تتحرك بسرعة، فوزعت المسلحين حول القلعة وأحكمت حصارها ونظمت الرجال ليتناوبوا في الحصار والقتال، وأنذرت الجنود بالتسليم، وتقاطر أهل المدينة من كل صوب. واستنجد بعضهم بأقاربه المقيمين في ضواحي المدينة وببعض العربان من حول المدينة فأنجدوهم وارتفع عدد الثائرين وصاروا قوة قادرة على مواجهة رجال الشريف بكل عدتهم وعتادهم.. وفي الليل استطاع الجنود المحاصرون أن ينزلوا أحد رجالهم من القلعة ليذهب إلى الشريف ويطلب النجدة. وتسلل الرجل من الجهة الخلفية للقلعة من خارج السور ومضى مجداً إلى مكة. واستعصم الجنود مدة طويلة بانتظار وصول النجدة. وأهل المدينة يشددون عليهم الحصار. ويطلقون النار على كل من يبدو من الأبراج. والفتحات العلوية للسور.. ويرد الجنود المعتصمون. ويطلقون بعض قذائف المدفعية. وتوالت الأيام ومر الأسبوع الأول والثاني ونقص مالدى الجنود والمحاصرين من طعام كما نقصت الذخيرة.. ثم بدأ أهل المدينة ينادونهم من

تحت السور ويطلبون منهم الاستسلام والخروج من المدينة مقابل المحافظة على أرواحهم.. وإلا فسوف يقتحمون عليهم القلعة.. والجنود يرفضون التسليم أملا في وصول النجدة. ومضى الأسبوع الثالث ولم تصل النجدة. ورأى الوزير أن رجاله لن يستطيعوا الصمود مدة طويلة فقد بدأ الطعام ينفد وكذلك الذخيرة، فضلاً عن الإصابات التي وقعت بين الجنود، فعزم على التفاوض مع أهل المدينة.

وكان الجندي الذي خرج من القلعة قد سار إلى مكة. فوصلها بعد عدة أيام منهكاً. وأخبر الشريف بما حدث لرجاله.. فغضب الشريف وأمر بتجهيز حملة لنجدة رجاله في المدينة.. فتجهزت حملة يتراوح عددها بين ٨٠٠ و١٠٠٠ رجل يقودها الشريف ناصر بن مستور.. وتوجهت إلى المدينة. واستغرق تجهيز الحملة وسيرها إلى المدينة مدة أطول مما كان يتوقعها رجال الشريف المحصورون في القلعة. لذلك يئسوا من وصول النجدة ووجدوا في مفاوضة أهل المدينة الحل الوحيد، ولكن أهل المدينة لم يعطوهم أية مهلة أو مكاسب وشرطوا عليهم الخروج بأنفسهم فقط وبما يحملونه من زاد وماء ويتركوا كل شيء.. ولم يجد الوزير العدواني بداً من قبول الشروط فوافق أخيراً عليها وأعلن الاستسلام.

انتصار الثورة:

وفى كل طرف بما تعهد به. ففي صباح السابع عشر من شهر شوال خرج رجال الشريف من القلعة في مجموعات صغيرة لايحملون سوى الزاد القليل الذي بقي معهم والماء.. ووقف أهل المدينة يراقبون خروجهم دون أن يتعرضوا لهم بشيء. حتى تم خروجهم من القلعة ومن سور المدينة كلها. وساروا في الطريق المؤدية إلى مكة.

وبينما الجنود المنسحبون من المدينة يسيرون في طريق بدر إلى مكة.

كان الجنود القادمون من مكة يسلكون طريقاً آخر يفضي بهم إلى الجهة الشرقية الشمالية للمدينة. كي يفاجئوها فلم تلتق المجموعتان، وقبل أن يصل القادمون من مكة إلى المدينة علموا باستسلام الوزير العدواني وخروجه مع رجاله.. فأرسل قائدهم الشريف ناصر بن مستور بعض الخيالة لإعادة الوزير ورجاله كي ينضموا إلى الحملة ويعودوا جميعاً إلى المدينة.. وأكمل سيره فوصل ضواحي المدينة في الثالث والعشرين من شوال. ونزل بجنوده قرب جبل أحد بانتظار وصول الوزير ورجاله..

وعلم أهل المدينة بوصول الحملة، فأخذوا يستعدون لمواجهتها، فجمعوا العساكر وكل من سبق له العمل في إحدى الفرق العسكرية. وأعدوا الأسلحة والذخائر والتموين.. وأرسل نائب شيخ الحرم إلى بعض أفخاذ قبيلة حرب النازلين قرب المدينة يستنجدهم، فأنجدوه بأربعمائة رجل نزلوا في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة ووصل الوزير العدواني ورجاله عائدين من منتصف الطريق وانضموا إلى الشريف ناصر بن مستور. ولاحت نذر المعركة القادمة. وبات كل طرف يراقب بحذر شديد تحركات الطرف المقابل.

وفي صباح اليوم الأول من ذي القعدة تحرك الشريف ناصر بعد أن نظم رجاله نحو المدينة. وتحرك الخليط المدافع عن المدينة صوب جيش الشريف ناصر. وكان هذا الخليط يضم معظم أفراد الفرق العسكرية الأربعة. وأفراد آخرين متطوعين، وأربعمائة من رجال حرب الذين أنجدوا أهل المدينة.. والتقت الصفوف في البساتين الممتدة شمالي البقيع على طريق أحد. وابتدأت المعركة، وانطلق الرصاص من البنادق المحشوة بغزارة والتحم بعض المقاتلين من الطرفين واستخدمت السيوف والخناجر. وسقط عدد من القتلى من الطرفين.. واشتد أهل المدينة في الدفاع عن مدينتهم، واستبسلوا.. وبدأت كفتهم ترجح. ثم رجحت تماماً عندما أصيب الشريف ناصر بن مستور قائد المهاجمين، وبدأ المهاجمون بالانسحاب فتبعهم المدافعون مسافة قصيرة.. ثم

اكتفوا بإطلاق النار خلفهم وترك الفرصة لهم كي يهربوا فيصيبون منهم من يصيبونه ويسلمون من الطلقات الطائشة، وقبل أن ينتهي النهار كان المهاجمون قد ارتدوا تماماً إلى مكان نزولهم السابق خلف جبل أحد. بعد أن فقدوا عدداً من رجالهم وأصيب عدد آخر كبير بجروح. وحمل أهل المدينة قتلاهم القليلين وجرحاهم وآبوا إلى مدينتهم منتصرين.

انسحاب الحملة:

أقام أهل المدينة في يقظة تامة عدة أيام يراقبون تحرك المهاجمين. أما المهاجمون فقد أرسلوا أخبار هجومهم الفاشل إلى الشريف سرور وطلبوا تزويدهم بمزيد من الرجال والسلاح. فعاد الرسول من مكة يحمل معه أمراً من الشريف سرور أن يتركوا المدينة وشأنها ويعودوا إلى مكة على وجه السرعة، فرحلت الحملة، وسارت مجدة في الطريق الذي جاءت منه فوصلت مكة في الثاني عشر من ذي القعدة. وهناك عدة أسباب جعلت الشريف سرور يأمر رجاله بالانسحاب، منها خشيته من أن تتألب عليه أفخاذ حرب الأخرى التي وترها بهجومه الأخير عليها، فتنضم إلى أهل المدينة كما انضم بعضها في المعركة الأولى فيخسر رجاله مهما كان عددهم. ومنها خشيته أن يستغل خصومه غياب قسم من جيشه، وبخاصة إذا أرسل النجدة التي طلبها قائد الحملة، فيهاجموه في مكة ويخرجوه من الإمارة أو يقتلوه، ومنها: قرب وصول الركب الشامي، الذي تصحبه قوة مهمة عادة. وربما تنتصر هذه القوة لأهل المدينة فينتهي الأمر إلى تبديد جيشه وربما إلى صدور مرسوم سلطاني بعزله.

لذلك كله رأى أن الحكمة تقتضي الانسحاب فأمر به. فلما وصل جيشه إلى مكة أمر بإطلاق سراح عدد من الرهائن والسجناء الذين جلبهم من المدينة

وسمح لهم بالعودة إليها(١) وفيهم شيخ الحرم الذي سبق أن عزله واعتقله..

عودة السكينة والسلام:

وعادت المدينة فخورة بهذا النصر إلى حياتها اليومية الهادئة وكان لسلسلة الصدامات مع الشريف سرور قبل وبعد رحيله عن المدينة أثر عجيب في لم شتات أهل المدينة وفي جمع كلمتهم وإنهاء الخلافات والصراعات بين القادة العسكريين وكبار الموظفين الآخرين ولأول مرة صار الجميع: العساكر والأهالي والمقيمين والزائرين لحمة واحدة.

ولاشك أن هذه الصفحة المضطربة، وإن كانت قد جمعت كلمة أهل المدينة، هي من أخطاء الشريف سرور الكبيرة. فما كان ينبغي له أن يثير القتال في المدينة المنورة، ولا أن يترك رجاله بعد رحيله يتسلطون على الأهالي، ويشعرونهم بسلطانهم عليهم وكأنهم محتلون غالبون.

لقد غطت الفرقة والخصومات وحب السيطرة بصائر الكثيرين آنئذ فشهر المسلم سلاحه في وجه أخيه واستبيحت الدماء والأموال وتذبذب مفهوم الصداقة والعداوة. وغاب أو كاد مفهوم الأخوة الاسلامية وحرمة المدن المقدسة وحرمة النفوس أمام مفهوم البغي والعدوان. ولكن، وبعد أن تهدأ الفتنة سرعان مايعود الناس إلى قيمهم ومفهوماتهم الأصلية. ولايبقى أي أثر لتلك المعارك. ويسافر أهل المدينة إلى مكة في موسم الحج، ويأتي المكيون إلى المدينة زائرين ليس في نفوسهم مما حدث من قبل شيء فكل ما حدث خطأ شنيع لايريد أحد أن يتكرر.

وعادت المدينة المنورة إلى هدوئها وسكينتها وكادت أن تطوي القرن الثاني عشر كله بهذا الهدوء لولا حادثة صغيرة وقعت في السنة الآخيرة من هذا القرن. كادت أن تعيد المدينة إلى عهد الفتن وصراع الفرق العسكرية والمناصب.

---

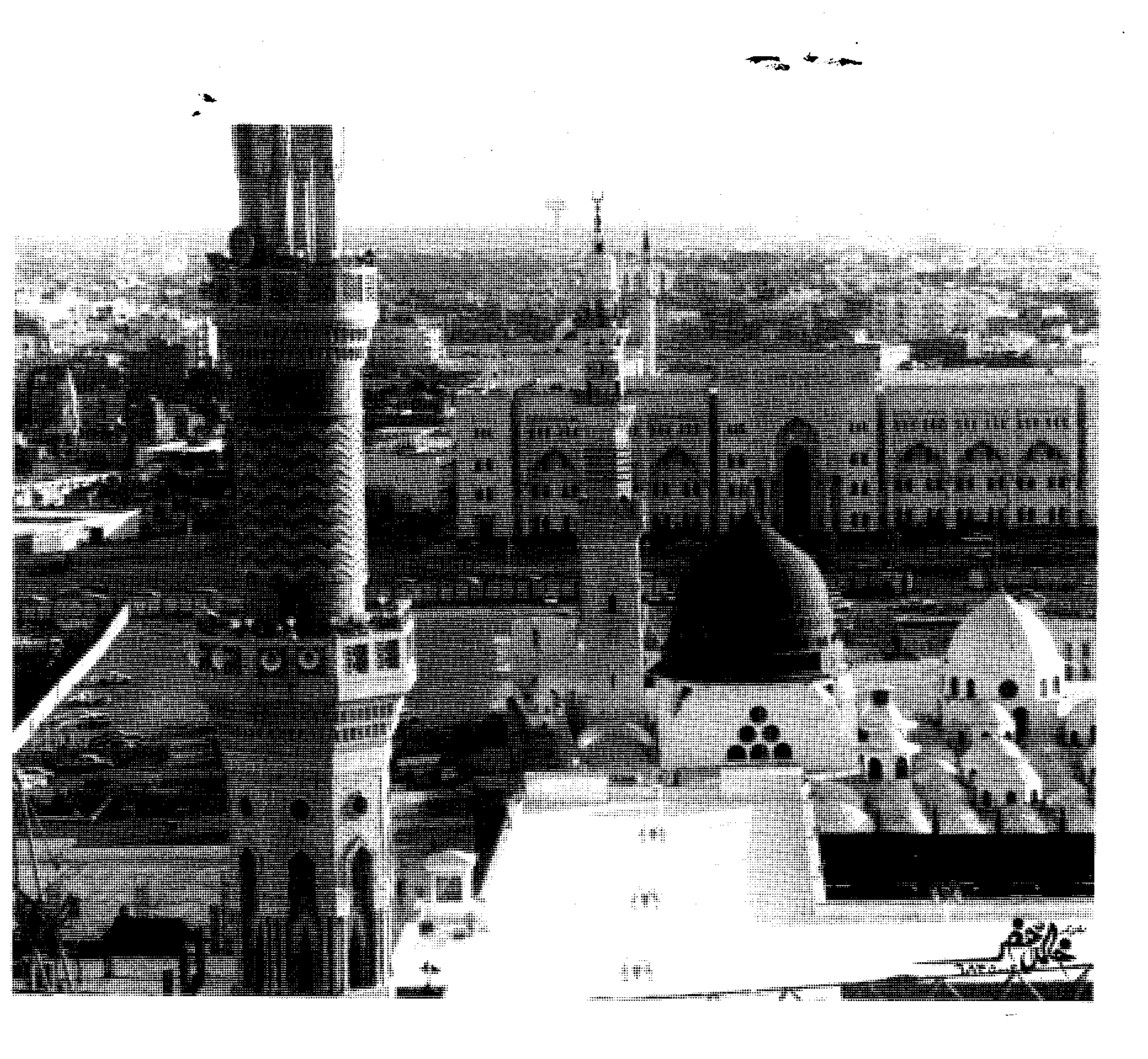
١) انظر الأخبار الغريبة ١٠٤/١٠٧ وخلاصة الكلام ٢١٨ ٦.

زوبعة صغيرة:

بعد منتصف عام ١١٩٩ للهجرة عُيِّن الشيخ محمد جوهر شيخاً للحرم النبوي وكان هذا الرجل على شيء من البساطة والطيبة. وقد أسر له بعض من حوله أن (كتخدا نوبتجاية) أحمد رجب قوي النفوذ بين العساكر وربما يؤدي به نفوذه إلى الصدام مع الآخرين وإثارة الفتن. ومن الضروري عزله وتعيين عبد الله مدني مكانه لأنه أقل نشاطاً واحتكاكاً بالآخرين. واتبع الشيخ محمد جوهر ما أشير عليه فعزل أحمد رجب وعين عبد الله مدني مكانه. وفوجئ العسكر بهذا التصرف ولم يروا مايسوغه. وغضبوا وبدأوا يلغطون بالأمر، وخشي أحمد رجب أن يتحول اللغط إلى فتنة فخرج من المدينة وأقام في قباء. ولكن عساكره في القلعة لم يرضوا عن ذلك. وظهر فيهم من يحركهم ويشعل الحماسة فيهم، فاهتاجوا. واتجهوا في حشد كبير نحو المسجد النبوي. واحتلوا مبنى المحكمة السلطانية ومبنى مدرسة باب الرحمة المطلة على الحرم. ثم انتشروا في منطقة الحرم كلها وسيطروا على أبواب المسجد النبوي. وبدأوا يطلقون النار في الهواء إعلاناً عن غضبهم ورفضهم لعزل (كتخدا) أحمد رجب..

فزع أهل المدينة لهذه الثورة المفاجئة التي قطعت هدوء عدة سنوات. وأغلقت الأسواق وهرب كثير من الناس إلى بيوتهم. وخرج شيخ الحرم لمواجهة الثائرين. وطلب مفاوضتهم. وأرسل إليهم يطلب منهم أن يقلعوا عما يفعلونه ويحافظوا على سلامة الناس والمسجد النبوي، وهو مستعد لتنفيذ جميع طلباتهم حتى ولو كان طلبهم أن يعتزل مشيخة الحرم أو أن يسلمهم نفسه للقتل. ودهش المتمردون لهذا العرض السخي ولهذه الاستجابة السريعة. فأجابوا الوسطاء بأنهم لايطلبون سوى إعادة كتخدا أحمد رجب وعزل عبد الله مدني. فأعلن شيخ الحرم على الفور عزل عبد الله مدني وإعادة (كتخدا) أحمد رجب وطلب منهم أن يرسلوا أحدهم لإعادته إلى المدينة وإلى

منصبه. فرضي الجميع وأغمدوا أسلحتهم وأخذوا بالعودة إلى القلعة(١) وطوى القرن الثاني عشر سنواته على المدينة وادعةً وداعةَ شيخِ الحرم هادئة آمنة كما يحب أهلها وزوارها أن تكون.



١) الأخبار الغريبة ١١٦.

المدينة في القرن الثالث عشر

كانت السنوات الأولى من القرن الثالث عشر الهجري هادئة في المدينة المنورة ولكنها كانت تنذر بتغييرات قادمة، وقد بدأت هذه التغييرات بعيداً عنها في مكة المكرمة، حيث تولى الشريف غالب بن مساعد إمارة الحجاز بعد وفاة الشريف سرور بن مساعد وتنازل أخوه عبد المعين بن مساعد. وكان غالب -كسلفه سرور- طموحاً ذا حيوية ونشاط كبيرين، يتطلع إلى أن يوطد سلطانه ويمده ماستطاع.. وفي نجد كانت الدولة السعودية الأولى قد وطدت أركانها واستولى رجالها على معظم الجناح الشرقي للجزيرة العربية ودخلوا البصرة.. واتجهوا غرباً إلى مشارف الحجاز. وكان الأمراء السابقون قد أساءوا التعامل معها وتبنوا موقف الدولة العثمانية المعادي لها.. فمنع الأشراف النجديين من أداء فريضة الحج -وهذا خطأ فاحش لاتسوغه الخصومات السياسية- فمنذ ولاية الشريف سعود بن سعيد (المتوفى ١١٦٥هـ) أرسل الأمير محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية الأولى يستأذنه في أن يحج رعاياه فلم يأذن الشريف سعود لهم. وتكرر الطلب أيام الشرفاء اللاحقين وكانوا كلما استأذنوا للحج منعوا أو سجن رسلهم حتى كانت سنة ١٢٠٢هـ حيث تولى الشريف غالب بن مساعد. فلم يكتف بمنعهم بل تهددهم بالركوب إليهم، وأعقب القول بالفعل(١) فجهز في عام ١٢٠٥هـ حملة كبيرة بقيادة أخيه عبد العزيز بن مساعد واستنهض القبائل المجاورة من شمر ومطير فاجتمع له مايزيد على عشرة آلاف مقاتل، وزودهم بعشرين مدفعاً. فسارت الحملة شرقاً إلى القصيم وحاصروا عدداً من القرى والحصون التي تتركز فيها قوات الدولة السعودية وقصفوها بالمدافع وقتلوا عدداً من المدافعين عنها والأهالي ثم لحق الشريف غالب بأخيه بقوة إضافية ومعهم سبعة مدافع وقصفوا بعض القرى في عالية نجد واستمرت الحملة أكثر من

---

١) شبه الجزيرة ٣٢٩/١.

شهر، ثم رجع الشريف غالب ومعظم قواته إلى مكة وتخلفت عنه بعض القبائل المصاحبة، فكر عليها الأمير عبد العزيز بن محمد وهزمها هزيمة منكرة في وقعة (العدوة) قرب حائل وغنم الأموال والعتاد(١).

كانت حملة الشريف غالب بداية لانعطاف كبير في العلاقات بين دولة الشرفاء في الحجاز ودولة السعوديين في نجد، فقد بدأت فصلاً جديداً من المواجهة الحربية بين الطرفين.. بعد أن كانت تقتصر على المراسلات والسفارات.. وقد أكد الشريف غالب رغبته في مواجهة الدولة السعودية في العام التالي عندما وصلته الأخبار بأن بعض القبائل في تربة ورانية وبيشة انضمت إلى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فجهز جيشاً بقيادة أخيه عبد العزيز لقتالها، وغادر الجيش مكة المكرمة في ربيع الثاني عام ١٢٠٦هـ وحمل على القبائل في بيشة وماجاورها، ولم تكن لتلك القبائل القدرة على مواجهة الحملة فأعلنت الطاعة، ورجعت الحملة إلى مكة(٢) وبعد أقل من سنتين بدأت أول حملات السعوديين على الحجاز، وقاد صاحب مدينة شقراء عبد الله بن محمد بن معيقل جموعاً كبيرة نحو الحجاز في مطلع عام ١٢٠٨هـ، وأغار على قبائل بوادي عتيبة ووقع قتال شديد وسقط عدد كبير من القتلى من الطرفين.

وفي شعبان عام ١٢٠٩هـ توجه الأمير سعود بن عبد العزيز بقوة كبيرة إلى الحجاز وحاصر مدينة تربة حصاراً شديداً حتى صالحه أهلها فرجع عنهم(٣) وعادت الحملة دون أن تحقق أهدافها(٤) فرد الشريف غالب عام ١٢١٠هـ بحملة اتجهت إلى عالية نجد والتقت بجموع النجديين على مايعرف

---

١) عنوان المجد في تاريخ نجد ١/١٠٤- ١٠٦.

٢) تاريخ مكة ص ٤٨٩.

٣) عنوان المجد ١/١٢٥.

٤) السابق ١٢٢- ١٢٣.

بـ (الجمانية) وحدثت موقعة ضخمة وقتل عدد كبير من الطرفين وعادت الحملة إلى مكة(١) وتعد هذه الحملة تصعيداً للصراع مع الشريف غالب وتأكيداً على اهتمام السعوديين بالحجاز وتطلعهم إلى نشر دعوة الاصلاح فيها.

غير أن المدينة المنورة كانت حتى هذه السنة بمنأى عن الصراع والمعارك، وكانت مستغرقة في قضاياها الداخلية والصراع الهادئ والخفي غالباً بين مراكز القوى فيها، وتعديات القبائل والأعراب على قوافلها وأسواقها بين الحين والآخر.

ولم يهتم الإمام سعود بن عبد العزيز بإرسال قوة إليها أو إلى ضواحيها رغم أنه وجه قواته وتوجه بنفسه في بعض الأحيان إلى نواحي الطائف وتهامة ودومة الجندل.. ولا نجد في الأخبار مايشير إلى أن أهل نجد قد منعوا من دخول المدينة كما منعوا من دخول مكة. غير أن عدم قدومهم إلى الحج لسنين طويلة، والحالة التي كانت عليها المدينة المنورة وكثرة المزارات والقباب على القبور والظواهر الشركية الأخرى التي تجردت الحركة الإصلاحية لمحاربتها، كل ذلك جعل النجديين لايهتمون بزيارة المدينة، فلم تنشأ أية مشكلة في هذا الصدد على نحو ما نشأت في مكة ولعل هذا من الأسباب التي أخرت توجه السعوديين نحو المدينة والاستيلاء عليها.

غير أن المدينة المنورة بدأت تتأثر بهذا الصراع في بداية العقد الثاني من القرن الثالث عشر. فقد أصدر الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود أوامره إلى قائده أمير مدينة الدواسر ربيع بن زيد أن يقوم ببعض العمليات العسكرية في الحجاز ضد الشريف غالب والقبائل التي تناصره، فبدأت الحملات المتوالية شرقي مكة وجنوبها ثم اتجهت إلى شمالها، وتأثرت بعض القبائل بهذه الحملات، كما تأثر بعضها الآخر بالدعوة الإصلاحية نفسها، وبينما كان رجال ربيع بن زيد يهاجمون مناطق شرق الطائف وشمالها، بدأت بعض القبائل

---

١) تاريخ مكة ص ٤٨٩ وعنوان المجد ١٢٦/١.

تراسل الأمير عبد العزيز بن محمد في الدرعية لتبايعه على الدعوة الإصلاحية الجديدة وتدخل في سلطته، وقد أجابهم الأمير عبد العزيز لذلك ففزع الشريف غالب وجرد حملة قادها بنفسه لإعادتهم إلى طاعته، ونجح في اخضاع بعضهم.. ولكنه مالبث أن اصطدم بجموع من السعوديين في شوال عام ١٢١٢هـ في قرية الخرمة قرب مدينة تربة فهزم هزيمة ساحقة وقتل عدد ضخم من رجاله يقدره بعضهم ألفين وأربعمائة شخص(١) وغنم السعوديون أموالاً وغنائم أخرى هائلة. وقد أقنعت هذه الموقعة الشريف غالب بعدم قدرته على مواجهة السعوديين فقرر تغيير موقفه معهم ومسالمتهم.. وكان مما حمله على ذلك عدم استجابة الدولة العثمانية لطلبه بتعزيز قواته ومده بأسلحة حديثة. فقد أرسل إليهم عدة مرات يطلب المساعدة لمقاومة السعوديين. ولكن الدولة العثمانية لم تستجب له. وربما كانت تفكر في عزله.

كان تأثر المدينة المنورة بهذه الأحداث اقتصادياً أكثر منه حربياً فقد أثرت الحملات السعودية المتوالية على أطراف مكة على قوافل التجارة، وعندما اتجهت الحملات السعودية شمالاً وقطعت الطرق الرئيسة الموصلة إلى مكة والطائف والمدينة من الشرق والجنوب تحولت القوافل التجارية عن هذه المدن، وقلت الميرة وارتفعت الأسعار. ولم تتغير الحال إلا بعد معركة تربة. حيث أرسل الشريف غالب وفداً إلى الأمير عبد العزيز بن سعود يفاوضه على الصلح والمهادنة ووضع حدود بين الطرفين وتعيين القبائل والمناطق التي تتبع كل منهما، فوافق الأمير عبد العزيز على طلب الشريف غالب وبدأت المراسلات بين الطرفين. ثم اجتمع مندوبون واتفقوا على التفاصيل، وكان في مقدمة الاتفاقية ألا يُمْنَعَ النجديون من الحج وأن يعاملوا معاملة طيبة.

وجاء ركب من نجد فيه اثنان من أبناء الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأمير شقراء وعدد من أهل شقراء والقصيم فحجوا وعادوا سالمين. وتبادل

---

١) عنوان المجد ١/١٣٧-١٣٨.

الشريف غالب والأمير عبد العزيز بن سعود الهدايا والرسائل.

كان لاتفاقية الصلح أثر بعيد المدى. فقد وضعت الحرب أوزارها بين الطرفين وتحسنت الأوضاع الاقتصادية في مكة والمدينة ولكن ثمة آثار أكثر أهمية بدأت تظهر بعد حين وهي تسرب الدعوة الاصلاحية إلى بعض قبائل الحجاز ووصولها إلى أطراف المدينة، فتوقف الحرب أعطى فرصة للدعاة النجديين كي يصلوا إلى القبائل ويخاطبوا الناس، وأزال الثغرة التي تنشأ عادة بين المتحاربين وتغلق الآذان والعقول. وبدأ أفراد.. ثم جماعات من الناس ينحازون إلى الدعوة الاصلاحية. وقد تأثرت بعض القبائل القريبة من المدينة بهذه الدعوة، وفي مقدمتهم آل مضيان، فرع من فروع قبيلة حرب، ويذكر ابن بشر أن بادي وبداي ابنا بدوي بن مضيان زعيم القبيلة وعدد من أفراد القبيلة تأثروا بهذه الدعوة وأحبوها، فسافروا إلى الدرعية، والتقوا بالأمير عبد العزيز وبايعوه على السمع والطاعة. فأرسل الأمير عبد العزيز معهم داعية يعلمهم التوحيد وينشر الدعوة في المنطقة وهو عثمان ابن عبد المحسن أبو حسين. ولانعرف السنة التي حدثت فيها هذه الواقعة غير أن عبارة ابن بشر تفيد أنها جرت قبل نهاية العقد الثاني من القرن الثالث عشر بعدة سنين. ونرجح أن يكون ذلك قد تم في منتصف هذا العقد. بعذ أن حج عبد العزيز بن محمد عام ١٢١٤هـ بجمع هائل من أهل نجد (وكانت حجة حافلة بالشوكة وجميع الخيل والجيش والأثقال والنساء)(١) وتكرر ذلك في العام التالي ١٢١٥هـ، ووزع الأمير أموالا طائلة على الناس في مكة. وأمن

---

١) السابق ص ١٤٦/١.

الناس كما أمن طريق الحج(١) وأسقط (المكوس) والجبايات عن الحجاج وانتشرت أخبار ذلك في البلاد فأسهم ذلك كله في تغيير نظرة أهل الحجاز إلى الدعوة الإصلاحية والنجديين..

تحصين المدينة المنورة:

في عام ١٢١٣هـ ١٧٩٨م وردت الأخبار باستيلاء الفرنسين على مصر بقيادة نابليون بونابرت وزحفه إلى الساحل الفلسطيني ووصول قواته إلى عكا.. آنئذ خافت الدولة العثمانية من أن يتجه إلى الحجاز فأمرت بتحصين الحرمين الشريفين، وسارع الشريف غالب (وصنجق) جدة وقادة الفرق العسكرية في المدينة المنورة إلى تنفيذ هذا الأمر..

ولم يزد تحصين المدينة على تفقد سورها وترميم الجوانب الضعيفة فيه وشحن القلعة بالرجال وتوزيع المدافع على الأبراج. ولاشك أن هذه الحركة ستحدث من الاشاعات والآثار النفسية مايفوق حقيقة الموقف أضعافاً مضاعفة.. ومن لطف الله أن الفرنسيين لم يفكروا بالتوجه إلى الحجاز والاستيلاء عليها، إذ لم يكن في الحجاز أية قوة حقيقية تمكنهم من الصمود أمام جيوش نابليون المدربة وأسلحتها المتفوقة..

إرهاصات ونذر:

تواترت الأخبار عن انتشار الدعوة الإصلاحية بين عدد من أفخاذ حرب وازدياد أتباعها، وأنهم يفكرون في الاستيلاء على المدينة.

وما لبثت هذه الأخبار أن تحولت إلى نذر حقيقية عندما نزل عدد من أتباع الدعوة الإصلاحية في عوالي المدينة وشرعوا في بناء حصن طيني كبير بأمر من عبد العزيز بن محمد نفسه، وكان من عادة السعوديين إذا حاصروا مدينة لمدة من الوقت أن يبنوا قصراً طينياً واسعاً على مشارفها، يكون حصناً لهم ومركزاً للتجمع والقيادة. وقد اتبعوا هذه الطريقة في الاستيلاء

---

١) السابق ٤/١.

على عدد من المدن كالطائف وتربة وبيشة وغيرها، فلما ظهر البناء في عوالي المدينة تحولت الشائعات إلى توجس حقيقي من استيلاء أتباع الدعوة الإصلاحية على المدينة. ويشير ابن بشر إلى أن الحربيين الذين بايعوا عبد العزيز بنوا القصر في العوالي وأحكموه واستوطنوه وجعلوه مقراً للدعوة والحركة أيضاً فبدؤوا ينشرون دعوتهم في أهالي قباء وضواحي المدينة الأخرى. فبايعهم عدد من أهلها..

وكانت الدعوة قد أخذت طريقها إلى عدد كبير من القبائل الحجازية مما جعل الشريف غالب ينقض العهد مع الأمير سعود بن محمد ويسير الحملات لإعادة تلك القبائل إلى طاعته. فعاد القتال بين الطرفين وانتقض كثيرون على الشريف غالب. وكان من أخطرهم وزيره عثمان بن المضايفي الذي بايع الأمير عبد العزيز ثم صار واحداً من أكبر قادته واستولى على الطائف وهدد الشريف غالب.

ولاشك أن الهدنة التي قامت بين الشريف غالب والأمير عبد العزيز من ١٢١٣- ١٢١٦هـ قد مكن الدعاة من الانتشار بين القبائل والتأثير فيها. ولم تتوقف الدعوة بعد ذلك رغم وقوع القتال بين الطرفين بعد ذلك مرات متوالية..

حصار المدينة:

شعر أهل المدينة المنورة أن الحربيين المبايعين للسعوديين ومن يبايعهم من الساكنين في ضواحي المدينة يحيطون بالمدينة ويحاصرونها فعلياً. وقد تعزز موقف السعوديين وأتباعهم عندما أرسل الأمير عبد العزيز اليهم الشيخ العالم قرناس بن عبد الرحمن، صاحب مدينة الرس فأقام فيهم معلماً وقاضياً مدة من الزمن وحثهم على تكثيف جهودهم لضم أكبر عدد من الناس إلى الدعوة الإصلاحية. فنشطت الدعوة حول المدينة وصمم الداخلون فيها على تخليص المدينة من مظاهر الشرك والبدع الكثيرة وبدؤوا يضيقون عليها الحصار.

وفي عام ١٢١٨هـ اغتيل الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود في الدرعية وتولى الإمارة ابنه سعود بن عبد العزيز. فواصل جهود أبيه ووجه دعاته وأتباعه في الحجاز إلى تكثيف جهودهم فعاد القتال بينهم وبين الشريف غالب واشتد الحصار على المدينة المنورة وتحولت القوافل التجارية عنها، وقلت الأرزاق وارتفعت الأسعار إرتفاعاً شديداً..

وبينما كان عثمان المضايفي يقود معارك مع الشريف غالب ورجاله في الطائف ثم في أبواب مكة، كان أتباع الدعوة الإصلاحية حول المدينة يكتفون بمحاصرتها. وإنذار أهلها بالتسليم. وكانت الفرق العسكرية في المدينة قد أخذت أهبتها للقتال.. ولكنها لم تغادر سور المدينة لمواجهة المحاصرين ومقاومتهم. واشتد الأمر على أهل المدينة. وانتقلت إليهم الأخبار المتوالية عن انتصارات عثمان مضايفي في الطائف وزحفه إلى مكة. وكذلك انتصارات القادة الآخرين في أماكن أخرى. ورأى أهل المدينة أن من العبث مقاومة هذا التيار وأن المدينة لابد أن تسقط في أيدي محاصريها الذين لم يؤذوها، لذلك آثروا أن يتصرفوا بحكمة وتعقل.

مفاوضات مجدية:

اجتمع أعيان المدينة وقادة الفرق وشيخ الحرم والقضاة.. وبعد مناقشات كثيرة استقر رأي الجميع على مكاتبة الأمير السعودي سعود بن عبد العزيز مباشرة وتجاوز المحاصرين وطلب الأمان للمدينة وأهلها.. وكتب المجتمعون رسالة وقعها شيخ الحرم والقضاة وعدد من الأعيان. منهم أحمد الطيار وحسن قلعي قائدا (النوبتجية) والقلعة، وخرج وفد صغير من المدينة المنورة إلى الدرعية بالأمان وقابل الأمير سعود فرحب بهم الأمير وأكرمهم وقبل مبايعتهم وإعطائهم الأمان واشترط عليهم تطهير المدينة المنورة من مظاهر الشرك والبدع الضالة ولاسيما القباب على القبور.. فقبل الوفد ذلك وعادوا بخطاب الأمان إلى المدينة المنورة. وفي الوقت نفسه جاءت الأوامر إلى أتباع

الحركة الإصلاحية بتأمين أهل المدينة ودخولها سلماً وإزالة القباب ومظاهر الشرك فيها..

بداية العهد السعودي في المدينة المنورة:

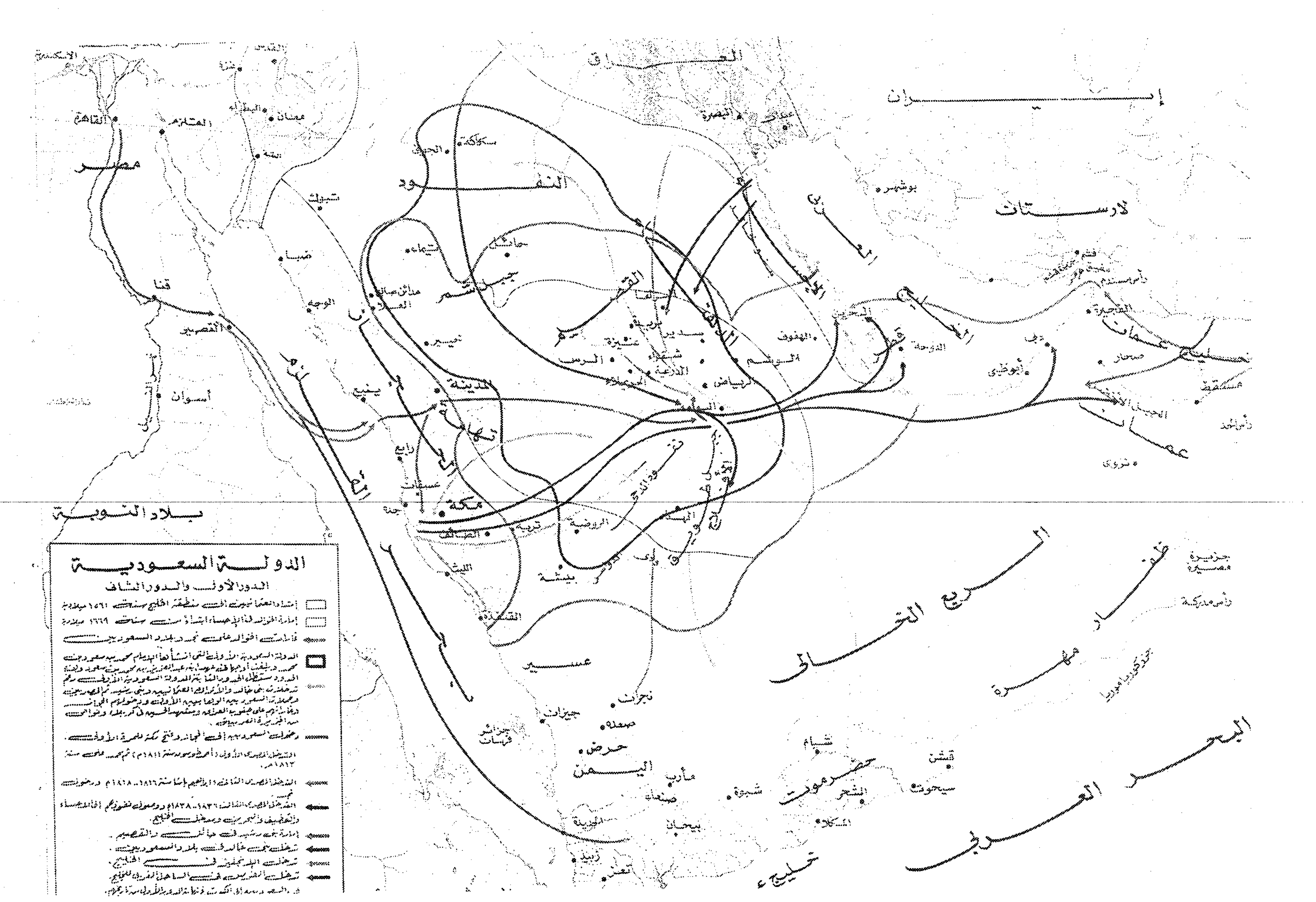
في ربيع الأول عام ١٢٢٠هـ بدأ تنفيذ هذا الاتفاق. ففتحت المدينة أبوابها وخرج شيخ الحرم والقضاة والأعيان لاستقبال مشايخ آل مضيان ومن معهم من أتباع الحركة الإصلاحية وكان لقاء السلم والمصالحة. وصلى الجميع في المسجد النبوي وهدمت القباب المقامة في بعض شوارع المدينة وعلى قبور البقيع.

التغييرات الجديدة:

بدأت التغييرات تظهر في حياة المدينة المنورة، فقد اختفت مظاهر السيادة والتسلط التي كانت بارزة في قادة الفرق العسكرية وبعض جنودهم، واختفت مظاهر الصراع بينهم وتغيرت مراكز القوى تغيراً جذرياً.. فقد عين مبارك بن مضيان الظاهري (حربي) أميراً على المدينة وقائداً للمرابطين(١) وكان مبارك قد أسهم في بناء القصر في العوالي وسمي فيما بعد باسمه، واستمرت إمارته إلى نهاية الحكم السعودي أي سبع سنوات وبضعة أشهر، ورابط الإخوان الذين دخلوا المدينة بعد اتفاقية الصلح في بعض أطرافها، والقصر الذي كان مركز نشاطهم مازال يشهد مرابطة المجاهدين فيه والمزارات الكثيرة التي كان يقصدها بعض أهل المدينة والقادمون إليها في عدد من أحياء المدينة -كمشهد محمد النفس الزكية- اختفت ولم تعد تشهد التجمعات السابقة، وأزيلت القباب من قبور البقيع واختفت مظاهر الدروشة واختفى الدراويش والمجذوبون الذين كان بعض البسطاء يعتقدون بولاياتهم وكراماتهم، واختفت حفلات الذكر العلنية والموالد وغيرها من البدع التي وفدت

---

١) المدينة عبر التاريخ ص ١٣٠.



الدولة السعودية
الدور الأول والدور الثاني
إيران
لارستان
العراق
البصرة
بوشهر
مصر
القاهرة
العقبة
معان
غزة
تبوك
ضبا
الوجه
قنا
القصير
أسوان
بلاد النوبة
النفود
سكاكة
الجوف
حائل
تيماء
جبل شمر
القصيم
مدائن صالح
العلا
خيبر
المدينة
ينبع
رابغ
مكة
جدة
الطائف
تربة
الرويضة
بيشة
الليث
القنفذة
عسير
نجران
جيزان
صعدة
حرض
اليمن
مأرب
صنعاء
زبيد
تعز
شبوة
شبام
حضرموت
الشحر
سيحوت
قشن
مهرة
الربع الخالي
البحر العربي
خليج عدن
عنيزة
بريدة
الرس
شقراء
الدرعية
الرياض
الوشم
الهفوف
البحرين
الدوحة
أبوظبي
دبي
صحار
مسقط
عمان
نزوى
رأس الحد
رأس مسندم
قشم
الفجيرة
رأس مدركة
جزيرة مصيرة

مع بعض الوافدين إلى المدينة المنورة وصارت جزءاً من تقاليدها.. فالإخوان الذين امتلأت أذهانهم بأفكار الدعوة الإصلاحية كانوا بالمرصاد لكل هذه (البدع) وقد واكب الناس التغييرات الجديدة على اختلاف مافي ضمائرهم. فمنهم من فهم الروح الإصلاحية فيها وتحمس لها وأخذ بها طواعية ورغبة، ومنهم من فهم أنها جزء متمم للتغييرات التي حدثت، فانصاع لها دون أن تتغلغل في قلبه..

ورغم أن المدينة فتحت أبوابها للإخوان سلماً ولم تشهد قتالهم ولم تر بأسهم فقد قر في الصدور شيء كثير من هيبتهم، وكانت مشاعر الهيبة هذه عاملاً مساعداً على اختفاء مظاهر البدع والمخالفة. ورغم أن الإخوان لم يؤذوا أحد فقد حرص المقيمون والمجاورون من أهل المدينة على إخفاء المظاهر التي تحاربها الدعوة الإصلاحية إن لم يقلعوا عنها نهائياً..

وكان أحسن ما جنته المدينة الأمن والسكينة. فقد توقفت تماماً غزوات المقيمين في الأطراف لأن قسماً كبيراً منهم قد تأثروا بالدعوة الإصلاحية وتحولوا من قاطعي طريق الحجاج وغزاة للمدينة إلى أتباع مخلصين وربما دعاة للدعوة الاصلاحية.

وكان لجهودهم أثر لاينكر في دخول المدينة المنورة تحت السلطة السعودية. وهكذا تحولت بعض أفخاذ قبيلة حرب من النقيض إلى النقيض. من غزاة يهددون المدينة وقوافلها إلى حماة لها وللحركة الإصلاحية الجديدة. وكذلك لم يعد في داخل المدينة من يفكر بإثارة شيء من القلاقل.. فلم يعد مجال للصراع على زعامة أو سلطة. وكمن القادة العسكريون في ثكناتهم ومواقعهم ينتظرون مايسفر عنه الوضع الجديد.. وكان من بينهم عدد من الجنود والأتراك الذينّ لزموا السكينة أيضاً.. أما قادة مراكز القوة الآخرين شيخ الحرم والمفتي والقاضي. فقد استمروا في مناصبهم ولكنهم لم يعودوا يتدخلون في شيء من الأمور العامة. فشيخ الحرم قد ركز اهتمامه على

المسجد النبوي والعاملين فيه. والمفتي في بيته يستقبل من يفد إليه من عامة الناس يسألونه عن قضية وقعت لهم في حياتهم اليومية، والقاضي ينظر في الخصومات القليلة التي تعرض عليه والتي أصبحت نادرة في العهد الجديد.. وكأنما شغل الناس بهذه التغييرات وبالإخوان المرابطين والمترددين على المسجد النبوي والمساجد الأخرى يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويمنعون ظهور شيء من البدع..

وبدت آثار هذه التغييرات للعالم الخارجي في موسم الحج، فقد وصل المحمل الشامي إلى مشارف المدينة بقيادة عبد الله العظم باشا والي الشام، وأرسل يستأذن في الدخول إليها، فسمح له بالدخول شريطة ترك البدع المنافية لشعائر الحج، وأولها ضرب الطبول ونفخ المزامير، كما اشترط عليه ترك السلاح، فرضي بذلك وأودع السلاح في القلعة.

وللوقوف على الحجم الحقيقي لهذه التغييرات نقرأ ماكتبه الجبرتي عنها، يقول الجبرتي: أمر -أي عبد العزيز بن سعود- بمنع المنكرات والتجاهر بها وشرب (الأراجيل بالتنباك) وبالملازمة على الصلوات في الجماعة، ودفع الزكاة وترك لبس الحرير والمقصبات وإبطال (المكوس) والمظالم وكانوا خرجوا عن الحدود في ذلك، حتى إن الميت يأخذون عليه خمسة فرانسة وعشرة بحسب حاله، وإن لم يدفع أهله القدر الذي تقرر عليه، فلا يقدرون على رفعه ودفنه، ولايتقرب إليه الناسك ليغسله حتى يأتيه الإذن.. وغير ذلك من البدع و(المكوس) والمظالم التي أحدثوها -يقصد الحكام قبل السعوديين- على المبيعات والمشتروات على البائع والمشتري، ومصادرات الناس في أموالهم ودورهم، فيكون الشخص من سائر الناس جالساً بداره فما يشعر على حين غفلة منه إلا والأعوان يأمرونه بإخلاء الدار وخروجه منها، ويقولون إن سيد الجميع محتاج لها، فإما أن يخرج منها جملة وتصير من أملاك الشريف، وإما أن يصالح عليها بمقدار ثمنها أو أقل أو أكثر فعاهده على ترك ذلك كله،

واتباع ما أمر الله تعالى به في كتابه العزيز من إخلاص التوحيد لله وحده، واتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، وماكان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون إلى آخر القرن الثالث، وترك ما حدث في الناس من الالتجاء لغير الله من المخلوقين الأحياء والأموات في الشدائد والمهمات، وما أحدثوه من بناء القباب على القبور والتصاوير والزخارف وتقبيل الأعتاب والخضوع والتذلل والمناداة والطواف والنذور والذبح والقربان وعمل الأعياد والمواسم لها واجتماع أضعاف الخلائق واختلاط النساء بالرجال وباقي الأشياء التي فيها شركة المخلوقين مع الخالق في توحيد الألوهية التي بعثت الرسل إلى مقاتلة من خالفها ليكون الدين كله لله، فعاهده -أمير المدينة والأمراء الآخرون الذين عينهم- على ذلك وعلى هدم القباب المبنية على القبور والأضرحة لأنها من الأمور المحدثة التي لم تكن في عهده بعد المناظرة مع العلماء، وإقامة الحجة عليهم بالأدلة القطعية التي لاتقبل التأويل من الكتاب والسنة، وإذعانهم لذلك(١).

ويعلق الجبرتي على أثر بسط السلطة السعودية على الحرمين الشريفين فيقول: فعند ذلك أمنت السبل، وسلكت الطرق بين مكة والمدينة، وبين مكة وجدة والطائف، وانحلت الأسعار، وكثر وجود المطعومات، وما يجلبه عربان الشرق إلى الحرمين من الغلال والأغنام والأسمان والأعسال(٢).

مخاوف واحتياطات:

استمر الأمر على هذه الحال بقية سنة عشرين ومائتين وألف وشطر السنة التالية ١٢٢١هـ وبدأت الأخبار تتوارد على المدينة مع الزائرين بأن ركب الحج سيقدم من الشام بقيادة أمير الشام عبد الله العظم باشا وبدأ بعضهم يتوقع مجيء قوة عسكرية معه ربما تصطدم مع القوة المرابطة في المدينة.

---

١) تاريخ الجبرتي ١١٦/١١٧.

٢) السابق نفسه.

وبعد أن انتهى رمضان ودخل شهر شوال بدأت تتوافد على أطراف المدينة المنورة حشود كثيرة قادمة من نجد، وقبل أن ينتهي هذا الشهر كان قد عسكر في منطقة الجرف عدد كبير من أهل القصيم يقودهم حجيلان بن حمد ومثلهم من أهل الوشم والجبل وبعض قبائل شمر بقيادة محمد بن عبد المحسن بن علي ومضى قسم منهم شمالاً على الدرب المؤدية إلى الشام فرابطوا فيها. وكانت الجموع تتحرك وتتمركز بنظام دقيق وكانت مظاهر الجندية واضحة عليهم رغم أنهم لايلبسون الثياب العسكرية التي يلبسها الجنود، وكذلك كانت آثار الدعوة الإصلاحية ظاهرة في سلوكهم وفي تجمعاتهم وخطب خطبائهم وصلاتهم وقيامهم.. وكانت المراسلات متواترة بينهم وبين الأمير سعود بن عبد العزيز في الدرعية.. فقد جاؤوا بناء على أوامره وعسكروا بانتظار قدومه في موسم الحج.

استعدادات كبيرة:

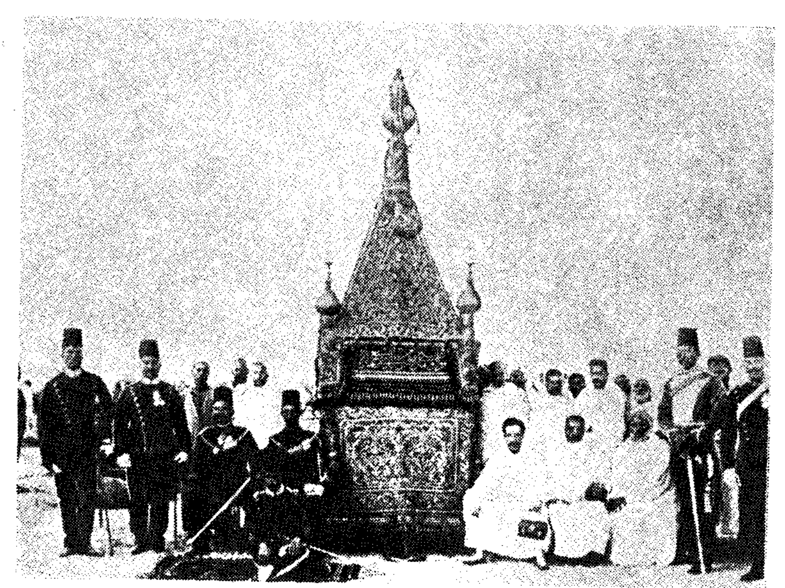
انتقلت بعض الأراجيف والشائعات التي يتداولها بعض الناس في المدينة ومكة إلى رجال الأمير سعود فنقلوها إلى أميرهم. فأصدر توجيهاته باتخاذ الحيطة خشية أن ينتهز الشريف غالب ورجاله في مكة وفي المدينة الفرصة ويحدثوا شغباً أو فتنة وازدادت ريبة السعوديين عندما رأوا تحصين القلعة والمواقع التي فيها الجنود الأتراك.. ورأوا زيادة عددهم وعرفوا أن بعض القادمين مع عبد الله باشا العظم في العام الماضي لم يعودوا بل بقوا مع زملائهم في القلعة، لذلك انتشر القادمون من نجد حول المدينة وراقبوا القلعة وأحكموا مواقعهم حولها أيضاً، وانتشروا في عدد من الأماكن المهمة في المدينة وخارجها ورابطت بعض مجموعاتهم على الطريق القادم من الشام ترقباً وحذراً.

ومالبثت أن وصلت مجموعة أخرى من نجد أصغر من المجموعتين السابقتين على رأسها فراج بن شرعان العتيبي، يحمل أوامر من الأمير سعود

بن عبد العزيز تقتضي باتخاذ أقصى درجات الحيطة ومراقبة المحمل الشامي ومنع دخول أي جنود أو مسلحين وتحذير الحجاج القادمين من إظهار شيء من البدع والمخالفات كدق الطبول أو إنشاد الأهازيج أو إقامة الموالد..

عودة المحمل:

وصلت الأخبار بأن المحمل الشامي قد دخل حدود الحجاز ويغذ السير إلى المدينة، فأرسل قائد القوة السعودية المرابطة في المدينة وما حولها رسولاً إلى أمير المحمل ليبلغه أوامر سعود بن عبد العزيز، وتوقف المحمل قريباً من المدينة.. ودهش أميره عبد الله العظم باشا، وهو والي بلاد الشام من قبل العثمانيين لهذه الأوامر، وكان قد أذعن في العام الماضي لطلبات السعوديين ولكنه استطاع أن يبقي عدداً من الجنود والسلاح في القلعة.. أما الآن فقد طلب منه أن يسلم السلاح للسعوديين ويتخلى عن (الطبول والصنوج) ويدخل المدينة دون أية مظاهر مسلحة، وسيشمل عزل السلاح حرسه الخاص وجميع رجاله.. فرفض هذه التعليمات، وآثر أن يترك الحج ويعود بالمحمل ومن معه إلى الشام..



المحمل الذي كان يتقدم الحجاج

واستدارت قافلته وعادت دون أن تدخل المدينة(١) وانتقلت أخبار عودة المحمل الشامي إلى المدينة المنورة.. فانتهى القلق الذي سيطر على بعض الناس، وأحس آخرون بالخيبة اذ كانوا ينتظرون وصول عدد من الجنود مع المحمل لينضموا إلى الجنود المرابطين في القلعة. وكانوا يتوقعون معركة قادمة يستعيد فيها أصحاب مراكز القوى السابقين مراكزهم.. وبخاصة قادة الفرق العسكرية وأتباع الشريف غالب.. وأحس السعوديون بأن الله قد دفع عنهم فتنة ومكّن لهم في الحرمين الشريفين..

الأمير سعود بن عبد العزيز في المدينة:

ومع نهاية شهر ذي الحجة بدأت وفود الحجيج تخرج من المدينة المنورة وسافر معظم الإخوان المرابطين والقادمين من نجد إلى مكة المكرمة.. حيث التقوا مع الأمير سعود بن عبد العزيز الذي قدم من نجد في جموع ضخمة. ولأول مرة تشهد مشاعر الحج هذا العدد الهائل من الحجاج القادمين من مناطق العارض والجنوب والوشم وسدير والقصيم وجبل شمر والأحساء وبيشة وتهامة واليمن والحجاز وغيرها من المناطق التي دخلت في ظل الدولة السعودية الأولى.. فيما تشهد غيبة الحجاج (الشوام) والمصريين والعراقيين فلم يحج في تلك السنة أحد من أهل الأقطار الشاسعة لا من الشام ولا من غيره(٢) وقبل نهاية ذي الحجة وصل الأمير سعود بن عبد العزيز إلى المدينة المنورة في حشد كبير من رجاله، ودخلها وأقام في مقر الإمارة، وأحدث تغييرات جوهرية في إدارتها.. فقد عزل القاضي والمفتي الذين أرسلتهما الدولة العثمانية وأمرهما بالخروج من المدينة المنورة، وعين قاضياً من أهل المدينة المنورة الصالحين وممن فتحوا صدورهم للدعوة الإصلاحية الجديدة

---

١) عنوان المجد ١/١٧٠.

٢) عنوان المجد ١/١٧٢.

وهو (الشيخ أحمد إلياس)(١) وهو من كُتَّاب الدولة السعودية الأولى، وأخرج العسكريين الأتراك الذين ظلوا في القلعة طوال السنة السابقة وأمرهم بالرحيل إلى استانبول. فرحلوا عن طريق مصر. وأقام مكانهم مجموعة من المرابطين من أهل نجد وأمر عليهم عبد الله بن مزروع -أمير قرية منفوحة- وعين مسؤولاً آخر على ديوان الخراج وهو حمد بن يحيى بن غيهب أمير مدينة شقراء ووزع بقية المرابطين على ثغور المدينة الأخرى وأضاف إليهم بعض المرابطين من قبائل حرب وضواحي المدينة.. وبذلك انتهت السلطة العثمانية الحقيقية على المدينة المنورة وصار كل شيء فيها سعودياً(٢).

سنوات من الأمن والأمان:

وكان الأمير سعود بن عبد العزيز قد فعل الشيء نفسه في مكة فاغتاظ السلطان العثماني لذلك غيظاً شديداً وأيقن أن السعوديين لن يكونوا مثل محمد علي باشا يستقلون بالسلطة الفعلية ويعلنون الولاء للسلطان العثماني ولو اسماً.. بل يستقلون بالسلطة الفعلية والاسمية وينشرون دعوتهم الإصلاحية فيغيرون كيان المجتمع تغييراً شاملاً.. لذلك قرر مواجهة السعوديين ومحاربتهم وكانت التغيرات في مكة والمدينة (الشعرة التي قصمت ظهر البعير) وأنهت تردد العثمانيين وترقبهم.

غير أن السلطان العثماني كان مشغولاً بأمور كثيرة لاتترك له الفرصة لمواجهة السعوديين.. لذلك كتب إلى محمد علي باشا في مصر يطلب منه أن يجهز قوة كبيرة ويتجه بها إلى الحجاز ليعيد السلطة العثمانية(٣) غير أن محمد علي باشا اعتذر للسلطان العثماني وتعلل بأن الأوضاع الاقتصادية في مصر لاتمكنه من تجهيز الحملة المطلوبة. وكان محمد علي مشغولا بترتيب

---

١) انظر: عبد الرحيم عبد الرحمن، الدولة السعودية الأولى ص ٢٤١.

٢) انظر: السابق نفسه ص ١٤٧-١٤٨.

٣) انظر تاريخ الجبرتي أحداث شوال ١٢٢٢، ٣/٢٢٩.

الأحوال في مصر إدارياً وعسكرياً وتدعيم الجيش والتخطيط للتخلص من المماليك والتفرد بحكم مصر. وقد ظل يكرر اعتذاره إلى أن تمكن له الأمر في مصر وقضى على المماليك في المذبحة المشهورة عام ١٢٢٦هـ حيث قتلهم غدراً، ونهب الجنود أموالهم في عملية بالغة القسوة(١) بعدها أظهر محمد علي رغبته في تجهيز الحملة إلى الحجاز.. وبدأ يعد لها العدة وفرض على تجار مصر وصناعها إتاوات كبيرة لتجهيز الحملة وصادر عدداً كبيراً من السفن في السويس وأمر بصنع سفن كبيرة لنقل الخيل والجمال مع المقاتلين. ووصلت إلى مصر عساكر رومية كثيرة لتكون نواة الحملة(٢) وصودرت الجمال والبغال والحمير (ومن وجدوه راكباً ولو من وجهاء الناس أنزلوه عن دابته)(٣) واستمر الإعداد للحملة ستة أشهر ونصف، عانى فيها أهل القاهرة والإسكندرية وغرب البحيرة والسويس معاناة شديدة(٤). وخلال هذه السنوات من (١٢٢١- ١٢٢٦هـ) نعمت المدينة بالأمن والأمان التامين.. وانتظمت فيها الحياة في ظل الدول السعودية الأولى وكان من تقاليد هذه الدولة أن يأتي ((المرابطون)) من أنحاء نجد والأحساء والجنوب ليقيموا سنة في المدينة ويكونوا قوة حفظ الأمن والدفاع عن المدينة، وكان المرابطون يعيشون حياة تتوافق مع الاسم الذي أطلق عليهم، فيقيمون في القلعة والقصر الطيني الذي بنوه قبل دخول المدينة في سلطان الدولة السعودية، وكانوا يحرسون المدينة ليلاً ويحضون الناس على حضور صلاة الجماعة نهاراً فكانت الأسواق تغلق عند الأذان ويتجه كل من فيها إلى المساجد القريبة ولا تفتح إلا بعد أداء الصلاة، وكانت مجموعات منهم تجوب الأسواق وشوارع المدينة بين الحين

---

١) انظر تفاصيل الحادثة في تاريخ الجبرتي أحداث صفر ١٢٢٦هـ ٣/٣١٩ -٣٢٨.

٢) انظر أحداث ربيع الثاني ١٢٢٦ وجمادى الأولى ٣/٣٣٠ -٣٣١.

٣) انظر تاريخ الجبرتي أحداث جمادى الأولى ١٢٢٦، ٣/٣٣٢.

٤) تاريخ الجبرتي ٣/٣٣٣.

والآخر فلا يجرؤ المفسدون على الإتيان بشيء..

وخلال هذه السنوات لم يعد للشريف غالب نائب عنه يدير شؤون المدينة أو تكون له أدنى سلطة فيها، وكانت السلطة كلها بيد رئيس المرابطين الذي يرسله الأمير سعود.. وكانت مدة ولايته سنة كاملة أيضاً، تبدأ بوصوله في موسم الحج وتنتهي بوصول بديله في موسم الحج التالي... ولم تكن لهؤلاء القادة سمات الأمراء ومظاهرهم، بل كانوا كسائر المرابطين يعيشون حياة أقرب إلى الزهد والتقشف ويخطبون في الناس يوم الجمعة، ويحكمون فيما يعرض عليهم من قضايا وأمور، فكان المرابطون وأميرهم يقومون بعمل الشرطة والجيش والهيئة الإدارية في وقت واحد.

نذر الخطر القادم:

وفي شهر رجب عام ١٢٢٦هـ بدأ الأمر يتغير، فقد تواترت الأخبار بأن محمد علي باشا في مصر قد استجاب أخيراً لطلب الخليفة العثماني وأعد حملة كبيرة لمهاجمة الحجاز والاستيلاء عليه، ولم تكن هذه الاستجابة خالية من الهوى الشخصي والرغبة في مد النفوذ والسلطان.

وقد وصلت طلائع الحملة بقيادة طوسون بن محمد علي باشا إلى ينبع واستطاعت أن تتغلب على الحامية السعودية الصغيرة فيها وتمهد الطريق لوصول بقية سفن الحملة وإمداداتها، وقبل أن ينقضي شهر رجب كان قد تجمع في ينبع خمسة آلاف من المشاة، تعززهم قوة مدفعية، وثلاثة آلاف من الفرسان.

وكان إعداد محمد علي باشا للحملة قوياً ودقيقاً، ولم يفته أن يصبغ عليها مشروعية دينية ويحيطها بدعاية واسعة، فقد أرسل مع الحملة المفتين من المذاهب الأربعة وعدداً من الشيوخ وأبناء بعض كبار التجار والشخصيات المرموقة في مصر، وكان الجيش خليطاً من الأتراك وأبناء الأقاليم المجاورة لتركية ومن المغاربة والمصريين، وقد وجه محمد علي إبنه طوسون إلى

الاستعانة بالقبائل الحجازية قدر الإمكان ولاسيما بعض أفخاذ قبائل حرب، الذين كانت الدولة تدفع لهم مخصصات سنوية لحماية قوافل الحجاج أو بالأصح مقابل عدم مهاجمتها ونهبها..

أقام محمد علي باشا لابنه طوسون قائد الحملة استعراضاً عسكرياً كبيراً في القاهرة قبل سفره في مستهل شهر ربيع الأول ١٢٢٦ وغادر بعدها طوسون ومعه القائد محمد المحروقي على رأس مجموعة كبيرة من المقاتلين الأتراك والأرناؤوط والروم الآخرين وبعض المصريين، والأكراد والشوام ومعهم الخيول والجمال والخيام والمدافع، وسافر معه من أرباب الصنائع طائفة من كل حرفة، ومن الفقهاء أربعة يمثل كل منهم أحد المذاهب الأربعة، والشيخ أحمد الطنطاوي. وسلكوا الطريق البري إلى الحجاز بينما بدأت أفواج أخرى تنتقل بحراً إلى شاطئ قريب من ينبع بقيادة محمد المحروقي. واستطاعت القوة البحرية أن تستولي على ينبع البحر وانسحبت الحامية السعودية منها، وكاتبهم الشريف غالب يعدهم المساعدة ويشجعهم على القدوم ودخول مكة والمدينة (١) والتقى العسكر البري مع البحري في ٢١ شوال ١٢٢٦هـ وبلغ عددهم قرابة ١٤ ألف مقاتل، وهاجموا قرية السويق و موطن جابر بن جبارة الذي عينه سعود بن عبد العزيز، واضطر ابن جبارة إلى أن ينسحب ويرسل الرسل إلى الأمير سعود وإلى المدينة ينذرهم ببدء زحف الجيش الغازي ليأخذوا أهبتهم ويستعدوا لمواجهته.

وبدأ طوسون عمله في ينبع وفق توجيهات والده، فوسع الرقعة التي استولى عليها أول الأمر، ثم أرسل إلى شيوخ حرب، والقبائل الساكنة في الطريق بين الحرمين وأرسل إليهم الأموال والهدايا والوعود بالعطايا السخية إن التحقوا بهم وأعانوهم على مواجهة السعوديين، وقد أثرت هذه الإغراءات في عدد من القبائل ولا سيما القبائل التي لم تسر فيها الدعوة الإصلاحية

---

١) تاريخ الجبرتي ٣/٣٣٤ أحداث رمضان ١٢٢٦.

فاستجابت لطلب طوسون وحشدت أبناءها لمساعدته في مواجهة السعوديين.

الاستعداد للمعركة:

وطبيعي أن تضطرب المدينة المنورة لهذه الأخبار، وأن يستعد المرابطون لمواجهة الموقف الجديد والدفاع عن المدينة المنورة إن هوجمت، بل والمبادرة إلى مواجهة الحملة القادمة قبل أن تصل المدينة، وبدأت الاستعدادات لذلك فرممت الأجزاء الضعيفة في سور المدينة وفي القلعة، واستحلت الأسلحة والذخائر ووزع قسم منها على المرابطين، وخزن قسم آخر، وأقبل الناس على البر والتمر، ومايمكث من الطعام يخزنونه، وجاءت توجيهات الأمير سعود بن عبد العزيز بالتجهز والمسير إلى الجيش القادم ومقاتلته تحت قيادة عبد الله بن سعود بن عبد العزيز، وتقاطر المتطوعون للقتال من ضواحي المدينة بانتظار وصول أوامر التحرك، وفي الوقت نفسه كان الرجال يتجمعون في نجد والجنوب وتهامة وقرى الحجاز عند أمراء المرابطين للانخراط في حملة المواجهة، وبدأ مسير هذه الحملة من نجد، وكلما مرت على منطقة التحق بها المتطوعون، واتجه الجميع صوب المدينة المنورة.

وصلت الجموع المدينة المنورة فالتحق بها فريق آخر من المتطوعين وواصلت الحملة سيرها حتى نزلت عند وادي الصفراء على بعد ١٢٠ كم جنوب غرب من المدينة المنورة وبدأت تستعد لمواجهة الجيش الغازي الذي تحرك من ينبع، رتب عبد الله بن سعود بن عبد العزيز قواته التي بلغ عددها نحو ثمانية عشر ألف مقاتل وثمانمائة فارس(١) وأنزل مجموعة كبيرة بقيادة مسعود بن

---

١) عنوان المجد ١٩١/١.

مضيان (١) في طرف وادي القصر من جهة الجنوب كي لايباغتهم الجيش الغازي فشرعوا بإقامة المتاريس والخنادق ومراكز المراقبة والتجمع وظل بقية الجيش أعلى الوادي منتشرين في السهل وبين التلال المتناثرة. وشرعوا بإقامة المتاريس ومراكز المراقبة أيضاً واستقرت الجموع في صفوف حصينة قادرة على الاتصال فيما بينها بسهولة..

مقدمات المعركة:

علمت طلائع الجيش الغازي بوصول جيش عبد الله بن سعود ونزوله في الصفراء فنقلت ذلك إلى قيادتها فأمر طوسون باشا الجيش بالزحف ومهاجمة الجيش السعودي. ولم ينتظر عبد الله بن سعود وصول الجيش الزاحف فأمر طليعة من جيشة تتألف من مجموعة من الفرسان والمشاة بالتقدم ومهاجمة طلائع الجيش الغازي ليكشف حجم قوته واستعداداته وليستجره إلى أرض المعركة التي اختارها الجيش السعودي. وتحركت الطليعة وكان عددها بضع مئات (٢) واستعد لهم الجيش الغازي، وجعل في مواجهتهم أبناء المنطقة نفسها الذين التحقوا به فطلب طوسون باشا من شيخ الحويطات، وكان قد حالفه لقاء مبلغ كبير من المال، أن يتصدى للطليعة السعودية القادمة، فتحرك شيخ الحويطات، مع مجموعة كبيرة من رجاله وفاجأ الطليعة السعودية قبل شروق الشمس وهي تستعد لمواصلة تحركها. ودارت معركة قصيرة، استفاد فيها عرب الحويطات من المفاجأة، وملكوا زمام المعركة، وقتلوا عدداً من أفراد الطليعة وزعزعوا صفوفهم.. فقرر قائد الطليعة الانسحاب والنجاة بمن معه خشية أن يطبق عليهم بقية الجيش الغازي.. فانسحب من المعركة مخلفاً

---

١) السابق.

٢) ويقدرها الجبرتي بسبعة آلاف ولكن تقديره غير دقيق ٣/٣٣٦.

وراءه اثنين وثلاثين قتيلاً وسبعين هجيناً(١) ورغم إصابة الطليعة بهذه الخسارة فإنها قد نجحت عسكرياً في تحقيق أهداف مهمة. كان لها أثر كبير في حسم المعركة الكبيرة القادمة..

فقد أوهمت هذه النتيجة الأولية قادة الجيش الغازي بأن القوة السعودية ضعيفة وقليلة الشأن، فأصدروا أوامرهم بالتحرك السريع ومهاجمة بقية القوة السعودية في وادي الصفراء، قبل أن يتأكدوا من عددهم الحقيقي، وقبل أن يعرفوا حجم قدراتهم ومدى تحصنهم.. فتحرك الجيش الغازي في ١٧ ذي القعدة ١٢٢٦هـ ووصل إلى أطراف وادي الصفراء. فواجه أحد المتاريس المتقدمة.. فهاجمه بقوة واستولى عليه، ثم هاجم موقعاً آخر واستولى عليه. ورأى الجيش الغازي المتاريس موزعة في أعلى الوادي فاتجه قسم منه إلى أعلى الوادي بينما بقي القسم الآخر في طرفه السفلي يزحف على المتاريس ومواقع القوة السعودية وتحصيناتها وكانت قليلة ومعظمها أشبه بالشراك الخداعية..

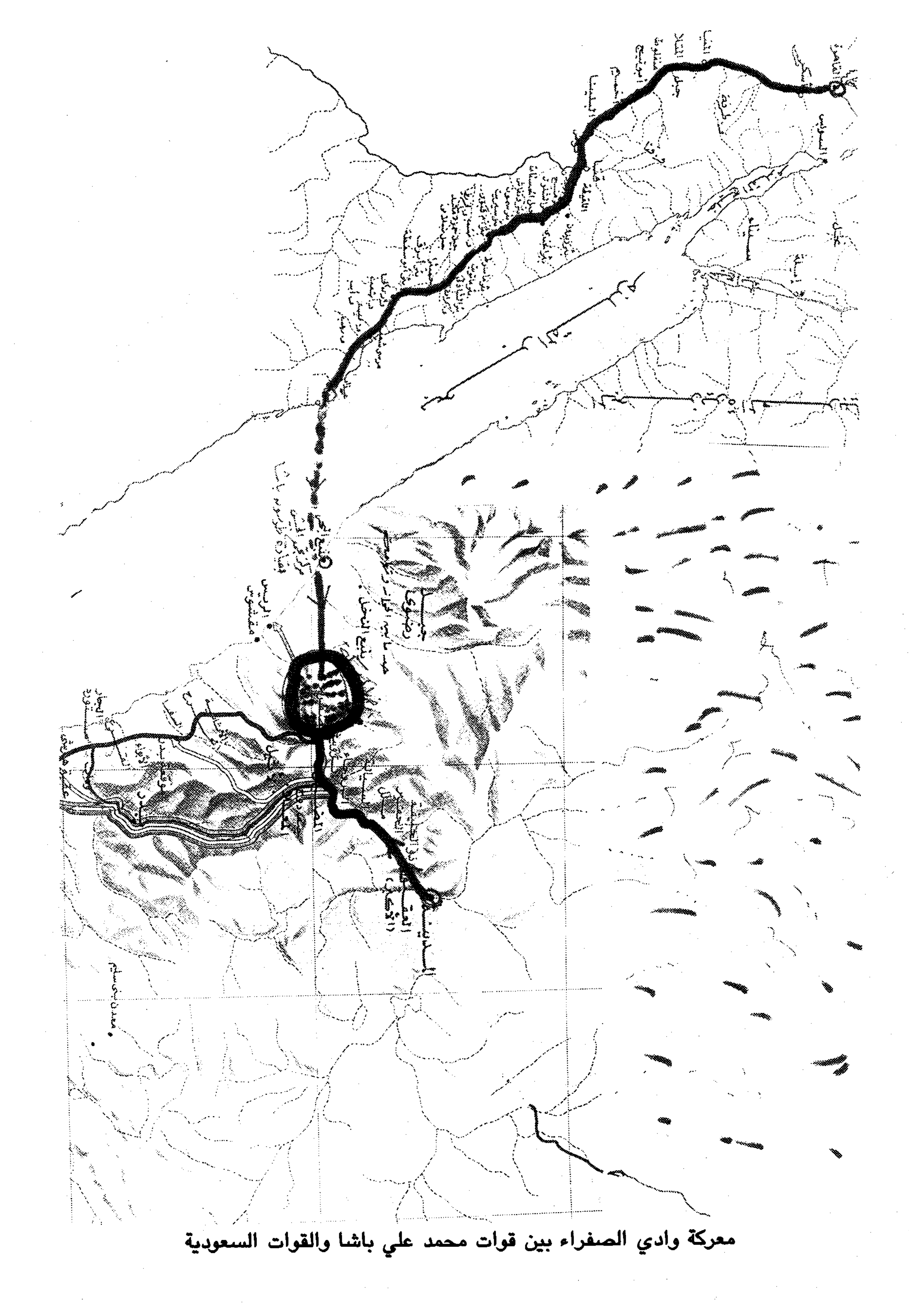
معركة وانتصار:

وعندما وصلت القوة الزاحفة إلى أعلى الوادي فوجئت بالأعداد الكبيرة التي تنتظرها. وفوجئت بتحصيناتها القوية.. وبدأ الصدام عنيفاً. وانطلق رصاص البنادق في حين تعطلت فاعلية المدفعية القوية التي يملكها الجيش الغازي لأنها بقيت في بطن الوادي وسفحه.. وهاجم الجيش السعودي القوات المتسلقة وكان معظمهم من الأتراك وأوقعوا فيهم خسائر كبيرة.. ولكن الأتراك صمدوا، واستنجدوا بإخوانهم فتوجهت إليهم الخيالة من طرق ضيقة إلى الجبل واستمرت الاشتباكات أعلى الوادي عند طرف الجبل والسهل الذي يليه. وكثر القتلى في الطرفين.. وازداد وصول الأتراك والمصريين إلى أعلى الوادي وحملوا حملات عدة على الجيش السعودي وانهزم بعض الأعراب الذين التحقوا

---

١) عنوان المجد ١٩٢/٣ والجبرتي ٣٣٩/٣.

بالجيش السعودي فأحدثوا خلخلة في صفوفه، وسارع عبد الله بن سعود إلى سد الثغرات وأرسل إلى مسعود بن مضيان، وكان يقود مجموعة رجال حرب في طرف الوادي، وطلب منه أن يترك الوادي ويهاجم الأتراك من خلفهم، فتحرك سعود بن مضيان ووصلت طلائعه في اليوم الثاني ونجحت الخطة فانحصر الأتراك بين رجال ابن مضيان ورجال عبد الله بن سعود واشتد القتال وسقط عدد كبير من القتلى.. ومالبث الأتراك أن شعروا بضعف موقفهم فبدؤوا بالهزيمة ولم يكن لهم سوى النزول إلى بطن الوادي حيث ينتشر بقية زملائهم. فهربوا إليهم في حالة كبيرة من الذعر والفوضى.. وقد أحدث نزولهم زلزلة كبيرة في إخوانهم.. فذعروا أيضاً وشاركوهم في الفرار، ويصف الجبرتي حالة الفوضى التي وقعت في الجيش الغازي فيقول: وطلبوا جميعاً الفرار وتركوا خيامهم وأحمالهم وأثقالهم، وطفقوا ينهبون ويخطفون ماخف حمله من أمتعة رؤسائهم، فكان القوي منهم يأخذ متاع رفيقه الضعيف ويأخذ دابته ويركبها وربما قتله وأخذ دابته، وساروا طالبين الوصول إلى السفائن بساحل البر لأنهم كانوا أعدوا عدة مراكب بساحل البر من باب الاحتياط ووقع في قلوبهم الرعب، واعتقدوا أن القوم في أثرهم والحال أنهم لم يتبعهم أحد لأنهم (السعوديين) لايذهبون خلف المدبر ولو تبعوهم مابقي فيهم شخص واحد. فكانوا (المهزومون) يصرخون على القطائر (السفن) فتأتي إليهم القطيرة وهي لاتسع إلا القليل فيتكاثرون ويتزاحمون على النزول فيها، فيصعد منهم الجماعة ويمنعون البواقي من إخوانهم فإن لم يمتنعوا مانعوهم بالبنادق والرصاص، حتى كانوا من شدة حرصهم وخوفهم واستعجالهم على النزول في القطائر يخوضون في البحر إلى رقابهم وكأنما العفاريت في أثرهم تريد خطفهم. وكثير من العسكر والخدم لما شاهدوا الازدحام ذهبوا مشاة إلى ينبع البحر، ووقع التشتيت في الدواب والأحمال والخلائق من الخدم وغيرهم. ورجع طوسون باشا إلى ينبع البحر بعد أن



معركة وادي الصفراء بين قوات محمد علي باشا والقوات السعودية

تغيب يوماً عن معسكره حتى أنهم ظنوا فقده(١).

ولقد أظهرت القوة السعودية مثالية عالية عندما أحجمت عن سحق القوة الغازية المنهزمة وكان ذلك يسيراً عليها.. سواء بتعقب الغازين وقتلهم أو أسرهم.. ولكن الخلق الإسلامي الذي تحلت به، والتي شهد بها الجبرتي جعلتهم (لايذهبون خلف المدبر) ولم يكن في ذهن السعوديين أن الجيش الغازي لن يلتزم في محاربتهم -فيما بعد- بأي من هذه الأخلاق والقيم.. ولو أنهم عاملوا الجيش الغازي بمثل مافعله في ينبع وأطرافها عندما استولى عليها لسحقوه وغيروا مجرى الأحداث.. ولكن -وليقضي الله أمراً كان مفعولاً- اقتصر المنتصرون على طرد الغزاة من الموقعة ولم يستثمروها في إنهاء وجود الحملة كلها والاستيلاء على مركز قيادتها الضعيفة آنئذ في ينبع.

نتائج المعركة وتحليلاتها:

وكانت آثار الهزيمة ضخمة على أفراد الحملة وقادتها.. فقد قتل منهم -كما يقدر ابن بشر- أربعة آلاف رجل، بينما قتل من السعوديين نحو سبعمائة رجل، ورحل عبد الله بن سعود بعدها إلى مكة المكرمة حاجاً والتقى بأبيه وحمل إليه بشائر النصر..

أما آثارها على القائد الأعلى للحملة -محمد علي باشا- فكانت محدودة جداً لأن تمرسه بالحرب وعدم استئصال الحملة -رغم ضخامة عدد القتلى- جعلاه ينظر إلى الأمر على أنه موقعة خسرها ولابد أن يعوضها بموقعة أخرى قادمة، لذلك يذكر الجبرتي أن الباشا لم يتزلزل، واستمر على همته في

---

١) الجبرتي: ٣/٣٣٦-٣٣٧.

تجهيز عساكر أخرى(١) وسمح لقادة الحملة الفاشلة ولعدد كبير من رجالها بالعودة إلى مصر. لأنه أدرك أن الرعب قد ركبهم وأنهم لن يقدروا على مواجهة السعوديين ثانية.. وقد عاد المهزومون وقادتهم في أسوأ حال إلى مصر، ووقع بعضهم في بعض، كل فريق منهم يلقي اللوم والتبعة على الفريق الآخر.

يقول الجبرتي: وطفقوا يتهم بعضهم البعض في الانهزام، فتقول الخيالة: سبب هزيمتنا القرابة والطليقة، وتقول القرابة بالعكس(٢) ويحلل الجبرتي نتائج المعركة ويسأل عدداً من المشاركين في الحملة ويصل من إجاباتهم إلى فهم واع للأسباب الحقيقية للهزيمة، يوردها على لسان (أكابرهم من الذين يدعون الصلاح والتورع) حيث يقولون: أين لنا النصر وأكثر عساكرنا على غير الملة، وفيهم من لايتدين بدين ولا ينتحل مذهباً، وصحبتنا صناديق المسكرات، ولايسمع في عرضينا أذان، ولاتقام به فريضة، ولايخطر في بالهم ولافي خاطرهم شعائر الدين. والقوم -السعوديون- إذا دخل الوقت أذن المؤذنون، وينتظمون صفوفاً خلف إمام واحد، وبخشوع وخضوع. وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذن، وصلوا صلاة الخوف، تتقدم طائفة للحرب، وتتأخر الأخرى للصلاة، وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به، فضلاً عن رؤيته، وينادون في معسكرهم: -أي السعوديون- هلموا إلى قتال المشركين، المحلقين الذقون، المستحبين الزنا واللواط، الشاربين الخمور، التاركين للصلاة، الآكلين الربا، القاتلين الأنفس، المستحلين المحرمات، وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر غلفاً غير مختونين. ولما وصلوا -أي الغزاة- إلى بدر واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف، وبها خيار الناس، وبها أهل العلم والصلحاء، نهبوهم، وأخذوا نساءهم وبناتهم

---

١) الجبرتي ٣/٣٣٨.

٢) الجبرتي ٣/٣٤١.

وأولادهم وكتبهم، فكانوا يفعلون فيهم، ويبيعونهم من بعضهم لبعض(١).

إذا كانت شهادة الجبرتي، وهو ابن ذلك العصر، والرجل الذي كان يستقصي الأخبار ويسمعها ممن شاركوا فيها تصف واقع الطرفين الغزاة والسعوديين، فإنها تكشف أيضاً عن طبيعة الصراع ودوافعه.. فمحمد علي باشا ينفذ رغبة الدولة العثمانية من جهة ويستجيب لطموحه السياسي الكبير في إظهار قوته ومد نفوذه.. ولم يكن لدخوله في المعركة أي دافع عقدي أو قومي أو وطني. لذلك كان جيشه أشبه بالمرتزقة يضم في صفوفه أشتاتاً من العالم الإسلامي من المغرب إلى البلقان.. وكان بعض المجندين من هذه الشعوب -وبخاصة القادمين من البلقان- غير متدينين على الإطلاق وبعضهم مازال متأثراً بالنصرانية المحيطة به في بلده بدليل أنه غير مختون. وبعضهم ينهب ويسرق ويسبي النساء.. ويرتكب الفظائع حيثما حل.. لذلك يعجب المرء من الصفة الدينية التي حاول رجال الدولة في استنبول، ومحمد علي باشا في مصر أن يضفيها على الصراع مع السعوديين، ويدرك مدى تهافتها. وبالمقابل كان الجيش السعودي -كما صوره الجبرتي- نموذجاً للمقاتل المسلم الذي يدفع عنه البغي.. وكان ملتزماً التزاماً دقيقاً بالآداب الإسلامية وأخلاق الحرب..

ورغم مشاعر الإكبار التي يمتلئ بها من يقرأ التاريخ فإن المرء يتمنى لو أن السعوديين واجهوا الحملة الغازية آنئذ بما يكافئ تصرفات رجالها، وقضوا عليها -ولو بالأسر الكامل- ليدخلوا في قلب محمد علي باشا الذعر كما أدخلوا في قلب قادة الحملة ورجالها.. فيوقف تلك الحرب القائمة ويعتذر للدولة العثمانية كما اعتذر لها مدة ست سنوات من قبل.. ولكن التاريخ لاتصنعه أمنيات لاحقة.

مابعد النصر:

تأثرت المدينة المنورة -كما تأثرت سائر مدن الحجاز ونجد آنئذ- بأخبار

---

١) الجبرتي ٣/٣٤١-٣٤٢.

النصر، وأحست أن الخطر الذي كاد أن يدهما قد انحسر عنها، فذهب عدد كبير من أهلها إلى الحج، كما ذهب المشاركون في حملة عبد الله بن سعود، والتقى الجميع بالأمير سعود بن عبد العزيز قائد الدولة السعودية، وكانت فرحة الانتصار تعم الجميع وتسهم في صرفهم عن متابعة العدو وإخراجه من أرض الحجاز كلها. ولم يكن في موسم الحج هذا العام أحد من تركيا أو الشام أو مصر. لذلك كاد الموسم أن يكون مخصصاً لسكان شبه الجزيرة العربية، ومن وفد من الشرق.. لولا أن حضر ركب مغربي، جازف في عمق الأحداث وجاء إلى مصر، وسافر منها إلى أرض الحجاز غير مبال بالمعارك الدائرة في تلك المواقع. وقد التقى الأمير سعود بحجاج الركب المغربي، وأكرمهم إكراماً شديداً نوه به الجبرتي في تاريخه(١).

وبعد انتهاء الموسم رتب الأمير سعود قوة جديدة لتكون في حماية المدينة المنورة وغربي الحجاز، ولتواجه أي هجوم يمكن أن تشنه القوات الباقية في ينبع، فأرسل إلى المدينة قرابة سبعة آلاف مرابط(٢) من أهل نجد واليمن والحجاز وأمرهم أن يتمركزوا في القلعة والحصون المنتشرة في المدينة وحولها لحفظ المدينة المنورة(٣) وعاد الأمير سعود ومعه ابنه عبد الله إلى نجد ومعهم بقية العساكر والأتباع ليقوم بحملات تأديبية على المناطق الشرقية قرب العراق(٤) ولعله كان يستشعر الخطر هناك لذلك سحب معظم الجيش من الحجاز قبل أن يتفاقم خطر الجيش القامع في ينبع..

ووصلت القوة الجديدة إلى المدينة المنورة، وتوزعت بين القلعة والقليعة والحصون المحيطة بأطراف المدينة، وواصل مبارك بن مضيان تصريف شؤون

---

١) الجبرتي ٣/٤٥.
٢) عنوان المجد ٣/١٩٥.
٣) السابق ٣/١٩٣.
٤) السابق ١/١٩٣.

الإمارة وعاشت المدينة المنورة شهوراً قليلة على النهج الذي كانت عليه منذ أن دخلت تحت سلطة الدولة السعودية، وأصيب عدد من الجنود الوافدين بحمى المدينة لأنهم لم يألفوا جوها بعد.

بذور العاصفة:

وفيما كانت المدينة تعيش حياتها العادية، كانت الأمور تطبخ في مصر وينبع لإخراجها من حياتها العادية هذه، بل لإخراجها من السلطة السعودية كلها. فمحمد علي باشا الذي لم يتزلزل لهزيمة حملته الأولى اشتد في تجهيز حملة أخرى قوية.. وجمع لها الأموال الطائلة بكل طريقة، وأقام معسكراً قرب القلعة ليجمع فيه الجنود وأرباب الحرف والصناعات كالخبازين والنجارين والحدادين.. وغيرهم لتسفيرهم إلى الحجاز وكلما تجمع قرابة الخمسمائة نفر أمر بتسفيرهم فوراً بالبحر عن طريق السويس. واختار محمد علي باشا واحداً من قادته المهرة هو -أحمد بونابرته- وكلفه بقيادة الحملة ونفى من استعجل بالهزيمة والرجوع من غير أمره، ومن يخشى صولته لأنه يرى في نفسه أنه أحق بالرياسه وأخرجهم من مصر واستراح منهم(١) ورسم بنفسه سياسة ماكرة لقائده الجديد.. فأمره أن يصرف كل جهده حالما يصل إلى ينبع في تأليف القبائل المنتشرة بين الحرمين، ويستعين بشيخ الحويطات الذي كان منحازاً إليهم، وأفهمه أن سبب الهزيمة في الموقعة السابقة هو مشاركة بعض قبائل حرب ومنطقة وادي الصفراء -الذين انتشرت فيهم الدعوة الإصلاحية- في القتال إلى جانب القادمين من نجد، وأنهم الآن مجهدون (الوهابية) لايعطونهم شيئاً، ويقولون لهم قاتلوا عن دينكم وبلادكم.. فإذا بذلتم لهم الأموال، وأغدقتم عليهم بالإنعام والعطاء إرتدوا، ورجعوا، وصاروا

---

١) الجبرتي ٣/٣٩٦.

معكم، وملكوكم البلاد)(١) واجتهد الباشا في جمع الأموال بأي وجه كان، واستأنف الطلب ورتب الأمور، وأشاع الخروج بنفسه، ونصب العرضي -معسكر التجمع- وجلس بالصيوان.. وقرر بالسفر إلى المقدمة بونابارته الخازندار، وأعطاه صناديق الأموال والكساوي.. واستمر العرض منصوباً، والطلب كذلك مطلوباً والعساكر واردة..(٢) وقد نفذ بونابارته سياسه محمد علي باشا بدقة وبدأ بمراسلة كل من الشريف غالب في مكة ورؤساء العشائر حول المدينة. وركز جهوده على شيخ قبيلة حرب واستعان بشيخ الحويطات الموالي لهم (وذهب إليه ابن شديد الحويطي ومن معه، وتقابلوا مع شيخ حرب، ولم يزالوا به حتى وافقهم وحضروا به إلى بونابرته فأكرمه وخلع عليه الخلع، وكذلك على من حضر من أكابر العربان، فألبسهم الكساوي والغراوى السمور والشالات الكشميري، ففرق عليهم من الكشمير ملء أربع (صناديق)، وصب عليهم الأموال، وأعطى لشيخ حرب مائة ألف فرانسة وحضر باقي المشايخ، فخلع عليهم، وفرق فيهم، فخص شيخ حرب للمرة الثانية بمفرده ثمانية عشر ألف فرانسة، ثم رتب لهم علائف تصرف لهم في كل شهر، لكل شخص خمسة فرانسة (وغرارة بقسماط وغرارة عدس). فعند ذلك ملكوهم الأرض(٣).

وقد أسهم الشريف غالب بجهود كبيرة في استمالة مشايخ القبائل وتأليبهم ضد السعوديين، وأظهر ولاءه لمحمد علي باشا بعد أن كان يكتمه وحرك بعض رجاله في مكة وجدة.. وسارع الأمير سعود بن عبد العزيز إلى إرسال ولده عبد الله وقائده عثمان المضايفي إلى المنطقة وأمرهم أن يعسكروا في وادي فاطمة قرب مكة تحسباً للأمر..

---

١) الجبرتي ٣/٣٩٦.

٢) الجبرتي ٣/٣٩٦.

٣) الجبرتي ٣/٣٩٧.

وبدأت الأخبار تتوارد إلى المدينة المنورة بما يجري.. وكان بعض الحربيين المترددين على المدينة يقومون بمهمات عدة.. منها نقل الأخبار ومنها استمالة أقاربهم المقيمين بالمدينة والمشاركين مع المرابطين في الدفاع عنها والإرجاف بالقوة الهائلة التي تتجمع يوماً بعد يوم في ينبع وإغراء الحربيين قادة وجنوداً بالتوجه إلى بونابرته وأخذ عطاياه والتخلي عن المرابطة والدعوة الإصلاحية.. وقد نجحوا في استمالة عدد قليل من أقاربهم ومعارفهم، فمنهم من ترك المدينة، ومنهم من بقي فيها ليكون له دور آخر في الأحداث القادمة..

كان عبد الله بن سعود يتوقع أن يبدأ زحف بونابرته نحو مكة، بعد أن أظهر الشريف غالب ولاءه لمحمد علي باشا، ودعا بونابرته إلى التوجه بجيوشه نحوها وتملكها.. لذلك رابط في وادي فاطمة استعداداً لملاقاة هذه الجيوش.. غير أن بونابرته عندما نجح في استمالة عدد كبير من مشايخ حرب وجهينة وقبائل أخرى مقيمة بين ينبع والمدينة قرر أن يتوجه إلى المدينة المنورة ويحتلها بمساعدة الذين والوه. فسافر في أوائل شوال وسارت معه القبائل الموالية. ونزلوا حول المدينة في منتصف شوال عام ١٢٢٦هـ..

حصار المدينة:

كانت القوة المرابطة في المدينة لاتتعدى سبعة آلاف مقاتل وقد أصيب عدد منهم بالأمراض والأوبئة. وتوفي بعضهم، وعندما فاجأهم الزحف أغلقوا أبواب المدينة وتحصنوا بقلعتها وحصونها وجهزوا مدافعهم وأسلحتهم للقتال. ولم يكن بمقدورهم أن يخرجوا إلى الأعداد الضخمة التي حاصرت المدينة من كل صوب وبدأت تقترب من أسوارها..

وهكذا عادت المدينة إلى أجواء الحرب التي نسيتها منذ سنوات عدة. ودوت أصوات القذائف في سمائها وتوالت الانفجارات هنا وهناك، وانطلقت من المدافع المركزة في أطراف القلعة قذائف مضادة تنصب على الأعداد الهائلة

المحيطة بسور المدينة.. وانطلقت أصوات البنادق بالرصاص المنهمر وتترس المرابطون خلف فتحات السور العلوية وأطلقوا رصاص بنادقهم. وتساقط عدد كبير من المهاجمين وعدد أقل من المرابطين، ومضى اليوم في إطلاق الرصاص وقذائف المدفعية بكثافة شديدة، وانقطعت حركة المصلين المترددين إلى المسجد النبوي أول الأمر ولم يؤذن في المنارات خشية سقوط القذائف على القادمين إلى المسجد ولكن عندما رأى أهل المدينة أن النار مركزة على القلعة وأطراف السور وتجمعات المقاتلين جاءت أعداد منهم لتقيم الصلاة في المسجد النبوي.

وجاء اليوم الثاني ليتجدد القتال وتشتد ظروفه وحاول بعض الجنود الأتراك والأرناؤوط وضع السلالم على السور وتسلقه. ولكن المرابطين أفشلوا المحاولة وقتلوا المهاجمين.. ووجهت قذائف المدفعية إلى الباب وأخذت تقصفه بشدة لتهدم أطرافه وتصنع ثغرة ينفذ منها المهاجمون فسلط المرابطون نيرانهم على المدفعية نفسها وقللوا خطرها، ومع ذلك بدأت ثغرات صغيرة تظهر في أطراف السور قرب الباب. ومضى اليوم الثاني في قصف شديد ومحاولات فاشلة لاقتحام السور، واستمر القتال في اليوم الثالث وسقطت قذائف كثيرة على الأحياء الداخلية وقرب المسجد النبوي وبدأت تصيب السكان الذين هرعوا إلى بيوتهم واختفى الناس من الشوارع والطرقات، فلم يعد بها إلا بعض المرابطين بين أطرافها والذين ينقلون الذخيرة أويحملون مصاباً أو يأتون بالطعام إلى إخوانهم..

واستمر الأمر على هذه الحال أياماً أخرى.. اشتد فيها الحصار واشتدت المقاومة، وكان المرابطون في غاية اليقظة والنشاط، يتناوبون الحراسة أعلى السور وفي أبراج القلعة ويطلقون الرصاص وقنابل المدافع القليلة على خصومهم ويدققون في الرمي ماستطاعوا كيلا تطيش ذخيرتهم المحدودة..

وتوالت الأيام والحصار يشتد والقصف مستمر وفي كل يوم يسقط عدد

من الشهداء والجرحى. وبينما كانت الذخيرة والمؤن تتواصل إلى جيش المهاجمين كانت تشح في المدينة، وكان المرابطون يأملون أن يصلهم مدد من إخوانهم المرابطين في وادي فاطمة، أو من نجد أو من بوادي الحجاز.. ولكن طوسون باشا ورجاله كانوا متيقظين لكل محاولة تسلل من المدينة أو إليها فاستطاعوا قطع الاتصال بينها وبين الأرجاء الأخرى قطعاً كاملاً..

محاولات الاقتحام:

وبعد عشرة أيام من الحصار الشديد والقصف المتبادل أدرك طوسون باشا وقادة جيشه أنه قد لايتمكن من القضاء على مقاومة المحاصرين واحتلال المدينة.. وقد تصل إليهم نجدة تأخذهم من خلفهم، لذلك قرر أن يقتحم المدينة بأي شكل. وبعد مشاورات مطولة استقر الرأي على أن يبدأ العمل في اتجاهين. اتجاه عسكري يعمل على نسف جزء من السور وإدخال الجيش منه وقطع جميع موارد المياه عن المدينة بما فيها أقنية عين الزرقاء. واتجاه سياسي يعمل على استمالة بعض سكان المدينة وإغرائهم بإحداث فتحة داخل السور وفتح أحد الأبواب.. وانتدب للعمل الأول مجموعة من الجنود الأتراك والخبيرين في شؤون القنابل والبارود، وانتدب للعمل الثاني عدداً من مشايخ القبائل المرافقين للحملة، وبالذات الذين لهم معارف أو أقارب داخل المدينة ليتصلوا بهم عبر السور أو من جوانب هادئة ويرمون إليهم أكياس المال ويمنونهم الأماني ليفتحوا لهم أحد الأبواب، وقامت فئة من الجنود والمهندسين بالبحث عن أقنية المياه الواردة إلى المدينة وساعدهم في ذلك بعض أبناء القبائل، وعثروا على فتحة قريبة فسدوها وردموها بالتراب، وشرع العسكريون يحفرون حفرة غير بعيد عن السور واستتروا بتلة ترابية قديمة تحميهم من رصاص الجاثمين خلف السور. حتى إذا ما بلغوا في الحفرة مقدار مايغيب الرجل وجهوا فؤوسهم ومعاولهم باتجاه السور وبدءوا بحفر سرداب طولي وكانت أرض المدينة الطينية تساعدهم على سرعة الإنجاز

فليس ثمة صخور تعوقهم.. ولكيلا يفشل المشروع بدءوا الحفر في أكثر من جهة حتى إذا عوقهم معوق في جهة عوضوا عنها في الجهة الأخرى. وتناوب الرجال على الحفر وامتدت السراديب حتى وصلت إلى أسفل السور.. ثم حشيت بالبارود استعداداً لإحداث انفجار شديد يهدم مافوقها من السور..

وفي الوقت نفسه نجح بعض مشايخ القبائل ورجالهم في الاتصال بعدد من معارفهم وأقاربهم في المدينة وألقوا إليهم أكياس الطعام الذي بدأ ينفد في المدينة وأكياساً من المال وواطؤوهم على أن يفتحوا لهم الباب الشرقي الذي لم يشتد عليه الحصار..

ودخل شهر ذي القعدة منهياً خمسة عشر يوماً من الحصار الشديد والقصف المتبادل. وسقط عدد من القتلى في الجانبين وتهدمت بعض الدور في المدينة المنورة وأصيبت الأسوار إصابات كثيرة ولكنها لم تصل إلى درجة الثغرة..

المعركة الأخيرة:

وفي صباح اليوم الأول من ذي القعدة اشتد القصف على السور من جهة الباب الشامي وسقطت قنابل كثيرة على الجدار الذي يحمل الباب ولكنه لم يسقط في ذلك اليوم.. وفي الوقت نفسه اشتد الضرب على باب المصري وباب قباء بينما قصف باب البقيع قصفاً بسيطاً ثم توقف القصف عنه لتحويل الأنظار إلى الأبواب الأخرى وترك المجال للمتواطئين داخل المدينة لفتحه. وتحدد موعد فتحه صباح اليوم الثاني فتسلل تحت جنح الليل عدد كبير من الجنود الأشداء ورابطوا على مقربة منه وأعدت المدافع لقصف الأبواب الأخرى وبخاصة الباب الشامي..

وقبيل شروق شمس اليوم الثاني من ذي القعدة تحولت المنطقة إلى جحيم ملتهب، فقد بدأ القصف بشدة لم تحدث من قبل وسقط الجزء العلوي من السور فوق الباب وبدت ثغرات صغيرة عدة على جانبيه.. ثم دوى انفجار

رهيب اهتزت له دور المدينة كلها وتساقط الزجاج في بعضها وارتجت شبابيك الحرم.. فقد فجر الجنود شحنة البارود التي وضعوها في السرداب وتهاوى جزء من السور وتراكمت أحجاره حول الحفرة التي صنعها الانفجار، وتحطم الباب وتناثرت بعض أخشابه، وسقط عدد كبير من المرابطين فوق السور وطار بعضهم في الهواء ثم سقط صريعاً، وفتحت ثغرة واسعة تتسع لعدد من الرجال والخيول والمدافع، وقبل أن ينجلي غبار الإنفجار كانت مجموعات من الجنود تندفع بسرعة من الثغرة متسترة بالغبار والدخان، تطلق النار بغزارة، فاستطاعت أن تتجاوز السور وتدخل داخل المدينة وتصلي بنيران بنادقها المرابطين الذين أذهلهم الانفجار، فسقط من سقط وجرح الآخرون وتراجع من بقي لديه شيء من الوعي.

اشتد الأمر على المرابطين، وفوجئوا بالقذائف تتساقط عليهم، وتساقط الشهداء هنا وهناك، وثبتوا، وطلبوا النجدة من زملائهم في أطراف السور فاتجهت إليهم مجموعات كبيرة منهم وتركت حاميات صغيرة عند الأبواب، ولكنهم استبسلوا في القتال والمقاومة والتحموا مع المقتحمين بالسيوف والخناجر (والبواريد) وأوقفوهم عن التقدم، ثم أخذوا يدفعونهم إلى خارج السور وأوقعوا فيهم خسائر جسيمة، وكان طوسون باشا يشرف بنفسه على عملية الاقتحام وحوله عدد من قادته، فأمر بالإسراع في اقتحام باب آخر لتخفيف الضغط عن رجاله الذين بدؤوا بالتراجع، واستغل القائد المسؤول عن تسريب الجنود عند الباب الشرقي -باب البقيع- الفرصة ووجه مشايخ القبائل إلى الاتصال بأصحابهم والاستفادة من فرصة انشغال عدد كبير من المرابطين في مواجهة الجنود الذين اقتحموا الثغرة، ومهاجمة الحامية الصغيرة الباقية عند الباب الشرقي وفتحه، ونفذ المتواطئون مع الجيش الغازي ماائتمروا عليه وطلبوا من المرابطين اللحاق بزملائهم عند الثغرة مدعين أنهم سيقومون بحماية الباب وما حوله، وما أن ذهب المرابطون لنجدة زملائهم حتى فتحوا



وتمّ تفجير السور لإحداث ثغرة فيه.

الباب فاندفع إليه الجنود المختبئون من الليل بأسلحتهم وسيطروا على الباب والزقاق الذي يمتد فيه، وجاءت وراءهم مجموعة أخرى فاندفعت داخل المدينة وتبعهم عدد كبير من الرجال يجرون ثلاثة مدافع ويحملون صناديق القنابل، وانطلق الجميع مخترقين الجهة الشمالية للمدينة يطلقون النار بغزارة، وركز الجنود الذين يجرون المدافع مدافعهم في ساحة السوق القديم قرب مسجد أبي ذر، وأخذوا يطلقون القذائف على القلعة والمرابطين المتجمعين قربها والصفوف الخلفية للذين يقاتلون عند الباب الشامي، إشتدت الوطأة على المرابطين والمدافعين وتناثرت جثث الشهداء بأعداد كبيرة، وحاصرت قذائف المدافع البنادق والمرابطين من ثلاث جهات، ولم يبق لهم إلا أن ينسحبوا إلى القليعة، وصدرت الأوامر من قائد المرابطين الذي كان قرب الثغرة بالانسحاب إلى القليعة والتترس بها لشن هجوم آخر، وبدأ تراجع المرابطين وازدادت أعداد الشهداء، وبالمقابل سقط عدد كبير من الجنود المهاجمين، واشتعلت النيران في بعض البيوت التي أصابتها القذائف، وانفجر مخزن صغير للبارود داخل القلعة وأحدث انفجاره دوياً هائلاً زاد من محنة المدافعين، وضري المهاجمون في القتال وهم يرون تراجع المرابطين، ولم ينتهِ النهار إلا وقد سيطر المهاجمون على معظم أنحاء المدينة، وحاصروا الأعداد الكبيرة من المرابطين داخل القليعة.

وكان الأمر داخل القليعة أشد سوءاً فقد انحشر فيها حوالي ثلاثة آلاف رجل ولا تتسع في العادة لنصف هذا العدد، وصار فيها -كما يقول ابن بشر- خلق كثير يرتكم بعضهم على بعض، ونصب الترك عليهم (القنابر) والمدافع،

فكانت (القنبرة) إذا وقعت وسط القليعة أهلكت عدداً من الرجال، فكثر فيها المرضى والجرحى(١) ومع ذلك فقد صمدوا عدة أيام.

المفاوضة والانسحاب:

وأدرك طوسون باشا أنه قد كسب المعركة وأنه ينبغي التوقف عند هذا الحد خشية حدوث مفاجآت أو خروج المحاصرين من القليعة في هجوم يائس يوقع في جيشه خسائر فادحة إن لم يغير موازين المعركة.. فأمر بتخفيف القصف وإعطاء المحاصرين فرصة للحوار، وكان الأمر قد بلغ غاية السوء في القليعة، وكثرت جثث الموتى ولم يعد بالإمكان دفنهم، ومات عدد من الجرحى وأشرف الآخرون على الموت، فطلبوا المفاوضة والصلح.. وخرج بعض الرجال من القليعة ليفاوضوا في الصلح وبعد حوار قصير أعطاهم طوسون باشا الأمان على أن ينزلوا بأنفسهم ويتركوا كل ممتلكاتهم وأسلحتهم وذخائرهم.. إلا الأسلحة الخفيفة لحماية النفس. ولم يكن أمام المرابطين سوى القبول فقبلوا الشرط.. وأوقف إطلاق النار ورفعت الرايات البيضاء وأمر طوسون باشا بعدم التعرض لهم في خروجهم.. فبدؤوا يخرجون في مجموعات صغيرة متوالية ويتجهون شرقاً صوب نجد.

ويذكر ابن بشر أن عدد الذين استشهدوا في هذه الوقعة من المرابطين بلغ أربعة آلاف رجل من عسير وأهل بيشة والحجاز وأهل الجنوب وأهل نجد..

وقبض الجنود الأتراك على عدد من أعيان المدينة الذين شاركوا في الدفاع عنها، وعلى رأسهم حسن قلعي الذي قاد حامية القلعة ببراعة واستبسل في القتال، فعذبوه ثم أرسلوه مقيداً إلى مصر ليقضي في

---

١) عنوان المجد ١٩٥/١.

سجونها (١) كما قبضوا على أمير المدينة من قبل السعوديين مبارك بن مضيان، ولم يقبلوا فيه شفاعة الحربيين من أعوانهم، فأرسل مقيداً إلى مصر.. ومنها أرسل إلى استنبول حيث قتله العثمانيون وعلقوا جثته على باب السراية (دار الحكمة)(٢).

وطوت المدينة صفحة من صفحات ملاحمها الدامية، وراح الجنود في اليوم التالي يحملون الجثث إلى حفر جماعية كبيرة، ودفنوها فيها، بينما توجه طوسون باشا إلى مقر الإمارة ليعلن نهاية الحقبة السعودية الأولى في المدينة المنورة.. وبداية سنوات جديدة من العهد الانتقالي الذي يحكم فيه أبناء محمد علي باشا المنطقة قبل أن تعود إلى الحكم التركي المباشر.

كانت فرحة محمد علي باشا بدخول قواته المدينة المنورة كبيرة.. فما إن وصلته البشائر حتى أطلقت المدفعية قذائف كثيرة ارتجت لها القاهرة.. وصدرت الأوامر بأن تزين البلدة مدة خمسة أيام، وأقيمت احتفالات عسكرية كبيرة طوال الأيام الخمسة في ميدان الاحتفالات بالقاهرة، وأطلقت البنادق والمدافع الأسهم النارية وقرعت الطبول، وأرسل محمد علي باشا أحد كبار موظفيه إلى دار السلطة يحمل الخبر وبلغ من سروره أنه أنعم بالمناصب والألقاب على عدد من خواصه(٣) وعندما بلغ السلطان العثماني محمود خان خبر دخول محمد علي باشا المدينة المنورة أصدر مرسوماً وزع بعد ذلك على الولايات العثمانية كلها بإضافة لقب ((خادم الحرمين الشريفين)) إلى اسمه(٤).

---

١) السابق ١٩٥/٣.

٢) الجبرتي ٤١١/٣.

٣) الجبرتي ج٣ ص ٣٩٨.

٤) الجبرتي ج٣ ص ٤٠٦، وذكر عبد الرحيم عبد الرحمن في كتابه الدولة السعودية الأولى ص ٢٣٧ أن حسن قلعي كان أمير المدينة والصحيح أنه كان قائد الحامية السعودية التي تصدت لقوات طوسون باشا والأمير هو مبارك بن مضيان كما يفهم من ابن بشر والجبرتي.

المدينة في عهد محمد علي باشا:

بدأت المدينة المنورة تمسح عنها آثار المعركة الكبيرة.. وانسحب الجيش إلى خارجها وعسكر عند الجرف، كما انسحب رجال سعود بن مضيان وكل من يواليه إلى جهات نجد. وبدأ طوسون باشا يدير أمر المدينة بنفسه أول الأمر ويعيد تنظيم الإدارات التي كانت موجودة.. ويأمر بإعادة ترميم القلعة والأبنية المجاورة التي أصابتها قذائف المدفعية.. ثم بدأت الحياة تعود إلى ماكانت عليه قبل ثماني سنوات وظهرت أسماء جديدة تحتل مراكز القوة وكانت معظمها من الأسر القادمة من تركيا والبلاد العثمانية الأخرى..

غير أن طوسون باشا مالبث أن تلقى أمراً من والده بالتحرك إلى مكة المكرمة والاستيلاء عليها، فأمر الجيش بالتجهيز ومالبث أن جاءت الأخبار بقدوم الأمير سعود بن عبد العزيز إلى مكة المكرمة حاجاً ومعه جمع غفير من نجد والأحساء وعمان وتهامة.. فآثر طوسون أن يتجنب لقاءه خشية أن يجتمع عليه رجال الأمير سعود وعساكر ابنه عبد الله، وراسل الشريف غالب ليعينه على احتلال، مكة وكان الشريف غالب قد التقى بالأمير سعود وأهداه هدايا قيمة وبايعه وهو يضمر الغدر به، فكتب إلى طوسون باشا أن يتحرك بجيشه إلى مكة وسيبذل الجهود الكبيرة لمساعدته في دخولها..

تحركت قوات طوسون باشا من معسكرها على أبواب المدينة واتجهت جنوباً في طريق مكة. وخرج طوسون باشا بنفسه بعد أن ترك حامية كافية في المدينة، وقد نجحت الخطة التي دبرها الشريف غالب مع طوسون.. فما أن انتهت أيام الحج وسافر الأمير سعود إلى نجد حتى وزع الشريف غالب رجاله في مكة وبدأ يعد العدة للغدر بعبد الله بن سعود ورجاله.. وأحس عبد الله بن سعود بحركة الشريف غالب فأمر رجاله بالخروج من مكة إلى الربيعان ثم العبيلا وسارع طوسون إلى دخول مكة فاحتلها دون مقاومة. ونقل إليها مركز قيادته فخلت المدينة من المظاهر العسكرية لفترة من الزمن وبدأت

مظاهر الحياة التي كانت سائدة قبل مجيء السعوديين إليها تعود تدريجياً.. في الحرم النبوي، وفي الأربطة، وفي المدارس، وفي الأسواق.. بل وبدأت القباب التي غابت عن الأعين طوال سنوات السعوديين الأولى وبدأت تعود شيئاً فشيئاً على قبور الصحابة في البقيع، وعلى قبر محمد النفس الزكية خارج البقيع.. وعاد الأغوات إلى المسجد النبوي ليشكلوا من جديد فئة لها مميزات خاصة..

المدينة مركز تجمع عسكري:

ولكن أحداث الحرب المتوالية بين جيش محمد علي باشا والسعوديين جعلت المدينة المنورة مركز تجمع وانطلاق إلى القصيم وسائر نجد. وشغل أهل نجد بالدفاع عن منطقتهم ضد الهجمات المتوالية..

شهدت المدينة بعد ذلك فترات عصيبة ففي عام ١٢٢٩هـ حضر محمد علي باشا إلى مكة وقبض على الشريف غالب وعين مكانه الشريف يحيى بن سرور، وشدد الحملات على السعوديين وطلب المال والمؤونة والأخشاب من مصر فتواردت عليه تباعاً، ثم طلب مزيداً الرجال وأمر بتجنيد عدد كبير من الشباب وإغراء العاطلين بالدخول في الجيش ومصادرة بعض أصحاب المهن اللازمة لحملته وإرسالهم إلى الحجاز.. فتواردت عليه إمدادات المال والذخيرة والرجال.. ورغم تركز الحملات العسكرية المتوالية على تربة وشرقي المدينة المنورة فقد تأثرت المدينة المنورة بالأحداث تأثراً كبيراً، إذ اضطربت التجارة وقبض محمد علي باشا على تجارة الحبوب، واحتكر الغلال القادمة من مصر، وصادر ماكان بصحبة الحجاج من الحب والدقيق وكان رجاله يفتشون أمتعة

الحجاج(١) فارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً. وزاد الطين بلة أن بعض تجار المدينة كانوا شركاء للشريف غالب فقدموا مع تجار آخرين من اليمن إلى جدة ومعهم بضائع وبن وأقمشة وأشياء أخرى فصادرهم رجال الباشا وأرسلوهم وأموالهم إلى مصر(٢).

ظل طوسون باشا في المدينة حاكماً لها ومهتماً بأمر الإمدادات القادمة من مصر ليسيرها إلى نجد(٣) وأرسل أول مجموعة من رجاله إلى الحناكية فاستولوا عليها، ثم أرسل مجموعة تالية إلى القصيم فاشتبكت مع رجال عبد الله بن سعود.. وغدت المدينة مركز قيادة طوسون تخرج منها الأوامر والرسل والإمدادات العسكرية وتصل إليها من مصر إمدادات المال والذخيرة والسلاح والرجال ليعسكروا ظاهرها حيناً من الوقت ثم يتابعوا سيرهم إلى الحملات التي تشتبك مع السعوديين في القصيم، وقلما كان طوسون يخرج بنفسه.. ولكن في عام ١٢٣٠هـ خرج بنفسه إلى الرس واشتبكت قواته مع السعوديين في عدة مواقع، ثم بدأت مفاوضات الصلح وتم الاتفاق بين عبد الله بن سعود وطوسون على وقف الحرب وانسحاب جيش طوسون من نجد، وتعهد بعدم التدخل بشؤونها والمرابطة في الحجاز وعلى أن يسود الأمن المنطقة كلها وتفتح الطرقات الآمنة للمسافرين والحجاج وقوافل التجارة، وكتبت معاهدة الصلح في الرس في نهاية رجب ١٢٣٠هـ وخرج بنسخة منها رجلان من وجوه نجد هما عبد الله بن محمد بن بنيان صاحب الدرعية والقاضي عبد العزيز بن أحمد بن إبراهيم ليعرضوه على محمد علي باشا وقد نجحت مفاوضتهما

---

١) الجبرتي ٣/٤٥٤.

٢) الجبرتي ٣/٤٥٥.

٣) الجبرتي ٣/٤٧٣.

وحظي الوافدان بإعجاب كل من لقيهما وخاصة المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي(١) ورجع طوسون باشا ورجاله في أول شعبان إلى المدينة المنورة ونزل فيها(٢) وقد استفادت المدينة المنورة من الصلح المؤقت الذي عقد بين طوسون باشا وعبد الله بن سعود إذ عادت إليها القوافل التجارية وازدادت أعداد الزائرين..

التنظيم الإداري الجديد في المدينة (محافظة):

ومالبث طوسون باشا أن أدخل التنظيمات الإدارية الجديدة التي أحدثها محمد علي باشا في مناطق نفوذه، فألغى تسمية الإمارة واستعاض عنها باسم المحافظة، وأنشأ مجلس شورى للمحافظة يضم شيخ الحرم والقاضي والمفتي وعدداً من كبار الموظفين وأعيان المدينة المؤيدين للنظام الجديد(٣) وأعاد الأغوات إلى عملهم في المسجد النبوي وجعل شيخهم عضواً في مجلس إدارة المحافظة. وصارت المدينة المنورة محافظة في ولاية الحجاز، تتبع والي الحجاز الذي يعينه محمد علي باشا، والذي يقوم بوظيفة محافظ مكة أيضاً. ولانعرف اسم محافظ للمدينة المنورة ولكننا نجد وثيقة مؤرخة بعام ١٢٣٥هـ تذكر اسم علي ولا تذكر بقية اسمه، ولا ندري أهو أول محافظ أم سبقه محافظ آخر.. ثم تلاه حسن باشا الذي ورد اسمه في وثيقة مؤرخة بعام ١٢٣٧هـ.

وكان المحافظ هو المسؤول عن القوة العسكرية وشؤون الأمن، وقد يسند إليه منصب مشيخة الحرم النبوي. وكانت سلطة محافظ المدينة أكبر من سلطة محافظ مكة لعدم وجود تعددية في رئاسة السلطة في المدينة، فمنذ أوائل العهد العثماني لم يعد للأشراف الحسينيين شأن في إدارة أمور المدينة، وعندما دخلها السعوديون أداروها -كما رأينا- بأمير يعينه صاحب

---

١) الجبرتي ٣/٤٩٣.

٢) ابن بشر ١/٢٢٤.

٣) من وثائق شبه الجزيرة العربية ص ١٦.

الدرعية مباشرة، وعندما انسحب السعوديون من المدينة قبض رجال طوسون باشا على الأمير ابن مضيان وعلى قائد الحامية حسن قلعي وأرسلوهما إلى مصر ليقتلا هناك، وقام طوسون باشا بإدارة الأمور بنفسه.. ثم عين قائد الحامية التي تركها في المدينة نائباً عنه، وقبيل سفره إلى مصر جعل قائد الحامية محافظاً للمدينة وبيده السلطات كلها، بينما كانت السلطة في مكة مقسمة بين الشريف يحيى بن سرور والشريف شنبر في حين أسندت شؤون الدفاع إلى حامية تركية مصرية يرأسها موظف من الجيش، وأضيفت إليه شؤون الأمن، ومنح لقب المحافظ(١) ثم عين محمد بن عبد المعين بن عون أميراً فاختلف مع المحافظ، وطلب إبداله فأبدل بمحافظ آخر له سلطة الأمن والدفاع، ولم يخل الأمر من خلافات واحتكاكات بين أتباع كل منهما.. وقد ظل هذا التنظيم الإداري إلى نهاية الحكم العثماني وكانت من المميزات التي تمتعت بها المدينة توحد السلطة التنفيذية بيد المحافظ الذي كانت تسند إليه مشيخة الحرم في بعض الحالات..

وعلى أية حال فقد استتب الأمن في المدينة المنورة في ظل الإدارة الجديدة وصارت مركز قيادة للعمليات العسكرية التي توجه إلى منطقة نجد، ومركز تجمع للجنود القادمين من مصر عن طريق ينبع، وظل طوسون باشا مقيماً فيها بعد عودته من الرس إلى ذي القعدة عام ١٢٣٠هـ حيث غادرها عائداً إلى مصر(٢) تاركاً فيها قيادة الجيش وحامية كبيرة. وسارت الحياة هادئة في ظل المحافظ ووفد شيوخ القبائل من المناطق المجاورة لينالوا أعطياتها المقررة وليؤكدوا ولاء القبائل للسلطة، وتأمينها طريق الحجاج وتوجه موظفو الزكاة لجبايتها من القبائل والمزارع، وكان إصرار الحكام على

---

١) انظر تاريخ مكة للسباعي ص ٥١١.

٢) الجبرتي ٣/٤٩٥.

جباية الزكاة مهما قل مقدارها مظهراً من مظاهر توطيد السلطة(١) وكانت وصية محمد علي للحكام والمحافظين عدم التهاون مع العربان وأخذهم بالشدة، وفي الوقت نفسه توزيع الهبات على شيوخهم(٢) وقد نجحت هذه السياسة في حفظ المدينة المنورة من الفتن واعتداءات العربان، كما وطدت الأمن في المناطق المحيطة.

إبراهيم باشا في المدينة:

وبعد سنة من مغادرة طوسون باشا المدينة المنورة وصل أخوه إبراهيم باشا على رأس قوة عسكرية كبيرة، وعندما نزل في ينبع في أول ذي القعدة عام ١٢٣١هـ أقام مناورة عسكرية ضخمة في المنطقة ليرهب كل من تسول له نفسه الخروج على الطاعة، وليظهر الاستعداد الضخم الذي أعده لمهاجمة الدولة السعودية والقضاء عليها، فقد قرر محمد علي باشا نقض الصلح الذي عقد في الرس، وكلف ابنه إبراهيم باشا بقيادة الحملة، وجهزه بتجهيزات ضخمة كان من بينها مستشارون عسكريون فرنسيون ومدافع حديثة وذخيرة كثيرة وأموال فائضة. وتحرك إبراهيم باشا من ينبع بعد انتهاء المناورة واتجه إلى المدينة واستقبله المحافظ وأعيان البلدة، ويروي بعض المؤرخين أنه دخل المسجد النبوي وزار قبر الرسول ﷺ ووضع عليه عقداً ثميناً أهدته أمه للحجرة النبوية وأقسم أمام القبر أنه لن يغمد سيفه في جرابه حتى يفرق شمل أعدائه(٣) وبدأت المدينة المنورة تشهد الاستعدادات الكبيرة للهجوم على نجد والقضاء على الدولة السعودية الأولى، فقد وصلها آلاف الجنود وأكياس ضخمة من المؤن والذخيرة، خزنت فيها لبعض الوقت، واستفادت المنطقة

---

١) من وثائق شبه الجزيرة العربية في عهد محمد علي: عبد الرحيم عبد الله عبد الرحيم ص ١٥.

٢) السابق.

٣) الدولة السعودية ص ٣٣٠.

الممتدة بين ينبع والمدينة من هذه الحركة، فقد أجرت الجمال والأدلاء لنقل الجيش والمؤن بين البلدين، وأعطى إبراهيم باشا لمشايخ القبائل المقيمة على الطريق أموالاً وهدايا سخية(١).

ظل إبراهيم باشا في المدينة إلى مطلع سنة ١٢٣٢هـ وكان مشغولا بأمور عساكره ومتابعة تدريباتهم اليومية العنيفة، ولم يتدخل في القضايا الإدارية المحلية، ولكنه اهتم بمراسلة مشايخ القبائل واستقبالهم والتأكد من ولائهم، وتجنيد بعض أفراد القبائل في جيشه ليكونوا فئة مقاتلة ضمن جيشه الكبير. وقد نجحت سياسته في استمالة عدد من قبائل حرب ومطير وعتيبة، وانخرط في جيشه عدد من أبنائها واستعمل بعضهم في المراسلات وفي التجسس وفي فرق الخيالة الخفيفة.. ومالبث أن تحرك بالجيش إلى الحناكية مبتدئاً الحرب مع السعوديين.. فاحتلها وأقام فيها بعض الوقت ثم تابع سيره شرقاً إلى مدن القصيم..

وظلت المدينة مركز المؤنة والإشراف على نقل الذخيرة والجنود القادمين من مصر، وظل المحافظ مسؤولاً عن تأمين الجمال والأدلاء وإرسالهم إلى ينبع، وكان محافظ ينبع يدفع نصف الأجرة ويدفع محافظ المدينة نصفها الآخر.. واستفاد أصحاب الجمال من أهل المدينة وضواحيها والمقيمين في الطريق بين ينبع والمدينة من ذلك مبالغ كثيرة فقد بلغت أجرة الجمل الواحد في بعض السفرات مائة وأربعين ريالاً، وهو مبلغ ضخم في ذلك الوقت(٢). وعندما تصل الذخيرة والمؤن تحفظ في مخازن المحافظة ويرسل منها للجيش المقاتل في نجد ما يحتاجه الجيش دفعة بعد دفعة.

وعندما انتهت الحرب واستسلم عبد الله بن سعود في جمادى الأولى ١٢٣٣هـ أرسله إبراهيم باشا مع عدد من أفراد عائلته إلى المدينة ومنها إلى

---

١) الدولة السعودية ص ٣٣٢.

٢) الجبرتي ٣٠.

ينبع ثم مصر فاستنبول حيث قتل فيها.. وبعد أشهر قليلة قضاها إبراهيم باشا في توطيد الأحوال حول الدرعية عاد إلى المدينة المنورة ليقيم فيها بعض الوقت. وليجعلها مركز مراقبة الأحوال في نجد بعد احتلال الدرعية وتهدمها.

إصلاحات في المسجد النبوي:

حرص إبراهيم باشا أثناء إقامته الثانية في المدينة على زيارة المسجد النبوي والصلاة فيه، ولحظ أثناء زيارته للحجرة النبوية وجود صدع كبير وتشققات في القبة الخضراء التي تعلو الحجرة المطهرة فأرسل يستأذن الخليفة العثماني محمود الثاني في إصلاح القبة، وجاء الإذن مع التوجيه بإعادة بناء قباب البقيع التي هدمها السعوديون، فبدأ البناء وكان أول مافعله البناؤون إقامة سقف خشبي تحت القبة وتغطيتها باللباد كي لاينزل شيء من التراب على الحجرة، ثم شرع البناؤون بنقض القبة بأناة حتى أنزلوها، وبدأوا بناء قبة أخرى بديلة من الطوب الكبير المربع وأُلبست بصفائح من رصاص، وعندما تمت وكُتب على السطح الداخلي للقبة إسم إبراهيم باشا واسم أبيه واسم الخليفة محمود الثاني، ووردت من السلطان محمود كسوة جديدة للحجرة وجدرانها(١).

آثار أخرى لإبراهيم باشا في المدينة:

اهتم إبراهيم باشا بناءً على توجيه من السلطان العثماني بإعادة بناء القباب فوق عدد من القبور في البقيع، أهمها قبر عثمان بن عفان رضي الله

١) رسائل من تاريخ المدينة ص٦٦.

عنه، واهتم بإعادة بناء مسجد الغمامة ((المصلى)) على الطراز العثماني[1]، وأمر بانشاء ((تكية)) كبيرة لتكون مركزاً دائماً لتوزيع الأموال والطعام على الفقراء في المدينة وما حولها ومحل إقامة ((المحمل)) المصري كل عام. ووضع لها نظاماً محدداً لطبخ كميات من الطعام يومياً توزع على كل من يأتي للتكية، وأمر بتخصيص ميزانية كبيرة لها وأوقافاً دائمة في مصر لتستمر في مهمتها. وما لبث أن غادر إلى مكة حيث بقي فيها إلى آخر ذي القعدة عام ١٢٣٤هـ ثم غادرها إلى مصر[2].

المدينة بعد إبراهيم باشا:

استمرت الحياه في المدينة المنورة بعد سفر إبراهيم باشا على وتيرتها السابقة، يدير شؤونها محافظ عينه محمد علي باشا إسمه حسن بك والأمن مستتب داخلها وفي المناطق القريبة وما حولها، والوفود تتوالى من القبائل المحيطة بها، ورسائل ديوان محمد علي باشا في مصر ترد إلى رؤساء القبائل مع الهدايا والأعطيات والمخصصات، وتحثهم على التعاون مع محافظي المدينة. ففي رسالة بعثها محمد علي باشا إلى شيخ عربان حرب قال: والمأمول منك مطاوعة فخر الأماثل والأقران حسن بك محافظ المدينة المنورة لأنه مربى في يدنا ومجرب ومعتمد عندنا.. فأوفوا بالخدمة والصداقة[3] ويكتب بعض مشايخ القبائل إلى الديوان في مصر، وكان محافظ المدينة يرسل بعض المجموعات العسكرية للطواف على القبائل المحيطة بالمدينة المنورة، ولتأديب بعض الأفراد والمجموعات التي ترتكب بعض الجرائم أو تمتنع عن دفع الزكاة. كما كان يرسل بعض القوات للمشاركة في الغزوات التي تقوم بها الفرق العسكرية الموجودة في أطراف نجد، وكانت معظم القوات من الجنود

---

١) السابق نفسه.

٢) الجبرتي ٣/٦٠٤.

٣) من وثائق ص٦٢.

المصريين والمغاربة والأتراك الذين قدموا مع الحملة، وكان يشارك معهم أحياناً المتطوعون من أطراف المدينة رغبة في الرواتب التي تدفع لهم والغنائم التي توزع نسبة منها عليهم.

وقد بلغت قوة جيش المحافظة في المدينة المنورة أن بعض القبائل كانت تستعين بها لترد عنها غزو قبائل أخرى معادية. ففي إحدى الرسائل الصادرة من محافظ المدينة المنورة واسمه (علي) عام ١٢٣٥هـ يبيِّن أن شيخ قبيلة حرب ((غانم بن مضيان)) استنجد بالمحافظ ضد قبائل من عنزة تحالفوا عليه. يقول المحافظ في رسالته: إن الشيخ غانم بن مضيان، كان مقيماً في المكان الذي يسمى (معاوية) مع قبيلته، فسار عليهم من أعراب العنزة ابن خلف وابن سودان والمشايخ الذين في معيتهم، فأرسل إلينا الشيخ غانم رسالة يستنجد، وعندما وصل هو وقبيلته إلى الحناكية، رقبنا نحن من الأدلاء ومن العساكر ثلاثمائة فارس على أن يكونوا في معية الشيخ غانم، ولما علم بذلك هؤلاء رجع كل من ابن خلف وابن سودان إلى الوراء على بعد مرحلتين أو ثلاثة مراحل، تاركين في ذلك المحل كمية كبيرة من النعاج وبضعة أشخاص من المشايخ، وعندما بلغ ذلك الشيخ غانم، استعجل الجنود من الحناكية فتعقبوهم يوماً أو يومين حتى أدركوهم، فدارت بين الطرفين معركة شديدة بالبنادق، فَقَتَلُوا منهم عدداً يربو على مئتي نفر واغتنموا الغنائم، وقد قتل من عساكرنا ستة أنفار كما جرح بضعة أشخاص أيضاً(١).

سنوات من الأمن في ظل العسكر:

ولاشك أن اهتمام محمد علي باشا بالجانب العسكري ورغبته في إبقاء الحجاز تحت سلطته الفعلية قد جعله يشدد على الجانب الأمني، وينشئ للمدينة المنورة حامية دائمة كبيرة أو لِنَقُل جيشاً مقيماً، ولم تعرف المدينة هذا التجييش من قبل، فالحامية التي أقامها العثمانيون في القلعة لم تتعد

---

١) من وثائق ص ١٨٦.

مئات قليلة، بينما نجد المحافظ في عام ١٢٣٥هـ يرسل ثلاثمائة فارس لينجدوا شيخ قبيلة حرب، وهذا يعني أن الجيش الذي كان مقيماً في المدينة أضاف هذا العدد، وقد استمر الأمر على هذا الحال إلى انسحاب جيش محمد علي من الحجاز. وتبين وثيقة من وثائق ميزانيات المدينة المنورة ضخامة هذا الجيش بالنسبة لحجم المدينة المنورة آنئذ فقد بلغت رواتب الجنود المقيمين في المدينة المنورة ٢٥٠ ألف قرش، ورواتب فرقة المدفعية ١٦١٥١٢ قرشاً وقيمة الذخائر المشتراة في عام واحد ١٤٠٥٤٦ قرشاً، فإذا علمنا أن متوسط راتب الجندي آنئذ هو مائتي قرش أدركنا حجم القوة التي بقيت في المدينة وماحولها. وقد قامت هذه القوة العسكرية بحملات تأديبية متوالية على الأفراد والقبائل الذين يخرجون على الطاعة أو يثيرون الفتن أو يعتدون على الموالين للسلطة، ونجحت في فرض الأمن في المنطقة، وسارت قوافل الحجاج بين المدينة ومكة بطمأنينة كاملة، وحاول بعض مشايخ حرب فرض إتاوة على الحجاج في موسم عام ١٢٣٩هـ فتصدى لهم محافظ المدينة وهددهم بعقاب شديد، فتراجعوا عن عزمهم ولم يدفع الحجاج شيئاً(١)، ومقابل ذلك كانت السلطة تدفع مخصصات سنوية لمشايخ حرب وتشير رسالة من شيخ مشايخ حرب سعد بن مرة إلى الديوان الأميري بمصر أنه تسلم في موسم عام ١٢٤٩هـ مبلغ ١٥٨ ريالا.

ويبدو أن بعض المشايخ لم تقنعهم تلك المخصصات فحاولوا رفعها أو العودة إلى فرض الإتاوة على الحجاج، ووقعت عمليات نهب قليلة(٢) ولكن هيبة الدولة وقوة الرد وسرعته جعلت القبائل والمشايخ يذعنون لما تفرضه السلطة ويقتنعون بما يأخذونه منها. كما أن استفادتهم من نقل المؤن والذخائر بين ينبع والمدينة ونجد كانت تفرض عليهم إطاعة السلطة، وقد

---

١) انظر من وثائق ص ١٨٧.

٢) من وثائق ص ٥٣٤.

ظلت هذه الطريق الممول للفرق المتحركة في نجد طوال عهد محمد علي باشا، واشتدت عندما ظهر تركي بن عبد الله بن سعود الذي حاول أن يعيد الدولة السعودية، واصطدم مع القوات المصرية وحلفائها عدة مرات، وحاربته الدولة المصرية بلا هوادة من عام ١٢٣٧هـ إلى إن قتل عام ١٢٤٩هـ، ثم حاربت ابنه فيصلاً الذي تسلم الإمارة بعد أبيه، وحاولت أن تضرب الأسرة السعودية بعضها بعضاً فعينت خالد بن سعود أميراً على نجد وجهزت له حملة ضخمة بقيادة خورشيد باشا، وقد اتخذ خورشيد باشا المدينة المنورة مركزاً ثابتاً لقيادته وكان يخزن فيها الذخائر والمؤن واحتياطي الجنود، ويتحرك منها إلى مناطق القصيم والوشم لمواجهة فيصل بن تركي والقبائل الموالية له، وظل خط المواصلات مابين ينبع -المدينة- القصيم الطريق الرئيسي لتموين هذه الحملات، حتى بعد استسلام فيصل بن تركي عام ١٢٥٤هـ وتسلم خالد بن سعود السلطة في نجد. وتشير وثائق تلك الفترة إلى أن خورشيد باشا كان يقيم في المدينة فترات طويلة(١) كما كان يجتهد في تألف القبائل حول المدينة لتقوم بمهمة نقل المؤن والجنود، ويستعمل أسلوب الإغراء حيناً والتهديد حيناً آخر. ويتبين لنا من إحدى رسائله المرسلة إلى الديوان الأميري في مصر أن بعض القبائل حاولت الاستعصاء مرة والامتناع عن نقل الجنود والمؤن فخرج إليهم خورشيد باشا على رأس قوة كبيرة فتفرقوا واعتذروا إليه وعادوا إلى نقل المؤن والجنود(٢). كما أنه استعان ببعض قبائل شمر وعفا عن أحد الثائرين عليه الشيخ عبد الله بن رشيد شيخ جبل شمر مقابل تأمينه

---

١) انظر من وثائق ص ٥٧٦.

٢) من وثائق ص ٥٨٠.

ألف جمل لنقل المؤن والذخائر من المدينة إلى نجد(١)، كما أن المحافظين عملوا على تجنيد عدد من أبناء الحجاز، وقد دفع القحط وسوء الأحوال المعيشية في الريف وقلة الموارد عدداً من الشباب إلى الانخراط في جيش خورشيد باشا، ويتبين لنا من رسالة القائد العسكري للجيش المصري في جنوب الجزيرة العربية أحمد شكري إلى الديوان الأميري في القاهرة أن الدولة حاولت أن تستخدم المجندين الحجازيين في حروبها في عسير واليمن، ولكنهم لم يبدوا حماسة لذلك، فقد كانت بغيتهم (أن يأخذوا مرتباتهم ويخلدوا إلى الراحة في بلادهم)(٢) حيث الهدوء والاستقرار، وقد نصح ذلك القائد بعدم استخدامهم في الحروب خارج الحجاز(٣) وهكذا نعمت المدينة بالأمن في فترة تحولها إلى مركز عسكري.

اضطرابات محدودة:

غير أن الأمن الذي نعمت به المدينة المنورة بدأ يضطرب في أواخر العهد المصري ففي جمادى الأولى عام ١٢٥٤هـ عادت قبائل حرب إلى العصيان، ونزل رجالها إلى طريق مكة -المدينة وطريق ينبع- المدينة، ووصلوا أطراف ينبع ومشارف المدينة، فاحتلوا العوالي، وكتب محافظ المدينة محرم بك يستنجد بمحافظ ينبع درويش بك، وكانت قد وصلته من مصر إمدادات عسكرية كبيرة. وأعد محافظ ينبع المدافع والأسلحة والمهمات والعسكر، (فلما علم أولئك المخالفون بذلك، جزموا بأنهم ستدور عليهم الدوائر وقعوا على حضرة صاحب الدولة عثمان باشا شيخ الحرم النبوي طالبين الأمان، فكتب الباشا المشار إليه إلينا يطلب الأمان، فأعطيناهم الأمان رعاية للوقت والحال،

---

١) السابق نفسه.

٢) من وثائق ص ٢٠٧.

٣) السابق نفسه.

إلا أن هؤلاء لايمكن الاعتماد على خضوعهم)(١) وقد صح ماتوقعه محافظ ينبع فما لبث رجال حرب أن ثاروا بعد شهرين. فخرج إليهم قائد المدفعية في المدينة المنورة في رجب من العام نفسه وطاردهم في الجبال حول المدينة، ووصل إلى منطقة الفقرة وذهب إلى قراهم الأصلية في وادي الصفراء وقتل عدداً منهم، ولكنهم نصبوا كميناً لقافلة المؤونة القادمة خلفهم وقتلوا عدداً من حراسها، فطاردهم الجيش ثانية وقتل عدداً منهم وخلص القافلة ثم قام بعمليات انتقامية، فقطع النخيل في مناطقهم، واستعان بقبيلة الحوازم ضدهم(٢)، ومالبثت قبائل من حرب أن تجمعت ثانية عند بدر وهاجمت القوة المصرية وأصابتها بخسائر مهمة وانسحبت إلى الجبال فاستنجد محافظ المدينة المنورة بمصر فأرسل الباشا حملة كبيرة بقيادة (سليم باشا اطزيير). فسارت الحملة في المناطق المحيطة في المدينة المنورة وهاجمت تجمعات قبائل حرب وأوقعت فيها خسائر جسيمة. ولكن الحربيين كانوا يفرون من وجه الحملة ثم يستنصرون إخوانهم ويغيرون ثانية على القوافل العسكرية والمدفعية المارة. وتعود الحملة لمطاردتهم ثانية وتنزل مناطق إقامتهم الأصلية وتقطع النخيل وتحرق القرى وتنهب الماشية، فيتحصن الحربيون في رؤوس الجبال وينتهزون الفرصة للإغارة على قوافل الحملة وغيرها(٣)، وقد ظلت الحملة بقية عام ١٢٥٥هـ وجزءاً من عام ١٢٥٦هـ تتنقل في مناطق المدينة المنورة، وقاست المدينة المنورة من جراء انقطاع الطريق في هذه الأثناء ضيقاً شديداً، وارتفعت الأسعار حتى بلغت قيمة الأردب من القمح ثلاثين ريالاً.. وهو مبلغ ضخم بمعيار ذلك الزمن وكادت القبائل في بعض المرات أن تقضي على الحملة واستولت على ذخائر ضخمة وهرب قائدها سليم باشا ووصل إلى

---

١) من وثائق ص ٢٠٨.

٢) من وثائق ص ٢١٣ - ٢١٥.

٣) من وثائق ص ٧٠٤ - ٧٠٥ وإفادة الانام ١٢٧/٦ وتاريخ مكة ص ٥٢٢.

المدينة مع بعض رجاله بشق الأنفس(١) وقد أثرت هذه الاضطرابات على الحياة داخل المدينة المنورة تأثيراً محدوداً.. إذ قلت المؤن والذخائر ونشطت حركة الجند لمطاردة القبائل.. ولكن التهديد لم يبلغ أسوارها قط..

ضغوط على محمد علي باشا:

وفي هذا الوقت كان محمد علي باشا يواجه ضغطاً شديداً من الدول الأوربية لتحجيم قوته وحصرها في مصر، وقد وقعت انكلترا وبروسيا والنمسا وروسيا والدولة العثمانية اتفاقية لندن عام ١٢٥٦هـ، وتنص على حصر سيادة محمد علي باشا في مصر ومنحه ولايتها بصورة وراثية، وعندما رفض محمد علي الاتفاقية أصدرت إنكلترا أوامرها إلى أسطولها بضرب الموانئ التي تسيطر عليها قوات محمد علي ومحاصرتها، فاضطر محمد علي إلى الموافقة على الاتفاقية.

وانسحب محمد علي باشا من الشام، وأخذ يعد الأمور لسحب قواته من شبه الجزيرة العربية وتسليمها للقوات العثمانية(٢) وكانت الأمور مضطربة في معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية.. ففي نجد كانت بعض القبائل تقاوم خالد بن سعود وخورشيد باشا، وفي عسير كانت ثورات كثيرة لقبائل غامد وزهران، وفي الحجاز تحركت قبائل حرب وهاجمت القوات المصرية أكثر من مرة ووصلت إلى مشارف المدينة وينبع..

نهاية عهد محمد علي باشا في المدينة:

قرر محمد علي باشا أن يسحب قواته بسلام دون أن تحطمها الثورات الكثيرة، فاستعان بالشريف ابن عون -وكان قد ولاه أمر الحجاز ثم احتجزه في مصر عندما اختلف مع قائد الجيش المصري و محافظ مكة أحمد باشا- فاستدعاه إلى قصره وأفهمه أنه سيعيده إلى مكة المكرمة والياً على الحجاز

---

١) السابق نفسه.

٢) انظر التاريخ الاسلامي لمحمود شاكر ٤٩٣/٨.

كله وبموافقة الخليفة العثماني، وعليه أن يؤمن إعادة القوات المصرية بسلام، وسوف تترك هذه القوات خزينها الضخم من المؤن والعتاد والسلاح لقوات الشريف والدولة العثمانية، وكان محمد علي قد اتفق على ذلك مع الدولة العثمانية على أن تخصم قيمة مايتركه من المبالغ التي تدفعها خزينة مصر للدولة العثمانية..

التمهيد للانسحاب:

أوصى محمد علي الشريف محمد بن عون أن يبدأ بمنطقة المدينة المنورة ويضرب قبائل حرب المتمردة ضربة موجعة، ليرسخ الأمن في المنطقة، وليضمن الطريق التي ستسحب منها القوات الكبيرة الموجودة في المدينة المنورة وفي نجد. وفي رسالة بعثها إليه مؤرخة بـ٢ جمادى الآخرة ١٢٥٦هـ عهد له بتدبير جميع الأقطار الحجازية ويبين أنه استدعى القائدين الكبيرين أحمد يكن -وكان يقود جبهة عسير- وخورشيد باشا -وكان يقود جبهة نجد- ليرجعا إلى مصر، وجاء في الرسالة توصية خاصة بالمدينة المنورة حيث قال: المأمول أن تعينوا قائداً كفؤاً على عساكر المرتزقة الموجودين لديكم الآن وتتركوه في جهات المدينة المنورة، وعند تشريفكم منها إلى مكة المكرمة تستخدمون عساكر المرتزقة الذين يتركهم ولدانا أحمد باشا وخورشيد باشا فيما يقتضيه الوقت والحال(١)، وهذا يعني أن محمد علي قد حرص على المحافظة على القوات المجندة من الحجاز وغيرها وجعلها قوة للإدارة الجديدة وبخاصة في المدينة المنورة.

في أوائل ذي القعدة عام ١٢٥٥هـ نفذ الشريف محمد بن عون ماطلبه محمد علي باشا بدقة. فسافر مع قوة كبيرة إلى ينبع، حيث انضمت إليه القوات الموجودة فيها واشتغل بتأمين طريق الحجاج بين مكة والمدينة إلى نهاية موسم الحج

---

١) من وثائق ص ١٣٢-١٣٣.

ومع مطلع عام ١٢٥٦هـ بدأ حملته الواسعة ضد قبائل حرب، وضربها ضربة موجعة أوقع فيها عدداً من القتلى، وقبض على عدد من مشايخهما وأعيانهما ونشر أعداداً ضخمة من الجيش لتمشيط المنطقة والقبض على الفارين من وجه الحملة، واستعان بأنصاره من الحوازم وبالجنود الأكراد للوصول إلى رؤوس الجبال والمعاقل الوعرة، فلم يجد الحربيون بداً من الاستسلام، وطلب الأمان، وجاء عمد جبل الفقرة ومشايخه وتراموا على الشريف، وأقسموا أنهم لن يرتكبوا أية غلطة بعد ذلك، وأنهم سينضمون إلى جيش الشريف لمعاقبة أية قبيلة يقع منها نهب أو تعد. فلما رأى الشريف حالهم، وتيقن صدقهم في أقوالهم واستسلامهم وأنهم (لايقع منهم بعدئذ شيء يخشى منه قبل استسلامهم ومنحهم الأمان ولكنه كان أكثر تحرزاً فبث العيون والجواسيس بينهم، كما بثها بين القبائل التي يحتمل أن تناصرهم(١).

وسكنت قبائل حرب تضمد جرحها الكبير، ودخلت في الطاعة، وتوجه الشريف محمد بن عون إلى المدينة المنورة ليمكث فيها بعض الوقت وليتأكد من استتباب الأمن وركون الحربيين إلى السلام.

انتعشت الأحوال في المدينة المنورة بعد هذه الأحداث وعادت قوافل التجارة والمؤن تسير إليها، وبدأت قوافل الجيش المنسحب من نجد تفد إليها شيئاً فشيئاً. ومنها تنتقل إلى ينبع فمصر. ومكث الشريف عون في المدينة عدة أشهر -من صفر إلى ذي القعدة ١٢٥٦هـ- وكانت مهمته الكبرى تأمين رحيل قوات محمد علي باشا من نجد ومن مناطق الحربيين، والمهمة الثانية إعادة ترتيب الأمور العسكرية والإدارية وفق النظام العثماني وتسليم الإدارات للقادة والموظفين العثمانيين الذين بدؤوا يفدون إلى المدينة المنورة، وبدأت لجان من المصريين والعثمانيين والحجازيين إحصاء الأسلحة والذخائر والمؤن التي يتركها الجيش المغادر وتقدير قيمتها وإبقائها في أماكنها ليتسلمها

---

١) من وثائق ٢١٧- ٢١٨.

انسحاب جيش محمد علي:

تشير وثائق شبه الجزيرة العربية في زمن محمد علي باشا إلى أن الشريف محمد بن عون اجتهد في تنسيق رحيل القوات المنسحبة إلى مصر، وعمل بالتنسيق مع محافظ ينبع على إعداد السفن اللازمة وإرسال القوات على دفعات حسب توفر السفن، وتأمين المناطق التي يمر بها الجنود والتي يقطنها الحربيون، رفع أعطياتهم من القمح(١) لحاجتهم الشديدة إليه بناء على نصيحة أحمد باشا، وقد أنفقت الدولة بسخاء على تغطية عملية الانسحاب من نجد والمدينة، وبلغ ماأنفق فيها ثلاثة آلاف كيس أي مليون ونصف قرش(٢) وطبيعي أن يحدث هذا الانفاق السخي انتعاشاً في المنطقة بعامة.

المدينة تعود إلى السلطة العثمانية:

لم يحدث الشريف محمد بن عون تغييرات إدارية كبيرة وأبقى محافظها محرم بك في منصبه ريثما تصل الفرق العسكرية العثمانية. وقد وصلت أوائل هذه الفرق قبل أن يغادر الشريف المدينة، ووصلت أوامر بنقل شيخ الحرم عثمان باشا إلى مكة وجعله والياً عليها وتعيين نائبه شريف باشا شيخاً للحرم المدني.

ومالبثت المدينة أن استكملت قوتها العسكرية الجديدة(٣) وهي كما وصفها أحد الكتاب (تتألف من ثلاثة (طوابير)، كل طابور عبارة عن ٣٥٠ نفراً بضباطهم وآلاتهم ومهماتهم، ولهم (قائمقام) وأمير (آلاي) (بمزيكتهم) وفي القلعة نحو المائة نفر (طوبجية) بمدافعهم (وجبه خانتهم) (ذخيرتهم) وحيوانات المدافع وحدادهم ومايلزم لهم، و(طابورين) (ضابطية) أحدهم

---

١) من وثائق ص ١٤٠.

٢) من وثائق ص ١٧٥-١٧٧.

٣) رسائل في وصف المدينة ص ٥٦.

المـدينة داخـل السور في القـرن الثالث عشـر الهجـري صـورة رسمهـا المستشرق الإنكليزي الرحالة برايتون

المدينة كما تبدو للقادم إليها من خارج السور. صورة رسمها المستشرق الرحالة برايتون في منتصف القرن الثالث عشر الهجري عندما زارها باسم «الحاج عبدالله»

سواري وعقيل والثاني بيادة ضابطية. وكل طابور موجود دون المائتين(١).

محافظ جديد وإنجازات جديدة:

وفي عام ١٢٦٠هـ عين داود باشا الكرجي محافظاً للمدينة(٢) ولداود باشا تاريخ عريق، فقد تدرج من مملوك مستعرب إلى قائد للجيش في بغداد، ثم أصبح والياً عليها، وحاول أن ينفرد بالحكم بها ويستقل عن الدولة العثمانية، وبدأ -على طريقة محمد علي باشا- حركة نهضة علمية وصناعية وعسكرية كبيرة، وأسس جيشاً ضخماً، ولكن انتشار الطاعون في بغداد جعله يعجز عن مقاومة الدولة العثمانية، فتنازل عن الولاية وسافر إلى الآستانة، فأكرمه السلطان عبد المجيد ثم عينه محافظاً للمدينة المنورة وشيخاً للحرم النبوي.

كان داود باشا محباً للعلم، يتقن عدة لغات، وقد قدَّم للمدينة المنورة إنجازات علمية وعمرانية كثيرة.. من أهمها: إعادة تجديد الحرم النبوي وتوسعته. ويروي بعضهم أن داود باشا رأى تصدعاً في بعض جدران الحرم فكتب بذلك إلى السلطان عبد المجيد فصدر أمر السلطان ببناء المسجد من جديد (٣)، ويقرر بعضهم الآخر أن قبة من القباب المواجهة للحجرة النبوية سقطت على بعض الواقفين للزيارة فقضت عليهم فرفع الأمر للسلطان فأخذ في أسباب تجديده(٤).

تجديد المسجد النبوي وتوسعته:

بدأ العمل في تجديد المسجد النبوي وتوسعته عام ١٢٦٥هـ، واستمر اثني عشر عاماً حيث انتهى عام ١٢٧٧هـ وكان هذا البناء من أضخم العمارات

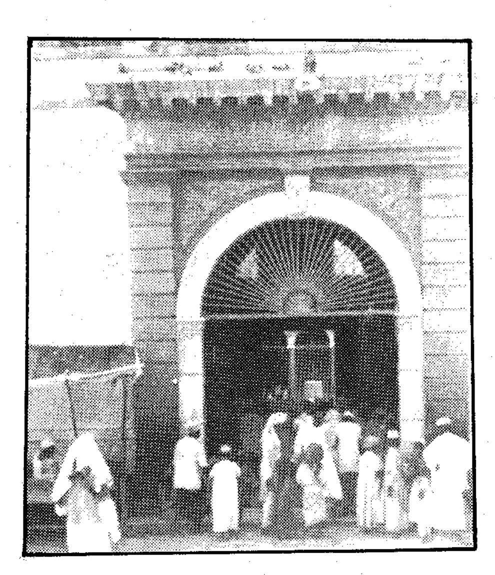
---

١) انظر: السابق نفسه.

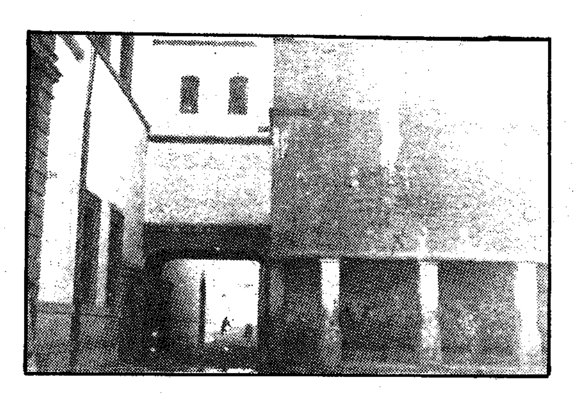
٢) الأعلام ٣٣١/٢.

٣) فصول من تاريخ المدينة ص ٧٨.

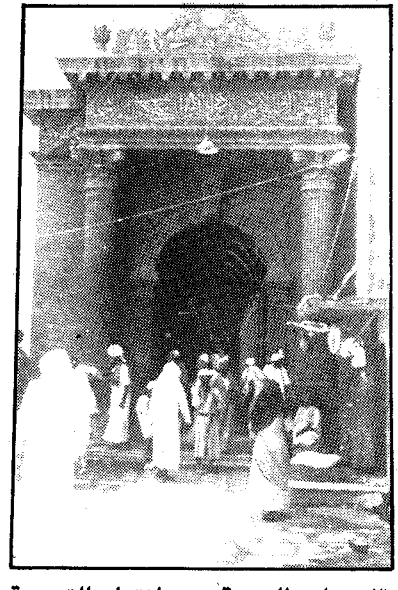
٤) انظر رسائل ص ٥٧-٥٨.



١ ـ باب المجيدي نسبة إلى السلطان عبد المجيد الـذي أمر بـالتوسعـة .



٢ ـ جـزء من باب المجيـدي ويتصل بـه مبنى مخزن الـزيت الذي يمـر من تحته الشارع ثم مبنى «الشرشورة» مكان تغسيل الموتى وتجهيزهم للدفن.



٣ ـ باب الرحمة بعد انتهاء التوسعة المجيدية وتلاحظ الزخارف الحجرية في أعلاه.



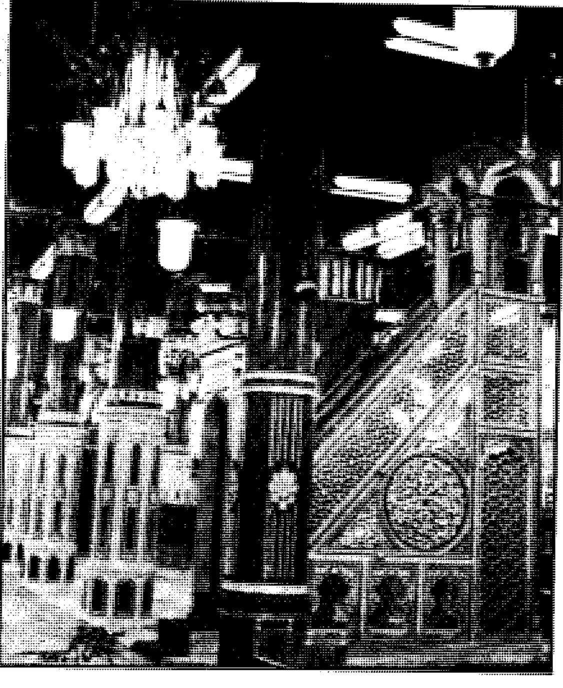
٤ ـ ساحة المسجد النبوي وقد غرست فيها بعض الأشجار وسماها بعضهم جنة فاطمة لقربها من بيت فاطمة رضي الله عنها.



محراب رسول الله ﷺ والمنبر في الروضة في المسجد النبوي



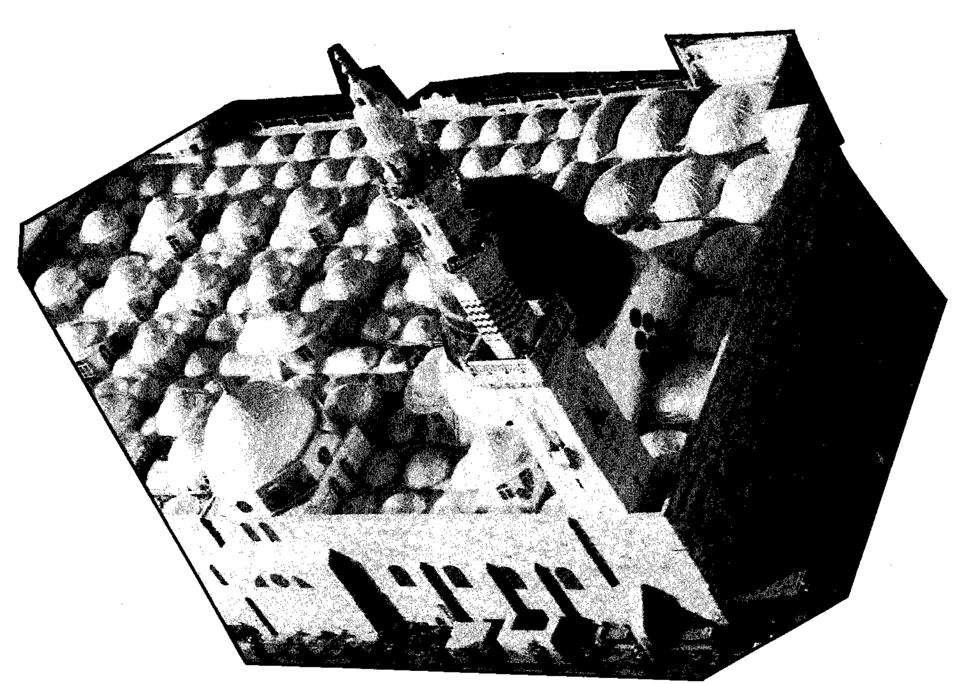
الفسيفساء والزخارف والآيات القرآنية والنقوش تزين جدران المسجد وقبابه في التوسعة العثمانية الأخيرة



منبر المسجد النبوي



المحراب القديم في المسجد النبوي وهو في موضع المحراب الذي كان يصلي فيه رسول الله ﷺ..... صنع في التوسعة المجيدية



منظر علوي للمبنى الرئيسي في البناء العثماني الأخير. وتبذل الجهود الكبيرة لصيانته والمحافظة على شكله الأثري في أحسن حال

التي جرت في مسجد رسول الله ﷺ وأتقنها وأجملها إلى ذلك الوقت(١)، وقد أرسل السلطان عبد المجيد المهندسين والمأمورين والمعلمين والحجارين، وبعث معهم المهمات اللازمة والنقود الكافية(٢) وأقيمت (ورشة) بناء كبيرة حول المسجد. فيما تخير المهندسون والحجارون أحد الجبال في الحرة لقطع الأحجار السوداء منها، كما تخيروا جبلا أحمر قريباً من الجماوات في منطقة وادي العقيق على مسافة أربع ساعات غربي المدينة لعمل الإسطوانات من صخوره (٣)، وأشرف داود باشا على مرحلة مهمة من العمل ثم توفي قبل إنجازه. وقد وسع المسجد النبوي من جهتيه الشرقية الشمالية والجنوبية، وأحدثت بعض التعديلات في داخله، فهدمت قبة الزيت التي كانت في صحن المسجد وبني بدلاً منها مخزن جوار المئذنة الشمالية الغربية وأضيف باب بالجهة الشمالية سمي باب عبد المجيد، وأضيفت صالتان من الجهة الشمالية(٤).

عقود من الصمت:

كانت توسعة المسجد النبوي آخر حدث مهم في المدينة المنورة في القرن الثالث عشر الهجري، كما كانت شخصية داود باشا الكرجي أبرز شخصية رسمية تظهر في المدينة في النصف الثاني من هذا القرن، فبعد وفاته توالى عدد من المحافظين لانجد لهم أي أثر يذكر، ولا نجد في سجلات تلك الفترة أخباراً تلفت النظر، بل إننا لانجد أسماءهم كاملة ومدة تولي كل منهم منصبه على وجه التحديد.

وأغلب الظن أن الحياة في العقود الثلاثة من القرن الثالث عشر الهجري،

---

١) فصول من تاريخ المدينة ص ٨٨.

٢) المسجد النبوي عبر التاريخ ص ١٥٩.

٣) السابق ص ١٦٠.

٤) انظر تفصيلات هذه الزيادة في المصدر السابق ص ١٥٨-١٧٤

أي بعد وفاة داود باشا الكرجي عام ١٢٦٧هـ، وبعد الفراغ من إعادة بناء المسجد النبوي وتوسعته عام ١٢٧٤هـ لم تشهد المدينة أحداثاً مهمة، وجرت الحياة فيها هادئة وادعة، واستمرت كذلك عقداً آخر من مطلع القرن الرابع عشر، فقد أعادت الدولة العثمانية تنظيم الفرق العسكرية الموجودة في المدينة، وأصبحت ترسلها بكاملها من فرق الجيش المنظم، وخلافاً لما كانت عليه الفرق العسكرية قبل قرن من الزمان، لم يعد قادتها يتدخلون في شؤون المدينة، ولم تعد لهم السلطة والنفوذ خارج ثكناتهم، وأصبحت شخصية المحافظ هي القوة الإدارية الضابطة، ولم تعاود القبائل غاراتها على المدينة وإن كانت قد عاودت تعرضها لقوافل الحجاج وعاودت فرض الإتاوات عليها، بحجة حمايتها من المغيرين، واضطرت القوافل لدفع الإتاوات وتحدد الطريق الذي تسلكه قافلة المحمل الشامي الذي يبدأ من (استامبول) على شكل مجموعات متوالية، ثم يتجمع في دمشق وينطلق منها في وقت محدد ومعه حماية عسكرية كبيرة، وقد سمي الطريق الذي يسلكه الطريق السلطاني وكذلك تحدد طريق المحمل المصري، وتوالى قدومه إلى المدينة كل سنة، ومعه قوة عسكرية وبضعة مدافع لإرهاب الذين يتعرضون القافلة في الطريق ولقتالهم أحياناً، ولكن لم يعد لأمير المحمل سلطة التدخل في شؤون المدينة أو مكة، وعزل الأمير أو نائبه أو المحافظ أو أي من الموظفين، وبالعكس أصبح المحمل يعد نفسه منذ دخوله في منطقة المدينة أو منطقة مكة في حماية أميرها أو محافظها.

وتمر السنوات الهادئة، ولا جديد يذكر في حياة المدينة، إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري.



د/ عبد الباسط بدر

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

المدينة المنورة - ص.ب ٣٦٦٢

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

المدينة في القرن الرابع عشر الهجري

المدينة في القرن الرابع عشر الهجري

أول المستجدات:

استقبلت المدينة المنورة القرن الرابع عشر بهدوء تام، والناس فيها يعيشون حياتهم العادية والبسيطة، والأمن مستتب، ومواسم الزراعة حسنة، ومواسم الزيارة تسوق دخلاً لابأس به، وقوافل التجارة تتوالى مع قوافل الحج، وعلى فترات أخرى متقطعة.

واستمرت سنوات الحياة الهادئة لاجديد فيها يلفت النظر إلى مابعد منتصف العقد الثاني من هذا القرن، حيث يتبدد الصمت وتبدأ المستجدات في حياة المدينة، تبدأ بسيطة أول الأمر، ثم تتعقد وتشتد، ثم تصبح عاصفة تهز حياة الناس هزاً عنيفاً، وكان أول تلك المستجدات إنجازاً حضارياً وصل المدينة المنورة بعاصمة الدولة العثمانية، وبمدن أخرى كبيرة لتتبادل معها الأخبار والتعليمات.

هذا الإنجاز هو إنشاء محطة اتصال لاسلكي ضخمة أطلق عليها أهل المدينة اسم (التليسيس).

فمن المعروف أن السلطان عبد الحميد الثاني تولى العرش والدولة العثمانية في حالة سيئة من الضعف والاضطراب، حتى إن الدول الأوربية كانت تسميها (الرجل المريض) وكانت تعقد المؤتمرات السرية للإجهاز عليها واقتسام ممتلكاتها.

وكانت شخصية السلطان عبد الحميد الثاني قوية فذة، لذلك حاول أن يخلص دولته الواسعة الأطراف من حالة الضعف والتخلف وأن يجعلها قوية قادرة على التصدي لخصومها، وكانت أول خطوة في تقوية دولته تيسير الاتصالات والمواصلات بين أطرافها المترامية، وإقامة شبكة اتصالات حديثة بين العاصمة والولايات.

محطة اللاسلكي في المدينة المنورة:

كان أحدث ماوصلت إليه تقنية الاتصالات أجهزة اللاسلكي البعيدة المدى، وبخاصة التي تصنعها الشركات الألمانية المتطورة، فطلبت الدولة العثمانية من تلك الشركات تركيب عدد من الأجهزة الضخمة في الأقاليم والمدن الهامة.. وكانت المدينة المنورة واحدة من تلك المدن.

وفي أوائل عام ١٣١٨هـ وبينما العمل جار لإقامة الخط الحديدي الحجازي وصلت إلى المدينة المنورة بعثة من الفنيين الأتراك والألمان ومسحت المنطقة المحيطة بالعمران. واختارت أرضاً سهلة تقع شمالي المدينة على طريق العيون تبعد عن سور المدينة ألف متر، وتبعد عن جبل أحد أكثر من ألفي متر.. ووضعت المخططات لإقامة محطة اللاسلكي. وبدأ العمل في المحطة فأقيم سور كبير حول الأرض.. ووصلت أجهزة المحطة عبر ميناء ينبع، ثم نقلت على الجمال إلى المدينة المنورة، في الوقت الذي كان فيه البناؤون يبنون غرف الأجهزة وغرف الإدارة. ورأى أهل المدينة لأول مرة برجاً حديدياً عالياً جداً لم يروا برجاً بارتفاعه من قبل، تشده حبال معدنية طويلة من جهاته الأربعة ليستقيم في ارتفاعه وعمل عدد منهم في إنجاز المشروع سواء في أعمال البناء أو الخدمات. واختير أحد وجهاء المدينة ليكون المسؤول الإداري عن المحطة وهو: علي ناصر(١) وقبل نهاية العام كانت المحطة تبث البرقيات الرسمية إلى إستانبول وتتلقى منها البرقيات تحمل الأخبار والمراسيم والأوامر.

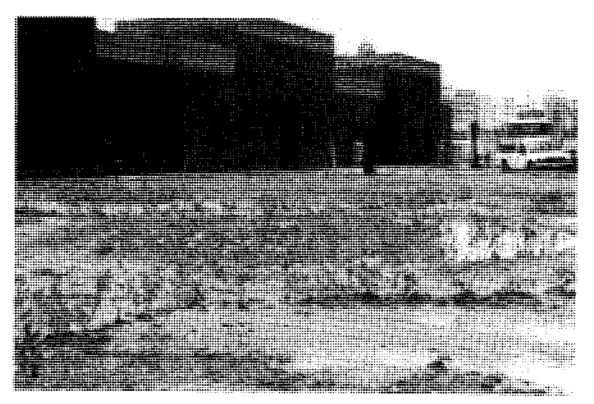
ثورة على المحافظ المتغطرس:

شهدت المدينة المنورة بعد سنوات قليلة من إنشاء محطة اللاسلكي أحداثاً متميزة ظهرت فيها فائدة هذه المحطة في تيسير الاتصال بالعاصمة العثمانية واحتواء فتنة كان من الممكن أن تراق فيها الدماء، كما ظهرت فيها

---

١) محمد حسين زيدان: ذكريات العهود الثلاثة ص ٣٩.

١ ـ البوابة الشرقية لمبنى محطة اللاسلكي.



٢ ـ مباني الإدارة والأجهزة الفنية لمحطة اللاسلكي بعد ترميمها لتحويلها إلى متحف تراثي.

إرادة ((أهل المدينة)) موحدة في مواجهة محافظ متسلط. ثم تطورت الأحداث واشتدت المواجهة وكادت أن تتحول إلى ثورة شعبية، الأمر الذي أقلق الدولة وأشعرها بخطورة الوضع، فلاينت أهل المدينة أول الأمر واستجابت لطلباتهم، ثم واجهتهم بالقوة واعتقلت عدداً من أعيانهم.

كانت بداية هذه الأحداث في عهد المحافظ علي باشا مرمحين الذي عين أواخر ١٣٢٠هـ.. كان مرمحين شديد الغطرسة والاستبداد والتهور، وقد أخاف بعض أهل المدينة، وفرض الرسوم والضرائب، منها ليرة عثمانية ذهب على كل فرد من أهل المدينة، فعظم ذلك على أهل المدينة، وتحولت النقمة إلى حركة مواجهة يقودها محتسب المدينة ((رئيس البلدية)) أنور عشقي.. ومع أن المحتسب واحد من كبار موظفي الدولة في المدينة، فإن ارتباط السيد أنور عشقي بمدينته، وطبيعة وظيفته التي تقاوم الفساد جعلته على رأس الناقمين على المحافظ وقائد المواجهة.

وفي أحد الأيام بلغت النقمة ذروتها في نفوس جماعة من أهل المدينة فتجمعوا خارج مقر المحافظ، عند باب القلعة الصغير، وعندما خرج المحافظ من مكتبه شغبوا عليه وطلبوا منه بشيء من الحدة أن يقلع عن تصرفاته القاسية ويلغي الرسوم والضرائب الجديدة، وأطلق أحد الغاضبين النار ببندقية يحملها ولكن الرصاصة لم تصبه، وأدرك المحافظ أن حرسه القليل لن يستطيع حمايته من هذه الجموع الغاضبة، فأسرع والتجأ إلى أقرب مبنى، ومن المصادفات العجيبة أن المبنى الذي التجأ اليه هو ((عش المحتسب)) أي مكتبه. ولكن المحتسب أنور عشقي لم يكن موجوداً فيه ولا مع تلك الجموع.. وجاء الشيخ تاج الدين الياس، وكان أحد عقلاء أهل المدينة صاحب مكانة ورأى خطورة الموقف وحاول تهدئة الجماهير الغاضبة، ودخل إلى عش المحتسب ولقي المحافظ المختبىء وحرسه القليلين وكلمه. فطلب المحافظ أن يسعى لحل الموقف، فخرج الشيخ تاج الدين الياس إلى الجماهير وطلب منهم

التعقل والحكمة والبعد عن الفوضى، ولكن صوته ضاع وسط صراخ الغاضبين الذين لم يجدوا في كلامه ما يحقق مطالبهم من المحافظ المتسلط، وأطلق أحد الغاضبين الرصاص في الفضاء قريباً من الشيخ تاج الدين.. وأدرك الشيخ تاج الدين أنه لن يستطيع حل المشكلة، كما أدرك ذلك المحافظ ورجاله المحاصرون، فسارع أحد الجنود إلى النافذة، وأخرج البوق منها، ونفخ فيه بشدة يستدعي زملاءه، وكرر العسكري طلب النجدة بالبوق... وكانت القلعة ومقر الحكم قريبين من عش المحتسب، فسمع العساكر صوت البوق وحملوا أسلحتهم وجاؤوا إلى الموقع، كما وصل الضباط من أطراف المدينة، ورأوا الموقف الصعب، ودخلوا إلى المحافظ المحاصر، فأمرهم بتفريق الجماهير وإطلاق الرصاص على من لاينصاع إلى الأوامر، فخرج الضباط إلى الجماهير، ورأوا عددهم يزداد شيئاً فشيئاً... فقد انتشر الخبر.. وسمع الكثيرون صوت الرصاص وصوت البوق، ورأوا العساكر تهرول إلى الجهة الغربية من المدينة فأسرعوا ليتحروا الأمر وما لبثوا أن انخرطوا مع من سبقهم في الحديث واللغط.

كان إصرار أهل المدينة على مواجهة المحافظ قوياً ولم تنفع وساطة الضباط، وكانت صلة كثير من هؤلاء الضباط بأهل المدينة قوية فبعضهم من أبنائهم وبعضهم من أصهارهم.. لذلك رفضوا أن يطلقوا النار على الحشود المجتمعة، واكتفوا بتحذيرهم من التعرض للمحافظ. وعندما يئسوا من حل الموقف جمعوا جنودهم وأبعدوا الناس عن عش المحتسب وشقوا طريقاً يحوطه الجند من عش المحتسب إلى بيت المحافظ، وقاموا بحراسة المحافظ، الذي خرج في غيظ شديد وسار وسط الجند وهو يسمع صرخات بعض أهل

المدينة تهزأ به وتهدده: مرمحين ياوجه القملة، مين قال لك تعمل دي العملة(١) ، إلى أن بلغ مسكنه فدخله وأمر بتشديد الحراسة وعدم السماح لأحد بالدخول والاقتراب.

كان تدخل الضباط مجدياً للمحافظ وللجماهير.. فقد خفروا المحافظ، واحترم أهل المدينة خفارتهم فلم يطلق أحد النار، وشعروا بقوة موقفهم، وتنادى كبارهم للذهاب إلى اللاسلكي ومحادثة السلطان عبد الحميد لعزل المحافظ المتسلط... فتحركت الجموع إلى مبنى المحافظة حيث اللاسلكي الحكومي القادر على الاتصال باستانبول.. ورابط معظم المحتشدين حول المبنى ودخل ((الكبار)) وعلى رأسهم أنور عشقي الذي وصل قبل خروج المحافظ بقليل، ولم يمانع الضباط من دخول المحتسب وعدد من أعيان المدينة إلى مبنى الحكومة.. فدخل هؤلاء وتوجهوا إلى مكتب (اللاسلكي) وأرسلوا برقية إلى دار الخلافة في استانبول باسم أهل المدينة، ويروي السيد حسين جمل الليل أحد المشاركين في تلك الأحداث أنهم اشتكوا فيها سوء معاملة المحافظ ورسومه الظالمة، وطلبوا عزله ورفع الرسوم فاستجيب طلبهم على الفور (٢) وفرح أهل المدينة بذلك وعادوا إلى بيوتهم وشاع الخبر بعزل المحافظ. ووصلت في اليوم التالي برقية إلى المحافظ تحمل مرسوم عزله وإلغاء الرسوم التي فرضها.. فحمل المحافظ مرمحين حقائبه وغادر المدينة بعد مدة وجيزة.

نزعة خاطئة:

وصل محافظ جديد عينه السلطان عبد الحميد هو حسن حسني باشا.

---

١) فصول من تاريخ المدينة ص ٤١.

٢) يقرر المؤلف ان المحتجين كلموا السلطان عبد الحميد بالهاتف مباشرة والثابت أنه لم يكن هناك اتصال هاتفي مع إستانبول آنئذ. وإنما كان الاتصال برقياً باللاسلكي. انظر فصول تاريخ المدينة ص ٤١.

ويبدو أن استجابة السلطان عبد الحميد المباشرة لأهل المدينة قد جعلت بعضهم يستشعر القوة إزاء السلطة التنفيذية وعلى المحافظ الجديد، يستسهل التمرد ورفض الأوامر. ولاشك أن أي إدارة تنفيذية ستخفق في ضبط أمورها إذا لم تجد الاستجابة الكاملة والطاعة، ولم تكن لها القوة القادرة على تطبيق قراراتها بالقوة إن لزم الأمر.. لذلك لم يطل الأمر بالمحافظ الجديد.. فقد شغب عليه بعض أهل المدينة، وأرسلوا الشكاوى ضده. فجاء الأمر بعزله أيضاً وعُين شيخ الحرم عثمان فريد باشا محافظاً جديداً للمدينة إضافة إلى منصبه الأصلي في مشيخة الحرم..

ويبدو أن العاصمة العثمانية قد قصدت بهذا التعيين الاستفادة من المكانة الدينية والاجتماعية لمنصب شيخ الحرم وتنفيذ قرارات (المحافظ) وتسيير الأمور بشكل أفضل. وكانت شخصية عثمان فريد باشا -كما تصورها كتابات معاصره اللواء إبراهيم رفعت باشا الذي التقى به أكثر من مرة- قوية فيها شيء من الحزم، فشدد على أصحاب النفوذ، وأمر بحبس من يرتكب المخالفات ولو كان من أعيان المدينة.

خط السكة الحديدية الحجازية يصل إلى المدينة المنورة:

شهدت المدينة المنورة في العقد الثالث من هذا القرن حدثاً حضارياً كبيراً كانت له آثار كثيرة وعميقة في حياتها مدة من الزمن..

هذا الحدث هو وصول خط السكة الحديدية إليها قادماً من دمشق ومتصلاً باستانبول. وبكل ما تتصل به هاتان المدينتان..

ويعد المؤرخون هذا الخط واحداً من مآثر السلطان عبد الحميد الكبيرة إن لم يكن أكبرها. كانت فكرة إقامة الخط موجودة قبل السلطان عبد الحميد لكن المسؤولين العثمانيين لم يتحمسوا لها لضخامة التكلفة، وصعوبة حماية الخط من البدو. وعندما تسلم السلطان عبد الحميد الخلافة تحمس لإنجاز المشروع، وكان يهدف إلى تحقيق غرضين كبيرين (الأول: خدمة حجاج بيت

الله الحرام وذلك بإيجاد وسيلة سفر عصرية يتوفر فيها الأمن والسرعة والراحة) (١) وقد أشرنا من قبل إلى الأخطار الكبيرة التي كان الحجاج يتعرضون لها وأهمها: هجوم بعض القبائل البدوية على قوافلهم.. وتعرضهم للقتل والنهب والسبي، ودفع الاتاوات الكثيرة، ثم طول المسافة ومشقة الرحلة في الطرق الصحراوية على الجمال، -وكانت الوسيلة الوحيدة الناجعة آنئذ- وما يترتب على ذلك من نفقات باهظة يتكبدها الحجاج.

لذا فإن وجود خط للسكة الحديدية سينهي كل تلك المشكلات ويوصل الحاج إلى المدينتين المقدستين بيسر وسهولة وتكلفة معقولة.

والثاني: دعم حركة الجامعة الإسلامية، وتقوية الصلات بين البلدان الإسلامية المختلفة، وقد جعل السلطان عبد الحميد قضية الوحدة الإسلامية الدعامة الأساسية للدولة العثمانية، واتخذها سياسة عليا للدولة، كي يلتف المسلمون حوله وتقوى أواصر الدولة العثمانية الضعيفة، وتستطيع مواجهة الأطماع الأوربية في العالم الإسلامي..

يضاف إلى هذين الهدفين أهداف اقتصادية واستراتيجية وحضارية أخرى.. ذلك أن المناطق التي يمر منها الخط الحديدي تزداد انتعاشاً وثراء(٢)

أوربا تحارب مشروع الخط الحديدي الحجازي:

أدركت الدول الأوربية الطامعة في العالم الإسلامي خطورة المشروع على أطماعها، فحاولت إفشاله.. وسعت أول الأمر لإقناع العثمانيين بالعدول عنه، فلما رأت إصرار السلطان عبد الحميد على تنفيذه حاولت وضع بعض العراقيل.. فمنعت إنكلترا جمع التبرعات من مسلمي الهند من أجله، ثم تراجعت عن موقفها تحت ضغط مسلمي الهند الذين تحمسوا له حماسة

---

١) د. محمد السيد الدقن: سكة حديد الحجاز ص ١١.

٢) مذكرات السلطان عبد الحميد السياسية ص ١٣.

شديدة. وعرضت فرنسا على الدولة العثمانية أن تقدم لها قرضاً كبيراً لقاء ترك المشروع، ولكن السلطان عبد الحميد رفض العرض وأمر بتشكيل لجنة عليا برئاسة الصدر الأعظم وعضوية وزير الأشغال ووزير الترسانة البحرية وعدد من كبار المستشارين وعين كاظم باشا قائد الجيش الخامس مديراً عاماً للمشروع ومنحه صلاحيات واسعة ووضع تحت تصرفه إمكانات بشرية ومادية كبيرة..

حماسة إسلامية للمشروع:

لكي يصطبغ المشروع بثوبه الإسلامي صدر إعلان عام للمسلمين في جميع أنحاء الأرض يبين أهداف المشروع والنتائج الطيبة المأمولة منه ويهيب بالمسلمين أن يسهموا فيه بأموالهم.. وشكلت لجان لجمع التبرعات وعينت لجنة خاصة في إدارة المشروع لاستلامها..

وقد أثار المشروع حمية المسلمين في الدولة العثمانية وخارجها.. وانهالت التبرعات من أنحاء كثيرة.. وكان المسلمون في شبه القارة الهندية أسبق إخوانهم في مناصرة المشروع ودعمه، وقامت صحفهم بحملات إعلامية واسعة. وحاول الإنكليز الذين كانوا يحتلون الهند آنئذ منع جمع التبرعات، وصدر أمر الحاكم البريطاني للهند بمنع التبرعات بحجة عدم التأكد من أنها ستستعمل للغرض الذي جمعت من أجله(١) مرة، ومرة أخرى بحجة أن الأموال ستستعمل لبناء خط حديدي خارج حدود الهند(٢)، ولكن إصرار مسلمي الهند على دعم المشروع جعل الحكومة البريطانية تذعن لرغبتهم

---

١) انظر: سكة حديد الحجاز ص ١٠٣.

٢) السابق ص ١٠٧.

وتسمح لهم بإرسال الأموال إلى استانبول(١).

تبرعات المسلمين في العالم:

تدفقت الأموال على صندوق المشروع من معظم بلاد المسلمين، وأسهم عدد من السلاطين والأثرياء والمؤسسات بمبالغ كبيرة، افتتح السلطان عبد الحميد التبرعات بمبلغ ٣٢٠ ألف ليرة عثمانية من ماله الخاص، وتبعه في ذلك الملوك والأمراء المسلمون والهيئات والأفراد من داخل الدولة العثمانية وخارجها. أما من داخل الدولة العثمانية فقد تعهد خديوي مصر عباس حلمي بإرسال كمية عظيمة من مواد الإنشاء والبناء. وتبرع سلطان المكلا بـ ٢٠ ألف روبية وأمير الكويت الشيخ مبارك الصباح بـ ٥٠٠ ليرة عثمانية (وكان قد طلب منه التبرع بمائتي ليرة فقط)(٢) ومن خارج الدولة العثمانية تبرع شاه إيران بخمسين ألف ليرة عثمانية وسلطان مراكش بـ ٧٥٠ ألف فرنك(٣) وأمير بخارى ٤٠٠ فرنك وأرسل مسلمو ناتال ١٠٠٠ ليرة عثمانية ومسلمو سنغافورة أربعة آلاف جنيه استرليني(٤) أما مسلمو الهند ((فقد حازوا قصب السبق في التبرع وجمع الأموال للخط الحديدي فلم يجارهم أحد في هذا الميدان، وحسبنا أن نعلم أنه قد تشكل في الهند وحدها ١٦٦ لجنة لجمع التبرعات.. وأرسل أهل لكنو ٣٢ ألف ليرة عثمانية وأهل رانكون ومدراس ٧٣ ألف ليرة عثمانية(٥) وقامت الحكومة العثمانية بإجراءات مالية خاصة لتوفير مصادر أخرى للتمويل، فحولت ميزانية ((المحمل)) لصندوق المشروع، وفرضت بعض الضرائب الإضافية وحولت ريع مناجم الفوسفات بالقرب من

---

١) السابق ص ١٠٧.
٢) السابق ص ٩٨-٩٩.
٣) السابق ص ٩٩.
٤) السابق ص ١٠٠.
٥) السابق ص ١٠١-١٠٢.

الصلت وينابيع الكبريت عند الحمة للمشروع وفرضت على الحجاج أن يدفع كل حاج ريالاً واحداً وأمرت بجمع جلود الأضاحي وبيعها وتحويل أثمانها للمشروع (١) فامتلأ صندوق المشروع بالمال وغطى تكاليف الإنشاء كلها واستمرت الموارد تصب فيه حتى بعد وصول الخط الحديدي إلى المدينة وتوقفه عندها..

بدء التنفيذ:

بدأ المشروع مرحلته التنفيذية الأولى بعيداً عن المدينة المنورة. وقد وضع حجر الأساس في قرية المزيريب التابعة لمنطقة حوران قرب دمشق. وباشرت مصانع الإنشاء المختلفة أعمالها وفق مخطط دقيق فكانت فرق التسوية تتقدم لتمهد الأرض التي يسير عليها الخط.. بينما تقوم فرق أخرى بإنشاء الجسور والمعابر على ممرات السيول والمنحدرات وفرق أخرى تنشئ المحطات الرئيسة والفرعية..

لذلك لم تظهر آثار إنشاء هذا الخط في المدينة المنورة إلا عندما وصلت فرق البناء لتسوية الطريق الذي يصل إلى المدينة ولتأسيس المحطة الرئيسة فيها ولإنشاء الجسور والمعابر على مجاري السيول والأودية.

وللاقتصاد في النفقات وتوفير مستوى عال من الانضباط وحسن الأداء اعتمد كاظم بك مدير المشروع -وهو الرجل العسكري- على جنود الجيش العثماني.. وأقيمت لهم معسكرات يرأسها ضباط شبان للقيام بالأعمال الأرضية من الردم والتمهيد ومد الخط..

وكان الهر مسيز المهندس الألماني الشهير ذو الخبرة الواسعة في بناء

---

١) السابق ص ٥٦-٩٦.

الخطوط الحديدية كبيراً للمهندسين ومديراً فنياً لعملية بناء الخط(١) وقد استطاع هذا المهندس إدارة العمل ببراعة فامتد الخط بسرعة قياسية من دمشق إلى المزيريب ثم إلى عمان فمعان فتبوك. وجرى احتفال بوصول القطار إلى تبوك في ذكرى تسلم السلطان عبد الحميد السلطة أوائل سبتمبر ١٩٠٦م(٢).

شغب أم ثورة:

رأينا أن المحافظ الجديد للمدينة قرر أن يطبق سياسة حازمة، وبخاصة مع الأعيان الذين كانوا وراء الحدثين اللذين أديا إلى عزل سلفيه، وقد تضايق هؤلاء الأعيان وبدؤوا يلغطون في شخصية المحافظ وتصرفاته، ويشيعون الإشاعات الكثيرة عن شدته وسوء معاملته.

وحدث أن سُجن شخص من آل الكردي (واسمه موسى بك الكردي) في قضية اتهم بها، وسعى قريبه عبد القادر بن عبد الله الكردي -وكان أحد وجهاء المدينة آنئذ- لإطلاق سراحه فلم يقبل المحافظ شفاعته، فغضب عبد القادر، وكانت له صداقات كثيرة مع كبار أسر المدينة، رغم أنه من الذين قدموا إليها من استانبول منفيين، وقرر عبد القادر أن ينتقم من المحافظ (وانتفخت أوداجه لذلك، وأخذ يؤلب عليه أهل المدينة حتى تحالفوا معه على المصحف والسيف لينزلن المحافظ أو ليقتلنه)(٣).

كثر الإرجاف بالمحافظ لإشاعة النقمة عليه بين الناس، وما لبثت أن وقعت حادثة أوصلت القضية إلى حافة الانفجار، فقد حدث خلاف بين عدد من أسر المدينة على تركة رجلين وجيهين ثريين هما محمد علي الحجار، وأبي السعود، وتوسط بعضهم لحل الخلاف، وبخاصة المحاميين (عثمان أبو

---

١) السابق ص ١٢٧.

٢) السابق ص ١٥٦.

٣) مراة الحرمين ١٠٥/٢.

الطاهر) و(عبد الرحمن الياس) فلم تنجح الوساطة لتشدد الأطراف المتنازعة، ولتضارب الوثائق والبيانات، واحتد النزاع وبدا أن الصدام سيقع بين المتنافسين.

ولما علم المحافظ بالحالة المتوترة قرر أن يتصرف ويخمد الفتنة قبل أن تتفجر ويعجز عن ضبط الأمور، وذلك باستدعاء رؤساء المتنافسين وتحذيرهم، والتحفظ على من يخشى منه تفجير الصدام.

وتسربت الأخبار عن نوايا المحافظ، وتضخمت كماتتضخم كل شائعة تنتقل من بيت إلى بيت وتحولت إلى خبر مفزع يقول: إن المحافظ يعتزم قتل عدد من أعيان المدينة لحسم الخلاف وكسر شوكة الأقوياء فيها. ووجد الناقمون على المحافظ فرصة كبيرة لتضخيم الإشاعة وتهويل الأمر وإثارة الناس على المحافظ، وكان أول الثائرين الأعيان ووجوه العائلات، حتى المتنافسون على التركة تناسوا خصوماتهم وانخرطوا في موجة الغضب المتنامية ضد المحافظ، وكانت نشوة النصر على المحافظين السابقين دافعاً للكثيرين كي يسهموا في الحركة الجديدة وسرعان ما ظهرت على الألسن ظواهر الغضب والتمرد والإعلان الصريح عن العمل على الثورة لعزل المحافظ عثمان فريد باشا.

وفي صبيحة يوم من أيام العشر الأخير من ذي الحجة عام ١٣٢١هـ تجمع عدد كبير من الأعيان وتبعهم بعض أقاربهم وأتباعهم وذهبوا إلى المفتي عثمان داغستاني وطلبوا منه أن يستصدر قراراً من مجلس إدارة المحافظة -والمفتي أحد أعضائه البارزين- بطلب عزل عثمان باشا لرفعه إلى استانبول..

غير أن المفتي لم يتحمس لطلبهم، وحضر أعضاء مجلس الإدارة وواجههم الثائرون بطلبهم. وبرز موسى الكردي وحاول الاستفادة من الموقف والضغط على عدد من أعضاء مجلس الإدارة لإصدار القرار المطلوب، لكن

معظم أعضاء مجلس الإدارة رفضوا الطلب وأفهموا الثائرين بأن قراراً خطيراً كهذا لايمكن اتخاذه بناءً على ((شائعة)) تتناقلها الألسن..

غير أن ((الثائرين)) أصروا على طلبهم، ومنعوا أعضاء مجلس الادارة من الخروج من مجلسهم حتى يتخذوا القرار المطلوب. وأصر أعضاء مجلس الإدارة على موقفهم رغم الحصار المضروب عليهم وبدت بوادر مواجهة حامية بين الثائرين ومجلس الإدارة..

ووصل الخبر إلى عثمان باشا، وعلم أن الحشد المتجمع أكبر من أن يقاومه بعدد قليل من الحراس أو الجنود. فآثر السلامة، وهرب من مكتبه إلى بيته وأغلق عليه الأبواب. وعلم بذلك الثائرون المحاصرون لمجلس الإدارة عند الباب الصغير في المناخة. فتنادوا بالتوجه إلى منزل عثمان باشا -بعد أن يئسوا من حمل مجلس الإدارة على اتخاذ قرار طلب العزل- لمحاصرته وإجباره على الاستقالة والرحيل.. وسرت الحماسة بين عدد من الحاضرين، بينما ارتفعت بعض الأصوات المعارضة، تحذر من التعرض للمحافظ. غير أن المتحمسين لم يأبهوا للتحذير وتوجهوا إلى دار عثمان باشا في غرب المسجد النبوي الشريف حاملين السيوف والبنادق فاعترضهم المعارضون، وهددوا المتحمسين بالقتال.. وأرسلوا نذيرهم إلى عثمان باشا في بيته وإلى أهل الحي الذي يسكنه، وكان معظمهم من أنصاره والموافقين على سياسته..

فهبوا بأسلحتهم وأحاطوا بداره واستعدوا لقتال المهاجمين ووصل المتحمسون لعزل عثمان باشا فوجدوا أبناء مدينتهم يحمونه، فحاولوا إقناعهم بصحة تصرفاتهم وضرورة عزل عثمان باشا، ورفض المدافعون ذلك. وارتفعت حدة المناقشة وتحولت إلى جدل عالي النبرة تتخللها عبارات التهديد والوعيد.. وبدت نذر مصادمة كبيرة بين الأهالي أنفسهم..

انتشرت أخبار الفتنة في المدينة، وبلغت مسامع قادة الحامية في القلعة. وكان معظمهم غير راض عن عثمان باشا لتدخله في كل شيء ومحاولته



عثمان فريد باشا محافظ المدينة المنورة تعامل مع الثائرين عليه بذكاء وحكمة



صورة للمدينة المنورة أيام عثمان فريد باشا

تقليص نفوذهم.. فلم يحركوا ساكناً ولم يهبوا لنجدته رغم أنه أرسل في طلب النجدة، وكانوا موقنين بأن الثورة ستنجح في عزله قياساً على ماحل بالمحافظين السابقين، لذا ونظراً لعلاقتهم الوطيدة بأهل المدينة ومصاهرة عدد منهم لهم لزموا مواقعهم. باستثناء عدد قليل منهم انضم إلى المدافعين عنه.

برقيات وتقارير:

بينما انشغل الثائرون بملاقاة الحجاج وخدمتهم توجه عدد من الأعيان إلى مكتب البرق وطيروا برقيات إلى السلطان عبد الحميد في استانبول يطالبون بعزل عثمان باشا ويهددون من طرف خفي باللجوء إلى أناس آخرين إذا لم تستجب السلطة لطلبهم، ووقعوا البرقية باسم ٤٥ رجلاً من أعيان المدينة ينوب عنهم حسين جمل الليل ابن مفتي المدينة الأسبق والمعروف اسمه في استانبول. وسارع المحافظ عثمان باشا إلى كتابة تقرير ضاف عن الوضع العام في المدينة المنورة، بين فيه مارآه من اضطراب وتوتر بين العائلات، ومن تجرؤ بعض الأعيان على الدولة وإسهامهم في التوتر ثم الأحداث الأخيرة والشغب الذي حدث، وتباطؤ الحامية العسكرية وتواطؤ عدد من ضباطها مع المشاغبين.. وبين خطورة هذه الأحداث على المدينة المقدسة وعلى سمعة الدولة وهيبتها وطلب إرسال قوة عسكرية جديدة تعينه على ضبط الأمور والقبض على رؤوس المشاغبين ومحاكمتهم لاقتلاع جذور الفتنة ومعاقبة الجانين وردع من تسول له نفسه التجرؤ على الدولة وكان تقريره قوياً ومؤثراً..

قافلة الحجاج تحل العقدة:

اشتد التوتر أمام منزل المحافظ وكادت المصادمة أن تقع لولا ذلك الصوت الذي غير مجرى الأحداث كلها وأوقفت الثورة.. وكان صوت رجل من أهل المدينة يعلن عن وصول قافلة حجاج كبيرة ونزولها في طرف المناخة.

وهذا الخبر يعني الكثير عند أهل المدينة في ذلك الوقت.. فهو يعني ضرورة إسراعهم إلى القافلة، واستقبالها، وإسكان الحجاج القادمين بها، وتأمين احتياجاتهم من طعام وشراب وحفظ الأمتعة، وتعني أيضاً مبادلات تجارية مهمة. يشتري فيها أهل المدينة بعض ماجاءت به القافلة من أقمشة وأمتعة وكتب وغير ذلك من عروض التجارة. وتعني أيضاً بيعهم التمور ومنتجات المدينة الأخرى..

وقد اعتاد أهل المدينة أن يترقبوا وصول القوافل وأن يخرجوا لاستقبالها قبل أن تصل السور. ويرحبوا بالقادمين ويصحبوهم إلى المناخة ثم إلى بيوتهم و المنازل التي سيبيتون فيها.. وهي عادة عريقة يتمسك بها أهل المدينة بقوة، وقد شغلتهم الفتنة عن استقبال القافلة قبل دخولها المدينة، ولكنها لن تشغلهم عن استقبالها بعد دخولها. لذلك توقفوا عن الجدل والمناقشة.. وأسرعوا إلى القافلة ليؤدوا الواجب الأساسي والأهم.. وبقيت حامية بسيطة حول بيت عثمان باشا تضم جيرانه الأقربين وعدداً قليلا من الضباط والعساكر..

العاصمة العثمانية تتحرك:

يبدو أن المسؤولين في استانبول قد ملوا من طلبات أهل المدينة المتكررة، ورأوا أن ثوراتهم المتوالية على المحافظين مؤشر على وجود روح التمرد فيهم، وأن الأمر لايمكن أن يكون خطأ المحافظين في الحالات كلها.. لذلك رفضوا الاستجابة لطلبهم بعزل المحافظ، وأخذوا بوجهة نظر عثمان باشا، وأبرق الصدر الأعظم إلى الأخيار الخمسة والأربعين شخصاً الموقعين على برقية المطالب بأن العزل والتولية بيد أمير المؤمنين وأنه تعينت هيئة

للنظر في القضية(١)، وفي الوقت نفسه صدرت برقيات إلى القيادة العسكرية في اليمن والشام بإرسال قوات مسلحة على وجه السرعة إلى المدينة ووضعها تحت تصرف المحافظ..

تسلم أهل المدينة برقية الصدر الأعظم بدهشة وفتور، وتضاربت الآراء فيها.. فبعضهم أحسن الظن وفسرها بأن لجنة ستأتي للتحقيق مع المحافظ ونقله إلى استانبول.. وكان معظم هؤلاء من البسطاء والمتحمسين المنتشين بالانتصارات السابقة على المحافظين السابقين.. بينما فسرها معظم الأعيان بأن الدولة لم تستجب لطلبهم وستنحاز إلى صف المحافظ، وربما يكون بعدها عواقب وخيمة. لذلك بدأ بعضهم يحسب حسابها ويفكر بالخروج من المدينة. أما المحافظ فلزم بيته لايخرج منه، يحرسه حرسه الخاص وعدد من الضباط والجنود الذين هبوا لنجدته، وكانوا يترددون عليه وينقلون البرقيات والرسائل الواردة وأخبار البلد ويخرجون بأوامره وبتوجيهاته إلى كبار موظفيه، وأصبح يدير عمله من منزله.

التحقيق في الحادثة:

بعد انقضاء خمسة عشر يوماً على أحداث الثورة وصلت إلى المدينة قوة عسكرية ونزلت في ثكنة العنبرية وتوجه قائدها مع مجموعة من جنده إلى منزل المحافظ ووضع نفسه تحت تصرفه. فخرج المحافظ من منزله لأول مرة منذ أحداث الشغب محروساً بصفين من الجنود، وركب عربته واتجه إلى دار المحافظة قرب الثكنة وانتشرت دوريات القوة الجديدة في الشوارع الرئيسة وحول الحرم.. ومالبثت أن وصلت إلى ينبع قوة أخرى على متن أربعة سفن من اليمن قوامها ((أورطتان)) وتوجهت إلى المدينة وفي الخامس والعشرين من شهر محرم ١٣٢٢هـ. وصلت لجنة التحقيق المنتظرة برئاسة مدير القلم الكتابي في الباب العالي ((باقي بك)) وعضوية اللواء اسماعيل باشا واللواء

---

١) انظر فصول من تاريخ المدينة ص ٤٣.

صدقي باشا وأبي السعود أفندي أسعد وعمر بك للتحقيق مع العسكريين والمدنيين المتهمين بالشغب. وباشرت اللجنة تحقيقها على الفور فاستمعت إلى المحافظ وكبار موظفيه وشهوده، وسجلت أسماء (١٢١) شخصاً من المدنيين والعسكريين للتحقيق معهم.. وقامت القوة الجديدة بالمهمة فشكلت عدة دوريات في كل دورية ضابط ومجموعة من الجنود واتجهت إلى بيوت المطلوبين لإحضارهم.. وبدأ تجميعهم في ثكنة العنبرية للتحقيق معهم. وقد أحضرت الدوريات معظم المطلوبين.. باستثناء ثلاثة أشخاص هم حمزة غوث، وعباس سطيح، وإبراهيم زاهد سافروا هاربين حال سماعهم بالأمر قبل القبض على من قبض عليهم وقبل المحاكمة(١).

وفي الوقت نفسه استدعى عدد من ضباط القلعة وثكنة العنبرية وبدأ التحقيق معهم بتهمة التواطؤ مع أهل المدينة وعدم تنفيذ الأوامر، وعدم حماية المحافظ وإخماد الفتنة. وامتد التحقيق إلى جميع الضباط الذين لم يهبوا لنجدة عثمان باشا..

وانتهت لجنة التحقيق إلى حصر التهمة بـ ٤٢ مدنياً و٤٠ عسكرياً من الضباط وبرأت ساحة ٧٦ مدنياً موقوفاً وبقية العسكريين الذين استدعوا للتحقيق.. ورأت اللجنة التحفظ على المتهمين المدنيين والعسكريين وإطلاق سراح الآخرين، فسجن المتهمون الـ ٨٢ وأطلق سراح الباقين.. وسافرت اللجنة عائدة إلى استانبول تحمل نتائج تحقيقها وتوصياتها..

عقوبات قاسية:

بعد ٧٢ يوماً من سفر لجنة التحقيق وصل الأمر من الباب العالي بنقل المتهمين إلى سجن الطائف تحت حراسة مشددة وهذا يعني أن الجهات العليا أخذت بنتائج التحقيق ووافقت على الأحكام التي اقترحها فخرجت من المدينة المنورة قافلة طويلة من الجمال وفي (شقادفها) إثنان وثمانون من أعيانها

---

١) فصول ص ٤٣.

وضباطها مكبلين بالأغلال، وتحت كل (شقدف) أربعة جنود مسلحين وسلكت طريق ينبع إلى مكة فالطائف.. وعندما وصلت القافلة قرية المسيجيد على بعد ٨٠ كم تعرضت لها قبيلة الأحامدة وردتها إلى المدينة فرجع بها قائدها قليلاً ثم انعطف وسلك طريقاً أخر إلى ينبع حيث نقل المساجين إلى سفن أبحرت بهم إلى جدة ومنها سارت إلى مكة فالطائف..

ويروي السيد حسين جمل الليل أحد أولئك المسجونين أن أهل جدة حاولوا مساعدتهم والتمسوا من السلطان فك قيودهم.. فصدر الأمر بفك القيود فقط مع تشديد الحراسة. وفي مكة توسط الشريف عون لإطلاق سراحهم فلم تقبل وساطته. وقد استقبل أهل مكة والطائف المسجونين أحسن استقبال. وذبحوا لهم الخراف وأطعموهم مع حراسهم.. ومن الأعيان الذين سجنوا كما ذكرهم حسين جمل الليل أنور عشقي، عبد القادر بري، عبد الرحمن كشميري، عثمان عفان، عبد الرؤوف كردي، عبد الله حبشي، زين بري، محمد زاهد بن عمر زاهد، محمد دشيشه، أمين درندري، عبد القادرأدهم، درويش كردي، حسين برادة، عثمان داغستاني، يحيى دفتردار، محمد حمودة، وابنه، طاهر سنبل، أحمد أبو الجود، عيد بنا، قاسم طيار، محمد عطاس، منصور زللي، عثمان أبو الطاهر، عبد الرحمن إلياس، حسن جمل الليل، وحسين جمل الليل (راوي الخبر) واثنان من الأغوات(١).

وقد جرى التحقيق مع العسكريين في مكة، حيث استدعي عدد من كبار ضباط المدينة إلى مكة المكرمة ليحاكموا أمام لجنة عسكرية عليا، وكان ممن حوكم القائمقام نسيم بك، والبكباشي محمد شكري بك (قومندان) مدفعية

---

١) انظر فصول من تاريخ المدينة ص ٤٣.

المدينة (١) وقد شتتت القيادة السابقة فنقل الضباط إلى مواقع خارج المدينة رغم عدم إدانتهم بشيء، وحلت قيادة القوة الجديدة محلها.

آثار القضية:

كان لهذه الحادثة آثار كثيرة ومتنوعة. فقد أحس أهل المدينة أنهم لم يعودوا يملكون تلك الميزة التي كانوا يتمتعون بها سابقاً.. فالدولة لم تعد تصغي لطلباتهم كما كانت من قبل. وأحسوا بأن الحكم على المعتقلين بالسجن في الطائف كان قاسياً وأن المعتقلين مظلومون، لم يفعلوا مايتوجب كل هذا العقاب.. وامتزج شعور الحزن بالغضب. غير أنه غضب هادئ ليس وراءه ثورة أو تمرد، لذلك وجد أهل المدينة أن الطريق الوحيد لإخراج المعتقلين هو الشفاعة لدى الباب العالي. فاتجهوا إلى الشفعاء والوسطاء وتوالت الوساطات لإطلاق سراحهم دون جدوى إلى أن مر ١٨ شهراً على سجنهم في الطائف. وشعرت الدولة أن الأمن مستتب تماماً، وأن الدرس القاسي باق أثره في النفوس.. فاستجابت للوساطات وأمرت بإطلاق سراح المعتقلين. فعادوا إلى مدينتهم وإلى أهليهم وفي النفوس فرحة اللقاء، تمازجها مرارة، ونقمة تنتظر الفرصة السانحة لتظهر آثارها السلبية..

واستمر عثمان فريد باشا محافظاً للمدينة حتى عام ١٣٢٦هـ ونجحت سياسته الحازمة في صرف النشطين وأصحاب النفوذ من التفكير في التمرد أو الثورة أو حتى الشكاية على المحافظ، وساعد على ذلك ظهور شخصية حازمة أخرى في منصب إداري له أهميته الكبيرة في حياة المدينة. وهو محمد سعيد الشيصلي، الذي عين في وظيفة المحتسب (وقد تحول هذا المسمى إلى مسمى رئيس بلدية فيما بعد) فقد كان الشيصلي شديداً في عمله، رادعاً لمن

---

١) انظر مرآة الحرمين ٢/١١٣.

أراد العبث.. وكان أهل المدينة يخشونه(١) وكان يقوم بالأعمال التي يقوم بها رؤساء البلديات اليوم، يضاف إلى ذلك قيامه بأعمال تماثل أعمال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان له بحكم وظيفته نفوذ واسع، فهو يستطيع أن يحقق ويقرر وينفذ، ويعين العقاب والجزاءات في الجنايات والجرائم، وكل مايخالف الآداب والأخلاق ويأمر بالضرب والسجن(٢).

بداية مشروع الخط الحديدي في المدينة:

خلال فترة الهدوء التي أعقبت حركة التمرد الفاشلة على عثمان فريد، والعقوبات القاسية التي عوقب بها المدنيون والعسكريون، بدأ تنفيذ مشروع السكة الحديدية في المدينة المنورة.

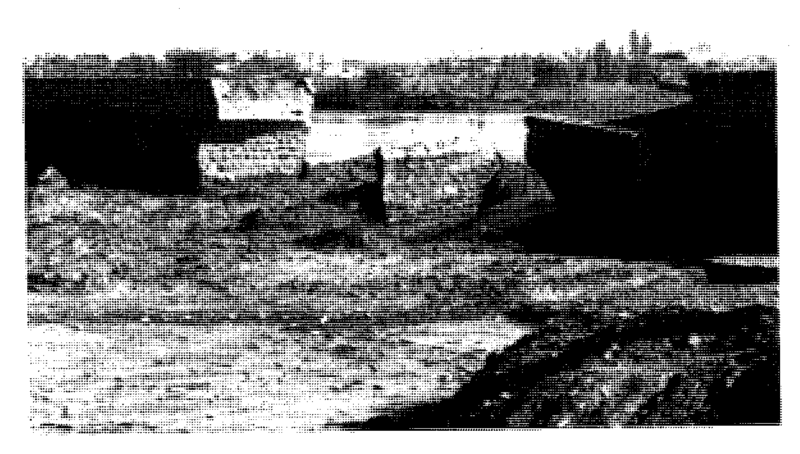
ففي منتصف عام ١٣٢٥هـ وصلت إلى المدينة المنورة أعداد من المهندسين والفنيين الأتراك والعرب وشرع هؤلاء على الفور في مسح المنطقة واختيار موقع المحطة الرئيسة للسكة الحديدية، والمسار الذي ستمد فيه القضبان الحديدية.. وتبعتها مجموعات متوالية من الجنود العثمانيين، الذين كلفوا بالعمل في المشروع.. ونزل بعضهم في الثكنات الموجودة غربي وشمالي المدينة وأقيمت للبقية معسكرات مؤقتة قرب الطريق المتجه إلى تبوك.. وبدأت القوافل ترد تباعاً تحمل معدات الحفر والتسوية والتشييد..

---

١) انظر المدينة عبر التاريخ ص ١٣٢.

٢) فصول من تاريخ المدينة ص ٤٦.

مسجد محطة السكة الحديدية بالمدينة المنورة



بقايا جسر على وادي العقيق

اختار المهندسون موقعاً غربي المدينة تماماً في مواجهة باب السلام. وخارج السور لإقامة المحطة الرئيسة وبدؤوا يرسمون على الأرض مسار الخط منها باتجاه العلا.. ووضعت الخرائط والرسومات، وعينت مواقع الجسور على مجرى العقيق ثم مجاري السيول الصغيرة ومالبثت مجموعات الجنود أن انتشرت على الطريق المرسومة للخط من المحطة الرئيسة -قرب باب العنبرية والتكية المصرية- وعمل الجنود والفنيون والمهندسون بحماسة بالغة ((بسبب تلك العواطف الدينية الجياشة التي تفيض بها نفوسهم))(١).

وأقيم احتفال كبير لوضع حجر الأساس للمحطة في المدينة المنورة حضره عثمان فريد باشا شيخ الحرم ومحافظ المدينة، وكبار الموظفين وعدد غفير من أعيان المدينة ورجالها.. وألقيت الخطب والقصائد ووضع الحجر الأساس لمسجد ((الحميدية)) قرب المحطة.. وقد صمم على الطراز العثماني الدقيق ليكون شاهداً على الأهداف الإسلامية البعيدة لهذا المشروع. ومالبثت أن وصلت صناديق ضخمة تحمل آلة توليد الكهرباء والأسلاك والمصابيح اللازمة. ولم تكن الكهرباء قد دخلت المدينة بعد. فاستبشر الناس، وبدأ الفنيون يعدون المكان -شمالي المسجد النبوي- لنصب محطة توليد الكهرباء لإنارة المسجد النبوي. ومدت الأسلاك ووضعت المصابيح. وجهز كل شيء لحفل الافتتاح الكبير الذي سيشهد وصول القطار إلى المدينة المنورة أيضاً.. وفي الوقت نفسه كان العمل على أشده في منطقة العلا باتجاه المدينة. وكان العاملون يشتعلون حماسة كلما اقتربوا من المدينة المنورة، وقد (حشد

---

١) السابق نفسه ص ١١٦.

العثمانيون في المنطقة ٥٠٠٠ جندي من العاملين بالخط(١) ولم يعكر صفو هذا النشاط سوى قيام بعض قبائل البدو بالقرب من المدينة المنورة بالاشتباك مع الجنود العاملين بالخط، وتحطيم بعض أجزاء منه، غير أن الهيئات المشرفة على إدارة العمل بالخط قامت بشراء سكوتهم، فأغدقت عليهم الأموال(٢).

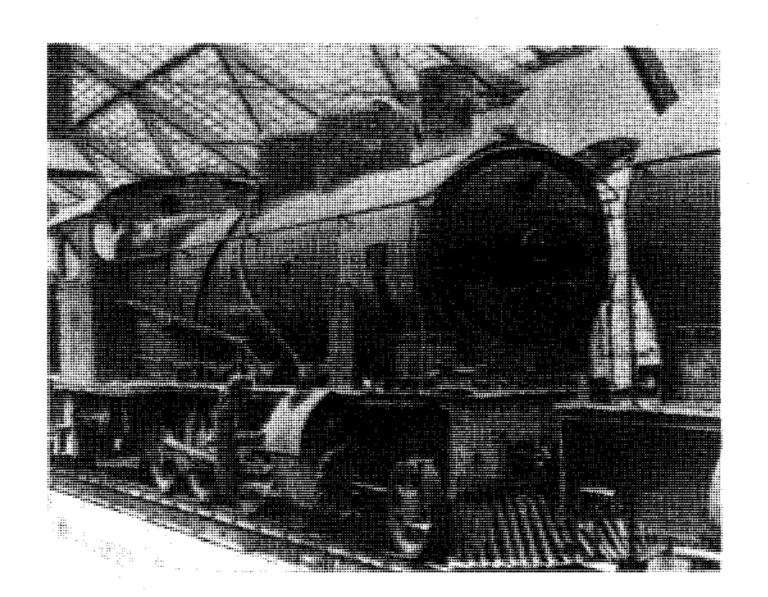
القطار يصل إلى المدينة المنورة:

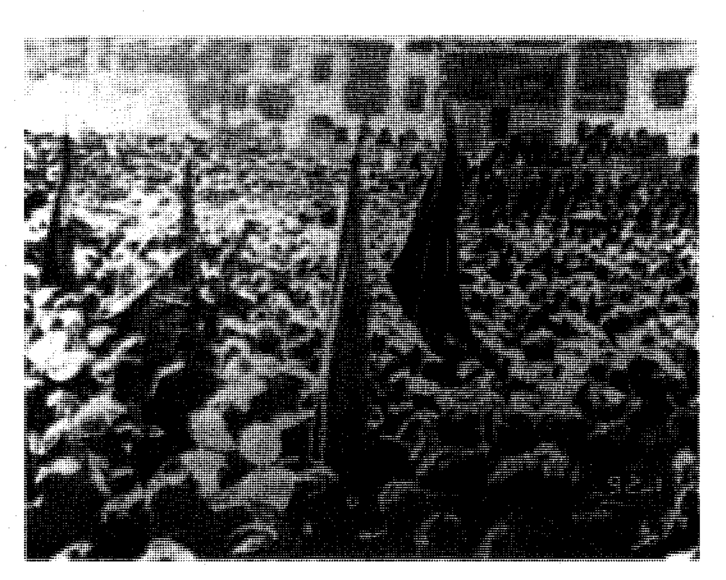
في أوائل شعبان عام ١٣٢٦هـ اتصل الخط من جهتي العمل. وكانت فرحة العاملين غير عادية، وسرى الخبر في المدينة المنورة ينشر معه مشاعر الغبطة والتوقعات الكثيرة. وخرج الكثيرون من أهلها يستقبلون أول قطار تدوي صفاراته في أطراف المدينة في الثاني والعشرين من شهر شعبان عام ١٣٢٦هـ. والموافق للثامن والعشرين من أغسطس آب ١٩٠٨م وكان في المقطورة الأولى عدد من كبار المسؤولين بينهم كاظم باشا رئيس المشروع وكبار معاونيه ومختار بك رئيس المهندسين ومدراء أقسام المشروع. وعدد كبير من شخصيات الدولة العثمانية.. كان عثمان فريد باشا قد أعد مع عدد من أعيان المدينة وكبار المسؤولين خطة لإقامة احتفال كبير بهذه المناسبة.. وقد حدد لهذا الاحتفال يوم الخامس والعشرين من شعبان ١٣٢٦هـ والموافق للأول من سبتمبر أيلول ١٩٠٨م، وهو يوم ذكرى تسلم السلطان عبد الحميد للخلافة.. فنصبت الزينات وأعد مكان الاحتفال عند ميدان المحطة. ودعي لحضور الاحتفال عدد كبير من الشخصيات الإسلامية والإعلاميين من خارج المدينة، ويذكر بعض شهود عيان أنه كان من بين المدعوين علي كامل صاحب جريدة اللواء وشقيق مصطفى كامل الزعيم الوطني المصري ولطفي السيد صاحب جريدة الأمة. لسان حال حزب الأمة. والشيخ علي يوسف صاحب

---

١) السابق نفسه.

٢) السابق نفسه.





الاحتفالات بوصول القطار إلى المدينة



جريدة المؤيد(١) كما دعي لهذا الاحتفال ممثلو الصحف الأجنبية وكثير من الأجانب مما لم يسبق له نظير في الاحتفالات السابقة، هذا فضلاً عن الجموع الغفيرة من الأهالي التي حضرت هذا الاحتفال ابتهاجاً بهذا العمل الإسلامي الجليل، وقد جرى في هذا اليوم احتفال عظيم لم تشهده المدينة المنورة من قبل (٢) وافتتحت محطة الكهرباء في الوقت نفسه، وأنير الحرم والساحة المحيطة به طوال الليل قبل يوم الاحتفال.. وفي الصباح توجهت الوفود والجموع إلى ميدان المحطة. وبدأ الحفل بالقرآن الكريم ثم ألقيت الكلمات والقصائد وعزفت فرقة موسيقى الجيش عدداً من القطع الحماسية وتوقدت مشاعر الفرحة في الناس ((وكان سرور أهل المدينة عظيماً جداً. حتى إنهم من شدة فرحهم حملوا على أكتافهم المشير كاظم باشا الذي أنعم عليه السلطان برتبة المشيرية لكفاءته في إدارة المشروع وإنجاز العمل حملوه مع رئيس المهندسين مختار بك(٣).

طلب أهالي المدينة إعادة هذه الأفراح. فأعيد الاحتفال بحضور ثلاثين ألف شخص حيث أقيمت الزينات وألقيت القصائد والكلمات والأهازيج الشعبية، وعاش الأهالي يوماً مليئاً بالسرور(٤) ولقد كان هذا الاحتفال نقطة تحول كبيرة في حياة المدينة من الناحية الاقتصادية والعمرانية والسكانية. فهو البداية لنمو واسع وسريع في تلك الجوانب الثلاثة.

المدينة تعود مركزاً عسكرياً:

كانت المدينة مركزاً لحركة الفرق العثمانية المتجهة إلى نجد.. فقد كانت حروب عبد العزيز بن عبد الرحمن مع آل الرشيد الموالين للدولة العثمانية تقلق

---

١) ذكريات العهود الثلاثة ص ٣٨.

٢) السابق نفسه ص ١٦٢.

٣) السابق ص ١٦٣.

٤) محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية ص ٢٤٥-٢٤٦.

الباب العالي، ورغم وجود قوات لها في القصيم بقيادة صدقي باشا فإنها كانت تحتفظ بقوات إضافية في المدينة تتحرك وقت الحاجة، وعندما انتصر الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن على سميه عبد العزيز بن الرشيد في القصيم ((لم ترض حكومة آل عثمان عن صمت قائد جيشها صدقي باشا وجموده أمام ابن سعود.. فأوعزت إلى سامي باشا الفاروقي المقيم في المدينة المنورة بالسفر إلى القصيم ليحل محله(١) وخرج الفاروقي من المدينة مع قواته واستلم القيادة من صدقي باشا في ربيع الثاني عام ١٣٢٤هـ حاول سامي باشا التحرك في القصيم لمساندة خصوم عبد العزيز في حائل فأسرع عبد العزيز وجهز حملة إلى البكيرية وحاصر سامي باشا خيره بين أمرين: إما أن يرحل بجيشه خلال خمسة أيام وإما أن يتولى هو -عبد العزيز- ترحيل الجيش، وإذا رفض أحد الأمرين فسوف يهاجمه. ولم يكن سامي باشا قادراً على مواجهة عبد العزيز ورجاله فرضي مرغماً بالانسحاب وعاد إلى المدينة مع قواته(٢) وقد أرسل السلطان عبد الحميد بعد شهرين برقية يشكر فيها الأمير عبد العزيز على معاملته عساكر الدولة تلك المعاملة الشريفة(٣).

---

١) الزركلي: شبه الجزيرة في عهد عبد العزيز ص ١٧٣.

٢) السابق ص ١٧٤.

٣) السابق ص ١٧٥.

جامعة في المدينة المنورة:

تطلع دعاة الاصلاح الصادقون في الدولة العثمانية إلى إنشاء جامعة إسلامية تستقبل الطلاب من أنحاء العالم الإسلامي وتزودهم بثقافة إسلامية واسعة موحدة.. وتعدهم ليكونوا دعاة وبناة في مجتمعاتهم، وكان على رأس المتحمسين لهذه القضية الشيخ عبد العزيز الجاويش والشيخ عبد القادر المغربي والأديب شكيب أرسلان. وقد استطاع هؤلاء اقناع المسؤولين في استانبول بفكرتهم فصدرت الموافقة على إنشاء هذه الجامعة وتسميتها ((جامعة صلاح الدين الأيوبي)) وأوفدت الدولة العثمانية الأعلام الثلاثة لتنفيذ المشروع في المدينة، وزودتهم بالخرائط والأموال والتجهيزات اللازمة، ومنها مطبعة باللغة العربية.

وفي عام ١٣٣٠هـ وصل الرجال الثلاثة مع زمرة من المهندسين الأتراك إلى المدينة المنورة لاختيار البقعة المناسبة لإنشاء الجامعة. فاختاروا بقعة في الجهة الغربية من العنبرية، مقابل محطة السكة الحديدية وشرعوا في التنفيذ فوضعوا حجر الأساس ((ويقال أنهم وضعوا مع حجر الأساس لهذه الجامعة صورة من الأمر السلطاني ببناء الجامعة، وصورة من الخرائط، ومجموعة من النقود العثمانية))(١) وبدأ البناء وارتفع إلى نهاية الدور الأول.. وكان من المقرر أن يلتحق بهذه الجامعة الطلاب المتخرجون من دار المعلمين في المدينة، والطلاب الذين أكملوا الدراسة العالية في بلادهم في أنحاء العالم الإسلامي..

ولم ينتظر مؤسسو الجامعة انتهاء البناء، بل اعتبروها قائمة منذ صدور مرسوم تأسيسها، وعين عبد العزيز جاويش مديراً لها.. وأعلن عن بدء القبول، فتقدم عدد كثير من الطلاب -من المغرب والجزائر والعراق ومصر وكثير من البلاد العربية والإسلامية- تقدموا بطلب الالتحاق بجامعة صلاح

---

١) صور وذكريات عن المدينة المنورة عثمان حافظ ص ١٦٨.

الدين الأيوبي بالمدينة، وقبلت طلباتهم، وحولوا مؤقتاً لجامعة صلاح الدين بالقدس لينقلوا إلى جامعة المدينة متى تم إنشاء مبانيها(١) كما أوفد بعض الطلاب من المدينة إلى القدس للغرض نفسه(٢) وقد شرع في بناء الجامعة وفق المخططات والرسومات التي أحضرت من استانبول، وكان البناء بالحجر الأسود المنحوت وهو أقوى بناء عرف في ذلك الوقت، وتم إنشاء الطبق الأول من مباني الجامعة خلال سنتين.

في النصف الثاني من عام ١٣٣٢هـ أعلنت الحرب العالمية الأولى فتباطأ العمل في البناء.. ثم توقف بانتظار ماتنجلي عنه الأمور.. وكان هذا التوقف نهاية المشروع في ذلك العهد، ولم يقيض لهذه الجامعة أن تقوم إلا بعد سنوات طويلة وفي موقع آخر من المدينة. أما المبنى فقد استخدم جزء منه مستودعاً للمؤن والذخائر وركبت المطبعة في جزء آخر وكان لها دور كبير في السنوات التالية..

ثم تحول المبنى في أوائل العهد السعودي إلى مدرسة ثانوية، كانت أول مدرسة ثانوية في المدينة المنورة وسميت ثانوية طيبة، وبني طابق آخر.. وأما مشروع الجامعة فقد ظل مجمداً طوال مدة الحرب والعهد الهاشمي إلى أن قيض الله له من يحيه في العهد السعودي على نحو ما سيمر بنا بعد صفحات..

تغييرات كبيرة يحملها القطار:

أحدث وصول القطار إلى المدينة المنورة آثاراً كبيرة عليها في جوانب حياتها الاقتصادية والسكانية والعمرانية، والسياسية أيضاً ، وزاد من ذلك الأثر انتهاء الخط الحديدي عندها..

فقد حملت عربات القطار أكداساً ضخمة من السلع التجارية من بلاد

---

١) السابق نفسه ص ١٦٩.

٢) السابق نفسه ص ١٧١.

الشام ومن كل مايرد إلى بلاد الشام من آفاق العالم. وبالمقابل حملت من المدينة بعض خيراتها.. ومايصل إليها من نجد ومكة وجدة واليمن ومصر والهند. فأخذت الأسواق تكتظ بالتجار بائعين ومشترين، من الجنوب والشمال والشرق. وبنيت دكاكين جديدة وكان أهم مايجلبه القطار من المواد والأخشاب ومواد البناء والأدوات المنزلية والأقمشة والثياب المصنوعة والأثاث، ومن المواد الغذائية من الشام ((البرتقال والبطيخ اليافاوي والدقيق، القرفة وحنطة الجولان وأنواع اليامیش.. كأنما المدينة أصبحت سوقاً لخيرات الشام))(١) وأهم ماحمله القطار من المدينة المنورة الخضار والتمور والجلود وبعض المصنوعات المحلية، فنمت الصلات التجارية نمواً جلب من الرخاء مالا يسهل اليوم تصوره، وكثر التعامل وكثرت الأموال في أيدي الناس وتحسنت أحوالهم المعيشية(٢) ولاأدل على هذا الانتعاش من أرقام السلع التي وردت بالقطار إلى المدينة فقد نقل القطار بعد إنشائه بعام واحد قرابة ٩٢ ألف طن من المواد الغذائية وارتفع الرقم بعد عام أي في عام ١٣٢٩هـ/١٩١٠م إلى ١١٢ ألف طن أي بزيادة قدرها ٢٠ ألف طن عن السنة السابقة(٣).

وكثر مجيئ الزوار إلى المدينة المنورة نتيجة لسهولة السفر بالقطار وتبعهم المجاورون والراغبون في الاقامة الدائمة والاستيطان وأغرى الازدهار كثيراً من الطموحين بالهجرة إلى المدينة وإنشاء مشاريع تجارية وصناعية وخدمات جديدة، فكثرت المطاعم وأصبح -كما يقول شاهد عيان- (من هب ودب مطبقانياً) أي صانع فطائر تتميز بها المدينة المنورة(٤) وكثرت الفنادق والورش الصناعية الصغيرة التي تصنع الأدوات وتجهيزات السفر وبعض

---

١) العهود الثلاثة ص ٣٧.

٢) السكة الحديدية ص ٢٧٨.

٣) السابق نفسه ص ٢٧٦.

٤) زيدان ص ٣٨.

البسط والمفارش وأدوات الزراعة ومستلزمات أهل البادية..

كان الوافدون إلى المدينة المنورة من أصقاع شتى الشام ومصر والمغرب وأفريقيا الوسطى - التكارنة - وبخارى التي احتلتها روسيا، كما وفد إليها بعض التجار من القصيم وشقراء والرياض واستوطنوها، وأدت كثرة الوافدين المستوطنين إلى زيادة سريعة في العمران فارتفعت أسعار الأراضي أضعافاً كثيرة، ونشط البناء داخل السور وغطى معظم المساحات الفارغة، ثم امتد خارج السور فبنيت بيوت كبيرة أشبه بالحصون والقصور في أطراف المدينة الثلاثة في الشمال على طريق أحد ومنطقة العيون، وغرباً وراء جبل سلع، وفي السيح، وجنوباً على طريق قباء وقربان إلى أطراف وادي الرانوناء. فارتفع عدد السكان من ٢٠ ألفاً عند افتتاح الخط ١٣٢٦هـ إلى ثمانين ألفاً عند بداية الحرب العالمية الأولى ١٣٣٤هـ أي أن عدد سكان المدينة المنورة قد تضاعف أربع مرات في ثماني سنوات(١) وهذا يعني تضاعف عدد البيوت وازدياد مساحة الأسواق والمستودعات ودكاكين الخدمات كالحلاقين والنجارين والحدادين والخبازين(٢) كما انتعش قطاع النقل في المدينة أيضاً لكونها المحطة الأخيرة للحجاج القادمين بالقطار وكثر الطلب على الجمال لتنقل الحجاج والزوار والمسافرين والبضائع من المدينة إلى مكة وإلى نجد.. وقدم عدد من البدو من أصحاب الابل وسكنوا في حزام المدينة.. وتبع ذلك تطور آخر فقد أغرت محطة الكهرباء التي أقامها العثمانيون شمالي الحرم لإنارة المسجد النبوي وساحاته عدداً من الميسورين لاستيراد مولدات كهربائية صغيرة لإنارة منازلهم الكبيرة ولتشغيل الورش الصناعية الصغيرة الناشئة.. فأنارت الكهرباء عدداً من بيوت أهل المدينة ودكاكينها واتخذ بعضهم المولدات مصدراً جديداً للكسب، فاستورد مولدات متوسطة الحجم توفر

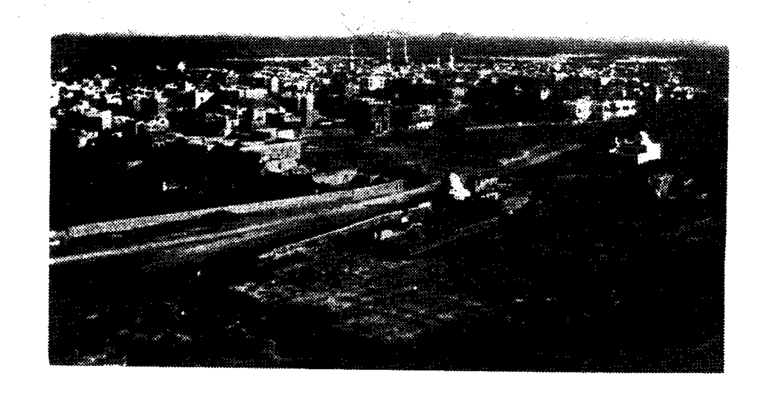
---

١) السكة الحديدية ص ٢٨١.

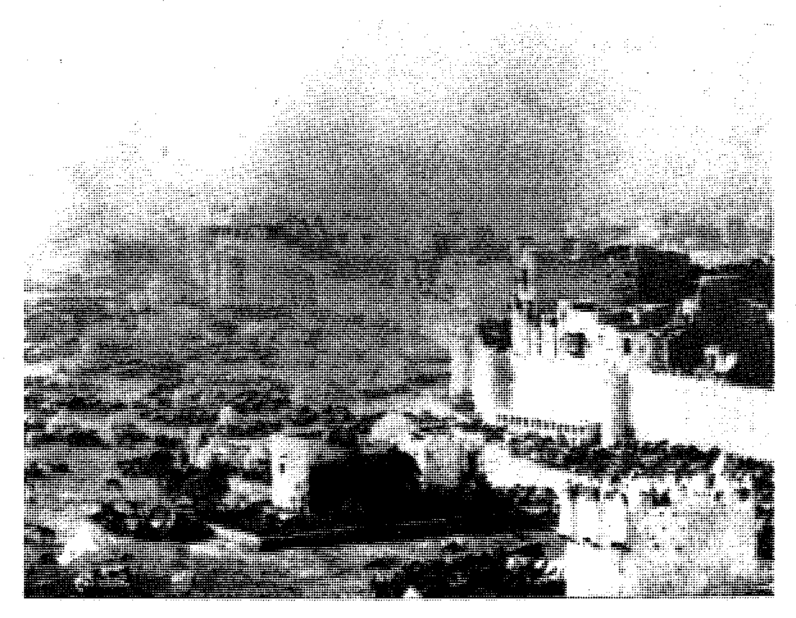
٢) تاريخ المملكة العربية السعودية ص ٤٠.



١ ـ مبنى أول محطة كهربائية لإنارة المسجد النبوي وساحاته.



٢ ـ تطور العمران في المدينة أوائل القرن الرابع عشر.



٣ ـ القوافل خارج سور المدينة، ويلاحظ ظهور منازل وأبنية أخرى خارج السور بعد أن كثر السكان في مطلع القرن الرابع عشر وإثر وصـول الخط الحديدي إلى المدينة.

الإنارة لعدد من البيوت والدكاكين، ومد الخطوط الكهربائية بأجر معلوم لمن يرغب الاستفادة منها من جيرانه في البيت أو السوق..

المدينة تستقل عن مكة:

كانت المدينة متصرفية عثمانية (سنجق) وكان يتبعها إدارياً أربعة أقضية هي ينبع البحر -الوجه- سوارقية، العقبة أي أن حدود منطقتها تمتد من ينبع البحر إلى خليج العقبة(١) وكانت تابعة لشريف مكة من الناحية الرسمية، ورغم ضعف نفوذ الشريف فيها فقد كان له نائب يقيم فيها، وكان نفوذه يتأرجح قوة وضعفاً حسب قوة الشريف وضعفه. فيما نجد أحد الشرفاء يفصل في فتنة الأغوات، (يقيم الأحكام وتصدق الدولة العثمانية على حكمه، نجد الشريف عون الرفيق لايملك شيئاً من النفوذ فيها. وعندما أسندت إمارة الحجاز للشريف حسين عام حاول هذا الشريف أن يدعم نفوذه في المنطقة، وبدأ يتصل مع القبائل وسكان المدن والقرى الحجازية.. ولما تسلم الاتحاديون الحكم في استانبول أرادوا أن يحجموا نفوذه فسعوا إلى فصل المدينة إدارياً عن مكة، وجعلها منطقة مستقلة تتبع استانبول مباشرة..

وقد شجعهم على ذلك التطور الكبير الذي ظهر في المدينة بعد وصول السكة الحديدية وانتعاش الحياة الاقتصادية والعمرانية فيها. وكذلك وجود محطة اللاسلكي وتركيب خط التلغراف المتصل باستانبول..

ويبدو أن الاتحاديين قد رغبوا في تجنب إثارة الشريف حسين عليهم خاصة وأنهم لم يكونوا مطمئنين إليه، فأرادوا أن يظهروا أن يفصل المدينة عن إمارته إنما هو برغبة أبناء المدينة نفسها، فوجهوا محافظ المدينة علي رضا باشا الركابي كي يشجع أهل المدينة على رفع العرائض بذلك إلى استانبول..

---

١) انظر مملكة الحجاز ص ١٠٥، وسالنامة دولت علية عثمانية مطبعة عامر ز دار سهادت ١٣١٢هـ ١٨٩٤م ص ٥٠٦.

كان علي رضا الركابي عربياً أصيلا، من أهل سورية وكان حسن التصرف فأقام علاقات طيبة مع عدد من أعيانها، وزار بعضهم في بيوتهم وبخاصة رؤساء كبار الأسر العريقة وطرح القضية عليهم. فاعتذر بعضهم بسبب صلاته بالشرفاء وتردد بعضهم الآخر، وتحمس الشباب وبعض التجار.. وكتبوا عريضة بإيحاء من علي رضا الركابي وقع عليها الشيخ أبو الحسن السمان أحد كبار الوجهاء من الأسر العريقة. ووقع عليها أعداد من أبناء الأسر الأخرى ومن التجار والمزارعين وقد نظمت العريضة والتوقيعات بحيث تمثل معظم أهل المدينة.. ورفعت إلى استانبول. ولم يطل الأمر، فصدر مرسوم بفصل محافظة المدينة عن مكة في جميع شؤونها، وأصبح المحافظ هو المتصرف الأول في أمورها.. (والواقع -كما يقول محمد حسن زيدان أحد شهود ذلك العصر- أن هذا الفصل قد يسر كثيراً من الأعمال)(١) فأصبحت الأمور الإدارية وأمور التعليم والمالية والأوقاف ترجع في القضايا الكبرى إلى استانبول مباشرة، وكثيراً ماتحل في الدوائر المحلية بالمدينة، وأنشئت تبعاً لذلك مديرية للمعارف للاشراف على المدارس والمعاهد الموجودة في المدينة كما أنشئت مديرية للصحة. وقد غضب الشريف حسين لهذا الفصل وعاتب بعض أهل المدينة لتوقيعهم على العريضة(٢) لكنه لم يكن يملك سوى التسليم للأمر الواقع..

ولعل هذا العمل هو أهم ماقام به علي رضا الركابي خلال توليته محافظة المدينة. فقد نقل بعدها إلى بغداد وعين محافظ جديد هو سعد باشا ولم

---

١) العهود الثلاثة ص ٤٠.

٢) حسن زيدان ص ٤٠.

يمكث طويلاً فنقل.. وتلاه بصري باشا ثم فخري باشا(١) ويذكر الزركلي أن علي رضا الركابي عين في المدينة عام ١٩١٢م وهو مقابل ١٣٣٠هـ.

أول صحيفة في المدينة المنورة:

مما يذكر في عهد الركابي تأسيس أول صحيفة تصدر في المدينة المنورة وهي صحيفة غير منتظمة في صدورها رآها محمد لبيب البتنوني في زيارته للمدينة في موسم حج عام ١٣٢٧هـ. وقال عنها ((في المدينة جريدة اسمها (المدينة المنورة) تصدر باللغة التركية والعربية على مطبعة البالوزة -الحجرية- كلما كان هناك داع لصدورها، ومديرها حضرة الفاضل الشيخ محمد مأمون، وكانت تصدر مدة وجود الجناب العالي -الخديوي عباس-، شارحة حركاته اليومية، وناشرة كل ماكان يقدم لذاته الحلية من المدائح نظماً ونثراً، ومن ضمن مارأيت منها قصيدة لحضرة مديرها تهنئة للجناب العالي بقدومه قال في مطلعها:

البدر في أفق العلياء قد طلعا وكوكب السعد في إسعاده سطعا(٢)

المحتسب يصبح رئيس البلدية:

عندما تسلم الاتحاديون السلطة في العاصمة العثمانية، وشرعوا وبحماسة شديدة في اجراء تغييرات ادارية كبيرة، وكانوا يقصدون تحديث الدولة ومواكبة التقدم الذي وصلت إليه الدول الأوربية. وكان من بين التغييرات الإدارية التي أجروها الغاء الوظائف الإدارية العريقة، فأصدروا مرسوماً بالغاء وظيفة المحتسب واحداث إدارة جديدة باسم ((البلدية)) وبنقل صلاحيات المحتسب إلى رئيس البلدية وحددوا مسؤولياته وطبيعة عمله..

وقد ارتبطت بالبلدية مسؤوليات تخطيط المدن وتنظيم الشوارع

---

١) البرادعي ص ١٣٣.

٢) البتوني. ط الرحلة الحجازية ص ٢٥٥ مكتبة المعارف -الطائف د. ن.

والاشراف على المباني وفتح الطرقات والأسواق ومراقبتها -وكانت هذه هي المهمة الكبرى للمحتسب- وألغيت من مسؤلياته مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد طبق هذا الأمر في المدينة في عهد المحافظ السوري علي رضا الركابي، وهدمت عشة المحتسب عند الباب الصغير وأقيم مكانها بناء واسع للبلدية، وعين محمد سعيد الشصلي رئيساً للبلدية عام ١٣٣٠هـ -وكان هو نفسه المحتسب- وكان الشصلي جريئاً وحازماً فاستمر في عمله على النحو الذي كان عليه في المسمى السابق ولم يلحظ أهل المدينة أي تغير في التعديل الجديد.

خاتمة العهد العثماني في المدينة: ملحمة ومأساة

الأوضاع العامة في المنطقة العربية:

كانت المنطقة العربية تتهيأ لأحداث ضخمة قادمة، وكان الحجاز بالذات نقطة انطلاق تلك الأحداث، فالدول الأوربية تعقد المؤتمرات لاقتسام تركة ((الرجل المريض)) وتعد الخطط للاجهاز على الدولة العثمانية وإنهاء آخر وجود للخلافة الإسلامية.. رغم أنها تحولت إلى خلافة اسمية تماماً بعد سقوط عبد الحميد الثاني.

والاتحاديون الذين استولوا على الحكم في العاصمة العثمانية وقعوا في سلسلة من الأخطاء، أولها الاندفاع في موجة القومية العلمانية، وفرض سياسة التتريك على الولايات العثمانية كافة، والعربية بخاصة، ففقد العرب الإحساس بالرابطة الحقيقية التي كانت تربطهم بالخلافة العثمانية، رابطة الأخوة الإسلامية، وامتدت إلى النعرة القومية -وهي ردة فعل طبيعية للنعرة القومية الطورانية- وأسس بعضهم الجمعيات الناهضة للحكم الطوراني، وتطلع بعضهم الآخر إلى الانفصال عن العثمانيين تماماً وتأسيس دولة عربية... بينما كان بعض المصلحين المتفائلين يأمل في إصلاح الحكومة العثمانية وإعادة الخلافة إلى مركزها الحقيقي.

وكانت آخر أخطاء الاتحاديين الطورانيين في الدولة العثمانية وأخطرها قرارهم دخول الحرب العالمية الأولى التي اشتعلت عام ١٩١٤م إلى جانب ألمانيا، والمشاركة الفعلية في القتال ضد الحلفاء: بريطانيا وفرنسا وأمريكا من بعده. وكان الأوربيون ينتظرون هذه الفرصة للانقضاض على الدولة العثمانية واقتسام ولاياتها العربية وإقامة الكيان الصهيوني في فلسطين. وكانت الضحية الكبرى لأخطاء الاتحاديين بلاد الشام والعراق وكانت نقطة البدء من الحجاز.

فالشريف حسين الذي عينته الدولة العثمانية أميراً على الحجاز بعامة

إلى جانب الوالي التركي.. كان أحد المتطلعين إلى إقامة كيان عربي مستقل عن الدولة العثمانية تحت سلطته المباشرة، وكان أول من أدرك هذه الحقيقة وعمل على الاستفادة منها انكلترا، الدولة الرئيسية في مواجهة الدول المحور في الحرب العالمية الأولى... فبدأ وزير خارجيتها مكماهون يراسل الشريف حسين ويعده بمساعدته على تحقيق أحلامه مقابل أن يعلن الشريف الحرب على الدولة العثمانية ويحرك قواته والقبائل التي تدين له بالولاء، والعرب الذين يستجيبون، له لقتال العثمانيين وإخراج قواتهم من البلاد العربية.

نشاط الشريف حسين وأبناؤه:

نشط الشريف حسين وأبناؤه الثلاثة، عبد الله، وفيصل، وعلي، في الإعداد للمعركة الفاصلة، وتوزعوا المهمات الكبيرة، لازم عبد الله أباه وتولى الاتصالات مع الانكليز وحلفائهم لوضع الخطط السياسية والعسكرية واستقدام المعدات والأموال والمستشارين العسكريين الذين سيقودون الحملة، وعمل فيصل مبعوثاً مزدوج المهمة فهو مندوب والده لدى العثمانيين يموه عليهم ويظهر لهم ولاء الحجاز واستعداده للمشاركة مع الجيش العثماني في الحرب ضد الحلفاء من جهة، ومن جهة أخرى يتصل بزعماء الحركات والجمعيات الناقمة على العثمانيين في بلاد الشام، ويجمع كلمتهم، ويعد معهم الخطط للثورة.

وكان مهتماً باستمالة قادة الفرقة العربية المرابطة في بلاد الشام -وهي فرقة عسكرية أنشأها العثمانيون من العرب لترابط في البلاد العربية- لتكون محوراً رئيسياً في مواجهة الجيش العثماني، كما اهتم بتحريك القبائل العربية في الشام لتنضم إلى الفرقة العربية. وقام علي بمهمة الاتصال بالقبائل الحجازية والمنتشرة بين الطائف والمدينة المنورة للمشاركة في الثورة أيضاً، كما تولى قيادة جبهة القتال في المدينة المنورة فيما بعد.

واجتهد الشريف حسين وأبناؤه في التكتم والأخذ بأسباب الحيطة كي

لاينكشف أمرهم للعثمانيين قبل أن يستكملوا إعداد ثورتهم... وقد لاحظ الوالي العثماني في مكة كثرة اجتماع الشريف مع رؤساء القبائل وتحركات ابنه عبد الله وارتاب فيها وأبلغ العاصمة بشكوكه، ولكنه لم يتوصل إلى معرفة خطة الشريف حسين الحقيقية.

وفي استانبول بدأ كبار المسؤولين الاتحاديين يرتابون في تصرفات الشريف حسين، وينظرون إلى طلباته المتكررة بشك كبير. وكان من بينها إصدار قرار بتثبيت ولايته وأبنائه من بعده على الحجاز، وإرسال معونات كبيرة، فعهدوا إلى جمال باشا، الحاكم العسكري في الشام وقائد الجيش الرابع بمتابعة تصرفاته، ومراقبة تحركات ابنه فيصل. وكان فيصل قد وصل الشام في شهر صفر ١٣٣٤هـ الموافق مارس ١٩١٥م، والتقى بزعماء جمعيتي العهد والفتاة، وبعدد من زعماء مشايخ القبائل ووجوه أهل الشام، واتفق معهم لمباشرة العمل والإعداد للثورة. ثم سافر إلى القدس، والتقى بجمال باشا، وأكد له أن والده يعمل على مساعدة الدولة في الحرب ضد الحلفاء، ووعده بتجهيز ١٥٠٠ متطوع من أهل الحجاز وقيادتهم بنفسه إلى جبهة القتال في قناة السويس، ثم عاد إلى الحجاز.

اجتمع الشريف حسين بأولاده في الطائف بعيداً عن عيون الوالي العثماني بمكة، وتدارس معهم ماتم إنجازه، وقرر المجتمعون إنهاء الاستعدادات بأقصى سرعة... وعاد فيصل إلى الشام، واصطحب معه قوة طليعية من المتطوعين (٥٠ رجلا) للتمويه على الدولة العثمانية، ونزل في دار جمال باشا واتخذها مقراً لتجهيز متطوعين آخرين -كما أعلن للعثمانيين- وأخذ يلتقي برؤساء القبائل ومشايخ الشام لاكمال خطة الثورة على الدولة العثمانية. بينما سافر علي بن الحسين إلى المدينة المنورة للاتصال بأهلها وبالقبائل المقيمة حولها، وإعدادهم للثورة في الوقت الذي يحدده والده.

الإعداد للثورة في المدينة:

نزل علي بن الحسين في منزل يملكه أحد أصدقاء الشرفاء ((سليم مصطفى)) -وكان صاحبه قد فرغ من بنائه لتوه- ويقع خارج السور من الجهة الشمالية على درب التجار بين سقيفة بني ساعدة والعطن ليسهل عليه التحرك، وليكون بعيداً عن رجال المحافظ بصري باشا(١) وكان معه عدد من الرجال باسم المتطوعين أيضاً... وشرع علي بالاتصال بالأشراف وأهل العوالي وآبار علي وقباء ورؤوس عدد من عائلات المدينة ومشايخ القبائل المحيطة بالمدينة. وكان أول من استجاب له الأشراف وفي مقدمتهم الشريف شحات بن علي، وأخوه ناصر، وبعض بني عمرو، وأهل وادي الريان وأهل قرية الفرع وعلى رأسهم أحمد بن جميعان وأخوه ناصر.

وبدأ الشريف علي بن الحسين -بتوجيهات من والده- يتدخل في بعض الشؤون الادارية ويعطل بعض أوامر بصري باشا محافظ المدينة، وكانت المدينة قد فصلت إدارياً عن مكة وألحقت إدارياً بالشام وأصبحت تابعة لواليها، ولم يعد للشريف حسين أية سلطة فيها. لذلك تضايق بصري باشا وأرسل برقيات إلى العاصمة يشكو من تصرفات الشريف علي، فأبرق أنور باشا أحد كبار الاتحاديين المتنفذين في السلطة من استانبول إلى الشريف حسين يحذره من عاقبة تصرفات ابنه، ويطلب منه إرسال المتطوعين المجتمعين في مكة والمدينة إلى الشام، ليكونوا تحت قيادة فيصل، الذي سيظل ضيفاً على الجيش الرابع حتى انتهاء الحرب، وأرسل برقية أخرى إلى جمال باشا لتشديد المراقبة على فيصل ومنعه من مغادرة الشام ومراقبة تحركاته.

وقد نفذ جمال باشا الأوامر، كما شدد المراقبة على الذين يشك في ولائهم من أهل الشام، وأمر بالقبض على بعضهم وزج بهم في السجن.

---

١) العهود الثلاثة ٩٢.

وتوالت تقارير بصري باشا تشكك في تصرفات الشريف علي وتحذر من عاقبة اتصالاته، فاستدعى جمال باشا فيصل بن الحسين وعاتبه على تصرفات أخيه، فاعتذر فيصل بلباقة وتعهد بالكتابة لوالده وأخيه بهذا الشأن.

ويبدو أن المسؤولين في استانبول خشوا من أن يفلت الأمر من أيديهم وأن يستخدم الشريف حسين المتطوعين ضدهم، فأوعزوا إلى جمال باشا بملاينة فيصل والتباحث معه بشأن المعتقلين السياسيين على أن يباشر والده إرسال المتطوعين. وأخبر فيصل والده بالتطورات الجديدة، فتظاهر الحسين بارتياحه لذلك، وأبرق شاكراً الحكومة على موقفها، وأبدى استعداده لإرسال المتطوعين.. وطلب أن يتوجه ابنه فيصل إلى المدينة ليقودهم بنفسه... كما أوعز إلى المتطوعين الموجودين في المدينة أن يبرقوا لجمال باشا راجين أن يقودهم فيصل بنفسه إلى فلسطين وجبهة السويس... وغايته من ذلك تخليص فيصل من قبضة جمال باشا.

استجاب الاتحاديون لطلب الحسين على الرغم من ارتيابهم المتزايد، والتقى جمال باشا بفيصل وأبلغه موافقته على السفر إلى المدينة لقيادة المتطوعين، ولحظ سرور فيصل لهذا القرار، فازدادت ريبته وأدرك أن الشرفاء غير صادقين في وعودهم ووردت تقارير جديدة من بصري باشا تحذر من خطر الشرفاء وتنصح بالقبض عليهم قبل أن يستفحل أمرهم، ولكن جمال باشا آثر التريث وتنفيذ أوامر العاصمة، وترك فيصلاً يسافر إلى المدينة، واختار واحداً من أكفاء ضباطه وأكثرهم جرأة وشجاعة هو فخري باشا وكلفه بالسفر إلى المدينة المنورة وتسلم القيادة فيها من بصري باشا والاشراف على جميع الأمور السياسية والعسكرية، ومراقبة الشرفاء، فسافر فخري باشا إلى المدينة ووصلها عقب وصول فيصل مباشرة.

نزل فيصل مع أخيه في بيت مصطفى سليم، وواصل الأخوان التظاهر بجمع المتطوعين وإقناع رؤساء العشائر والبيوت الكبيرة في المدينة بإرسال

أبنائهم معهما إلى السويس.. بينما كانا يجتهدان في اقناع من يلتقيان بهما بالثورة على الدولة العثمانية.

فخري باشا في المدينة:

وصل فخري باشا بالقطار إلى المدينة ووصلت معه أول سيارة تدخل المدينة المنورة وهي سيارته التي يتنقل بها وقد شحنها معه، وظلت السيارة الوحيدة في المدينة سنوات عدة(١) وسارع فيصل وأخوه علي للقاء فخري باشا والترحيب به، وأظهرا كل مودة له، فقد سبقت سمعة فخري باشا وصوله إليهما. وما لبث أنور باشا الزعيم الاتحادي الكبير أن وصل بالقطار إلى المدينة أيضاً لتفقد الأحوال فيها(٢) فسارع الشقيقان لملاقاته.. وتبودلت الدعوات والولائم ونجح الأخوان في تجميد شكوك فخري باشا وأنور باشا إلى حين.. بل وأشعراه بأنهما رهينتان عنده(٣).

وكان فخري باشا قائداً عسكرياً فذاً يجنح إلى المثالية فيه صلابة وعناد وثبات على المبدأ... لذلك عنى منذ وصوله بالقوات العسكرية والحرس والهيئات الإدارية الموجودة في المدينة عناية فائقة، وعمل على جعل المدينة مركزاً عسكرياً متكاملاً يحتوي على الخدمات الأساسية اللازمة.. من الطرق والمستودعات ووسائل الاتصال الداخلية والخارجية وغيرها.

فقد كانت المدينة ترتبط بالدولة العثمانية بخط برقي تمتد أسلاكه فوق الأعمدة الخشبية إلى معان فعمان فدمشق.. وتمر بالمدن التي تقع في هذه المنطقة، خيبر وتيماء وتبوك، ويتابع الخط البرقي سيره جنوباً إلى مكة، وقد أنشئ هذا الخط عام ١٣١٨هـ ، كما أنشئت في العام نفسه محطة اللاسلكي، وأنشيء خط برقي آخر مواز لخط السكة الحديد عام ١٣٢٦هـ ، وعندما

---

١) من حديث محمد حسين زيدان معي.

٢) مملكة الحجاز ص ٦٠.

٣) زيدان ص٩٢.



فخري باشا... العسكرية والمقاومة والعناد



٢ ـ الشريف علي بن الحسين.



٣ ـ الشريف عبدالله بن الحسين.



٤ ـ الشريف فيصل بن الحسين.

وصل فخري باشا اهتم بصيانة محطة اللاسلكي لتشغيلها مع خطوط البرق على أعلى مستوى. وبنى لها سورا واسعا ، ووصله بسور طويل يمتد جنوبا إلى باب القبارية قرب البقيع، وقد عملت المحطة بكفاءة عالية لسنين عدة وكانت الوسيلة الوحيدة لاتصال المدينة بالعالم عندما ضرب عليها الحصار مرتين..

وأسس فخري باشا أيضاً شبكة اتصال هاتفي داخل المدينة وأحضر مقسماً بسعة ٥٠ خط هاتفي ومد جنوده الأسلاك بين إدارات الجيش ومستودعاته ومراكز المراقبة الرئيسية والثكنات.. فصار مركز المدينة العسكري مركزاً متطوراً بالقياس إلى أي مركز آخر في الحجاز(١) غير أن فخري باشا قصر في جانب واحد شديد الأهمية بالنسبة للأحداث آنئذ، فلم ينشىء هيئة استخبارات تأتيه بحقيقة ما يجري في المدينة، ولم يخطر له أن يعين أحداً لمراقبة الشريفين، ورغم وجود عناصر عربية متعاطفة مع العثمانيين لم تستجب للشريفين فإنه لم يستعن بأحد من هذه العناصر، ولم يتأكد من صدق وعود الشريفين وحسن مجاملتهما.. حتى إن فيصلاً استقبل في بيته اثنين من كبار المعارضين والناقمين على الاتحاديين آنئذ هما محب الدين الخطيب وكامل قصاب، وكانا متنكرين في زي بدويين واستضافهما ثم رحلهما عن طريق العوالي إلى مكة ليكونا عوناً كبيراً للشريف حسين في إدارة أعماله دون أن يشعر فخري باشا بشيء... أما الأول محب الدين الخطيب فكان الصوت الإعلامي الكبير للشريف حسين بعد ثورته فأصدر له

---

١) انظر فصول من تاريخ المدينة ٣٤٥.

جريدة القبلة، وأما كامل قصاب فتولى إدارة مديرية المعارف(١) ولم ينتبه فخري باشا لوصولهما ولا لخروجهما.. لذلك كان فيصل وعلي يواصلان اتصالهما بطمأنينة ويطلبان من الدولة العثمانية مزيداً من المال لتجهيز المتطوعين، وقد أرسلت لهما الدولة مالاً عبر فخري باشا كما أرسلت لأبيهما ٦٠ ألف ليرة ذهبية للغرض نفسه.

قوة عسكرية في المدينة:

كانت الدولة العثمانية قد جهزت حملة تأديبية لإخضاع القبائل المتمردة في اليمن وتهدئة الأوضاع المضطربة فيها... فلما كثرت تقارير بصري باشا تحذر من الشرفاء وتبعتها تقارير عن تعرض بعض القبائل البدوية للحملة أثناء مرورها بأراضيها، أصدر جمال باشا أمره للحملة كي تتوقف عند المدينة المنورة. فتوقفت مع وصول فخري باشا محافظاً وقائداً عسكرياً للمنطقة كلها..

التعجيل بالثورة:

ثم توالت الأحداث في الشام واعتقل جمال باشا عدداً من زعمائها.. وكان فيصل قد اتصل بهم واتفق معهم على الثورة وتحريك الفرقة الرابعة، فخشي الشريف حسين أن ينكشف أمره وقرر أن يعجل بالثورة.

أرسل الشريف حسين إلى ابنيه في المدينة يبلغهما بقراره الجديد وطلب منهما أن يبدءا ثورتهما في المدينة في الرابع من شهر شعبان ١٣٣٤هـ الموافق للخامس من حزيران ١٩١٦م، وأبلغ الانكليز بذلك بواسطة ابنه عبد الله. وعندما وصل مبعوث الشريف حسين إلى فيصل وعلي التقى هذان بكبار مؤيديهم في المدينة وماحولها ووضعوا خطة بدء الثورة على النحو التالي:

خطة الثورة في المدينة:

ينسحب فيصل وعلي ورجالهما من المدينة دون أن يشعر بهما فخري

---

١) زيدان ص ١٠٤.

باشا ويذهبان إلى منطقة قريبة عند أنصارهما.. ويجمعان الرجال من القبائل ويهاجمان الجيش العثماني من خارج المدينة، بينما يهاجمها من الداخل مجموعات من الرجال بقيادة الشريف شحات ابن علي في العوالي وأحمد بن جميعان في آبار علي..

وانتشر الخبر بين رؤساء الأسر والقبائل وانتقل منهم إلى الكثيرين، وكاد أن يفشو بين الصغار والكبار(١) ولكنه لم يبلغ فخري باشا ورجاله ومما ساعد الشريفين وغطى على تصرفاتهما النفير العام واستنهاض الناس للتطوع في الجيش العثماني لقتال الحلفاء، ويروي محمد حسين زيدان وهو شاهد عيان ناشئ آنئذ أنه قبل بدء الثورة في المدينة بيومين أو ثلاثة نصب العلم عند باب المصري ووقف السيدان بافقيه ومحمد هاشم يناديان بصوت جهير: الجهاد يامسلمون.. إلى السويس.. الجهاد.. أخرجوا الانكليز من السويس. من مصر. وسمع أهل المدينة ذلك النداء فذهب الكثير إلى بيوتهم يستعدون للجهاد(٢).

بدء التنفيذ:

في المساء تسلل الشريفان متنكرين بزي بدويين ومعهما عدد من رجالهما وحراس من القبائل التي أطاعتهما، واتجها شرقاً في طريق عشيرة بين الحرة والخنق. ولم يكن في ذلك الطريق أحد من رجال العثمانيين أو الموالين لهم.. خلافاً للطريق السلطاني..

كتب الشريف علي رسالة لفخري باشا وتركها مع أحد رجاله ليسلمها له بعد يوم من رحيله وأخيه يقول فيها (بناء على الأوامر الصادرة من أبي سيقف نقل المتطوعين إلى فلسطين ولهذا عقدت النية على العودة بالمجاهدين إلى مكة بدلاً من ضياع الوقت هنا، وإني لآسف لاضطراري إلى الرحيل دون

---

١) انظر زيدان ص ٩٣.

٢) السابق نفسه ص ٩٣.

أن أودعك فالمرجو قبول عذري)(١) وعندما تسلم فخري باشا الرسالة سارع مع عدد من ضباطه إلى حيث ينزل الشريفان فلم يجد احداً، وأرسل بعض خيالته في طريق مكة ليقبضوا عليهما فلم يعثروا عليهما، وأيقن فخري باشا أن المواجهة مع الشرفاء قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى، وبدأ يتصرف بسرعة ومهارة، أرسل برقية إلى جمال باشا يخبره بما حدث ويطلب منه إمداده بالذخائر والمؤن على وجه السرعة ثم وزع بعض قواته على أطراف المدينة وأقام نقاط مراقبة متعددة وأمر بحفر الخنادق ونظم دوريات الحراسة حول المدينة كلها.

ووصل القطار يحمل كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر والمؤن، فأفرغ بسرعة ووزعت حمولته على مستودعات عدة في أماكن متفرقة من المدينة محروسة حراسة قوية. كان فخري باشا يتوقع هجوماً من الغرب، لذلك عزز تحصيناته في الجهة الغربية ووضع عدداً كبيراً من الجنود فيها، بينما كان فيصل وعلي يحشدان رجال القبائل الموالية لهما من الفرع ووادي ريدان.. وتجمع لهما مايزيد على ألف وخمسمائة رجل وعسكروا عند غدير (حجر) قرب آبار الماشي، ثم تحركوا باتجاه المدينة، ووصلوا إلى مشارف جبل أحد ثم التفوا من ورائه إلى أطراف الحرة الشرقية ومنها إلى العوالي جنوب شرق المدينة وكان في حسابهم أن يفاجئوا الجيش العثماني فيقبضوا على زمام الأمور بسرعة كبيرة..

غير أن تصرف فخري باشا السريع ضيع عليهم فرصة المفاجئة وكان الجنود في أبراج المراقبة يرصدون الحشود المقتربة وكانت المدفعية بانتظارهم أيضاً. وأمر فخري باشا بعدم اطلاق النار حتى يصبح المهاجمون في مرمى القذائف.، وتحصن الجنود في الخنادق والمتاريس..

---

١) ماضي الحجاز وحاضره ص ٥٣-٥٤.

انفجار المعركة: موقعة دامية وخاسرة:

فوجئ علي وفيصل بأنهما لم يحققا المباغتة، وأمرا باطلاق نار كثيف تمهيداً لهجوم قوي وسريع، ودوت أصوات الانفجارات ورد الجنود بعنف، واندفعت بعض خيالة المهاجمين لتقتحم المواقع الأولى لجيش فخري ولكنها فوجئت بنيران غزيرة من الخنادق والمتاريس وسقط عدد من القتلى والجرحى وأصيبت الخيل فارتدت على أعقابها.. وزحف المشاة ليعوضوا عن هجمة الخيالة الفاشلة فواجهوا ماواجههم زملائهم من قبل. وتترس كل فريق بما وجده من صخور ومرتفعات ترابية وأخذ المهاجمون يتحركون ببطء شديد يغيرون على المواقع التي تنطلق منها النيران لكنهم لايتقدمون خطوة واحدة حتى يتراجعوا خطوتين، وكثرت الاصابات فيهم، وتوالت قذائف المدفعية تنصب عليهم، فلجأوا إلى البساتين، فجابهتهم قوات فخري باشا بعنف وانصبت قذائف المدفعية على البساتين تصيب النخل والمتترسين وراءها فتقتل وتحرق، واستقدم فخري باشا عدداً آخر من قواته وبدأ يحاصر البساتين التي بداخلها رجال الهاشميين ويصلونها بنيران البنادق، وارتفعت ألسنة النيران من بعض البساتين، فقد أمر فخري باشا بإحراقها للقضاء على المتترسين فيها. وأحيط بالمحاصرين، وحاول بعضهم الهرب أثناء أطلاق النار فحصدهم رصاص الجنود واستسلم آخرون، ونجح قليلون في الفرار إلى البيوت القريبة، وتبعهم الجنود، وأمر فخري باشا بإحراق البيوت التي يطلق منها الرصاص.. وبدأ فيصل ورجاله في الصفوف الخلفية الانسحاب تحت وطأة المقاومة الشديدة، التي تحولت إلى هجوم ضخم، تدعمه المدفعية، وسقط عدد كبير من رجاله.. ونجح في التقهقر مع عدد من نجا منهم جنوباً..

وبينما المعركة في أولها في العوالي اشتعلت معركة أخرى في آبار علي، فقد قام أحمد بن جميعان وأخوه ناصر ومعهم عدد كبير من الموالين للهاشميين من جهينة وبعض الحربيين بالهجوم على نقاط الحراسة المتقدمة

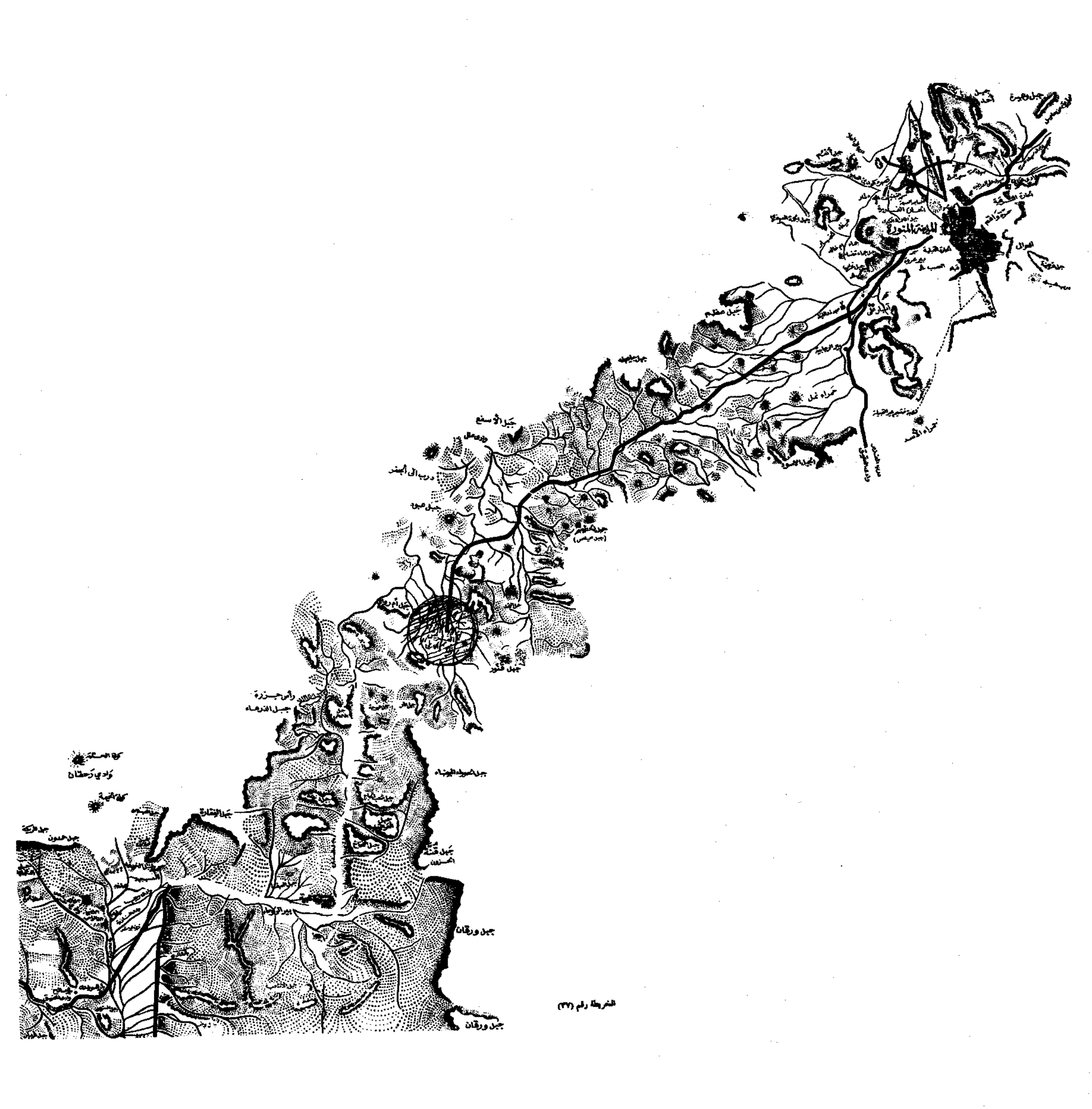
فقتلوا الجنود العثمانيين وتقدموا إلى وادي العقيق ووصلوا إلى قصر سعد وهاجموا مراكز المراقبة عند (عروة) وبلغ الخبر فخري باشا وهو منهمك في قياده الجنود الذين يواجهون قوة فيصل وعلي وشحات في العوالي فاستشاط غيظاً وقال كلمته التي رددها كثيراً فيما بعد. والتي أثرت في سياسته وخططه (عرب خيانات) ووجه أحد كبار ضباطه الأتراك ليقود قوة كبيرة من ثكنة العنبرية وقلعة سلع لمواجهتهم، وأمر بقصفهم بالمدفعية من جميع المرابض التي تصل قذائفهم إليهم.. وانصبت الحمم على ابن جميعان ورجاله، ثم هدأت لتفاجئهم نيران كثيفة من حشد كبير من الجنود يزحف باتجاههم. ولم تكن القوة متكافئة على الاطلاق. فتوقف زحف ابن جميعان ورجاله.. ثم أحسوا أن الجنود العثمانيين بدأوا يحيطون بهم من الأطراف الثلاثة.. وبدأت مجموعة في الجهة الشمالية تحاول الالتفاف وراءهم، فأمر ابن جميعان رجاله بالانسحاب تحت وابل النيران وسقط عدد كبير منهم(١) ثم تحول الانسحاب إلى هزيمة عشوائية لينجو من ينجو بنفسه وليتوجه غرباً إلى الفريش..

وهكذا انتهى الهجوم الأول بالفشل الذريع وبخسائر فادحة في الرجال في آبار علي. وفي الرجال والنخيل والبيوت في العوالي.. ولملم الهاشميون رجالهم واتجهوا جنوباً ثم غرباً ثم شمالا حيث التقوا برفاقهم في الفريش ونزلوا عندهم وأرسلوا الرسل طلباً لنجدة الرجال والسلاح والذخائر وتوجه الشريف علي بنفسه ليجمع ما يستطيع جمعه من رجال القبائل الموالية لهم..

فوجئ الهاشميون بمقاومة فخري باشا وجنوده العنيفة، واضطروا إلى ايقاف المعارك لبعض الوقت بانتظار مزيد من العتاد والذخائر والمؤن والأموال لاستمالة قبائل أخرى وإشراكها في الهجوم على المدينة المنورة. ولحث مشايخ القبائل الذين ساعدوهم في الهجوم الأول على حشد أعداد أخرى من المقاتلين من قبائلهم. وكان الشريف حسين في مكة قد أعلن الثورة في

---

١) انظر زيدان ص٩٤.



تجمع قوات الهاشميين في الفريش وحركتهم في الهجوم على قوات فخري باشا في المدينة

العاشر من شعبان عام ١٣٣٤هـ التاسع من حزيران ١٩٠٦م -أي بعد بدئها في المدينة بخمسة أيام- وأطلق الرصاصة الأولى من شرفة قصره باتجاه الثكنات العثمانية في مكة وأمر رجاله بالهجوم على الجيش العثماني.. وعندما وصلت أخبار المعركة حول المدينة المنورة كانت المواجهات في أطراف مكة وجدة على أشدها بين رجال الشريف حسين بقيادة ابنه عبد الله وبمعونة عدد من المستشارين الانكليز وبين الجيش العثماني الذي فوجئ بالهجوم. وقد سارع عبد الله بن الحسين إلى طلب المعونه من حلفائه الانكليز لإمداد أخويه فيصل وعلي في المدينة. ولم يتأخر الحلفاء في إرسال المطلوب وأفرغت بعض البواخر الانكليزية صناديق الأسلحة والذخائر وبعض المدافع قرب شاطئ ينبع وحملها رجال القبائل الموالون للشرفاء إلى القوة المرابطة في آبار الماشي..

استمرار المعارك:

ما إن وصلت الإمدادت حتى انطلقت قذائف المدفعية تنصب على قوات فخري باشا.. وبدأ الهجوم الثاني تغطيه نيران غزيرة.. وتقدم المهاجمون حتى بلغوا آبار علي.. وتجاوزوها متقدمين إلى المدينة المنورة.. ووصلت قذائف المدفعية إلى أسوارها وإلى عدد من البيوت القريبة من السور. والتهبت حماسة فخري باشا وقواته.. وقاموا بهجوم مضاد قوي رد المهاجمين ثانية على أعقابهم، وأوقع فيهم خسائر كثيرة.. وسقط عدد من القتلى والجرحى بين جنود فخري باشا. وعاش أهل المدينة المنورة أياماً جديدة من الرعب والنيران والجدران المهدمة..

وبعد أيام شهدت المدينة هجوماً ثالثاً من الجهة الجنوبية ولكنه لم يكن أحسن حظاً من سابقيه.. بسبب يقظة جنود فخري باشا وضباطه، وفشل المهاجمون في مباغتة المدافعين رغم وجود بساتين النخيل التي يمكن أن تساعدهم على التستر والتمويه..

وقد جعلهم هذا الفشل يعيدون حساباتهم ويؤثرون التريث إلى حين وصول المزيد من القوات والامدادات. غير أن توقفهم كانت له نتائج سلبية على بعض القبائل الموالية لهم، فرجال القبائل لاصبر لهم على الكر والفر ومعاودة القتال وكانوا يتوقعون حسب وعود الهاشميين أن يدخلوا المدينة بعد أول هجوم، ويقتسموا ما سيتركه العثمانيون الشيئ الكثير. كما كانوا يتوقعون أن تصلهم أموال وافرة من الشرفاء. غير أن ماوصلهم كان دون طموحهم بكثير. لذلك بدأ بعضهم يظهر التململ، ويلوح بترك الساحة والعودة إلى مضارب القبيلة، ونفذ بعضهم تهديداته عندما فشل الهجوم الثالث وسقط عدد من أبناء قبيلتة قتلى وجرحى..

وبنهاية شهر شعبان توقف القتال عند الحد الذي وصل إليه. واستقبلت المدينة المنورة رمضان دون مدافع ولاطلقات بل بجبهات ساكنة مترقبة في الغرب والجنوب..

ونشر فخري باشا مجموعة من قواته على امتداد الخط الحديدي شمالا كي يحفظ طريق الامدادات. ولم تكن لدى الهاشميين قوات كافية للتوغل وقطع الطريق شمالا.. لذلك ظل الطريق إلى الشام مفتوحاً وظل القطار يصل إلى المدينة بعرباته المحملة بالذخيرة والمؤن طوال شهر رمضان. ورابط جيش الهاشميين عند الفريش بانتظار فرصة أخرى للهجوم واقتحام المدينة..

احتياطات غذائية:

لم يضيع فخري باشا الفرصة، فأمر ضباطه بشراء جميع الأغذية الموجودة في الأسواق.. ولاسيما القمح والدقيق والتمر والسكر والسمن.. وأقام مستودعات محروسة في البيوت المهجورة وداخل الثكنات وبعض المساجد.. فجمعت أكياس كثيرة من الدقيق وأكداس من التمر. فكلف مجموعات كبيرة من الجنود بضغط التمر في قوالب صغيرة وجعلها على شكل

مكعبات كي لايؤثر فيها الدود.. ووضع الجيش يده على معظم الأفران الموجودة في المدينة وأقيمت أفران جديدة في الثكنات العسكرية وانهمك الجنود في صنع نوع من الخبز يسمى (القنيطة) يجف بعد خروجه من الفرن مباشرة ويحفظ في أقبية البيوت فلا يصيبه العفن، وعندما يراد أكله يبل قليلا بالماء فيعود وكأنه خبز بالأمس(١) وقد أدت حملة فخري باشا هذه إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعاً فاحشاً، وبدأ الناس يخبئون القمح والمواد الغذائية في أماكن خفية في بيوتهم وبساتينهم خشية تطور الأمر إلى مصادرات عامة. كما بدأ بعض أهل المدينة يخرجون منها عن طريق الجرف أو العوالي أو قباء.. ولم يكن جنود فخري باشا يمنعون العائلات الراحلة من الخروج ماداموا لايحملون أحمالاً من المواد الغذائية، وكذلك لم يتعرض الهاشميون لأحد من المسافرين.. ومر شهر رمضان ليس فيه سوى مناوشات قليلة، ومحاولات من رجال الهاشميين للتسلل وضرب بعض مواقع الجنود العثمانيين، تتبعها مطاردات قصيرة.. وكان الهاشميون ينتظرون مزيداً من الذخائر والمدافع ليهاجموا جيش فخري باشا. وكان فخري باشا ينتظر القطار من دمشق يحمل له المؤنة والذخائر. ووصل القطار عدة مرات وامتلأت مستودعات فخري باشا بالمؤن القادمة، كما امتلأت بالقمح والتمر من المدينة وضواحيها، كذلك وصلت الإمدادات إلى رجال الهاشميين المرابطين في الفريش..

---

١) انظر زيدان ص ٩٦.

ضراوة المعركة:

في شوال بدأ الهاشميون يتحركون لهجوم كبير، ولكن الجيش العثماني رد عليهم بقوة، ثم بدأ يطاردهم حتى وصل إلى معسكرهم في الفريش وعزم فخري باشا على القضاء عليهم فأمر باستمرار المعركة ومتابعتهم في انسحابهم، وحشد قوة كبيرة لذلك معززة بالمدفعية. ونجح هجوم فخري باشا وبدأ رجال الهاشميين بالتقهقر خلف الفريش. وسقط منهم عدد كبير وتبعهم الجيش يطاردهم من سهل إلى جبل ومن تلة إلى واد. وكان فيصل يقود الجيش، فقد سافر علي للقاء والده ولإحضار مزيد من الرجال من القبائل الموالية لهم وانسحب فيصل ومن معه حتى وصل إلى خيف البارك عند ينبع النخل..

ووقع فيصل ورجاله في حصار لم يكن في حسابهم.. فقد وصل فخري باشا بجيشه ومدافعه إلى ينبع النخل، ولم يعد بإمكانه التقهقر أكثر من ذلك، فوراءه ينبع البحر التي مازالت بيد العثمانيين وحاكمها بشير السعداوي أحد الموالين للدولة سيخرج له برجاله فيكون بين فكي كماشة.

وكانت هذه فرصة لفخري باشا يقضي فيها على فيصل ورجاله(١) قضاءاً مبرماً.. بل يطفئ قسماً مهماً من ثورة الشرفاء.. ولو قدر له أن يضرب الضربة القاضية فلربما تغيرت أحداث التاريخ في المنطقة.

أحس فيصل بالخطر الشديد. فأرسل بعض رجاله يتسللون من الحصار إلى أكثر من جهة.. ذهب بعضهم إلى والده في مكة وذهب بعضهم الآخر إلى العياشية يستصرخ أبناء عمه الشرفاء، ونجح الرسول في النفاذ إلى العياشية وأوصل الاستغاثة إلى الشريف عبد الكريم بن بديوي.. فجمع عبد الكريم بن بديوي الرجال من جهينة، وكانوا يطيعونه وهاجم جيش فخري باشا من الخلف ونجح في مباغتته وإيقاع بعض الخسائر فيه..

---

١) انظر زيدان ص ٩٦.

وفي الوقت نفسه كان الشريف حسين يطلب من حلفائه الانكليز بواسطة ابنه عبد الله أن يتدخلوا ويفكوا الحصار عن فيصل.. وأصدرت القيادة الانكليزية أوامرها إلى البوارج الموجودة في البحر الأحمر أن تتجه إلى شاطئ ينبع. ومن هناك بدأت تقصف الجيش العثماني قصفاً شديداً ومركزاً

أحس فخري باشا بالخطر، وخشي أن يهاجمه رجال القبائل من الجهة الجنوبية فيستحكم الحصار عليه، وهو بعيد عن مركز قيادته ومستودعات ذخيرته وتموينه وليس معه من الذخيرة والمؤن إلا مايكفي لقتال أيام معدودة. لذلك غير خطته، وأوقف الهجوم على فيصل ومن معه والتفت إلى عبد الكريم بن بديوي الذي عسكر في الشمال الشرقي من مناطق انتشار جنوده وشن هجوماً واسعاً عليه. ولم يكن في مقدور عبد الكريم بن بديوي أن يواجه جيش فخري باشا لذلك سارع بالانسحاب وأمر فخري باشا بمتابعتهم وهو ينوي سحب جيشه بعيداً عن قذائف المدمرات الانكليزية وليعود به تدريجياً إلى المدينة دون أن يقطع الطريق عليه أحد..

ونجحت خطة فخري باشا وعاد الجيش خلال أيام إلى المدينة بعد أن فر عبد الكريم ابن بديوي ورجاله. ولم يخرج فيصل من الخيف الذي حوصر فيه..

غلطة فخري باشا:

كان انسحاب فخري باشا ناجحاً من الناحية التنفيذية ولكنه كان خطأً كبيراً من الناحية العسكرية البعيدة ((الاستراتيجية)) لأنه كان يملك حسم الموقف نهائياً لصالحه، وكان في إمكانه طلب المدد من عسكره في المدينة ليحمي ظهره ويبعد عنه عبد الكريم بن بديوي.. ولو اقتحم الخيف الذي لجأ إليه فيصل ورجاله وأسرهم لانتهت هذه الجبهة تماماً ولاستطاع أن يرد على المدمرات الانكليزية ويبسط سلطان الدولة على المنطقة كلها.. بل ويحاصر الشريف حسين ورجاله الذين لم يكونوا قد حسموا الأمور لصالحهم بعد..

ولم يفوت فخري باشا فرصة النصر وحسب، بل أعطى خصومه فرصة

ذهبية للتحول من الدفاع إلى الهجوم، ومن الهزيمة إلى بداية الانتصارات المتوالية..

فبعد انسحاب فخري باشا بأيام وصلت إمدادات جديدة لفيصل.. ووجدت قيادة الحلفاء الفرصة سانحة لبدء العمل من ينبع البحر ذاتها ولفتح جبهة طويلة باتجاه بلاد الشام، فأوعزت إلى فيصل أن يشن هجوماً على ينبع البحر ويستولي عليها لتكون مركز إنزال الجنود والضباط والمستشارين من قوات الحلفاء.. وساعدته بتوجيه قصف شديد على مواقع الجيش العثماني في ينبع، وعلى بعض المراكز الهامة.. ووقع بشير السعداوي والجيش العثماني بين جبهتي النار البرية والبحرية. فالمدمرات الانكليزية تهاجم الميناء وتقذف قنابلها المحرقة من الغرب وفيصل يهاجم من الشرق. وتحت ضغط النيران الكثيفة انسحب السعداوي والجيش العثماني من ينبع البحر ودخلها فيصل ورجاله. واستقبل فيها الضباط الانكليز..

غلطة ثانية:

مثلما ضيع فخري باشا جبهة ينبع ضيع فرصاً أخرى، لو استفاد منها لعادت عليه بالنتائج الكبيرة. فقد وصلته رسالة من سلطان نجد آنئذ عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود أعرب له فيها عن استعداده لمساعدته ضد الشريف حسين لكن فخري باشا لم يستغل هذه الفرصة اعتقاداً منه بالقدرة على المحافظة على المدينة بمقاومتها المحلية واعتذر لابن سعود(١) وقد أدرك فخري باشا فيما بعد الهفوة التي ارتكبها، فحاول إصلاحها ووجه الدعوة إلى عبد العزيز بن سعود في ١٧ ايلول ١٩١٦م لزيارة المدينة والبحث

---

١) مملكة الحجاز ص ٢٨٥.

في التعاون ضد الشريف حسين وإعداد الظرف المناسب لذلك(١) ولكن عبد العزيز كان مشغولاً بمعارك الأحساء والشرقية فلم يلب الدعوة..

الشريف حيدر باشا.. والمدينة عاصمة الحجاز:

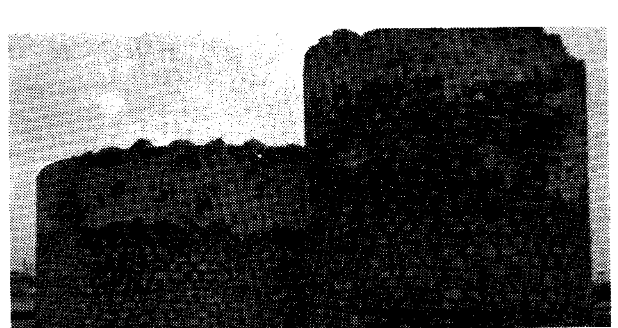
أعلن العثمانيون عزل الشريف حسين إثر ثورته، واختاروا ابن عمه الشريف حيدر من أبناء الشريف غالب المقيمين في الأناضول ليحل محله ومنحوه لقب الباشوية، وقصدوا بذلك أن يواجهوا الشريف حسين بأقربائه وأن يجمع الشريف حيدر أنصاره ويألبهم على الشريف حسين.. وقد زود الشريف حيدر بالأموال اللازمة وأرسل مع حاشية بالقطار إلى المدينة المنورة، ووصل معه -في أوائل ذي القعدة ١٣٣٤هـ تموز ١٩١٦م- وفد يحمل كسوة للكعبة المشرفة صنعت في تركيا، وخرج فخري باشا وأعيان المدينة لاستقباله في محطة القطار وقدم الجنود له التحية، وخصص له مقر مؤقت مقابل ((الديوان)) مقر فخري باشا ومركز المحافظة، وأقيم له ((سبيل)) وصارت المدينة العاصمة المؤقتة للحجاز عند العثمانيين إلى أن يتم القضاء على ثورة الشريف حسين. واستقبل الشريف حسين وجوه أهل المدينة وكبار الموظفين في مقره. واتصل بالشريف حيدر عدد من رجالات القبائل الموالين للعثمانين والمحايدين ولكن الشريف حيدر لم يحسن التفاهم معهم، ثم اتصل به سلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود وأبدى استعداده لدعمه والتعاون معه لضرب الشريف حسين، وجاء في رسالته التي بعثها إليه بعد شهر من وصوله إلى المدينة ((إن عائلة الحسين لم تقدم بثورتها هذه سوى الفساد والضرر.. إنه يطمح في الاستقلال بأية طريقة كانت، ولهذا انغمس بكل أنواع الخداع والحيل ضارباً سكان الجزيرة العربية بعضهم ببعض خدمة

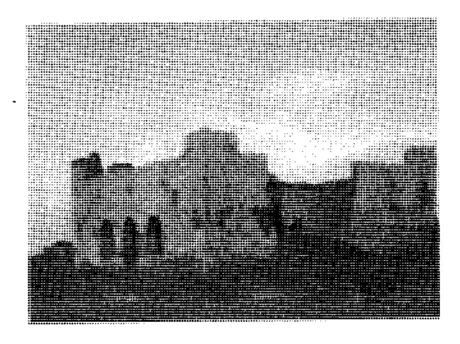
---

١) السابق نفسه.

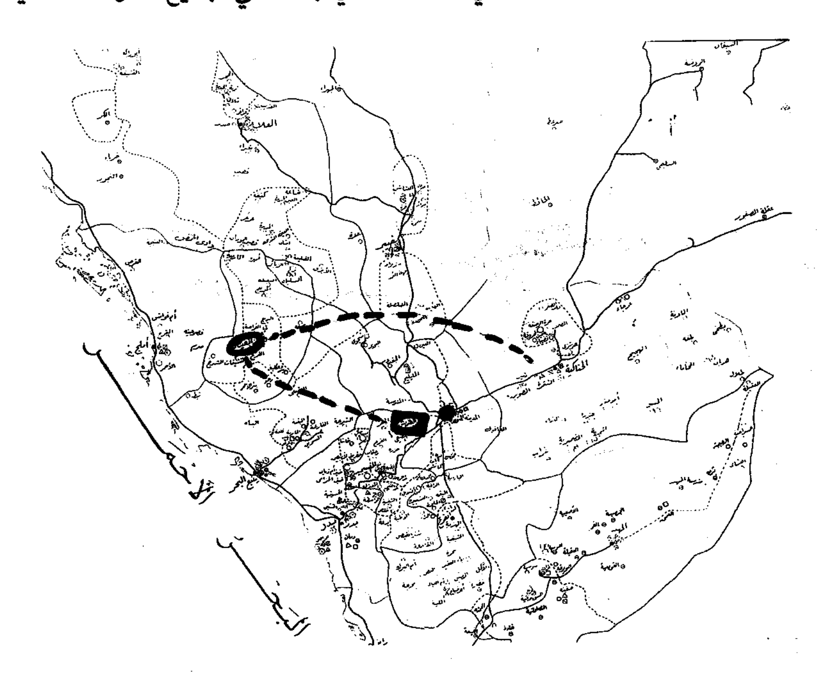


قلعة قباء...





من مراكز المراقبة والمدفعية التي بناها فخري باشا في جميع أطراف المدينة



مواقع القوات الهاشمية في الغريش والعيص تحاصر قوات فخري باشا المتمركزة في المدينة في المرحلة الثانية من الحصار

لمآربه الخاصة(١) ولاشك أن حيدر باشا قد ضيع فرصة ذهبية إذ لم يستفد من هذا العرض كما ضيعها فخري باشا من قبل، ولو توحدت جهود عبد العزيز وحيدر باشا أو تناسقت لانتهت حركة الشريف حسين في حينها. فقد كان عبد العزيز يملك قوة كبيرة وكانت علاقاته مع الشريف حسين متوترة وربما يكون لموقف فخري باشا أثر في موقف الشريف حيدر السلبي وفخري باشا لم يكن يحسن الظن بأحد من القبائل العربية(٢) كما أن الخلفية التاريخية للعلاقات العثمانية السعودية لها أثر أيضاً..

المهم أن حيدر باشا وفخري باشا لم يكونا واقعيين ولم يستفيدا من الفرص الكثيرة التي سنحت لهما لإقامة جبهة طويلة عريضة ضد الشريف حسين وأبنائه، بل إن الشريف حيدر الذي علقت عليه الدولة العثمانية الآمال لم يحسن الاتصال بالقبائل. وربما تكون إقامته الطويلة في الأناضول قد جعلته غير قادر على إقامة الصلات الناجحة.. لذلك اكتفى باستقبال من يفد إليه ومحادثته عن خيانة الشريف حسين والنهاية القريبة القادمة بينما كان فخري باشا ورجاله يقومون بالأعمال العسكرية والمدنية داخل المدينة..

أول جريدة رسمية في المدينة المنورة:

عندما عين العثمانيون الشريف حيدر والياً على الحجاز وأقاموا له مقراً مؤقتاً في المدينة أرادوا أن يظهروا استمرار سيطرتهم على الحجاز ومحاصرة تمرد الشريف حسين، ولتأكيد ذلك أمر فخري باشا بإصدار جريدة رسمية في المدينة، تحمل القرارات والأخبار والمقالات التي تظهر وجهة نظر الدولة، وكلف كبار رجاله باختيار الأشخاص المناسبين لإدارتها وتحريرها، واستفاد من المطبعة التي أحضرها شكيب أرسلان ورفقاءه للجامعة الإسلامية التي كانوا يعتزمون انشاءها.. وشكلت هيئة تحرير للجريدة يرأسها حمزة غوث

---

١) المملكة الهاشمية ص ٢٨٤.

٢) كما يقول زيدان ص ٩٦.

ويشارك فيها بدر الدين نعساني. وكان المحرك الحقيقي للجريدة، وعبد القادر الشلبي الطرابلسي ومحمد العمري وصدرت أعدادها الأولى تحمل مقالات نارية ضد الشرفاء وبعض الأخبار واستمرت مدة طويلة فاختاروا لها كلاً من حمزة غوث وعبد القادر شلبي الطرابلسي ومحمد العمري.. وبدر الدين النعساني.. وأقيم مكتبها في الجامعة الإسلامية الذي لم يتم منه سوى الدور الأول.. وركبت المطبعة التي أحضرها مؤسسو الجامعة: عبد العزيز جاويش وشكيب أرسلان وعبد القادر المغربي وعين بعض العمال لإدارتها وكانت تدار باليد.. لها عجلة يديرها العامل فتتحرك أسنان المطبعة وكانت عملية شاقة. كما درب عمال آخرون على صف الحروف ورصها. وخرجت الجريدة ووزعت في المدينة وكان بدر الدين النعساني أول محرريها. ومالبث أن صار محور العمل والانجاز فيها وكتب حمزة غوث والطرابلسي مقالات نارية ضد الشريف حسين وأبناءه.. وسميت الجريدة ((الحجاز)) بينما كانت الجريدة التي تصدر في مكة تسمى ((صوت الحجاز)) وقد ظلت تصدر إلى أن فرغت معظم المدينة من أهلها..

من الهجرة إلى التهجير..

كثرت هجرة العائلات من المدينة، وكان رجال فخري باشا يساعدونهم على الهجرة، وبدأ القطار يحمل أسراً كاملة إلى الشمال.. بينما سار على درب القوافل أعداد قليلة من العائلات المتجهة إلى مكة المكرمة.

وبدأ فخري باشا ينصح الأسر التي بها صلة بالدولة بالرحيل.. وأبرق إلى الشام واستانبول لاستقبالهم وصرف مخصصاتهم حيث ينزلون.. وبدأ بشيخ الحرم فرحله وعائلته ثم كبار الغائلات ذات الصلة القديمة بالدولة وأبرق إلى الشام بزيادة عدد القطارات الموجهة إلى المدينة وزيادة رحلات القطار.

واستجاب عدد كبير من العائلات لنصائح فخري باشا ورجاله وانتقلوا إلى الشام واستانبول واستقبلت الأفواج الأولى استقبالا حسناً ورتبت لهم

أماكن للاقامة وصرفت مخصصاتهم المعهودة. فكان القطار يأتي من الشام بالمؤونة والذخائر ويعود بالأسر المهاجرة أو المهجرة.. وأغلقت بيوت كثيرة حمل أهلها ما خف حمله وغلي ثمنه وتركوا كل شيء على أمل العودة غير بعيد... وبدا التناقص في السكان واضحاً في الشوارع والأسواق، وتزايدت أعداد الدكاكين التي هجرها أصحابها بعد أن باعوا ما فيها ولم يعد في مقدورهم إحضار بضائع جديدة.

الحصار الطويل:

ومع بداية عام ١٣٣٥هـ وصلت الأخبار إلى المدينة بأن الشريف علي قد عاد إلى الفريش وأقام فيه ((العرضي)) أي معسكر الجيش، وبدأ رجاله يفتشون القادمين إلى المدينة المنورة والخارجين منها، ويمنعون إدخال شيء من الأرزاق إليها.. بينما بدأ فيصل -الذي استولى على ينبع البحر وامتد منها إلى ينبع النخل- وبدأ يستقبل سفن الإمداد والتموين تحمل التجهيزات والمؤن لحملة قادمة.

اتخذ فخري باشا ثكنة العنبرية مقراً لقيادة الدفاع، ووزع المهام الكبرى على كبار ضباطه وكان يشرف بنفسه على كثير من الأعمال الموكلة إليهم وينتقل من مكان إلى آخر ويراقب الحراسة يفاجئ الدوريات وأبراج المراقبة بزيارات تفقدية مفاجئة وشدد المراقبة على الأقسام المسؤولة عن التموين والطبخ وإطعام الجيش.. وكان يعقد اجتماعات يومية مع ضباطه ليسمع منهم تقاريرهم عن الأعمال المسندة اليهم، وحل موسم جني التمر فوزع مجموعات من الجنود على البساتين لجمعه وتكدس المحصول كله -إلا مانجح أصحابه في تهريبه واخفائه- في مستودعات الجيش كما تكدس الخبز المنشف.. وبدأ أهل المدينة يشعرون بوطأة الحصار.. فالدكاكين شبه فارغة، وليس في الأسواق إلا ماتخرجه البساتين من خضار، يأخذ الجيش قسماً كبيراً منها ويترك الباقي ليباع بسعر مرتفع، ودكاكين البر مغلقة منذ بداية الحصار وما

ادخره الناس من قبل في بيوتهم منه بدأ ينضب وارتفعت الأصوات إلى المسؤولين: أحمد صافي وغالب شعلان وعبد الرحمن باشا في ((السراي)) وكلم هؤلاء فخري باشا كي يوزع على الناس بعض ما تضمه المستودعات الكثيرة.. فلم يستجب فخري باشا وأشار على مراجعيه أن ينصحوا أصدقائهم بالرحيل عن المدينة.. ثم سمح فخري باشا بتوزيع كميات محدودة على الأسر المحتاجة والأسر التي تستعد للسفر..

وبدأت تظهر في المدينة ((سوق سوداء)) فقد نجح عدد محدود من المغامرين بتمرير كميات من الدقيق والسمن والزيت من ينبع وإدخالها في غلس الليل إلى المدينة عبر بساتين العيون، وعلم بذلك فخري باشا فأمر بتشديد المراقبة على مداخل المدينة وتكثيف الحراسة ليلاً، كما أمر بمراقبة ٣ بيوت ومداهمة من يشكون بوجود مخزون من الغلال الوارده فيه، فخاف الناس وبدأوا يخبئون ما يشترونه في أماكن خفية وتفننوا في تمويهها، فكان بعضهم يلصق المؤنة بالجدار ثم يبني عليها جداراً جديداً ويترك جزءاً متحركاً يموهه ببراعة، فاذا احتاج إلى كمية من المؤنة فتح الجزء المموه وأخرج حاجته ثم أعاد الأمر إلى ما كان عليه.. واستخدم بعضهم الآخر الآبار القديمة والسقائف (الصندرة) وكل ما يكون مخبئاً أميناً.

كانت حركة الجنود دائبة في المدينة وحولها، وكانت المهمات تصدر إليهم يومياً ليقوموا بأعمال كثيرة، ترميم السور وتدارك الأجزاء المتصدعة والثغرات، والحراسة والمراقبة على أطراف المدينة، وتفتيش البساتين كي لايهرب منها شيء أو يتسلل منها أحد، مراقبة الأسواق والوافدين إلى المدينة على قلتهم، حفر الخنادق، بناء أبراج جديدة على التلال، وإقامة مرابض مدفعية على سفوح الجبال والتلال، والاستمرار في صنع الخبز المنشف وقوالب التمر المضغوط.. وكان فخري باشا يطوف بنفسه على المستودعات ويراجع سجلات الإدخال والإخراج ويعاقب بشدة من يثبت إخراجه شيئاً من

المخزون دون إذن مسبق. وتبدلت حياة المدينة.. كانت هادئة ناعمة قبل تفجر الثورة عمل في النهار وكسب وفير.. وسهرات في الليل وأفراح ما بعدها أفراح (١) أصبحت الآن كئيبة ثقيلة.. العمل قليل والأسعار فاحشة والناس ترحل أفواجاً متوالية إلى الشام وتركيا وإلى مكة وإلى نجد، ودوريات الجيش تطوف الأسواق والبساتين ولجان البلدية بأمر من فخري باشا إلى رئيس البلدية أحمد صافي تدخل البيوت تفتش عن المؤنة.

كان فخري باشا حازماً صارماً شديد الانضباط ونزيهاً أيضاً، وكان يراقب رجاله مراقبة شديدة ويبطش بمن يظهر خلل في نزاهته، وقد أعدم بعض الجنود الذين ثبت أنهم سرقوا شيئاً من المخازن وباعوها لبعض الأهالي، فكان إعدامهم عبرة لبقية الجنود، وكان يشارك جنوده طعامهم في بعض الحالات، ويطوف في الليل على المحارس والمستودعات ويراقب الدوريات، وقد عرف عنه ذلك فأصبح الجميع يرهبونه ويحسبون له ألف حساب.. وكان في جيشه عدد من الضباط العرب الكبار مثل غالب باشا شعلان وسالم أفندي الليبي وحسني علي المقدسي(٢) وكان بعض القبائل المحيطة بالمدينة موالية له، أمثال بنو محمد وزعيمهم طلق السكراني الذين كانوا ضد الهاشمين لثأر قديم بينهم، ولكن فخري باشا لم يحسن الاستفادة منهم وسيطر عليه هاجس ((العرب خيانات)) وعندما بدأ يدرك هفوته كانت الفرصة قد فاتته.. فقد أرسل -كما ذكرنا- إلى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود في نجد يدعوه لزيارة المدينة، ولبحث التعاون معه ضد الشريف حسين.. ولكن عبد العزيز كان مشغولاً بجبهة الاحساء والشرقية فاعتذر عن قبول الدعوة واكتفى بالسماح بإرسال المؤنة إلى المدينة.. وقد وصلت عدة أحمال من الجمال فيها القمح والرز فتلقاها رجال فخري باشا ووزعوا بعضها

---

١) انظر زيدان ٩٢.

٢) زيدان ٩٦.

على الضباط والموظفين وكبار أسر المدينة.

الحصار وفرص المغامرة:

بدأت آثار الحصار تشتد على أهل المدينة. فقام بعض المغامرين بالسفر إلى ينبع، حيث كانت الأرزاق كثيرة ورخيصة وابتاعوا منها السكر والسمن والشاي والدقيق.. وعادوا بها من طريق غير مأهولة ليتجنبوا المرور بـ ((عرضي الشريف علي)) ونجحوا في دخول المدينة عبر بساتين العيون وسيد الشهداء.. وباعوها بأسعار فاحشة وجنوا أرباحاً طائلة، وأفادت هذه المغامرات في تأخير المجاعة لبعض الوقت.

ومالبثت الأمور أن ازدادت سوءاً داخل المدينة عندما وصلت الأخبار بأن فيصلا ورجاله قد ساروا شمالا على طريق الساحل إلى الوجه ومنها إلى تيماء وتبوك، وأن القبائل تنخرط معه في مواجهة الجيش العثماني.. وهذا يعني أن الحصار سيصبح محكما على المدينة من جميع أطرافها وأن النجدة المتوقعة من بلاد الشام قد لاتأتي. وهنا تحولت نصائح فخري باشا ورجاله لأهل المدينة بالرحيل إلى أوامر. وخرج المنادون يبلغونهم بضرورة الخروج والسفر بقطار الشام إلى أية جهة شمالا، وأعلن فخري باشا أنه لن يكون قادرا على توزيع شيء من التمر والخبز المجفف وأنه لايضمن الأرزاق التي تفد إلى المدينة وربما يحتاج إليها الجيش.

حملات التهجير القاسية:

كان فخري باشا يخشى أن يستولي الهاشميون الزاحفون شمالا على خط السكة الحديدية ويمنعوا وصول القطار من الشام. لذلك أراد أن يهجر أكبر عدد من أهل المدينة بالقطار قبل أن يتوقف.. فبدأ رجاله يطوفون على الشوارع والبيوت وينذرون الناس بضرورة السفر بالقطار إلى أي مكان يصل إليه أو بغير قطار. وقد استجاب الذين كان لهم أقارب في الشمال أو معارف. أما الذين لم يكن لهم معارف ولم تكن لديهم أموال كافية فاغتموا

لذلك غماً شديداً، فهم لايدرون أي مكان يقصدون.. ثم كيف سيجدون المأوى والطعام والحاجيات الأساسية وهم لايملكون من المال إلا القليل. ورغم وعود رجال فخري باشا بأنهم سيجدون في الشام مأوى ورعاية فإن القلق قد ملأ نفوسهم وتباطأت حركة السفر.. فغضب فخري باشا وأمر رجاله بالقبض على الناس في الشوارع وزجهم في القطار وترحيلهم قسراً لأنهم -في اعتقاده- لم يفهموا الوضع الصعب الذي سيتعرضون له.. الحصار الطويل أو المعركة الفاصلة، وفي الحالتين سيكونون ضحايا سهلة. ونفذ رجاله الأوامر. فشهدت المدينة مآسي فظيعة، عائلة كاملة يقبض عليها وتزج في عربة القطار، رجل يخرج إلى السوق يفتش عن طعام لأسرته فيقبض عليه رجال فخري باشا ويزجونه في القطار المسافر إلى الشام. امرأة وابنتاها كانتا تمشيان في الشارع قاصدتين بعض البيوت فأمسك بهن العسكر وزجوهن في القطار وسافرن إلى الشام وحيدات.. فماتت الأم وضاعت إحدى البنتين وعادت الإخرى بعد سنوات(١).

كانت عملية الترحيل قاسية. وكان وصول القطار إلى المدينة يدخل الرعب في القلوب ويحبس الناس في بيوتهم..

واستطاع فخري باشا قبل نهاية النصف الأول من عام ١٣٣٥هـ أن يخلي ثلاثة أرباع المدينة. فضلاً عن الذين رحلوا طواعية شرقاً أو جنوباً.

نقل نفائس المدينة:

كان هاجس المعركة الكبيرة (التي لم تقع أبداً) سيطر على فخري باشا ولكونه عسكرياً مدركاً لأبعاد المعركة الكبيرة وآثارها المدمرة، فإن حرصه الشديد على إخلاء منطقة القتال المتوقعة لم يقتصر على السكان، بل امتد إلى نفائس المدينة وكنوزها المالية والثقافية. وكانت هذه الكنوز تتركز في جانبين كبيرين هما: الهدايا النفيسة التي كانت تضمها الحجرة النبوية، والمكتبات

---

١) انظر العهود الثلاثة.

العريقة في المدينة المنورة. وقد توقع أن تمتد إليها آثار المعركة المدمرة بأي شكل من الأشكال. تدميراً أو إحراقاً أو نهباً . لذلك قرر إخلاء هذه النفائس والكنوز على نحو إخلاء السكان. وتخير مجموعة من رجاله الثقات من المدنيين والعسكريين، وأمر بصفته شيخ الحرم والحاكم العسكري تغليف الموجودات الأثرية والهدايا في الحجرة النبوية ووضعها في صناديق محكمة وشحنها إلى استانبول. واشتغل المختارون لهذا العمل بجدية وحرص وبمشاعر من الإجلال. ونقلت التحف والهدايا والآثار بالصناديق المقفلة إلى محطة السكة الحديدية بسرعة تامة وحراسة مشددة حيث حملها القطار مع حراسها إلى دمشق ثم إلى استانبول..

وعندما نجحت عملية النقل وصلت برقية تشعر بوصول الأمانة. فشرع فخري باشا بنقل موجودات مكتبة عارف حكمت الشهيرة والغنية بكتبها القيمة، وكانت تزيد على خمسة آلاف مجلد والمكتبة المحمودية. ووضعت الكتب في الصناديق بعناية، وحملت إلى محطة السكة وسار بها القطار إلى دمشق. حيث أنزلت ونقلت إلى مسجد التكية السليمانية حيث وضعت في عدد من الغرف الملحقة به والمخصصة لطلاب العلم، ولم تنقل إلى استانبول. وكانت هذه الشحنات من أواخر ماحمله القطار الخارج من المدينة قبل تحرك الشريف علي لقطع الطريق نهائياً على القطارات المتجهة المتجهة من المدينة وإليها(١).

توقف القطار:

تحرك الشريف علي ليضايق فخري باشا ورجاله فأرسل مجموعة من رجاله وخربوا جزءاً من الخط الحديدي. وعلم بذلك فخري باشا فأرسل فرقة من الجنود فأصلحته. وكانت هذه العملية إرهاصاً بعملية قادمة أكبر من ذلك.

---

١) انظر مكتبات المدينة المنورة للتونسي ص ١١ ومحمد سعيد دفتردار: مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت مجلة المنهل ص ٨٥٢ لعام ١٣٧٩، ص ١٤٣-١٤٤.

ففي أواخر عام ١٣٣٤هـ أرسل الحلفاء إلى الحسين عدداً من الضباط العرب الذين أسروا في الحملات الفاشلة على قناة السويس. والذين تركوا صفوف الجيش العثماني ووصلت إمدادات وافرة إلى فيصل وجيشه بعد تقارير الكولونيل لورنس -ضابط المخابرات الانكليزية- وصدرت الأوامر إلى الشريف عبد الله بن الحسين أن يتوجه إلى المدينة بعد سقوط الطائف(١) فتوجه إليها وكان أخوه فيصل يعسكر في رابغ وأخوه علي يعسكر في بئر درويش غربي المدينة. وتحرك الشريف عبد الله ابن الحسين من الطائف واتجه شمالا لايجد مقاومة والتف حول المدينة حتى نزل في (العيص) (على بعد ٢٢٠ كم إلى الشمال الغربي من المدينة) وأقام ((العرضي)) معسكره فيها. فقطع الطريق من الشام إلى المدينة. وبقي طريق نجد وحده المفتوح. وأرسل الشريف حسين إلى سلطان نجد عبد العزيز آل سعود يطلب منه أن يمنع السابلة إلى المدينة، أي يمنع سفر التجار والقوافل. ولم يرد عليه عبد العزيز. وأخيراً حلت الضربة الكبيرة، وعندما نسف الشريف عبد الله قسما كبيرا من السكة الحديدية التي تمر قرب معسكره نسفه عند مرور القطار القادم من دمشق عليه، فكانت ملحمة دموية وقتل الجنود الذين يرافقون القطار وانفجرت الذخائر وتبددت الأقوات. وأصبحت المدينة في عزلة كاملة.. كان رد الفعل لدى فخري باشا إقامة مزيد من التحصينات في جميع أطراف المدينة، ولاسيما الجهة الشمالية، وبناء مراكز جديدة للمراقبة وإقامة مرابض للمدفعية على امتداد الطريق إلى أحد، والضغط على من بقي من أهل المدينة كي يرحلوا بأية واسطة بعد أن توقف القطار.

شبح المجاعة في المدينة:

اشتد الحصار على المدينة بعد توقف القطار، وانقطعت الامدادات الغذائية، ولاح شبح المجاعة، فالأسواق خالية من الأرزاق إلا ماتأتي به

---

١) تاريخ مكة ص ٦١٠.

بساتين الخضرة في المدينة، والتمر عزيز لايباع جهراً خشية رجال فخري باشا، وبساتين النخل يجز تمرها الجنود ويأخذونه إلى الثكنة كي يكبس في قوالب ويخزن في المستودعات. والجيش نفسه بدأ يعاني من تقنين الطعام. فقد أصبح معظم طعامه التمر والخبز المجفف. وبين الحين والحين يوزع عليه شيء من لحم الابل. وظهرت آثار سوء التغذية على الجنود المرهقين. وكثر المرض وبدأت الوفيات تزداد عن المعدل الطبيعي. ثم ظهر مرض غريب بين الجنود والأتراك. يصاب الجندي بحمى شديدة وينتفخ رأسه ويموت بعد أيام قليلة. وقد حصد هذا المرض مئات الجنود. ولم يستطع أطباء الجيش أن يفعلوا شيئاً. والعجيب أن هذا المرض -كما يقول بعض شهود عيان- لم ينتقل إلى أهل المدينة. انما أصيب بعض أهل المدينة بمرض آخر في الركب أعراضه آلام شديدة في المفاصل لايستطيع معها الرجل أن يقف على قدميه فيسقط على الأرض ويحمل إلى البيت(١) ويبقى على هذه الحالة عدة أيام ثم يشفى. ولم يمت أحد بهذا المرض. واشتدت الضائقة وصارت مجاعة حقيقية، وأصبحت المواد الغذائية -إن وجدت- فاحشة الأسعار تدل على حجم المجاعة(٢) وهانت الأموال والممتلكات والعقارات أمام كيس من الرز أو القمح أو بعض السمن واللحم.. وباع بعض الملاك عقاراتهم بكميات ضئيلة من الرز أو القمح. ويذكر محمد حسن زيدان أن ((بيتاً من ثلاث طبقات باعه صاحبه بكيس رز))(٣) وأعد أحد الميسورين آنئذ طعاماً لثلاثة ضباط من العرب في جيش فخري باشا (تيساً لايبلغ وزنه أربعة كيلوات وحفنات من الأرز)

---

١) زيدان ص ٩٨.

٢) مقابلة مع بعض السنوني وانظر زيدان.

٣) انظر زيدان ص ١٠٨.

بخمسين جنيهاً عثمانياً(١). واستمر الحصار وفرغت المدينة من أهلها أو كادت إلا من استطاع أن يجد شفاعة عند فخري باشا فسمح له بالبقاء. كان المستشفعون عنده من كبار الضباط العرب وكبار الموظفين والشيوخ أبناء غالب الشعلان وعبد الرحمن باشا والشيخ ألفا هاشم شيخ التكارنة المقيمين في المدينة. وقد نجح الشيخ الفا هاشم في إقناع فخري باشا بالاستفادة من التكارنة فهم أقوياء البنية ومخلصون لمن يحسن التعامل معهم. وقبل فخري باشا الفكرة ليعوض عن الجنود الذين حصدهم المرض والجوع. وأمر بتجنيد من يرغب التطوع من التكارنة. وأقام لهم دورة تدريبية مكثفة في الثكنة العسكرية. وأشرف بنفسه على تدريبهم، فأعجبه مارآه فيهم من قوة ونشاط، واختار المتفوقين منهم وأقام لهم دورة ضباط، فكان منهم الجنود والضباط(٢)

المدينة في ذروة الأزمة:

أصبحت المدينة معزولة تماماً. جزيرة شبه خالية من السكان تعج بالجنود العثمانيين، محاصرة بقوات الشرفاء، وازداد الطين بلة منذ أن قرر الحلفاء أن تمضي جيوشهم شمالاً غير آبهين بالجيب العثماني المحاصر، ومضى جيش فيصل بعد ان احتل ينبع شمالاً حتى بلغ أقصى شبه الجزيرة العربية وحاصر معان ثم العقبة والجيش العثماني المنهك يتراجع وراءه. ثم حاصر جمال باشا في دمشق فأصبح فخري باشا ورئيسه جمال باشا محاصرين تماماً ومنقطعين عن الاتصال عدا الاتصال اللاسلكي عبر المحطة الوحيدة والمحروسة تماماً شمالي المدينة المنورة. ويذكر زيدان طرفة تستوقف من يتأمل تاريخ هذه الحقبة. خلاصتها أن جمال باشا وهو محصور في دمشق طلب من فخري باشا أن يمده بالمال، وتحير فخري باشا كيف

---

١) زيدان ص ٩٧.

٢) انظر زيدان ص ٩٧.

يرسل المال ((فالسكة الحديد مقطوعة، وأي ضابط تركي مهما تنكر لايستطيع أن يصل بالمال إلى جمال باشا، فلم يجد أمامه إلا السيد طه حسين عثمان. فأعطاه أربعة آلاف جنيه ذهباً عثمانياً. وخرج السيد طه بها إلى نجد حيث اشترى بها قمحاً وتمراً بمعونة أصدقائه هناك وسافر بها عبر الفلاة إلى دمشق وباعها في دمشق فكانت عوناً للجياع وحمل قيمتها إلى جمال باشا. فتسلمها وهو يربط حقائبه للرحيل عن دمشق وقال كلمته المشهورة (أبيت ياسيد طه إلا أن تثبت أن العرب أمناء)(١) وفضلاً عن قضية الأمانة يعجب المرء لوجود هذه الوفرة من المال بين يدي فخري باشا في الوقت الذي كانت فيه المدينة تعاني من ضائقة شديدة ويعجب لعدم استفادته من تلك الوفرة في استمالة القبائل حوله وتأليبها ضد خصومه مثلما يعجب من تقوقعه بجيشه الجرار في المدينة مفضلاً المقاومة السلبية على المبادرة والهجوم. ولو أنه استفاد من هذه القوى التي بين يديه -قوة الرجال والعتاد والذخيرة والمال. وأحسن توظيفها في مواجهة خصومه في المنطقة- لاستطاع أن يمنع الجنرال اللنبي من التقدم شمالاً إلى القدس. ثم إلى الشام ويحمي جمال باشا وقواته. بل ويطرد القوة الانكليزية التي نزلت في ينبع وقادت جموع الأعراب التي حشدها فيصل بن الحسين شمالاً، ولاستطاع أن يشتت جموع الأعراب نفسها سواء باستمالتها بالمال -وماأسهل ذلك آنئذ- أو بالمواجهة العسكرية الحاسمة. ولكن فخري باشا اختار اسلوباً خاطئاً كل الخطأ بالقياس إلى ماكان بين يديه من مال وعتاد ورجال. اختار التقوقع في المدينة والاقتصار على الدفاع عنها، فكان أن تركه الحلفاء ليذوب في قوقعته مع الزمن ولتضيع مقاومته الفائقة في البقعة التي حصر نفسه فيها ومضوا يبددون الجيش العثماني فرقة بعد فرقة ويحتلون بالجيوش المختلطة الأرض العربية كلها إلى أن دقوا أبواب العاصمة العثمانية نفسها. وفخري باشا في

---

١) انظر زيدان ص ١٠٢-١٠٣.

بطولته الخيالية المحصورة.. فضاع.. وأضاع... وقاسى أهل المدينة الجوع والتشرد والأمراض، وخلت الشوارع من أهلها حتى كادت أن تكون مدينة أشباح.

انجازات ضائعة:

والمدهش أنه رغم التناقص الفظيع في عدد سكان المدينة، فإن فخري باشا كان يتصرف فيها وكأنها مدينة حية ويعد العدة لمعركة مرتقبة قادمة في ضواحيها، لذلك كان يفكر دائماً في عدم ترك أية ثغرة قد تصبح نقطة ضعف ومبتدأ هجوم، فاهتم بفتح طريق لامداداته العسكرية إلى قباء، يبدأ من باب قباء في السور وينتهي بمسجد قباء و وكانت المنطقة مجموعة بساتين متصلة، بينها طريق متعرج، فجند فخري باشا رجاله لشق طريق مستقيم قدر الامكان عبر البساتين، وأمر بهدم الأسوار التي تعترض الطريق وقلع الأشجار واختراق البساتين التي يمر بها وتسوية المرتفعات والمنخفضات. وانتشر الجنود بالمعاول والمساحي ومعهم مهندسو الجيش الذين وضعوا خريطة الطريق، وتوزعوا على أجزائه. وفوجئ أصحاب البساتين الذين لم يرحلوا بعد بشق الطريق وسط بساتينهم ولم يكونوا يملكون الاعتراض أو الشكوى بسبب ظروف الحرب وبحجة تأمين الحماية للمدينة المنورة وضواحيها..

وعمل الجنود بجهد كبير رغم قلة الطعام ورداءته، وفتح الطريق إلى قباء وسارت عليه القوافل العسكرية تقيم مزيداً من التحصينات بين المدينة وقباء(١)

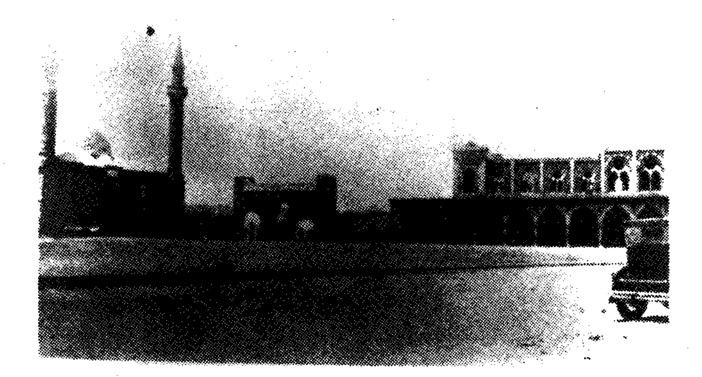
ومما ينسب إلى فخري باشا في هذه الفترة أيضاً أنه شق شارع العينية، من المناخة، حيث كان مقره العسكري إلى باب السلام وهدم الدور المعترضة في الطريق، وصار من السهل عليه أن يصل إلى المسجد النبوي بسرعة.

---

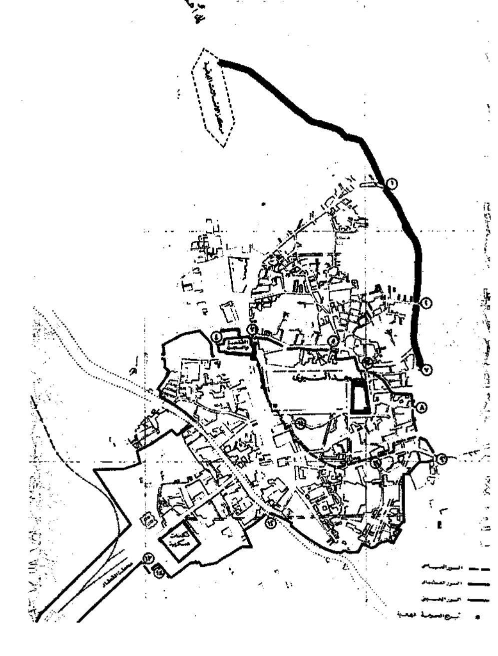
١) انظر ماضي الحجاز وحاضره ص ٥٧.



شارع العينية الذي أنجز في أوائل الأيام الصعبة التي عاشتها المدينة المنورة في عهد فخري باشا



خط السكة الحديدية الذي مده فخري باشا من المحطة إلى جوار المسجد النبوي



السور الذي بناه فخري باشا شرقي المدينة من باب القبارية إلى محطة اللاسلكي

وقد اتخذ فخري باشا المسجد النبوي مقراً ليلياً له. وفي الجهة الشمالية، حيث كان يوجد طابق علوي فوق القسم الذي تشغله الكتاتيب في غير أوقات الصلاة، وكان أشبه بسقيفة محصنة. وزودها بكل مايحتاجه للعمل، وبالقرب منها مستودع صغير للمواد الغذائية، وخارج المسجد النبوي أكثر من مستودع للذخائر والأسلحة..

عملية غير مجدية:

وإمعاناً من فخري باشا في تفريغ المدينة ممن بقي فيها من الشباب أمر أشرف بك -وهو أحد الذين نفاهم الاتحاديون إلى المدينة منذ مدة- أن يجمع جيشاً من الشباب الذين بقوا في المدينة، على ألايكون فيه تركي واحد. فجمع أشرف بك من وجده من الشباب والرجال وكان معظمهم من العاطلين عن العمل والعربجية والحمالين، وأغراهم بالأموال والوعود وسلحهم فخري باشا بالأسلحة الخفيفة، وأمرهم أن يهاجموا معسكر الشريف عبد الله في وادي العيص..

وسار أشرف بك بمن جمع وكانوا (من رجال العصا والمشكلة أي الفتوة لا من آل البندق والمدفع) واتجه الجمع خارج المدينة عن طريق العيون. ورصدهم عيون الشريف عبد الله بعد خروجهم من المدينة. فانتدب إليهم الشريف عبد الله (رجاء بن خليوي) ومعه مجموعة من الفرسان فباغتوهم وأحاطوا بهم وقتلوا بعضهم وفر عدد قليل منهم وأسر الباقون، ونقلوا موثوقين إلى مخيم الشريف في وادي العيص وكانت سياسة الشريف أن يتألف من يستطيع تألفه من أهل المدينة لذلك اكتفى بتأديبهم ثم عفا عنهم

وأكرمهم (١) ولئن كان فخري باشا قد نجح في التخلص من مجموعة من الرجال والشباب العاطلين، وتخفيف العبء الغذائي شيئاً ما. فإنه في حقيقة الأمر قد خسر قوة كان من الممكن أن يستفيد منها مثلما استفاد من التكارنة الذين انخرطوا في جيشه، كما أنه خسر قدراً آخر من ثقة أهل المدينة به.

تفاقم الوضع في المدينة المنورة في الأشهر الأخيرة من عام ١٣٣٦هـ فالحصار المحكم حولها يمنع دخول المواد الغذائية، فالشريف عبد الله شمالا والشريف علي جنوباً وغرباً، والمخازن المليئة بالتمر والخبز المجفف محروسة بشدة، والأمراض تفتك بعدد كبير من الجنود، وآثار الهزال والشحوب باقية على وجوه البقية الباقية من أهل المدينة ومع ذلك ما يزال فخري باشا يتحرك بحيوية ورباطة جأش كبيرتين ويصمم على المقاومة..

بداية النهاية:

وتوالت الأخبار تحمل أنباء سقوط دمشق وبقية سورية وانسحاب جمال باشا وقواته وزحف جيش الحلفاء إلى الأناضول واستيلائها عليها ثم حصارها لاستانبول نفسها، وكانت الأنباء تصل متأخرة.. وكانت محطة اللاسلكي تحمل البرقيات الرسمية ونزراً يسيراً من الأوامر والتعليمات العادية، وفخري باشا لايتأثر بشيء من هذه التغيرات ولا يغير عمله اليومي.. تفقد المواقع والمخازن والدوريات والحراسة، استطلاع أخبار من بقي في المدينة، وتلمس أية أخبار عن تحركات الهاشميين، العمل العادي في مناطق من المدينة المنورة، كاستكمال طريق قباء ورصف شارع العينيه، واللقاء بالضباط العرب والأتراك..

كان الضباط المحيطون بفخري باشا يطلعون على البرقيات الواردة، ويدركون حقيقة الوضع المتردي في قلب الدولة العثمانية.. غير أن بقية الضباط والجنود كانوا في شبه جهالة.. فليست هناك إذاعات أو صحف تنقل

---

١) انظر زيدان ص ١٠٣-١٠٤.

إليهم الأخبار، والشائعات التي يرددها بعض أهل المدينة نقلاً عن من التقى برجال الهاشميين أو مر بهم خارج المدينة قليلة ومضطربة..

وكان الهاشميون يتلقون الأخبار أولاً بأول ويشعرون وينشرون هذا الشعور بأن موعد سقوط فخري باشا ورجاله قد اقترب، وينشرون هذه الأخبار بين رجالهم ومن يمر بهم، وعندما سقطت الأناضول في يد الحلفاء أشاعوا الخبر بقدر ما استطاعوا، وكانت الإتصالات بين الشريف عبد الله في وادي العيض ووالده متواصلة وأخبار الانتصارات تتوالى إليه ولكن الشريف عبد الله لم يكن يفكر أن يشن هجوماً يستخلص فيه المدينة من فخري باشا ورجاله فما زال الجنود العثمانيون يشكلون قوة يحسب حسابها، وما زالت هيبة فخري باشا تؤثر في النفوس... فضلاً عن أن المدينة أصبحت شبه خالية.. ويروي بعض شهود عيان أن عدد من بقي فيها من الأهالي في أواخر هذا العام قد بلغ واحداً وأربعين ساكناً فقط..

نهاية المأساة:

وفي شهر محرم ١٣٣٧هـ أعلنت الدولة العثمانية قبول الاستسلام للحلفاء، وتوقف اطلاق النار وبدأت المفاوضات بين الجانبين بعد اتفاقية (الباخرة أغاممنون)(١) الشهيرة، وكانت بنودها الأولى تنص على تخلي الدولة العثمانية عن جميع المناطق التابعة لها خارج حدود تركيا.. وبدأت القيادة العسكرية في استانبول تنفذ الاتفاقية، وأبرق وزير الخارجية إلى فخري باشا يطلب منه تسليم المدينة المنورة للقوات المتحالفة والعودة مع جنوده إلى تركيا.. وصعق فخري باشا وهو يقرأ البرقية التي حملها إليه ضابط الإتصالات.. ولم يصدق الكلمات المكتوبة فيها، وأبرق إلى قيادته في استانبول يستوضح ما جاء في البرقية ويؤكد قوة موقفه وعدم قدرة الأعداء على اقتحام مواقعه، فجاءه الرد مؤكداً الأمر السابق ومشيراً إلى الاتفاقية الدولية التي

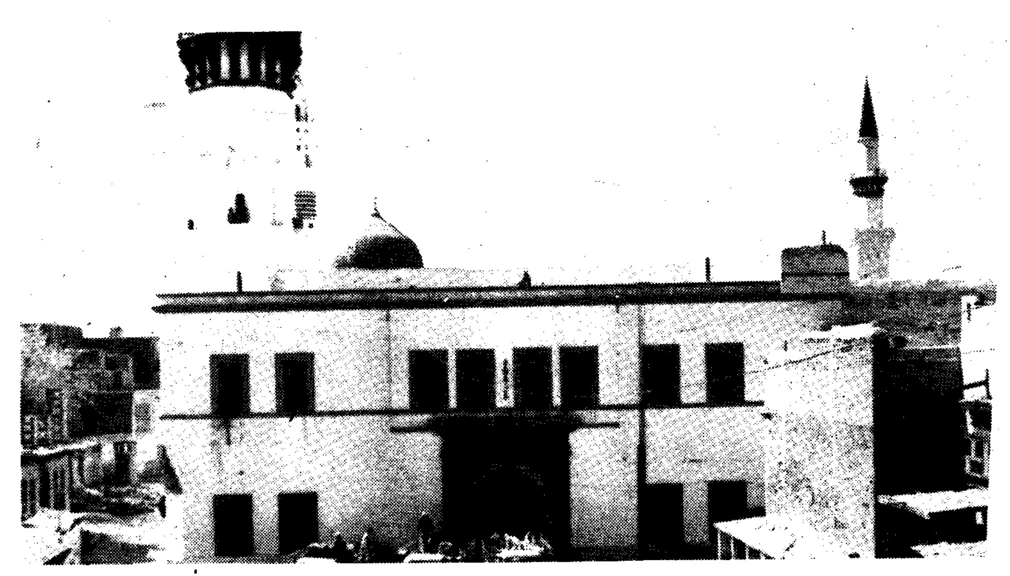
---

١) التاريخ الإسلامي ٨/٢٢٢.

وقعتها الدولة وضرورة التنفيذ.. غير أن فخري باشا رفض التنفيذ وأكد لكبار ضباطه أن في الأوامر خدعة، وأن القيادة في استانبول لايمكن أن تضيع المقاومة الطويلة وتستسلم وتسلم بهذه السهولة للحلفاء، وأمرهم بالاستمرار في أعمالهم والحذر واليقظة والاستعداد.

عناد فخري باشا:

وفي معسكر الهاشميين وصلت الأخبار من الشريف حسين عن طريق الحلفاء بأن العاصمة العثمانية ستسلم المدينة المنورة وتسحب فخري باشا وجنوده.. وعمت الفرحة في قلوب الجميع وبدأت الاستعدادات لتسليم المدينة.



مقر قيادة فخري باشا في الطابق العلوي من مبنى المسجد النبوي من جهة باب المجيدي

وأمر الشريف عبد الله بعض رجاله أن يقتربوا بحذر من مواقع جيش فخري باشا ويحادثوا الضباط حول التسليم والإنسحاب.. وقام بالمهمة أحد أبناء المدينة الذين انحازوا للمعسكر الهاشمي.. ولكن المهمة لم تنجح، فقد رفض الضباط التحادث في هذا الشأن وهددوا بإطلاق النار على من يقترب من مواقعهم. وأخبر عبد الله والده بالموقف، وجرت اتصالات سريعة نتج عنها أن أرسلت استانبول برقية إلى القيادة العسكرية في المدينة تأمرها بتنفيذ الأوامر السابقة بالتسليم والانسحاب تحت طائلة المسؤولية.. وقرأ ضابط اللاسلكي البرقية وأطلع عليها عدداً من ضباط القيادة قبل أن يطلع عليها فخري باشا.. وأيقنوا بجدية الأمر وضرورة تنفيذه، وتشاوروا في كيفية إقناع فخري باشا بالتسليم.. وقرروا محادثته مباشرة.. وحمل ضابط الإتصالات البرقية الجديدة إلى فخري باشا... فازداد فخري باشا غضباً وأخذ يهدد ويتوعد ويتهم الآخرين بالخيانة والجبن، ودخل عليه ضباطه وحاولوا تهدئته ولكنه ازداد ثورة واصراراً على عدم التسليم وكان حوله بعض الضباط المخلصين الذين ينفذون أوامره دون أي تردد، فلم يجرؤ الذين دخلوا عليه أن يناقشوه في الأمر وأظهروا اقتناعهم بما يقول واستعدادهم للاستمرار في المقاومة.. وعندما خرجوا من مكتبه كانوا جميعاً مقتنعين بضرورة إيجاد حل لهذه المعضلة، وتنفيذ أوامر القيادة وإقناع فخري باشا بذلك أو حمله عليه.

وعاود الهاشميون اتصالاتهم بالضباط ولاسيما الضباط العرب الموجودون في المدينة عن طريق بعض أهل المدينة الذين يعرفونهم، وأكدوا لهم نهاية الحرب في كل مكان والاتفاق بين الحلفاء والدولة العثمانية على التسليم وانسحاب الجيش العثماني من المدينة، وطلب الضباط العرب مهلة لبحث الأمر مع فخري باشا والقيادة العسكرية في المدينة ووعدوا محادثيهم خيراً.

الانقلاب الخفي

أدى عناد فخري باشا ورفضه الإستجابة لأوامر القيادة إلى ظهور تمرد خفي بين عدد من كبار ضباطه، فقد أصبحت حالة فخري باشا أقرب إلى المرض، وأصبح سريع الغضب والهيجان، قاسياً في مخاطبته وأوامره. وكانت الحالة في المدينة قد بلغت حداً لايطاق فلم يعد فيها إلا الواحد والأربعون ساكناً.. والجنود قد تناقص عددهم بسبب الأمراض والوفيات والمواد الغذائية باستثناء المخزون شبه منعدمة.. والحصار مضروب من كل طرف، وأخبار انهيار الدولة العثمانية واحتلال جيوش الحلفاء لعدد من مدن تركيا نفسها أصابت الكثيرين باليأس والقنوط، لذلك مالبث كبار ضباط فخري باشا أن اتفقوا على تنفيذ الأمر وتسليم المدينة للشريف عبد الله ورجاله والانسحاب ببقية الجيش إلى تركيا عن طريق ينبع، وكانت العقبة الوحيدة عناد فخري باشا والقلة القليلة من رجاله المخلصين، لذلك لم يكن هناك بد من تجميد حركة فخري باشا وعزله من قيادته والقبض على من يرفض تنفيذ الأوامر من بقية الضباط.. وسرعان ما رسمت خطة بارعة لذلك ،

سقوط رجل الصمود والمقاومة:

وبدأ تنفيذ الخطة قبل أن تطلع خيوط الفجر الأول، حيث توجه عدد من الضباط إلى المسجد النبوي مقر إقامة فخري باشا الليلية، ودخلوا عليه قبل أن يستيقظ.. وأيقظوه بأدب جم واحترام كاملين، وأبلغوه قرار ضباط القيادة في المدينة جميعاً بتنفيذ أوامر وزير الحربية، وطلبوا منه أن يعتبر نفسه معزولاً عن القيادة بناء على أمر وزير الحربية نفسه.

انهار فخري باشا تماماً وأدرك أنها النهاية التي لم تخطر بباله، فرجاله هم الذين يطلبون منه التسليم والإستسلام بلا معركة ولا نصر ولا هزيمة ولانيل من الخصوم.. وكاد فخري باشا أن يجن.. لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يعرض عن محادثيه ويقول افعلوا ما تشاؤون...

اجراءات التسليم:

وقامت القيادة بعمل كبير في ذلك اليوم.. بدأت الإتصالات بواسطة عدد من الضباط العرب مثل حسني العلي المقدسي، وعبد المجيد الباقي وسالم أفندي الليبي ومهدي معروف.. وشاركهم بعض الضباط الأتراك أمثال ضياء الدين بيك، وأخذوا يبحثون مع الشريف عبد الله وكبار قادته كيفية التسليم والمحافظة على سلامة الجنود والضباط وانسحابهم.. وما يأخذونه وما يتركونه، وتم الإتفاق على أن يترك الجيش المنسحب جميع الأسلحة الثقيلة والعتاد ويخرج بشكل منظم إلى ينبع، حيث ستنقله البواخر تباعاً إلى تركيا، ويبقى من شاء أن يبقى في المدينة من الضباط العرب والأتراك بمعزل عن العمل العسكري، الا من ينضم إلى جيش الشرفاء أو شرطته.

وتم التسليم في الخامس من ربيع الأول عام ١٣٣٧هـ وحضر الشريف عبد الله والشريف شحات والضباط العرب المشاركون في جيش الهاشميين وعدد من زعماء القبائل الذين كانوا في صحبة الشرفاء، وكان التسليم في المناخة، ونقل فخري باشا وكبار معاونيه إلى بير درويش(١) ويذكر بعض الرواة أن فخري باشا عندما رأى الشريف ورجاله استقبلهم وقال: لو كنت أعلم أن هذا جيشهم لسحقته، وقد سلم فخري باشا لبلاده بعد مدة. وطويت صفحة طويلة من تاريخ المدينة وما زالت سطور كثيرة منها لم تقرأ بعد، لعل كتاب التاريخ يعرضونها فيما بعد..

---

١) تاريخ الدولة السعودية ابن سعيد ٢/٨٥.

الحياة العلمية في المدينة المنورة في العهد العثماني

كانت المدينة المنورة واحدة من المراكز القليلة التي لم تنطفئ الشعلة الثقافية فيها إبان العهد العثماني، بل ظلت متوقدة تنقل العلم والأدب من جيل إلى جيل، ويرجع السبب في ذلك إلى عوامل عدة أهمها :

أولا : المسجد النبوي، وهو أول سبب وأعظمه، فالمسجد النبوي أعرق مركز للثقافة في المجتمع الإسلامي، ورغم الأحداث الكثيرة التي شهدتها المدينة المنورة في رحلة القرون والعقود المتوالية، فإن أعمدة المسجد النبوي لم تفقد العلم والعلماء قط، كان الشيوخ يتصدرون الحلقات ويتجمع حولهم طلابهم ليقرأوا عليهم كتاباً أو يسمعوا منهم تأليفاً جديداً ويكتبوا عنهم، وكانت الدراسة فيه متنوعة وشاملة تبدأ من الكتاتيب وتنتهي بالإجازات التي يمنحها الشيوخ لمن نضج من الطلاب وأصبح قادراً على أن يعلم الأخرين، وقد ظل المسجد النبوي طوال العهد العثماني محور الحركة العلمية في المدينة المنورة، ودرس فيه أفواج متوالية من العلماء في كافة العلوم الإسلامية والعربية، فكنت تجد فيه عالماً في القراءات وعالماً في التفسير وعالماً في الفقه وعالماً في الأصول، وعالماً في النحو.. إلخ، وكان بعض العلماء بارعاً في أكثر من علم يدير أكثر من حلقة، فيلقي درساً في التفسير في وقت من الأوقات ثم يلقي درساً في الفقه في وقت آخر، وكانت الدروس تبدأ بعد صلاة الفجر، حيث حلقات القرآن الكريم ترتيلا وتجويداً وقراءات، وليس هناك نظام محدد أو منهج معين فلكل شيخ نظامه ومنهجه، هو الذي يختار العلم الذي يدرسه، والكتاب الذي يقرأه أو يمليه وربما يؤلفه، وقد تستمر الدروس إلى وقت الضحى، ثم تستأنف بعد صلاة العصر، وبعد صلاة المغرب أيضاً، وقلما تعقد حلقات بعد صلاة العشاء إذ كان المسجد النبوي يغلق أبوابه ليتسنى للقائمين عليه خدمته وتنظيف سجاده فضلاً عن أن الإنارة كانت عملية تتطلب جهداً ومالاً وحرصاً شديداً من أن تحدث حريقاً، ولم تدخل الإنارة الكهربائية

المسجد النبوي إلا في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، وكان التدريس في المسجد النبوي مفتوحاً لمن يشاء، فأي عالم يستطيع أن يجلس إلى عمود ويدرس العلم الذي يتقنه، ولم يكن العلماء يتقاضون أجراً أول الأمر، وما لبثت الحكومة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني أن خصصت مرتبات لبعض الشيوخ الذين يدرسون في الحرم، ثم وضعت لهم مخصصات ثابتة في ميزانية الخزانة النبوية، وقد بلغ عددهم ثمانية عشر مدرساً تتراوح مرتباتهم بين ١٥٠ قرشاً و ٥٠٠ قرش سنوياً على نحو مايصرف لمدرسي المسجد الحرام، والملاحظ أن عدد المدرسين المعينين من الدولة قليل بالقياس إلى عدد مدرسي المسجد الحرام الذين يبلغ عددهم أربعة وأربعين مدرساً، وأنهم كانوا يدرسون المذاهب الثلاثة فقط الحنفي والشافعي والمالكي، غير أن التدريس في المسجد النبوي لم يقتصر قط على الذين يتقاضون رواتب من الدولة، بل كان فيه عدد أكبر من المدرسين المتبرعين الذين يعتمدون على ثرواتهم الخاصة أو لهم عمل أو متجر أو بستان يؤمن لهم حاجاتهم، وكان بعضهم يتلقى هبات من الموسرين ومن الزائرين والأموال المرسلة إلى المسجد النبوي، وبخاصة موسري الهند.

ثانياً: العلماء المجاورون:

شهدت المدينة المنورة طوال العهد العثماني قدوم أعداد كبيرة من العلماء من الشام ومصر والمغرب وآسيا الوسطى والهند، وقد سكن هؤلاء المدينة مدة من الوقت تتراوح بين السنة وعدة سنوات للمجاورة، أي للتعبد في المسجد النبوي وكان هؤلاء العلماء يعقدون حلقات التدريس في المسجد النبوي يحضرها طلاب العلم، وقد يتحول هؤلاء العلماء إلى مستمعين في حلقات علماء آخرين، استزادة في العلم، وتضلعاً في أبواب اشتهر بها أولئك العلماء، وتواضعاً، ونجد في تراجم الأعلام إشارات كثيرة إلى رحلة هؤلاء الشيوخ إلى المدينة ومجاورتهم فيها وتدريسهم في المسجد النبوي وقراءتهم

بعض مؤلفاتهم أو مؤلفات غيرهم على الطلاب.

ثالثاً: الكتاتيب:

الكتاتيب مراكز تعليمية عريقة في المجتمعات الإسلامية ترجع إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما رأينا، وقد قامت هذه الكتاتيب بمهمة كبيرة في تعليم أولاد المسلمين القرآن الكريم منذ نعومة أظفارهم وكان لها الفضل في تخريج أجيال من حفاظ القرآن، فإذا تخرج الصبي منها تحول إلى حلقات الشيوخ المختلفة، لذلك نمر -خطفاً- بهذه المرحلة ونحن نستعرض الحياة الثقافية في العهد العثماني، والمعلومات التي لدينا تختص بالمرحلة الأخيرة من العهد العثماني، مطلع القرن الرابع عشر، ونعتقد بأن المراحل الأخرى لم تكن تختلف في هذا الشأن وأن عدد الكتاتيب كان يزداد وينقص بنسبة مايزداد عدد السكان أو ينقص.

كان بعض الكتاتيب في المسجد النبوي وبعضها الآخر في بيوت معلميها في أحياء مختلفة من المدينة، وقليل منها في الأربطة، وعندما أعيد بناء المسجد النبوي في عهد السلطان عبد المجيد خصصت للكتاتيب ست غرف في الجهة الشمالية وبني فوقها طابق آخر لمكتبة المسجد، وعين لكل كتاب معلم وعريف، يأخذان رواتبهما من الخزانة النبوية -ميزانية المسجد النبوي- وكان الشيخ يتقاضى مائتي قرش والعريف يتقاضى مئة قرش، وقد ذكرت السالنامة هذه الكتاتيب منسوبة إلى شيوخها الذين يعلمون فيها على النحو التالي:

١ - كتاب الشيخ مصطفى بن أحمد فقيه، بدأ التعليم فيه سنة ١٢٧٣هـ أي إثر انتهاء البناء المجيدي مباشرة وقد خلف الشيخ مصطفى أخوة إبراهيم.

٢ - كتاب الشيخ مصطفى الزهار بدأ التعليم فيه سنة ١٣٠٠ وقد خلف الشيخ مصطفى الشيخ محمد التابعي ثم الشيخ عبد الفتاح أبو خضر.

٣ - كتاب الشيخ بشير المغربي بدأ التعليم فيه سنة ١٣٠٠هـ

٤ - كتاب الشيخ إبراهيم الطرودي بدأ التعليم فيه سنة ١٣٠٠هـ.

٥ - كتاب الشيخ أحمد الطرودي ولا توجد أية معلومات أخرى عن تاريخ التعليم فيه.

٦ - كتاب الشيخ عبيد السفاري، والشيخ الحافظ حمدي أفندي الذي كان يعلم الخط واللغتين التركية والفارسية.

إضافة إلى تلك الكتاتيب وجدت كتاتيب أخرى داخل الحرم فقد ذكر علي بن موسى ان عدد كتاتيب الحرم ١٢ كتاباً أي ضعف عدد الكتاتيب الموجودة في الغرف(١) وخارج المسجد النبوي قامت كتاتيب أخرى موزعة في أحياء مختلفة ولم يكن معلمو هذه الكتاتيب وعرفاؤها يتقاضون رواتب من الخزينة النبوية، بل كانوا يتقاضون أجوراً محددة من أولياء الطلاب، بلغت آخر العهد العثماني عشرين قرشاً للشيخ وعشرة قروش للعريف كل شهر، فضلاً عن مبالغ أخرى غير محددة يدفعها عند تسجيله في الكتاب وعند حفظ الطالب للجزء الأول ثم لربع القرآن ثم لنصفه وفي شهر رمضان وفي العيدين يدفع مبلغاً جيداً وهدايا قيمة من ضمنها جبة وعمامة للشيخ عندما يختم الطالب القرآن، ويقيم الولي مأدبة يدعو إليها الشيخ والعريف والأصدقاء كما يوزع الحلوى على طلاب الكتاب جميعاً(٢) وأهم الكتاتيب التي كانت موجودة خارج الحرم في أواخر العهد العثماني:

١ - كتاب الشيخ عبد القادر بشير في العنبرية.

٢ - كتاب الشيخ حامد في المرادية بالسيح.

٣ - كتاب الشيخ محمد الغطي في المناخة.

٤ - كتاب الشيخ عبد القادر الشامي في مسجد علي بن أبي طالب.

٥ - كتاب الشريف المغربي في المسحرية.

---

١) انظر رسالة وصف المدينة ص ٥٢.

٢) انظر التعليم في مكة والمدينة للشامخ ص ٩٥-٩٨.

٦ - كتاب الشيخ جلال إلياس في مسجد السبق.

٧ - كتاب الشيخ محمد خليل في قباء.

٨ - كتاب الشيخ إسحق التركي في القباتين.

ويعدد علي بن موسى ثمانية كتاتيب أخرى خارج الحرم يعين أماكنها كما يلي:

١ - كتاب في مسجد القزلار حافظ بهرام أغا في العنبرية.

٢ - كتاب عند سبيل أبي جيدة.

٣ - كتاب عند المرادية وعضل.

٤ - كتاب عند فرق الميري أسسه سليم بك المابنجي.

٥ - كتاب في حوش التاجوري.

٦ - كتاب في بيت الخليفتي.

٧ - كتاب عند واجهة المناخة.

٨ - كتاب في زاوية القشاشي.

٩ - كتاب في زقاق النخاولة.

وقد بلغ مجموع الكتاتيب في الحرم وخارجه ٢٤ كتاباً -كما يذكر أحد شهود العيان-(١) فضلاً عن الكتاتيب المخصصة للبنات والتي أشار إليها علي بن موسى ولكنه لم يحصها ولم يسم واحداً منها(٢) كانت الدراسة في هذه الكتاتيب تركز على قراءة القرآن الكريم ثم تجويده ثم حفظه، وليس هناك سن محدد لدخول الكتاتيب ولكنه يبدأ غالباً بعد الخامسة، وقد يلحق الولد بالكتاب بعد ذلك بعدة سنوات، فالأمر متروك لوالده أو ولي أمره، أما المدة التي يقضيها الطالب في الكتاب فمردها إلى قدرته على الحفظ وكثيراً ما يترك المتعلم الكتاب ليخرج إلى الحياة العملية بعد أن يحفظ بعض السور وبخاصة

---

١) السابق.

٢) انظر ص٥٢.

إذا وجد صعوبة في الحفظ والمتابعة، ونظام الكتاتيب متوارث منذ قرون طويلة، لم يتغير فيه شيء فالشيخ هو المدرس الوحيد غالباً لجميع طلابه، أياً كان عددهم، يساعده العريف، وقد يكون العريف طالباً متقدماً أو متخرجاً من عند الشيخ، ويكون في الكتاب الطالب المبتدئ، ويكون فيه المشارف على الحفظ الكامل، يقرأون جميعاً في وقت واحد، فكل طالب ينتحي جانباً بالجزء الذي هو فيه ويقرأ بصوت غير عال، والشيخ يسمع لطالب واحد الحصة المقررة عليه في الحفظ، ويصحح له أخطاءه فإن رضي حفظه أمره أن يحفظ حصة جديدة قد تكون بضع أيات وقد تكون سورة كاملة، وإن لم يرضى حفظه أمره باعادة الحفظ وربما عاقبه على سوء حفظه بضربات من عصاه وإذا تكرر الإهمال استحق الطالب الضرب على الرجلين (الفلقة) وكذلك إذا بدر منه إساءة كبيرة أو شغب، وكان الطلاب النجباء يساعدون الشيخ في الاستماع لمن هم دونهم في المرحلة أو المبتدئين قبل أن يستمع إليهم الشيخ ليتأكدوا من حفظهم وليوفروا الوقت للشيخ فيأمروا الطالب بإعادة الحفظ وإتقانه إذا أراد أن ينجو من العقاب، وكثيراً ما كان طلاب الكتاتيب يخرجون من كتاتيبهم إلى الحياة العملية مباشرة مكتفين بما حصلوا عليه من حفظ القرآن أو بعض سوره، وبفك الحرف وتعلم بعض الحساب، فمعظم الكتاتيب كانت تعلم أيضاً القراءة والكتابة الأولية إضافة إلى القرآن الكريم، لذا تعد الكتاتيب المدرسة الشعبية العامة أو المرحلة التي يتخرج منها معظم الناس أما المراحل التالية مرحلة المدارس، فكانت تقتصر على طلبة العلم الذين يختارون أو يختار لهم أولياؤهم أن يتفرغوا له وليس هؤلاء بالكثيرين، ويدلنا ذلك على قلة عدد المدارس بالنسبة لعدد الكتاتيب وقلة طلابها أيضاً، وسنقف في الفقرة التالية عليها بشيء من التفصيل.

رابعاً: المدارس:

مر معنا أن السلطان قايتباي أمر ببناء مدرسة قرب المسجد النبوي، ورتب لها أوقافاً تضمن استمرارها في استقبال الطلاب والانفاق عليهم ودفع رواتب المدرسين والعاملين الآخرين، وقد كانت هذه المدرسة أكبر ما بني من المدارس في المدينة حتى نهاية العهد المملوكي.

وعندما بدأ العهد العثماني لم يتغير الأمر عما كان عليه فلا نجد أية إشارة إلى بناء مدرسة جديدة طوال القرن العاشر الهجري، وأول إشارة لمدرسة جديدة نجدها في القرن الحادي عشر الهجري سنة ١٠٣١هـ حيث بني رباط قره باشا ليكون رباطاً ومقراً لمدرسة العلوم الشرعية.

وقد ظلت هذه المدرسة قائمة بمهمتها إلى نهاية العهد العثماني، وكان فيها مكتبة لابأس بها.

بعد ذلك نجد أخباراً عن عدة مدارس تنشأ في هذا القرن والقرنين التاليين، وكان معظم المنشئين من أصحاب السلطة والثروة، بعضهم من السلاطين العثمانيين كالسلطان محمود والسلطان عبد الحميد، وبعضهم من الوزراء، كالوزير علم الدين، وبعضهم من كبار الموظفين في الدولة العثمانية مثل حسين باشا وأحمد أفندي الكبرلي، وبعضهم من الأثرياء الذين قدموا إلى المدينة للمجاورة مثل إبراهيم الصاقزلي.. وقد بنى كل من هؤلاء مدرسة وأوقف لها بعض العقارات في المدينة المنورة أو خارجها للانفاق على مدرسيها وطلابها ولضمان استمرارها بعد وفاة مؤسسيها..

واستمرت بعضها تقوم بالمهمة التي أسست لأجلها إلى نهاية الدولة العثمانية بينما توقفت الدراسة في بعضها الآخر أو تحولت إلى رباط..

ومن المؤسف أن أخبار هذه المدارس قليلة جداً ومتناثرة في الكتب بعضها يرد في سياق ترجمة أحد الأعلام الذين درسوا أو درسوا فيها.. وبعضها الآخر لانجد الا اسمها. ونذكر فيما يلي أسماء المدارس التي عثرنا

عليها والنتف القليلة من أخبارها.

المدرسة الرستمية:

من المرجح أن هذه المدرسة من المدارس التي بنيت في أول عهد العثمانيين، ولا نعرف شيئاً عن مؤسسها سوى أنه رستم باشا الذي سميت باسمه.. والأغلب أنه أحد كبار الموظفين في الدولة العثمانية وقد يكون (الصدر الأعظم) أقيمت هذه المدرسة وسط حارة الأغوات، ويذهب الباحث صالح مصطفى لمعي إلى أنها بنيت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري بسبب تشابه نمط بنائها مع أبنية أنشئت في هذا الوقت، كمسجد علي بن أبي طالب في المناخة الذي أنشأ عام ١٢٦٩هـ، وكمدرسة حسين آغا التي أنشئت عام ١٢٧٣هـ، وهو سبب غير مقنع لأنه يحتمل العكس.. أي يكون كل من مسجد علي بن ابي طالب ومدرسة حسين آغا بنيا على نمط الممدرسة الرستمية.. وقد أورد الشيخ عبد الرحمن الأنصاري في كتابه تحفة المحبين مايدل على وجود هذه المدرسة منذ منتصف القرن الحادي عشر الهجري.. ففي سياق ترجمته للشيخ محمد علي المدرس الرومي أنه (سافر إلى الديار الرومية سنة ١٠٧٠هـ وتقرر -أي عين- في مدرسة الرستمية) ويذكر أن ابنه أحمد قد خلفه في التدريس فيها إلى أن توفي سنة ١١٣٥هـ(١)

ويذكر علي بن موسى في رسالته عن المدينة المنورة (١٣٠٣هـ) أنها أصبحت مخصصة لجلوس ومعايدة الأغوات رابع يوم عيد الفطر(٢) ويوضح ذلك في حديثه عن احتفالات أهل المدينة بعيد الفطر فيقول ((واليوم الرابع يزين الأغوات دكة الرستمية الكائنة بحارتهم المخصوصة بجلوسهم دائماً ويلبسون أعمدتها وجدرانها بأستار الحرير الأخضر المعلقة داخل شبكة

---

١) تحفة المحبين ص ٤٣٨.

٢) ص ٤٦-٤٧.

الحجرة المعطرة، ويلعب عبيدهم ومواليهم عندها بالسيف والدرقة والطياس، تضرب لمن جاء لمعايدتهم، ويجلس الكبير والصغير منهم بأجمل الملابس إلى وقت الظهر، وذلك يوم عيدهم وعيد الساكنين حول الحرم الشريف..))(١) ويوحي كلام علي ابن موسى أن المدرسة قد توقف التعليم فيها وتحولت إلى مجلس خاص بالأغوات لأنه لم يذكر هذه المدرسة بين المدارس التي كانت قائمة في وقته لذا لاندري متى توقفت الدراسة فيها.. رغم أن بنائها ظل قائماً إلى أن هدمت حارة الأغوات وأدخلت في توسعة المسجد النبوي وقد صورها الباحث صالح مصطفى لمعي وأورد وصفاً لنمط بنائها وغرفها. ولا نملك تفصيلات عن حجم هذه المدرسة وعدد غرفها وطريقة التدريس فيها، ولكن الوصف الذي أورده الباحث صالح لمعي يبين أن المبنى قد دخلته بعض التعديلات فتغير مدخلها وأنه كان فيها حوش مستطيل يدور حوله غرف، أمامها رواق يفتح على الحوش عن طريق عقود مدببة، والمبنى من طابق واحد(٢).

مدرسة قره باشي:

لعلها أول المدارس التي أنشئت في العهد العثماني، أنشأها القاضي الذي عينته الدولة في مكة المكرمة عام ١٠٣١هـ وقد أنشأ مدرسة مثلها في مكة وأوقف لكل منها عدة عقارات، فإذا لم تكف واردات إحداهما يؤخذ من واردات الثانية لتغطية احتياجاتها وبالعكس، وقد تحولت المدرسة إلى رباط ما زال قائماً حتى الآن رغم تغير المبنى بسبب دخول المبنى الأول في مخططات توسعة المسجد النبوي، ويبدو أن الدراسة فيها قد توقفت قبل مطلع القرن الرابع عشر الهجري إذ لم يرد ذكرها بين المدارس في رسالة علي بن موسى ولا في إحصائية السالنامة، ولكن وقفها محفوظ في يد مديرية أوقاف المدينة

---

١) ص ٧٨.

٢) ص ٢١٨.

المنورة وفيه مايشعر أنها كانت مدرسة، وكذلك ذكرها شكيب أرسلان عندما زار المدينة المنورة عام ١٣٣٢هـ وقرر أن بها مكتبة(١).

مدرسة محمد آغا (دار السعادة):

هي من المدارس التي أنشئت في فترة مبكرة من العهد العثماني ايضاً، فقد كانت قائمة في نهاية القرن الحادي عشر للهجرة يدرس فيها الشيخ يوسف أفندي الشرواني (نسبة إلى مدينة شروان بالديار الرومية) وقد قدم الشيخ يوسف المدينة عام ١٠٩٠هـ وتولى التدريس فيها بعده ابنه مصطفى، فانتزعت منه بقرار من الآستانة، انتزعها السيد جعفر برزنجي الذي عاش في الفترة من (١١٢٨-١١٧٧هـ) محتجاً بأنها كانت لوالده السيد حسن برزنجي، وقد حاول مصطفى وأخوه أحمد من بعده استرجاع المدرسة بقرار من استانبول ولكنهما لم يفلحا وبقيت في يد آل البرزنجي وربما تغير اسمها بعد ذلك أو أغلقت إذ لانجد لها ذكراً بين الأسماء التي ذكرتها السالنامة ولا ذكراً لأحد من آل البرزنجي في التدريس بالمدارس المذكورة(٢).

مدرسة الشفاء:

أنشأها شيخ الإسلام فيض الله الهندي عام ١١١٢هـ/١٧٠٠م، وهو من علماء الدولة العثمانية، تولى منصب شيخ الإسلام مرتين، كان سخياً ينفق بسخاء في إنشاء المساجد والمدارس والمبرات الخيرية، وله أوقاف عدة في استانبول وأرضروم ودمشق.. وقد زار المدينة وبعد عودته أرسل الأموال اللازمة لشراء الأراضي وإقامة المبنى، فأقيم في حارة ذروان، وتحتوي على أكثر من عشرين غرفة، واحدة للناظر، وأخرى للمكتبة وأخرى لحافظ الكتب، وأخرى للمدرس وأخرى للتدريس وست عشرة غرفة لإقامة الطلاب ومسجد ومطبخ، وقد أوقف لها عدة عقارات في المدينة وخارجها، وظلت تؤدي دورها

---

١) مجلة المجمع العلمي بدمشق مجلد ١٨ ع ٣ و٤ سنة ١٩٥٣ ص ٤٩٤-٤٩٥.

٢) انظر تحفة المحبين ص ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣. والسالنامة ع ١ ١٣٠٣هـ ص ١٤٨.

إلى نهاية العهد العثماني(١).

- **مدرسة الساقزلي:**

بنيت هذه المدرسة عام ١١٢٥هـ على نفقة السيد أحمد بن إبراهيم الصاقزلي، وهو تاجر قدم إلى المدينة من آسيا الوسطى وأقام فيها، ثم سافر إلى الهند للتجارة فحقق أرباحاً كبيرة اشترى بها عقارات عدة أوقفها للإنفاق على المدرسة، وكان طلابها من القادمين من آسيا الوسطى لطلب العلم والمجاورة، وقد أشرف عليها مؤسسها مدة حياتة ولما مات تولاها أخوه إذ لم تكن للسيد أحمد ذرية.. ثم تولاها بعده الشيخ محمد بن أبي طاهر طول زادة وصار مدرسها، وتتألف هذه المدرسة من ١٥ غرفة واحدة للمدرس وواحدة للمكتبة، وواحدة للموظف المقيم فيها وواحدة للمهمات (المستودع) وواحدة للتدريس، وعشر غرف لإقامة الطلاب. وكان موقعها في شارع الساحة.

وتعد هذه المدرسة من أغنى المدارس بالأوقاف، فمن أوقافها حوش عميرة الذي يحوي ٢٥٠ داراً، وستة دور أخرى وست دكاكين وبستان، لذلك ظلت هذه المدرسة قائمة إلى نهاية العهد العثماني، وكان لها مكتبة قيمة(٢).

المدرسة الجديدة أو مدرسة كبرلي:

بنيت عام ١١٥٠هـ على نفقة أحمد أفندي الكبرلي، ويبدو أنه أحد الميسورين في آسيا الوسطى (بلاد الروم) وقد أرسل المال من هناك وكلف بالإشراف على البناء موسى الطرنوي، وليس لدينا معلومات عن عدد غرفها.

تولى التدريس فيها شيوخ قدموا من بلاد منشئها منهم أحمد أفندي الكركوكي ومحمد أفندي المسعودي ومحمد سعيد بيت خادم، وكان الأخير يسافر إلى الآستانة ويعود بالمال الوفير، وقد خصص له مرتب سنوي من

---

١) انظر المكتبات العامة في المدينة ص ٣٩.

٢) انظر المكتبات العامة ص ٣٧. وانظر السالنامة ع ١٣٠٩ ص ١٤٨.

الخزانة النبوية قدره ٥٠٠ قرش وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت..

ظلت هذه المدرسة قائمة إلى أواخر العهد العثماني وورد ذكرها في السالنامة ومدرسها آنئذ خليل أفندي الخربوني(١).

مدرسة بشير آغا:

لانعرف شيئاً عن مؤسسها سوى اسمه الأول الذي أطلق عليها، وربما كان أحد الموظفين الكبار في الدولة العثمانية، وقد بنيت هذه المدرسة كما جاء في صك وقفيتها عام ١١٥١هـ ويتألف مبناها من طابقين وهو على شكل مستطيل وسطه ساحة واسعة، وفيه ثلاثون غرفة، وكان للمدرسة مكتبة قيمة.. وقد أوقفها مؤسسها على طلاب العلم من الأروام، ووضع لها نظاماً دقيقاً للدروس والموظفين، ورتب لها أوقافاً تدر عليها مايؤمن حاجة الطلاب والمعلمين والموظفين.

ظلت المدرسة قائمة إلى عهد التوسعة الأخيرة للمسجد النبوي حيث هدمت ودخلت أرضها في مرافق المسجد(٢).

المدرسة الحميدية:

أنشأها السلطان عبد الحميد الأول الذي تولى الخلافة من ١١٨٧ إلى ١٢٠٣هـ. وتقع في منطقة الساحة آخر البلاط عند حارة الخزارة. وليست لدينا معلومات عن مبناها، غير أن وجود مكتبة كبيرة فيها يدل على أنه كان كبيراً. وقد ظلت قائمة إلى آخر العهد العثماني وورد ذكرها في رسالة علي بن موسى وفي السالنامة وفي رحلة البنتوني(٣).

---

١) انظر تحفة المحبين للأنصاري ص ٣٣٩، ٤٥٦، ٤٦٤. والسالنامة ع١ سنة ١٣٠٢ هـ ص ١٤٩.

٢) انظر وسائل تاريخ المدينة ص ٥٢ نزهة الناظرين ص ٣٨، الرحلة الحجازية للبنتوني ص ٢٥٥.

٣) انظر رسائل في تاريخ المدينة ص ٥٢، السالنامة ع ١، البنتوني ص ٢٥٥.

١ ـ مواقع المدارس والكتاتيب في المسجد النبوي وبجانبه مدرسة قايتباي والتي تحول اسمها إلى المدرسة المحمودية ثم المكتبة المحمودية.



٢ ـ مبنى المدرسة المحمو.ية ملاصقاً لباب السلام

المدرسة المحمودية:

أمر ببنائها السلطان محمود الثاني سنة ١٢٣٧هـ. ويرى التونسي أنه جددها وأنها هي مدرسة قايتباي ولكنه وسعها وألحق بها مكتبة[1] وذكر علي بن موسى أن بالمدرسة نحو الأربعين حجرة منها سكن للمدرس وحديقة صغيرة في وسطها وحديقة في جنبها الغربي[2] وتقع المدرسة في منطقة مجاورة للحرم بين باب السلام وباب الرحمة، وتطل نوافذها من جهة الشرق عليه مباشرة لايفصله عنها سوى زقاق ضيق.

ويبدو أنها كانت حسنة التنظيم حتى إن علي بن موسى جعلها أشهر مدارس المدينة وأعظمها. ونظراً لقربها من الحرم فقد بني فيها ((ميضات)) عامة وفيها بيوت الخلاء، وتوجد صورة لمبنى المدرسة تبين أنه كان مبنى واسعاً يتضمن عدداً من الغرف للإقامة ومطبخاً للطعام وغرفاً للتدريس، ولا ندري عدد الحلقات أو الفصول التي كانت بها، فمن المؤسف أن تاريخها لم يدون رغم شهرتها الواسعة.. ولعل السبب الكبير في شهرتها هو مكتبتها القيمة التي انشئت قبل مكتبة عارف حكمت، وظلت أكبر مكتبات المدينة إلى أن فاقتها مكتبة عارف حكمت، وقد جاء في إحصائية السالنامة عام ١٣٠٩ أن عدد الكتب الموجودة بها هو ٤٥٦٩ كتاباً، وكانت حتى ذلك الحين مدرسة.

جاء في صك وقفها مايلي: وقف السلطان الغازي محمود خان بن السلطان عبد الحميد خان.. المدرسة الكائنة بالمدينة المنورة بين باب السلام وبين باب الرحمة التي بناها مجددة والمستغنية عن التجديد، المعروفة لدى الجميع والمشتملة على ٢٣ غرفة ومحل للتدريس ومحل للكتب والمرافق اللازمة

---

١) التونسي ص ٢.

٢) ص ٤٤.

لها(١) أوقف لها دارا للمدرس ودارين لحافظي الكتب.

أزيلت هذه المدرسة عام ١٣٧١هـ عندما بدأ مشروع توسعة الحرم.

مدرسة حسين آغا:

أنشأها ناظر التكية المصري حسين أغا عام ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م بعد أن تقاعد من وظيفته وقرر المجاورة في المدينة المنورة وسماها باسمه ويبدو أنها كانت تحوي مكاناً للإقامة والطعام (تكية) وتضم مكتبة فيها ١٠٠٠ كتاب.

تقع هذه المدرسة في حي الأغوات أيضا وقد ظل مبناها قائما إلى أن أزيل في مشروع تحسين شوارع المدينة، ورد ذكرها في كتابات عدد ممن كتبوا عن المدينة مثل إبراهيم رفعت وعلي بن موسى وصالح لمعي وقد وضع مؤسسها حجرا على بابها دون فيه بالتركية تاريخ إنشائها وتخصيصها لتدريس العلوم الدينية.. وورد ذكرها في السالنامة أواخر العهد العثماني وذكر أن مدرسها آنئذ أحمد أفندي البوزغاني(٢).

المدرسة الإحسائية:

أسسها رجل يدعى مصطفى بن عبد الرسول بن سلمان بن عبدالرحمن بن عبد الرحيم عام ١٢٧٥هـ ويعتقد أنه من الهند. وتقع في حارة الأغوات في أخر الزقاق إلى البقيع، وقد أوقف عليها عدة عقارات منها سبعة دور وخمسة عشر دكاناً.

ولا نعرف شيئاً عن مبناها سوى أنه يتألف من طابقين وأن احدى غرفها مكتبة تضم ٤٦١ كتاباً وقد ترك مؤسسها صكاً وقفياً يبين فيه رواتب المدرسين والعاملين الآخرين فيها والطلاب وبفضل هذا الوقف ظلت المدرسة

---

١) التونسي ص ٤.

٢) السالنامة ع ١ ١٣٠١هـ ص ١٤٨.

قائمة إلى آخر العهد العثماني وورد ذكرها في السالنامة(١).

مدرسة الوزير علم الدين:

أنشأها -كما ذكرت الكتابة الموجودة على واجهتها- الوزير علم الدين عام ١٣٠١هـ أحد وزراء الدولة العثمانية ذلك الوقت. وتقع في منطقة الداودية، ويتألف مبناها من ثلاثة طوابق تحوي سكناً للطلاب والمجاورين ومطبخاً.

والمدهش أن هذه المدرسة لم تذكر في قائمة المدارس التي أوردتها السالنامة مع أنها أسست قبل صدور السالنامة بفترة قريبة

مدرسة حسن باشا:

لانعرف متى أنشئت ومن أنشأها ولكنها كانت مفتوحة للتدريس في القرن الثاني عشر الهجري. فقد جاء في ترجمة صالح أفندي شيخي الرومي أنه جاء إلى المدينة مع أخيه محمد أفندي وعمل فيها مدرساً إلى أن مات فأعقبه ابنه أحمد وكان رجلا عالماً فخلف اباه في العمل مدرساً في المدرسة المزبورة(٢).

مدرسة كيلي ناظري:

أسسها مصطفى كيلي ناظري عام ١٢٥٤هـ ويتكون مبناها من ثلاثة أدوار ومضيف وتضم ٢٤ غرفة، منها سكن للناظر وآخر للمدرس وغرفة للمكتبة ومسجد واسع هو مقر الدراسة وغرف لإقامة الطلاب ومطبخ.

والطريف أن مؤسسها اشترط أن يكون طلابها من الأحناف فقط. وكان للمدرسة أوقاف داخل المدينة المنورة. وقد ظلت قائمة إلى عام ١٣٨٠هـ(٣).

المدرسة القازانية:

أنشأها عبد الستار القازاني عام ١٣١١هـ ويقع مبناها في زقاق جعفر،

---

١) انظر السالنامة ٣٠٨/١، والمكتبات العامة في المدينة ص ٣٦.

٢) تحفة المحبين ص ٣١٧.

٣) انظر المكتبات العامة ص ٤١.

ويتألف من طابقين فيها ستة وثلاثون غرفة ومكتبة جيدة. وقد أوقفها منشؤها على طلاب العلم التتار القادمين من جهة قازان.. ويبدو أنها تحولت إلى رباط بسبب هذا الشرط(١).

المدرسة العرفانية:

أسسها محمد عارف بن مصطفى طوقاي عام ١٣١٤هـ، ولعلها آخر مدرسة أهلية أنشئت في العهد العثماني، وكان منشئها مدرساً في مدرسة بشير آغا ثم تركها وبنى هذه المدرسة ليدرس فيها، تضم المدرسة ١٢ غرفة زادها الناظر عمرعادل التركي أربع غرف بعد ذلك، وفيها مكتبة جيدة، ولها أوقاف تضم ١٧ دكاناً وسبعة دور وقطعة أرض.

مدرسة الخاسكية:

أنشأتها إمرأة تدعى خاسكي سلطان في الجنوب الغربي من المسجد النبوي، على طرف مجرى وادي (أبو جيدة) ومقابل باب قباء، ويبدو أن التدريس قد توقف فيها بعد مدة من تأسيسها فتحولت إلى مقر دار حكومة ثم صارت (خاستة خانة) مستشفى للعساكر النظامية، وفيهاحديقة صغيرة ومسجد ومنارة ظريفة(٢).

وثمة مدارس أخرى ورد ذكرها في السالذامة وفي رسالة علي موسى وليست لدينا أية معلومات عن تاريخ إنشائها ومنشئيها ومبانيها، ويغلب على الظن أنها بنيت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، ومن هذه المدارس :

مدرسة ثروت أفندي، مدرسها أحمد أفندي.

مدرسة أمين أفندي القنابرجي، مدرسها أحمد أفندي الجاللي.

مدرسة أوز بك، مدرسها أخو نجا أفندي بخاري.

---

١) انظر مكتبات المدينة ص ٣٣.

٢) انظر رسائل في تاريخ المدينة ص ٤٠.

المدرسة الجليلية، مدرسها عمر لطفي أفندي.

مدرسة أمين باشا شيخ المسجد النبوي في مطلع القرن الرابع عشر للهجرة وهو غير أمين أفندي القنابرجي(١).

وهكذا نجد في المدينة المنورة ثلاثاً وعشرين مدرسة خلال العهد العثماني لم تكن موجودة كلها خلال وقت واحد ولكن مايزيد على النصف قد وجد في القرن الأخير من العهد العثماني على أقل تقدير. وهذا العدد معقول جداً بالقياس إلى عدد السكان منذ بداية العهد العثماني إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري، قبل أن تشهد المدينة الطفرة الكبيرة التي أحدثها الخط الحديدي الحجازي.

وهنا يثور سؤال مهم: مادامت كل هذه المدارس موجودة في العهد العثماني فلماذا كانت الأمية متفشية بين معظم السكان داخل المدينة وخارجها؟ ولماذا نجد صورة قاتمة للحياة الثقافية في العهد العثماني في معظم الكتابات التي أرخت للمدينة أو تحدثت عنها في هذه الفقرة؟

كي نصل إلى إجابة دقيقة نبين حقيقتين مترابطتين أدتا إلى تلك الصورة الأولى وهي أن تلك المدارس كانت محدودة العطاء، بسبب نظامها الداخلي، فرغم أن إنشاء أية مدرسة يقتضي مبالغ كبيرة لشراء الأرض وإقامة المبنى وكانت المباني واسعة وصل عدد غرف بعضها إلى خمسة وأربعين غرفة إضافة إلى غرف الخدمات (المطبخ، المكتبة، الناظر، المسجد)، ومثل هذه المدرسة يمكن أن تستوعب في عصرنا هذا ألف طالب على الأقل ولكنها في ذلك الوقت لم تتسع لأكثر من خمسين طالب، ذلك أن معظم الغرف مخصصة لإقامة الطلاب، وأما التدريس فتخصص له غرفة أو مسجد المبنى، ويقيم الطلاب في المدرسة إقامة دائمة، وتكون لكل طالب غرفة مستقلة، وقد تكون للمدرس غرفة أيضاً، وكذلك يكون لكل مدرسة مدرس واحد غالباً، وفي حالات

---

١) انظر مرآة الحرمين ٢٤٣/١، وانظر السالنامة ٦٠٣-٣٠٨ ع١٣٠٩/٩.

قليلة يكون العدد إثنان أو ثلاثة، وهذا النظام يهيئ لطالب العلم تفرغاً كاملاً وهو أشبه بمرحلة الدراسات العليا في عصرنا حيث مشرف واحد وطلاب قليلون، يخرج العلماء، فهو مرحلة الفئة الممتازة، ولكن هذه المرحلة تسبقها في عصرنا مراحل أخرى هي الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعية، تستوعب الأعداد الكبيرة من الطلاب وتقدم قدراً وافراً من الثقافة للجميع، فمن كانت له مؤهلات المتابعة وظروفها دخل مرحلة الدراسات العليا، وهؤلاء قليلون دائماً لأن الحياة تشد القسم الأكبر من الدارسين ليخوضوا فيها، فيكون في المجتمع فئات مثقفة كثيرة ومتنوعة تقوم بخدماته الأساسية، وهذا مالم تكن تصنعه المدارس الأهلية القديمة، فلم تكن تستوعب الأعداد الكبيرة من الطلاب، ولم تكن تقتصر على تقديم العلم دون الإقامة والطعام، كانت تتسلم طالب العلم بعد أن يتخرج من الكتاب وتتولى رعايته حتى يتخرج عالماً، وقد تتسلمه من حلقات المسجد وتكمل له تعليمه، لذلك ووفق هذا النظام لم يكن في طاقتها أن تستوعب عدداً كبيراً يقضي على الأمية ويخرج أنصاف المثقفين، ولو تصورنا وجود عشرين مدرسة في وقت واحد في المدينة المنورة فلن يزيد عدد طلابها عن خمسمائة طالب، بعضهم من أهل المدينة وبعضهم من الوافدين إليها من البلاد الإسلامية، وربما تكون هذه الفئة هي الأكثر، إذن سيبقى مستوى التعليم بين عامة الناس قليلاً وستكون خدمة هذه المدارس ممتازة لعدد قليل.

المدارس الحكومية

وفي عهد السلطان عبد الحميد تنبهت الدولة العثمانية لهذه القضية وبدأت تفتح المدارس الحكومية في المدن، ولا نعرف بالتحديد متى افتتحت المدرسة الحكومية في المدينة المنورة، ولكننا نجد في رسالة علي بن موسى عبارة يقول فيها (صار في زمن سلطاننا عبد الحميد الغازي بن عبد المجيد مكتب

رشدية لتعليم الصبيان الخطوط وسائر اللغات)(١) وجاء في إحصائية السالنامة أن عدد طلاب هذه المدرسة كان ٢٥ طالباً في عام ١٣٠١هـ وارتفع عام ١٣٠٥هـ إلى ٥٥ طالباً واستمر على هذا العدد إلى عام ١٣٠٩هـ، وكانت المدرسة الرشدية (نسبة إلى والي الحجاز رشدي باشا) تحتل إحدى الغرف الشمالية في المسجد النبوي بجانب غرف الكتاتيب الستة، ثم انتقلت إلى قرب باب الصغير حيث تحولت فيما بعد إلى المدرسة الفيصلية، ونلاحظ قلة عدد الطلاب رغم أنها لاتقدم خدمة المبيت والطعام.

وعندما بدأت طفرة التطور في المدينة المنورة وازداد عدد سكانها افتتحت الدولة أربع مدراس تحضيرية، يتكون كل منها من أربعة فصول، وثلاث مدارس ابتدائية يتكون كل منها من ستة فصول ومدرستين ليليتين لتعليم الأميين، وليست لدينا معلومات دقيقة عن تاريخ افتتاحها، ولكننا نستنتج من عدم ذكرها في السالنامة /١٣٠٩هـ أنها افتتحت بعد هذا العام، وقبل عام ١٣١٧هـ كما يذكر السيد عثمان حافظ الذي درس في واحدة منها في ذلك التاريخ(٢) وفي عام ١٣١٧هـ افتتحت الدولة العثمانية مدرسة اعدادية في المدينة المنورة يدخلها المتخرجون من المدارس التحضيرية، وكانت ذات خمس فصول، وقد أضيف إليها فصل سادس باسم (إحضاري فصلي جامعي) وهو بمستوى الثانوي، وكانت الحكومة العثمانية تبتعث كل عام أربعة من خريجي هذه المدرسة إلى استانبول أو دمشق أو القدس لإكمال دراستهم الجامعية، ومن هؤلاء المبتعثين الشيخ محمد المغيربي فتيح والشيخ عمر قازاني والشيخ عبد القادر عبد الجواد والشيخ سليمان حماد والشيخ كامل حواري والشيخ حسين قباني والشيخ ناظر طرابزوني والشيخ عمر توفيق والشيخ حسن عنبر خان والسيد رفاقت علي الذي درس الطب وعاد ليمارسه

---

١) ص٥٠.

٢) انظر التعليم في مكة والمدينة ص٧٤

في المدينة والسيد جميل أحمد(١) وكان هؤلاء المبتعثون رواد الحركة التعليمية الجديدة فيما بعد فقد صار معظمهم أساتذة ومديرين وأصحاب مناصب حساسة.

وكان آخر ما افتتح في العهد العثماني من المدارس معهد المعلمين، بدأ التدريس فيه عام ١٣٢٧هـ لتخريج مدرسين للمراحل التحضيرية الابتدائية وقد خصصت الحكومة رواتب للطلاب لتشجيعهم على الالتحاق بها، ولكن عدد طلابها لم يزد على ٥٠ طالباً بعد أربع سنوات من إنشائها، ولم يتخرج منها -كما يذكر الأستاذ محمد حسين زيدان- سوى دفعة واحدة تتألف من أربعة طلاب فقط.

وأغلقت المدرسة بسبب الحرب العالمية الأولى وأرسل طلابها المتفوقون إلى كلية صلاح الدين الأيوبي بالقدس والمدرسة السلطانية بدمشق، ، وكما ذكرنا من قبل بدأ الإتحاديون الذين خلعوا السلطان عبد الحميد بإنشاء كلية في المدينة المنورة وقدم عبد العزيز جاويش مديراً لها ومعه شكيب أرسلان وعبد القادر المغربي وشرعوا في تأسيس المبنى وانتهوا من الطابق الأول ثم قامت الحرب العالمية الأولى وبدأ حصار المدينة فطوى المشروع ولم تفتح الكلية.

تلك هي الصورة العامة للمدارس والتعليم في المدينة المنورة في العهد العثماني.

---

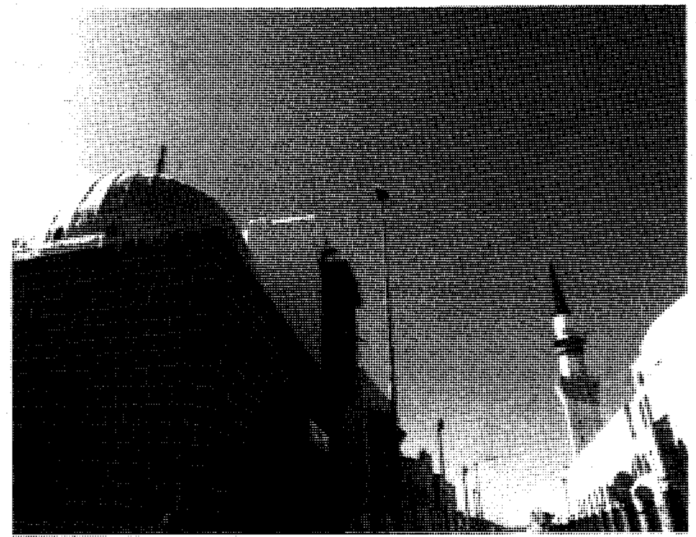
١) انظر مقدمة الخطراوي لديوان عمر إبراهيم بري ص٢٦.

مكتبات المدينة المنورة في العهد العثماني

كانت المكتبات المحور الثقافي الثاني في المدينة المنورة في العصر العثماني. فإضافة إلى خزائن الكتب في المسجد النبوي والأربطة والمدارس التي كانت قائمة في عهد المماليك أنشئت عدة مكتبات جديدة بعضها ملحق بالأربطة والمدارس، وبعضها مستقل عنها، ولأول مرة تظهر مكتبة عامة غير مرتبطة بمدرسة أو رباط أو مسجد في المدينة المنورة، مهمتها استقبال القراء وتقديم الخدمات لهم، كما أن بعض العلماء الذين أسسوا مكتبة خاصة بهم فتحوا بيوتهم لاستقبال طلاب العلم، وسمحوا لهم باستخدام مكتباتهم الخاصة.. وسمحت بعض الأربطة والمدارس بإعارة الكتب مقابل تأمين يودعه المستعير في مكتبتها إلى أن يعيد الكتاب.. وقد تطور إنشاء المكتبات خلال العهد العثماني الطويل، فكان بطيئاً أول الأمر، مرتبطاً بإنشاء رباط أو مدرسة.. ثم ازداد وبلغ ذروته في القرن الثالث عشر الهجري، وفيه أسست أشهر مكتبات المدينة، وربما أشهر المكتبات في الدولة العثمانية كلها. وقد بلغ عدد المكتبات في أواخر العهد العثماني ثمانية وثمانين مكتبة مابين مكتبة عامة وخاصة، وسنعرض فيما يلي أهم المكتبات التي أنشئت في العهد العثماني بقدر ما تسعفنا الإشارات التاريخية القليلة.

مكتبة عارف حكمت:

نالت هذه المكتبة أوسع شهرة نالتها مكتبة عربية قديمة.. وتعد من ذخائر المدينة المنورة ومن المكتبات التراثية المتميزة، لما تحتويه من مخطوطات نادرة. أسسها أحمد عارف حكمت عالم تركي المنشأ، يرجع نسبه للحسين بن علي رضي الله عنهما، تولى قضاء القدس ثم قضاء مصر ثم قضاء المدينة المنورة عام ١٢٣٩هـ، ثم نقل إلى عدة وظائف في استانبول وانتهى به الأمر إلى أن عين شيخ الإسلام عام ١٢٦٢هـ واستمر في هذا المنصب قرابة ثماني سنوات، ثم أقيل عام ١٢٧٠هـ فتفرغ للعبادة والعلم إلى أن مات في



استانبول عام ١٢٧٥هـ.

وقد أنشأ المكتبة التي سميت باسمه بعد أن أقيل مباشرة عام ١٢٧٠هـ، وأرسل أموالاً وافية لإنجاز بناء خاص بها قرب المسجد النبوي من الجهة الجنوبية، ثم بدأ يرسل مجموعات متوالية من المخطوطات النادرة والكتب المطبوعة ((وبذل في اقتناء كتب مكتبته وشرائها أموالا كثيرة وجهوداً كبيرة حتى تجمعت له من أقطار الأرض أنفس الكتب وأجملها خطاً وأعلاها شأناً وأغلاها قيمة، وقد كتب بيده على صفحة عنوان أحد المخطوطات أنه دفع مبلغ أربعمائة جنيه عثماني ذهبي لشرائه، وعلاوة على حرصه أن تكون المخطوطة مكتوبة لأشهر الخطاطين، فإن بعض المخطوطات الفارسية كتبها بيده رحمه الله))(١) وقد حرص أحمد عارف حكمت على أن تكون مكتبته مركزاً ثقافياً حقيقياً ومستمراً عبر الأجيال في نشر الثقافة، فوضع شروطاً لاختيار الموظفين ونظاماً للاستفادة من الكتب الموجودة. وأوقف لها عقارات كثيرة في استانبول والمدينة المنورة أيضاً/ ((وأما ما أوقفه عليها بالمدينة فهو خمسة دور، الأولى بجوار التاجوري، والثانية بباب المجيدي، والثالثة في زقاق الطيار، والرابعة كانت في حوش التكارنة، والخامسة كانت في زقاق القشاشي، ولم يكن دخل هذه الدور شيء يذكر.

وأما ما أوقفه في استانبول فقد ورد في صك الوقفية أنه أوقف جملة أبنية فيه: خان يشتمل على أربع غرف واصطبل وفرن ودكان بقالة ودكان حلاقة وصوندرمة (سقيفة) وخان (فندق) وأبنية أخرى متصلة بهذا الخان فيها مصنع وفرن كبير وبئر ماء، وأوقف أيضاً بستاناً كبيراً فيه أشجار مثمرة وعدة آبار وحماماً عامة وثمانية دكاكين. وذكر في الصك أن مساحة هذه العقارات ٥٥٥٩ ذراعاً مربعاً وأن دخلها السنوي لايقل عن خمسة عشر

---

١) د. محمد عيد الخطراوي مقدمة كتاب عارف حكمة. حياته ومأثرة لشهاب الدين الألوسي. مكتبة دار التراث بالمدينة ومؤسسة علوم القرآن ص ٣٢.

ألف جنيه ذهبي عثماني.))(١).

/وقد وضع منشيء المكتبة نظاماً دقيقاً للانتفاع بها أورده في صك الوقفية، من أهم بنوده:

١ - يعين مدير للمكتبة وأربعة موظفين (من العلماء الصالحين الذين صاروا فارغي البال محمودي الخصال) وخادم يقوم بوظيفة البواب والفراش والسقاء.

٢ - تفتح المكتبة بعد طلوع الشمس بساعة وتغلق قبل الغروب بساعة.

٣ - يبدأ الموظفون عملهم بقراءة جزئين من القرآن كل يوم يقرأهما إثنان بالتناوب.

٤ - لايجوز منع أي مرتاد عن الاستفادة من الكتب داخل المكتبة ولا يجوز إخراج أي كتاب من المكتبة.

٥ - يتم جرد المكتبة كل ثلاث سنوات مرة بإشراف قاضي المدينة المنورة.

٦ - يتم ترميم الكتب التي تحتاج لذلك وإعادة تجليدها.

وقد وضع المؤسس شروطاً دقيقة لاختيار المدير والموظفين، ومنع توريث وظائفهم لأبنائهم وأمر بصرف من لايحسن القيام بعمله وتوظيف غيره، وحدد رواتب الموظفين بمبالغ مناسبة في ذلك الوقت..

وقد بلغ عدد الكتب التي حوتها هذه المكتبة حسب إحصائية السالنامة ٤٠٤٥ كتاباً(٢).

تميزت هذه المكتبة بخدماتها الكبيرة للقارئ حتى إنها كانت تقدم لهم مايلزمهم من ورق وأقلام وأدوات وخلافها، وتؤمن لهم جو الراحة والهدوء. تضم هذه المكتبة مخطوطات نفيسة منها أمهات الكتب الشرعية واللغوية

---

١) مقدمة الخطراوي ص ٣٢-٣٣، التونسي ص ١٧.

٢) ع ١٣٠٩ ص ١٠٦.

والأدبية(١)./

المكتبة المحمودية:

أنشأها السلطان محمود الثاني عام ١٢٣٧هـ حسب ماذكر في صك وقفيتها، وبنى لها مقراً ملحقاً بالمدرسة المحمودية. وقد زارها محمد لبيب البنتوني صاحب (الرحلة الحجازية) عام ١٢٣٧هـ وقال عنها: وهي وإن كانت أصغر من كتبخانة عارف حكمت وأقل منها نظاماً إلا أنها جميلة ومرتبة(٢) وذكرت السالنامة أن عدد كتبها ٤٥٦٩ كتاباً.

وتضم هذه المكتبة حوالي ثلاثة آلاف مخطوط بعضها من المخطوطات النادرة، ويذكر التونسي أن عدداً من العلماء أوقفوا كتبهم لها، منهم المحدث المشهور الشيخ محمد عابد السندي، الذي ولاه محمد علي باشا مشيخة علماء المدينة، فقدم إليها وأقام فيها، وكانت لديه مكتبة نفيسة أوصى بوقفها بعد موته(٣).

مكتبات المدارس:

أنشئت في المدارس مكتبات كانت تخدم طلابها في المقام الأول، وتخدم الشيوخ وطلاب العلم الذين يقصدونها للقراءة فيها.. وكان بعضها يسمح بالإعارة الخارجية مقابل تأمين يسلمه المستعير لخازن المكتبة، ويسترده عندما يعيد الكتاب. وقد أوردت السالنامة العثمانية إحصائية لهذه المكتبات وما فيها من الكتب ضمن الإحصائية العامة لمكتبات المدينة المنورة، وهي بحسب تسلسل عدد كتبها كما يلي(٤):

مكتبة مدرسة بشير آغا ٢٠٦٣ كتاباً

---

١) التونسي ص ٢١.

٢) الرحلة الحجازية ص ٢٥٥.

٣) انظر الأعلام ٦/١٨٠.

٤) انظر السالنامة عدد ١٣٠٩ ص ٣٠٦، ٣٠٧.

مكتبة مدرسة السلطان عبد الحميد خان الأول	١٦٦٩	كتاباً
مكتبة مدرسة عمر أفندي قره باش	١٢٦٩	كتاباً
مكتبة مدرسة الشفا	١٢٤٦	كتاباً
مكتبة مدرسة الساقزلي	٥٩٣	كتاباً
مكتبة مدرسة الأحسائية	٤٦١	كتاباً
مكتبة مدرسة الكبرلي	١٥٧	كتاباً
مكتبة مدرسة أمين أفندي	١٠٠	كتاباً
مكتبة مدرسة حسين آغا	١٠٠	كتاباً

وذكر التونسي إضافة إلى هذه المكتبات، مكتبة المدرسة القازانية ومكتبة مدرسة كيلي ناظري ومكتبة العرفانية، ولم يذكر عدد كتبها ولكنه قال: إن فيها كتباً كثيرة جيدة أوقفها عدد من الأشخاص.

وفي الغالب يرتبط افتتاح هذه المكتبات بافتتاح المدارس الموجودة، وربما تأخر افتتاح بعضها عدة سنوات إلى أن توافرت لها الكتب.

ونلاحظ أن المدارس الأخرى التي ذكرتها في مبحث المدارس لم تشر إحصائيات السالنامة إلى مكتباتها، ومن غير المعقول أن توجد مدرسة بلا مكتبة، لذا نرجح وجود مكتبات محدودة في بقية المدارس التي ظهرت في العهد العثماني ونرى أنها كانت مقصورة على طلابها وحسب، لذا لم يشع ذكرها ولم تشر إليها السالنامة.

المكتبات الخاصة:

عرفت المدينة المنورة في العهد العثماني عدداً من العلماء الذين نشأوا فيها بقية حياتهم، وكان لهؤلاء العلماء مكتبات متفاوتة، اشتهر بعضها لكثرة ما فيها من كتب، أو لما تحويه من كتب نادرة، وكان بعضهم يفتح مكتبته لطلاب العلم كي يستفيدوا منها، بل إن منهم من جعلها أشبه بمكتبة عامة، وخصص لها خادماً يستقبل المطالعين ويقدم لهم الكتب التي يطلبونها سحابة

النهار، ومن هؤلاء أمين باشا الذي تولى مشيخة الحرم مدة من الزمن ولما صرف المنصب إلى سواه تفرغ للعلم وفتح مكتبة للطلاب، والشيخ عمر حمدان الذي قدم من تونس واشتهر حتى لقب بمحدث الحرمين.. وقد أهملت كتبه بعد وفاته وبقي فيها ٩٠٨ كتاب ضمت للمكتبة العامة بالمدينة.. وسليم بك الذي ذكرت السالنامة أن في مكتبته ٥٠٠ كتاب، وعبد الغفور أفندي البخاري، ومحمد ثروت أفندي، ومكتبة أحمد البساطي وكان فيها ١٠٥٠ كتاباً... وكثير غيرهم نجد في ترجماتهم إشارات خاطفة إلى سعة مكتباتهم... وقد أسهمت هذه المكتبات في الحركة الثقافية العامة بالمدينة المنورة، وكان لها أثر واضح في شخصيات أصحابها وفي طلاب العلم الذين استفادوا منه...

مكتبات الأربطة والزوايا:

كانت الأربطة مكاناً لإقامة المجاورين وطلاب العلم وعابري السبيل الذين يقصدون المدينة المنورة، وكان بعضها مخصصاً لأهل إقليم معين أو لفئة محدودة كرباط الجبرت المخصص للقادمين من الحبشة، ورباط الأرناؤوط المخصص للقادمين من بعض بلاد البلقان (ألبانيا)، وورباط الروم المخصص للقادمين من آسيا الوسطى، وبعضها الآخر عام يمكن أن ينزل فيه أي قادم للمدينة من المجاورين وطلاب العلم إذا وافق ناظر الرباط على استقباله.

وكان معظم نزلاء الأربطة من العلماء وطلاب العلم والمجاورين الذين يترددون على حلقات الشيوخ.. ويذكر علي بن موسى أن الأربطة في مطلع القرن الرابع عشر الهجري كانت كثيرة(١).

وكان معظم هذه الأربطة يحوي مكتبة فيها نسخ من القرآن الكريم وبعض التفاسير وكتباً في الفقه والحديث.. غير أن بعض هذه الأربطة كان له مكتبة كبيرة كرباط سيدنا عثمان بن عفان الذي حوى مكتبة تضم الكثير من كتب الفقه المالكي، ورباط قرة باشا ورباط الجبرت وغيرهما من الأربطة..

---

١) ص ٥٣.

وكانت معظم كتب الأربطة وقفاً يوقفه الشيوخ أو طلاب العلم الذين يقيمون فيه.

أما الزوايا فهي في الأصل مقراً لأحد الشيوخ يستقبل فيه طلابه ومريديه.. وقد شاعت هذه الزوايا في المدينة بسبب قدوم عدد من شيوخ الطرق الصوفية إليها وإقامتهم بها.. أو قدوم بعض أتباع تلك الطرق، وكان بعضها يسمى باسم شيخ الطريقة نفسه، وقد ذكر علي ابن موسى أشهر تلك الزوايا اثنتي عشر زاوية، وأشار إلى وجود زوايا كثيرة غيرها..

وكان المترددون على تلك الزوايا يقيمون الأذكار المقررة في طريقتهم ويستمعون إلى دروس مختلفة يلقيها شيوخهم، ويقرأون في الكتب التي ألفها الشيوخ الأوائل..

وفي الغالب كان لكل زاوية مكتبة محدودة فيها نسخ من القرآن الكريم وبعض التفاسير وبعض الكتب الصوفية..

وقد استمرت هذه الزوايا إلى آخر العهد العثماني.

المدينة المنورة في العهد الهاشمي

دخول المحاربين.. بداية مزعجة:

دخل الهاشميون المدينة.. وكان بين رجالهم عدد من أهل المدينة والقبائل والقرى المجاورة.. وكانت المدينة شبه خالية، والبيوت مغلقة على ما فيها من أثاث ورياش.. وقد سلمت هذه البيوت أو سلم معظمها طوال مدة الحصار.. ولكنها لم تسلم بعد ذلك، فبعد خروج جنود فخري باشا كان الأمر أقرب إلى العشوائية.. فلا حراسة منظمة ولا شرطة.. بل رجال مسلحون يطوفون هنا وهناك.. وآخرون يدخلون البيوت المغلقة يحملون ما تصل اليه أيديهم، والعجيب أن (العسكر) العثمانيين الذين انسحبوا في حالة رديئة من الجوع والحرمان لم يسرقوا (وإنما السراق من غير العسكر، وكان كل من قدم لم يجد شيئاً فتكلف الكثيرون من العمل غير قليل)(١) ونكبت بيوت كثيرة على أيدي الأعراب والمرتزقة، وعندما تم دخول الهاشميين من الشمال والغرب والجنوب استقرت الأمور في المدينة وتوقفت السرقات..

وطارت البرقيات إلى دمشق باستلام المدينة، وشاع الخبر ووصل إلى النازحين من أهل المدينة فشرعوا يستعدون للعودة إلى ديارهم.

ترتيبات إدارية جديدة:

عين الحسين ابنه الشريف علي أميراً على المدينة واستدعى ابنه الآخر عبد الله ليكون بجانبه.. وبدأ الشريف علي يشكل إدارته المحلية في المدينة، فعين الشريف شحات نائباً له، وعين الشريف أحمد بن منصور مساعداً له وهو من أشراف مكة، وعين الضابط شكري الأيوبي قائداً للقوة العسكرية فيها، وكان الأيوبي ضابطاً في الجيش العثماني شارك في الثورة عليه واعتقل وعذب ثم أفرج عنه فالتحق بالجيش العربي وأرسله فيصل إلى أخيه الشريف علي، وأعاد شكري الأيوبي تنظيم القوة العسكرية واستعان بالضباط العرب الذين كانوا في الجيش العثماني وانتقضوا عليه واستقدم بعضهم من بلادهم..

---

١) ذكريات العهود الثلاثة ٩٧ وانظر ١٠٩.

وأشار على الشريف علي أن يستفيد من التكارنة الذين طوعهم فخري باشا في جيشه ودربهم تدريباً عالياً.. وكان وضعهم صعباً إذ أنهم لم ينسحبوا مع الجيش العثماني المنسحب لأنهم مرتبطين بالمدينة المنورة ولم يكونوا موالين للهاشميين.. فأصدر الشريف علي عفواً عنهم وقدموا له الولاء ضباطاً وجنوداً فضمهم شكري الأيوبي إلى القوة العسكرية ووزعهم على فرقها في أطراف المدينة.. وقد أبدى هؤلاء إخلاصاً عجيباً فاختار الشريف علي بعد ذلك عدداً من ضباطهم وجنودهم ليكونوا ضمن حرسه الخاص(١).

عودة المهاجرين:

بدأ أهل المدينة الذين نزحوا يعودون إليها.. وكان أولهم وصولاً الذين لم يبعدوا عنها وبخاصة الشرفاء الذين تفرقوا في بعض قرى المدينة وفي ينبع ومكة والقصيم والرياض، ثم المستوطنون الآخرون الذين هاجروا إلى تلك المناطق.. وبدأت البيوت المغلقة تفتح بيتاً بعد بيت، وكان عدد كبير منها قد امتدت إليه الأيدي فأخذت منه ماأخذته... وعدد قليل قد سلم برياشته ومختبآته. وفي دمشق حيث حمل القطار المهجرين طوعاً والمهاجرين جبراً قبل سنتين تقريباً أعلنت الحكومة العربية التي شكلها الشريف فيصل أنها أعدت الترتيبات لإعادة المهاجرين الراغبين في العودة إلى المدينة، وطلبت منهم التجمع في محطة السكة الحديدية ليحملهم القطار إلى رياق ثم بيروت، ومن هناك تحملهم باخرة إنكليزية إلى ميناء ينبع...

ووصلت القافلة الأولى إلى ينبع وكانت تحمل عدداً كبيراً من العائلات بعضها ممن لم يلق في هجرته عنتاً.. وبخاصة الذين هاجروا في الدفعات الأولى ولقوا عناية الإدارة العثمانية، وبعضهم ممن لقوا عنتاً شديداً وبخاصة الذين هجروا قسراً وحملوا إلى القطار بالقوة وألقى بهم القطار في دمشق فاتجهوا إلى المساجد والمدارس ثم أخذوا يبحثون عن أقرباء ومعارف ممن

---

١) السابق ص ٢١.

سبقوهم ليعينوهم على حياتهم الجديدة.. وما لبثوا أن لقوا العون.. وقد بذلت حكومة فيصل لهؤلاء مساعدات مالية لتعينهم على الرحلة والعودة.. واقترض بعض المهاجرين من إخوانهم الميسورين، وعادت الأفواج الأولى لتبعث الحياة في شوارع المدينة وبيوتها المهجورة.. وتوافد الناس إلى بيوتهم يعوضون عما فقدوه مما معهم أو مما يعينهم به إخوانهم الذين سبقوهم في العودة، فبعضهم لم يجدوا شيئاً مما تركوه -وكان كثيراً- فلا رياش ولا فراش ولاحنفيات ولا أدوات مطبخ.. وكل ذلك ضاع(١) وقصد بعضهم الشريف علي والشريف شحات ولقوا عندهم شيئاً من العون.. وأمر الشريف علي بتوظيف من كانت لديه خبرة سابقة في الأعمال الحكومية..

وشيئاً فشيئاً بدأت المدينة المنورة تستعيد حيويتها، لكنها لم تستعد حالة الازدهار التي وصلتها قبيل الحرب.. فلم يعد كل سكانها.. وقرر الذين وجدوا في مهاجرهم استقراراً حسناً أن يتريثوا في العودة، وعاد بعضهم بعد حين عندما أصلح خط السكة الحديدية وسار القطار من دمشق إلى المدينة وبالعكس، وكانت الرحلة تستغرق تسعة أيام(٢)، وافتتحت الحكومة أربعة مدارس، كما افتتحت مستشفى سمي مستشفى الغرباء يضم الأقسام الاعتيادية المتعارف عليها، وهي العيادة الخارجية، وغرف المرضى الراقدين، وصيدلية، وغرفة العمليات وقد أجريت فيه بعض العمليات الجراحية(٣).

جبل التمر والخبز المجفف:

عندما انسحب آخر جندي من قوات فخري باشا تسلم الضباط في جيش الهاشميين المواقع ووزعوا الجنود على المباني التي كان يشغلها الجنود وعلى المخازن ومستودعات الأسلحة، وكان الضباط العرب في الطرفين صلة الوصل

---

١) السابق ١٠٩.

٢) انظر: محمد بهجة البيطار: الرحلة النجدية الحجازية ص ٣٨.

٣) مملكة الحجاز: ص ١٢١.

بين العثمانيين والهاشميين، وكان من شروط الانسحاب أن يترك الجيش العثماني كل الأسلحة والمستودعات على حالها ويخرجوا إلى ينبع في حماية معقولة.. ونفذت الشروط بدقة.. وتسلم رجال الهاشميين مستودعات كثيرة متفرقة في أنحاء المدينة بدءاً بالقلعة الصغيرة والكبيرة ومروراً بالبيوت الخالية من السكان التي حولت إلى مستودعات ووصولاً إلى بعض المساجد التي شحنت بالذخائر..

ومع عودة الأفواج الأولى من المهاجرين إلى المدينة ودخول رجال الهاشميين من الشمال والجنوب والغرب ونظراً لشح المواد الغذائية فقد أمر الشريف علي بإخراج المواد الغذائية التي خزنها رجال فخري باشا، وجمعها في طرف ساحة المناخة عند مسجد الغمامة لبيعها للناس بسعر رخيص.. وفتحت البيوت والمخازن، وبدأ الرجال ينقلون أكياس التمر المضغوط إلى الساحة.. وتوالت الأكوام والأكياس ووضعت في كوم كبير أخذ يعلو كلما فتح مخزن جديد.. حتى صار شبه جبل من التمر وبجانبه وضع كوم آخر للخبز المجفف (القنيط).

وفي الوقت نفسه بدأت الخيرات تتوافد إلى المدينة من أطرافها، فقد أقبلت الركائب من القصيم وخيبر وينبع تحمل الأرز والسكر والشاي والقمح الجديد والسمن والزبد، وكانت الكميات وافرة تزيد عن حاجة العدد الذي وصل إلى المدينة، فنزلت الأسعار نزولا شديداً(١) وزهد الكثيرون في جبل التمر المخزون والخبز المجفف، فلم يشتر منه إلا عدد قليل من الناس واشترى بقيته بعض التجار لأغراض مختلفة سوف تتسبب في بعض المشكلات

---

١) ذكريات العهود الثلاثة ٩٧.

لاحقاً(١).

مراكز القوة في النظام الجديد:

واستكمل الهاشميون بناء إدارتهم الجديدة وظهرت أربعة مراكز رئيسة للسلطة أو مايمكن أن نسميه بالحكام الحقيقين للمدينة والمتنفذين في أمورها..

المركز الأول هو الإمارة.. وفيها الشريف علي نفسه. غير أنه لم يكن يطلع على الأمور التي تجري في المدينة وكان رئيس ديوانه هو المسير الحقيقي لكثير من الأمور، وقد تولى رئاسة الديوان أول الأمر حامد حمد الله ثم خلفه رشيد أفندي.

والمركز الثاني هو: نائب الأمير وقائمقام المدينة الشريف شحات وكان له جلساء خاصون بعضهم من المقربين الذين استفادوا وأقاموا لهم نفوذاً وسلطة باسم الشريف شحات..

المركز الثالث هو: وكالة الإمارة. وكان فيها الشريف أحمد بن منصور وكان رجلاً عاقلاً حكيماً وقد اختار لرئاسة ديوانه رجلاً مثقفاً يحسن مقابلة الناس والتعامل معهم هو محمد حسين شويل فكان نعم العون له..

المركز الرابع هو: مركز القوة العسكرية. والشرطة والجيش. وقد كان أول دخول الهاشميين المدينة مؤلفاً من رجال القبائل وبعض الضباط والجنود العرب. ولكن عندما تسلم شكري الأيوبي رئاسة هذا المركز عمل على إعادة رجال القبائل إلى مواطنهم إذ قطع عنهم الأعطيات الكبيرة التي كانوا ينالونها من قبل وحدد رواتبهم وفق النظام الذي وضعه لمرتبات أفراد الجيش والشرطة فانفضوا من حوله وقصدوا الشرفاء ونالوا مانالوه، وأخذوا ماوجدوه في البيوت المهجورة ثم عادوا إليه.. فتحول الجيش إلى مجموعة من الضباط والجنود القادمين من البلاد العربية فضلاً عن الضباط والجنود التكارنة وأقلية

---

١) السابق ١١٠.

من أهل المدينة..

وأعلن الشريف علي العفو العام عن جميع الذين عملوا مع فخري باشا والإدارة العثمانية ولم يحاسب منهم أحداً ، حتى المحررون الذين كتبوا المقالات الملتهبة ضدهم وعلى رأسهم حمزة غوث وعبد القادر الشلبي الطرابلسي ومحمد العمري ولاسيما وأن الجريدة قد توقفت عندمل اشتد التهجير، ومالبث الشريف علي أن عين الشيخ عبد القادر الشلبي مديراً للمدرسة الاعدادية التي أعيد فتحها بعد عودة قسم من أهل المدينة وتسلم إضافة إلى الإدارة وكالة المعارف أي الإشراف على الحركة التعليمية ومدارسها في المدينة المنورة، وقد يكون لصداقته مع عدد من الضباط الشاميين الذين جاؤوا مع القوة الهاشمية أثر في ذلك(١) وتسلم رئاسة البلدية حسين بن محمد داغستاني.

عودة الحياة الطبيعية إلى المدينة:

وخلال الأشهر الثلاثة التالية لرحيل فخري باشا عادت الحياة إلى المدينة المنورة مصغرة أربع مرات على الأقل عما كانت عليه. ويقدر الذين شاهدوا المدينة المنورة عدد سكانها بعد عودة الأفواج الكبيرة إليها بخمسة عشر ألف نسمة(٢)، ويعني هذا أن ثلاثة أرباع البيوت ظلت مهجورة وآلت إلى الخراب. وبخاصة البيوت التي ظهرت في أطراف المدينة، والتي سكنها قادمون حديثو العهد بالمدينة قبل أن تبدأ الحرب العالمية الأولى. فالمهاجرون الذين جاؤوا للعمل وأحلام الثروة تبددت أحلامهم. لذا لم يعد منهم إلى المدينة إلا عدد قليل، أما الذين جاؤوا المدينة بدوافع غير اقتصادية فقد عاد معظمهم وأسهم في الحركة العلمية ودروس الحرم. ويقدر شاهد عيان زار المدينة بعد سنة من رحيل فخري باشا عدد الذين عادوا من سكان المدينة الأصليين بـ ١٥٪ فقط

---

١) المدينة عبر التاريخ ص ١٤٠.

٢) فصول من تاريخ المدينة ص ٤٩.

والباقي من أعراب وأغراب من المهاجرين(١) وقد أصلح خط السكة الحديدية وعاود رحلاته من دمشق إلى المدينة وكان يقطع المسافة بين دمشق والمدينة في تسعة أيام، -كما مر آنفاً- ويتعرض في حالات كثيرة لغارات الأعراب والنهب والسلب(٢) وقد تسلمت إدارته الحكومات المحلية في كل من دمشق وعمان والمدينة وقلت رحلاته بعد تضخم الخلاف بين الأشراف والملك عبد العزيز ثم توقفت باستثناء رحلات خاصة نادرة.

انفجارات تهز المدينة:

ترك فخري باشا ترسانة ضخمة من الأسلحة والذخائر مخزونة في مواقع كثيرة أهمها: القلعة العسكرية الكبيرة عند باب الكومة على أحضان جبل سلع.. وبعضها الآخر في المخازن والمساجد المنتشرة في أطراف المدينة..

وعندما تسلم الضباط الهاشميون المواقع أفرغوا المخازن الفرعية والمساجد من الأسلحة والذخائر ونقلوها إلى القلعة الكبيرة فتكدست قنابل المدفعية وصناديق الرصاص في المخازن وضاقت بها فوضعت البقية في الساحة الخارجية عند جدران القاعة وغطيت ببعض القش والقماش.

ولم تسلم هذه الأسلحة من أيد تأخذ بعضها خلسة، وبخاصة الأسلحة الفردية، البنادق والمسدسات، فانتقلت من بعض الجنود إلى المشترين -بثمن بخس- في أطراف المدينة والقبائل المحيطة بها.. ورغم ذلك ظلت أكداس الأسلحة والذخائر تملأ غرف القلعة وأطراف ساحتها الداخلية..

ومرت شهور الشتاء والربيع، وأقبل الصيف بحرارته اللاهبة يزيد من وطأتها حجارة سلع السوداء، التي تختزنها وتفيض بها عند الظهيرة فتزيد الجو حرارة وتجعله أشبه باللهيب.

وطبيعي أن يؤثر ذلك على أكداس الذخيرة الموجودة في القلعة وبخاصة

---

١) انظر الرحلة النجدية الحجازية ص ٣٧.

٢) انظر السابق ص ٢٠-٣٠.

تلك التي وضعت خارج الغرف لايحميها ساتر يخفف عنها الحرارة.. والتي حرمت أيضاً مزية التبريد التي رتبها المسؤولون عن المخازن في جيش فخري باشا ((فقد أوجدوا سراديب بجانبها ينساب فيها ماء دائم، مع التهوية اللازمة.. وعندما استولى الأشراف على المدينة أهملوا هذه الناحية في القلعة))(١).

وفي يوم السبت ٣٠ ذي القعدة ١٣٣٨هـ بلغت الحرارة أشدها بعد الظهر.. وفجأة دوى انفجار عنيف هز المدينة بأرجائها وارتفع لهيب النار والدخان إلى عنان السماء.. وتوالت الانفجارات تنطلق بكثرة وسرعة متوالية بعضها خلف بعض وبعضها فوق بعض، وانطلقت القذائف وكتل النار من أطراف النيران تعلو في السماء ثم تسقط بصورة عشوائية على ما جاور القلعة فتهدم ما تسقط عليه من بيوت ودكاكين وتشعل النار في أخشاب السقوف المنهارة وأثاث البيوت الذي لم يتبعثر..

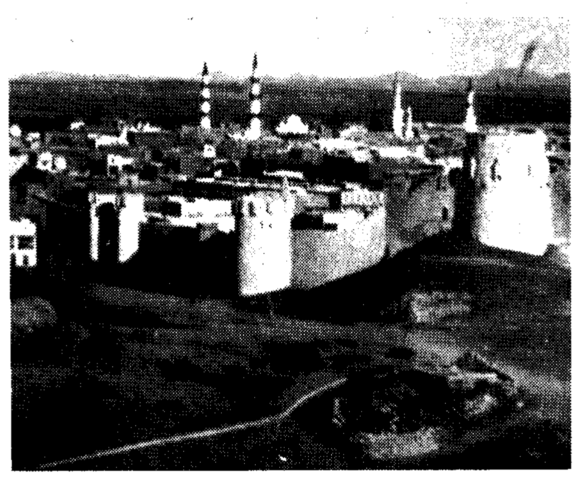
وفزع أهل المدينة فزعاً شديداً، وخرج كل من كان حول القلعة ولم يسقط عليه السقف أو يتهدم فوقه البيت وجروا بعيداً عن مركز الانفجارات المتوالية وسقط بعضهم على الطريق عندما وقعت عليه كتلة نارية.. ولجأ أحد الناجين الحاج محمد المغربي إلى المسجد وذهب للمواجهة في مواجهة القبر الشريف، فحدث انفجار ضخم واهتزت نافذة من نوافذ المواجهة من القصف وسقطت عليه فتوفي في الحال(٢).

وتسلل -من أصيب سقف بيته ولم يسقط بعد- هارباً... ولم يجرؤ أحد على الاقتراب من مواقع الأنقاض خشية أن تسقط عليه قذيفة من القذائف المتطايرة في السماء.. وخرج كل من في القلعة هارباً ممن لم تقتله الانفجارات أو تلتهمه النيران.. وبدت القلعة كأنها بركان صغير يتفجر تباعاً

---

١) فصول من تاريخ المدينة: ٥٤.

٢) السابق ص ٥٤.





شارع باب الشامي
جبل سلع
باب الشامي
القلعة العسكرية
السلطانية
منهل العين الزرقاء
وبيت الجابي
الباب الصغير
شارع باب الكومة
شارع الساحة
حوش السيد
حوش شرقان
حوش الصعايدة
حمام سكر
زقاق جعفر
حوش القائد
المناخة
شارع العينية
المسجد النبوي
حوش
قرة باش

موقع القلعة... وخطر الانفجارات فيها على الأحواش المجاورة

وتتطاير الحمم منه لتسقط هنا وهناك..

وتوافد كبار المسؤولين إلى منطقة قريبة من مكان الانفجار على رأسهم الشريف علي ونائبه وكبار الضباط والموظفين.. ولكن لايستطيع أحد أن يفعل شيئاً فليس في المدينة قوة خاصة لمعالجة الحرائق.. فكيف بالانفجارات. وأجمع الضباط على أن الانفجارات تقع في الذخيرة المخزونة في القلعة وأنه لايستطيع أحد الاقتراب منها، وأن جدران القلعة امتصت بعض آثار الانفجار وحمت ما خلفها من الدمار الشديد.. وأن الشيء الوحيد الذي يمكن فعله الآن هو الانتظار إلى أن تنتهي الانفجارات وإخلاء المنطقة وما حولها تماماً وإنقاذ من احتبس تحت الأنقاض.

كانت بعض القنابل تتطاير وتنفجر في الهواء، وكانت الانفجارات الضخمة تدوي عندما تصل النيران إلى صناديق الديناميت.. ويشاء الله أن تظهر الريح الشرقية فتمنع القذائف أن تشرِّق فلم تصل شظية إلى المسجد النبوي حماية من الله سبحانه وتعالى واتجهت الشظايا إلى الجنوب الغربي.. ووصلت القذائف إلى بيت السيد علوي السقاف وحوش سرقان وبيت ذياب ناصر وحوش كرباش وحوش العبيد وبيت المفتي الداغستاني...

وظلت الانفجارات تتوالى بشكل متقطع تهدأ حيناً وتشتد حيناً آخر إلى مابعد العصر فبدأ يقل وتتباعد فتراته إلى أن هدأ آخر الليل.. غير أن ألسنة النيران لم تخمد وظلت تتصاعد من أطراف القلعة وبعض البيوت التي أصيبت حولها، تعلوها سحابة من الدخان تزداد مساحتها شيئاً فشيئاً..

وخرج معظم أهل المدينة الذين يقطنون غربي المسجد النبوي من منطقتهم وأوى بعضهم بأسرته إلى منازل العوالي وقباء وبساتينها..

وفي الصباح جاء عدد من الضباط والجنود إلى المنطقة وتفقدوا البيوت التي سقطت وبدؤوا بإزالة الأنقاض من المواقع التي يشتبه بوجود أحد داخلها... واقترب بعض الضباط بحذر من القلعة ورأوا النار التي تتصاعد من

أحد مستودعات التجهيزات العادية والمطابخ، ورأوا الذخيرة التي لم تصل إليها النيران بعد فأمروا جنودهم بنقلها إلى خارج القلعة.. ونقلت إلى طرف باب الكومة شرقاً ووضعت في ساحة فيها أكداس من التراب. وعمل آخرون على إطفاء النيران في الأخشاب اليابسة ونقل الماء والتراب وإلقائه على الألسنة المتصاعدة فخفت تدريجياً إلى أن انطفأت وتحولت إلى خيوط من الدخان تتصاعد من تحت الأتربة..

يوم آخر من الانفجارات:

استمر العمل إلى قرب الظهر حيث اشتد الحر فانصرف الجميع إلى بيوتهم. وما كادت الظهيرة تشتد وينزل الناس إلى الغرف المنخفضة والأقبية التماساً للبرودة.. حتى دوى الانفجار من جديد وتوالى أقل مما كان عليه في اليوم السابق، ففزع أهل المدينة ثانية وخرج كل من كان قريباً من غربي المسجد النبوي مابين باب قباء وباب الشامي. وابتعدوا إلى شرقي الحرم، وتوالت الانفجارات وعلت الحمم وسقطت في المنطقة التي كانت تسقط فيها من قبل.. واقترب بعضها من جدران المسجد النبوي لكنها لم تصبه، وسقطت بيوت جديدة في باب الكومة وحوش سرقان وحوش العبيد، وتهدمت بعض الدور الكبيرة التي أصيبت في اليوم السابق كدار المفتي والرفاعي والسيد علوي سقاف والحكيم والشيخ دياب ناصر، ونجا معظم أهلها، ولكن دوراً أخرى أصيبت إصابات شديدة لم ينج أهلها، كبيت الشيخ نور الذي قتل فيه تسعة أشخاص(١) فقد أخذهم الانفجار على حين غفلة وسقطت قذائف ملتهبة على البيت فهدمت الغرفة التي تجمعوا فيها. واستمر الحال على ذلك إلى الليل أيضاً وارتفعت ألسنة النيران من البيوت المحترقة ولم يجرؤ الناس على الاقتراب من مواقع سقوط الحمم إلا لإخراج من لم يخرج بعد، وأصيب عدد منهم بحروق بسيطة، وسكت القصف آخر الليل وبقيت النيران تلتهب..

---

١) مقابلة مع حسن مصطفى صيرفي.

انفجارات اليوم الثالث:

في الصباح التالي كان الخوف يسيطر على الجميع من معاودة الانفجارات لذلك لم يقتربوا من القلعة البتة ولا من المواقع التي تحوي شيئاً من الذخيرة.. وترقب الجميع بحذر شديد معاودة الانفجارات، ولم يخب ظنهم.. فعند اشتداد الظهيرة حدثت انفجارات أخرى وكان بعضها خارج القلعة عند باب الكومة، فقد انفجرت بعض الذخيرة التي نقلت من القلعة وكان جانبها بعض الحجارة السوداء، غير أن الانفجارات كانت قليلة في هذا اليوم وانتهت بسرعة. وما لبثت ألسنة اللهيب أن خمدت بعد فترة من هبوط الظلام..

وفي الليل أمر الشريف علي القائد العسكري شكري الأيوبي أن يعمل على عدم تكرر ما حدث في الأيام الثلاثة وأن يبكر الجنود ومن يستعينون بهم من العمال في تفريغ المخازن التي لم تنفجر... ونفذ القائد العسكري -شكري الأيوبي- وحشد الجنود والضباط قبل الفجر وشرع الجميع في العمل مع خيوط الفجر الأولى فدخلوا القلعة التي تهدم جزء كبير من سورها ومستودعات الذخيرة.. ولم ينج من التدمير إلا بعض الغرف الجانبية والأقبية والسجن العام وأثاث في أقبية في القلعة الصغيرة ودار البلدية والإمارة وبعض البيوت الخالية ووضعت عليها حراسة، ونقلت كميات كبيرة من المياه وأسيلت إلى الغرف المدمرة خشية أن يكون فيها بعض القذائف أو الصناديق التي لم تنفجر، كما غطيت القذائف المخزونة في طرف باب الكومة بالتراب... وظل العمل مستمراً إلى الظهر حيث اشتد لهيب الشمس ولم يعد الجنود يطيقون العمل فأعيدوا إلى ثكناتهم ووضعت وحدات صغيرة للمراقبة، ونجحت الخطة، فلم يحدث أي انفجار ولم يشب حريق.. ومع ذلك ظل الناس على حذر إلى نهاية اليوم.. وبدأت الطمأنينة تعاودهم في اليوم التالي الذي مر بهدوء أيضاً.. وأيقن الجميع أن القضية قد انتهت تماماً.

أمر الشريف بالتحقيق في الانفجار وشكل القائد العسكري لجنة خاصة

من كبار ضباطه بدأت تستجوب ضباط القلعة الذين لم يصابوا وجنودهما.. وثارت الشبهات حول بعض المسؤولين عن المخازن، كما ثارت الشكوك حول بعض الضباط العرب والتكارنة الذين كانوا من رجال فخري باشا وشملهم العفو ودخلوا في جيش الهاشميين... ودار على ألسنة المسؤولين وغير المسؤولين ظناً ورجماً. واستدعي المظنون بهم إلى المحكمة العسكرية برئاسة القائد العسكري نفسه، وسئلوا عن كمية الذخائر التي كانت موجودة في عهدتهم، وسئل أتباعهم ومن حولهم عما إذا كانوا قد لاحظوا نقصاً في العهدة أو سرقات.. وما إذا كان الحريق بفعل فاعل -كما كان يدور على الألسنة- لتغطية السرقات أو للانتقام من الهاشميين الذين طردوا فخري باشا ورجاله. وطالت المحاكمات والأسئلة عدة أيام، ولكن لم يثبت شيء من التهم للمحكمة.. واقتنع الجميع بأن الأمر لايتعدى سوى سوء التخزين وارتفاع الحرارة المفاجئ إلى درجة لم تشهدها المدينة في السنوات القريبة الماضية، ويؤكد ذلك توالي الانفجارات في اليومين التاليين، وفي الوقت نفسه، وقت اشتداد الحر.

والعجيب أن اللجنة التي حققت والمحكمة التي حاكمت المظنون بهم لم تهتم بتقدير حجم الخسائر.. وربما لم يكن في قدرتها ذلك، لأن أكداس الذخيرة التي تسلمها الهاشميون من رجال فخري باشا لم تسجل تسجيلا دقيقاً، خاصة بعد أن نقلت من المساجد والمخازن الفرعية إلى القلعة وكدست إلى جانب الأكداس الموجودة فيها من قبل.

أما الخسائر المدنية فكانت باهظة وعظيمة، فقد هدمت بيوت كثيرة لم تحص أيضاً، ولم تقدر مبالغها ولم يعوض أصحابها... وتوفي تحت الأنقاض عدد لم يحدد.. وجرح وأصيب بالحروق عدد آخر غير قليل. وحل الرعب في قلوب معظم أهل المدينة ولازمهم مدة طويلة، وبخاصة أولئك الذين يجاورون ثكنات أو محارس أو مناطق عسكرية.. وظل الكثيرون لايعودون إلى بيوتهم تلك مدة من الزمن.

تحسن الأحوال في المدينة:

ازدهرت الأحوال الاقتصادية وظهرت آثار الازدهار في نهاية السنة الأولى، إذ استعاض الذين عادوا شيئاً من أموالهم، وعادت بساتين النخل التي رجع إليها أهلها إلى العطاء، وافتتحت أعداد لابأس بها من الدكاكين في سوق المناخة والعنبرية وباب الكومة وباب المصري وحول المسجد النبوي.. ولكن مازالت دكاكين أخرى مغلقة، وبخاصة المتطرفة ودكاكين الأحياء والتي خارج السور، وعاد سكان الأرياف المحيطة بالمدينة إلى تجارتهم فحملوا السمن والزبد والصوف واللبن والخراف إلى الأسواق.. وحملوا منها التمر والقمح والسكر والشاي.. وعاد خط التجارة بين المدينة وينبع إلى الازدهار شيئاً ما، كما وفدت بعض القوافل من القصيم تحمل خيرات وفيرة ومن مكة وجدة تحمل بضائع الهند واليمن.. وأقبل عدد وافر من الحجاج في موسم ذلك العام فازداد انتعاش الحياة الاقتصادية. وانتهى عام ١٣٣٨هـ والمدينة في حالة لابأس بها من الأمن والوفرة..

فترة الاستقرار والبناء:

وباستثناء انفجار القلعة المروع لم تشهد المدينة في السنة الأولى من دخول الهاشميين أي حدث مفزع، وبالعكس من ذلك بدأت معالم الاستقرار تترسخ أكثر وأكثر.. والإدارات تستكمل تشكيلها تدريجياً.

فقد ورثت المملكة الهاشمية التي أقامها الحسين بن علي تركة صعبة في

المدينة المنورة، فمعظم المرافق فيها معطلة أو مهجورة منذ أن اشتد الترحيل، وباستثناء المؤسسة العسكرية الضخمة التي يديرها فخري باشا ويوظف كل طاقات المدينة لها لم تكن هناك خدمات تذكر، إذ لم يبق من سكان المدينة مقيماً فيها إلا النذر اليسير.. ولم يبق من الهيكل التعليمي الكبير الذي وصل ذروته قبل الحرب العالمية الأولى.. وتعطلت حلقات العلم في المسجد النبوي وتوقفت المدارس الأهلية عن التدريس بسبب رحيل طلابها ومعظم شيوخها، والمدارس الحكومية أغلقت أبوابها.. وصار الشغل الشاغل لمن بقي في المدينة تأمين الطعام وترقب الغد المجهول..

فلما رحل فخري باشا وجنوده وبدأت عودة المهجرين إلى ديارهم بدأت العافية تدب في مرفق التعليم بجناحيه الأهلي والحكومي، وكان المسجد النبوي أول ميدان تعود إليه حركة التعليم فمن بين الذين لم يغادروا المدينة وصبروا على متاعب الحصار وأخطاره عدد من العلماء والشيوخ الذين كان يدرسون في المسجد النبوي أمثال الشيخ عبد القادر الشلبي والشيخ ألفا هاشم والشيخ محمد الأمين الجنكي والشيخ محمود شويل.. ومالبث أن عاد عدد من الشيوخ أيضاً أمثال الشيخ محمد الطيب الأنصاري والشيخ إبراهيم بري والشيخ عمر الكردي الكوراني والشيخ أحمد كماخي مفتي المدينة والشيخ أحمد شمس الشنقيطي والشيخ خضر الشنقيطي(١) وقد ازدادت الدروس العامة التي لاتقتصر على طلاب العلم بل يحضرها معهم عامة الناس، وكانت في موضوعات العقيدة والتفسير والفقه. أما حلقات العلوم المتخصصة كأصول الفقه والقراءات والنحو فأصبحت أقل مما كانت عليه قبل الحرب العالمية الأولى.

بدأت الحركة التعليمية تتزايد، وأنشأت الدولة مديرية للمعارف وأسندت إدارتها إلى عبد القادر الشلبي الطرابلسي.. وبادر الأهالي إلى إنشاء عدد من المدارس الأهلية، فتجربتهم السابقة مع التعليم الحكومي في أواخر العهد

---

١) انظر الرحلة النجدية الحجازية ص ٣٧.

العثماني جعلتهم لايطمئنون إليه.

كما أعادوا افتتاح بعض المدارس التي كانت موجودة من قبل، وأنفقوا عليها من الأوقاف التي يديرونها ومن أموالهم الخاصة إن شحت أموال الأوقاف، فضلاً عن حلقات العلم التي نشطت ثانية في المسجد النبوي وتصدر لها مجموعة من العلماء الأفاضل أمثال: الشيخ محمد الطيب، والشيخ إبراهيم بري، والشيخ حسن الشاعر، والشيخ ابراهيم الكوراني، والشيخ عبد الباقي الأيوبي، والشيخ حمزة بساطي، والشيخ محمد صادق الجزائري، والشيخ محمد الخضر الشنقيطي، والشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي، والشيخ عمر حمدان، والشيخ عبد الحق رفاقت علي، والشيخ حميدة الطيب الجزائري.. وآخرون.(١) وظهرت كتاتيب كثيرة في الحرم النبوي ومساجد المدينة الأخرى وبعض البيوت حتى لايكاد يخلو شارع من شوارع المدينة المأهولة من أحدها.

ومالبثت المدينة المنورة أن استعادت صناديق الكتب التي كانت تضمها مكتبة عارف حكمت والمكتبة المحمودية، فقد أرسلها فيصل بن الحسين من دمشق مع آخر العائدين الذين حملتهم البواخر إلى ينبع.. وكان بعضها قد أصابه الماء أثناء تخزينه في مسجد السليمانية بدمشق. إذ أن نهر بردى فاض في العام السابق ودخل بعض الغرف التي فيها الصناديق، ودخل الماء إليها قبل أن يسارع القائمون على المسجد بإنقاذها.. ومازالت بعض الكتب تحمل آثار مياه بردى في الحبر المنساح على السطور والأوراق المنكمشة. ولكن ماأصيب قليل جداً.. وعادت نفائس المخطوطات لتتربع على رفوف الدار التي أوقفها عارف حكمت للمكتبة، كما عادت كتب المحمودية إلى رباطها قبل أن تنتقل ثانية إلى غرفة المسجد النبوي.

أما التعليم الحكومي فقد افتتحت الحكومة العربية بعد تسلم المدينة أربع

---

١) انظر مقدمة ديوان عمر بري ص ٢٩.

مدارس تحضيرية وهي العبدلية والفيصلية والزيدية والعلوية نسبة إلى أبناء الملك حسين: عبد الله، وفيصل، وزيد، وعلي. ويحدثنا شاهد عيان زارها عام ١٣٣٨هـ أي بعد سنة من افتتاحها أن (كل مدرسة منها كانت تضم ثلاثين تلميذاً، ولكل مدرسة مدير ومعاون، ودروس كل منها القرآن الكريم والتوحيد والفقه الإسلامي والحساب، وليس للغة العربية فيها أثر، وقد سألنا عن سبب ذلك فقالوا إن النظام الموضوع من قبل المعارف لايساعد، لأنها مدارس ابتدائية)(١) وكان التعليم الحكومي يلاقي معوقات مالية كثيرة، فميزانية الدولة ضيقة وقد شغل الناس أمر المعاش وتأمين الحاجيات وقلة الموارد(٢) والمدارس الأربع هي مدارس تحضيرية تعتبر أولى المراحل الدراسية، ومدة الدراسة فيها عامان فقط(٣) وقد افتتحت بعد ذلك مدرسة أعلى راقية(٤) ويطلق عليها اسم المدرسة الابتدائية الراقية ومدة الدراسة فيها أربعة أعوام يدرس الطالب فيها القرآن مجوداً، وعلم التجويد، وأصول التفسير، وعلم التوحيد، وعلم الفقه، والتربية والنحو والصرف والبلاغة وآداب اللغة العربية ويتدرب على الخطابة والإملاء وتاريخ العرب والجغرافية والحساب ومبادئ الهندسة ومبادئ مسك الدفاتر والحديث وأصوله، ويتدرب على الخطابة، فضلاً عن الرياضة اليومية(٥) ويشترط لقبول الطالب فيها أن يجتاز المرحلة التحضيرية(٦).

---

١) الرحلة النجدية الحجازية ص ٣٦.

٢) السابق ص ٣٥.

٣) المملكة الحجازية ص ١١٥.

٤) جريدة القبلة ع ٢٧٧، ١٢ نيسان ١٩٢٠ م.

٥) القبلة ع ٢٢٦ - ٢٥ محرم ١٣٣٧ - تشرين الأول ١٩١٨م.

٦) المملكة الحجازية: ص ١١٥.

بوادر غير مطمئنة:

مع بداية العام التالي ١٣٣٩هـ بدأت بوادر غير مطمئنة في المدينة مصدرها تعدد السلطة وتداخلها أحياناً بين المراكز الرئيسية الأربعة: الإمارة، ووكالة الإمارة، والقائمقام، والإدارة العسكرية.. فكل جهة تتصرف دون التنسيق مع الجهات الأخرى، وأوامر تصدر من الإمارة تنفذ وأوامر أخرى غير متوافقة معها تصدر بعد حين من الوكالة أو من القائمقامية تنفذ أيضاً، وكان أول من أحس بهذه الثغرة القائد العسكري شكري بيك الأيوبي، وكان رجلاً واعياً وطموحاً، لذلك قرر أن يترك المدينة ويلحق بفيصل بن الحسين الذي أصبح ملكاً على سورية، فقدم استقالته للشريف علي، وغادر المدينة ليصبح بعد ذلك من رجال فيصل المقربين، ووالياً على بيروت، وعين مكانه نائبه جميل الراوي -وأصله من العراق- في منصبه.

عوامل الخلل:

كانت العلاقات الشخصية والصداقات مؤثرة تأثيراً كبيراً في الأوامر التي تصدر، والتف رجال من القبائل حول كل مركز من مراكز الحكم الأربعة، وظهرت آثار الشفاعات والوساطات في الإعفاءات الضريبية والمنح وصكوك الأراضي والتغاضي عن المخالفات في البناء والأسعار ثم في بعض الاعتداءات... وضعفت آثار الشرطة في المدينة فالشفاعات السريعة تطلق سراح من يقبض عليه من المخالفين أو المشاغبين، وظهرت آثار التهاون في الحكم عندما تناقل الناس أخبار عدد من الأشخاص يصنعون الخمر في بيوتهم ويبيعونه للمتفلتين والعاطلين.. وبدا أن بعض الذين اشتروا ((جبل التمر)) الذي أخرج من مخازن فخري باشا وجدوا بضاعتهم لاتتفق مع محصول التمر الجديد الوافر، فاستحلبوه وخمروا نقيعه وصاروا يبيعونه لمن يطلبه من ضعاف النفوس، وشجعهم على ذلك تهاون بعض المسؤولين الذين نما إليهم الخبر فلم يحركوا ساكناً.. بل إن أحدهم كما شاع بين الناس كان من جملة

زبائنهم(١) وكانت آثار السكر تظهر عليه بين الحين والآخر، رغم اجتهاده في إخفائها، وأمره بجلد من يقبض عليه في حالة سكر شديد.

استفحال الخلل.. ونذر السقوط:

ومع مرور الأيام ازدادت آثار التهاون في ردع المشاغبين والمفسدين.. وشاعت حوادث السرقة من الدكاكين والبيوت وحوادث الاعتداء والانتقام بالضرب والشبح.. وكانت العقوبات تطال بعضهم ولاتصل إلى بعضهم الآخر وبخاصة إذا كان المشاغب أو المجرم قريباً لأحد المقربين.. وحدثت بعض حوادث الثأر، وكان رد فعل السلطة ضعيفاً، فازدادت جرأة المتجرئين.. وبدأ الناس يسمعون بحوادث قتل متفرقة في أطراف المدينة وأحياناً في سوقها وأحياناً في بعض مقاهيها.. وينجو القاتل ولاتتعقبه السلطة إلى موطنه في قبيلته..

وازداد الأمر سوءاً عندما ظهر مسلح يسمى عيسى العقيد يتعرض للمارين ويسلب بعضهم بالقوة.. وكان عيسى خارجاً على قبيلته الأحامدة.. وقد تبرأت منه فتحول إلى قاطع طريق، وسلب عدداً من الناس أموالهم وثيابهم (ولم يرسل الحاكم جنوداً يمسكونه)(٢) وشاع بين الناس أن المحافظة على الأمن قد أصبحت مسؤولية كل منهم، وما لبث الحاكم العسكري جميل الراوي أن استقال أيضاً لما رآه من تهاون الحكام ونفوذ بعض القبائل والمحيطين بالحكام.. وعين مكانه عبد المجيد باشا.. من مواليد العراق أيضاً وأحد الضباط العرب الذين التحقوا بالهاشميين خلال الحرب العالمية الأولى

ويروي الشاهد الكبير على تلك الفترة الأستاذ محمد حسين زيدان أن الجريمة قد تصاعدت بعد ذلك إلى حد خطير حتى (لقد كان القتل لايخلو منه يوم، والحاكم لايتصرف، وفي ضحى يوم وأمام مكابس المناخة قتل ابن سمرة

---

١) مقابلة مع حسن الصيرفي، وانظر ذكريات العهود الثلاثة: ١١٠.

٢) السابق: ١١٢.

من شيوخ بني رشيد ولم يمسك أحد بالقاتل، وبعد ساعتين أو أقل قتل واحد من قبيلة ولد محمد في حوش درج وذهب القاتل، وبعد العصر من ذلك اليوم قتل أحد الرحلة من قبيلة الرحيلي... والناس جالسون لايتحركون..)(١) وصار من السهل على المتخاصمين أن يصفوا حساباتهم آمنين من عقوبة السلطة، ولو وصلت هذه الحسابات إلى حد الثأر بالقتل.. وصار بعض الناس ينام وبجانبه البندقية فإذا سمع خشخشة يطلق الرصاص حتى يهرب ذلك المخشخش (٢) واهتم كل رب أسرة باقتناء السلاح الناري، ولم يكن ذلك صعباً بسبب وفرة ما خلفه رجال فخري باشا وما استولى عليه الذين خلفوهم أو الذين كانت مخازن الأسلحة في متناول أيديهم.. وظهر سوق محدود للسلاح في بعض بيوت العوالي وبساتين قباء والقبلتين.. ولاشك أن هذه الأحوال تنذر بتهاوي الحكم داخلياً قبل أن يتهاوى خارجياً.

الخط الحديدي الحجازي:

سعت الحكومة الهاشمية إلى إصلاح الخط الحديدي الحجازي، وطلبت من بريطانيا معونات كبيرة لذلك ولكن بريطانيا لم تستجب لطلبها.. فقامت (عمالة) محلية بإصلاح الخطوط المعطوبة والمنسوفة والتعويض عن الخطوط المقتلعة بشكل أولي.. بحيث أصبح في إمكان القطار أن يسير إلى المدينة، ولكن تسييره بشكل تجاري كان يقتضي إعادة الهيكل الفني والإداري للخط بعد أن حل الهيكل الذي كانت تتفق عليه الإدارة العثمانية، ولم يكن في وسع الهاشميين ذلك.. لذا ظل القطار متوقفاً.

التركيبة السكانية في المدينة:

كانت التركيبة السكانية في المدينة المنورة في أوائل الأربعينات مزيجاً من العائلات المدينة العريقة، وسلالات العائلات التي هاجرت إليها قبل أكثر

---

(١) السابق: ١١٠.

(٢) السابق: ١١١.

من قرنين من المغرب ومصر والشام والعراق وتركيا... وعائلات أخرى وفدت من أطراف المدينة من قبائل جهينة، وعائلات أخرى من شمال المدينة من قبائل تميم، وعائلات سبق أن وفدت من القصيم بسبب الأحداث التي جرت في نجد.. فقد تمكن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود من توحيد مناطق نجد تحت إمرته وقضى على منافسيه من القبائل والإمارات المشتتة في حائل وبريدة وعنيزة... وكانت هذه العائلات ظاهرة في المدينة أهمها آل الخريجي وآل القاضي والأطرم وبعض آل الرشيد ، وكانت بينهم وبين الشريف شحات صداقة كبيرة، وعاش أهل المدينة على اختلاف طوائفهم في جو من التآلف والتمازج.

مقدمات الأحداث الكبرى التالية:

بينما كانت الحياة تجري على منوالها في المدينة المنورة، تصفو حيناً وتضطرب حيناً آخر لضعف السلطة أو تهاونها مع المشاغبين والمفسدين وأصحاب الثأر، كانت العلاقات السياسية بين مكة ونجد تصنع مقدمات الأحداث الكبيرة التي ستغير تاريخ المنطقة كلها، بما فيها المدينة المنورة ذاتها. وكان لتلك العلاقات السياسية تاريخ طويل يحفل بمواقف الخصومة والعداء.. فجذوره ترجع إلى الدولة السعودية الأولى عندما وقف الأشراف ضد السعوديين وكانوا عوناً لجيش محمد علي باشا وقدموا له التسهيلات والمساعدات التي مكنت جيشه من اقتحام الدرعية وإنهاء تلك الدولة. وقد أسهم الأشراف في بناء الصورة المضطربة في أذهان الناس للحركة السلفية ووقفوا ضدها فكراً وسياسة. وعندما بدأ عبد العزيز بن عبد الرحمن في إعادة بناء الدولة السعودية ومحاربة الأمراء الذين تقاسموا منطقة نجد كان أشراف مكة مؤيدين لبعض خصومه، وبخاصة آل الرشيد في حائل.. وقد استقبلت المدينة المنورة الهاربين والمهزومين منهم كما استقبلت عائلات كثيرة هاجرت من ضغط الأحداث والمعارك.

ولما عين العثمانيون الشريف حسين أميراً على الحجاز عام ١٣٢٦هـ قاد حملة إلى عسير لفك الحصار عن القوة العثمانية المحاصرة في أبها.. وكان يحاصرها آل عائض والإدريسي، وهما من حلفاء عبد العزيز آنئذ، فكان موقفة هذا إعادة لمظاهر الخلاف والخصومة بين الشرفاء وآل سعود.

وقد تطورت هذه الخصومة بعد ذلك بسبب الخلاف على الحدود بين نجد والحجاز وكانت نقطة الخلاف الرئيسية هي مدينة الخرمة التي يعدها الحسين تابعة للحجاز، ويعدها النجديون تابعة لهم، وقد حسم أهل الخرمة الخلاف عندما استجابوا للدعوة السلفية وبدؤوا في تطبيقها في بلدتهم وأعطوا البيعة لعبد العزيز.. فغضب الحسين وأمر ابنه عبد الله بشن الغارة عليها، فشن ثلاث غارات متوالية ثم حشد قواته في منطقة قرب تربة استعداداً لهجوم كبير.

وعلم عبد العزيز بالحشد فأمر بمواجهته ومبادرته بالهجوم واحتشدت قبائل عتيبة وسبيع ورجال من أهل الخرمة بقيادة أميرها وقوات من نجد.. وهاجمت قوات الشريف عبد الله ليلة الخامس والعشرين من شعبان عام ١٣٣٧هـ واحتدم القتال في معركة كبيرة على مشارف تربة فهزمت قوات الشريف عبد الله هزيمة منكرة وقتل منهم خمسة آلاف جندي وكاد الشريف عبد الله نفسه أن يقتل لولا أن فر مع بقية من رجاله(١) وكان من نتائج هذه المعركة فتح الطريق أمام السعوديين إلى مكة وجدة ((غير أن بريطانيا أرسلت إنذاراً شديداً إلى عبد العزيز تحذره من التوغل في البلاد الحجازية وذلك في ٥ رمضان ١٣٣٧هـ الموافق ٤ يونيو ١٩١٩م وكان المكتب العربي في

---

١) انظر مديحة درويش: تاريخ الدولة السعودية ٩٣ ـ ٩٤ وأمين سعيد: تاريخ الدولة السعودية الأولى ٩١.

القاهرة يفكر في ارسال طائرات وبوارج حربية لحماية الحجاز))(١).

وبدأ الهاشميون يرتبون أمور دولتهم، فعادت قضية الحدود مع نجد للظهور ثانية.. وأصبحت الفتيل الذي سيشعل النار بين الطرفين ثانية... وقد زاد هذا الاحتمال الموقف الذي وقفه الشريف حسين من الحركة السلفية بعامة.. إذ استمر في رفضها واتهامها بتهم شتى.. والتحذير من التعاون معها، فأصبحت السلفية ((تهمة)) إذا ألقيت على أحد الناس أو إحدى المؤسسات فإنها تدينهم إدانة شديدة. وقد أغلق مدير المعارف في المدينة المنورة عبد القادر الشلبي الطرابلسي مدرسة العلوم الشرعية بتهمة ميل أصحابها إلى السلفية.

وبلغت المغالاة في معاداة السلفية أن وصمت بالانحراف عن دين الله والكفر ومنع أهل نجد من أداء فريضة الحج، وكانت حركة توحيد نجد والقضاء على التشرذم قد نجحت إلى حد كبير وأنهت إمارات حائل والإحساء ومن قبلها الرياض والخرج والمنطقة الشرقية.. حاول الشريف حسين الضغط على السلطان عبد العزيز بتشجيع خصومه وتأليب آل الرشيد في حائل وآل الصباح في الكويت وقبائل عسير ضده(٢) فتعمقت الخصومة بين الطرفين، وفشلت محاولات الصلح والتفاهم عدة مرات في أن تضع نهاية قاطعة للخصومة رغم أنها رسمت الحدود بين مناطق نجد والحجاز..

وبدأت المجابهة العسكرية الصارمة بين السعوديين والأشراف بسبب خلافات حدودية بين نجد والحجاز عام ١٣٣٩هـ-١٩٢١م... وهاجم السعوديون بعض القرى والمناطق التي يعدها الأشراف تابعة لنفوذهم.. ورداً على ذلك منع الشريف حسين أهل نجد من الحج، غير أن أصدقاءه الإنكليز نبهوه إلى خطورة تصرفه، وإمكان تأليب قبائل نجد وحلفائها ضده وطلبوا منه التراجع

---

١) مديحة درويش ص ٩٤ وتاريخ الدولة السعودية الأولى ٩٣.

٢) أضواء على الاستراتيجية العسكرية ١٣٠-١٣١.

عن قراره، فسمح للنجديين بالحج، ثم عاد فمنعهم مرة أخرى بدعوى أنهم يثيرون القلاقل في الحجاز، واشترط للسماح لهم أن يرفع عبد العزيز يده عن الجوف وتربة وكافة المناطق التي يعتبرها الشريف تابعة للحجاز(١).

وقد أدى منع الشريف النجديين من الحج أو التضييق عليهم إلى غليان القبائل النجدية ودعوتها عبد العزيز بن عبد الرحمن إلى وضع حد لتسلط الشريف حسين على مقدسات المسلمين وتحكمه فيها، ولاسيما أن الأرض المقدسة هي للمسلمين جميعاً ولايجوز منع أحد من أداء المناسك. وفي أحد المجالس التي يعقدها عبد العزيز مع رؤساء القبائل والعلماء قال سلطان بن بجاد أحد رؤساء القبائل ((نحن نريد الحج، ولانستطيع أن نصبر أكثر مما صبرنا على ترك ركن من أركان الإسلام مع قدرتنا عليه، وليست مكة ملكاً لأحد، ولايحق لأحد أن يمنع المسلمين أو يصدهم عن أداء فريضة الحج.. نريد أن نحج ياعبد العزيز، وإذا منعنا شريف مكة دخلناها بالقوة، وإذا ترون تأجيل الحج هذا العام فلا بد من غزو الحجاز لتخليص بيت الله الحرام من أيدي الظالمين والمفسدين))(٢) وعندما أعلن الشريف حسين نفسه ملكاً للعرب رفض عبد العزيز إعلانه، كما رفضه آخرون وتفاقمت الخلافات وأصبحت مهيأة للانفجار في أي وقت.

الشريف علي يغادر المدينة:

في موسم حج ١٣٤٢هـ عزم أمير المدينة الهاشمي الشريف علي على الحج، فغادر المدينة المنورة في أواخر شهر ذي القعدة ومعه ركب كبير وبصحبته ٨٠٠ جندي.. فأدوا مناسك الحج، وبقي الشريف في مكة عندما حدث الصدام الكبير بين السعوديين والهاشميين، فقد زحف السعوديون إثر موسم الحج مباشرة إلى منطقة الطائف واحتلوا مخافرها المتقدمة في أول

---

١) مديحة درويش ١٠٠ ـ ١٠١.

٢) تاريخ ملوك آل سعود ١٥١ وانظر تاريخ الدولة السعودية الأولى ١٤٦.

صفر ١٣٤٣هـ. فطلب الشريف حسين من ابنه أن يسير برجاله إلى الطائف للدفاع عنها ووقف زحف السعوديين، فتحرك الشريف علي برجاله إلى الطائف يوم ٢ صفر ولكن الطائف سقطت بيد السعوديين في ٧ صفر عام ١٣٤٣هـ وانسحب الشريف علي مع بقية الجيش الهاشمي إلى منطقة الهدا(١) ومالبث السعوديون أن هاجموه في ليلة ٢٦ صفر ١٣٤٣هـ فدارت معركة حامية استمرت بضع ساعات وانتهت بانسحاب الجيش الهاشمي إلى (بازان) وانسحب الشريف حسين إلى جدة. واجتمع أعيان الحجاز في ٥ ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ وقرروا خلع الحسين ومبايعة ابنه الشريف علي ملكاً على الحجاز فتسلم الشريف علي الملك(٢) وغادر الحسين جدة يوم ١١ ربيع الأول إلى العقبة(٣) وحاول الملك الجديد أن يصلح الأمور مع عبد العزيز. ولكن عبد العزيز رفض المهادنة إلى أن تتحرر الحجاز من الهاشميين(٤) وفي ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٣٤هـ وبعد وساطات كثيرة بين السعوديين والهاشميين عقد مؤتمر في الكويت لرسم الحدود بين نجد وجاراتها الحجاز والعراق والأردن.. وحضر وفد العراق والأردن، ولم يرسل الشريف وفده رغم وساطة الانكليز.. وقد فشل المؤتمر بسبب غياب وفد الحجاز وتشدد وفد الأردن في مطالبه، ((وربح ابن سعود معركة مؤتمر الكويت السياسية الأمر الذي جعل حلفاء الشريف يقتنعون بصعوبة التعاون معه، ويتوقفون عن مساندته ضد خصمه عبد العزيز ويرفضون مساعدته مكتفين بالوقوف على الحياد))(٥).

وفي ١٧ ربيع الأول ١٣٤٣هـ الموافق ١٦ اكتوبر ١٩٢٤م دخل الجيش

---

١) تاريخ الدولة ١٥٤.

٢) تاريخ الدولة السعودية الأولى ١٥٨.

٣) السابق ١٦٢.

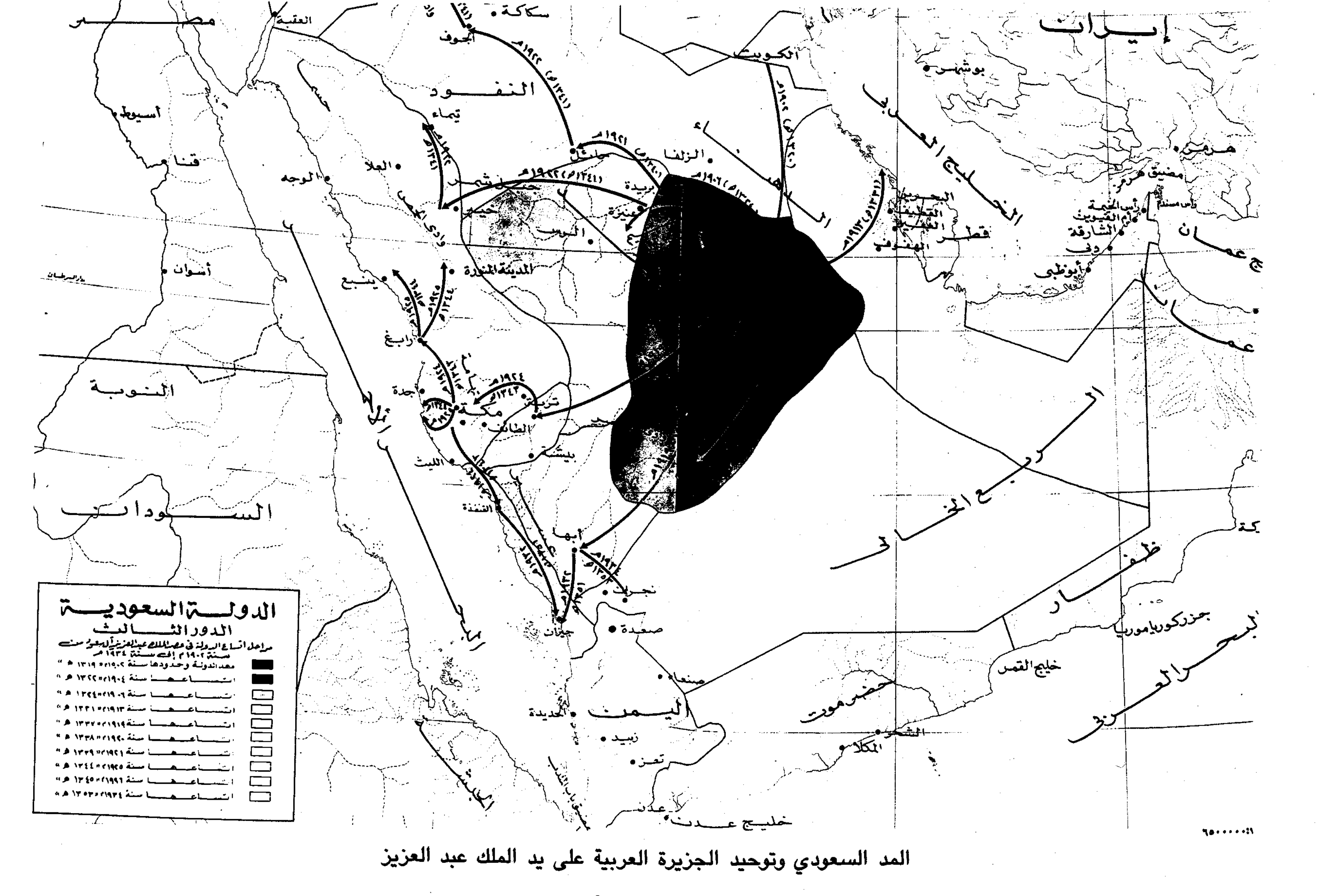
٤) السابق ١٦٣.

٥) انظر تاريخ الدولة السعودية الأولى ١٤٦.

السعودي مكة دون اراقة دماء. وبدأت الوسطات بين الملك الظافر والشريف علي للصلح بينهما، وشارك في الوساطة أمين الريحاني والشيخ المراغي مبعوث الملك فؤاد، ولكن عبد العزيز أصر على رحيل الشرفاء. وتحرك الجيش السعودي فضرب الحصار على جدة في جمادى الثانية ١٣٤٣هـ، وتوجه شطر منه إلى المدينة ليضرب الحصار عليها أيضاً، وليمنع أي اتصال بين مناطق الشرفاء، ولينهي سلطتهم على المدينة المنورة(١).

---

١) انظر أضواء على الاستراتيجية العسكرية ١٠٥ـ ١٠٧.



المد السعودي وتوحيد الجزيرة العربية على يد الملك عبد العزيز

وبدأت صفحة جديدة من تاريخ المدينة المنورة... صفحة الحصار الرابع.

المدينة في الحصار:

غادر الشريف علي بن الحسين المدينة إلى مكة وترك وكيله أحمد بن منصور والقائمقام الشريف شحات بن علي والقائد العسكري عبد المجيد أحمد باشا ومدير السكة الحديدية عزت عمير متنفذين حقيقيين فيها.

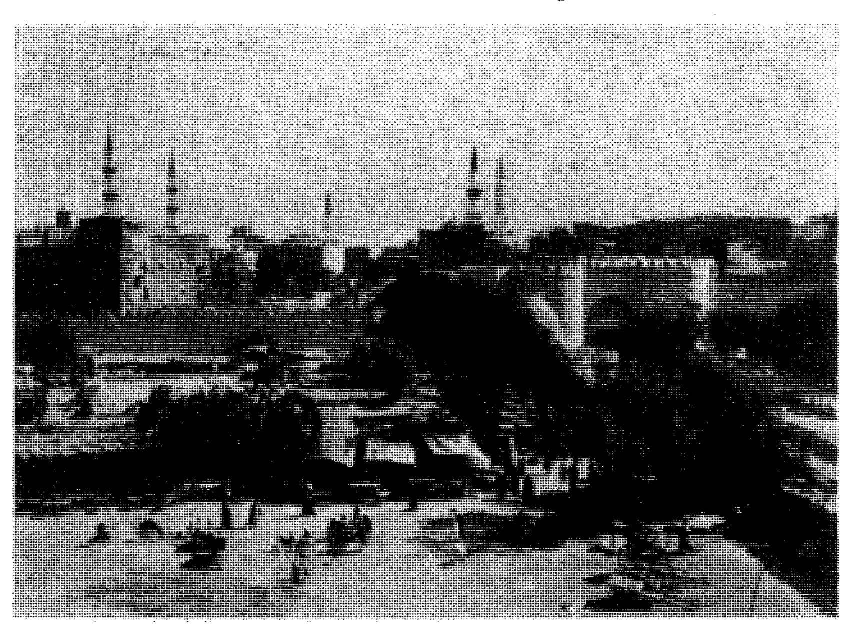
وتطورت الأحداث في مكة المكرمة بسرعة كبيرة في غير مصلحة الشريف حسين، فالحلفاء لم ينفذوا شيئاً من عهودهم، وآثار معركة تربة قد صعدت الخلاف مع سلطان نجد عبد العزيز، ومَنْعُ أهلِ نجدٍ من الحج أوصل بذلك الخلاف مرحلة الذروة، وجعل النجديين يطلبون من عبد العزيز أن يحسم الأمر ويقتحم مكة ويخلصها من الشرفاء(١) وتفاقمت الأمور وانسحب الشريف حسين إلى جدة وتنازل عن العرش لابنه الشريف علي أمير المدينة، ودخل عبد العزيز مكة ثم فرض حصاراً على جدة، ولم تفلح جهود الوساطة بين الرجلين، واتخذ عبد العزيز مقره في قرية بحرة، وأخذت قواته تناوش قوات الشريف علي.

ولكي يضيق على الهاشميين وينهي قوتهم أمر فرقة من رجاله بالتوجه إلى المدينة وحصارها، وعلى رأس هذه القوة صالح بن عدل، وأدرك أهل المدينة منذ أن بلغهم خبر دخول الجيش السعودي مكة المكرمة أن المدينة ستكون هدفاً قريباً لهذا الجيش، وأن السلطان عبد العزيز ينوي تخليص الحرمين الشريفين من الهاشميين، وما لبثت الأخبار أن عززت التوقعات، وسبقت القوة المتوجهة إلى المدينة، وسرعان ما اجتمع قادتها الثلاثة أحمد بن منصور والشريف شحات وعبد المجيد باشا، ودرسوا الأمر وقرروا مقاومة القوة القادمة، وتحصين المدينة، وتعهد عبد المجيد باشا بالدفاع عنها بكل ما يملكه من قوة وإمكانات.

---

١) انظر تاريخ ملوك آل سعود ١٥٠-١٥١.

١ ـالضخامة والمتانة في أبواب السور وأبراجه مساعدان على المقاومة.



٢ ـ أحد أطراف السور في امتداده حول بيوت المدينة وقد ضرب الحصار خارجه.

كان عبد المجيد باشا ضابطاً ذا كفاءة عالية، تلقى علومه الإسلامية في استانبول، وحارب في صفوف الجيش العثماني في قناة السويس، وأسر، ثم أرسل إلى الجيش العربي مع بقية الضباط العرب، واستقر به الأمر في المدينة ضابطاً كبيراً ثم نائباً للقائد العسكري جميل الراوي ثم قائداً عسكرياً، وكانت القوة التي يديرها محدودة بعد رحيل أبناء القبائل من الجيش والاقتصار على الجنود النظاميين ويقدر عددهم بأربعمائة جندي، وكان فيهم الجنود والضباط التكارنة وبعض العرب وبعض أبناء المدينة وما حولها، غير أن هذه القوة كانت تملك مخزوناً كبيراً من الأسلحة والذخائر، ورغم أن انفجار القلعة قد بدد جزءاً من المخزون وكذلك السرقات المتوالية من المستودعات، رغم ذلك فإن ما بقي في المخازن الأخرى كان كافياً للمقاومة مدة من الوقت، وبدأ عبد المجيد باشا بتحصين المدينة، فوزع قواته على منافذها، وحفرت الخنادق، وأقيمت الكمائن، ونظفت مدافع القلعة وجهزت للعمل ثانية، وجمع الشريف أحمد وجهاء أهل المدينة ورؤساء عائلاتها، وحضر الشريف شحات الاجتماع وتداول الجميع أمر مواجهة القوة القادمة والدفاع عن المدينة وتعهد عدد من الوجهاء بحض الشباب والرجال على المشاركة في الدفاع، وطلبوا توزيع الأسلحة والذخائر اللازمة فوافق الشريف أحمد على ذلك، وسرت في المدينة حركة عاطفية متحمسة، ووزعت البنادق والرصاص وقسمت المدينة إلى ست مناطق دفاعية تحت قيادة الضباط، وتمركز في كل منطقة عدد من الجنود ومعهم المتطوعون.

المنطقة الأولى شرقي المدينة عند شارع أبي ذر إمتداداً إلى الجنوب وتشمل أراضي الصدقة.

المنطقة الثانية مركزها باب العوالي.

المنطقة الثالثة مركزها بستان الماجشونية وتشمل مناطق قربان.

المنطقة الرابعة مركزها باب قباء.

المنطقة الخامسة مركزها باب الكومة.

المنطقة السادسة مركزها المساجد السبعة وتمتد إلى أن تتصل بالمنطقة الأولى شرقاً.

سلكت القوة السعودية الطريق الشرقي إلى المدينة بقيادة صالح بن عدل ثم اتجهت وتمركزت شمالها أول الأمر لتقطع الطريق على أية إمدادات قد تأتيها من الأردن(١) ولم يدخل صالح بن عدل منطقة السور بل انطلق إلى الشمال الشرقي من المدينة وهاجم القبائل التي كانت موالية للشرفاء، وانتشرت أخباره بين القبائل فسالمه أكثرها وأعطى البيعة للسعوديين(٢) وقاتله أقلها وخسروا المعركة أو فروا بعيداً، واستطاع صالح بن عدل أن يطوع القبائل المنتشرة في شرق المدينة(٣) ثم اتجه إلى المدينة وضرب الحصار عليها، وبدأ أهلها يستعيدون ذكريات قاسية عن الحصار السابق قبل ثماني سنوات، حينما فتك الجوع بالكثيرين وشردت العائلات، غير أن الأمر مختلف هذه المرة، فالحياة داخل المدينة لم تكن بالطريقة التي كانت عليها في ظل فخري باشا وقيادته العسكرية.

كانت الإدارة المدنية هي التي تصرف الأمور غير الحربية، والشريف أحمد بن منصور والشريف شحات يستقبلان الناس، وكان حديث الحصار والحرب لايغيب عن كثير من المجالس، ولكنه لم يكن مقترناً بالفزع الذي غلب على الناس في الحصار السابق، وكان من بين جلساء الشريفين عدد من أهل القصيم كآل القاضي وآل الخريجي والأطرم وبعض آل الرشيد، وكانت بينهم وبين الشريف أحمد بن منصور صداقة وكانت هذه الصداقة فيها الحماية

---

١) انظر أم القرى ع ١ ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٤.

٢) انظر أم القرى ع٣ جمادى الأخرة ص ٣ ١٣٤٣.

٣) انظر ذكريات العهود الثلاثة ص ١١٠.

والرعاية لأهل القصيم المقيمين في المدينة(١)، وأما الأمور العسكرية فكان يديرها عبد المجيد باشا مع ضباطه وجنوده، وكان مركزالقيادة في قصر الخالدية وقد تحول إلى إدارة الشرطة، وكان رؤساء الضباط عزت الشامي ومنصور الديري وعبد القادر الديري وقاسم الديري وجميل عجيب، ويقدر بعض مؤرخي تلك الفترة القوات الهاشمية المحاصرة بـ ٤٠٠ مقاتل، والقوات السعودية التي تحاصر المدينة بنحو ألفين وخمسمائة من المقاتلين(٢) وقد تقدم أن السلطان عبد العزيز لم يرغب في اقتحام المدينة، لما سيسببه ذلك من أذى لأهلها وتخريب لأماكن عزيزة على قلوب المسلمين، وأنه أمر قائده صالح بن عدل بحصارها فقط حتى يستسلم الهاشميون فيها، وأنه توقع أن تسقط المدينة وتسلم إذا حوصرت في أقل من سنة(٣) وكلف رجلاً آخر من الذين يعتمد عليهم هو -إبراهيم النشمي- بقيادة قوة أخرى تشارك في الحصار، فسار النشمي برجاله، ونزل في الجهة الشمالية من المدينة، فاكتملت حلقة الحصار حول المدينة: الإخوان الذين بنوا القصر من الجنوب وجزء من الغرب، والنشمي منَ الشمال وبقية الغرب، وصالح بن عدل من الشرق

الآثار الأولى للحصار:

بدأت آثار الحصار تظهر على المدينة بعد أن أغلقت المنافذ الشرقية التي كان يأتي منها المدد، وبدأ المخزون في البيوت يشح، وتضاءلت البضائع في الدكاكين إما لنفاذها وإما لأن أصحابها توقعوا ارتفاعاً فاحشاً في الأسعار على نحو ما حدث أيام فخري باشا فأخفوها.. وبدأ الضيق يظهر على عدد من أهاليها.. غير أن الحالة لم تبلغ بعد مرحلة الإرهاق.. وبدأ بعض الأهالي

---

١) انظر السابق ١١٠.

٢) أضواء على الإستراتيجية ص١٤٨.

٣) السابق - انظر أم القرى ع ٢٢/ رمضان ١٣٤٣هـ ١٧ ابريل ١٩٤٥ خبر صالح بن عدل.

يخرجون إلى الزهرة حيث المعسكر الذي يقيم فيه إبراهيم النشمي بمنطقة العيون، وكان من أوائل الخارجين أولئك الذين لهم معرفة سابقة بالنشمي عندما كان يتاجر مع أهل المدينة، ورأى رجال النشمي القادمين عزلاً لايحملون السلاح فأحاطوا بهم ثم أخذوهم إلى قائدهم.. فأكرمهم النشمي وسمح لهم أن يأخذوا بعض الحب والرز والسكر والشاي ويعودوا بها إلى أسرهم فصار يخرج كل يوم ما بين ٣٠-٤٠ رجلا إلى الزهرة وكل واحد يأتي بـ٣ أمداد حب ورز وسكر وشاي(١).

مخيم للهاربين من الحصار:

تتابع الخارجون من المدينة بعد ذلك، وأقاموا مخيماً في منطقة الزهرة عند بستان آل محروس، وصنعت بعض العائلات بيوتاً بسيطة من الخشب والجريد والخيام وبدأت هذه البيوت تتزايد عندما اشتد الحصار وتجاوز الأشهر الستة.. وكان رجال النشمي يستقبلون الخارجين من المدينة ويستضيفونهم ويقدمون لهم التمر وبعض الطعام ويسمحون لهم بالذهاب إلى المخيم الذي كانوا يدعونه (العرضي) وكان الخارجون إلى المخيم يحملون معهم المال وما خف من المتاع فإذا وصلوا إلى المخيم وجدوا من يبيعهم الشاي والسكر والأرز والسمن فقد كان بعضهم يأتي بهذه البضائع من رابغ وينبع ويبيعها للقرى حول المدينة، وكان بعضهم يهرب شيئاً منها إلى المدينة ليلاً فلما اشتد الحصار وخرجت العائلات إلى العرضي في الزهرة وجدوا زبائن جدداً فتحولوا إليهم... ويروي أحد شهود العيان أن بعض أهل المدينة الذين خرجوا إلى العرضي أخذوا يشترون الأرزاق ويهربون مايستطيعون حمله لداخلها وأن إبراهيم النشمي علم بذلك فتغاضى عنهم رأفة بأهل المدينة الذين اشتد عليهم الأمر.

وفي داخل المدينة كان القادة المدنيون الشريفان أحمد و شحات

---

١) محمد حسن زيدان: المدينة في التاريخ ص ١٣.

والعسكريون: عبد المجيد باشا وضباطه مصرين على المقاومة، يأملون في أن تصلهم الإمدادات من الشريف علي الذي تسلم مقاليد الأمور بعد استقالة أبيه.. وكانت الاتصالات اللاسلكية متواصلة بين الطرفين، الشريف علي يطلب من أهل المدينة الصمود والمقاومة والقيادة في المدينة تطلب المدد الغذائي وتعد بالصمود وعدم التسليم.

ورغم عدم تكافؤ القوة المحاصرة والقوة المحصورة في المدينة فإن بقية ترسانة الأسلحة والذخائر التي خلفها فخري باشا كانت تشجع القيادة العسكرية على الصمود وتقنعها بإمكانية صد أي هجوم.. ولا سيما وأن المدفعية المنصوبة في أبراج القلعة وبعض الأماكن الأخرى قادرة على إنزال خسائر جسيمة في المهاجمين.. وقد أثرت بشكل فعال على الهجمات التي حدثت بعد ذلك(١).

كانت الأموال عند الشريف شحات وافية تعين على مزيد من الصبر ورغم ارتفاع أسعار السلع المتبقية في المدينة والمهربة إليها فقد استطاعت الإدارة تأمين المواد الغذائية الأساسية للمحاصرين ومعظمها من التمر والخبز وبعض اللحم مرة في الأسبوع.. وبدأت ضائقة حقيقية تظهر على بقية أهل المدينة، فأخذت العائلات التي لاتملك مدخرات وافية تخرج إلى العرضي، يشجعها على ذلك الأخبار التي نقلها العائدون إلى المدينة والمتسللون ببعض المواد الغذائية عن توافر المؤونة فيه، وعن مساعدة النشمي للخارجين من المدينة وضيافته لهم.. ولم يجد قادة المدينة والعسكريين بأساً في خروج هذه العائلات لأنها تخفف الطلب على ما بقي في المدينة من طعام وتكون في مأمن من آثار القتال إذا اندلع، لذا كان حراس الأبواب عند السور يفتحون الباب الشرقي (باب البقيع) والباب الشمالي (الباب الشامي) نهاراً ولا يمانعون أحداً من الخروج.. وكانت هذه المنطقة آمنة لايجري فيها أي إشتباك..

---

١) انظر ذكريات العهود الثلاثة: ص ٦٥ـ٦٦.

قيادة المحاصَرين تبيع السلاح:

ومرت الأسابيع... وبدأت الأموال تتناقص في إدارة الشريفين بسبب الإنفاق اليومي على المقاتلين، فقرر الشريف شحات أن يبيع بعض الأسلحة المكدسة إلى الأهالي فحملت أعداد من البنادق وصناديق من الذخيرة إلى سوق المناخة والعالية واشتراها عدد من أهالي المدينة المقتدرين، ويروي زيدان أن بعض هذه الأسلحة انتقلت إلى رجل اسمه (دغيمان) في العوالي ومنها انتقلت إلى رجال عبد العزيز أنفسهم، وأن الشريف شحات علم بذلك ولم يفعل شيئاً، بل استمر في بيع هذه الأسلحة بين الحين والآخر ليحصل على المال(١) وقد بلغ ما أنفقه من مدخراته ومما جمعه من بيع السلاح خمسة عشر ألف جنيه ذهبي.. غير أن الإنفاق كان مكرساً للجانب العسكري أي كانت إعاشة الجند والمتطوعين هي المصرف الأول والأهم.. أما الموظفون فبدأت رواتبهم تتأخر وتنقطع، ثم توقفت، وكان أتعسهم حظاً المعلمين الذين توقفت رواتبهم قبل الحصار منذ بدء الاضطرابات.. حتى ان بعضهم لم يقبض راتباً لمدة ثمانية وعشرين شهراً ومع ذلك لم يتوقف أولئك المعلمون من تعليم الطلاب في المدارس(٢).

معركة محدودة:

مرت أشهر الحج هذا العام ولم يأت إلى المدينة أحد، بل إن الحج في مكة وعرفة كان قليلاً، وكان معظم الوافدين من الداخل، ودخل شهر محرم عام ١٣٤٤هـ، وفي هذا الوقت كان فيصل الدويش متجهاً إلى الشمال على رأس قوة من الإخوان لتنضم إلى قوى أخرى يقودها الأمير سعود بن عبد العزيز

---

١) السابق ص ١٨٦ـ١٨٨.

٢) السابق ص ١٨٦.

وليسير الجميع إلى بني سالم المقيمين في بعض الضلعان(١) وكان طريقها يمر قرب المدينة، فلما وصلت إلى أطراف العوالي خرج إليها بعض أهل العوالي وشكوا إلى الدويش ماتعانيه المنطقة من الجوع والقتل والاضطراب الإداري، وشجعوه على دخولها وتخليصها من أوضاعها الحالية، فأجابهم فيصل الدويش -كما تقول أم القرى- بأن الأوامر لدينا من القيادة العليا بألا نتوجه لقتال المدينة وأهلها، ولكن إجابة لطلبكم فنحن ننزل العوالي ونفاوض أهل المدينة بالتسليم وسنستشير القيادة العليا فيما عرضتموه علينا، وعلى ذلك فقد دخل الإخوان العوالي ونزلوا في ملك الشريف شحات وأخيه محمد، ودخلوا مسجد قباء وأرسلوا بما تم عليه أمرهم إلى مركز القيادة(٢) والمعروف عن فيصل الدويش أنه يميل إلى الحسم ولو باستخدام العنف، ورغم أن مهمته لم تكن دخول المدينة -كما تقول أم القرى- فإن استجابته بسرعة لطلب الذين طلبوا منه التدخل أدى إلى اشتعال المواجهة.

وفي صباح يوم ٢٣ محرم هاجمت قوة الدويش مخفر العيارية بجوار المدينة، فواجهتها حامية من قوة المدينة، وأطلقت النيران بغزارة، وبدأت المدفعية من داخل المدينة تصب قذائفها على المهاجمين فاضطر المهاجمون إلى التراجع إلى مدى لاتبلغه القذائف.

وفي اليوم التالي اتجهت قوة من الإخوان شمالاً وهاجمت المدينة من جانبها الغربي، ففتحت مدافع سلع نيرانها عليها، وأطلق الجنود المدافعون النيران بغزارة أيضاً، واستمر القتال سبع ساعات متوالية وسقط عدد كبير من القتلى، وتحركت قوة من الجند والمدافعين خارج السور، ودار القتال حول البيوت المتناثرة خارج السور، وانسحب المدافعون ليتيحوا الفرصة لنيران المدفعية كي تنصب على المهاجمين حول تلك البيوت فتهدم كثير منها.

---

١) انظر أم القرى ع٣٥ ٨ صفر ٢٨/١٣٤٤ أغسطس ١٩٠٥ ص٣.

٢) أم القرى، العدد السابق نفسه.

وانسحب المهاجمون.

وفي عصر اليوم نفسه صوبت المدفعية نيرانها إلى نزلة دغيمان حيث شوهد بعض الإخوان، وأمر عبد المجيد باشا بإطلاق النار بغزارة إلى كل جهة يمكن وجود المهاجمين فيها بما في ذلك بساتين النخيل والبيوت(١)، وعندما هبط الليل تسللت مجموعة من جنود المدينة إلى قباء حيث نزل بعض الإخوان ونسفوا عدداً من البيوت بالديناميت، وقابل الإخوان ذلك بإطلاق غزير لنيران البنادق ووقع عدد من الضحايا من الطرفين(٢).

ضجة بعد المعركة:

أرسل الشريف شحات والقائد عبد المجيد البرقيات إلى الشريف علي يخبرونه بالمعركة مع الإخوان، كما أرسل برقيات أخرى إلى عدد من السفارات الموجودة في جدة ومنها سفارة مصر وسفارة إيران ووصلت أخبار البرقيات إلى مندوب وكالة رويتر في القاهرة، فصاغ خبراً مليئاً بالإثارة، ووزعته الوكالة على الإذاعات والصحف، فانتشرت الأخبار بأن المدينة تشهد معارك ضارية بين السعوديين والهاشميين، وأن قصفاً شديداً ينصب على بيوت المدينة ومواقعها المقدسة، وأن القبة الخضراء في المسجد النبوي أصيبت بأضرار من هذه المعارك.

انتشرت الأخبار في أرجاء العالم العربي مهولة ومطبلة، وكان لها صدى شديد، فقد أبرق الملك فؤاد في الحادي عشر من شهر صفر إلى عبد العزيز يقول : الحرب القائمة حول المدينة المنورة قد أقلقت خواطر المسلمين قاطبة، لما عساه يحدث من تأثيرها في الأماكن المقدسة النبوية التي نحبها جميعاً ونحافظ على آثارها الكريمة، ولا يخفى على عظمتكم مالهذه الأماكن من الحرمة التي توجب أن تكون بعيدة عن الأذى، رغم ما يقتضيه أي نزاع أو

---

١) أم القرى ع٣٨ ٢٩ صفر ١٣٤٤.

٢) أم القرى العدد السابق ذكره.

خلاف، ولكن ما نعتقده في شديد غيرتكم الدينية ما يطمئن قلوبنا والمسلمين على صيانة الحرم النبوي الشريف وآثار السلف الصالح في المدينة المنورة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته(١).

كان الملك عبد العزيز في هذه الأثناء يحاصر جدة، لذلك لم يتعجل الإجابة على الملك فؤاد، بل أبرق إلى قائده إبراهيم النشمي يستفسر منه عن صحة مانشرته الأنباء وعن المعارك التي تجري حول المدينة وأثرها على المسجد النبوي، فأجاب النشمي بحقيقة ماحدث، وطمأن الملك عبد العزيز بأن المسجد النبوي لم يصب بأي أذى، وأن إطلاق النار كان بعيداً عنه تماماً وأن القوات السعودية لم تطلق أية قذيفة مدفعية، وباستثناء رصاص رجال الدويش لم يحصل شيء يذكر، فأرسل الملك عبد العزيز إلى الملك فؤاد بتاريخ ١٦ صفر ١٣٤٤ البرقية التالية:

إني أشكر جلالتكم من صميم فؤادي على غيرتكم الدينية، وإني أقدر لجلالتكم ما شرحتموه في برقيتكم حق قدره، إن حرم المدينة كحرم مكة، نفديه بأرواحنا وجميع ما نملك، وإن ديننا يحمينا عن الإتيان بأي حدث في المدينة وسنحافظ على آثار السلف الصالح وكل ماهو في المدينة مما يهم كل مسلم المحافظة عليه، إن العدو يريد ان يشوه سمعتنا ووجه جهادنا بما يفتريه من الكذب والبهتان، ويحاول أن ينال بالبهتان ماعجز عنه بالسيف، ولكن الحق أبلج، والله مؤيد بدينه وآخذ بنصرة أهله ولو كره المبطلون، هذا وأرجو أن تقبلوا تحياتي(٢).

كانت صحف الشريف علي في جدة تروج أخباراً مختلفة عن معارك حول المدينة ترفع معنويات جنودها حتى إنها نشرت مرة خبراً عن معارك طاحنة عند العاقول قرب المدينة المنورة وزعمت فيها أن قائد القوات السعودية

---

١) تاريخ ملوك آل سعود ص ١٧٣.

٢) تاريخ ملوك آل سعود ص ١٧٤ -١٧٥

إبراهيم قد ذبح على يد علي بن الشريف شحات(١).

وعلى أثر ذلك أمر السلطان عبد العزيز قائده فيصل الدويش التوجه إلى نجد لتأديب بعض القبائل التي شغبت في غيبته، وأمر قوة سعودية أخرى بقيادة عبد المحسن الفرم أن تتحرك لتحل محل فيصل الدويش ورجاله، وعبد المحسن هذا واحد من شيوخ بني علي، ومن أهل العوالي، بايع السلطان عبد العزيز وصار من رجاله، فتحرك الفرم ووصل المدينة بسرعة، وعسكر جنوبها من جهة العوالي والحرة الشرقية، وكان أقرب من الدويش إلى بيوت المدينة والمسجد النبوي، ولو أطلق الرصاص لأصاب من بداخل المدينة، ولكن الفرم جاء يحمل أمراً بالحصار فقط دون القتال، إلا للدفاع عن النفس.

غادر الدويش ورجاله منطقة قباء وأخلاها لرجال عبد المحسن الفرم وإبراهيم النشمي الذين حلوا محلهم، فهدأت الجبهة الوحيدة التي كانت تشتعل فيها النار، وأصبحت المدينة كلها محاصرة في سكون، فالمحاصرون يكتفون بالدوريات المتحركة للمراقبة، والمجموعات الأخرى متمركزة في نقاط متفرقة، والمحصورون يتناوبون الحراسة والمراقبة الحذرة، دون أن تطلق قذيفة واحدة.

إيران والحصار:

- مثلما أرسل الملك فؤاد برقية للملك عبد العزيز يظهر فيها قلقه لما نشر من أنباء حول القتال في المدينة أرسل شاه إيران برقية احتجاج، وكانت لهجة البرقية قاسية تتخذ من الأخبار التي نشرتها رويتر وتناقلتها وسائل الإعلام عنها حقائق قاطعة، لذلك أبرق إليه الملك عبد العزيز يكذب الأنباء المغرضة ويتحدى أن تكون الأماكن المحترمة في المدينة قد أصيبت بضرر، واتصل السفير الإيراني بالملك عبد العزيز، وكان يقيم في منطقة بحرة محاصراً الشرفاء في جدة، وطلب منه أن يسهل زيارته للمدينة للاطلاع على حقيقة الأمر فيها، وجاء هذا الطلب موازياً للتحدي الذي ظهر في برقية عبد العزيز،

---

١) بريد الحجاز ع٥٢ ٢٩ ذوالقعدة ١٣٤٣هـ/ ٢١ يونيو حزيران ١٩٢٥.

فوافق عبد العزيز على الفور، واستقبل الوفد الإيراني ويتكون من وزير إيران المفوض في مصر وقنصل إيران المعين في الحجاز(١) وأرسل مع السفير الإيراني رسالة إلى قائده إبراهيم النشمي، الذي أصبح قائداً عاماً للقوة السعودية حول المدينة يوصيه بحماية السفير وإكرامه وتيسير دخوله إلى المدينة، وأرسل معه أحد رجاله -أحمد لاري- ليصحبه إلى النشمي، ووصل السفير في أواخر صفر ومعه بعض رجال السفارة وأحمد لاري وخفارة من رجال عبد العزيز، واستقبله النشمي وأضافه وأمر بعدم التعرض لركبه المتوجه إلى المدينة، وجرت اتصالات برقية بين السفارة الإيرانية في جدة والقيادة في المدينة، ورتب دخول السفير عبر الحصار، ودخل السفير يرافقه بعض موظفيه واستقبله رئيس البلدية محمود عبد الجواد ومدير المالية زكي باشا، وزار الشريف أحمد والشريف شحات، وتفقد المسجد النبوي والبقيع وبعض الأماكن في المدينة المنورة واجتمع إلى عدد من أهلها، ثم خرج ليبرق إلى الشاه بتقريره، فلم يكرر الشاه الاتصال بعبد العزيز بهذا الشأن(٢).

عالم يعظ ويرشد:

قلق السلطان عبد العزيز للمعارك التي خاضها الدويش ورجاله ضد حامية المدينة وأراد ألا تتكرر هذه المعركة، فهو يريد أن تستسلم المدينة سلماً، حفاظاً على سكانها، واحتراماً لمكانتها، فأرسل أحد كبار علماء نجد ليكون مع القوة السعودية وهو الشيخ عمر بن سليم، ووصل الشيخ عمر قبل أن يغادر فيصل الدويش المدينة، وقرأ عليه وعلى رجاله، ثم على بقية القوات السعودية، الأحاديث التي تتعلق بالمدينة وفضائلها، وأبلغهم أمر عبد العزيز بعدم مهاجمتها كيلا يصيبها شيء من الأذى والإكتفاء بالحصار إلى أن

---

١) انظر حافظ وهبة: جزيرة العرب ص٢٧٤، وانظر بريد الحجاز ع٥٥ ٢٣ جمادى الأولى ١٣٤٤.

٢) انظر ذكريات العهود الثلاثة ١٢٠.

تستسلم الحامية(١).

مقاومة يائسة:

وبدأ الحصار يؤتي ثماره، وبدأ بعض أهل المدينة يخرجون منها بمعدل ١٥٠ شخصاً يومياً يتوجهون إلى مخيم النشمي فيستقبلهم ويكرمهم ثم يتابعون الطريق إلى الزهرة ومنهم من يسافر إلى مكة، وقد قدر عدد الذين وصلوا إلى مكة من أهل المدينة بأربعة آلاف شخص(٢)، وقرر عبد المجيد باشا أن يرسل بعض جنوده الأشداء في غارات مفاجئة على مواقع القوات السعودية لزعزعتها، ولرفع معنويات الحامية والمحاصرين، وفي ١٢ ربيع الأول تسللت مجموعة من جنود الحامية إلى الخنادق الأمامية للجنود السعوديين وعند الفجر فوجئ الجنود السعوديون -بعد فراغهم من الصلاة- بنيران البنادق تنصب عليهم من أماكن قريبة وسقط بعض القتلى والجرحى، وصبت مدفعية المدينة قذائفها بغزارة فوقع هرج ومرج وسقط عدد من الجرحى والقتلى، وهب السعوديون من كل جهة ليواجهوا النيران بمثلها، وانقسمت قواتهم إلى قسمين قسم ركز على القوة المهاجمة من جهة باب قباء وقسم واجه القوة من جهة العوالي والحرة الشرقية، واستمر إطلاق النار إلى مابعد طلوع الشمس حيث انسحبت القوة المهاجمة من جهة باب قباء، وتحركت القوة المهاجمة الأخرى إلى جهة الحرة الشرقية وتترست بها، واستعانت بقوة ترابط هناك، فاشتدت المعركة ودامت إلى صلاة الظهر حيث انسحب المهاجمون إلى المدينة ودخلوها، وأراد السعوديون أن يتبعوهم ولكن

---

١) انظر أم القرى، ع ٤٣ في ربيع الثاني ١٣٤٤هـ ٢٣ اكتوبر ١٩٢٥م.

٢) انظر أم القرى ع٤٦ /٢٣ ربيع الثاني ١٣٤٤

الشيخ عمر سليم نهاهم عن ذلك وذكرهم بأمر السلطان(١).

تشديد الحصار:

أمر النشمي بتشديد الحصار بعد أن خرج قسم كبير من أهل المدينة، واحتجز من يحاول التهريب، وضاعف الدوريات الليلية حول منافذ المدينة كلها، فازدادت الحالة سوءاً داخل المدينة، وبدأ التقنين الشديد للطعام وازداد عدد الخارجين من العائلات، وأحس الشريفان بأن موقفهما يسوء يوماً بعد يوم، فأرسلا البرقيات إلى الشريف علي ليرسل نجدة من الطعام، ولم يكن حال الشريف علي ورجاله أفضل من حال المحاصرين في المدينة، فقد شدد عبد العزيز الحصار على جدة من أطرافها الثلاثة، ولم يبق إلا المنفذ البحري، ولا يستطيع الشريف علي إرسال شيء عن طريق البحر إلى المدينة لأنه سيقع في يد الذين يحاصرون المدينة من أطرافها الأربعة.

ومر شهر ربيع الأول، ونقص الطعام نقصاً شديداً، وبدأت آثار الجوع والإعياء تظهر على الحامية، وبدأ المال الذي في خزانة المالية ينضب فليست هناك موارد جديدة، ولم يعد بالإمكان بيع المزيد من السلاح، والمبلغ الذي دفعه الشريف شحات قد نفذ في شراء المؤن اللازمة، ومع أن أهل المدينة لايبخلون في مساعدة الحامية إلا أنه من غير المعقول الاعتماد على مساعداتهم لذلك بدأ عبد المجيد باشا وضباطه يبحثون الأمر بشيء من القلق، واستطاع نظام التقنين الذي اتبعه عبد المجيد أن يمد في عمر المؤونة المخزونة شهرين آخرين، وعندما انتصف شهر ربيع الثاني ولم تصل إلى المدينة أية أمدادت بدأ التفكير يتجه إلى حل حاسم، وتداول الشريفان مع عبد المجيد وضباطه قضية التفاوض مع القوة السعودية، ثم اتسعت المداولات، وشملت وجوه أهل المدينة خاصة وأن البرقيات الواردة من جدة رغم لهجتها الواثقة أصبحت تكرر الاعتذار عن إرسال المعونات، وأيقن الشريفان أن وضع

---

١) انظر أم القرى ع٤٣ ٥ ربيع الثاني ١٣٤٤هـ.

الشريف علي سيء وأنه لن يقدر على نجدة المدينة.

قرار المفاوضة والتسليم:

وقبل أن ينتهي ربيع الثاني علت الأصوات في مداولات القيادة المدنية والعسكرية حول المفاوضات والصلح، اجتمع وجوه أهل المدينة مع الشريفين، وأبدوا بصراحة تامة رغبتهم في إنهاء هذه الأزمة ومصالحة السعوديين، ورغم أن القائد العام للقوة السعودية إبراهيم النشمي قد أبدى ليناً مع أهل المدينة فإن رغبات المطالبين بالمفاوضة والصلح اتجهت إلى مخاطبة عبد العزيز مباشرة، وطلب الصلح معه والتسليم له على أن يرسل أحد أبنائه ليتسلم المدينة، آمنة مؤمنة بمن فيها وما فيها، واتفق المجتمعون على أن يقوم بهذه المهمة واحد من تجار المدينة البعيدين عن مداخلات الخصومة هو مصطفى عبد العال، وهو تاجر معروف في المدينة وله علاقة مع عدد من تجار أهل القصيم، ومنهم من يشارك في حملة عبد العزيز وحصاره لجدة والمدينة، وكتب الشريف شحات بنفسه رسالة طلب الصلح إلى عبد العزيز، وخرج بها الرسول مع الخارجين من المدينة دون أن يفطن إليه أحد من رجال النشمي، واشترى جملاً وسافر مسرعاً إلى بحرة حيث يعسكر عبد العزيز ويدير حصار جدة، وكانت رسالة الشريف شحات تشترط للتسليم تأمين أهل المدينة والمقيمين فيها والموظفين والعسكريين على أرواحهم وأموالهم وألا يعاقب أحد بسبب المعارك التي حدثت، وأن يتسلم المدينة أحد أبناء عبد العزيز.

استجابة السلطان:

وصل مصطفى عبد العال إلى السلطان عبد العزيز في (بحرة) حيث كان مركز قيادته في حصار جدة، وسلمه رسالة الشريف شحات، وحدثه عن طلبات أهل المدينة، فوافق عبد العزيز على الطلبات التي وردت في الرسالة، وأمر ابنه الأمير محمد أن يسير إلى المدينة بصحبة مصطفى عبد العال، فتوجه إليها في ٢٣ من شهر ربيع الآخر يرافقه رهط من حاشية أبيه ومائتان

من رجاله، ووصلت الأخبار للنشمي فاستقبل الأمير وركبه، وبدأت الاستعدادت لتسليم المدينة(١).

محاولات الشريف علي:

تسرب الخبر إلى الشريف علي في مكة بأن المدينة المنورة عازمة على التسليم، فأرسل برقيات متوالية تحض القادة على الصبر وعدم التسليم وتعد بإرسال الإمدادت العاجلة والأموال فوراً، فأبرق عبد المجيد باشا في الخامس من شهر جمادى الأولى -ولم يكن الرسول المرسل إلى عبد العزيز قد عاد بعد- يخبر الشريف علي أن الأرزاق قد نفدت ولم يعد لدى الحامية طعام، وذكره بوعوده السابقة بإرسال النجدة بالطائرة، فتلقى برقية جوابية تؤكد إرسال النجدة، ومر اليوم ولم يصل شيء فأبرق عبد المجيد في اليوم التالي: انقضى الأمر ولم يعد في اليد حيلة والجنود ماعندهم أرزاق إلا لثلاثة أيام، فإن لم تصل الطائرة غداً الظهر سنفاوض العدو بالتسليم.. فأجابهم الشريف علي.. إن الطائرة تأتيكم غداً، فأبرق عبد المجيد ثانية أن من الواجب مجيئ الطائرة ففي ذلك فوق مهستنا الأساسية إرهاب العدو وتقوية معنوية الجيش، ومر اليوم التالي ولم تصل الطائرة، ووصل الرسول، وعاد إلى أبواب المدينة ليخبر الحامية بقدوم الأمير محمد ولإعداد الترتيبات لتسليم المدينة.

شيء من التردد:

غير أن برقيات الشريف علي قد غيرت موقف الحامية والشريف شحات، وجعلتهم يؤثرون انتظار مجيئ الطائرة ويعتقدون أن وصولها سيقلب الموازين ويسهم في فك الحصار، ووصلت برقية في اليوم التالي تطلب منهم الانتظار

---

١) انظر أم القرى ع ٤٦ ٢٣ ربيع الثاني ١٣٤٤هـ تاريخ ملوك آل سعود ١٧٥-١٧٦ ويذكر الكاتب أن سفر الأمير محمد بن عبد العزيز كان يوم ٢٣ ربيع الأول والصحيح أنه ربيع الآخر.

عشرة أيام لعدم وجود الوقود اللازم للطائرة كي تصل إلى المدينة(١) فقررت القيادة الانتظار، وكان الشريف علي يعاني من أزمة كبيرة في جدة فالحصار يحكم عليه براً، وأصدقاؤه الإنكليز أدركوا ضعف موقفه فأخذوا يتهربون من مساعدته ويتعللون بعلل شتى، كان الشريف علي يلح عليهم لتجهيز الطائرة الموجودة في مطار جدة وإرسال المعونة بها إلى المدينة ولكن الإنكليز اعتذروا بعدم إمكانية تأمين الوقود، ثم عدم وجود الطيارين.

وفي مخيم القوة السعودية المحاصرة استبطأ الأمير محمد عودة الرسول الذي دخل المدينة لإعداد ترتيبات التسليم، فأرسل بعض رجاله لمخاطبة الحامية وطلب الجواب، ولكن الحراس لم يسمحوا لهم بالاقتراب ولم يردوا عليهم بالجواب المنتظر، فأمر الأمير محمد بتشديد الحصار ومراقبة جميع منافذ المدينة مراقبة دقيقة، ومرت بقية الأيام العشرة ولم تصل الطائرة الموعودة فأبرق عبد المجيد: نريد تأمين معيشة الجند، فمنذ ثلاثة أيام لم يجر عليهم الطعام، إن اليوم هو آخر عهدنا دبروا لنا اليوم وإلا فنحن نسلم.. وجاءت برقية جوابية تطلب منهم الصبر، ولكن الصبر قد نفد والكيل قد طفح(٢).

قرار التسليم:

اجتمعت قيادة المدينة وتداولت في الأمر وأجمعت على التسليم، فالنجدة ميؤس منها والوعود المتوالية لم يتحقق منها شيء، وكلف عبد المجيد بعض ضباطه أن يخاطب أحد قادة القوة السعودية، ويطلب منه إبلاغ رسالة مهمة إلى الأمير محمد، وتمت المخاطبة، ووصلت الرسالة إلى الأمير محمد تطلب منهم أن يجيبهم إلى مقابلة اثنين من الضباط، فوافق الأمير محمد وأرسل

---

١) تاريخ ملوك آل سعود ١٧٦-١٧٧ وانظر أم القرى ع ٥١ في ٢ جمادى الثانية ١٣٤٤ هـ.

٢) تاريخ ملوك آل سعود ١٧٦.

بعض الخيالة لاستقبالهم، وفوجئ الجميع بقدوم قائد الحامية نفسه عبد المجيد باشا ونائبه عزت بك، فاحتفى بهما الأمير وبالغ في إكرامهما، وخاطباه بشأن التسليم والشروط التي وافق عليها والده، فقبل الأمير محمد هذه الشروط، وتم الاتفاق على التسليم في صباح اليوم التالي، عاد عبد المجيد وعزت إلى المدينة لإنجاز ترتيبات التسليم والتقى بالشريفين أحمد وشحات، وأخبرهما بنتيجة المفاوضات، وحضر أعيان المدينة، وأبلغ الجميع بخبر التسليم، وانتشر الخبر في بيوت المدينة وبات الجميع بانتظار صباح اليوم التالي(١).

---

١) انظر أم القرى ع٥١ تاريخ ٢ جمادى الثانية ١٣٤٤ - ١٨ ديسمبر ١٩٢٥.

المدينة المنورة في العهد السعودي

اليوم الفاصل:

بدأت الاستعدادات لتسليم المدينة بعد عودة قائد الحامية العسكرية عبد المجيد باشا ومعاونه عزت باشا من مقابلة الأمير محمد بن عبد العزيز مباشرة، وبُلغ الضباط والجنود بالقرار، وطُلب منهم تجهيز المواقع والمستودعات لتسليمها للقوات السعودية.

وفي صباح اليوم التالي: السبت التاسع عشر من شهر جمادى الأولى عام ١٣٤٤هـ خرجت مجموعة صغيرة من ضباط الحامية وخيالتها إلى المعسكر السعودي، وكان فيها عبد المجيد باشا ومعاونه عزت باشا وعبد القادر الديري وقاسم الديري، وكان في استقبالهم الأمير محمد وكبار قادته، ومنهم إبراهيم النشمي وعبد المحسن الفرم، وبعد السلام على الأمير وقادته أعلن الوفد عن التسليم، وطلب حضور القوة السعودية لتسلم المرافق العسكرية والإدارية، فأمر الأمير محمد أحد رجاله، وهو(١) ناصر بن سعود الفرحان أن يتوجه بمجموعة من الجنود مع الوفد إلى المدينة لاستلام تلك المرافق ولإحلال الجنود السعوديين فيها محل جنود عبد المجيد والحامية، وعاد الوفد يصحبه ناصر بن سعود الفرحان، وبدأ بتسليم القلعة والمستودعات التي فيها الثكنة في باب العنبرية، ثم المحارس ثم مقر الإمارة نفسه، وكلما تسلم موقعاً انسحب رجال عبد المجيد منه وحل محلهم عدد من رجال القوة السعودية، وعند العصر كان الجنود السعوديون منتشرين في أرجاء المدينة وقلعتها وسورها ومقر قيادتها العسكرية ومقر الإمارة، ولم تحدث أية مشاحنة بينهم وبين رجال الشرفاء، وبدا الأمر وكأنه تبديل فرقة عسكرية بأخرى شقيقة، وبقي ناصر بن سعود الفرحان وعدد من رجاله مع عبد المجيد وكبار ضباطه يتبادلون أحاديث هادئة، ثم كتبت وثيقة الصلح، كتبها عبد الله القين وصالح رفة، ونقلت إلى المدينة كميات من الأرزاق، ووزع الطعام على أفراد الحامية

---

١) أنظر زيدان: ذكريات العهود الثلاثة: ١٠٩، وملوك آل سعود ١٧٧.

١ ـ المدينة المنورة من داخل السور في مطلع العهد السعودي وتبدو في الصورة مآذن المسجد النبوي الخمس قبل التوسعة السعودية.



٢ ـ الأمير محمد بن عبد العزيز أول أمير سعودي للمدينة

المنهكة، كما وزع على عدد من أهل المدينة الذين شكوا من نفاذ طعامهم، وسارع عدد من المقيمين في العرضي الذين كانوا يترقبون تنفيذ الصلح والتسليم للعودة إلى المدينة، وبقي الآخرون ينتظرون اليوم التالي ليحملوا أثاثهم البسيط والأرزاق التي اشتروها إلى بيوتهم المغلقة.

وقبل أن تغلق المدينة أبوابها -كعادتها كلما حل الظلام- كانت صفحة من التاريخ قد طويت نهائياً وفتحت صفحة جديدة.

وفي اليوم التالي، الأحد الواقع في العشرين من شهر جمادى الأولى عام ١٣٤٤هـ توجه الأمير محمد بن عبد العزيز المدينة ومعه حاشيته وجنوده، إلى المدينة، فاستقبله على أبوابها الشريفان: أحمد وشحات، وقائد الحامية عزت باشا، وكبار ضباطه، وعدد من أعيان المدينة، فسلموا عليه، وأعلنوا ولاءهم له ولوالده، وتوجه الركب إلى المسجد النبوي الشريف، حيث صلوا فيه، ثم سلموا على النبي ﷺ وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم توجهوا إلى مقر الإمارة، وبدأ الأمير يستقبل الأهالي، وظل الشريفان وكبار القادة والأعيان في معيته، وتناول الجميع طعام الغذاء على مائدة الأمير(١).

مبايعة بقية أهل المدينة:

وعلى مدى ثلاثة أيام ظل الأمير محمد يستقبل أهالي المدينة ويسمع منهم ويحاورهم، ويوزع عليهم الأعطيات من الرز والقمح والمال، وكان الهاشميون قد أنشأوا (تكية) لتوزيع الطعام على غرار التكية المصرية، ولكنهم مالبثوا أن اغلقوها لاضطراب أمرهم وضعف إمكاناتهم، ففتحت وجعلت مركزا لتوزيع الأرزاق على المحتاجين، وقد بلغ جملة ماوزع على أهل المدينة آنئذ أكثر من ألف كيس من الأرز، وألفي كيس من الحنطة وشيئاً كثيراً من النقد، أمر بها السلطان عبد العزيز تخفيفاً عن أهل المدينة.

---

١) انظر: ذكريات العهود الثلاثة ١٠٩، وملوك آل سعود ١٧٧، وجريدة أم القرى ع ٥٥ في ٣ جمادى الثانية ١٣٤٤ هـ.

وفي اليوم الرابع عقد الأمير محمد بن عبد العزيز اجتماعاً كبيراً مع أعيان أهل المدينة وكبار موظفيها في دار البلدية، وتحدث إلى الموجودين، فكرر إعلان العفو العام، وخيّر القاطنين في المدينة من الضباط والموظفين الشوام والعراقيين والليبيين الذين كانوا يعملون في الإدارة مع الهاشميين، والنجديين الذين كانوا بين خصوم آل سعود، بين البقاء في المدينة أو الرحيل إلى أية جهة يشاؤونها لايعترضهم أحد، وقد استأذنه في الرحيل عدد منهم، فسافر الشريف أحمد إلى وادي فاطمة ورئيس ديوانه الخاص عبد الله بن عمير وعمر كردي شاعر الهاشميين وكبير فقهائهم وعبد المجيد باشا، وطمأن الأمير محمد جميع الموظفين ورجال الشرطة الذين يريدون البقاء في مناصبهم أنهم لن يعزلوا، كما طمأن أهل المدينة أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وأن شرع الله سيطبق على الجميع.

وأرسل الأمير محمد بن عبد العزيز برقية إلى والده يخبره أن أهل المدينة بايعوه نيابة عن أبيه، وطلبوا منه إبلاغ والده بالبيعة، وأبرق رئيس البلدية والقاضي ورئيس الحرم برقيات مبايعة للسلطان، نشرتها جريدة أم القرى، ورد عليهم السلطان ببرقيات رقيقة(١).

الإدارة والموظفون:

قرر السلطان عبد العزيز تعيين ابنه محمد أميراً على المدينة، بعد أن طلب أهلها أن يكون تسليمها لأحد أبنائه، إشعاراً بمكانتها، وتكريماً لأهلها، كما قرر تعيين إبراهيم السبهان وكيلاً لأميرها

وخلال إقامة الأمير محمد في المدينة نظر في إداراتها وموظفيها، فثبت الموظفين الذين لم يرحلوا في مناصبهم كما وعدهم، حتى ديوان الإمارة أبقى

---

١) أنظر أم القرى ع٥٥، في ٣٠ جمادى الثانية ١٣٤٤، ١٠ يناير ١٩٢٦.

فيه إسماعيل حفظي رئيساً له وهو نفسه الذي كان يرأسه زمن الهاشميين(١) كذلك ثبت قائد الشرطة مهدي بك في منصبه، والمحكمة الشرعية ثبت فيها قاضيها الأول إبراهيم عبد القادر البري وهو من أهل المدينة، وولى إدارة الخزينة النبوية -وهي التي تجمع إدارة المسجد النبوي وهيئة الأوقاف- لمحمد إبراهيم القاضي من المقيمين في المدينة، وضمت المالية إلى إدارة البلدية وعين فيها دياب ناصر حيث استقال زكي بك العراقي من إدارة المالية، وعين الشيخ زين العابدين مديراً للحرم وعين الشيخ أحمد كماخي لإدارة المعارف مكان الشيخ عبد القادر الشلبي الطرابلسي الذي كان يجاهر بالعداء للسلفيين في العهد الهاشمي، حتى إنه أغلق مدرسة العلوم الشرعية بتهمة الميل إلى الوهابية، فلما بدأ العهد السعودي عزل من منصبه ولكن لم يلحقه أي أذى، وسمح له أن يفتح مدرسة خاصة(٢).

السبهان يدير أمور المدينة:

آثر الأمير محمد بن عبد العزيز أن يلازم والده ليكون عوناً له في مواجهة المستجدات المتوالية، وترك لوكيله إبراهيم السبهان إدارة شئون المدينة بعد أن استتبت أمورها، فغادرها في الثالث من رجب عام ١٣٤٤هـ إلى جدة، التي فتحت أبوابها للسلطان عبد العزيز، ورحل عنها الشريف علي وأسرته(٣) كما غادرها إبراهيم النشمي عائداً إلى بلدته في القصيم، وأصبح السبهان هو الذي يدير شئون المدينة، فإمارة الأمير محمد -كما أسلفت- هي إمارة تكريم ووفاء لأهل المدينة.

كان إبراهيم السبهان واحداً من أعيان حائل، له صلات مع عدد كبير من أهل المدينة، وكان اختياره موفقاً لإرضاء أهل المدينة وتطمينهم، وفي

---

١) زيدان ١٢٣.

٢) زيدان ١٦٣.

٣) أم القرى ع٥٦، ٨ رجب ١٣٤٤.

الأسبوع الأول من رمضان ١٣٤٤هـ عين الملك عبد العزيز واحداً من أهل المدينة هو حمزة غوث معاوناً للسبهان(١).

السبهان والتغييرات الأولى:

كان السبهان لين الجانب رفيقاً بالناس، فمرت مرحلة التغيير الأولى دون صعوبة تذكر على أهل المدينة، ومراحل التغيير ليست سهلة في العادة وبخاصة في أوائلها، وإذا ذكرنا أن المدينة منذ أن دخلها طوسون باشا عام ١٢٢٦هـ عادت إليها كثير من البدع والمظاهر التي ستتغير في العهد السعودي، ولم تكن نفوس الكثيرين من أهل المدينة قد استوعبت هذا التغيير أو تقبلت مدلولاته، وبخاصة إزالة مقام محمد ذو النفس الزكية في طرف المدينة وهدم القباب الكثيرة المقامة على القبور في البقيع، وهدم الأبنية التي أقيمت للتبرك في عدد من أطراف المدينة، وقد شرع الإخوان منذ الأيام الأولى لدخولهم في إزالة هذه المظاهر(٢) وتصدوا لمظاهر البدع في العبادات والسلوك وداخل المسجد النبوي وكان في تصرفات بعضهم شيء من الشدة لم يألفها الحجازيون، وكان بعضهم يجتهد فيقع في بعض التجاوزات، وكان من الممكن أن تؤدي هذه التغيرات إلى مشكلات كثيرة، وكان السلطان عبد العزيز يداري الإخوان لإخلاصهم ويستجيب لطلباتهم في حالات كثيرة، وقد أمر بهدم مسجد حمزة المقام في المكان الذي استشهد فيه سيد الشهداء رضي الله عنه وقرب قبره استجابة لطلبهم، وأوقف العمل بمحطة اللاسلكي بعض الوقت إلى أن يتهيأ له إقناعهم(٣) وخلال فترة وجيزة (نجح في إقناع بعضهم، وتجاوز

---

١) أم القرى ع٦٦، ١٩ رمضان ١٣٤٤، ٢ إبريل ١٩٢٦.

٢) انظر حافظ وهبة جزيرة العرب ص٢٨.

٣) السابق ص ٢٩٤-٢٩٧.

الذين لم يقتنعوا، وفرض استخدام اللاسلكي والسيارات)(١).

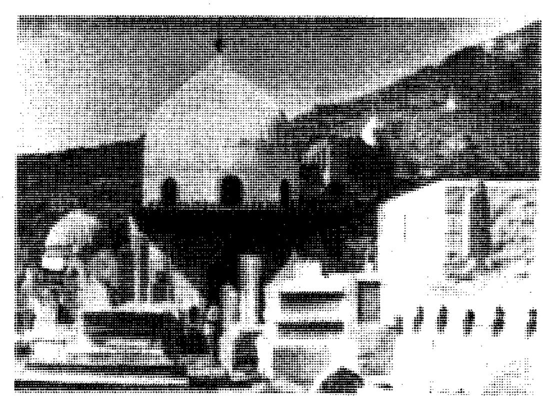
هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

كان لحماسة بعض الإخوان بعض الأثر في ولادة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويصف عبد الله الشهيل هذه الحالة -وهي تنطبق على المدينة- فيقول: (عند دخولهم الحجاز -يقصد الإخوان- رأوا فيه مالم يألفوه، نظراً لأوضاعه المختلفة فظنوا أن كل من يختلف معهم ليس على صواب، واعتقدوا عن حسن نية أن كل مظهر لايتفق مع ماهم عليه منكر من الواجب إزالته، وهذا صحيح بيد أن المشكلة في معرفتهم الناقصة، فنصب كل منهم نفسه حاكماً، فأخذوا يضربون المدخنين، ومرتدي الأزياء الغريبة عليهم، ويقبضون على المجتمعين لذكر أو تلاوة على اعتبار أنها بدع لم تكن موجودة عند السلف الصالح، الأمر الذي وجد معه عبد العزيز ضرورة إيقافهم عند حدهم، حرصاً على راحة الحجازيين وخوفاً من أن تمتد أيديهم -الإخوان- إلى الحجاج، مما قد يعرض علاقاته مع الدول للتوتر، وهو الذي يسعى من أجل كسب السمعة الطيبة، وثقة المسلمين، وإظهار القدرة على الضبط والربط، هذه التصرفات وضع لها الملك المؤسس حداً فبادر بتعيين مجموعة من حرسه الخاص الأشداء المعروفين بالمرونة ودماثة الأخلاق والورع، والطاعة لولي الأمر، وضع هؤلاء الحرس الذين هم محل ثقته لتأديب كل من تخوله نفسه تجاوز حدوده، وعين قاضياً للنظر فيما يحدث من تعديات الإخوان، وممارسات الأهالي والوافدين لبعض العادات المخالفة لحقيقة الدين، ومما

---

١) السابق.

يمكن اعتباره نوعاً من البدع(١) وأرسل تعليمات مشددة لتطبق في أرجاء الحجاز خلاصتها منع الجند والإخوان من ضرب المواطنين وشتمهم، وتغريم من يدخن بدلاً من جلده، وإقامة مناظرين من البلدية ليراقبوا من يتخلف عن الصلاة وتحويله إلى هيئة الأمر بالمعروف لتقرير الجزاء الشرعي عليه(٢) وقد نجح السلطان عبد العزيز في ضبط الأمور وكبح جماح المندفعين.



١ ـ القباب الضخمة على القبور والأبنية الحجرية على القبور أزالها السعوديون عند دخولهم الحجاز وعادت في عهد محمد علي باشا والعهد العثماني الثاني. ثم أزيلت نهائياً بعد دخول الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الحجاز.



٢ ـ واحد من المزارات التى كانت تملأ المدينة قبل العهد السعودي وقد كتب عليه: هذا قبر سيدنا عبدالله والد النبى ﷺ.
والمعروف أنه لا يوجد أي دليل تاريخي على صحة ذلك. وقد اهتمت جماعة الأمر بالمعروف بإزالة المزارات.

---

١) عبد الله محمد الشهيل - فترة تأسيس الدولة السعودية المعاصرة ص٧٩-٨٠.

٢) انظر معجزة فوق الرمال ١٠٤.

الانقلاب الكبير:

رأينا في التاريخ الطويل للمدينة وماحولها ماكان يعانيه الحجاج والمسافرون من قبل بعض القبائل والأفراد، والضريبة التي كانت الوفود تدفعها للقبائل المجاورة لطريق الحج لقاء تركهم يمرون بسلام. والمرتبات التي اعتاد شيوخ القبائل على قبضها من الدولة العثمانية.. بل ومن المماليك من قبلها، لقاء عدم تعرضهم للحجاج والمعتمرين.. وكان هذا أشد ما يعانيه المسلمون في حجهم.. وقد استمر تسلط قبائل المنطقة على الطريق، واستمر حصولهم على الإتاوات حتى أصبح عرفاً وحقاً يقاتلون من أجله ويستبيحون دماء المسلمين وأموالهم.. وأصبحت الإتاوات، أو ماينهبونه من القوافل المورد الوحيد أو الأكبر لتلك القبائل..

والمدهش أن أياً من الدول والإمارات المتعاقبة على الحجاز لم تستطع أن تلغي هذا العرف الإجرامي، حتى الدولة العثمانية التي بذل بعض سلاطينها الكثير في سبيل راحة الحجاج وخدمة الإسلام والمسلمين لم يستطيعوا معالجة قضية الأمن في طرق الحج وما حول المشاعر المقدسة، فتراكمت تركة القرون، وأصبح تغييرها يتطلب جهداً فائقاً وحزماً شديداً، وكان هذا العمل هو أول وأهم عمل بدأ به الملك عبد العزيز في الحجاز، إضافة إلى بناء الدولة وتنظيمها، وقد اتبع في ذلك أسلوباً ناجحاً آتى ثماره سريعاً ، فاستفاد من الآثار المباشرة لانتصاراته المتوالية في معارك الحجاز، وانسحاب الشريف علي، واستفاد من الحملات التي قام بها قائده صالح بن عدل على القبائل المحيطة بالمدينة، إذ انتشرت أخبار هذه المعارك وخلفت انطباعات قوية في نفوس القبائل بأن الملك عبد العزيز هو البطل الذي لايقهر، والإمام الذي يطبق حدود الشريعة بحزم شديد من جهة، وهو -من جهة أخرى- يعطي المحتاجين بسخاء.

استدعى الملك عبد العزيز جميع زعماء قبائل حرب وجهينة وبلى في

أواخر رجب ١٣٤٤هـ ولقيهم في منزله، ووعظهم وأكرمهم وأعطاهم، وأعلمهم بانتهاء عهد الخوف والغزو والسلب، وضرورة استتباب الأمن والاستقرار وتأمينهما، وقيام الدولة بمسؤلياتها في هذا الشأن بالاستعانة بالقبائل نفسها، وجعل كل عشيرة مسؤولة عن المنطقة التي تعيش فيها، وشيخ العشيرة هو الذي يمثلها ويتحمل المسؤولية الكبرى، فإن استطاع إدارة أمور عشيرته وتحقيق الأمن ثبت في مشيخته ونال أعطيات الدولة وإلا عزل وبدل أو عوقب(١) وربما يطلب من شيخ العشيرة المجاورة التدخل لحفظ الأمن فإن أبطأ أو عجز تدخل الجيش ليفرض النظام ويوطد الأمن، وقد أبلغ الملك عبد العزيز شيوخ العشائر العقوبات الصارمة التي ستطبق على المخالفين، ثم قسم الحجاز إلى مناطق، وحددها، وبين حدود كل قبيلة، واشترط عليهم :

١ - الالتزام بشرع الله.

٢ - أن يؤدوا الزكاة.

٣ - المشاركة في الجهاد عندما يقتضي الأمر.

٤ - المحافظة على عابري السبيل من الحجاج والجمالين والمسافرين.

وأعلن أنه ليس لهم شيء من الحقوق على الحجاج ولا على غيرهم من عابري السبيل، وأن جميع الحقوق السابقة باطلة، وليس لهم إلا مايتفضل به عليهم جلالة الملك من بيت مال المسلمين على عادته من أعطياته لرعاياه وغيرهم، ومنع العشائر من أن تقيم مضاربها على الطرق العامة، ليبقى المسافرون أكثر شعوراً بالاطمئنان على أنفسهم وأموالهم وتجارتهم، وكان هذا أول عمل جاد وحاسم ينهي مشكلة الأمن وطريق الحج التي امتدت أكثر

---

١) انظر جزيرة العرب ص ٢٢٤.

من عشرة قرون(١).

كان الملك عبد العزيز شديد الحزم في تطبيق العقوبات والحدود الشرعية، ليزرع الهيبة في نفوس القبائل التي اعتادت على العصيان وعاشت تقطع الطرق الحجاج والمعتمرين.

وقد ألغى عبد العزيز نظام المخافر التي كان العثمانيون قد أقاموها على الطريق واكتفى بتحويل مسوؤلية الأمن إلى القبائل نفسها، ومراقبة تصرفاتها ومعالجة الحالات الشاذة بسرعة وشدة. وقد أتت هذه الطريقة ثمارها ونجحت في معالجة تلك المعضلة التاريخية نجاحاً منقطع النظير. وارتفع عدد القادمين للحج فبلغ في موسم ١٣٤٥هـ مائة ألف حاج(٢) وفي السنة التالية تضاعف عدد الحجاج إلى ثلاثة أضعاف، منهم أربعون ألف حاج جاؤوا عن طريق البحر فتضاعف عدد القادمين إلى المدينة المنورة(٣).

ترتيبات إدارية جديدة:

بعد انتهاء الحكم الهاشمي مباشرة، ومبايعة الحجازيين للملك عبد العزيز شكلت في مكة هيئة تأسيسية من أربعة عشر عضواً من أهل جدة ومكة فقط وثلاثة من مستشاري الملك عبد العزيز، ولم يشارك فيها أحد من أهل المدينة، ووضعت مجموعة من التنظيمات سميت (التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية) ونشرت في جريدة أم القرى في ٢١ صفر ١٣٤٥هـ ٣١ آب ١٩٢٦م، وبموجب هذه التعليمات أصبحت الحجاز مملكة عاصمتها مكة المكرمة، منضمة إلى سلطنة نجد(٤) أحكامها مستمدة من الشريعة الإسلامية.. ولها مجلس

---

١) انظر أم القرى ع ٦٠، تاريخ ٦ شعبان ١٣٤٤، ٢٢ يناير ١٩٢٦.

٢) معجزة فوق الرمال ص ١٠٥ وانظر أم القرى ع ١٣٢، ٢٤ ذي الحجة ١٣٤٥هـ، ٢٤ يونيه ١٩٢٧م.

٣) معجزة فوق الرمال ص ١٠٥

٤) انظر تأسيس الدولة السعودية ص ٢٠٤.

شورى عام يتألف من مندوبين من مدن الحجاز وقراها وقبائلها البادية.

وقد أعلن عن تأسيس مجالس استشارية محلية في كل من مكة والمدينة وجدة وينبع والطائف للنظر في المسائل المحلية الهامة. وتكون بالانتخاب بدرجة واحدة. ونص النظام على أن يتألف المجلس الاستشاري في المدينة من ستة أعضاء سوى الرئيس.. أما الذين يحق لهم الانتخاب فهم طوائف العلماء وأعيان البلد والتجار ورؤساء الحرف والمهن. ومدة العضوية في المجلس سنة واحدة، ويختار هذا المجلس بعد انتخابه اثنين من أهل المدينة ليكونا عضوين في مجلس الشورى(١) لذلك جمع وكيل الأمير إبراهيم السبهان الذين يحق لهم الانتخاب في مقر الإمارة، وطلب منهم أن ينتخبوا أعضاء المجلس، فانتخبوا كلا من المشايخ: أحمد عطاء الله، محمد الخريجي، أبي بكر داغستاني، إبراهيم بري، ويضاف إليهم قاضي المدينة المنورة ومدير الأوقاف ومدير المالية بحكم مناصبهم(٢) وضُمَّ إليهم -لاحقاً- ناصر التركي(٣) وقد اختار هذا المجلس كلا من: عبيد مدني، وذياب ناصر، ليكونا عضوين في مجلس الشورى العام للمملكة(٤).

وشُكل أيضاً المجلس البلدي لدراسة القضايا المحلية المتعلقة بالتخطيط والعمران والشؤون البلدية عامة، ويتألف من: محمد حسن السمان رئيس البلدية رئيساً للمجلس، ومحمد القاضي، وسليمان إلياس، وعبد الله برزنجي، ويوسف حوالة، أعضاء دائمين في المجلس، وعُين أعضاء فخريون أيضاً هم: طه محمد حسين، وناصر التركي، وأحمد عطاء الله، وكامل الخوجة، وباشر المجلس أعماله بدراسة أوضاع المدينة العمرانية وتنظيم الشوارع، ووضع

---

١) معجزة فوق الرمال ص ٢٠٥.

٢) انظر أم القرى: ع ١٤٩، ٢٦ ربيع الآخر ١٣٤٦هـ، ١٤ تشرين الأول ١٩٢٧م.

٣) أم القرى ع ١٧٢ - ٩ شوال ١٣٤٦.

٤) انظر أم القرى ع ٦٦، ١٩ رمضان ١٣٤٤هـ، و ع ٧٠، ٢ ذي القعدة ١٣٤٤هـ.

أنظمة للبناء و قرر عدم السماح بالبناء قبل الحصول على ترخيص مسبق، ومراقبة الأسواق. وكانت التعليمات الأساسية التي وضعتها الهيئة التأسيسية قد نصت على نظام البلدية. وهو نفسه الذي كان معمولاً في عهد الدولة العثمانية تقريباً فقد عهد إليها (العناية بنظافة البيئة وسلامة المأكولات ومكافحة الأوبئة، وتجفيف المستنقعات وتنقية المجاري والدبول، وتولي الحراسة الليلية، ومراقبة الجزارين والمنازل ومستودعات الكاز، ورصف وإصلاح وإنارة الشوارع والأزقة، وخدمة كبار ضيوف الدولة)(١). ووحد النظام القضائي وألغيت محاكم المذاهب الأربعة لما كانت تحدثه من تضارب في الأحكام، فصدر مرسوم ملكي بتوحيد النظام القضائي حسب المذهب الحنبلي تجنباً لتعطيل مصالح الناس وإنفاذاً لما يتقرر شرعاً دون إبطاء.. وألغيت المحاكمات العشائرية ووجب تعيين قاضي في كل مدينتين ومنطقة وقبيلة ترفع إليه القضايا وتنفذ السلطات التنفيذية حكمه(٢) وقد نظم القضاء تنظيماً دقيقاً وصدر به مرسوم جعله على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: المحاكم المستعجلة وتنظر في القضايا المستعجلة والبسيطة والجنح والجنايات التي لاتصل إلى حد القطع والقتل، وتتألف من قاض واحد يصدر أحكامه دون إبطاء في القضايا المعروضة عليه حسب الأولوية في تقدير الدعاوى.

الدرجة الثانية: المحاكم الكبرى.. وتنظر في القضايا الكبيرة وحالات القطع والقتل وتتألف من قاض ونائبين وتصدر أحكامها باتفاق القضاة.

الدرجة الثالثة: محكمة تنظر في الأحكام التي تصدرها المحاكم الكبرى -وقد غير اسمها إلى محاكم التمييز فيما بعد- لتتمايز بين الأحكام، فإما أن

---

١) انظر تأسيس الدولة السعودية ص ٢١٥. والدبول: جمع دبل: فتحة فوق مجرى العين الزرقاء يستقى منها الماء على شكل فم البئر.

٢) انظر السابق ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

تصدق الحكم أو تعيده إلى المحكمة التي أصدرته لإعادة النظر فيه إن وجد مايستحق ذلك. وتتألف من خمس قضاة ويعد رئيسها قاضي القضاة.. وتخضع أحكامها في القطع والقتل لتصديق ولي الأمر(١).

السيارات تصل إلى المدينة:

كانت المواصلات تعتمد على الجمال بالدرجة الأولى ولم تكن السيارات قد وصلت بعد. فأمر الملك عبد العزيز بتسيير السيارات إلى المدينة.. وأرسلت من جدة سيارتان في رحلة تجريبية، وسلكت السيارتان طريق القوافل ولقيت بعض المشقة.. ووصلت المدينة بعد ٢٤ ساعة من قيامها من جدة.. وأبرق المسؤول عن الرحلة إلى القيادة في جدة بذلك، وتوقع أن تنخفض المدة إذا أصلحت بعض أجزاء الطريق إلى خمس عشرة ساعة أو أقل من ذلك(٢).

وبعد مدة قام علي العماري برحلة بالسيارة مابين جدة والمدينة في الطريق نفسها، واضطربت رحلته عند أبيار ابن حصاني لوعورة الطريق في هذا الجزء، ثم تابع سفره إلى المدينة، وأصبح السفر -كما تقول أم القرى- بين المدينتين يستغرق ست عشرة ساعة ليس أكثر ولم تسير السيارات العمومية بعد(٣) وبعده حضر رئيس بلدية مدينة (ميرت) الهندية بسيارة خاصة، وقطع المسافة في ثلاث عشرة ساعة فقط وأخبر صحيفة أم القرى بأن منطقة أبيار ابن حصاني في حاجة إلى تمهيد الطريق لاختصار زمن السفر. ونشرت أم القرى الخبر، وصدر الأمر بإصلاح الطريق في هذه المنطقة، وظهرت سيارات قليلة في المدينة جاء بها أصحابها أو استأجروها في رحلات خاصة، وكانت هذه الرحلات إيذاناً بتدفق السيارات بعد حين.

---

١) السابق ص ٢١٤. وانظر جريدة أم القرى بتاريخ ٢١ صفر ١٣٤٥هـ، ٣١ آب ١٩٢٦م.

٢) انظر أم القرى ع ٦٥، ١٢ رمضان ١٣٤٤هـ، ٢٦ مارس ١٩٢٦م.

٣) أم القرى ع ٧٣، ١٦ ذي القعدة ١٣٤٤هـ، ٢٨ مايو ١٩٢٦م.

غير أن أكبر قافلة سيارات شهدتها المدينة هي قافلة السيارات الملكية التي وصل عليها الملك عبد العزيز في أواخر ربيع الثاني عام ١٣٤٥هـ، تلتها قوافل سيارات الحجاج في العشر الأخير من ذي الحجة في العام نفسه. وكان هذا الموسم أول سنة يركب فيها الحجاج السيارات بين مكة والمدينة، وقد استغرقت رحلاتهم ست عشرة ساعة(١).

الملك عبد العزيز في المدينة -الزيارة الأولى-:

أقام الملك عبد العزيز في جدة بعد رحيل الشريف على في قصر النزلة، وكان يتردد على مكة ويعالج شؤونها، كما يعالج شؤون القبائل ويتابع أعمال اللجنة التأسيسية المطلقة ويضع النظام الأساسي للبلاد، ومرت سنة على إقامته وهو مشغول بترتيب أمور الحجاز وإكمال بنية الدولة ومؤسساتها الإدارية، ولم تتح له فرصة زيارة المدينة وعندما شعر بأن الأمور الإدارية والأمنية قد قطعت شوطاً حسناً عزم على زيارة المدينة المنورة لتفقد أحوالها وفي نيته أن يمكث فيها وقتاً طويلاً، وقد سافرت العائلة الملكية في الأسبوع الأول من ربيع الثاني على الرواحل بينما توجه الملك إلى جدة ليسافر منها إلى المدينة بالسيارات(٢) وفي الحادي والعشرين من ربيع الثاني تحرك الركب الملكي في تسع عشرة سيارة إلى قرية العضيمة حيث استقبل أعيانها، وبات فيها ثم غادرها في الصباح إلى رابغ، واستراح فيها أيضاً بقية اليوم، ثم غادرها في اليوم التالي إلى المدينة، وقد خرج لاستقبال الموكب الملكي وكيل أمير المدينة إبراهيم السبهان ونائبه حمزة غوث وأعضاء المجلس الإداري وعدد من أعيان المدينة عند بئر درويش، حيث سلموا على الملك، ثم تابع الموكب سفره، وعند بئر عروة -في مدخل المدينة- تجمع عدد من أهاليها لاستقبال الملك، وقد توقف الموكب لبعض الوقت، ثم تابع طريقه إلى المسجد

---

١) انظر أم القرى ع ١٣٢، ٢٤ ذي الحجة ١٣٤٥هـ ٢٤ يونيو ١٩٢٧م.

٢) أم القرى ع ٨٩٦ ربيع الثاني ١٣٤٥، ١٥ أكتوبر ١٩٢٦.

النبوي، وبعد أن صلى الملك عبد العزيز فيه وسلم على رسول الله ﷺ خرج إلى قصر الإمارة حيث استقبل الأهالي، وبدأت أول أيام الزيارة(١).

وفي اليوم التالي قام الملك عبد العزيز بزيارة البقيع، وعاد لاستقبال الأهالي، وفي اليوم الثالث زار مسجد قباء وأقامت البلدية وليمة في محطة السكة الحديدية حضرها جمع غفير من المشايخ والأعيان(٢) وكانت هذه اللقاءات أول لقاءات بين أهالي المدينة المنورة والملك عبد العزيز.

تنظيمات إدارية:

أقام الملك عبد العزيز في المدينة المنورة قرابة شهرين، وكان لزيارته آثار إدارية تنظيمية كبيرة، وكان أولها تبديل وكيل أمير المدينة. فقد كانت التقارير التي تصله من قبل تشير إلى ليونة الأمير إبراهيم السبهان، الأمر الذي أتاح الفرصة لترويج بعض الشائعات عن اضطرابات حصلت في المدينة المنورة، وتعديات خارج حدودها، وقد أبرق الأمير السبهان يكذب هذه الشائعات ويؤكد استتباب الأمن والاستقرار في ربوع المدينة، غير أن التحول الكبير الذي أحدثه النظام الجديد في الأمن كان يتطلب مزيداً من الحزم والمتابعة ليزرع الهيبة في نفوس اعتادت لسنوات طويلة تخطي تعليمات الأمن، بل واعتادت الاعتداء على المسافرين والحجاج والنهب والسلب، وكانت ليونة إبراهيم السبهان داخل المدينة تتمثل في هذه التجمعات التي أحاط نفسه بها، والتي تسببت في ظهور طبقة من المقربين أو أصحاب الشفاعة، ولم يكن هذا الأسلوب يعجب الملك عبد العزيز فعزم على تغيير الأمير.

وبطريقة ما أحس بعض أهل المدينة بعزم الملك عبد العزيز على ذلك، فكتب بعض الأعيان والمقربين في مجلس السبهان عريضة للملك يطلبون فيها تثبيت السبهان، وعندما عرضت العريضة على الملك زادته يقيناً بوجود هذه

---

١) انظر أم القرى ع ١٠١.

٢) السابق.

الطبقية، فظهر الغضب عليه -كما يروي زيدان- وأصدر أمره الفوري بعزل السبهان، (فبعث إبراهيم العمير ليبلغه أنه لم يعد الأمير)(١) وقرر تعيين الأمير مشاري بن جلوي آل سعود، وكان مشاري في مكة، فلما وصله الأمر سافر إلى المدينة على الفور لاستلام عمله(٢).

عرف مشاري بالحزم والدقة في متابعة أموره والاهتمام بأمور القبائل ومسؤولياتها الأمنية، وقد تسلم عمله خلال وجود الملك عبد العزيز في المدينة.

كان الملك عبد العزيز يستقبل رواده من أعيان المدينة والقادمين إليها كل يوم، ويستقبل كبار الموظفين ويناقش معهم أمور إدارتهم تفصيلاً، وقد بدأ بالنظر في إدارة الحرم والأوقاف، ورأى أن نظامها الإداري يحمل تراكمات كثيرة من السنوات الماضية، وقد سببت هذه التراكمات فوضى وإهمالاً وزيادة في عدد الموظفين الذين ليس لهم عمل حقيقي، فالوظيفة في إدارة الحرم كانت لبعض الوقت أشبه بمناصب الشرف يسعى إليها كل من يجد وساطة أو شفاعة مسموعة لينال مسمى الوظيفة وراتبها وربما لايكون له عمل حقيقي، لذا تجمع في إدارة الحرم عدد كبير من الموظفين ليس لهم عمل حقيقي، لذا أمر الملك بتشكيل لجنة لدراسة أمور إدارة الحرم والأوقاف بدقة والبحث في أعمال الموظفين لاختيار الأشخاص الذين يصلحون للعمل، فشكلت اللجنة وقامت بدراستها وقدمت مقترحاتها، فجمع الملك موظفي إدارتي الحرم والأوقاف وأعلمهم أنه سيعيد تشكيل الإدارتين، وأعلن أسماء الذين اختارتهم اللجنة وأعفى الباقين عن العمل، وخصص لهم رواتب وأعطيات سنوية

---

١) انظر زيدان.ذكريات العهود الثلاثة ص ١٢٥.

٢) انظر أم القرى ع١٠٦، ١٨ جمادى الثانية ١٣٤٥، ٢٤ ديسمبر ١٩٢٦.

تساعدهم على العيش بكرامة(١).

كما نظر في تنظيم القضاء وشكل مجلساً قضائياً جديداً يرأسه إبراهيم بري ومحمد بن علي التركي، وقد اعتذر التركي أول الأمر عن قبول الوظيفة ولكنه قبلها عندما أصر الملك على تعيينه(٢).

وأمر الملك بتمهيد الطريق بين المدينة ومكة وينبع والمدينة والرياض، ففتح منافذ المدينة للسيارات، وكانت إمكانات الدولة متواضعة آنئذ فبدأت عمليات الإصلاح والتمهيد بقدر تلك الإمكانات وكان التركيز على تمهيد الطريق في المناطق الوعرة وشق طريق تسير فيه السيارات دون صعوبة، ولم تكن السفلتة قد بدأت بعد.

وخلال وجوده أيضاً أصدر علماء المدينة بما فيهم مفتو المذاهب الأربعة فتوى لهدم القباب المقامة على الأضرحة وهدم القبور العالية، وأصدروا فتوى حول آداب زيارة الحجرة النبوية تلغي البدع التي سادت من قبل وتقرر آداب الزيارة وفق منهج السنة النبوية، وقد وقع الفتاوى كل من الشيخ إبراهيم البري عن الحنفية والشيخ زكي برزنجي عن الشافعية والشيخ حميدة بن الطيب عن الحنبلية والشيخ محمد صادق العقبي عن المالكية(٣).

وخلال هذه الزيارة اهتم الملك بشؤون القبائل حول المدينة المنورة وزاره شيوخها ووفود كثيرة منها، ونالوا من الأعطيات والمنح، وأكد الملك على قضية الأمن وأمن الحجاج ومسؤولية القبائل عما يحدث في منطقتها، والحزم الشديد الذي سيطبق، كما وفدت وفود من الإخوان للسلام عليه، وكان قد

---

١) انظر أم القرى ع١١٢، ١ شعبان ١٣٤٥هـ، ٤ فبراير ١٩٢٧.

٢) السابق.

٣) انظر أم القرى ع١٠٤، ٤ جمادى الثانية ١٣٤٥ في ١٠ ديسمبر ١٩٢٦.



اهتم الملك عبد العزيز خلال زيارته للمدينة بأمـور أهلها وبـأمور القبـائل المحيطة بها

وجهها للإقامة في الهجر بعد انتهاء حروب الحجاز(١) وقد خرج الملك بنفسه إلى بعض الهجر ومضارب القبائل حول المدينة، وركب القطار الجاثم في محطة السكة الحديدية منذ أن وصل به عزت باشا من معان، وقام الموظفون الباقون بالمحطة بتشغيله، وركبه الملك إلى البوير مع مجموعة من حاشيته، وزار القبائل هناك ومكث معهم بعض الوقت ثم عاد به إلى المدينة المنورة، وكانت هذه الرحلة آخر ماشهده الخط الحديدي الحجازي من رحلات(٢) القطار قبل أن يدخل المستودع نهائياً ويتحول مع المحطة الكبيرة إلى جزء من الذكريات والتراث القريب، فتعزز التغيير الذي تسعى إليه الدولة.

نهاية الزيارة الملكية:

خلال إقامة الملك عبد العزيز في المدينة وصلته الأخبار من نجد بانتقاض فيصل بن الدويش ورفاقه، ومحاولته جمع بعض الأعوان والقبائل حوله،

---

١) انظر أم القرى ع ١٢٢، في ١٣ شوال ١٣٤٥هـ.

٢) انظر زيدان ص ١٢٥.

واشاعتهم أن الملك عبد العزيز يستخدم آلات السحر (السيارات والطيارات واللاسلكي) واتفاقهم على خلع البيعة ومحاربة الكفر والشرك، فقرر الملك السفر إلى الرياض لمعالجة الأمر بنفسه، والقضاء على الفتنة، فغادر الموكب الملكي المدينة المنورة في الثالث من شهر رجب عام ١٣٤٥هـ، وكان في وداعه وكيل أمير المدينة الجديد مشاري بن جلوي، وكبار الموظفين وأعيان المدينة وحشد من أهاليها.

والملاحظ أنه لم يصل إلى المدينة شيء من آثار حركة الدويش، ولم تتأثر الحياة فيها بالاضطرابات التي جرت في المناطق الشرقية وعلى الحدود العراقية والكويتية، طيلة السنوات الثلاثة التالية(١) وكان الناس يتناقلون أخبارها فيما تنشره جريدة أم القرى بين الحين والآخر وما تحمله الركبان القادمة من الشرق(٢).

المدينة في وكالة مشاري بن جلوي:

تولى وكالة الإمارة مشاري بن مساعد بن جلوي إثر إنهاء وكالة إبراهيم السبهان من أول رجب عام ١٣٤٥هـ، وكان مشاري سبق أن تولى إمارة الطائف وعرف بالحزم الشديد(٣) وأسهم في استقرار الأمن في المدينة وحولها، فالتدبيرات الأمنية التي اتخذها الملك عبد العزيز وألزم القبائل بها لابد من متابعتها، وكان على أمراء المناطق مسؤولية المتابعة، ولم يكن أفراد القبائل جميعهم قد استوعبوا التغيير الذي أراده عبد العزيز وأخذوا به، لذلك كانت تحدث تعديات هنا وهناك، وإغارات على بعض المسافرين، في الطريق وخارج سور المدينة، وكان على وكيل الإمارة أن يتعقب هذه التعديات ويعاقب

---

١) انظر تفصيل حركة الإخوان وتمرد الدويش في الزركلي ص ٤٧١-٥٠٧.

٢) انظر الزركلي ص ٤٧٢/٤٧٣.

٣) انظر حافظ وهبة جزيرة العرب ص ٢٨٤، انظر أم القرى ع ١١٤، ١٥ شعبان ١٣٤٥.

مرتكبيها عقاباً رادعاً لغيره، وقد أقيمت الحدود في المدينة وفي بعض القرى والمناطق التابعة لها وقتل عدد من القتلة وقطعت أيدي بعض السارقين وقاطعي الطريق وعوقب -عقوبات تعزيرية- المشاغبون والمفسدون والذين لايلتزمون بتعليمات الإمارة، وطارت أخبار هذه العقوبات بين القبائل في محيط المدينة، وأخذت هيبة الدولة تتعزز، وأصبح من النادر أن تقع جريمة قتل أو سرقة.

وشهدت مواسم الزيارة قبل الحج وبعده تطبيق بعض الحدود، ليكون ذلك أنكل وأكثر عبرة.

تطورات في التعليم:

أنشئت إدارة المعارف باسم الإدارة العامة للمعارف في مملكة الحجاز وباشرت عملها في غرة رمضان ١٣٤٥هـ ١٩٢٦م وهدفها كما جاء في وثيقة تأسيسها (نشر العلوم والصنايع وافتتاح المكاتب والمدارس وحماية المعاهد العلمية مع فرط الدقة والاعتناء بأصول الدين في كافة المملكة الحجازية)(١) وسارعت الإدارة ففتحت المدارس العثمانية المغلقة (الرشيدية). وبعد سنة أنشئ مجلس للتعليم كان أول ماقام به ((توحيد مناهج التعليم)) ووضع أسسه في مختلف المراحل والعمل على تعميمه في جميع أرجاء البلاد..

كان التعليم على ثلاث مراجل: الابتدائي -الاعدادي- الثانوي ومدة كل منهما تختلف من مدرسة إلى أخرى.. إلى أن صدر نظام التعليم عام ١٣٤٧هـ ١٩٢٨م فعين بموجبه مناهج التعليم الابتدائي وعدد سنواته. وكذا الاعدادي ثم

١) أم القرى ٢١ صفر ١٣٤٦هـ، ٣١ آب ١٩٢٦م.

الثانوي(١).

المدينة في وكالة عبد العزيز بن إبراهيم:

أمضى مشاري بن جلوي عدة أشهر في وكالة إمارة المدينة، نشط خلالها في تتبع قضايا أهل المدينة والقبائل المحيطة بها، وأصيب بالمرض فطلب إعفاءه من منصبه ليتسنى له الراحة والعلاج، ولكن الملك عبد العزيز رأى ضرورة استمراره على رأس عمله لينجز ما بدأ به، خاصة وأن المرض لم يكن شديداً عليه، فلم يجد مشاري بداً من الاستمرار، ولكن المرض اشتد عليه بعد مدة، فكرر طلبه، وأكد حاجته إلى الراحة، فاستجاب له الملك عبد العزيز وأعفاه من منصبه، وعين مكانه الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم أحد أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

كان الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم قد تولى إمارة الطائف أيضاً في فترة التغييرات الأولى من العهد الهاشمي إلى العهد السعودي، واشتهر بالحزم والشدة، وقد أعفاه الملك عبد العزيز من منصبه بعد أن استتبت الأمور واستبقاه في معيته، وعندما ظهرت الحاجة إلى من يدير أمور المدينة ويهتم بمتابعة الجانب الأمني بين القبائل أصدر الملك مرسوماً بتعيينه في منصب وكيل الأمير، وذلك في العاشر من ربيع الثاني ١٣٤٦هـ وعين ياسين الرواف وكيل الحكومة في دمشق سابقاً معاوناً له، وتضمن مرسوم التعيين وصية طويلة للأمير الجديد تبين حدود عمله وتطلب منه ألا يشتد على الناس وأن يستعين بمجلس الإدارة، كما يكلف المرسوم معاونه بالنظر في الأمور الداخلية والتعاون مع المجلس الإداري لاتخاذ القرارات على أن تعرض على وكيل الأمير ليصادق عليها، أما أمر بادية المدينة فأوكل إلى عبد العزيز بن إبراهيم نفسه، وقد رافق المرسوم خطاب موجه لأهل المدينة يوصيهم بالتعاون مع عبد العزيز بن إبراهيم ويطمئنهم أن ماشتهر عنه من الشدة مبالغ فيه، وأنه شديد

---

١) انظر تأسيس الدولة السعودية ص ٢٤١.

بالحق وحسب، ويخبرهم بحل المجالس السابقة وتشكيل مجالس جديدة قائمة على لجنة الإصلاح والتفتيش بدراسة الأوضاع. ونظراً لأهمية هاتين الرسالتين نورد فيما يلي مقاطع منهما(١).

أولا: رسالة الملك إلى عبد العزيز بن إبراهيم ونائبه:

من عبد العزيز بن عبد الرحمن إلى المكرمين عبد العزيز بن إبراهيم وياسين الرواف، سلمهم الله آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد:

فإن الأمر الذي آمرك به أنت ياعبد العزيز بن ابراهيم أنك وكيل المدينة على شرط أن تراعي الناس، وتأخذهم بالحق واللين والطمأنينة، وهناك الحاضرة والبادية، أما الحاضرة فلك النظر في جميع الأمور التي تخالف الشرع أو تخل بالولاية أو تضر بالأهلين، وابن الرواف ينظر مع مجلس الإدارة فيما تحتاج إليه البلد من أمور داخلة ضمن صلاحيتهم المقررة، ولكن لايمضي شيء من ذلك إلا بإمضائك له بعد استيفاء المعاملات المقررة ومراجعة النيابة فيما يحتاج المراجعة، وأما البادية فمرجعها كلها إليك ليس لمجلس الإدارة تداخل فيها، ولا بد لك من مراجعة النيابة في أمر البادية وإدارتها كما تعلم.

أكرب وجهك وأرخ يدك، أما القتل والنكال فهذا لانجيزه إلا إنفاذاً لأحكام الشرع، وينبغي لك ألا تنفذ من الأحكام: كالقتل، والنكال الشديد أو الحبس الطويل إلا بعد مراجعة النيابة ونوال تصديقها.

واحرص كل الحرص على الطرق وأمانها، وهذا لاتستبقي فيها جهداً إلا نفذته، وعمدة أمري إليك أن يكون الناس جميعهم راضين عنك، حاضرتهم وباديتهم، وألا تمضي أمراً إلا بقضاء الشرع، لأن ذلك أتم لأمر الله وأحسن للنفوس، وافهم أن الناس كلهم يتهمونك بالشر، ولكن أملي بك أن تبدل ظنهم

---

١) انظر أم القرى ع١٤٨، ١٨ ربيع الآخر ١٣٤٦هـ، ١٤ تشرين الأول ١٩٢٧.

فيجعلهم يتهمونك بالخير، وأكبر ماأوصيك به أولا: تقويم أمر الله، وتنفيذ أمر الشرع، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعهدهم بما يحتاجون إليه من المساعدة، ثم لاتجعل لك من جميع الموظفين، بل اجعلهم جميعاً أصدقاء وبعيدين، افطن لخدمتك ولا تجعل لأحد منهم حق تدخل في أمر من الأمور، وأكثر مايأتي الأمراء الخراب من قبل خدامهم.

إن الحلم في محله زين، والغضب زين في محله.

(والكتاب طويل تناول فيه تعليمات خاصة في الإدارة والأنظمة)(١).

ثانياً: من رسالة الملك إلى أهل المدينة:

(السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد:

فقد استأذننا ولدنا مشاري ترويحاً لنفسه من المرض الذي أصابه، ولم نأذن له لأول الأمر، ثم لما اشتد به المرض لم نر بدأ من الرخص له.

وقد أمرنا عبد العزيز بن إبراهيم أن يكون وكيلاً للإمارة، وأن يكون ياسين الرواف معاوناً له.

وقد أرسلنا من قبل هيئة التفتيش والإصلاح للنظر في شؤون البلد، وقد فوضناهم في إمضاء بعض الأمور الضرورية، فيمكنكم مراجعتهم وتقديم الشكايات من كل شيء لهم، فما كان داخلاً في صلاحيتهم أصلحوه، وما لم يكن داخلاً في صلاحيتهم رفعوه إلينا، لهذا فقد برئت ذمتنا من قبلكم، وأصبحتم أنتم المسؤولين عن خلاص أنفسكم إن لم تبدوها.

وقد أمرنا بحل مجلس الإدارة ومجلس البلدية ومجلس الأوقاف، وأمرنا بتجديد الانتخاب لهذه المجالس الثلاثة، فعليكم بانتخاب الرجال الأكفاء الذين فيهم صلاح لأمر الدين والدنيا.

وهذا وكيل أمير المدينة قادم إليكم، وربما بلغكم أخبار شدته، وهذا أمر لا حقيقة له، إنه شديد على العاني، حبيب لمن سلك الطريق المستقيم، وعرف

---

١) انظر أم القرى: ع ١٤٨، ١٨ ربيع الآخر ١٣٤٦هـ، ١٤ تشرين الأول ١٩٢٧م.

حق نفسه، وزيادة على هذا فقد أوصيناه بما يلزم، وأكدنا عليه التأكيد التام في جميع الأمور التي لانغيرها إن شاء الله تعالى، وأما أعماله فهي قائمة بحول الله على الأحكام الشرعية، وقد أمرناه ألا يظلم مثقال حبة، وأمرناه أن يجري في أمور الدوائر حسب ماهو مقرر لها في النظم التي أمرنا بوضعها موضع العمل من قبل كل دائرة بحسب ماقرر لها لايتعداه، ولا يتداخل فيه الا بإمضاء الأوامر التي هو مأذون بإمضائها، وله النظر في جميع مايجري مخالفاً لما شرع وتقرر فيما كان في البلد من أمور جزئية فيمضي فيه على الوجه المشروع، وما كان مرجعه النيابة فهو يعتمد أمر النيابة فيه، وأوصيناه بالرفق وتقديم أوامر الله والأخذ بيد من قام بها، وستلقونه كما ذكرنا لكم وأكثر إن شاء الله، وأنتم تتساعدون وإياه على البر والتقوى، وتجتهدون في حسم مادة الشقاق والقيل والقال.

نرجو من الله تعالى أن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه، وأن ينصر دينه ويعلي كلمته. ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٤٦هـ).

كان عبد العزيز بن إبراهيم كسلفه مشاري حازماً، بل كان أكثر حزماً، وكان دقيقاً في متابعة أموره وأوامره، شديداً في العقوبات، وإليه يعزى فضل استقرار الخطة الأمنية التي وضعها عبد العزيز للحاضرة والبادية في مناطق المدينة المنورة، وقد بدأ عمله بتقوية الإمارة عسكرياً، فزاد من عدد شرطتها ورجالها، وحرص على الاتصال بشيوخ القبائل واستقدامهم دورياً وبحث أمور قبائلهم، وتكليفهم بإنفاذ أوامر الدولة وتعليمها في مطاردة المخالفين ومرتكبي الجرائم وإحضارهم، وإعلان التخلي عنهم في حالة عجزهم عن إحضارهم، وثمة روايات كثيرة شهدها زوار المدينة تظهر مدى الهيبة التي استطاع أن يفرضها في المنطقة، والتي أورثت أمناً وأماناً عجيبين، حتى إن اللقطة كانت تبقى مكانها في الطريق ولا يجرؤ أحد على أخذها خشية أن تضبط معه ويتهم بسرقتها أو إخفائها فيعاقب.

تغييرات إدارية:

أمر الملك عبد العزيز بتشكيل لجنة التفتيش والاصلاح للنظر في الأمور الإدارية في مختلف الإدارات الحكومية في مناطق الحجاز كلها ونشرت جريدة أم القرى الرسمية مرسوم تشكيل اللجنة في عددها ١٣٤ بتاريخ ٨ محرم ١٣٤٦هـ الموافق ٦ اغسطس ١٩٤٦م. وتضم كلاً من صالح شطا، شرف عدنان، يوسف قطان، عبد الرحمن القصيبي، محمد صالح ناصيف، حافظ وهبة، سفيان باناجه، وفؤاد حمزة سكرتيراً لها.

سافرت اللجنة إلى المدينة في أوائل ربيع الاخر ١٣٤٦هـ نهاية أيلول ١٩٢٧م ووافق ذلك انتهاء وكالة مشاري بن جلوي وقبول استقالته بعد أن اشتد المرض عليه، وبدأت اللجنة عملها بزيارة الإدارت الرئيسية ودراسة أمورها دراسة متعمقة، وقد مكثت اللجنة أكثر من شهر لم تترك خلاله إدارة إلا ونظرت في أمورها، ثم عادت إلى جدة ورفعت تقاريرها إلى الملك، وضمنته توصياتها بإجراء تعديلات في الإدارات ومديريها... وصدرت من الديوان الملكي قرارات أحدثت تعديلات كبيرة في القائمين على تلك الإدارات.. فقد أعادت تشكيل مجلس إدارة المدينة وعين فيها المشايخ التالية أسماؤهم: أحمد عطاء الله، محمد الخريجي، أبو بكر داغستاني، إبراهيم بري ويضم إليهم -وفق ما تنص عليه التعليمات الأساسية- قاضي المدينة المنورة ومدير الأوقاف ومدير المالية بحكم مناصبهم، ثم عين الشيخ ناصر التركي عضواً جديداً بعد عام(١).

وشكل المجلس البلدي برئاسة محمد حسن السمان وعضوية المشايخ، محمد القاضي، وسليمان إلياس، وعبد الله برزنجي، ويوسف حوالة، يضاف إليهم أعضاء فخريون هم: طه محمد حسين، وناصر التركي، وأحمد عطاء الله، وكامل خوجة.

---

١) انظر أم القرى ع ١٧٧، ١٤ ذو القعدة عام ١٣٤٦هـ.

وفي إدارة الحرم عين الشيخ عبد الجليل المدني مديراً للحرم، والسيد أسعد معاوناً له. وفي إدارة الأوقاف عين حسين طه مديراً للأوقاف، وصالح حكيم معاوناً له. وعين في العضوية الفخرية للمجلس كل من: عبد الجليل مدني، وإبراهيم التركي، وناصر بن عقيل، وأبي بكر داغستاني، وسعود دشيشة... وعين الشيخ زكي برزنجي قاضياً في المحكمة المستعجلة، والشيخ أحمد حمدي مديراً لإدارة بيت المال التابعة للمحكمة، والشيخ أحمد خليفي رئيساً للمحكمة المستعجلة. ومما يلفت النظر في القرارات الصادرة تعيين مدرسين في الحرم المدني على رأسهم الشيخ ألفا هاشم، والشيخ محمد الهلالي، والشيخ محمود شومل.

وشكلت إدارة جديدة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من رجال عرفوا بالتعقل وحسن التصرف، وكان على رأس الهيئة الشيخ أحمد جمال الليل يعاونه صالح بن عبد الله الزغيبي ومعهم ثمانية أعضاء وكاتب ومراسل.

ويلاحظ في هذه التعيينات أنها استقطبت عدداً كبيراً من وجوه المدينة وأبناء العائلات البارزة المقيمة فيها، وأن الشخصيات المختارة تتصف بحسن السمعة والتصرف، وأن بعضها له تاريخ في شَغْل مناصب الإدارات السابقة للإدارة السعودية الجديدة سواء في عهد الهاشميين أو العثمانيين، وهذا تأكيد على طي التاريخ السابق وفتح صفحات جديدة من الحياة المترابطة والمطمئنة.

ويلاحظ أيضاً أن القرارت الصادرة بناء على توصيات لجنة التفتيش والإصلاح قد عاقبت مدير شرطة المدينة بحسم راتب أسبوع من مرتبه الشهري بسبب تقصيره الإداري، ونصت على فصل أحد ضباط الشرطة لسوء سلوكه، وفصل ضابط آخر لأنه (ليس من سلك الشرطة) وهذا يعني أن ذلك الضابط قد دخل الوظيفة من خلال بعض الثغرات الإدارية وحصل على الرتبة

دون استحقاق. وفي الوقت نفسه حمل القرار ترقية ضابطين لحسن أدائهما(١)
ونظراً لما حققته لجان التفتيش من فوائد للإدارات الحكومية فقد اقتنع الملك عبد العزيز بضرورة قيام هذه اللجنة بجولات دورية على الإدارات لمراقبة سير العمل فيها وتحسينه، فبعد سنة من جولة اللجنة السابقة أمر الملك عبد العزيز بتشكيل لجنة أخرى سميت (لجنة البحث والتدقيق) مهمتها النظر في أمر الدوائر الحكومية... وكان أعضاؤها كل من: صالح شطا، محمد صالح ناصيف، عبد الله الفضل، سليمان قابل، عبد الرحمن القصيبي، حسان رويحي، يوسف ياسين، ومعهم عضو مجلس الشورى عن المدينة المنورة ذياب ناصر (٢) وقد زارت هذه اللجنة الإدارات المختلفة في مدن الحجاز، ومنها المدينة المنورة، ورفعت تقاريرها للملك. ولم تحدث على إثر زيارة هذه اللجنة أية تغييرات إدارية مهمة، الأمر الذي يوحي باستقرار الأعمال الإدارية وسيرها على نحو حسن غالباً.

رمادة ومبرة:

أصاب منطقة المدينة وغيرها من مناطق الجزيزة العربية قحط شديد في عام ١٣٥٠هـ، وضاقت الأمور بالقبائل خارج المدينة فليس لديهم موارد سوى الرعي وبعض الزراعة، وشحت الأمطار ولم تنبت الأعشاب، وظهر الهزال على المواشي وبدأ بعضها ينفق، فزحفت جموع من البادية ومن القبائل المقيمة ما بين الحرمين وغيرهم إلى أطراف المدينة يسألون العون، وتجمعوا في شمال المسجد النبوي في المنطقة الممتدة مابين الداودية والعطن، ولم تكن ميزانية الإمارة تملك الأموال الكافية لتعطي المحتاجين، وتكاثر البدو وأبناء القرى المجاورة في أطراف المدينة يبدو عليهم الشحوب والهزال، ونقلت أجهزة

---

١) انظر أم القرى ع ١٤٩، ٢٦ ربيع الاخر ١٣٤٦هـ، ١٤ تشرين الأول ١٩٢٧ م.

٢) أم القرى ع ٢٣٢، ٢٩ ذو الحجة ١٣٤٧هـ، ٧ يونيو ١٩٢٩م.

اللاسلكي أخبار القحط إلى الملك عبد العزيز، فأمر الملك بإغاثتهم وإقامة مبرة لهم وتأمين وجبات يومية لجميع الوافدين، وكان معظم الوافدين من شرقي المدينة وشمالها، أما القبائل القاطنة غرب المدينة فكان لهم مصادر أخرى تؤمن لهم حاجاتهم الأولية مدة القحط، منها تأجير الجمال للنقل، ومنها صنع الفحم من بقايا الأشجار، بينما لا يملك أبناء المناطق الشرقية والشمالية ذلك، وامتلأت المدينة بالنازحين إليها من قبائل ولد محمد، ومن بني رشيد، ومن مطير، ومن إليهم. وازداد الطين بلة عندما ظهر فيهم مرض الجدري وأصاب العديدين، وسارع وكيل أمير المدينة لتنفيذ أوامر الملك عبد العزيز، فأقام المبرة في المنطقة التي ينزل بها الوافدون، وعهد بإدارتها إلى مدير مالية المدينة ناصر عبد الله، وأسهمت التكية المصرية في تخفيف المصيبة، فكانت توزع الخبز وحساء الرز على من يصل إليها، وكان الزحام شديداً بحيث لايجد بدوي الطريق إليها(١) وأسهم المقتدرون من أهل المدينة في إطعام الجياع، وفتك المرض وسوء التغذية بالعديدين من الوافدين إلى المدينة وحولها، وبذلت إدارة الصحة جهوداً مضنية في معالجة المصابين وتحصين غير المصابين، وكثر عدد الموتى بين الوافدين، حتى إن بعضهم لم يوجد من يحمله سوى ثلاث نساء(٢) وقد استمرت هذه الضائقة إلى نهاية هذا العام، حيث وصلت إعانات من جهات عدة، وهطلت بعض الأمطار

---

١) زيدان. ذكريات العهود الثلاثة ١٧٨.

٢) المصدر السابق ١٧٩، وقد عالجت الحكومة الأزمة الإقتصادية بحكمة بالغة، واستقدمت خبيراً مالياً من ألمانيا هو (فان لي ون) ليكون مستشاراً لوكالة المالية لمدة عام، وأمرت بتخفيض الإنفاق الحكومي، وشكلت لجان لمراقبة المصروفات وترشيدها. انظر: أخبار هذه الضائقة: المصدر السابق: ١٧٩، جريدة صوت الحجاز ع٣ في ذي الحجة ١٣٥٠هـ، وجريدة أم القرى ع ٣٧٧، في ٢١ شوال ١٣٥٠هـ، و ع ٣٧٩ في ١٠ ذي القعدة ١٣٥٠ و ع ٣٨٥ في ٢٣ ذي الحجة ١٣٥٠هـ.

فاستبشر الناس خيراً، وبدأ الوافدون من البادية والقرى يعودون إلى مناطقهم.

الأمن والأمان:

بدأت مرحلة جديدة من الحياة الإدارية والاجتماعية في المدينة المنورة بعد تولي عبد العزيز بن إبراهيم وكالة الإمارة وبعد تشكيل الإدارات الجديدة، ولعل أهم ما تتصف به هذه المرحلة هو الحزم في تنفيذ أوامر الدولة، وخاصة في مجال الأمن داخل المدينة وخارجها.. فقد عرف عن ابن إبراهيم اهتمامه الشديد يتعقب أية جريمة أو حتى مخالفة، وتطبيق العقوبة الرادعة، إن حداً وإن تعزيراً.

وكانت المناطق الريفية للمدينة المنورة في حاجة إلى ذلك الحزم، فأَمْنُ طريقِ الحجاجِ قابل للانتقاض في أية فرصة يظهر فيها ضعف الإدارة والتساهل مع المخالفين، وما زال بعض البدو الذين كانوا يحصلون على إتاوات سنوية من الحجاج، أو يحصلون على مكاسب مما ينهبونه من رواحلهم وأمتعتهم الشخصية، يحنون إلى الدخل الذي انقطع عنهم، فلا بد من إدخال الرهبة إلى قلوبهم وإشعارهم أن الدولة تطالهم ولو بعد حين وحيثما كانوا إذا ارتكبوا جريرة ما..

ثم هنالك بعض القبائل في الشمال، وبخاصة قبيلة بلي التي تسكن في منطقة (الوجه) لم يستقر أمرها نهائياً، فشيخها حامد بن سالم بن رفادة ينتظر الفرصة لإعلان التمرد، ويتعقب موظفي الحكومة والجباة والدعاة إذا دخلوا مناطق قبيلته. ومنطقة الوجه هي امتداد طبيعي للمناطق التي تسكنها قبائل جهينة وحرب المحيطة بالمدينة، ووجود أي ضعف في إدارة المدينة يفتح الباب لانتشار التمرد وانتقاله إلى قبائل المدينة.

وقد نجحت خطة عبد العزيز بن إبراهيم الحازمة في وقف أي إمتداد لتمرد ابن رفادة، ولعصيانه الذي حدث عام ١٣٤٧هـ، ثم لزحفه من الشمال

عام ١٣٥٠هـ ومقتله على أيدي القوات السعودية. فلم يظهر أي أثر لحركته وعصيانه في منطقة المدينة المنورة رغم وجود أفخاذ من العشائر لها صلة قرابة مع قبيلة بلي، فيما ظهرت لها بعض الآثار في جدة ومكة، حيث قام بعض أنصارها بترويج إشاعات غير صحيحة، فتتبعتهم السلطة وقبضت عليهم على الفور(١).

تطورات حضارية في المدينة:

شهدت المدينة في فترة إمارة عبد العزيز بن إبراهيم تطورات شتى في جوانبها الإدارية والعمرانية والاقتصادية والثقافية.

ففي عام ١٣٤٦هـ بدأت شركة الكهرباء توسيع خدماتها بعد أن كانت مقتصرة على الحرم وساحاته.. فمدت أسلاكها إلى الشوارع الرئيسية والمخازن وبعض البيوت وأمدتها بالتيار الكهربائي.. وبعد سنتين تطور أداء المحطة الكهربائية وتضاعف عندما تبرع محسنان من الجزائر بمحرك لتوليد الكهرباء قوته ٤٠ حصاناً، ووصل المحرك مع الأسلاك اللازمة والمصابيح وبدأ تشغيله في شوال ١٣٤٨هـ وقد خصص هذا المحرك لمد المسجد النبوي وساحاته بالكهرباء(٢) وفي الوقت نفسه كان عدد من الأهالي يحضرون محركات خاصة صغيرة تزود بيوتهم وبيوت بعض الجيران بالكهرباء(٣).

ونشطت الحركة التجارية في السوق، وانتظم السفر بين المدينة ومكة بالسيارات، وارتفع عدد الوافدين إلى الزيارة في المناسبات المختلفة، فبلغ عدد القادمين في عيد الفطر عام ١٣٤٦هـ ٦٠٠ شخص خلال ثلاثة أيام فقط،

---

١) انظر أم القرى ع ٣٩٤ صفر ٢٦ ١٣٥٣هـ، ١ يوليو ١٩٣٢م.

٢) أم القرى ع ٢٢٧، ٢٨ شوال ١٣٤٨هـ/ ٢٨ مارس ١٩٣٠م.

٣) ع ١٦٦، ١٨ شعبان ١٣٤٦هـ، شباط ١٩٢٨م.

وهذا عدد كبير بالقياس إلى السيارات القليلة الموجودة آنئذ(١).

ولا شك أن دخول السيارات له أثر في الحياة الاقتصادية، إذ يفتح المجال لفرص عمل جديدة، ويزيد نشاط السوق التجارية وحركة الخدمات الفندقية والمطاعم بسبب ازدياد عدد الزائرين، لذلك بدأت المدينة تشهد انتعاشاً اقتصادياً يعوضها عن سنوات الفوضى وضعف الإدارة والحصار.

كما نشطت الحركة الثقافية في هذه المدة، وسار التعليم في المدينة المنورة بجناحين متوازيين: الأول تقيمه الدولة، وقوامه المدرسة الناصرية في باب الكومة والمدرسة المنصورية في الهاشمية -طريق السكة الحديد- ومدرسة النجاح في الداودية. والثاني يقيمه بعض الأهالي، وهو أشبه بمؤسسات خيرية، قوامه مدرسة العلوم الشرعية ومدرسة دار الأيتام ، فضلاً عن حلقات الدراسة في المسجد النبوي الذي نظم بقرار من الملك عبد العزيز وعُين مدرسوه وتوافد عليه الطلاب.

وهذا النشاط الذي كان يقوم به بعض أبناء المدينة والمقيمين فيها في فتح المدارس ونشر التعليم على حسابهم الخاص، أو بالاستعانة ببعض التبرعات يستحق وقفة قصيرة في تاريخ المدينة، فبفضل الله أولاً ثم بفضلها، أو لِنَقُلْ بفضل حماسة أولئك المتنورين، استمر التعليم في المدينة في أصعب أوقاتها، وبفضلهم ظهرت عدة مدارس أهلية خاصة لم تكن تتقاضى أية رسوم من الطلاب، وعلى العكس من ذلك كانت تساعد الطلاب أحياناً وتدفع لهم مايضمن استمرارهم في التعليم إن كانوا فقراء، وبفضلها أيضاً بدأ تعليم البنات فيها مبكراً.

وسنقف وقفة قصيرة عند مدرستين خرجتا عدداً كبيراً من رواد المثقفين والإداريين، وكان لهم فضل كبير على الحركة الثقافية في المدينة المنورة في هذا الجيل، وهما مدرسة العلوم الشرعية، ودار الأيتام، دون أن نغمط فضل

---

١) أم القرى ع ١٧٢، ٩ شوال ١٣٤٦هـ، ٣٠ مارس ١٩٢٨م.

المدارس الأخرى، ونكتفي بهذين النموذجين هنا لأنهما الأظهر، ونحيل القارئ إلى المصادر التي تحوي التفاصيل(١).

مدرسة العلوم الشرعية:

يرجع تأسيس هذه المدرسة إلى العهد الهاشمي، غير أن نشاطها الكبير وأثرها الواضح في أبناء المدينة تجلى في العهد السعودي، وفي هذه الفترة بالذات، فقد غدت أكبر مؤسسة تعليمية، وخرَّجت نخبة من المثقفين النشيطين الذين تسلموا مناصب مهمة، أو أصبحوا من الأدباء والمفكرين ورجال الصحافة والإعلام.

وقد أنشأ المدرسة السيد أحمد الفيضي آبادي، الذي قدم من الهند عام ١٣١٦هـ مع والده واستوطن المدينة، وترجع أصول أسرته إلى الحسينيين الذين هاجروا في القرن الخامس إلى الهند واستوطنوا مدينة فيض آباد.

كان أحمد الفيضي آبادي واحداً من حملة العلوم الشرعية، وعندما جاء عبد العزيز الجاويش وشكيب أرسلان إلى المدينة لإنشاء كلية صلاح الدين اعتمدوا عليه في الإشراف على البناء. ولما توقف العمل في الكلية فكر أحمد الفيضي آبادي بإنشاء مدرسة متقدمة للعلوم الشرعية.. وقدم طلباً للجهات الرسمية فلم ينل الموافقة.

وفي العهد الهاشمي عاودته الفكرة وألحت عليه، فاستعان ببعض الأثرياء الهنود لتمويل مشروعه، فأعانوه بمبالغ بسيطة مكنته من أن يستأجر مبنى

---

١) المدارس الباقية هي:

❁ دار الحديث أنشأها الشيخ أحمد الدهلوي عام ١٣٥٠هـ.

❁ المدرسة الخيرية: أنشأها الشيخ محمد صالح عبد الفتاح شرف عام ١٣٥١هـ، وأنشأ فيها قسماً مسائياً إضافياً لتعليم الكبار.

❁ مدرسة التهذيب الخيرية: أنشأها الشيخ عبد الرحمن محمد العربي الإدريسي عام ١٣٥٢هـ، وكانت قبل ذلك كتاباً.

متواضعاً قرب الحرم يبدأ به مشروعه وذلك في عام ١٣٤٠هـ. وتقدم بطلب للترخيص فحصل عليه عام ١٣٤١هـ.

ورغم إمكاناته المتواضعه نجح في اجتذاب الطلاب كما نجح في توفير المال اللازم من تبرعات الحجاج الهنود وغيرهم... ولم تكن مدرسة العلوم الشرعية المدرسة الوحيدة في المدينة، فقد كان إلى جانبها أربعة مدارس رسمية، غير أن تخوف بعض الأهالي من المدارس الرسمية جعلهم يرسلون أبناءهم إلى مدرسة العلوم الشرعية. وما لبث أن اتهم أحمد الفيضي آبادي بأنه يروج للوهابية في مدرسته وأنه يدرس الكتب التي يعتمدها الوهابيون، وأرسل معتمد المعارف الشيخ عبد القادر الطرابلسي لجنة للتحقيق مع صاحب المدرسة والمدرسين وللنظر في المناهج المقررة، فأكدت اللجنة التهمة، وأصدر الطرابلسي قراره بإغلاق المدرسة. فانتقل أحمد الفيضي آبادي بطلابه إلى المسجد النبوي وبدأ يدرسهم علناً المواد التي كانت مقررة في مناهج مدرسته، وهي لاتخرج عن كتب الحديث والتفسير المعتمدة عند أهل السنة والجماعة. وأرسل إلى الشريف حسين في مكة يتظلم ويستصدر أمراً بإعادة المدرسة.. فاستجاب له الشريف حسين وأصدر أمراً يسمح فيه بإعادة المدرسة.

وكانت الحكومة الهاشمية قد دخلت مرحلة المواجهة الأخيرة مع السعوديين.. وما لبث السعوديون أن دخلوا الحجاز وأخرجوا الهاشميين. وأغلقت المدارس الهاشمية في المدينة وألحق طلابها بالمدرسة الناصرية وهي المدرسة الحكومية الوحيدة.. فوقفت مدرسة العلوم الشرعية إلى جانبها تحمل معها عبء تعليم أبناء المدينة المنورة في بقية العقد الخامس الهجري..

وزاد الإقبال عليها بفضل نظامها التعليمي المتقدم ومناهجها المكثفة وأصبحت في العقد السادس أكبر مؤسسة تعليمية في المدينة، فقد بلغ عدد طلابها في عام ١٣٥٨هـ أربعمائة طالب، وبلغ عدد مدرسيها ٣٤ مدرساً

واثني عشر إدارياً وموظفاً.

وكان في المدرسة قسمان: قسم الشهادة الابتدائية، ومدة الدراسة فيه ست سنوات يدرس فيها الطلاب القرآن الكريم ويحفظه كله في السنوات الثلاثة الأولى والتوحيد والحديث والتفسير والفقه وعلوم اللغة والنحو والصرف والحساب والهندسة والجبر والعلوم والتاريخ والجغرافيا وينال في نهاية الدراسة الشهادة الابتدائية.. وكانت مناهجها تفوق مناهج المرحلة الإعدادية في عصرنا هذا.

وهناك مرحلة دراسية تسبق هذه الشهادة هي الشعبة التأسيسية مدتها سنة واحدة يتعلم فيها الطالب مبادئ القراءة والكتابة والحساب وهي مرحلة اختيارية.

ثانيا : شعبة العلوم العربية

ومدة الدراسة فيها أربع سنوات يدرس فيها الطالب أمهات كتب الفقه على المذاهب الأربعة وكتب التفسير والحديث والأصول والنحو والصرف وبعض الدواوين القديمة. وتفوق مناهجها مناهج الشعبة الأدبية في المرحلة الثانوية في زمننا هذا. لذا كان خريجو هذه الشعبة على درجة عالية من الثقافة وكانوا مؤهلين للتدريس، وقد عين عدد منهم في التدريس بموجب شهادتهم هذه. كما عين بعضهم في الوظائف الإدارية المتقدمة، كعبد القدوس الأنصاري الذي عين في ديوان إمارة المدينة المنورة..

كانت المدرسة تدفع إعانات للطلاب المحتاجين وتمنح المكافآت التشجيعية لحفظة القرآن والمتفوقين. وكان مدرسوها نخبة من خيرة رجال العلم في المدينة المنورة وكان فيهم من يدرس في المسجد النبوي إلى جانب تدريسه في المدرسة.

وقد خرجت المدرسة منذ افتتاحها إلى عام ١٣٥٩هـ ١٨٧ طالباً من حفظة القرآن الكريم و٦٧ طالباً من حملة الشهادة الابتدائية و٣٠ طالباً من

حملة شهادة العلوم العربية العليا.

ومن خريجي هذه المدرسة الذين تبوأوا مناصب مهمة فيما بعد محمد علي الحركان رئيس رابطة العالم الإسلامي ومحمد عمر توفيق وزير المواصلات وعبد القدوس الأنصاري الأديب والمؤرخ المعروف ومؤسس مجلة المنهل ومحمد الحافظ قاضي المحكمة الشرعية الكبرى في المدينة وعبد العزيز الربيع الأديب المعروف ومدير التعليم ورئيس النادي الأدبي في المدينة ومحمد هاشم رشيد الشاعر المعروف والرئيس الثاني للنادي الأدبي بالمدينة المنورة وعبد الفتاح أبو مدين الأديب المعروف ورئيس النادي الأدبي في جدة وغيرهم كثير.

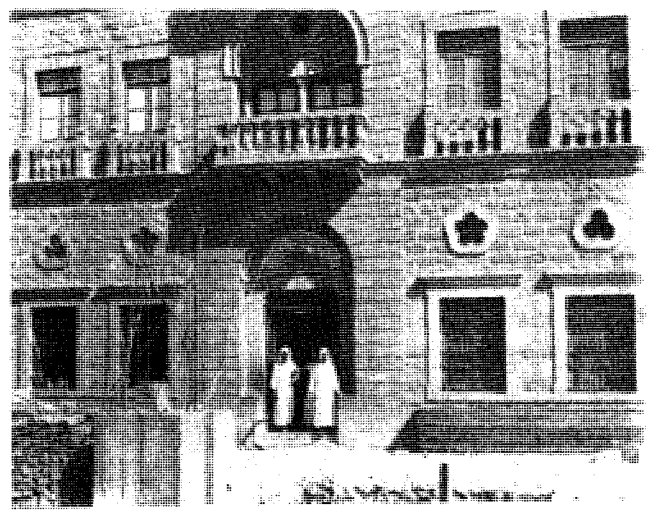
وقد أشرف السيد أحمد الفيضي آبادي بنفسه على المدرسة وأدارها حتى وفاته عام ١٣٥٨هـ. واشترى لها أرضاً وباشر بناء مبنى ثابت لها. وتوفى قبل أن يتم البناء فانتقلت إدارتها إلى ابن أخيه السيد حبيب محمود أحمد الذي قفز بها قفزات واسعة في المراحل التالية وجعلها صرحاً تعليمياً متميزاً في المدينة المنورة... وما زالت المدرسة تحت اشرافه(١).

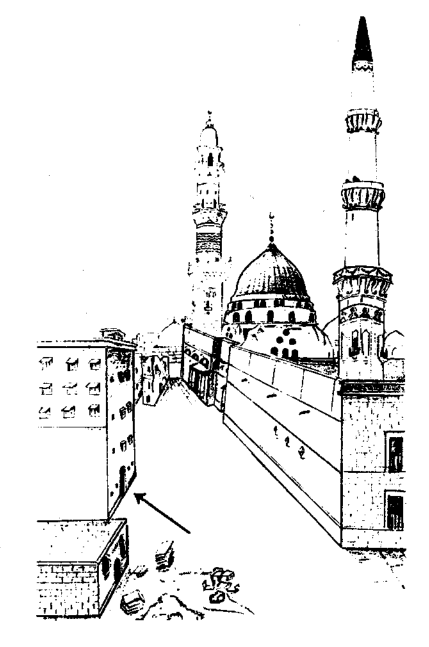
دار الأيتام:

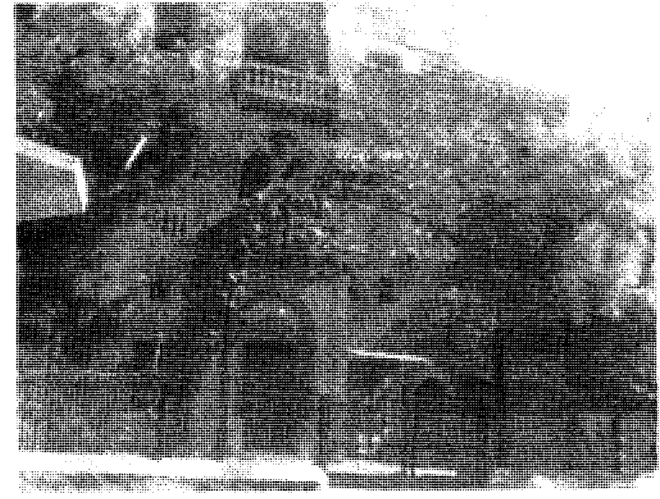
طبيعي أن تستلفت الجوانب الإنسانية بعض الغيورين المتنورين لإقامة مشروع خيري عظيم هو مشروع دار للأيتام، وكان رائده عبد الغني الدادا أحد التجار المقيمين في المدينة المنورة، فقد لفت نظره كثرة وجود الأيتام، وبخاصة من أبناء البادية المحيطة بالمدينة، بسبب الفتن والاضطرابات التي اشتدت أواخر العهد العثماني وخلال العهد الهاشمي، وبسبب وجود الغزو والثأر والمشاركة في بعض الجيوش، فضلاً عن المجاعات التي تحصد عدداً

---

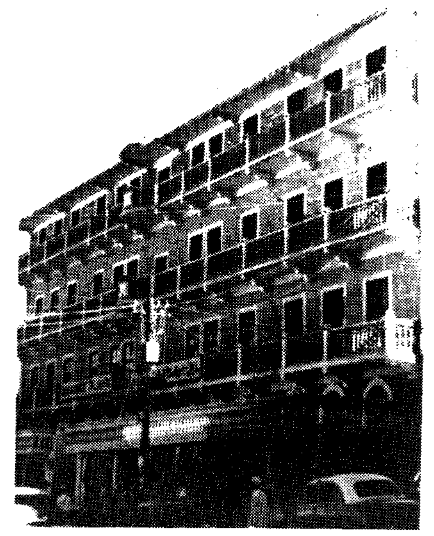
١) استقيت المعلومات الأساسية عن المدرسة وتطورها من كتاب مدرسة العلوم الشرعية. تأليف د. محمد عيد الخطراوي. مكتبة دار التراث. المدينة المنورة ١٤١١هـ.







١ ـ مدرسة العلوم الشرعية وتطور مبانيها منذ إنشائها حتى اليوم.



٢ ـ مدرسة دار الأيتام.



٣ ـ المبنى الحالي لمدرسة العلوم الشرعية.

غير قليل من حين إلى آخر.. والنتيجة من ذلك موت عدد كبير من الرجال الذين يتركون وراءهم أطفالاً صغاراً، وإذا تذكرنا الحالة الإقتصادية القاسية آنئذ أدركنا ظروف المعيشة الصعبة التي يعيشها أولئك الأيتام.. وطبيعي أن هذه الظروف لن تمكنهم من دخول المدارس، بل ستجعلهم يفتشون منذ نعومة أظافرهم عن أي مصدر رزق يؤمنون به لقمة عيشهم.. ولو كان مصدراً حراماً أو يؤدي إلى الجريمة والانحراف، لذلك فإن رعاية هؤلاء اليتامى هو إحياء لأنفس ووقاية لمجتمع.

تحمس عبد الغني الدادا لمشروع إقامة دار الأيتام، وبدأ المشروع بحماسة كبيرة، ونشط في جمع الأموال من بعض تجار الهند، واستأجر مبنى قرب الحرم وجهزه تجهيزاً بسيطاً ليكون جزء منه للإقامة والنوم والطعام والطبخ، وجزء آخر للدراسة، وثالث للعمل، وقد فكر المنشؤون أن يجعلوا التعليم حرفياً، أي أن يتعلم الطفل في الدار مع المنهج النظري حرفة عملية.

وشجعهم على ذلك أحد التجار الهنود الذي قدّم مشروعاً لإنشاء مدرسة صناعية للأيتام يزودها بآلات النسيج.. وقد تقدم هذا التاجر بالمشروع إلى الجهات الرسمية وحصل على الموافقة، ونشرت جريدة أم القرى الخبر في عددها رقم ٤٤٣ بتاريخ ١٥ صفر ١٣٥٢هـ.

غير أن مشروع التاجر الهندي لم ير النور، فقد سافر صاحبه إلى الهند ليحضر آلات النسيج ولم يعد، وانقطعت أخباره وغاب معه مشروعه..

وكان الأثر الوحيد له لفت أنظار منشئي دار الأيتام إلى ضرورة التنشئة الحرفية للأيتام، ليخرجوا إلى الحياة العملية مزودين بخبرة جيدة يعتمدون بها على أنفسهم..

ونظراً لضيق الإمكانات لم يتمكن المنشئون من إقامة معامل فنية كبيرة، واكتفوا بمعامل بسيطة تنتج بعض الحاجات الأساسية من المواد الخام المتوافرة في البيئة، كالحقائب والأحذية والكراسي، ثم أقاموا بعد مدة معملاً

صغيراً لتعليب التمور المحلية، واستعانوا بشاب درس في أمريكا الهندسة الصناعية، فعلم الطلاب كبس التمر في قوالب ولفه على شكل مربعات صغيرة ليحفظ من الدود وليباع إلى الحجاج بسعر أفضل(١) وقام على إدارة المدرسة ومعملها حسني العلي الضابط السابق في الجيش العثماني.

كانت فكرة إقامة معامل إنتاجية في مدرسة الأيتام ناجحة إلى حد كبير، وقد أفادت أهالي المدينة المنورة في سنوات الحرب العالمية الثانية، واستطاعت أن تؤمن لهم عدداً من الحاجات البسيطة التي شحت بسبب ظروف الحرب، أهمها الأحذية والحقائب والكراسي وبعض الأدوات المنزلية.. وقام أحد أساتذتها المهرة بإنشاء مسكب يدوي للمعادن لإنتاج بعض المصنوعات من حديد (الزهرة) ودرب الطلاب على صناعة القوالب الرملية وصب المعادن فيها، وقد بلغ من براعته -كما يروي بعض شهود العيان- أنه بدأ يصب أجزاء من محركات السيارات (البستم) ليعوض عن فقدها في السوق، مستخدماً المحركات المستهلكة... وقد حققت هذه العملية دخلاً لابأس به للمدرسة وساعدتها على الصمود في ظروف الحرب الصعبة.

لقيت دار الأيتام بعض الصعوبات وبخاصة في فترات الضائقة الإقتصادية حيث تشح التبرعات ويحتار القائمون عليها كيف يوفرون احتياجاتها الأساسية. وقد مرت بعدة أزمات وكان العاملون فيها لايتقاضون رواتبهم الضئيلة، وقد ازداد عدد طلابها وارتفع من (٤٠) طالباً أول إنشائها إلى (١١٩) طالباً، ثم إلى (١٣٦) طالباً عام ١٣٤٧هـ، ولم يعد المبنى الصغير قادراً على استيعابهم، فانتقلت المدرسة إلى مبنى أكبر، وأصبح الإيجار عبئاً جديداً على الموازنة المضطربة.. فدعا القائمون عليها إلى إنشاء مبنى جديد خاص بالدار يضمن استمرارها، ونشروا الأخبار والإعلانات لذلك وبدؤوا يستقبلون التبرعات وينشرون أسماء المتبرعين وما جادوا به في جريدة

---

١) انظر جريدة المدينة المنورة ع ٢٠، ١٢ ص ١٣٥٦هـ، ١٩ أغسطس ١٩٣٧م.

المدينة(١).

وكانت دار الأيتام تستفيد من زيارات بعض كبار الزائرين الوافدين إلى المدينة فتقيم حفلة استقبال لهم وتلقى الكلمات ويدعى وجوه أهل المدينة، وكانت هذه الحفلات تنتهي بتبرعات سخية.

وفي إحدى المرات زار المدينة طلعت حرب مؤسس بنك مصر وصديق الملك عبد العزيز، وكان معه الكاتب المعروف أحمد أمين نائب مدير جامعة القاهرة يرافقهما الوزير عبد الله سليمان، وذلك في شوال ١٣٥٤هـ الموافق يناير ١٩٢٦م. وصادفت زيارتهم موعد إقامة الحفل السنوي للمدرسة فدعوا إليها ودعي إليها وجهاء أهل المدينة، وألقيت الكلمات الحماسية فتحركت النفوس وانهالت التبرعات وبلغت ثمانية وعشرين ألف ريال، وهو مبلغ ضخم في ذلك الوقت، كما أسفرت عن أمر الوزير عبد الله بن سليمان بشراء المسكن الذي تقيم فيه الدار من مالكها لتكون مركزاً دائماً يضمن استقرارها واستمرارها(٢).

وما لبثت الدار بعد ذلك أن احتوتها الرعاية الملكية فأمر الملك عبد العزيز بضمها إلى دار الأيتام في مكة تحت إدارة سلطان مهدي(٣).

أبناء المدينة في أول بعثة تعليمية:

لم يكن في الحجاز أو نجد أية دراسة جامعية، وكان معهد المعلمين هو أعلى مستوى دراسي يمكن أن يبلغه الطالب، لذلك اتجهت أنظار المسؤولين إلى إرسال بعثات تعليمية إلى بعض الجامعات خارج المملكة لتكوين جيل رائد من المثقفين ثقافة جامعية حديثة.

فأرسلت إدارة المعارف في الحجاز ونجد إلى كافة الإمارات لترشيح عدد

---

١) انظر جريدة المدينة ع ١٣٩، ٤ محرم ١٣٥٩هـ، ١٢ فبراير ١٩٤٢م.

٢) انظر زيدان ١٧٤.

٣) السابق نفسه.

من الطلاب في تخصصات مختلفة. وكان الطلاب الذين تنطبق عليهم الشروط المطلوبة للجامعات قليلين. وقام مندوبوا المعارف في كل إمارة باختيار الطلاب المتفوقين وشكلت أول بعثة تعليمية للخارج، وتقرر سفرها إلى مصر للدراسة في جامعاتها، وكان فيها ثلاثة من أبناء المدينة المنورة هم: أحمد العربي، وقد رشح لدراسة القضاء الشرعي في جامعة الأزهر. وولي الدين أسعد رشح للدراسة في دار العلوم، وحمزه نائل دويدار رشح للدراسة في كلية الزراعة. وسافرت البعثة في رجب عام ١٣٤٦هـ(١) وبعد سنتين من سفر هذه البعثة سافر أحد أبناء المدينة المنورة في أول بعثة تخصصية عليا وهو الدكتور محمد خاشقجي، الذي ابتعث إلى أوربا للتخصص في أشعة رونتكن(٢).

تطور المواصلات البرية:

شهدت المدينة في هذه الفترة تطوراً في المواصلات وحركة الزائرين والحجاج، فقد استفادت من دخول السيارات إلى المملكة بكثافة وإنشاء أكثر من شركة نقل، فضلا عن السيارات المملوكة لأفراد يعملون عليها.

بدأت حركة المسافرين بالسيارات تزداد من جدة ومكة، فقد وصل إلى المدينة في ربيع الأول عام ١٣٤٩هـ ١٥٦١ شخصاً من مكة و٢٣٩٣ شخصاً من جدة(٣) ثم افتتح خط للسفر بين ينبع والمدينة يستخدمه القادمون من مصر، وقد بلغ عدد القادمين عليه في موسم حج ١٣٥٠هـ ٤٥٠٠ حاج وهو عدد كبير بالقياس إلى عدد السيارات الموجودة ومتاعب السفر آنئذ. فقد كان الطريق بين مكة أو جدة إلى المدينة تستغرق ست عشر ساعة. ومن ينبع إلى المدينة ست ساعات.

---

١) انظر جريدة أم القرى ع١٦٣، ٤ شعبان ١٣٤٦هـ، ٢٧ ١٩٢٨م.

٢) انظر جريدة أم القرى ع ٢٧١ في ١٥ رمضان ١٣٤٨هـ، ١٤ فبراير ١٩٣٠م.

٣) انظر أم القرى ع ٣٠٣ في ٤ جمادى الأولى ١٣٤٩هـ.

وفي عام ١٣٥٢هـ بدأ تعبيد الطريق بين مكة والمدينة. فبدأت ورش العمل في تمهيد الطريق باتجاه مسيجيد ولم تكن هناك سفلته بل مجرد تسوية للأرض(١) وقد مهدت منطقة أبيار بن حصاني التي كانت تتعب المسافرين وتطيل مدة السفر فانخفضت المدة من ست عشرة ساعة إلى إثنتي عشرة ساعة.

وفي العام التالي ١٣٥٣هـ اتجهت الأنظار إلى الجهة الشرقية لتسيير السيارات بين المدينة ونجد. ووصل وفد من العراق لدراسة فتح الطريق التي يسير عليها الحجاج القادمون من الشرق وبخاصة الحجاج العراقيون وتم الاتفاق على تشكيل لجنة مشتركة لذلك وأن يقوم المهندسون والمساحون بالكشف على الطريق في رجب عام ١٣٥٣هـ وشكلت لجنة من مسؤولي المدينة برئاسة حمزة غوث وعضوية المهندس الشريف راجح عدنان ومهندس البلدية كنعان. وجاءت لجنة من العراق، وقامت اللجنتان السعودية والعراقية بالكشف على الطريق وأعدت تقريراً مفصلا رفعته إلى الديوان الملكي في مكة المكرمة. وصدر قرار بفتح الطريق في ذي القعدة من عام ١٣٥٣هـ(٢) وجاءت قوافل السيارات لأول مرة من الطريق الشرقي إلى المدينة تحمل الحجاج العراقيين. وفتحت الطريق لكل من يقطن شرقي المدينة المنورة للقدوم عليه بالسيارات.

وقبل أن ينقضي هذا العام، ويصح أن نسميه عام السيارات، تحركت قافلة من السيارات من دمشق إلى المدينة تضم ممثلين عن أصحاب شركات السيارات ومجموعة من العلماء وأعيان دمشق وتجارها، وكان من بينهم الشيخ علي الطنطاوي. وقد نظم القافلة وأشرف عليها مندوب الحكومة السعودية في دمشق ياسين الرواف. وكان غرض القافلة افتتاح طريق الحج القادم من سورية. وقد سافرت القافلة في الطريق السلطاني -طريق المحمل الشامي

---

١) انظر أم القرى ع ٤٧٧ في ١٧ شوال ١٣٥٢هـ.

٢) انظر أم القرى ٥٣١ في ١١ ذي القعدة ١٣٥٣هـ.

سابقاً- ووصلت القافلة إلى المدينة في أواخر ذي الحجة عام ١٣٥٣هـ وأقيم لها حفل استقبال في مبنى البلدية، وزار الوفد وكيل الإمارة وعدد من أعيان أهل المدينة. ثم غادرها إلى مكة في أوائل محرم لإداء العمرة. فأكملت هذه القافلة افتتاح طرق السيارات من جهات المدينة كلها(١).

وداخل المدينة كان الطريق الذي شقه فخري باشا إلى قباء قد اندرست معالمه. فبعد رحيل العثمانيين عاد أصحاب البساتين التي شقت فيها الطريق وأغلقوا بساتينهم في وجه العابرين واستعادوا الأرض التي خصصت للطريق. واضطر المتجهون إلى قباء لاستخدام الطريق القديم الملتوي. فأعادت البلدية دراسة الطريق وبدأت بشقه ثانية في رجب عام ١٣٥١هـ. وقد اشترى الأمير عبد العزيز بن إبراهيم بعض القطع المملوكة لأصحاب البساتين من ماله الخاص وأوقفها للطريق، وتبرع بعضهم الآخر بالقطع التي سيمر بها الطريق من أرضه. وقبل نهاية العام كان المتجهون إلى قباء يسيرون على طريق مستقيمة تبدأ بباب العنبرية وتنتهي بمسجد قباء يختصر نصف مسافة الطريق القديم الملتوي. وقد روعي في إنشائه أن يكون عريضاً يتسع لمرور سيارتين على الأقل لتتمكن السيارات من السير فيه. وفي موسم الزيارة بعد حج ذلك العام كانت السيارات تسير عليه.

تطوير البريد:

وفي ربيع الأول عام ١٣٤٨هـ بدأ تطوير مرفق هام في المدينة المنورة وهو مرفق البريد، وكان البريد حتى ذلك الوقت ينتقل على الجمال السريعة ويستغرق من المدينة إلى مكة مابين يومين إلى ثلاثة أيام، ومع دخول السيارات اتجهت الأنظار اليها لتقوم بمهمة نقل البريد واختصار الزمن، وقامت إدارة البريد باستيراد عدد من السيارات، ونظمت رحلات النقل بين مكة والمدينة، وبدأتها برحلة إسبوعية واحدة، حيث تقوم السيارة من مكة أو جدة

---

١) انظر أم القرى ع ٥٣٨ في ١ محرم ١٣٥٤هـ.

-حسب إقامة الملك عبد العزيز- يوم السبت وتقطع المسافة في خمس عشرة ساعة إلى المدينة، ثم تعود إليها يوم الثلاثاء، وتحمل الرسائل الحكومية والأهلية و(الطرود)، ثم بدأت باستقبال (الحوالات) المالية لقاء رسم بسيط. وكانت سيارة البريد تحمل إضافة إلى أكياس الرسائل و(الطرود) والأموال بعض المسافرين بين المدينتين، وقد ظلت هذه الرحلة الأسبوعية إلى أن زيدت وصارت رحلتين في الأسبوع، واحدة يوم الإثنين والأخرى يوم الخميس(١) وكانت أسرعَ وسيلة مواصلات حتى ذلك الوقت.

---

١) أم القرى ع ٥٨٨.

زيارة ملكية خاطفة:

سافر الملك عبد العزيز من المدينة إلى الرياض في ٣ رجب ١٣٤٦هـ -كما أسلفنا- لمعالجة تمرد الدويش، وقد حضر المؤتمر الذي عقد في الرياض لهذا الشأن وأشرف على وضع الترتيبات اللازمة للمواجهة العسكرية التي بدأها الدويش ورجاله، وقام بجولات على عدد من المدن والهجر ومراكز القبائل في نجد، وقرر العودة إلى الحجاز بعد أن يزور القصيم وحائل.

ووصلت الأخبار بتوجه الموكب الملكي من حائل إلى المدينة بالسيارات، فاستعد وكيل الإمارة وكبار المسؤولين والأعيان لاستقباله، وأقيمت الأقواس ونصبت الأعلام والزينة، وجهز سرادق كبير في محطة العنبرية لإقامة حفل إستقبال مناسب. وفي صباح يوم الأربعاء ١٢ ذو القعدة ١٣٤٦هـ. وخرج وفد على رأسه وكيل الإمارة عبد العزيز بن إبراهيم وفيه الشيخ زكي برزنجي وعيد مدني وإبراهيم بري وكامل حجا وأسعد أسعد وعبد العزيز الخرجي وذياب ناصر وسعود دشيشة وغيرهم للقاء الموكب في منطقة الصويدرة. وعند وصول الموكب استقبله الوفد، ثم رافقه إلى المدينة وبدأ بالمسجد النبوي فصلى فيه وسلم على رسول الله ﷺ وعلى صاحبيه، ثم خرج إلى السرادق المقام في محطة العنبرية، وأطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة تحية للملك.. وخرج الطلاب والشرطة وعدد كبير من الأهالي لإستقبال الملك.. وفي السرادق أقيم احتفال قصير ألقيت فيه كلمات الترحيب وبعض القصائد.

وفي المساء أقام وكيل الإمارة مأدبة عشاء على شرف الملك حضرها كبار المسؤولين وأعيان أهل المدينة.

وفي اليوم التالي الخميس ١٣ ذو القعدة ١٣٤٦هـ زار الملك البقيع ومسجد قباء، وعند الظهر أقامت البلدية حفل غداء باسم أهالي المدينة احتفاء بالملك وقد حضره جمع غفير من المسؤولين والأهالي... وبعد العصر استقبل الملك الأهالي في مقر الإمارة واستمع إلى طلباتهم وبحث معهم شؤون

المدينة. وفي اليوم التالي الجمعة ١٤ ذو القعدة ١٣٤٦هـ غادر الموكب الملكي المدينة المنورة إلى جدة وكان في وداعه حشد كبير من أهلها في مقدمتهم وكيل الإمارة وكبار المسؤولين.

المدينة المنورة ومجلس الشورى:

عندما دخل الملك عبد العزيز مكة المكرمة عام ١٣٤٣هـ جمع أعيانها وعلماءها وطلب منهم انتخاب مجموعة منهم ليكونوا بمثابة هيئة استشارية تساعده في إدارة أعمال المنطقة والبت في قضايا، فاختار أهل مكة اثني عشر شخصاً تألف منهم مجلس سمي ((المجلس الأهلي)) وصدر بيان ملكي عهد إليه فيه النظر في نظام المحاكم الشرعية وتدقيق مسائل الأوقاف، ووضع نظام للأمن الداخلي وسن لوائح للبلدية ولصحة العاصمة ولنشر التعليم الديني فيها وتعميم القراءة والكتابة وتنظيم التجارة ووسائل البرق والبريد(١).

وعندما دانت مناطق الحجاز الأخرى للملك عبد العزيز، قرر الملك عبد العزيز تعديل المجلس السابق ليمثل المدن الحجازية والعشائر ويمثل مكة المكرمة ٤ أعضاء، ويمثل المدينة المنورة اثنان، واثنان من ينبع، وعضوين من الطائف، وثلاثة من العشائر(٢) وقد اختير من المدينة المنورة: يعود الدشيشة ودياب ناصر لعضوية أول مجلس، واستمرت عضويتهم.

وكان عمل هؤلاء في مكة غالباً، وينتقل إلى الطائف عندما تنتقل إليها الحكومة صيفاً.

وقد أسهم العضوان في مناقشات المجلس واتخاذ القرارات في القضايا المعروضة عليه وكانت في غالبيتها قضايا بناء الهيئات في الدولة أو إعادة بنائها.

---

١) الزركلي ١/٥٧١.

٢) أم القرى ٢١ صفر ١٣٤٥هـ.

وقد استمرت عضويتهما في المجلس لعدة سنوات إذ أعيد انتخابهما في الدورات التالية عام ١٣٤٧هـ ثم ١٣٤٩هـ(١) وعندما توفى سعود دشيشة في السنة نفسها عين مكانه حمزة عوث(٢).

ويعزى إلى أعضاء مجلس الشورى السعي في استصدار عدد من القرارات التي أفادت المدينة المنورة فائدة مباشرة، ومنها قرار إعفاء المسافرين إلى المدينة من الرسوم والكوشان التي كانت مفروضة عليهم منذ القديم (٣) ومنها: تعليمات هيئة الأدلاء بالمدينة المنورة، وهي الهيئة التي تقوم بخدمة الحجاج وتسهيل زيارتهم للمدينة المنورة. ونظام دائرة الأوقاف في المدينة المنورة. وتعليمات مديرية الحرم النبوي التي أعادت بناء الهيكل الإداري لهذا المرفق الإسلامي المهم وبينت تسلسل وظائفه وحددت مسؤوليات كل وظيفة.

وتعليمات هيئة العين الزرقاء، وهي الإدارة المسؤولة عن تأمين المياه لأهالي المدينة المنورة، ونظام فرع لجنة الصدقات بالمدينة، وتعليمات مصنع السجاد والكليم بالمدينة.

فضلاً عن الأنظمة العامة لهيئات وإدارات الدولة وكافة والتي لها فروع في المدينة المنورة. بدءاً بنظام الأمراء والمجالس الإدارية ووصولاً إلى التعليم والمدارس والمستشفيات والنقل... الخ.

والحقيقة أن مجلس الشورى هو الذي أقام الهيكل الحقيقي لإدارات الدولة الجديدة وطور الإدارات القديمة، وكانت الأنظمة والتعليمات التي يقرها من اعداده أحياناً ومن اعداد لجان مختصة في جهات مختلفة أحياناً أخرى لكنها تعرض عليه مناقشتها ويقرها أو يدخل عليها شيئاً من التعديلات.. وكان

---

١) انظر أم القرى ع١٩٥ ٧ ربيع الأول ١٣٤٩هـ ١ أغسطس ١٩٣٠م.

٢) أم القرى ع ٣٠٥، ١٨ جمادى الأولى ١٣٤٩هـ، ١٨ اكتوبر ١٩٣٠م.

٣) انظر أم القرى ع٦٥٢، ١١ ربيع الأول ١٣٥٦هـ، ١١ مايو ١٩٣٧م.

يرأس المجلس منذ تأسيسه الأمير فيصل بن عبد العزيز.

المدينة تشارك في المجهود الوطني:

مرت البلاد بحالة صعبة في مطلع العقد السادس من القرن الهجري الرابع عشر أي منذ عام ١٣٥٠هـ فقد قامت ثورة ابن رفادة في الشمال وثورة الأدارسة في الجنوب تلتها الحرب مع اليمن لتثبيت الحدود وإنهاء مشكلة الأدارسة. وكانت هذه الحالة تقتضي تعبئة عامة ومشاركة وطنية واسعة في تغطية نفقات الأعباء العسكري، فضلاً عن الضائقة الإقتصادية العامة التي كانت تمر بها المنطقة. فشكلت في المدن الكبرى لجان الإسعاف الوطني لتلقي التبرعات ودعم المجهود العسكري ومواجهة الضائقة العامة.

وقد أسهمت المدينة في هذا المجهود الوطني، فتشكلت فيه لجنة الإسعاف الوطني في شهر ذي الحجة عام ١٣٥٢هـ وكانت برئاسة وكيل الإمارة. وقد أقامت اللجنة حفلاً خطابياً حضره أعيان المدينة تحدث فيه الخطباء عن ضرورة دعم المجهود الوطني العام وفتح باب التبرع. وتبرع الموجودون بسخاء، وواصلت اللجنة أعمالها بعد ذلك. وقد نشرت صحيفة أم القرى قوائم بأسماء المتبرعين. واستمر عمل اللجنة مدة طويلة وبعد ثلاث سنوات تشكلت جمعية القرش برئاسة عبد الله الخريجي، وأصدرت طوابع قيمة كل طابع قرش واحد، واستطاعت أن تجمع به مبلغاً وافراً أسهمت فيه بدعم المجهود الوطني العام.

تغيير في وكالة المدينة:

أمضى عبد العزيز بن إبراهيم قرابة عشر سنوات في منصب وكيل أمير المدينة، وكان دؤوباً في تتبع قضايا الإمارة، شديد الحرص على توطيد الأمن داخل المدينة وحولها. وقد تناقل الناس أخباراً كثيرة عن دأبه الشديد ومتابعته الدقيقة، ويبدو أن إرهاق العمل قد أثر على صحته، فمرض ولما اشتد عليه المرض طلب من الملك عبد العزيز إعفاءه من منصبه فاستجاب له

الملك عبد العزيز وصدر الأمر الملكي بإعفاءه من منصبه وتعيين عبد الله بن سعد السديري في منصب وكيل أمير المدينة اعتباراً من التاسع من شهر صفر عام ١٣٥٥هـ ونشر القرار في جريدة أم القرى في ربيع الأول عام ١٣٥٥هـ، وسافر عبد العزيز ابن إبراهيم للعلاج.

المدينة في وكالة عبد الله بن سعد السديري:

كان عبد الله بن سعد السديري قد تولى إمارة تبوك قبل تعيينه في المدينة، وكانت له خبرة إدارية جيدة. وقد وصل إلى المدينة مساء يوم الأربعاء في الثامن والعشرين من شهر صفر ثم غادرها إلى منطقة عشيرة حيث ينزل الملك عبد العزيز لمقابلته وتلقي توجيهاته حول منصبه الجديد، ومالبث أن عاد إلى المدينة في الثالث من ربيع الأول وبدأ مهام عمله فاستقبل أعيان المدينة وكبار الموظفين والمهنئين بتعيينه، وحادثهم في أمور المدينة واستمع لآرائهم واقتراحاتهم ووعد ببذل الجهد لخدمة المدينة وتطويرها.

وقد امتدت وكالة السديري عشرين سنة إلى ١٣٧٥هـ شهدت المدينة خلالها تطورات عدة في مجالات التعليم والثقافة والإقتصاد والعمران والمواصلات.

إلغاء ضريبة السفر إلى المدينة:

منذ القديم كانت موارد الحج فصلا مهماً في موارد إمارة الحجاز وسكانها. وقد طبق أمراء الحجاز في فترات وحدتها، وأمراء المدينة في فترات استقلالهم عن مكة، أسلوب استيفاء ضريبة من القادمين إلى مكة والمدينة. وصارت هذه الضريبة عرفاً ثابتاً على مدى سنين طويلة، وفي فترات قليلة كان الخلفاء والسلاطين وبعض الأمراء يسقطونها -كما فعل صلاح الدين الأيوبي- مقابل مبالغ يدفعونها لأمراء المدينة تعويضاً لهم عن دخلهم من تلك الضريبة. وقد استمرت هذه الضريبة في العهود المتوالية وكانت ترتفع وتنخفض حسب الأوضاع الإقتصادية وحسب رغبات الأمير.

وعندما بدأ العهد السعودي كانت ميزانية الدولة ضعيفة وفي حاجة لموارد تغطي نفقاتها فضلاً عن النفقات العسكرية الكبيرة. فظلت تلك الضريبة قائمة باسم ضريبة السفر، وكانت تستوفى في مداخل المدينة المنورة.

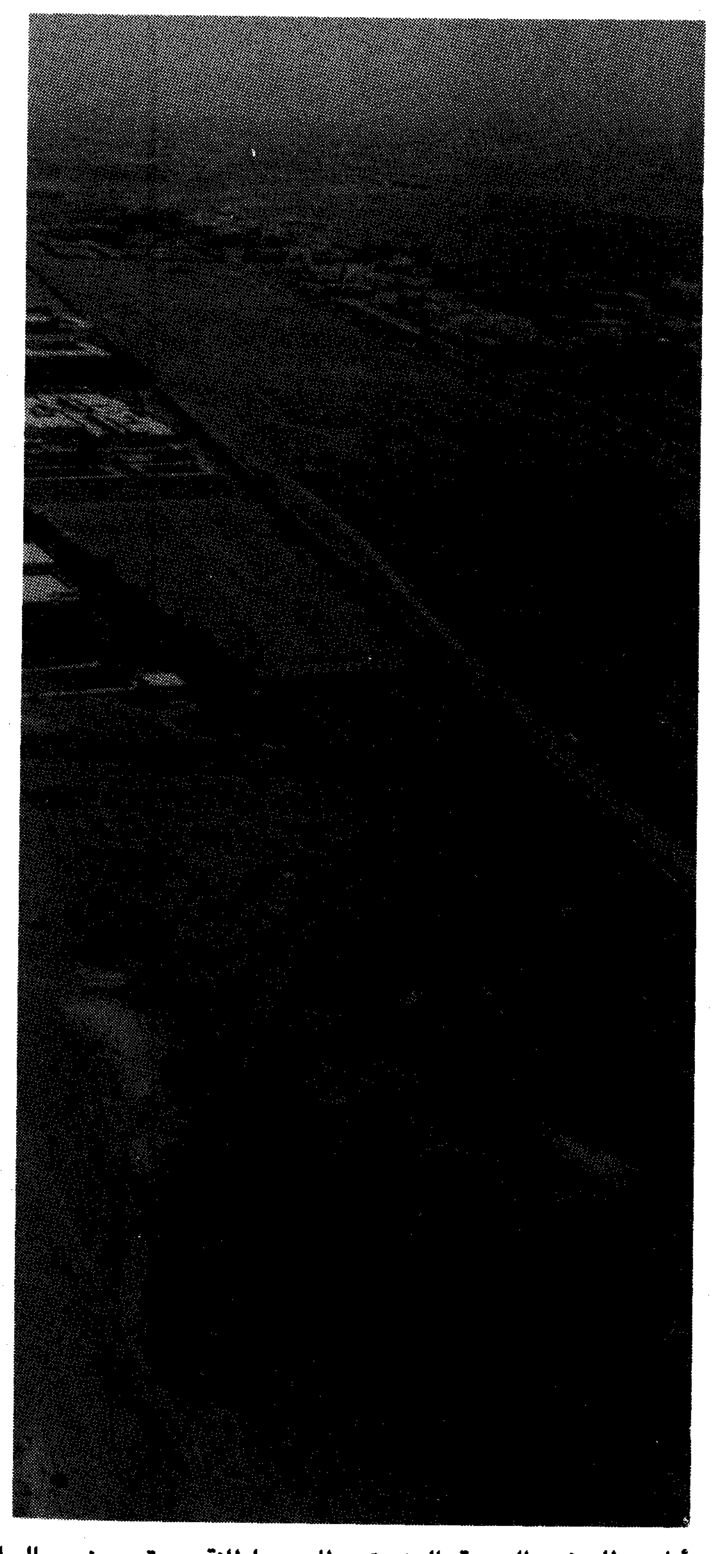
ولما ظهرت ملامح الاستقرار الاقتصادي في الدولة السعودية اتجهت الدولة نحو تخفيف الأعباء الضريبية. وقد طرح مندوبا المدينة المنورة في مجلس الشورى اقتراحاً لإلغاء ضريبة السفر إلى المدينة لتشجيع الزائرين للقدوم إليها سواء من داخل المملكة أو خارجها، ورفع الإقتراح إلى الملك عبد العزيز فوافق عليه على الفور وصدر الأمر الملكي بإلغاء ضريبة السفر عن المسافرين إلى المدينة بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٣٥٦هـ. وكان لهذا القرار أثر طيب في زيادة عدد القادمين إليها وتنشيط الحركة الإقتصادية الناجمة عن تلك الزيارة سواء في الخدمات الفندقية أو الحركة التجارية.

حركة الطيران:

شهدت هذه الفترة بداية الطيران المدني وتأسيس المطار في المدينة وبدء الرحلات الجوية منها وإليها. وقد شهدت المدينة المنورة حركة الطيران قبل أن تنشأ رئاسة الطيران المدني عام ١٣٦٢هـ. وتشير أخبار أم القرى إلى أن أول الرحلات الجوية القادمة إلى المدينة في هذا العهد قام بها الطيار المصري المشهور محمد صدقي من جدة إلى المدينة عام ١٣٥٥هـ وقد هبط في منبسط من الأرض في منطقة سلطانة قرب وادي العقيق، واستغرق طيرانه ساعتين كاملتين.

وفي أوائل رمضان من العام التالي ١٣٥٦هـ وضعت إشارات في المنطقة نفسها لهبوط الطائرة القادمة من مصر وكان يقودها الطيار محمد صدقي نفسه وكانت رحلة تجريبية ناجحة تمهد لافتتاح خط جوي لنقل الحجاج وبقية المسافرين.

وفي الأسبوع الأول من ذي القعدة من العام نفسه بدأت أولى الرحلات



موقع أول مطار في المدينة المنورة مطار «سلطانة» ويقع جنوب الجامعة الإسلامية حالياً

الجوية الجوية المنظمة من جدة إلى المدينة. وقاد الطيار محمد صدقي طائرة ذات أربع محركات حملت ركابها الزائرين واستغرقت الرحلة ساعة وخمساً وعشرين دقيقة. وبعد استراحة قصيرة عادت الطائرة إلى جدة لتقوم برحلات أخرى متوالية تنقل بعض الحجاج من الشخصيات الهامة والقادرين على دفع ثمن التذكرة المرتفع آنئذ.

غير أن الرحلات بين جدة والمدينة لم تنتظم بعد موسم الحج لقلة الركاب من جهة ولمحدودية شركة الطيران الحديثة من جهة أخرى وكذلك لعدم وجود مطار مجهز قادر على استقبال الرحلات المتوالية وتقديم الخدمات الضرورية للطائرات وركابها.

وفي عام ١٣٦٠هـ تقرر إنشاء مطار مناسب، وقامت لجنة من شركة الطيران السعودي باختيار الموقع المناسب، فاختارته في الجهة الشرقية على بعد ثلاثة عشر كيلو متر من المسجد النبوي. وبدأت احدى شركات المقاولات بتسوية الأرض وإعداد مدرج الهبوط، وبنيت صالة صغيرة للركاب وصالة للخدمات وغرفاً للإدارة والحراسة(١) وتوقف العمل لبعض الوقت بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية وقلة الإمكانات. ولما انتهت الحرب العالمية الثانية عادت الشركة للعمل في المطار وأنجزته عام ١٣٦٦هـ. وأنجز المطار وأصبح قادراً على استقبال الرحلات الجوية المنظمة. وقامت شركة الطيران السعودية بافتتاح خط منتظم بطائرة ذات محركين يقودها الطيار السعودي إسماعيل كاظم بإشراف الطيار كرنت جوزيف وقطع المسافة من جدة إلى المدينة في ساعة واحدة وعشر دقائق فقط. وذلك في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة ١٣٦٦هـ. وانتظمت بعدها الرحلات بين جدة والمدينة.

وبعد عام واحد شهدت حركة الطيران في المدينة المنورة قفزة نوعية كبيرة، فقد تقرر أن تقوم منها رحلات جوية داخلية وخارجية جديدة، ففي

---

١) انظر جريدة المدينة ع ٢٠٤، ١ جمادى الأولى ١٣٦٠هـ.

الداخل نظمت رحلات إسبوعية إلى الطائف والرياض والظهران، وإلى الخارج نظمت رحلات إلى المدينة إلى دمشق والقاهرة وبيروت وذلك قبل بدء موسم الحج. وبدأت الرحلات الفعلية الجديدة في شوال عام ١٣٦٧هـ.

واعتمد نقل البريد بواسطة هذه الرحلات. وبدأت وكالات طيران الشركة السعودية في العواصم العربية الثلاثة تنظم الرحلات المباشرة إلى المدينة. وشهد موسم حج هذه السنة قدوم الحجاج من بلادهم تلك إلى المدينة مباشرة. واتسعت الخدمة في المطار لتواجهة الزيادة الجديدة في عدد المسافرين وانشئت فيه إدارة للجمارك وأخرى للبريد(١).

وفي العام التالي شب في مطار المدينة حريق دمر عددا من منشآته. بدأت النار في مطعم المطار عندما انفجر أحد المواقد، وانتشرت النار سريعاً في أرجاء المطعم فالتهمت محتوياته الخشبية، وامتدت منها إلى مكاتب الإدارة وحملت الريح شرارات منها إلى خيام العسكر المقامة قرب الصالة، ومنها امتدت إلى صالة الصيانة الصغيرة، والمدهش أنه لم تكن في مباني المطار أجهزة إطفاء حريق متقدمة لذلك لم يبذل الجنود والموظفون جهوداً ضخمة لوقف انتشار النار في انشاءات المطار الأخرى ونجحوا في حماية خزانات الوقود منها، ولم تطف النار إلا بعد أن دمرت المطعم ومكاتب الإدارة وعدداً من خيام العسكر وبعض أجهزة الصيانة. وقد قدرت خسائر المطعم وحده بعشرين ألف ريال(٢) وقد أغلق المطار لفترة من الوقت وتم إزالة الأنقاض ورممت المكاتب وأعيد تأثيثها وجهز المطار بأجهزة إطفاء حديثة منها سيارات الماء التي لم تكن موجودة من قبل. وأعيد فتح المطار بعد مدة قصيرة يستقبل رحلات الحجاج الوافدين من داخل المملكة وخارجها.

---

١) انظر جريدة المدينة ع ٢٥٨ في ١١ شوال ١٣٦٧هـ، وع ٢٦١ في ٣ ذي القعدة ١٣٦٧هـ.

٢) انظر جريدة المدينة عدد ٣٠٥ ١٠ شوال ١٣٦٨هـ.

أنشطة ثقافية:

كان لتقدم التعليم أثر في ظهور جيل نشط من الشباب المثقفين عملوا على نشر الثقافة وتطويرها في المدينة المنورة، ولم تكن لدى هؤلاء الشباب إمكانات مادية تساعدهم على تحقيق طموحاتهم، أو تجعلهم ينشؤن هيئة ثقافية لها صفة رسمية ومقر ثابت. وكانت حماستهم للإبداع ورغبتهم في توصيل مالديهم إلى الآخرين تدفعهم إلى استخدام الإمكانات المتاحة وفي مقدمتها بيوتهم وأماكن لقاءاتهم. فجعلوا منها مواقع ثقافية أشبه بالأندية الأدبية الحالية. وقد تكونت جماعتان أو بيتان تتنافسان في عقد اللقاءات الأدبية والمحاضرات وهما: الجماعة الأولى وسمت نفسها (الحفل الأدبي) وأبرز أعضائها عبد القدوس الأنصاري وأحمد الخياري وأحمد رضا حوحو. وكانت تعقد لقاءاتها مساء يوم الجمعه من كل أسبوع في منزل أحد أعضائها.

الجماعة الثانية. وسمت نفسها (جماعة المحاضرات) وأبرز أعضائها: عبد الحق نقشبندي ومحمد عمر توفيق ومحمد حسين زيدان وعثمان حافظ. وكانت تهتم بإلقاء محاضرات دورية. فتكلف أحد أعضائها بإعداد محاضرة ثقافية أو علمية، أو تستضيف أحد زوار المدينة من المثقفين الكبار في البلاد العربية وتطلب منه إلقاء محاضرة في موضوع يختاره. وكانت تعقد جلساتها مساء يوم الثلاثاء من كل أسبوع في بيوت أحد أعضائها أول الأمر. ولما كثر الإقبال عليها نقلت جلساتها إلى باحة المدرسة الناصرية(١) وقد أسهم هذا النشاط الثقافي في تنشئة الجيل تنشئة طيبة وفتحت المجال للمبدعين من الشعراء والكتاب لإظهار إبداعهم وصقله، وشجعت الطموحين على اقتحام ميدان الطباعة والنشر، وظهر من بين أعضاء تلك الحركة الثقافية من خاض

---

١) انظر جريدة المدينة المنورة ع ٣ في ١١ صفر ١٣٥٦هـ وع ٢٠، ١٢ جمادى الثانية ١٣٥٦هـ.

المغامرة الصعبة وأنشأ مجلة وجريدة لايقتصر نشاطها على المدينة وحسب بل يمتد إلى مدن المملكة الأخرى ويصل إلى مثقفيها، ثم ينطلق بعد ذلك خارج المملكة ليكون أحد أصواتها الثقافية. فظهرت مجلة المنهل، وجريدة المدينة المنورة.

مجلة ثقافية من المدينة (المنهل):

مر بنا أن المدينة عرفت لوناً من الصحافة البدائية أواخر العهد العثماني فقد كانت تصدر فيها جريدة باسم المدينة تطبع بمطبعة البالوظة كما قال اللواء إبراهيم رفعت الذي شاهد الجريدة ونقل بعض ماكتبته، وكانت تصدر في المناسبات ووقت زيارة بعض الشخصيات المهمة.

وخلال إدارة فخري باشا صدرت أعداد قليلة من جريدة الحجاز طبعت بالمطبعة التي أحضرها عبد العزيز الجاويش وشكيب أرسلان لكلية صلاح الدين.

وفي أوائل العهد السعودي ظهرت مطبعة صغيرة اسمها مطبعة (طيبة الفيحاء) أسسها عبد الحق نقشبندي وأحمد الفيضي آبادي ولكنها لم تصدر جريدة أو مجلة وقد اشتراها الأخوان عثمان وعلي حافظ لأغراض تجارية(١) وما لبث الأخوان أن فكرا في تطوير المطبعة وإصدار جريدة سياسية ثقافية إجتماعية فجمعا كل مالديهما من نقود وسافر عثمان حافظ إلى مصر واشترى مطبعة متوسطة عاد بها إلى المدينة.

وقبل أن تخرج فكرتهما إلى حيز التنفيذ كان عبد القدوس الأنصاري قد حزم أمره على إصدار مجلة ثقافية دورية سماها المنهل.

وقصة صدور هذه المجلة هي قصة طموح ومغامرة فردية جريئة، فقد كان عبد القدوس الأنصاري أحد الشباب الذين تخرجوا من مدرسة العلوم الشرعية، وقد حرص هذا الشاب على إكمال ثقافته في حلقات المسجد النبوي،

---

١) انظر المدينة المنورة في ص ١٧٨.

المنهل



ذوالحجة سنة ١٣٥٥هـ

فهرس

صفحة

المنهل

مجلة تخدم الادب والثقافة والعلم

الجزء الاول

ذوالحجة ١٣٥٥ — فبراير ١٩٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم انا نحمدك حمد الشاكرين، ونستعينك، ونستهديك سواء السبيل: ونستلهمك التوفيق في الاعمال، ونعوذ بك من الفشل والكسل والزلل، ونعتصم بك من الوقوع في مهاوي الخطأ والخطل، ونرجو منك التثبيت في المبدأ الحسن والتأييد والانجاح في المقاصد، ونسألك أن تصلي على من بعثته هدى ورحمة للعالمين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فإن من دلائل نجح المنهل أن تكون أول مجلة أدبية ثقافية من نوعها تصدر بالحجاز في عهد حضرة صاحب الجلالة (عبد العزيز) آل سعود ملك المملكة العربية السعودية الذي جعل مبدأه الحميد، أن يأخذ من أسباب المدنية الحديثة كل جيد ونافع وصالح لامته، مع الاحتفاظ بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف والاستضاءة بهديه القويم:

أول عدد من مجلة المنهل

إضافة إلى قراءاته الخاصة الواسعة، وبدت موهبته الأدبية وميوله التاريخية في وقت مبكر، ورغم أنه عمل بعد تخرجه موظفاً إدارياً في ديوان الإمارة، فقد كان يشغل قسماً من وقته في القراءة والتحصيل، ويشارك في الحلقات الأدبية التي تعقد في البيوت.

عزم الأنصاري على إصدار مجلة ثقافية شهرية لوحده، وتقدم بطلب إلى السلطات المختصة، وحصل على إذن رسمي، وأعد مادة العدد الأول، واستكتب بعض أصدقائه ومعارفه من الأدباء والمثقفين، واتفق مع الأخوين عثمان وعلي حافظ -وكانا من أقرانه وأصدقائه- على طبع العدد الأول في مطبعتهما، ويروي عثمان حافظ في ذكرياته أنه اتفق معه على أن يدفع ثلاثمائة ريال مقدماً ومائة ريال مؤجلة كلفة طبع ثلاثمائة نسخة، وصدر العدد الأول في ذي القعدة عام ١٣٥٥هـ(١).

كان عمل الأنصاري مغامرة بكل المقاييس آنذاك، فقد خاض الرجل تجربة النشر والتوزيع ومتاعبها الجمة، فضلاً عن أعباء التحرير، ووضع كل ما يملك في سبيلها، ووفى بالتزامه في أن تكون المجلة شهرية فواصل إصدار الأعداد التالية بثقة كاملة، وكانت مادتها العلمية والثقافية والأدبية المتميزة تساعدها على الانتشار تدريجياً، وكان صبر الأنصاري وجهوده الفائقة في تحمل أعباء التحرير والتصحيح والتوزيع والتمويل العامل الأكبر -بعد توفيق الله- وقد ظلت المجلة تصدر طوال حياة الأنصاري، وانتقلت معه إلى مكة المكرمة ثم إلى جدة، حيث استقرت هناك، ومازالت تصدر حتى الآن بإشراف أبنائه

وستبقى المجلة رغم تطورها الكبير وبعدها عن المدينة معلماً من معالم هذه المدينة.. ففي أحضانها نشأ، وتعلم مؤسسها، وفيها نبتت وعاشت طفولتها الأولى...

---

١) انظر: صور وذكريات ١٢٣.

جريدة المدينة المنورة:

كانت فكرة إصدار جريدة في المدينة المنورة تراود أذهان مجموعة من الشباب المثقف -ولكن- وكما يقول علي حافظ (لم يقدر لتلك المجموعة أن تفعل شيئاً، فقررت أنا وأخي عثمان أن نبدأ المغامرة في إصدار الجريدة، وأن نقتحم أسوار المشروع، وكان ماحدث بعد جهد كبير بذله أخي عثمان في السفر إلى القاهرة وشراء المطابع والحروف والأدوات، فولدت جريدة المدينة.)(١).

ولاشك أن مبادرة عبد القدوس الأنصاري بإصدار مجلة المنهل وطبعها في مطبعة الأخوين حافظ قد حثهما على التعجيل بإصدار الجريدة. وكانت تجربة طبع المجلة درساً مفيداً للأخوين فقد ثبت لديهما ضرورة تطوير العمل في المطبعة، واحضار عامل فني ليقوم بصف حروف الجريدة(٢).

كان مقر الجريدة في دكان صغير في شارع العينية مساحته ٣x٣م ولم يكن فيها أي موظف سوى صاحبيها وعامل الطباعة الفني. وكان صاحبيها يقومان بتحرير الأخبار وكتابة الموضوعات الثقافية والاجتماعية. واستكتب الرجلان الشباب المثقفين فأقبلوا على الكتابة فيها ولاسيما محمد حسين زيدان الذي أصبح محرراً رئيسياً فيها مدة من الوقت. وقد صدرت الجريدة أسبوعية وظلت كذلك سنوات طويلة. وحملت مع الأخبار السياسية الأخبار الاجتماعية ومقترحات أهل المدينة. وكان لها أثر طيب في تنبيه المسؤولين إلى عدد من القضايا والمشاريع(٣).

---

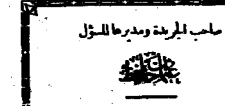
١) انظر فصول في تاريخ المدينة ٢٦٤.

٢) صور وذكريات ص ١٢٣.

٣) انظر السابق نفسه.

(العدد ١) — يوم الخميس ٢٦ محرم الحرام سنة ١٣٥٦ الموافق ٨ أبريل سنة ١٩٣٧ — (السنة الأولى)

صاحب الجريدة ومديرها المسؤول



عنوان المراسلات

المدينة : ادارة جريدة (المدينة المنورة)

برقياً : المدينة — الصحافة

المدينة المنورة

(صحيفة الشعب العربي السعودي)

تصدر أسبوعياً

لا ترد الرسائل لاصحابها نشرت أم لم تنشر

رئيس التحرير : أمين مدني

الاشتراكات

٣ ريالات سعودية — في المملكة العربية السعودية

ثمانية شلنات انكليزية — في سائر الاقطار الاخرى

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم ونستهديك الصراط المستقيم ، ونستلهمك الصواب والتوفيق ، ونتقي برشدك مواقع الزلل والخطأ والغرور ، ونصلي ونسلم على خاتم هذا العالم وسيده محمد ﷺ . وبعد فقد قيض الله لهذا الشعب الكريم والبلد المقدس زعيماً جليلاً وبطلاً كبيراً ، ومصلحاً حكيماً ، وملكاً عظيماً ، طلع من شرق الجزيرة العربية مشرقاً بنور الايمان الصادق والعزيمة الماضية ، والامل الباسم ، فنهضت العروبة في اشرف مواطنها وأقدسها ، آمنة مستبشرة ، معتزة فخورة ، مرحبة بهذا السيد القادم ، والعامل الفذ والملك المهيب (عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود) ايده الله ونصره الذي أهاب بالبلاد العربية السعودية ، فهب ابناؤها السابقون في تفان وجد . الى حيث العمل الواسع الذي فتحت امامهم ابوابه وطرقه ، والامل المنشود الذي دنا منهم فتدلى .

والبية للواجب واجابة لداعي النهوض اندفعنا نحقق أمنية الشباب العربي السعودي في انشاء جريدة (المدينة المنورة) في هذه البلدة المباركة والحرم المقدس .

وبما لاقيناه من رجال حكومتنا الافذاذ وشعبنا العزيز النبيل من تشجيع وعطف وتقدير استطعنا ان نمهد الامر الشاق والطريق الوعر في تهيئة مطبعة كبيرة تؤمن حياة صحيفتنا هذه وتخول لنا الاشتراك مع رصيفاتها في احياء ماضي الحجاز المجيد اليوم كان يزهو بروائع الادب وجلائل الاعمال .

ولا شك ان للصحافة أثرها العظيم في تقويم الافكار وتهذيب الاخلاق ونشر العلوم ، وهي اليوم منبر الامم وترجمان ضمائرهم ، ولسان شعورهم وخواطرهم ، ومرآة اخلاقهم ، وآدابهم ، وسجل اعمالهم .

وانا لنرجو من شيوخنا المفكرين ، وقادتنا العاملين ، وادبائنا النابهين واخواننا المثقفين ان يعدوا صحيفتهم هذه ويرشدوها الى الواجب فانها اللسان الذي به ينطقون وموضع بحثهم ومحل تفكيرهم . وما نشأنا الا لخدمتهم واعلان نهضتهم فليس لنا رائد ولا هدف سوى خدمة هذه البلاد المقدسة والعرب والمسلمين .

هذا أهم ما نهتم به والاساس الذي قام عليه بناء هذه الصحيفة التي نعدها ملكاً لابناء المملكة العربية السعودية شيباً وشباباً لافرق بين المكي والمدني والرياضي والجدي والقصيمي والعسيري ، بل انا نعدها لاوسع من هذا فهي تقبل كل مقال عربي قيم ، وكل رأي اسلامي سديد القصد منه النفع للامة والاصلاح للأمول .

وانه لمن واجبي ان اعلن بعد هذا الشعور النبيل والتشجيع الكبير اللذين لاقيناهما من رجال حكومتنا السنية وشعبنا الكريم واللذين كانا العامل الاقوى في نجاح هذا المشروع .

ثم لا يفوتني ان اقدم من صميم قلبي جزيل الشكر وعاطر الثناء الذين بذلوا انفسهم وشغلوا اوقاتهم بتحرير هذه الصحيفة فشاطروني مسؤليتها الادبية وهم الافاضل :

السيد امين مدني رئيس التحرير . الاستاذ ضياء الدين رجب ، الاستاذ محمد زيدان ، السيد علي حافظ . اعضاء هيئة التحرير

والله نسأل ان يثبت قدمنا ويوفقنا على السعي في أداء هذا الواجب الالاد ولله التوفيق .

علي حافظ

صقر الجزيرة وعاملها الفذ

(جلالة ملك المملكة العربية السعودية)



الا فاقرؤوا (صفحة) المجد واذكروا	جلال المعالي في (المليك) المحبب
الا فانظروا (أمة) عربية	يقودها نحو العلا (معتز) يعرب
الا فانظروا الآمال رمزاً مجسماً	تنازعه دوماً الى كل مطلب
و(ذي صفحة) في مهد الفجر أشرقت	تطير حتماً بالولاء المحبب
لقد اخلفتنا بالثناء ونهتنا	صنيعة ملك عبقري مدرب
يريد الفاني العروبة جهده	ليعلي بشيء ، العلى مهذب

ضياء الدين رجب

كياننا الادبي في العالم العربي

لماذا لا نكتب ؟

ما اكثر ما تنطق العامة بالحكمة وتمثل الشاعر الرائع . هم يقولون صاحب صناعتين يكذب . وان اشتغل بثالثة افتقر . وها انا اشتغل بامور كثيرة فلا انا واحداً منها فتبقى كلها قصيرة مبتورة . وهذا كاتب يفكر في مواضيع متعددة وتصطرم في ذهنه آراء وافكار متعارضة : فلا يستطيع ان يكتب موضوعاً واحداً . هو دائم التحرك والاضطراب . دائم الحيرة والتردد . وهل هذا بلاء الفرد أم هي بيئة مجموع تقتل الخاطر الضعيف ؟ وهل هي مصيبة اصيب بها الشباب الناشئ فلا تراه يتقدم خطوة الا ويتأخر خطوات ولا تراه يسير شوطاً في سبيل غايته ويبلغ غرضه الا ويرجع القهقرى خائراً حائراً كئيباً . اهو فقر في الثقافة يمنع الانتاج ؟ ام جبن يمنع النشر ؟ ام خوف من شعور خفي بالنقص ؟ لا ادري أكل هذا حق وصواب ؟ ام هو غير ذلك .

الحق الواقع رغم تعدد الاسباب المتقدمة : ان تقاعس البعض عن الانتاج مع انه غني بعلمه وادبه وخوف الآخرين من النقد فلا يغترون مع انهم يكتبون ويحررون منع من ان يكون لنا كيان أدبي في العالم العربي . كيان ينبغي ان يكون . فمكانتنا في البلاد الاسلامي كشعب مسلم يسكن أقدس الارض وأطهر البقاع يقطن مهبط الوحي والتنزيل ومنبع النور والعرفان توجب علينا ان ننتج وننشر ما ننتج فندعم بانتاجنا المقدسة

(البقية في الصفحة الرابعة)

الصحافة

اذا نظرنا الى الصحافة وكيفما بحثنا عنها وتدبرنا مستلهمين تجدها ذات الفطنة والبلاغة ذات المكانة الرفيعة والمقام السامي ذات العمل المثمر والنفوذ الكبير والهيبة الخطيرة ، مالبثت ان وطدت عرشها على متكاف النفس حتى اخذت الامم تؤسس لها المكاتب والدور قائمة لما صدروها مستعينة بها في جليل امورها وعظيم مقاصدها ، كثيرة فيها ابناتها وآرائها مسجلة فيها تاريخها وأدبها وحضارتها ، وحتى سمعنا بجريدة (ريليكرافيت) الالمانية التي تصدر ملاحق اضافية تتراوح مابين العشرة الى العشرين يومياً زيادة على العدد الذي يظهر كل صباح في ثمانين صفحة واذ يتقسم بالمبلغ المالي الذي يحصل عليه (ولولها) من ألمانيا الشراء (الجورنال) الافرنسية ، ولذا بتنا نسمع بزار عصبة الامم المواثق على احداث مؤتمر الصحافة بجانب دارها وانا بالمؤتمر يضم اعضاء من اغلب الامم العظيمة في الشرق والغرب .

اجل ليست الصحافة لهواً ولا عبثاً ولا هي بالامر التافه فلا يستحق العناية والتقدير فانها عنوان الامة ومسرح تفكيرها ومعرض آرائها وخواصها وهي دعامة تدعم كرامة الامة وتعزز مكانتها وتناصر سياستها وتمجد مفاخرها وتبدد ما يثار حولها من شبهات ومفتريات وانها توشح اواصر التفاهم والتعارف بين مختلف الطبقات ، وتبث الروح والحماس والشعور . وفيها وجد الساسة الطريق السهل القريب لاذاعة ما هم حريصون على اذاعته . وفيها وجد العالم والاديب والفاضل وسيلة لنشر المواعظ والادب والفضائل . وفيها تحصل التاجر على ما يهمه من اخبار وتشرح السوق اتباعه وفكاهته وفيها خاطب الزعماء شعوبهم التي تميز عنهم ، وعلى صفحاتها تفاهمت الامم وتفاهمت وحلت معضلات صعاباً لولا الصحافة لاستحال وراءها فتح للمصاعب ومعلم المطلوب . ولقد قال احد نواب البرلمان الانكليزي :

(اني ان أردت ان اقدم للاجيال القادمة برهاناً على المدنية الانكليزية في القرن التاسع عشر قلت بنا كرم مواثيقنا ولا بمكتبنا الشديدة ولا ابنيتنا العظيمة ولا البرلمان الذي نحن فيه . لا بل ان عدداً واحداً من اعداد التيمس يكفيني) .

فاقيمة عدد واحد من جريدة التيمس حتى يفضل ابنية لندن ومواني بريطانيا وبرلمان الامبراطورية الانكليزية بأجمعها لولا انه يحمل افكاراً ابهى من زخرف الابنية ، وادباً وعلماً اروع من السكك والمواني وافصح تعبيراً من كل اثر يتقل للاجيال المقبلة .

هذا واننا ان تكلمنا عن الصحافة عموماً . ولاحظنا تطورها وانتشارها وما دخل عليها من تحسين . وما لاقته من عناية واجلال وتمجيد . تكلفنا بحثاً طويلاً وحديثاً سهباً . فندع صحافة الغرب والشرق وما ينقل لنا عنها وترجم لنا منها علماً وأدباً وتاريخاً وسياسة ولننظر الى صحافتنا العربية وما تسديه لنا وتحفظه منها من تاريخ كان مغلقاً فاترته . وأدب كان كامناً فاثرته والافكار كانت محتكرة فنشرتها . وفوق هذا تمهد سبل التعارف والتفاهم بين ابناء العروبة على شط الدار وبعد المزار .

«البحث صلة»

أمين مدني

دفن بقايا الخندق:

كانت الظروف الصعبة التي تمر بها البلاد أقوى من أن تقوم فيها هيئة لرعاية الآثار التاريخية الكثيرة في المدينة المنورة، كما أن تلك الآثار كانت تثير حساسيات عقدية متضادة لدى كل من الغيورين على نقاء العقيدة الإسلامية من البدع والشوائب والجاهلين بأمور العقيدة.

فالعوام والجاهلون بأمور العقيدة لاينظرون إلى الأثر التاريخي الإسلامي نظرة تقدير واعتبار وحسب، وإنما ينظرون إليه نظرة تقديس وتعبد، وربما يبتدع بعضهم أدعية وعبادات ترتبط بذلك الأثر مثل أنوع خاصة من التسبيحات أو الصلوات، وهذا أمر خطير يفتح الباب لانحرافات واسعة قد تصل إلى درجة الشرك.

والغيورون على سلامة العقيدة الإسلامية يحسبون حسابات بعيدة، ويرون أن أي تساهل يُسمح به الآن سيمتد مع الزمن ويتحول إلى انحراف خطير، لذا ومن باب سد الذرائع وقطع الطريق على الاحتمالات السلبية، فإنهم يعملون على إزالة ماقد يؤدي إلى الانحراف، متأسين في ذلك بالسلف الصالح، فعمر ابن الخطاب رضي الله عنه قطع الشجرة التي جرت تحتها بيعة الحديبية عندما رأى بعض الجهلة يتبركون بها.

ومن المعالم التي راحت ضحية تلك الحساسيات بقايا الخندق الذي جرت حوله غزوة الأحزاب.

والمعروف أن هذا الخندق دفن تدريجياً في عهد الخلفاء الراشدين، ثم أعيد حفره، أو حفر ماردم منه قبيل موقعة الحرة عام ٦٣هـ، ثم ردم ثانية وأعيد حفره في ثورة محمد ذي النفس الزكية في عهد أبي جعفر المنصور.

ومع مرور الأيام دفنت معظم أجزائه، ولم يستخدم في الدفاع عن المدينة، خاصة بعد أن بني سورها بعيداً عنه.

وفي العصر الحديث، توسعت المدينة ووصل العمران فيها إلى مشارف

الخندق عند جبل سلع، ثم تجاوزه إلى منطقة القبلتين غرباً وشمالاً، فدخلت أجزاء بسيطة منه في المنطقة العمرانية، وأصبحت هذه الأجزاء أشبه بحفر عميقة تقطع الطريق وتتجمع فيها مياه الأمطار الى أن تجف بحرارة الشمس، وتلقى فيها الفضلات وبقايا الهدم والبناء في المناطق المجاورة، وتحول هذا المَعْلم التاريخي إلى مجمع للنفايات والمياه الملوثة وموطن للبعوض والجراثيم.

لذا قررت البلدية إنهاء هذه الحالة المتردية، وإغلاق مصدر من مصادر المرض فدفنت الحفر المتبقية والداخلة في منطقة العمران في شهر محرم عام ١٣٦٠هـ(١) غير أنه من المؤسف ألا يهتم مهندسو البلدية الذين عاصروا هذا الدفن بتحديد تلك المعالم ووضع خريطة تاريخية لها، لذلك أصبح تحديد موقع الخندق بشكل دقيق اليوم عملية صعبة تقوم على الظنون والترجيحات.

لفتات كريمة:

كان التغيير الكبير الذي حدث في حياة أهل البادية جزءاً من التغيير الشامل في المملكة: الانتقال من مرحلة القلق والتمزق والحروب إلى مرحلة الأمن والاستقرار والبناء، وكانت بادية الحجاز ميداناً كبيراً من ميادين التغيير وعاملاً مهماً في نجاحه، فهي المصدر الكبير للقلق والاضطرابات سابقاً، سواء بتهديد أهلها للمدن وغاراتهم عليها، أو بتعرضهم لقوافل الحجاج والمسافرين.

وقد نجحت خطة الملك عبد العزيز الأمنية في إقرار سكان البادية في مناطقهم، وإلغاء الغزو والنهب وقطع الطريق من حياتهم، وتحويلهم إلى الاهتمام بمواشيهم وزراعاتهم القليلة إن كانوا في مناطق زراعية، وكانت قوة الدولة وعقوبتها السريعة والحازمة لكل من يخل بالأمن هي الضمان الأكبر لنجاح الخطة واستمرارها.

غير أن طبيعة البادية القاسية، وقلة الأمطار في بعض السنوات، وعدم

---

١) انظر جريدة المدينة عدد ١٩٠ في ٢١ محرم ١٣٦٠هـ.

وجود إمكانات لاستصلاح الأراضي وحفر الآبار العميقة وإنشاء مزارع جديدة تستوعب الأعداد المتزايدة من أهل البادية.. كل هذه العوامل جعلت الحياة الاقتصادية لسكان البادية تمر بفترات اضطراب شديدة، فقلت الأمطار ونفقت بعض الماشية، وموت أعداد من الماشية يوقع بالبدوي مصائب كثيرة، ويجعله في حاجة الى لقمة العيش، خاصة بعد أن انقطع الدخل الكبير السابق من النهب و(الإتاوات) التي كانوا يفرضونها على الحجاج والمسافرين.

وهنا ظهرت لفتة كريمة على المستويين: الحكومي والأهلي، فالضائقة التي تحل بسكان البادية بين الحين والآخر جعلتهم في حاجة شديدة إلى المساعدة، ولم تكن ميزانية الدولة قادرة على المساعدات المطلوبة، لذلك تشكلت لجان من الأهالي بمباركة الدولة وتشجيعها، لجمع التبرعات ومساعدة فقراء البادية، ورأس اللجنة في المدينة المنورة رئيس بلديتها آنذاك مصطفى عطار، وقامت بحملة جمع للتبرعات النقدية والعينية، وجاد أهل المدينة بمبالغ سخية، وأسهم الموظفون بجزء من رواتبهم(١) ولا شك أن هذه اللفتة الكريم هي مساعدة إنسانية طيبة من جهة، وإسهام في تعزيز الخطة الأمنية من جهة أخرى، تحفظها من انتكاسات خطيرة كان من الممكن أن تقع إذا لم يجد أهل البادية عوناً، واضطروا بضغط الحاجة إلى العودة إلى ماكانوا عليه قبل عقدين من الزمن، فذكريات (الإتاوات) مازالت في أذهانهم، والجيل الذي كان يفرضها مازال معظمه حياً، بل إن بعضهم يحدث بها ويفخر ببطولات شريرة زائفة في مهاجمة الآمنين.

لقد كانت هذه اللفتة الكريمة وأمثالها عوناً ووقاية وإسهاماً رسمياً وشعبياً في تعزيز خطة أمنية أثبتت نجاحها تاريخيا.

ريادة واستجابة (مدرسة الصحراء):

من الظواهر اللافتة للنظر في تاريخ المدينة الحديث وجود عدة ريادات في

---

١) انظر: أم القرى ع ٩٦١، في ٢٤ جمادى الأولى ١٣٦٢هـ.

ميادين الأنشطة الاجتماعية والثقافية، حيث ينتبه أحد أبناء المدينة لإحدى حاجات المجتمع الكبيرة، التي لايمكن أن يسدها فرد لوحده، فينهض لها، ويبدأ عملا ريادياً يستنهض الآخرين للإسهام فيه، ويجتهد ويقدم التضحيات الكبيرة حتى يبدأ الخطوة الأولى فيستجيب له الناس.. وبخاصة عندما يرون جهوده وإخلاصه وتضحيته ويساعدونه في العمل الذي قام فيه.

على هذا النحو قامت عدة مدارس وبعض المشاريع.. فمدرسة العلوم الشرعية كانت بريادة من السيد أحمد الفيض آبادي، ومشروع دار الأيتام بريادة من عبد الكريم الدادا، والجمعيات الأدبية بريادات متوازية من عدد من المثقفين، والريادة المتميزة التي لايصح أن تغيب عن تاريخ المدينة الحديث، ريادة مدرسة الصحراء.

وقبل الحديث عن هذه الريادة أذكر هنا أن الريادة ماكانت لتتم وتصبح ريادة وتنجح المشاريع التي قامت بها لولا استجابة الآخرين أيضاً، صحيح أن الرائد اجتهد وضحى وعمل الكثير، ولكن لو لم يقتنع الآخرون بعمله ويتحمسوا له ويسهموا في مشروعه لانقطع عمله ووئد المشروع في مهده، وهذا يعني أن الاستجابة موجودة في النفوس، وأن أهل المدينة لديهم الاستعداد الكامن الذي ينتظر المحرك القوي الصادق.

وأما مشروع مدرسة الصحراء فمتميز بحق لأنه أول مشروع ينظر إلى البادية، إلى أولئك الذين هم أبعد مايكون عن التعليم والثقافة وأزهد الناس فيها آنئذ.. إلى الذين كان قَطَع الطريق جزءاً من حياتهم العادية، لذلك فالانتباه لهم والاهتمام به في وقت مازالت المدينة نفسها في حاجة إلى كثير من الإهتمام ريادة متميزة.

كان رائد هذا المشروع الأخوان محمد وعثمان حافظ، وهما اللذان أسسا المطبعة في المدينة، ثم أسسا جريدة المدينة.

خطر لهذين الرائدين إقامة مدرسة في أحد المراكز الريفية التي تتوسط

منطقة سكانية واسعة، وشد اهتمامهما موقع قرية المسيجيد على بعد ٨١ كم من المدينة في طريق مكة، فالقرية كبيرة نسبياً وهي محطة من محطات استراحة القوافل المسافرة إلى جدة ومكة، وتتوزع حولها مضارب وهجر وقرى صغيرة عدة.

كان في القرية مبنى حكومي كبير أعد في الأصل ليكون فندقاً لضيوف الحكومة، ومركز خدمات للقوافل العابرة، وقد أجر لأحد المتعهدين فجعله المستأجر مقهى واستراحة للعابرين.

بدأ الرائدان تنفيذ فكرتهما عام ١٣٦٥هـ فاتفقا مع مستأجر المبنى أن يؤجرهما غرفة قصية فيه لتكون نواة المدرسة، وزارا عمدة القرية والتقيا بعدد من وجهائها وشرحا لهم الفكرة، وبينا فوائدها العظيمة لهم ولأبنائهم، واستطاعا إقناع عدد من الآباء بإرسال أبنائهم وتعهدا بتأمين جميع الاحتياجات وبدفع معونة مالية للطلاب الذين يعولون أهاليهم.

وبالفعل بدأت المدرسة عملها في شهر شوال عام ١٣٦٥هـ بـ ١٣ طالباً وبمدرس واحد، استطاعات إقناعه بالعمل فيها، وهو الأستاذ سالم داغستاني مدير المدرسة.

نمت المدرسة بسرعة، وأصبحت احتياجاتها أكبر من طاقة المؤسسين، لذا قاما بحملة إعلامية واسعة في صحفية المدينة المنورة، وفي صحيفة أم القرى، وطلبا التبرع للمدرسة وطلابها، ونشرا الميزانية المفصلة، فجاءتهما التبرعات من الأهالي، وكانا ينشران قوائم بأسماء المتبرعين والمبالغ التي تبرعوا بها عرفاناً للمتبرعين، وحضاً للآخرين، ونجحت خطتهما الإعلامية

وأصبحت واردات المدرسة معقولة جداً تفي بحاجاتها السنوية(١) وكانت هذه المدرسة أول مدرسة نظامية تطبق منهاج وزارة المعارف في البادية.

وما لبثت الحكومة أن شجعت المشروع وسلمت المبنى كاملاً لإدارة المدرسة بعد انتهاء مدة عقد الإيجار للمتعهد، فاتسعت المدرسة وازداد عدد طلابها باضطراد، وبلغ عدد الذين درسوا فيها حتى عام ١٣٨١هـ (٩٠٣) طالباً، واصل عدد منهم الدراسة في المعاهد والجامعات، وتسلموا وظائف وإدارات مهمة(٢) وقد ساعدت الدولة المشروع أول الأمر بدفع رواتب الطلاب (نصف ريال يومياً لكل طالب) ثم تسلمت المشروع وحولته إلى مدرسة حكومية عام ١٣٨١هـ.

ويذكر المؤسسان أن هذا المشروع كان أول مدرسة أسست في البادية وأول مدرسة تدفع الدولة لطلابها المرتبات(٣).

مستشفى خيري في المدينة:

بدأت أعداد السكان تتزايد في المدينة، ولم يكن فيها سوى مستشفى حكومي واحد أصبح مزدحماً بالمرضى والمراجعين، وفي مواسم الزيارة والحج يصبح الأمر أشد صعوبة، فرغم وجود بعثات طبية مرافقة لبعض

---

١) نشر مؤسسا المدرسة ميزانيتها عام ١٣٦٦هـ أي بعد عام من تأسيسها وملخصها كما يلي: ميزانية شهر ربيع الثاني ١٣٦٦هـ:

الموجودات ٦١٦٣ ريالا و ٥١١ روبية.

التبرعات العينية ١٠٠٠ دفتر، ٥٠ مرساماً و ١٠٠ جزء عم، وثوب خام لكل طالب.

وهذا يدل على استجابة جيدة من أهل المنطقة. انظر جريدة المدينة عدد ١١٥٨ في ١٨ جمادى الثانية عام ١٣٦٦هـ.

٢) انظر فصول من تاريخ المدينة ٢٤٦-٢٥٤ صور وذكريات عن المدينة ١٨٥-١٩٠، جريدة المدينة عدد ١١٢٥ في ٢٥ شوال ١٣٦٥هـ.

٣) فصول ٢٤٧.

حجاج البلاد العربية وغير العربية، إلا أن الحاجة إلى مزيد من المرافق الطبية ملحة في هذه الأوقات، لذلك تداعى عدد من أبناء المدينة إلى إقامة مستشفى خيري.

ونشرت فكرة المشروع في الصحف، وباركتها الدولة، وتشكلت لجنة برئاسة مدير الصحة محمد علي الشواف، وعدد من وجهاء المدينة، وبدأت تعد للمشروع، وأعلنت عن فتح باب التبرعات، وجاءت تبرعات عينية من الملك عبد العزيز (٨٢ ألف حجر وألفي إردب نورة وسيارة نقل كبيرة) كما تبرع عدد من المحسنين كان من أبرزهم تبرع من الحاجة عائشة خضر وابنها بمبلغ قدره عشرة آلاف جنيه فلسطيني، ويعادل مائة ألف ريال عربي آنذاك(١) وقد أنجز المستشفى وافتتح بعد ثلاث سنوات من العمل وجمع التبرعات.

مستشفى من الملك فاروق:

وفي الوقت نفسه بدأ العمل في بناء مستشفى آخر تبرع به الملك فاروق ملك مصر بعد زيارته للمدينة المنورة عام ١٣٦٤هـ وشكلت لجنة خاصة للإشراف على البناء برئاسة المهندس علي شحادة، وعهدت الحكومة المصرية بالبناء للمقاول علي عزت إبراهيم.

واختيرت المنطقة في المناخة غير بعيد عن المستشفى الخيري، وبدأ صب الأساسات عام ١٣٦٧هـ وتواصلت عملية الإنشاء قرابة ثلاث سنوات أيضاً، وافتتح المستشفيان في وقت متقارب عام ١٣٧٠هـ(٢) وقد خصص مستشفى الملك فاروق للأطفال والنساء بينما صار المستشفى الخيري عاماً يحوي تخصصات عدة.

---

١) انظر جريدة أم القرى ع ١١١٧ في ٢٧ شعبان ١٣٦٥هـ، وانظر العدد ١١٣١ في ٨ ذو الحجة ١٣٦٥هـ، والعدد ١٦٦٨ في ٢٨ شعبان ١٣٦٦هـ، وجريدة المدينة ع ٢١٤، في ١٤ ذو القعدة ١٣٦٦هـ.

٢) انظر جريدة المدينة ع ٢٢٢ في ١٨ محرم ١٣٦٧هـ.

نجدة لفلسطين:

كانت الأحداث في فلسطين تتلاحق في غير صالح العرب والمسلمين، فخطة التهويد جارية بمساعدة الاحتلال الإنكليزي، وفقاً لما نصت عليه وثيقة وعد بلفور عام ١٩١٧م، واليهود يتقاطرون من أنحاء العالم ويقيمون المستعمرات ويشكلون العصابات، والعمل السياسي في الساحة الدولية يسير بتوجيه من الرئيس الأمريكي روزفلت لإنشاء دولة إسرائيل وإضفاء الشرعية الدولية عليها، وصدر قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية في شطرها الأول، ودولة عربية في شطرها الآخر، وأعلن عن قيام دولة إسرائيل واعترفت بها أمريكا وروسيا في الساعة الأولى لقيامها، وثارت ثائرة الجماهير العربية والإسلامية، وبدأت الحملات الواسعة للتبرع والتطوع للجهاد، وكانت المدينة إحدى مراكز الحركة الرسمية والشعبية، فقد جمع وكيل الأمير عبد الله بن سعد السديري وجوه أهل المدينة في منزله وتحدث عدد من الحاضرين عن الواجب الإسلامي لإنقاذ ثالث الحرمين، وشكلت لجنة لمساعدة منكوبي فلسطين برئاسة وكيل الإمارة وعضوية كل من: عبد العزيز الخريجي، وعبد العزيز البري، وإبراهيم عطاس، وحمزة خليل، وعبد العزيز أسعد، ومصطفى عطار، والسيد حبيب، ومحمد صالح الخريجي، وعين أميناً للصندوق، وعلي حافظ وعين سكرتيراً للجنة وفتح باب التبرع، وتحركت النفوس وتوالت التبرعات بسخاء كبير، وبلغ مجموع التبرعات في تلك الليلة مائة وستين ألف ريال، وهو مبلغ ضخم بمقياس ذلك الوقت، وأعلن أن اللجنة ستواصل استقبال التبرعات من أهل المدينة لترسلها الى اللجنة العليا لمساعدة منكوبي فلسطين، وليتم تحويل جملة المبلغ إلى جهاتها، وقد استمرت حملة التبرعات مدة طويلة وارتفع الرقم عدة أضعاف، فكانت نجدة أهل المدينة

لإخوانهم في فلسطين قوية وسخية(١).

التوسعة السعودية الأولى للمسجد النبوي:

مر بنا أن الملك عبد العزيز عندما زار المدينة لأول مرة بعد دخولها في السيادة السعودية أمر بإزالة آثار الحصار والحرب التي بقيت من عهد فخري باشا، وأن ترمم الأجزاء المحتاجة للترميم، وفي عام ١٣٤٨هـ رفع إلى الملك عبد العزيز بأن بعض أسطوانات المسجد من الجهة الشرقية في حاجة إلى تدعيم فأمر بإجراء اللازم فشدت الأسطوانات بسوارات حديدية قوية.

وفي عام ١٣٥٤هـ وبعد تحسن العلاقات المصرية السعودية عرضت وزارة الأوقاف المصرية أن تقوم ببعض الترميمات في المسجد، وكان قد تجمع لديها مبلغ كبير من واردات أوقاف الحرمين في مصر، فوافقت الحكومة السعودية، وحضرت مجموعة من المهندسين والفنيين المصريين، قامت بترميم الأعمدة والمآذن والمداخل وطلاء الجدران والنقوش(٢).

زوبعة عاطفية:

ومرت سنوات وإدارة المسجد النبوي لاتألو جهداً في العناية بالمسجد وإجراء الترميمات الصغيرة اللازمة، وفي عام ١٣٦٨هـ قدم بعض الزوار المصريين إلى المدينة المنورة ورأوا في بعض أعمدة الجانب الشمالي من المسجد تشققات صغيرة، فلما عادوا إلى مصر نشروا في الصحف المصرية مقالات لاتخلوا من المبالغة والانفعال عن تلك التشققات، ورأوا أنها تنذر بسقوط المسجد، وتنادوا لإنقاذ مسجد رسول الله ﷺ، ويبدو أن بعض محرري الصحف وجدوا في تلك القضية مادة إعلامية مثيرة، فأفاضوا فيها واستثاروا عواطف الجماهير، وانتقلت القضية إلى المساجد، وتحمس لها الخطباء، وتحولت النداءات العاطفية إلى مقترحات ومشاريع، وتشكلت لجنة

---

١) انظر جريدة المدينة ع ٢٢٤، ٢ صفر ١٣٦٧هـ.

٢) انظر: آثار المدينة المنورة ص ١٠٣، والمسجد النبوي عبر التاريخ ص ١٨٥.

لجمع التبرعات، ونشرت إعلاناتها في الصحف والمساجد، وبدأت تتلقى التبرعات السخية، حدث ذلك كله دون أن يرجع أحد إلى الجهة القائمة بأمر المسجد النبوي، ودون أن تصدر تقارير فنية تثبت صحة القضية أو بطلانها، وتظهر حقيقة الوضع في المسجد النبوي، ورفعت التقارير بذلك إلى الملك عبد العزيز، فانزعج الملك من تلك الضجة، وأمر بالإبراق الى رئيس الوزراء المصري لوقف الضجة الإعلامية، ورد التبرعات إلى أصحابها، وإعلامه بأن الملك عبد العزيز سيقوم بإعمار المسجد النبوي من ماله الخاص(١) وكلف مدير الإنشاء والتعمير الشيخ محمد بن لادن بدراسة وضع المسجد النبوي ورفع تقرير مفصل عنه، وخلال الاتصالات اللاحقة بين الحكومتين المصرية والسعودية قبلت الحكومة السعودية مساعدات فنية تتمثل في مجموعة من المهندسين المدنيين والمعماريين لتشارك في دراسة حالة المسجد ولوضع المقترحات المناسبة، فأوفدت وزارة الأشغال المصرية عدداً من المهندسين الذين التقوا بالشيخ محمد بن لادن، وحضروا إلى المدينة معه، وقاموا بدراسة دقيقة متأنية لمبنى المسجد النبوي، وأجروا على أجزائه عدة اختبارات فنية، ووضعوا تقريراً شاملا سلموه إلى الشيخ محمد بن لادن لرفعه إلى جلالة الملك.

تقرير المهندسين المصريين:

بين تقرير المهندسين المصريين أن رطوبة خفيفة تسربت إلى الجدار الغربي للمسجد من المجاري المجاورة له، وأنها أحدثت فيه تآكلا خفيفاً وكذلك أحدثت بعض التشقق في عدد من سواري الجهة الشرقية والشمالية، وعزا التقرير السبب إلى تقصير المهندسين الذين أشرفوا على العمارة

---

١) انظر هاشم دفتردار وجعفر فقيه: توسعة الحرم النبوي الشريف ص ٣٤، وانظر جريدة المدينة ع ٣٧٥ في ٨ جمادى الأولى ١٣٧٠هـ و ع ٣٧٦ في ١٥ جمادى الأولى ١٣٧٠هـ.

العثمانية الأخيرة، فقد غفلوا عن وضع عازل يحمي الجهة الغربية من تسرب الرطوبة، واقترح التقرير إزالة الأجنحة الثلاثة للمبنى الأصلي، وهي: الرواق الشرقي، والقسم الشمالي، والرواق الغربي، والإبقاء على القسم الجنوبي، والتعويض عن الأقسام المزالة ببناء جديد أوسع يمتد من نهاية المبنى الجنوبي مسافة ١٢٨ متراً، ويشمل رواقاً شرقياً وآخر غربياً، ويصل بينهما رواق شمالي طوله ٩١ متراً، كا يبنى جدار في الجزء الغربي يمتد إلى باب السلام عوضاً عن الجدار الغربي القديم، ويزيد في المساحة الغربية شيئاً بسيطاً، فتصبح مساحة التوسعة الجديدة كلها ١٢٢٧١ متراً مربعاً، ورفع التقرير إلى الملك عبد العزيز فوافق عليه وأمر بوضع التصميمات والخرائط، وبدء العمل بإشراف الشيخ محمد بن لادن ومستشاروه معهم حتى توصلوا إلى صيغة نهائية، وبدأ العمل وفقها، فهدم جانب من الجدار الغربي والجناح الشمالي الغربي، حيث ظهر التشقق وآثار الرطوبة المتسربة.

خلاف بين المهندسين

وما لبثت وزارة الأشغال المصرية أن أرسلت مجموعة أخرى من المهندسين لتعاضد المجموعة الأولى، فدرست هذه المجموعة المشروع ورأت أن تتجاوزه، واقترحت هدم مبنى المسجد كله باستثناء الحجرة النبوية، وإعادة بنائه بتصميم جديد يرتفع فيه السقف ٢٤ متراً، أي بزيادة عشرة أمتار عن وضعه الحالي، وحاولت اللجنة الجديدة إقناع الشيخ محمد بن لادن المشرف العام على المشروع برأيها، ونشرت مقترحاتها في بعض الصحف المصرية في محاولة لكسب الرأي العام معها وفرض مقترحاتها، غير أن اقتراح هدم المبنى الجنوبي -وهو القسم الذي يضم آثاراً قديمة كثيرة- أثار اعتراضات شديدة في المدينة وأحدث لغطاً واسعاً، ورفع المعترضون العرائض إلى الملك عبد العزيز، وشارك في الاحتجاج عدد من المقيمين والمجاورين والزائرين وكان بينهم مهندسون باكستانيون ذوو خبرة طويلة، فأمر الملك

مدير الإنشاء والتعمير محمد بن لادن بالنظر في القضية، ورأى محمد بن لادن أن يناقش الأمر مع الأطراف المختلفة فعقد اجتماعاً بين المهندسين المصريين القدماء والجدد والمهندسين الباكستانيين، ونوقشت القضايا الفنية مناقشة طويلة وعميقة، وتعددت اللقاءات وكثرت الآراء، وكان بعضهم متمسكاً بإزالة المبنى كله وحفر أساس عميق (٢٥ متراً) ليتحمل المبنى الجديد الضخم، وبعضهم رأى أن الأرض قوية لاتتطلب ذلك العمق، وبعضهم الآخر تمسك بالإبقاء على المبنى الجنوبي على الأقل، واستدعى محمد بن لادن بعض الجيولوجيين لدراسة طبقات الأرض في المنطقة، فقرروا أن الأساس ينبغي ألا يزيد على سبعة أمتار، وأن يظل ارتفاع المبنى على وضعه الحالي أي أربعة عشر متراً، واستغرقت مناقشات المهندسين بقية عام ١٣٦٩هـ وكانت أخبارها تتسرب إلى بعض أهل المدينة والمهتمين بالقضية وتنتشر معها الآراء والأقوال، وكانت الصحافة المصرية تتابع القضية من وجهات نظر مختلفة وتنشر الآراء والاجتهادات، فأحدث ذلك لغطاً مزعجاً، فأمر الملك عبد العزيز باستقدام مهندسين باكستانيين من أولي الخبرة لدراسة القضية ووضع تقرير مفصل.

وتم الاتصال بالحكومة الباكستانية لهذا الشأن فأرسلت لجنة تتألف من ثلاثة مهندسين درست حالة المبنى كما درست الخرائط والتصميمات والمقترحات التي قدمتها اللجان السابقة، ووضعت تقريراً دقيقاً رفع إلى الملك عبد العزيز في رمضان ١٣٧٠هـ.

تقرير المهندسين الباكستانيين:

أيد المهندسون الباكستانيون في تقريرهم قرار اللجنة الأولى في المحافظة على المبنى الجنوبي وهدم الأجنحة الثلاثة المتصلة به، وهدم المآذن الخلفية الثلاثة، والتعويض عنها بمئذنتين في الركنين الشماليين وتوسعة

القسم الشمالي(١).

القرار الملكي:

اطلع الملك على التقرير فوافق عليه، وأصدر أمره الملكي إلى وزير الداخلية الأمير عبد الله الفيصل لاستمرار العمل في مشروع التوسعة على النحو الذي ورد في تصميمات اللجنة الأولى والذي وافق عليه كل من مدير المشاريع محمد بن لادن والمهندسون الباكستانيون.

لجنة التعويضات

يقتضي مشروع التوسعة إدخال مساحات من ٣٤ عقاراً من العقارات المجاورة للمسجد في مبناه الجديد.

لذلك أمر الملك عبد العزيز بتشكيل لجنة من أهالي المدينة المنورة الذين لهم خبرة في أسعار العقارات لتقدير ثمن المساحات التي ستضم إلى المسجد لتعويض أصحابها بالعدل والإنصاف، فشكل وكيل أمير المدينة اللجنة وعرضها على الملك فوافق عليها، وتتألف من: أمين المدني رئيس البلدية رئيساً، وعضوية كل من محمد سالم الحجيلي مدير المالية، وعباس السقاف عضو مجلس إدارة المدينة، وآدم البكري مهندس البلدية.

وقامت اللجنة بعملها، وصرفت الدولة التعويضات للمستحقين(٢).

بدء التوسعة:

في الخامس والعشرين من شهر شوال عام ١٣٧٠هـ أقيم حفل خاص في المسجد النبوي للبدء في أعمال التوسعة، وكانت الخطوة الأولى هي إزالة الأروقة الشرقية والشمالية والجدار الغربي كله، والمآذن الشمالية الثلاثة، وهدم الدور والأبنية الأخرى التي ستدخل في التوسعة، وبدأ العمل في ذلك اليوم بحضور وكيل أمير المدينة ومدير المشاريع محمد بن لادن وأعيان

---

١) انظر المصدر السابق ص ٣٩.

٢) انظر المصدر السابق ص ٨٣-٨٥.

المدينة، واستمر لأكثر من سنة، ثم بدأ حفر الأساسات، وعزلت منطقة التوسعة عن المبنى الجنوبي بجدار فاصل ليتمكن المصلون من أداء الصلاة في ذلك القسم. وأقامت إدارة المشروع مصنعاً للأحجار والرخام للبناء الجديد، كما أقامت مستودعاً في جزء من قصر الداودية على تلة المستندر قرب المسجد النبوي، وهو القصر الذي بناه داود باشا الكرجي محافظ المدينة قبل مائة عام.

وبدأت إدارة المشروع باستيراد المواد اللازمة عن طريق ميناء ينبع، وقد بلغ عدد البواخر التي نقلت تلك المواد ثلاثين باخرة، كانت تفرغ حمولتها في الميناء، وتنقل الحمولة إلى مستودعاتها في المدينة.

وفي الرابع والعشرين من رمضان ١٣٧٢هـ بدأت عملية البناء، وكان يعمل فيها -حسب الإحصاءات الرسمية- ستمائة عامل وعشرة مهندسين(١) وعندما ارتفعت الجدران على سطح الأرض حضر ولي العهد الأمير سعود بن عبد العزيز مع عدد كبير من رجال السلك الدبلوماسي العربي والإسلامي وكبار الشخصيات السعودية، وأقيم حفل كبير لوضع حجر الأساس في مطلع ربيع الأول ١٣٧٣هـ ووضعت أربعة أحجار من الرخام البني والأبيض في الزاوية الشمالية الغربية من المسجد سجلت عليها هذه المناسبة.

استمر العمل بعد ذلك مدة سنتين توفي في أوائلها الملك عبد العزيز (١٢ ربيع الثاني ١٣٧٣هـ) وتولى الملك ولي عهده الأمير سعود الذي أولى التوسعة عناية خاصة. وانتهت أعمال التوسعة في نهاية صفر ١٣٧٥هـ وأقيم حفل كبير لذلك في الخامس من ربيع الأول ١٣٧٥هـ وقد شملت التوسعة نوعين من البناء:

الأول: هدم الأجزاء التي تحتاج إلى هدم وإعادة بنائها وهي كما يلي:

أ - الجدار الغربي للمسجد كله قبل التوسعة.

---

١) انظر بيان المكتب الرسمي في توسعة الحرم النبوي الشريف ص ٦٣.

ب - الرواق الغربي.

ج - الرواق الشمالي.

د - الرواق الشرقي.

هـ- المآذن الشمالية الثلاثة (وقد بني عوضاً عنهامئذنتان فقط حفاظاً على التناسق العمراني) وتبلغ مساحة هذه الأجزاء ٦٢٤٧ متراً مربعاً.

الثاني: بناء مساحات جديدة ضمت إلى المسجد لتوسعته من جهاتها الثلاثة: الشرقية، والشمالية، والغربية، وتبلغ مساحتها ٦٠٢٤ متراً مربعاً.

وبذلك تكون مساحة البناء الكلية ١٢٢٧١ متراً مربعاً، ومساحة القسم الجنوبي الذي لم يهدم واكتفي بدعم أعمدته فقط ٤٠٩٥ متراً مربعاً.

وقد تغير الشكل العام للمسجد بعد التوسعة وأصبح على النحو التالي:

أولا: القسم الجنوبي: وهو مبنى مستطيل يغلب عليه اللون الأحمر الفاتح وتعلوه قباب صغيرة والقبة الخضراء التي تعلو الحجرة النبوية، وهو القسم العثماني الذي بقي على حاله تقريباً.

ثانيا: البحصة الأولى: وتتألف من فسحة مكشوفة كانت مفروشة بالرمل الناعم على يمينها رواق يتصل بالمبنى العثماني وعلى شمالها رواق آخر مماثل له، ويقوم كل من الرواقين على أعمدة بيضاء ويغطي الرواق سقف من الاسمنت المسلح ليس فيه قباب قسم على شكل مربعات مشابهة لمربعات الأسقف الخشبية القديمة، وقد زخرف السقف بنقوش مختلفة جميلة.

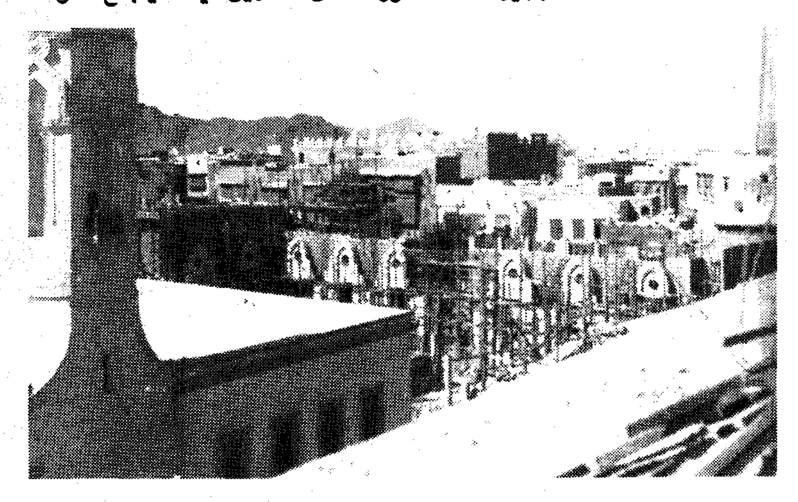
وللأعمدة تيجان من النحاس الأصفر المفرغ بأنواع بديعة من النقوش، أما قواعد الأعمدة فقد كسيت بالرخام الأسمر المجزع.

ويتصل الرواقان في نهايتهما الشمالية برواق عرضي يماثل في أعمدته وسقفه الرواقين الجانبيين له، وله باب في جهة الشرق وآخر في جهة الغرب.

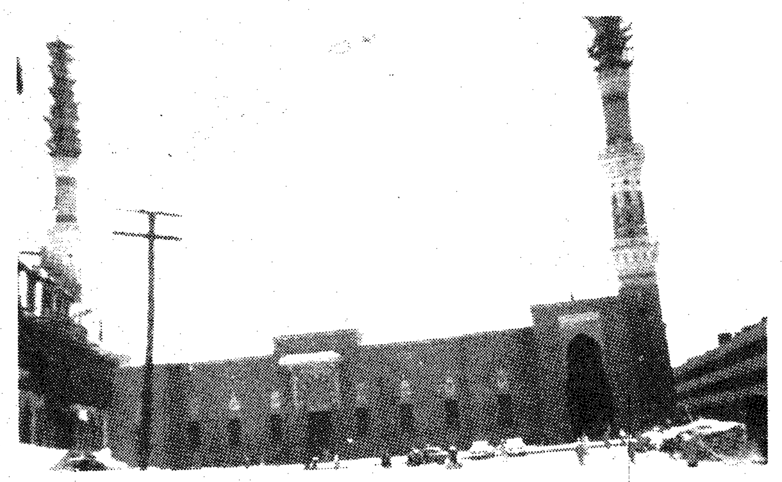
ثالثا: البحصة الثانية: يلي الرواق الشمالي فسحة تساوي الفسحة الأولى وفي جهاتها الثلاثة أروقة تماثل أروقة الفسحة الأولى، وفي الرواق الشمالي



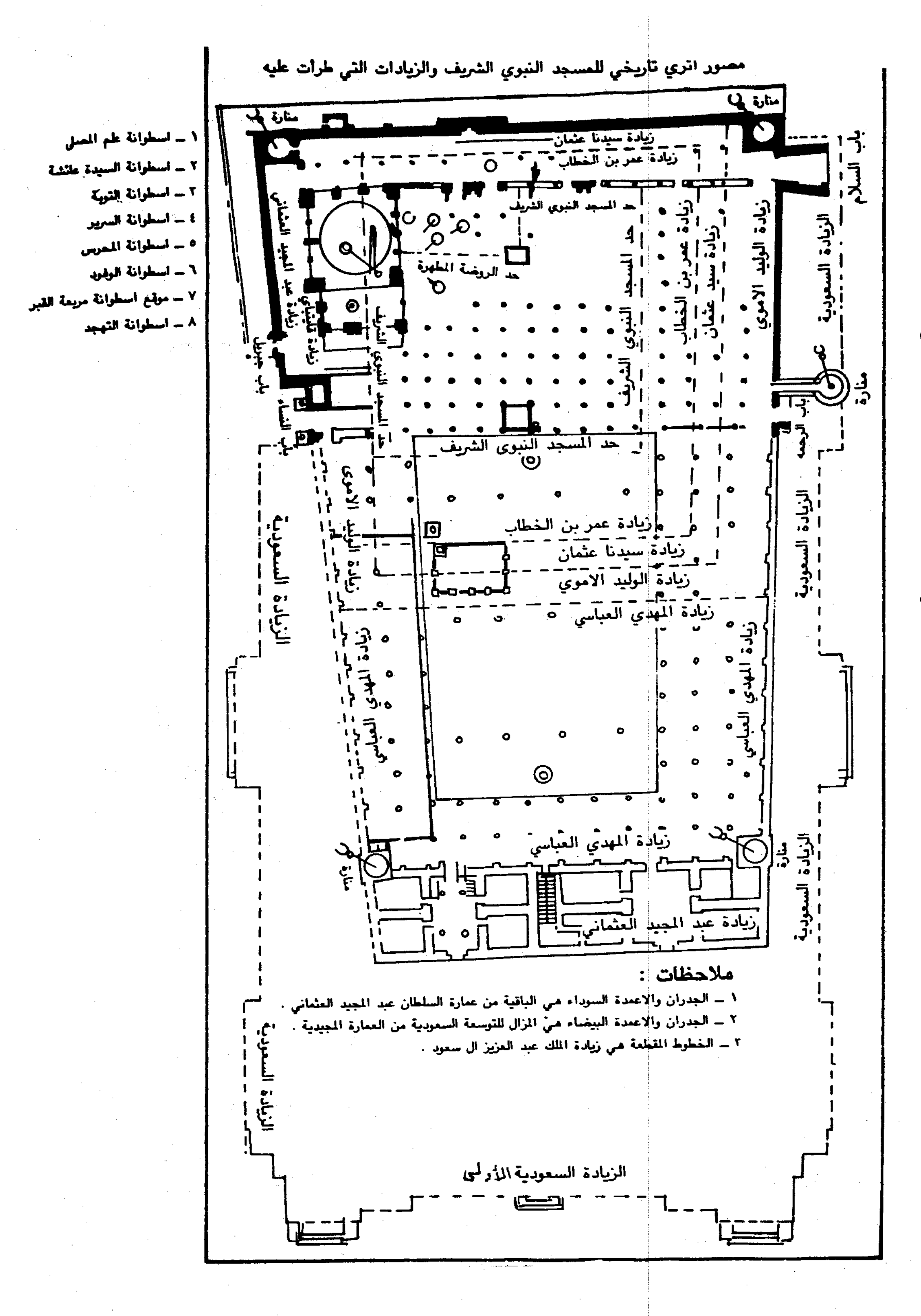
١ ـ قوافل السيارات تحمل التجهيزات المستوردة عن طريق ميناء ينبع للتوسعة الأولى.



٢ ـ جانب من أعمال التوسعة.



٣ ـ الواجهة الشمالية للمسجد لنبوي بعد انتهاء بنائها ويلاحظ أن المئذنتين في المراحل الأخيرة من الإنجاز.



مصور اثري تاريخي للمسجد النبوي الشريف والزيادات التي طرأت عليه
١ ـ اسطوانة علم المصلى
٢ ـ اسطوانة السيدة عائشة
٣ ـ اسطوانة التوبة
٤ ـ اسطوانة السرير
٥ ـ اسطوانة المحرس
٦ ـ اسطوانة الوفود
٧ ـ موقع اسطوانة مربعة القبر
٨ ـ اسطوانة التهجد
منارة
منارة
زيادة سيدنا عثمان
زيادة عمر بن الخطاب
حد المسجد النبوي الشريف
حد الروضة المطهرة
باب السلام
الزيادة السعودية
حد المسجد النبوي الشريف
زيادة عمر بن الخطاب
زيادة سيدنا عثمان
زيادة الوليد الاموي
منارة
باب الرحمة
باب جبريل
باب النساء
حد المسجد النبوي الشريف
زيادة عمر بن الخطاب
زيادة سيدنا عثمان
زيادة الوليد الاموي
زيادة المهدي العباسي
زيادة المهدي العباسي
زيادة المهدي العباسي
الزيادة السعودية
الزيادة السعودية
زيادة المهدي العباسي
منارة
منارة
زيادة عبد المجيد العثماني
الزيادة السعودية
ملاحظات :
١ ـ الجدران والاعمدة السوداء هي الباقية من عمارة السلطان عبد المجيد العثماني .
٢ ـ الجدران والاعمدة البيضاء هي المزال للتوسعة السعودية من العمارة المجيدية .
٣ ـ الخطوط المقطعة هي زيادة الملك عبد العزيز ال سعود .
الزيادة السعودية
الزيادة السعودية الأولى

الآخر توجد ثلاثة أبواب اثنان عند الركنين الشرقي والغربي وواحد في الوسط (١) والجدير بالذكر أن تكاليف التوسعة بلغت خمسين مليون ريال، فضلاً عن تعويضات العقارات التي ضمت للمسجد(٢).

المدينة في وكالة الأمير عبد الرحمن السديري:

توفي الأمير عبد الله السديري في ١٣٧٩/٨/١٣هـ فتولى وكالة إمارة المدينة المنورة ابنه الأمير عبد الرحمن السديري، وصدر مرسوم وكالته في ١٣٨٠/٨/٢٩هـ.

سار وكيل الإمارة الجديد على نهج والده في الاهتمام بأمور المدينة ورعاية أهلها، واستمرت وكالته قرابة ست سنوات حيث عُيِّن الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز أميراً على المدينة المنورة.

الجامعة الإسلامية حلم يتحقق:

كانت فكرة إقامة جامعة إسلامية في المدينة المنورة حلماً يراود أذهان المتنورين من الدعاة والمفكرين الإسلاميين منذ مطلع القرن الهجري الرابع عشر.

وقد استطاع كل من عبد العزيز الجاويش وشكيب أرسلان وعبد القادر المغربي اقناع الدولة العثمانية بإقامة هذه الجامعة في المدينة المنورة -كما رأينا- واستصدروا مرسوماً بإنشائها عام ١٣٢٨هـ رغم أن حكام الدولة العثمانية آنئذ كانوا من القوميين الذين خلعوا السلطان عبد الحميد واستولوا على السلطة، وقد حضر أولئك الثلاثة إلى المدينة ومعهم الأموال اللازمة ومطبعة عربية لتأسيس الجامعة وإدارتها، وباشروا عملهم بنشاط واختاروا الموقع شرقي محطة القطار بينها وبين التكية المصرية، وشرعوا بإقامة البناء

---

١) انظر المصور المرفق للمسجد قبل التوسعة وبعدها، وانظر تفصيلات أخرى في كتاب المسجد النبوي عبر التاريخ ص ١٨٥-١٩١.

٢) انظر توسعة الحرم النبوي الشريف ص ٦٤.

وانتهوا من إنشاء الدور الأول.

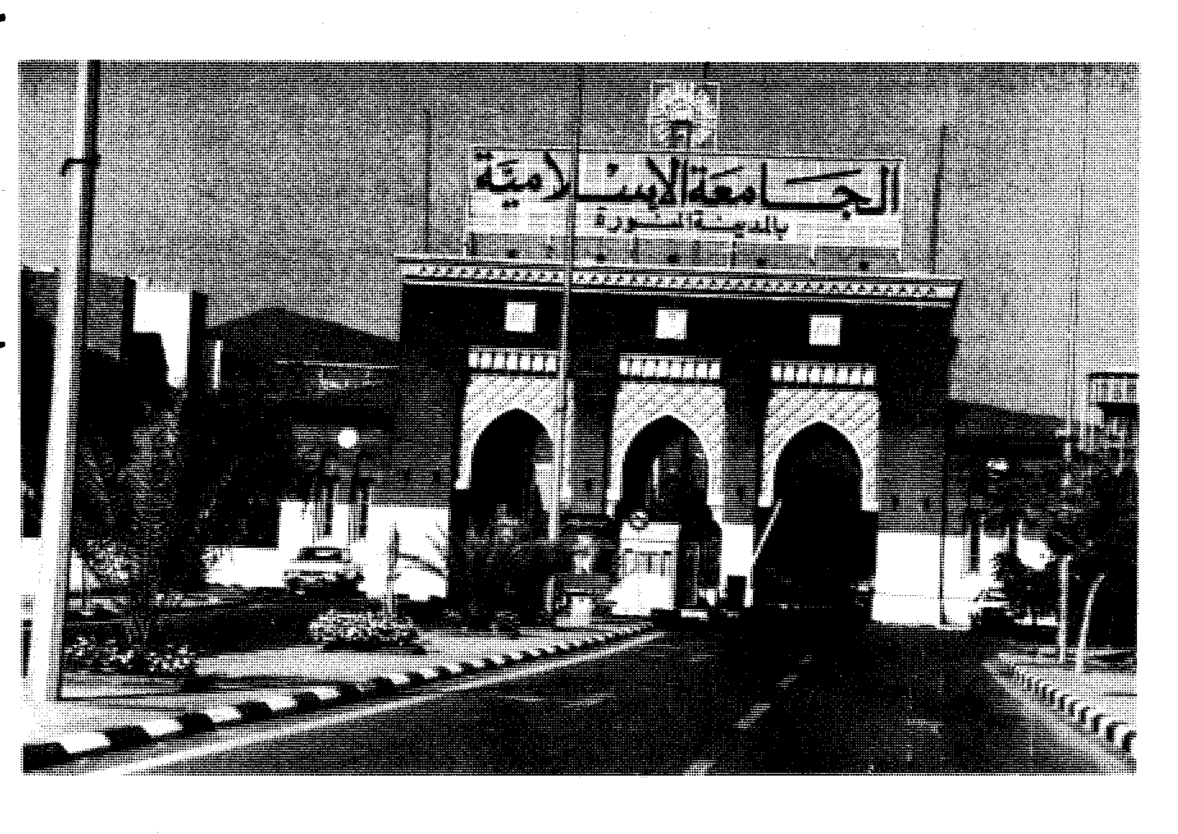
ثم داهمتهم الحرب العالمية الأولى والأحداث التي اقترنت بها في المدينة وأهمها إدارة فخري باشا والحرب مع الهاشميين فتوقف المشروع.

وعندما استولى الهاشميون على الحجاز شغلتهم مشكلاتهم الخارجية والداخلية عن كثير من المشاريع الضرورية، فظل مشروع الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة مطوياً وظل القسم الذي أنشىء من مبناها خاوياً.

ثم جاءت الدولة السعوية، ولم تكن إمكاناتها المالية قادرة على إنشاء الجامعات أول الأمر، فقد شغلت الدولة باقرار الأمن وبالتغييرات الضخمة التي قامت بها.

ومن المعروف أن ميزانية الدولة ظلت محدودة إلى وفاة مؤسسها الملك عبد العزيز رحمه الله، وفي أواخر عهده بدأت التغيرات الإقتصادية بطيئة تؤدي إلى تغييرات في جوانب الحياة الأخرى، ومع تدفق النفط واكتشاف آبار جديدة وارتفاع مستوى الإنتاج والتصدير بدأت تباشير الوفرة في الحياة العامة، وكان مبنى الجامعة الأول قد تحول إلى أول مدرسة ثانوية في المدينة وهي ثانوية طيبة، بعد أن أصلح المبنى وأنشىء فوقه دور آخر وبدأت الدراسة فيه عام ١٣٦٢هـ.

وفي عام ١٣٨٠هـ أعيد طرح فكرة الجامعة الإسلامية وأسهم عدد من المستشارين ورجال الإعلام وجريدة المدينة في إحياء الفكرة وإجراء حوار حولها وتقديمها للمسؤولين، فاستجابت الدولة لهذه الرغبة الإسلامية العامة، وأصدر الملك سعود بن عبد العزيز مرسوماً ملكياً بتأسيس هذه الجامعة بتاريخ ٢٥ ربيع الأول ١٣٨٠هـ وشُكل لها مجلس أعلى يضم عدداً من الشخصيات الإسلامية من أنحاء العالم الإسلامي، وأسندت رئاستها لسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي المملكة، وعين الشيخ عبد العزيز بن باز بمنصب نائب رئيس الجامعة، وباشر إدارتها على الفور، واستقدم لها عدداً


الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة

من العلماء وكبار الأساتذة من داخل المملكة وخارجها، وأعلنت سفارات المملكة في الدول الإسلامية عن فتح باب القبول لأبناء العالم الإسلامي فيها، فتدفقت عليها الطلبات من أنحاء العالم.

اختار المسؤولون للجامعة أرضاً واسعة في الشمال الشرقي لجبال الجماوات قرب قصر سعد بن العاص التاريخي في أحد السهول التي تمتد على ضفاف وادي العقيق، وتبعد عن المسجد النبوي قرابة ٥كم، وكانت فيها ثكنات قديمة وأول مطار عرفته المدينة -مطار سلطانة- أو في الحقيقة المدرج الترابي الذي هبطت عليه أول طائرة حطت في المدينة، وقد استفادت الجامعة من المباني الباقية وأقامت أول تأسيسها مباني بسيطة قبل أن يضع المسؤولون فيها مشروعاً طموحاً.

وقد بدأت الدراسة في الجامعة في الثاني من جمادى الثانية ١٣٨١هـ في الكلية الأولى والوحيدة آنئذ كلية الشريعة.

ويقضي نظام الجامعة أن تكون أغلبية الطلاب من أنحاء العالم الإسلامي لتكون جامعة دعوية تخرج العلماء والدعاة ﴿لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ وليكونوا روّاد الإصلاح في مجتمعاتهم، وتخصص الجامعة لكل طالب مكافأة شهرية مناسبة وتقدم لهم السكن والطعام وتذاكر السفر السنوية، وتسعى لأن تستقطب الطلاب المسلمين من جميع أنحاء العالم وتركز على البلاد التي تكون حاجتها أشد للعلماء والدعاة.

وقد تطورت الجامعة الإسلامية بعد ذلك كماً وكيفاً، وافتتحت فيها أربع كليات أخرى هي: كلية الدعوة، وكلية الحديث، وكلية القرآن، وكلية اللغة العربية، كما أنشىء فيها معهد لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها لتأهيلهم للدراسة فيها، وأنشىء فيها مراحل ماقبل الجامعة: الابتدائية واسمها (دار الحديث) والاعدادية (المعهد المتوسط) والثانوية (المعهد الثانوي) وأُنشىء فرع لمراحل ماقبل الجامعة في مكة (دار الحديث المكية) كما أنشئت

مباني الجامعة الإسلامية اليوم. وتضم مباني رئاسة الجامعة والمكتبة المركزية والمسجد والكليات ومهاجع الطلاب. وهناك مشروع لإقامة مدينة سكنية كاملة للأساتذة والطلاب

من المباني الحكومية الحديثة في المدينة. مبنى إدارة الطرق وإدارة النقل

فيها أقسام الدراسات العليا لتخريج حملة الماجستير والدكتوراه.

ومع امتداد السنوات التالية خرجت الجامعة آلاف الدعاة ينتشرون في أنحاء الأرض يُدَرسون في المدارس والمعاهد والجامعات والمساجد، ويعملون في بعض الوظائف، وينقلون الثقافة الشرعية لمجتمعاتهم مثلما يحملون الدعاة إلى الله بالتي هي أحسن.

الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز أميراً للمدينة:

مر بنا أن الملك عبد العزيز عندما وافق على طلب أهل المدينة الصلح عام ١٣٤٤هـ كلف ابنه الأمير محمداً بتسلم المدينة من المقاومين، وأوصاه بإكرام أهلها، وسماه أميراً لها، وقد نفذ الأمير محمد بن عبد العزيز توجيهات أبيه فتسلم المدينة، وأكرم أهلها، ومكث فيها بضعة عشر يوماً ثم قرر أن يلحق بأبيه وكان أبوه على وشك تسلم جدة من الهاشميين، فعين إبراهيم السبهان وكيلاً له وسافر إلى والده.

ومنذ ذلك الوقت وإمارة المدينة باسم الأمير محمد بن عبد العزيز، غير أن الأمير محمداً آثر أن يلازم والده، فتعاقب على المدينة عدة وكلاء كانوا يديرون شؤونها بدءاً بإبراهيم السبهان ووصولاً إلى عبد الرحمن بن عبد الله السديري.

وعندما تولى الملك فيصل مقاليد الأمور في البلاد أعاد تنظيم الإمارات وعدداً من الوظائف الأخرى، فعين أخاه الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز أميراً على المدينة المنورة وذلك في عام ١٣٨٥هـ.

ووصل الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز إلى المدينة المنورة وتسلم شؤون الإمارة من الوكيل عبد الرحمن بن عبد الله السديري وباشر إدارتها بنفسه فيما قام عبد الرحمن بشؤون الوكالة، وكان الأمير عبد المحسن دمثاً لين الجانب لأهل المدينة حريصاً على إدارة الأمور بنفسه والاطلاع على سير العمل في إدارات المدينة، كما كان حريصاً على لقاء أهل المدينة ومجالسة

وجوههم في مجلسه الخاص.

وقد بدت صفاته هذه من أول توليه الإمارة، فقد حدث أن انهارت عمارة في شارع المناخة بعد تسلمه منصبه بفترة وجيزة، فسارع إلى الموقع، وأشرف بنفسه على عملية إزالة الأنقاض، وأسهم فيها، وأمر بضرب الخيام في المنطقة وأقام فيها طوال مدة إزالة الأنقاض -أكثر من أسبوعين- وقد ظل يحرص على متابعة الأمور في مواقعها إلى أن داهمه المرض.

أسرة الوادي المبارك:

الأدب والثقافة جزء من حياة أهل المدينة، فعلى امتداد التاريخ من العصر الجاهلي إلى العصر الحاضر شهدت المدينة أجيالا من الأدباء وكبار المثقفين فضلا عن العلماء والفقهاء الذين احتضنهم المسجد النبوي طلاباً وأساتذة.

وفي العصر الحديث بدت ظاهرة تجمع الأدباء وكبار المثقفين في المدينة وتشكيلهم مجموعات ثقافية متجانسة يتعاون أفرادها في تنمية مواهبهم ومواصلة إبداعهم.

وقد مر بنا جيل منتصف القرن الرابع عشر الميلادي: عبد القدوس الأنصاري، ومحمد حسين زيدان، وأمين المدني، ومحمد عثمان، وعلي الحافظ.. الخ، وقد خرج معظم هؤلاء من المدينة للعمل في وظائف وأعمال خاصة في الرياض وجدة ومكة، وخلفهم جيل آخر نشأ على كتاباتهم وجمع بين الثقافة المدرسية التي أتيحت لهم وثقافة المسجد النبوية والقراءات الخاصة، فأنشأوا جماعة سميت أسرة الوادي المبارك(١) وأهم أعضائها : عبد

---

١) روى لي الأستاذ محمد حسن صيرفي أن أعضاء هذه الجماعة كانوا يلتقون تلقائياً دون أن يطلقوا على جماعتهم اسماً محدداً، فلما بويع الملك فيصل رحمه الله ملكاً أبرق له الأستاذ الصيرفي مهنئاً ومقدماً بيعته وبيعة زملائه الأدباء، فكتب له هذا الإسم ارتجالا، فأرسل الديوان الملك ببرقية جوابية باسم أسرة الوادي المبارك، فسر الصيرفي وزملاؤه لهذا التوفيق، وعدوا برقية الديوان الملكي موافقة عليا

العزيز الربيع، محمد هاشم رشيد، محمد حسن صيرفي، محمد عيد الخطراوي، عبد الرحمن الشبل، عبد الرحيم أبو بكر، وسار هؤلاء على خطا من قبلهم في الاجتماع في منزل أحدهم دورياً وقراءة الشعر وبعض الكتب الثقافية وإجراء المناقشة حولها، ونقد الأعمال الأدبية وإلقاء بعض المحاضرات.

وفي عام ١٣٩٥هـ عهدت الدولة إلى الرئاسة العامة لرعاية الشباب برعاية الأنشطة الثقافية والأدبية ودعمها لتنشيط الحركة الثقافية في المملكة، فأتاحت هذه الرئاسة الفرصة للجماعات الأدبية كي تشكل أندية أدبية في المدن الكبرى، ودعمتها بمعونة مالية مناسبة، فسارع أعضاء أسرة الوادي المبارك إلى الاتصال بالرئاسة العامة لرعاية الشباب، وسافر الأستاذ عبد العزيز الربيع إلى الرياض وعاد بفكرة إنشاء النادي، فاجتمع أعضاء أسرة الوادي المبارك وشكلوا إدارة النادي وأبلغوا الرئاسة العامة لرعاية الشباب بها، فصدرت الموافقة الرسمية على إنشاء النادي، فكان هذا النادي أول هيئة أدبية منظمة تظهر في المدينة المنورة وتقوم بنشاط أدبي وثقافي عام يستقطب الأدباء الناجحين والناشئين ويستقدم رجال الفكر والثقافة ليلتقي بهم أهل المدينة ويقيم مواسم ثقافية غنية، إضافة إلى ذلك بدأ النادي بنشر الدواوين والمجموعات القصصية والكتب الثقافية، وأصبح خلال أعوام قليلة أكبر مؤسسة للنشر في المدينة المنورة، وقد بلغ عدد الكتب التي نشرها النادي حتى نهاية العقد الأول من القرن الخامس عشر ٧٤ كتاباً.

وهكذا يدخل في تاريخ المدينة المنورة نشاط يطور الجانب الثقافي والأدبي فيها، ويحتضن بذور الأدباء وينقل أصوات المبدعين عبر الكتاب المطبوع إلى الساحات الثقافية ليس في المملكة فحسب بل حيثما يصل إليه الكتاب العربي المطبوع.

على الجماعة واسمها، وعندما شكل النادي الأدبي من أعضاء الجماعة ذاتها كتب على لوحة النادي (نادي المدينة المنورة الأدبي (أسرة الوادي المبارك)).

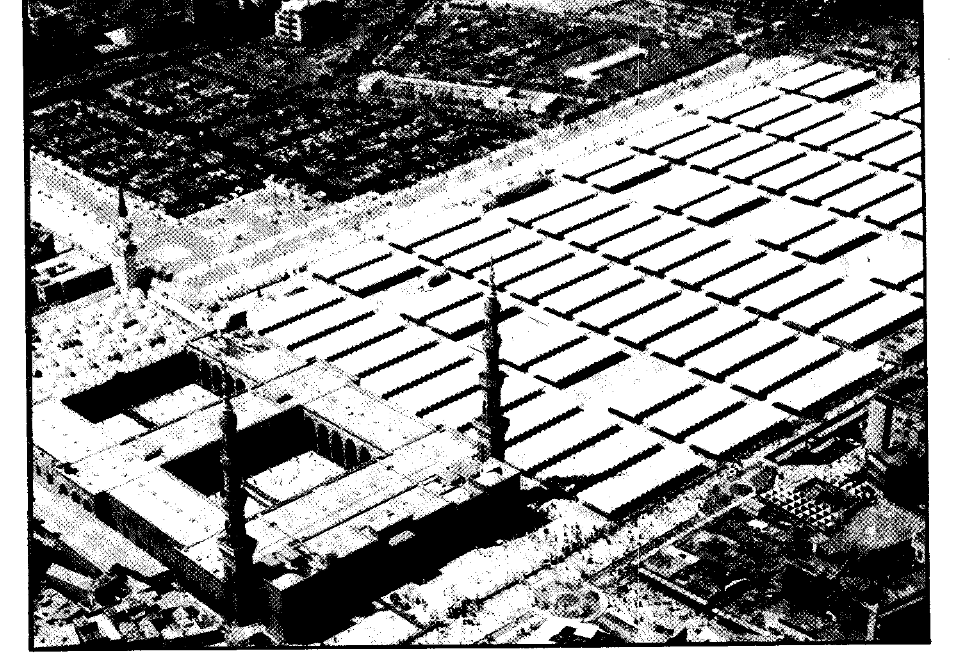
حريق كبير:

شهدت المدينة المنورة قبل أن تودع القرن الرابع عشر حريقاً كبيراً في أحد مراكزها الاقتصادية المهمة هو سوق القماشة.

يقع هذا السوق في الجزء الجنوبي الغربي من المسجد النبوي في المسافة مابين باب السلام ومسجد الغمامة (حوالي ثمانمائة متر) ويتكون من مجموعة دكاكين صغيرة متلاصقة بعضها يرتفع فوقه بناء من طبقة أو طبقتين فيها بيوت سكنية وغرف لإسكان النزلاء.

وقع الحريق يوم الثامن عشر من شهر رجب عام ١٣٩٧هـ كان الفصل صيفاً والوقت بعد الظهر والحر شديد، وقد آوى معظم الناس إلى بيوتهم وأغلق أصحاب الدكاكين دكاكينهم بستائر من القماش تغطي واجهتها، وكان هذا عرفاً جارياً في فترات الإغلاق المؤقت (مابين الظهر والعصر) فمعظم أصحاب الدكاكين يضعون في واجهة محلاتهم بسطات مناسبة لواجهة المحل، لذا ولكي لايعيد التاجر البضائع التي عليها إلى الدكان ثم يخرجها ثانية بعد العصر، وبسبب الأمان الكبير الذي حققته الحكومة السعودية حتى لم يعد أحد يجرؤ على أن يمد يده إلى شيء لايخصه ولو كان أمامه في الشارع، لذلك كله اعتاد أصحاب المحلات على هذا الإغلاق الرمزي بستائر القماش.

كان معظم محلات السوق لبيع الأقمشة، وهناك محلات للعطارة و(الخردوات) وغيرها. وكانت معظم الأبنية مسقوفة بالخشب وفيها مشربيات خشبية جميلة وقديمة، وفجأة وفي هدأة القيلولة اشتعلت النار في طرف السوق القصي من جهة الغرب، حيث توجد دكاكين عطارة لآل خشيم وارتفع لسان النار من أحد الدكاكين وانتقل بسرعة عجيبة إلى الدكان المجاورة، ومضى شرقاً من دكان إلى آخر تساعده الستائر القماشية والمشربيات الخشبية، وعلا صوت النذير بالحريق ونزل الناس من البيوت مباشرة وخرج من كان باقياً في دكانه.

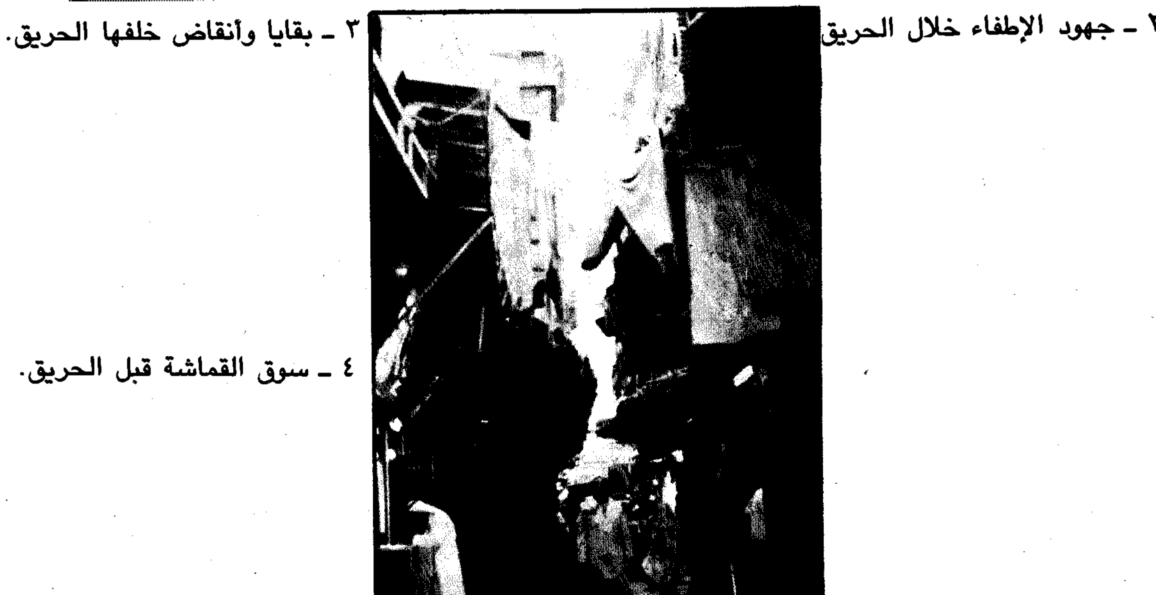


١ ـ موقع المنطقة التي آحترقت تحولت إلى ساحات إضافية للمسجد مظلله
وساحات واسعة ومواقف سيارات



٢ ـ جهود الإطفاء خلال الحريق

٣ ـ بقايا وأنقاض خلفها الحريق.



٤ ـ سوق القماشة قبل الحريق.

وشاء الله أن تهب ريح غربية في ذلك الوقت من رياح الصيف القليلة، فساعدت ألسنة اللهيب على الانتقال بسرعة كبيرة من أول السوق إلى آخره ومن طرف إلى طرف ومن أسفل إلى فوق، وخلال أقل من نصف ساعة كان اللهب منتشراً في معظم أنحاء السوق، وكان الناس يهرعون بما تيسر لهم من الماء، وحضرت سيارات الإطفاء من مراكز الإطفاء المجاورة، ثم حضرت سيارات أخرى من المطار وتدفقت المياه من خراطيم السيارات على ألسنة اللهيب ولكنها لم تستطع أن توقف الشعل المتطايرة من هنا وهناك، كان الشارع ضيقاً لاتستطيع السيارات الكبيرة دخوله، وكان انتشار ألسنة اللهيب في أجزاء السوق من أوله إلى آخره، وبدأت بعض السقوف تهوي بأخشابها المحترقة وتفجر مواقد الغاز الموجودة في البيوت والمحلات فتزيد النار اندفاعاً وتداعت البيوت فوقها وعلت فيها ألسنة النار، وكافح رجال الاطفاء والناس الذين هرعوا إلى المنطقة وأصحاب المحلات وسكان البيوت الذين نزلوا من بيوتهم وبدا أن الجهود الضخمة المبذولة عاجزة عن أن تحيط بالنار التي أخذت تدمر كل شيء في السوق وتلتهم محتوياته.

حاول بعض أصحاب المحلات أن يستخرجوا بعض بضائعهم الثمينة أو صناديق حفظ المال الحديدية لكنهم عجزوا، فالنار أصبحت تحتوي كل الأطراف وتحول دون دخول أحد إلى المحلات، وارتفعت أصوات الناس بالحوقلة والتكبير ولم يكن في الإمكان إلا الحيلولة دون امتداد النيران إلى مناطق أخرى مجاورة.

استمرت ألسنة النار واستمرت المياه تتدفق فوقها فتهدىء بعضها إلى حين وتعجز عن بعضها الآخر إلى مابعد صلاة العصر.

وارتفعت سحابة من الدخان القاتم فوق المنطقة وحركتها الريح شرقاً لتمدها فتغطي مساحة أكبر.

وتواصلت جهود الإطفاء وتواصل انفجار مواقد الغاز وسقوط السقوف

وتداعي المباني القديمة، وبعضها أثري يرجع إلى ٧٠٠ سنة كبيت جمل الليل، واستمر ذلك إلى الغروب، حيث بدأت ألسنة اللهيب تتضاءل وما بقي منها يضيء المنطقة كلها ويأتي على البقية الباقية من الأبنية والدكاكين.

وفي اليوم التالي خمدت ألسنة اللهيب وبقيت ألسنة صغيرة من الدخان تخرج من بين الأنقاض المتداعية، وبدا السوق الذي كان يضج بالحركة والحياة أنقاضاً متداعية تتراكم فيه أكوام من الطين والحجارة والبضائع والأخشاب المحترقة.

دمر السوق تماماً، ودمرت الأبنية التي تعلوه، ومالم يسقط منها أصبح متداعياً يمكن أن يسقط في أي وقت.

ولكن ولله الحمد لم تحصل خسائر بشرية، فقد وجد الناس الذين يسكنون البيوت والغرف التي تعلو الدكاكين وجدوا الفرصة للنزول جميعاً والابتعاد عن النار.

كان الأسى يملأ القلوب، وبخاصة أصحاب المحلات والبيوت، غير أن نجاة الجميع خفف المصاب.

ثم جاء إعلان الدولة عن تعويض أصحاب المحلات والبيوت عن خسائرهم وتشكيل لجنة لذلك، فارتاحت النفوس.

وقبل أن تشرع لجنة التعويضات بدراسة الحالة وتقدير الخسائر اجتهدت فرق الدفاع المدني ومسؤلو وزارة الداخلية في تحديد أسباب الحريق، وكان السبب المرجح وقوع تماس كهربائي في بعض الدكاكين، وقد ساعد على اتساع النار وانتشارها هبوب الريح الغربية آنئذ وفترة الاستراحة التي غاب فيها معظم أصحاب المحلات والمتسوقون فلم تجد الشعلة الأولى مكافحة سريعة، وضيق الشارع وعدم قدرة السيارات الكبيرة على النفاذ فيه وكثرة المواد القابلة للاشتعال كالأخشاب والأقمشة ومواقد الغاز الموجودة في البيوت والمحلات. كل هذا أدى إلى انتشار الحريق واتساعه والتهامه منطقة اقتصادية

كاملة. وقد صرفت الدولة تعويضات مناسبة لأصحاب المحلات والدور.

ويشاء الله أن تكون لهذه الحادثة نتائج بعيدة إيجابية، فقد شجع خلو المنطقة من البيوت والدكاكين المسؤولين على تنفيذ مشروع توسعة مؤقتة للمسجد النبوي وضم الأرض التي رفعت منها الأنقاض إلى المسجد النبوي، وإضافة الأرض المجاورة لها شمالاً وإقامة مظلات من (الفبركلاس) عليها وتبليط أرضها بالرخام، وتزويدها بالمراوح وناقلات الصوت والإنارة، فأصبحت جزءاً من المسجد النبوي يتسع للآلاف المؤلفة من المصلين كان يضيق بهم المسجد(١). وصدق الله العظيم ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾.

فروع للجامعات في المدينة:

كان تأسيس الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة حدثاً متميزاً في تاريخ المدينة وفي تاريخ الدعوة الإسلامية في العصر الحديث وكان أيضاً أول قطرة في تيار جامعي سينعم به أبناء المدينة.

فقد أنشىء فرع لجامعة الملك عبد العزيز بجدة في المدينة قرب الجامعة الإسلامية، وسمي كلية التربية، وتضم هذه الكلية أقساماً في العلوم الإنسانية والتطبيقية، وصدر مرسوم التأسيس في ١٣٩٧/٣/١٢هـ وبدأ الطلاب بالدراسة في الكلية في شهر شوال من العام نفسه.

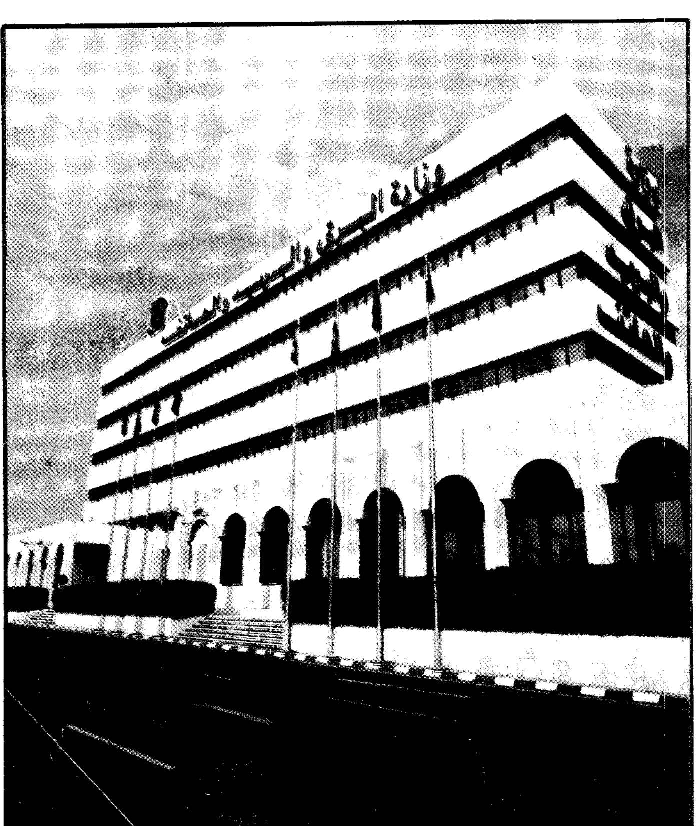
كما أُسست في السنة نفسها كلية متوسطة لإعداد المعلمين، وأُنشىء بعد ذلك فرع لجامعة الإمام باسم المعهد العالي للدعوة ضم قسماً للدراسة الجامعية، وقسماً للدراسة العليا. وما لبث أن تحول إلى كلية باسم كلية الدعوة.

وأنشأت الرئاسة العامة لتعليم البنات كلية التربية للبنات لتخريج

---

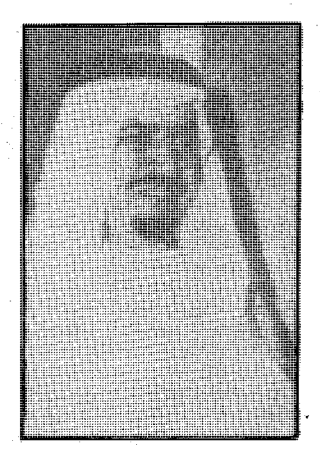
١) انظر فصول من تاريخ المدينة ص ٣٤٨ والصحف المحلية الصادرة في ١٩ رجب ١٣٩٧هـ.

جامعة الملك عبد العزيز



مبنى فرع
وزارة البرق والبريد
والهاتف في المدينة

أمراء المدينة في العهد السعودي



الأمير محمد بن عبد العزيز



الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز



الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز

وكلاء أمير المدينة في العهد السعودي



الأمير إبراهيم سالم السبهان



الأمير عبد العزيز إبراهيم

الأمير عبد الله السديري



الأمير عبد الرحمن السديري

ذياب ناصر

محمد حسن سمان

مصطفى عطار

صالح الميمان

علي حافظ

صالح فضائلي

عبد القادر طاهر

صدقه خاشقجي

عمر عبدالله قاضي



معالي أمين المدينة المنورة الحالي المهندس عبد العزيز الحصين.



مشروع مبنى أمانة المدينة

الذي ستنتقل إليه مكاتب الأمانة

بعد أن يتم إنجازه

مبنى مؤسسة الكهرباء -

كهرباء المنطقة الغربية.

مدرسات في شتى التخصصات.

وهكذا تتكامل حلقات التعليم العالي في المدينة المنورة، وتتميز بأنها تهتم بالدراسات الإسلامية في المقام الأول ثم دراسات العلوم الإنسانية وبعض العلوم التطبيقية.

بلدية من الدرجة الأولى:

من الأمور التي شهدتها المدينة المنورة قبل أن تودع القرن الرابع عشر الهجري مرسوم ملكي له أثر على تطورها العمراني العام.

ففي السادس والعشرين من شهر رجب عام ١٣٩٨هـ أصدر الملك خالد بن عبد العزيز مرسوماً يقضي باعتبار بلدية المدينة المنورة من بلديات الدرجة الأولى، ويحول إسم البلدية إلى إسم (الأمانة).

ولكي نتصور أثر هذا التغيير في التطور العمراني القادم في السنوات التالية نمر خطفاً بالدلالة المتميزة للمسى الجديد (الأمانة).

يطلق مصطلح الأمانة على المدن الهامة كالعواصم والمدن الكبرى، وتعطى الأمانة أولويات في مشاريع الإنشاء والتحسين، وتمنح إدارتها صلاحيات أوسع، فترتبط بوزير البلديات مباشرة متجاوزة المديرية العامة للبلديات في كل منطقة، وتخصص لها ميزانية كبيرة عادة.

وعليه فإن إدخال المدينة المنورة في عداد (الأمانة) يعني اعتبارها مدينة كبيرة لها أولويات في المشاريع والتحسينات، وسيفيدها هذا الاعتبار في تحقيق وثبة عمرانية كبيرة في السنوات التالية، وقد صدر هذا المرسوم في عهد رئيس البلدية (صدقة خاشقجي) ثم عين المهندس عمر القاضي أميناً للمدينة إعتباراً من ١٤٠٣/١١/٦هـ واستمر فيها حتى ١٤٠٩/٩/١١هـ حيث نقل إلى مكة المكرمة، وكلف المهندس عبد العزيز الحصين بالأمانة ثم صدر مرسوم تعيينه أميناً للمدينة المنورة بالمرتبة الممتازة في ١٤١١/٥/١٤هـ.

المدينة المنورة في القرن الخامس عشر الهجري

الواقع والتطلع:

في فن التاريخ عُرف يقول: أن أصعب مايكتبه المؤرخ هو التاريخ الذي يعاصره، فالمعاصرة حجاب.

ذلك أن مؤرخ الواقع المعاصر، رغم كونه يسجل مايراه ويسمعه، يفقد الموضوعية التي نتطلبها في التأريخ غالباً، فيُدخل عواطفه فيما يكتبه، أو يكتب من وجهة نظر معينة، وكثيراً ماتخفى عليه جوانب يكشفها الزمن بعد حين.

أما الذي يؤرخ لحقبة مضت، فإنه بعد أن يجتهد في جمع الوثائق واستخلاص المعلومات، ستكون نظرته شاملة متكاملة، وتكون قدرته على ضبط عواطفه إزاء الأحداث التي مضت أكبر، حتى الأحداث التي تؤلمه سيدونها بموضوعية كاملة لتكون عبرة ودروساً للأجيال المعاصرة والقادمة.

ولاشك أن ذلك العُرف -عُرف حساسية التأريخ المعاصر- يصدق إلى حد كبير على التاريخ السياسي، وبدرجات أقل على التأريخ الاجتماعي والثقافي، وينعكس تماماً في التأريخ العمراني، حيث تكون شهادة الكاتب المعاصر شهادة معاين مدقق النظر، يبصر التغييرات في بدايتها ويواكبها في اشتدادها، وقديماً قالوا (وما راءٍ كمن سمعا).

لذلك فإن الوضع الحالي للمدينة المنورة يُسَهِّل على المرء كتابة تاريخها المعاصر، ويقلل من حساسيات المعاصرة إلى حد كبير، فالتاريخ السياسي هنا صفحة مطوية، بل هي مطوية منذ أن أصبحت المدينة جزءاً من كيان كبير تديره قيادة فعالة، تحمل عبء تصريف الأحداث، والتفاعل معها في أعلى المستويات، ومنذ أن صار أهلها جزءاً من شعب يقف وراء قيادته، مطمئناً إلى أنها ستوفر له الأمن والأمان، بل والرفاهية والرخاء، فاستراحت المدينة واستراح أهلها من هموم لاتنقضي، وصار تاريخها تاريخ بناء حضاري مدني،

يسجل التطورات الاجتماعية والثقافية والعمرانية بين حين وآخر، ولقد مَنَّ الله عليَّ بأن أعيش في المدينة المنورة منذ مطلع هذا القرن الهجري، وأشهد بنفسي تلك التطورات، وأواكب حركتها المتسارعة التي قفزت بالمدينة مسافة كبيرة وكأنها تختصر عقوداً من الزمن، لتضعها في مكانة مرموقة بين المدن، تكافىء مكانتها الدينية، وتكافىء الوثبة الحضارية الكبيرة للكيان الكبير الذي يضمها المملكة العربية السعودية.

ولو جئت أرصد تفاصيل هذه التطورات في العقد الأول من القرن الخامس عشر لاقتضى ذلك سفراً كبيراً يخرج عن الحدود التي رسمتها لكتابي هذا، لذلك سأكتفي بالمرور على المعالم الكبيرة لتلك التطورات، والتي تهم محبي مدينة رسول الله ﷺ لتكون حلقة أخيرة في الكتاب، ودعوة مفتوحة للآخرين -وللمختصين في الجوانب العمرانية بالذات- كي يكتبوا بتفصيل ودقة عنها، فنوفي مدينة رسول الله ﷺ بعض حقوقها، ونوفي الوثبة الحضارية الجديدة للمملكة ماتقتضيه من عرض صادق، ونترك لمن بعدنا سجلاً أميناً للحظة الحضارية التي عشناها.

دخل العقد الأول من القرن الخامس عشر الهجري والحياة تجري بانسيابيتها الهادئة في جميع الجوانب، فالتطورات الثقافية غدت منتظمة إلى حد ما بعد أن وثبت وثبتها الكبيرة في العقد الماضي، فقد استكملت خلالها معظم مراكز التعليم الأساسية من رياض الأطفال إلى الجامعات، لذا فإن الجديد فيها في هذا العقد هو مواجهة الزيادات الطارئة في أعداد الطلاب ليس أكثر، حيث تفتتح مدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية لمواكبة الامتداد العمراني

والسكاني في المدينة ولاستيعاب الطلاب الجدد(١).

والتطورات الاجتماعية محدودة بعد أن استقرت أوضاع المدن في المملكة واستقر النظام السياسي الذي يرعى إطاراً عاماً للبنية الإجتماعية، وهو إطار يقوم على تعزيز العلاقات بين الأفراد والأسر، والاهتمام بالقيم الدينية والتراثية الصحيحة، واعتبارها المقياس الصحيح لتلك العلاقات، ودعم روح المواطنة الصحيحة، والوقوف ضد أية نعرات عرقية أو طائفية ومواجهتها بحزم، والمحافظة على خصائص الشخصية العربية الإسلامية، واستيعاب المتغيرات الحضارية الجديدة دون التنازل عن أساسياتها.

وقد شهدت المدينة المنورة في هذا العقد نشاطاً في الهجرة الداخلية إليها، فقد تضاعفت أعداد القادمين للاستيطان فيها من مختلف مناطق المملكة ومن ضواحي المدينة وباديتها، ومن نجد وعسير وتهامة، بعضهم قدم بسبب الوظيفة والعمل، وبعضهم قدم حباً بالمدينة، ورغبة في الإقامة فيها، وبنى بعضهم البيوت والعمارات، فأسهموا في التوسع العمراني، كما أسهموا في تعزيز التقارب والتمازج في العادات والتقاليد.

كما قدم أعداد من الوافدين من أنحاء العالم العربي والإسلامي للعمل في المدينة وشكلوا تجمعات متجانسة، حيث تظهر الروابط الاجتماعية بين أبناء الجنسية الواحدة.

---

١) جدول مقارنة بين عدد المدارس في أول العقد وآخره:

	عام ١٤٠٠هـ	عام ١٤١٠هـ
١ - المدارس الإبتدائية	٥٩	٨٦
٢ - المدارس المتوسطة	١٧	٢٩
٣ - المدارس الثانوية	٧	١٤
٤ - المعاهد	٢	٢
٥ - الجامعات	١	١
٦ - فروع الجامعات	٢	٢

غير أن حصر العمالة الوافدة إلى المدينة بالمسلمين، والمكانة المقدسة للمدينة في نفوس المسلمين قاطبة، وحرص المتدينين منهم على الفوز بفرصة عمل في المدينة بالذات، والمسجد النبوي الذي يجمعهم على صعيد واحد، وتراث المدينة العريق في استيعاب المسلمين من كل حدب وصوب في ظل عاطفة إيمانية واحدة، كل هذه العوامل أوجدت نوعاً من العلاقات الاجتماعية الجيدة بين سكان المدينة على اختلاف جنسياتهم، بل وأوجدت صلات وصداقات ومصاهرات تُقرِّب بينهم وتعزز القيم الاجتماعية الأصيلة، وتحول دون انتشار التقاليد الناشزة.

لذلك كله يمكن القول: إن الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة لم تشهد تغييرات فاقعة في هذا العقد، وإن سمة التمازج أحياناً، والتقارب أحياناً أخرى، هي السمة الغالبة على الشرائح البشرية المتعددة التي تعيش فيها، وإن الإطار الإسلامي العام هو الذي يحكم هذه العلاقات، وإن المكانة الدينية للمدينة تحفر بصماتها في الحياة الإجتماعية فيها.

أما الجانب الذي شهد تطورات كبيرة، بل وثبة نوعية متميزة، فهو الجانب العمراني، فقد نشطت الحركة العمرانية في النصف الأول من هذا العقد، أخذت الفراغات بين المساكن في عدد من الأحياء تمتلىء بالعمارات الجديدة كحي العوالي وحي قربان والمنطقة بين قربان وقباء (أرض البحر) والحرة الغربية، وغربي جبل سلع، وحي القبلتين، وحي سلطانة، وحي النصر، والحرة الشرقية، وتشكل هذه الأحياء حزاماً دائرياً مركزه المسجد النبوي، ويمتد نصف قطره من ٢-٥ كم.

وظهرت تجمعات سكانية جديدة، كان لها بذور بسيطة في العقد الماضي، مالبثت أن استقطبت السكان الوافدين إلى المدينة من مدن المملكة وقراها، وتبعد عن المسجد النبوية من ٥-٧كم. فظهر حي وعيرة في الشمال الشرقي بين المدينة والمطار، وحي أحد عند قاعدة جبل أحد، وحي الدغيثر

في الشمال الغربي، وحي عروة في الجزء الغربي، وفي النصف الثاني من هذا العقد ظهر حي الفيصلية في الجزء الغربي أيضاً شمالي حي عروة، وحي الخالدية في الجنوب الشرقي(١) ويرجع السبب في نشأة معظم تلك التجمعات إلى رغبة الدولة في تخفيف الضغط عن وسط المدينة، وإيجاد البديل عن المساكن التي ستزال في مشاريع تطوير المدينة، لذا عمدت إلى توزيع عدد كبير من الأراضي على ذوي الدخل المحدود، وقام بنك التسليف العقاري بصرف مايزيد على خمسة عشر ألف قرض لإنشاء المساكن، استفاد منها الذين حصلوا على قطع الأراضي الموزعة وغيرهم، وأقاموا مساكن جديدة بسرعة قياسية.

غير أن الحركة العمرانية تحولت إلى طفرة كبيرة بفضل مشروع توسعة المسجد النبوي، ومشروع تحسين الدائرة الأولى في المدينة، وهي الدائرة المحيطة بالمسجد النبوي(٢) حيث هدمت الأبنية الموجودة في هذه الدائرة كلها، باستثناء المساجد التاريخية، وبدأت مشاريع تعاونية ضخمة لإقامة مبان كبيرة تناسب الموقع، وتؤدي الخدمات اللازمة.

ولعل أحسن مانستدل به على تطور الحركة العمرانية في هذا العقد قراءة إحصائية أمانة المدينة المنورة عن رخص البناء التي أصدرتها في هذا العقد، فقد بلغ عددها (٣٥٣٥٩) رخصة، مابين عمارة كبيرة وبيت صغير (فيلا) ومحل تجاري، إنشاءً وتعديلاً، ويمكننا أن نتصور حجم هذا التوسع ونوعيته بقراءة إحصائية مفصلة للرخص التي صدرت عام ١٤١٠هـ وهي على النحو التالي:

رخص أبنية سكنية فقط (عمارة - فيلا)	١٠٩٨
رخص أبنية سكنية تجارية (عمارات لها دكاكين)	١٠٢

---

١) انظر المصور المرفق.

٢) انظر المصور المرفق.

رخص أبنية تجارية فقط (أسواق ومحلات فقط)	٦٠
رخص أسوار	٢٢٢
رخص تعديل وإضافة	٥٠٦
رخص مباني حكومية ومساجد	٢٢
المجموع	٢٠١٠

لا تشمل هذه الإحصائية الإنشاءات التي تجري حالياً في الدائرة الأولى، والتي ستقوم فيها مجمعات سكنية تجارية ضخمة كما سنرى بعد قليل.

وقبل أن ندخل في تفصيلات الطفرة العمرانية في توسعة المسجد النبوي وإعادة بناء الدائرة الأولى المحيطة به، نستعرض بعض الأحداث والإنجازات التي حصلت في النصف الأول من هذا العقد.

المدينة تشرب من البحر:

يقف معظم الذين كتبوا عن المدينة المنورة وقفات متفاوتة عند (العين الزرقاء) مشرب أهل المدينة، وقد مر بنا قصة إنشاء هذا المسيل المائي تحت الأرض من منطقة قباء جنوبي المدينة إلى منطقة البركة، أو مجمع الأسيال، في شمالها الغربي.

ومنذ أن أنشأ مروان بن الحكم المشروع بأمر من معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما- وعلى امتداد القرون إلى العصر الحاضر، كان عدد من الملوك والأمراء والأغنياء يجددون هذا المسيل ويرممونه، ويضيفون إليه الروافد ويوقفون له الأوقاف، تقرباً إلى الله، وخدمة لأهل المدينة وزوارها.

وفي مطلع العهد السعودي شكلت لجنة خاصة للعناية بهذا المسيل هي (لجنة العين الزرقاء) عملت طوال النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري على تأمين حاجة المدينة من المياه، وكان عملها أول الأمر العناية بالمجرى التاريخي للمياه، وتزويده بروافد من آبار إضافية، وإصلاح المواضع التي يستقي منها الناس (الدبول) ثم تطور الأمر إلى الاستعانة بالمضخات الآلية،

وبني خزان واسع لتخزين المياه قبل توزيعها، ثم مدت الأنابيب وصارت شبكة تمر بالأحياء وتدخل إلى البيوت، وفي نهاية عام ١٣٧٨هـ بُدل مسمى هذا المرفق وأصبح (مصلحة المياه والمجاري).

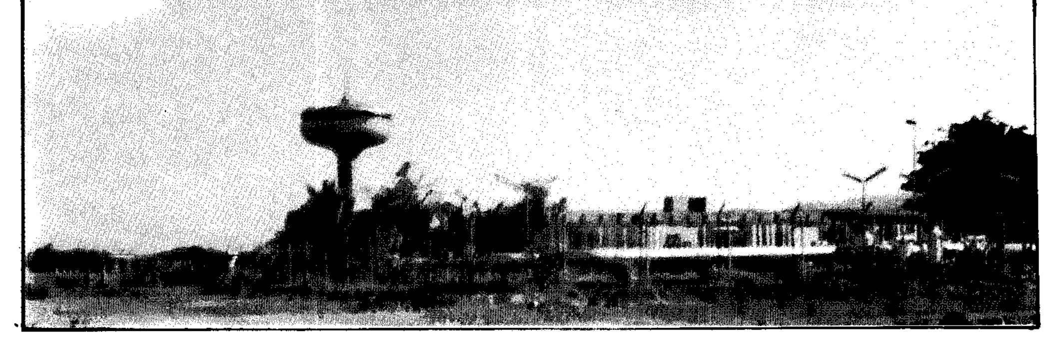
وطبيعي أن تغير الحياة في المدينة وازدياد عدد السكان والزائرين بل تضاعفه أضعافاً عدة، وقيام المزارع التي تستنفذ المياه الجوفية بالمضخات الآلية، كل هذه العوامل ستؤدي إلى نقص خطير في مياه الشرب، ومن ثم إلى عجز مشروع العين الزرقاء عن تأمين حاجة أهل المدينة وروادها للمياه.

لذا طرحت بدائل عدة أهمها: تحلية مياه البحر في منطقة قريبة وجرها إلى المدينة، فهذا مصدر دائم مادام البحر موجوداً، فضلاً عن أن طريقة التحلية الآلية تنتج طاقة كهربائية كبيرة تسهم في إنارة المنطقة، فتخفف تكلفة التحلية نسبياً، وقد رفع المتخصصون دراسات وافية عن المشروع، فأقره الملك خالد بن عبدالعزيز، وكلف إحدى الشركات بتنفيذه.

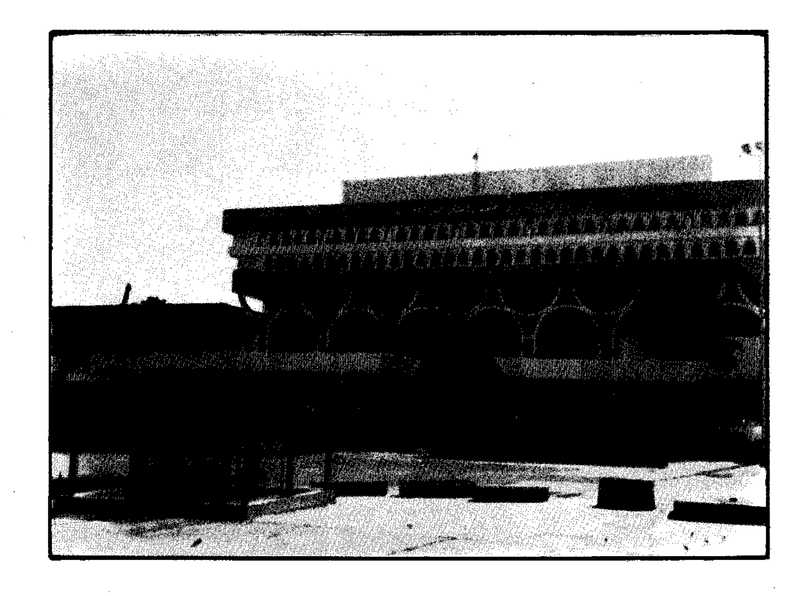
أقيمت محطة التحلية في ينبع لتشمل خدماتها ينبع والمدينة، وجرت المياه بالأنابيب إلى المدينة بطاقة قدرها ٢٥ مليون جالون يومياً، كما أقيمت أبراج ضخمة تحمل خطوط نقل الكهرباء إلى المدينة بطاقة قدرها ربع مليون كيلو واط، وأنجز المشروع خلال سنتين، وبنيت محطة استقبال آلية في منطقة قباء كما بنيت خزانات مناسبة.

ودخل القرن الخامس عشر الهجري يحمل أول هدية للمدينة المنورة، مياه البحر المحلاة، وطاقة كهربائية عالية، ففي الثامن والعشرين من شهر محرم عام ١٤٠١هـ افتتح الملك خالد بن عبد العزيز محطة استقبال المياه المحلاة في قباء وأدار محبس المياه لتتدفق المياه العذبة إلى البيوت.

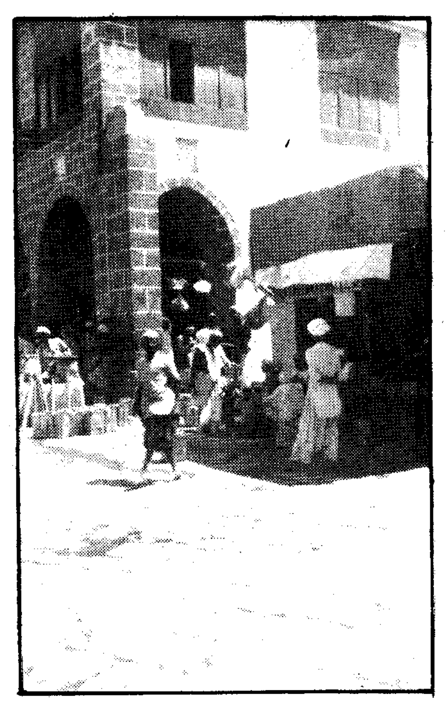
وقد أسهم هذا المشروع في حل أزمة المياه الصعبة واستفادت منه

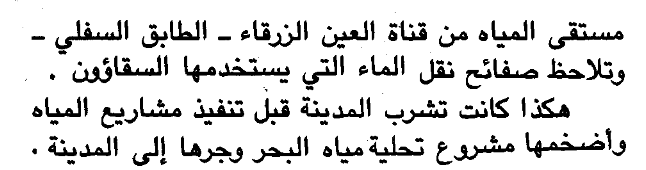


فرع مؤسسة تحلية مياه البحر في المدينة



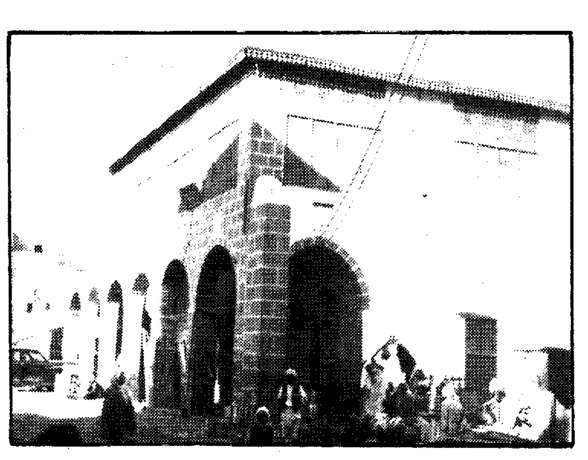
مكتبة الملك عبد العزيز





مستقى المياه من قناة العين الزرقاء ـ الطابق السفلي ـ وتلاحظ صفائح نقل الماء التي يستخدمها السقاؤون .

هكذا كانت تشرب المدينة قبل تنفيذ مشاريع المياه وأضخمها مشروع تحلية مياه البحر وجرها إلى المدينة .



إدارة العين الزرقاء ـ الطابق العلوي ـ

المدينة فوائد كبيرة.(١) ولكن، ومع الطفرة الكبيرة التي شهدتها المدينة في النصف الثاني من هذا العقد، أصبح المشروع في حاجة إلى توسعة، وتجري الآن هذه التوسعة حيث يتم الاستعانة بعدد من الآبار في المدينة بما فيها آبار عين الزرقاء نفسها، كما يجري توسعة محطة التحلية لرفع طاقتها الإنتاجية الى ٤٠ مليون جالون يومياً، و٤٠ (ميجاوات) من الكهرباء ، ومن المقرر أن ينتهي مشروع التوسعة عام ١٤١٦ هـ ، حيث سيزود خط التحلية المدينة والقرى التي يمر بها بالماء العذب ، ويتجاوزها حتى يصل إلى المليليح .

مكتبة الملك عبد العزيز مجمع المكتبات الأثرية:

اشتهرت المدينة المنورة بمكتباتها الأثرية كالمكتبة المحمودية، ومكتبة عارف حكمت ومكتبة قرة باش وغيرها، وقد تجاوز عددها في أواخر العهد العثماني ثمانين مكتبة تضم كنوزاً كبيرة من المخطوطات التراثية القيمة، وتتوزع هذه المكتبات في مبان مختلفة بعضها جيد كمبنى مكتبة عارف حكمت وبعضها قديم متداع، كما أن طريقة حفظ هذه الكتب ليست نموذجية في الغالب، ثم إن كثيراً من هذه المكتبات تقع في المنطقة الملاصقة للمسجد النبوي والتي ستدخل في التوسعة وإعادة تنظيم المنطقة.

لذا، ولكي لاتضيع هذه الكنوز التراثية الثمينة صدرت الموافقة السامية بإنشاء مكتبة باسم مكتبة الملك عبد العزيز لتضم المكتبات التراثية في المدينة المنورة، وتحفظ كنوزها بطريقة فنية حديثة، كما تضم أكبر مركز للكتب المطبوعة في المدينة المنورة.

ووضعت التصميمات اللازمة وقام جلالة الملك فيصل رحمه الله بوضع حجر الأساس للمكتبة في الثالث من شهر محرم عام ١٣٩٣هـ وقد افتتحها خادم الحرمين الشريفين في ١٦محرم ١٤٠٣هـ.

وبدأ نقل المكتبات التراثية اليها، وكانت المكتب المحمودية أول مانقل

---

١) انظر محمد صالح البليهشي المدينة اليوم ص ٢٠١-٢١١.

إليها، وقد نظمت المكتبة بحيث تحفظ لكل مكتبة تراثية استقلاليتها ليستفيد الباحث من الفهارس المطبوعة والمنتشرة في أنحاء العالم، كما زودت المكتبة بأحدث المراجع والمصادر والكتب المطبوعة وبوحدات (للمكيروفيلم، والميكروفيش) ووحدة للتجليد، فضلاً عن مخازن للكتب، ويوجد في المكتبة صالات للاطلاع وخلوات للبحث وقاعة كبيرة للمحاضرات.

مصحف المدينة المنورة

بين المدينة المنورة والمصحف الشريف علاقة تاريخية متميزة، ففيها جمع المصحف لأول مرة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفيها وحدت نسخه في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ووزعت على الأمصار، ليكون ذلك المصحف الموحد المصحف المعتد للأمة على امتداد القرون.

وفي العصر الحديث، وبعد ظهور الطباعة وتقدمها الهائل، أصبحت الحاجة ماسة لطباعة مصحف كامل في ضبطه وموافقته للقراءات الصحيحة، لمواجهة أية محاولة يقوم بها أعداء الإسلام للتحريف، ولضمان السلامة التامة من الخطأ، وتقديمه للمجتمعات الإسلامية المنتشرة في أطراف الأرض والمتزايدة عاما بعد عام.

وقد وفق الله خادم الحرمين الشريفين للأمر بإنشاء مجمع متكامل لطباعة المصحف الشريف وترجمات معانيه إلى اللغات المختلفة، وإصدار تسجيلات صوتية لمشاهير القراء، ليكون ذلك كله خدمة لكتاب الله وهدية للعالم الإسلامي.

وفي السادس عشر من شهر محرم عام ١٤٠٣ هـ قام خادم الحرمين الشريفين بوضع حجر الأساس للمجمع، ووجه الشركة المنفذة لإنجازه على أحسن وجه في مدة قصيرة، وكان ذلك، ففي شهر صفر من عام ١٤٠٥ هـ افتتح خادم الحرمين الشريفين المجمع وبدأ توزيع الدفعات الأولى من إنتاجه. وتصل الطاقة الإنتاجية إلى ثمانية ملايين نسخة للوردية الواحدة سنويا،

مجمع مطبعة المصحف الشريف

ويضم المجمع أحدث ما توصل إليه عالم الطباعة من آلات ومعدات وأكثرها دقة، ويشرف على تشغيلها مجموعة من المتخصصين ذوي الكفاءة العالية. كما يضم مدينة سكنية للعاملين فيه، والمرافق اللازمة، وقد روعي في البناء إظهار الفن المعماري الإسلامي بتشكيلاته ونقوشه الجمالية المتميزة

وفاة الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز:

أُصيب أمير المدينة عبد المحسن بن عبد العزيز بمرض عضال، وبعد علاجات عدة أخرت سريان المرض إلى حين، اشتد عليه المرض في عام ١٤٠٢هـ ونقل إلى مستشفى الملك فيصل التخصصي في الرياض، حيث وافاه الأجل المحتوم عام ١٤٠٥هـ، وقام بإدارة أمور المدينة في غيابه وكيل الإمارة ناصر السديري.

تعيين الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز:

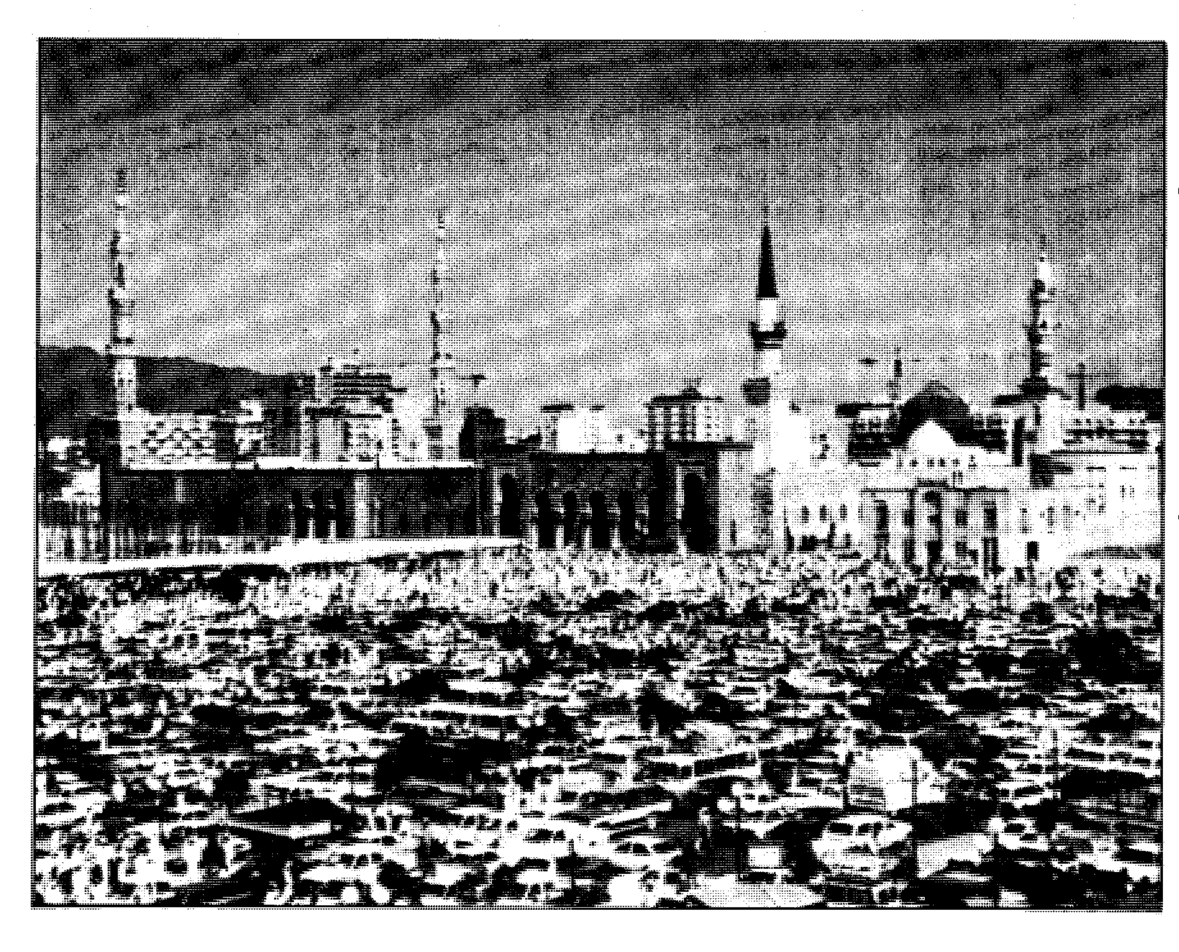
صدر مرسوم ملكي بتعيين الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز أميراً للمدينة المنورة بتاريخ ١٤٠٦/٥/١٥هـ وكان قبل ذلك أميراً لمنطقة تبوك، وقد شهدت مدينة تبوك في عهده تطورات واسعة وقامت برعايته مشاريع زراعية وصناعية وعمرانية ضخمة، فجاء تعيينه أميراً للمدينة المنورة ليعزز الآمال المعقودة على تطوير المدينة المنورة.

زيارة سنوية لمتابعة التطوير

اهتم خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبد العزيز بمتابعة تطوير المدينة اهتماما خاصا، فأمر بتشكيل لجنة وزارية خاصة برئاسته، تجتمع دوريا لمتابعة التطوير ووضع الخطط المستقبلية، وأصبح يخص المدينة بزيارة سنوية بدءا من عام ١٤٠٥ هـ، للإطلاع على مايتم إنجازه وإصدار التوجيهات اللازمة للمراحل التالية.



الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز أمير منطقة المدينة المنورة الحالي



أدى النمو السكاني للمدينة المنورة وتطور المواصلات إلى الازدحام الشديد
في المسجد النبوي وبدت الحاجة ملحة لتوسعته

توسعة المسجد النبوي ملحمة عمرانية حديثة:

تعد هذه التوسعة بحق ملحمة عمرانية حديثة، لا لأنها أكبر توسعة في تاريخ المسجد النبوي، فكل توسعة حدثت في المسجد النبوي كانت تفوق ماقبلها وتسجل صفحة جديدة في تاريخه، إنما تعد ملحمة لأنها حملت تغييرات نوعية في حجمها، ومرافقها والخدمات المساندة التي أنشئت بسببها، ولأنها أيضاً تسببت في تغييرات عمرانية كبيرة، بدأت بالمناطق المحيطة بالمسجد النبوي، وامتدت إلى أقصى مناطق المدينة المنورة وضواحيها.

ومثلما تُحدث الحركة وسط ماء ساكن دواما تنداح دائرة إثر دائرة، أحدث مشروع توسعة المسجد النبوي حركة عمرانية وصلت إلى أطراف المدينة القصية، فالتوسعة اقتضت إدخال المناطق المجاورة للمسجد -وهي أسواق وأحياء كاملة- واقتضت إنشاء ساحات مساندة تحتها مواقف واسعة لعدة مئات من السيارات، والتوسعة اقتضت أيضاً تهيئة خدمات فندقية وتسويقية لمئات الآلاف من الزائرين الذين سيستوعبهم المسجد، ومن ثم اقتضت تغير الخريطة السكنية في الدائرة المحيطة بالمسجد النبوي، وإنشاء مجمعات سكنية ضخمة تحتوي آلاف الغرف والشقق للزائرين ومئات الدكاكين والمكاتب، وهذا يعني هدم المنطقة السكنية في الدائرة الأولى المحيطة بالحرم وإعادة بنائها على شكل مجمعات سكنية، وقد استوعب هذا المشروع مساحة المدينة المنورة التي كانت داخل السور كلها، بكل ماكان فيها من شوارع وأحواش وأسواق وثكنات وقلاع، فالمدينة القديمة التي كانت تكمن خلف الأسوار ستظهر من جديد مدينة حديثة ذات شوارع فسيحة وأبنية متناظرة تتنافس في التجهيزات الحديثة والجميلة، وتتنافس في توفير الراحة لزوار المدينة وأهلها.

وقد أدت هذه التغييرات إلى هجرة الساكنين في المنطقة الدائرية الأولى إلى أن ينتهي البناء الجديد على أقل تقدير، وقام كثير منهم وخاصة الذين

دخلت عقاراتهم في التوسعة أو في المشاريع المساندة وعوضوا عنها، والذين باعوا عقاراتهم لشركات بناء المجمعات الجديدة، قاموا ببناء بيوت وعمارات جديدة في مناطق أخرى في المدينة، ونشط المقاولون في إنشاء عمارات وفيلات جديدة ليلبوا حاجة الباحثين عن مساكن جديدة لسكنهم أو لاستثماراتهم أو للأوقاف التي يشرفون عليها، واتسع البناء، وامتد إلى الضواحي وظهرت في السنتين الأخيرتين من هذا العقد مئات المساكن الجديدة.

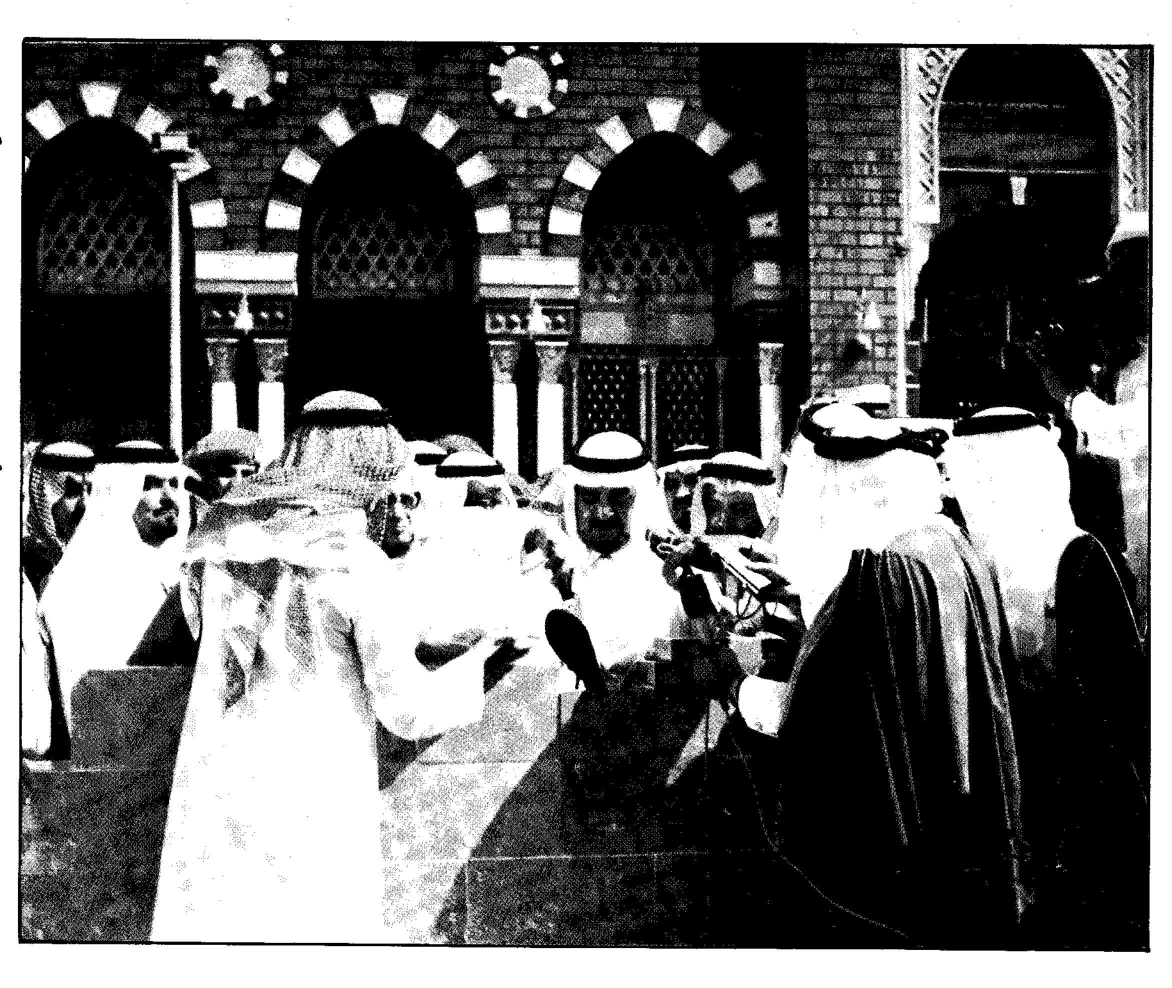
ولاشك أن مشروع توسعة المسجد النبوي هو المحور الرئيسي لهذا التيار العمراني المتدفق، وهذا مايجعلنا نسميه بجدارة الملحمة العمرانية الحديثة.

طبيعة التوسعة:

تتألف التوسعة من مبنى ضخم يضم طابقاً منخفضاً (تحت الأرض) وطابقاً فوق الأرض متصلا بالمبنى الحالي، وطابقاً علوياً يضم رواقاً وقباباً فوق سطح الطابق الأرضي.

وقد صممت التوسعة بشكل يحافظ على المبنى الجنوبي القديم للمسجد، ويجعله في منتصف واجهة مبنى ضخم يقف وراءه ويتصل به، ولو تخيلنا صورة نصفية لرجل واسع الكتفين، لكان الرأس موقع المبنى القديم، وبقية الصورة موقع التوسعة، فيعود إلى الأذهان التصميم الذي قامت عليه التوسعة السعودية الأولى، والذي وضع مبدأه الرئيسي الملك عبد العزيز رحمه الله، وهو المحافظة على القسم التراثي من المسجد (القسم الجنوبي من المبنى العثماني) والامتداد من بعده، وقد جاء الامتداد هذه المرة شرقاً وغرباً وشمالا، وبمساحة كبيرة جداً، تستوعب شوارع وأسواقاً كانت قائمة من قبل.

بدأت فكرة المشروع اثر تولي خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز الحكم، فقد زار المدينة عام ١٤٠٣هـ وعلم بالازدحام الشديد الذي يحدث في المواسم وأيام الجمع، وأصدر أمره بوضع التصميمات لتوسعة



وفي الخامس من شهر صفر عام ١٤٠٥ هـ والموافق للثاني من شهر نوفمبر تشرين الثاني قام خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز بوضع حجر الأساس للتوسعة الجديدة

جديدة ضخمة تستوعب الزيادات المتوقعة في الأعوام القادمة، وقامت شركات استشارية عالمية بوضع التصميمات وعرضت عليه، وناقشها مع المختصين، وأمر بعدد من التعديلات، فأجريت التعديلات وجهزت التصميمات والخرائط بشكل نهائي، وصدر مرسوم ملكي ببدء العمل بالمشروع، وكلفت مؤسسة ابن لادن -التي قام مؤسسها الشيخ محمد بن لادن رحمه الله بتنفيذ التوسعة السعودية الأولى- بتنفيذ المشروع الحالي وأطلق عليه اسم (مشروع خادم الحرمين الملك فهد لتوسعة المسجد النبوي الشريف).

وفي الخامس من شهر صفر ١٤٠٥هـ الموافق للثاني من نوفمبر تشرين الثاني ١٩٨٤م قام خادم الحرمين الشريفين بعد أداء صلاة الجمعة بوضع حجر الأساس للتوسعة الجديدة، وأزاح الستار عن لوحة تذكارية وضعت شرقي باب أبي بكر الصديق إيذاناً ببدء العمل في المشروع، وأمر بتشكيل لجنة تنفيذية برئاسة أميرا لمدينة المنورة عبد المجيد بن عبد العزيز للإشراف على المشروع ومتابعته، وعقدت اللجنة عدة جلسات ووضعت برنامج عمل زمني للتنفيذ، وبدأت أولى خطوات التنفيذ باستملاك العقارات التي ستشملها التوسعة والخدمات المساندة، وتقدر مساحتها بمائة ألف متر مربع من الأراضي المجاورة للمسجد، وتشمل من الجهة الشرقية حارة الأغوات وجزءاً من شارع الملك عبد العزيز والسنبلية وتصل إلى شارع أبي ذر الغفاري، والشارع الموازي له، وتشمل غرباً منطقة المظلات التي أقيمت في موقع شارع العينية وسوق القماشة إلى المناخة، وشمالا شارع السحيمي، وشكلت لجان لتقدير ثمن العقارات المنزوعة فبلغت حوالي سبعمائة مليون ريال، بدأت الدولة بصرفها بعد استلام العقارات، وبدأت الشركة المنفذة هدم المنشآت وإزالة المباني القائمة.

كانت المباني الموجودة في المنطقة تتراوح بين البيوت الشعبية والعمارات الكبيرة والحديثة، وبدت عملية الهدم والإزالة وكأنها عملية مسح مدينة كاملة،

الملحمة العمرانية الضخمة

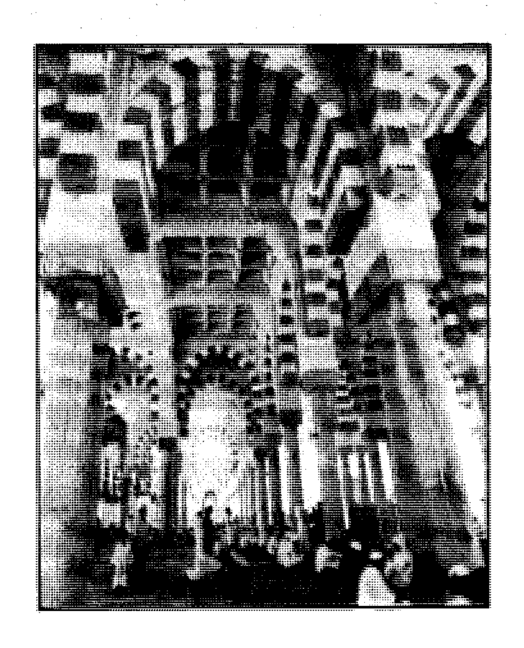
واستخدمت جرافات ضخمة لإسقاط المباني بطرق فنية آمنة، ويقوم تقرير الشركة المنفذة إنها هدمت وأزالت ماحجمه ٥٣٥٠٠ متر مربع من المباني الشعبية، و ٨٢٠٠٠ متر مربع من المباني الخرسانية، وذلك من الناحيتين الشمالية والشرقية لأرض التوسعة فقط(١).

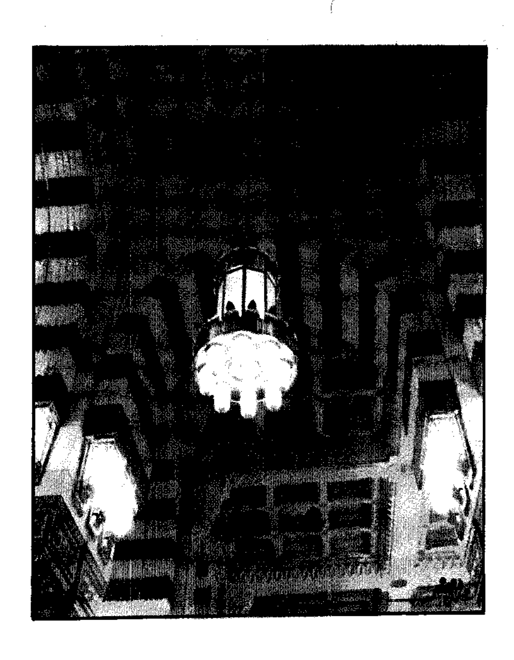
بعد ذلك بدأت عمليات حفر عمليقة لتهيئة موقع لطابق تحت الأرض ولحفر الأساسات القادرة على حمل المبنى الضخم الذي سيقام عليها، والقابل للتعلية في المستقبل، بدأت أجهزة الحفر الحديثة والضخمة تشق الأرض في منطقة التوسعة، ونزلت إلى عمق يزيد على عشرة أمتار، ثم حفرت آبار عميقة للأوتاد، فقد قرر المهندسون المختصون استخدام نظاما لأوتاد للأساسات، وتتراوح أطوالها بين ١٨-٤٥ متراً حسب ماتظهره دراست طبقات الأرض في كل جزء من التوسعة، لترتكز على الصخر تحت الأرض، وحسب الإنشاء الذي سيحدث فوقه، وقد بلغ عدد الأوتاد الإسمنتية المغروسة في منطقة التوسعة ثمانية آلاف وخمسمائة وتد، استهلكت أكثر من ١٦٢٠٠٠ متر مكعب من الإسمنت المسلح.

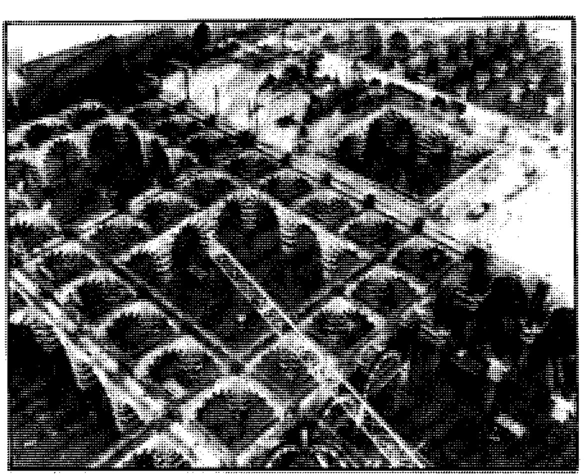
بعدها بنت الشركة أرضية سميكة من الإسمنت المسلح جاءت أشبه بحصير يصل بين الأوتاد كلها ويغطيها ويكون أرضية الطابق المنخفض (تحت الأرض) يرتفع سقف هذا الطابق أربعة أمتار، ويستند على ٢٥٥٤ عموداً من الإسمنت المسلح، وقد صمم هذا الطابق ليحتوي على شبكة الخدمات للمسجد النبوي وتضم: شبكة المياه وشبكة الصرف الصحي، ومجاري الهواء المبرد ومحركات دفعه (١٤٣) محركاً) وتجهيزات شبكة الإنذار وإطفاء الحريق، وشبكة مياه الشرب المبردة، وعشر محطات لتوزيع كهرباء

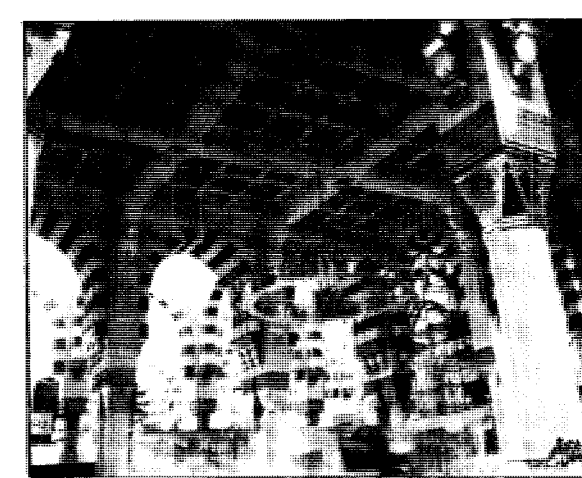
---

١) جميع الإحصائيات منقولة عن تقرير رفعته مجموعة بن لادن السعودية لمعالي أمين المدينة المنورة عن توسعة المسجد النبوي برقم ٤٥٦ وتاريخه ١٤١٢/٤/٢٨هـ والتقرير محفوظ في سجلات الأمانة.









الأقواس والسقوف فوق غابة من الأعمدة

الضغط العالي، وشبكة التحكم في الإضاءة، وأجهزة التحكم في القباب المنزلقة، وأنظمة الهاتف، وأنظمة الصوت والدوائر التلفزيونية المغلقة، وبعد سقف هذا الدور أرضية للدور الرئيسي المتصل بالمبنى القديم والذي سيكون موقع التوسعة ومكان المصلين.

وقد أقيمت رافعات ضخمة في جوانب التوسعة، ونظمت ثلاث ورديات تتناوب العمل بالتوالي على مدار الساعة، وقسمت كل وردية إلى فرق متخصصة، تقوم كل فرقة بإنجاز العمل الموكل إليها في قسم محدد من التوسعة، ووفق الخرائط المعتمدة، وبدأ المبنى الجديد يعلو فوق الأرض ويرتفع يوماً بعد يوم.

وبين الجدران التي كانت ترتفع ظهرت غابة من الأعمدة لتحمل الأقواس التي سيقف عليها السقف والقباب، وقد بلغ عدد الأعمدة في هذا الطابق ٢٥٦٧ عموداً تحمل ٣٨١٢ قوساً يرتكز عليه السقف والقباب، وتتباعد الأعمدة عن بعضها مسافة ٦ أمتار، وفي المناطق التي تعلوها قباب تتباعد الأعمدة ١٨ متراً لتشكل الأفنية الداخلية والأروقة، وتصطف الأعمدة في خطوط مستقيمة ومتناظرة تبدو لمن ينظر اليها وكأنها صف طويل بعيد الأمد، وتنتشر في هذا الطابق ٢٧ فسحة تغطي كل فسحة قبة متحركة يمكن فتحها وإغلاقها حسب حالة الطقس لتوفير الإنارة والتهوية.

وتغطي جدران المسجد وأعمدته بالمرمر الملون، وتكسى تيجان الأعمدة بالنحاس المزخرف، وقد روعي أن يكون شكل الأعمدة والتيجان مناظراً لمثيلاتها في التوسعة السعودية الأولى، اذ سوف تتحد التوسعتان وتتصلان لتكونا الشكل النهائي للمبنى الجديد، وستزال جدران التوسعة الأولى وتبقى أعمدتها وتتصل السقوف.

وقد شهد موسم حج عام ١٤١٢هـ فتح معظم أجزاء التوسعة للمصلين، فقد تم بناء السقف وركبت القبة المتحركة الأولى وبدأ إنجاز القباب المتحركة

القباب المتحركة... فن الزخرفة الإسلامية

الباقية وتركيبها، ورصفت أرض الطابق الأرضي بالمرمر، مدت الشبكة الكهربائية للإنارة ونقل الصوت وبدأ تشغيل أضخم مجموعة لتكييف الهواء في العالم -كما تقول نشرة الشركة المنفذة- فلم يسبق أن ركب تكييف مركزي واحد لمبنى يبلغ حجمه قرابة المائة ألف متر مربع.

أما الطابق الأعلى لمبنى التوسعة فالعمل جار فيه على أشده عند كتابة هذه السطور، وقد لايغادر الكتاب شفاه المطابع إلا والعمل منجز فيه، حيث سترصف أرض السقف بالرخام، وسيقام عليه رواق كبير، وسيتصل بالطابق الأرض عدد من السلالم الكهربائية والعادية ليصعد عليها المصلون في فترات الذروة وليصلوا في هذا الطابق العلوي.

وبذلك سترتفع قدرة المسجد على استيعاب المصلين في طابقه الأرضي والعلوي والساحات المحيطة به إلى أكثر من مليون مصل.

وتعد القباب المتحركة في المسجد النبوي واحدة من المنجزات الحضارية الحديثة، ويبلغ عددها سبعاً وعشرين قبة ضخمة، تركب كل واحدة منها على مساحة مربعة محيطها ١٨x١٨م لتغطي الفناء المكشوف في الطابق الأرضي من التوسعة، وستعلو القبة مسافة ٦٥ر١٦م عن الأرض، ويبلغ قطرها ٧٠ر١٤م وارتفاعها أربعة أمتار، وتزن ٨٠ طناً، وتتكون من هيكل فولاذي ضخم يزن ٤٠ طناً، يغطي من الداخل بطبقة من الخشب الخاص ثم بوجه آخر من الخشب المزخرف، منها أشكال هندسية محفورة باليد على قطع من خشب الأرز المغربي، ومنها قطع من حجر الأمازونيت الكيني داخل إطارات مذهبة، ومنها مساحات مغطاة بورق الذهب، حيث تحتوي كل قبة على مازنته ٥ر٢ كغ من ورق الذهب الرقيق الخالص.

أما الغلاف الخارجي للقبة فهو من السيراميك الألماني المثبت على قواعد من الجرانيت ويعلو القبة رأس يشكل نقطتها العلوية، وهو من البرنز المغطى بالذهب، وتتحرك القبة على أربع عجلات من الفولاذ الخالص مكسوة بمعدن

ضد الصدأ، ولكل عجلة محرك خاص بها قوته ٥ر٢ كيلو واط قادر على تحرك العجلة، وتحريك لاقبة كلها إن لزم الأمر، وتتحرك القبة على سكة فولاذية مغطاة بالمعدن المضاد للصدأ، والتي تمنع الضجيج أيضاً أثناء تحرك القبة، ويتم تحريك القبة من جهاز حاسوب (كمبيوتر) يمكنه فتح كل قبة وإغلاقها على حدة، كما يمكنه فتحها وإغلاقها جميعاً في وقت واحد، وتستغرق حركة القبة الكاملة بالمحركات دقيقة واحدة فقط، وقد روعي في التصميم إمكانية تحريك القبة باليد، حيث يستغرق فتحها وإغلاقها آنئذ ثلاثين دقيقة.

وقد صنعت القباب في مصانع الشركة المنفذة التي أقامتها في ضواحي المدينة.

منارات التوسعة:

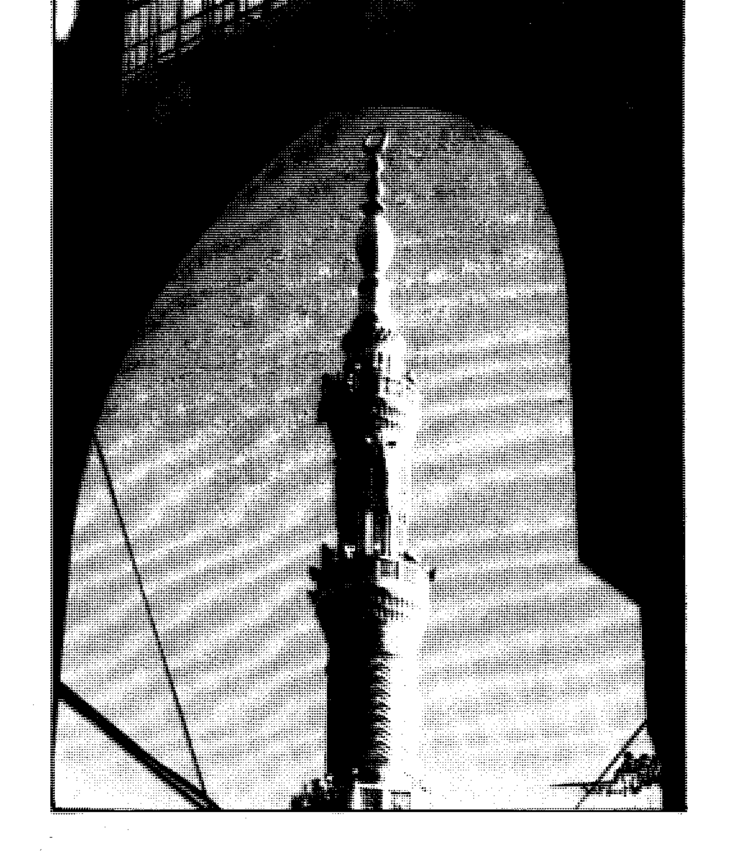
تشتمل التوسعة الجديدة على ست منارات جديدة، ارتفاع كل منها حوالي ١٠٤م أي بزيادة ٣٢ متراً عن إرتفاع المنارات في التوسعة الأولى.

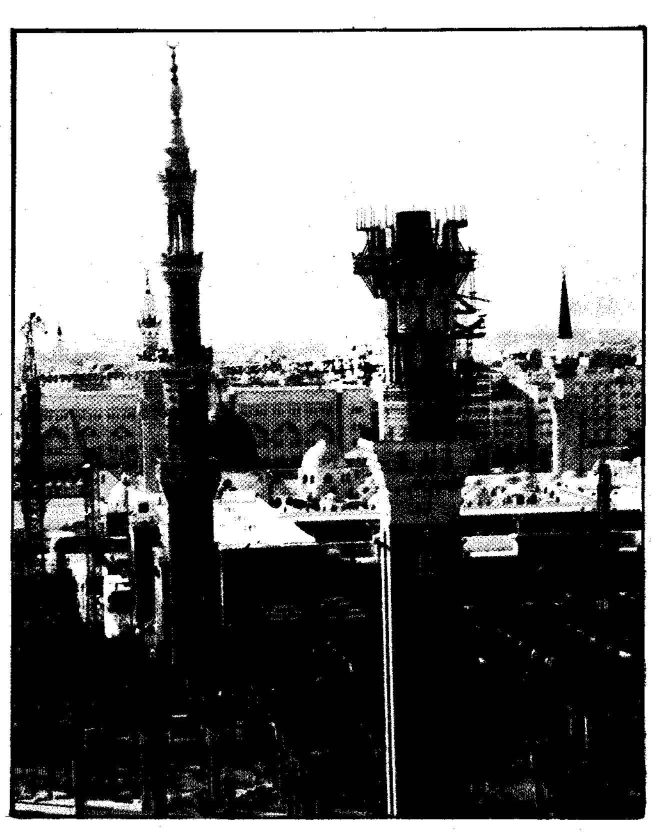
وتصطف أربع منارات في الواجهة الشمالية، واحدة عند الزاوية الشرقية، وأخرى عند الزاوية الغربية، واثنتان فوق البوابة الوسطى والتي سميت (باب الملك فهد).

وأما المنارتان الباقيتان فستكون أولاهما في الزاوية الجنوبية الشرقية لمبنى التوسعة، والأخرى في الزاوية الجنوبية الغربية، وبذا يصبح للمسجد النبوي عشر منارات.

وقد بنيت هذه المنارات وفق أحدث النظم الهندسية، فغرس في أرضية كل منارة مابين ١٦-٢٥ وتداً من الإسمنت المسلح، قطرا لوتد ١٠ر١م، وعمقه ٤٥-٥٠ متراً، ثم بنيت فوقها قاعدة من الإسمنت المسلح تصل بينها طولها ١٤ متراً، وعرضها ١٢ متراً، وسكها ٠٥ر٢ متراً، ثم يبدأ البناء الخارجي للمنارة، ويتكون هذا الشكل من خمسة أجزاء مختلفة.

الجزء الأول: مربع الشكل ضلعه ٥ر٥ متراً، وارتفاعه ٢٧ متراً، مغطى





بناء المنارات الجديدة

بحجر الجرانيت وينتهي بشرفة مربعة.

الجزء الثاني: مثمن الشكل قطره أيضاً ٥ر٥ متراً، وارتفاعه ٢١ متراً، مغطى بالحجر الصناعي الملون، وعلى كل ضلع عمود من المرمر الأبيض، بينها شبابيك خشبية، وينتهي هذا الجزء بشرفة مثمنة الشكل أيضاً.

الجزء الثالث: أُسطواني الشكل قطره ٥م وارتفاعه ١٨ متراً، ليس فيه فتحات ولا شبابيك وينتهي بشرفة دائرية.

الجزء الرابع: أُسطواني الشكل قطره ٥ر٤ متراً، وارتفاعه ١٥ متراً، وعليه أقواس مثلثة تستند إلى أعمدة رخامية بيضاء.

والجزء الخامس والأخير: بيضوي الشكل ينتهي بهلال برونزي ارتفاعه ١٢متراً، منه ٧ر٦م ارتفاع الهلال وحده، ويزن الهلال أربعة أطنان، وهو من النحاس المغطى بقشرة من الذهب عيار ١٤ قيراط.

تبريد الهواء في المسجد النبوي:

من المعروف أن مناخ المدينة المنورة حار في معظم أيام السنة، وباستثناء فصل الشتاء اعتاد سكان المدينة المنورة في هذا الزمن أن يستخدموا مكيفات الهواء في بيوتهم وأماكن عملهم.

ونظراً لمكانة المسجد النبوي ولتوفير الراحة لمن يقصده من المصلين والمعتكفين في تلك الأيام الحارة، أمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز بإقامة مشروع لتبريد الهواء في المسجد كله، رغم مساحته الضخمة، ووضعت التصاميم لأضخم مشروع تكييف في العالم، فمساحة المسجد النبوي بعد التوسعة -كما أسلفت- ستقارب المئة ألف متر مربع، وإذا أخذنا في الاعتبار أن السقف الداخلي يرتفع قرابة ثلاثة عشر متراً أدركنا الحجم الهائل للمساحة التي ستبرد، وهذا يقتضي مصنعاً ضخماً ومحركات ذات قدرة عالية.

لذلك تقرر أن يقام مصنع التكييف بعيداً عن المسجد النبوي تجنباً

لضجيج المحركات، ولتسهيل عمليات التشغيل والصيانة، واختير له منطقة تبعد عن المسجد سبعة كيلو مترات في الإتجاه الغربي على سفح حبل جماء عاقر الشرقي، كما تقرر أن يكون التبريد بطريقة المياه المبردة، أي أن مصنع التبريد يبرد كميات ضخمة من الماء، تضخ في مواسير تمتد تحت الأرض إلى الطابق السفلي للتوسعة، حيث تجري هناك في شبكة من الأنابيب العرضية الدقيقة، تتوزع عليها مجموعة من مضخات الهواء القوية يبلغ عددها ١٤٣ مضخمة، ويمر الهواء الخارج من المضخات بشبكة المياه المبردة، فيبرد ويسير في مواسير التكييف إلى فتحات موزعة في قاعدة الأعمدة في الطابق الأرضي للمسجد النبوي.

وقد أقيم مصنع التبريد على مساحة قدرها سبعون ألف متر مربع، وفي المصنع ستة محركات للتبريد يتم تشغيل خمسة منها لتوفير الهواء البارد اللازم، ويبقى المحرك السادس احتياطياً، وتبلغ طاقة المحركات الخمسة سبعة عشر ألف طن من الهواء المبرد.

نفق الخدمات:

تمتد مواسير نقل الماء المبرد من مصنع التبريد إلى الطابق السفلي لمبنى التوسعة في نفق ضخم أقيم لتأمين الخدمات المختلفة، ويتكون النفق من شارع تحت الأرض طوله سبعة كيلو مترات وعرضه ٢ر٦متراً وارتفاعه ١ر٤ متراً مبني من الإسمنت المسلح، وبعمق يتراوح بين أربعة أمتار وستة عشر متراً، ويمر النفق من تحت نفق المناخة والساحات المحيطة بالتوسعة، ومن خلال مبنى مواقف السيارات السفلي ويصل إلى المبنى السفلي للتوسعة.

ساحات حول المسجد النبوي:

من مسلمات هندسة البناء أنه كلما كبر المبنى احتاج إلى ساحة فضاء أكبر، ومع أن المسجد النبوي بعد التوسعة لايمتد عمودياً مسافة كبيرة، فإن امتداده الأفقي الكبير يقتضي وجود ساحات واسعة حوله، تحافظ على فضاء

١ ـ نفق تبريد هواء المسجد النبوي وخدماته الفنية الأخرى أثناء إنشائه يمتد أكثر من سبعة كيلومترات.

٢ ـ مشروع مواقف السيارات من الجهة الجنوبية والعمل جار فيه وستكون ـ الساحات فوقه.

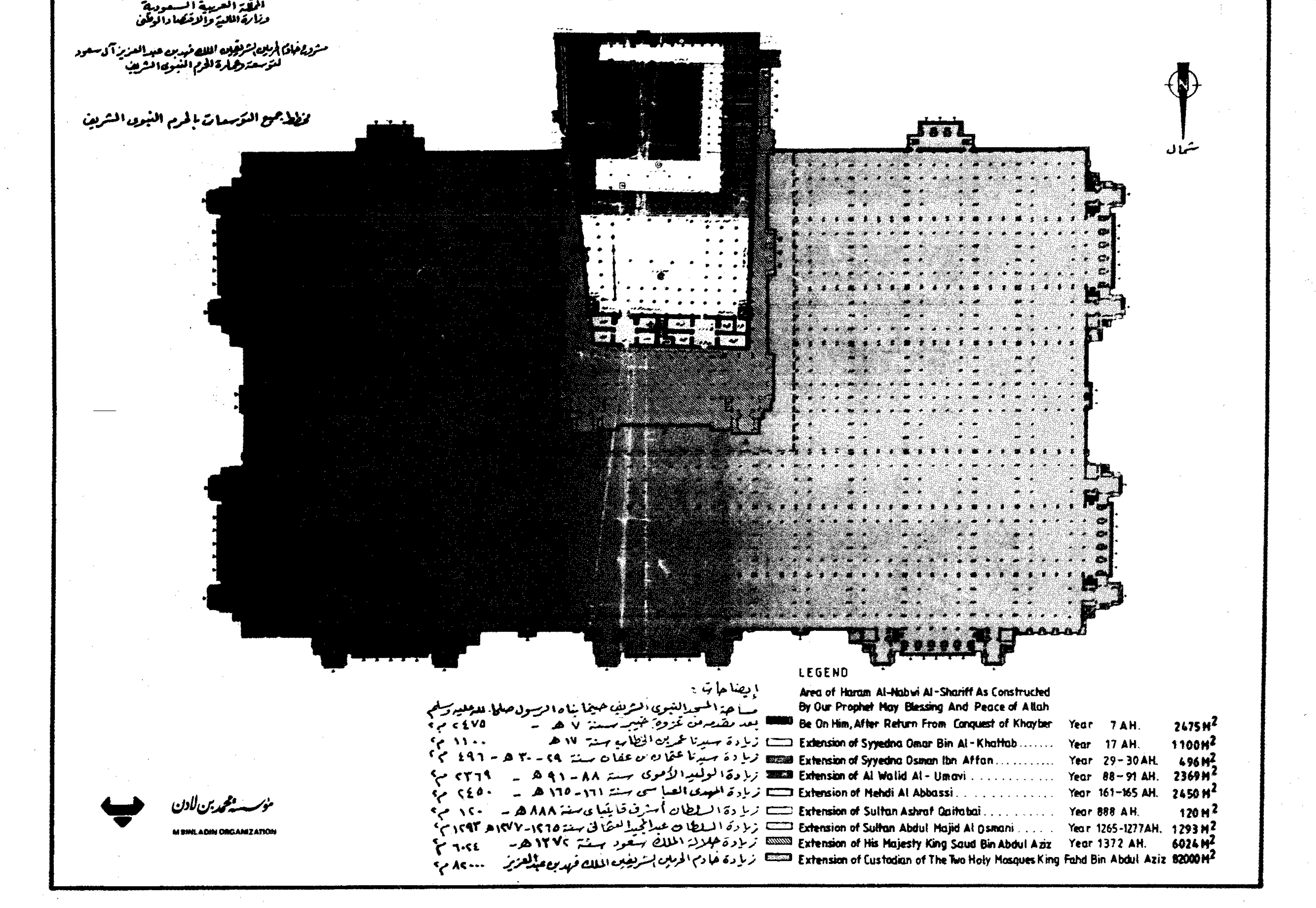
مفتوح حوله، وتبرز جماله، والأهم من ذلك كله تهيء مساحات إضافية للمصلين تستخدم عند الحاجة.

لذا روعي في تصميم التوسعة الجديدة أن تحيط به ساحات مغطاة بالرخام وفق أشكال هندسية اسلامية وبألوان مختلفة، تبلغ مساحتها ٢٣٥ر٠٠٠ متر مربع، وفيها مداخل للمواضيء السفلية ومواقف السيارات، واستراحة لكبار الزوار، وتتسع في حالة استخدامها استخداماً كاملا لـ ٤٠٠ر٠٠٠ مصل.

ولهذه الساحات أسوار وبوابات وتضيئها مصابيح شديدة الإنارة ترتفع فوق مائة وعشرين عموداً عالياً.

مواقف السيارات:

يستقطب المسجد النبوي المصلين والزوار من داخل المدينة وخارجها، ويقتضي وصول الأعداد الكبيرة إليه حركة مرور كثيفة جداً لن تحتملها الطرق العادية، كما أن المصلين والزائرين الذين يأتون بالسيارات يحتاجون إلى مواقف لسياراتهم ريثما يقضون صلاتهم وزيارتهم، وقبل التوسعة كانت تحدث في أوقات الصلاة في الأيام العادية عرقلة مرورية كبيرة، وفي أيام الجمع تبذل إدارة المرور جهوداً كبيرة لتخفيف هذه العرقلة وتنظيم وقوف السيارات الكثيرة، وعندما تتم التوسعة سوف تتضاعف الأعداد القادمة وخاصة أيام الجمع والمواسم، لذلك تقرر بناء مواقف واسعة للسيارات تحت الساحات المحيطة بالحرم، تحيط بالمسجد من جهاته الثلاثة: الشمالية والجنوبية والغربية، وتشتمل على طابقين يتسعان لأكثر من أربعة آلاف سيارة، وتتخلل المواقف بوابات للدخول والخروج، وطرق مناسبة للحركة داخل المواقف وبين طابقيه ليضمن سهولة الانسياب والحركة، وتتصل المواقف مع ساحات المسجد بـ ٥٦ سلماً كهربائياً متحركاً للصعود والنزول، و٢٨ سلماً عادياً، وألحق بالمواقف مجموعة دورات مياه، وأماكن للوضوء عددها ٢٥٠٠،



المملكة العربية السعودية
وزارة المالية والاقتصاد الوطني
مشروع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود
لتوسعة وعمارة الحرم النبوي الشريف
مخطط جميع التوسعات بالحرم النبوي الشريف
شمال
N
LEGEND
Area of Haram Al-Nabwi Al-Shariff As Constructed By Our Prophet May Blessing And Peace of Allah Be On Him, After Return From Conquest of Khayber Year 7 AH. 2475 M2
Extension of Syyedna Omar Bin Al-Khattab .... Year 17 AH. 1100 M2
Extension of Syyedna Osman Ibn Affan .... Year 29-30 AH. 496 M2
Extension of Al Walid Al-Umavi .... Year 88-91 AH. 2369 M2
Extension of Mehdi Al Abbassi .... Year 161-165 AH. 2450 M2
Extension of Sultan Ashraf Qaitabai .... Year 888 AH. 120 M2
Extension of Sultan Abdul Majid Al Osmani ...... Year 1265-1277 AH. 1293 M2
Extension of His Majesty King Saud Bin Abdul Aziz Year 1372 AH. 6024 M2
Extension of Custodian of The Two Holy Mosques King Fahd Bin Abdul Aziz 82000 M2
إيضاحات :
مؤسسة محمد بن لادن
M BINLADIN ORGANIZATION

ونافورات لشرب الماء البارد عددها ٥٦٠ نافورة، وفيها أجهزة مراقبة تلفزيونية ومخاطبة صوتية ومكاتب للإدارة، وغرف للأعمال الكهربائية والميكانيكية اللازمة، لذا لن يجد قاصد المسجد النبوي عناء في إيجاد موقف لسيارته.

وهكذا تتكامل مجموعة الخدمات حول المسجد النبوي، وتحتوي على تجهيزات حديثة ضخمة وهذه -كما أسلفت- واحدة من الأسباب التي تجعلنا نقول: إن التوسعة الجديدة ملحمة عمرانية حديثة.

تجديد المساجد الأثرية الأخرى في المدينة وتوسعتها:

في المدينة تراث كبير من المساجد القديمة تحمل في جنباتها ذكريات عهود مشرقة في قمتها العهد النبوي، حيث صلى الرسول ﷺ وصحابته الكرام في تلك المساجد ودعا لأهلها، كمسجد قباء أول مسجد في الإسلام الذي خطه الرسول ﷺ بيده الشريفة، وكمسجد الجمعة، ومسجد المصلى.. إلخ.

وقد وفق الله بعض الذين تولوا أمر المدينة من قبل للعناية بتلك المساجد بين عصر وعصر، فكان عمر بن عبد العزيز -كما مر بنا- أول من تتبع تلك المساجد وجددها وعني بها.

وفي هذا العصر وفق الله القائمين على تطوير المدينة المنورة إلى الاهتمام بتلك المساجد، وكان من بين توجيهات خادم الحرمين الملك فهد بن عبد العزيز إعادة بناء تلك المساجد وتوسعتها لتستوعب الأعداد الكبيرة من الزار والمصلين، وأهم تلك المساجد: مسجد قباء، ومسجد القبلتين، ومسجد الميقات.

ولا يفوتنا قبل أن نتحدث عن تطوير هذه المساجد أن نشير إلى أن جميع مساجد المدينة المنورة الأخرى لقيت عناية كبيرة، فأعيد بناء بعضها، ورمم بعضها الآخر وفرشت بالسجاد الجيد ووضعت فيها أجهزة التكييف

المناسبة.

تجديد مسجد قباء وتوسعته:

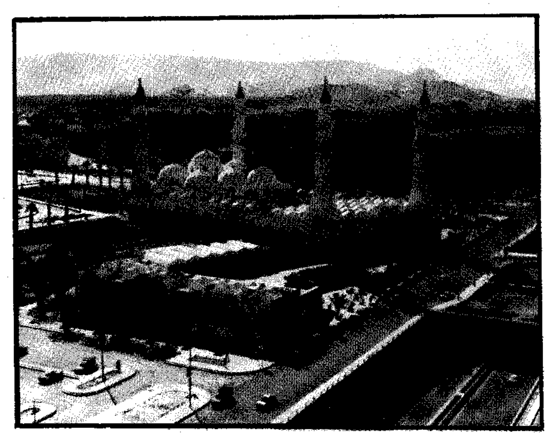
من المعروف أن مسجد قباء هو أول مسجد في الإسلام، فقد خطه الرسول ﷺ عندما وصل المدينة مهاجراً من مكة وشارك في وضع أحجاره الأولى ثم أكمله الصحابة، وكان رسول الله ﷺ يقصده بين الحين والآخر ليصلي فيه، ويختار أيام السبت غالباً وثمة أحاديث صحيحة تبين أن لمن صلى فيه أجر عمرة، جاء في الحديث (من تطهر في بيته وأتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة فله أجر عمرة) وفي حديث آخر (من خرج حتى يأتي هذا المسجد -يعني مسجد قباء- فصلى فيه كان كعدل عمرة).

لقي مسجد قباء شيئاً من العناية التي لقيها المسجد النبوي خلال العصور الماضية وكان أول من جدده عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم عمر بن عبد العزيز الذي بالغ في تنميقه وجعل له رحبة وأروقة، وهو أول من عمل له مئذنة، وفي سنة ٤٣٥هـ جدده أبو يعلى الحسيني، وفي سنة ٥٥٥هـ جدده جمال الدين الأصفهاني، وجدد أيضاً في سنة ٦٧١، ٧٣٣، ٨٤٠، ٨٨١هـ وفي زمن الدولة العثمانية عمر عدة مرات كان آخرها في عهد السلطان عبد المجيد، وآخر ترميم وتجديد كان بأمر جلالة الملك فيصل سنة ١٣٨٨هـ، وقد جدد في هذه العمارة تجديداً قيماً وخاصة في جدرانه الخارجية وزيد من ناحيته الشمالية، وقد كلف هذا الترميم قرابة ٨٠٠ ألف ريال(١).

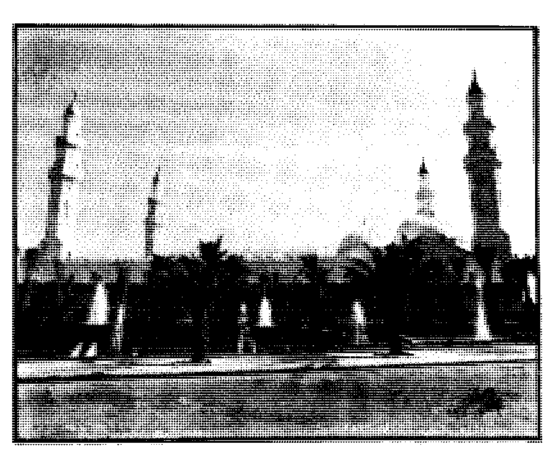
وضمن خطة العناية بالمدينة المنورة أمر خادم الحرمين الشريفين بوضع التصميمات لتجديد مسجد قباء وتوسعته، وفي زيارته للمدينة عام ١٤٠٥هـ عرضت عليه التصميمات ومعها مجسم للمبنى المقترح فلاحظ (أن معالم المسجد الحالي ستزول داخل التوسعة الجديدة، فأمر بإلغاء المخطط الموضوع، وإعداد مخطط جديد يبقى على المنبر والمحراب والمعالم القديمة،

---

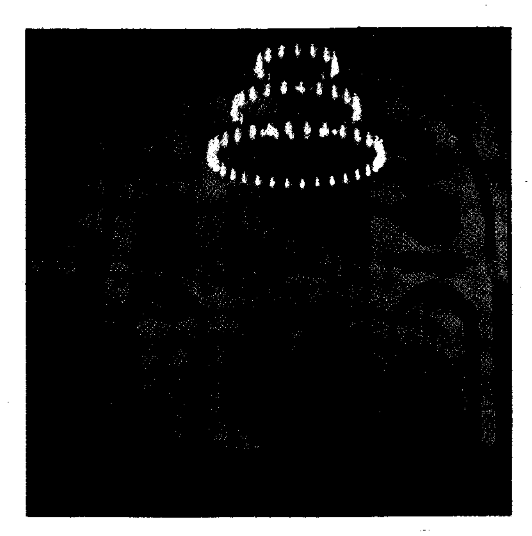
١) آثار المدينة المنورة ص ٨٣.



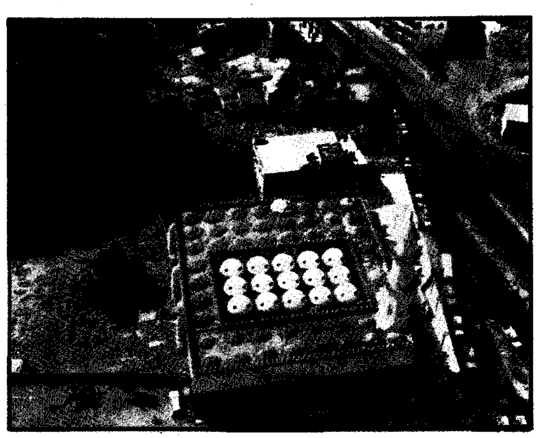
١ ـ مسجد قباء بعد التوسعة من الزاوية الشمالية الشرقية وتبدو في الصورة المباني السكنية والتجارية الملحقة بالمسجد.



٢ ـ الواجهة الغربية لمسجد قباء وقد زينت ساحتها بالنوافير والنخيل.



٣ ـ محراب مسجد قباء الجديد.



٤ ـ مسجد قباء قبل التوسعة الأخيرة وقد ضمت المنازل المجاورة إلى التوسعة.

ليتعرف المسلمون جيلا بعد جيل على الأماكن الأصلية والآثار النبوية الشريفة) (١) كما وجه القائمين على تنفيذ المشروع لإنشاء نفق عند تقاطع الطرق بمداخل المسجد لتسهيل حركة دخول المصلين وتيسير حركة المرور فوق الطريق الرئيسي(٢) وقامت شركة استشارية بإعادة التصميمات راعت فيها أن يحافظ المبنى الجديد على الشكل التراثي والمعالم التراثية بدقة، فجاء التصميم مطابقاً لتصميم المسجد في مبناه السابق، ولكن بعد مضاعفة حجمه أكثر من ثلاثة أضعاف، فقد كان قبل التوسعة مربع الشكل طول ضلعه ٤٠ متراً، أي أن مساحته الكلية ١٦٠٠ متراً فقط، بينما أصبح حجم المصلى فقط ٥٠٣٥م تتبعه مرافق للخدمات (موضأ للرجال وآخر للنساء وساحات وغرف ومكاتب ومساكن للإمام والمؤذن) تبلغ مجموع المساحة التي يشغلها المسجد مع مرافقه ١٣٥٠٠ متر مربع.

وأسندت مهمة إنجاز المشروع إلى مجموعة بن لادن السعودية وتم استملاك العقارات المجاورة التي ستدخل في التوسعة والمرافق المساندة، وبدأ هدم الجزء الشمالي من المسجد وبناء جزء من المبنى الجديد، وعندما انتهى تجهيز هذا القسم وأصبح مناسباً للصلاة فيه بدأ هدم الجزء الجنوبي وامتدت التوسعة به في الجهات الأربع، وأعيد بناؤه بالتصميم القديم نفسه ولكن جعل له أربع مآذن عوضاً عند مئذنته الوحيدة القديمة، كل مئذنة في جهة من جهاته الأربع، وترتفع المآذن ٤٧ متراً.

بني المسجد على شكل رواق جنوبي وآخر شمالي تفصل بينهما ساحة مكشوفة ويتصل الرواقان شرقاً وغرباً برواقين طويلين، ويتألف سطحه من مجموعة من القباب متصلة منها ٦ قباب كبيرة قطر كل منهما ١٢ متراً و ٥٦ قبة صغيرة قطر كل منها ٦ أمتار، وتستند القباب إلى أقواس تقف على

---

١) أيام خالدة في طيبة الطيبة ص ١٥٦.

٢) السابق نفسه.

أعمدة ضخمة داخل كل رواق، وكسيت أرض المسجد وساحته بالرخام العاكس للحرارة، وغطيت الساحة بمظلة سقفية متحركة من قماش الخيام المتين تفتح وتغلق آلياً.

وقد ألحق بالمسجد مكتبة ومنطقة تسويق لخدمة الزائرين.

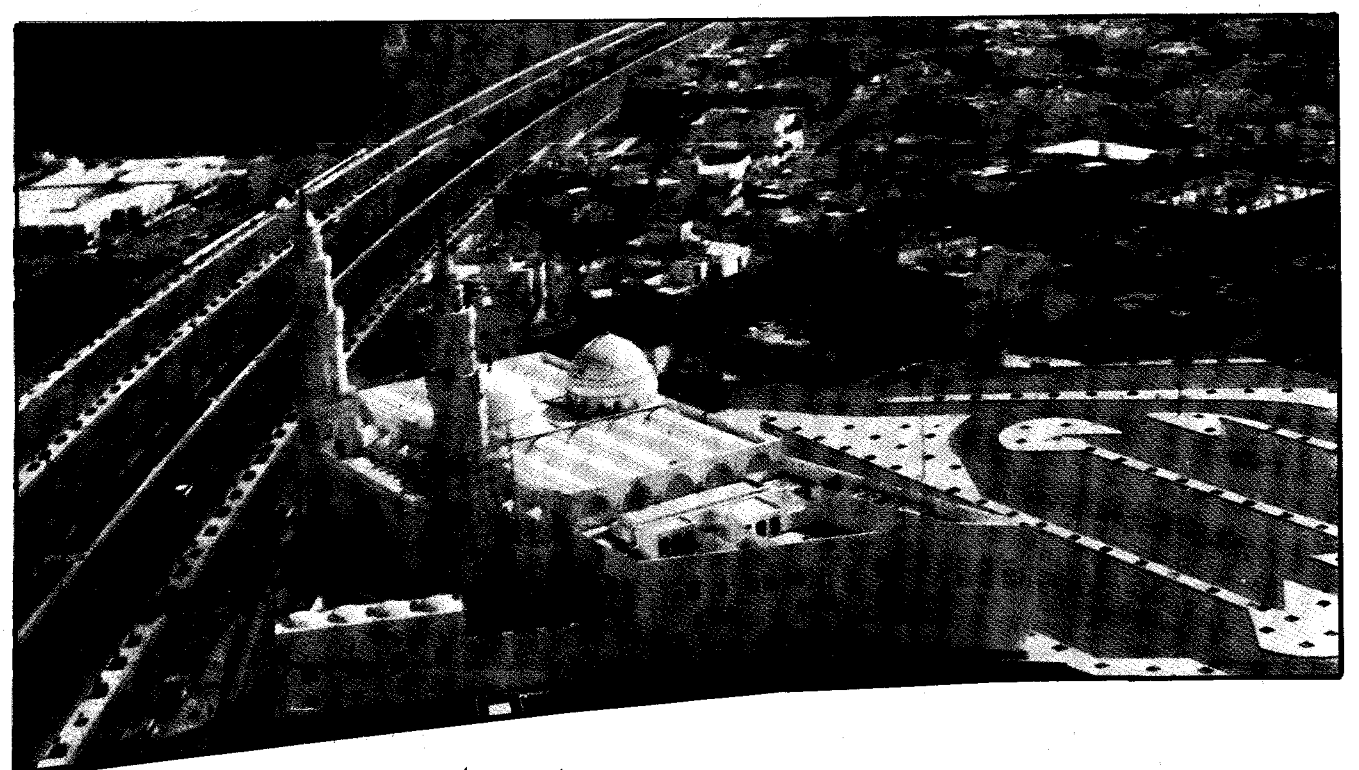
والجدير بالذكر أنه تم تجديد المسجد في زمن قياسي هو اثنا عشر شهراً فقط، وكان العمل يسير على مدار الساعة.

تجديد وتوسعة مسجد القبلتين:

يقع مسجد القبلتين إلى الشمال الغربي من المسجد النبوي على تلة صغيرة من تلال حرة الوبرة (الحرة الغربية) ويبعد عن المسجد النبوي ٥ كم تقريباً، وهو مسجد أثري كان لبني سَلَمَة وكان فيه محرابان، الأول متجه إلى بيت المقدس، والثاني إلى الكعبة، وقد حافظ القدماء على محرابيه، وخلال العصور الماضية جدد المسجد عدة مرات لعل آخرها التجديد العثماني في عهد السلطان سليمان القانوني عام ٩٥٠هـ كما يبين النقش الموجود على حجر رخامي فوق مدخل المسجد قبل توسعته الأخيرة.

ويؤم زوار المدينة هذا المسجد للصلاة فيه تبركاً، وكان قبل توسعته صغيراً يتألف من رواقين، الأول فيه المحراب المتوجه إلى بيت المقدس والثاني فيه المحراب المتوجه إلى الكعبة، ويبلغ حجم المسجد كله ٤٢٥ متراً.

وشملت خطة تطوير المدينة مشروعاً لتجديده وتوسعته، وتولت مجموعة بن لادن تنفيذه، فأقامت مصلى مؤقتاً بجانب المبنى وشرعت بإزالة المبنى القديم، ثم أزالت التلة المقام عليها، وأقامت مبنى جديداً واسعاً يتألف من طابقين، الطابق الأرضي ويشمل دورات المياه وأماكن الوضوء والمستودعات، والطابق العلوي وفيه المصلى ومساحته ١١٩٠ متر مربع، وخصصت شرفة واسعة (٤٠٠ متر مربع) للنساء تطل على ساحة المصلى، ورواقاً لتحفيظ القرآن الكريم، كما أقامت بجانب المسجد مجموعة سكنية للإمام والمؤذن



مسجد القبلتين الجديد معلم عمراني حضاري

والحارس وفناء داخلياً غرس بالأشجار فأصبح أشبه بحديقة صغيرة.

وقد بنيت قاعة المصلى على شكل سلسلة من القناطر تقوم على دعائم كبيرة ويرتفع فوقها قبتان متوازيتان، وبني المسجد بالطوب الأحمر وزخرف بنقوش إسلامية جميلة، كما وضعت فيه مصابيح ضخمة على شكل المصابيح العثمانية الدائرية فظهرت في المسجد أصالة العمارة الإسلامية في الشكل والمضمون، وللمسجد مئذنتان جميلتان تضفيان على شكله الخارجي نسقاً معمارياً متميزاً، يواجه القادم من طريق تبوك على مسافة بعيدة، ويبلغ حجم بنائه وساحاته أربعة آلاف متر مربع.

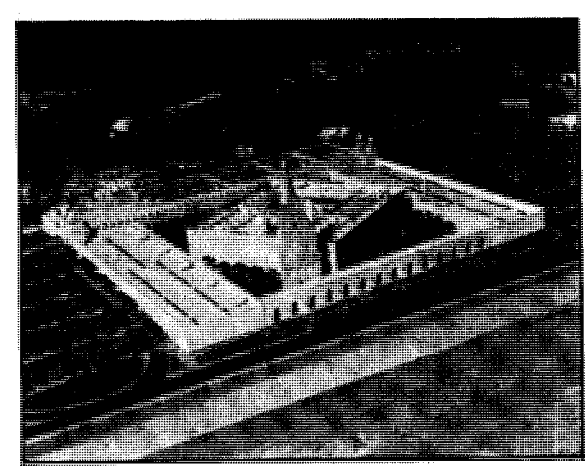
مسجد الميقات:

الميقات في المصطلح الشرعي هو: المكان الذي يحرم منه من نوى الحج أو العمرة، وميقات أهل المدينة وما خلفها من البلاد هو ذو الحليفة، وهو واد يبعد عن المسجد النبوي قرابة أربعة عشر كيلو متر غرباً في طريق مكة، وفي صحيح البخاري بسنده (وَقَّتَ رسول الله ﷺ لأهل المدينة ذا الحليفة)(١) وفي حديث آخر (أن رسول الله ﷺ إذا خرج إلى مكة يصلي في مسجد الشجرة) (٢) وفي كتب تاريخ المدينة أخبار عن وجود مسجد قديم في ذلك الموقع تم هدمه ثم إعادة بنائه في تواريخ غير معروفة، ويقرر السمهودي أن الموقع في الأصل كان فيه شجرة ينزل عندها رسول الله ﷺ يستظل بها ويصلي ركعتين ثم يركب ناقته ويهل بالإحرام، وأنه بُني في ذلك الموقع مسجد فيما بعد سمي بمسجد الشجرة أو مسجد ذي الحليفة، وهو مسجد

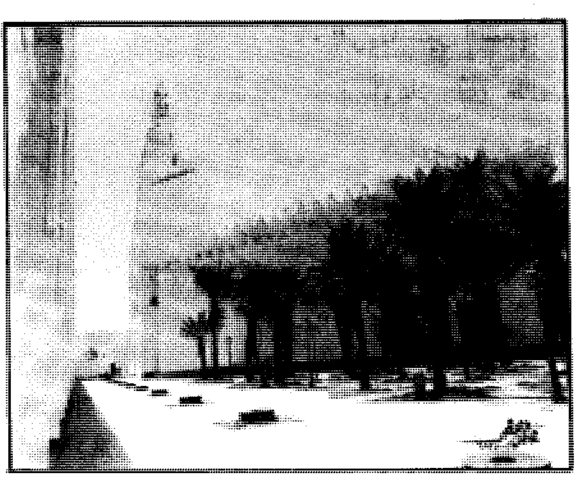
---

١) فتح الباري ٣/٤٥٣.

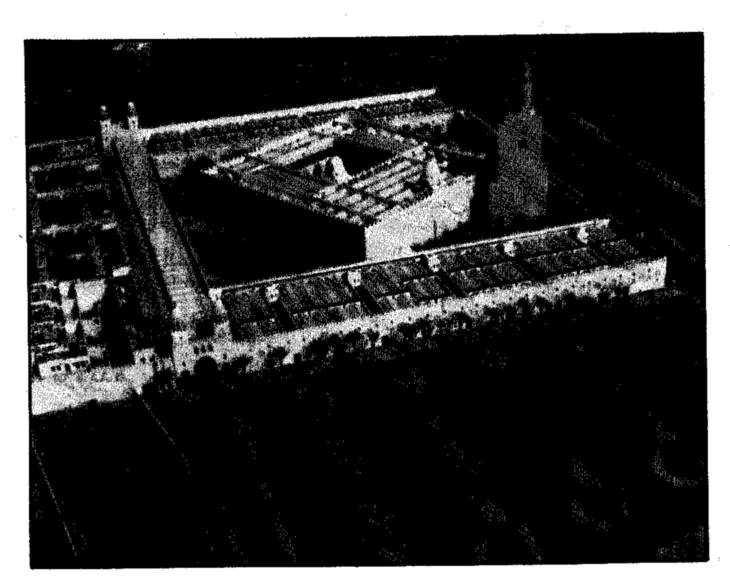
٢) السابق نفسه.



مسجد الميقات ويبدو مبنى المسجد وسط مباني خدمات المُحْرِمين الواسعة كما يبدو التشجير في ساحاته



المئذنة المتميزة والخضرة معلمان بارزان في مسجد الميقات



مسجد الميقات في بناه الجديد..
محطة خدمات كاملة للمُحْرِمين

الأرض المزروعة، كما خصصت قطعة أرض أخرى واسعة في أطراف المسجد لتكون حديقة، وقد بلغ مجموع الأراضي المزروعة في هذه المجموعة عشرة آلاف متر مربع وهذه ولاشك حديقة كبيرة تجعل من المسجد وملحقاته واحة وارفة الظلال.

وقد روعي في تصميم مجموعة مسجد الميقات أن يحمل مع دلالته الإيمانية دلالة تراثية تذكر من يتأمله بقوافل الحجاج على مدى التاريخ الإسلامي، فكسيت الجدران الخارجية بلون الرمال لتعبر عن ارتباط المبنى بصخور الجبال المحيطة به، وبالطريق الصحراوي الذي كان يجتازه الحجاج من قبل، كما أن أشجار النخل الباسقة والخضرة التي تغطي المساحة المزروعة في المسجد تنقل المسافر إلى جو الواحة وظلالها، فكيف اذا كانت هذه المشاعر رديفة لمشاعر التبتل والدخول في عبادة متميزة.؟؟.

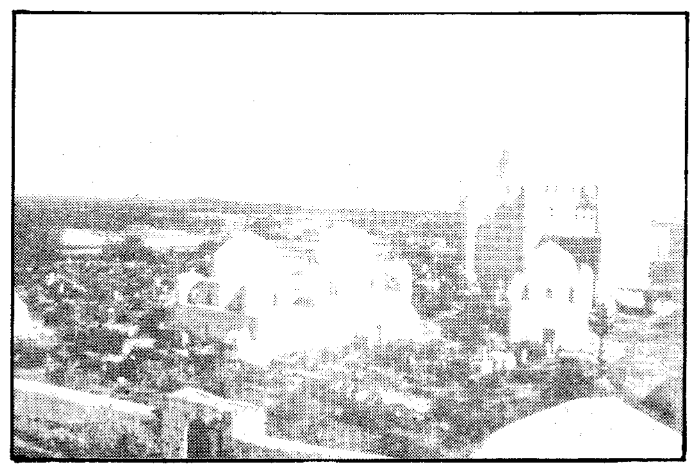
توسعة البقيع:

من المعالم المشهورة في المدينة المنورة اليوم على امتداد تاريخها الإسلامي بقيع الغرقد (والبقيع في اللغة موضع فيه أروم شجر من ضروب شتى، والغرقد شجر له شوك)(١) وهي مقبرة تقع شرقي المسجد النبوي، كان رسول الله ﷺ يزورها ويدعو للمدفونين فيها، وقد دُفن فيها أكثر من عشرة آلاف صحابي، منهم عدد كبير من آل بيت رسول الله ﷺ: بناته رقية، وأم كلثوم، وزينب، وابنه ابراهيم، ومعظم زوجاته، وعثمان بن عفان رضي الله عنه... الخ. وقد وسعت مساحة البقيع منذ العهد الأموي، وبلغت آخر الأمر قرابة خمسة عشر ألف متر (١٥٠x١٠٠) وسورت في العهد العثماني -كما يدل الحجر المنصوب على بوابته- ورمم السور في العهد السعودي.

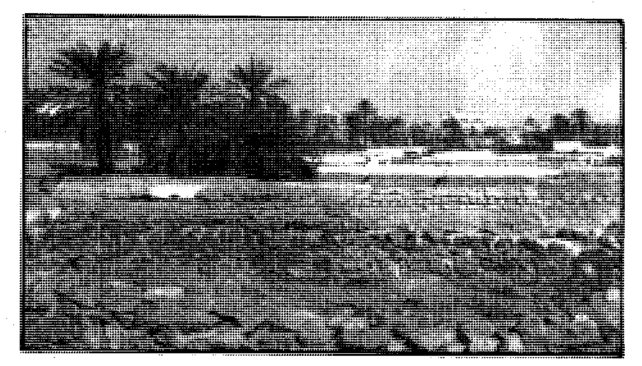
ومنذ العهد الفاطمي بدأ بناء القباب على بعض القبور في البقيع وازدادت تلك القباب في عهد المماليك ثم العثمانيين، وبالغ بعض سلاطين العجم في

---

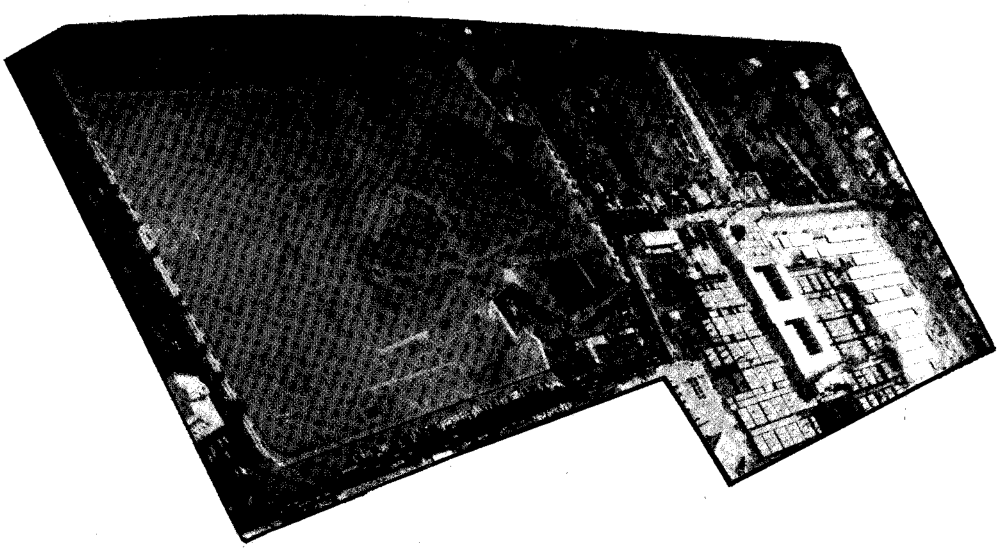
١) انظر لسان العرب ٣٢٦/١ ط دار المعارف بمصر.



نموذج من القبور التي كان عليها قباب: قبر عثمان بن عفان وعليه القبة الكبرى ثم قبر الإمام مالك ثم قبور زوجات الرسول ﷺ



الجانب الشرقي من البقيع قديماً. قبر عثمان بن مظعون وقبر فاطمة بنت أسد والدة علي بن أبي طالب رضي الله عنه



البقيع وقد أزيلت منه المظاهر غير الشرعية

تجميل القبة المبنية على قبر عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعندما دخلت المدينة في سيادة الدولة السعودية الأولى عام ١١٢٠هـ أزيلت تلك القباب وسويت القبور بالأرض اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ، وعندما دخلت جيوش محمد علي المدينة ١١٢٦هـ ثم سلمتها للعثمانيين عادت القباب وتضاعفت حتى غطت معظم منطقة البقيع كما تبين الصور التي التقطت في أواخر العهد العثماني.

ولما استسلمت المدينة لرجال الملك عبد العزيز بن سعود عام ١٣٤٤هـ أزال (١) (الإخوان) تلك القباب وسووا القبور بالأرض، وما لثبت الدولة أن رممت السور وجعلته من الحجارة ونظمت زيارة البقيع منعاً للبدع الضالة المضلة.

وفي عهد الملك فيصل جرت توسعة للبقيع حيث ضمت إليه بعض الأراضي المجاورة، وأعيد بناء السور.

ونظر لازدياد عدد سكان المدينة عدة أضعاف ولتضاعف عددا لزوار أيضاً، ولحرص الكثيرين على أن يدفنوا في البقيع ظهرت الحاجة الى توسعة البقيع، فوضعت خطة لإضافة مساحات كبيرة الى أرض المقبرة، وإعادة تسويرها بسور مرتفع (٤م) ومغطى بالرخام، يتألف من سلسلة من الأقواس وتشغل الفراغات بينها بشبك معدني مناسب.

---

١) انظر الخارطة المرفقة.

المدينة المنورة اليوم

نستعرض باختصار شديد الصورة العامة للحياة في المدينة المنورة قبيل الفراغ من إعداد هذا الكتاب.. حيث يخطو العقد الثاني من القرن الخامس عشر الهجري خطوته الثالثة في مدراج السنين، وننظر -خطفاً- في الحركة العمرانية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية..

أما الحركة العمرانية في المدينة اليوم، فتشبه (ورشة) عمل ساخنة، فحيثما ذهبت وجدت حركة إزالة، أو إنشاء، أو ترميم، أو تعديل، فمشروع توسعة المسجد النبوي الضخم قد شارف على الانتهاء تماماً، والمسجد النبوي يزهو اليوم بأروقته الفسيحة ومبناه الضخم المكيف الهواء، وقبابه الجميلة المتحركة، ومشروع الخدمات المساندة وبخاصة مشروع مواقف السيارت والساحات قد جاوز نصف الطريق إلى الإنجاز، والعمل يجري فيه على مدار الساعة، والدائرة العمرانية المحيطة بالمسجد النبوي قد أزيلت معظم أبنيتها، ويجري الآن إزالة الأبنية الباقية بسرعة كبيرة، وبدأت عملية التعويض، فحفرت أساسات بعض المجمعات السكنية التجارية الضخمة، ويسير العمل فيها على قدم وساق.

والدائرة العمرانية الثانية تشهد إنجاز عدد من المشروعات الحكومية وعشرات من المشروعات الأهلية، بدءاً بمشروع طريق الحلقة الدائرية الثانية، ومروراً بتزفيت بعض الشوراع أو إعادة تزفيتها، ووصولاً إلى بناء العمارات المختلفة الأحجام التي ترتفع يوماً بعد يوم.

والدائرة العمرانية الثالثة قد استكملت مد طريقها المزفت الطويل، وتشهد ظهور بعض الأبنية في البقع السكنية المنتشرة فيها، وإنجازاً لعدد من الشوارع والحدائق.

ومداخل المدينة قد أنجزت مشاريعها فصارت واسعة منظمة وجميلة، والشوارع الرئيسية غرست في أطرافها أو وسطها الأشجار وزينت دواراتها



بالخضرة ونوافير المياه، والحدائق المختلفة الأحجام قد انتشرت في كل منطقة من مناطق المدينة، والعمل مستمر في شوارع أخرى وراءها لتزفيتها أو تحسين تزفيتها أو رصف جوانبها أو غرس الأشجار فيها. لذا ففي كل منطقة في المدينة حركة إنشاء أو تحسين، وكأن تاريخاً عمرانياً جديداً يصنع الآن، بدأت ملامحه بمشروع توسعة المسجد النبوي، ثم امتدت إلى الدائرة العمرانية الأولى، ثم إلى مداخل المدينة وشوارعها وساحاتها، وأعتقد أنها ستصل بعد حين إلى البقع السكنية التي نمت عشوائياً قبل عقد من الزمن، لتصبح المدينة بعد ذلك مجموعة عمرانية متناسقة، قلبها المسجد النبوي حيث تبدأ منه الشوارع الرئيسية، وتدور حوله وتصب فيه.

ويدير الحركة العمرانية في المدينة المنورة اليوم جهتان رئيسيتان: هما اللجنة التنفيذية التي تهتم بالدائرة العقارية الأولى وبعض مشاريع تطوير المدينة، وأمانة المدينة المنورة، التي تهتم ببقية مناطق المدينة ومشروعاتها، وتقومان بجهود جبارة في سبيل إنجاز المشاريع القائمة، وتنهض أمانة المدينة المنورة بأعباء إدارة الحركة العمرانية المتسارعة في الدائرتين الثانية والثالثة وضبطها وتطبيق الخطط المقررة تطبيقاً كاملاً والحيلولة دون أية تجاوزات تسيء إلى المنظومة العمرانية المقررة، كما تنهض بأعباء إنشاء الحدائق والمساحات الخضراء في جميع جهات المدينة، وتسعى الأمانة اليوم إلى رسم ملامح المستقبل القريب للمدينة، وتقوم إدارة خاصة فيها بوضع الخطط التفصيلية للإنشاءات في المرحلة القادمة، وضبط الانتشار العمراني وتنظيمه وإعادة تنظيم المناطق التي نمت عشوائياً من قبل، وتعمل مجموعات من موظفيها على مدار الساعة لذلك.

وأما الحركة الإقتصادية، فقد حدث تغير في ترتيب مصادرها، كانت اقتصاديات المدينة تعتمد على مصدرين رئيسيين هما الزراعة وخدمات الزائرين، ثم تأتي بعد ذلك التجارة ثم الصناعة، وفي آخر السلم الوظائف

الإدارية والعمل الحكومي، أما الآن فقد تراجع المحور الأول خطوة على الأقل إلى الوراء، وتقدم محور الخدمات العامة والتجارة وأصبحت خدمات الزائرين جزءاً من هذه الخدمات تدر دخلا متفاوتاً على المشتغلين به، ولكن قل من نجده مقتصراً عليه، ويقصد بالخدمات العامة الأعمال غير الحكومية التي تقدم خدمات مأجورة للآخرين، كالفنادق والمطاعم والمغاسل والمكاتب السياحية والمكاتب العقارية ومؤسسات الصيانة.. إلخ، ويجتذب هذا القطاع استثمارات عدد من سكان المدينة، وينشط في مواسم الزيارة خاصة ويحقق دخلا وافراً، ويعتمد في تنفيذ الخدمات على العمالة الوافدة غالباً.

وأما النشاط التجاري فكبير نسبياً، يبلغ ذروته في مواسم الزيارة -رجب ورمضان وأشهر الحج- ويرتبط معظم تجار المدينة بمعاملات تجارية واسعة مع المستوردين في جدة والرياض والخبر، ويقوم عدد قليل من تجار المدينة بالاستيراد من مصادر الانتاج مباشرة، ويرتبطون بمعاملات تجارية مع زملائهم في البلاد العربية المجاورة مصر والأردن وسورية كما يرتبطون بمعاملات جيدة مع التجار والمنتجين في تركيا وبعض البلاد الآسيوية والأوربية، ولكن حركة التجارة الخارجية هذه محدودة بشكل عام في المدينة بسبب تمركز معظم الشركات الكبيرة في جدة والرياض والخبر.

أما الزراعة فتشهد حركة جزر ومد، فالمدينة التي كانت واحة خصبة تحتضن البيوت فقدت نسبة كبيرة من خضرتها، فقد تحولت مزارع النخيل العريقة والبساتين المشهورة التي كانت في العوالي وقربان وقباء والعيون إلى مناطق سكنية أو أراض معدة للبناء، وبقيت بقعة قليلة أرجو ألا تلحق بأخواتها، وظهرت مزارع نخل جديدة وبساتين في ضواحي المدينة كمزارع الخليل والعاقول وآبار الماشي، وتنشط الزراعة الحديثة النموذجية الآن في هذه المناطق وفي بعض مناطق المدينة الأخرى، وتقام البيوت المحمية (البلاستيكية) لتتجاوز بالزراعة حدود المواسم، وتنتج الخضار في فصول

المزارع والبساتين الخضراء تحيط بالمدينة المنورة وتنتج لها الخضروات والفواكه

مزارع النخيل جعلت المدينة على امتداد تاريخها واحة غناء

السنة كلها، كما تقام المداجن المتطورة في أطراف المدينة لتقدم للمستهلكين البيض ولحم الدجاج الطازج، وقد أسهم تشجيع الدولة الفائق للمزارعين والمستثمرين في تنشيط الحركة الزراعية وتوجيه قسم من الاستثمارات إليها، والمأمول أن تستعيد المدينة وجهها الأخضر وانتاجها الزراعي المتميز في سنوات قليلة قادمة إن شاء الله.

وأما النشاط الصناعي فيقوم على المصانع المتوسطة والصغيرة، ويوجد عدد قليل من المصانع، كمصنع البلاستك ومصنع الشبك المعدني ومصنع الطوب الأحمر وبعض الصناعات الغذائية المحدودة، وهناك مصانع ضخمة أنشئت لصناعة بعض مستلزمات المشاريع الحديثة، كمشروع توسعة الحرم ومشاريع إعادة بناء المساجد الأثرية، وسوف تتوقف هذه المصانع في الغالب بعد إنجاز المشاريع التي قامت لأجلها.

وأما الحياة الاجتماعية فلا أجد جديداً يختلف عما ذكرته في عرض الحياة الاجتماعية في مطلع هذا العقد، فالهجرة الداخلية إلى المدينة تسهم في الامتداد العمراني والزيادة السكانية، ولكن حركتها بطيئة بعد أن مرت سنوات الطفرة والحركة المتسارعة، والعمالة الوافدة تضخمت بسبب التوسعة والتطوير، وهي الآن في اتجاه الهبوط والتناقص بعد أن اكتملت مراحل عدة من تلك المشاريع، وشارف مشروع توسعة المسجد النبوي على الانتهاء، وفئات السكان المختلفة تعيش في تمازج حيناً وتقارب حيناً آخر، وبخاصة الفئات التي وفدت إلى المدينة قبيل سنوات طويلة، وعلاقات التقارب والمصاهرة تزداد يوماً بعد يوم بينهم، والانتعاش الإقتصادي أسهم مع الأمن والأمان في تحقيق حياة رخية هادئة للجميع..

وأما الحياة الثقافية، فكما كانت في فترات المد والعطاء، نشيطة مزدهرة نسبياً، فالمسجد النبوي يواصل ريادته الدعوية، وتنتشر فيه حلقات العلم ودروس الوعظ والارشاد، وقد حدث شيء من التغيير في مستوى الدروس

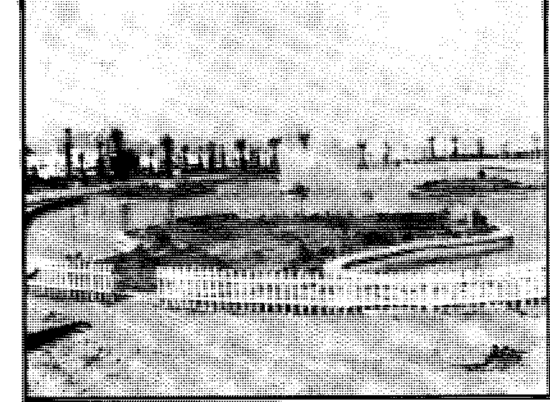
والطلاب: قلت الدروس التخصصية المتعمقة، وكثرت الدروس العامة التي يستفيد منها عامة الناس وخاصة دروس الفقه والتفسير والحديث والوعظ العام، وانتقلت الدروس التخصصية المتعمقة إلى الجامعات، وخاصة مرحلة الدراسات العليا، غير أن وجود عدد من كبار العلماء في المسجد النبوي ، وبعضهم يدرس في الجامعات، يجعل الطلاب المتميزين يقصدونهم ليقرأوا عليهم بعض الكتب التراثية ويستفيدوا من علمهم الغزير، وقد ارتفعت نسبة المثقفين بين النساء والرجال، وتضاعف عدد حملة الشهادات الجامعية أضعافاً عدة، وحصل بعضهم على الدرجات العليا (الماجستير والدكتوراة) وأصبح بعضهم أساتذة في الجامعات في المدينة وفي غيرها، ويشغل بعضهم الآخر مناصب مهمة في الدولة.

وتنفرد الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة بأنها تحتضن إضافة إلى الطلاب السعوديين عدة آلاف من أبناء المسلمين من جميع أنحاء العالم، وتقوم هي وفرعا جامعة الملك عبد العزيز وجامعة الإمام محمد بن سعود بنشاط ثقافي موجه لآلاف الشباب الذين يدرسون فيها إضافة إلى المناهج العلمية المقررة.

وثمة نشاط ثقافي تغلب عليه الصفة الأدبية يقوم به النادي الأدبي في المدينة المنورة، يتمثل في سلسلة من المحاضرات والندوات التي يعقدها ويستضيف فيها أعلاماً في الفكر والأدب والإدارة والاقتصاد ليعرضوا ويناقشوا موضوعات حيوية، كما يقوم بنشر كتب ودواوين شعرية لأدباء ومفكرين من المدينة وغيرها.

كما أن في المدينة اليوم عدداً من المنتديات الثقافية الخاصة، تعقد جلساتها الدورية في منزل منشئها أو راعيها، ويلتقي فيها صفوة المثقفين والكتاب والشعراء، يناقشون موضوعات تراثية ومعاصرة منوعة، ويتابعون مستجدات الواقع الحضاري. وأهم تلك المنتديات : منتدى صاحب السمو







صور من الحدائق العامة التي أنجزتها أمانة المدينة لتكون متنزهات جميلة لسكان المدينة



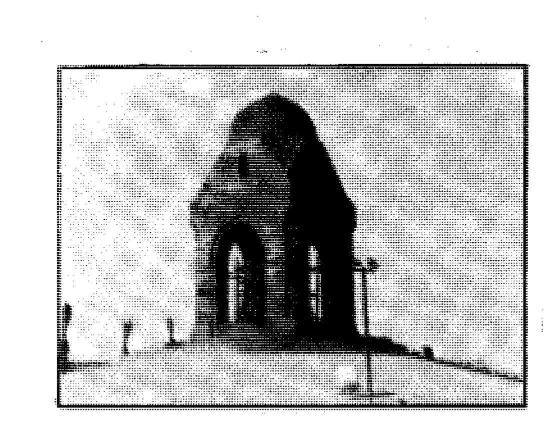
صورة من داخل إحدى الحدائق العامة التنظيم والجمال

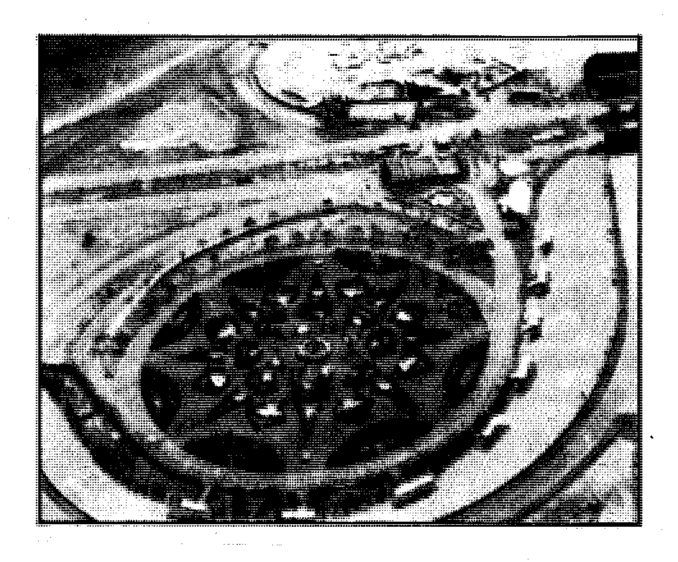
مسجد قباء والطرق والأنفاق التي أنشئت لتسهيل حركة المرور منه وإليه



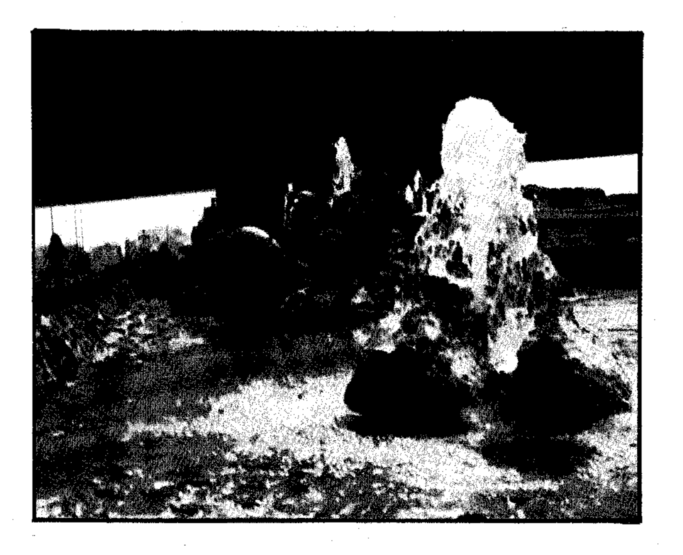
نفق المناقة







نكيلات جمالية تزين الشوارع والساحات



نكيلات جمالية في المناطق غير المستثمرة،
ركة ونافورة مياه تزينـان جسر الصافية

الملكي الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز أمير المدينة المنورة الحالي، وينعقد كل يوم أحد، ومنتدى الشريف الدكتور نايف الدعيس، وينعقد كل يوم سبت، ومنتدى المرحوم الشيخ عبد الحميد عباس، ويرعاه ابنه السيد أحمد عبد الحميد عباس، وينعقد يومياً بين صلاتي المغرب والعشاء.

وفي المدينة اليوم عدد من الشعراء والكتاب الذين يشاركون في الحركة الأدبية والثقافية العامة في المملكة، وهم حلقة في سلسلة الشعراء والكتاب والمثقفين المتميزين الذين أنجبتهم المدينة على مر العصور، وفي نصف القرن الأخير هذا ظهرت حلقات متصلة منهم، ظهرت حلقة عبد القدوس الأنصاري وأمين مدني ومحمد عثمان حافظ وعبيد مدني ومحمد حسين زيدان ومحمد حسن صيرفي وضياء الدين رجب وخالد رجب وماجد الحسيني وأمين عبد الله... إلخ، وفي أحضان هذه الحلقة نشأت حلقة تالية فيها محمد هاشم رشيد وعبد السلام هاشم حافظ ومحمد عيد الخطراوي ومحمد عامر الرميح ومحمد كامل خجا ومحمد صالح البليهشي... إلخ، ثم نشأت حلقة جديدة شابة فيها عبد المحسن حليت وخالد النعمان وأحمد العرفج وخالد محمد سالم وحسين عجيان العروي وعبد المؤمن النعمان.. إلخ، لتكون امتداداً للحلقات السابقة مع أن الحلقة الوسطى: حلقة محمد هاشم رشيد ورصفائه مازالت تواصل العطاء وتقدم أعمالا فيها نضج التجربة وخبرة السنين.

وتفتقد المدينة المنورة الآن الصحافة المحلية أو الإقليمية التي تصدر فيها، بعد أن كانت من المدن الرائدة، فقد هاجرت مجلة المنهل مع صاحبها رحمه الله وورثته من بعده واستقرت في جدة وتبعتها جريدة المدينة وتحولت إلى مؤسسة صحفية كبيرة.

غير أن الأدباء والمثقفين من سكان المدينة يسهمون بكتاباتهم المتوالية في الصحف والمجلات التي تصدر في جدة ومكة والرياض، ويتجاوز بعضهم أحياناً إلى المجلات التي تصدر في بعض البلاد العربية الأخرى .

رؤية في المستقبل القريب

كيف ستكون المدينة في نهاية الربع الأول من هذا القرن الهجري..؟ خاصة وأن مشاريع المنطقة المركزية -الدائرة الأولى المحيطة بالمسجد النبوي- ستكون قد استكملت بعون الله وتوفيقه؟.

ستكون المدينة بقعة سكنية كبيرة مفلطحة، مركزها المسجد النبوي، وتدور حولها الشوارع والساحات في مسارات شبه منتظمة لتشكل ثلاث دوائر متوالية، الأولى بيضوية صغيرة، والثانية والثالثة مفلطحتان، يؤثر على استدارتيهما التضاريس الطبيعية المعترضة، وبخاصة الجبال والتلال وبعض الحرار، فينحرف مسار الشوارع والطرقات عندما يقف في طريقها جبل أو حرة.

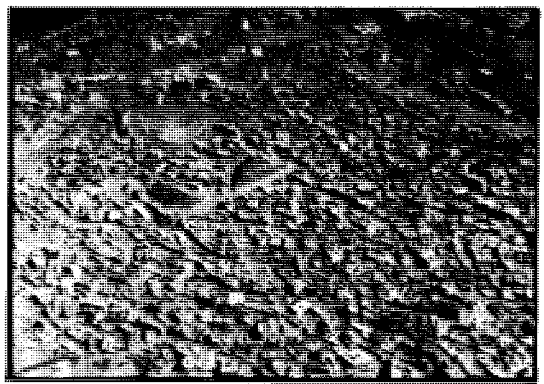
وبين الدائرتين الأولى والثانية ستنشأ دائرة متوسطة بيضوية الشكل أيضاً وستصبح مع الأيام امتداداً للدائرة الأولى في مبانيها ومواصفاتها الأخرى أو قريبة منها.

وستشكل التغييرات الجديدة قفزة نوعية لم تعرفها المدينة في تاريخها الطويل، فالمدينة التي كانت تتقوقع أبنيتها داخل السور ستصبح مدينة جديدة، بل مدينتين بينهما تشابه واختلاف، الأولى: مدينة تشمل كل ماكان داخل السور قديماً، وهي المنطقة المركزية، أو الدائرة الأولى المتميزة بأبنيتها المتناسقة والموحدة في الارتفاع والملامح العامة للمظهر الخارجي، تشبه أحدث المدن السياحية في مواصفاتها العالمية، يصح أن نسميها مدينة خدمات المسجد النبوي، لما فيها من فنادق وأسواق ومطاعم وشقق سكنية وخدمات لزوار المسجد النبوي، والثانية مدينة سكنية حديثة وهادئة.

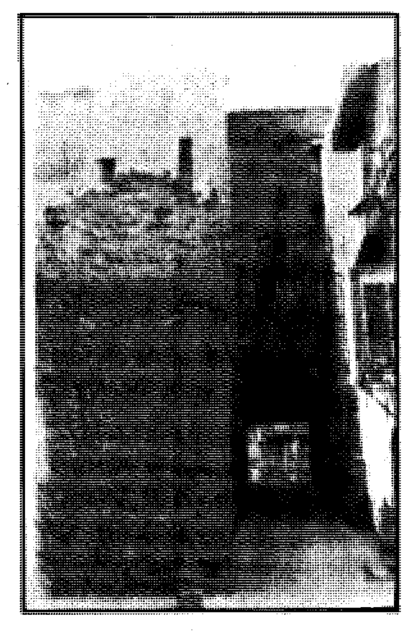
أما المدينة الأولى أو المنطقة المركزية فتتألف من قطعة كبيرة من الأرض بيضوية الشكل رأسها من جهة الشرق، وقاعدتها من جهة الغرب، تبلغ مساحتها مليونين ونصف من الأمتار المربعة، تغطي الأبنية منها مساحة



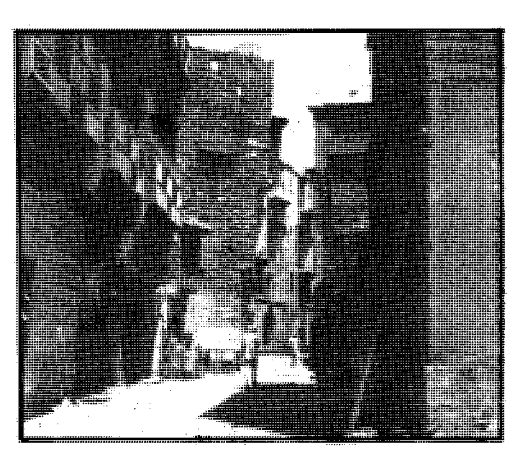
شارع باب السلام وتبدو الحالة التي وصل إليها والتي جعلت الحكومة السعودية تقرر هدم المباني فيه



فوضى بناء المساكن قديماً جعل الشوارع ضيقة وملتوية وجعل الحاجة في هذا العصر لإعادة التنظيم كبيرة وماسة



الأزقة الضيقة ومداخل الأحواش



شارع الساحة قرب الحرم وتظهر حالته الحاجة الكبيرة للتحسينات التي قامت بها الحكومة السعودية في منطقة المسجد النبوي

مليون وربع متر مربع، باستثناء مبنى المسجد النبوي وساحاته.

وقد قسمت المنطقة المركزية إلى خمس قطع متساوية تقريباً، أربع قطع تمثل كل منها حياً كاملا، وقطعة يحتلها بقيع الغرقد بعد توسعته الأخيرة، ومركز هذه المنطقة هو مركز المدينة كلها: المسجد النبوي، ومحيطها هو الخط الدائري الأول الذي يلفها بطريق مزدوج عرضه خمسة وستون متراً.

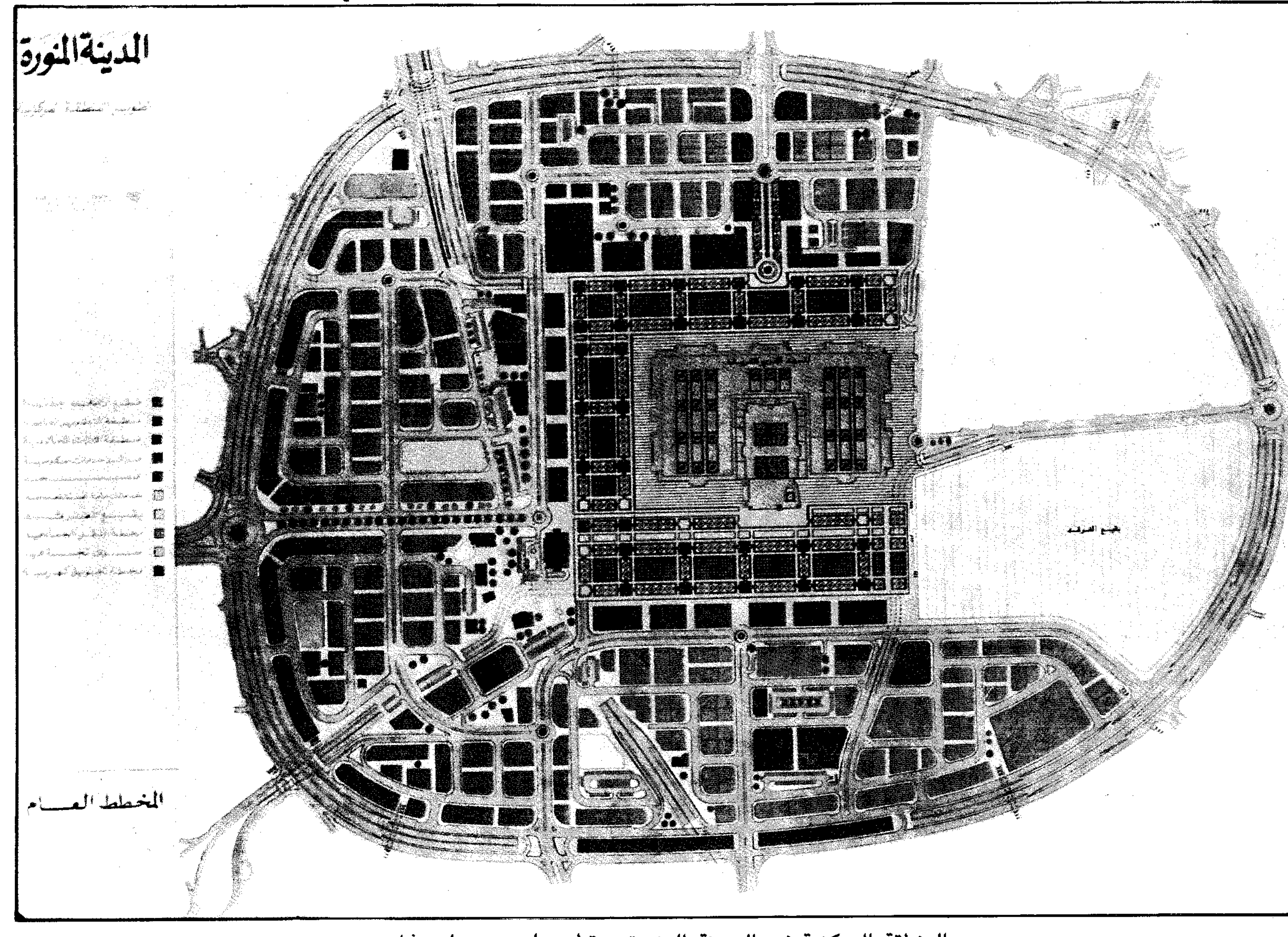
وقد مر بنا في الحديث عن توسعة المسجد النبوي الأخيرة أن مبنى المسجد أصبح على شكل مستطيل له رأس متقدم هو المبنى العثماني، وتحيط به ساحات مكشوفة تتسع من جهاته الشمالية والغربية والجنوبية، فتصبح كتلة المسجد النبوي بالساحات الملحقة بها مربعة الشكل، وهي النواة الحقيقية للمنطقة المركزية.

ويبلغ عرض الساحة الشمالية مائة وثلاثين متراً، والساحة الغربية مائة وأربعين متراً، والساحة الجنوبية مائتين وعشرة أمتار، ترصف جميعها برخام ملون متميز، وبأشكال هندسية تمثل زخرفة إسلامية جميلة، وستخصص هذه الساحات لاستيعاب الزيادات الطارئة من المصلين في مواسم الزيارة، كما ستكون مساحة الأرض الفضاء كمساحة مبنى المسجد النبوي الضخمة (٩٧٠٠٠م٢).

بعد الساحات تأتي مجموعة أبنية مخصصة للادارات الحكومية في الجهات الثلاثة: الشمالية، والغربية، والجنوبية، ارتفاع كل منها اثنا عشر طابقاً (٢٠ر٤٣)م.

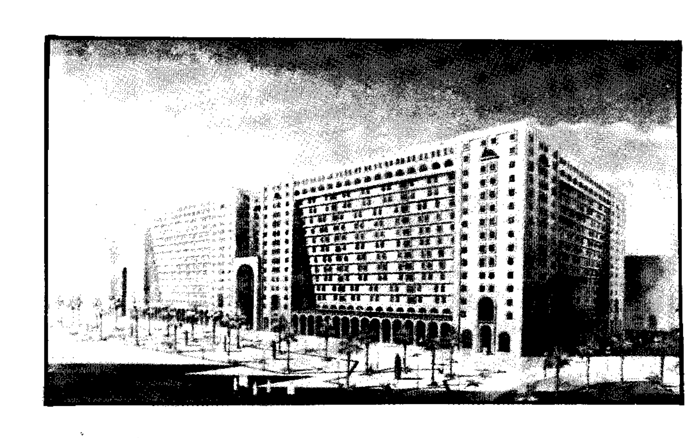
وللمنطقة المركزية ثلاثة محاور رئيسة مستقيمة يبدأ كل محور منها من إحدى واجهات المسجد النبوي، ويمتد في خط مستقيم على النحو التالي:

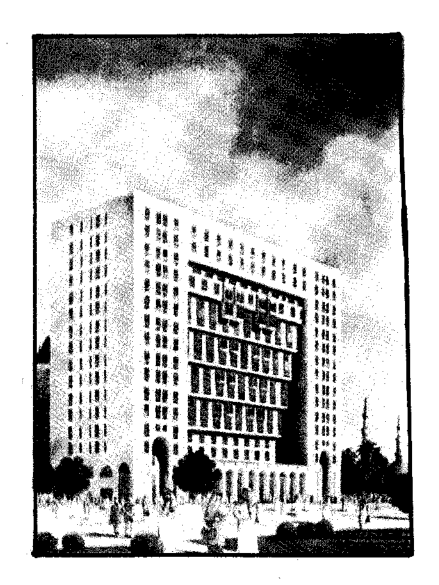
أولاً: المحور الشرقي: طريق الملك عبد العزيز، ويبدأ من الواجهة الشرقية للمسجد النبوي، بمحاذاة السور الشمالي للبقيع، يمتد شرقاً فيتقاطع مع الطريق الدائري الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، وينعطف بعد ذلك ليسير

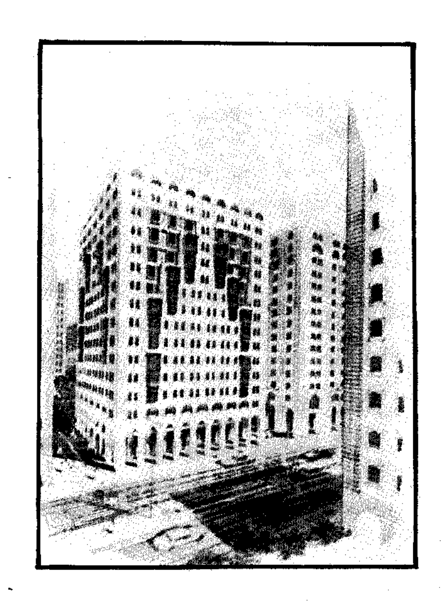


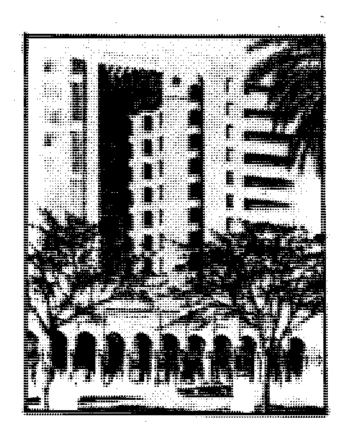
المنطقة المركزية في المدينة المنورة... تطوير لم يسبق له مثيل

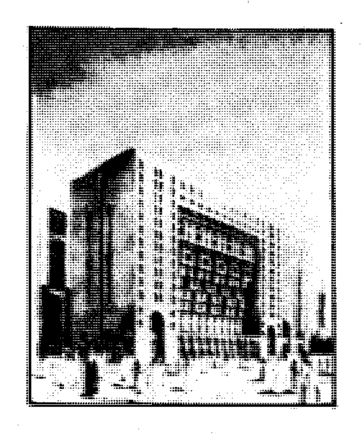


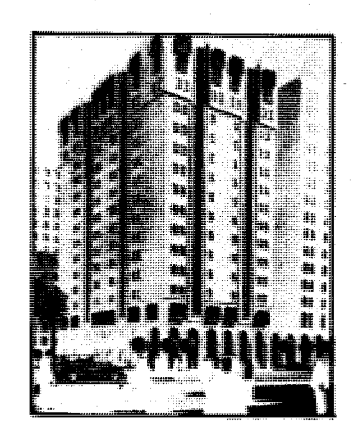




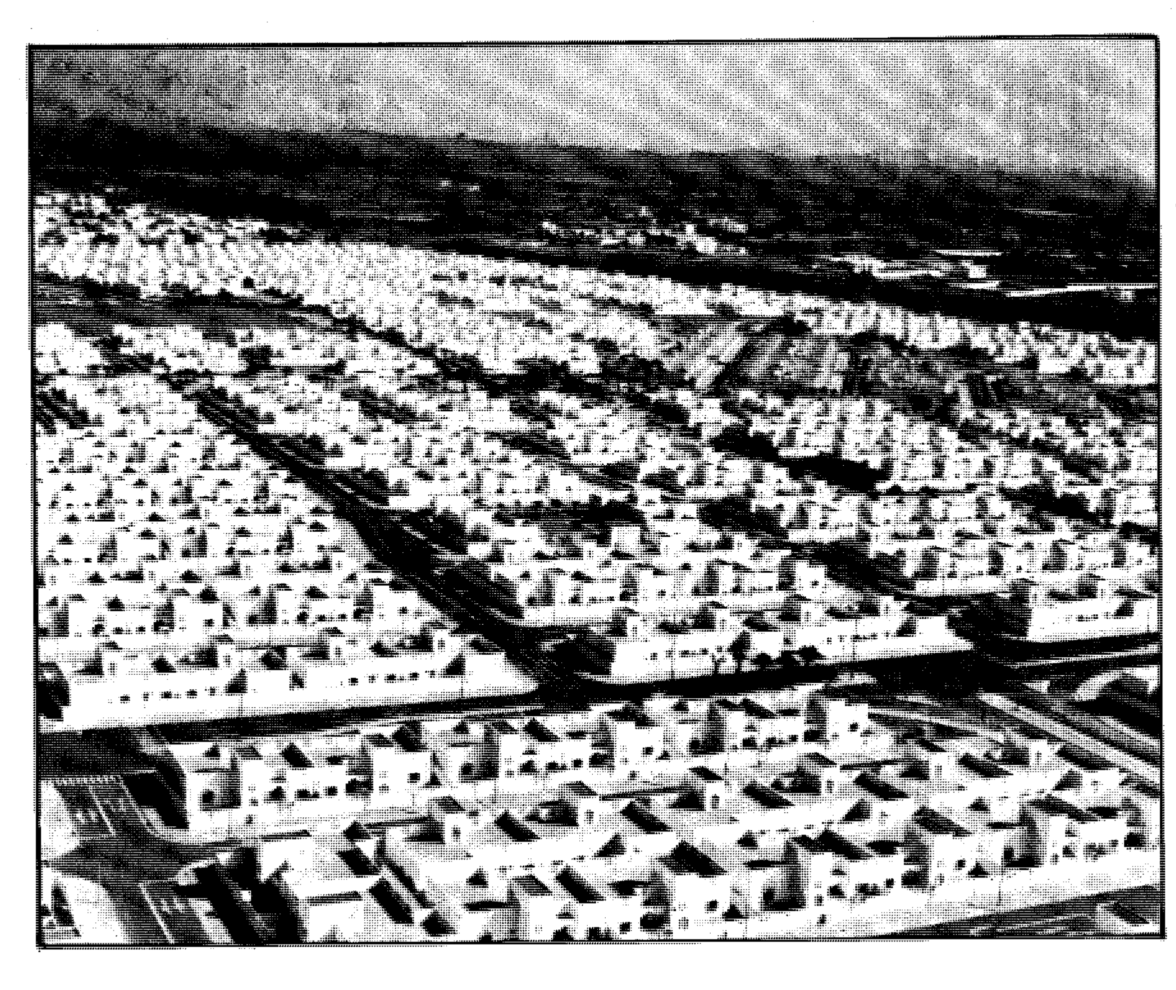








مجموعة من الأبنية الحديثة التي يجري تشييدها الآن في المنطقة المركزية
لتكون مراكز سكنية تجارية ضخمة



التوسع المستمر للمدينة في الدائرتين الثانية والثالثة... منطقة سكنية كاملة بنتها وزارة الشؤون البلدية تتضمن فيلات وشققاً مناسبة ستوزع على ذوي الدخل المحدود

شمالا إلى مطار الأمير محمد بن عبد العزيز.

ثانياً: المحور الشمالي: طريق الملك فهد، ويبدأ من منتصف الواجهة الشمالية للمسجد النبوي، ويمتد شمالاً ليتقاطع مع الطريق الدائري الأول ثم الثاني وينتهي عند جبل أحد.

ثالثاً: المحور الغربي: طريق السلام: ويبدأ من الواجهة الغربية للمسجد النبوي، مقابل باب السلام، ويمتد غرباً فيتقاطع مع الخط الدائري الأول ثم الثاني ثم الثالث عند طريق الجامعات، وبجانب مدينة الحجاج، وينتهي عند محطة تبريد هواء المسجد النبوي.

إضافة إلى تلك المحاور سينطلق محوران جانبيان في الجهة الجنوبية للمسجد النبوي، الأول بحذاء السور الغربي للبقيع، ويمتد جنوباً ليصل بطريق العوالي، والثاني من الجهة الجنوبية الغربية وليتصل بطريقي قباء وقربان.

وتصب في جميع المحاور السابقة خلال امتدادها في المنطقة المركزية طرق فرعية تمتد بين العمارات الحكومية والأهلية.

وأما الأحياء التي تتألف منها المنطقة المركزية فتتوزع على جهاتها الأربعة بدءاً بالمنطقة الشمالية، ثم الغربية، ثم الجنوبية، ويتقاسم الحي الشرقي الواجهة الشرقية مع البقيع.

وقد خططت هذه المناطق ونظمت تنظيماً جديداً، وهدمت جميع الأبنية فيها باستثناء المساجد الأثرية، وباستثناء أبنية المنطقة الشرقية التي تتجمع فيها الأسواق والفنادق الآن، وقد أجل هدم الأبنية فيها حتى تنتهي الأبنية في المنطقة الشمالية والغربية على الأقل، فتنتقل إليها الأسواق والفنادق الموجودة حالياً في المنطقة الشرقية.

وستكون الأحياء الأربعة في المنطقة المركزية متماثلة في مواصفاتها العامة، لذلك أكتفي باستعراض واحد منها هو حي المنطقة الشمالية نموذجاً لتلك الأحياء في دقة تنظيمها وجمالها، وخدماتها المتطورة.

تقع المنطقة الشمالية في المساحة الممتدة بين شارع أبي ذر شرقاً ونفق المناخة غرباً، ومساحتها ربع مليون متر مربع تقريباً، تضم خمسة تسعين مجمعاً سكنياً وتجارياً وفندقاً إضافة إلى مباني الادارات الحكومية ومباني الخدمات العامة، ومسجد أثري (مسجد البخاري) ويبلغ ارتفاع كل مجمع ستة عشر طابقاً فوق الأرض (٥٥ر٥٠)م ويسمح ببناء أربعة طوابق تحت الأرض يخصص بعضها مواقف للسيارات، وبعضها للأسواق التجارية.

ولكل مبنى واجهة تبرز عناصر العمارة الإسلامية والزخارف بالجرانيت أو الحجر الصناعي ذي اللون الرمادي الفاتح للواجهات قناطر ترتفع عن الرصيف سبعة أمتار، على شكل نصف دائرة، تكسى بجرانيت رمادي فاتح، ويرتد الدور الأرضي عن الحافة الخارجية للمبنى مسافة ٥ر٤م وكذلك الدور الذي فوقه (الميزانين) إلى ارتفاع ذروة القنطرة ليشكل الارتداد ممراً مسقوفاً ومرتفعاً يضاف إلى الرصيف ٥ر٣-٤م ليشكل ذلك له ممشى واسعاً على امتداد الشوارع في المنطقة، بعد ذلك تتوالى أدوار المبنى فوق القناطر وتستعيد المسافة التي ارتد عنها الدور الأرضي، وتكتسي النوافذ والشرفات بالمشربيات الخشبية ذات الزخارف الإسلامية وجميعها بلون الخشب الطبيعي.

وتتصل الأبنية بواسطة القناطر المتماثلة لتشكل امتداداً عمرانياً متناسقاً تظهر فيه الوحدة والتنوع في آن واحد، الوحدة في الارتفاع والقناطر، ولون الواجهات والمشربيات، وفي الالتزام بالمواصفات المطلوبة، والتنوع في الزخارف وتشكيل المشربيات وتوزيعها، ومن ثم توزيع النوافذ والشرفات.

وقد وضعت أنظمة دقيقة للمحافظة على العنصر الجمالي، إضافة إلى عناصر السلامة والتهوية والتظليل، ومنع استخدام وحدات التكييف الصغيرة (مكيف نافذة) واشترطت الأنظمة وضع وحدات تكييف مركزية أو نصف مركزية، كما منعت الواجهات التجارية للدكاكين إلا بعد ارتفاع (٧٠ر٢)م عن الأرض ومنع وضع هوائيات متفرقة على سطح الأبنية، واشترط وضع هوائي

واحد مركزي لكل مبنى يثبت وسط السطح.

واشترطت الأنظمة أيضاً توفير مواقف للسيارات في الطوابق السفلية للمباني وفق المعدلات التالية:

موقف واحد لكل خمسين متراً مربعاً من المساحة الصافية للمتاجر والمطاعم.

موقف واحد لكل مائة متر مربع من المساحة الصافية للمكاتب.

موقف واحد لكل مائتي متر مربع من المساحة الصافية للمساكن الموسمية.

موقف واحد لكل ست غرف من غرف فنادق الدرجة الأولى.

موقف واحد لكل عشر غرف من غرف فنادق الدرجة الثانية والثالثة.

وأوجب التنظيم إقامة تظليل علوي على أسطح الأبنية لجميع الممرات والشوارع الفرعية.

والجدير بالذكر أن معظم الشوارع وجميع الممرات مخصصة للمشاة فقط لايسمح فيها بمرور السيارات باستثناء سيارات الطوارىء في الحالات الاسعافية فقط، وهذا سيؤمن لقاصدي المسجد النبوي سيراً حراً وآمناً ومظللاً.

وسوف ترصف الطرق والممرات والشوارع داخل المنطقة المركزية كلها بالأحجار الجرانيتية، وستكون على جوانبها أعمدة إنارة مزخرفة ارتفاعها اثنا عشر متراً في الشوارع الكبيرة، وتسعة أمتار في الشوارع الفرعية والممرات، ويتراوح عرض الشوارع بين خمسة عشر وعشرين متراً، والممرات بين ثمانية وخمسة عشر متراً، ولها أرصفة يتراوح عرضها مابين ٣-٤ أمتار مشجرة بأنواع من الأشجار دائمة الخضرة، وستوضع في تقاطعات الطرق الواسعة نوافير للمياه.

وللمحافظة على الطرق والشوارع ولضرورات الصيانة المتوالية ستبنى

أنفاق تحت الشوارع والممرات بعرض أربعة أمتار وارتفاع مترين ونصف تخصص لخدمات المياه والكهرباء والهاتف وأقنية الصرف الصحي بحيث لاتحفر الشوارع والممرات بعد رصفها.

وسيكون في المنطقة مجموعة من الخدمات الحكومية: مستشفى طوارئ، ومراكز للصحة والدفاع المدني والهاتف والبلدية.. الخ.

وللوقوف على مدى التطور والتحسين في المنطقة ننظر في هذا الجدول المقارن بين ماكانت عليه المنطقة الشمالية قبل التنظيم وما ستكون عليه بعد التنظيم:

	قبل التنظيم	بعد التنظيم
طول الطرق في المنطقة	٩٨٠٠٠م	١٢٨٠٠٠م
نسبة الطرق للمساحة الكلية	٪٤٠	٪٥٣
المساحة الكلية للأبنية	٣٨٠ ٠٠٠م٢	١ ٨٠٠ ٠٠٠م٢
عدد المباني	٩٣٨	٩٩
مسطح مجموع القطع	١٤٤٨٠٠م٢	١١٤٧٩٢م٢
نسبة القطع المبنية للمساحة الكلية	٪٦٠	٤٧
معدل نقطة البناء الواحدة	١٥٤م٢	١١٦م٢

وكما نرى فإن مساحة الطرق والساحات ومناطق التهوية قد ازادات، وعدد الأبنية قد نقص، ولكن الارتفاع الرأسي للأبنية، والتنظيم الدقيق، والتناسق، جعل القدرة الاستيعابية للمنطقة تتضاعف أكثر من خمسة أضعاف. فضلا عن الارتقاء الكبير في حجم الخدمات، وفي نوعيتها.

وقد بدأ انجاز هذا التنظيم الجديد في المنطقة الشمالية قبل عام من كتابة هذه السطور، وتجري الآن حركة بناء سريعة كأنها في سباق مع الزمن، ومن المتوقع إنجاز عدد من المجمعات السكنية التجارية والفنادق عام ١٣١٥هـ.

ولكي نتصور طبيعة المباني التي ستقوم في المنطقة، ومدى قدرتها الاستيعابية، وحجم الخدمات التي تقدمها، ونوعيتها المتطورة، نستعرض واحدة منها هي مركز طيبة السكني التجاري رقم (١) كما جاء في مخططه.

يتكون هذا المركز من مجمع سكني تجاري فيه عشرون طابقاً أربعة منها تحت الأرض وستة عشر طابقاً فوق الأرض، الطوابق الثلاثة السفلية لمواقف السيارات، وتتسع لـ ٤٨٠ سيارة، غرفاً للسائقين، وغرفاً للمحركات الكهربائية الاحتياطية، وغرفاً لمحولات الكهرباء، بعدها وفي الطابق الأول السفلي تبدأ السوق التجارية وتشغل ثلاثة طوابق أخرى فوقه، تحوي (٣٠٠) محلاً تجارياً، وتتصل طوابق السوق التجارية بسلالم كهربائية (بانورامية) وسلالم عادية، وفي السوق فسحة وممرات داخلية مكيفة، بعد ذلك تأتي طوابق المكاتب والفنادق والشقق السكنية وعددها ثلاثة عشر طابقاً ويبلغ مجموع الشقق فيها ٣٦٠ شقة مختلفة الأحجام، تتراوح مساحة الشقة بين ٥٥ متراً للشقة ذات غرفة نوم واحدة أو مكتب تجاري، و٢٧٦ متراً للشقة ذات خمس غرف نوم. وكلما ارتفعنا مع الطوابق ازدادت مساحة الشقة وعدد غرف النوم فيها. وكما نرى فإن هذا المركز مجمع ضخم يستطيع بفضل ارتفاعه الرأسي وتنظيمه الهندسي أن يستوعب أعداداً كبيرة من السكان والنزلاء والتجار.

وبحساب أولي لعدد المجمعات التي يمكن أن تقوم في الدائرة الأولى نستطيع أن نقول: إن الدائرة الأولى في المدينة المنورة ستكون قادرة على توفير الخدمات لأكثر من مليون زائر في وقت واحد، كما ستكون قادرة على استيعاب ما يقارب ثلاثمائة ألف من أهل المدينة والمقيمين فيها الذين يؤثرون القرب من المسجد النبوي، وسيكون للمجمع الحكومي الذي سيبنى في الساحة الجنوبية الوسطى المقابلة للمسجد النبوي، والتي تقع بينه وبين مجمع المحاكم الشرعية، سيكون له أثر كبير في تعزيز الجذب السكاني إلى الدائرة الأولى، وقرب المجمع الحكومي من المسجد النبوي أمر له دلالة عقدية

سياسية (أيديولوجية) هي الارتباط العضوي بين العقيدة ونظام الحكم، فالحكم يقوم على الإسلام، وبه، وله.

إذن... ستكون الدائرة الأولى والدائرة المتوسطة مدينة متناسقة ومتميزة، وستكون كما كانت طوال التاريخ الإسلامي المنطقة الذهبية تديناً، وسكناً، واستثماراً، وارتقاء في الخدمات المقدمة لزوار مسجد رسول الله ﷺ ومحبي المدينة القادمين من الآفاق.

وفي ظني أن الدائرة الأولى والمتوسطة، على ضخامة إنشاءاتهما وقدرتهما الاستيعابية الكبيرة لن تستطيعا حصر الوافدين إلى المدينة فيها لعوامل كثيرة، أهمها عوامل اقتصادية ترتبط بقدرات الزائرين المالية، فنسبة كبيرة من الزائرين هم من الطبقة الوسطى وما دون، على نحو ماهو مشاهد وملموس الآن، وبعضهم قادمون من بلاد مستوى الدخل فيها دون مستوى الدخل في المملكة، وقدرتهم على الإنفاق والتمتع بالخدمات الجيدة ذات التكلفة العالية محدودة جداً وتسبب هذه القضية وضعاً غير مريح في المواسم، فنرى الكثيرين يفترشون الشوارع والساحات ليتجنبوا دفع أجور الفنادق والشقق لأن هذه الأجور تعد كبيرة بمقاييس دخلهم ونقودهم المحلية، وهؤلاء الزائرون بخلاف السائحين لايبحثون عن المتعة والرفاه، إنما يطلبون متعة روحية خاصة بزيارة المسجد النبوي والصلاة فيه، بل والمكوث فيه أطول مدة ممكنة، ويجد بعضهم في التقشف خلال الزيارة نوعاً من الرياضة الروحية وتربية النفس، ويعيش أيام الزيارة خلاف ما يعيشه في حياته العادية في بلده، فقد يكون الميسور المرفه وصاحب السكن الفاخر، فإذا قدم للمدينة تقشف واكتفى بنزل متواضع وطعام يسير، اجتهاداً منه في تربية نفسه..

هذه العوامل، وغيرها كثير، سيكون لها أثر في ارتباط الزائرين بالدائرة الأولى، ومدى خروجهم عنها إلى مناطق أخرى قريبة منها بحثاً عن الأرخص، وعن الأكثر توافقاً مع طبائعهم وميولهم.

وأما الدائرة العمرانية الثانية في المدينة المنورة، فكما هو موضح في المصور المرفق، ستزداد حركة البناء فيها وتملأ نسبة من الفراغات الموجودة حالياً، وستشارك المناطق القريبة من الدائرة الأولى في خدمات الزائرين، حيث تقوم فنادق وشقق للسكن المؤقت، وأسواق في الطوابق الأرضية، تقدم خدمات أرخص نسبياً من خدمات الدائرة الأولى.

فإذا تعمقنا في الدائرة الثانية بعيداً عن الدائرة الأولى، وجدنا أبنية سكان المدينة والمقيمين فيها وأسواقها الداخلية والمدارس والمعاهد والجامعات والحدائق، وجدنا مدينة سكنية تعيش حياتها العادية، لاتؤثر فيها بشكل مباشر مواسم الزيارة واكتظاظ الحركة البشرية، وسوف تزداد الأبنية المتوسطة الحجم وتتضاعف وتغطي نسبة من الأرض الفضاء الموجودة الآن، وستبقى أجزاء أخرى منها لتكون من نصيب أبناء العقود التالية، ورغم أن الأسواق المركزية الكبيرة في الدائرة ستشكل نقطة جذب للتسوق فإنني اعتقد بأن أسواقاً أخرى ستنشأ في الدائرة الثانية لتقدم الخدمات للسكان.

وأما الدائرة الثالثة فسوف تبقى البقع السكنية المنتشرة في محيطها هي المناطق السكنية الأبرز، وأعتقد أن الأرض الفضاء الكبيرة فيها والتي تشغلها بساتين ومزارع تحفظ للمدينة بقايا خضرتها ونضارتها لن تخسر الكثير في الزحف العمراني ذلك أن الدائرة الأولى عندما تنجز، والمأمول أن تنجز معظم أبنيتها في أقل من خمس سنوات، ستشد عدداً من أهل المدينة إليها، فتهدأ الحركة العمرانية المتسارعة اليوم في الدائرتين الثانية والثالثة، وسوف يتجه البناء في الدائرة الثالثة نحو إقامة الأبنية الصغيرة والمتوسطة الفارهة (الفيلات) وستكون الطرق السريعة المؤدية إلى قلب المدينة عاملاً مشجعاً على ذلك.

والجديد الذي نتوقعه في الدائرة الثالثة فضلاً عن زيادة العمران هو إعادة تنظيم البقع السكنية المنتشرة فيها، والتي نمت عشوائياً في العقد الماضي

حيث كان بعضها خارج حدود البلدية ومخططاتها، فلم تتقيد كثير من الأبنية بالتعليمات المقررة في نظام البلدية، وسيتم فتح شوارع وساحات واسعة وإقامة المزيد من الحدائق، والمحافظة على بعض البساتين والمزارع المتميزة، وتشجير الشوارع الرئيسية والساحات لتواصل المدينة تاريخ خصوبتها وتبقى كما كانت واحة خضراء...

وأترك لكاتب آخر يعيش تطورات المدينة في ذلك الوقت أن يرصد مايشاء الله لها أن تكون عليه، ويعرض للمسلمين صورة زمنية لمدينة يسكن حبها في كل قلب مؤمن، ويتراءى طيفها كلما ذكر شيء من سيرة الحبيب الأعظم محمد ﷺ، وكلما قرئ شيء من سيرته وسيرة الصحابة فيها من بعده...

وستبقى المدينة حبيبة إلى القلوب بمسجدها الذي تشد إليه الرحال، وبمثوى خاتم الرسل والنبيين ﷺ وبتاريخ أمة نبتت غرستها الأولى في هذه الأرض الطيبة المباركة، وصنعت تاريخاً يعطر التاريخ......

الملاحق

ملحـــق
الأحاديث النبوية عن المدينة المنورة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعـــد:

فهذه مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة التي تتعلق بالمدينة المنورة، أضعها بين يدي القارىء الكريم، ليغسل بعطور النبوة كل ما يعلق في نفسه من أوضار الأحداث التي يمر بها وهو يقرأ تاريخ الأفراد والجماعات الذين عاشوا في المدينة أو عبروها، فأحسن من أحسن، وأســاء مِن أســاء. فهم في المحصلة النهائية بشر يصيبون ويخطئون ، يمضون ويتركون للتاريخ أن يحكم عليهم، فيبقى منهم ، ولهم، الذكر الحسن أو السيء، ويبقى للمدينة بعدهم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ما نقرؤه في أحاديث رسول الله ﷺ عنها من جلال وبهاء

وقد جمع هذه الأحاديث وخرَّجها، بطلب مني، باحث جاد متخصص في علوم الحديث النبوي هو الأستاذ مصطفى عمار منلا، وحرص فيها كل الحرص على الاستيعاب، واعتمد في عرضها على أسلوب الجمع بين الاختصار والتوسع، فمن أراد الاختصار اكتفى بالمتن، ومن أراد التوسع وجد في الهوامش ضالته.

كما حاول الباحث أن يقتصر على الأحاديث الصحيحة والحسنة، فإن اضطر إلى حديث فيه ضعف نبه إلى ضعفه.

أسأل الله أن يتقبل منا جميعا، وأن يلهمنا الصدق في القول والعمل.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

محتويات الملحق

فضل السكنى في المدينة والصبر على شدائدها

- عن سفيان بن أبي زهير رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تفتح اليمن، فيأتي قوم يبسون، فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح الشام، فيأتي قوم يبسون، فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، ويفتح العراق، فيأتي قوم يبسون، فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»(١).

- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إني أحرم ما بين لابتي المدينة: أن يقطع عضاهها، أو يقتل صيدها» وقال: «المدينة خير لهم لوكانوا يعلمون، لايدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة» (٢)- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه: هلم إلى الرخاء! هلم إلى الرخاء! والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، والذي نفسي بيده لا يخرج منهم أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه، ألا إن المدينة

---

١) البخاري ٣/٥١، مسلم ٢/١٠٠٨، وفي رواية عند مسلم: الشام ثم اليمن ٢/١٠٠٨، الموطأ ٢/٨٨٧، عبد الرزاق ٩/٢٦٥، الحميدي ٢/٣٨١، المسند ٥/٢٢٠ (ثلاث روايات: ذكر في الأولى والثانية: اليمن، وفي الثالثة: الشام)، فضائل المدينة للجندي: ٣٢، ٣٣ إلا انه لم يذكر الشام، ابن حبان ٨/٢٣٧، المعجم الكبير للطبراني ٧/٧٢ (ثلاث روايات: ذكر في الأولى: اليمن والشام، وفي الثانية: اليمن، وفي الثالثة: اليمن ثم العراق ثم الشام)، و ٧/٧٣، ٧٤ (خمس روايات: ذكر في الأولى والثانية: اليمن ثم العراق ثم الشام، وفي الروايات الأخر: ذكر اليمن فقط).

٢) انظر تخريجه في باب تحريم المدينة

كالكير، تخرج الخبيث، لاتقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها، كما ينفي الكير خبث الحديد» (١).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لايخرج منها أحد - يعني المدينة - رغبة عنها إلا أبدلها الله ما هو خير لها منه، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون» (٢).

وفي رواية بلفظ: «يخرج من المدينة رجال رغبة عنها، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون» (٣).

وأرسله عروة بن الزبير عن النبي ﷺ بلفظ: «لايخرج أحد من المدينة رغبة عنها إلا أبدلها الله خيراً منه» (٤).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تفتح الأرياف فيأتي ناس إلى معارفهم فيذهبون معهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون» قالها مرتين (٥).

- عن أبي أسيد الساعدي رضي الله عنه قال: إنا مع رسول الله ﷺ على قبر حمزة، فجعلوا يجرون النمرة على وجهه، فينكشف قدماه، ويجرونها على قدميه فينكشف وجهه، فقال رسول الله ﷺ: «اجعلوها على وجهه واجعلوا على قدميه من هذا الشجر» قال فرفع رسول الله ﷺ رأسه، فإذا

---

١) انظر تخريجه في باب المدينة تنفي الخبث.

٢) ابن حبان ١٩/٦. وفي رواية: "إلا أخلف الله فيها خيراً منه" ١٩/٦. وهو عند أبي يعلى بزيادة في أوله: "لايصبر على لاوائها وجهدها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة" ٣٤١/١٠.

٣) المسند ٣٠٢/٢. وبنحوه ٤٠٣. ٤٦٤ و ٤٦٥. مسند ابن الجعد ١١٥٢/٢.

وفي الباب: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. كشف الاستار ٥٢/٢. في حديث طويل.

٤) الموطأ ٨٨١/٢. عبد الرزاق ٢٦٥/٩ و ٢٦٦. فضائل المدينة للجندي: ٣٢ و ٣٣.

٥) المسند ٣٤٩/٢. أبو يعلى ٢٦٥/١٠ بنحوه.

أصحابه يبكون فقال رسول الله ﷺ: «إنه يأتي على الناس زمان يخرجون إلى الأرياف، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة» (١).

- عن يُحَنّس مولى مصعب بن الزبير: أنه كان جالساً عند عبد الله بن عمر في الفتنة، فأتته مولاة له تسلم عليه، فقالت: إني أردت الخروج ياأبا عبد الرحمن، اشتد علينا الزمان، فقال لها عبد الله: اقعدي لكَاع، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لايصبر على لأوائها وشدتها أحد. إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة» (٢).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لايصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة أو شهيداً» (٣)- وفي رواية: بزيادة في أوله «أيما جبار أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله في النار كما يذوب الملح في الماء، ولا يصبر أحد على لأوائها إلا ...» الحديث (٤).

---

١) المعجم الكبير ١٤٤/٣.

٢) مسلم ١٠٠٤/٢، واقتصر في رواية على المرفوع ١٠٠٤/٢، الترمذي ٦٧٦/٥، الموطأ ٨٨٥/٢، المسند ١١٩/٢ و ١١٣ و ١٣٣، أبو يعلى ١٠/ ١٦٦، فضائل المدينة للجندي ٣٠، المعجم الكبير للطبراني ٣٤٧/١٢.

وفي رواية عن نافع عن ابن عمر بلفظ: "من صبر". مسلم ١٠٠٤/٢، الترمذي ٦٧٦/٥، المسند ١٥٥/٢.

ومثلها في أخرى عن وهب بن قطن عن ابن عمر. أبو يعلى ١٦٦/١٠.

٣) مسلم ١٠٠٤/٢ و ١٠٠٥، الترمذي ٦٧٨/٥ دون ذكر: "من أمتي"، المسند ٣٤٣/٢ وفيه "وجهدها" بدل "وشدتها" وليس فيه: "من أمتي" ، و ٤٤٧/٢، أبو يعلى ٣٧٢/١١، فضائل المدينة للجندي: ٣١ بلفظ: "وحرها" بدل "وشدتها" و "شهيداً و شفيعاً" بدل: "شهيداً أو..."، ابن حبان ٢١/٦ دون ذكر "أو شهيداً" وفي رواية أخرى بذكرها، إلا أنه قال: "وجهدها" بدل "وشدتها"، دلائل النبوة للبيهقي ٥٦٩/٢ و فيه: "وجهدها" بدل "وشدتها"

وفي رواية بلفظ: «ليصبر أحد على لأواء المدينة وجهدها إلا كنت له شفيعاً وشهيداً، أو شهيداً أو شفيعاً» (١).

وفي رواية بزيادة في أوله: «تفتح البلاد و الأمصار، فيقول الرجال لإخوانهم: هلموا إلى الريف، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، لايصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا ....» الحديث (٢).

- عن أبي سعيد مولى المهري، أنه جاء أبا سعيد الخدري، ليالي الحرة، فاستشاره في الجلاء من المدينة، وشكا إليه أسعارها وكثرة عياله، وأخبره: أن لاصبر له على جهد المدينة ولأوائها، فقال له: ويحك! لا آمرك بذلك، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لايصبر أحد على لأوائها فيموت، إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة، إذا كان مسلماً» (٣).

- عن عروة بن الزبير أن النبي ﷺ قال: «من صبر على لأواء المدينة، أو جهدها، كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة» (٤).

- عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من كان له بالمدينة أصل فليستمسك به، ومن لم يكن له بها أصل فليجعل له بها أصلاً، فليأتين على الناس زمان يكون الذي ليس له بها أصل كالخارج منها المجتاز إلى غيرها» (٥).

---

(٤) الحميدي ٢/٤٩٢.

(١) المسند ٢/٢٨٧.

(٢) المسند ٢/٣٣٨.

وروي مثله عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها. المسند ٦/٣٦٩.

(٣) مسلم ٢/١٠٠٢، المسند ٣/٥٨، المسند ٣/٦٩ دون ذكر: "أو شهيداً" و "إذا كان مسلماً"، و ٣/٢٩ دون ذكر: "إذاكان مسلماً"، وكذا في المنتخب لعبد بن حميد ٢/١٠٢، وفيهما: "من صبر...". أبو يعلى ٢/٤٥٥.

(٤) عبد الرزاق ٩/٢٦٦.

(٥) المعجم الكبير للطبراني ٦/٢٠٨.

وفي رواية: «من كان له بالمدينة أصل فليتمسك به، ومن لم يكن فليجعل له بهاأصلاً ولو قصرة» (١).

- عن عبد الله بن عباد بن جعفر أن رسول الله ﷺ يقول: «أول من أشفع له من أمتي أهل المدينة وأهل مكة وأهل الطائف» (٢).

الدعاء للمدينة بالبركة

- عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم حرم مكة، ودعا لها، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة» (٣).

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة» (٤).

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لهم في مكيالهم، وبارك لهم في صاعهم ومدهم» (٥).

- عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما قدم رسول الله

---

١) غريب الحديث للخطابي ٣٤٨/١.

٢) الأوائل لابن أبي عاصم: ١١، الأوائل للطبراني: ١٠٥ وروي عند الطبراني عن عبد الملك بن عباد بن جعفر، المعجم الأوسط ٤٩١/٢، وفيه: "أهل المدينة ثم أهل مكة ثم أهل الطائف" . قال الهيثمي: فيه جماعة لم أعرفهم. مجمع الزوائد ٣٨١/١٠.

٣) البخاري ١٤١/٣، مسلم ٩٩١/٢ إلا أنه قال: "بمثلي" بدل مثل"، وفي رواية أخرى: "مثل" ٩٩١/٢. المنتخب لعبد بن حميد ٤٦٣/١، مشكل الآثار ٩٧/٢، شرح معاني الآثار ١٩٢/٤ بنحوه، السنن الكبرى للبيهقي ١٩٧/٥ (روايتان)، دلائل النبوة له ٥٦٩/٢ إلا أنه قال: "بمثلي".

٤) البخاري ٥٥/٣، مسلم ٩٩٤/٢، المسند ١٤٢/٣، أبو يعلى ٢٧٣/٦ و ٢٧٤ و ٣٠٤.

٥) البخاري ١٤١/٣ و ٢٦٠/٨ و ١٨٨/٩. مسلم ٩٩٤/٢، الموطأ ٨٨٤/٢، الدارمي ١٧٢/٢، فضائل المدينة للجندي ٢٠، مشكل الآثار ٩٧/٢، ابن حبان ٢٢/٦.

ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال....الحديث.

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة، أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة» (١).

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لنا في صاعنا، ومدنا، واجعل مع البركة بركتين»(٢).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: كان الناس إذا رأو أول الثمر جاؤوا به إلى النبي ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإني عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ، ومثله معه»

ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر (٣).

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بأول الثمر فيقول: «اللهم بارك لنا في مدينتنا، وفي ثمارنا، وفي مدنا، وفي صاعنا، بركة مع بركة» ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان. (٤).

وفي رواية: أنه قيل لرسول الله ﷺ: صاعنا أصغر الصيعان، ومدنا أصغر الأمداد، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم بارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في قليلنا وكثيرنا، واجعل لنا مع البركة بركتين » (٥).

---

١) انظر تخريجه في باب: الدعاء للمدينة بإخراج الوباء منها.

٢) مسلم ١٠٠٢/٢، المسند ٣٤/٣ و ٤٧ و ٩١، أبو يعلى ٤٦٣/٢ و ٤٦٤، ابن حبان ٢٢/٦.

٣) مسلم ١٠٠٠/٢، الموطأ ٨٥٥/٢، الترمذي ٤٧٢/٥، فضائل المدينة للجندي: ١٩، من قوله: "إن إبراهيم عبدك..."، مشكل الآثار ٩٨/٢، ابن حبان ٢٣/٦، إلا أنه قال: "تمرنا" بدل "ثمرنا".

٤) مسلم ١٠٠٠/٢، الأدب المفرد: ١٣٣، أخلاق النبي ﷺ: ٢٠١. (وفيه:بأول التمر).

وفي رواية: «اللهم بارك لهم في صاعهم ومدهم» (١).

وفي رواية بزيادة: «اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك دعاك لأهل مكة، وإني عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة بمثل ما دعاك به إبراهيم لأهل مكة» (٢).

- عن سعد بن مالك وأبي هريرة رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «اللهم بارك لأهل المدينة في مدينتهم، وبارك لهم في صاعهم، وبارك لهم في مدهم ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك وإني عبدك ورسولك، وإن إبراهيم سألك لأهل مكة، وإني أسألك لأهل المدينة كما سألك إبراهيم لأهل مكة ومثله معه، إن المدينة شبكة بالملائكة، على كل نقب منها ملكان يحرسانها، لا يدخلها الطاعون و لا الدجال، من أرادها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء» (٣).

- عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، حتى إذا كنا بالحرة بالسقيا التي كانت لسعد بن أبي وقاص، قال رسول الله ﷺ: «ائتوني بوضوء»فلما توضأ قام فاستقبل القبلة ، ثم كبر، ثم قال: «اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليلك دعا لأهل مكة بالبركة، وأنا محمد عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مدهم وصاعهم مثلي ما باركت لأهل مكة مع البركة بركتين»(٤).

---

٥) ابن حبان ١٢٠/٥ و ٢٢/٦ بلفظ: "اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا...".

١) المعجم الصغير للطبراني ٢٤٧/٢.

٢) السنن الكبرى للبيهقي ١٧١/٤.

٣) أخرج مسلم أوله، ثم قال: وساق الحديث، وأخرج آخره: وفيه "من أراد أهلها بسوء" ١٠٠٨/٢، أحمد: واللفظ له ١٨٣/١ و ٣٠/٢، أبو يعلى ١٢٩/٢ مسند سعد للدورقي: ٢٠١، دلائل النبوة للبيهقي ٥٧٠/٢ ، غير أنه قال: "اللهم بارك لأمتي في مدهم، وبارك لهم في صاعهم، وبارك لهم في مدينتهم.........على كل نقب منها ملائكة يحرسونها......... من أراد أهلها......"الحديث.

٤) المسند ١١٥/١ ، ابن خزيمة ١٠٦/١، ابن حبان ٢٣/٦.

وروي مثله عن أبي قتادة رضي الله عنه، بزيادة: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة، واجعل ما بها من وباء بخم، اللهم إني قد حرمت ما بين لابتيها كما حرمت على لسان إبراهيم الحرم ». دون ذكر مضاعفة البركة (١).

- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم بارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في شامنا، وبارك لنا في يمننا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا» (٢).

وفي رواية بزيادة: ثم استقبل مطلع الشمس فقال: «من ها هنا يطلع قرن الشيطان، من ها هنا الزلازل والفتن» (٣).

وفي رواية بزيادة في أوله: «اللهم بارك لنا في مكتنا»

وفي أخره: فقال رجل: يارسول الله، العراق ومصر؟ فقال: «هناك ينبت قرن الشيطان، وثم الزلازل والفتن» (٤).

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نظر رسول الله ﷺ نحو اليمين، فقال: «اللهم أقبل بقلوبهم» ونظر نحو العراق فقال مثل ذلك، ونظر نحو كل أفق فقال مثل ذلك وقال: «اللهم ارزقنا من ثمرات الأرض، وبارك لنا في مدنا وصاعنا» (٥).

- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: ما بين لابتي المدينة حرام، قد حرمه رسول الله ﷺ كما حرم إبراهيم مكة، اللهم اجعل البركة

---

١) المسند ٥/٣٠٩، ابن خزيمة ١/١٠٦، فضائل المدينة للجندي: ١٨.

٢) المسند ٢/١٢٤.

٣) المسند ٢/١٢٦.

٤) مسند عبد الله بن عمر للطرسوسي: ٤٠.

٥) المسند ٣/٣٤٢، الأدب المفرد: ١٦٩ واللفظ له، كشف الأستار ٢/٥١.

وروى مثله زيد بن ثابت رضي الله عنه. المسند ٥/١٨٥، دلائل النبوة للبيهقي ٦/٢٣٦.

فيها بركتين، وبارك لهم في صاعهم ومدهم (١).

حب النبي صلى الله عليه وسلم للمدينة

- عن أبي قتادة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ توضأ ثم صلى بأرض سعد بأصل الحرة... الحديث وفيه: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة، واجعل ما بها من وباء بخم...» (٢).

- عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال.... الحديث وفيه: قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة، أو أشد وصححها...» الحديث (٣).

وفي رواية: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وأشد....» (٤)

- عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا قدم من سفر فنظر إلى جدرات المدينة أوضع راحلته، وإن كان على دابة حركها من حبها. (٥).

- عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: لما قبض رسول الله ﷺ اختلفوا في دفنه، فقال أبو بكر: سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً ما نسيته، قال: «ماقبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه، ادفنوه

---

١) المسند ١/١٦٩.

٢) انظر تخريجه في باب الدعاء للمدينة بالبركة.

٣) انظر تخريجه في باب الدعاء للمدينة بإخراج الوباء منها.

٤) انظر تخريجه في باب الدعاء للمدينة بإخراج الوباء منها.

٥) البخاري ٣/٥٥ و ٢٦ و ٢٥ إلا أنه قال: "درجات" بدل "جدرات"، وليس فيه: "من حبها"، الترمذي ٥/٤٦٥، المسند ٣/١٥٩، أبو يعلى ٦/٤٧٤، السنن الكبرى للبيهقي ٥/٢٦٠ دون ذكر: "من حبها" وفي رواية بذكرها ٥/٢٦٠، شرح السنة ٧/٣١٥.

في موضع فراشه» (١).

- عن يحيى بن سعيد الأنصاري رحمه الله قال: كان رسول الله ﷺ جالساً وقبر يحفر بالمدينة، فأطلع رجل في القبر فقال: بئس مضجع المؤمن، فقال رسول الله ﷺ: «بئس ما قلت»، فقال الرجل: إني لم أرد هذا يارسول الله، إنما أردت القتل في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لامثل للقتل في سبيل الله، ما على الأرض بقعة هي أحب إلي أن يكون قبري بها منها» ثلاث مرات (٢).

- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «قد علمت أن أحب البلاد إلى الله عز وجل مكة، ولولا أن قومي أخرجوني ما خرجت، اللهم اجعل في قلوبنا من حب المدينة مثل ما جعلت في قلوبنا من حب مكة» وما أشرف رسول الله ﷺ على المدينة قط إلا عرف في وجهه البشر والفرح (٣).

- عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الله أوحى إلي: أي هؤلاء الثلاثة نزلت فهي دار هجرتك: المدينة، أو البحرين، أو قنسرين» (٤).

---

١) الترمذي ٣/٣٢٩، الشمائل النبوية: ٣٠٤، قال الترمذي فيه عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي، يضعف من قبل حفظه، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه ٣/٣٢٩.

٢) الموطأ ٢/٤٦٢، والحديث مرسل.

٣) المعجم الكبير للطبراني ١٢/٣٦١.

٤) الترمذي ٥/٦٧٨، المعجم الكبير للطبراني ٢/٣٣٩، المستدرك ٣/٢، دلائل النبوة للبيهقي ٢/٤٥٨، وقال: قال أهل العلم: ثم عزم له على المدينة، فأمر أصحابه بالهجرة إليها.

تحريم المدينة

- عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم حرّم مكة، ودعا لها، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة»(١).

- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذتموه يقطع من الشجر شيئاً - يعني شجر الحرم - فله سلبه لايعضد» فرأى سعد غلماناً يقطعون، فأخذ متاعهم، فانتهوا إلى مواليهم، فأخبروهم أن سعداً فعل كذا وكذا، فأتوه، فقالوا: ياأبا اسحق، إن غلمانك أو مواليك أخذوا متاع غلماننا، فقال: بل أنا أخذته، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أخذتموه يقطع من شجر الحرم فلكم سلبه» ولكن سلوني من مالي ما شئتم(٢)

- عن سهل بن حنيف رضي الله عنهما قال: أهوى رسول الله ﷺ بيده إلى المدينة فقال: «إنها حرم آمن»(٣).

وفي رواية: «إنها حرام آمن، إنها حرام آمن»(٤).

---

١) البخاري ١٤١/٣، مسلم ٩٩١/٢ إلا أنه قال: "بمثلي" بدل "مثل"، وفي رواية أخرى: "مثل" ٩٩١/٢، المنتخب لعبد بن حميد ٤٦٣/١، مشكل الآثار ٩٧/٢، شرح معاني الآثار ١٩٢/٤ بنحوه، السنن الكبرى للبيهقي ١٩٧/٥ (روايتان)، دلائل النبوة له ٥٦٩/٢ إلا أنه قال: "بمثلي".

٢) مسلم ٩٩٣/٢ بنحوه، أبو داود ٢١٧/٢ بنحوه، الطيالسي ٣٠ واللفظ له، عبد الرزاق ٢٦٢/٩ و٢٦٣ بنحوه، المسند ١٦٨/١ و ١٧٠، مسند سعد للدورقي ٢٠٣، أبو يعلى ١٣٠/٢، فضائل المدينة للجندي ٤٦ و٤٨، شرح معاني الآثار للطحاوي ١٩١/٤، المستدرك ٤٨٦/١ بمعناه و٤٨٧، السنن الكبرى للبيهقي ١٩٩/٥ (أربع روايات).

٣) مسلم ١٠٠٣/٢، ابن أبي شيبة ١٨٢/١٢ و ١٩٨/١٤، المسند ٤٨٦/٣ بنحوه، شرح معاني الآثار ١٩١/٤، المعجم الكبير للطبراني ٩٢/٦ (روايتان)، السنن الكبرى للبيهقي ١٩٨/٥ (روايتان).

٤) المعجم الكبير للطبراني ٩٢/٦.

- عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «المدينة حرم، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله، والملائكة والناس أجمعين، لايقبل منه عدل ولا صرف. وذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لايقبل منه يوم القيامة عدل ولاصرف»(١).

- سئل أنس بن مالك رضي الله عنه: أحرّم رسول الله ﷺ المدينة؟ قال: نعم، هي حرام، لايختلى خلاها، فمن فعل ذلك، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين (٢).

- عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أنه وجد غلماناً قد ألجأوا ثعلباً إلى زاوية فطردهم عنه.

قال مالك: لاأعلم إلا أنه قال: أفي حرم رسول الله ﷺ يصنع هذا؟(٣).

- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي حرم، وحرمي المدينة»(٤).

زاد الإمام أحمد: «اللهم إني أحرمك بحرمك: أن لايأوى فيها محدث، ولا يختلى خلاها، ولا يعضد شوكها، ولا تؤخذ لقطتها إلا لمنشد».

- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم المدينة بمثل ما حرم» قال: «ونهى النبي ﷺ أن يعضد

---

١) مسلم ٩٩٩/٢ وفي رواية مختصراً ٩٩٠/٢، المسند ٣٩٨/٢ بنحوه، و ٥٢٦/٢ الجزء الأول منه، السنن الكبرى للبيهقي ١٩٦/٥ الجزء الأول إلا أنه قال: "المدينة حرم مابين عير إلى ثور...".

٢) مسلم ٩٩٤/٢، ابن أبي شيبة ٢٠٠/١٤، المسند ١٩٩/٣، أبو يعلى ٩١/٧، السنن الكبرى ١٩٧/٥.

٣) الموطأ ٨٩٠/٢، شرح معاني الآثار ١٩١/٤، المعجم الكبير للطبراني ١٣٧/٤ و ١٢٦/٥ (عن زيد بن ثابت)، السنن الكبرى للبيهقي ١٩٨/٥.

٤) المسند ٣١٨/١، ذكر أخبار أصبهان ٣٤٣/١، مسند ابن الجعد ١١٧٩/٢.

شجرها، أو يخبط، أو يؤخذ طيرها»(١).

- عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «اللهم إني حرمت المدينة بما حرمت به مكة»(٢).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول: لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ما ذعرتها، قال رسول الله ﷺ: «مابين لابتيها حرام»(٣).

وزاد في رواية بعد قول أبي هريرة: ما ذعرتها: «وجعل اثنى عشر ميلاً حول المدينة حمى»(٤).

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخدمه، فلما قدم النبي ﷺ راجعاً، وبدا له أحد قال: «هذا جبل يحبنا ونحبه» ثم أشار بيده إلى المدينة: «اللهم إني أحرم ما بين لابتيها، كتحريم إبراهيم مكة، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا»(٥).

---

١) شرح معاني الآثار ١٩٣/٤.

٢) ابن أبي شيبة ٢٠٠/١٤، أبو يعلى ٤٠٢/٤.

٣) البخاري ٥١/٣، مسلم ١٠٠٠/٢، الموطأ ٨٨٩/٢، الترمذي ٦٧٧/٥، ابن أبي شيبة ١٩٩/١٤، المسند ٢٣٦/٢ و ٢٥٦/٢ بنحوه و٤٨٧ بنحوه، المنتقى لابن الجارود ١٨٢، ، وفي رواية أخرى زاد بعد قول النبي ﷺ: "لايعضد شجرها ولا ينفر صيدها" وليس فيه أول الحديث ١٨٢، فضائل المدينة للجندي ٤٤ و ٤٧، شرح معاني الآثار ١٩٣/٤، ابن حبان ٢٥/٦.

٤) مسلم ١٠٠٠/٢، عبد الرزاق ٢٦٠/٩، المسند ٢٧٩/٢، السنن الكبرى للبيهقي ١٩٦/٥.

٥) البخاري ١٠١/٤ و ١٠٢ و ٢٨٨، ٢٢٩/٥ دون ذكر: "اللهم بارك..."، ١٣٧/٧، ١٤٠/٨ إلا أنه قال: "جبليها" بدل "لابتيها"، ١٨٨/٩ وليس فيه: "اللهم بارك..."، مسلم ٩٩٣/٢ غير أنه قال: "جبليها" وفي رواية: "لابتيها" ٩٩٣/٢ أيضاً، الترمذي ٦٧٨/٥ وليس فيه: "اللهم بارك..."، الموطأ ٨٨٩/٢ دون ذكر: "اللهم بارك..."، المسند ١٤٩/٣ و ١٥٩ و ٢٤٠ و ٢٤٢، أبو يعلى ٣٦٩/٦ دون ذكر: "اللهم بارك..." و ٣٧٠، فضائل المدينة للجندي ٢١ و ٤٤ دون ذكر: "اللهم

- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «حُرم مابين لابتي المدينة على لساني» قال: وأتى النبي ﷺ بني حارثة فقال: «أراكم يابني حارثة قد خرجتم من الحرم» ثم التفت، فقال: «بل أنتم فيه» (١).

- عن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها: لايقطع عضاهها، ولا يصاد صيدها»(٢).

وفي رواية: «لايخبط، ولا يعضد حمى رسول الله ﷺ، ولكن يهش هشاً رفيقاً»(٣).

- عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم ما بين لابتيها»(٤).

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إني حرمت ما بين لابتي المدينة كما حرم إبراهيم مكة».

قال عبد الرحمن بن أبي سعيد: ثم كان أبو سعيد يجد أحدنا في يده

بارك...» فيهما، السنن الكبرى للبيهقي ١٩٧/٥، دلائل النبوة للبيهقي ٢٢٨/٤، شرح السنة للبغوي ٣١٤/٧ دون ذكر: «اللهم بارك...».

١) البخاري ٤٩/٣، ابن أبي شيبة ١٩٩/١٤ إلى قوله ﷺ: «على لساني»، المسند ٢٨٦/٢ و ٣٧٦، فضائل المدينة للجندي ٤٤ الجزء الثاني فقط، المعجم الأوسط للطبراني ٤٣٨/٢.

٢) مسلم ٩٩٢/٢، عبد الرزاق ٢٦١/٩ بمعناه، المسند ٣٣٦/٣ بنحوه، المنتخب لعبد بن حميد ٣٩/٣، شرح معاني الآثار ١٩٢/٤، السنن الكبرى للبيهقي ١٩٨/٥.

٣) أبو داود ٢١٧/٢، ابن حبان ٢٥/٦، السنن الكبرى للبيهقي ٢٠٠/٥ (روايتان).

٤) مسلم ٩٩١/٢، عبد الرزاق ٢٦١/٩ بنحوه، المسند ١٤١/٤ (ثلاث روايات)، فضائل المدينة للجندي ٤٣، شرح معاني الآثار ١٩٢/٤ و ١٩٣، المعجم الكبير للطبراني ٢٥٧/٤ و٢٥٨ (ست روايات)، المعجم الأوسط ١٨٧/٣ بنحوه، السنن الكبرى ١٩٧/٥ و١٩٨/٥ بنحوه.

الطير فيفكه من يده، ثم يرسله(١).

وفي رواية قال: «حرم رسول الله ﷺ مابين لابتي المدينة: أن يعضد شجرها، أو يخبط» (٢).

- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إني أحرم مابين لابتي المدينة: أن يقطع عضاهها، أو يقتل صيدها» وقال: «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، لايدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولايثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعاً، أو شهيداً، يوم القيامة» (٣).

وروي مختصراً بذكر القسم الأول (٤).

وفي رواية قال: «مابين لابتي المدينة حرام، قد حرمه رسول الله ﷺ كما حرم إبراهيم مكة، اللهم اجعل البركة فيها بركتين، وبارك لهم في صاعهم ومدهم» (٥).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج حتى إذا كان عند السقيا من الحرة قال: «اللهم إن إبراهيم عبدك ورسولك حرم مكة، اللهم وإني أحرم ما بين لابتي المدينة، مثل ما حرم إبراهيم مكة» (٦).

---

١) مسلم ١٠٠٣/٢، ابن أبي شيبة ٢٠٠/١٤، أبو يعلى ٢٩١/٢، السنن الكبرى للبيهقي ١٩٨/٥.

٢) المسند ٢٣/٣، أبو يعلى ٢٨٢/٢، شرح معاني الآثار ١٩٢/٤.

٣) مسلم ٩٩٢/٢، المسند ١٨١/١، مسند سعد للدورقي ٨٢، المنتخب لعبد بن حميد ١٨٤/١، أبو يعلى ٥٨/٢ بنحوه، السنن الكبرى للبيهقي ١٩٧/٥.

٤) ابن أبي شيبة ١٩٨/١٤، الحربي في غريب الحديث ٩٢٤/٣، الجندي في فضائل المدينة ٤٦، الطحاوي في شرح معاني الآثار ١٩١/٤.

٥) المسند ١٦٩/١.

٦) ابن ماجه ١٠٣٩/٢ (القسم المرفوع فقط بنحوه)، عبد الرزاق ٢٦٢/٩ واللفظ له، فضائل المدينة للجندي: ٤٣، شرح معاني الآثار ١٣٩/٤ بزيادة في آخره: "ونهى

- عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ توضأ، ثم صلى بأرض سعد بأصل الحرة عند بيوت السقيا، ثم قال: «اللهم إن إبراهيم خليلك وعبدك ونبيك دعاك لأهل مكة، وأنا محمد عبدك ونبيك ورسولك أدعوك لأهل المدينة مثل ما دعاك إبراهيم لأهل مكة أن تبارك لهم في صاعهم ومدهم وثمارهم، اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة، واجعل مابها من وباء بخم، اللهم إني قد حرمت ما بين لابتيها كما حرمت على لسان إبراهيم الحرم»(١).

- عن جابر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل المدينة كالكير ، وحرم إبراهيم مكة، وأنا أحرم المدينة، وهي كمكة حرام ما بين حرتيها، وحماها كلها لايقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل منها، ولا يقربها إن شاء الله الطاعون، ولا الدجال، والملائكة يحرسونها على أنقابها وأبوابها»(٢).

- عن كعب بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ حرم ما بين لابتي المدينة أن يصاد وحشها(٣).

- عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: إن رسول الله ﷺ حرم ما بين لابتي المدينة من الصيد والعضاه(٤).

- عن شرحبيل بن سعد قال: أتانا زيد بن ثابت، ونحن في حائط ننصب

النبي ﷺ أن يعضد شجرها أو يخبط أو يؤخذ طيرها».

١) المسند ٣٠٩/٥، ابن خزيمة ١٠٦/١، فضائل المدينة للجندي ١٨.

٢) المسند ٣٩٣/٣، ورواه مختصراً عبد بن حميد في المنتخب ٦٥/٣، أبو يعلى ٢٩١/٢.

٣) المعجم الأوسط للطبراني ١٩٠/١. قال الهيثمي: فيه من لم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد ٣٠٤/٣.

٤) عبد الرزاق ٢٦١/٩، فضائل المدينة للجندي ٤٧ (مرسلا).

فخاخاً للطير وطردنا، وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عن صيد المدينة (١).

وفي رواية بلفظ: انه دخل الأسواف، فصاد بها نهساً - يعني طائراً - فدخل عليه زيد بن ثابت وهو معه فعرك أذنه، وقال خل سبيله لا أم لك، أما علمت أن النبي ﷺ حرم ما بين لابتيها(٢).

- عن عبد الله بن عباد الزرقي أنه كان يصيد العصافير في بئر إهاب، وكانت لهم، قال: فرآني عبادة بن الصامت، وقد أخذت العصفور، فينزعه مني، فيرسله، ويقول: أي بني، إن رسول الله ﷺ حرم ما بين لابتيها كما حرم إبراهيم مكة(٣).

- عن أبي اليسر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ حرم ما بين لابتي المدينة(٤).

- عن علي رضي الله عنه أنه قال: ما عندنا كتاب نقرؤه إلا كتاب الله غير هذه الصحيفة قال: فأخرجها فإذا فيها أشياء من الجراحات، وأسنان الإبل. قال: وفيها: «المدينة حرام ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لايقبل منه يوم

---

١) الحميدي ١/١٩٦، المسند ٥/١٩٠، فضائل المدينة للجندي: ٤٥، شرح معاني الآثار ٤/١٩٢.

٢) ابن أبي شيبة ١٤/١٩٩، المسند ٥/١٨١ و ٥/١٩٢، مسند ابن الجعد ٢/١٠٠٦، المعجم الكبير للطبراني ٥/١٥٠ و ١٥١، السنن الكبرى للبيهقي ٥/١٩٩.

٣) المسند ٥/٣١٧ ، ٣٢٩، كشف الأستار ٢/٥٥ إلا أنه قال: "ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ حرم صيدها" بدل: "حرم ما بين لابتيها..."، المعجم الكبير للطبراني ٦/٢٦٧، السنن الكبرى للبيهقي ٥/١٩٨.

وفي الباب عن عبد الرحمن بن عوف . كشف الأستار ٢/٥٥، شرح معاني الآثار ٤/١٩١، السنن الكبرى للبيهقي ٥/١٩٨.

٤) المعجم الكبير للطبراني ١٩/١٧١. قال الهيثمي: فيه راو لم يسم. مجمع الزوائد ٣/٣٠٢.

القيامة صرف ولا عدل، ومن والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة أجمعين، لايقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لايقبل منه يوم القيامة صرف ولاعدل» (١).

وفي رواية بزيادة: «لايختلى خلاها، ولا ينفر صيدها، ولا تلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال، ولايصلح أن يقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره»(٢).

- عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «المدينة حرم من كذا إلى كذا، لايقطع شجرها، ولايحدث فيها حدث، من أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»(٣).

---

(١) البخاري ٢٧٦/٨ و ٥٠/٣ إلا أنه قال: "المدينة حرم ما بين عائر إلى كذا" وكذا في ٢١٣/٤ (مختصراً) وكذا في ١٧٤/٩.

مسلم ٩٩٤/٢ وليس فيه: "فمن أخفر مسلماً ..."الخ، و٩٩٩/٢ بنحوه. أبو داود ٢١٧/٢ بنحوه، الترمذي ٣٨١/٤ وليس فيه "فمن أخفر..."الخ.

الطيالسي: ٢٦ وليس فيه: "فمن أخفر..." الخ، عبد الرزاق ٢٦٣/٩، ابن أبي شيبة ١٩٨/١٤ (مختصراً)، المسند ٨١/١ و ١٢٦/١ وليس فيهما: "فمن أخفر..." و ١٥١/١، أبو يعلى ٢٢٨/١ وليس فيه: "فمن أخفر ...." وفي رواية بوجودها ٢٥٤/١، شرح معاني الآثار ١٩١/٤ (مختصراً) ابن حبان ١٢/٦، السنن الكبرى للبيهقي ١٩٦/٥، دلائل النبوة له ٢٢٧/٧و ٢٢٨.

(٢) أبو داود ٢١٧/٢، المسند ١١٩/١ إلا أنه قال قبل ذلك: "إن إبراهيم حرم مكة وإني أحرم المدينة حرام ما بين حرتيها، وحماها كله..." ثم قال: "لايختلى...".

مشكل الآثار ٢١٥/٤ ذكر بعض الزيادة الأولى فقط، السنن الكبرى للبيهقي ٢٠١/٥.

وروي نحوه عن أنس بن مالك رضي الله عنه . الأموال لابن زنجويه ٤٤٢/٢ وليس فيه: "ومن والى قوماً ....".

(٣) البخاري ٤٩/٣ و ١٧٩/٩ بنحوه، مسلم ٩٩٤/٢ بزيادة: "لايقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً" وفي رواية بدونها ٩٩٤/٢.

- عن أبي سعيد مولى المهري، أنه أصابهم بالمدينة جهد وشدة، وأنه أتى أبا سعيد الخدري، فقال له: إني كثير العيال، وقد أصابتنا شدة، فأردت أن أنقل عيالي إلى بعض الريف، فقال أبو سعيد: لا تفعل، الزم المدينة، فإنا خرجنا مع نبي الله ﷺ -أظن أنه قال- حتى قدمنا عسفان فأقام بها ليالي....» ثم قال ﷺ: «اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حرماً، وإني حرمت المدينة حراماً ما بين مأزميها: أن لا يراق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يخبط فيها شجرة إلا لعلف، اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مدنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مدنا، اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم اجعل مع البركة بركتين، والذي نفسي بيده، ما من المدينة شعب ولا نقب إلا عليه ملكان يحرسانها حتى تقدموا إليها»(١).

- عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: ما بين كداء وأحد حرام حرمه رسول الله ﷺ ما كنت لأقطع به شجرة ولا أقتل به طائراً(٢).

- عن عمرو بن عوف المزني رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ حمى المدينة بريداً من كل ناحية»(٣).

- عن عدي بن زيد قال: حمى رسول الله ﷺ كل ناحية من المدينة بريداً بريداً: لا يخبط شجره، ولا يعضد، إلا ما يساق به الجمل(٤).

- عن جابر رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لايحل لأحد فيها السلاح لقتال»(٥).

---

١) مسلم ١٠٠١/٢، السنن الكبرى للبيهقي ٢٠١/٥.

٢) المسند ٤٥٠/٥.

٣) المعجم الكبير للطبراني ١٧/ ٢٠.

وروي مثله عن جابر رضي الله عنه. كشف الأستار ٥٤/٢.

٤) أبو داود ٢١٧/٢.

- عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ نهى عن آطام المدينة أن تهدم(١).

وفي رواية: «لاتهدموا الآطام، فإنها زينة المدينة»(٢).

- عن جابر رضي الله عنه أنه قال: «لا يدخل مسجدنا هذا بعد عامنا هذا مشرك، إلا أهل العهد وخدمهم»(٣).

---

٥) المسند ٣/٣٤٧ و ٣٩٣.

١) كشف الأستار ٢/٥٤، شرح معاني الآثار ٤/١٩٤.

٢) شرح معاني الآثار ٤/١٩٤.

٣) المسند ٣/٣٩٢

إثم من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً أو آذى أهلها

- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء» (١).

وفي رواية: «ولايريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص، أو ذوب الملح في الماء» (٢).

- عن علي رضي الله عنه أنه قال: ما عندنا كتاب نقرؤه إلا كتاب الله غير هذه الصحيفة، قال: فأخرجها فإذا فيها أشياء من الجراحات، وأسنان الإبل. قال: وفيها: «المدينة حرام ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً، أو آوى محدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لايقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل ومن والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة أجمعين، لايقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل» (٣).

- عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «المدينة حرم من كذا إلى كذا، لايقطع شجرها، ولا يحدث فيها حدث، من أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» (٤).

- عن سعد بن مالك وأبي هريرة رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «اللهم بارك لأهل المدينة في مدينتهم، وبارك لهم في صاعهم، وبارك لهم في

---

١) البخاري ٣/٥٢، مسلم ٢/١٠٠٨ بلفظ: "من أراد أهل المدينة بسوء...".

٢) مسلم ٢/٩٩٢، المسند ١/١٨٥ (في حديث طويل)، أبو يعلى ٢/٥٨ (في حديث طويل). وهو كذلك في فضائل المدينة للجندي: ٢٩ بزيادة في أخره: "أو بالماء". وفي مسند سعد للدورقي: ٢٠٢، بلفظ: "من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله إذابة الملح في الماء" و فضائل المدينة للجندي بنحوه: ٢٨.

٣) انظر تخريجه في باب تحريم المدينة.

٤) انظر تخريجه في باب تحريم المدينة.

مدهم، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك وإني عبدك ورسولك، وإن إبراهيم سألك لأهل مكة. وأني أسألك لأهل المدينة كما سألك إبراهيم لأهل مكة ومثله معه، إن المدينة مشبكة بالملائكة، على كل نقب منها ملكان يحرسانها، لايدخلها الطاعون ولا الدجال، من أرادها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء» (١).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: من أراد أهلها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء» (٢).

- عن السائب بن خلاد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أخاف أهل المدينة أخافه الله عزو جل، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لايقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً» (٣).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «المدينة حرم، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله، والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه عدل ولا صرف. وذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن

---

١) انظر تخريجه في باب الدعاء للمدينة بالبركة.

٢) مسلم ١٠٠٧/٢ واللفظ له، ابن ماجه ١٠٣٩/٢ بلفظ: "من أراد أهل المدينة"، عبد الرزاق ٢٦٣/٩ و ٢٦٤، الحميدي ٤٩٢/٢ بلفظ: "أيما جبار أراد أهل المدينة ..."، المسند ٢٧٩/٢ و ٣٠٩ و ٣٥٧، أبو يعلى ٣٩١/١ بلفظ: "من أراد أهل المدينة بشر..."،الجندي في فضائل المدينة: ٢٧ بلفظ "من أخاف أهل المدينة" و ٢٨ بلفظ: "أيما جبار أراد المدينة بسوء ..." و ٢٩، ابن حبان ٢٠/٦.

٣) المسند ٥٥/٤ و ٥٦، المعجم الكبير للطبراني ١٤٣/٧، وفي روايات عنده بنحوه ١٤٣/٧ و ١٤٤. وفي رواية عنده: "أخافه الله عز وجل يوم القيامة..." ١٤٤/٧. وفي أخرى: "اللهم من ظلم أهل المدينة وأخافهم فأخفهم..." ١٤٤/٧. وفي رواية بلفظ: "من أخاف أهل المدينة ظلماً..." المسند ٥٥/٤ و ٥٦. وروى الحربي أوله في غريب الحديث ٨٣٤/٢. و روي مرسلاً عن عدد من التابعين، انظر: عبد الرزاق ٢٦٥/٩ وفضائل المدينة للجندي ٣٠.

أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لايقبل منه يوم القيامة عدل ولا صرف» (١).

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من أخاف أهل المدينة فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لايقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، من أخافها فقد أخاف ما بين هذين» وأشار إلى ما بين جنبيه (٢).

- عن زيد بن أسلم رحمه الله عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهم من أراد المدينة بسوء فأذبه كما يذوب الرصاص في النار، وكما يذوب الملح في الماء، وكما تذوب الإهالة في الشمس» (٣).

---

١) مسلم ٩٩٩/٢ وفي رواية مختصراً ٩٩٩/٢، المسند ٣٩٨/٢ بنحوه، و٥٢٦/٢ الجزء الأول منه، السنن الكبرى للبيهقي ١٩٦/٥ الجزء الأول إلا أنه قال: "المدينة حرم ما بين عير إلى ثور...".

٢) ابن أبي شيبة ١٨١/١٢ واللفظ له، أحمد ٣٥٤/٣ و ٣٩٣ بلفظ: "من أخاف أهل المدينة فقد أخاف ما بين جنبي" ولم يزد على ذلك. وابن حبان بلفظ: "من أخاف أهل المدينة أخافه الله" ٢٠/٦.

٣) عبد الرزاق ٢٦٤/٩.

لايدخل المدينة الطاعون و لا الدجال

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة، لايدخلها الطاعون و لا الدجال» (١).

وفي رواية: «المدينة و مكة محفوفتان بالملائكة، على كل نقب منها ملك، لايدخلها الدجال و لا الطاعون» (٢).

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المدينة يأتيها الدجال، فيجد الملائكة يحرسونها، فلا يقربها الدجال و لا الطاعون إن شاء الله» (٣).

- عن سعد بن مالك و أبي هريرة رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «اللهم بارك لأهل المدينة في مدينتهم، وبارك لهم في صاعهم، وبارك لهم في مدهم، اللهم إن إبراهيم عبدك و خليلك و إني عبدك و رسولك، وإن إبراهيم سألك لأهل مكة، وإني أسألك لأهل المدينة كما سألك إبراهيم لأهل مكة و مثله معه، إن المدينة مشبكة بالملائكة، على كل نقب منها ملكان يحرسانها، لايدخلها الطاعون و لا الدجال، من أرادها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء» (٤).

- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لايدخلها - يعني المدينة - الطاعون ولا الدجال» (٥).

---

١) البخاري ٥٣/٣ و ٢٣٩/٧ و ١١٠/٩، مسلم ١٠٠٥/٢، الموطأ ٨٩٢/٢، المسند ٢٣١/٢ و ٣٥٧ و ٣٧٨، فضائل المدينة للجندي ٢٤، شرح السنة للبغوي ٣٢٥/١.

٢) المسند ٤٨٣/٢.

٣) البخاري ١١٠/٩ و ٢٤٩، الترمذي ٤٤٦/٤، المسند ٢٠٢/٣ و ٢١١، أبو يعلى ٣٩٠/٥، ابن حبان ٢٨٤/٨.

٤) انظر تخريجه في باب الدعاء للمدينة بالبركة.

٥) فضائل المدينة للجندي ٢٤.

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله كل كافر ومنافق» (١).

وفي رواية: أن قائلاً من الناس قال: يانبي الله، مايرد الدجال المدينة؟ قال: «أما أنه ليعمد إليها، ولكنه يجد الملائكة صافة بنقابها وأبوابها يحرسونها من الدجال» (٢).

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ يوماً حديثاً طويلاً عن الدجال فكان فيما حدثنا به أنه قال: «يأتي الدجال، وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة، فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل، وهو خير الناس، أو من خير الناس، فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته، هل تشكون في الأمر؟ فيقولون: لا. فيقتله، ثم يحييه، فيقول: والله، ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم، فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه» (٣).

- عن أبي بكرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل المدينة

---

١) البخاري ٥٣/٣، ١٠٧/٩ مختصرا، مسلم ٢٢٦٥/٤ بنحوه، ٢٦٦/٤ غير أنه قال: "فيأتي سبخة الجرف فيضرب رواقه فيخرج إليه كل كافر ومنافق" وهو كذلك عند ابن أبي شيبة ١٨١/١٢ و ١٤٣/١٥، المسند ١٩١/٣ و ٢٣٨/٣ بنحوه، وابن حبان ٢٨٤/٨ و شرح السنة للبغوي ٣٢٦/٧ .
أخبار مكة للفاكهي ٢٦٢/٢ و ٢٦٣.

٢) المسند ٢٠٦/٣ و ٢٢٩، أبو يعلى ٣١٧/٥ و ٣٦٨ بنحوه و ١٣/٦.

٣) البخاري ١١٠/٩ و ٥٣/٣، مسلم ٢٢٥٦/٤، عبد الرزاق ٣٩٣/١١، المسند ٣٦/٣، ابن حبان ٢٨٣/٨، الايمان لابن منده ٩١٥/٣، شرح السنة للبغوي ٥١/١٥.

رعب المسيح، لها يومئذ سبعة أبواب، على كل باب ملكان» (١).

وفي رواية: «كل قرية يدخلها فزع الدجال إلا المدينة يأتيها ليدخل، فيجد على بابها ملكاً مصلتاً بالسيف، فيرده عنها» (٢).

- عن عامر بن شراحيل الشعبي أنه سأل فاطمة بنت قيس رضي الله عنها فقال: حدثيني حديثاً سمعتيه من رسول الله ﷺ لا تسنديه إلى أحد غيره، فقالت: لئن شئت لأفعلن، فقال لها: أجل حدثيني، فقالت: نكحت ابن المغيرة، وهو من خيار شباب قريش - ثم ذكرت طلاقها وعدتها، وذكرت قصة الجساسة و الدجال في حديث طويل، وفيه قول الدجال -: إني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطيبة، فهما محرمتان علي كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة، أو واحداً منهما، استقبلني ملك بيده السيف صلتاً، يصدني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها» (٣).

- وفي رواية بزيادة: قال عامر الشعبي: فلقيت المحرر بن أبي هريرة فحدثته بحديث فاطمة، فقال: أشهد على أبي أنه حدثني كما حدثتك فاطمة ما نقص حرفاً واحداً، غير أن أبي قد زاد فيه باباً واحداً، قال: فخط النبي ﷺ بيده نحو المشرق قريباً من عشرين مرة (٤).

---

١) البخاري ١٠٧/٩ و ٥٣/٣ إلا أنه قال: "المسيح الدجال"، ابن أبي شيبة ١٨٠/١٢ و ١٤٠/١٥، المسند ٤٣/٥ و ٤٧، ابن حبان ١٨/٦ بنحوه و ٢٨٤/٨.

٢) المعجم الأوسط للطبراني ٤٦/٢.

٣) مسلم ٢٢٦١/٤ و اللفظ له و ٢٢٦٤، ٢٢٦٥، الطيالسي ٢٢٨، المسند ٣٧٤/٦ و ٤١٢ و ٤١٧ و ٤١٨، ابن حبان ٢٧٧/٨ و ٢٧٨، المعجم الكبير للطبراني ٣٨٥/٢٤ و ٣٨٦ و ٣٨٨ و ٣٩١ و ٣٩٦ و ٣٩٧، الإيمان لابن منده ٩٣٠/٣، دلائل النبوة للبيهقي ٤١٦/٥.

٤) ابن أبي شيبة ١٨٩/١٥ و اللفظ له، الحميدي ١٧٧/١، المسند ٣٧٣/٦ و ٤١٦، الإيمان لابن مندة ٩٥٠/٣.

- وفي رواية يقول الدجال: «أما إنه لو قد أذن لي في الخروج، قد وطئت البلاد كلها غير طيبة» (١).

- وجاء في رواية مختصراً بلفظ: «هذه طيبة -يعني المدينة- والذي نفس محمد بيده، ما فيها طريق واسع و لا ضيق إلا عليه ملك شاهر بالسيف إلى يوم القيامة» (٢).

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: صحبت ابن صائد إلى مكة، فقال لي: أما قد لقيت من الناس يزعمون أني الدجال. ألست سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه لا يولد له» قال قلت: بلى. قال: فقد ولد لي أوليس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لايدخل المدينة و لا مكة» قلت: بلى. قال: فقد ولدت بالمدينة، و هذا أنا أريد مكة. قال: ثم قال لي في آخر قوله: أما والله إني لأعلم مولده، و مكانه، و أين هو. قال: فلبسني. (٣).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي المسيح من قبل المشرق، همته المدينة، حتى ينزل دبر أحد، ثم تصرف الملائكة وجهه

---

١) مسلم ٢٢٦٥/٤ و اللفظ له، ابن أبي شيبة ١٨٩/١٥ بزيادة، فقال رسول الله ﷺ: "إلى هذا انتهى فرحي، هذه طيبة، و الذي نفس محمد بيده، إن هذه طيبة، و لقد حرم الله حرمي على الدجال أن يدخله، ثم حلف ﷺ ما لها طريق ضيق و لا واسع في سهل أو جبل إلا عليه ملك شاهر بالسيف إلى يوم القيامة ما يستطيع الدجال أن يدخلها عن أهلها" وكذا في المسند ٣٧٣/٦ و ٤١٦.
الحميدي ١٧٧/١، المسند ٣٧٣/٦، المعجم الكبير ٣٩٥/٢٤ و ٣٩٨ و ٣٩٩، الايمان لابن مندة ٩٥٠/٣ و ٩٥٥.

٢) ابن أبي شيبة ١٨٠/١٢، ابن حبان ١٨/٦ بنحوه.

٣) مسلم ٢٢٤١/٤ و ٢٢٤٢، الترمذي ٥١٦/٤، المسند ٤٣/٣ و ٧٩ و ٩٧، شرح السنة للبغوي ٧٦/١٥.

قبل الشام، و هنالك يهلك» (١).

- عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: أكثر الناس في مسيلمة قبل أن يقول رسول الله ﷺ فيه شيئاً، فقام رسول الله ﷺ خطيباً، فقال: «أما بعد ففي شأن هذا الدجال الذي قد أكثرتم فيه، و إنه كذاب من ثلاثين كذاباً يخرجون بين يدي المسيح، و إنه ليس من بلد إلا يبلغه رعب المسيح إلا المدينة، على كل نقب من أنقابها ملكان يذبان عنها رعب المسيح» (٢).

- عن عمرو بن أبي سفيان الثقفي، أنه أخبره رجل من الأنصار، عن بعض أصحاب محمد ﷺ قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال، فقال: «يأتي سباخ المدينة، و هو محرم عليه أن يدخل نقابها، فتنتفض المدينة بأهلها نفضة او نفضتين - وهي الزلزلة - فيخرج إليه منها كل منافق و منافقة، ثم يولي الدجال قبل الشام حتى يأتي بعض جبال الشام فيحاصرهم، وبقية المسلمين يومئذ معتصمون بذروة جبل من جبال الشام، فيحاصرهم الدجال نازلاً بأصله، حتى إذا طال عليهم البلاء قال رجل من المسلمين: يا معشر المسلمين! حتى متى أنتم هكذا، وعدو الله نازل بأرضكم هكذا، هل أنتم إلا بين إحدى الحسنيين، بين أن يستشهدكم الله، أو يظهركم، فيبايعون على الموت بيعة يعلم الله أنها الصدق من أنفسهم، ثم تأخذهم ظلمة لا يبصر امرؤ فيها كفه، قال: فينزل ابن مريم فيحسر عن أبصارهم، وبين أظهرهم رجل عليه لامته، يقولون: من أنت؟ يا عبد الله! فيقول: أنا عبد الله، ورسوله،

---

١) مسلم ١٠٠٥/٢، الترمذي ٤٤٦/٤ و زاد في أوله: "الايمان يمان، و الكفر من قبل المشرق، و السكينة لأهل الغنم، و الفخر و الرياء في الفدادين: أهل الخيل و أهل الوبر، يأتي المسيح...."، المسند ٣٩٧/٢ و ٤٠٧ و قال في رواية: "ضربت الملائكة وجهه...." ٤٠٧، أبو يعلى ٣٤٦/١١، ابن حبان ٢٨٥/٨، شرح السنة للبغوي ٣٢٦/٧.

٢) عبد الرزاق ٣٩٢/١١، المسند ٤١/٥ و ٤٦ و ٤٧، ابن شبة ٥٧٦/٢، المستدرك ٥٤١/٤.

وروحه، وكلمته، عيسى ابن مريم، اختاروا بين إحدى ثلاث، بين أن يبعث الله على الدجال و جنوده عذاباً من السماء، أو يخسف بهم الأرض، او يسلط عليه سلاحكم، ويكف سلاحهم عنكم، فيقولون: هذه يا رسول الله! أشفى لصدورنا و لأنفسنا، فيومئذ ترى اليهودي العظيم الطويل، الأكول الشروب، لاتقل يده سيفه من الرعدة، فيقومون إليهم، فيسلطون عليهم، ويذوب الدجال حين يرى ابن مريم كما يذوب الرصاص، حتى يأتيه -أو يدركه- عيسى فيقتله» (١).

- عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «ألا إنه لم يكن نبي قبلي إلا قد حذر الدجال أمته.....إلى أن قال: ثم يسير حتى يأتي المدينة فلا يؤذن له فيها، فيقول: هذه قرية ذلك الرجل، ثم يسير حتى يأتي الشام فيقتله الله عند عقبة أفيق» (٢).

- عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي النبي ﷺ وأنا أبكي، فقال: «ما يبكيك» ؟ فقلت: يارسول الله، ذكرت الدجال، قال: «فلا تبكي فإن يخرج وأنا حي أكفيكموه، وإن أمت فإن ربكم ليس بأعور، وإنه يخرج معه يهود أصبهان، فيسير حتى ينزل بضاحية المدينة، ولها يومئذ سبعة أبواب، على كل باب ملكان، فيخرج إليه شرار أهلها، فينطلق حتى يأتي لد، فينزل عيسى ابن مريم فيقتله، ثم يمكث عيسى في الأرض أربعين سنة، أو قريباً من أربعين سنة، إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً» (٣).

- عن رجاء بن أبي رجاء قال: دخل بريدة المسجد ومحجن على باب المسجد وسَكَبَة يصلي، فقال بريدة -وكان فيه مزاح-: ألا تصلي كما يصلي

---

١) عبد الرزاق ١١/٣٩٧.

٢) الطيالسي ١٥٠، ابن أبي شيبة ١٥/١٣٧، المسند ٥/٢٢١.

٣) ابن أبي شيبة ١٥/١٣٤ - واللفظ له -، المسند ٦/٧٥ بنحوه، ابن حبان ٨/٢٩٠ إلا أنه قال: "يخرج معه اليهود" بدل "يهود أصبهان".

سكبة، فقال محجن: إن رسول الله ﷺ أخذ بيدي فصعد على أحد، وأشرف على المدينة فقال: «ويلها مدينة يدعها أهلها وهي خير ما كانت، أو أعز ما كانت، يأتيها الدجال فيجد على كل باب من أبوابها ملكاً، مصلتاً بجناحيه فلا يدخلها» (١).

- عن جنادة بن أبي أمية قال: دخلت أنا وصاحب لي على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: فقلنا: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ، ولا تحدثنا عن غيره وإن كان عندك مصدقاً، قال: نعم، قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «أنذركم الدجال، أنذركم الدجال، أنذركم الدجال، فإنه لم يكن نبي إلا وقد أنذره أمته، وإنه فيكم أيتها الأمة، وإنه جعد آدم ممسوح العين اليسرى، وإن معه جنة وناراً، فناره جنة، وجنته نار، وإن معه نهر ماء، وجبل خبز، وإنه يسلط على نفس فيقتلها، ثم يحييها، لايسلط على غيرها، وإنه يمطر السماء، ولاتنبت الأرض، وإنه يلبث في الأرض أربعين صباحاً حتى يبلغ منها كل منهل، وإنه لايقرب أربعة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد الرسول، ومسجد المقدس، والطور، وما شبه عليكم من الأشياء، فإن الله ليس بأعور» مرتين (٢).

- عن ثعلبة بن عباد البصري - من أهل البصرة - أنه شهد يوماً خطبة لسمرة بن جندب، فذكر في خطبته حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والله لاتقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذاباً، آخرهم الأعور الدجال، ممسوح العين اليسرى كأنها عين أبي تحيى - أو يحيى - لشيخ من الأنصار، وإنه متى يخرج فإنه يزعم أنه الله، من آمن به وصدقه واتبعه فليس ينفعه صالح من عمل له سلف، ومن كفر به وكذبه فليس يعاقب بشيء من عمله سلف، وإنه

---

(١) ابن أبي شيبة ١٥/١٤٠ واللفظ له، المسند ٤/٣٣٨، ابن شبة ١/٢٧٣.

(٢) ابن أبي شيبة ١٥/١٤٧ و اللفظ له، المسند ٣/٣٦٤و ٥/٤٣٤، فضائل بيت المقدس للمقدسي ٦٢.

سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم وبيت المقدس، وإنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس . . . . . . » الحديث (١).

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أشرف رسول الله ﷺ على فلق من أفلاق الحرة ونحن معه، فقال: «نعمت الأرض المدينة إذا خرج الدجال، على كل نقب من أنقابها ملك لايدخلها، فإذا كان كذلك رجفت المدينة بأهلها ثلاث رجفات، لايبقى منافق ولامنافقة إلا خرج إليه، وأكثر من يخرج إليه النساء، وذلك يوم التخليص، وذلك يوم تنفي المدينة الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد، يكون معه سبعون ألفاً من اليهود. . . . . . » الحديث (٢).

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في خفقة من الدين، وإدبار من العلم، فله أربعون ليلة يسيحها في الأرض..... إلى أن قال -يرد كل ماء ومنهل، إلا المدينة ومكة حرمهما الله عليه، وقامت الملائكة بأبوابها.....» الحديث (٣).

- عن محجن بن الأدرع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال: «يوم الخلاص وما يوم الخلاص، يوم الخلاص وما يوم الخلاص، يوم الخلاص وما يوم الخلاص، فقيل له: وما يوم الخلاص؟ قال: يجيء الدجال فيصعد أحداً، فينظر إلى المدينة فيقول لأصحابه: أترون هذا القصر الأبيض؟ هذا مسجد أحمد، ثم يأتي المدينة فيجد بكل نقب منها ملكاً مصلتاً فيأتي سبخة الجرف فيضرب رواقه، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات، فلا يبقى منافق

---

١) ابن أبي شيبة ١٥١/١٥ واللفظ له، المسند ١٦/٥، ابن حبان ٢٢٤/٤، المستدرك ٣٣١/١ وقال: حديث حسن صحيح، السنن الكبرى للبيهقي ٣٣٩/٣.

٢) المسند ٢٩٢/٣.

٣) المسند ٣٦٧/٣، المستدرك ٥٣٠/٤ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ولا منافقة، ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه فذلك يوم الخلاص» (١).

- عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «لايدخل الدجال مكة ولا المدينة» (٢).

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قام رسول الله ﷺ ذات يوم على المنبر فقال: «إنه بينما أناس يسيرون في البحر.....» الحديث وفيه: «قالوا: هو المسيح تطوى له الأرض فيسلكها في أربعين يوماً إلا ما كان من طيبة» فقال رسول الله ﷺ: «ألا وإن طيبة هي المدينة، ما من باب من أبوابها إلا ملك صالت سيفه يمنعه منها وبمكة مثل ذلك» (٣).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ركب رسول الله ﷺ إلى مجمع السيول فقال: إلا أنبئكم بمنزل الدجال من المدينة؟ فقال: «هذا منزله، يريد المدينة فلا يستطيعها، على كل نقب من نقابها ملك شاهر سلاحه لا يدخلها الدجال» (٤).

- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «- في الدجال - ما شبه عليكم منه، فإن الله عز وجل ليس بأعور، يخرج فيكون في الأرض أربعين صباحاً، يرد منها كل منهل إلا الكعبة، وبيت المقدس، والمدينة، الشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، ومعه جنة ونار، فناره جنة، وجنته نار، معه جبل من خبز، ونهر من ماء، يدعو برجل - لايسلطه الله إلا عليه - فيقول: ما تقول فيه؟ فيقول: أنت عدو الله، وأنت الدجال

---

١) المسند ٣٣٨/٤، المستدرك ٥٤٣/٤ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه.

٢) المسند ٢٤١/٦، المعجم لأبي يعلى ٨٦.

٣) أبو يعلى ١٤٢/٤. ورواه مختصراً الفاكهي في أخبار مكة ٢٥٢/٢.

٤) أبو يعلى ٤٢٦/١١. قال الهيثمي: فيه أبو معشر وهو ضعيف. مجمع الزوائد ٣٤٥/٧.

الكذاب، فيدعوه بمنشار فيضعه حذو رأسه فيشقه حتى يقع بالأرض، ثم يحييه فيقول له: ما تقول فيه؟ فيقول: والله ما كنت أشد بصيرة مني فيك الآن، أنت عدو الله الكذاب الذي أخبرنا عنك رسول الله ﷺ قال: فيهوي إليه بسيفه فلا يستطيعه، فيقول: أخروه عني» (١).

- عن عكرمة قال: سئل النبي ﷺ عن الدجال، فقال: «ما من نبي إلا وقد حذر قومه الدجال، نوح فمن دونه، فاحذروه، يطوف القرى كلها غير مكة و المدينة لن يدخلها، الملائكة على حافتي مكة والمدينة» (٢).

---

١) فضائل بيت المقدس للمقدسي ٥٩.

٢) أخبار مكة للفاكهي ٢/٢٦٠.

الدعاء للمدينة بإخراج الوباء منها

- عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر و بلال، قالت: فدخلت عليهما، قلت: ياأبت، كيف تجدك؟ ويابلال، كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة، أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة»(١).

وفي رواية نحوه، وزاد بعد بيتي بلال: اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء. ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم حبب.... »

قالت: وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، قالت: فكان بطحان يجري

١- البخاري ١٦٨/٥ و ٢١٢/٧ و٢٢٢، الموطأ ٨٩٠/٢ وذكر عقيبه أن عائشة رضي الله عنها قالت: "وكان عامر بن فهيرة يقول:

قد رأيت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه"

الحميدي ١١٠/١ وذكر فيه قول عامر بنحوه، ثم زاد في أول دعاء النبي ﷺ: "اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك دعاك لأهل مكة، وأنا عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة مثل ما دعاك لأهل مكة اللهم بارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا، وبارك لنا في مدينتنا، وفي فرقنا....-إلى أن قال:- وانقل وباءها وحماها إلى خم أو إلى الجحفة".

الأدب المفرد للبخاري: ١٨٤، ابن حبان ١٦/٤، شرح السنة للبغوي ٣١٦/٣.

نجلاً تعني ماء آجناً(١).

وفي رواية أنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة اشتكى أصحابه، واشتكى أبو بكر، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وبلال، فاستأذنت رسول الله في عيادتهم، فقلت لأبي بكر: كيف تجدك؟ فقال:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وسألت عامراً فقال:

وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه

وسألت بلالاً فقال

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفخ وحولي إذخر وجليل

فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بقولهم، فنظر إلى السماء ثم قال: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وأشد، وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل وباءها إلى مهيعة» وهي الجحفة(٢).

وروي مختصراً، مع ذكر الدعاء كاملاً. وفي بعضها بذكر الدعاء فقط(٣).

---

١) البخاري ٥٦/٣، المسند ٢٦٠/٦، دلائل النبوة للبيهقي ٥٦٨/٢، وليس في الروايتين الأخيرتين قول عائشة "وقدمنا المدينة..." لكن فيهما: "فكان المولود يولد بالجحفة، فما يبلغ الحلم حتى تصرعه الحمى"، وفي رواية: دون ذكر المولود، المسند ٢٦٠/٦.

أخبار مكة للأزرقي ١٥٤/٢ إلى قوله: "كما أخرجونا من مكة" بدل "من أرضنا"، مسند عائشة لابن أبي داود: ٥٩ بنحوه و٦٧، دلائل النبوة للبيهقي ٥٦٥/٢ إلى قوله: "وأمية بن خلف" ورواه كاملاً في رواية أخرى ٥٦٥/٢.

٢) المسند ٢٢١/١ و ٦٥/٦ و ٢٣٩/٦ وفيه "إلى خم ومهيعة"، ابن حبان ٤٤٦/٧، دلائل النبوة للبيهقي ٥٦٦/٢ وزاد بعد قوله: فاستأذنت عائشة رسول الله ﷺ في عيادتهم: "فأذن لها، وكان ذلك قبل أن يضرب الحجاب".

٣) البخاري ١٤٣/٨، مسلم ١٠٠٣/٢، المسند ٥٦/٦، أخبار مكة للأزرقي ٥٣/٢، فضائل المدينة للجندي ٢٠، المعجم الأوسط للطبراني ١٧٩/٢، دلائل النبوة للبيهقي ٥٦٨/٢.

- عن أبي قتادة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ توضأ ثم صلى بأرض سعد بأصل الحرة ...... الحديث، وفيه: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة، واجعل مابها من وباء بخم ......» (١).

- عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «رأيت كأن امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى قامت بمهيعة وهي الجحفة، فأولت أن وباء المدينة نقل إليها»(٢).

- عن جابر رضي الله عنه قال: استأذنت الحمى على النبي ﷺ فقال: «من هذه»؟ قالت: أم ملدم، قال: فأمر بها إلى أهل قباء، فلقوا منها ما يعلم الله، فأتوه فشكوا ذلك إليه، فقال: «ما شئتم إن شئتم أن أدعو الله فيكشفها عنكم، وإن شئتم أن تكون لكم طهورا» قالوا: يارسول الله أو تفعل ذلك؟ قال: «نعم» قالوا: فدعها(٣).

- عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: أن قوما من العرب أتوا رسول الله ﷺ المدينة فأسلموا، وأصابهم وباء المدينة حماها فأركسوا،

---

١) المسند ٣٠٩/٥، ابن خزيمة ١٠٦/١، فضائل المدينة للجندي ١٨. وسيأتي الحديث كاملاً في باب الدعاء للمدينة بالبركة.

٢) البخاري ٧٦/٩ (ثلاث روايات)، الترمذي ٤٦٩/٤، ابن ماجه ١٢٩٣/٢، ابن أبي شيبة ٦١/١١، المسند ١٠٧/٢ و١١٧ و١٣٧ وفي الرواية الأخيرة: "ثائرة الشعر تفله" وكذا في سنن الدارمي ٥٥/٢، أبو يعلى ٣٩٥/٩، المعجم الكبير للطبراني ٢٩٠/١٢، دلائل النبوة للبيهقي ٥٦٨/٢.

٣) المسند ٣١٦/٣، المنتخب لعبد بن حميد ١٥/٣، أبو يعلى ٤٠٨/٣، المستدرك ٣٤٦/١ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وفي الباب عن أم طارق مولاة سعد بن عبادة رضي الله عنها وعنه. المسند ٣٧٨/٦، السنن الكبرى للبيهقي ٣٧٥/٣، دلائل النبوة له ١٥٨/٦.

و سلمان الفارسي رضي الله عنه. المعجم الكبير للطبراني ٣٠٢/٦، دلائل النبوة للبيهقي ١٥٩/٦.

فخرجوا من المدينة، فاستقبلهم نفر من أصحابه يعني أصحاب النبي ﷺ فقالوا لهم: مالكم رجعتم؟ قالوا: أصابنا وباء المدينة فاجتوينا المدينة فقالوا: أما لكم في رسول الله أسوة حسنة؟ فقال بعضهم: نافقوا، وقال بعضهم: لم ينافقوا، هم مسلمون، فأنزل الله عز وجل ﴿فمالكم في المنفقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾(١).

المدينة تنفي الخبث

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن أعربياً بايع رسول الله ﷺ على الإسلام، فأصاب الأعرابي وعك بالمدينة، فأتى الأعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: يارسول الله، أقلني بيعتي، فأبى رسول الله ﷺ، ثم جاءه، فقال: أقلني بيعتي، فأبى، ثم جاءه، فقال: أقلني بيعتي، فأبى، فخرج الأعرابي فقال رسول الله ﷺ: «إنما المدينة كالكير تنفي خبثها، وينصع طيبها» (٢).

وفي رواية: أن قوماً قدموا المدينة مع النبي ﷺ، وبها مرض، فنهاهم النبي ﷺ أن يخرجوا حتى يأذن لهم، فخرجوا بغير إذنه، فقال رسول الله ﷺ: «إنما المدينة كالكير تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد» (٣).

وفي رواية: قدم رجل المدينة مهاجراً، قال: فحم حمى شديدة، فأتى

---

١) المسند ١/١٩٢.

٢) البخاري ٩/١٤٢ و ١٤٣ و ١٨٥ وفي رواية: "فجاء من الغد محموماً" ولم يذكر فيها مجيئه ثلاث مرات ٩/١٤٤ و ٣/٥٤، مسلم ٢/١٠٠٦، الموطأ ٢/٨٨٦، الترمذي ٥/٦٧٧ والنسائي ٧/١٥١ وفيهما: "وتنصع"، الطيالسي ٢٣٧ وفيه: "وتنصع"، عبد الرزاق ٩/٢٦٦ وفيه: "وتنصع"، الحميدي ٢/٥٢١، المسند ٣/٣٠٦و ٣٠٧ و ٣٩٢ وفيها "وتنصع" ، و ٣٦٥ وفيه: محموماً و "وتنصع" و أبو يعلى ٤/٢٠ (مختصراً)، والجندي في فضائل المدينة: ٢٦ (ولم يذكر وعكه) و٢٧ ،ابن حبان ٦/١٨و ١٩ (ولم يذكر فيهما مجيئه ثلاث مرات).

٣) المسند ٣/٣٨٥، وذكر ابن أبي شيبة آخره ١٢/١٨٠ من قوله: "إنما المدينة...".

رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أقلني الهجرة، فقال: «لا والله لا أقيلك، إن الإسلام لايقال. قال أحد رواته: وذكر أنه غير مرة، كل ذلك يأبى عليه، فخرج بغير إذنه، فأخبر به النبي ﷺ فقال: «إنها طيبة تنفي خبث الرجال كما ينفي الكير خبث الحديد» (١).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد» (٢).

- عن زيد بن ثابت رضي الله عنه ﴿فما لكم في المنفقين فئتين﴾: رجع ناس من أصحاب النبي ﷺ من أحد وكان الناس فيهم فرقتين فريق يقول: اقتلهم. وفريق يقول: لا. فنزلت: ﴿فما لكم في المنفقين فئتين﴾ وقال: «إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة» (٣).

وفي رواية: «إنها تنفي الرجال كما تنفي النار خبث الحديد» (٤).

وفي أخرى: «إنها طيبة تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الفضة» (٥).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه: هلم إلى الرخاء! هلم إلى الرخاء! والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، والذي نفسي بيده لا يخرج منهم أحد

---

(١) أبو يعلى ١٢٥/٤.

(٢) البخاري ٥٠/٣، مسلم ١٠٠٦/٢، وفي روايتين عنده دون ذكر «الحديد» ١٠٠٦/٢، الموطأ ٨٨٧/٢، عبد الرزاق ٢٦٧/٩ دون ذكر «الحديد»، الحميدي ٤٨٧/٢، المسند ٢٣٧/٢ و ٢٤٧ و ٣٨٤، أبو يعلى ٢٦١/١١، فضائل المدينة للجندي: ٢٥ و ٢٦، ابن حبان ١٥/٦.

(٣) البخاري ٩٣/٦، مسلم ١٠٠٦/٢، ابن أبي شيبة ١٨٢/١٢ (مختصراً) و ٤٠٦/١٤، المسند ٨٧٥/٥ و ١٨٨ (أربع روايات).

(٤) البخاري ٥٤/٣.

(٥) البخاري ٢١٧/٥.

رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه، ألا إن المدينة كالكير، تخرج الخبيث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها، كما ينفي الكير خبث الحديد» (١).

الإيمان يأرز إلى المدينة

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة، كما تأرز الحية إلى جحرها»(٢).

وفي رواية بلفظ: «يوشك أن ينطوي الإسلام في كل بلد إلى المدينة كما تنطوي الحية إلى جحرها»(٣).

- عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها»(٤).

- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول:«إن الإيمان بدأ غريباً، وسيعود كما بدأ، فطوبى يومئذ للغرباء

---

١) مسلم ١٠٠٥/٢، وأخرجه بنحوه أحمد ٤٣٩/٢ بزيادة: "والذي نفس محمد بيده لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة". ابن حبان ٢٧٢/٨ بنحوه، الطبراني في المعجم الأوسط ٣٧٦/٣ و ٣٧٧ بنحوه.

وروي نحوه عن أبي أسيد الساعدي رضي الله عنه. المعجم الكبير للطبراني ١٤٤/٣ و ٢٦٥/١٩.

و زيد بن ثابت وأبي أيوب الأنصاري . المعجم الكبير للطبراني ١٥٣/٤.

٢) البخاري ٥٢/٣، مسلم ١٣١/١، ابن ماجه ١٠٣٨/٢، ابن أبي شيبة ١٨١/١٢، المسند ٢٨٦/٢ و ٤٩٦/٢، فضائل المدينة للجندي ٢٤، وبنحوه: ٢٥، أبو عوانة ١٠١/١ (ثلاث روايات) ، ابن حبان ١٧/٦، كتاب الايمان لابن مندة ٥١٩/٢، دلائل النبوة للبيهقي ٥٢٠/٢.

وروى مثله ابن عمر رضي الله عنهما. ابن حبان ١٧/٦.

٣) أمثال الحديث للرامهرمزي ٢٠٠.

٤) مسلم ١٣١/١، كتاب الايمان لابن مندة ٥٢٠/٢٥، دلائل النبوة للبيهقي ٥٢٠/٢.

إذا فسد الناس، والذي نفس أبي القاسم بيده ليأرزن الإيمان بين هذين المسجدين كما تأرز الحية في حجرها»(١).

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في أمتي خليفة يحثي المال حثياً . . .» ثم قال: «والذي نفسي بيده ليعودن الأمر كما بدأ، ليعودن كل إيمان إلى المدينة كما بدأ منها، حتى يكون كل

إيمان بالمدينة» (٢).

- عن كثير بن عبد الله عن عمرو بن عوف بن زيد بن ملحة عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل، إن الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ماأفسد الناس من بعدي من سنتي».(٣).

- عن عبد الرحمن بن سنة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «بدأ الإسلام غريباً، ثم يعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء» قيل: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال: «الذين يصلحون إذا فسد الناس، والذي نفسي بيده لينحازن الإيمان إلى المدينة كما يحوز السيل، والذي نفسي بيده ليأرزن الإسلام إلى ما بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها»(٤).

---

١) المسند ١/١٨٤ واللفظ له، مسند سعد للدورقي ١٥٦ بنحوه، أبو يعلى ٢/٩٩، كتاب الايمان لابن منده ٢/٥٢١ بنحوه.

٢) المستدرك ٤/٤٥٤ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، دلائل النبوة للبيهقي ٦/٣٣٠ .

٣) الترمذي ٥/١٨ وقال: حسن صحيح، المعجم الكبير للطبراني ١٧/١٦، كتاب الأمثال لأبي الشيخ الأصبهاني ٢/١٩٠ إلى قوله:"الجبل".

٤) زوائد مسند الإمام أحمد ٤/٧٣، مجمع الزوائد ٧/٢٧٨ وقال: رواه عبد الله والطبراني وفيه: إسحق بن عبد الله بن أبي فروة، وهو متروك.

- عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إن الإيمان لينحاز إليها - يعني المدينة - كما يحوز السيل الغثاء، والله إن تربتها لمؤمنة»(١).

فضل الموت في المدينة

- عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإني أشفع لمن يموت بها» (٢).

- عن صميتة الليثية رضي الله عنها - وكانت في حجر النبي ﷺ - قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت، فإنه من مات بالمدينة كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة» (٣).

وفي رواية : «من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت، فإنه يمت شهيداً ويشفع له» (٤).

- عن رجل من آل عمر عن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من زار قبري - أو زارني - كنت له شفيعاً أو شهيداً، ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله من الآمنين يوم القيامة» (٥).

---

١) العلل لابن أبي حاتم ٢٩٩/١، الكامل لابن عدي ١٠٨٢/٣ (مختصراً) في إسناده موسى بن يعقوب وهو ضعيف.

٢) الترمذي ٦٧٦/٥، ابن ماجه وفيه: "فإني أشهد لمن مات بها" ١٠٣٩/٢، المسند ٤٧/٢ و ١٠٤، ابن حبان ٢١/٦، شرح السنة ٣٢٤/٧.

وأرسله نافع في رواية عن النبي ﷺ. ابن أبي شيبة ١٧٩/١٢.

٣) ابن حبان ٢١/٦، المعجم الكبير للطبراني ٣٣١/٢٤ و ٣٣٢ و ١٨٦/٢٥، معجم الشيوخ لابن جميع: ٣٥٣، الجامع لشعب الايمان للبيهقي ١١٢/٨.

وروي مثله عن سبيعة بنت الحارث الأسلمية رضي الله عنها. المعجم الكبير للطبراني ٢٩٤/٢٤، الجامع لشعب الايمان ١١٤/٨.

٤) المعجم الكبير للطبراني ٣٣١/٢٤.

٥) الطيالسي: ١٢. وهو ضعيف لجهالة بعض رواته.

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات في أحد الحرمين بعث آمناً يوم القيامة» (١).

- عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي، وكان يوم القيامة من الآمنين» (٢).

---

١) المعجم الصغير للطبراني ٢/٢٢، الجامع لشعب الايمان للبيهقي ٨/١١١. قال الطبراني: لم يروه عن أبي الزبير إلا عبد الله بن المؤمل. المعجم الصغير ٢/٢٢، وعبد الله ضعيف.

٢) المعجم الكبير للطبراني ٦/٢٩٤، الجامع لشعب الايمان ٦/٢٩٤. قال الهيثمي: فيه عبد الغفور بن سعيد وهو متروك. مجمع الزوائد ٢/٣١٩، فالحديث واه.

- عن أبي حميد رضي الله عنه قال: أقبلنا مع النبي ﷺ من غزوة تبوك حتى إذا أشرفنا على المدينة قال: « هذه طابة، وهذا أُحد، جبل يحبنا ونحبه»(١).

وفي أخرى: «هذه طابة». دون ذكر أحد(٢).

- عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى سمى المدينة طابة»(٣).

وفي رواية: «إن النبي ﷺ سمى المدينة طابة»(٤).

وفي أخرى: «سماها رسول الله ﷺ طيبة»(٥).

وفي رواية: «إن الله عز وجل أمرني أن أسمي المدينة طيبة»(٦).

- عن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها: أن النبي ﷺ ذكر المدينة فقال: «هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة»(٧).

- ابن أبي ليلى، عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: قال رسول

---

١) البخاري ٢٦/٦، مسلم ١٠١١/٢، المسند ٤٢٤/٥، ابن شبة ٨٢/١، دلائل النبوة للبيهقي ٢٦٦/٥.

٢) البخاري ٥٠/٣، ابن شبة ١٦٤/١.

٣) مسلم ١٠٠٧/٢، ابن أبي شيبة ١٧٩/١٢، المسند ٨٩/٥ و ١٠١ و١٠٦ و١٠٨ و ٩٤ و ٩٦ و٩٧ و٩٨، ابن شبة ١٦٤/١، المعجم الكبير للطبراني ٢١٧/٢ و٢٣٣ و٢٣٤.

٤) المسند ١٠٨/٥، ابن حبان ١٧/٦.

وروى مثله النعمان بن بشير رضي الله عنه. ابن شبة ١٦٥/١.

٥) الطيالسي ١٠٤، ابن شبة ١٦٣/١ و١٦٤.

٦) المعجم الكبير للطبراني ٢٣٦/٢.

٧) مسلم في حديث طويل (رقم:٢٩٤٢)، الترمذي ٥٢١/٤، الحميدي ١٧٧/١، ابن أبي شيبة ١٨٠/١٢، المسند ٣٧٣/٦ و ٤١٢، ابن حبان ١٨/٦، دلائل النبوة للبيهقي ٤١٦/٥.

الله ﷺ: «من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله عز وجل، هي طابة، هي طابة» مرتين(١).

وفي رواية، ثلاث مرات(٢).

وأرسله عبد الرحمن بن أبي ليلى عن النبي ﷺ، إلا أنه قال: «هي طيبة» ثلاث مرات(٣).

وفي رواية مرتين(٤).

وفي أخرى: «هي طابة» ثلاث مرات(٥).

- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال للمدينة يثرب فليستغفر الله» (٦).

- عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نهى أن يقال للمدينة يثرب»(٧).

- عن زيد بن أسلم قال: قال النبي ﷺ: «للمدينة عشرة أسماء، وهي: المدينة، وطيبة، وطابة، ومسكينة، وجبار، ومجبورة، ويندد، ويثرب».

قال أحد رواته: عن عبد الله بن جعفر قال: (سمى الله المدينة: الدار والإيمان). قال: فجاء في حديث الأول ثمانية أسماء، فالله أعلم أهما تمام العشرة، أم لا ؟ (٨).

---

١) المسند ٢٨٥/٤.

٢) ابن شبة ١٦٥/١.

٣) المصنف لعبد الرزاق ٢٦٧/٩ و٢٦٨.

٤) فضائل المدينة للجندي ٢٦.

٥) ابن شبة ١٦٤/١.

٦) ابن شبة ١٦٥/١ .

٧) ابن شبة ١٦٥/١.

٨) ابن شبة ١٦٢/١. أحد رواته - عبد العزيز بن عمران - متروك، احترقت كتبه فحدث من حفظه، فاشتد غلطه.

تمر المدينة وتربتها

- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من أكل سبع تمرات من بين لابتيها حين يصبح لم يضره سم حتى يمسي» (١).

- عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن في عجوة العالية شفاء، وإنها ترياق أول البُكرة» (٢).

وفي رواية: «من أكل سبع تمرات عجوة من تمر العالية حين يصبح لم يضره سم ولاسحر حتى يمسي» (٣).

- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: مرضت مرضاً، فأتاني رسول الله ﷺ يعودني، فوضع يده بين ثديي، حتى وجدت بردها على فؤادي، فقال: «إنك رجل مفؤود، ائت الحارث بن كلدة أخا ثقيف فإنه رجل يتطبب، فليأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة، فليجأهُنّ بنواهن، ثم ليدلك بهن» (٤).

- عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه، أو كانت به قرحة، أو جرح قال النبي ﷺ بإصبعه هكذا - ووضع سفيان بن عيينة - سبابته بالأرض ثم رفعها، وقال: «بسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا، ليشفى به سقيمنا، بإذن ربنا» (٥).

---

١) مسلم (رقم:٢٠٤٧)، المسند ١/١٦٨ و ١٧٧، المنتخب لعبد بن حميد ١/١٧٩ بنحوه، أبو يعلى ٢/١٢٠، السنن الكبرى ٩/٣٤٥.

٢) مسلم (رقم:٢٠٤٨)، ابن أبي شيبة ٨/١٩، المسند ٦/٧٧ بنحوه، ١٠٥، شرح السنة للبغوي ١١/٣٢٥.

٣) المعجم الصغير للطبراني ١/١٩.

٤) أبو داود ٤/٢٠٧، غريب الحديث للخطابي ١/١٩٥.

٥) البخاري ١٠/١٧٦ و ١٧٧، مسلم (رقم: ٢١٩٤) واللفظ له، أبو داود ٤/٢١٩، الحميدى ١/١٢٣، أبن أبي شيبة ١٠/٣١٣، المسند ٦/٩٣.

- عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «إن المدينة تربتها مؤمنة» (١).

عمارة المسجد النبوي وفضل طلب العلم فيه

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف قال: فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ثم أرسل إلى ملأ بني النجار، فجاؤوا متقلدين بسيوفهم قال: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله حتى ألقى بفناء أبي أيوب فكان يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم. قال: ثم إنه أمر ببناء المسجد فأرسل إلى ملأ بني النجار فجاؤوا فقال: «يابني النجار ثامنوني حائطكم هذا»، فقالوا: لا والله لانطلب ثمنه إلا إلى الله تعالى، قال أنس: فكان فيه ما أقول لكم، كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، قال فصفوا النخل قبلة المسجد، قال: وجعلوا عضادتيه حجارة، قال: جعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم يقولون: «اللهم إنه لاخير إلا خير الآخرة، فانصر الأنصار والمهاجرة»(٢).

وروي مختصراً (٣).

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان سقف المسجد من

---

١) الكامل لابن عدي ١٠٨٢/٣. وفي سنده ضعف.

٢) البخاري ١٧٠/٥ (واللفظ له) و ١٨٦/١، مسلم (رقم:٥٢٤)، ابو داود ١٢٣/١ وفي رواية: "حرث" بدل "خرب" و "فاغفر" بدل "فانصر" ١٢٤/١، النسائي ٣٩/٢، المسند ٢١١/٣ ، أبويعلى ١٩٣/٧، أبو عوانة ٣٩٧/١ و ٣٩٨ .

٣) البخاري ٤٩/٣ و١٤٣ و٦١/٤ و ٦٢ و٦٤، ابن أبي شيبة ٣٨٨/٣، أبو يعلى ١٩٢/٧ بنحوه، ابن خزيمة ٥/٢.

جريد النخيل، فأمر عمر في خلافته ببناء المسجد وقال: أكِنّ الناس من المطر، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس»(١).

- عن الحسن رضي الله عنه قال: كان مسجد رسول الله ﷺ مربداً لغلامين من الأنصار، يقال لهما سهل وسهيل، فلما رآه النبي ﷺ أعجبه، فكلم عمهما - وكانا في حجره - أن يبتاعه منهما، فطلبه عمهما منهما فقال: وما تصنع به؟ فلم يجد بداً من أن يخبرهما، فأخبرهما أن رسول الله ﷺ أراده، فقالا: نحن نعطيه إياه فأعطياه رسول الله ﷺ فبناه وقال الحسن: فأدركت فيه أصول النخل غلاب - يعني غلاظاً - وكان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إلى جذعٍ منها ويسند إليها ظهره، ولايصل إليه، فلما اتخذ النبي ﷺ المنبر وجلس عليه، حن الجذع كما يحن البعير، فأتاه رسول الله ﷺ فهدأه ومسه حتى سكن.

فقال الحسن: فيا سبحان الله هذا جذع يحن إلى رسول الله ﷺ فكيف بنا ونحن ناس(٢).

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه فقلت: يارسول الله أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض، ثم قال: «هو مسجدكم هذا» لمسجد المدينة(٣).

وفي رواية: امترى رجل من بني خدرة ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ في ذلك فقال: «هو هذا»

---

١) البخاري ١/٤٤٨ و ٤٤٩.

٢) فضائل المدينة للجندي ٣٧، دلائل النبوة للبيهقي ٢/٥٠٣ بنحو، و ٥٣٨.

٣) مسلم ٢/١٠١٥، ابن أبي شيبة ٢/٣٧٢، المسند ٣/٢٤، أبو يعلى ٢/٣٠٣، السنن الكبرى للبيهقي ٥/٢٤٦ بنحوه، دلائل النبوة له ٢/٥٤٤ و ٥/٢٦٣ و٢٦٤ بنحوه.

يعني مسجده «وفي ذلك خير كثير»(١).

وفي رواية: «هو مسجدي هذا» وليس فيه: «وفي ذلك...»(٢).

- عن أبي بن كعب رضي الله عنه. عن النبي ﷺ قال: «المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجدي»(٣).

- عن ابن عمر رضي الله عنهما «كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ مبنياً باللبن، وسقفه بالجريد، وعمده خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، وزاد فيه عمر، وبناه على بنيانه في عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد وأعاد عمده خشباً، ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه

---

١) الترمذي ١٤٤/٢، ابن أبي شيبة ٣٧٢/٢، المسند ٢٣/٣ و٩١، أبو يعلى ٢٧٢/٢، ابن حبان ٧٤/٣، المستدرك ٤٨٧/١، شرح السنة للبغوي ٣٤٠/٢.

٢) الترمذي ٢٦١/٥، النسائي ٣٦/٢، ابن أبي شيبة ٣٧٢/٢، المسند ٨/٣ و٨٩، فضائل المدينة للجندي: ٣٥، ابن حبان ٦٧/٣، المستدرك ٣٣٤/٢، السنن الكبرى للبيهقي ٢٤٦/٥، دلائل النبوة له ٥٤٥/٢ و ٢٦٤/٥.

وفي الباب عن سهل بن سعد رضي الله عنه. ابن أبي شيبة ٣٧٢/٢، المسند ٥٣١/٥ و٣٣١ و ٣٣٥، المنتخب لعبد بن حميد ٤٢٠/١، ابن حبان ٦٦/٣ (روايتان)، المعجم الكبير للطبراني ٢٠٧/٦.

و زيد بن ثابت رضي الله عنه. المعجم الكبير للطبراني ١٣٣/٥.

و أبي بن كعب رضي الله عنه. المسند ١١٦/٥، المنتخب لعبد بن حميد ١٩١/١، فضائل المدينة للجندي: ٣٥، المستدرك ٣٣٤/٢.

٣) ابن أبي شيبة ٣٧٣/٢ و ٢١٠/١٢، المسند ١١٦/٥.

وروى مثله زيد بن ثابت رضي الله عنه. فضائل المدينة للجندي: ٣٤، المعجم الكبير للطبراني ١٢٦/٥ و ١٣٣ بمعناه.

وأبو سعيد الخدري رضي الله عنه. فضائل المدينة للجندي ٣٤، المستدرك ٣٣٤/٢.

وروي مرسلاً عن خارجة بن زيد. ابن أبي شيبة ٣٧٢/٢، فضائل المدينة للجندي: ٣٥.

ساجاً»(١).

وفي رواية :«أن مسجدالنبي ﷺ كانت سواريه على عهد رسول الله ﷺ من جذوع النخل، أعلاه مظلل بجريد النخل، ثم إنها نخرت في خلافة أبي بكر، فبناها بجذوع النخل، وبجريد النخل، ثم إنها نخرت في خلافة عثمان، فبناها بالآجر فلم تزل ثابتة حتى الآن». (٢).

- عن نافع رحمه الله: أن عمر رضي الله عنه زاد في المسجد من الإسطوانة إلى المقصورة، وزاد عثمان رضي الله عنه ، وقال عمر رضي الله عنه: لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نبغي نزيد في مسجدنا» مازدت فيه(٣).

- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنا نحمل في بناء المسجد لبنة لبنة، وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبي ﷺ فجعل ينفض التراب عنه ويقول: «ويح عمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»(٤).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كانوا يحملون اللبن إلى بناء المسجد ورسول الله ﷺ معهم، قال: فاستقبلت رسول الله ﷺ وهو عارض لبنة على بطنه فظننت أنها قد شقت عليه قلت: ناولينها يارسول الله قال: «خذ غيرها ياأبا هريرة، فإنه لاعيش إلا عيش الآخرة»(٥).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من جاء مسجدي، لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه، فهو بمنزلة المجاهد في

---

١) البخاري ١٩٣/١، أبو داود ١٢٣/١، عبد الرزاق ١٥٣/٣، ابن خزيمة ٢٨٢/٢، ابن حبان ٦٥/٣، دلائل النبوة للبيهقي ٥٤٠/٢.

٢) أبو داود ١٢٣/١، دلائل النبوة للبيهقي ٥٤١/٢.

٣) المسند ٤٧/١.

٤) البخاري ٤٥٠/١ - ٤٥١ في حديث طويل.

٥) المسند ٣٨١/٢.

سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره(١).

- عن أبي أمامة صدي بن عجلان الباهلي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من غدا إلى المسجد لايريد إلا ليتعلم خيراً أو يعلمه، كان له أجر معتمر تام العمرة، ومن راح إلى المسجد لايريد إلا ليتعلم خيراً، أو يعلمه، كان له أجر حاج تام الحجة»(٢).

وفي رواية: «من غدا إلى المسجد لايريد إلا أن يتعلم خيراً، أو يعلمه، كان له كأجر حاج تاماً حجته»(٣).

- عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من دخل مسجدي هذا ليتعلم خيراً، أو ليعلمه، كان بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن دخله لغير ذلك من أحاديث الناس كان بمنزلة من يرى ما يعجبه وهي شيء غيره».(٤).

شد الرحال إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم

- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، و مسجدي هذا، والمسجد الأقصى» (٥).

---

١) ابن ماجه ٨٢/١، ابن أبي شيبة ٣٧١/٢ و ٢٠٩/١٢، المسند ٣٥٠/٢ بنحوه و٤١٨، أبو يعلى ٣٥٩/١١، ابن حبان ١٥١/١.

٢) المستدرك ٩١/١، الآداب للبيهقي: ٥٢٤.

٣) المعجم الكبير للطبراني ١١١/٨.

٤) المعجم الكبير للطبراني ٢١٥/٦.

٥) البخاري ٦٣/٣، مسلم ١٠١٤/٢، ١٠١٥ إلا أنه قال: "تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد ...."، ابن ماجه ٤٥٢/١، أبو داود ٢١٦/٢، النسائي ٣٧/٢، عبد الرزاق ١٣٢/٥، الحميدي ٤٢١/٢، ابن أبي شيبة ٦٥/٤ إلا أنه قال: "ومسجد الرسول" بدل "ومسجدي هذا"، ٦٧، المسند ٢٣٤/٢، ٢٣٨ إلا أنه قال: "تشد الرحال..."، ٢٧٨ و ٥٠١، أخبار مكة للفاكهي ٩٣/٢ بلفظ: "تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد..."، أبو يعلى ٢٨٣/١٠ بلفظ: "لاتشدوا الرحال..."، المنتقى لابن

وفي رواية: «إنما يسافر إلى ثلاثة مساجد: مسجد الكعبة، و مسجدي، ومسجد إيلياء» (١).

وفي رواية: «إنما الرحلة إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدكم هذا، ومسجد إيلياء» (٢).

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت أربعاً من النبي ﷺ فأعجبنني، قال: «لاتسافر المرأة مسيرة يومين إلا ومعها زوجها، أو ذو محرم. ولاصوم في يومين: الفطر، والأضحى. ولاصلاة بعد الصبح حتى تطلع

الجارود ١٨٢، ابن حبان ٧١/٣، السنن الكبرى للبيهقي ٢٤٤/٥ و ٨٢/١٠، شرح السنة للبغوي ٢٣٧/٢ بلفظ: "لاتشدوا...".

١) مسلم ١٠١٥/٢، السنن الكبرى للبيهقي ٢٤٤/٥، دلائل النبوة له ٥٤٢/٢ و زاد في آخره فيهما: "والصلاة في مسجدي أحب إلي من ألف صلاة في غيره إلا مسجد الكعبة".

٢) مشكل الآثار للطحاوي ٢٤٤/١، ابن حبان ٧٥/٣.

وروى مثل حديث الباب:

أبو سعيد الخدري رضي الله عنه. الترمذي ١٤٨/٢ و قال: حديث حسن صحيح، ابن أبي شيبة ٣٧٤/٢، المسند ٧٨/٣، ٩٣ بلفظ: "لاتشد المطي... ومسجد المدينة، وبيت المقدس"، أخبار مكة للأزرقي ٦٣/٢ إلا أنه قال: "تشد الرحال إلى..."، المنتخب لعبد بن حميد ٩١/٢ بلفظ: "لاتشد المطي..."، مشكل الآثار للطحاوي ٢٤٢/١، ابن حبان ٧١/٣، المعجم الأوسط ١٠٢/٣.

وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. ابن ماجه ٤٥٢/١، أخبار مكة للفاكهي ٩٩/٢.

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه. كشف الأستار ٣/٢.

وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. فضائل بيت المقدس للمقدسي ٤٢.

وأبو الجعد الضمري رضي الله عنه. كشف الأستار ٤/٢، مشكل الآثار للطحاوي ٢٤٤/١، المعجم الكبير للطبراني ٣٦٦/٢٢، فضائل بيت المقدس للمقدسي ٤٣.

وواثلة بن الأسقع رضي الله عنه. فضائل بيت المقدس للمقدسي ٤٣ إلا أنه قال: "ومسجد بيت المقدس" بدل "والمسجد الأقصى".

الشمس، ولا بعد العصر حتى تغرب. ولا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي هذا» (١).

- عن أبي بصرة الغفاري قال: لقيت أبا هريرة وهو يسير إلى مسجد الطور ليصلي فيه قال: فقلت له: لو أدركتك قبل أن ترتحل ما ارتحلت، قال: فقال: ولم؟ قال: فقلت: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي» (٢).

وفي رواية مثله إلا أنه قال: «لاتعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد إيلياء» (٣).

---

١) البخاري ٩٤/٣ و ١٣٦/٢ و ١٣٨ و ٤٨/٣، مسلم ٩٧٥/٢، المسند ٧/٣ بنحوه و ٣٤/٣ و ٤٥ إلا أنه قال: "إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: مسجد إبراهيم، ومسجد محمد، وبيت المقدس" وفي روايات أخرى كحديث الباب ٤٥ و ٥١ و ٥٣، ٦٤ بلفظ: "لاينبغي للمطي أن تشد رحاله إلى مسجد ينبغي فيه الصلاة غير..."، ٧١ و ٧٧ بنحوه، زيادات المسند ٧٧/٣، أبو يعلى ٣٨٨/٢ و ٣٩٣ و ٤٨٩ إلا أنه قال: "لاتشد رحال المطي إلى مسجد يذكر الله فيه إلا إلى ثلاثة مساجد..."، السنن الكبرى للبيهقي ٨٢/١٠، شرح السنة للبغوي ٣٣٦/٢.

٢) الطيالسي ١٩٢، ٣٢٧ إلا أنه قال: "تشد الرحال إلى.... "، عبد الرزاق ١٣٢/٥ و قال: "تشد الرحال..."، المسند ٣٩٧/٣ و اللفظ له و ٧/٦، مشكل الآثار للطحاوي ٢٤٣/١، المعجم الكبير للطبراني ٢٧٧/٢، المعجم الأوسط ٣٧٨/٣ بلفظ: "إنما تضرب أكباد المطايا...".

٣) عبد الرزاق ١٣٣/٥، الحميدي ٤٢١/٢ و قال: "ومسجد بيت المقدس"، المسند ٧/٦، أخبار مكة للفاكهي ٩٧/٢ قال: "ومسجد بيت المقدس"، أبو يعلى ٤٣٥/١١ بلفظ: "تضرب أكباد المطي إلى ثلاثة مساجد..."، مشكل الآثار للطحاوي ٢٤٢/١، وفي رواية عنده: "لاتضرب أكباد المطي إلا ..." ٢٤٢ و ٢٤٣، المعجم الكبير للطبراني ٢٧٦/٢ بلفظ: "لاتضرب المطايا..." وفي رواية: "إنما تضرب أكباد المطايا إلى ..." ٢٧٦، ٢٧٧ بلفظ: "لاتشد المطي ..."، المعجم الأوسط ٤٧١/١ بلفظ: "لاتضرب المطايا..."، معرفة الصحابة لأبي نعيم ١٣٦/٣، فضائل بيت المقدس للمقدسي ٤١.

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن خير ماركبت إليه الرواحل مسجدي هذا، والبيت العتيق» (١).

- عن قزعة البصري قال: أردت الخروج إلى الطور، فسألت ابن عمر، فقال ابن عمر: أما علمت أن النبي ﷺ قال: «لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد النبي ﷺ، والمسجد الأقصى» ودع عنك الطور فلا تأته (٢).

فضل الصلاة في المسجد النبوي

- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام» (٣).

---

١) المسند ٣/٣٥٠ ، ٣٣٦ إلا أنه قال: "مسجد إبراهيم عليه السلام، ومسجدي"، المنتخب لعبد بن حميد ٣/٢٦، كشف الأستار ٢/٤ إلا أنه قال: "مسجد إبراهيم، ومسجد محمد ﷺ"، أبو يعلى ٤/١٨٢، مشكل الآثار للطحاوي ١/٢٤١ بلفظ: "مسجد إبراهيم عليه الصلاة و السلام، ومسجد محمد ﷺ"، ابن حبان ٣/٧٠، المعجم الأوسط للطبراني ١/٤١٥.

٢) عبد الرزاق ٥/١٣٥ ، ١٣٢ مقتصراً على المرفوع إلا أنه قال: "تشد الرحال إلى..."، ابن أبي شيبة ٢/٣٧٤ و ٤/٦٥، أخبار مكة للأزرقي ٢/٦٥ و اللفظ له، أخبار مكة للفاكهي ٢/٩٤، المعجم الكبير للطبراني ١٢/٣٣٧ مقتصراً على المرفوع، فضائل بيت المقدس للمقدسي ٤٢ مقتصراً على المرفوع إلا أنه قال: "لاتشد المطي. ..".

٣) البخاري ٢/١٣٦، مسلم ٢/١٠١٢، ١٠١٣ إلا أنه قال: "خير من ألف صلاة أو كألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام"، الموطأ ١/١٩٦، الترمذي ٢/١٤٧ و ٥/٦٧٥، عبد الرزاق ٥/١٢١، الحميدي ٢/٤١٩، المسند ٢/٢٥٦ و ٢٧٧ و ٤٦٦، ٤٨٤ إلا أنه قال في الرواية الأخيرة: "خير أو أفضل" على الشك، أخبار مكة للأزرقي ٢/٦٤، أخبار مكة للفاكهي ٢/٩٥، أبو يعلى ١١/٢٧ و ٤٣١، مسند ابن الجعد ٢/١٠٥٩، مشكل الآثار للطحاوي ١/٢٤٥ و ٢٤٦، المعجم الأوسط للطبراني ٢/٣٥٣، معجم الشيوخ لابن جميع ١٣٧، السنن

وفي رواية مثله، إلا أنه قال: «أفضل من ألف صلاة....» (١).

وفي رواية: «صلاة في مسجدي هذا كألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام، وصلاة الجميع تعدل خمساً وعشرين من صلاة الفذ»(٢).

وفي رواية: «صلاة في مسجدي هذا تعدل ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام، فإنها تزيد عليه مائة صلاة» (٣).

وفي رواية: عن أبي هريرة رضي الله عن قال: أتيت الطور فلقيني جميل بن بصرة، فقال لي: من أين جئت؟ فقلت: من الطور، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد» فلو صليت في هذا المسجد كان خيراً لك» (٤).

وفي رواية: «إن منبري على حوضي، وإن ما بين منبري وبين بيتي روضة من رياض الجنة، و صلاة في مسجدي هذا كألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام» (٥).

الكبرى للبيهقي ٢٤٦/٥ و ٨٣/١٠، شرح السنة للبغوي ٣٣٥/٢.

١- مسلم ١٠١٢/٢، ابن ماجه ٤٥٠/١، النسائي ٢١٣/٥ و ٢١٤ وقال فيهما: "إلا مسجد الكعبة" بدل "إلا المسجد الحرام"، عبد الرزاق ١٢٣/٥، ابن أبي شيبة إلا أنه قال: "إلا الكعبة" بدل "إلا المسجد الحرام"، المسند ٤٦٦، ٤٦٨، وقال "إلا الكعبة"، ٤٧٣، ٤٩٩، الدارمي ٢٧١/١، أخبار مكة للفاكهي ٩٦/٢ و ٩٧، أبو يعلى ٢٤١/١٠ و ٢٧٨ و ٤٠٤/١١، فضائل المدينة للجندي ٣٤، مشكل الاثار للطحاوي ٢٤٧/١، ابن حبان ٧٣/٣، المعجم الأوسط للطبراني ٧٦/٣.

٢) المسند ٤٨٥/٢، الدارمي ٢٧٠/١ إلى قوله:"إلا المسجد الحرام".

٣) أخبار مكة للفاكهي ١٠١/٢. وروي مثله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ١٠١/٢.

٤) كشف الأستار ٢١٤/١.

٥) المسند ٣٩٧/٢ و ٥٢٨، كشف الأستار ٢١٦/١ بنحوه، أبو يعلى ٢٨/١١ بنحوه.

- وروى مثل حديث الباب عدد من الصحابة:

- ابن عمر رضي الله عنهما . مسلم ١٠١٣/٢ و ١٠١٤، ابن ماجه ٤٥١/١، النسائي

- عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن امرأة اشتكت شكوى، فقالت: إن شفاني الله لأخرجن فلأصلين في بيت المقدس، فبرأت، ثم تجهزت تريد الخروج، فجاءت ميمونة زوج النبي ﷺ تسلم عليها، فأخبرتها ذلك، فقالت: إجلسي فكلي ما صنعت، وصلي في مسجد الرسول ﷺ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صلاة فيه أفضل من ألف صلاة فيما سواه من

٢١٣/٥، أبو يعلى ١٦٣/١٠، الطيالسي ٢٥١، عبد الرزاق ١٢١/٥، ابن أبي شيبة ٣٧١/٢، المسند ١٦/٢ و ٢٩ و ٥٣ و ٦٨ و ١٠١ و ١٥٥، الدارمي ٢٧٠/١، أخبار مكة للفاكهي ٩٦/٢ و ٩٩ و ١٠٠، السنن الكبرى للبيهقي ٢٤٦/٥.

- أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. عبد الرزاق ١٢٠/٥، ابن أبي شيبة ٣٧١/٢ و ٢١١/١٢، المسند ٢٧٧/٢ و ٢٧٨، أخبار مكة للفاكهي ١٠٢/٢، العلل الكبير للترمذي ٢٤٠/١، أبو يعلى ١٤٦/٨.
- جبير بن مطعم رضي الله عنه. الطيالسي ١٢٨، ابن أبي شيبة ٣٧١/٢ و ٢١١/١٢، المسند ٨٠/٤، أخبار مكة للفاكهي ٩١/٢، كشف الأستار ٢١٣/١، مشكل الآثار ٢٤٦/١، المعجم الكبير للطبراني ١٣٢/٢ و ١٣٣ و ١٤٣ و ١٤٤.
- أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها. النسائي ٣٣/٢، عبد الرزاق ١٢١/٥، ابن أبي شيبة ٣٧١/٢ و ٢٠٩/١٢، المسند ٣٣٤/٦، أخبار مكة للفاكهي ١٠٣/٢، المعجم الكبير للطبراني ٤٢٥/٢٣.
- سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. المسند ١٨٤/١، أبو يعلى ١١٢/٢.
- عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما. الطيالسي ١٩٥، عبد الرزاق ١٢١/٥ و ١٢٢، الحميدي ٤٢٠/٢، أخبار مكة للأزرقي بنحوه ٦٤/٢، أخبار مكة للفاكهي ١٠٤/٢، كشف الأستار ٢١٤/١، السنن الكبرى للبيهقي ٥//٢٤٦.
- أنس بن مالك رضي الله عنه. كشف الأستار ٢١٣/١ و ٢١٤، شرح السنة للبغوي ٣٣٥/٢.
- علي بن أبي طالب رضي الله عنه. أخبار مكة للفاكهي ٩٠/٢.
- أبو سعيد الخدري رضي الله عنه. كشف الأستار ٢١٥/١.

المساجد إلا مسجد الكعبة» (١).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: صلاة في مسجد رسول الله ﷺ أفضل سن ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام، فإن رسول الله ﷺ آخر الأنبياء، وإن مسجده آخر المساجد.

وعنه رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فإني آخر الأنبياء، وإن مسجدي آخر المساجد» (٢).

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من صلى في مسجدي أربعين صلاة لايفوته صلاة كتبت له براءة من النار، ونجاة من العذاب، وبرئ من النفاق» (٣).

- عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، و صلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه» (٤).

- عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره مائة ألف صلاة، وفي مسجدي ألف صلاة، وفي

---

١) مسلم ١٠١٤/٢، المسند ٣٣٣/٦، مشكل الآثار للطحاوي ٢٤٦/١، السنن الكبرى للبيهقي ٨٣/١٠، وروي مختصراً، كما مر في الحديث السابق.

٢) مسلم ١٠١٢/٢، النسائي ٣٥/٢، أخبار مكة للفاكهي ٩٥/٢ نحوه، ابن حبان ٧٢/٣.

٣) المسند ١٥٥/٣. قال الهيثمي: رواته رواة الصحيح. مجمع الزوائد ٨/٤.

٤) ابن ماجه ٤٥١/١، المسند ٣٩٧/٣ و ٣٤٣ نحوه، أخبار مكة للفاكهي ٩٠/٢ بزيادة في آخره: "وفي مسجد بيت المقدس خمسمائة"، مشكل الآثار للطحاوي ٢٤٦/١.

وروى مثله ابن الزبير رضي الله عنهما. المسند ٥/٤، أخبار مكة للفاكهي ٨٩/٢، العلل الكبير للترمذي ٢٤٠/١، مشكل الآثار للطحاوي ٢٤٥/١، ابن حبان ٧١/٣.

مسجد بيت المقدس خمسمائة صلاة» (١).

- عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنا خاتم الأنبياء، و مسجدي خاتم المساجد، وأحق المساجد أن يزار و تركب إليه الرواحل المسجد الحرام ومسجدي هذا. وصلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام» (٢).

- عن الأرقم رضي الله عنه قال: جئت رسول الله ﷺ لأودعه، وأردت الخروج إلى بيت المقدس، قال: «وما يخرجك إليه، أفي تجارة؟» قلت: لا، ولكني أصلي فيه، فقال رسول الله ﷺ: «صلاة هاهنا خير من ألف صلاة ثم»(٣).

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في بيته بصلاة، و صلاته في مسجد القبائل بخمس و عشرين صلاة، وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه خمسمائة صلاة، وصلاته في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة، وصلاته في مسجدي بخمسين ألف صلاة، و صلاته في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة» (٤)- عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: الصلاة في مسجدك أفضل أم الصلاة في بيت المقدس؟ فقال: «الصلاة في مسجدي مثل أربع صلوات في مسجد بيت المقدس، ولنعم المصلى، هو أرض المحشر، وأرض المنتشر» (٥).

---

١) كشف الأستار ٢١٢/١، مشكل الآثار للطحاوي ٢٤٨/١. قال الهيثمي: حديث حسن. مجمع الزوائد ٧/٤.

٢) أخبار مكة للفاكهي ٩٣/٢، كشف الأستار ٥٦/٢ نحوه. قال الهيثمي: رواه البزار وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف. مجمع الزوائد ٤/٤.

٣) المعجم الكبير للطبراني ٣٠٦/١، المسترك ٥٠٤/٣ و قال: هذا حديث صحييح الإسناد ولم يخرجاه، معرفة الصحابة لأبي نعيم ٣٨١/٢، وروي مختصراً، أخبار مكة للفاكهي ٩٢/٢.

٤- ابن ماجه ٤٥٣/١، فضائل بيت المقدس للمقدسي ٥٢. وهو حديث ضعيف.

- عن بلال بن الحارث رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رمضان بالمدينة خير من ألف رمضان فيما سواها من البلدان، وجمعة بالمدينة خير من ألف جمعة فيما سواها من البلدان» (١).

---

٥) مشكل الآثار للطحاوي ١/٢٤٨، الجامع لشعب الإيمان للبيهقي ٨/٨٣.

١) المعجم الكبير للطبراني ١/٣٧٢. قال الهيثمي: فيه عبد الله بن كثير وهو ضعيف. مجمع الزوائد ٣/٣٠١.

الروضـــة والمنبر

- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي» (١).

وفي رواية بلفظ: «مابين قبري ومنبري...» (٢).

وفي رواية: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على ترعة من ترع الجنة» (٣).

وفي رواية: «إن منبري على حوضي، وإن ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة، وصلاة في مسجدي هذا كألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا

---

١) البخاري ١٣٧/٢ و ٥٥/٣ و٢١٧/٨ و ١٨٨، مسلم ١٠١١/٢ وأخرجه في الموطأ هكذا: عن أبي هريرة أو أبي سعيد رضي الله عنهما ١٧٩/١، عبد الرزاق ١٨٢/٣، المسند ٢٣٦/٢ و٣٧٦ و ٤٠١ و ٤٣٨ و ٤٦٥ و٥٣٣ وقال في الروايتين الأخيرتين عن أبي هريرة أو أبي سعيد، وفي ٤٤/٣ عن أبي هريرة وأبي سعيد، ابن حبان ٢٤/٦، السنن الكبرى للبيهقي ٢٤٦/٥، دلائل النبوة له ٥٦٣/٢، شرح السنة للبغوي ٣٣٧/٢ عن أبي هريرة أو أبي سعيد.

وروي مثله عن ابن عمر رضي الله عنهما. مشكل الآثار ٦٨/٤، المعجم الكبير للطبراني ٢٩٤/١٢، المعجم الأوسط له ٤١٢/١.

٢) ابن أبي شيبة ٤٣٩/١١، السنن الكبرى للبيهقي ٢٤٦/٥.

٣) المسند ٤٠١/٢ و ٤١٢ بنحوه و٥٣٤ بنحوه، المعجم الصغير للطبراني ٢٤٩/٢.

وروي مثله عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. المسند ٣٨٩/٣، أبو يعلى ٣١٩/٣ و ٤٦٢ إلا أنه قال: "حجرتي" بدل "بيتي" فيهما، مشكل الآثار ٧٠/٤.

وآخر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. مسند أبي بكر للمروزي ١٥٢، أبو يعلى ١٠٩/١.

وآخر عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه. المسند ٤٠/٤ إلا أنه قال: "ما بين هذه البيوت إلى منبري...".

وآخر عن عمر رضي الله عنه. مشكل الآثار للطحاوي ٦٨/٤ إلا أنه قال: "وضع منبري علىٰ ترعة من ترعات الجنة ...".

المسجد الحرام»(١).

- عن عبد الله بن زيد المازني رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» (٢).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن منبري هذا لعلى ترعة من ترع الجنة»(٣).

- عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، وقوائم منبري رواتب في

---

١) المسند ٣٩٧/٢ و٥٢٨ ، مشكل الآثار ٦٩/٤.

٢) البخاري ١٣٧/٢، مسلم ١٠١٠/٢ (روايتان)، الموطأ ١٩٧/١، عبد الرزاق ١٨٣/٣، المسند ٣٩/٤ و ٤٠ و ٤١، النسائي ٣٥/٢، السنن الكبرى للبيهقي ٢٤٧/٥، شرح السنة للبغوي ٣٣٨/٢.

وروى مثله علي بن أبي طالب وأبي هريرة رضي الله عنهما. الترمذي ٦٧٥/٥.

و جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. كشف الأستار ٥٧/٢.

و معاذ بن الحارث رضي الله عنه. كشف الأستار ٥٧/٢.

و أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها. فضائل المدينة للجندي ٣٩، المعجم الكبير للطبراني ٢٥٥/٢٣.

و سعد رضي الله عنه. كشف الأستار ٥٦/٢. بزيادة: "أو قبري ومنبري" بعد "مابين بيتي ومنبري".

٣) ابن أبي شيبة ٤٧٨/١١، المسند ٣٦٠/٢ و٤٥٠، السنن الكبرى للبيهقي ٢٤٧/٥، شرح السنة للبغوي ٣٣٩/٢.

وروى مثله سهل بن سعد رضي الله عنه. المسند ٣٣٥/٥ و٣٣٩، مسند ابن الجعد ١٠٥٥/٢، مشكل الآثار ٧١/٤، المعجم الكبير للطبراني ١٤٢/٦ و ١٤٩ و١٩٩، السنن الكبرى للبيهقي ٢٤٧/٥.

و معاذ بن الحارث رضي الله عنه . كشف الأستار ٥٧/٢.

ورواه الجندي في فضائل المدينة عن شيخ من الأنصار من أهل المدينة ص: ٤٠.

الجنة»(١).

وفي رواية: «إن قوائم منبري رواتب في الجنة». دون أوله (٢).

- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما بين بيتي ومصلاي روضة من رياض الجنة»(٣).

- عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « منبري على ترعة من ترع الحوض»(٤).

- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: حدثني أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مابين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة»(٥).

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ (٦).

- عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أنه كان يتحرى موضع مكان

---

١)- مسند الحميدي ١٣٩/١، فضائل المدينة للجندي ٣٩، مشكل الآثار ٦٨/٤ إلا أنه قال: "مابين قبري" بدل "بيتي".

وروى مثله سهل بن سعد رضي الله عنه. السنن الكبرى للبيهقي ٢٤٧/٥.

٢) النسائي ٣٥/٢، عبد الرزاق ١٨٢/٣، المسند ٢٨٩/٦ و٢٩٢ و٣١٨، ابن حبان ٢٤/٦، المعجم الكبير للطبراني ٢٥٤/٢٣(روايتان)، السنن الكبرى للبيهقي ٢٤٨/٥، دلائل النبوة للبيهقي ٥٦٤/٢.

وروي مثله عن أبي واقد رضي الله عنه. المعجم الكبير للطبراني ٢٤٥/٣،المستدرك ٥٣٢/٣. قال الهيثمي: فيه يحيى الحماني وهو ضعيف. مجمع الزوائد ٩/٤.

٣) المعجم الكبير للطبراني ١٤٧/١، معرفة الصحابة لأبي نعيم ٤٢١/١، ابن شبة ١٣٨/١. بمعناه وفيه عبد العزيز بن عمران وهو متروك.

وروي مثله عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. كشف الأستار ٥٦/٢.

٤) غريب الحديث للحربي ٢٠٣/١.

٥) المسند ٦٤/٣، أبو يعلى ٤٩٦/٢، مشكل الآثار٧٠/٤.

٦) مشكل الآثار ٦٩/٤، المعجم الأوسط للطبراني ٣٦٠/١.

وروى مثله عبد الله بن زيد رضي الله عنه. مشكل الآثار ٧٠/٤ (ثلاث روايات).

المصحف يسبح فيه، وذكر أن رسول الله ﷺ كان يتحرى ذلك المكان، وكان بين المنبر والقبلة قدر ممر شاة(١).

وفي رواية: قيل له: يا أبا مسلم أراك تتحرى الصلاة عند هذه الأسطوانة، قال:

رأيت النبي ﷺ يتحرى الصلاة عندها(٢).

- عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «إن في المسجد لبقعة قبل هذه الإسطوانة، لو يعلم الناس ما صلوا فيها إلا أن يطير لهم فيها قرعة». وعندها جماعة من أصحابه، وأبناء المهاجرين فقالوا: ياأم امؤمنين، وأين هي؟ فاستعجمت عليهم، فمكثوا عندها ساعة، ثم خرجوا، وثبت عبد الله بن الزبير فقالوا: إنها ستخبره بذلك المكان، فأرمقوه في المسجد حتى ينظروا حيث يصلي، فخرج بعد ساعة، فصلى عند الإسطوانة التي صلى إليها ابنه عامر، وقيل لها إسطوانة القرعة.

قال أحد رواته - عتيق بن يعقوب -: وهي الاسطوانة التي واسطة بين القبر والمنبر، عن يمينها إلى المنبر اسطوانتان وبينها وبين المنبر اسطوانتان، وبينها وبين الرحبة اسطوانتان، وهي واسطة بين ذلك، وهي تسمى إسطوانة القرعة(٣).

- عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا اعتكف يطرح له فراشه أو سريره إلى إسطوانة التوبة مما يلي القبلة يستند إليها(٤).

- عن ابن عمر رضي الله عنهما كان يقول في الإسطوانة التي ارتبط إليها

---

١) مسلم ١/٣٦٤.

٢) البخاري ١/٤٧٥، مسلم ١/٣٦٤، المسند ٤/٤٨، السنن الكبرى للبيهقي ٥/٢٤٧.

٣) المعجم الأوسط ١/٤٧٥-٤٧٦.

٤) السنن الكبرى للبيهقي ٥/٢٤٧.

أبو لبابة: الثالثة من القبر، وهي الثالثة من الرحبة(١).

قبـــاء

- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يأتي قباء راكباً وماشياً» (٢).

- وفي رواية: «أنه كان يأتي مسجد قباء راكباً وماشياً» (٣).

- وفي رواية: «أن رسول الله كان يزور قباء راكباً وماشياً» (٤).

- وفي رواية: «كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً وكان ابن عمر رضي الله عنهما يفعله» (٥).

- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يأتي قباء راكباً وماشياً فيصلي فيه ركعتين» (٦).

- عن سهل بن حنيف رضي الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ، فأحسن وضوءه، ثم جاء مسجد قباء، فركع فيه أربع ركعات كان ذلك عدل

---

١) السنن الكبرى ٢٤٧/٥.

٢) البخاري ١٣٧/٢ و١٨٧/٩، مسلم ١٠١٦/٢ و١٠١٧ (خمس روايات)، أبو داود ٢١٨/٢، النسائي ٣٧/٢، الموطأ ١٦٧/١، الزهد لوكيع ٦٨٨/٣ و٦٨٩، ابن أبي شيبة ٢١١/١٢، المسند ٣٠/٢ و٥٨ و٦٥ و١٠١ و١٠٧، المنتخب لعبد بن حميد ٣١/٢، ابن حبان ٧١/٣ و٧٥ (ثلاث روايات)، معجم الشيوخ لابن جميع ٣٣١، السنن الكبرى للبيهقي٢٤٨، شرح السنة للبغوي ٣٤٣/٢.

٣) ابن أبي شيبة ٣٧٣/٢، المسند ٥٧/٢ و٥٨ و٨٠ و١٥٥، فضائل المدينة للجندي ٤٢، السنن الكبرى للبيهقي ٢٤٨/٥.

٤) مسلم ١٠١٦/٢، المسند ٥٠٤/٢، ابن حبان ٧٥/٣ و١٣٦.

٥) البخاري ١٣٧/٢، مسلم ١٠١٧/٢ دون ذكر: مسجد، مسند الحميدي ٢٩١/٢، ابن حبان ٧٥/٣، شرح السنة للبغوي ٣٤٣/٢.

٦) البخاري ١٣٧/٢، مسلم ١٠١٦/٢ وفيه: "مسجد قباء"، أبو داود ٢١٨/٢، السنن الكبرى للبيهقي ٢٤٨/٥، شرح السنة للبغوي ٣٤٣/٢.

عمرة»(١).

- وفي رواية: «من خرج حتى يأتي هذا المسجد -يعني مسجد قباء- فيصلي فيه كان كعدل عمرة» (٢).

- عن أسيد بن ظهير رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «الصلاة في مسجد قباء كعمرة»(٣).

- عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه شهد جنازة بالأوساط في سعد بن عبادة، فأقبل ماشياً إلى بني عمرو بن عوف بقباء بني الحارث بن الخزرج، فقيل له أين تؤم يا أبا عبد الرحمن؟ قال أؤم هذا المسجد في بني عمرو بن عوف، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى فيه كان كعدل عمرة»(٤).

- عن كعب بن عُجرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «من

---

١) الزهد لوكيع ٦٩٠/٣ بلفظ: "فصلى فيه ركعتين أو أربع"، ابن أبي شيبة ٣٧٣/٢ و٢١٠/١٢، المنتخب لعبد بن حميد ٤٢٢/١، ابن شبة ٤١/١، المعجم الكبير للطبراني ٧٥/٦ إلا أنه قال: "عدل رقبة" بدل "عدل عمرة" وفي رواية عنده: "ثم صلى في مسجد قباء ركعتين" ٧٥/٦ .

٢) ابن ماجه ٤٥٣/١ بزيادة في أوله: "من تطهر في بيته"، النسائي ٣٧/٢ واللفظ له، المسند ٤٨٧/٣ (روايتان)، ابن شبة ٤٠/١ بزيادة في أوله: "من تطهر في بيته..."وفي رواية عنده بزيادة: "لاينزعه إلا الصلاة .." ٤١/١ وبمعناه ٤٣، فضائل المدينة للجندي ٤١ و فيه: "من توضأ في أهله فأحسن في وضوئه ثم خرج عامداً إلى المسجد لاتنزعه حاجة إلا الصلاة فيه ..."، المعجم الكبير للطبراني ٧٤/٦ و ٧٥، المستدرك ٣/ ١٢ وقال: حديث صحيح الإسناد، معرفة الصحابة لأبي نعيم ١٣٠/٢.

٣) ابن ماجه ٤٥٣/١، الترمذي ١٤٥/٢ وقال: حديث حسن غريب، ابن أبي شيبة ٣٧٣/٢ و ٢١٠/١٢، ابن شبة ٤١/١، المعجم الكبير للطبراني ٢١٠/١، المستدرك ٤٨٧/١، معرفة الصحابة لأبي نعيم ٢٦٢/٢، السنن الكبرى للبيهقي ٢٤٨/٥، شرح السنة للبغوي ٣٤٤/٢.

٤) ابن حبان ٧٤/٣.

توضأ فأسبغ الوضوء، ثم عمد إلى مسجد قباء لايريد غيره، ولم يحمله على الغدو إلا الصلاة في مسجد قباء، فصلى فيه أربع ركعات يقرأ في كل ركعة بأم القرآن كان له مثل أجر المعتمر إلى بيت الله (١).

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ يوم الإثنين إلى قباء» (٢).

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يأتي قباء صبيحة سبع عشرة من رمضان (٣).

- عن الشموس بنت النعمان رضي الله عنها قالت: نظرت إلى رسول الله ﷺ حين قدم، ونزل وأسس هذا المسجد، مسجد قباء، فرأيته يأخذ الحجر أو الصخرة حتى يهصره الحجر، وأنظر إلى بياض التراب على بطنه وسرته، فيأتي الرجل من أصحابه ويقول: بأبي وأمي يارسول الله أعطني أكفك، فيقول: «لا، خذ حجراً مثله» حتى أسسه، ويقول: «إن جبريل عليه السلام هو يؤم الكعبة» قالت: فكان يقال: إنه أقوم مسجد قبلة (٤).

- عن جرير رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال لأصحابه: «انطلقوا بنا إلى أهل قباء فنسلم عليهم» ورحبوا به، ثم قال: «ياأهل قباء ايتوني بأحجار من هذه الحرة» فجمعت عنده أحجار كثيرة ومعه عَنَزَة له، فخط قبلتهم، فأخذ حجراً، فوضعه رسول الله ﷺ، ثم قال: «ياأبا بكر، خذ حجراً فضعه إلى حجري» ثم قال: «ياعمر، خذ حجراً فضعه إلى

---

١) المعجم الكبير للطبراني ١٤٦/١٩. قال الهيثمي: أحد رواته ضعيف، مجمع الزوائد ١١/٤.

٢) مسلم، أبو عوانة ٢٨٥/١، المسند ٧/٣، ابن شبة ٤٥/١ (مرسلاً).

٣) ابن شبة ٤٤/١، وأرسله محمد بن المنكدر رحمه الله ٤٤/١. في سنده عبد العزيز بن عمران، وهو متروك.

٤) المعجم الكبير للطبراني ٣١٨/٢٤ و٣١٧ بنحوه. قال الهيثمي: رجاله ثقات. مجمع الزوائد ١١/٤.

جنب حجر أبي بكر» ثم التفت فقال: «ياعثمان خذ حجراً فضعه إلى جنب حجر عمر» ثم التفت إلى الناس بآخرة فقال: «وضع رجل حجره حيث أحب على ذي الخط» (١).

- عن أبي جعفر الخطمي رحمه الله أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه كان يقول وهم يبنون مسجد قباء: أفلح من يعالج المساجدا. فقال رسول الله ﷺ: «المساجدا». فقال عبد الله: ويقرأ القرآن قائماً وقاعدا. فقال رسول الله ﷺ: «قاعدا». فقال عبد الله: ولا يبيت الليل عنه راقدا. فقال رسول الله ﷺ: «راقدا» (٢).

- عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: مالرسول الله ﷺ بد من أن نجعل له مكاناً إذا استيقظ من قائلته استظل فيه، وصلى فيه، فجمع عمار حجارة، فسوى مسجد قباء، فهو أول مسجد بني، وعمار بناه (٣).

أحـــد

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخدمه، فلما قدم النبي ﷺ راجعاً، وبدا له أحد قال: «هذا جبل يحبنا ونحبه» ثم أشار بيده إلى المدينة: «اللهم إني أحرم ما بين لابتيها، كتحريم إبراهيم مكة، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا» (٤).

---

١) المعجم الكبير للطبراني ٣٣٩/٢. قال الهيثمي: فيه من لم أعرفه. مجمع الزوائد ١٧٧/٥.

٢) ابن شبة ٥٢/١.

٣) المستدرك ٣٨٥/٣.

٤) البخاري ١٠١/٤ و ١٠٢ و٢٢٨ و٢٢٩/٥ دون ذكر: "اللهم بارك ..." و ١٣٧/٧ و ١٤٠/٨ إلا أنه قال: " جبليها " بدل " لابتيها " و ١٨٨/٩ وليس فيه: "اللهم بارك ...".

مسلم ٩٩٣/٢ غير أنه قال " جبليها " وفي رواية: " لابتيها" ٩٩٣/٢ أيضاً ، الترمذي ٦٧٨/٥ وليس فيه: " اللهم بارك ...".

وفي رواية: «إن أحداً جبل يحبنا ونحبه». (١).

وفي رواية قال: طلع علينا أحد ونحن مع رسول الله ﷺ فقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه ». (٢).

وفي رواية: أن النبي ﷺ ذكر أحداً فقال: «جبل يحبنا ونحبه» (٣).

- عن سويد الأنصاري رضي الله عنه قال: قفلنا مع النبي ﷺ من غزوة خيبر، فلما بدا له أحد قال: « الله أكبر ، جبل يحبنا ونحبه». (٤).

- عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال : أقبلنا مع النبي ﷺ من غزوة تبوك حتى إذا أشرفنا على المدينة قال: «هذه طابة، وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه» (٥) .

وفي رواية: أقبلنا مع النبي ﷺ من منزل حتى إذا كنا بغرابات نظر إلى أحد فكبر ثم قال: «جبل يحبنا ونحبه، جبل سائر ليس من جبال أرضنا» (٦).

- عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أحد جبل يحبنا ونحبه» (٧).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما قدمنا مع النبي ﷺ من غزوة خيبر، بدا لنا أحد فقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه، إن أحداً هذا لعلى باب من

---

١) مسلم ١٠١١/٢ ، ابن شبة ٨١/١، أبو يعلى ٣٢٥/٥ و ٤٣٨، ابن حبان ١٦/٦

٢) عبد الرزاق ٢٦٨/٩ ، ابن شبة ٨١/١ ، فضائل المدينة للجندي ٢١. وأرسله عروة بن الزبير: الموطأ ٨٩٣/٢ ، عبد الرزاق ٢٦٨/٩ ، ابن شبة ٨٢/١ ، فضائل المدينة للجندي: ٢١ .

٣) المسند ١٤٠/٣

٤) المسند ٤٤٣/٣ ، ابن شبة ٨٠/١ ، المعجم الكبير للطبراني ١٠٦/٧

٥) البخاري ٢٦/٦، مسلم ١٠١١/٢، ابن أبي شيبة ٥٤٠/١٤ في حديث طويل، المسند ٤٢٤/٥ في حديث طويل، ابن شبة ٨٢/١، دلائل النبوة للبيهقي ٢٦٦/٥.

٦) ابن شبة ٨٢/١. أحد رواته ـ عبد العزيز بن عمران ـ متروك.

٧) البخاري ٢١٣/٣.

أبواب الجنة» (١).

- وروي مرسلاً، أرسله أبو قلابة قال: كان النبي ﷺ إذا جاء من سفر فبدا له أحد قال: «هذا جبل يحبنا ونحبه» ثم قال: «آيبون تائبون، ساجدون لربنا حامدون» (٢).

- عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أحد ركن من أركان الجنة» (٣).

- عن ابن أبي يعلى رحمه الله قال: قال النبي ﷺ: «أحد على ترعة من ترع الجنة - والترعة: باب - وعير على ركن من أركان النار» (٤).

- عن أبي عَبْس بن جبرالحارثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأحد: «هذا جبل يحبنا ونحبه، على باب من أبواب الجنة، وهذا عَيْر جبل يبغضنا ونبغضه، على باب من أبواب النار» (٥).

- عن عمرو بن عوف المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة أجبل من جبال الجنة: أحد جبل يحبنا ونحبه، جبل من جبال الجنة، وورقان جبل من جبال الجنة، ولبنان جبل من جبال الجنة، وطور جبل من جبال الجنة» (٦).

---

١) ابن شبة ٨٢/١ . أحد رواته - يحيى بن عبيد الله - متروك .

٢) ابن شبة٨١/١ .

٣) أبو يعلى ٥٠٨/١٣، المعجم الكبير للطبراني ١٨٦/٦. في سنده عبد الله بن جعفر: ضعيف .

٤) عبد الرزاق ٢٦٨/٩ (حديث مرسل) .

٥) كشف الأستار ٥٨/٢، الكنى والأسماء للدولابي ٤٣/١ . أحد رواته وهو: عبد المجيد بن أبي عبس بن جبر، ضعيف.

٦) ابن شبة ٨٠/١، الطبراني ١٨/١٧ بنحوه بزيادة "وأربعة أنهار من أنهار الجنة، وأربعة ملاحم من ملاحم الجنة ..." وعدّدَها. في سنده كثير بن عبد الله المزني: واهي الحديث .

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة أنهار في الجنة، وأربعة أجبل، وأربع ملاحم في الجنة: فأما الأنهار: فسيحان، وجيحان، والنيل، والفرات، وأما الأجبل: فالطور، ولبنان، وأحد، وورقان» وسكت عن الملاحم (١).

- عن عبد الرحمن الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «أحد على باب من أبواب الجنة، وعير على باب من أبواب النار» (٢).

- عن داود بن الحصين قال: قال رسول الله ﷺ: «أحد ركن من أركان الجنة، وعير على ركن من أركان النار» (٣).

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحداً على باب من أبواب الجنة، فإذا جئتموه فكلوا من شجره، ولو من عضاهه» (٤).

- عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن يحتش أحد إلا يوماً بيوم (٥).

وادي العقيق

- عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: حدثني النبي ﷺ قال: «أتاني الليلة آت من ربي - وأنا بالعقيق - أن صل في هذا الوادي المبارك وقل: عمرة في حجة» (٦).

---

١) ابن شبة ٨٥/١ . في سنده عبد العزيز بن عمران: متروك.

٢) ابن شبة ٨٣/١ في سنده عبد العزيز بن عمران: متروك .

٣) ابن شبة ٨٣/١ . في سنده عبد العزيز بن عمران: متروك .

٤) عبد الرزاق ٢٦٩/٩، ابن شبة ٨٤/١، غريب الحديث للحربي ٩٢٤/٣ من قوله: «فإذا جئتموه ...»، فضائل المدينة للجندي ٢٢. وفي أسانيدها ضعف .

٥) ابن شبة ٨٤/١.

٦) البخاري ١٩٠/٩، الحميدي ١١/١، المسند ٢٤/١. المنتخب لعبد بن حميد ٥٤/١، ابن شبة ١٤٦/١، مسند عمر بن الخطاب ليعقوب بن شيبة ٨١، غريب

وفي رواية: «العقيق واد مبارك» (١).

- عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أنه كان يصيد ويأتي النبي ﷺ من صيده فأبطأ عليه، ثم جاءه. فقال له رسول الله ﷺ: «ما الذي حبسك؟» فقال: يارسول الله انتفى عنا الصيد، فصرنا نصيد ما بين نبت إلى قناة. فقال رسول الله ﷺ: «أما إنك لو كنت تصيد بالعقيق لشيعتك إذا ذهبت، وتلقيتك إذا جئت فإني أحب العقيق» (٢).

- عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قيل له وهو بالعقيق: «إنك بالوادي المبارك، أو بطحاء مباركة» (٣).

- عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «أتاني آت وأنا بالعقيق فقال: إنك بواد مبارك» (٤).

- عن عروة بن الزبير رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «العقيق واد مبارك» (٥).

- عن هشام بن عروة رحمه الله قال: اضطجع النبي ﷺ بالعقيق فقيل: «إنك في واد مبارك» (٦).

بطحـــان

الحديث للحربي ٤٣/١، شرح معاني الآثار ١٤٦/٢، السنن الكبرى للبيهقي ١٣/٥.

(١) ابن شبة ١٤٨/١.

(٢) ابن شبة ١٤٧/١ و ١٤٨، شرح معاني الآثار للطحاوي ١٩٥/٤ واللفظ له، المعجم الكبير للطبراني ٦/٧. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن. مجمع الزوائد ١٤/٤.

(٣) المعجم الكبير للطبراني ٣٦٨/١٢.

(٤) كشف الأستار ٥٨/٢.

(٥) ابن شبة ١٤٧/١ وهو حديث مرسل.

(٦) ابن شبة ١٤٨/١ وهو حديث مرسل.

- عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن بُطحان على ترعة من ترع الجنة» (١).

وفي رواية: «بطحان على بركة من برك الجنة» (٢).

- عن ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه دخل على ثابت بن قيس وهو مريض فقال: «اكشف الباس رب الناس عن ثابت بن قيس بن شماس» ثم أخذ تراباً من بُطحان، فجعله في قدح، ثم نفث عليه بماء، وصبه عليه (٣).

مساجد صلى فيها رسول الله ﷺ

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ دعا في مسجد الفتح ثلاثاً: يوم الإثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين. فعرف البشر في وجهه، قال جابر: فلم ينزل بي أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة (٤).

وفي رواية: دعا رسول الله ﷺ في المسجد الأعلى يوم الإثنين، ويوم الثلاثاء، واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين (٥).

وفي رواية: دعا النبي ﷺ على الجبل الذي عليه مسجد الفتح من ناحية الغرب، وصلى من وراء المسجد (٦).

وفي رواية: أن النبي ﷺ قعد على موضع مسجد الفتح، وحمد الله، ودعا عليه، وعرض أصحابه وهو عليه(٧).

---

١) التاريخ الكبير للبخاري ٥١/٢ و ٥٢، ابن شبة ١٦٧/١.

٢) كشف الأستار ٥٨/٢.

والروايتان ضعيفتان لجهالة أحد الرواة.

٣) أبو داود ٢١٣/٤، ابن حبان ٦٢٣/٧، المعجم الكبير للطبراني ٦٣/٢.

٤) المسند ٣٣٢/٣.

٥) ابن شبة ٥٨/١.

٦) ابن شبة ٥٩/١.

وفي رواية: دعا النبي ﷺ في المسجد المرتفع ورفع يديه مداً(١).

- عن المطلب بن حنطب رحمه الله قال: دعا رسول الله ﷺ في المسجد الأعلى على الجبل، يوم الإثنين، ويوم الثلاثاء، واستجيب يوم الأربعاء بين الصلاتين(٢).

وفي رواية: أن النبي ﷺ دعا يوم الإثنين في مسجد الفتح، واستجيب له عشية الأربعاء بين الصلاتين(٣).

- عن سعيد مولى المهديين قال: أقبل النبي ﷺ من الحرب فأدركته صلاة العصر فصلاها في المسجد الأعلى(٤).

- وعن عمارة بن أبي اليسر قال: صلى في المسجد الأسفل(٥).

- عن أسيد بن أبي أسيد، عن أشياخهم: أن النبي ﷺ دعا على الجبل الذي عليه مسجد الفتح، وصلى في المسجد الصغير الذي بأصل الجبل على الطريق حتى مصعد الجبل(٦).

- عن ابن اسحق قال: نزل رسول الله ﷺ بقباء على كلثوم بن هرم أخي بني عمرو بن عوف. ويقال: بل نزل على سعد بن خيثمة، فأقام في بني عمرو بن عوف يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجدهم، وخرج من بني عمرو بن عوف فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلى الجمعة في المسجد الذي ببطن الوادي(٧).

---

٧) ابن شبة ١/٥٩.

١) ابن شبة ١/٦٠. (مرسل).

٢) ابن شبة ١/٥٨.

٣) ابن شبة ١/٦٠.

٤) ابن شبة ١/٥٩.

٥) ابن شبة ١/٥٩.

٦) ابن شبة ١/٥٨.

٧) المعجم الكبير للطبراني ٦/٣٠.

- وفي رواية: «ثم ظعن يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها بمن معه ببطن مهزور »(١).

- عن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك قال: جاءنا ابن عمر رضي الله عنهما في بني معاوية - وهي قرية من قرى الأنصار - فقال: تدرون أين صلى النبي ﷺ من مسجدكم هذا؟ قلت نعم، وأشرت إلى ناحية منه. قال فهل تدرون بالثلاث التي دعا بهن فيه؟ قلت نعم، قال فأخبرني بهن. قلت دعا أن لايظهر عليهم عدو من غيرهم، وأن لايهلكهم بالسنين، فأعطيهما، ودعا بأن لايجعل بأسهم بينهم فمنعها. قال صدقت ، فلن يزال الهرج إلى يوم القيامة(٢).

- عن رافع بن خديج رضي الله عنه: أن النبي ﷺ صلى في المسجد الصغير الذي بأحد في شعب الجرار على يمينك لازقاً بالجبل (٣).

عن جابر بن أسامة الجهني رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بالسوق فقلت: أين تريدون ورسول الله ﷺ؟ قالوا: يخط لقومك مسجداً فرجعت، فإذا قومي قيام، وإذا رسول الله ﷺ قد خط لهم مسجداً، وغرز في القبلة خشبة أقامها فيها(٤).

- عن يحيى بن النضر الأنصاري رحمه الله: أن النبي ﷺ لم يصل في مسجد ما في جوبة المدينة إلا في مسجد أبي بن كعب في بني جديلة(٥).

- وعن يحيى بن سعيد رحمه الله قال: كان النبي ﷺ يختلف إلى مسجد أبي فيصلي فيه غير مرة ولا مرتين وقال: «لولا أن يميل الناس إليه لأكثرت

---

١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٥٠٣.

٢) ابن شبة ١/٦٧.

٣) ابن شبة ١/٥٧.

٤) ابن شبة ١/٦٣. (أربع روايات بعضها مرسل). و ١/٧٩. و ١/٢٦٦.

٥) ابن شبة ١/٦٤.

الصلاة فيه»(١).

- عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ صلى على ذباب(٢).

وأرسله عبد الرحمن بن الأعرج(٣).

- عن جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ صلى في مسجد الخربة، ومسجد القبلتين، وفي مسجد بني حرام الذي بالقاع(٤).

- عن هشام بن عمرو رحمه الله: أن النبي ﷺ صلى في مسجد بني عمرو بن مبذول، وفي دار النابغة، ومسجد بني عدي، ومسجد بني خدارة، ومسجد بني عضية، وبني الحبلى، وبني الحارث بن الخزرج، ومسجد السنح، وبني خطمة، ومسجد الفضيخ، وفي صدقة الزبير في بني محمم، وفي بيت صرمة في بني عدي، وفي بيت عتبان(٥).

- عن يحيى بن عمارة المازني رحمه الله: أن النبي ﷺ صلى في مسجد دار النابغة، واغتسل في مسجد بني عدي (٦).

- عن عبد الله بن الحارث بن الفضيل: أن النبي ﷺ صلى في مسجد بني خطمة (٧).

- عن الحارث بن سعيد بن عبيد الحارثي: أن النبي ﷺ صلى في مسجد بني حارثة، وفي بني ظفر، وفي بني عبد الأشهل (٨).

- عن سعد بن اسحق بن كعب: أن النبي ﷺ صلى في مسجد بني

---

١) ابن شبة ١/ ٦٤.

٢) ابن شبة ٦٢/١.

٣) ابن شبة ٦١/١.

٤) ابن شبة ٦٨/١.

٥) ابن شبة ٦٥/١.

٦) ابن شبة ٦٥/١.

٧) ابن شبة ٦٦/١.

٨) ابن شبة١/٦٦.

ساعدة الخارج من بيوت المدينة، وفي مسجد بني بياضة، ومسجد بني الحبلى، ومسجد بني عضية، ومسجد بني خدارة(١).

- وعن العباس بن سهل رحمه الله: أن النبي ﷺ صلى في مسجد بني ساعدة في جوف المدينة(٢).

- عن عمرو بن شرحبيل رحمه الله: أن النبي ﷺ وضع يديه على الحجر الذي في أجم سعد بن عبادة عند جدار سعد، وصلى في مسجد بني خدارة(٣)

- عن شيخ من الأنصار: أن النبي ﷺ صلى في مسجد بني خدارة، وحلق رأسه فيه (٤).

- عن يحيى بن عمارة أن النبي ﷺ وضع مسجد مازن بيده، وخطه وهيأ قبلته، ولم يصل فيه(٥).

البقيع ومقابر أخرى في المدينة

- عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ - كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ - يخرج من آخر الليل إلى البقيع، فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ماتوعدون، غداً مؤجلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» (٦).

وفي رواية مثله إلا أنه قال: «السلام عليكم ديار قوم مؤمنين، وإنا بكم

---

١) ابن شبة ٦٤/١.

٢) ابن شبة ٦٤/١.

٣) ابن شبة ٦٠/١.

٤) ابن شبة ٦٠/١.

٥) ابن شبة ٧٦/١.

٦) مسلم (رقم:٩٧٤)، النسائي ٩٣/٤، المسند ١٨٠/٦ وليس فيه: "اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد"، ابن شبة ٩٠/١، ٩٧ (مرسلا)، أبو يعلى ١٩٩/٨، ابن حبان ٦٩/٥، ٢٧/٧، السنن الكبرى للبيهقي ٧٩/٤ و ٢٤٩/٥.

لاحقون، أنتم لنا فرط، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولاتفتنا بعدهم»(١).

- عن محمد بن قيس بن مخرمة بن المطلب أنه قال: سمعت عائشة تحدث فقالت: ألا أحدثكم عن النبي ﷺ وعني؟ قلنا: بلى، قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي انقلب فوضع رداءه وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه .... وذكرت قصة خروجه ﷺ إلى البقيع ثم قالت: فجعلت درعي في رأسي واختمرت وتقنعت إزاري ثم انطلقت على إثره حتى جاء البقيع فقام، فأطال القيام ثم رفع يديه ثلاث مرات ثم انحرف .... وذكرت قصة عودتها قبله .... وفيه قال ﷺ: «فإن جبريل أتاني ..... فأجبته..... فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم» قالت عائشة: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: «قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون» (٢).

- عن أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل فقال: «ياأبا مويهبة إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معي» فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس لو تعلمون ما نجاكم الله منه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها آخرها، الآخرة شر من الأولى» قال: ثم أقبل علي فقال: «ياأبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، وخيرت بين لقاء ربي عز وجل والجنة، قال: قلت بأبي وأمي فخذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، قال: «لا والله ياأبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة» ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف،

---

١) ابن شبة ٩١/١.

٢) مسلم (رقم:٩٧٤)، النسائي ٩١/٤، عبد الرزاق ٥٧٠/٣، المسند ٢٢١/٦، ابن شبة ٨٧/١، السنن الكبرى للبيهقي ٧٩/٤.

فبدئ وجع رسول الله ﷺ في وجعه الذي قبضه الله عز وجل فيه حين أصبح(١).

- عن علقمة بن أبي علقمة عن أمه، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قام ذات ليلة، فلبس ثيابه ثم خرج، قالت: فأمرت جاريتي بريرة تتبعه، فتبعته، حتى جاء البقيع، فوقف في أدناه ماشاء الله أن يقف، ثم انصرف، فسبقته بريرة، فأخبرتني فلم أذكر له شيئاً حتى أصبح، ثم ذكرت ذلك له، فقال: «إني بعثت إلى أهل البقيع لأصلي عليهم»(٢).

- عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يخرج إلى البقيع فيدعو لهم، فسألته عائشة عن ذلك فقال: «إني أمرت أن أدعو لهم»(٣).

وفي رواية: «إني أمرت أن آتي أهل البقيع فأدعو لهم، وأصلي عليهم» (٤).

- عن أم قيس بنت محصن قالت: لقد رأيتني ورسول الله ﷺ آخذ بيدي في بعض سكك المدينة، وما فيها بيت، حتى انتهينا إلى بقيع الغرقد، فقال: «يا أم قيس» فقلت: لبيك يارسول الله وسعديك، قال: «ترين هذه المقبرة»؟ قلت: نعم يارسول الله. قال: «يُبعث منها سبعون ألفاً وجوههم كالقمر ليلة البدر، يدخلون الجنة بغير حساب». فقام رجل فقال: يارسول الله، وأنا، قال:

---

١) المسند ٤٨٨/٣ و٤٨٩، الدارمي ٣٨/١، ابن شبة ٨٧/١، تركة النبي ﷺ لحماد بن اسحق: ٥١، المعجم الكبير للطبراني ٣٤٦/٢٢و ٣٤٧ وفي آخره: فما مكث رسول الله ﷺ إلا سبع أو ثمان حتى قبض ﷺ، المستدرك ٥٥/٣.
ورواه مختصراً: ابن شبة ٨٦/١، البزار في كشف الأستار ٤٠٨/١.

٢) الموطأ ٢٤٢/١، النسائي ٩٣/٤، المسند ٩٢/٦، ابن شبة ٨٩/١ و ٩٠، ابن حبان ٢٤/٦، المستدرك ٤٨٨/١ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٣) المسند ٢٥٢/٦، ابن شبة ٩٥/١.

٤) ابن شبة ٩٠/١.

«وأنت»، فقام آخر، فقال: وأنا يارسول الله؟ قال: «سبقك بها عكاشة»(١).

- عن الحسن رحمه الله قال: إن النبي ﷺ قام على أهل البقيع فقال: «السلام عليكم ياأهل القبور من المؤمنين والمسلمين، لو تعلمون مانجاكم الله منه مما هو كائن بعدكم» ثم نظر إلى أصحابه فقال: «هؤلاء خير منكم» قالوا: يارسول الله، وما يجعلهم خيراً منا؟ قد أسلمنا كما أسلموا، وهاجرنا كما هاجروا، وأنفقنا كما أنفقوا، فما يجعلهم خيراً منا؟ قال: «إن هؤلاء مضوا لم يأكلوا من أجورهم شيئاً، وشهدت عليهم، وإنكم قد أكلتم من أجوركم بعدهم، ولاأدري كيف تفعلون بعدي»(٢).

- عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض، ثم أبو بكر، ثم عمر، ثم آتي أهل البقيع فيحشرون معي، ثم أنتظر أهل مكة حتى أحشر بين الحرمين»(٣).

- عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يريد قبور الشهداء، حتى إذا أشرفنا على حرة واقم، فلما تدلينا منها وإذا قبور بمحنية، قال: قلنا يارسول الله أقبور إخواننا هذه؟ قال: «قبور أصحابنا» فلما جئنا قبور الشهداء قال: «هذه قبور إخواننا»(٤).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مقبرة بغربي المدينة يقرضها السيل يساراً، يبعث منها كذا وكذا لاحساب عليهم»(٥).

---

١) الطيالسي: ٢٢٧، ابن شبة ٩١/١ بزيادة في آخره: "قال سعد - أحد رواته - فقلت لها: ماله لم يقل للآخر، قالت: أراه كان منافقاً". المستدرك ٦٨/٤.

٢) ابن شبة ٩٤/١.

٣) الترمذي ٦٢٢/٥، ابن حبان ٢٤/٩، المعجم الكبير للطبراني ١٢/ ٣٠٥، المستدرك ٦٨/٣ وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: أحد رواته ضعيف، هامش المستدرك ٦٨/٣.

٤) أبو داود ٥٣٥/٢، أحمد ١٦١/١، ابن شبة ١٣٣/١، السنن الكبرى للبيهقي ٢٤٩/٥.

- عن ابن أبي عتيق وغيرهما من مشيخة بني حرام، عن رسول الله ﷺ قال «مقبرة بين سيلين غربية، يضيء نورها يوم القيامة ما بين السماء إلى الأرض»(١).

---

٥) ابن شبة ١/٩٢، وفيه عبد العزيز بن عمران وهو متروك.

١) ابن شبة ١/٩٤، وفي سنده من لم يعرف.

فهـــرس الأعـــلام

حـــرف الألـــف

حــرف البــــاء

حـــرف الحـــاء

حـــرف الخـــاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاء

حرف السين

حـــرف الشـــين

حرف الصاد

حـــرف الضاد

حـــرف الطاء

حرف العين

حـــرف الغـــين

حـــرف الفـــاء

حـــرف القـــاف

حـــرف الكـــاف

حرف اللام

حـــرف المـــيم

حرف النون :

حـــرف الهـــاء

حـــرف الــواو

حـــرف اليـــاء

فهرس القبائل والجماعات

حــرف الألــف

حــرف البـاء

حــرف الـتـاء

حــرف الـثـاء

حــرف الجـيـم

حــرف الـحـاء

حـرف الـخـاء

حـرف الـدال

حـــرف الـــذال

حـــرف الـــراء

حـــرف الـــزاي

حـــرف الســيـن

حـــرف الشـيـن

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حـــرف الـغـيــن

حـــرف الـفـاء

حـــرف الـقـاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حـــرف الـنـون

حـــرف الـهـاء

حـــرف الــواو

حـــرف الـيــاء

فهرس الأماكن

حرف الألف

حرف الباء

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حــرف السـيـن

حــرف الشـيـن

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حـــرف الغيـن

حـــرف الـفـاء

حــرف الـقــاف

حـــرف الـكـاف

حـــرف الـــلام

حـــرف المـيـم

حرف النون

حـــرف الـهـاء

حـــرف الــواو

حـــرف الـيـاء

فهرس الصور والمخططات والخرائط في «الجزء الأول»

الموضـــــــــــــــــــــــــــــــوع	رقم الصفحه

فهرس المصورات والمخططات والخرائط والصور
في «الجزء الثاني»

فهرس المصورات والمخططات والخرائط والصور
في «الجزء الثالث»

مخطوطات عن المدينة المنورة

حرف الألف

* الابتغاء في أخبار المدينة المنورة- أبوطاهر محمد بن عبد الرحمن بن زكريا المخلصي الذهبي (٣٠٥-٣٩٣هـ) والكتاب مفقود.
* اتحاف الزائر- لأبي اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن عساكر الدمشقي ثم المكي (٦١٤-٦٧٦هـ) وهو كتاب في تاريخ المدينة (معجم المؤلفين ١٠--١٤) وأشار حمد الجاسر- في «رسائل في تاريخ المدينة» إلى أن له نسخة خطية لدى الشيخ محمد سلطان النمنكاني الكتبي في المدينة المنورة.
* اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن- محمد بن علي بن فضل بن عبد الله الطبري (ت١١٧٣هـ)- مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم -٨٧. ونسخة أخرى مخطوطة بمكتبة الحرم المكي برقم ٣٤١١.
* أخبار أمراء المدينة- لأبي زيد عمر بن شبة النميري (٢٦٢هـ): ذكره ابن النديم في الفهرست ص:١٢٥.
* أخبار دار الهجرة- لرزين بن معاوية العبدري السرقسطي الأندلسي ثم المكي- إمام الحرمين (ت٥٣٥هـ) قال العلامة حمد الجاسر في «رسائل في تاريخ المدينة»: ذكره المراغي في تحقيق النصرة، وقد استقى منه السمهودي كثيراً من المعلومات.
* أخبار ظرفاء أهل المدينة- لأبي أيوب سليمان بن محمد المديني(١٧٢-١٧٧) مفتي أهل المدينة. ذكره ابن النديم في الفهرست ص:١٦٥.
* الأخبار الغريبة في ذكر ماوقع بطيبة الحبيبة لجعفر بن هاشم الحسيني المدني، ت:١٣٤٢هـ. يشتمل الكتاب على ذكر الفتن التي وقعت في المدينة من ١١١١-١١٩٩هـ، وعددها سبع فتن، مخطوطات في مكتبة الحرم المكي

برقم (٢٧٥٥). وقد حققه الدكتور عاصم حمدان في عام ١٩٨٦م. ضمن رسالة علمية تقدم بها لنيل درجة «الدكتوراه» من جامعة مانشستر بالمملكة المتحدة وما زالت الرسالة مخطوطة لم تنشر.

* أخبار المدينة- لابن زبالة محمد بن الحسن (ت٢٠٠هـ) تقريباً، وقد أكثر السمهودي من النقل عنه في كتابه «وفاء الوفاء» وذكره ابن النديم في الفهرست ص٢٧٤، وذكر أيضاً في كشف الظنون ١-٢٩، وهداية العارفين ٢-٩ ومعجم المؤلفين ٩-١٩١، وقال السخاوي في الإعلان بالتوبيخ ص ٢٧٤: «إنه مجلد ضخم ويبدو أنه اطلع عليه، وقد نشر هذا الكتاب مستلاً من «وفاء الوفاء».

* أخبار المدينة- للزبير بن بكار (ت٢٥٦هـ) ينتهي نسبه إلى الزبير بن العوام -رضي الله عنه- وهو من أهل المدينة - ذكره «ابن النديم» وقال حمد الجاسر في مقدمة المغانم ص (ز) «نقل عن ابن حجر في الإصابة في مواضع، ونقل عنه الفيروز آبادي في المغانم المطابة فصلاً مطولاً عن مساكن القبائل في المدينة، ونقل أشياء أخرى».

* أخبار المدينة - ليحي بن الحسن الحسيني العلوي (ت٢٧٧هـ) ذكره السخاوي في الإعلان بالتوبيخ ٢٧٤هـ وذكر حمد الجاسر أن ثلاثة من نسخه هذا الكتاب وصلت إلى السمهودي وهو من مصادره التي نقل عنها كثيراً.

* الأخبار المستطابه في فضل سكان طابة- جلال الدين بن خير الدين الحنفي- مخطوط بمكتبة الحرم بمكة المكرمة رقم (٢٤٢٣) وتوجد نسخة أخرى بدارة الملك عبد العزيز برقم (٦٦-٦٧)، كتبها محمد محمد بن سعيد المداح ١٠٥٥هـ.

* الاستبصار في أنساب الأنصار- أبو محمد عبد الله بن قدامه المقدسي ت ٦٢٠هـ-١٢٢٣م ميكروفلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

* أسماء جبال مكة والمدينة وما يتصل بها- المؤلف مجهول. مخطوط في دارة الملك عبد العزيز برقم ٦٥٣م.
* الإعلام بمن دخل المدينة من الأعلام - للعفيف عبد الله بن محمد بن أحمد بن خلف المطري (٦٩٨-٧٦٥هـ) ذكره السخاوي (الإعلان بالتوبيخ ص ٢٧٥).
* أعلام المدينة المنورة - لشيخ محمد بن محمد بن سعيد بن يحيى دفتردار (١٣٩٢هـ) وقد نشرت حلقات منه في جريدة المدينة المنورة- ومجلة المنهل.
* اقتضاء الوفا بأخبار دار المصطفى، لنور الدين على السمهودي (٨٨٤-٩١١هـ) ولعل هذا الكتاب ضمن ما احترق من كتب السمهودي في حريق المسجد النبوي سنة ٨٦١هـ ويشمل هذا الكتاب خلاصة ما وقف عليه السمهودي من تواريخ المدينة.
* الإنارة في الزيارة للحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ).
* الأنباء المبينه في فضل المدينة لأبي محمد القاسم بن علي بن عساكر (٥٢٧-٦٠٠هـ) ذكره السخاوي في الإعلان بالتوبيخ: ٢٧٤، ومعجم المؤلفين ١٠٦٨ وذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ١-١٧١ أنه مختصر.
* الأوائل في تاريخ المدينة، لأحمد بن ياسين الخياري (١٣٢١-١٣٨٠هـ) ذكره كحالة في معجم مصنفي الكتب العربيه ٨٤.
* الأوس والخزرج - لأبي عبيدة معمر بن المثنى (٢١١هـ) ذكره ابن النديم في الفهرست ٦٠.

حرف الباء

* بهجة النفوس في تاريخ المدينة- القرطبي : عبد الله ، مخطوط في دارة الملك عبد العزيز برقم ٥٣٤.
* بهجة النفوس والأسرار في تاريخ دار هجرة المختار. عبد الله القرشي

المرجاني(٧٦٠هـ)- مخطوط بمكتبة الحرم المكي برقم ٣٤٤٠، ونسخة أخرى مخطوطه في مكتبة عارف حكمت برقم ٢٨٣. وذكره السخاوي (الإعلان بالتوبيخ ٢٧٤، وحاجي خليفة (كشف الظنون ١-٣٠٢).

* بين المسجدين- لعلي بن أحمد بن علي بن محمد بن جعفر بن عبد الله ابن الحسن بن علي بن أبي طالب العفيفي: ذكره- معجم المؤلفين ٧-٢١.

حرف التاء

* تاريخ المدينة في الشعر قديماً وحديثاً- لأحمد ياسين الخياري (١٣٨٠هـ) (معجم مصنفي الكتب العربية ٨٤).
* تاريخ المدينة المنورة- قطب الدين (قدس سره) مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات في القاهرة رقم ٩٦٥ تاريخ.
* تاريخ المدينتين (مكة والمدينة) لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٩٠٢هـ).
* تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف- لابن الضياء القرشي محمد بن أحمد (ت٨٥٤هـ) مخطوط بدارة الملك عبد العزيز مصور من دار الكتب المصريه نسخ عام ١٣٣٠هـ برقم ٦٧.
* تاريخ مكة والمدينة والطائف. لحسن بن علي المكي العجمي الحنفي، كان حياً في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري. وللكاتب نسخة مصورة بقسم المخطوطات بجامعة الملك سعود برقم ٤٣ص تاريخ نسخها سنة ١٣٦٧هـ.
* تاريخ مكة والمدينة وفضلهما - المؤلف مجهول- ٢٤٥ص تاريخه ٨٣٦هـ مخطوط برقم ٣٩٧ بمكتبة الحرم المكي.
* تاريخ مكة المكرمه والمسجد الحرام والمدينة والقبر: لمحمد بن أحمد بن ضياء الصاغاني أبو البقاء له نسخة مصورة بمركز العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى: برقم ١٧ تاريخ أغوات الحرم النبوي -

بالتركية - مخطوط بالمكتبه المحمودية- برقم ٢٥٣٣ عام

* تحفة الدهر ونفحة الزهر في شعراء المدينة من أهل العصر: لعمر بن عبد السلام الداغستاني (١١٧٣-١٢٠٦هـ) فرغ من تأليفه في ٢٦ ذي القعدة ١٢٠١هـ وله نسخة لدى ورثة الاستاذ عبد الرحيم أبي بكر رحمه الله.

* تحقيق النصرة في تلخيص معالم دار الهجرة. زين الدين المراغي (ت٨١٦هـ) مخطوط بدار الكتب المصريه برقم ١٦٤١ تاريخ.

* تنزيل السكينة على قناديل المدينة. عبد الغني السبكي. مخطوط في دارة الملك عبد العزيز برقم ٢٦٨-٨٣.

حرف الجيم

* الجامع الأموي في المدينة المنورة للمستشرق الفرنسي سورهاج نشر باللغة الفرنسية. ذكره عبد السلام حافظ في كتاب المدينة المنورة في التاريخ ص ٢٠٧.

* الجوهر الثمينة في محاسن المدينة. السيد محمد كبريت بن عبد الله بن محمد الحسيني المدني الموسوي (١٠١٢-١٠٧٠هـ) مخطوط بدار الكتب المصريه رقم ٢٢٢٨ تاريخ. ونسخة أخرى في مكتبة الحرم المكي نسخت عام ١٠٤٧ ربما تكون نسخة المؤلف بهامشها تعليقات وجيزة برقم ٦٦٧ف. ونسخة أخرى مصورة من مكتبة رضا امبور رقمها ١٣- في دارة الملك عبد العزيز.

* الجوهر المنتظم في زيارة قبر النبي المكرم للعلامة ابن حجر الهيثمي المكي (٩٧٣هـ) ذكره عبد السلام حافظ في كتاب المدينة المنوره في التاريخ ص٢٠٨.

حرف الحاء

* الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة- لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١هـ) حسن المحاضرة (١-٢٤٣) وذكره حاجي خليفة في

كشف الظنون (١-٦٣٢)، وله نسختان خطيتان في برلين برقم (٩٧٥٦-٣) والظاهرية برقم ١١٣٤ حديث ورقمه العام ٧٦٦٤.

* حرب الأوس والخزرج. لمحمد بن عمر الواقدي ذكره ابن النديم في الفهرست ص ١١١.

* الحرة. لمحمد بن عمر الواقدي. وذكره السمهودي في وفاء الوفا ٣-٧٤٧.

* حُسن البِنَا في فضل مسجد قبا. البكري: الصديقي، مخطوط في دارة الملك عبد العزيز برقم ١٤.

* حمى المدينة وجبالها وأوديتها لأبي الحسن على بن محمد بن عبد الله ابن أبي سيف المدائني (٢٢٥) مولى سمرة بن جندب بن حبيب. ذكره ابن النديم في الفهرست ١١٦.

حرف الخاء

* الخلاصة في تاريخ المدينة، لعمر بن الحافظ الرومي بالفارسية. وذكر حاجي خليفة (٥١).

حرف الدال

* دليل الزائرين: للشيخ حسن البسنوي: ذكره عبد السلام حافظ في كتاب المدينة المنوره في التاريخ ص٢٠٨.

حرف الذال

* ذروة الوفا بأخبار دار المصطفي. السمهودي: علي بن عبد الله (٨٤٤-٩١١هـ) مخطوط بمكتبة الحرم المكي برقم ٣٤٨٥، ونسخة أخرى في دارة الملك عبد العزيز برقم ٢٦٣ بخط المؤلف كتب عام ٨٧٦هـ بعد الحريق مباشرة.

* ذيل تاريخ المدينة لأحمد بن عبد الله بن حسن باعنتر السيوفي الحضرمي المرجاني (١٠٩١هـ) ذكره البغدادي في إيضاح المكنون ١-٢١٧.

* ذيل الدرة الثمينة في أخبار المدينة، لإبي العباس القرافي ذكر السخاوي

في الإعلان بالتوبيخ ٢٧٤ أنه في كراسة.

حرف الراء

* الرحلة الحجازية. محمد محي الهاشمي بوشعره البلوي- مخطوط في دارة الملك عبد العزيز برقم ٢٥٩ق.
* رسالة في فضل المدينة المنورة وساكنها لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (٩٧٧-١٠٦٩هـ) المكتبة المحمودية في المدينة المنوره برقم ٢٧٢٨ مجاميع فضل.
* روضة الصفا في أداب زيارة المصطفى لعلان المكي (١٠٥٧هـ).
* الروضة الفردوسية في أسماء من دفن في البقيع لمحمد بن أحمد بن أمية الأقشهري (٦٦٥-٧٣١هـ) ذكره السخاوي في الإعلان بالتوبيخ ٢٧٥ ونقل عنه السمهودي في مواضع عديدة.

حرف الزاي

* زبدة الأعمال في تاريخ مكة والمدينة- محمد بن عمر الاسفرائيني مخطوط بمكتبة الحرم المكي.
* زبدة الربا في فضائل قبا. للسيد ابن على المكي. ذكره عبد السلام حافظ. المدينة المنورة في التاريخ ص٢٠٧.

حرف الطاء

* طراز العلمين في فضائل الحرمين المحترمين، لعبد الهادي الصنعاني اليماني الزبيدي (٨٢٢هـ) ذكره كحالة في معجم المؤلفين (٦-٢٠٢).

حرف العين

* عرف الطيب في أخبار مكة ومدينة الحبيب، غياث الدين محمد بن محمد- مخطوط في دارة الملك عبد العزيز برقم ٤١.
* عروة التوثيق في النار والحريق، لمحمد بن أحمد بن علي القسطلاني قطب الدين (٦١٤-٦٨٦هـ) وهو رسالة تتضمن تفصيل خروج النار (البركان) في

سنة ٦٥٤هـ وحريق المسجد النبوي الشريف في السنة نفسها، وقد لخصها السمهودي في كتابه وفاء الوفاء بما يجب لحضرة المصطفى.

* العقيق وأخباره للزبير بن بكار المدني القرشي (٢٥٦هـ).

حرف الفاء

فضائل المدينة على مكة. لأبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن صالح الأبهري (٢٨٧-٣٧٥هـ) ذكره ابن النديم في الفهرست ٢٥٣.

* الفلك المشحون: ليحيى بن هاشم المدني، له نسخة خطية بمكتبة عارف حكمت برقم ٣٢٠٤ عام.

حرف القاف

* قضاء أهل المدينة لأبي الحسن علي بن محمد المدائني (٢٢٥هـ) ذكره ابن النديم الفهرست ١١٧.

حرف الكاف

* كتاب في أحوال الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى، المؤلف مجهول، مخطوط في دارة الملك عبد العزيز برقم ٣٧١.
* كتاب في تاريخ المدينة. لايعرف عنوانه ولعله (المنسك) لابي عبد الله الأسدي، وصفه السمهودي بأنه من المتقدمين.
* كتاب في تاريخ المدينة، لأبي بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض الغربالي، قال السخاوي: ذكره أبو القاسم بن منده في الوصية له.
* كتاب عن المدينة والحجاز لأبي عبد الله عمرو بشر السكوني نقل عنه البكري في معجم ماالستعجم.
* كتاب في تاريخ المدينة، لجعفر حسين بن يحي بن إبراهيم بن هاشم الحسيني ١٣٤٢هـ ذكره كحالة في معجم مصنفي الكتب العربية ١٣٣.
* كتاب في تاريخ المدينة لمحمد بن موسى بن علي المراكشي (٧٨٩-٨٢٣هـ)

ذكره كحالة في معجم مصنفي الكتب العربية ٥٩٤.

❊ كتاب في العقيق. لهارون بن زكريا الهجري (من اهل القرنين الثالث والرابع الهجريين) ذكر حمد الجاسر في رسائل في تاريخ المدينة ٤٣ أن السمهودي أكثر من النقل عنه. ينظر وفاء الوفا (٣-١٠٨٣-١٠٩٣).

❊ كتاب في فضائل المدينة والحجة لها. لمحمد بن أحمد بن عمر التستري أبي عبد الله (٢٧٣-٣٤٥هـ) ذكره كحالة في معجم مصنفي الكتب العربية ٤٢٧.

❊ كشف الحجاب والستور عما وقع لأهل المدينة من أمير مكة سرور، نشر حمد الجاسر نص هذه الرسالة في مجلة العرب (ج٩و١٠ الربيعان ١٤٠٦هـ).

❊ الكلمات المفيدة على أخبار المدينة، للشيخ عبد الله بن محمد الدويش، وهو شرح مذيّل بأخبار المدينة لابن شبه.

حرف الميم

❊ مجتمع الحجاز في العصر الأموي. عبد الله الخلف . رسالة ماجستير مقدمة الى كلية اللغة العربيه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ١٤٠٧هـ.

❊ مجتمع المدينة المنوره في عهد الرسول ﷺ لمحمد ابن لقمان الأعظمي الندوي.

❊ المجموع الظريف في حجة المقام الشريف، وهي رحلة الأشرف قايتباي، نشرها حمد الجاسر في مجلة العرب السنة العاشرة(ج٩و١٠ص٦٥٩).

❊ المحاسن اللطيفة في معاهد المدينة الشريفة، لابن طولون (٩٥٣هـ).

❊ المدينة وأخبارها، لعبيد الله بن ابي سعيد الوراق (١٩٧-٢٧٤هـ) نقل عنه صاحب المناسك وصاحب الأغاني فيما يتعلق ببعض شعراء المدينة كالأحوص. وذكره ابن النديم في الفهرست ١٢١.

❊ مصباح الحرمين في تاريخ مكة والمدينة ومناسكهما، لعبد الجبار ابن زين

العابدين الشكوني (١٣٢٦هـ) ذكره كحالة في معجم مصنفي الكتب العربيه ٢٤٣.

* المغانم المطابة في معالم طابة، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (٧٢٩-٨١٧هـ) مخطوط بمكتبة شيخ الإسلام فيض الله أفندي في استانبول برقم ١٥٢٩ طبع قسم منه.

* المكتبات العامة بالمدينة المنورة. ماضيها وحاضرها، إعداد: حمادي على التونسي. رسالة ماجستير بإشراف د عباس صالح طاشكندي (١٤٠١-١٩٨١م)، مكتبة المسجد النبوي رقم ٢٠ ت وم.

* منازل الحجاز التي تلقى الحاج الذي يقصد الحجاز. ابن العطار مخطوط في دارة الملك عبد العزيز برقم ١٠٩.

* مناظرات الحرمين. المؤلف مجهول. وهو مخطوط في مكتبة باريس الوطنية برقم ١١٦٧.

* المناهل الصافية العذبة في بيان ماخفي من مساجد طيبة للشيخ عباس المدني. مخطوط بمكتبة عارف حكمت برقم ٢٢١-٩٠٠.

حرف النون

* نتيجة الفكر في خبر مدينة سيد البشر، لزين العابدين بن محمد بن عبد الله العباسي المعروف بالخليفتي (١١٣٠هـ) ذكره كحالة في معجم المؤلفين.

* نصيحة المشاور وتسلية المجاور، ابن فرحون (٦٩٣-٧٧٤هـ) مخطوطه بدارة الملك عبد العزيز برقم ٤٠٩، ونسخة في مكتبة عارف حكمت برقم ٢٥٦-٩٠٠.

* نعمات الرضا والقبول في زيارة المدينة وسيدنا الرسول ﷺ للشيخ أحمد الخضراوي المكي ت (١٣٣٦هـ) ذكره كحالة في معجم المؤلفين ٢-٦٤) وعبد السلام حافظ في المدينة المنورة في التاريخ ٢٠٩.

* نوادر المدينين للزبير بن بكار (٢٥٦هـ) ذكره ابن النديم في الفهرست

١٢٣.

حرف الهاء

* هداية الثقلين في فضل الحرمين. لمحمد بن علي بن عبد الرحمن بن عراق الصمداني نزيل المدينة المنورة (٩٣٣هـ) ذكره نجم الدين الغزي. الكواكب السائرة ١-٦٥.

فهرس المصادر والمراجع

(أ)

* آثار المدينة المنورة - عبد القدوس الأنصاري - ط٤ المكتبه العلمية بالمدينة ١٤٠٦هـ.

* إباحة المدينة وحريق الكعبة في عهد يزيد بن معاوية بين المصادر القديمة والحديثة - د. حمد بن محمد العرينان. ط٢ - مكتبة ابن تيميه. الكويت ١٤٠٨هـ.

* إتحاف المؤمنين بتاريخ مسجد خاتم المرسلين - مصطفى بن محمد بن عبد الله بن العلوي الرافعي- المكتبة العلمية بالمدينة المنوره-١٤٠٤هـ.

* إتحاف الورى بأخبار أم القرى . النجم عمر بن محمد بن محمد بن فهد تحقيق فهيم محمد شلتوت جامعة أم القرى - مكة المكرمة ١٤٠٣هـ

* إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء - احمد بن على بن عبد القادر المقريزي- تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمي أحمد - المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، القاهرة ١٣٨٧هـ.

* الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، جمع ودراسة - د/صالح بن حامد بن سعد الرفاعي- مركز خدمة السنة والسيرة بالمدينة المنوره ١٤١٣هـ.

* أخبار مدينة الرسول (الدرة الثمينة) محمد بن محمود بن النجار البغدادي- تحقيق صالح بن محمد جمال - مكتبة الثقافة بمكة المكرمة ١٤١٠هـ.

* أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار - أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي - تحقيق رشدي الصالح ملحس - ط٣ دار الثقافة بيروت ١٣٩٩هـ.

* أخبار الوادي المبارك - محمد حسن شراب - دار التراث - المدينة المنوره

١٤٠٥هـ.

* أخبار الوافدين من الرجال على معاوية بن أبي سفيان - العباس بن بكار الضبي - تحقيق سكينة الشهابي. مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٤هـ.

* أخبار الوافدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان . العباس بن بكار الضبي تحقيق سكينة الشهابي. مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٣هـ.

* استشهاد الحسين لابن كثير ورأس الحسين لابن تيمية - اعداد وتقديم د محمد جميل غازي . دار المدني للنشر والتوزيع - جده . د ت

* الاستيعاب في أسماء الأصحاب - عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر - تحقيق طه المزيني - مكتبة الكليات الأزهريه - القاهره ١٣٩٧هـ.

* الإصابة في تمييز الصحابه - ابن حجر العسقلاني - تحقيق علي محمد البجاوي - دار نهضة مصر القاهره ١٩٧١م.

* الأصول في فضل ميدنة الرسول ﷺ - صلاح بن محمد كرنبه - ط١ دار القبلة- جده ١٤٠٩هـ.

* أضواء حول الاستراتيجية العسكريه للملك عبد العزيز وحروبه - العميد أح-محمد إبراهيم رحمو - دارة الملك عبد العزيز - الرياض ١٣٩٨هـ.

* أطلس المدينة المنوره- د-محمد شوقي مكي - ط١جامعة الملك سعود الرياض ١٤٠٥هـ.

* إعلام الساجد بأحكام المساجد - محمد بن عبد الله الزركشي - تحقيق الشيخ - أبي الوفا مصطفى المراغي - ط٢ القاهرة ١٤٠٢هـ.

* إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام.

* إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة -د.إبراهيم فوزان الفوزان المؤلف نفسه- الرياض ١٤٠١هـ.

* أمراء المدينة المنورة وحكامها من عهد النبوة حتى اليوم - أحمد ياسين - الخياري الأزهري - ط١ جده ١٣٨٢هـ.

* إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ - ابن حجر العسقلاني -ط٢-دائرة المعارف العثمانية بالهند - ودار الفكر ببيروت - ١٤٠٦هـ.

* إنباء المصر بأنباء العصر - علي بن داود الجوهري الصيرفي - دار الفكر - القاهرة ١٩٧١م.

* أنس الساري والسارب - محمد بن أحمد القليسي السراج - ط١- فاس ١٣٨٨هـ.

* أيام خالدة في طيبة الطيبة (وقائع زيارة جلالة الملك فهد بن عبد العزيز للمدينة المنوره عام ١٤٠٥هـ - الجامعة الإسلامية- المدينة المنوره ١٤٠٥هـ.

(ب)

* بحوث في تاريخ السنة المشرفة -د.أكرم ضياء العمري- المؤلف نفسه - ط٤ المدينة المنوره- ١٤٠٥هـ.

* البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع - محمد بن علي الشوكاني - مكتبة ابن تيميه - القاهرة د ت.

* بدائع الزهور في وقائع الدهور - محمد بن أحمد بن إياس الحنفي - تحقيق - محمد مصطفى - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٤٠٣هـ.

* البداية والنهاية - ابن كثير - تحقيق - د.أحمد أبو ملجم وزملاؤه- دار الريان للتراث- القاهره ١٤٠٨هـ.

* البرق اليماني في الفتح العثماني - قطب الدين محمد بن أحمد النهرواني الحكمي- اشراف حمد الجاسر - دار اليمامة - الرياض ١٣٨٧هـ.

(ت)

* تاريخ الإسلام - د حسن ابراهيم حسن - دار إحياء التراث العربي - ط٧-مكتبة النهضة- القاهرة ١٩٦٤م.

* التاريخ الإسلامي - محمود شاكر - ط٤ المكتب - الإسلامي- بيروت ١٤٠٥هـ.

* تاريخ بني إسرائيل من اسفارهم - محمد عزة دروزة -ط٢- المكتبة العصريه- بيروت ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

* تاريخ حضارة وادي الرافدين - د. أحمد سوسة - بغداد - د ت.

* تاريخ الخلفاء - السيوطي - تحقيق - قاسم الرفاعي ومحمد العثماني - دار القلم - بيروت ١٩٨٦م.

* تاريخ الدولة السعوديه الأولى - أمين سنعيد - دارة الملك عبد العزيز - الرياض د ت.

* تاريخ الدولة السعودية - مديحة أحمد درويش - دار الشروق -٠ جده ١٤٠٥هـ.

* تاريخ الدولة العلية العثمانية - محمد فريد -٠ تحقيق - إحسان حقي - دار النفائس - بيروت ١٤٠٣هـ.

* تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك - لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري - تحقيق - محمد أبو الفضل إبراهيم - ط٥ - دار المعارف - القاهرة ١٩٨٧م.

* تاريخ الجبرتي - عجائب الآثار في التراجم والأخبار - عبد الرحمن الجبرتي - دار الجيل - بيروت د ت.

* التاريخ العربي القديم - دنيف نيلسون - ترجمة د فؤاد حسين علي - مكتبة النهضة المصريه - القاهرة ١٩٥٨م.

* تاريخ قريش - د حسن مؤنس - الدار السعودية للنشر والتوزيع ١٤٠٨هـ.

* تاريخ المدينة المنورة - عمر بن شبه بن عبيدة بن ربطة النميري البصري - ط١٣٩٩هـ/١٩٧٩م - تحقيق - فهيم محمد شلتوت - الناشر - السيد حبيب محمود أحمد.

* تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً- أحمد ياسين أحمد الخياري - تعليق وايضاح - عبيد الله محمد أمين كردي - ط١ ١٤١٠هـ - نادي

المدينة المنورة الأدبي.

* تاريخ مكة - أحمد السباعي - ط٦ نادي مكة الثقافي - مكة المكرمة ١٤٠٦هـ.

* تاريخ ملوك آل سعود - تأليف سعود بن هزلول - تقديم وإشراف محمد العبودي- الرياض١٣٨٠هـ.

* تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها - صلاح الدين المختار - دار الحياة - بيروت - د ت.

* تاريخ اليعقوبي - دار صادر - بيروت د ت.

* تجارب الأمم - ابن مسكويه (أحمد بن يعقوب) - تحقيق - آمدروز - القاهرة ١٣٣٢هـ.

* تحفة الراكع والساجد في أحكام المساجد-تقي الدين أبي بكر زبير الجراعي الحنبلي-المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٠١/١٩٨١م.

* التحفة الشماء في تاريخ العين الزرقاء-أحمد ياسين الخياري-المدينة المنورة ١٤١٢هـ.

* التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة-محمد بن عبد الرحمن السخاوي-ط١-الناشر- أسعد طرابزوني الحسيني ١٣٩٩هـ.

* تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ماللمدنيين من الأنساب- عبد الرحمن الأنصاري-تحقيق-محمد العروسي المطوي ط١-المكتبة العتيقة-تونس ١٣٩٠هـ.

* التحفة الملوكية في الدولة التركية-بيبرس المنصوري-الدار المصريه اللبنانية - القاهرة ١٤٠٧هـ.

* تحفة النظار في غرائب الأمصار - رحلة ابن بطوطة - محمد بن عبد الله بن محمد - اللوائي الطنجي ابن بطوطة - ط١ ١٣٠٧هـ- دار الكتب العلمية- بيروت.

* التحفة الملوكية في الدولة التركية- بيبرس المنصوري- الدار المصرية اللبنانية - القاهرة ١٤٠٧هـ.

* تحقيق النصرة في تلخيص معالم دار الهجرة- زين الدين المراغي -ط٢ ١٤٠١هـ/١٩٨١م - تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعي - المكتبة العلمية - المدينة المنورة.

* تذكرة أولي النهي والعرفان بأيام الواحد الديان وذكر حوادث الزمان - إبراهيم ابن عبيد عبد المحسن - المؤلف نفسه - الرياض د ت.

* تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه - للمحسن بن عمر بن حبيب - تحقيق -د محمد محمد أمين -دار الكتب -القاهرة ١٩٧٦م.

* تراجم أعيان المدينة في القرن (١٢) هجري - المؤلف..-تحقيق-د محمد التونجي-مطبعة دار الشروق د ت.

* تطوير المنطقة المركزيه في المدينة المنورة - مجموعة بن لادن السعودية. المدينة المنوره١٤١٢هـ.

* التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة - محمد بن أحمد المطري- المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ١٤٠٢هـ.

* التعليم الأهلي في المدينة المنوره من ١٣٤٤-١٤٠٨هـ-دخيل الله عبد الله الحيدري - النادي الأدبي بالمدينة المنوره ١٤١٢هـ.

* التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثماني -د محمود عبد الرحمن الشامخ- دار العلوم- الرياض١٣٩٣هـ.

* التنبيه والإشراف- على بن الحسين المسعودي- تصحيح ومراجعة- عبد الله اسماعيل الصاوي- دار الصاوي للطباعة والنشر- القاهرة ١٣٥٧هـ.

* توسعة الحرم النبوي الشريف - هاشم دفتردار - جعفر فقيه- مطبعة الإنصاف - بيروت ١٣٧٣هـ.

(ج)

* جزيرة العرب في القرن العشرين - حافظ وهبة- ط٥- لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة١٣٨٧هـ.
* الجوهرة الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين-إبراهيم بن محمد ابن دقماق- تحقيق- سعد عبد الفتاح عاشور- جامعة أم القرى ١٤٠٣هـ.

(ح)

* الحجاز والدولة الإسلامية- د.إبراهيم بيضون - المؤسسة للدراسات والنشر والتوزيع- بيروت ١٤٠٣هـ.
* الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ - عبد العزيز إبراهيم العمري- ١٤٠٥/١٩٨٥م.
* الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه- د.محمد السيد الوكيل - دار المجتمع للنشر والتوزيع- جده ١٤٠٦هـ.
* الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام والحجاز - عبد الغني بن اسماعيل النابلسي - تقديم وإعداد - أحمد عبد المجيد هريدي- الرحلة ١١٠٥-١١٠٦- الهيئة العربية للكتاب- القاهرة ١٤٠٦هـ.
* الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام- نورة بنت عبد الملك بن ابراهيم آل الشيخ - تهامة - جدة ١٤٠٣هـ.

(خ)

* خطط المدينة المنورة - د.صالح أحمد العلي- طبعة مجلة العرب- الجزء الثاني عشر- السنة الأولى ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
* خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر- محمد بن أحمد بن فضل الله المحبي- المطبعة الوهبية- القاهرة ١٣٨٤هـ.
* خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام- أحمد زيني دحلان- مكتبة الكليات الأزهريه- القاهرة ١٣٩٧هـ.
* خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفى ﷺ - الإمام علي بن عبد الله بن

أحمد الحسيني السمهودي- المكتبة العلمية بالمدينة المنوره ١٣٩٢هـ.

(د)

* الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة- ابن حجر العسقلاني - تحقيق- محمد سعيد جاد الحق - دار الكتب الحديثة - القاهرة ١٣٨٥هـ.

* درر الفوائد المنتظمة - عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الأنصاري الجزيري- المكتبة السلفية - القاهرة ١٣٨٤هـ.

* الدرة الثمينة فيما لزائر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة نورها الله تعالى إلى يوم القيامة-الشيخ محمد بن عبد رب النبي المدني الدجاني الأنصاري الملقب بالقشاشي- ط١- مطبعة التقدم العلمية بمصر ١٣٢٦هـ.

* دلائل النبوة- لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي- تحقيق- د عبد المعطي قلعجي- دار الريان- القاهرة ١٤٠٨هـ.

* الدولة السعودية الثانية- د عبد الفتاح حسن ابو عليه- المؤلف نفسه- الرياض ١٩٧٤م.

* الدولة العثمانية وغرب الجزيرة العربية - نبيل عبد الحي رضوان - تهامه - جده ١٤٠٣هـ.

* دائرة المعارف الإسلامية - ترجمة - أحمد الشنتاوي وزملاؤه- دار الفكر- بيروت د ت.

(ذ)

* ذخائر المدينة المنورة - محمد سعيد دفتردار - مطبعة الإنصاف - بيروت - ١٣٩٠هـ.

* ذكريات طيبة - هاشم محمد سعيد دفتردار- مكتبة فقيه بالمدينة المنورة ١٣٧٠هـ.

* ذكريات العهود الثلاثة- محمد حسين زيدان- المؤلف نفسه - الرياض ١٤٠٨/١٩٨٨م.

❊ الذيل على الروضتين- أبو شامة المقدسي- مكتبة نشر الثقافة الإسلامية- القاهرة١٣٦٦هـ.

❊ الذيل على العبر في أخبار من غبر - أحمد بن عبد الرحيم الراقي- تحقيق صالح مهدي عباس - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٩هـ.

❊ ذيول العبر في خبر من غبر- الذهبي - تحقيق - أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول- دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٥هـ.

(ر)

❊ رحلة ابن بطوطة (المسماه - تحفة الأنظار في غرائب الأمصار) - شرح وهوامش - طلال حرب - دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠٧هـ.

❊ رحلة ابن جبير- محمد بن أحمد بن جبير- دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ.

❊ الرحلة إلى المدينة المنورة- الشيخ محمود ياسين- الناشر- المحقق نفسه- ط١- ١٤٠٧/١٩٨٧م.

❊ الرحلة الحجازية-محمد لبيب البنتوني- ط٣- مكتبة المعارف- الطائف د ت.

❊ الرحلة الحجازية- محمد السنوسي- تحقيق- على الشنوفي- الشركة التونسية للتوزيع- تونس ١٣٩٦هـ.

❊ الرحلة النميرية الحجازيةفي ١٣٣٨هـ إلى ١٩٢٠م- محمد بهجة البيطار- المطبعة الجديدة- دمشق ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

❊ رسائل في تاريخ المدينة- تحقيق- حمد الجاسر-ط١- دار اليمامة- الرياض ١٣٩٢هـ.

❊ الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية- عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهلي- تحقيق عبد الرحمن الوكيل- دار الكتب الحديثة- القاهرة ١٩٧٣م.

❊ الروضتين في أخبار الدولتين - أبو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل بن

ابراهيم المقدسي- دار الجيل- بيروت د ت.

(ز)

* زاد المعاد في هدي خير العباد- لابن قيم الجوزية - تحقيق - شعيب وعبد القادر الأرناؤوط- مؤسسة الرسالة- بيروت ١٤٠٧هـ.

(س)

* سعد بن الربيع الأنصاري النقيب الشهيد - محمد على كاتبي- سللة اعلام المسلمين- دار القلم - دمشق ١٤١٢هـ.

* سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل- عبد الملك بن الحسن العصامي- المكتبة السلفية - القاهرة ١٣٧٩هـ.

* سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب- محمد أمين البغدادي السويدي- دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠٦هـ.

* سكة حديد الحجاز الحديدية (دراسة وثائقيه) د.محمد سيد الدقن- المؤلف نفسه- القاهرة ١٤٠٥هـ.

* سكان المدينة المنورة- محمد شوقي بن ابراهيم مكي- ط١-١٤٠٥/١٩٨٥م- دار العلوم للطباعة والنشر- الرياض.

* سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر- محمد خليل المرادي- القاهرة ١٣٠١هـ.

* السلوك لمعرفة دول الملوك- احمد بن على المقريزي- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر- القاهرة د ت.

* سنا البرق الشامي- الفتح بن علي البغدادي الأصفهاني- تحقيق- فتحية النبراوي- مكتبة الخانجي- القاهرة١٩٧٩م.

* سير أعلام النبلاء- محمد بن أحمدبن عثمان الذهبي- تحقيق- إبراهيم الأبياري- دار المعارف- مصر١٩٧٥م.

* السيرة النبوية- لابن هشام- دار الريان للتراث - القاهرة ١٤٠٨هـ.

* سياسة الفاطميين الخارجية- محمد جمال الدين سرور- دار الفكر العربي- القاهرة ١٣٤٦هـ.
* سؤال في يزيد بن معاوية لشيخ الإسلام أحمد بن تيميه- تحقيق د صلاح الدين المنجد. ط٣- دار الكتاب الجديد- بيروت ١٤٠٥هـ.

(ش)

* شبه الجزيرة العربيه- جودة حسين جودة- دار المعرفة الجامعية- الاسكندريه ١٩٨٩م.
* شذرات الذهب في أخبار من ذهب- أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي- دار الفكر- بيروت ١٣٩٩هـ.
* الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري- د. عائض الردادي- المؤلف نفسه- الرياض ١٤٠٤هـ.
* شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام- تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي- مكتبة النهضة الحديثة- مكة المكرمة ١٩٥٦م.

(ص)

* صحيح سنن ابن ماجه باختصار السند- محمد ناصر الدين الألباني- مكتب التربية العربي لدول الخليج- الرياض ١٤٠٨هـ.
* صحيح مسلم - بشرح النووي- دار الريان للتراث- القاهرة ١٤٠٧هـ.
* صور وذكريات عن المدينة المنورة- عثمان حافظ -ط١- نادي المدينة المنوره الأدبي ١٤٠٣/١٩٨٣م.

(ض)

* الضوء اللامع لأهل القرن التاسع- شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن عثمان السخاوي - مكتبة الحياة- بيروت د ت.

(ط)

* الطبقات الكبرى- لابن سعد- دار الفكر- بيروت د ت.

❊ الطريق إلى المدينة - أبو الحسن على الحسني الندوي- ط١- ١٣٨٥/١٩٦٥م- المجمع الإسلامي العلمي -لكنو- الهند- ط٢- ١٤٠٧/٨٧

❊ طيبة في عيون فنان تشكيلي- فؤاد مغربل- النادي الأدبي ف. المنوره-١٤٠٩هـ.

❊ طيبة وفنها الرفيع- حاتم عمر طه- ط١- ١٤٠٤هـ - منشورات النادي الأدبي بالمدينة المنورة.

(ع)

❊ العبر في خبر من غبر- الحافظ الذهبي- تحقيق- أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول- دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠٥هـ.

❊ العرب واليهود في التاريخ- د.أحمد سوسة- مكتبة العربي للإعلام والنشر- دمشق ١٩٧٣م.

❊ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين- تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني الفاسي المكي- تحقيق- فؤاد سيد- مكتبة السنة المحمدية- القاهرة ١٣٨٥هـ.

❊ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان- بدر الدين محمود العينى- تحقيق د محمد محمد أمين- الهيئة المصرية العامه للكتاب- القاهرة ١٤٠٧هـ.

❊ عمدة الأخبار في مدينة المختار- الشيخ أحمد بن عبد الحميد العباسي- ط٤- الناشر أسعد طرابزوني الحسيني- توزيع المكتبة العلمية بالمدينة المنورة-د ت.

❊ عنوان النجابة في معرفة من مات بالمدينة من مشاهير الصحابة- مصطفى بن محمد بن عبد الله العلوي الرافعي- ط١ المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ١٤٠٤هـ.

❊ عارف حكمة- حياته ومآثره- شهاب الدين الألوسي - تحقيق- د محمد العيد الخطراوي- مكتبة دار التراث - المدينة المنورة ١٤٠٣هـ.

* العواصم من القواصم- القاضي أبو بكر بن العربي- تحقيق محب الدين الخطيب. بيروت د ت.

(غ)

* غاية الأماني في اخبار القطر اليماني- يحي بن الحسين بن محمد بن علي- تحقيق- سعيد عبد الفتاح عاشور- دار الكتاب العربي- القاهرة ١٣٨٨هـ.
* غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام- عز الدين عبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد الهاشمي القريشي- تحقيق- فهيم محمد شلتوت- جامعة أم القرى- مكة المكرمة د ت.

(ف)

* فتح الباري في شرح صحيح البخاري- ابن حجر العسقلاني- مراجعة قصي محب الدين الخطيب- دار الريان للتراث- القاهرة ١٤٠٧هـ.
* الفتح القسي في الفتح القدسي- العماد الأصفهاني- تحقيق محمد محمود صبيح- الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة د ت.
* فترة التأسيس الدولة السعودية المعاصرة- عبد الله بن محمد الشهيل- دار الوطن للنشر والإعلام- الرياض ١٤٠٤هـ.
* فصول من تاريخ المدينة المنورة- على حافظ - شركة المدينة للطباعة والنشر ١٤٠٦هـ.
* فضائل المدينة المنورة- لأبي سعيد المفضل بن محمد بن إبراهيم الجنيدي اليمني المكي-ط١-١٤١٠هـ-مكتبة دار التراث بالمدينة المنورة ١٤٠١هـ.
* الفلاحة المدنية لبلدة خير البرية- إبراهيم بن أحمد حمدي خربوتي المدني- تحقيق- أديب عمر الحصري- دار الارشاد الزراعي- المدينة المنورة ١٤٠٩هـ.
* فوات الوفيات - صلاح الدين محمد بن شاكر الدراني- تحقيق- محي الدين عبد الحميد- مكتبة النهضة- القاهرة ١٩٥١م.

(ق)

* القبة الخضراء (مسجد رسول الله ﷺ)- الشريف أحمد محمد صالح الحسيني- المدينة المنورة د.ت.
* قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية- د.سليمان بن محمد الغنام. تهامة- جده ١٤٠٠هـ.
* قصة الحضارة- ول ديورانت - ترجمة د.زكي نجيب محمود- دار الجيل- بيروت ١٤٠٨هـ.
* قلب جزيرة العرب- فؤاد حمزة- المكتبة السلفية- القاهرة١٣٥٢هـ.

(ك)

* كتاب الدر الثمين في معالم الرسول الأمين ﷺ- غالي محمد الأمين الشنقيطي- إدارة إحياء التراث الإسلامي- قطر ١٤٠٨هـ.
* كتاب المغازي- الواقدي- تحقيق د.مارسدن جونسن- ط٣- عالم الكتب- بيروت ١٤٠٤/ ١٩٨٤م.
* كتاب نسب قريش- المصعب الزبيري- تحقيق- ليفي بروفنسال- ط٣- دار المعارف- القاهرة ١٩٨٢م.
* الكواكب الدرية في السيرة النبوية- ابن قاضي شهبة- بدر الدين محمد بن أبي بكر- تحقيق- محمود زايد- دار الكتاب الجديد- بيروت ١٩٧١م.
* الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة-نجم الدين محمد بن أحمد الغزي- تحقيق- جبريل سليمان جبور- دار الآفاق - بيروت ١٩٧٩م.
* الكامل في التاريخ - عز الدين بن الأثير الجزري- ط٦-دار الريان للتراث- القاهرة ١٤٠٦هـ.

(م)

* مجتمع الحجاز في العصر الأموي- عبد الله الخلف- رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية اللغة العربية بجامعة الإمام بن سعود الإسلامية- الرياض

١٤٠٧هـ.
* المجتمع المدني في عهد النبوة- الجهاد ضد المشركين- د.أكرم ضياء العمري -ط١- المؤلف نفسه ١٤٠٤هـ.
* مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ د. عبد العزيز بن إدريس - ط١- جامعة الملك سعود- الرياض ١٤٠٢هـ.
* مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة - محمد حميد الله- ط٦- دار النفائس- بيروت ١٤٠٧هـ.
* مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنوره- د محمد عيد الخطراوي - دار التراث- المدينة ١٤١١هـ.
* المدرسة الناصرية بالمدينة المنورة- وزارة المعارف- مركز المعلومات الإحصائية والتوثيق التربوي بوزارة المعارف ١٣٩٤هـ.
* المدينة في العصر الأموي- محمد محمد حسن شراب- ط١-دار التراث بالمدينة المنورة- مؤسسة علوم القرآن - بيروت - دمشق ١٤٠٤هـ.
* المدينة في العصر الأيوبي- عائشة بوقاسي - نادي مكة المكرمة الثقافي ١٤٠٠هـ.
* المدينة في العصر الجاهلي- الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية- محمد العيد الخطراوي -ط١- مؤسسة علوم القرآن- دمشق.
* المدينة في العصر الجاهلي- الحياة الأدبية- محمد العيد الخطراوي-ط١-دار التراث المدينة المنوره- مؤسسة علوم القرآن- بيروت- دمشق ١٤٠٣هـ.
* المدينة المنورة-اقتصاديات- المكان- السكان- المورفولوجية- د عمر فاروق- السيد رجب -ط١- دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة جدة ١٣٩٩هـ.
* المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ- د عاصم حمدان على حمدان- النادي الأدبي بالمدينة المنورة ١٤١٢هـ.

* المدينة المنورة بين الماضي والحاضر- إبراهيم بن على العياشي- ط١- المكتبة العلمية- المدينة المنورة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
* المدينة المنورة-تطورها العمراني- تراثها المعماري- صالح لمعي مصطفى- ط١-دار النهضة العربية بيروت ١٤٠١هـ.
* المدينة المنورة-دراسة سكانية - د.عمر الفاروق السعيد (السيد رجب) بحوث المؤتمر الجغرافي الأول- المجلد الخامس- أشرف على طباعته- إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الراض.
* المدينة المنوره عبر التاريخ الإسلامي- الشريف أحمد محمد صالح الحسيني- ط٢- مكتبة دار العروبة - الكويت ١٤٠١هـ.
* المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى- د.محمد السيد الوكيل -ط١-دار المجتمع للنشر والتوزيع- جده١٤٠٦هـ.
* المدينة في التاريخ- عبد السلام هاشم حافظ-ط٣- منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي ١٤٠٢هـ.
* المدينة المنورة في رحلة العياشي- دراسة وتحقيق- محمد أمحزون- ط١- ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
* المدينة المنورة في صدر الإسلام- د.محمد العيد الخطراوي- ط١- مكتبة دار التراث بالمدينة المنورة- ومؤسسة علوم القرآن - بيروت - دمشق ١٤٠٤هـ.
* المدينة المنورة وأول بلدية في بلاد الإسلام- صدقة حسن خاشقجي- ومحمد عبد الجليل النمر- بلدية المدينة المنورة.
* المدينة المنورة اليوم- محمد صالح البليهشي -ط١- من منشورات النادي الأدبي بالمدينة المنورة.
* مرآة جزيرة العرب (ج١/٢) - أيوب صبري باشا- ط١- دار الرياض للنشر والتوزيع- الرياض ١٤٠٣/١٩٨٣م- ترجمة وتعليق د.أحمد فؤاد متولي

ود.الصفصافي أحمد المرسي.
* مرآة الحرمين - اللواء إبراهيم رفعت باشا- ط١- دار الكتب المصريه- القاهرة ١٣٤٤/١٩٢٥م.
* المسجد النبوي عبر التاريخ- د.محمد السيد الوكيل - موسوعة المدينة المنورة التاريخيه/٤-دار المجتمع للنشر والتوزيع ١٤٠٩هـ.
* مسالك الأبصار في ممالك الأمصار- محمد الكرماني بن فضل الله العمري- تحقيق د.أحمد زكي- دار الكتب المصريه- القاهرة ١٣٤٢هـ.
* مصر في عهد الإخشيديين- د.سيدة اسماعيل الكاشف- دار النهضة - القاهرة ١٩٧٠م.
* مصادر تاريخ جزيرة العرب- مجموعة من الباحثين - جامعة الملك سعود - الرياض ١٣٩٩هـ. (بحوث الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربيه).
* معاوية بن أبي سفيان صحابي كبير وملك مجاهد- منير محمد الغضبان. دار القلم - دمشق ١٤٠٠هـ.
* معجزة فوق الرمال - المؤلف نفسه - بيروت ١٣٩٢/١٩٧٢م.
* معجم البلدان - ياقوت الحمودي - دار الفكر - بيروت د.ت.
* معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عمر رضا كحالة- ط٥- مؤسسة الرسالة- بيروت ١٤٠٥هـ.
* معجم معالم الحجاز- عاتق بن غيث البلادي- نادي الطائف الأدبي-١٣٩٨هـ.
* المعالم الأثيرة في السنة والسيرة- محمد محمد حسن شراب - دار العلم - دمشق ١٤١١هـ.
* معالم دار الهجرة- يوسف عبد الرزاق- ط٢- المكتبة العلمية- المدينة المنورة ١٤٠١هـ.
* المغانم المطابة في معالم طابة- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز

آبادي- ط١- تحقيق- حمد الجاسر- دار اليمامه- الرياض ١٣٩٨هـ.

* المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام- د.جواد علي- دار العلم للملايين- بيروت ١٣٧٦هـ.

* مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد) - حمد الجاسر- دار الرفاعي للنشر- الرياض ١٤٠٤هـ.

* مقاتل الطالبين- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ- د.أحمد إبراهيم بركات- دار الفكر العربي ١٩٦٥م.

* مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري- سنولا هورخونية - ترجمة محمد بن السرياني وآخرون- نادي مكة الثقافي الأدبي ١٤١١هـ.

* ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري- محمد على مغربي- تهامة- جدة ١٤٠٢هـ.

* مملكة الحجاز - طالب محمد وهيم- مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ١٩٨٨م.

* المنتظم- عبد الرحمن بن علي الجوزي- تحقيق- محمد عبد الوهاب فضل- دار الأمان- القاهرة ١٤٠٥هـ.

* من نفحات طيبة- على الطنطاوي- دار الفكر- دمشق ١٣٨٩هـ/١٩٦٠م.

* المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي- يوسف بن تغري بردي الأثابكي- تحقيق د.محمد محمد أمين - و د.سعيد عبد الفتاح عاشور- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة ١٩٨٤م.

* موارد الخطيب البغدادي- د.أكرم ضياء العمري- دار القلم- دمشق١٣٩٥هـ.

* ماضي الحجاز وحاضره- حسن محمد نصيف -ط١-القاهرة ١٣٤٩هـ.

(ن)

* نثر الدر - للوزير الكاتب - منصور بن حسين الأدبي- تحقيق- محمد على قرنه- الهيئة المصرية العامه للكتاب- القاهرة د.ت.

* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة- جمال الدين ابو المحاسن بن تغري بردي- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٣٨٣هـ.
* نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان - للخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي- تحقيق -د حسن حبشي- دار الكتب- القاهرة١٩٧٠م.
* نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين- السيد جعفر بن السيد اسماعيل المدني البرزنجي-ط١-المطبعة الجمالية- مصر.
* نهاية الأدب في فنون الأدب- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري- الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة د ت.

(و)

* الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي- د محمد ماهر حمادة- مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٧٤م.
* الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول- د محمد ماهر حمادة- ط ع-مؤسسة الرسالة- بيروت ١٤٠٩هـ.
* الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتالية د محمد ماهر حمادة ط٣ مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٦هـ.
* الوثائق السياسية والادارية لعهود الفاطميين والأتابكة والأيوبيين -د محمد ماهر حماده- مؤسسة الرسالة- بيروت ١٤٠٠هـ.
* وثائق شبه الجزيرة العربيه.
* الوثائق العثمانية- دارة الملك عبد العزيز- الرياض.
* وفيات الأعيان - ابن خلكان- تحقيق- محمد محي الدين عبد الحميد- مكتبة النهضة- القاهرة ١٣٦٧هت.
* وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى- نور الدين على بن عبد الله السمهودي- تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد -ط٤- دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

* ولاة مصر - محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي - تحقيق - د حسين نصار- دار صادر- بيروت ١٣٧٩هـ.

(ي)

* يثرب قبل الإسلام- د محمد السيد الوكيل- ط١- دار المجتمع للنر والتوزيع- جده ١٤٠٦هـ.

* اليمن الخضراء ومهد الحضارة - محمد بن علي الحوالي - القاهرة ١٣٩١هـ.